
S.D
على مفترق عشق
سلسلة 3
قلوب حررها العشق
صابرين الديب

على مفترق عشق

رواية

الجزء الثالث

سلسلة قلوب حررها العشق

جروب حلم-هن

ولنا مع الحرف حلم..

للانضمام للحلم

جروب حلم-هن

بقلم

صابرين الديب

تصميم غلاف وداخلي وتنسيق

صابرين الديب

شكر خاص

الاستشارات القانونية

الأستاذة/ نادية فتحي الأبلق

الاستشارات الطبية

دكتورة/ إيناس عادل

دكتورة/ رانا حسن

الفتوى

دارالإفتاء المصرية

إهداء

انظر ما بعد الخاتمة..

مهلًا..

أرى أناملك تقفز بلهفة نحو الصفحة الأخيرة..

نصيحة..

لا تتخلَ عن رونق البدايات باختلاس نظرة؛ كيف ستكون النهاية!..

كلمة الكاتبة

قارئي العزيز..

قارئي المبتدئ..

قارئي المخضرم..

دعني أخبرك.. في كل رواية أترك قطعة من روحي، أحرر أفكاري وأعتصر عقلي بحثًا عما يرضيني ويرضيك..

في كل رواية أترك فيضًا من نزف مشاعري..

وعلى مدارسِت روايات طويلة لم تستنزف واحدة كل طاقتي كهاته التي بين يديك..

تعايشت مع أبطالها حد الألم.. حد الاختناق بمخاوفهم وأوجاعهم، حد التشبث بالأمل للرمق الأخير..

أنا لا أطالبك بالوصول لذات الإحساس..

لكن فضلًا، حطم جدارك وتحرر من أغلالك ومنظور زاويتك الخاصة التي ترى العالم من خلالها..

تحرر من كل القيود واكسر الأصفاد..

لا تخضع لحدود محيطك وحسب..

بل حلق معي..

انظر بعيني لا بعينك المجردة..

ثم عُد لأرض الواقع ولو بخبرة صغيرة تتذكرني بها..

صابرين الديب

وعلى أبواب القلوب المغلقة..

عُلِقت لافتة..

ممنوع الاقتراب أو العشق!..

المقدمة

في كل قرار وجب علينا أن نتخذه هنالك خيارات..

قد تكون محدودة نشعر معها أننا مكبلون عاجزون عن انتقاء الأصلح..

وقد تكون لا نهائية تشعرنا بعجز من نوع آخر..

أننا خسرنا شيئًا ربما لو كان قرارنا ذاك مختلفا لفزنا به!..

أما في العشق..

فلذة الشعور بحضوره كافية لأن تخوض غماره بجهل وأيضا بطيش ورعونة..

تلك اللذة التي تخذر الحس وتُذهب العقل كنبيذ قديم معتق قوي التأثير يفقدك الوعي من أول رشفة..

لذة ربما تحمل بين طياتها خوف أو ندم أو خسارة.. دون أن ننسى أن بين ثناياها كذلك قطرات من سعادة لا نشعر بها إلا لمامًا..

فالعشق وجع..

وأمامه الكل في الغالب يجبن، لكن روح المغامرة تدفع دفعًا للغوص في لجة بحره العميقة والغرق فيها.. فقط لنستشعر لذة من نوع آخر..

لذة القرب!..

ومادمت قد وقفت عند ذاك القرار.. المفترق الذي بعده إما يمين أو يسار وربما استمرار في طريق آخر محفوف بالمخاطر؛ فلابد أن تصل بك خطواتك لنهاية الدرب..

نهاية درب العشق.. أو بدايته!..

شئنا أم أبينا دومًا ما يضعنا القدر أمام مفترق..

بمواجهة الخيار..

الحب..

اللا حب..

نُقدِم..

نجبن..

نكِر أو نفِر..

نحارب.. فننهزم أو ننتصر..

والغنيمة قلب!..

فقط.. على مفترق العشق..

لا بديل عن الحرب..

صندوق البدايات دومًا مغلق بحذر..

عليه قفلٌ من شغف..

وختمه موسوم بالفضول..

أما تلك الفُتحة التي تصطنعها أصابعك فيه بعمدٍ ولهفةٍ..

فهي ليست إلا مفتاحٍ لباب.. ربما لو علمت الغيب لاخترته موصدًا!..

لكل أنثى هالتها الخاصة، كما لكل رجل عينان تجيدان انتقاء الهالة التي تجذبه.. وبعضهم؛ يحتار فيقرر قطف زهرة من كل بستان.. أو على الأقل تشمم عبيرها وملامسة بتلاتها الندية دون امتلاك!..

هالة تلك السمراء طغت بمجال نظره على كل أخرى.. وللدقة محت لغيرها كل أثر، فباتت مقلتاه أسيرتا سجنها ولم يكلف نفسه بعدها عناء البحث عن حرية..

إن القيد ممتع، للخنوع له لذة.. وفخ الهوى مطبق بلا خلاص..

ذهبية هي كسنابل القمح، بعيون لوزية ناعسة تقهر سكونها نظرة متحدية عنيدة، طول متوسط وجسد نحيف تأمله بتمهلٍ وازى ابتسامة ماكرة فوق شفتيه.. فالامتلاء في أماكنه الصحيحة تمامًا..

تتقافز كطفلة تشجع الصديق المشترك، وضربة فاز بها جعلتها تصرخ باسمه في حماس قطعه هو باقتراب وهمسة أبحة تحمل اسمها:

- ملك!..

رجفة سرت في خلاياها بسرعة تتبعها التفاتة ولقاء بموج بحره داكن الزُرقة، يتفحص، يراقب ويبتسم فتبتسم وترحب وتتراجع ناسية أنها بين

مقاعد المتفرجين فتكاد تسقط لولا ذراعه الداعم لساعدها بتشبث فجر خجلها:

- يوسف!.. حمد الله على السلامة.. جيت إمتى؟..

ساندها لتعتدل وابتعدت أنامله عنها بعسر فهو يدرك أن شغف اللمسة غير مباح:

- يادوب من ساعتين، طنط جمانة قالت لي إن ياسين عنده مباراة مهمة وإنك معاه..

وصمت لحظة بتفكير ساخر أردف بعدها بشيء من تهكم شاب نبرته:

- معاه طبعًا.. فقلت آجي أشجع وأشوفك..

ابتسمت دون تكلف مشيرة للاعبها المفضل:

- أيوة.. وهيفوز إن شاء الله يلا شجعه معايا..

منح الوسيم نظرة ولم يتوقع أنه رآه وسط معمعة مباراته ومن خلف قناعه!..

لقد خسر نقطة ونال هو لفتة أثناء الاستعداد لاستكمال النزال، أشار بتحية والآخر تجاهلها، شعر بنشوة نصر، فهو يجاور الأميرة..

وهي تشجع بنزاهة وإخلاص..

والبعيد سيفقد رصيده كله حتمًا..

***

أحيانًا تنتهي مباراة.. ليبدأ بعدها نزال أقوى!..

فعندما توقن من النصر في حرب لم تُكتب لها خاتمة بعد؛ تخطو فوق أرض المعركة بنشوة تزهو بعروقك رغم أن الفوز فعليًا ليس لك.. والغنيمة ليست حقًا ملك يمينك..

وربما تكون تلك سقطة تبدو بعدها الخسارة على مرمى البصر.. بل كأقرب ما يكون!..

خسارة تمثلت في لهفة!..

خجل!..

نظرة عين يفهمها جيدًا، فهي تملأ ما بين جفنيه نحوها بكل وقت!..

قرب وهمس وحتى هروب مفتعل!..

راقبها تتجه نحو ذلك القادم الجديد بخطوات ظهرت لناظريه غير مفهومة، فلا هي تسرع شوقًا، ولا تبطئ دلالًا.. بل بدت كأنما تتجه فقط..

نحو القدر..

والغريب استقبلها بذات العين والنظرة واللهفة والبسمة التي غمرت شفتيه بجاذبية تضاعف لها حنقه..

وقف بمكانه كتمثال من حجر، لا يتنفس.. لا يرمش.. لا يهدر قلبه بنبض..

بعدها الهمسة القاصمة جرحت مسامعه من منافسه القديم في حرب لاحت بها الهزيمة بحق بعد انتهاء مباراته بفوز اعتاده:

- المرة دي أنت مش قد المنافسة يا جو.. لأن واضح إن الطرف التالت فاز بقلبها وبجدارة..

التفت إليه بحدة غاضبة ليراه يتابعها مثله بينما يمسك بقناعه أسفل ذراعه ويستند بطرف سيفه للأرض، رمقه بغيرة جلية تجاهلها وهو يسخر ببسمة مهزومة لامسها حزن:

- ما تزعلش.. حسيت الاحساس ده قبلك، ما أنت ما كنتش هنا عشان تتابع ميلاد قصة الحب..

- ياسين.. لاحظ أنك بتتكلم على بنت عمي كأنها لعبة بنتراهن عليها..

السخط غلف صوته وهو ينهره لكن المراقب الآخر ذبُلت بسمته فوق شفتيه ببطء وعيناه لا تحيدان عن فتاة قلبه تنظر لآخر بعشق:

- لأ.. كأنها المنتهى اللي كنا بنحلم ننتهي معاه..

أوجعته الكلمة.. قبضت قلبه ليتوجه نحوها مناديًا باسمها.. نداؤه جعلها تلتفت بدهشة فصوته وضح به الحنق، جاورها بحمائية وود لو أخفاها خلف ظهره:

- مش تعرفينا!..

ابتسمت بحرج، رأى ارتباك وتوتر الحب فيه فانعقد حاجباه:

- نزار غالي.. وشيراز أخته..

وهو لم يرَ سوى هذا الـ"نزار".. وإثر تقديمه استدارت لذلك الناظر تجاه غريم متوقع بعين ضيقة تتفرس فيه كأنما يقيم خصمه أو يخبره ببساطة أن يتنحى قبل بدء النزال:

- دكتور يوسف الحسيني ابن عمي..

أتمت التعارف..

وبدأت القصة!..

***

بين جدران الزنازين؛ أمامك خياران..

إما أن تميت قلبك وضميرك بصحبة إنسانيتك.. أو تموت أنت..

وأي منهما لم يكن متاحًا له لاختياره، فإن كان قد ظلم نفسه فضيعها لن يعيد تكرار البغي عليها بقتل ما تبقى فيها من نوازع آدمية..

أن يموت هو؛ ربما يكون الخيار السهل رغم قسوته..

لكن ما لم يكن في حسبانه، أن حياته لها ثمن.. ودفعه بنفسه دون أن يدري..

تحركت كفها فوق كتفه برفق تنتزعه من شروده في رقة:

- برده بتفكر في أيام السجن!..

ابتسم بشجن ومد يده يحتضن بها يدها، يجذبها لتجلس قربه:

- مش بإيدي أمنع الذكرى..

تأملته كأنما يمثل لها دنياها بأكملها وهو يفعل:

- إفتكر حاجة فرحت ده..

ووضعت يدها فوق موطن نابضه، عاد يمسك بأناملها ويجذبها لشفتيه، يطبع في باطنها دفء قبلة وبعينيه يحيطها قبل همس يُقربهِ واقعًا:

- أنتِ اللي بتفرحي ده..

ابتسمت له..

في زمن ما كان ينشد فرصة ثانية ولم يحصل عليها بسهولة؛ الكل حينها اتحد في مواجهة ضده حتى قدره وماضيه المظلم.. وفي وقت ما تمنتها هي أيضًا فأتاها هو بها.. على طبق من عشق..

طوقته بنظرة عاشقة، تتأمل ملامحه بعدما خط عليها الزمن تجاعيده دون أن يفقدها قوتها أو عنفوانها ووسامتها.. نظرته الرمادية الغائمة التي دومًا ما جذبتها بغموضها قبل أن تحاصرها بفخ هوى لم يكن لها منه مهربًا..

وشردت هي الأخرى، عادت ليوم اعترف لها به دون تصريح واضح، اعترف بلغة غير منطوقة لكنها مفهومة جلية بلا سبب محدد، وقتما قررت أن البداية لن تكون سهلة حتى لو قاومت حد الرمق الأخير..

شردت بنبرته وحديثه واقتحامه لقلبها دون تردد!..

"أنا قبل كده منحتك حرية الاختيار والوقت اللازم لاتخاذ القرار.. وأكتر من مرة"..

حينها ارتبكت..

وذاك الارتباك جديد عليها، جديد للغاية مع تغير نظرته نحوها وتلك المشاعر التي لا تخفى عن عينيها بها، مشاعر وُلدت لا تدري متى أو لماذا بشكل باغتها!.. لكنها كما تدلل أنوثتها؛ تخيفها حد الرعب والهلع..

هي امرأة سقطت وتبعات سقوطها هشاشة روح لم تعد تحتمل ضربات الألم أو مخاوف الغد!..

هي امرأة العشق لم يعد بقاموسها..

وأمامه ستجبن عن الخيار مرة تلو مرة..

لكن من قال أنه سيصمت انتظارًا!.. من أخبرها أن صبره سيطول أكثر!.. فقد بدأ حصاره لها للتو..

وفي عالم "الكوبرا" النصر دومًا هو نهاية بعدها بداية أخرى يرسي قواعدها بنفسه:

- المرة دي مش هاتنازل.. مش هاقف ورا الستار أو أتراجع للخطوط الخلفية وأكتفي بدور المتفرج عشان تحسي بحريتك..

ولم يقترب خطوة بنفسه..

حافظ على المسافة بينهما كعادته، لكن صوته.. عمق نبرته، غموض نظرته وقوة لغة جسده كانت أكثر من كافية لتشعرها أنه يكاد يهمس بأذنها:

- المرة دي هاقتحم الجبهة وأقف على خط النار.. وهاحارب..

ضاقت عيناه بلمعة وتحرك جانب فمه بشبه بسمة واثقة:

- وأفوز.

وبالفعل فازوانتصر..

هزم مخاوفها..

هدم قلاع شكوكها..

حاصر مشاعرها..

وامتلكها بعدما خضع القلب وتعلقت به الروح..

تحركت في جلستها تلقي برأسها فوق كتفه، تسحب كفه لتبادله قبلة باطنها وتضمها بين يديها بصمت.. صمت قطعته جلبة آتية من ثمرة ذاك العشق وهي تقتحم منتصف الجلسة وتحشر جسدها بين والديها بشقاوة:

- الله الله.. حب كده وهيام في وضح النهار!..

فور مناوشتها العابثة بصوت مرح ارتسمت البسمة فوق شفتي أبويها، تراجعت أمها مسافة صغيرة تفسح لها بينما تأخذ مكانها وتندس بين ذراعي أبيها، تقبل وجنته وتهمس بغيرة مفتعلة:

- فهد بيه أنا بغيروأنت عارف..

ضحكة خافتة صدرت عنه وهو يلثم خصلاتها الشيكولاتية القصيرة بتنهيدة:

- جاهزة للأسبوع اللي جاي؟..

ابتعدت قليلًا وشمخت برأسها وكتفيها:

- أنت عندك شك في كده؟!..

قرصت والدتها وجنتها:

- طيب بطلي كسل وانزلي شوفي ناقصك إيه!..

هزت رأسها وهي تنتزع وجهها من بين أصابع الأم:

- يا دودو.. من غير فرمانات.. مولي هتعدي عليَّ بكرة وهنخلص كل اللي ورانا..

ابتسمت "دينا" بحنو بينما ترقب ملامح ابنتها التي تشبهها كثيرًا غير أنها اقتنصت من أبيها غيومه الثائرة وتمرده وقوته.. مالت تساوي خصلاتها برفق:

- من غير أفورة..

هزت رأسها بطاعة لذيذة:

- عيب يا دودو.. أنتِ عارفة غرام الراجي..

ونهضت تنحني بمكر محبب ونبرتها تكرر جملة من إعلان قديم:

- الشيء لزوم الشيء..

ثم تحركت خطواتها مبتعدة بحيوية تغادر حديقة المنزل نحو بوابته الداخلية، أناملها تداعب شاشة هاتفها بتأكيد اتفاق مبرم مسبقًا مع صديقتها..

فعالمها الجديد على وشك البدء..

وهي تعلم عن يقين أنها قدر خوض تلك المغامرة!..

***

البدايات قد تكون عظيمة لكنها لا تقود بالتبعية لنهايات أعظم!

وقد تكون بسيطة، اعتيادية ومكررة، كيوم دراسي جامعي أول وفتاة تنبض بالحياة، تتألق فوق ملامحها الرغبة في اقتحامها وإثبات نفسها فوق قمة هرمها، تنطلق بجموح نحو المجهول لكنها لا تخافه..

بل تتحداه وبعنفوان..

أمسكت صديقتها بكفها وبها رعشة:

- روما أنا خايفة قوي..

قبضت على يدها بقوة كأنما تبثها شيئًا من ثباتها:

- خايفة من إيه بس يا أمل!.. دي جامعة ودول طلبة زينا مش وحوش يعني.

تلفتت الصديقة حولها بتوتر الجاهل وسط مكان يزوره لأول مرة:

- أيوة.. بس كتير قوي وناس أول مرة نشوفهم، ودراسة جديدة ومسئولية..

جذبت وجهها نحوها تواجه عينيها المتوجستين بحسم:

- وإحنا قدها.. تعالي بس نشوف بيجيبوا جدول المحاضرات منين عشان نعرف هنبتدي إزاي!..

والتفتت بسرعة غير واعية أن حماسها ذاك ربما لا يناسب المكان المزدحم.. فهي ببساطة اصطدمت بأحدهم، بظهره تحديدًا وقبل أن ترفع رأسها لتبادر بتمتمة معتذرة استدار هو وتفحصها بعين مهتمة:

- سنة أولى!..

تغضن جبينها حائرة!.. والمجاورة لها هزت رأسها سريعًا بإيجاب ملهوف بدا لعينيها مفتونًا!..

مفتون!..

صديقتها بريئة حد السذاجة وهي تدرك..

من الصِنف الحالم الذي يظن أنه سيلتقي بفارس حلمه بحرم الجامعة، فيُسقط كتبها وأوراقها ويمنحها بعدها بكرم انحناءة توازي انحنائتها لجمع ما تساقط فتتلامس أطراف الأنامل، ومائة عام من النظرات والبسمات والهمسات تنتهي بزواج وأطفال وأسرة صغيرة سعيدة!..

وكأن ذلك ممكنًا!..

هي لن تتركها لتسقط في براثن ذئب على وشك التخرج، بينما هو فقط يريد التمتع بوقته قليلًا مع "مستجدة" خائفة تجده.. تجده ماذا!..

"فارسًا، وسيمًا!"

نعم تخمن كونه ذئبًا، ولا تهتم إن كان تخمينها صحيحًا أم لا، فقط ستتصرف بحزم.. ارتسمت شبه بسمة فوق شفتيه، بسمة رأتها جافة أو ربما رسمية لا تستطيع أن تقرر:

- مروان.. من اتحاد الطلبة، لو محتاجين تسألوا عن أي حاجة..

وتحرك يشير بيده لغرفة بنهاية الممر:

- ده مكتب الاتحاد، هناك هتلاقوا اللي يساعدكم بخصوص الجدول والمحاضرات أو أي حاجة حابين تعرفوها..

ثم تراجعت البسمة لتعود ملامحه لجدية رأتها قناعًا وهميًا، هي تتحفز ضده فحسب ودونما سبب واضح:

- ولو في حاجة دلوقتِ تقدروا تسألوني.

- لا شكرًا.. إحنا هنتصرف.

كان جوابها سريعًا باترًا بعينين عاصفتين جذبتا عينيه للحظة، عينين بلون السماء الغاضبة في يوم شتاء ماطر غائم، رماديتان، قاتمتان، ومهتاجتان!..

درس لغة جسدها في ثوان وتراجع خطوة ينظر نحو الأخرى التي جذبت يدها بهمس خافت وصل لمسامعه رغم كل شيء:

- في إيه يا غرام؟!.. ما تخلينا نسأله، على الأقل نعرف ندور فين..

والجامحة رمقتها بنظرة محذرة تخرسها بها دون حديث، وأدرك من قائد تلك المجموعة المكونة من اثنتين عندما مطت المعترضة شفتيها بضيق

وصمتت، بعدها رفعت عينيها نحوه ببسمة خجول وهمهمت باعتذار لم يسمعه جيدًا جوار نظرة اعتادها في أعين ذوات نون النسوة..

نظرة ترغب في المزيد!..

أجاد تجاهل الموقف بل تجاهله حقيقةً، وبعينيه ظهرت لمعة قاتمة امتزجت بتعالٍ..

وازنها قامته الممشوقة التي شُدت بحزم.. وحزمه جعله موضع تأمل المتحفزة المتمهل: خصلات داكنة مصففة بعناية وعيون بنية تمازجت بها دوامات عسل لا تنتهي دوائرها، ملامح لا تنكر أن جاذبيتها تخطت المتوسط بدرجتين أو ثلاث بين مجتمع الذكور..

وبينما هي ترغي وتزبد، تقف مكانها صامتة تريد فعل شيء لا تعلم كنهه.. ولا تدري حتى لمَ هي لا تعلم!..

اتخذ هو من الصمت ستارًا يواري خلفه غضبًا وليدًا اعتاد تطويعه بيسر..

فتلك الحمقاء تظنه يغازل وهو عن الغزل والفتيات وتفاهتهن الوردية أبعد ما يكون..

عاد باتجاه جسده مرة ثانية نحو ذاك الذي كان يحدثه دون كلمة زائدة، وهي كانت الهمسات من حولها تتردد لذا حاولت ألا تبالي..

فمن يكترث لمن يظن نفسه هبةً سماويةً لمجرد عرضه مساعدة من واجبه بالفعل حتى وإن رفضتها بتعنت غير مبرر!..

لكن الهمسة الأخيرة والتي رقصت لها شياطينها كانت بنبرة ولِهة لفتاة حمقاء تطلعت لذلك المغرور بتتُيم كأنما تابعت الموقف من بدايته وتمنت مكانها في الصورة:

- البنت دي غبية!.. هي تطول أصًلا تتكلم مع مروان الحسيني!..

***

"الحالمات هن الأكثر عرضة للكسر.. بهن هشاشة قد تبدو للناظر من بعيد محببة، لطيفة، ناعمة؛ لكنها حين الجد تعرضهن فقط للألم فيخسرن بجدارة في مواجهة حاسمة مع واقع قاسٍ لا مفر منه!"..

كلمات صادقة هي ربما لكنها لا تأبه لها..

مرت عليها عيناها مرة أخرى قبل أن تزفر بضيق، تغلق الرواية بين يديها وتنهض تدور بغرفتها غاضبة كأنما تعاتب ذلك الكاتب الذي اقتحم حلمها الوردي بطعنة من سيف الواقع..

توقفت أمام مرآتها.. منحت صورتها المنعكسة نظرة وابتسامة أظهرت جمال وجنتيها الغائرتين بغمازتين شهيتين.. ثم داعبت خصلة طويلة من خصلاتها بشرود، التفتت بعدها تتأمل الكتاب الملقى فوق الفراش وغلافه الرومانسي وعقدت حاجبيها، توجهت نحوه تلتقطه بتحدٍ، تهمس من بين أسنانها برفض لما قرأته قبل ثوان:

- الحالمات همَّ اللي عاملين للواقع المر طعم حلو.. همَّ اللي بيدوا اللي حواليهم أمل حتى لو انكسروا في نص الطريق..

وعادت تفتح الصفحات، تتنقل بينها بعشوائية:

- بتستنكر حالميتهم!!.. بس للأسف الحالمية دي هي اللي عاملة لرواياتك مبيعات..

تذمرت بحنق تخللته ضحكة توأمتها التي اقتحمت الغرفة على همس شقيقتها:

- هتتجنني يا سما.. الروايات الرومانسية دي غلط على مرضى القلب والله..

منحت أختها نظرة مغتاظة جاورتها دمدمة حانقة:

- نعم بقى!..

اقتربت الأخرى وانتزعت الكتاب من يدها تتأمله بتقييم مستفز:

- ما هو قلبك مريض بالحب.. ولو فاكرة إنك هتعرفي تخبي عني أو حتى معتقدة إنك مخبية عن الكل تبقي مش فاهمة حاجة.. كلنا عارفين بس متجاهلين، حتى هو عارف..

- صبا!..

صرختها بسخط وكادت تخنقها بالفعل لولا ضحكتها وقربها ودلالها ولمستها الدافئة:

- اطمني.. ماحدش هيتكلم إلا لو أنتِ قررتِ تحكي..

مطت شفتيها ببؤس!..

تهربت من العينين الحنونتين وألقت بنفسها فوق فراشها بفوضوية، هي تكره وضوح مشاعرها.. تكره أن تكون عاشقة لا ينتبه لها معشوقها.. تكره كذلك أنه تقريبًا لا يراها وتود لو صفعته، كسرت رأسه ودقت عنقه، ثم ضمته بعدها واعترفت..

بل صرخت بحبها!..

زفرت بحرارة وصورته تتجسد بين جفنيها قبل نعاس يداعبها..

صورة وجهه المتجهم الجاد دومًا حتى وسط الاجتماعات العائلية..

الدعابات التي لا يضحك عليها إلا لمامًا..

وبسمته التي تهبط بدقات قلبها حتى الصفر ثم تتصاعد بها مرة أخرى لحد غير محتمل..

تلك البسمة التي لا تظهر لها ولا يخصها بها.. إلا في أحلامها!..

وحينها همست باسمه لتلتقط أذنا توأمتها الهمسة قبل غرقها في النوم هي الأخرى:

- مروان..

(١)

أغرب الحكايات وأصدقها كذلك تلك التي تبدأ من القلب..

فمهما تباينت المشاعر وفقدت توزانها بين الأضداد؛ يظل هو مكمن صلاح النفس أو فسادها!..

موطن الهداية والضلال..

الحقيقة والوهم..

العطاء والإمساك..

الشغف والرفض..

ومستقر النبض الحائر بين العشق.. وكبرياء النفس!..

بينما يدقق "هو" في تفاصيلها التي تحوز انتباهه، تمرر "هي" تفاصيله التي لا تكترث لها وتلقي بها خارج السياق!..

وفارق ممتد بين ما يراه، وما تفضل هي أن تبصره..

كانت تجاوره على مقعد عريض كما اعتادا قبيل محاضراتهما، تحضرها هي ويحصل هو على ملخصها منها دون جهد، تتابع بزمة شفاه طفولية عيناه اللتان تغازلان تلك السمراء بنظرات أقرب للوقاحة.. زفرت بغضب وتأففت كما تفعل دومًا، هذا الفتى سيصيبها بجلطة مخية قريبًا وعلى عاتقه ذنب مغادرتها عالم الأحياء..

استقامت بجسدها بينه وبين الحسناء المارة تتخصر بوضع حانق، رفع حاجبًا وزوى الآخر ومال برأسه قليلًا يتطلع إليها:

- إيه يا عطعط مش كده يعني!.. فصلتِ الباور..

أشاحت بيدها في وجهه حتى كادت تصفعه:

- يقطعوا عنكماية ونور يا آسر.. ما تحترم نفسك يا بني..

جذب معصمها يعيدها إلى جواره وعض شفته السفلى بعبث:

- بتغير يا عطية!..

- اتلم..

ومن بين أسنانها المضغوطة كررت اسمها للمرة المليون ربما.. قهقه بمرح فنال لفتة أو اثنتين من مجموعة فتيات واقفة بالجوار، منحهن نظرة ماكرة وأكمل حديثه مع زميلته الأثيرة:

- ما أنا ملموم أهو.. لو ماكنتش ملموم كنت رحت وراها..

رفعت يديها نحو السماء تدعو بحرقة:

- يبعتروك على صفيح ساخن يا حبيبي..

عاد للضحك.. تفاجئت بعدها باقترابه الذي تخطى حدود السماح:

- وربنا ما حد ساخن غيرك..

شهقت بحدة ودفعت كتفه ترمقه بنظرة قاتلة:

- آسريا بن الحسيني.. مش عليا الكلام ده..

ثم تلفتت حولها بحرج، فقليل الحياء يتناسى أنهما بحرم الجامعة ويمزح بصفاقته الفطرية، ارتفع جانب فمه بخبث وعيناه تتجاهلان الموقف برمته، بل تنتقلان لشيء ما خلفها:

- ماشي يا عطا.. إيه رأيك بقى في الصاروخ أرض جو اللي جاي من بعيد ده!

عقدت حاجبيها وكادت تصرخ بوجهه بينما تستدير لترى ما يتحدث عنه، لكن الكلمات تعثرت بحلقها وهي تتأمل تلك الشقراء الأجنبية التي هبطت على أرض جامعتهم من كوكب آخر بالتأكيد!..

وقبل أن تسب وتلعن وتُتبع ذلك بليَّة شفاهها التقليدية بمصمصة عجوز ممتعضة سمعت همسته بأذنها:

- مش باقولك صاروخ..

وردها هذه المرة كان مرفقها الذي غاص بمعدته ليتأوه بقوة.. تزجره على قربه المرفوض، ونظره الذي أحاط بالشقراء إلى حد لفتْ انتباهها.. لتمر من أمامه وتلتفت برأسها إليه نصف لفتة..

تمنحه بسمة ناعمة ولمعة عينين –زرقاوين- شقية!..

وكان هو كريمًا بالمنح في المقابل، فاستقام يزمع اللحاق بها مودعًا صديقته:

- أوبا.. عطعط، ضحكت يعني قلبها مال..

جاورته تتابع عينيه الوقحتين بغيظ:

- عاش يا فنان..

استدار بوجهه يشير نحو الراحلة بإيحاء:

- طب سلام بقى، أصل أنا ناوي أحترف في ليفربول..

وتلاحقت خطواته تتبع الشقراء بينما هي اتخذت من المراقبة الحانقة عملًا يشغلها كعادتها مع صديقها اللدود..

الفتى الآسر الوسيم..

والذي هو حديث فتيات الجامعة، الشارد المستمتع في ملكوتهن أيضًا.. تمنت لحظتها أن تصده تلك الجديدة لكنها كانت تدرك أن سحره لن تقاومه إحداهن، فدمدمت من بين أسنانها بسخط:

- بطل تقولي عطية يا بن الحسيني.. اسمي شذى..

وعلى الجانب المقابل توقف هو خلف الحائرة بنظرة تائهة تبحث عن مرشد، قرر أن يتخذ دوره ببساطة فهمس بمكر:

- أنتِ أكيد في المكان الغلط..

استدارت بدهشة لتتلاقي بنظرته المتفحصة:

- أصل الحوريات مكانها الجنة..

بعدها ابتسم بشفاه ملتوية عابثة وغير للانجليزية المتقنة مدعيًا الجهل:

- هل تتحدثين العربية؟!..

انتقلت بسمته لشفتيها الورديتين فتعلقت عيناه بهما وهي ترد بخبث مماثل مُلاحِظة اتجاه بصره:

- أيوة.. وأنا في المكان الصح جدًا..

تصادفت النظرات بتعمد فوق معبر محايد، فهي تداعب وهو يغازل والبداية تعارف:

- تاليا..

- آسر..

ومصافحة دافئة من كفه احتوت أناملها اللينة بضغطة خفيفة أكملت على إثرها:

- بس ممكن تختصره وتناديني تيا..

والبسمة التي اعتلت ثغره المتلاعب تمخضت عن إعجاب جليّ وازى تجولًا جريئًا بطيئًا بناظريه فوق جسدها المختفي بغنج خادع خلف سروال جينز باهت وقميص أبيض قصير تعلوه سترة زرقاء لم تخفِ الكثير من منحنيات فتنتها:

- حلووو.. أنا بقى ممكن تناديني حنفي عادي..

- لا.. آسر أحلى أكيد..

افتتح جملته بحروف متمهلة نهايتها ممطوطة ومضغوطة بمكر واختتمها بهزل، وهي نطقت كلماتها بضحكة مرحة فمرت بمقلتيه لمعة مبهمة وهمس بينما يحرر يدها التي تركتها أسيرة كفه طوال الحديث:

- الأكيد إننا هنتفق..

وغمزها وتكررت الضحكة.. ومن بعيد اشتعلت الصديقة بمزيد من الغيظ..

فها هو وكما جرت العادة، قد ربح الجولة الأولى!..

***

على سبيل العشق؛ دع لقلبك حرية النبض..

وعلى سبيل الأمل؛ كبِّله إلا من دقات لن يُحرِّمها المعشوق..

وعلى سبيل الوجع.. إن خانك بنبضاته لمن يشعر ويتجاهل؛ أطلق عليه سهمًا جديدًا واتركه ينزف خلاصة عشقه حتى آخر قطرة..

فهو -عليه اللعنة- يستحق!..

تركت الجمع وانزوت بركن من حديقة المنزل، تمسك بهاتفها وتتابع صفحة ذاك الذي امتلك قلبها دون تمهيد، دون مقدمات.. وبلا حواجز، تتنقل بين منشوراته التي يصيغها بمفردات تحرك مشاعرها نحوه أكثر.. فتتفاعل مع كل منها بفيض وحب..

اليوم هو "اليوم المقدس" كما تسميه بعائلة الحسيني.. ففي مثله محددٌ شهريًا تجتمع الأسرة كاملة بمنزل الأخ الأكبر، شبابها وكبارها، عمتها وزوجها وأبنائها، وهي ووالدتها وأخيها و"بابا أدهم" مثلما اعتاد لسانها نداؤه..

تسللت خلسة من المطبخ حيث اجتمعت أمها وخالتها والعمة بحرب صغيرة يصرفن خلالها الطهاة والخدم ويصفو البيت إلا منهم، لإعداد ما

لذ وطاب قبل هجوم الأبناء على المكان وعودة الأباء من أعمالهم، أطباق الخالة الشهية، حلوى العمة اللذيذة ومعجنات وفطائر أمها الدسمة..

وتصبح هي والفتيات مسؤولات عن إعداد المقبلات والمشروبات.. ثم يبدأ اليوم وينتهي بتبادل الأخبار والمرح وفوضى العائلة المحببة..

عيناها تعلقتا بشاشة الهاتف وفوق شفتيها تغنت بسمة حالمة بهوى وليد تمكن منها بجدارة:

"أن تجد من يحبك بعيوبك قبل مميزاتك لهو أمر نادر. فالحب في عُرف الشرق كمالًا مكانه ليس على الأرض حقًا"..

ضغطت زر الإعجاب ومقلتاها تلتمعان بنظرة خاصة وابتسامتها لاتزال تناوش شفتيها..

"من يحبك حقًا سيتقبلك كما أنت.. لن يغير فيك، أو يرفضك لأنك لا تناسب مبادئه!"..

وهذا إعجاب آخر تبعه جديد لمنشوره التالي..

"هل أصبح الحب كائنًا خرافيًا خياليًا لا يمت للواقع بصلة!"..

كم هي صادقة كلماته..

"ليس من السهل أن تجد عشقًا أشبه بالحكايات القديمة، تلك التي يموت فيها العاشق فراقًا وتلحق به المعشوقة حزنًا"..

مطت شفتيها باعتراض مدلل، ورغم كل شيء فقد تفاعلت مع المنشور بوجه حزين.. وقبل أن تكمل تجولها في صفحته الخاصة طار الهاتف من يدها بحركة شقية جوار الصوت المداعب:

- والله عيب عليك يا موكا، إحنا عمالين نحضر لاجتماع القمة وأنتِ قاعدة على الفون.. مش فاهمة بتعملي إيه!..

نهضت تركض خلفها بهتاف محتد به توتر، قد تلمح ما لا ينبغي أن يراه أحد.. على الأقل الآن:

- سما ما ينفعش كده.. هاتي الفون لو سمحتِ..

وانقلب الموقف لمرح معتاد بين الفتاتين إلى أن باغتهما ظهوره، يمسك بأخته وينتزع ما يخصها من يدها، يرمقها بحاجبين ملتويين في حركة مراوغة وشفتاه تبتسمان بعبث:

- سما.. روحي ماما بتقولك السلاطة مش هتقطع نفسها..

دبت صغيرته بقدمها في الأرض وأعلنت تذمرها.. بعدها ناولته لكمة في كتفه ورحلت عائدة للداخل حيث أمها وشفتيها تتحركان بهمهمة ساخطة وكلمات لم يسمعها ولم يهتم..

ناظرته "ملك" لحظة قبل أن تمد يدها في إشارة واضحة أن يعيد هاتفها إليها، لكن عبث البسمة تحول لخبث والنظرة الشقية تمازج بها لؤم وهو يرفع يده عاليًا بطول ذراعه ويشاغبها:

- تعالي خديه..

- يووووسف!..

ولم يتراجع لكنه اهتز..

هي تنهره ورغم حدة النبرة فقد التقط فيها الدلال، اسمه دومًا يختلف مذاق أحرفه من بين شفتيها، الياء تتشدد والواو ممطوطة بغنج والسين تنكسر تحت ضغط أسنانها أما الفاء فتنطقها بضمة لشفاهها أشبه.. بقبلة!

- كنت بتقري إيه ومندمجة قوي كده!..

وألقى بعينيه نحو الشاشة المضاءة بفعل ضغطة إصبعه.. حينها قفزتها الواسعة طالته وهي تختطفه من يده بحنق، أما هو فنظرته سقطت على كلمة لم يستجمع غير بعض منها..

"حب!"..

- بوستات رومانسية يا ملك!..

لم ترد بل أطفأت شاشته عقب خروجها من الصفحة التي سكنتها للنصف ساعة الماضية تتابع منشوارت سيد مشاعرها التي تمس قلبها في كل مرة..

رمقت الفضولي بسخط دون تعليق، وهو شد بساط الفرصة بينما يعقد ذراعيه فوق صدره:

- مادام بتقري عن الحب؛ قولي لي وجهة نظرك فيه!..

تأملته والهواء يداعب خصلاته الناعمة بعبث تجاهله وعيناه لا تحيدان عنها.. هزت كتفيها وردت ببساطة:

- الحب دنيا.. لو فتحت لك بابها هتعيش في الجنة..

- وردية!..

- لا دي حقيقة..

التوى جانب فمه ببسمة شاردة:

- الحب مش بيحل مشاكل..

- بس بيساعد على تخطيها..

حرر ذراعيه ووضع يدًا في جيب بنطاله والأخرى ساوى بها شعره معترفًا:

- في دي عندك حق..

واقترب خطوة رمقتها هي بحذر، غضَّ الطرف عنه وهو يُتبعها بثانية وثالثة حتى واجهها وكانت ترفض التراجع عنادًا:

- الحب معركة.. بس مش الكل بينتصر فيها، لازم قبل النهاية هتقفي على مفترق؛ ويا تواجهي.. يا تهربي..

انعقد حاجباها وهزت رأسها بحيرة:

- مش فاهماك!..

الهزة كانت لكتفيه تلك المرة وشيء من شجن يظهر بزرقة سماء مقلتيه:

- الحب وجع يا ملك.. خصوصا لو بتحبي حد هو مش حاسس بحبك..

حيرتها تضاعفت للحظة وعيناها تسألانه تفسيرًا لا يملكه.. بعدها برقتا كأنما وقعت على حل معضلة كونية خالدة هاتفة بلهجة اصطنعت فيها المرح:

- قلت لي.. شكلك متيم في قصة حب ملتهبة مع شقراء هيفاء زرقاء العينين..

وضحكت بجذل وهي تشير بيدها:

- بركاتك يا كندا..

الرد تلعثمت أحرفه على لسانه في صدمة وهو يتأملها بشبه غيظ، أنقذها منه نداء أمها لينال منها إيماءة معتذرة انتهت برحيل، ونظراته تحيط بخطواتها في قلق!..

قلق من يخاف ضياع أمنياته في سماء الحلم، من يخشى أن تخطو آماله فوق صلابة أرض الواقع فتنكسر!..

قلق من رأى بعينيها ما يتمناه لكنها فقط حينها.. لم تكن تنظر إليه..

وخطت تفر من محيطه، ممتنة لنداء غوثٍ أتاها منقذًا..

تجيد الهرب كما في كل مرة من حرم رجل عاشق تنضح ملامحه بعشق ليست بعمياء عنه، تختلج أجفانه بنظرة حب تدركها وتلتمع عيناه بعاطفة تصدقها..

هي لن تتحمل تصريحه به وحسب، فقلبها ملك لآخر..

آخر قررت أن تكون له دون سواه مهما كان الثمن!..

***

القرارات ليست دومًا هينة لحظية، بل في الغالب هي تنهك الروح معها حتى نختار الأصوب، والأصوب لا يأتي بسهولة.. وقد لا يأتي مطلقًا..

قرارها بأن تمنحه قلبها تراه شقيقتها خطأً؛ فهو يتجاهل، يتعامى ويتعامل بحدٍ ألزمها به، أما البقية فلا يتدخلون.. بل يراقبون بصمت نتيجة عشق قلب بريء فُطر على أن يملأه من لا يهتم بكونه يمتلك غرفاته!..

جلست بمفردها وقد بدأت الشمس رحلة غيابها سقوطًا أو هروبًا نحو المغرب، وحيدة عيناها متعلقتان به كطفلة تشتهي حلوى منعها عنها طبيب أسنانها..

عيناها متشبثتان به في.. حرمان!..

فرغم فارق العمر بينهما والذي لم يكمل حتى الثلاث سنوات تراه هي رجلها بكل براءة الطفلة، تمرُد المراهقة ومشاعر الأنثى.. تخلط بين حبها النقي ورغبتها الجامحة في أن تشعره وتحيطه به..

تتجاوز في خيالها حد اللمسة واللهفة والضمة والقبلة، بينما في واقعها تجبن حتى عن النظرة عندما تتواجه الأعين..

ورغم أنها تعلم كيف يراها وبأي خانة يضعها؛ فلا يزال الخجل يعتلي ملامحها كلما حادثها، أو بعثر بكلمات عادية ثباتها وهدوء نفسها..

"بجد يا سما أنتِ مزوداها قوي"..

تمكنت من جسدها انتفاضة طفيفة وهي تدور بعينيها نحو مصدر النبرة الموبخة بنظرة مستغربة:

- في إيه؟..

جاورتها شقيقتها جالسة على الأرجوحة التي شردت فوقها تراقب الغائب بعقله الحاضر بقلبها:

- سايبانا كلنا وقاعدة هنا.. ليه؟.. عشان مستر دارسي؟.. مش ملاحظة إن الشباب قاعدين مع بعض، وأنتِ مكانك مش هنا؟..

مطت شفتيها وادعت الجهل بل أنكرت الاعتراف الواضح فوق وجهها:

- أولا ما تقوليش عليه كده.. ثانيا مش قاعدة هنا عشانه ولا حاجة.. إحنا خلصنا ويادوب بابا وعمو وأونكل زياد ييجوا ونتجمع، خرجت أغير جو وبعيد عنهم فين المشكلة؟..

دقت "صبا" بقبضة مضمومة فوق رأس توأمتها حانقة:

- الكل بيناديه كده على فكرة؛ ده أولا.. ثانيا بقى المشكلة إن مش معنى تجاهل الكل لمشاعرك إنك تبقي بالشكل ده..

ومالت تخبرها بجدية:

- الراجل مش بيحب يحس إنه فريسة حتى لو للحب..

ألقت بنظرة نحو جمع الشباب اللاهي بمرح:

- بيحب يكون هو الصياد، ويحب الفريسة اللي يختارها تكون قوية وعنيدة وتتعبه وقت الصيد..

تململت "سما" بضيق ومرت بعينيها نظرة مستنكرة:

- فريسة إيه وصيد إيه؟.. أنتِ ليه بتتكلمي بالطريقة دي عن المشاعر والحب؟..

استرخت جوارها في جلستها وهزت كتفيها ببديهية:

- ده كلام منطقي وواقعي وصح، الروايات بتاعتك مش هتعلمهولك.. مش معقول كل ما يتحرك يلاقي نفسه في عينيكِ.. غيبي عن عيونه شوية وعلميها تدور عليكِ..

وابتسمت بحنو فهي رغم كل شيء تخشى على قلب شقيقتها النقي حد السذاجة:

- خليكي صعبة المنال زي ما بيقولوا.. خصوصا مع واحد زي مروان..

ربتت على كفها المستريحة فوق ركبتها برفق:

- خليه يحس بالفرق بين وجودك حواليه، وعدم وجودك..

بعدها نهضت تستقيم بنزق:

- وقومي بقى عشان بابا اتصل وقال إنهم على وصول..

استقامت بدورها تتبعها دون إرادة حقيقية لكن بصرها خذلها جوار خطواتها المتباطئة وهي تلمح أخويها وابن العمة يمزحون معه بسماجة.. توأمها المشاكس يدفعه لحوض السباحة فيغوص فيه للحظات وقلبها يتوقف بموازاة قدميها حتى شعرت بألم في أذنها و"صبا" تجذبها منها بشيء من عنف:

- ده بطل الجامعة في السباحة.. ارحميني..

وجرّتها عنوة للداخل تاركة خلفها خافقها الصغير يكمل دورانه في فلكه بوله!..

***

عندما يتسع كادر الصورة ليشمل العائلة؛ هذا هو الدفء، الاحتواء.. الصخب واليوم الممتع الذي يتمنى الجميع ألا ينتهي..

ويا الله كم اشتاق لهم!..

لقد غاب لشهرين فقط استأنف فيهما استكمال أوراقه للحصول على الدكتوراة من كندا مسقط رأسه كما أراد، رافق جده الوحيد بعد رحيل جدته عن دنياه، واستمتع بصحبة أصدقائه القدامى رغم أن واحدة كانت

تنقصهم، بعدها عاد في أجازة مؤقتة سيليها سفر آخر طويل للعمل الجاد على إنهاء رسالته..

عاد يمتلئ بالشوق لإخوته، والديه والعائلة..

ولها!..

لها.. تلك التي تتجاهله وهو يوقن أنها تفهم وتشعر وتدرك.. لكنها فقط تتعامى، تتغابى ربما، والآن هناك دخيل على الصورة عندما ظن أنها ستجمعهما معًا قريبًا..

دخيلًا كما أخبره صديقه اللدود وعدوه الحميم في معركة عشقها.. امتلك قلبها بالفعل!..

"يووووسف"..

أتاه النداء ملهوفًا من أخيه الأصغر الذي يركض في المكان بمرح متجهًا نحو المنزل وابن عمه يسرع خلفه تتساقط من ثيابه المياه متوعدًا إياه بعقوبة تناسب فعلته الشنعاء، تجاهله واستدار برأسه لابن عمته بابتسامة:

- إيه رأيك؟.. نتدخل؟!..

هز "أنس" رأسه بهدوء وابتسامة مستمتعة تغزو شفتيه:

- لأ.. نتفرج..

وافقه وتأمل المشهد الفوضوي بحنين شارد قاطعه رنين هاتفه برسالة!..

التقطه من جيبه وكانت لقطة لفاتنة عسلية تشير نحو العدسة التي أسرت صورتها بشقاوة.. تبعتها الكلمات الانجليزية:

"سافرتَ دون أن أراك.. تلك هي الثانية جوزيف، الآن أريد ترضيةً مناسبة"..

توسعت بسمته وتحركت أنامله برد سريع:

"أنتِ من تأخرتِ جين.. أخبرتك أنني عائد للوطن قبلها بأسبوع، لكن يبدو أن لندن أكثر أهمية من صديقك القديم"..

وارتفع رنين هاتفه بعدها بلحظات ليصلها صوته معاتبًا:

- أنت تعلم أنني كنتُ أدرس ولم يمكنني العودة باكرًا..

نهض يتجول في المكان يكمل محادثته معها وعيناه تلتقطان مشهد أخيه حين كاد يصطدم بخالته فيتوقف مستغيثًا بها..

تجاهل الأمر واستمر بحديثه عبر الهاتف، حينما كانت الخالة تؤنب ابن أختها بجدية مفتعلة:

- آسر.. بتجري كده ليه؟!..

وهو احتمى بها مدافعًا من بين ضحكاته:

- ابنك يا جوجو.. امنعيه عني..

- ولد!..

وزجرته لندائه المجرد بل والمدلل لاسمها، عندها لمحت ابنها وثيابه الغارقة بالماء فتنحت من طريقه تهتف بالصغير المشاغب:

- له حق والله.. هاسيبكم تتصرفوا مع بعض..

وتحركت تستقبل زوجها وبعينيها نظرة نارية ما إن لمحها حتى ابتسم بتوجس، بينما أخيه يتوجه للداخل باحثًا عن زوجته وأخته تبادر بالسؤال:

- أمال فين زياد؟..

لم يبعد عينيه عنها وهو يجيب:

- كلمناه.. بيقول وراه شغل وهيتأخر شوية..

ثم التفت نحوها مطيبًا خاطرها:

- معلش أنتِ عارفة آخر مشروع مجننا كلنا..

مطت شفتيها بتَبَرُّم:

- ما أنتوا جيتوا بدري أهو.. لازم هو يتأخر!..

شاكسها بمزاح:

- كله عشان الأميرة وولاد الأميرة.. بعدين المرحلة دي من المشروع تخص شركته بس..

أومأت بابتسامة شاردة وهزت رأسها عائدة للمنزل، تنظر لفتاتيها اللتين تتعاركان مع "صبا" ابنة الخال على جهاز تحكم التلفاز.. فهي تريد مشاهدة برنامج وثائقي ما، أما "حلا" فتتابع برنامجًا مختلفًا يناسب هوايتها ومجال دراستها بكلية الفنون التطبيقية..

وأخيرًا صغيرتها الشقية العجول دومًا حد الطيش تنتظر حلقة جديدة من مسلسلها المفضل.. مسلسل جريمة أمريكي يجذب انتباهها بشدة حتى أنها أنبتها عليه وهي لا تبالي.. بل فقط تستمتع به وتحل اللغز في كل مرة!..

أمسكت بالهاتف لتتصل بزوجها المتأخر كالمعتاد، متجاهلة الصخب الدافئ والفوضى اللذيذة اللذين يملآن المكان..

وعلى الجانب المقابل من الغرفة كانت الأخرى تواجه الزوج مدعي الدهشة بجدية غاضبة وعسل عينيها يتألق بلمعة لاتزال تفتنه:

- هو ده اتفاقنا؟!..

زوى ما بين حاجبيه بتساؤل حائر فأردفت:

- سكرتيرة يا أدهم؟!..

صدرت عنه ضحكة رصينة وهو يقترب منها:

- أنتِ عندك الأخبار على طول كده!..

صمتت لحظة تجابه تأمله المستمتع، ثم كتفت ذراعيها بغيظ:

- كمان مش عاوزني أعرف؟..

ومضت بعينيه نظرته العاشقة التي تخصها وحدها واعتلت شفتيه بسمته المحبة:

- أنتِ تعرفي كل حاجة زي ما تحبي.. بعدين دي عندها ٥٧ سنة..

- وكمان عارف سنها؟!..

نبرتها بدت حانقة ولم تمرر تبريره المداعب فقلب كفيه يواجهها مستسلمًا:

- السي في!..

تخطته بخطوات دومًا ما تشعره بأنهما مايزالان هذين العاشقين الصغيرين..

تشعره وكأنما لم يمر على زواجه منها ما يقرب من ثلاثة وعشرين عامًا كانت هي فيها ناره وجنته، شقاءه وسعادته، داءه ودواءه..

مد يده يحيط بكفها فتوقفت، منحته نصف استدارة من رأسها ونظرة عاتبة بنصف عين على إثرها استعمرها بدفء همسة تسيطر عليها في كل مرة، همسة لم تصل لسواها.. بل أغارت على خافقها وحسب:

- بحبك..

حاربت بسمة تصر على اقتحام شفتيها، زمتهما بتأنيب تخبره ببساطة أنه لن يفلت من الأمر بكلمة عشق!..

وهو سلَّم أمره وتركها ليلاقي ابنه العائد من الداخل وجبينه معقود بغضب، وقبل أن يسأل بادر المتجهم في حنق:

- عمايل ابن أخوك.. مش هيعقل أبدًا..

ورغم أنه لم يفهم ما حدث بالتحديد فقد ابتسم بهدوء..

عندها التقى بصره بعيني أخيه الذي يقف على مقربة من زوجته، يتابع مكالمتها الهاتفية عاقدًا ساعديه بسخط.. ومنه أدرك أنها محادثة عمل..

وباليوم المقدس كان العمل لنصف الوقت وللرجال فقط، وحين يجتمع أفراد العائلة تصبح "العائلة" هي محور الاهتمام دون غيرها..

أنهت المكالمة واستدارت إليه ببسمتها الدافئة لتمحو غضبه بلحظة، دنت منه بخطوات متمهلة وربتت على كفه التي يستند بها على ظهر أحد المقاعد -بعدما فك عقدة ذراعيه- برفق:

- آسفة..

وألبست ملامحها تعبير اعتذار حقيقي فلامها بعتاب:

- شغل برده!..

- مهم..

- ده يوم في الشهر يا لميا..

- وأنت عارف إني باهتم باليوم ده..

هز رأسه في رضوخ وابتعد عائدًا نحو حديقة المنزل بانتظار قدوم زوج أخته.. زفرت هي بضيق ونادت ابنتها:

- سما تعالي يلا عشان نحضر السفرة..

وتحولت وجبة الغذاء لعشاء مع ظهور عاقد الجبين الآخر واستقبال زوجته برفق أجبرت نفسها عليه عندما لمحت إرهاق ملامحه وتجهم وجهه:

- مالك؟!..

طمأنها بربتة على كتفها محاولًا الابتسام:

- مافيش.. شوية مشاكل في فينيش المشروع..

واقتحمت الصورة صغيرته الشقية تتعلق بعنقه دون تمهيد:

- زياد.. عرفت حل لغز المسلسل النهاردة برده..

أحاطها بذراعه وربت على ظهرها بحنو:

- زي كل مرة.

تراجعت بعينين متألقتين:

- فاضل حلقتين وهاطالب بالهدية اللي وعدتني بيها..

وأخيرًا أصبحت بسمته حقيقية بينما يقبل جبينها:

- أنا قد وعدي..

تركته مع والدتها التي تأملته بحب:

- على فكرة دي تفرقة عنصرية..

تظاهر بدهشة وحافظ على بسمته:

- تفرقة إيه بس؟!.

عقدت ذراعيها تتذمر ببرائتها التي لم تغادرها بعد، متجاهلة البسمة والنظرة ودفء الحضور:

- بتدلعها أكتر مني..

تلفت حوله لحظة اقترب بعدها يضع كفه على خصرها بحميمية:

- لما نروح هاصالحك بطريقتي..

شهقت برقة وابتعدت عنه بوجنتين محمرتين وعيناها تجولان في المكان بخجل:

- زياااد!..

ابتسم يراقب ملامحها بنظرة حانية تغمرها بأمان أكثر منها لو كانت عاشقة، بادلته بسمته ودفعته بحزم مفتعل:

- طيب يلا.. اطلع اقعد مع آدم وأدهم على ما نجهز الغدا اللي بقى عشا ده.

استجاب لدفعتها وهو يمنحها إشارة تهديد من يده توسعت لها انفراجة شفتيها الباسمة..

بعدها ذهبت "لمياء" لاستدعاء حشد الرجال لتناول الطعام وتبادل الأخبار، والمفاجأة أنها وجدت الأباء منهمكين في حديث جدي وصل بـ"زياد" لحد العصبية وصوته يطرق مسامعها بضيق:

- المقاول بيستهبل من الأول.. قلت لكم بلاش وأدينا ماشيين نصلح وراه..

اقتربت ورمقت زوجها بنظرة لائمة قبل أن تخبرهم:

- إحنا قلنا إيه؟!.. كلام في الشغل ممنوع..

ووصلته الرسالة بوضوح فهز رأسه وابتسم، انتقلت بسمته لشفاه أخيه وزوج أخته قبل أن يتبعوها وخلفهم صغارهم الذين لم يعودوا صغارًا.. التم الجميع حول المائدة وبدأ مرح من نوع آخر..

مرح تضمن من "أدهم" مع كل لقاء أعين بزوجته حركة شفاه دون صوت بكلمة امتلكتها وحدها منذ الأبد "أحبك".. وتخجل وتدير وجهها وتصر على عقاب ويعلم أنه سيدلل دون حساب..

مرح تلوم فيه "لمياء" زوجها بنظرة فيتحرك فمه ببسمة مستسلمة ويهز كتفيه وتتألق بعينيه نظرة حب خالص..

مرح يتشبث فيه ناظري المدللة الصغيرة بزوجها المرهق، وعندما يلتفت إليها تمحو برقتها وحنان مقلتيها تعبه وهمومه!..

مرح عاشق يخشى البوح وتأخر فيه حد الخسارة..

وتائهة في غياهب عشق قفزت فوق أسواره برعونة ودون أن تنظر إلى الوراء..

مرح مبتدئة، هاوية لم تمر بعتبات دنيا الهوى المخيفة بعد وياللألم لو خطت وسقطت وانكسر القلب..

مرح جاد آخر لا تنفك عقدة حاجبيه أو تشع ملامحه بالهدوء إلا وسط ذلك اللقاء..

مرح هادىء..

مرح صاخب..

مرح دافئ..

مرح خجول..

مرح شقي..

تآلف العائلة وتقارب أفرادها وتواصل ثابتٍ، باقٍ لا ينتهي ..

***

هي فتاة جادة رغم جموحها حد الجنون..

تمتلك القوة الكافية لتعبر محيط الحياة دون طوق نجاة، وتحوز من السيطرة ما يمكنها من التحكم بدفة سفينة هي ربانها وملاحيها..

فتاة تدرك أنها تخطو بعالمها الجديد بثبات.. وتجذب معها الهائمة الحالمة وردية الأفكار والملامح والنظرة نحو العالم القاسي..

وردية اقتحمت جلستها الجادة بينما تقلب بين يديها باهتمام في أوراق دراستها لتصدم الكتف بالكتف ونبرتها تعلوها لهفة بدت لها طفولية:

- طلع بطل الجامعة في السباحة..

عقدت "غرام" حاجبيها وتنهدت في صبر متسائلة بضجر طفيف:

- هو مين؟!..

- مروان..

عاجلتها "أمل" بالرد والصوت واللهجة يشعان ببراءة والعينين أفرزتا قلوب تطايرت حول رأسها جوار الفراشات:

- يادي مروان!.. بطل الجامعة وكمان مرشح لرئاسة اتحاد الطلبة!.. كده كتير..

أعلنت هي بتذمر والأخرى تتمم ما نسيته:

- نسيتِ الأهم.. إنه زي القمر..

تركت الأوراق واستدارت نحوها بحزم جاد:

- أمل اعقلي شوية..

رمقتها صديقتها بحاجبين معقودين وهي تردف بإقرار:

- اللي زي ده.. واحد في آخر سنة ونجم الكلية مش هيبص لواحدة في أول سنة إلا..

وتوقفت لا تريد إزعاجها لكنها الحقيقة التي لا تبصرها بسذاجة مثيرة للحنق:

- إلا إيه؟..

- عشان يتسلى..

بصقتها بوجهها وانتصبت واقفة تنوي الرحيل من جوار الفتاة الغريرة الباحثة عن قصة مرت بين أحرفها الناعمة فوق صفحات رواية بلهاء..

وعاندها القدر برؤياه..

يترجل بصحبة اثنين من أصدقائه مغادرًا سيارة سوداء رباعية الدفع لا تليق بعابث أبدًا، ورغم ذاك فقد ارتفع جانب ثغرها بشبه بسمة ساخرة وعلا نبرتها تهكم:

- وآدي أمير السندريلا وصل.. غني، وسيم وبطل رياضي!.. دهب ياقوت مرجان.. أحمدك يارب..

وأدارت رأسها عائدة نحو مبنى الكلية.. تبحث عن أي أمر هام تشغل به عقلها، متجاهلة سخافات الحالمات التي..

لا تشبهها أو حتى تليق بها!

(٢)

غالبًا ما تنساق النفس خلف أهوائها..

غافلة، أو متغافلة أن هناك من يقرر ويختار عنها مهما كان ما وصلت إليه..

ساهية عن حقيقة ترفض تصديقها..

لاهية عن واقع حاضر يرسم الغد بريشته وألوانه الخاصة..

ناسية أو متناسية أن هناك..

قدر!..

الحب هو فقدان التوازن..

أن يختل عالمك..

يتوقف كوكبك عن روتينية دورانه..

أن يتزعزع تماسك كونك..

الحب هو التشتت..

الفوضى..

الارتباك..

الحب هو ذاك الفعل الفاضح، الذي كلما حاولت جاهدًا إخفاءه بان وتجلى فوق ملامحك..

بخجل.. ببسمة شاردة.. بنظرة مسروقة.. بنبرة لامستها بحة توتر!..

الحب.. هو ما رآه الأب المراعي والعم القلق وتغرق فيه فتاته الصغيرة دون انتباه أن الغرق دومًا لا تليه نجاة!..

اجتماع عمل بمكتبه، الحضور لا يزيدون عن ثلاث..

الأب يرأسه، الابنة تديره.. والآخر يدلي بدلوه للوصول لشروط مقبولة لبدء شراكة قد تدوم للأبد، وقد تتخطى حدود الرسمية كذلك فمن يدري ما يخبئه القدر!..

شراكة حديثة العهد بين مجموعة "الحسيني" وشركات "غالي" تتضمن عملًا جديدًا بإدارة مجموعة العائلة وبالنسبة الأكبر في الأسهم والربح..

انتبه لها تبتسم بعملية مشيرة نحو ملف منسق أمامها فوق الطاولة:

- الوفد على وصول خلال أسبوع.. التحضيرات جاهزة والبرنامج المعد ليهم مميز جدا..

أما الرد فقد كان بسمة مماثلة وإن شابها إعجاب واضح من المواجه لها، إعجابًا لم يغفل عنه، ولهجة لم تختلف كثيرًا وتنازلًا لا يراه طبيعيًا.. فهو لم يلقِ بنظرة على الملف المذكور:

- مؤكد يا آنسة ملك.. أنا واثق في اختياراتك..

انعقد حاجباه وقبل أن يعلق توجه إليه رجل الأعمال الشاب وابن شريكه الجديد "عماد غالي" بلفتة دبلوماسية ممررًا مراجعة برنامج الترحيب والإقامة المقترح كما تقتضي القواعد:

- طبعا أنا هاكون في استقبال الوفد بنفسي مع الآنسة ملك.. مكتبنا هناك هيكون خطوة كبيرة ومهمة ولازم نبين لهم أد إيه إحنا مهتمين بالشراكة دي..

أومأ "أدهم" ببديهية جافة:

- ما تقلقش يا نزار.. ملك فاهمة شغلها كويس..

ولم يرُق له أن تتحول عينا الشاب إلى الجالسة عن يمينه بلمعة يفهم مدلولها جيدًا ويخشى بشدة أن تتألق مثلها بعينيها يومًا ما:

- أنا واثق من ده..

لذا نهض من مقعده على رأس طاولة الاجتماعات منهيًا اللقاء الثقيل بحزم:

- اتفقنا..

وأملى على كل منهما آخر التعليمات إيذانًا بإنهاء اللقاء، تحركت خطوات "نزار" بغية الرحيل تتبعه ابنته.. لكنه ناداها يوقف خروجها معه، وعندما التفتت إليه وجدته يعود ليجلس ببطء خلف مكتبه، يشبك أصابعه أمام وجهه ويرمقها بنظرة قوية مقتحمة تحاول سبر أغوارها..

كان يود السؤال.. يخيفه أن يكون الجواب موافقًا لأفكاره وهو يعلم عن قلب ابن أخيه المأسور بين يديها، المقيد بأغلال عشقها..

يتردد بشأن تدخلٍ يراه مبكرًا، ويريد المعرفة..

والجهل أحيانًا ما يكون هو الخيار الأفضل..

هذا ما جعله يبدل سؤاله بلهجة محايدة:

- جاهزة للوفد الألماني؟.. حضرتِ برنامج مناسب؟..

ابتسمت بمرح ورفعت يدها تشير بثقة:

- أكيد يا بوص.. مديرة العلاقات العامة هتشرفك..

بادلها البسمة بفخر حنون:

- عارف..

وتراجع في مقعده باسترخاء به شيء من قلق لا يمكنه الخلاص منه:

- على مكتبك يلا.. والبرنامج يكون عندي بكرة بالكتير..

نال منها هزة رأس موافقة وراقب حيوية وحماس خطواتها وهي تغادر المكان بسرعة، تنهد بشرود وترك لأفكاره العنان..

فرغم أنها فتاته الكبرى، الناضجة الطموحة والمجتهدة..

لا يزال يشفق على قلبها الغرمن سذاجة أنثى تجهل أولى خطوات العشق.. وتركض خلفه لاهثة كأنما هو المنتهى!.. تُغيرعلى حصونه بحثًا عن غنيمة اسمها سعادة.. ونصرًا في حرب ضروس قد لا تكون أهلًا لها!..

لا تدرك أن بداية الهوى بعالمها.. هي نهايته بعالم أقرب الناس إليه، وليت الخياربيده!..

عادت لمكتبها تحمل شفتاها بسمة ناعمة بها حالمية لم تظن أنها تليق بأفكارها يومًا، دائمًا ما كانت تلك الفتاة العملية التي اعتادت المثابرة والعمل الجاد لتصل بعمرها ودون محسوبية من الأب لوظيفة يحلم بها من هم أكبرمنها بل وأكثرخبرة..

مثابرة جعلتها تتناسى هاته الأنثى الكامنة تحت جلدها كغيرها من الفتيات..

أنثى لم تجاهد كثيرًا لتخفيها بين أنقاض إصرارها على النجاح، وخلف حجاب القوة الذي تهاوى عند أول صدمة ولقاء مع عيني.. عاشق، معشوق!..

عندما دلفت للغرفة وجدت فوق المكتب المرتب زهرة "كاميليا" حمراء ندية، عقدت حاجبيها واقتربت بعد نظرة حائرة طافت بها في المكان الفارغ إلا منها.. تلمست وريقاتها الناعمة ثم رفعتها لأنفها تتشممها بعمق..

"بيقولوا إن الورد لغة خاصة بتختصر أجمل الكلمات وأنقاها وأصدقها"

انتفضت إثر الجملة التي وصلتها بصوت رخيم، استدارت ببداية اضطراب ترمق خطواته المتمهلة ودنوه المتلكئ منها حتى واجهها تمامًا وابتسامة آسرة تزين شفتيه فتزيده وسامة، أمال رأسه وبعينيه لمعة غامضة:

- الكاميليا الحمرا مثلا بتقول: إنِك أجمل نساء العالم!..

ارتبكت.. تشوشت.. وملامحها اكتست بشيءٍ من تيه..

تراجعت بخطوات متعثرة لتصنع من مكتبها حاجزًا بينهما، تركت على سطحه الوردة ورسم وجهها قناع تماسكٍ هشٍ مصطنعٍ هو وحده من يتصدع أمامه:

- لسه ما مشيتش؟!..

ثم تغير الحديث المربك بسؤال أحمق لا داعي له.. فها هو يقف بمواجهتها:

- كنت هامشي.. بس جيت أعزمك على عيد ميلاد شيري كمان يومين..

طلت من مقلتيها نظرة حائرة، فهل تقبل!.. أم تخبره ببساطة أن والديها سيرفضان وتهرب!.. جلست ببطء، تلاحظ وقوفه المتأمل:

- كل سنة وهي طيبة.. بس مش عارفة هاقدرآجي ولا لأ..

مال يستند فوق المكتب بكفيه، يحيطها بعينيه دون أن يبيح لها فرصة الهرب:

- هتيجي..

يرد بتقرير حازم رفع من معدل عنادها وهي تناظره بتحدٍ:

- ما أظنش..

- أنا متأكد..

- بلاش ثقة من غير أسباب..

- عندي أسبابي..

- اللي هي؟!..

- لما تيجي هاقولك عليها..

وتحولت بسمته للمكر المستمتع، هزت كتفيها تفتعل اللامبالاة وحدقتاها المرتعشتان تكذبان لسانها:

- يبقى مش هاعرفها للأسف..

اعتدل بينما نظراته الواثقة تتغلغل بقلبها:

- هاستناكِ..

لم ترد.. اكتفت بمكابرة الأعين، مكابرة توسعت لها بسمة شفاهه الماكرة واستدار مغادرًا بكلمة أخيرة:

- أنتِ عارفة العنوان..

عندها ابتسمت تجابه تحديه بنعومة أنثى تستشعر مشاعر دلال أنوثتها للمرة الأولى:

- قلت لك مش جاية..

توقف لحظة، منحها نصف لفتة من رأسه وابتسامته لاتزال تغزو ثغره بصمت، ثم رحل..

يوقن أنها ستحضر، ستكون هناك..

وتعلم أنها ببساطة.. ستفعل!.

***

معارك الحياة لا تنتهي..

تنتصر في واحدة.. تنهزم في تالية، وتبقى على خط الحياد في غيرها، فلا تذوق نشوة الفوز، ولا توجعك مرارة الخسارة..

معارك الحياة دومًا قاسية ودروسها شاقة، لا يتفلت من بين أنيابها إلا قوي شجاع، ولا ترفع مخالبها إلا عن مَن حاولت كسره فلم ينكسر..

وهو لم ينكسر..

قلبه تألم، روحه تعلقت بمن أدرك -مع غروب شمس لم تكد تُشرق على حبه لها- أنها أبدًا لن تكون له، وعقله حارب كل ذاك باسطًا صورة الواقع الحاصل أمام ناظريه.. ينبهه ألا يتمادى بينما هو خاسر..

لذلك أجاد الانسحاب..

تراجع تكتيكي لمرتبة يدرك أنها أطول عمرًا، بل حتى أقرب وُدًا..

الصديق، الناصح.. المهتم!..

تعالى صليل السيفين عند لقاء حدة نصليهما، تقترب فيتراجع، تناوشه فيصد هجمتها.. ويبادر بهجوم مضاد نتيجته نقطة ربحها..

ومن بين الأنفاس المتصاعدة بحدة وبخها:

- مافيش تدريب.. مافيش مكسب..

ابتسمت من خلف قناعها:

- أنت عارف إنها مجرد هواية..

وتحركت نحوه بخطوة جريئة صدها بخفة:

- اللي بيحب حاجة؛ بيحب يتقنها..

لمسها بطرف سيفه ليفوز بنقطة أخرى، توقفت إثرها بلهاث معلنة استسلامها:

- للأسف الشغل واخد معظم الوقت..

وخلعت قناعها تبتسم بلؤم:

- بعدين أنا بلعب مع البطل.. تفتكر ممكن أعرف أكسب منه نقطة؟!..

خلع "ياسين" قناعه في المقابل وغلبت شفتيه بسمة:

- ممكن يا ملك.. لو ركزتِ شوية، واتدربتِ شويتين.

ضحكت بخفة مشاكسة:

- ده تواضع بقى.. ولا بتحب تغلبني وعاوز تلعب ماتش تاني؟!..

أشار لها بسيفه وأعاد القناع فوق رأسه بحركة واحدة، عدَّله واتخذ وضع قتال هجومي:

- Rematch..

آمرًا بحسم صارم.. استجابتها له كانت فورية بينما تتبع إرشاداته لينتصر الصديق كالعادة!..

انتهيا فداعبته مشيرة بالسيف ومقبضه بكفها، تتحكم به أناملها:

- برده أنت فزت..

ودون أن يظهر عينيه -فهو يدرك نوع النظرة التي تتوجهما الآن- أجاب:

- مش كل المعارك بنفوز فيها..

ثم كشف وجهه بعد لحظة صمت متأملًا بريق نصله وتشتت الضوء فوقه:

- بس على الأقل اتعودت أتقبل الهزيمة وأتعايش معاها.

نبرته أقلقتها وحديثه جعلها تهتم:

- مالك يا ياسين؟!..

عاد من شرود لحظي متفاجئًا بسقوطه في فخ التيه أمام عينيها، عاد مفتعلًا ضحكة حائرة وهاربًا بنظرته من سَبْي العسل الساكن بمقلتيها:

- مافيش.. ده مجرد تعبير، أحيانًا الواحد بيبقى عميق كده..

لم تقتنع بتبريره لكنها مررته بهدوء متجاوزة فضولها ومتجاوبة مع رغبته، فوقتما شعر بالحاجة للحديث سيتحدث..

ولو كان يمكنها تقديم المساعدة بالتأكيد لن تتأخر.. لذلك شغلت ذهنه عن مرارة استشعرتها بنبرته دون سبب تفهمه:

- أخبارعدسة الفنان إيه؟!.. في لقطات دموية جديدة؟..

تعالت ضحكته المبتهجة، لقد أحسنت التصويب وحازت هي النقطة تلك المرة..

لا شيء يحرك شغفه مثل المبارزة "الشيش" التي هو بطلها بجدارة..

وعمله كمصور صحفي بقسم الحوادث بجريدة شهيرة، تجيد عينه التقاط الصور قبل عدسته، حانت منه التفاتة نحو ساعة جدارية قريبة فرفع حاجبه:

- في أكيد.. بس مش دموية، عندي طلعة النهاردة وشكلي هاتأخر..

وتحرك بعجالة تتابع خطواته الواسعة باهتمام:

- هتروح فين؟!..

توقف لحظة حتى كادت تصطدم بظهره لولا تماسكها:

- ضبطية.. لو البلاغ مظبوط هتبقى خبر الموسم..

ابتسمت لحماسه الواضح خاصة مع استئناف حركته السريعة المغادرة فهتفت تناديه بلهجة قلقة ارتجف لها قلبه فاقدًا السيطرة على نبضة خائنة تفلتت من سلطته، وبلا إرادة عاد يتجمد بمكانه دون استدارة لتخبره برفق مهتم:

- خلي بالك من نفسك..

تعانق جفناه وأنَّ خافقه المختبئ بوهن خلف ضلوعه..

لعنها سرًا وجهرًا..

سبّها حقًا وظلمًا..

وعشقها ماضيًا ودهرًا..

لكنه عندما جاوبها أتتها نبرته مغلفة بسترٍ صلبٍ اعتاد التخفي خلفه معها:

- ما تقلقيش..

ورحل..

رحل بينما عيناها تتابعانه بزهو، فاسمه اللامع يتحدث عنه وصوره تحتل مكانًا بارزًا بصحيفته.. صيحتها الأخيرة وصلت مسامعه بمرح:

- ما تنساش تبلغ سلامي لطنط نورا..

أتاها رده بإشارة من يده وقتما كان يغيب عن ناظريها..

يغيب وهو يدرك متجاهلًا البحث عن رتوش أو مسببات أن قلقها، اهتمامها.. حضورها وافتخارها به ما هم إلا..

توابع رؤيتها له كأخ.. كصديق.. كابن الصديقة الأقرب لأمها، الصديقة التي هي بمثابة أخت..

ولذا هو ربما بمكانة أخرى.. مكانة ابن الخالة..

لا يزيد أو ينقص عن ذلك شيئًا.. مهما حمل فؤاده من مشاعر نحوها، أو وارى عينيه عنها بمهارة كي لا ترى وضوح نبضات العشق بهما..

***

هناك رجل لا يتقن من أبجديات المرأة سوى.. عشقها!..

حتى لو لم تكن ملكه..

حتى لو غاصت برمال عشق آخر.. رمال متحركة كلما حاولت النجاة منها غرقت أكثر..

حتى لو بات الأمل وهمًا وتعلق القلب به سرابًا موجعًا لن تلامسه يداه إلا بعالم الحلم..

وهو أجاد هجاء أحرفها في صمت، حرفًا حرفًا ونقطة نقطة.. والتتمة بعد صمته كانت بطلًا جديدًا لقصة أراد أن يكون هو راويها، بطلًا ظهر بأفق قلبها والبشائر توحي بامتلاك..

بسقطة غرامية قاتلة..

برواية لا تتضمن وجوده بين سطورها، وحكاية نهايتها السعيدة ليست معه!..

توقف بسيارته بحدة عاقدًا حاجبيه وموبخًا عقله الذي انسحب به بعيدًا أثناء القيادة.. من قال أن الحكاية لا تشمله؟!..

من قرر أن النهاية آتية بما لا يرضيه؟!..

تكهنات!..

أفكار شاردة!..

كلمات تتناقلها الألسن من حوله وربما توهمها في عينيها؟!..

لا.. الختام لن يكون سوى بيده، والستار لن يُسدل دونه.. فلو كان قد تأخر، هو هنا الآن.. والمعركة حامية الوطيس كما يظن؛ لم تبدأ بعد..

رمق المبنى الأنيق الذي صف السيارة قبالته ببسمة حنين..

لقد سافر وعاد.. وعند الغياب تتغير الأشياء، تتبدل، تفيء فتباغتك أنك لم تكن حاضرًا لترى ما جد؛ وهناك غيرها يبقى على حاله.. كان ذاك عمله الذي ما إن بدأ بمباشرته حتى تمت دعوته لجامعته الأم بكندا لإتمام دراسته..

ترجل يتأمل المكان بنظرة شاملة، المشفى الكبير والشهير كذلك، بإدارة مجموعة من أمهر أطباء بلده يرأسهم أستاذه ومرشده دكتور "محمد عبد العظيم".. رجل وقور أشيب الشعر ذكي النظرات بمثابة أبٍ ثانٍ، ما إن رآه يدلف لمكتبه ببسمة واسعة حتى بادله إياها ثم نهض يرحب به بدفء:

- ابن الغالي.. حمد الله على السلامة..

ومنحه ضمة وربتة كتف قبل أن يشير إليه بالجلوس:

- ها، طمني.. جهزت أوراقك وبدأت تحضيراتك ولا لسه يا بطل؟..

حافظ "يوسف" على ابتسامته الودود بينما يستوي جالسًا فوق مقعد مقابل للمكتب:

- أكيد يا أستاذي.. تلميذك برده..

ضحك الرجل بفخر واضح:

- قررت هيكون موضوع الرسالة عن إيه؟..

أومأ بإيجاب ورد بثقة:

- Vascular Biology and Transplantation Immunology..

- هايل يا يوسف.. هتبتدي إمتى؟!..

شرد لحظة.. فالبداية ليست هينة كما يظن معلمه، لا تخصه وحده ولا تتعلق به وحسب.. بل هناك أخرى وقفت كحاجز عالٍ لا يسهل تخطيه بينه وبين سرعة اتخاذ القرار خشية خسارتها:

- والله لسه ما حددتش يا دكتور محمد.. بس أنا معاكم الفترة اللي جاية شوية على ما أستقر وأشوف هاكمل شغل من هنا إزاي وأسافر إمتى بإذن الله!..

قام الرجل من خلف مكتبه ليواجهه مستريحًا على مقعد أمامه:

- طيب ممتاز والله.. عايزك معايا كمان يومين، عندي عملية قلب مفتوح، قلت إيه؟!..

فرد "يوسف" كفيه بحماس وعيناه تلمعان باهتمام:

- أنا فعلا جاي عشان كده.. عاوز أستلم شغلي ولا رجعت في كلامك يا دكتور؟!

ضحك أستاذه بخفة ونهره مصطنعًا الصرامة:

- أنا قلت لك مكانك محفوظ وقت ما ترجع.. المهم عاوز مهارة يوسف الحسيني تسمع في المستشفى كلها..

ولدهشته تحولت بسمة "يوسف" لتواضع خجول:

- كله بتوجيهاتك يا أستاذي..

ابتسم بحنان أبوي، اعتدل ومال يربت على ركبته بود حقيقي، وهبه نظره والد يفتخر بولده وإن لم يكن من صلبه.. واستقام يأذن برحيل:

- أنت جراح موهوب يا يوسف.. ومش معنى إن والدك صديق عمري إني أشغلك معايا من غير ما أكون واثق في قدراتك.. يلا، هاشوفك كمان يومين وتكون مستعد..

تبادل معه بعض عبارات الوداع، أرسل معه سلامًا لصديقه وتركه يرحل..

عندما غادر هو المبنى التفت يتطلع إليه مرة أخيرة تبعها بتنهيدة طويلة حارة استقر بعدها بسيارته مستندًا برأسه لمقعده..

ها هو يثبت أقدامه هنا في موطنه.. وبموطنه الآخر لا يزال له جذور لم ولن تنقطع..

فهل يمكنه صنع التوازن بين عالمين!..

أم كُتب عليه التشتت في الحياة، الوطن.. والحب!..

***

تظل الأنثى هي تلك القوية الصلبة العنيدة.. حتى أول دقة قلب لأجل الحب!..

حينها يتبدل الحال، تنقلب لبلهاء بدرجة عاشقة.. حالمة فاقدة لمصداقية الواقع وقسوته..

ربما لم تنطوِ عقلانيتها بالكلية مختبئة خلف جدار العشق، لكنها أخذت الخطوة المبدئية وتبعتها بثانية وثالثة..

تقود سيارتها وكأنها تطير بها، شاردة في ابتسامته، نظرته.. تلك الدرجة الساحرة من اللون البني التي تسكن مقلتيه، لا هي بالعسل الصافي، ولا بالقهوة الداكنة.. تتيه فيها عندما تحتويها بدفء، أو حتى بمكر يسرع بنبضاتها حد الغباء!..

أفاقها من شرودها رنين هاتفها باتصال مفاجئ من ابنة الخالة، أجابته بعقدة جبين متسائلة:

- سمسم.. يا بنتي اهدي وفهميني إيه الفيلم ده؟!.. آها، طب فين المشكلة؟.. إمممممم.. خلاص بصي أنا مروحة البيت دلوقتِ، هاعدي عليك في طريقي تيجي معايا، نتغدى سوا وأغير هدومي بعدين نعمل شوبينج زي ما تحبي.. تمام.. أنا في جميع الأحوال كنت نازلة النهاردة.. أوك ربع ساعة بالكتيروأكون عندك.. سلام مؤقت.

وأغلقت الخط ببسمة هادئة.. دقائق واجتمعت معها "سما" تخبرها بحنق:

- موكا والله أنت منقذتي.. صبا داخلة الدراسة كأنها داخلة سباق لازم تكسبه، وآسر طبعا مستحيل أعرف أخرج معاه.. وجو مش فاضي لي..

ضحكت "ملك" بمرح وهي تغمزها:

- إحنا تحت أمر البرينسيس..

ابتسمت الفتاة بامتنان، ظللهما صمت حتى وصلتا للمنزل، هناك تناولتا طعام الغذاء سويًا وجالست الخالة ابنة أختها لدقائق تسللت خلالها الابنة للقاء أخيها عند المسبح كما أخبرتها أمها، وجدته مستلقيًا فوق

سطح الماء باسترخاء شديد فنادته.. لم يجِبها، بل بدا كأنه لم يسمعها، كررت النداء ولا جواب..

لمحت كوب عصير طازج نصف ممتلئ على طاولة مجاورة، ارتشفت ما تبقى فيه بسرعة ودون اهتمام ملأته بقليل من ماء المسبح واتجهت نحو أقرب نقطة من أخيها ورشته بها.. فتح عينيه بانزعاج ليراها تشير إليه بسماجة:

- صحِ النوم..

تأفف بضيق وأسقط جسده في الماء:

- وآدي الأتموسفير باظ..

زمت شفتيها حانقة وعلا نبرتها تهديد:

- بقى كده!.. عامة مش مهم، تعالى هنا عاوزاك.

رفع حاجبًا متهكمًا ومال جانب فمه بسخرية:

- اطلبي بطريقة أحسن من كده شوية..

- مرواااان..

صدحت ضحكته بالمكان ثم اقترب سابحًا نحوها ببطء مثير للغيظ، تخصرت تراقب اقترابه حتى استند بذراعيه لجانب الحوض ورفع وجهه إليها:

- خير!..

جلست القرفصاء تدنو منه مغيرة نبرتها لرجاء ناعم:

- عاوزة منك خدمة..

مط شفتيه ولم يرد، عضَّت شفتها السفلى بارتباك لم يغِب عن عينيه وأردفت:

- شيري عزمتني على عيد ميلادها بعد بكرة.. هتقنع بابا وماما..

أشار بيده وهز رأسه مستنكرًا –بافتعال- لهجتها التقريرية:

- هاقنع!.. طب اقنعيني أنا الأول..

- يوووووه.. مرواااان..

ابتسم يغيظها أكثر:

- واضح إن اسمي عاجبك..

لكمت كتفه بسخط وكادت تكررها لكنه أمسك يدها مهددًا:

- هاشدك في المياة لو ما بطلتيش..

تدللت برقة وتحولت قبضتها لتربيتة لامست بها زاوية عنقه في شبه رفق قدر استطاعتها، هي تود إغراق رأسه في الماء وحسب:

- طب قلت إيه؟!.. أنت عارف إن لا ماما ولا بابا ليهم في الجو ده.. وغالبًا مش هيوافقوا.. عاوزاك بقى تستغل مهاراتك في الإقناع..

تظاهر بالتفكير لحظات، شعرت خلالها أنه يلاعبها ليغضبها فتماسكت بصعوبة تريد ضربه بقوة تلك المرة.. ثوانٍ أخرى حكَّ فيها ذقنه بعدها قرر:

- موافق.. بس بشرط..

- شرط!.. على فكرة أنا أختك الكبيرة..

تراجع بعيدًا عن الجدار بظهره وأشار بيده مودعًا:

- خلاص اتصرفي بمعرفتك..

- طيب طيب.. شرط إيه؟!..

وسكن ثانية حتى رمقته بسخط فضحك:

- أنا هاوصلك.. وساعة وأرجع آخدك..

- ساعة؟!.. ليه هاسلم عليها وأجري؟!..

- إمممم.. ساعة ونص..

- خليهم تلات ساعات وديل..

- ساعتين آخر كلام.. إحنا هنفاصل!..

تطلعت إليه حانقة فابتسم مستمتعًا:

- ماشي يا مروان.. مردودة لك..

توسعت بسمته بثقة وعاد يقترب من الجدار، يقفز فوقه بمرونة دون استخدام السلم ليواجهها مشاكسًا بجسد يتساقط منه الماء:

- ما أظنش.. عِدي أنتِ بس الخدمات دي..

شقت مسامعهما شهقة قريبة فالتفتا نحوها ليجدا "سما" تتراجع في خطوات متعثرة إلى داخل المنزل، عقد هو حاجبيه بتساؤل وفهمت هي فوكزت صدره بإصبعها بينما تلقي نحوه بمنشفة عريضة:

- غطِ نفسك يا ابني..

التقطها منها وستر بها جذعه العاري مشيرًا نحو المرتبكة باعتذار:

- سوري يا سما ما خدتش بالي..

وأخته عادت تلكمه مغتاظة:

- وأنت من إمتى بتاخد بالك!..

كان يدرك أنها تشير لأمر آخر تغاضى عنه ببساطة وجفف نفسه، فليس هو أول أو آخر رجل قد تراه على هذه الهيئة قرب مسبح، توجه نحو المقعد يتناول من فوقه قميصه القطني، ارتداه وتمدد براحة:

- يلا شوفي أنتِ رايحة فين؛ خليني أحاول أظبط الأتموسفير تاني..

قررت أن تتجاهله بالمثل بعد نظرة مميتة لم تبخل عليه بها.. تسارعت خطواتها لحاقًا بالهاربة الصغيرة، وشغلت عقلها بما هو أهم..

لديها حفل.. وعليها شراء ما يناسبه..

بل ما يجعلها الأجمل في عينيه يومها..

فجأة تساءل عقلها غاضبًا.. "منذ متى باتت تلك اهتماماتك ملك؟!"..

ولم تكترث لجواب..

فيكفيها نبض قلبها خير دليل..

***

البعض لا يدركون قيمة الخسارة إلا بعد السقوط في براثنها..

تَذَوُق لذوعتها ومعاناة مرارتها.. يجدون أنفسهم ضائعين بمتاهاتها، جرحى قريبين من الموت بين مخالبها..

لا يحترزون لها مقدمًا، ولا يعون أنها قريبة من البشر حد النِعَم.. حد السعادة.. حد الألم!..

وهي بكل برائتها، شقاوتها، طيش عمرها القصير ونزق مراهقتها كانت من هؤلاء المهزومين في معركة مع الحياة، معركة لم تعلم حتى أنها بدأت..

تاهت بناظريها نحو الأفق الذي غابت شمسه وحل عليه الظلام بردائه القاتم، تاهت كما اعتادت مؤخرًا في ذكريات أصبحت زادها للقادم من أيامها.. زادها جوار الصمت والخنوع والخوف..

أغمضت عينيها ودمعة قاسية تسيل هاربة فوق وجنتها، تستعيد ذكرى هناءٍ لم يعُد في متناول اليد وراحة باتت حلمًا مستحيلَ التحقيق..

ذكرى حين ألقت بنفسها فوق ساقيه بغتة، تحيط عنقه بذراعيها، وتميل برأسها إلى كتفه هاتفة بمرح:

- حبيبي..

ابتسم بهدوء وقور وأحاطها في ضمة حانية يداعبها بتفهم:

- من غير لف ودوران؛ أكيد عاوزة حاجة ودي المقدمة..

مطت شفتيها في دلال طفولي وعاتبته برقة:

- داد!..

ثنى عنقه ومنحها نظرة تخبرها أنه لا يحتاج إلى حديث ليدرك نواياها فابتسمت بخجل، أعادت خصلة شاردة خلف أذنها وهمست في أذنه كأنما تخبره سرًا:

- جنى والشلة طالعين السخنة أسبوع.. وعاوزيني معاهم..

تراجع ينظر إليها بدهشة:

- أسبوع يا تيا؟!..

أومأت موافقة وقبلت وجنته:

- بليزوافق داد.. إحنا آخر مرة سافرنا كان من فترة، والدراسة قربت، كمان مامة جنى وباباها هيكونوا معانا، يعني ما تقلقش..

فكر للحظات راقبته خلالها بلهفة قبل أن يبتسم:

- موافق، بس هنروح كلنا وتتقابلي مع أصحابك براحتك هناك..

- بجد داد؟!..

- وأنا من إمتى باهزر يا بنت؟..

مالت تمنح وجنته الخشنة قبلة أطول ونهضت تبتعد هاتفة:

- Thanks حبيبي..

ومع خطواتها الراحلة بشقاوة سمعت أمها تخبره بحب:

- بتدلعها بزيادة..

وكان جوابه حنونًا كما هو معها دومًا:

- عندي مين تاني أدلعه يا علا؟..

عادت لواقعها، تنهض من أرجوحتها بحدة، تمسح دمعتها الغادرة بقسوة..

تتجه نحو المنزل القابع في سكون أشبه بقبر، تدخل إليه ودون أن تلقي تحية على أبيها وأمها تحركت تجاه الدرج لولا نداؤه المهتم:

- تيا..

التفتت إليه، وجدته يمد يده إليها بابتسامته المحبة:

- تعالي يا حبيبة بابا.. بقى لي كتيرما قعدتش معاكِ..

رمقت يده بحنين ثم تجاهلت طلبه واستدارت صاعدة برد مقتضب:

- أنا طالعة أوضتي.. هانام بدري..

تابعها بحيرة استداربعدها لزوجته والتي لم تكن أقل دهشةً أوقلقًا منه:

- أنا مش فاهم مالها يا علا.. قلقان عليها..

صوتها جاور القلق فيه التوتربينما تنهض لتتبعها:

- مش عارفة يا مراد.. كذا مرة أحاول أفهم مش عاوزة تتكلم، أنا هاطلع لها..

لحقت عيناه بها في انزعاج وهاجس يخبره بأسوأ الظنون!..

طرقت باب غرفة ابنتها بهدوء وفتحته، طلت من خلفه بنبرة حنون:

- حبيبة ماما مالها!..

كانت ممدة فوق فراشها بجوار ضوء شاحب تراقب السقف بضياع..

التفتت بوجهها نحو والدتها ورمقتها بحقد خفي، لم تسدِها صنيعًا بردٍ شافٍ، بل كان الصمت هو جوابها الوحيد..

دخلت "علا" لتجاورها مستندة لظهر الفراش، مدت أناملها تمسد خصلاتها المبعثرة برقة:

- تيا.. أنا وبابا قلقانين عليكِ..

وأخيرًا ظهر انفعال ما على ملامحها، التوت شفتاها بتهكم ساخر ورددت باستخفاف:

- بابا!..

ناظرتها أمها بدهشة مستغربة وتحولت نبرتها للجدية:

- أيوة يا تاليا.. ممكن تفهميني في إيه؟!..

استدارت توليها ظهرها ببرود:

- مافيش.. أنا كويسة، أنتوا اللي مزودينها شوية..

- تالياا..

زعقت بها بحدة فكانت لهجتها حانقة بوضوح:

- ممكن تسيبيني لوحدي؟!.. عاوزة أنام..

ضمت "علا" قبضتيها ومرت الحيرة ببطء فوق وجهها، امتلأت عيناها بحزن دون جوابٍ يريحها، دنت منها تربت على كتفها وتهمس باسمها في لوعة أم:

- تيا..

لكن الزفرة المتأففة أتتها جوار سُخط اللهجة وضغط أحرفها:

- عااوزة أنااام..

انعقد حاجبا أمها غضبًا وهَمًّا، انحنت تقبل رأسها بدفء:

- هاسيبك دلوقتِ، بس بعدين لازم أفهم..

ولم تلمح البسمة الساخرة التي توسعت بها شفتا ابنتها، بسمة انقلبت لضحكة هازئة خفيضة خفتت في نهايتها لدمعة أخرى.. تبعتها عبرات أغرقت وسادتها كما في كل ليلة..

عبرات تُنفس بها عن وجع قلبها وضيق صدرها ولا تَخرُج بها عن صمتها..

صمت مجبرة هي عليه..

صمت لو نطقت غيره حرفًا لتوقف عالمها عن دورانه.. بل انهدم فوق رأس عائلتها..

صمت عن خيانة..

عن عُهر..

عن غانية تدعي الشرف وتتلبس ثوب العفة وهي للفجور أقرب..

عن أب ليس بأب وحياة في كنفه لم تعد من حقها..

عن أم آثمة بخطيئة..

خطيئة كانت هي ثمرتها!..

(٣)

هل يبيح الحب شيئًا مما تنطوي عليه قائمة المحظورات بين أهله؟!..

يجيز الهروب!..

الحرب!..

يسوغ الحصار!..

يحلل الهجوم ويحرم الدفاع!..

ربما الأصل في الحب: الإباحة..

لكن شريعته قطعًا..

لا تحمي المغفلين..

ولا تنصر المستضعفين!..

الخريف..

يقولون عنه أنه فصل النهايات..

فهل أدركوا أن تلك النهايات لا تقود سوى لبدايات جديد؟!..

تسقط ورقة فتنبت مكانها أخرى أكثر صحة ونضارة، تذبل زهرة.. فتنعش بذورها قطرات المطر القادم تاليًا وتنمو أشد جمالًا وشبابًا!..

الخريف ألوانه تمتلئ بالطاقة، بريق برتقالي فقد درجات الأخضر لكنه ينبض بالحياة، بلون الشمس وقت الشفق؛ رُغم أنه فصل تساقُط، تطايُر، بعثرة وعشوائية التيه..

كان هذا رأي "غرام" الذي لا يتغير، فمن بين كل تتمة تختتم بها قصة؛ تبدأ حكاية أخرى، بإثر كل سقطة هناك قيام.. وعقب كل إخفاق ينتظر النجاح، ولابد بعد كل ظلمة من شروق..

وإن كانت بدايتها هنا أوقعتها في أعماق تحدٍ قبلته بثقة؛ فهي تعلم عن يقين أنها لن تنهزم!..

ربما تبالغ في تصوير الأمور..

لكن تلك هي تركيبتها، الجدية والنظام دون فوضى تحجب تركيزها وتفيض عليها بتشتت ترفضه مهما كان ذلك من صغائر الأمور..

هذا فقط عامها الأول!..

تقتحم عالمها الوليد بقوة وحسم.. وتصر على أن تصل لعليائه كما اعتادت..

بطموح جامح تصعد نحو القمة، ثم تبقى فوقها وذاك هو الأكثر عسرًا ومشقة!..

ترجلت من سيارتها تحمل ملفًا ورقيًا به عدة اسطوانات حديثة، دلفت لمبنى كليتها وخطواتها تقودها إلى مسار محدد..

قاعة العرض التي خصصها اتحاد الطلاب للمتقدمين للالتحاق به..

كانت شروطهم تعجيزية نوعًا ما، لكن العجز في قاموسها خُلق لتدهسه ثم تتخطاه، دلفت للمكان بترقب تتأمل الحضور، وتجعدت أنفها لحظة بضيق بموازاة تمرير عينيها بعيدًا..

فالمغرور "نجم الكلية" هنا!..

وبخها عقلها، بالطبع سيكون حاضرًا، أليس هو الرئيس؟!..

اتخذت مقعدًا منزويًا تطالع الجميع حتى هدأ المحيط بعض الشيء تبعًا لنهوضه وإشارة من يده، وقف بالمنتصف وأمسك بمكبر صوت تحدث عبره مرحبًا بالمرشحين الجدد، بضع كلمات حماسية عن أهمية اليوم والعضوية ذاتها، تطرق للأنشطة التي يهتم بها الاتحاد تحت إشراف أساتذة الكلية، تحدث بشيء من الاستفاضة عن الخدمات الهامة التي يدعمها ويقدمها.. وأخيرًا منحهم حرية البدء..

تراجع يجلس بأحد الأركان، مجلسًا يتيح له حرية المراقبة، وبذات الوقت يترك لمن يقوم بتقديم عرضه مساحة كافية من التنقل دون تشتت أو توتر..

تبًا له، عيناه البنيتان تشبهان عيني صقر..

تنقلت نظراتها بينه وبين زملائها الذين سبقوها، لم يتحدث البتة، يترك النقاش والأسئلة لباقي فريق العمل واكتفى بالصمت والمتابعة المتفحصة.. المثيرة للغيظ والحنق!..

والمربكة أيضًا..

تنهدت، دورها قد حان..

استقامت بكبرياء، توجهت نحو جهاز العرض وناولت المسؤول ملفها الخاص، تشاورت معه قليلًا ثم تحركت نحو المنتصف لتبدأ..

ومع بداية وصول صوتها إليه عندما كان منشغلًا بحديث جانبي انعقد حاجباه..

هذا الصوت مر بأذنيه من قبل.. لكن متى!..

التفت ليتذكرها ببطء، صاحبة البريق الرمادي الغامض والعنيد، تلك الفتاة الجديدة التي ظنته يغازلها وصديقتها بأول يوم دراسي..

ماذا تظن نفسها فاعلة؟!..

تحقق من عدة أوراق أمامه ليجد أن من قَبِل ترشُحها هو طالب بالسنة الثانية يجلس عن يمينه الآن.. يجلس دون أن يرفع عينيه عنها وبنظرة جريئة لم ترُق له البتة!..

زفر متضايقًا وتراجع بمقعده يستمع لشرحها، يتابع حركتها المتوازنة الثابتة وحديثها المنمق الواثق، إشاراتها نحو الشاشة خلفها دون حتى النظر إلا بلمحة خاطفة، وعودتها لتقديم ما في جعبتها..

واعتدل!..

حقًا فتاة غريبة..

نعم بعامها الأول، بل مر فقط على بدء الدراسة أكثر من شهر بقليل، ورغم ذلك فهي تبدو كأنما بداخلها قائدة بالفطرة.. ارتكن لركبتيه بمرفقيه، دقق النظر وأصاخ السمع معجبًا بما تطرحه ومتعجبًا كذلك!..

تُظهر ذكاءً خلاقًا.. تبدي قوة واثقة.. تثابر بإصرار.. ويلوح على وجهها عشق التحدي!..

تلك كانت نتيجة أولية توصل لها عنها، تخلل أفكاره صوت ذاك الفتى الذي قبِلها بسؤال أجابته بثقافة واضحة، وكرر أسئلته وكانت ترد بحيادية ونبرة متماسكة حتى شعر أن بالأمر شيء خاطئ..

وعندما حانت منه التفاتة أخرى تجاه زميله فهم اللعبة..

المبتدئة تُعجِبه.. وهو فقط يبحث عن مغامرة ما معها!..

زم شفتيه ودمدم بغيظ:

"غبي"..

ملامحها الآن ارتسم عليها شيء من ضيق رُغم لهجتها التي لم تتغير ومتانة حُجتها التي لا تهتز، تلاقت عيناها بعينيه للحظة سكون هتف عقبها:

- خلاص يا سليم.. واضح إن الآنسة دارسة الموضوع كويس..

أومأ لها لتنهي عرضها بموازاة نظرة محذرة زاجرة رمق بها اللحوح فأخرسته بتذمر أخفاه مجبرًا..

بعدما أُختتمت العروض التقديمية لذلك اليوم كانت تقف أمام المكتب الذي يجلس خلفه جوار أحد زملائه، تناظره بتحدٍ أن يرفض ترشحها، تحدٍ لم يستغرق من ملاحظته سوى ثانية تجاهله بعدها بينما يمد يده إليها بمغلف بلاستيكي شفاف:

- هتملي بيانات الأوراق دي بعدها تسلميها لإدارة رعاية الشباب..

هزت رأسها موافقة دون حديث فأردف بتساؤل:

- في لجنة معينة حابة تكوني فيها!..

- الجوالة والخدمة العامة..

دهشة استغرقت منه جزءًا آخر من الثانية، رد سريع، تصميم صريح، ولجنة لا تناسب فتاة بالتأكيد:

- لجنة متعبة..

هزت رأسها وغيومها الداكنة تتوهج بعزيمة:

- أنا قدها..

شبح ابتسامة غير مفهومة ناوش ثغره، أعاد عليها ما ينبغي فعله متممًا حديثه:

- تمام.. بالتوفيق في الانتخابات.

تمسكت بالأوراق في يدها وهو استأنف ما كان يفعله دون أن يعيد عينيه إليها، تحركت بخطوات أقرب للهرولة خارجة من القاعة، عند بابها توقفت، استدارت للحظة تلقي نحوه بنظرة أخيرة.. ظنت أنها ستلتقي بنظرته لكنه خيب توقعها، أو للدقة دَحَر سوء ظنها؛ فرأسه كان مدفونًا بما بين يديه..

تأملته قليلًا ثم تمتمت بحيرة:

- معقول فهمته غلط!..

انتبهت لنفسها، لشرودها القصير، لتفحصها له، لما همست به.. وامتلأت بالحنق، عادت تغادر في عجل.. وعقلها يعاند بتوبيخ أخيرردًا على سؤالها:

- أكيد لأ..

والعنيدة تظل على طريق الثبات.. تقاوم التأثر بجبل جليدي اصطدمت به بغتة، فباتت دواخلها مترددة مترنحة مثقوبة تمتلئ بالظنون.. كسفينة على وشك الغرق..

***

هو رجل يهوى الشتاء.. وقد ظن أن الدفء يكمن دومًا بين شفتيها..

البسمة التي تشرق لها وبها عينيه، الخجل الوردي الذي يغزو وجنتيها، رقة ملامحها ونعومة نبرتها وارتباكها حين تتملك منه الجرأة ولو للحظة..

لا يدري أذاك الارتباك لأنه يؤثر بها!.. أم لأنه يتخطى حد المباح بينهما وحسب!..

عشقه أجاز له كسر كل المحظورات، وخوفه يكبله عندما تتلاقى النظرة على درب المستحيل، فتهرب هي ويصمت هو..

"ها يا بطل.. مستعد؟"..

أتته مقاطعة تحمل صوت معلمه تسحبه من أفكاره، رحب بها بتنهيدة، ربما رد الفعل الصحيح ينبغي أن يتضاد في الاتجاه، وما أفضل من العمل ليشغل ذهنه!..

التفت نحوه بابتسامة وهو يضع كمامته فوق فمه وأنفه:

- Born ready يا دكتور محمد..

ابتسم الرجل وتحرك نحو غرفة العمليات، أشار إليه ليتبعه بحزم:

- طيب يلا بينا.. عاوز تركيزك الكامل يا يوسف.. العملية مهمة وصعبة وهتاخد مجهود ووقت طويل، بس هتفيدك عمليا جدا..

جاوره بخطواته نحو غرفة التعقيم منهيًا تحضيراته:

- طول عمري باتعلم منك يا أستاذي..

لمعت عينا الرجل بود دون أن يجِبه، بالداخل كان المريض ممددًا على طاولة العمليات، حوله عدد من المساعدين يقومون بتجهيزه بحرفية يُشهد لها..

دقائق أخرى قصيرة وسمع سؤالًا مهتمًا غير موجه له:

- هي دكتور دانة لسه ما وصلتش؟!..

"وصلت طبعًا، عملية ما ينفعش تتفوت يا دكتور محمد"..

استدار نحو باب المكان الذي دلفت منه صاحبة الكلمات ذات اللهجة الواثقة، طبيبة ممشوقة القوام رغم زيها الطبي شبه الفضفاض، الكمامة الطبية تغطي نصف وجهها وجبينها ورأسها ما عدا عينين واسعتين، لامعتين بذكاء سافر، بتر تأمله صوت الطبيب الأكبر سنًا يعرفهما:

- دكتور دانة يا يوسف، بنت صديق عزيز برده ما يقلش في معزته عن والدك وموهبتها مشهود لها معانا.. دانة ده يوسف اللي كلمتك عنه..

رفع ناظريه إليها مندهشًا أن تمر سيرته في حديث بينهما!..

وجدها تتأمله بفضول استغربه، فهي أخذت جولة بطيئة نسبيًا صعودًا من قدميه حتى رأسه قبل أن يظهر على جانبي عينيها انكماشًا يوحي ببسمة:

- حمد الله على السلامة يا دكتور يوسف..

انعقد حاجباه.. لقد مطت أحرف اسمه بنعومة لم تمر نبرة تشبهها بأذنيه قبلًا!..

رد تحيتها ببساطة بعدها عادا للعمل الجدي، مرت الساعات بطيئة مهلكة.. هو يظهر مهارته الخاصة وهي تكاد تجاريه مهارة بينما الأستاذ يشرف على التعاون الذي يراه واعدًا أمامه، انتهى الوقت بنجاح باهر.. وتم نقل المريض لغرفة الرعاية، خرج الأب الروحي لكليهما منشرحًا مشجعًا:

- هايل يا دكاترة بجد.. هتعملوا تيم ممتاز..

توقفت تنزع كمامتها وغطاء رأسها وردَّها أتى بلهفة فخورة بمدح معلمها:

- برعايتك وتوجيهاتك يا أستاذنا..

ربت الرجل على كتف "يوسف" وغادر المكان عائدًا لغرفته لينال قسطًا من الراحة، وقتما تجمدت العينان الزرقاوان على تلك التي وقفت بمواجهته تتخلص من ردائها الملوث بآثار العملية كأنما تنزِع عن نفسها سِتر الثمرة المحرمة..

فاتنة لدرجة خاطفة للبصر..

ساحرة شرقية بامتياز، لها وجهًا منحوتًا..

خصلات سوداء كثيفة للغاية، نفضتها بين أناملها لتتجاوز كتفيها بقليل..

مقلتين بذات اللون، كحيلتين برسم منحهما اتساعًا آسرًا..

وثغرًا ورديًا مكتنزًا.. يغري بالقُبل!..

كانت تفاحة آدم المقطوفة خِلسة بوسوسةِ اشتهاءٍ آثمٍ..

انتبه لاتجاه أفكاره الغريب فهز رأسه بعنف على صوتها الرهيف:

- إيه رأيك تعزمني على قهوة وتكلمني بتفاصيل أكتر عن تجربتك في كندا؟!..

تخلص من كمامته بدوره، ابتسم متجاهلًا ما مر بذهنه ومرحبًا بهدوء:

- نخليها غدا لأني ميت من الجوع؟!..

غاصت بسمائه الصافية للحظة شاردة قبل أن تعبر فوق شفتيها بسمة مشابهة:

- اتفقنا..

وتساءل رجل الشتاء..

هل دفء صقيعه.. بين يدي السمراوات فقط!..

أم هي جيناته الغريبة التي تنجذب لكل ما هو مخالف له في الاتجاه!..

***

في دنيا الحكايات الخرافية، النساء دومًا ما كُنَّ موسميات..

متقلبات، تتنقلن بين الفصول الأربعة كوردة ندية غفلت عنها الأشواك، تعدو نحو النضارة، تتلكأ في طريقها للذبول، تبحث عن الارتواء، أو تسطع تابعة لأشعة الشمس..

وكلها قد تحدث في آن واحد يصيب الرجل بالجنون..

إلا هي..

فتاته المشابهة للصيف في حرارته لكنه فصل الحرية والتخلص من القيود، فصل الانطلاق واللذة وندى البحر وموجاته التي يهرب الكل إليها..

امرأته وأنثى قلبه الوحيدة.. ملكة عرش عمره الذي مضى، وسلطانة ما هو آت..

تلك التي يبحث عنها بعينيه وأولى خطواته عند دخوله للمنزل، فيُطمئن جبينها بقبلة عودة، وتضمه لصدرها بدفء انتماء!..

ترك ما بيده على طاولة قريبة من الباب، لم ينادِ أو يسأل ابنته الجالسة على مقرُبة، فقط ابتسم لها وتتبع حدسه متجهًا نحو المطبخ.. الرائحة شهية، ويبدو أنها منهمكة بتجربة جديدة يعلم بلذة مذاقها مسبقًا..

كانت هناك بالفعل، مندمجة للغاية فلم تشعر بقدومه إلا عندما اقترب وحاوط خصرها بذراعيه مقبلًا رأسها، انتفضت لثانية وبختته بعدها:

- مافيش سلام حتى!.. خضيتني..

شدد من ضمته جوار همس مشاغب:

- قاصد على فكرة..

استدارت دون أن تغادر دائرة احتوائه وعاتبته برقتها الفطرية:

- اتعديت من أدهم بزيادة..

تعالت ضحكته التي تأسر قلبها ومال يدلل شفتيها تلك المرة بلمسة خاطفة:

- كان عندي استعداد والله، بس كنت محتاج اللي يوجهني..

ضحكتيهما امتزجت في لحن عشق صاخب وهو يتراجع مبتعدًا، يلتقط من طبق مجاور قطعة من اللحم المطهو ويتذوقها بتلذذ بطيء:

- فين سها؟!..

اعتدلت تكمل عملها:

- في أوضتها..

ثم انتبهت وتوقفت مرة أخرى تلتفت نحوه:

- ما تقولش جهزت لها المجموعة؟!..

أشار بأصابعه في حركة منتصرة:

- المجموعة الكاملة لأجاثا كريستي، مش ناقصة عدد واحد..

ابتسمت وتوجت عينيها نظرة عاشقة، فرجلها لا يزال يفاجئها، يسعدها ويهتم لها ولصغاره كأنما هم العالم بأكمله لديه:

- هتفرح قوي.. روح لها..

أومأ موافقًا واختطف من وجنتها قبلة أخرى قبل أن يغادر غامزًا:

- بعدها هاجيلك تاني..

ولم تفهم معنى نظرته وغمزته أو حتى مدلول كلماته لكنها شيعته ببسمة واستأنفت عملها، دقائق قصيرة ووصلها صوت المدللة الصغيرة يصرخ بمرح، تأكدت في تلك اللحظة أنها تتعلق بعنق أبيها الذي وفَّى بوعده لها..

ساعدتها "حلا" في تحضير المائدة، واجتمعت الأسرة لتناول الطعام، تبادل الأخبار والحديث عن اليوم الذي مر.. بعدها جاورها زوجها يتابع إحدى مباريات كرة القدم بحماس لم يشبهه سوى حماس ابنه، وجلست هي تعمل على حاسوبها واضعة اللمسات الأخيرة على تصميم دعائي جديد لمجموعة العائلة..

انتفض فجأة وكاد يهب واقفًا، جبينه ازدان بعقدته الغاضبة وابنها يترجم رد الفعل بطرقعة يديه وصيحة حانقة:

- ضيع الجول..

هزت رأسها وابتسمت فهي اعتادت تلك الأجواء في كل مرة، انتهت المباراة بفوز فريقه رغم كل شيء، ولأنه سعيد فقد عرضت عليه عملها بحثًا عن رأيه ليخبرها في النهاية بحنو:

- يعني بقيتِ خبرة أكتر مني؛ مستنية رأيي ليه!..

وتهمس بخفوت في رقة تذيبه:

- بحب نظرتك الفنية يا أستاذي..

وجدته يطلق زفرة قصيرة؛ فالهمسة خصته وحده دون أن تصل لأولاده المنشغلين كلٌ بهاتفه، استقام وأكسب نبرته شيئًا من حسم:

- يلا.. الوقت اتأخر ووراكم كليات الصبح، وسها ما ينفعش كل مرة تتأخري على باص المدرسة وأنا اللي أوصلك..

ولأن المدللة كانت سعيدة فقد استجابت للأمر بعد ضمة وشكر مبتهج آخر، وعَدَت قفزًا نحو غرفتها يلاحقها صوته:

- ننام يا سها، مش نقلب في الروايات..

توقفت بزمة شفاه طفولية رسمت على فمه بسمة كبتها مصطنعًا الجدية، رفع أحد حاجبيه فامتثلت بخضوع متذمر:

- حاضر..

اطمئن على أولاده ثم مال نحوها، أخذ الحاسوب من يدها ليطفئه، وجذبها متجهًا إلى غرفتهما.. استغربت ما يفعله لكنها تبعته بتساؤل صامت، هناك أغلق الباب خلفهما، تحرك نحو أحد المقاعد وجذب من فوقه حقيبة ورقية ناولها إياها بنظرة موحية، تطلعت إليها لحظة ثم أمسكت بها هاتفة بسعادة.. فهو لم ينسَ مدللته الكبرى:

- هدية عشاني برده؟..

ابتسم ولمع بعينيه شيء من فضول ماكر:

- أكيد.. هدية خاصة جدا..

راقبت نظرته بدهشة، ملامحه منفرجة ببساطة وعقدة جبينه تفككت بعض الشيء لتمنحه هيئة عمره الحقيقي كرجل أربعيني تشاكس دُجنة خصلاته شعرات رمادية متفرقة أهدته وسامة أكبر..

أمسكت بحقيبة الهدايا الأنيقة، مدت يدها داخلها بحذر وعيناها لا تفارقان نظراته المستمتعة والمترقبة بذات الوقت، ما لامسته أثار استغرابها فقررت أن تلقي ببصرها إلى ما جذبته من داخلها لترمقه بذهول أمام وجهها:

- إيه ده!..

ومائة علامة تعجب استنكارية لم تكن كافية جوار لهجتها وتفرُق جفنيها باتساع جذاب أظهر عسل مقلتيها بكرم، وهو لم يهتم.. اقترب حتى بات الفاصل بينهما يدها التي تيبست بهديته، مال برأسه وجاوب ببراءة:

- قميص.. وردي..

رد متقطع جعل وجنتيها مع الكامن بين جفنيه تحمران بشدة وكأنما لم يمر بهما العمر بعد:

- زيااااد..

تنهره بخجل امتزج بدلالها الخاص فيعتدل ويأمر حازمًا ويكتسي وجهه بجدية مفتعلة:

- البسيه..

- بس..

- البسيه..

وضغط الأحرف الأولى وأطال المد بأمر معاند، عقدت ساعديها أمام صدرها تتدلل متظاهرة بالحنق:

- يعني جايب لي هدية عشانك أنت؟!..

مط شفتيه متجاهلًا اعتراضها، خطا نحو الفراش يتمدد فوقه باسترخاء.. استند ليديه المعقودتين خلف رأسه موحيًا بالانتظار:

- هاستنى كتير!..

منعت بسمتها من الطفو عنوة تزين ثغرها فالذكرى هي الأغلى، استدارت تغادره نحو حمام الغرفة مدمدمة:

- ماشي يا زياد..

دمدمتها وصلته فتكررت البسمة، انتظر غيابها ثم نهض تاركًا مكانه بنشاط، من داخل خزانة الثياب التقط صندوقًا ورقيًا وضعه أمامه على الفراش، فتحه ليجد عدة اسطوانات انتقى إحداها ودسها بجهاز عرض خاص.. أمسك بجهاز التحكم واستقر بجلسته المستريحة مخبئًا الصندوق إلى جواره..

دقائق وعادت إليه..

عادت فاتنة بخصلات طويلة مُسدلة، مغوية ببراءة مهلكة.. خجول تنكس عينيها تعانق بهما خطواتها المتمهلة في اقترابها منه..

توقفت عندما لمحت نظرته نحوها ليبادرها بمكر وازى تفحصه المتمعن بجرأة:

- في تحته حاجة!..

- زيااااد..

تصرخ باسمه مرة وتالية، فيضحك ويمد يده يجذبها لتستقر فوق صدره، حرك الصندوق لتراه، قدمه إليها بهمس محب:

- هدية عشانك المرة دي.. وفينتاج برده..

اعتدلت فجأة ترمقه بدهشة، قبل أرنبة أنفها وداعب ذقنها بسبابته:

- افتحيه..

لم تترك عيناها عينيه..

تعلقت بهما تستقر هناك في موطنها الآمن، بل مسكنها الذي لا ملجأ لها سواه..

حثها بإشارة من رأسه فابتسمت وسحبته منه، فتحته بترقب لتجد مجموعة كبيرة من الاسطوانات، تنقلت بينها تتطلع لعلبها المُعنونة بفرحة، رفعت ناظريها فقابلتها ابتسامته الحنون تشق وجه، اندفعت نحوه تتعلق بعنقه كأنما هي طفلته:

- بحبك قوي..

توسعت بسمته واحتواها يقربها منه:

- ربنا يخليكِ ليَّ..

عندها تراجعت تمسك بوجهه بين كفيها، تغوص في سواد مقلتيه الحالك:

- مش مصدقة إنك افتكرت!..

أمسك بكفها وحركها يدس شفتيه بباطنها، يلثمها بدفء:

- وأنا من إمتى بانسى أي حاجة بتحبيها!..

بدت مبتهجة بينما تقلب في محتويات الصندوق:

- المجموعة كبيرة قوي يا زياد، تقريبًا كل الأفلام الرومانسية القديمة..

كان يعلم أنها تحادث نفسها فصمت يستمع لها بينما هي حائرة:

- طيب نتفرج على إيه!..

ناولها جهاز التحكم مشيرًا نحو الشاشة العريضة التي تحتل الجدار المقابل للفراش:

- شوفي اختياري..

رمقته بنظرة محبة وأشعلت التلفاز.. لتكون مفاجأة أخرى باختيار لطالما عشقته:

- You've got mail..

اعتدلت تندس بين ذراعيه وتحيطه بذراعها:

- الفيلم ده تحفة..

وهو شاكسها متعمدًا، وآملًا:

- هو إحنا هنشوفه كله؟!..

سؤاله مر بذهنها دون فهم فرفعت بصرها إليه لتجده يميل برأسه ويتحكم بذقنها، يثبت وجهها بيد، ويده الثانية تغلق التلفاز بضغطة واحدة:

- إحنا هنشوفه أصلا؟!..

- زياا...

لم تكمل اسمه..

ولم تشاهد الفيلم..

بل عاشت قصتها الخاصة ما بين شغفه، عشقها.. وجنون اللحظة!..

***

يجيد معظم الرجال إن لم يكن جميعهم العبور فوق تفاصيل قصة يظنون بها قرب النهاية، يتظاهرون بالانشغال، وأحيانًا يفلح البعض في الاندماج الفعلي فيندمل الجرح، أويقترب من الالتئام الشافي..

أما قصص العشق فأبدًا لا تُشفى، قد يتوقف النزف.. وتظل الندبة باقية تذكربما كان، بالخسارة، بالفقدان!..

ربما يبالغ!..

روايته مازال بها صفحات فارغة ينوي امتلاك حبرها، لكن الهوامش مضنية لقلبه المتيم بمن ترى ما بعينيه وتتجاهله ثم تستمر بدربها دون التفاتة أمل..

خلع منظاره الطبي وفرك أعلى أنفه بتعب، تأمل أوراقه بعد ما يتجاوز ساعة ونصف من العمل المستمر وابتسم برضى، تراجع بمقعده يريح ظهره لدقيقة قبل أن يستأنف ما يقوم به..

حينها أتته المقاطعة بضجيج مزعج وبابه يُطرق بسرعة، ينفتح وتندفع عبره عاصفة صغيرة ضمته من الخلف بشدة:

- جووو.. عاوزينك ضروري..

تحشرج صوته مع عنقه المُعتصرين ساعديها ففككهما ملتفتًا نحوها:

- يا بنتي مش كده، اعقلي كنتِ هتخنقيني..

ضحكتها المرحة جاورت دخول توأميها، الوردية بنظرة بريئة تثير حمائيته، والعابث بنظرة ماكرة تثير ريبته!.. أدار وجهه بينهم بتوجس:

- مش مطمن.. خير!..

أغلق "آسر" الباب واتجه نحو الفراش يتمدد فوقه:

- لا كل خير يا كبير ما تقلقش..

زوى "يوسف" ما بين حاجبيه بتساؤل لم تترجمه شفتاه، بل بتره رنين هاتفه برسالة أثارت فضول أخيه فالتقطه ينظر نحو الاسم الوارد بخبث:

- دانة!.. هي بقى فيها دانة؟!..

والرقيقة همست باستغراب:

- مين دانة؟..

أما المشاغبة فقد عقدت حاجبيها بمزاح:

- هي مش الدانة دي اللي هي دانة المدفع؟!..

جلجلت الضحكات ليعقد هو حاجبيه بتهكم متجهًا نحو أخيه، يجذب هاتفه من يده:

- مدفع يا جهلة!.. الدانة يعني لؤلؤة..

والأخ المشاكس اعتدل يرد بعبث وقح:

- والله دانة مدفع، لؤلؤة.. ما تفرقش معانا الأسماء.. المهم...

ثم حرك يديه بتوازٍ في إشارة لمنحنيات أنثوية استحق على إثرها لكمة في كتفه من أخيه الأكبر ليتأوه بقوة:

- جرى إيه يا أخي؟!.. إيدك تقلت قوي على فكرة..

- عشان تحترم نفسك..

و"صبا" جاورت أخويها فوق الفراش دون أن تتوقف عن فضولها:

- ما قلتش.. مين دانة بقى؟..

جاوبها باقتضاب:

- دكتورة معايا في المستشفى..

بعدها منعهم المزيد من الأسئلة عائدًا لنقطة البداية بحسم:

- ما قلتوش أنتوا.. عاوزين إيه؟!.. أنا مش فاضي باجمع داتا للرسالة..

اقتربت "سما" من الجلسة تحشر نفسها جواره وترمش بأهدابها:

- عندي رحلة في الكلية.. هي مش رحلة، هي أقرب لتدريب عملي في الأقصر وأسوان.. عاوزين نطلعها كلنا..

زم شفتيه مستغربًا للحظة:

- طب تدريب في كليتك، إيه علاقة "كلكم" بالموضوع؟..

لفت "آسر" انتباهه بالرد:

- هما عشر أيام يا جو، تغيير جو وأنت عارف الوقت ده هناك بيبقى تحفة كل سنة.. المهم عاوزينك معانا..

تلك المرة ارتفع حاجباه وحل محل الاستغراب دهشة:

- معاكم!..

نهض يغادر منتصف المؤتمر المصغر، يهرب من التفافهم حوله:

- أنا دلوقتِ ورايا شغل غير الرسالة، مش فاضي للكلام ده..

تذمرت "صبا" بحنق:

- ما هو ماما مش هتوافق إلا لو أنت سافرت معانا..

رمقها بلؤم وتوأمتها تكمل:

- وبابا ممكن ما يقدرش يقنعها..

ويتمم التوأم الثالث المهمة والتوسل بمكر:

- أنت عارف إنها ضعيفة قدامك، وهتطمن لو أنت معانا يا كبير..

أشاح بيده وعاد يجلس خلف مكتبه:

- مش هينفع أسافر، بس هاكلمها.. ويلا برا بقى ضيعتوا تركيزي..

نال قبلة وثانية من المدللتين ولكمة ردها إليه المشاغب فنهره بعينيه قبل أن يرحلوا ويعم الصمت المكان..

ومع الصمت تعود الذكرى..

ويتواصل الهروب!..

***

فتاة الربيع العملية بشيء من حالمية تكسب دنياها لونًا ورديًا يشبه مثيلاتها؛ هي مجرد أنثى ولكل أنثى حلم بفارس..

فلِمَ قد تشذ عن سرب الحالمات!..

ستتبع الركب خلف قلب خسرته في معركة ضد نظرة هوى خالص بين جفني حبيب..

في قانون الباحثات عن الحب؛ العشق هو التفاحة التي تقضمها بلذة مشتهاة لتنال قبلة الأمير..

والأمير لم يكن المنقذ بهاته الحظة.. بل كان يراقب بعين شبه مُسبلة تلك الواقفة عن بُعد بعدما طلب من شقيقته منحه الفرصة لينفرد بها في الحفل..

تلك التي أغارت على قلبه دون سابق إنذار وهو من ظن أن الحب كلمة لن توجد بقاموسه، من كان لديه اليقين أنه يعلم ما يريد ومتى يريده فظهرت هي لتبدد يقينه وتحيله لشكوك تدور حولها وحدها..

حول رقتها..

عذوبتها..

ارتباكها بحضوره..

قوتها وعمليتها ورسميتها..

درعها الذي تختبئ خلفه، يرغب بأن يتخطاه، يحطمه.. ويكون هو حاميها، أميرها، ومعشوقها..

أحاطها ببصره في تبتُل صامت..

لا يفهم أي هوة تجذبه إليها لكنه فقط يريد السقوط معها دون سواها.. وللأبد!..

كانت هي تتلفت حولها، تتأمل المكان المضاء بأناقة.. تقضم ثمرة تفاح حمراء شهية بغيظ مستعيدة سخرية أخيها الأصغر منها عندما رأى ثوبها وابتساماته المتهكمة التي لم يستطع كبحها طوال الطريق، زفرت بحنق وصوته يرن بأذنيها كأنه صدى مستفز:

- أنتِ رايحة حفلة عيد ميلاد ولا عالم ديزني؟..

وقتها سبته بحنق:

- بطل سخافة..

نعم.. كانت تتنكر بالفعل كإحدى أميرات "ديزني" الشهيرات، بثوب تمازج فيه الأزرق مع الأصفر، وانتفش برقي كلاسيكي، يتوج رأسها وشاح أسود

لفته بدقة ليشبه خصلات بيضاء الثلج القصيرة فتبدو مثلها بنعومتها وبرائتها.. بل وبيدها ثمرتها المسمومة في الحكاية..

أخرجها من شرودها تلك اليد التي اقتحمت المشهد تنتزع من يدها التفاحة.. تراجعت خطوة بانتفاضة لتجده خلفها ببسمة ماكرة:

- نزار!..

لوح بالثمرة قبالة عينيها:

- سنووايت لازم تاكل التفاحة؟!..

ظهر بمقلتيها حيرة بددها باقتراب غير مباح:

- كانت خدعة بس البرينس تشارمينج أنقذها..

حينها اكتملت الصورة بعقلها وهو يردف بعبث:

- بقبلة الحب الحقيقي..

ابتعدت بارتباك بدا لعينيه لذيذًا، بل كانت كلها شهية.. شهية وبعيدة لا تطالها أنامله مهما امتدت نحوها..

وذاك قاسٍ بشدة..

تأملت ما يرتديه فكان زي أميرها حقًا، ابتعدت أكثر هاربة من حضوره الذي يوتر مشاعرها ويقتحم أنوثتها.. لكنه أوقفها بنداء حازم:

- ملك..

لم تستدر إليه فالتف هو حولها ليواجهها بجدية:

- عاوز أتكلم معاكِ..

أمرت نفسها أن تتحلى بقليل من الشجاعة، فتلك التي تقف ساكنة صامتة كتمثال من حجر لا تشبهها في شيء، سحبت دُفقة هواء تهدئ بها جنون نبضاتها، وتحدت عينيه بنظرة تدعي الثبات.. نظرة أعادت إليه روح المداعبة فتحرك خطوة مقتربًا بهمس باغتها محتواه:

- تتجوزيني؟!..

دقاتها التي كانت قد هدأت للتو اشتعلت بثورة، أنفاسها تقطعت بصدرها، وخطوته أتت منها ثلاث تتباعدها بصدمة، تغاضى هو عن صدمتها وعاد يدنو منها متممًا همسه بنداء يدغدغ مشاعرها:

- ملك!..

هل لمحت بمقلتيه قلق!..

هل مَرَّفوق نبرته خوف!..

أذاك توثيق لعهد عشق!..

- قولي حاجة..

ولم تدرِ ما يمكنه عبور حلقها الجاف بتلك اللحظة التي طالت كدهر.. وكان هو يبرر ويقترب، يحاصر ويقتحم، يهاجم ويجتاح:

- أنا راجل دوغري يا ملك.. متعود على المواجهة، دايما لما باكون عاوز حاجة باطلبها في النور..

احتواها بنظرة دافئة.. عاشقة ألجمتها أكثر:

- وأنا عاوزك.. عاوزك تبقي مراتي..

ابتلعت ريقها بصعوبة تجهل ما عساها النطق به في حين كل أحرفها عصية متجمدة على حدود شفتيها:

- مش متعود أسرق نظرة أو كلمة.. وقربي منك مش هيكون في الضلمة..

ثم خطوة أخرى علا لهجته بعدها شغف كادت تلامسه:

- عاوزك في النور يا ملك.. مش مرتاح وأنا بيني وبين والدك شغل وجوايا مشاعر ليكِ باحاول أعبرلك عنها من ورا ضهره..

صامتة هي ومتوتر حائر هو، وتلك حالة يمر بها للمرة الأولى..

- ملك!..

يناديها، يمد يده نحوها ويتوقف، فحدود المباح لا يجوز تخطيها معها.. كانت تشعر بالهلع، بالفزع.. يغزوها بعينيه فتغمض عينيها وتشرد، تفكر..

هل سيوافق أبيها؟!..

توقن أنه لن يجبرها على ما لا تريد؛ لكن هل يمكنه رفض ما ترغبه بالفعل!..

نعم يعلم عن مشاعر ابن أخيه نحوها كما تعلم هي وتجيد الفرار من مواجهته حين ظهورها..

ترى سعادة من سيختار حين الجد؟!..

وصلها صوته يعيدها إليه بسؤال:

- أنتِ مش عاوزاني؟!.. مش.. مش..

استعصت الكلمة المرورعبرحاجزصمته، وجاوبته تبترنطقها:

- مش هينفع أفاجئ بابا بعرض جوازيا نزار..

لهفته كادت تلصقه بها بينما يقرر، ابتعدت بخجل:

- المهم إنك موافقة..

دارت بمقلتيها في المكان حائرة، مشتتة، وسعيدة..

عاد يكرر النداء..

نبرته عميقة بصوت رخيم داعب مسامعها، ورغم نظرته التي غرقت فيها كما تفعل دومًا كلما احتوتها عيناه إلا أنها هذه المرة..

قررت الهروب!..

هروبًا مكتمل الأركان.. بجسد استدار، وخطوتين لم تتم منهما الثالثة، وتيه مس العقل والقلب معًا..

أوقف هروبها بتملك رقيق لكنه حازم لكفها.. وأمْربالتفاتة ربما لا تستطيع رده:

- بصي لي..

سحبت يدها ومجبرةٌ خضعت.. وخافقها الذي يطرق أضلعها بصخب موجع استجاب، عندها تشبث بها، نظر وبعثر ما تبقى فيها من تماسُك:

- أنتِ عارفة إني بحبك..

تبًا له!..

هذه تتمة حمقاء للغاية أربكتها أكثر.. أضعفتها أكثر وتركت كل ما فيها مشتت:

- هتتجوزيني؟!..

الآن تحولت نبرته لأبحة، متخمة بمشاعر فوضوية، والعينان أصبحتا ككهف بلا قرار لا يمكنها أمامه سوى أن تخطو نحو أعماقه بلا إرادة..

جذبت يدها برفض وعاد يعاند، يسأل والتوسل هو سيد الموقف:

- أتقدم لعمي أدهم!..

ولا مفر من لقاء مُقل، تتجاذب فيه المشاعر أطرافُ حديثٍ لا عنوان له إلا كلمة واحدة..

"نعم"

وبموازاتها هزة رأس موافقة وتحريريدها من دفء قبضته..

وأخيرًا أهداها..

هروب!

(٤)

أن تأتي متأخرًا أفضل كثيرًا من ألا تأتي على الإطلاق..

قول مأثور..

قول أحمق..

قول قد يختتم حكايات لم تبدأ بعد..

قول أطلقه كسول لم يتعلم أن التأخير..

ربما تكون تبعاته..

خسارة!..

الأنثى دومًا كائن محير..

تفاصيلها كثيرة، وتتبُعها مرهق للرجل..

هي الحبيبة.. العشيقة.. الزوجة.. الصديقة.. الأخت والأم!..

هي تركيبة عسيرة على الفهم أو التصديق، مسألة حسابية منهكة لعقل هو أقرب لصندوق مغلق لا تتفرع عنه متاهات أو تتشعب به الدروب..

وهي في عالمه كل شيء.. أو لا شيء!..

"صباح الفل يا ست الكل"..

اقتراب، مداعبة بصوت مرح، وجملة تعرف مدلولها..

لذلك رفعت وجهها عن أوراقها ورمقته بنظرة عميقة متفحصة وابتسامة حنون تغزو جانب ثغرها، ابتسامة جاورت رفعة حاجب ورد حاسم:

- طبعا كلموك عشان تقنعني بسفرهم!..

منحها ضحكة لطالما أسعدت قلبها:

- طب رد الصباح الأول يا جميل..

ومر بخطواته متجاوزًا مكتبها، منحنيًا يلامس رأسها بشفتيه وجالسًا القرفصاء قبالتها:

- أنتِ عارفة اللي فيها يا ماما.. وعارفة إني هاقنعك وهتوافقي، بس بتحبي تتعبيني شوية مش كده!..

ربتت على وجنته الخشنة برفق:

- لأ مش كده يا يوسف.. أنا فعلا مش موافقة..

تظاهر بالصدمة دون أن يستقيم من جلسته:

- يوسف مش جو!.. لا كده الموضوع كبير بجد ، إيه يا لومي.. هتصغريني قدامهم؟!..

أنبته بعينيها معاتبة وتجاهلت تدليله لاسمها:

- هتسافر معاهم؟!..

- مش فاضي يا ست الكل والله.. الشغل والرسالة، أنا يادوب ماكملتش أسبوع في المستشفى مش معقول آخد أجازة على طول كده..

نهضت هي تبتعد عن حصاره العاطفي كطفلها الأكبر ومصب أمومتها الأول:

- يبقى مش موافقة..

تبعها بهدوء ووقف خلفها يتأمل صمتها، يدرك مخاوفها ويتفهمها.. دللتهم!..

ربما.. تخاف عليهم كما يقولون من نسمة قد تعبر جوارهم!..

بالتأكيد..

لكنهم لم يعودوا صغارًا.. وعليها أن ترى ذلك قبل أن يجبروها هم على رؤيته وربما تسبب القسوة حينها ألمًا يفوق احتمالها..

أمسك بكتفيها يديرها لتواجهه:

- ما بقوش صغيرين.. غيركده همَّ سوا، يعني هياخدوا بالهم من بعض، ما تخافيش عليهم..

وابتسم مطمئنًا ومتفهمًا:

- لازم مساحة من الحرية يا أستاذة..

تذمرت وأشاحت بيدها ببدايات غضب حقيقي:

- وهي الحرية دي لازم سفر طويل بالساعات وغياب عن البيت بالأيام؟!..

هز رأسه مفندًا بنبرة هادئة:

- في جميع الأحوال ده تدريب سما.. فأفضل يكونوا معاها بدل ما تكون لوحدها..

تنهدت بحيرة والقلق على أطفالها ينهشها كما هو الحال دومًا، ليتها تستطيع التصديق أنهم لا يحتاجون حمايتها بالفعل..

لكن هل ذلك ممكن؟!..

يشب الصغار عن الطوق، ثم يكسرونه ويحررون أنفسهم من قيود أمومتها..

أمومتها التي تأخرت وعندما أتت باتت ذعرها الأوحد وخوفها الأكبر..

هزت رأسها بتوتر يلازمها أبدًا، وكان هو يفهم.. مرر كفيه فوق ذراعيها بتربيتة احتواء:

- الأفكار دي مش هتخليهم تحت جناح ماما لآخر الخط..

رفعت إليه عينين متسائلتين فأردف ببسمة:

- كبروا.. ولازم يخوضوا في الحياة ويعتمدوا على نفسهم، الأستاذة مش هتبقى في ضهرهم طول الوقت..

كررت التنهيدة وحافظ هو على البسمة ليقاطعهما صوت أبيه ممازحًا:

- أنا جيت في وقت مش مناسب ولا إيه؟!..

استدارت نحوه بعين مشتتة احتواها بنظراته في لحظة وتحرك نحوها قلقًا:

- في إيه؟!..

رحب به ابنه جوار خطوات رحيله:

- ماما قلقانة شوية عشان موضوع رحلة الأقصر.. بس أنا طمنتها خلاص.. هاروح أبلغ العصابة وأفرحهم بموافقتها..

وغمزها بعبث ثم رحل..

وكانت هي تحت عيني زوجها المراقبتين، من غيره يدرك ما تعانيه بهاته اللحظة!.. بل ما عانته على مدار سنوات طويلة توازي عمر التوأم..

تلك الهدية التي منَّ الله عليها بها بعد طول انتظار..

بعد ألم ومخاوف توقفت عن حصرها عندما تجاوزت قدرتها على تذكرها.. وحتى على العد..

بعد نهاية خطَّها أنانيٌ آخروكاد يستأنفها هو بأنانيته متممًا الشرخ بروحها لولا أن سقط بقلبه عشقها.. وأدرك أنها هي الأغلى..

دنا منها يواجه عينيها التائهتين.. وحوَّل شرودها إليه بتساؤل بدا أقرب لتقرير:

- الأستاذة بتحب دايما تمسك كل الخيوط.. مش عاوزة حاجة تفلت من إيديها!..

تحول الشرود بمقلتيها لعتاب وفتحت فمها لترد لكنه بتر لومها بنظرة مشفقة متفهمة شابها بعضٌ من شجن:

- كبروا يا لميا.. كبروا وفي يوم لا هيحتاجوني ولا هيحتاجوكِ.. سيبيهم للدنيا تعلمهم المسؤولية، سيبيهم ياخدوا دروسهم لأن وقت الامتحان مش هتحلي محلهم ولا هتجاوبي عنهم..

وكعادته يعلم ماذا يقول ومتى يقوله!..

تشبثت بنظرته المطمئنة بأمل فمنحها بسمة حنون كانت على إثرها تنهيدتها الثالثة..

واستسلامها..

نعم.. وجودها لن يدوم، وإن لم يكن بإمكانهم حماية أنفسهم من غدر وغلظة الواقع الحقيقي والقاسي من حولهم.. لن يمكنها هي حمايتهم أو الذود عنهم!..

بل سيأتي ذلك اليوم الذي لن تكون معهم فيه.. لتشاركم أحزانهم قبل أفراحهم..

لذلك ستدع الطير –ولو مؤقتًا- يغادر العُش، يتحرر من قفص حبها وخوفها..

لعل حريته.. تصبح هي مصدرقوته، وأمانه!..

***

الأنثى دومًا كائن متعِب..

فوضاها مربكة، و السيطرة عليها درب من المحال..

هي العاهرة.. الفاجرة.. المثيرة.. المغوية بثوب البراءة.. الخطيئة بلباس الطُهر!..

هي معادلة شاقة لا حل لها، معضلة أزلية.. مرغوبة، مكروهة، مشتهاة، مرفوضة.. وقاتلة!..

هي في عالمه أصل كل رغبة.. وخلف جُل خديعة!..

وخديعة أمها غير قابلة للتصديق لكن الدليل سقط بيدها قسرًا، فكيف تتناسى ما رأت وتتجاهل ما علمت!..

أمها الجادة، الحانية.. الرقيقة، العملية والقوية..

أمها التي أحسنت كونها قدوتها حتى وقعت هي على سرها..

لتعلم بغتة: أن ما عايشته طوال عمرها ما هو إلا محض هيكلٍ فارغٍ، يخفي جُرمًا بحق رجل كان كل عالمها حتى حين ليس ببعيد..

ارتعشت شفتاها والذكرى تقتحمها كسيف من حديد مصهور، يقطعها، يمزقها.. ويشعل بها نار الوجع والخوف والقلق..

حديث الطبيب يتردد صداه بأذنيها.. يتعالى.. يصمها، يعذبها ويوشم قلبها بأذى لا يسع نفسها احتماله!..

هزت رأسها بعنف في محاولة لتغيير المشهد، لكن قهرًا عادت لتلك اللحظة التي انقلب فيها عالمها لنقيضه حالك العتمة. تلك اللحظة عندما ابتلعها ثقب جريرة أمها الأسود والتي لا تدري عنها شيئًا..

لا دوافع.. لا أسباب..

لا كيف بدأت أو انتهت..

ولا حتى أكانت في ماضيها هفوة، زلة لمرة واحدة!.. أم هو عبث تكرر وطعنة ظهر لأبيها انتهت بها في فراش آخر برغبة محرمة وإشباع غير مشروع!..

أبيها المكسور، المخدوع بقصة عشق مسطورة فوق أوراق الاحتيال وبأحرف من مكيدة لو علم بها لانتهى..

زفرت بحرارة وتاهت بعينيها في المكان من حولها، تراقب التماثيل المتناثرة بدقة فنية مذهلة.. ضمت نفسها بذراعيها مع لسعة الهواء البارد التي مرت بها فاكتنفت قلبها بصقيعها..

"يعني إيه تسافري في حاجة ما تخصش كليتك يا تاليا؟!.. هو ده وقت فسح!"..

صوت والدتها داهم عقلها فجأة قبل سفرها بأيام عندما طلبت الانضمام لتلك الرحلة بصحبة زميلها العابث "آسر".. وكانت هي أقل من مستعدة للعناد أوللإقناع المتدلل، بل فقط ستريد.. وستفعل:

- محتاجة أغيرجو، ورايحة مع ناس كتيروأصحابي، مافيش داعي لموضوع القلق والخوف اللي مالوش مبرر ده..

- تاليا!..

أتتها شبه زاعقة من والدها، مؤنبة وعيناه لائمتان حزينتان حائرتان..

تدرك تباعدها عنه وذاك يؤلمها أكثرمما يحيره.. تعلم أنه لم يعد من حقها قربه وهي ثمرة خداعه!..

وتتوجع لعجزبات يمزق داخلها ببطء مميت وليت الحل بيدها..

- أنا وماما خايفين عليكِ.. ما ينفعش تسافري لوحدك..

تنهدت تحاول تهدئة الموقف فهي تبحث عن مهرب بعيد ولوكان مؤقتًا:

- أنا مش لوحدي.. داد..

ونطقت النداء بعسركأنه شوكة حادة تخترق حلقها فتدميه:

- معانا دكاترة من الكلية ومعيدين غيرزمايلي ومنظمين الرحلة..

اقترب منها يربت على كتفها فارتجفت.. رجفتها أسفل كفه انعقد لها حاجباه وقبل أن يسأل حاولت سلك دروبها القديمة معه:

- بليزداد.. عشان خاطري..

رمقها بعطف أبوي أوجعها أكثر:

- لو ماما وافقت أنا موافق..

ويضع لها العقدة في يد من ترفض حتى التقرب منها بنظرة عين، متضايقة حولت ناظريها إليها فتأملتها أمها بحزن:

- تيا أنتِ عارفة إننا عمرنا ما حرمناكِ من حاجة.. بس بنخاف عليكِ..

لم تجد تعليقًا فاكتفت بالصمت و"علا" تردف دون انتظارلرد منها:

- أنا موافقة.. بس بشرط، تطمنيني عليكِ باستمرار، تليفونك ما يتقفلش نهائي ولا حتى تسيبيه يفصل شحن..

تمخضت شفتاها بمشقة عن بسمة وأومأت برأسها دليل استجابة قبل أن تفر من محيطها الذي لم تعُد تطيق البقاء فيه..

دعت على نفسها بقرب النهاية..

يئست، قنطت..

بكت وكرهت وصرخت ثم بكت من جديد بعدها هربت..

"إيه رمسيس التاني حلو قوي كده!"..

هاجمت نبرته الممازحة عزلتها الاختيارية عندما ابتعدت عن فريقها المكون منه ومن توأمتيه وزميلته الأثيرة خلال رحلتهم لمعبد "الرامسيوم" بالأقصر، لم تستدِر نحوه وتشدُد ذراعيها حول جسدها يتضاعف، تحبس دمعة خائنة تصر على النزوح خارج جفنيها، بل ادعت بسمة تلبس بها صوتها:

- فعلا حلو..

شعرت بخطواته تقترب حتى بات خلفها تمامًا وتمم حديثه بهمس يناسب مجون مزاجها:

- طيب ما تبصي وراكِ.. يمكن تلاقي الأحلى..

وراقب ارتعاشتها اللحظية فالتوى فمه ماكرًا بسؤال خبيث:

- بردانة؟!..

- شوية..

- تحبي أدفيكِ؟!..

انعقد حاجباها بحيرة لم تطُل وهو يكاد يلامسها، رأسه تميل بينما همساته تدنو من أذنها بصحبة أنفاسه:

- معلومة علمية مؤكدة.. أكتر حاجة ممكن تدفي، هي الجسم البشري..

وابتسم شيطانها متخابثًا، فهي ابنة وُلدت من رحم الخطيئة..

وما ينتج عن خطأ؛ مصيره إلى الجحيم..

أما جحيمها الخاص فلن تخطو نحوه مُسيرة، بل ستختاره بيدها متى وكيفما ومع من شاءت، والوسيم الوقح يلائمها بشدة..

التفتت إليه لتجد عينيها تتقابلان مع ذقنه، رفعتهما إليه بغنج عابث بينما خصلاتها تصنع مع وجهها والهواء البارد وضوء الشفق الغارب سيمفونية إغواء مبهرة:

- ما تلعبش بالناريا آسر.. You may get burned..

شبت على أطراف أصابعها تمنح وجنته قبلة لم تجعلها خاطفة، ابتعدت على إثرها ببسمة مشاغبة، وركضت خطواتها تلحق بالزملاء بينما هو يتابعها بنظرة بها من المفاجأة قدرما بها من الغموض..

نظرة وازت تحسس أنامله لموضع شفتيها الناعمتين فوق خشونة بشرته..

جرأتها تعجبه..

لكنها تخيفه أحيانًا..

لقد اعتاد أن تكون الخطوة الأولى، بل وتاليتها له، وهي تباغته في كل مرة باقتراب أكبر، اقتراب طائش يفقده خيوط إدارة اللعبة!..

***

الرجل غالبًا كائن مثير للفضول..

عشوائي أحيانًا، ولا يحيد عن خطه المستقيم في الأحايين الأخرى..

هو الصادق.. الملتوي.. العاشق.. القديس.. الناسك.. المشتهي، هو الرغبة خلف جدار الشرعية، والتملُّك المستتر بثوب الحب!..

هو أزمة كونية، انفجار تلاه انقسام العالم ليحوز بعده السلطة ويترأس الحكم مستعينًا بكونه "شهريارًا" الذي يملك "مسرورًا" وسيفه ونساء المدينة!..

هو في عالمها الحاكم بأمره.. هو في دورانها المركز!..

ومركزها يخشاه، يتردد أمام القرار، يتراجع بمواجهة الاختيار.. قلب الابنة المتعلق بحبيب أخذ الخطوة الأولى والثانية، وقلب ابن الأخ الذي تخاذل عن كل خطواته بل تعثر بها وسقط بصمت..

الشاب اتخذ أقصر طريق بين نقطتين، رغبته ومحط تلك الرغبة.. بوضوح وصراحة ودون التفاف حول الأمر، أحبها كما يلمح بعينيه ومن أكثر منه فهمًا لرجل عاشق!.. تمناها.. تقدم لزواجها، ولم يحِد عن صراطه محاولًا سرقة مشاعرها أو ما هو أكثر، بل أرادها ملكية خالصة تحت أعين الجميع..

وهي ومن نظرتها، خجلها، توترها، ارتباكها، حمرة وجنتيها.. تريده!..

توافق على ربط ما بقي لها من عمر به..

وبينهما هو حائر..

فوقتما جبُن واحد كان الآخر أكثر شجاعة، وليت المطالب بالتمني..

وليت الأمنيات بفكرة..

تنهد بضيق ووزاى تنهيدته لمستها الحانية بكف مررتها برفق على كتفه تنبهه لوجودها حينما كان هو مشتت في لُجة أفكاره التائهة، نظر إليها ليجد بين جفنيها الجواب دون حاجة لسؤال كما اعتاد معها، جاورته فوق أريكة غرفة نومهما وبادرته بحنو:

- محتار؟!..

- قلقان..

- عشان يوسف؟!..

تسلل بناظريه لعينيها بحثًا عن لوم، رفض، توبيخ أو حتى غضب.. لكن ما قبع هناك كان التفهم والصبر، هي تدرك عن يقين ما يدور بخلده.. وعن يقين أكبر كيف سيتم الأمر، ابنتها بنهاية المطاف طفلته التي اكتسب حق أبوتها بكنف أظلها فيه، أمان عاشته بين جدران منزله بل وبحضنه الحامي.. لذا فلا قلق لديها من قراره المنتظَر:

- هينكسر..

- اتأخر.. ومش ذنبها إن مشاعرها حركها واحد تاني خد الخطوة الصح وقت ما غيره كان غايب..

وربتت على كفه المستريحة فوق ساقه برقة:

- يوسف لو حبها بجد كان هو اللي خد الخطوة دي من زمان، على الأقل كان اتحدى الخوف يا يكسبها للأبد، يا يخسرها للأبد.. وفي الحالتين هيرتاح..

زفرته الحارة غادرت صدره بعُسر ودمدم بشبه سخط:

- بيحبها.. بس للأسف، جبان..

- الحب محتاج شجاعة، ويمكن تهور..

وكانت تذكره بما مضى فابتسم بحنين لتضاهي بسمته بسمة ثغرها:

- وملك اختارت..

رمقها بضيق فأردفت تطيب خاطره لأجل وجع قلبه على من هو له أقرب للابن:

- أنت عندك تحفظات على نزار أو أهله؟!..

استقام يدور في المكان ولهجته شابها حدة مكبوتة كأن الأمر يثير كمده:

- لأ.. الولد كويس، وعيلتهم سمعتها في السوق والمحيط الاجتماعي ما عليهاش غبار، حبها واختار إنها تكون مراته ودخل البيت من بابه.. ما فيش سبب للرفض!..

وكأنه يسأل لكنها لم تجِب، بل اكتفت بكلمة من سياق حديثه نطقتها بتقرير:

- بيحبها يا أدهم..

لم يعلق هو الآخر!..

أنَّى له أن يفعل وهو يدرك.. بل يتجاهل، يتعامى.. وقلبه يسحبه خلفه لمفترق آخر!..

- وهي كمان بتحبه..

- عارف..

قصمت همستها الأخيرة ظهر أفكاره وخططه بينما تخبره أن القلب حقًا هو الحاكم بأمره.. قلبها هي.. وهو بهاته اللحظة؛ لا سلطان له..

فهل من حقه أن يجور على حقها ويختار عنها!..

يقرر ويبحث ثم يُنقب عن مساوئ متناسيًا كل ما هو جيد!..

بل.. هل الحب ليس غاية، تستحق تبرير كل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة مهما كانت.. قاسية!..

أخيرًا توقف بمكانه، ضم قبضته وأحاطها بيده الثانية يعتصرها والقرار يتنازع دواخله بعنف..

- أنتِ عرفتِ إنه عاوز يكتب الكتاب على طول؟..

أومأت بإيجاب فأكمل سؤاله زاويًا ما بين حاجبيه:

- وموافقة؟!..

مطت شفتيها وهي تدرك رغبة ابنتها وتجاوبها مع الفكرة:

- لو أنت موافق مش هامانع..

- ملك؟!..

نطق اسمها بتساؤل وازى تغضُن جبينه وما إن أنهى حروفه حتى أدرك الجواب من عينيها دون تصريح به..

لبث في خضم حيرته دقائق أخرى بعدها كان عليه الخيار، وجب عليه حسم القرار.. فصغيرته سعادتها هي الأهم، وعلى المتضرر تأخرًا: النسيان.. أو التناسي!..

مهما كان الوجع، وكيفما أتت النتائج..

زفرة أخيرة وازت انفراج قبضتيه، تممها بنبرة قاطعة:

- هاكلم والده ونحدد ميعاد بإذن الله..

ويشاء القلب..

يشاء العاشق..

وبين مشيئة ومشيئة.. يشاء القدر!..

***

الرجل حين العشق أرعن طائش حد الجنون..

فاقد للأهلية ربما، أو جبان متردد يتمسك بخيط الأمل الواهي حتى ينقطع..

هو المتيم..

الغامض، المستحوذ بتملُك يليق بعالم الروايات، وبغضب لا يشبه سوى أرض الواقع!..

هو كارثة على وشك الحدوث، أو درب مفخخ نهايته سقوط!..

هو الخاسر على شفا هاوية العشق، المنتصر بمعركة طرفها الآخر لاذ بالفرار!..

لم يتحمل الخبر وللدقة لم يصدقه عندما تواتر إليه حديث أمه مع شقيقتها، هل تم توقيع عقد الختام؟!.. هل سيسُدل الستار على مسرحية عشقه التي لم يُرفع عنها بعد!..

هل انتهت الحرب قبل أن تبدأ وكان هو المهزوم؟!..

لم يدرِ بنفسه إلا وهو يقود سيارته بسرعة قاربت الخبال وفقدان السيطرة، يترجل منها أمام مجموعة العائلة ويندفع نحو المبني الشامخ بشبه ركض، يدلف لمكتب عمه بعنف ودون استئذان يفتح بابه ومن خلفه المساعدة تناديه بارتباك..

توقف يواجه عيني "أدهم" الغامضتين بملامح شبَّت بها نار الجحيم..

أومأ هو لمساعدته بالرحيل فهزت كتفيها بعجز وغادرت مغلقة الباب من خلفها بهدوء لا يناسب اشتعال الموقف!..

- اقعد يا يوسف..

- وافقت على جوازهم؟!..

اعتدل العم في جلسته مكررًا بحزم:

- اقعد يا يوسف..

تشبثت نظراته الحائرة بنظرات "أدهم".. ونظرة تلو أخرى لم تبدد شيئًا من مخاوفه، أو تطمئن قلبه الغارق بمستنقع الألم..

وكما تكرر الأمر أعاد السؤال والجواب أتاه قاطعًا لا يحتمل الجدل أو المراوغة.. أتاه يحمل التأكيد.. اليقين، والضياع!..

انتفض من المقعد الذي لم يكد يحتوي جسده للحظات، انتفض باستقامة حادة وزعقة مجروحة:

- طب وأنا؟..

- أنت إيه!..

يخرسه عمه بسؤال يعلم جوابه، وبنبرة اكتنفها غضب بيِّن، دار هو حول نفسه كأسد حبيس.. كضارية جريح:

- بحبها يا عمي وأنت عارف، كلكم عارفين..

أوجعه قلبه على ابن الأخ، لكن النهاية سطرها بيده وإن كانت دون قصد:

- وعملت إيه باسم الحب ده يا يوسف؟!..

تجمد بمكانه، تيبس بوقفته وتجهم وجهه بتيه بموازاة نهوض العم من مقعده ليواجهه بحسم صارم:

- سافرت.. خلصت دراستك، مكمل في طريقك العملي وبطريقة مبهرة، اشتغلت ولسه مستمر في نجاحك..

ثم ضاقت عيناه بلمعة قاسية:

- عملت إيه عشان تثبت لها إنك بتحبها؟!..

وتأجج غضبه معلنًا عن نفسه بوضوح بين أحرفه وفوق لهجته:

- هربت من المواجهة؟!.. اعتبرتها من المسلمات؟!.. هتسافر وترجع وعمك هيحافظ لك عليها لحد ما يجي وقتها!!..

ثم أشاح بذراعه معنفًا بغلظة:

- رتبت أولوياتك إزاي يا يوسف؟!.. وهي كانت رقم كام؟..

- عمي!..

ورُغم النبرة الجريحة والصوت المعاتب جوار النظرة غير المصدقة فقد أردف يفيقه على واقع بات هو عين الحقيقة:

- ملك حاليا في حكم المخطوبة لحد الميعاد الرسمي، مخطوبة لشخص وقت ما حبها خد الخطوة المباشرة من غير تردد، قرب وقال أنا عاوزها.. واجهها وما خافش، في الحالتين عارف إنه هيوصل لنهاية، معاها أو من غيرها..

ثم توقف، لهجته الحادة لا تعني سوى أنه يتألم على وجع وكسرة قلب ابن أخيه، لكنه لا يملك غيرها علَّه يفيق فلا يكرر الخطأ!..

مد يده يربت على كتفه بحنو والمتجمد بمواجهته عاجز عن الرد، عاجز عن الصمت، عجزه وحسب يتصدر المشهد بكل جوارحه وبرمادية ألوانه:

- خلاص يا يوسف، القدر قال كلمته، وقلب ملك اختار..

تقابلت الأعين بنظرة كانت من الأصغر مستنكرة تائهة، ومن الأكبر مواسية مهدهدة:

- ملك طول عمرها متربية معاك، كنت بالنسبة لها في خانة الأخ الأكبر، تغيُر مشاعرك من ناحيتها ما يلزمهاش بيها خصوصا إنك ما عملتش حاجة تجاه المشاعر دي..

وربتة أخرى جوار قرار حاسم:

- عيش حياتك.. وسيبها هي كمان تعيش حياتها..

- لأ..

صرخة حادة وتراجُع بعيد عن متناول الربتات الحنون، فهو لن يستسلم.. وهي لن تكون سوى له!..

- يوسف..

زعقة باترة لكل فكرة طائشة قد تمر بذهنه:

- الموضوع انتهى، ملك كتب كتابها كمان أسبوعين..

وتوسعت عينا العاشق الخاسر بشبه جنون:

- كتب كتاب؟!..

دوران آخر حول نفسه تلته التفاتة وازت قرارًا أهوجًا:

- لازم أكلمها، لازم تعرف وتختار..

- يوسف..

اللهجة تلك المرة غاضبة حادة:

- الحكاية انتهت قبل ما تبتدي، هي دلوقتِ بقت لواحد تاني وباختيارها.. خد بالك من الحدود اللي المفروض تلتزم بيها معاها، وإياك تتخطاني..

ارتعشت حدقتا المغرم في أرض قاحلة لا ماء بها ولا زرع، حتى واحته النائية هناك كانت محض سراب!..

ارتعشتا بضياع بدا كأنه سرمدي كالكون وظلامه من حوله!..

والرجفة طالت الشفاه والنبرة بخُذلان:

- يعني إيه؟!.. خلاص.. توتة توتة خلصت الحدوتة؟!..

- ماكانش في حواديت من البداية يا يوسف..

- وقلبي اللي اتعلق بيها طول عمره؟!..

- أنت المسؤول عنه..

- والحب!!..

- أنت اخترت تخبيه..

- أنا ما اخترتش.. ما قررتش..

- أنت نفذت وبس، ووقت إعادة التفكير فات..

اقتراب أخير ولمسة رفيقة وازتها نظرة حانية.. نظرة لا تملك من الأمر شيئًا:

- الوقت فات يا يوسف..

وبقرارة نفسه عزم على أنه لم يفُت بعد!..

حذره عمه من تخطيه؛ لكن القلب والروح وكل ذرة بالكيان تطالب بجموح ورعونة بخطوة أخيرة..

فإما فوزًا بعد، وإما انكسار..

***

الأنثى غالبًا هي الغنيمة..

يحارب الرجل، يثور لأجل عينيها.. وقد يقتل أحيانًا..

هي ثمرته المحرمة، قضْمة التفاحة التي بها نهاية سُكناه في الجنة!..

هي الهاربة حين الحصار بالعشق، والخائفة وقت المواجهة.. هي النصر والهزيمة، اللحن الصاخب والسكون، الطُهر والمجون..

هي إثمه الذي لا توبة منه، وسقطته التي لا قيام يليها!..

بل هي جحيمه الذي تلظى بناره طوال عمرٍ مضى، ولن يرحل عنه ولو إلى نعيم غيره دون نزال..

خطوة غير محسوبة العواقب، بل وخيمة المآل وهو خير من يعلم، لكن من يلوم المتيم بهوى يرى نهايته رأي العين!..

لا.. تلك خاتمة لا يمكن لقلبه المرور بطرقاتها..

ظل لأكثر من ساعتين يترقب رحيلها عن عملها بمرآب مبنى المجموعة، يرتكن لسيارتها وتنال منه ساعته نظرة كل دقيقتين حتى أقبلت وملامحها تعلوها الدهشة عندما وقع بصرها عليه!..

توجست نفسها بعض الشيء وتسلل إليها قلق مبهم..

هذا وقت لا يباح فيه التهور يا ابن العم!..

اصطنعت بسمة مستغربة دون كذب وهو يتحرك مقتربًا منها:

- يوسف!!.. كنت عند عمي ولا إيه؟!..

توقف قبالتها بصدر ضائق ونبضات هاربة من عقال سلطته:

- عاوز أتكلم معاكِ..

بنبرة جدية وعين عازمة، اضمحلت بسمتها ببطء ولم تحجب دهشتها من الظهور:

- خير؟!..

أشار لسيارتها من خلفه في حزم:

- سيبي عربيتك وتعالي معايا..

رمشت بعينيها حائرة وتأملته للحظة:

- مش هينفع أسيبها هنا، طمني طيب!..

دنا خطوة بهمس حاد:

- لازم نتكلم..

يريد الحديث عن قصة نصفها موجع وتتمتها فوضى.. ولم يحُز هو فيها دور البطولة:

- عن إيه بالظبط؟!..

ومنحت ساعتها نظرة سريعة:

- ورايا ميعاد مهم مش هينفع أأجله، ممكن تيجي معايا البيت ونتكلم في الطريق..

خطوة أخرى منه بموازاة جنون عينيه:

- ميعاد!.. مع مين؟.. معاه!..

والآن وصل للُب الموضوع ومركز الدائرة المغلقة التي انحبس بين جدرانها:

- تقصد مين؟!..

خطوة ثالثة واثنين أخريين ستلصقانه بها وهي تراقب بتوتر:

- زوج المستقبل..

نطقها ساخرة، بمقت.. بغضب.. بألم!..

- لا يا يوسف مع أخته.. وده موضوع ما يخصكش على فكرة..

- أنتِ كلِك على بعضك تخصيني..

- أفندم!..

خطواته الثلاث تراجعتها وانقض هو منها أربعًا لتتبقى واحدة، مد يده نحوها كأنما يرغب في التشبث بها، أو ربما هزها حتى تفيق وترى عشقه بعينيه.. وفقط عجز عن لمسها:

- إيه!!.. كلامي غريب؟!.. ماكنتيش شايفاه وبتتجاهليه؟..

وعلت نبرته متناسيًا المكان ورواده وفضيحة على وشك أن تقع:

- ماكنتيش حاسة بيه وبتهربي منه؟!..

ابتعدت عن مرماه، هذا ليس "يوسف" الذي تعرفه!..

- يوسف أنت اتجننت؟!..

لا هو رجل عاشق فاقد للرشد وحسن التصرف:

- الجنون لسه هيبتدي يا ملك..

ولانت ملامحه لثانية ونبرته يعلوها شجن:

- أنا بحب...

- لأ..

زمت شفتيها بصرامة وتحولت نظرتها المصدومة من هجومه لحدة باترة:

- لأ يا يوسف، مش من حقك تنطقها دلوقتِ..

حاجباه شكلا عقدة بدت وكأنها لن تنفك أبدًا:

- ما نطقتهاش وأنا حرة، يبقى دلوقتِ أولى، أنا مش حرة..

وأشاحت بذراعيها ساخطة:

- لو كنت ممكن أسمعها منك قبل كده وأقولك بهدوء أنت ابن عمي وأخويا وسندي، في اللحظة دي هتكسر كل صلة بينا.. ما تنطقهاش ولا حتى تفكر فيها..

والانفصام المحتمل ألجمه، تصلب بمكانه بينما هي تدور من حوله متجهة نحو سيارتها، تسقط مفتاحها مرة واثنتين قبل أن تتمكن منها أخيرًا وتقفز داخلها، تنطلق بعدها كأنما هو الشيطان الذي سيصليها سعيره!..

"يوسف"..

مع صوت العم المكبوت بغضب واضح أغمض عينيه..

استدار ببطء والمواجهة لابد وأن تكون قاسية:

- ما عملتش احترام لعمك ولا لكلامه يا يوسف..

بتقرير محبَط، هز رأسه بخيبة:

- بس فتحت الجرح..

ثم نظر للبعيد واستدار عازمًا الرحيل:

- يمكن وجعك يعرفك حدودك وإن دي فعلا نهاية حكاية كانت في خيالك وبس، حكاية نهايتها كانت بإيدك أنت..

وتهدل كتفاه..

أيقن الخسارة..

والإغماضة التالية.. كانت لحجب دمعة رجل مهزوم في ملحمة عشق، دون قتال..

(٥)

تخدعني مرة عار عليك..

تخدعني مرتين؛ عار عليّ..

وفي دنيا سلطانها الحب وحاكمها القلب..

تنخدع فتسقط، تقوم وتسقط.. وتستمر لتسقط..

ثم ينقلب الأمر للعنة!..

فلا القلب يمتنع رُغم ألم السقطة، ولا أنت تتمسك بوضع استقامتك منتصرًا..

حقًا..

عار عليك!..

الوقوع بالحب جنون..

والاعتراف به هو نقطة اللا عودة..

أما الحب من طرف واحد.. فذاك حافة هاوية الحماقة وما بعدها فقط انهيار!..

ظلت تجيد الهروب لسنوات، وأعانها صمته، تردده وجبنه ربما.. ولو أضافت لتلك الخلطة غيابه فهي كانت بمأمن حتى اليوم..

نظرته النارية، العاشقة وهي ليست بغبية لتتعامى عنها، نبرته وأحرف بترتها قبل أن يتممها، لا تدري كيف وصلت للمنزل قطعة واحدة عقب فرارها من محيط وجوده وقيادتها بتشتت امتزج بخوف وقلق!..

لقد كسر شيئًا بينهما بغباء لا نظير له..

لكن من يلومه والجنون حرفة العشاق!..

هي تلومه..

وتلوم صمته السابق وصرخة التصريح التي انتواها متأخرًا..

نعم لم تحبه..

بل هي واقعة بغرام آخر امتلك فيها الفؤاد والروح والكيان، استحوذ منها على أول نبضة، أول حمرة خجل، أول رعشة لقاء نظرات وأول انتفاضة قلب بين الضلوع..

لم تفعل من قبل ولن تفعل الآن.. فلطالما كان ابن العم، الصديق، والأخ المشاكس.. إن تغير ما بقلبه نحوها ذاك ليس بذنبها، وإن خشي الجهر به من قبل فلا إثم عليها، وحتى لو انتابه هوس اللحظة وخوف الخسارة فقرر الحرب.. هي بريئة من جريرته..

الفارق وحسب..

أن الأمس يخالف اليوم!..

البارحة كانت ستخجل، تربت وتحنو وتخبر بود عن رفض هو كل ما بجعبتها..

واللحظة التي اختارها أتت حاسمة فقطعتها بحزم وفرار لا تملك سواه..

والآن من يلومها!..

أتراه والدها يلومها؟!..

لا تعلم لمَ يتحاشَ لقاء عينيها بعد عودتهما للمنزل، طوال فترة الغذاء، وحتى بعد الانتهاء منه؟!..

يبدو شاردًا عندما تحادثه أمها أو يداعبه أخيها..

والآن ها هي ذي متجهة نحو مكتبه يتبعها بصر والدتها الحائر.. والقلِق!..

لقد أتم طعامه دون امتلاء، نهض من مقعده وأخيرًا التفت نحوها وبكلمات ثلاث كان فصل الخطاب:

- تعالي لي المكتب..

تجاهل بعدها التساؤل بعيني زوجته وأشارت هي بإدعاء جهل عندما حولت ناظريها إليها واستقامت تتبعه بصمت..

أغلقت الباب خلفها لتراه جالسًا فوق أريكة عريضة بركن المكان، تجمدت تفرك يديها بتوتر خفت بعض الشيء عندما لمحت ابتسامته بينما يخبرها:

- اقعدي يا ملك..

تحركت تجاوره بتشوش توسعت له بسمته، مد يده يحتوي كفها ويربت عليها بحنو:

- ما تزعليش..

الدهشة فوق ملامحها أنبأته عما يدور بخلدها:

- أنا مش زعلان منك.. ده حقك، ودي حياتك.. اختيارك، ومش ذنبك إن حد جواه مشاعر ليكِ مالهاش صدى عندك..

وربتة أخرى فوق كفها:

- حتى لو الحد ده ابن أخويا أو في مقام ابني..

- بابا أنا..

قاطعها بحسم:

- ششششش.. مافيش داعي للتبرير..

تركها وانتصب يتجول بالغرفة مشبكًا يديه خلف ظهره، علامات التفكير تغزو ملامحه جوار شيء من حيرة، حيرة تخطاها وهو يواجهها بنظرة متفحصة:

- أنتِ متأكدة من مشاعرك ناحية نزار؟!..

ولم يكن بحاجة لجواب منطوق..

فالرد أتاه كارتباك.. خجل، رفرفة أهداب، هروب نظرة وقضمة شفاه لا تفقه الأحرف التي ينبغي أن تمر فوقها بهاته اللحظة!..

- ملك!..

وعاد يجاورها رافعًا وجهها إليه:

- أنا عاوز أطمن عليكِ.

صدق نبرته ترك عينيها معلقتين بأمان عينيه، بدفء ابتسامته الوليدة وبيده التي تبثها الطمأنينة بينما تتحكم بذقنها لترغمها على مواجهته:

- أنا عمري ما كان جوايا مشاعر لحد غيره..

نطقتها بإغماضة، بهمس خافت شبه مسموع.. وبرجفة صوت يدركها ويعلم مدلولها عن يقين..

تنهد.. حررها وتراجع في جلسته:

- يبقى تفكري في مستقبلك معاه وبس..

رمقته بحيرة أزالها بحنو أبوي:

- مبروك يا ملك..

رسمت السعادة نفسها قسرًا بعينيها وأحاطتها بهالتها فهبت تمنح رأسه قبلة تبجيل وشكر:

- ربنا يخليك ليَّ يا بابا..

سعادتها انعكست على وجهه حينما أخبرها بتأكيد:

- أنا يهمني سعادتك..

وعندما غادرت غرفته كانت تكاد تقفز فرحًا كأنما همٌ بثقل جبل انزاح من فوق كاهلها حتى أنها اصطدمت بأخيها على بعد خطوات فوبخها بتهكم:

- أنا أعرف بيقولوا الحب أعمى، إنما الجديد اللي ما كنتش أعرفه إن اللي بيحبوا بيتعموا همَّ كمان..

وكزته في كتفه دون رد..

توجهت نحو أمها تحتضنها، تشدد من ذراعيها حولها والبهجة تنتشر بدفء في أرجاء قلبها الحالم..

والأخ يضرب كفًا بكف..

وشيء من غيرة عليها، أخته الوحيدة.. يتسلل إليه، ثم يعود فينعي عقلها الذي ضاع!..

أما الأم.. يزداد العشق بقلبها مقدارًا آخرَ نحو حبيب العمر وبصرها يلتقي ببصره عبر المكان فتبادله البسمة في امتنان..

***

قديمًا قالوا: كل شي مباح في الحب.. والحرب!..

وهو خسر الاثنين..

خسر حبًا لم يصدح به، وحربًا لم يطأ أرضها.. انهزم وتراجع وفرَّ مع أول ضربة سيف اخترقت فؤاده فمنعت عنه النبض وانتهى..

مذنب!..

نعم ويقر بجُرمه دون تبرير، ضائع ويعلم أن ضياعه لا نهاية له.. ومتوجع ويقينه أن الندبة ستبقى أبد العمر..

لا.. ليست ندبة، بل هو جرح نازف لن يندمل إلا بين يديها، وبحق عشق آخر لم يعد تطييب جرحه ممكنًا، بحق جبنه وتردده وخطأ حساباته..

بحق غيابه وتيهه وقلقه وانكماش قلبه حول ما به من هوى أدركته هي رغم الصمت.. وتجاهلته رغم وضوح الصورة..

هو لا يلقي باللوم عليها..

لديه من بقايا عقله ما يكفي ليدرك أن الوِزر يدنس اختياره، والجناية توشم قلبه بالعجز والوهن!..

ربما لو تعلم من عمه وأبيه شيئًا لكانت تزف إليه دون غيره..

ربما لو حاصرها..

اعترف وجهر وصرخ..

ربما والمئات منها لن تعيد الزمن إلى الوراء، ولن تمنحه صك ملكية خافقها الذي بات يخفق باسم رجل..

رجلٍ ثانٍ!..

زفر بحُرقة.. فحصاد أخطاء يوم واحد يوازي عمرًا بأكمله، وليت للخطأ ذريعة يتحجج بها سوى حب مطعون في المهد، بل ليت لخطيئة التفريط فيما هو حق خالص -باسم الحب- له دافع..

هل يبيح العشق جنونًا آخر؟!.. هل خسرها وتلك خاتمة الحكاية؟!..

دار في غرفته بعجز والأسئلة تبعثر كيانه ولا جواب..

هل يجيز الحب حربًا ضروسًا لم يعد يدري أين مستقرها!..

هل ما يُمزِع روحه الآن عاقبة لم تكتبها يداه، أم حق تقاعس عنه وتهاون فيه!..

زلل لا يمكن إصلاحه، كبوة لا نهوض منها.. وأوان العودة إليه درب من الخيال؟!..

"يوسف!"

لم يشعر بقدومها، ولا ببابه ينفتح بيدها.. ولا حتى رآها قبل أن تحتل المشهد قبالة بصره بعينين حانيتين.. مؤنبتين..

شرحت نظرته عذابه واحتوت نظرتها أوجاعه وهمومه..

تخلت عن اللوم للحظة واكتفت بالدفء والضمة تحت جناحي أم رؤوم لم يعرف غيرها..

والآن هل يحل له البكاء؟!..

أم أنه لا يجوز لرجل ناضج استدرار الدموع على الحليب المسكوب!..

جذبته لتجلس بمواجهته فوق فراشه ونبرتها تتشتت هبوطًا وصعودًا بين الحزم والرقة قهرًا لإرادتها:

- ما بقاش ينفع..

ارتجفت شفتاه وزاغ بصره بتيه:

- اتحمل مسؤولية اختيارك، وواجه الموقف بشجاعة..

- بحبها..

- وهي عارفة، بس قلبها حب غيرك..

- وحق حبي؟!..

- الحق ده تطالب بيه لو كنت اتمسكت بوجوده من البداية..

- يعني إيه؟!..

عانقت كفه المرتعشة بين كفيها:

- يعني أنت اتنازلت عنه لما اخترت السكوت.. لما رتبت أولوياتك ونسيت تحطها في البداية..

- أنا مانسيتش..

هتف بها مدافعًا، الكل يقرر أنه نسي، تجاهل وهرب، هو في الحقيقة جبُن!..

والاعتراف بها مُخزٍ دون نطق:

- أنا خفت.. لما في كل مرة كانت بتهرب مني كنت باخاف أكتر، لما كنت بالمَّح لها وألاقي في عينيها رفض، أو حتى افتعال أي موقف عشان تغير الكلام عني وعنها.. عن مشاعري.. كنت باقول لو كلمتها هاخسر، لو اعترفت هاقطع آخر حبل..

ونهض يتجول في المكان كأنه سجين دائرة مغلقة تضيق حوله لتخنقه في كل لحظة أو حبيس متاهة لا مخرج لها:

- هيبقى خلاص ما فيش أمل.. كنت باماطل القطع ده، باسيب خيط أخير أتعلق بيه..

رمقته من جلستها بضعف أم وقد غابت عنها حججها الدفاعية:

- وبرده الخيط اتقطع يا يوسف.. ما عملتش حساب إن حد يربط قلبها بنفس الحبل اللي أنت سيبت طرفه يضيع من إيديك..

تلاقت الأعين ورأت بين جفنيه هياجًا أثار قلقها بينما هو يتحرك دون هدف، يلكُم الجدار بعنف بلا تأوه كأنه لا يشعر:

- لأ.. ما عملتش، كنت غبي.. غبي..

"يوسف"

هرولت نحوه وقلبها ينتفض بصدرها، تمسك بيده التي بدأت رضَّة حمراء ترسم نفسها فوق جلدها، تدلكها بين كفيها وتؤنبه:

- ده مش حل..

- وهو في حل؟!..

نطقها بمرارة غُص بها حلقه فربتت على وجنته:

- إنك تعيش، تشوف مستقبلك وحياتك.. بكرة لسه قدامك، هتتوجع شوية، مش هتنسى بسهولة، بس سيب الحياة تاخد بإيدك، وأكيد هتلاقي اللي تعوض قلبك..

تضاعفت المرارة بنبرته وهمسه خفت بأنين:

- هو فين القلب؟!..

- يوسف..

تلومه بوهن ضم أحرف اسمه فأوجف نابضه على حزنها، افتعل بسمة ضعيفة سرعان ما انحسرت بعيدًا عن ثغره بينما يقبل جبينها:

- ما تخافيش عليَّ..

- لازم أخاف..

- أنا كويس..

- ما تكدبش، مش هاصدقك وأكدب عيوني وقلبي..

ابتعد بعينيه عنها وتنهد:

- مش كدب.. هاعيش..

وقبل أن تجيبه قاطعتها طرقة خافتة على بابه ثم فُتِح ليطل من خلفه أبيه بملامح قلِقة، هزت رأسها بإحباط وغادرتهما.. التفت هو لوالده والغضب يطوق ملامحه:

- ليه ما كلمتش عمي؟!..

تفاجأ "آدم" بالهجوم في صوته فتغضن جبينه:

- أكلمه عن إيه بالظبط؟..

علت نبرته بتشبث عاجز بحثًا عمن يلقي عليه باللوم:

- إني بحبها.. إني عاوزها ليَّ..

اتخذ الأب من درب العقل والحكمة الهادئة مسلكًا، خير من يدرك ما يمر به صغيره هو.. وإن تظاهر بالغضب، أو التماسك:

- حتى لو أنا أعرف مشاعرك؛ أنت قلت لي أنك عاوزها رسمي يا يوسف؟!..

- أنا..

انعقدت الكلمات دون أحرف تبينها فأردف الوالد:

- لما كلمتك قبل كده، وماما كمان وقالت لك لو بتحبها بجد خد خطوة وأنت اتحججت بالماجستير والسفر والدراسة وقلت لما أرجع؛ كان المفروض إحنا نعمل إيه؟!..

واقترب يواجهه بعين حازمة وقلب ممزق:

- نخطبها بالنيابة عنك؟!..

ثم ابتعد حانقًا يشيح بذراعه:

- ولا أحجزها لك من عمك لحد ما الوقت يناسبك؟!..

بعدها استدار إليه يعنفه بحدة أب عاجز عن إسعاد ابنه:

- تفتكر لو كنت كلمت عمك زي ما بتقول؛ كان هيبقى رد فعله إيه؟!..

رفع إليه عينين متسائلتين، لم يكن بحاجة لجواب فعليّ، لكنه الضعف.. التعلق بآخر قشة، التفتيش عن سبب لا يمس تقصيره وتردده وتخاذله..

والمصب النهائي كان هو!..

الخطأ على عاتقه وحسب، اللوم من نصيبه والخسارة علقمها المر سيبتلعه وحده دون سواه:

- الغلط مني..

أدار وجهه وأنفاسه تعلو:

- أنا فعلا مش ضحية ولا حتى الدور يليق عليَّ..

وتنهد حد أن الهواء بدا له أشبه بطعنة خنجر ثالم بيسار صدره:

- بس ده ما ينفيش إن الوجع فوق احتمالي..

تحرك نحوه "آدم" يضع كفيه فوق كتفيه، يضغطهما بحنو ووجعه ينتقل لصدره بالتبعية:

- لو ربنا عالم إنك مش هتتحمل؛ ما كانش ده بقى قدرك ولا كنت اتحطيت في الاختبار ده يا يوسف..

خرجت منه زفرة أخيرة.. بحرارة قلب موصوم بعار الخسارة، ونفس تبحث عن منفذ آمن من ألم تجاوز التوقعات وعقل تائه.. حائر..

يعلم أنه الجاني، حتى لو رأى نفسه مجنيًا عليه.. جانيًا على عشق لم يجد الوقت ليولد، ولم يمنحه هو الفرصة ليرى النور!..

***

الحياة التي مر بطريقها غير الممهد لم تكن تخصه، بل تخص الأقرب إليه..

غادر الفندق بخطوات شاردة والضيق يرتسم سافرًا على وجهه، ابنة الخالة على وشك الزواج.. والأخ العاشق طُعِن في مقتل!..

في القلب مباشرة دون دروع أو سدود تحميه من طعنة رآها قبله رُغم فارق العمر..

لا يفهم لمَ قد يكبل الرجل نفسه بقيود الحب؟!..

هي محض قيود وهمية لا ينتج عنها سوى الألم والجرح، لمَ يغُل روحه لمشاعر متقلبة غير ثابتة ختامها دومًا موجع؟!..

بل لمَ يختار واحدة، وبإمكانه أن يصبحن أكثر!..

زفر بضيق بينما يتأمل شاشة هاتفه حانقًا، لقد أنهى مكالمته مع والدته وخرج من المكان شاعرًا بالاختناق، عبر الشارع العريض وتوقف مستندًا للسور الذي يطل على نيل "أسوان" يتأمله بحيرة..

صديقته المكترثة لحقت به، راقبت صمته وسكونه، غفلته عن وجودها ومجاورتها له حتى تنحنحت وهمست باهتمام:

- مالك يا آسر؟!..

رفع وجهه لحظة دون رد، التفت إليها بعينيه بعدها هازًا رأسه:

- ما فيش حاجة..

تفحصته وأصرت ففوق ملامحه وبنبرته هناك خلل:

- لا في طبعا.. من إمتى بتكون كده؟!.. المكالمة دي فيها إيه؟..

- ما فيش يا شذى.. عادي قلت لك..

ارتفع حاجباها دهشة، وأيقنت من خطأٍ ما بالصورة:

- شذى كمان!.. لا كده أكيد في مصيبة..

قطب بضيق وتجاهل وجودها، بضع لحظات صمت تركته على راحته وقتها واكتفت بوقوفها لجانبه قبل أن يصدمها سؤاله الغاضب:

- هو ليه أي راجل بيحب؟!..

ألجم ما نطق به لسانها للحظة استطرد خلالها:

- ليه في حاجة اسمها حب أصلا؟!..

ووجَّه عينيه نحوها يطالعها بغيظ بان في لهجته المكبوتة، يقتحم بناظريه عقلها كأنما سيجد جوابه الشافي هناك:

- ليه يربط قلبه ومشاعره بواحدة لما ممكن يدوس على المشاعر دي ويعيش مع ألف واحدة؟!..

- آسر!..

هتفت بها محتدة لا تفطن لما به!.. زمجر وقبضته تضرب السور الحديدي بغضب:

- ليه واحدة بس ممكن تهد وتبني وتتملك؟!..

في رفق لامست قبضته المضمومة بقسوة فمنحها نظرة نارية:

- ليه الراجل بيضعف قدامكم؟!..

وسخر بشفاه ملتوية:

- ليه الطريق ليكم لازم يكون وردي وكيوت وفيه حب ومشاعر ما بتتقدرش؟..

قاطعت بلبلة أفكاره واحتدامها غير المفهوم لها بتوتر:

- آسر أنا مش فاهمة حاجة؟..

أبعد يده عن رقة لمستها وزفر بكمد:

- بنت خالتي هتتجوز..

- وإيه المشكلة؟!..

وكأنما فجر سؤالها حممًا بعروقه فزعق بوجهها:

- المشكلة!.. لا ما فيش مشاكل خالص، من حقها تعيش وتحب..

احتارت أكثر حتى برقت بذهنها فكرة لم تستطع بلعها لكنها طرحتها على أية حال:

- آسر.. أنت بتحبها؟..

أغمض عينيه، زم شفتيه والهزة أتتها نافية رغم تلبُسها بالألم:

- مش أنا..

فكرت لثوان تبحث فيها عن مسوغ لغضبه ذاك قبل أن تتضح الصورة:

- أخوك يوسف؟..

أومأ بجواب صامت أصدر منها تنهيدة عقبت بعدها:

- طب ليه ما اتجوزهاش هو؟!..

وتعثرت الحروف بحلقه، ماتت على أطراف شفتيه.. وتبعثرت مشتتة قبل أن تتجمع في ردٍ مبرِر..

"عشان غبي"

همس بها داخله دون أن تصلها..

وما نطق به كان ينهي الحوار غير المستساغ بينهما:

- نصيب..

حزنه على أخيه الأكبر أحزن قلبها عليه فربتت على قبضته التي لم تنفك عقدتها بعد:

- ماحدش عارف الخير فين، يمكن سعادته مش معاها..

لحظة تفكير نالت منه قبل أن تردف هي:

- وبعدين هي برده زي أختك.. اتمنى لها السعادة..

تأملها فردت تأمله ببسمة متفهمة لم يكن لها صدى فوق شفتيه، ظل على شروده وقلقه على "يوسف" يزعجه..

نعم هو لم يتحرك نحوها..

لم يقتنصها ويثبت أحقيته بها..

لم يعترف بعشق، ولم يجبرها على مبادلة قلبه إياه..

ألا تعشق الأنثى الدلال!..

الحصار!..

الورود، حلو الكلام وعذوبة اللسان وربما شيء من جرأة تهديها الخجل!..

ومن بين خضم التساؤلات التي تصول في حرب طاحنة بعقله أتاه الجواب بلا تزيين..

هو لم يقدم فروض هواه في مملكة قلبها؛ وعليه..

فلا عزاء لمن خسر..

***

التحديات للبعض هي زاد الحياة، ملحها ومنكهها الأفضل..

ومن أكثر منها عشقًا للتحدي وإثبات الذات؟!..

ابنة "الراجي" التي نجحت بانتخابات اتحاد الطلاب لتصبح إحدى العضوات الفاعلات بلجنة "الجوالة والخدمة العامة" بعد ما يزيد قليلًا عن ثلاثة أشهر من بدء الدراسة..

ووازى نجاحها أولى المعسكرات الكشفية التي تخص عشيرة الجوالة وكانت هي من ضمنها..

رحلة خاصة لمدينة "سانت كاترين" حيث بدايات الشتاء وتساقط الثلوج، جبل كاترين وموسى ونيران المخيمات وسمر الصحبة والجولات السياحية المعرفية..

مهمتها التي كلفتها بها قائدة فرقة الفتيات رأتها بسيطة وسعت لتتممها على أكمل وجه..

لولا عقبة واحدة!..

موظف التصاريح متجهم الوجه الذي يبحث عن شخص ما ليصب جام غضبه غير المفهوم عليه.. ربما بعدما عنفته زوجته قبل خروجه صباحًا من بيته!..

سخرت في نفسها ثم امتلأت بالغيظ..

الرحلة خلال أيام، الرجل يتعنت بصلف لا مبرر له، قائد العشيرة هاتفه غير متاح.. وعندما بحثت عنه وجدت أنه غائب لمدة يومين قبل السفر!..

ما الحل إذًا؟!..

الجواب أتاها مباغتًا عندما وقعت عيناها عليه يقف بجوار سيارته ليحادث أحدهم..

زفرت بضيق ثم تنهدت بعمق ولم يكن بيدها إلا أن تلجأ إليه.. خطت نحوه بثبات، قبل أن تصله بعدة خطوات فتحت فمها لتناديه وعجزت!..

هل ستهتف باسمه وحسب؟!..

هزت رأسها وأكملت سيرها لتقف بمواجهته حاولت اصطناع بسمة فبدت فوق شفتيها كأنها تضغط أسنانها وتزم فمها:

- خير؟!..

بادرها بتساؤل ردته بسرعة:

- عبير كلفتني أطلع تصاريح زيارة دير كاترين..

توقفت كأنما تفكر كيف ستكمل طلبها، وهو أمال رأسه وتأملها بصمت أردفت بعده:

- الموظف المسؤول بيتعامل مع الموضوع بتعنت مالوش مبرر، رافض يطلع التصريح والسفر خلال أيام، لازم تكون كل التصاريح جاهزة..

- وفين إبراهيم؟!..

يسأل عن قائدهم الغائب لتجِبه بضيق:

- مسافر البلد عندهم يومين، هيرجع قبل الرحلة بيوم.. مش كفاية إننا نلحق نخلص قبل السفر..

فكر لحظة ثم قرر بحسم وهو يرتدي منظاره الشمسي الذي زاد ملامحه وسامة وغموضًا:

- طيب اركبي.. هاجي معاكِ ونشوف إيه الموضوع!..

وكان يشير نحو سيارته.. ترددت بحيرة قلما تزورها!.. هي بالطبع لن تذهب معه..

نفت بأكبر قدر استطاعت تحصيله من الهدوء:

- لأ.. هامشي بعربيتي قدامك عشان هاروح بعد ما نخلص..

بلا تأخير وافقها، دلف لسيارته وإشارته التالية كانت لها بأن تسبقه..

وأمام الموظف المختص الذي أوشك على مغادرة عمله كان حازمًا بجدية، وشيء من ود استجاب له الرجل ليخرجا سويًا على وعد بتسلم الأوراق اللازمة في الغد!..

كانت متذمرة..

ملامحها حانقة، زفراتها المغتاظة متكررة وذلك جعله يبتسم دون تعليق، فالعنيدة لا تجيد تقبل الرفض.. أو حتى أن يكون له جزء من الفضل بتسهيل الأمر..

رافقها حتى سيارتها بذوق، وهناك منحها بسمة حقيقية ربما للمرة الأولى:

- بالمناسبة، أنا طالع معاكم المعسكر ده..

توقفت لحظة تهضم ما صرح به:

- إشراف؟!..

حافظ على بسمته بهدوء حتى مع نبرتها شبه الهجومية:

- لأ.. استكشاف!..

تلك المرة صمتها كان أطول ثم أنهته بهزة كتف:

- المكان يستحق..

وافقها متابعًا تغيُر وجهها وانفراج جبينها:

- أتمنى تكونوا مجهزين برنامج مشبع..

وكانت بسمتها الوليدة هي جوابها الواثق:

- ما تقلقش..

عندما أدارت محرك السيارة استعدادًا للرحيل نادى اسمها فتجمدت أناملها فوق مقودها:

- غرام!..

رفعت إليه عينيها فوجدت أحد حاجبيه مرفوعًا ونظرته مبهمة:

- العفو على فكرة..

وأصاب صمام عصبيتها فدمره لتصله لهجتها متذمرة:

- أنا ما قلتش شكرا على فكرة..

نطقتها بسماجة ثم انطلقت دون التفاتة ثانية.. تابعها قليلًا بابتسامة رحل بعدها نحو سيارته.. وأثر باقٍ من لمعة غيوم عينيها الداكنة، عالقٌ بذهنه..

فرُغم جمود لهجتها وعنادها جوار غرورها الواضح..

هناك شيء مبهم بها، شيء يدور حولها.. لا يدري كنهه؛ لكنه يروقه بدرجة ما!..

***

النساء في دنيا الهوى طوائف..

طائفة تعشق فتتيه في المعشوق.. وثانية تغرم فتخشى السير بدرب الغرام..

وثالثة تحلق بها سعادتها بحبها عاليًا، فتنسى ما أهملته على الأرض!..

كانت تجاوره في سيارته مستعيدة ذلك اليوم، هي لم تنسَ لكنها تتناسى، تتذكر غياب ابن العم عن عقد قرانها.. وتمحو تلك الذكرى نبرة زوجها العميقة عندما مرت أحرف جملته:

"قبلت زواجها"..

ببطءٍ فوق شفتيه وعينيه تحاصرانها بتملُك حبيب حاز صك الاستحواذ للتو..

وازى توقيعه توقيعها فوق الميثاق، نالت قبلة فوق جبينها، قبلة دافئة بدا بها الامتنان غريبًا وتأكدت منه عندما رفعت ناظريها إليه لتجد بين جفنيه نظرة شكر..

كأنما يمتن لها أن باتت ملكه!..

ابتسمت حينها بخجل ليسحبها أخيها أسفل جناحه بتملُك مقابل، يمحو قبلة العاشق بقبلته ويهمس لها بلهجة شابتها غيرة جوار السعادة لأجلها:

- مبروك يا ملك..

بعدها تناوبت الأيدي على احتضانها، توالت التبريكات، لمحت النظرة الموشومة بالحزن في عيني العم، والسعيدة بانكسار في مقلتي الخالة!..

الغاضبة على وجه ابنها، والمتأرجحة بين الشجن والبهجة على ملامح توأمتيه..

تنهدت بتشتت شعرت بعده بكفه تحيط بيدها في تربيتة احتواء:

- مالك؟!..

انتبهت من شرودها على لمسته المهتمة:

- ما فيش..

همستها بخفر بينما كانت تجلس بسكون في سيارته وهو يقودها نحو ما سيكون عشهما السعيد قريبًا، منحها نظرة جانبية متفحصة:

- في حاجة مضايقاكِ؟..

نفت بهزة من رأسها وابتسامة خافتة حيية بادلها إياها بمشاغبة:

- وحشتيني اليومين اللي فاتوا..

حافظت على بسمتها وضغطت شفتيها بين أسنانها، أدارت وجهها تنظر من النافذة، تتابع المشاهد التي تمر بها في صمت، تركها لخجلها دقائقَ أخرى

بعدها عبر من بوابة المكان ليجد في استقباله حارس أمن خاص بترحيب حار:

- أهلا نزار بيه..

بادله التحية ببساطة:

- إزيك يا طاهر؟.. إيه الأخبار هنا!..

- كله تمام، ما تقلقش سعادتك..

ربت على كتفه في ود:

- مش قلقان.. المهندس جه؟!..

نفى الشاب فمط هو شفتيه وفتح لها بابها بدعوة:

- تعالي بصي على البيت على ما ييجي بقى..

سلمته قيادتها وتركت يدها بحضن يده متوجهين نحو المنزل الأنيق ذي الواجهة الزجاجية في طابقيه الوحيدين..

كان يبدو خلابًا بإطلالة مريحة للأعصاب على حديقته الداخلية يانعة الخضرة كأنما يعتني أحدهم بها باستمرار!..

- هو في حد بيهتم بالجنينة؟..

أدار رأسه إليها بابتسامة فخور بابتهاج عينيها:

- أيوة.. عم إسماعيل أوضته في الجنينة اللي ورا..

همست بحبور والمكان يثير بنفسها الراحة:

- حلوة بجد..

قربها منه وتساءل بخفوت مكترث:

- يعني عجبك البيت؟..

تراجعت خطوة وهي تدلف معه من الباب:

- البداية مبشرة..

ابتسم لتراجعها وتجول معها شارحًا معالمه، الطابق الأرضي المكون من غرفة استقبال شاسعة تطل بجدارها الزجاجي على الحديقة الأمامية، وبابًا خلفيًا ضخمًا على مسبح أنيق مفرغ من المياه..

غرفة جانبية اقترح أن تكون مكتبًا للعمل يقتسمانه سويًا، ومطبخًا عصريًا هو حلم كل أنثى.. داعبها حينها:

- بتعرفي تطبخي؟!..

احمرت وجنتاها بارتباك شهي:

- يعني شوية..

ضحك بمرح عقدت له حاجبيها بغيظ:

- عامة هيكون في مديرة للبيت وهتكون مسؤولة عن موضوع المطبخ ده..

كتفت ذراعيها بعناد:

- ليه؟.. خايف تاكل من إيدي؟!..

وازى جوابه اقترابه لحدٍ أرجف نبضاتها:

- أنا كلي ملك إيديكِ..

ابتعدت وهربت بناظريها نحو درج مقابل:

- هنطلع فوق؟..

رفع حاجبًا بمكر:

- أكيد..

أشار إليها لتتقدمه فاستجابت بخطوات متوترة بينما عينيه تتابعانها كأنهما فخ لا مهرب لها منه..

في الغرفة الرئيسية وجدت بمواجهتها بابًا زجاجيًا آخرًا يُفتح مؤديًا لشرفة عريضة تطل بدورها على الحديقة التي فتنتها، ولجت إليها واستنشقت الهواء المعبق برائحة الزهور النامية هناك هاتفة بغبطة:

- الفيو من هنا يجنن أكتر..

- شايف بنفسي..

التفتت إليه وكان واقفًا خلفها، يرتكن بكتفه لإطار الباب وبصره لا يحيد عنها حينما كانت نسمات الهواء شبه الباردة تداعب وشاحها وملابسها، ارتبكت ثانية..

فكل نظرة منه.. كل كلمة ولمسة لها مدلول يُغير بجيشه على قلبها البريء في دنيا العشق!

تحركت بنية المغادرة:

- هو المهندس اتأخر ليه؟

هز هاتفه الذي كان بين أنامله ومط شفتيه في استسلام مفتعل:

- اعتذر..

تضاعف توترها وحاولت تخطيه:

- طيب مش مشكلة.. ممكن مرة تانية..

أفسح لها لتمرفقط ليتحكم بمرفقها ويديرها إليه:

- عجبتك الفيلا؟!

كانت عشوائية بدرجة فاتنة وهي تهرب من نظرته، فوضوية بأنوثة تغزو مشاعره بعنفوان، تجيب بتلعثم نبض له قلبه وتحاول تخليص يدها من سيطرة قبضته:

- جدا..

قرر أن يخجلها أكثر فدنا ليواجهها ويرفع ذقنها يجبرها على لقاء عينيه:

- دي هتبقى أوضة نومنا..

وأشار برأسه في حركة مبهمة:

- واللي جنبها أوضة البيبي..

تسارعت أنفاسها قليلًا وهي تلاحظ اقترابه المشتِت لأفكارها، الهادم لتماسكها الذي ظنته لا يُمس:

- نزار..

- همممم..

وكان يميل.. يقترب.. والبريق البني يحتل الأفق قبالة عينيها:

- يلا نمشي..

متحشرجة، خافتة، ضائعة.. بتراجع غير مدروس جعلها سجينة بينه وبين الباب الذي عبرته للتو..

وفي عرف العشاق.. لحظات القرب دومًا مباحة..

أما في قانون الرجل؛ فتتبعها خطوة البداية تليها ثانية وثالثة حد الالتصاق، حد الحصار..

حد تمازج الأنفاس..

حد تلاقي الجفون فوق نظرة خجول..

وعناق الشفاه في دفء اللمسة الأولى!..

لمسة استكشاف لم تطُل بل تلاها ابتعاد، وتنهيدة حارة مبتورة داعبت صفحة وجهها، ضغطة من إبهامه وسبابته عند ذقنها تدفعها لتفريق شفتيها..

والعناق الثاني كان عاطفيًا.. شغوفًا، عميقًا يبثها عبره من بين أنفاسه المتقطعة همسات عشقه لتثملها فتنسى نفسها معه!..

- ملك..

ناداها بخفوت حميمي:

- افتحي عينيكِ..

أمرها برقة أجبرتها على الانصياع..

تلاقت الأعين بنظرة كانت منها تائهة على استحياء، ومنه متيمة ختمها بتمتمة آسرة:

- بحبك..

والتالي هروب..

حررت نفسها أو ربما كان هو من حررها لتنطلق بخطوات مرتبكة شبه راكضة عائدة نحو سيارته، تستند إليها في انتظاره..

عندما أتاها كانت ملامحه منتشية، بسمته عابثة ومقلتيه لامعتين، بالداخل أخبرها بتقرير بينما يدير المحرك:

- هاتفق مع عمي أدهم نحدد ميعاد الفرح كمان شهر..

شهقت وهي تنظر نحوه في صدمة:

- شهر؟!.. مستحيل طبعًا، أنا ورايا مليون حاجة لسه ما جهزتش، الفستان لوحده هيحتاج وقت أكتر من كده!..

ذلل العقبات بيسر قبل أن ينطلق:

- ما فيش حاجة مستحيلة، أنا معاك في كل خطوة والفستان ده أسهل حاجة أصلا.. وبيتصمم مخصوص باسمك..

رمقته بدهشة فغمزها بخبث:

- من قبل كتب الكتاب، وصدقيني ذوقي هيعجبك..

مطت شفتيها ولامته بنظرة عاتبة فحرك إبهامه يمسهما برقة جعلتها تبتعد بعض الشيء ليفجر خجلها مجددًا باستطرادته الوقحة:

- عاوزك تبقي في حضني في أقرب وقت ممكن..

- نزاااار..

وتلاشت "راء" اسمه ضائعة بنبرتها الناعمة فكاد يعود لثغرها باحثًا عنها، أدارت وجهها هاربة من نظرته التي أنبأتها بنواياه، أردف مستمتعًا:

- سمعتها على فكرة..

عادت ترنو إليه ببصرها مستغرِبة فهمس:

- قلتِ عليَّ قليل الأدب في سرك..

فرَّت ببصرها للمرة التي فقدت عددها، تصدِّق على ما استنتجه وقلبها ينبض بجنون، وجدته يجذب كفها، يلثم باطنها بقبلة طويلة حميمية ويحتفظ بها في قبضته طوال طريق العودة..

غيمة وردية حملتها فظلت تحلق فوقها..

بسمة هائمة وُلِدت تظلل ثغرها بنعومة..

وحلم.. تتمناه واقعًا، ثم أتى الحبيب فيسَّر لأناملها نيله..

وحينها بات التناسي غرقًا في محيط النسيان..

والحب!..

(٦)

ضع قلبك على حدود مدينة الحلم..

واتركه يحلم!..

ضعه على أطراف شفاه تهمس بالجنون..

ودعه به يصرخ!..

ثم في النهاية..

تخلص منه على حافة منحدر العشق..

وتخلَ عنه ببساطة..

ليسقط!..

الانطباعات الأولى تدوم!..

مقولة لطالما آمنت بها حتى التقته..

مرة وثانية، ثالثة ورابعة.. ومؤخرًا لقاء مطول حول نيران المخيم في خلاء كاترين، نيران جوار برودة الشتاء التي تغزو المكان بطيفها القادم..

في كل مرة من تلك توقن أكثر خطأ معتقدها عنه، سوء ظنها به.. وتتأكد من سذاجة صديقتها التي يخفق قلبها لمرأى كل وسيم بالجامعة خاصة نجمها، لتأتي في النهاية وتحسدها على السفر بصحبته!..

تنهدت بضيق بينما تراقب انفصاله عن المجموعة، سيره لعدة خطوات تاركًا دفء النار والصحبة ومرحهم وشروده بعينيه نحو الأفق المبهم بظلامه وامتداده الغامض..

زفرت مجددًا واستقامت تتوجه نحوه بتردد..

هو يستحق شكرًا وهي لديها من الشجاعة ما يكفي لمنحه إياه، فقط العناد يكبحها..

كان يقف بقامته الطويلة الممشوقة مرتديًا سترة ثقيلة داكنة، يضع يديه بجيبي سرواله..

يحدق في البعيد دون أن ينتبه لوجودها خلفه رُغم تجمدها بمكانها لثلاث دقائق!..

بعنفوان الأنثى داخلها تود التراجع، وبكبرياء امرأة عنيدة ترفض.. لكن بأحقيته يصر ضميرها على أن تحادثه، وعندها اندفعت الكلمات عابرة حلقها بنبرة شبه حادة:

- شكرًا على فكرة..

رددتها بصياغة استنكرتها قبل أيام، حدة نبرتها انعقد لها حاجبيه وهو يلتفت نحوها متأملًا إياها ببطء أثار غيظها..

اللهب المتراقص من خلفهما في التجمعات العديدة أمام خيام المعسكر أهداها فتنة خاصة!..

فتنة دافئة بخصلات بنية داكنة قصيرة مختبئة أسفل قبعة شتوية لم تسيطر على النسمات الباردة التي تحركها لتناوش وجنتيها..

ببريق مقلتين يتذكر لونيهما والآن به دُجنة ملفتة -لو ترك لنفسه العنان لارتفع معهما نحو الغيوم- وتحديًا لا ينضب.. راقبها لثوان زمت خلالها

شفتيها وكأنما تمنع نفسها من منحه استطرادة قاسية.. التوى جانب فمه بشبه بسمة ولم يذكرها باحتجاجها السابق:

- العفو..

رد مقتضب فكرت فيه لحظة ثم اعترفت بشموخها المعتاد:

- جولة النهاردة في الدير كانت هايلة، ما كناش هنقدر نعملها من غير.. مساعدتك في موضوع التصريح..

كلماتها الأخيرة تباطئت في خروجها من فمها كأنها ولادة متعسرة لحالة خطرة، توسعت بسمته لها واعتدل برأسه يرمقها بنظرة لم تفهمها:

- أي خدمة..

لم تعلم لِمَ هو مُقلٌ في كلماته بتلك الطريقة!.. لكنها أدت ما عليها بالفعل وشكرته، لذا فقد أمرت ضميرها بأن يخرس واستدارت عازمة على الرحيل، خطوة واحدة تحركتها وتوقفت.. توقفت بتنهيدة خافتة أقرب لزفرة غيظ جديدة نظرت إليه بإثرها:

- ليه مش قاعد مع أي جروب؟.. كل مجموعة بيتشاركوا المعلومات اللي جمعوها النهاردة، وفي ألعاب حلوة وتحديات ومسابقات..

تقدم نحوها خطوة راقبتها بحذر:

- وأنتِ مش قاعدة معاهم ليه!..

بدا الحنق على وجهها فلمعت له عيناه وبدا معجبًا بغضبها:

- كنت باشكرك، حقك يعني..

والخطوة التالية كانت لها نحوه بتحدٍ آخر:

- الجروب اللي أنا فيه بنلعب Truth or dare إيه رأيك تشاركنا؟!..

مط شفتيه برفض متململ:

- ماليش في الجو ده..

- خوف؟!..

وابتسم!.. تعاجله بالسؤال والنظرة وسِجال الكلمات:

- تقديس خصوصية..

كلمتين منه كانتا الرد، حيرتها جعلته يردف بتوضيح:

- مابحبش الأسئلة الخاصة، خصوصا لو الموضوع ممكن يتحول مع البعض لعناد فيتدخل في اللي مالوش فيه..

قدرت ما يقوله لكن خنوعها لمنطقه لم يكن ممكنًا بتلك اللحظة:

- دي مجرد لعبة، وما أظنش إن في مواضيع خاصة للدرجة دي حد حابب يعرفها عنك..

هز كتفيه وأجابها بسلاسة:

- جايز..

ومرة أخرى أثار حنقها اقتضاب حديثه فالتفتت باندفاع موشكة على الرحيل عندما أوقفها هو بتلميح هيَّج حنقها:

- ما كنتش فاكر إنك أنتِ ليكِ في الجوده!..

سمعت بعد تصريحه ذاك حركته تجاهها، شاهدت التفافه حولها ليواجه غضب تطلعها إليه بابتسامة شعرت بها مستمتعة أو متهكمة لا تعلم:

- قصدك إيه؟!..

سألته ورده أتاها بسيطًا حد أنها صدقت عليه:

- يعني.. من يوم ما جينا وأنت واخدة دور القائد رغم إنها المفروض عبير، بتشرفي على كل كبيرة وصغيرة وتقريبا بتعدلي على الكل..

ثم ضاقت عيناه بما رأته لومًا برداء نصيحة:

- وده مش صح بالمناسبة!..

عنادها رفض الاعتراف رغم قناعتها الداخلية، تلك طبيعتها وعلى المتضرر الذهاب إلى الجحيم:

- يعني المفروض أشوف حاجة غلط وأسكت؟!..

أنبَّها تلك المرة بميل رأسه وعينيه اللتين اقتحمتا عينيها بنظرة قوية مسيطرة:

- فرق بين تقديم النصح والأمر.. الأول مقبول، التاني مرفوض حتى لو كان صح، مرفوض ولو حتى من باب العناد..

واعتدل بجدية مكملًا دون انتظار لجوابها:

- جميل يا غرام إنك تكوني قائدة بالفطرة، بس الأجمل إنك تعرفي حدود القيادة دي، إمتى تبتدي ومنين.. وفين تنتهي وعند إيه!..

وينطق اسمها ببساطة كما فعلها من قبل، أخرج يده من جيبه مشيرًا نحوها ومراقبًا لملامحها التي تكاد تنفجر بصراخ في وجهه:

- مش باقول كده بصفتي رئيس الاتحاد، اعتبريها نصيحة من زميل كان في نفس موقفك في بداياته..

تحرك مغادرًا تجاه خيمته دون أن ترد..

كيف ولِمَ لَم ترد!.. أأكلت القطة لسانها!..

صدرها كان يعلو ويهبط بتسارع مغتاظ، هي عجزت للحظة عن منحه ما يستحق، لكن بداخلها أيقنت صدق نصيحته وإن لم يعجبها فحواها..

اعتصرت قبضتيها ساخطة على جمودها اللحظي، وكبرياؤها يستصرخها رد الفعل، بنفس القوة.. وعكس الاتجاه..

والبادي أظلم يا سيد!..

***

أخبرتنا كتب التاريخ عن عشاقه الذين حفروا أسمائهم بين طياته وفي ذاكرته ولو بالدم والألم والفراق..

ومهما كانت نهايات الحواديت؛ تبقى لذة البداية عالقة بالروح لتمنحها شغف الخضوع والاستمرار..

شهرياروجد شهرزاده وإن لم تكن غيرها مليكته..

وحكايا الألف ليلة وليلة بدأت بتلك اللحظة وهو يتأمل بلهفة مغرم هاوٍ في دنيا العشق خطواتها المقتربة منه..

تدنو وقلبه ينبض..

تتقدم ونفسه تهفو..

ترنو إليه بنظرة خجول وما داخل صدره أنين هوى تخطى حد الاحتمال!..

وأخيرًا باتت بين يديه، عانق أبيها وسمع تمتمته:

- خلِ بالك منها.. واسعدها..

والوعد كان بعينيه حازمًا لن ينكسر..

لامس كفيها، رفعهما لشفتيه ونالت كل واحدة منهما قبلة طويلة، اختتمها بثالثة وشم بها جبينها بدفء يخبرعن الكثيرويخفي بناظريه ما هو أكثر..

- مبروك عليَّ يا ملك..

عندما تلاقت بعينيه عينيها تمم الهمس بنبرة صادقة:

- الدنيا بقت ملك إيديَّ النهاردة..

ابتسامتها الحيية أسعدته فجذبها متحركًا نحو مقعدهما الخاص، بصره لا يتركها للحظة وتهرب هي منه في كل ركن إلا ذاك الذي يحتويه..

توالت التهاني..

تتابعت فقرات الحفل النهاري الراقي الذي أصر على توقيته ليختتمه بما يناسب ليلة عمره وبمفاجأة أرادها لهما معًا..

رقصات الأصدقاء، سعادة الأهل ومرح الصديقات.. بهجة الأخوة والعائلة!

وحان موعد الرقصة الأولى..

الضمة الأولى..

والاقتراب الذي جعلها أسيرة طوق ذراعيه.. بحياء ود لو خلصها منه فقط لتنظر إليه:

- إيه رأيك في ذوقي؟!..

بداية حديث بعيدة كل البعد عما بِنيته، لكنها تبدو جيدة لأنها استجابت برقتها التي تذيبه:

- حلو قوي..

- يعني الفستان يليق بالملكة!..

وخجلت مجددًا بإخفاض رأس وهروب آخر:

- مادام الملك اختاره..

مال نحو أذنها وخافقه يصدح بين ضلوعه بعشقها دون مواراة، انحنى رافضًا فرارها بإصرار:

- بجد عجبك؟!..

هزت رأسها بنعم صامتة فمرر أنامله برقة متلكئًا فوق أزرار الثوب المختفية أسفل الحرملة بطول ظهرها:

- الزراير دي هتتعبني..

عضت شفتيها وشعر هو برجفة جسدها ونبضها يقابل نبضه بانفلات عن عقال الهدوء، ابتسم متخابثًا:

- بس أعمل إيه!.. التصميم ده ما يليقش إلا بيكِ.

ومع صمتها لامها بضحكة خافتة:

- هافضل أكلم نفسي كتير؟!..

أنقذها من رد لا تمتلك أحرفه تدخُل أخيها بنقرة فوق كتف زوجها:

- ممكن أسرقها؟!..

استدار إليه "نزار" ببسمة ودود:

- المرة دي بس!..

بسمة "مروان" بالمقابل كانت صامتة شبه سمجة كأنما لم يعجبه الرد، راقص زوجها أخته جوارها محافظًا على لقاء الأعين كلما مرت اللحظات، يسجنها بين جفنيه بتأمل عشق خالص حتى شعرت بلمسة أخيها المنبهة لتعود إليه بعينيها، ضمها إليه بتملك موازٍوانحنى بهمس مشاكس:

- أول مرة أعرف إنك حلوة كده!..

أخرجها مزاحه وإن كان سخيفًا من دوامة خجلها فرمقته بحاجبين مرفوعين:

- مش مشكلتي إن نظرك ضعيف..

ضحك بمرح وشاب نبرته شيء من افتقاد لم يحِن أوانه بعد:

- هتوحشيني والله.. البيت من غيرك هيبقى جنة..

وكزت كتفه بقبضة ناعمة والحنين يغزوها بلا مقدمات مع صوته وضمته التي تشددت حولها تقربها منه خاتمًا بنظرة احتواء وتمتمة خافتة خانتها البهجة:

- مبروك..

حينها تدخل أبيه ليحين دوره في مراقصة العروس، الأب الذي احتواها برفق وغمرها بنظرة عبرت عن كل كلمة لم يستطع النطق بها..

الأب الذي عوَّض من رحل دون أن تحفظ ملامحه، أو تتذكر نبرة صوته في حكايا السندريلا عندما يضمها لصدره ويقصها عليها قبل نومها كما تخيلت دومًا..

ذاك الذي خسرته ولم تعيه، وفقدته قبل حتى أن تدرك وجوده!..

أتراه يبارك زواجها؟!.. يسعد لها!.. يتمنى أن يضمها كما حلمت بضمته!..

سحبها من شرودها همس "أدهم" الحاني، أوصاها بنفسها بعد مباركته وقبلته على جبينها:

- لو زعلك بكلمة؛ تقولي لي..

وحينها عادت لواقعها ببسمة محبة، ثم وكأنها تختم شهادة وفائه بالعهد أخبرته:

- هو أنا ليَّ مين غيرك!..

منح رأسها لثمة أخرى وابتسامته متخمة بالعاطفة، تراجع بعدها ليتركها بين صديقاتها وشقيقة العريس المتألقة بدورها..

والزوج الذي لم يطُل صبره ابتعادًا عنها فعاد إليها، ضمة الأم ودموعها المختفية أسفل رداء بسمة البهجة والافتخار بصغيرتها، ثم اهتمامها وتجولها هنا وهناك ترحيبًا بضيوفها..

حنو والدة زوجها عندما اقتربت تقبله، وتهدي رأسها قبلة بالمثل ثم تخاطبه وملامحها تفشي سعادتها بوضوح جوار عبرة خانت مقلتيها بينما ترمقها بحنان:

- مبروك يا حبيبتي..

والتفتت برأسها لابنها تحذره:

- لو زعلتها حسابك معايا أنا..

وهو قلب كفيه معلنًا الخضوع والاستسلام ومحاصرًا أفق بصرها بنظره:

- هو أنا أقدر!..

- ربنا يسعدكم يا ولاد..

كان دعاؤها الذي صاحب خطواتها المبتعدة وعيناها معلقتان بهما في فرحة..

تحرك "أدهم" نحو أخيه فجاوره ممررًا نظرته التي يعلم ما يختبئ خلف السعادة بها:

- عقبال ولادك..

التفت إليه وابتسم، وبين العين والعين دار حوار بدايته لوم ونهايته تسليم لحكم القدر، لكن عندما نطقت الشفاه غيرت اتجاه الحديث بعيدًا عن الألم وقتما سأل:

- عيلة الراجي ما وصلوش؟..

- بعتوا هدية وتهنئة واعتذروا عن الحضور..

تنهد، فربما كان ذاك أفضل..

هو لم يرَ "دينا" في السنوات الماضية سوى مرات تعد على أصابع اليد الواحدة، وحضورها سيكون غريبًا رُغم مراعاة أخيه السابقة لها..

تخطى الأمر بذهنه وتابع شقيقته بينما تمارس دور الأم بالمثل مع العروس، تطوف حولها، تعتني بها وابنتيها تتجولان بالمكان بصحبة الصديقات وتوأمتي أخيه، والابن الذي جاور ابن الأخ الأصغر في وقفته يتبادلان حديثًا مبهمًا..

دار بعينيه في المكان ولم يجده..

لقد رآه عند بداية الحفل، وها هو يهرب مرة أخرى!..

لكنه لن يلوم أو يتضايق.. فعاشق قديم مثله يقدر مقدار الوجع بين جنبي عاشق صغير خسر معشوقته لآخر، والجزء الأعظم من إثم الخسارة على عاتقه دون غيره..

عند العروس اقتربت منها عمتها تضمها مع خالتها الهاربة بعينيها، مكتفية بقبلة واحتواء وتمتمة خرجت مارة بصوتها في نبرة مجروحة تتمسك بقوتها الفطرية:

- مبروك يا أحلى عروسة في الدنيا..

وبالفعل كانت الأجمل..

ألم يقولوا أن السعادة تمنح جمالًا خاصًا؟!..

فما بالكم بالعشق!..

لمحت "سارة" صديقتها تدخل للمكان وحيدة فابتسمت وتحركت نحوها بشوق:

- علا.. بجد أنت أندل واحدة شفتها..

والثانية ابتسمت بحنين وضمتها باشتياق:

- واحشاني والله بس...

- بس إيه يا خاينة؟!

ثم أنبتها بعتاب رقيق:

- بقى لي قد إيه ما شفتكيش؟!..

وتلفتت حولها ببحث قبل أن تسأل:

- وفين مراد وتاليا؟!.. بقت كام سنة البنت دي دلوقتِ؟..

ردت الصديقة باعتزاز أم:

- تيا دلوقتِ في الكلية أهي.. بتركن العربية وهتحصلني، كنتِ واحشاني فجيت على طول.. ومراد أنتِ عارفة مالوش في جو الأفراح والحفلات بيحضرها مضطر..

وناولتها علبة مخملية أنيقة:

- مبروك لملك..

جذبتها "سارة" نحو العروس هاتفة بحبور:

- لا.. العروسة تباركي لها بنفسك..

ومن خلفها أتت شقراءها بطلة مبهرة، فوق وجهها تبرم متأفف كأنما هي مجبرة على الحضور لزفاف لا تعرف من أصحابه حتى وقعت عيناها عليه!..

تراجعت بخطوة حادة!..

لقد تيقنت من ظنها الآن عندما سمعت عن اسم أصحاب الحفل فثار فضولها واستجابت لرغبة أمها لتأتي معها..

"آسر الحسيني"..

ابن صديقة والدتها أم ماذا!..

ويالها من صدفة لا تقدر بثمن!..

اختبأت في ركن قصي ترفض أن يلمحها، ابتسامة ماجنة تشاغب شفتيها وخطة ما ترتسم بذهنها.. فربما هي مخبولة بحق، وربما فقط.. خدمها القدر!..

مع قرب انتهاء الزفاف وأزوف الشمس على المغيب اقترب العم من فتاة أخيه مهنئًا:

- مبروك يا ملك.. ربنا يسعدك..

رفعت عينيها إليه بنظرة تحمل شيئًا من ذنب ممزوج بالقلق، طمأنه هو بحنو نظرته وربتته الحنون وتكرار آخر كلماته:

- ربنا يسعدك..

ويؤكد الدعاء كأنما يخبرها أنه من القلب..

القلب الذي لا نملك السيطرة عليه، فدومًا له أحكامه الخاصة وقوانينه التي لا يجوز الخروج عليها!..

في النهاية وبعد مئات المصافحات والقبلات والعناق جاورها زوجها بهمس غامض ودفعة من يده نحو أمها:

- اطلعي مع ماما على الجناح بتاعنا وأنا نص ساعة وهاحصلكم..

نظرت نحوه بدهشة فغمزها بجرأة لم توحِ بها كلماته:

- مفاجأتي.. حفلتنا الخاصة..

رسم الخجل نفسه بسرعة عابرًا وجنتيها بحمرة لم تُخفِها زينتها وغادرته يحاوطها ببصره، وقلب نابض بجنون..

فالليلة..

شهرزاده ستكون له وحده ويا لها من حكاية أولى..

***

الحب يستأذن المرأة في أن يدخل قلبها.. وأما مع الرجل فإنه يقتحم قلبه دون استئذان.. وهذه مصيبتنا!..

"جورج برناردشو"

لا يدرك إن كانت تلك مصيبته بالفعل أم أنها حلمه الذي تجسد ليفيق على كونه حقيقيًا محسوسًا أمام عينيه، ومُلك يديه!..

تجمد على مدخل الجناح الخاص بالعروسين بعد رحيل مصففة الشعر يتأمل وقوفها المرتبك، فركها لكفيها بتوتر جعله يود لو يسرع إليها حتى لا تؤذيهما..

يحملق بها بتمهل، مارًا بكل بوصة من جسدها، متتبعًا الثوب الذي تمت إعادته لأصله فأظهر ما ستره حجابها في الحفل عن عينيه التائقتين، وصولًا لوجهها المحمر بشدة وزينته التي تم محوها بالكامل تقريبًا ما عدا لمسات طفيفة كما أراد.. وانتهاءً بخصلاتها الكستنائية الطويلة المنسابة فوق ظهرها بجموح قبض له أصابعه عندما تاقت لملامستها وتخلُلها..

انتقل ببصره لوالدتها ليراها تراقبها بالمثل..

عبراتها تلتمع على أطراف أهدابها، وبسمة شفتيها حانية.. سعيدة!..

تحرك إليها بخطوة مفاجئة حادة كأنما تلقى دفعة من شيء مجهول ثم تماسك حين نظرت إليه أمها محافظة على بسمتها هامسة بشجن:

- مبروك..

تمتمته وصلتها متحشرجة برَدِّه على مباركتها، دنا وتباطأ في دنوه حتى واجهها دون أن تواجه عينيه، التقط كفها وقبلها برقة ونبرته أبحة:

- مبروك عليَّ..

كرر تهنئته لنفسه آملًا أن تنظر إليه، خيبت ظنه بهروب وبسمة لمح نهاياتها على جانب وجهها فغمغم بتمُلك وصل لمسامع الأم وإبهامه يدلك ظاهر يدها برفق:

- الجمال ده ليَّ أنا، ممنوع حد يشوفه غيري..

وتحكم بذقنها لتغرق عنوة بدُجنة مقلتيه:

- أنا أول مرة أعرف إني باغيركده!..

بدا مندهشًا حائرًا حتى ربتت "جمانة" على كتفه وذكرى عاشقها المجنون تقتحمها عائدة بها لأيام خلت:

- ربنا يسعدكم..

منحت ابنتها قبلة أخيرة وتحركت مغادرة حينما وقف يتطلع لبصر حبيبته المعلق بأمها ورغمًا عنه تلبس نبرته مكر:

- هاوصل طنط..

عاد ووجدها تواجه النافذة الزجاجية الضخمة تتأمل الظلام خارجها فرارًا كما دأبت معه، سار إليها بخطى متلهفة، وقف خلفها وانعكاس وجهها على الزجاج يخبره عن توترٍ وصل لأوجه..

مد يديه يحاوطها ليفكك مشبك حرملة الثوب من الأمام ويلقيها بإهمال على مقعد مجاور، كادت تتشبث بها لكنه بتر تلك الفرصة وأطراف أنامله تمر ضاغطة ببطء صعودًا فوق ظهرها البادي لنظره من أسفل القماش الشفاف.. للغاية..

رعشتها رسمت بسمة عابثة على جانب ثغره فمد يده الثانية يزيح خصلاتها ويجمعها على أحد كتفيها، يميل برأسه ليطبع شفتيه فوق جيدها بنعومة ودفء همسه وأنفاسه يتمم المشهد:

- النهاردة بس، حياتي بتبتدي صح..

تضاعفت رجفتها وازداد فرك يديها لحد ملحوظ، حرك ذراعه يأسرها بها، يمسك بهما هامسًا بشقاوة:

- ارحميهم بقى..

وأصابع كفه الأخرى تصل لحافة الثوب العلوية، تتحكم بأول زر فتفتحه ويباغتها بعدها بقبلة مكانه؛ انتفضت لها فاستدارت تواجهه هاتفة بحماقة لا تشبهها، بهذه الليلة هي محض أنثى، بل فتاة خرقاء لا تجيد سوى الهرب.. والخجل:

- مش هنتعشى!..

بسمته العابثة ظلت تراود ثغره فافتر عنها مجددًا وعيناه تلتمعان بنظرة وقحة:

- أنتِ جعانة؟..

- جدا..

جوار هزات رأس متتابعة مرتبكة، خطوة واحدة جعلتها محاصرة بين جسده والنافذة، وهمساته لا تسمح لها بفرار محتمل:

- وأنا كمان.. جدا جدا..

تأملت طاولة الطعام المعدة لأجلهما من فوق كتفه:

- طيب يلا نتعشى..

مط شفتيه مفتعلًا استنكارًا عابسًا:

- أنتِ بتتكلمي على أكل بجد؟!..

دهشتها هي وُلدت صادقة موازية اقترابه أكثر، التصاقه بها ويديه تستقران فوق خصرها، عينيه تحطان عند صدر الثوب المفتوح ببذخ فلا يكاد يخفي شيئًا، بل يكشف الكثير لناظريه:

- أمال أنت بتتكلم عن إيه؟!..

رفع حاجبًا دون رد وكانت ملامحه وانفعالات وجهه كافية لتفهم، تزيحه بدفعة واهنة استجاب لها برقة سامحًا بحرية الهرب من حصاره، وتهرول بابتعاد..

فقط ليتبعها، يضم ظهرها إليه ومع الضمة تتسلل لمسامعها موسيقى ناعمة صادرة من مكان ما، ينحني نحو أذنها بعاطفة بات كتمانها مؤلمًا:

- الأكل مش هيهرب..

وأدارها بين ذراعيه..

أسرها بكل جوارحه.. بالنظرة والهمسة ورقة اللمسة والاحتضان المطمئن الواعد بما يعتمل بداخله من لهفة..

تمايل بها في تباطؤ على النغمات ورقصة خاصة!..

تبعته مسحورة.. مأسورة ومستسلمة لعينيه..

الاقتراب الأول كان قبلة فوق الجبين تمنح الأمان وتعِد بالسكن..

والثاني تنقل بتأنٍ دافئٍ نحو الشفاه، متمهلًا بخطاه حيال لحظة فقدان السيطرة على الشغف..

وما تلاه!..

لا يجوز ذكره في عرف المحبين..

هي باتت امرأته..

زوجته!

وقبل كل ذاك حبيبته..

والتتمة التي تليق بسرمدية العشق بقلبه؛ امتلاك.

***

لا تلوموا الواقع لحقيقته الملموسة، بل لوموا أنفسكم على إنكارها والتعامي عنها..

فتلك النافذة المطلة على عالم الوهم لن تعيقه عن التجسُد فوق رؤوسنا مهما ادعينا الأمل أو تشبثنا بالحلم..

ونافذته مُسكرة بوجهه، تحجب عنه شمسه، نهاره، تبقيه بظلامه وليله الطويل وحيدًا دون معشوقة دفع ثمن تردده معها؛ خسارتها لآخر..

آخر تسير نحوه الآن كعروس بثوب أبيض ملكي يليق بها وتليق به..

تخطو إليه ببطء ينحر عنقه مع كل خطوة..

يعصر قلبه بعد كل اقتراب..

تتقدم تجاهه وهو في الخلفية يراقب بحسرة رجل مغروم مهزوم لم يرفع سيفه بالمعركة بل كان من الآبقين!..

هو من وجب أن يكون هناك قيد انتظار القرب..

هو من كان ينبغي أن يتسلمها من أبيها، يرفع وشاحها عن وجهها، يقبل جبينها.. يحبس صورتها بين جفنيه ويهمس في أذنها بعشقه وإخلاصه..

هو من كانت له لكنه أضاعها..

قانون العشاق صارم، وعقابه واجب!..

هو من الخاسرين، والمنتصر وحده من يحق له كتابة التاريخ ولو بدنيا العشق..

انضمت قبضتاه بقسوة بينما يقف من وراء الحشد المتابع يتمعن في ملامحها ويوشم قلبه بوجع اللحظة..

يجبر عينيه على النظر ويلعن عاشقها الآخر الهارب، ذاك الذي غاب بحجة واهية لم يشترِ منها حرفًا واحدًا..

لم يرغمه أحد على الحضور، بل قرر بنفسه وكأنه أيقن أن الغد لن يرسمه سوى جلدة سوط يقين أخير تترك ندبتها فوق خافقه وبيد جلاد واحد.. ذاته!..

تأمل دمعة أمها..

ابتسامة أخيها الغيور..

زهو أبيها ونظرة الاحتواء بمقلتيه..

تألق السعادة ولمحة التملُك بعيني الحبيب والزوج..

زوج!!..

ثلاثة أحرف أقرب لخنجر مسموم لن يكتفي من طعناته أبدًا..

سجل كل حركة ونظرة وبسمة وقبلة وكلمات مختلسة تشي بعشق وخجل، احتفظ في ذاكرته بكل صورة ومشهد وصوت..

وياله من عذاب!..

تحرك بتمهل بين الجموع بعدما استقرت ملكته على عرشها جوار سلطانها، دنا منها حتى سقط في مجال بصرها فتجمدت بسمتها عند أطراف شفتيها..

تقدم.. ومع كل خطوة وجيب قلبه يهتف باغيًا الهرب، وماسوشية غريبة كانت تدفع قدميه دفعًا نحوها..

يتأمل تقاطيع وجهها الرقيقة..

عسل عينيها..

حجابها الذي يغطي ما أصبح حقًا مكتسبًا لرجلٍ واحد.. رجلٍ غيره!..

ثوبها المصمم لأجلها كملكة حقيقية بتطريزاته الأنيقة وحرملته معلقة برقي فوق كتفيها..

زينتها التي يراها للمرة الأولى وآه كم تبدو ساحرته آسرة!..

واجهها وغاص بعينيه في نظرة متوجسة منها..

ترى ماذا تنتظر منه؟!..

وعبرت مرارة بحلقه، أتراه المحارب الذي سيقتحم قصر من انتصر مسددًا رمحه لجسده، ومختطفًا غنيمته على صهوة جواد الحلم؟!..

أم تراها كانت تتوقع ابتسامته!..

ترتقب غموض وجهه وتهنئته بصوت أبح شبه ضائع:

- مبروك يا ملك..

والتفاتة تليها مصافحة شبه قاسية مُعَنونة بتحدٍ نحو الفائز بها، تحدٍ بهفوة، سقطة، خطأ وسيخط هو النهاية:

- مبروك يا نزار.. ربنا يسعدكم..

القلب ينفي ابتهال السعادة والضمير يوبخ والجسد يبتعد تاركًا نظرة مبهمة فوق وجه من ظفر بهبة القدر، يترك المكان بخطوات سريعة تتابعه عينا أبيه وأمه وأخيه الأصغر الذي تحرك خلفه دون أن يلحق به..

فقد اختفى رُغم الفراغ من حوله..

لقد حازت العروس على زفاف أسطوري كما يسمونه.. وكان من نصيب الأخ الأكبر، فقط الألم..

***

اقتحام الأحلام لدنيا الواقع ما هو سوى وقاحة لا تؤدي إلا إلى الألم!..

ألم ابتغى اقتسامه مع شريك مهزوم، خاسر مثله.. فهاتفه وسيارته تنطلق به نحو التيه يخبره أن يأتي إليه..

جندي آخر سقط فوق رقعة شطرنج أجاد طرفها المنافس اللعبة حد الفوز..

واستجاب "ياسين" مع ضعف النبرة التي وصلته..

أليست بينهما صداقة من نوع خاص؟!..

صداقة حتمت عليه أن يهرع إليه، رغم انطوائه على ذاته بمعمله الشخصي يطحن عقله في دوامة عمل لا حاجة لها كأنما يبحث عن مسوغ للتناسي، والاستمرار!..

التقاه عند مدخل الصالة الرياضية العريقة التي يمارس تمارينه بها، ترجل من السيارة يواجه عينيه ودون حديث جذبه المنتظِر للداخل بتمتمة شبه مسموعة:

- تعالى..

أمام "حقيبة ملاكمة" توقف مُيممًا وجهه شطرها هامسًا بحزم:

- اضرب..

وسخر رفيقه..

هل بضع لكمات ستفي بالغرض؟!..

تُحجِم مارد الغضب بنفسه وتعيده إلى قمقمه فيرتاح؟!..

- اضرب يا يوسف..

صيحة أعلى بلهجة آمرة وبين يديه قفازين يناولهما له، واستجاب..

خلع سترة بذلته الأنيقة ورماها أرضًا، تبعها بربطة عنقه التي فتحها عندما شعر بالاختناق في طريقه لصديقه.. تجاهل اليد الممدودة نحوه وبدأ باللكم..

بأيدٍ عارية كادتا تتحطمان مع تتابع اللكمات وعنفها، واحدة سددها وتأوه القلب..

ثانية وصرخ العقل بلومٍ معتاد..

ثالثة وارتج الكيان بآهة وجع..

رابعة، خامسة، سادسة وازداد ألم الجسد جوار الروح حتى أحس بذراع تحيط بخصره فتجذبه بعيدًا عن الحقيبة وصيحة عالية تخترق ظلامه:

- كفاااية، أنت اتجننت؟!.. هتأذي إيديك..

جراح القلوب الماهر فقد قلبه وبعده تساوى الخسران، استدار بحدة نحو "ياسين" وصرخ بوجهه دونما شعور وهو يخلص جسده من سيطرته القوية:

- الأذى حصل خلاص.. دي حلاوة روح يا ياسين..

اعتصر جفنيه فوق نظرة ضائعة عائدًا لشروده، غائبًا في صورة لم تحتويه:

- حلاوة روح..

والمتماسك تأمله للحظة بإثرها جذبه نحو حلبة أخرى..

التقط في طريقه من خزانته ثوبين خاصين وسيفين، ناول أحدهما له بأمر جديد:

- البس..

- مرة ملاكمة ومرة شيش.. هو ده الحل؟!..

سخر بمرارة والجواب أتاه حاسمًا:

- علم النفس بيقول كده يا دكتور..

استجاب مجددًا، واحتدمت معركة السيوف وصليل النصال يتردد صداه في المكان..

اقتراب..

هروب..

مناوشة..

تكتيك ولمسة وخسارة وألم ومواجهة كانت معها الحروف المختنقة من خلف قناع يخفي نظرة العين التي تعمدت إغماد النصل بمكمن الوجع:

- ليه ما جيتش الفرح يا ياسين؟!..

ابتعاد، مناورة ورد شبه بارد:

- ما بحبش الأفراح..

التحام تالٍ وسيف يعاند لينال نصرًا يغير مذاق الخسارة بالحلق:

- ولا ما قدرتش تشوفها ملك واحد غيرك؟!..

ارتعشت الشفاه، تيبست الملامح المختبئة وانعقد الجبين بينما نضحت النظرة بالألم:

- أنا عارف من زمان إنها مش ليَّ..

- أنت ماحاربتش عشانها..

- ولا أنت..

- أنت ما حبيتهاش..

يقرر عنه حكمًا جائرًا ملقيًا بتهمة ظالمة لم يأثم بها:

- وأنت أثبت حبك إزاي؟!..

توقف "يوسف" فجأة عندما ارتدت طعنته لصدره بذاك السؤال، خلع القناع وتأمل المواجه له ببسمة سخريتها لها مرارة الحنظل:

- ما لحقتش أثبته..

كشف الآخر عن وجهه لتقابله عينيه بنظرة جامدة مسيطرة أجادت إخفاء ما يخنق القلب والروح:

- يااااه!!.. كل السنين دي وما لحقتش؟!..

- أنت كمان ما اتكلمتش..

ويبادله التهمة بثانية:

- ما كانش ينفع أتكلم..

- ليه؟!.. ما تقولش خُفت!..

- كنت هاخسرها للأبد..

- فاكتفيت بدور المتفرج؟!..

- زي ما أنت اكتفيت بضمان مش ملكك من الأساس..

تبًا له كم هو صادق!..

واللعنة على نفسه فهو خاسر سيء لا يحتمل ما يمر بكيانه فيكاد يشُجه بتلك اللحظة..

يتذكر ضمة زوجها لها..

قبلة الجبين والميل والهمس والخجل..

يتذكر القرب ويهز رأسه بعنف وخياله يبيح له تصورها بين يديه!..

يصطلي بوهم جسَّد الصورة أمامه فيراه يمتلك منها ما حُرِّم عليه..

يشغفها وتشغفه..

يستحوذ على اللمسة والقبلة.. والجسد!..

ويصرخ القلب مطالبًا بالرحمة فيلقي بالقناع والسيف أرضًا وتنتقل الصرخات مارة فوق لسانه وموجهة بطعنات ثالمة نحو شريك الألم:

- أنت هربت، كل مرة بتهرب.. وهربت الليلة من إنك تشوفها جنبه..

وواجهه بعين تنفث النار:

- هربت من إنك تشوفها في حضنه قدام الناس كلها لأنها بقت ملكه..

ينهش فؤاده ضاغطًا الجرح بقسوة فيزيد من نزفه وأنينه الصامت:

- ملكه بحق الحب والشرع والقانون..

الخطوة الأخيرة التحمت فيها النظرات فوق سعير مشتعل:

- ملكه وحده، بتنتمي ليه..

ووكز صدره بسبابته في عنف:

- وناوي تكمل هروب طول حياتك..

وصمت..

صمت ليعلو كل صوت مغاير وتتغلب الأنفاس المحترقة على السكون، فتتأجج وينتقل الغضب للمتوجع دون آهة واحدة، يلحق سيفه بخاصة صديقه، يدفعه بخشونة غليظة ليصدم ظهره بجدار خلفه، يلقي بثقله عليه، يكبل حركته ويعتصر صدره بضغطة من ساعده خارجًا عن صمته الإرادي:

- الكلام ده بتقوله ليَّ ولا لنفسك يا يوسف؟!..

وزاد من ضغط يده وحرب الأعين وغاها حارق:

- مين اللي هرب وناوي يكمل هروب؟!..

ونكزة أخرى تلاها تقرير حاد مهتاج:

- ما تسقطش عليَّ ذنوبك عشان تطهر نفسك وتخرس ضميرك ولا حتى عشان تمنع قلبك يتوجع..

ثم ابتعد مخللًا خصلاته بأنامله لحد كاد يقتلعها دون أن يشعر:

- أنا اخترت من البداية ومتحمل مسؤولية اختياري..

وولاه ظهره مُخفيًا ملامحه التي اقتحمها ألمه سافرًا خارجًا عن سيطرته:

- حاول تتحمل أنت كمان مسؤولية اختيارك..

بعدها عاد يلتفت إليه بحزم أجاد اصطناعه:

- الحياة مش هتقف، فبلاش توقف أنت حياتك..

- يعني أنت هتقدر تحب غيرها وتكمل؟!..

انكسرت بسمة فوق شفتيه مع السؤال المتحدي:

- ما حدش عارف بكرة فيه إيه!..

وتحرك مغادرًا بينما يخلع زيه:

- تعالى عشان أوصلك، بلاش تسوق في حالتك دي، وابقى ارجع خد عربيتك في أي وقت تاني..

ألقى كلمة الختام..

توتة توتة..

فرغنا من الحدوتة، دون نهاية خيالية حالمة، أو تتمة وردية لا تليق بالواقع، والأمير يقف متحسرًا على أميرته التي فقدها لصالح من أجاد لعبة العشق!..

***

وصل مترنحًا لغرفته كأنما تحول الألم لخمر من نوع فاخر أصابه بثُمالة لا شفاء منها..

هرب من نظرات الشفقة وتساؤلات الاهتمام..

اعتزل في وحدته ساعة وربما اثنتين بعدما طلب الخلوة وأصر على احتياجه للغوص في سكونها..

خلوة اقتحمها أخيه وبين يديه صينية رُص عليها عدة أطباق من الفاكهة، وضعها على الطاولة واستدار ينظر إليه ليبادره بنبرة حادة:

- إيه؟!.. جاي تحكي لي حدوتة قبل النوم؟..

ضحك الصغير بمرح بينما يتمدد فوق أريكة الغرفة:

- مافيش مانع أدخلك السرير وأغطيك وأحكي لك الحدوتة كمان..

وغمزته أتت عابثة بإيحاء وقح:

- عندي حدوتة جديدة هتعجبك على فكرة..

زفر الأكبر بضيق وطرده:

- مش فايق لك يا آسر، خد الأكل ده وروح أوضتك..

نال رفضًا بهزة رأس ومواجهة لم تتأخر:

- مش كل واحد ما يتجوزش اللي بيحبها هيوقف الكون عن الدوران يا جو..

صدمة لحظية مرت بتفاصيل وجه الواقف دون حراك قبل أن يتهكم بسخرية لاذعة متهربًا من حوار لا يريده:

- وأنت بقى تعرف إيه عن الحب؟!..

رمقه من جلسته بنصف عين، اعتدل يعيد قدميه للأرض مجاريًا هروبه:

- أعرف إنه ببساطة مجرد.. كاموفلاچ..

- كاموفلاچ؟!..

أتته مستنكرة غير مصدقة بها لمحة استفهام!.. هز كتفيه وشبك أصابعه بجدية:

- أيوة، تمويه، إطار لذيذ لطيف تستخبى وراه رغبة أي راجل في واحدة ست..

- آسر!!..

صيحة غاضبة ناهرة من "يوسف" جعلته يرفع حاجبًا بتهكم:

- إيه؟!.. الحقيقة بتصدم؟.. ولا الحدوتة الرومانسية شكلها أحلى من برا؟!

اقترب منه ولكم كتفه بخشونة تعمدها:

- خلِ بالك من كلامك يا آسر..

مسَّد موضع اللكمة بأنَّة وجع وعين زاجرة، أشار لجواره وأردف:

- اقعد بس وخلينا نتفاهم..

ثم جذب يده يجبره على الجلوس شارحًا قناعته الخاصة:

- بص أنا ماعنديش مشكلة إن الراجل يحب، عادي يعني.. في رجالة كتير بتحب، أبوك، عمك.. جوز عمتك وكل شيخ وله طريقة وكلهم ناجحين..

انعقد حاجبا الأخ في صمت وهو لم ينتظر الرد:

- بس مهما وصلت درجة الحب دي هيفضل ديكور.. حاجة بتدي الصورة بُعد راقي شوية بعيد عن الغريزة..

بعدها مال نحوه متممًا بجرأة:

- ما تنكرش إن أول حاجة بتتحرك في أي راجل ناحية الأنثى.. هي الرغبة!..

تراجع مستريحًا متجاهلًا ملامح الصدمة على وجه العاشق الأفلاطوني:

- فيقدم الحب والمشاعر عشان يشبع الرغبة دي..

وحرك أصابعه راسمًا مستطيلًا وهميًا:

- إطار أنيق..

- مش شايف إن الكلام اللي بتقوله ده كبير عليك قوي؟!..

ضحك بعبث ومال يربت على ساقه:

- الحاجات دي مش بالسن يا دكتور والله..

عاد لجلسته الأولى مستطردًا بلهجة مستمتعة:

- أنا بحب الستات ودي حقيقة..

فهم المجاور له ذهب لاتجاه خاطئ جعل حاجبيه ينعقدان والنار تتأجج بنظرته:

- آسر أنت بدأت تخرف..

لتجاوبه ضحكة أخرى وتوضيح جديد كأنما هو الحكيم، العالم ببواطن الأمور:

- يا بني أنت مش فاهمني ليه؟!..

واضطجع مسترخيًا فوق الأريكة، ممددًا ساقيه بمواجهته على الطاولة:

- بأقولك بحبهم..

عقبها تعانق جفناه وابتسامة كسول تغزو شفتيه:

- الستات دول حاجة لذيذة قوي..

ثوان من صمت مرت و"يوسف" يرمقه بذهول، هو المخلص في محراب عاشقة لم ينلها:

- زي الفاكهة، وهما فعلا فاكهة الدنيا..

- فاكهة!!..

خرجت متعجبة بلهجة مذهولة من فم أخيه، ولم يفتح هو عينيه.. بل تحولت بسمته للمكر المشاكس:

- أيوة فاكهة.. عمرك شفت بني آدم طبيعي بياكل صنف واحد للأبد؟.. لأ!..

ثم تفرق جفناه بنظرة مشاغبة، نزل بساقيه للأرض ومال يلتقط ثمرة تفاح من طبق أمامه:

- ممكن النهاردة تفاح..

قضمها بشهية ونظراته تغازل طبق المانجو الذي أعدته والدته له مقطعًا ومزينًا بالكريمة كما يحبه:

- بكرة يجرب المانجا..

وتأوه بتلذذ:

- اللي بعده نفسه تروح للكنتالوب..

أعاد ثمرته بعد قضمة واحدة بين إخوتها يانعات الُحمرة، أمسك بطبق المانجو وملعقة وبدأ في تشممه أولًا باشتهاء بينما المصدوم يناظره بحاجبين معقودين:

- وياسلام بقى لو طبق لذيذ بالكريمة!..

شرع في تناوله حتى شارف على الانتهاء فأعاده لمكانه والتفت بجسده لأخيه يغمزه بوقاحة كأنما يمنح كلماته مدلولًا مغايرًا:

- الستات دول حتة من الجنة..

وتراجع مجددًا لجلسته المسترخية، ذراعيه ينعقدان أسفل رأسه وعينيه تنغلقان ببطء تاركًا لخياله -غير المباح- كل العنان:

- وأنا عاوز أعيش كل يوم في الجنة..

ابتسامته جُن لها جنون العاشق فنهض بحدة:

- اطلع برا يا آسر بدل ما أتهور عليك..

باغته المتكاسل بنهوض نشِط:

- الخلاصة.. ماتخليش الخسارة ترسم الهزيمة على ملامحك..

- ويا ترى ملامح الراجل المهزوم دي تبقى إزاي يا فيلسوف الفاكهة؟!..

- بص لوشك في المراية..

وعاد لمزاحه محاولًا رسم بسمة قبل أن يرحل:

- على فكرة أنا عميق وأعجبك..

ثم رفع قبة قميصه بتفاخر مشاغب:

- بس ما بحبش أتكلم عن نفسي كتير..

ربت على كتفه بتفهم أخير وغادر المكان..

غادر ليقابل إثر متابعته لخطواته عيني أبيه الذي أتاه مطمئنًا هو الآخر فيخبره بحسم:

- أنا هارجع كندا..

ربما أفضل القرارات وأكثرها فشلًا بذات الوقت، تلك التي نتخذها ونحن نصرخ بأنين الوجع!..

(٧)

يقال أن في العشق لذة..

ولها الكل يخضع!..

ولذة العشق غيبوبة لا إفاقة منها إلا ربما..

على واقع بدايته انكسار..

تتمته شتات وتيه، وشظايا ملتمة بينها شروخ لا تخطئها العين..

ولا ينساها القلب!..

هو رجل مأساته عشقه..

تيه في إثم لا يغتفر وغرق بذنب لا توبة عنه..

رجل اختار الحل السلمي دون الحرب فألقى بسلاحه أرضًا وخضع لمن امتلك مقعد السلطة وفاز بالمُلك ومليكته..

هكذا بثلاث كلمات أعلن القرار..

أعلن الهروب..

وبحث عن مكان آمن خفي، مختبئ بعيدًا عن تلصص الأعين الفضولية أو المهتمة ليسكن في خنوع لاعقًا جرح الخافق النازف.. أعلنها لا تقبل جدلًا ولا تسمح بمراجعة، بنظرة تخبر عن يقين.. ونبرة بها من الحسم ما يجبر على الصمت..

لكن قلب الأب لا يستكين، لا يصمت أو يتوارى، وعقله الراجح يؤنب ويصرخ وإن تمسكت لهجته برباط الحكمة ونغمُه الهادئ:

- بتهرب تاني يا يوسف؟!..

أما الفتى المهزوم فلم تكن به طاقة لحصر دوافع أو تقديم مسوغات تبيح له فعل ما يريد:

- ليه بتسميه هروب يا بابا؟!..

وأردف مجيبًا على نظرة أتته مستنكرة غير مصدقة ولو كانت صامتة:

- أنا لسه عندي شغل الرسالة ككل، ومستحيل هاقدر أعمله من هنا..

تراجع خطوتين عائدًا لجلسته فوق الأريكة خلفه مكملًا دون مبالاة بذات النظرة فوق وجه أبيه:

- في الوقت الحالي ده أنسب حل.. عشان أنسى، ولو ما قدرتش أنسى..

وتنهد هاربًا بعينيه:

- يبقى عشان أستمر..

أخيرًا تحرك والده دانيًا من جلسته، جاوره وسجن ناظريه بعينيه:

- برده بتهرب..

- بابعد..

- مافيش فرق!..

- الفرق كبير..

وفر من الحصار العاطفي والقرب المنهك لجوارحه ناهضًا بحدة:

- البعد هيريحني حاليًا، هانشغل بدراستي وشغلي هناك لحد ما أقدر أقعد معاها هي وجوزها على ترابيزة غدا واحدة في يوم العيلة المقدس..

التفت للأب المصدوم من ألم الفكرة وتصور المشهد:

- لحد ما أقدر أتكيف..

زفر بصدر مشتعل:

- ما هو بقى من العيلة..

تبعه "آدم" يحتوي كتفيه بين راحتيه:

- وإحنا؟!..

رمقه بشبه ضياع:

- دي مش أول مرة أسافر..

- حاسس إنك المرة دي هتغيب..

نطقها بنبرة مجروحة مست قلبه فمد يمناه يربت على يسرى والده عند كتفه:

- مهما طال الغياب؛ هنا الوطن يا والدي..

- يوسف..

- أنا قررت..

وابتعد يوليه ظهره ويعلنها نهائية متممة لأحرف قصة مسطورة فوق الرمال لتأتي موجة مشاغبة فتمحوها بطريق عودتها نحو البحر:

- هاحدد ميعاد سفري في أقرب وقت..

وبنصف استدارة من رأسه، وشبه بسمة لم تخلُ من وجع:

- يمكن في البعد يخف الجرح أسرع..

نفى أبيه باعتراض حكيم:

- ما تصنعش جروحك بإيدك وتتمسك بيها وتقول هتطيب..

عاد يقف خلفه ويربت، يحنو ويهدهد:

- طول ما أنت بتضغطها عشان تنزف، لا هي هتطيب..

وتنهد بحزم مقررًا ما يخشاه ابنه ويتعامى عنه بغباء عاشق يذوق الخسران للمرة الأولى:

- ولا أنت هتنسى.. مهما بعدت أو شُفت إن الغياب حل..

ارتعشت شفتا "يوسف" وأغمض عينيه، لكن الصورة لم تكن حقيقية بل كانت وهمًا فيما وراء الجفون المغلقة:

- سافر يا يوسف.. سافر، يمكن النجاح في الشغل يشغلك عن اللي ضيعته هنا..

قررها عنه، قررها معه واختارله وبه النهاية..

ولم ينسَ أن يذكره بكلمة أخيرة أنه هو من أضاع ولو دون عمد!..

رسم بحنوه قبلة فوق جبينه قبل أن يغادره ليترك له الفرصة النهائية قبل الحسم..

الفرصة التي لا رجوع بعدها، فرصة قد تكون هي الخيار الأصوب وقتما تشابهت الطرقات وتفرعت به دروب متاهة عشق لم يُكتب له الاكتمال!..

***

الحب آسر..

ساحر..

تعويذة استحواذ تسيطر على القلب والروح..

الحب بئر بلا قرار؛ حين السقوط لا طفو.. ووقت الوصول للقاع طويل..

الحب قد يكون بداية، وربما هو المنتهى والمصير!..

راقبها بأعين باسمة كسول تتململ في نومها المتقطع موحية باستفاقة، رفع جسده قليلًا ليستند لمرفقه متعمدًا مواجهة عينيها عند فراق الأجفان.. وحين فعلت تسللت الحمرة القانية لوجنتيها بهجوم كاسح أطلق منه ضحكة مستمتعة ضاعفت من غزوها لوجهها فلكمت كتفه بتذمر تنهره بأحرف اسمه التي تتآكل منها "الراء" كلما فعلت:

- نزاااار..

وتلك المرة حقق رغبته السابقة وبحث عنها بين شفتيها بشغف حتى أبعدته بوهن مكررة اللكمة وعتاب الأعين فتمتم هو دون أن يتيح لها مهربًا من حصار بصره أو ذراعه التي تطوقها بتملك:

- مش ذنبي والله..

مطت شفتيها مفتعلة الضيق:

- بتضحك عليَّ..

ناوش وجنتها بطرف سبابته مبتسمًا:

- ما هو دول السبب..

وانحنى برأسه يستبدل إصبعه بأنفه وشفتيه:

- ألذ من التوت..

تحرك فوق فكها ببطء وأنامله تتناغم متمهلة مع فمه العابث عند نهاية عنقها:

- ولا خليها فراولة عشان بحبها..

فرصة الاعتراض ضاعت بضمة ثغره، وقرار الهروب لم يبدأ بأسر من ذراعيه ليثمل معها وبها غارقًا في لذة لم يتصور أن يكون سببها فقط..

العشق!..

عندما ابتعد كان يتنهد، يجذبها لتستريح فوق صدره، يده تتخلل خصلاتها الكستنائية دون ملل، وأنامل الثانية تحيط بكفها في احتضان دافئ، تعلو وجهه ملامح راضية وهمسه يتمم الصورة بخفوت عاشق:

- بحبك..

أغمضت عينيها تتردد أنفاسها لتهدأ بموازاة دقات خافقه، تعانق خصره مندسة بقربه أكثركأنما ترد كلمته بفعل هو أشمل:

- ما سألتنيش عن المفاجأة اللي قلت لك عليها!..

رفعت وجهها إليه بغيظ لذيذ:

- أنت أعلنت عن المفاجاة وما اديتنيش فرصة أسأل عن التفاصيل..

ضحك بخفة واعتدل يقلبها على ظهرها، يغوص بعسل مقلتيها رافعًا حاجبًا واحدًا:

- طب الفرصة أهي.. اسألي!..

رمشت بأهدابها والحمرة تعود لوجنتيها في لقاء عاصف بعينيه مكتفية بالتساؤل الصامت، تلبس ابتسامته مكروتظاهر بالتفكير الشارد:

- كنتِ قلتِ لي أكترمكان نفسك تزوريه فين!..

ونقر ذقنه مفتعلًا النسيان:

- فين يا نزار؟!.. فين!..

تحركت ببهجة طفولية:

- بتتكلم جد؟!.. المالديف!..

أحكم حصاره حولها سعيدًا لبهجتها:

- أحلامك أوامر..

تجددت محاولتها للنهوض بدفعه:

- إمتى؟!..

لم يفلتها بعناد محبب:

- الطيارة بالليل..

ثم مال مقتربًا:

- يعني قدامنا وقت..

توسعت عيناها وهي تلمح نظرته فتشبثت بكتفيه توقفه:

- أنت.. أنت..

ابتسم وغمزها بخبث شغوف:

- أنا.. أنا..

ثم كرر الامتلاك، ونال القرب واستحوذ على الفؤاد..

باليوم التالي كانت تبدأ شهر عسلها الموعود في جنتها التي رغبت فيها وذكرتها لمرة وحيدة أمامه ليحتفظ بها بعقله ويحققها لها..

وقفت ترمق الكوخ من حولها بقلب مبتهج، عيناها تبتعدان خلف جدرانه نحو المياه الفيروزية التي تحيطه من كل اتجاه ما عدا الممر الخشبي الموصل له، ولم تشعر إلا وهي تتعلق بعنقه، تلثم وجنته وكأنها عادت صغيرة:

- المكان يجنن..

أحاط خصرها ورفعها لتقابل عينيه:

- أي مكان معاكِ جنة..

وقبلته هو كانت لشفتيها:

- المهم تكوني معايا..

ابتسمت بحب فأنزلها وتحرك بها نحو الخارج:

- أنا اخترت الجزيرة دي والمنتجع ده بالذات عشان الخصوصية..

وأشار للفراغ الأزرق أمام ناظريه:

- عشان تبقي بحريتك..

استكانت فوق صدره مطمئنة لدفء ضمته:

- ربنا يخليك ليَّ..

كانت دعوة صادقة من قلب مخلص لعشقه، جوابه عليها بسمة ونظرة واحتواء وتيه..

تيه في عينيها!..

لكنهم عندما قالوا أن أوقات السعادة قصيرة -تنتهي ونكاد فقط نشعر بها، تتسرب من بين أصابعنا كالرمال- لم يكذبوا..

مرت الأيام بمذاق العسل الحقيقي.. أسبوعان شارفا على الاكتمال وإن طمح هو لمدهما أبد العمر وتمنت هي ألا يعودا من جنتهما مهما طال بهما الزمن..

سكنت صدره فوق أرجوحة شبكية خارج الكوخ.. عيناه مغمضتان وأنفاسه هادئة، عيناها تتأملان صمته وهدوءه بنظرة جديدة تسكن مقلتيها ربما لأول مرة..

شيء من حب اختلط بذرات عشق واطمئنان امتزج برغبة في الاختفاء بين ضلوعه جوار ذاك الذي يخفق أسفل أذنها وتكاد تسمع اسمها بين دقاته..

الشمس تهبط بتلكؤ فاتن نحو المياه لتمنح الصورة حمرة الشفق، والأضواء الخافتة التي تزين الممر وأرضية المكان تنهض من غفوتها لمزيد من الإبهار.. ناظريها تعلقا به حتى شعر بحركة وجهها فأخفض بصره نحوها بابتسامة كسول مقاطعًا تأملها الصامت لسكون ملامحه:

- بتحبيني يا هدى!..

انقطعت لحظتها الحالمة الغائبة فوق تقاطيعه فوكزت كتفه مفتعلة التذمر:

- ياربي عليك..

قهقه بشدة وتملك من وجنتها مقتنصًا قبلته التي اعتادها كلما أغاظها:

- بحب ملامحك وهي كده قوي..

وتمتم بلثمات متتابعة من بين شفاه لا تكاد تفارق وجهها:

- قوي.. قوي.. قوي..

دفعته بنظرة زاجرة لائمة ومطت شفتيها بغضب لم يمنعه من إطلاق ضحكة أخرى، ضحكته أرغمت شفتيها على الابتسام فمدت إبهامها تغوص به في شق ذقنه بتمتمة متجاهلة التهام عينيه لتفاصيلها:

- تعرف إني ما خدتش بالي من طابع الحسن ده إلا بعد جوازنا؟!..

علت الدهشة وجهه فهزت كتفها الحر:

- كنت باتكسف أدقق في ملامحك..

بسمته شابها المكر بينما يحيط وجنتها بكفه:

- وعجبك؟..

احمرت وجنتاها لحظة قررت بعدها تدليله بقبلة لطابع حسنه، ثم ابتعدت بإثرها ونبرتها يكسوها حزن بريء:

- هنسافر كمان يومين!..

مرر شفتيه بدفء عند جبينها وتمتم وهو يضمها إليه أقرب مهدهدًا الأرجوحة بدفعة من قدمه:

- للأسف..

عاد يغمض عينيه بتنهيدة:

- المهم هنروح على بيتنا.. وهتبقي معايا..

وفتحهما يعانق بصرها بنظرة عاشقة:

- لآخر يوم في عمري..

شعت سعادتها على وجهها فاستكانت أكثر لقربه واحتوائه..

أوقات السعادة قصيرة ربما..

انتهاؤها لا مناص عنه..

لكن من قال أننا لا نستطيع خلقها وقتما أردنا!..

اقتناصها من بين فكي الزمن، والغياب في ثمالتها حين الاستطاعة!..

من أخبر عنها أنها ترتبط بمكان؟!..

هي فقط ترتبط بمالك قلب، قربه بات هو الحياة..

***

البدايات دومًا لها سحر خاص..

شغف التمسك والركون لجانبها المبهم الجاذب بغموضه..

إثارة الفضول مع النظرة الأولى..

الابتسامة والنبضة والدهشة!..

دهشة لازمتها حتى عادت لمنزلها بصحبة صديقتها عقب انتهاء يوم جامعي آخر، يوم كاد يشبه غيره في روتينه وملله اقترابًا من نهايته عندما قطع طريقها قرب سيارتها ذاك الثقيل الذي تكره عينيه عندما تنظران إليها..

- غرام.. ممكن آخد من وقتك دقيقة؟!

كانت "أمل" قد استقرت بمقعدها في السيارة بالفعل وهي عند باب السائق، زفرت ببطء قبل أن تلتفت إليه، تمنحه نظرة جامدة وتسأل دون بسمة:

- خيريا سليم؟!..

ابتسم كأنه صاحب فضل ينتظرردّه:

- عيد ميلاد رنا أختي كما يومين، هي دفعتك على فكرة ونفسها تتعرف عليكِ، وسطتني أعزمك وأهو تتعرفوا وتبقوا أصحاب.. هي بس خجولة شوية..

رسمت بسمة جامدة فوق شفتيها محاولة منع الحدة عن نبرتها:

- للأسف مش هاقدر أحضره، بس طبعا يسعدني أتعرف عليها، ممكن نتقابل في الكلية عادي..

اقترب خطوة لم تعجبها فنهرته بنظرة تجاهلها عامدًا:

- طيب حاولي، هتنبسط قوي واليوم هيبقى لذيذ وهيعجبك..

فتحت فمها برفض جديد قاطعه الصوت الحازم باسمها:

- غرام!..

رفعت عينيها لما خلف المواجه لها والتفت هو بعدها لتقابله النظرة المحذرة..

أو ربما تلك التي تحيط الواقفة خلفه بسياج ما.. سياج أشبه بلغزله هو نفسه، لكن الآخر دقق فيه وفهمه:

- معلش يا سليم، محتاج غرام في موضوع مهم..

والسمج أدرك المعنى والمضمون، فقط بصفاقة لم يتراجع عائدًا ببصره إلى الواقفة بحاجبين معقودين:

- فكري تاني، لا أنا ولا رنا هنقبل الرفض..

وابتسم لها فرأتها باردة سخيفة ومنح ثانية للحامي بتحدٍ رفع له رأسه ثم غادر..

- خير؟!..

لفظتها بلهجة هجومية أجبرته على بسمة باتت صديقة شفتيه معها..

بسمة مستمتعة هي ربما!..

- إنقاذ سريع..

تغضن جبينها وعقدت ذراعيها فوق صدرها بعناد:

- ما كنتش محتاجة إنقاذ..

شملها بنظرة اختلج لها جسدها:

- عارف..

ورغمًا عنها ومع نبرته وصدقها جوار لمعة عينيه اعتدلت، ابتسمت وتحدثته:

- ما تتوقعش شكر.. أنا كنت أقدر أوقفه عند حده..

- برده عارف..

- ورغم كده اتدخلت!..

صمت..

حيرة ما شغلت فكره فغاب عنها لحظة تأملته فيها بتساؤل بعدها رد:

- المرة الجاية هيفكر قبل ما يقرر يعيش الدور اللي مش لايق عليه..

لم تفهم مقصده ولم يكترث هو لتوضيح، ارتدى منظاره الشمسي ومنحها بسمة أخيرة، فلو أدركت ما يعنيه لمرت فوق جسده بسيارتها دون تردد..

لقد أخبر اللزج أنها له بمقاطعة ونظرة وتحذير صامت..

لا يعلم لمَ فعل!..

لكنها دفعة مجهولة المصدر حركته ليقوم بما قام به بلا تفكير، أو مبرر واضح..

عند تلك النقطة من أفكاره توسعت بسمته الغامضة التي راقبتها هي بحذر:

- اعتبريها خدمة مجانية المرة دي..

بنبرة جديدة مشاكسة لم تسمعها منه قبلًا ودون انتظار رد استدار ورحل، رحل ولم يلمح البسمة التي اغتصبت شفتيها فرسمت نفسها فوقهما، ولا عينيها اللتين تابعتا رحيله بشرود لم يجذبها منه سوى نداء صديقتها لتموت البسمة وتجاورها بزمة شفاه قابلتها هي بضحكة بينما تشاكسها:

- الصنارة غمزت يا روما..

نالت لفتة حادة وسؤال عصبي غيرواعٍ بالكلية:

- إيه!..

تراجعت "أمل" بإشارة مستسلمة ملتفة حول الهدف الذي قصدته:

- سليم ده شكله معجب..

- ما يخصنيش..

زمجرت بموازاة إدارتها لمحرك السيارة:

- طب ومروان؟!..

زفرة ضائقة غادرت صدرها وهي تدرك أن هناك خلل ما بالصورة:

- ماله؟!..

ضحكت وتجاهلت الرد بغمزة مشاغبة:

- لا مالوش خالص..

حصلت على زجرة أخرى وتجاهُل متعمد، وذاك كان إطار الصورة..

فما بداخلها اهتز واختلف..

امتلك فتنة البداية وجاذبيتها بمُستهل نظرة وميلاد بسمة..

ونبضة مخالفة معاندة أخلت باكتمال المنطق فأخرجته عن مساره بثغرة مباغتة نحو عمق القلب!..

***

البدايات قد تكون صدفة؛ لكن يظل القدر هو مالك القرار..

أحيانًا نظن أننا أرفع مكانة من السقوط، أن لدينا من القوة ما يكفي كي لا نمر بما مر به غيرنا فهوى وهزأنا نحن منه ونال منا التهكم.. أن تلك الفكرة مثيرة للضحك وربما للسخرية لو مرت بخيالنا أو ناوشت معتقداتنا الراسخة عن ذواتنا..

والعشق درب كغيره..

لا نؤمن به إلا عندما نسلكه عنوة.. بغتة.. أو باختيار قدر!..

قدر جعلها صديقة شقيقته الصغرى أو للدقة حاميتها عقب انتقالها من جامعتها بمدينة أخرى للجامعة التي ترتادها هي وبنفس السنة..

تنشأ بينهما صداقة عنوانها الاهتمام، فتنضم لمجموعتها من الصديقات بعيدًا عن العابث الذي لا يترك أيًا مما يحمل صفة مؤنث يمر من تحت أنفه إلا هي..

وقفت له وحذرته وبالطبع لم يستجِب لكنها ظلت تبني حاجزها الخاص بينهما..

فالفتاة تبدو رقيقة خانعة وهادئة للغاية لا ينبغي أن يتقاطع طريقها مع طريقه خاصة ولديه شقراؤه التي باتت تُرى معه بكل مكان مؤخرًا!..

"آسر.. قلت لك مالكش دعوة بمريم"..

والآسر ابتسم بخبثه الذي يزيده جاذبية:

- نفسي أفهم اشمعنى دي اللي متعهداها بالحماية كأنها أختك الصغيرة؟..

وغمزها بعبث:

- مع إنها أكبر منك..

كتفت ذراعيها وواجهت عبثه بصلابة:

- البنت لسه جديدة معانا، بعدين مش شايف شكلها!.. غلبانة قوي، ابعد عنها أحسن لك.. خليك مع الصاروخ بتاعك..

قهقهته أتتها مستمتعة:

- الصاروخ ما جاش النهاردة، بس نرطب الجو بأي حاجة يا عطعط، ما تنشفيهاش علينا..

لكمته كعادتها بخشونة وحذرته بينما تتجاوزه راحلة نحو صديقاتها:

- اتقِ شري يا بن الحسيني..

تابعها بعينيه واستقر في مكانه مراقبًا، منتظرًا لقاء بصره بناظري الوافدة الجديدة ليمنحها الترحيب الملائم.. لم يصل لأذنيه استقبال الفتاة لها بخجل:

- عارفة إني باتعبك معايا يا شذى.. بس خلاص آخر مرة توصليني..

وهي نهرتها برقة حنون:

- يا بنتي مين قالك إني تعبانة؟!.. أنتِ في طريقي يعني..

عضت "مريم" شفتيها بارتباك:

- أكيد بتتعبي.. عامة أخويا خلص النهاردة نقل ورقه وهيبقى معايا؛ هنروح مع بعض..

شاغبتها بلكمة خفيفة لذراعها تناسب شخصيتها:

- أنا ماشتكيتش..

"مساء الخير"..

النبرة العميقة، الصوت الذي تميزه بحة رجولية جذابة.. والالتفاتة التي كانت من صنع صدفة قررها القدر!..

والتقت بعينيه..

لم يخبرها أحدهم من قبل أنها قد تسقط!..

لم تظن أنها من هاته المائعات اللواتي يتحدثن عن نظرة أولى.. بسمة أو حتى لفتة!..

لم تعتقد قط أنها تلك الفتاة..

بل صدقت على نداء صديقها باسم ذكوري يشبهها، وآمنت به..

لكنها الآن وهي تقف بمواجهة صاحب الصوت تتمنى لو تراجعت في كل فكرة عبرت ذهنها لتعود تلك الأنثى الناعمة.. المشتاقة للحب!..

- جواد..

بلهفة وسعادة تخللت لهجة صديقتها التي تخطتها لتقابل ذاك الذي يحدق بعينيها:

- دي شذى.. تقدرتقول ملاكي الحارس..

جانب فمه تحرك ببسمة خافتة دون أن يحرر بصرها ومد يده بمصافحة:

- عارف..

تأملت كفه بشرود تحركت بعده يدها ببطء لتستقر بين احتواء أصابعه، بللت شفتيها بتوتر وخرجت كلماتها متعثرة:

- هي مريم بتتكلم عني كتيرولا إيه!..

هزرأسه بينما يحرر أناملها بنهاية لمسة طفيفة لم تكد تحتفظ بأثرها:

- مريم مالهاش كلام غيرعنك..

والصديقة التفتت تكمل معرفة المجهول:

- وعندي حق طبعا؛ ده بقى جواد.. أخويا يا شذى، اللي هيرحمك مني..

أجبرت عينيها على التنحي بعيدًا عن وجهه الذي انحفرت ملامحه بذاكرتها:

- يا بنتي هو أنا اشتكيت؟!..

ثم حاولت العودة لشخصيتها العنيدة التي لا تهاب شيئًا.. فيما دون نبض القلب:

- على فكرة أختك بتبالغ..

وكز رأس أخته بقبضته برفق مبتسمًا:

- هي بس حساسة شوية..

وعاد يحيطها بنظره مانعًا عنها مسلك الهروب مجددًا:

- لكن أنتِ تستحقي الشكر أكيد..

هزت رأسها وعجز لسانها عن النطق، كانت بسمته الأخيرة تبدو وكأنها تتفهم ما تشعر به.. أو كأنما يخالجه هو ذات الشعور!..

ودعها ورحل بصحبة شقيقته فقط ليقتحم الصورة صوت المشاكس مهشمًا سلامها وجمال اكتمالها:

- فين عطية صاحبي؟!.. أنت مين ياعم؟!..

استدارتها الشاردة نحوه، نظرتها الغائبة غير الفاهمة وحيرتها المرتبكة لم تحسن مما يراه فأردف بشقاوة شبه ساخرة:

- ده بجد فعلا!.. أنتِ بتعملي زي باقي البنات؟!..

كلمته أفاقتها من تيهها فتغضن جبينها وكشرت بوجهه:

- قصدك إيه؟!..

تراجع متظاهرًا بالخوف:

- لا ولا حاجة خالص.. معلش يا عم عطا، اللي ما يعرفك بقى..

زفرت حانقة وغادرته بخطوات شبه راكضة تطاردها ضحكته..

لقد خرج خافقها عن مساره المحتوم، ومن هي لترد قضاء القلب!..

هز هو رأسه ببسمة وتمتمة:

- طلعت زي البنات بجد..

وكاد يضرب كفًا بكف لولا أن رأى فاتنته تتمهل بسيرها نحوه فارتسمت بسمته ولمعت عيناه لاستقبالها..

لم يتحرك إليها.. بل انتظر قدومها، ترقب خطوات اقترابها.. ونظره يحاصرها بتأمل وقح اعتادته حتى ألفته..

أوربما كان فقط مشبعًا، مغذيًا لفكرها الباحث عن الألم!..

***

فاتنة.. جريئة.. وشقراء بطبيعية..

ببساطة هي فتاة تجيد التمتع بالحياة، وعلى حد علمه عن الشقراوات؛ فهي لا تهتم لقدر المخاطرة مادامت تكمن فيها لذة!..

وحيثما وُجدت اللذة يكون هو..

لا ينكر أنه معها يشعر باختلاف.. وللحالمات لا تفكرن بوردية، قلبه خارج المعادلة دائمًا وأبدًا، لكنها تحيي به رغبة لم تصل إليها أخرى، يريدها.. ويبدو إليها الطريق صعب وطويل..

هو لا يزال بعامه الجامعي الثاني، وهي تخطو بتعثر في عامها الأول فكيف اللقاء!..

احتضن كفها بينما تجاوره في السيارة، يحيطها بعينيه متفحصًا مشتهيًا وللحظة.. لحظة فقط بدت غريبة لامس وجنتيها حمرة خجل!..

تخلت عن حمرتها مقررة مواجهة نظرته بجرأة.. خطتها ستبدأ اليوم..

اليوم أول انكسار..

أول وجع..

لن تتوجع وحدها، اكتفت من الهروب وحان وقت رد الصفعة..

عهرًا بعهر..

فسوقًا بفسوق..

وخطيئةً بخطيئة.. والبادي أشد ظلمًا من صاحب رد الفعل المتأخر.. المكلوم!..

"هنروح فين؟!"

قاطع أفكارها، وكانت تملك الجواب فوهبته إياه دون تأخير.. مركز تجاري تعلم أن والدتها في زيارة خاصة له اليوم.. بل في هذا الوقت بالتحديد، ولأنها ارتادته معها مرارًا فهي تدرك أين ستكون سيارتها..

والباقي يسير دون ذرة عسر!..

إغواء ينتظره عابثها..

وموقف ستضع نفسها به، وتقابل فجور من حملتها بفُحشٍ آثمٍ في رحمها بفجورها..

ولنرأي حد للألم ستتحمل!

أوقف سيارته في مرآب المركز الشهير، استدار نحوها نصف استدارة، راقبها بعين مدققة تتقن تقييم ما تراه في الأنثى لتبادر بنعومة مغوية:

- هنفضل قاعدين هنا!..

أكمل لفتته والتوى فمه بمكر:

- أكيد لأ؛ يلا بينا..

- آسر.. Wait..

كانت تتشبث بساعده وتقترب..

بنية سيئة رفع حاجبًا وانتظر مبادرة أخرى بقبلة!..

وهي أعادت تلك الخصلة المتمردة خلف أذنها ورفرفرت بأهدابها العسلية الكثيفة تخفي بتتابع فاتن زرقة عينيها الساحرة..

ولم تخيب ظنه.. بل جاورت شيطانه بمتعة واستجاب هو مشتهيًا لما تمنح!

تسللت كفه لعنقها، تتخلل خصلاتها الجامحة دومًا كجموح نفسها وجنونها، وغاب معها..

بل غيبها معه..

تفرقا لحظة وحانت من طرف عينه نظرة لزجاجه الأمامي كأنما يبحث عن متلصص لكن من كان هناك أفقده النطق!..

انتفض مبتعدًا معدلًا من قميصه بارتباك، قميصه الذي انفتح منه زرين بين أصابعها العابثة اللاهية..

وتابعت هي اتجاه نظراته، لوت شفتيها بتحدٍ، وأمالت رأسها في انتظار رد الفعل لكن المجاور لها فتح بابه بغباء منقطع النظير وهو يواجه تلك المراقبة بذهول مستنكر:

- طنط.. أنا...

ثم انتبه فجأة أنها لا تهتم به حقيقةً، بل تناظر تلك التي تركها خلفه..

وبعينيها.. تجسد ألم!..

عاد بناظريه نحوها لتباغته بسمتها، ترجُلها وتحركها الواثق نحو سيارة أخرى تجاور سيارته، تنتظر عند بابها المجاور للسائق وبعينيها هي..

كان التحدي..

النظرة الشرسة التي يلمحها للمرة الأولى..

والعناد المورِّث.. للكفر!..

(٨)

بقدرما تمنحنا الحياة من ألم نصبح أقوى..

فإن كان الوجع كاسرًا للروح والكيان؛ يظل دومًا دافعًا..

إما للاستمرار..

أو الانتهاء..

وبكلتا الحالتين..

هناك ختام لحكاية ظنناها الأخيرة..

لتبدأ بعدها أخرى، لم تجُل ببالنا البتة!..

قالوا أنه أحيانًا لا تصدمنا الأخطاء؛ بقدرما يصدمنا من قاموا بها!..

وكانوا على حق..

فأن تأتيك الطعنة من حيث تتوقع هذا بديهي؛ لكن أن تخترق ما خلف ضلوعك بيد الأقرب إليك فذاك قاتل.. وما الذي يليه سوى نهاية!..

نهاية لم ترها أو تطُف بأقصى خيالاتها جموحًا عن صغيرتها التي ظنت أن تغُير مزاجها، غضبها الحاد أحيانًا وانطوائها على ذاتها بأحيان أخرى ما هي إلا أعراض مراهقة عادية تمر بها جميع الفتيات بسنها..

لتدرك بغتة أنها كانت واهمة!..

فابنتها تخطت حدود المباح، تجاوزت كل مسموح، وتناست أن لكل شيء نقطة لا ينبغي عليه أن يتعداها..

لقد رأتها بمكان عام، لا.. بل خلسة بظلام سيارة في مرآب عمومي، بين ذراعي رجل!..

ينهل منها وتنهل منه كأنها عطشى!..

تلامسه ويحتضنها!..

تعبث بثيابه وتستجيب لرغبته بها!..

ثم بعدها تتخلص من قربه لتواجهها بتحدٍ كأنما لم تكن هناك خطيئة!..

كأن الذنب سراب والإثم وهم!..

الجريمة وقعت والمسمى مفقود.. فقط الألم حادث ومحسوس حد الموت..

وتلتزم هي الصمت..

عجزًا..

قهرًا..

انكسارًا..

وصدمة!..

صدمة تضاعفت عندما عادت لها ذاكرتها المطموسة وأيقنت أنها كانت بين ذراعي شابٍ تعرفه ويعرفها!..

ابن ذاك الرجل الذي وقعت بغرامه من قبل ولم تكتمل قصتها معه.. لأنه رفض ذاك الحب..

الفتى الذي يكبر ابنتها بعام ربما أو أكثر قليلًا!.. ويختلف عن أبيه بالكلية!..

هو لم يترفع عما منحته صغيرتها بكرم، بل نهل واستزاد وطمع واشتهى..

تناوبت عليها الأفكار، صفعتها حقيقة ما رأت، أوجعها ما أدركت أنه حدث فقسرًا انحسر رد الفعل بالصمت.. هي لا تعلم ماذا تقول أو تفعل وحسب!

سبقتها خطوات ابنتها المتجاهلة نحو غرفتها، وتبعها بصرها بحيرة!

بخوف..

بقلق ورعشة ألمَّت بالأجفان والقلب..

تشتت الصورة، وتسارعت النبضات بعُسر..

ضاق الصدر بأنفاسه فباتت أقرب للهاث غير مبرر، وأوشكت على السقوط ببئر لا قرار له..

اللعنة عليكِ طفلتي.. ماذا فعلتِ؟..

بل ماذا فعلتُ أنا؟..

لاحقتها وبصفاقة بينما تفتح باب الغرفة علمت أنها لا تبغي فرارًا، لا تبحث عن مهرب..

بل تترقب مواجهة، وربما توجيه طعنة أخرى..

لم تحكم إغلاق بابها خلفها، تركته مواربًا فقط تنقصه دفعة وتلتقي الأعين..

حزينة.. ومعاندة..

كسيرة.. ومشتعلة بنيران مبهمة..

غاضبة.. ومنتشية!..

أتنتشي ابنتها بألمها؟!.. بصدمتها وذهولها واستنكارها!..

اقتربت ببطء.. ومع كل خطوة كان يتأجج الغضب أكثر وتنحسر الصدمة، يتراجع الحزن وتعلو صرخات السخط.. سخط تحول لهياج فكان بداية رد الفعل..

صفعة!..

صفعتها لتصفع قلبها معها، تدمي جانب شفتيها فتسقط النقاط الحمراء وتلمحها عيناها من بين دموعها، والتوت عنق الابنة وجمحت خصلاتها تخفي وجهها..

ثم عادت..

عادت سماءها الزرقاء نحو أمها تنظر بقسوة.. بغلظة.. ببُغض!..

ولم تفهم فسألت.. بل صرخت:

- ليه!..

دنت أكتر تتحكم بكتفيها، تهزها علَّها تعي ما حدث:

- ليه؟!.. قصرت معاكِ في إيه عشان تكسريني كده؟.. عشان تهيني نفسك وترخصيها؟.. ليه!..

والمعانِدة بعينيها الحاقدتين كانت تنظر، تحملق بغضب أمها وكأنه متعة، تراقب عبراتها وكأنها لذة.. وتسكن صامتة كأنما تزجي لهيب وجعها فيثملها!..

ابتعدت "علا" تخترقها من خلف غشاوة الدموع بعين لا ترى:

- ليه يا تاليا؟.. عملت لك إيه عشان توجعيني وتوجعي أبوكِ كده؟!..

ها هنا داست على اللغم وجذبت فتيل القنبلة فكان الانفجار:

- أبويا؟!..

بصرخة صدحت بأفق المكان فرجت أرجاء قلب الأم بوجل..

وتلك المرة كانت الصغيرة هي من تقترب، تواجه وتلقي بالتهم والجريرة التي أثقلت جوارحها:

- عاوزة تعرفي عملت كده ليه؟!..

ابتسمت بقساوة لم تفهمها أمها:

- لأني بنتك؛ بنت الخطيئة..

ثم تحولت البسمة لضحكة أقرب للجنون ودارت حول نفسها تمسح قطرة الدم التي سالت جوار شفتيها:

- بتقولي أبويا؟!..

وسخرت بنبرة مريرة:

- أبويا في شهادة ميلادي وبس!..

عادت بعدها تقترب، تتحدى بناظريها بصر والدتها الحائر بشبه تيه:

- لكن أبويا اللي زرعني جواكِ مجهول!..

وابتعدت مجددًا وخبال ما ملأ الصورة أمام عينيها:

- يا ترى كان واحد؟!.. ولا أكتر!.. كانت غلطة؟!.. ولا ذنب مقصود؟!..

ثم التفتت تصرخ وألمها يطغى حتى بُح صوتها:

- خنتيه وستر عليكِ ولا فهمتيه إني بنته فعاش مخدوع بطول سنين عمري؟!..

- أنتِ اتجننتِ؟!.. بتقولي إيه!..

مقاطعة بهتاف متلعثم متوتر غير كامل الإدراك!..

مقاطعة كانت في وقتها فالتشوش بلغ منتهاه بعقل الأم التي تواجه ابنتها بينما تقذف عرضها، شرفها.. أمومتها وتنعتها بالفاجرة، والجواب أتاها ببضع خطوات، ومن جارور مغلق بإحكام أخرجت ملفًا ورقيًا وضعته عنوة بين يدي "علا" تتحداها أن تنكر، أن تكذب أو تستمر بإدعاء باطل:

- مراد مهران عقيم.. مش دي تحاليله اللي كانت في درج مقفول في مكتبك؟!.. خنتِ ثقته فيك، خنتِ شرفه.. خدعتيه وكمان بكل بجاحة سايبة دليل إدانتك في بيته لأنك عارفة إنه مش هيدور وراك..

وواجهتها وعبرات أمها تعود للهطول والصدمة تتجسد هاته المرة فوق ملامحها مميتة، تبهتها فتحولها لجمود لا روح فيه:

- بس Guess what!!

اقتربت حد خالط لهاثها لهاث والدتها غير المصدق:

- الورق وقع في إيدي أنا..

ودارت حول نفسها تنعي تلك اللحظة، تبكيها وتبكي حقيقة لم تسأل عنها لكنها بدت لها فساءتها:

- ومن خوفي لما لمحت اسمه على الورق رحت بيه لدكتور عشان أنتِ ما تخبيش أو تكدبي عليَّ.. فقال لي ببساطة إن دي مجرد تحاليل..

عادت تنظر إليها والآن يغزو ملامحها الانكسار، ترتجف شفتاها ودموعها توازي بسيلها دموع المواجهة لها:

- تحاليل راجل عقيم!..

ثم صرخت.. صرخت بحدة.. بوجع.. بقسوة.. بتيه.. بجنون حائر لا يجد له مستقر:

- يعني أنا مش بنته.. مش بنته..

وواجهتها بعين فظة لم تمحُ العبرات غلظة وعنف نظرتها:

- أنا بنت مين؟!.. فاكراه ولا كان واحد من ضمن ألف!..

وانكسرت تاليًا وتهدل كتفاها بؤسًا وخوفًا رغم شراسة النبرة:

- كان غلطة ولا عُهر؟!..

"تاليااا"

تجددت الفاجعة لتكون من نصيبها بتلك اللحظة..

تستدير بحدة وسرعة لتواجه غضب أبيها القاتم من خلفها، يسد بجسده باب غرفتها، وعيناه لا تهتمان بها مثقال ذرة قدر ما تحيطان الواقفة بصمت مذهول ورائها، تستمع لآثام لا تعلم كيف مرت بعقل ابنتها عنها!..

لا تمتلك القدرة على النطق.. بل حتى توقفت عن سحب الهواء حتى انطبق صدرها فدارت عيناها بينما تلتقيان بناظريه..

بعدها سقطت..

سقطت دون أن تتلقفها ذراعاه البعيدتان عنها كخطوات لم تسعفه ليصل إليها قبل أن تصطدم بالأرض بسكون.. فينحني، يجثو ويحيطها بأمان احتوائه ونبرته الملهوفة تسبق دقات قلبه باسمها:

- علاااا..

وربتة واجفة من أنامل مرتعدة خائفة تلامس وجنتها.. تليها نظرة حادة معنفة قاسية نحو ابنته التي تأملت ما جنته يداها بخوف!..

الأم حاوطها الألم فغابت.. والأب وضحت أمام عينيه صورة الفُحش..

هزة رأس جوارزمة شفاه وإغماضة وازتها تنهيدة وجع..

أو ربما يأس.. وضياع!..

فما كتمه الزمان وظن أنه بمأمن مختبئ عن أنظار البشر، كشفته طفلة لاهية لا تدرك ما تعبث به يداها، أو ما تنطوي عليه حقيقة لم يكن ينبغي أن يتعرى سترها!..

***

من حين ننتهي.. قد تولد بداية، ومن حيث لا نتوقع؛ قد نجد العزاء دون سابق تخطيط..

كلمات لا تعني اهتمامًا عاطفيًا قدر ما تشير نحو وجهة صحيحة هو بأمس الحاجة إليها، دور الضحية لا يلائم ما حدث.. والخسارة حدثت وانتهينا وإن تركت في القلب ندبة لن يمحوها مرور الوقت، أو محاولات التناسي العصية!..

الصديقة الجديدة التي مر على علاقتهما ما يقرب من شهرين.. الطبيبة المجتهدة والموهوبة بالفطرة مثله تمامًا "دانة"..

تلك التي يرفض وجبة الإفطار مع والدته المصرة كل صباح ليتناولها معها متأخرًا بمقهى المشفى جوار كوب من القهوة السوداء المُرة ويسبقها عصير برتقال طازج توصي به يوميًا لأجلهما..

لا يعلم كيف نمت تلك العلاقة لتصبح ذات منفعة نفسية لهما معًا!.. لكن وجودها نعمة لا يرجو زوالها وإن لم يبُح لها بسره الأعظم والمُخزي أيضًا..

في ذاك اليوم استقبلته ببسمة مستغربة، تحوي تأنيبًا لم يفهم مغزاه إلا عندما دقت الساعة الثانية عشر ظهرًا وحان لقائهما على طاولة صغيرة اعتادا الاجتماع حولها لتسأله بنظرة متفحصة ونبرة علاها ضيق لم يخفَ عليه:

- أنت فعلا مسافر؟..

جوابه الصامت وازى تراجعه بمقعده وإهدائها نظرة كانت كافية لتردف:

- معقول يا يوسف؟!.. أنت يا دوب استلمت الشغل في المستشفى من شهرين.. دكتور محمد بيقول إنك عاوز تشتغل على الرسالة بس مش معقول مش قادر تجمع مادة لها هنا..

ودون منحه فرصة لتعليق مالت فوق الطاولة ونقرتها بأناملها بإيقاع رتيب متكرر موحي بتفكير:

- بتهرب من إيه؟!..

مع تغضن جبينه وزرقة عينيه التي اشتدت قتامتها أدركت أنها أصابت وترًا حساسًا وربما قلب الهدف خاصة عندما أتاها رده مدعيًا الدهشة بوضوح:

- باهرب؟!..

واعتدل بجلسته مستقيمًا يواجه مواجهتها بالمثل:

- إيه جو شيرلوك هولمز ده يا دكتورة؟..

ابتسمت بمكر وأبعدت خصلة مشاغبة تناوش وجنتها لتستقر خلف أذنها مقررة:

- بتهرب.. طول الفترة اللي فاتت اعتذرت عن حضور حوالي أربع عمليات.. ومن أسبوعين تقريبًا بعد ما دخلت أوضة العمليات وقبل الاستعداد خرجت واستدعيت دكتور مرتضى مكانك..

كان ذلك يوم زفافها، وتذكر بانعقاد حاجبين.. اعتدلت تستقيم بمقعدها تعدد الدوافع بينما تتابع توالي المشاعر فوق ملامحه:

- بقى لك فترة متضايق رغم إن كل يوم بتحاول تخبي ده وإحنا بنفطر سوا وأنا سايبة لك حرية اختيار الوقت اللي تتكلم فيه.. ودلوقتِ قررت السفر والحجة الرسالة..

- دانة..

زجرها بلهجة مستاءة فأشارت بيدها:

- أنا مش عاوزة أتدخل في حياتك الخاصة صدقني.. عمر صداقتنا ما يدينيش الحق في ده..

لم يعلق كأنما يمنحها موافقة على ما نطقت به، ابتسمت معلنة تفهمها قبل أن تميل برأسها وتخبره:

- إنما مش لازم يكون عمرها طويل عشان أقدم لك نصيحة من طبيبة يمكن أصغر أو أقل منك خبرة.. بس بتسعى للنجاح..

واستقامت تاركة مقعدها لتتحرك واقفة بجواره، تربت على كفه المستقرة بسكون على المائدة وبنصف ميل من جسدها وعين ثاقبة متفهمة تلقي بآخر كلماتها:

- الجراح الناجح ما ينفعش يكون عاطفي..

نال ربتة أخرى واحتواءً عندما عانقت بأناملها قبضته المشدودة بصمت:

- لو سيبت مشاغل حياتك وأمورك الشخصية أو مشاكلك تأثر على حياتك العملية هتخسر يا يوسف..

ثم مالت تواجه عينيه بحزم:

- والخسارة دي ما حدش هيتحملها غيرك..

ربتة أخيرة جوار خطواتها المبتعدة وهمستها المنهية لحوار كان تقريبًا من طرف واحد:

- حاول تفصل، وتخلي أي عائق خاص دفعة لنجاح عملي ممكن تحققه..

تابع خطواتها الواثقة بشرود..

هي على حق، وهو وإن كان يبتعد محاولًا التكيف مع موقف خرج بغمضة عين عن سيطرته فكذلك لن يترك الخسارة الأولى تجر أخرى!..

قرار السفر محسوم وموعده تحدد بالفعل، لكن هناك.. العمل هو العزاء الوحيد، والطريق الذي لن يفشل فيه لأنه مر بقصة عشق فاشلة..

انتهت قبل أن تبدأ!..

***

قالوا أن أعظم النار من مستصغر الشرر.. وربما أعظم العشق يولد من بداية لم تكن بالحسبان!..

بداية أتت قدرية وإن رأتها العين صدفة وصدَّق العقل كونها عملًا محضًا ليتحول القرب لصياغة أعمق، وتنتهي البداية الأولى مسلمة لواء معاركها لبداية تحمل معها الميثاق الغليظ..

عادا من شهر عسلهما قبل أيام، رتبا حياتهما.. وعدته هي أن تكون تلك الحياة سعادة لا تنتهي، وعاهدها على قلب ملكها للأبد..

طبيعة بشرية متشائمة دومًا تخبرنا أن ما رسمناه لن يكتمل، طبيعة يتجاهلها البعض مؤمنًا بأن كل شيء قضاءٌ من الله، أو ربما يقنع نفسه بذلك حتى لا يتغير مذاق سعادته لمرار لن يتحمله..

وكانت العقلانية التي بوغت قلبها بالعشق فسقط دون مقدمات.. ففقد ثباته ورحب بضمة الوقوع في الحب..

لقد باتت امرأته.. وهي تجيد الاعتناء بمن أصبح لها..

كان بينهما موعدًا زارته في مكتبه تذكره به، استقبلتها مساعدته بتأمل رأته مريبًا كأنما تعقد بينهما مقارنة لم ترُق لها بتلك النظرة فبادرتها:

- نزار بيه في مكتبه؟..

لاحظت افتعال الملامح والأخرى تخبرها:

- مدام ملك.. منورة المكتب، موجود أيوة بس معاه شغل مهم..

ارتسمت بسمة سمجة زينت وجهها جوار تطلع قصير:

- طيب بلغيه إني جيت..

- يا فندم نزار بيه أمرب...

قاطعتها باقتراب وأمر مستحق منها هي:

- بلغيه بوجودي..

نهضت الفتاة بهزة رأس وبسمة تشبه بسمتها:

- تحت أمرك يا فندم..

واستقامت تعلمه بحضورها لتسمع نبرته الحبيبة تعنفها:

- أنتِ بتستأذني للمدام يا ميسون؟!..

سمعت تحرك مقعده قبل أن تراه مقبلًا بترحيب دافئ وعين عاشقة:

- ملك..

استقبلها مبررًا بينما يمنح مساعدته نظرة موبخة:

- معلش.. ميسون عارفة إني وقت الشغل مش بحب المقاطعة..

تملك من خصرها بكف يدفعها بها تجاه غرفته هامسًا بنبرة شغوف احتلت كيانها قبل أن تحتل أذنها:

- ما تعرفش إن أنتِ بس مسموح لك تقاطعيني في أي وقت..

حمَّل كلماته فوق ما تحتمل من معنى عادي فابتسمت بخجل ووازت خطواته مانحة الواقفة جوار مرورها نظرة جعلتها تغادر المكان بصمت بينما يقدمها هو لمن كان معه:

- ملك.. ده بقى يا ستي باسم، المحاسب القانوني للشركة بس تقدري تقولي دراعي اليمين هنا..

واستدار ينظر للشاب بتقدير:

- مدام ملك.. مراتي..

نطقها بفخر والزميل يرحب بها بهزة رأس:

- تشرفنا يا مدام ملك.. وألف مبروك..

ردت تهنئته بخفوت، فاكتسبت لهجته مرحًا تخلله عتاب:

- عارف إنها متأخرة.. معلش ما عرفتش أحضر الفرح، بس هنقول إيه!.. الشغل له أحكامه والبوص قبلها بعتني مأمورية مخصوص فوتت عليَّ الميعاد..

ثم تحرك مقتربًا بابتسامة:

- لكن الهدية محفوظة أكيد..

شكرته وزوجها يداعب صديقه:

- مصمم يسلمك الهدية بنفسه كأنها سر حربي..

وتعالت ضحكتهما المشتركة قبل أن يتحرك "باسم" مغادرًا:

- أيوة ما البوص مش مضمون.. مبروك مرة تانية..

أغلق الباب من ورائه بهدوء لتجد نفسها أسيرة حصار ذراعيه، خاضعة لقبلته التي حطت على وجنتها متنقلة بلهفة نحو شفتيها.. أبعدته بارتباك قبل أن يسيطر عليهما:

- نزاريا مجنون.. إحنا في مكتبك..

وتعلقت عيناها بباب المكان.. أعاد وجهها إليه ليستحوذ على ثغرها لثوان بإصرار أخبرها بعده:

- أنتِ معتقدة إن في حد ممكن يدخل هنا من غير إذني؟!..

أراحت كفيها فوق صدره وعاتبته بعينيها وهي تهز كتفيها بدلال:

- برده..

تراجع بظهره دون أن يفلتها، استند لمكتبه وزاد من احتوائها مبتسمًا بتلاعب:

- ده قانون بيسري على الكل.. حتى عماد بيه بنفسه..

وكزت كتفه ثم أحاطت عنقه بذراعيها:

- مغرور..

هز رأسه وقبَّل أرنبة أنفها بمتعة:

- لأ.. قانوووون..

وأكد كلمته ومط أحرفها لتشاكسه:

- ماشي يا بوص.. فاكر ميعادنا ولا نسيت؟!..

تركها على مضض وتحرك يلتقط سترته ليرتديها بعجالة، تناول مفاتيحه مشيرًا إليه بنصف انحناءة:

- وأنا أقدر أنسى برده؟!..

تقدمته بخطوة تحكم بعدها بمعصمها يعيدها لسطوة ذراعيه:

- اللقاء المقدس الأول.. والغدا مع العيلة..

ومنحها قبلة أخرى أكثر عمقًا تركتها لاهثة:

- لحد ما نروح بس..

غادرت معه ببسمة تعانق شفتيها..

ببهجة تملأ قلبها وصدرها بانشراح..

البداية لا يهم أن تكون بالضرورة مخططٌ لها، لكن القدر دومًا ما يختار لنا الأفضل!..

أليس ذلك بصحيح؟!..

***

أصعب الألم: أن يكون آخر الحلول جرح من تحب!..

"أحلام مستغانمي"

لا تكتمل الحياة دون ألم، ولا يولد الألم بلا خسارة توازيه.. بل تلتحم معه خطوة خطوة، أنينًا بأنين.. وجرحًا بجرح..

يظن البشر أنهم محصنون بمواجهة الخطأ حتى تحدث السقطة الأولى وإن اختبأت بظلال الستر..

وبعدها تأتي استساغة المذاق، فالاعتياد.. ثم الاستخفاف، وحينها.. لا تدرك كم أنت غارق بمستنقع خطاياك إلا عند الضربة القاصمة!..

وضربته أتت من مخاوف مرت بعقله وقلبه فتجاهلها، تناساها وآمن أنها بعيدة الوقوع، تجاور المستحيل..

ضربته لم تذبحه وحده بل ذبحت حبيبته التي عشق قوتها قبل ضعفها، جموحها قبل عقلها.. والحياة التي وهبتها لخمول حياته قبل أن تمنحه نفسها وقلبها وكيانها..

ابنته.. تظن بأمها السوء، تتهمها بالفُحش وتقذف عرضها بمبرر واهن استندت إليه، وذاك خطأه وحده..

لم يعلم ماذا يقول!..

فأول الحكاية ألم لها وختامها لم يبدأ بعد..

وإن كانت الصدمة قد أسقطت زوجته فاقدة لوعيها، فهو قد احتفظ بوعيه ولو تاه رشده لدقائق طالت للآن والصغيرة تجلس قبالته بغرفتها،

تقضم أظفارها، تتحدى عينيه تارة.. وأخرى تهرب تخبئ بها الفزع والقلق، وشيء من شك!..

هو يمارس أقصى درجات ضبط النفس للسيطرة على غضبه، على تشتت أفكاره، على حنقه ووجعه.. وبتلك اللحظات فقدان ذاك اللجام مميت..

فقط سلَّم لأمر واحد..

الحقيقة المستورة ستتجرد من سترها وتتعرى أمام ابنته ولا مفر من فخ الخسارة لمن يحب..

واجهها بجلسته، بحث عن مستهل لحديثه لكن الكلمات استعصت والحروف أبت.. فكيف يخبرها عن ماضٍ بعمرها جهله أفضل!..

يقال أن الجهل أحيانًا نعمة، وبحالتها فهو أعظم النعم..

أتراه يبدأ بقصة قديمة!.. أم تأنيب على ظنها المشوه تجاه أمها!.. يخبرها عما ترغب بمعرفته ونقبت بحثًا عنه؟!.. أو يدينها ويعنف ويعاقب!..

تنهد.. تنهيدته وصلتها حارة عسيرة فابتسمت بمرارة وبادرت هي بأول كلمة:

- أنا آسفة.. ما كنتش عاوزاك تعرف بالشكل ده..

ولا تزال على غيها وظلمها!..

تغضن جبينه وحدجها بسخط احتفظت بفهمها الخاطئ له، لتمنحه فقط خيط البداية:

- أنتِ مستوعبة الاتهام اللي بتتهمي بيه والدتك يا تاليا؟!..

سؤاله أتاها بنبرة فاقت إدراكها، نبرة التحفت بالهدوء قدر ما أمكنه، وتلبست بالعتاب المتألم بوضوح، لذا نظرت إليه بحيرة وارتباك:

- أنا.. أنا..

- أنتِ إيه؟!..

زعقة أجفلتها، زعقة وازت نهوضه العنيف وقربه منها بخطوات حادة تراجعت لها تراقب هياج عينيه بذعر:

- أنتِ متهورة، طايشة.. مش عارفة حاجة وبنيتِ أحكامك على مافيش.. غبية..

وتوقف بارتعاشة شفاه وقبضة مضمومة تلكم الفراغ بلا فائدة:

- كسرتيها من غير ما تحاولي تفهمي أو حتى قبل ما تتهمي تسألي..

- بابا..

وصمتت دون أن تكمل، فالنداء وصيغته وحتى نبرته لا تليق بموقف وضعت نفسها به، لكنه فهم.. واستشعر ألمها فعقد حاجبيه وسكن لحظات بعدها كان لابد من بداية:

- تاليا..

جلس يقابلها، يمسك بكفيها بين يديه وقلبه يتآكله القلق على الراقدة بغرفة مجاورة ساكنة بمفعول مهدئ حقنها به طبيب:

- عندك استعداد تسمعي الحكاية من أولها؟!..

انقبض قلبها!..

أهناك ما هو أكثر؟!.. أو ربما أسوأ؟!.. هل ستتشوه الصورة فتظلم وتفقد كل ما بها من ألوان لتلقي بالسواد على حياتها؟..

لكنها لا تملك من الأمر شيئًا.. الحقيقة هي المبتدأ والمنتهى، هي المصدر والفاعل والمفعول..

ولن تصل دونها لشيء..

أومأت بجواب توافقه ليبدأ بتنهيدة طويلة حارة كأنها من أعماق بئر جف وكان منسيًا حتى أيقظت دمعات الخوف والحزن قاعه وملأت شقوقه بفيض من وجع..

- البداية من قبل أنتِ ما تتولدي، البداية عمرها أكبر من عمرك يا تيا..

وزفر وعيناه تلتحمان بنظرها دون أن تفلته كأنه يود التقاط كل لفتة ولمعة أو خفوت:

- الحكاية بدأت بقصة تقليدية قوي، حكاها لي والدي على سريره وهو بيموت..

لم تدرك مقصده، ولم ينتظر منها سؤالًا، بل بادر بروايته دون تلكؤ، وكانت عيناها تتسعان مع كل حرف وزفرة واستدارة رأس أو حتى ضغطة يد مواسية من قبضته..

الحكاية بدأت وهو فتى صغير.. سافر والداه بقرار هجرة، عملا بجد حتى بات الأب رجل أعمال شهير يشار له بالبنان في بلدة أوروبية حصل على جنسيتها بعدها.. والزوجة من رائدات ذاك المجتمع المفتوح..

وانشغل كل منهما بما أجاد..

كبر الفتى وشارك والده العمل، مر العمر بالأسرة الصغيرة حتى فقدت أحد دعائمها.. أمه!..

وحزن الأب على فراقها كحبيب مخلص، اكتفى بالبقاء على عهد الوفاء مع من رحلت حتى أصبح ابنه يحتل مكانته السابقة، بل ارتقى بما امتلك أكثر وانتهت حياة أبيه بهدوء فوق فراشه الوثير بقصره بعاصمة الضباب..

انتهت لكن قبل نهايتها فجَّر بوجه ابنه الذي ترك عمله بوطنه الأم وزوجته عروسًا ليلحق بسكرات الموت وهي تعاند والده فتقهره وتغلب عقله إلا من لحظات قصيرة..

لحظات علِم فيها أن الوفاء أسطورة وهمية، والعهد بائد ومن قبل رحيل أمه..

أتى منها السؤال الحائر يقاطع شروده في ماضٍ ظنه انطوى على ما فيه ومن فيه:

- وإيه علاقة ده بيَّ؟!..

انتبه لها بنظرة باهتة:

- القصة لسه بتبتدي يا تاليا..

وأكمل غوصه في لُجة ما مضى وألم مبهم يطعن صدره..

فالأب قبل دقائق من النهاية أخبره ببساطة أنه كانت له زوجة أخرى انجليزية، تزوجها سرًا، زوجة كانت تعمل معه وتزوجها عرفيًا بإحدى سفراته لبلده بعدما أقنعها أن ذاك هو الأصوب، زوجة ارتضت كونها بالظل بحياة والدته التي انشغلت عنه بعملها وحياتها حتى نسيته في خضم لم يكن له منه نصيب..

وبرر أنه كرجل كان يحتاج لأنثى تدلله وتمنحه ما توقفت أمه عن منحه إياه؛ فتزوج..

سوغ بالمباح..

دافع بالحق..

والنتيجة فتاة بعمر المراهقة هي أخته..

بعدها طالبت الزوجة الانجليزية بالانفصال عنه وهددت بسجنه لجمعه بين زوجتين في مجتمع لا يجيز ذلك..

ثم رحلت بابنته طفلة بعيدًا حتى راسلته قبل شهر بمكانهما، تعلمه أنها تموت بمشفى فقير إثر هروبها ورفضها عنايته بهما..

أنها أحبته لكنها لم تحتمل كونه ملكًا لغيرها.. أنها اختفت من حياته مع صغيرته لتذيقه عذاب الخسارة وألمها كما خسرته..

قصة مهترئة عن عشق لم يكتب له الاكتمال..

وحواشي باهتة عن محاولات فاشلة لإيجادهما بعد وفاة والدته.. محاولات دون نتيجة حقيقية مجزية..

توسل ولده أن يبحث عن الفتاة الضائعة والتي غادرت المدينة الصغيرة عقب موت أمها، استجداه أن يحتويها فهو مغادر دنياه وليت بيده أن يفعل..

ناشده سماحًا لم يكن من حقه.. فالتي تستحق المطالبة به رحلت قبله!..

واختصر المشهد المُذِل بأب تهشمت قدسية صورته، تحول لخائن عاش نزواته بحرية وأم جهلت بها أو ربما تجاهلتها.. وابن لم يكن من ضمن المعادلة الخاسرة.. وأخت تائهة لا ذنب لها سوى أن والديها جعلا منها وسيلة..

للقرب أو للانتقام!..

ثم فارقت الروح الجسد لبارئها، وبدأت مهمته..

سيبحث عن أخته ويضمها تحت جناحه وإن رفض البداية، أو كره النهاية..

طال به الوقت، سافروعاد..

تكررت السفرات ومرعام.. حتى عثر عليها، أو للدقة.. على جثتها بمشرحة إحدى المشافي جوارجثة شاب قالوا أنه صديقها، كانت تعتلي خلفه دراجة نارية أودت بحياتهما معًا في حادث مفزع..

حادث نتج عنه موتهما.. ونبتة خرجت من تلك الجثة الهامدة بجنين..

طفلة ولدت بعد حمل لم يكد يتم السبعة أشهر، استخرجوها من الجسد الهامد بأمل الحياة..

فتاة واهنة، ضعيفة تحمل زرقة عيني جدها والده، جوارشقرة خصلات والدتها ورقة بنيتها، وحيدة.. صغيرة.. عندما ضمها بين يديه شعر أن موطنها هو ذاك..

موطنها فوق صدره بأمان لن يمنحها إياه سواه!..

طفلة حملت اسمه وإن خالف ذلك شرعًا، أو كسر قانونًا.. لكنها باتت ابنته وحسب..

أنهى حكايته التي جمدتها بكلمة صادقة:

- أنتِ من دمي يا تاليا.. من دمي..

وهي كانت ترتجف، رجفتها أثارت قلقه فاقترب يضمها لتنتفض.. تنهض.. تبتعد.. تحيط جسدها بذراعيها وتفرك كتفيها بتيه قبل أن تلتفت إليه بسؤال مباغت:

- يعني أنا بنت أختك؟!..

أومأ موافقًا بصمت وعيناه تحيطانها بضمة آمنة لم تكن أبدًا كافية:

- من علاقة غير شرعية؟!..

- تاليا!..

- رد عليَّ..

صرخت بها فجمدته بمكانه بعدما استقام يتبعها، أوقفته وأخرسته فاكتفى بطأطاة رأس خانعة، واجمة تعلن صدق الجواب..

ومع سكون رده أيقنت صدق من قال أن الثمرة لا تسقط بعيدًا عن شجرتها!..

لا تزال ابنة الخطيئة، الباحثة عن إثم يخصها لتغرق فيه..

- تاليا..

يتشبث بها بنداء خافت كأنها ستضيع منه لكنها جابهت عينيه بضياع.. هز رأسه في استسلام يائس:

- أنتِ بنتي..

- أنا بنت حرام..

هتاف مختنق خرج بنبرة متحشرجة، هتاف أوجف قلبه:

- الحقيقة ما فرقتش كتير.. برأت مراتك وأنا..

لم تكمل فلم تجد تتمة مناسبة تصف بها حالها، وتقطعت أنفاسه بزفرة ضائقة:

- لحد ما أموت.. كنتِ هتفضلي بنتي..

- بنتك؟!..

نطقتها ساخرة، متألمة بها مرارة كاد يلامسها:

- أيوة بنتي.. وعلا أمك، أنتِ دنيتنا..

- ليه؟!..

ودارت حول نفسها بصراخ:

- ليه؟!..

تعانق جفناه بتعب وسقط جالسًا فوق فراشها مجددًا:

- زي ما عرفتِ.. أنا عقيم، كنت فقدت الأمل إني ألاقي أختي.. ومر أكتر من سنة على جوازي، علا متمسكة بيَّ وبتقولي أنا بس اللي أهمها.. حتى لو كنت مصدقها وعارف إنها ما بتكدبش فأنا مش أناني عشان أحرمها من أمومتها..

ورفع عينيه يلقي نحوها بنظرة متوسلة:

- قلت لها نتطلق.. رفضت، أصريت وأصرت هي كمان على الرفض، وجالي خبر حادثة مامتك.. بعدها لقيتك..

ثم هز رأسه ومد يده نحوها بتردد:

- كنتِ الأمل اللي دخل حياتي.. كنتِ النور..

تطلعت لكفه صامتة فأعادها إلى جواره بيأس:

- وليه خبيت عليَّ الحقيقة بعد ما كبرت؟.. من حقي أعرف..

بادرته باتهام جديد دفاعه الوحيد كان هجومًا بينما ينهض ليواجهها:

- أنتِ بنتي.. فاهمة يعني إيه؟!..

تعلقت عيناها به في شبه ضعف:

- دي الحقيقة الوحيدة اللي لازم تعرفيها..

رعشتها وُلدت مرة أخرى فاقترب وتباعدت.. ولتّه ظهرها وهزت رأسها برفض.. ثم أخبرته بأحرف مرتعشة أن يرحل..

تبحث عن وحدة تبتلع فيها ما سمعته، تستوعبه فتبدأ بعده أو ربما تنتهي!.. الآن ذاك حق لن ينكره عليها بلحظة ضعف هي الأقسى:

- ممكن تسيبني لوحدي؟..

- تاليا..

مد يده يلامس كتفها فأعرضت عنه، أدارت جسدها تواجهه بحسم بينما دمعها يغادر مآقيه بفيض:

- محتاجة أكون لوحدي..

وإن كانت الحقيقة قد صدمتها..

فطلبها الأشبه بأمر قد أوجع قلبه خوفًا..

صغيرته ترفض قربه..

طفلته تبحث عن موطن أمان لا يشمله!..

وليت الألم بتلك اللحظة محتمل..

***

ما بين وطن ووطن هو الشارد المسافر..

وما بين فؤاد مغرم وخاسر تعلق بالمنتصف، فلا هو تشبث بحبال النجاة دون غرق، ولا انتهى معها بقاع بحار العشق..

وصل لمسقط رأسه..

استقر ببيت جده وبمجرد قدومه كان يبدأ عمله بمشفاه القديم، ويلتحق بجامعته مكملًا الاهتمام برسالته..

يومان آخران وعادت صديقته الأثيرة من سفرها شبه المتكرر بترتيب زمني محدد يوازي دراستها كذلك لتعلم بوجوده فتنطلق من فورها إليه..

فتح باب المنزل واستقبل عاصفتها المعتادة برقة عندما ألقت نفسها بين ذراعيه تتعلق بعنقه مبتهجة، هتافها يعلو بصخب جوار أذنه:

- وها قد عاد الغائب..

ثم تراجعت برأسها تتأمل ملامحه، بسمته وتغرق بعينيه:

- افتقدتك أيها المهاجر..

ونالت وجنته منها قبلة اشتياق قبل أن تعود لعناقه فيربت على ظهرها بود أبعدها بعده في رفق تدرك مغزاه:

- حسنًا وأخيرا التقينا أيتها الشقية.. هيا ادخلي..

جذبت كفه وسترته المعلقة على مشجب جوار الباب:

- لا.. سنذهب لمكاننا المعتاد، وهناك تقص عليَّ كل ما حدث خلال ذلك العام..

- جين..

- لا اعتراضات جوزيف.. هذا أمر، سألقي التحية على جدك وأعود إليك..

استجاب نافضًا عن روتينيته تراب التكرار..

بمقهى قريب جاورته على أريكة عريضة تقابل طاولة مربعة، بين يديها كعكة التوت التي تعشقها وأمامه قهوته يرتشفها ببطء.. من فوق حافة كوب مشروبها الخاص تأملته وسألت زاويةً ما بين حاجبيها:

- إذًا فقد تزوجَتْ!..

- نعم..

همس بها جوارتنهيدة تصدعت لها أركان قلبه وتردد صداها بقلبها:

- وما الذي تنوي فعله الآن؟!..

هزة رأسه أتبعها بكتفيه مستسلمًا لوضعٍ حالٍ لا مناص عنه:

- وما الذي يمكنني فعله سوى العمل؟!.. لقد انتهت القصة جين..

مضغت قطعة من كعكتها ثم أبعدت الطبق واستدارت إليه بجسدها:

- انتهت دون أن تنتهي أنت صديقي العزيز..

ونقرت جانب رأسه بإصبعها بينما يدها الثانية تفرد كفها فوق موطن خافقه:

- ظلت باقية هنا وهنا..

حدق بها بنظرة غامضة دون رد فمررت أناملها حول ملامحه الشاردة:

- جوزيف.. هي لم تحبك منذ البداية، وأنت لم تصارحها لتنهي الأمر باكرًا ولستُ أدري لمَ!.. إذًا ربما عليك تغيير خططك..

- بمعنى!..

تنهدت مرتكنة بظهرها لمسند الأريكة:

- اترك لقلبك العنان عزيزي، دع جرحه يلتئم دون أن تكبله، وبعدها امنحه الفرصة ليسقط بالحب من جديد..

ضحكته باغتتها فنظرت إليه بدهشة!..

تلك النبرة التي تعرفها حق المعرفة، نبرة تعبر فوق جسر من شجن، وتمر بطريق الحزن والألم..

تحولت نظرتها للحنان المهتم لتجده يرسم بسمته الهاربة.. الكاذبة:

- ربما أفعل جين.. ربما أفعل..

غيرت محور الحديث بعدها تتبادل معه أخبارها وعيناها تحيطان به، تهتمان لوجعه وتلتهمان تفاصيله بجوع..

وما بين ضلوعها يخفق باسمه متجاهلًا كل تصريح مسبق بعشق أخرى..

عندما عادا بعد لقاء مطول توقف بسيارته قبالة منزلها فالتفتت إليه:

- وكأننا لم نفترق جوزيف..

أهداها بسمة جانبية ونظرة تخبرها كم هي عزيزة لديه:

- كالأيام الخوالي صديقتي..

- نعم..

همستها وقلبها يراودها على اقتراب تعلم أنه يرفضه كفكرة ومبدأ..

لكن العقل تحكم بالنهاية لتغادر السيارة مشيرة إليه بوداع، تتابع رحيله لبيت جده الذي يبعد عن بيتها بشارع واحد فقط وتتمتم لذاتها بحسم:

- لا تفقديه تلك المرة جينيفر ويليامز؛ وإلا فلا تلومي إلا نفسك..

أتبعت كلماتها المصرة بتأكيد بينما يلوح إليها من بعيد فتبادله بالمثل:

- لقد بات قلبه حرًا من جديد..

تنهدت متجهة نحو المنزل وعلى شفتيها تولد بسمة حالمة..

عاشقة!..

القدر صادف جانبها أخيرًا، وخيط البداية يعود بين يديها لامتلاك من تحب منذ تعلم القلب النبض..

(٩)

لا تحسن الظن كثيرًا بالمُسلَّمات..

فما بين يديك بلحظة؛ قد يتلاشى في التالية..

وحينها البكاء فوق ما أصريت بغباء فطري على الغوص في ضحالة أعماقه..

سيكون محض عبث!..

طبيعتنا البشرية دومًا فضولية..

والفضول كما علمنا قتل القطة، أو ذبحها ربما!..

هي لم تكن فضولية قدر ما كانت تشعر أن حقيقتها مسروقة.. كنها مبهم، هويتها مزيفة تحيا في ظل الخديعة..

وعندما اختارت تعرية المستور ونبشت قبر الماضي، لفحتها عفونته ففقدت تلك الهوية بالكامل!..

احتل كيانها حقيقة تتلبس بالوجع وتمنحها بداية أخرى لم تكن بنطاق التوقعات حتى لو أتت مخيبة للآمال أو مخيفة لقلبها الصغير المشتت وعقلها الحائر المتمرد..

حقيقة وقتما أدركت رتوشها دون اكتمال انطوت على ذاتها وتباعدت عنه وعن والدتها تغلق بابها، تحتجب في وحدتها.. وأكثر ما يخشاه ما ستخرج به عندما تفتحه..

طفلته العنيدة المندفعة حد التهور.. الطائشة حد الرعونة والخطر!..

ظل شاردًا فيها حتى وهو يجاور زوجته فوق الفراش، لقد أفاقت على صدمة جديدة لوثت يديها بالذنب فيما مضى..

والآن لطخاته تعود للظهور لتفضح ما حبسته طي الكتمان طوال عمر صغيرتها..

استدارت برأسها تتأمل ضياعه في متاهته الخاصة..

تجوب بعينيها ملامحه التي لم ينل منها الزمن بقسوة ثناياه وتجاعيده إلا وزادها جاذبية ورجولة لطالما خطفت بصرها.. تلك الشعيرات الرمادية المتسللة بخبث تزين خصلاته العسلية، لحيته المنمقة الطويلة ومقلتيه الغارقتين بسحابة حزن بدت أقرب للقتامة الرمادية منها للزرقة الصافية وقد غرقت فيها بعشق قبلًا..

خرجت أنفاسها بطيئة، رمشت بأهدابها مرتبكة على ذكرى مشهد قاسٍ كانت إحدى بطلاته من الزاوية الخطأ..

ابنتها التي تربت على يديها!..

طفلتها التي لم ترَعيناها أمًا سواها!..

مدللتها التي منحتها حنانها واحتواءها وكل اهتمام الدنيا!..

تلك الصغيرة بأول ملمح شك؛ وضعتها هي موضع الزلل، ألبستها الجريرة وحكمت دون عدل..

نفذت الحكم بغلظة قلب لا ينتبه لمن يذبح، وجلدت أمها تاركة من ورائها الجرح والنزف والندوب والأثر..

عبرتها الخائنة وُلدت خلف جفنيها فارتعشت شفتاها، سكنت لدقائق زائدة تستدعي التماسك.. تحاول منع نفسها من الصراخ بآهة طويلة..

من النهوض والذهاب إلى ابنتها.. تكرار الصفعة مرة وتالية.. ثم زرعها بين أحضانها مستجيبة لجنون اللحظة وهوس المشاعر المتضاربة بجوانحها..

أخرجت الهواء السجين بصدرها متمهلة ثم ثبتت عينيها عليه.. احتوته بنظرتها مجددًا حال شروده، تحركت ببطء وجسدها يؤلمها.. كأن أوجاع روحها يتردد صداها بخلاياها المنهكة، شعر بحركتها فالتفت إليها وبسمة شابها الحزن تخط نفسها على حافة شفتيه:

- حمد الله على السلامة..

ساعدها لتعتدل بوضع نصف جالس، وقبل أن يطمئن عليها أكثر كانت تبادر بالسؤال المتوتر:

- إيه اللي حصل؟!..

نال جبينها منه قبلة مهدئة والبسمة تنحسر لتضيع في مرارة نظرته:

- طمنيني عليكِ الأول!.. حاسة بإيه؟!..

تعلقت بقميصه متلهفة.. خائفة:

- مراد ما تلفش وتدور.. عملت إيه مع تاليا؟..

أمسك بكفيها بين يديه وضمها بالكلية لصدره كأنما يهرب من لقاء ناظريها:

- عرفت الحقيقة..

انتفضت..

فهل الحقيقة كافية لنحيا ونستمر؟!.. أم أن ما يظللها من أكاذيب هو السند الذي نعتمد عليه لنمضي؟!..

تراجعت تغوص بسمائه الغائمة بالقلق:

- كلها؟!..

- اللي طلبت تعرفه..

- قالت إيه؟!..

- قافلة على نفسها.. من غير رد فعل..

ترددت أنفاسها بتقطع لاهث..

خوفها تضاعف وتضخم لحد خنقها فشهقت تسحب الهواء وتقر بالإثم.. تلومه وتلوم صمتها في ماضيها وخنوعها حين حاضرها، وكان هو مترددًا يتأمل رعب ملامحها وصوته يخرج بحشرجة حرج:

- أنا آسف..

وليت الأسف يجدي.. فالطعنة وصلت لعمق القلب وحددت المصير:

- آسف إني كنت السبب في إنك تتحطي في موقف اتهام مهين زي ده..

رجفة جسدها وصمتها وتباعدها أثاروا بنفسه اضطرابًا فاقترب بنبرة واجفة:

- علا.. أنا..

- إحنا غلطنا.. غلطنا يا مراد..

تجاهلت اعتذاره وأفرغت جام حنقها ولومها بوجهه..

ليست ملاكًا لتتحمل أكثر، هي بشر فاضت به أوجاعه لحد فاق الاحتمال، اتخذ هو موقف دفاع يدرك به الخطأ منذ البداية:

- يعني كنت عاوزاني أعمل إيه؟..

كان يمسك بكتفيها..

يبحث بعينيها عن صبر وشيء من جلَد يعينانه على أوهام الغد التي تصول بحربها الخاصة داخل عقله:

- كنا عملنا الصح..

وأبعدت يديه تطوف ببصرها المكان حائرة:

- خالفنا شرع ربنا، كدبنا عليها، خدعناها وخدعنا نفسنا..

وتحول خنوعها لغضب تشبثت به نبرتها:

- كسبنا إيه دلوقتِ؟!..

اعتدلت تحاول مغادرة فراشها لكن دوار داهمها فسكنت مكانها مرة أخرى وقلبها يتركها راحلًا نحو ابنتها المنطوية على نفسها:

- خسرناها يا مراد.. خسرناها وخسرنا نفسنا والذنب هيفضل قدام عينينا طول العمر..

ثم رُغمًا عنها انقبض خافقها بينما بصرها يرتفع نحو السماء تقر بالذي قد كان منهما:

- أنت متخيل لو كان ربنا رزقنا فعلا بأولاد بعد وجودها؟!.. متخيل لو أنا كان عندي أخوات؟!.. تفتكر كل المجالات المفتوحة قدام الوقوع في الحرام دي مش في رقبتنا إحنا قدام ربنا؟..

ومالت برأسها في نصف استدارة مؤنبة:

- ما كانوش هيبقوا إخواتها.. العلاقة بينهم شكلها كان هيبقى إيه؟!.. القرب المباح بينهم حدوده إيه!.. كنت هتبعدها عنهم إزاي؟!..

انحنى كتفاها وفركت كفيها فوق ساقيها تتخيل اللوحة مطموسة المعالم التي ترسمها بمواجهته بكل ما فيها من جور وظُلمة:

- غلطنا يا مراد.. غلطنا، ربنا له حكمته من التحريم وإحنا اتعدينا على حرمته.. وآدي النتيجة..

كان يدرك أنها على حق.. لا مبررات يزيح بها خطيئته عن كاهله، ولا دوافع تكفي لتبرئته من جرمه وإن وافقته هي عليه من قبل!..

تشددت قبضتاه بقوة قاربت القسوة، زم فمه واعتصر جفنيه حاجبًا حقيقة الصورة التي لم تعد خافية على أحد.. ثم عاد يكرر دون جواب:

- كنت هاعمل إيه؟!..

همسها بخشوعٍ واهن لينبض قلبها بصدى وجعه.. تنهدت بضعف، فتلك اللحظة تعاد، تتكرر.. ترسم نفسها بمخيلتها ثانية لتخضعها..

تلك اللحظة حينما عاد للبيت بعد سفرة طارئة تضمنت معلومات جديدة عن أخته التائهة.. عاد يحمل بين ذراعيه طفلتها التي لم تتم الأسبوعين عمرًا..

عاد يخبرها أنها ابنتهما..

أنه والدها وهي أمها..

أن القدرعوضه خسارته، عاد ببريق أمل سعيد يطل من عينيه، ينسكب من نبرته، يحيط لهجته ويغلف صوته..

عاد ولم تستطع كسر فرحته حتى بعدما علمت أنه وثَّقها باسمها.. مخالفًا عقيدته التي تحرم ما فعل..

ضعُفت بمواجهة ضعفه الذي تسلل بمكر خادع ليحثها على الصمت من وراء السعادة التي التحف هو بها..

ضعُفت وثمن ضعفها أتاها فوق طاقتها وبعد عمر طال كانت قد نسيت فيه ما اجترحته يدا زوجها وحبيبها وصدَّقت هي عليه!..

التفتت إليه وتحركت تضمه برفق.. لطالما كان مسكنه فوق صدرها:

- الصح يا مراد.. الصح..

وما هو صحيح ربما أوانه قد فات.. لا تعلم!.. تخللت بأناملها خصلاته شاردة:

- دلوقتِ الخطأ كِبِر، ما بقاش فيه حل.. اتأخرنا لحد ما العقدة اتحولت لحياة ومصير..

أغمضت عينيها ودمعة هاربة تتسلل من خلف أجفانها المتعانقة فتسيل فوق وجنتها تشعل بها النار:

- حياة بنتنا اللي قررنا عنها مستقبلها عشان تتصدم بحقيقتها بعد العمر ده.. وتنكسر..

منحته تربيتة ثانية واستدعت ما بجسدها من بقايا قوة لتنهض، تريد الاطمئنان على صغيرتها، ستذهب إليها متخطية حاجز الألم المصطنع بينهما فقط لأنها تدرك بحاجتها لاحتوائها لكنها بعناد أو حتى بخوف وحياء لن تطلبه..

وهو كان ساكنًا، صامتًا.. عقله في صراعٍ دامٍ مع قلبه..

أتراه خسرها؟!..

وماذا لو رغبت في المزيد؟!..

ماذا لو لم يستطع بسط يديه ليختار عنها مصيرها كما فعل من قبل؟!..

ماذا لو تمردت كعادتها.. واختارت أن تعرف أكثر، فتضيع منه وتلك المرة للأبد؟!..

هي أمله..

نوره..

قشته التي ظهرت من العدم فتعلق بها دون الغرق.. وقشته التي قصمت ظهره بعدما أنقذته ليغرق أكثر!..

قشته التي ظن أنها بحياته أمر واقع مبتدأه معه ومنتهاه إليه؛ ثم استيقظ من حلمه على وهم صوره له خياله بدافع الاستمرار..

وهم انجلت حقيقته عندما أتاه ولامسه.. فوجده سرابًا!..

***

هناك كسور لا تنجبر..

تترك عرجًا في الروح فلا تجد سوى ذكرى الوجع تتوكأ عليها.. حينها تسقط؛ مرة تلو أخرى حتى تخنع وتخضع لسلطان اليأس!..

وعندما تدرك بغتة أنك كنت مجرد بيدق تم التلاعب به فوق رقعة حياة اختلط سوادها ببياضها فباتت رمادية مفتعلة تمتلئ بالزيف؛ لن تكتفي بالسكوت..

رد الفعل سيتطرف، حد الغضب.. أو الاستسلام والضياع..

لن يتركها تضيع، سيحتوي بركان غضبها أوان ثورته ولو صبت بحممه فوق رأسه وحده وأحرقته دون غيره..

كان ذاك خياره قبل سنوات.. وهو قدر تحمل مسؤولية مواجهة تبعاته بلا هرب أو تورية أخرى..

تحرك بغرفة مكتبه بمنزله شاردًا يتعانق كفاه خلف ظهره، مظهره غير مهندم وعيناه تائهتان في اللامكان.. اتخذ من أريكة جانبية مجلسًا وعقله يسحبه نحو ما تناساه حد النسيان الفعليّ..

يسحبه لأيام مضت بحلوها ومرها ومنغصاتها حتى ظهرت هي فقلبت الصورة وزينتها ببهجة ألوان حضورها..

ابنته ولن يطلق عليها مسمى آخر..

تلك التي اكتمل معها نقصانه وخضع لوسوسة شيطانه وقتما زين له الخديعة فنسبها لنفسه..

"لأ يا مراد.. اللي أنت بتطلبه ده هو قمة الأنانية مش العكس"

رنين صوتها انبعث من مقبرة الذكرى فأغمض عينيه يتمم استعادة المشهد.. لحظة الضعف والوهن.. العوز والاحتياج.. الخوف واليأس!..

نبرتها القوية تحتوي وجعه، انكساره، هوان نفسه عليه.. وضمتها تحتوي جسده رغم إرادته فتمتص هموم روحه ولها يستكين..

"أنانية إنك تبعدني عنك، أنانية إنك تقرر بالنيابة عني.. أنا مش طفلة عشان ما أعرفش أقرر بنفسي أنا عاوزة إيه!"

تهدهد مخاوفه بظلال أمانها لكنه لم يرضخ أو يقتنع، تركها وابتعد.. شد قامته يخطو نحو نافذة تطل على أفق غائم وأصر بحسم لا يقبل جدالًا..

"مش من حقي أربطك براجل.. راجل.."

توقفت الكلمة بعرض حلقه كغصة قاتلة تحشرجت بعدها بحة صوته أكثر..

ود لو نطقها لكن أحرفها ستدمي رجولته، روحه.. تهز كيانه ويتصدع لها قلبه.. أحرفها أتت على ما تبقى من قدرته فتمتم بها بين جنبات صمته..

"ناقص"

وعوضها بهمس خافت..

"راجل مش هيقدر يمنحك اللي تستحقيه، يمنحك أولاد ويشبع أمومتك.. أنا مش أناني يا علا حتى لو الحب أنانية"..

والتفت إليها يتأمل سكونها ممررًا نظرتها المعاتبة ومتجاهلًا القوة التي تصرخ بها وقفتها..

"ده حقك.. وأنا مش هاسلبك الحق ده"

وبداخله تمم ما لا يستطيع نطقه..

لن يمكنه توثيق قربه منها برباط لا ينفصم.. بطفل من صلبه تحتضنه أحشاءها، يكبر بين ضلوعها يومًا بعد يوم.. ركلة تلو ركلة.. وضمة من وراء أخرى!..

لن يمكنه الاقتراب أكثر؛ فاختار قرار البعد..

اختار الهجر!..

عشقها الذي تمكن منه وقت ضياعه، الذي منحه الثقة حين استحوذ عليه الشك بكل النساء..

بساطتها، عنفوانها..

قوتها، رقتها..

تسلطها وخضوعها..

تلك المتناقضة التي استأثرت بقلبه دونه فظفرت بصك ملكيته للأبد!..

فوق ملامحه تعاقبت مشاعره ورأتها هي مفصلة مفسرة فاقتربت، وخطت كلمة النهاية وإن رفض هو الاستسلام لها..

"ده قراري يا مراد.. قراري اللي مش هاسمح لك تاخده بالنيابة عني، أنا استغنيت عن أمومتي اللي واخدها شماعة تعلق عليها فراقنا بحبك.. بوجودي جنبك، بحياتي معاك.. لو عاوز تبعد يبقى تقول سبب حقيقي مقنع، مش حجة بتضحك بيها على نفسك أو عليَّ"

كانت عاشقة حد القسوة..

وخلال صمته أتاه الاتصال الحاسم ليهبه ترياقه قبل لحظات من الموت..

أتاه لينقذه من وجع الفراق ويهديه طوق النجاة..

لقد وجدوا أخته.. وبلا مزيد من تفاصيل..

سافر بعجالة وعاد.. عاد يحمل صغيرة منمنمة، فاتنة تحمل زرقة عينيه وزغبًا أشقر اللون يغزو رأسها.. عاد يخبرها أنها ستكون ابنتهما فليس لها سواهما..

وبمواجهة أمر واقع قرر أيضًا عنها ومنحها اسمها بخانة الأم..

ساق المبررات..

طفلة غير شرعية، تحمل جنسية غريبة.. لن يقبلها أحد، لا مكان لها بهذا الكون إلا معه.. إن لم تكن ابنته فمن ستكون!..

بعرف مجتمع لا يرحم لن تجد لها موطئ قدم تحيا به..

فقدم لها بيته، اسمه وحياته لتنشأ بكنفه..

تكمل ما نقص لديه من احتياج لأبوة ولو مدعاة، ويرتق بها ثقوب رجولته التي يراها لم تصل حد الاكتمال..

وبعدما قدم الحجج تلبس ثوب الضعف..

وتخاذلت مقابل وهنه فقبلت وانتهت القصة..

لكن تلك كانت نهاية مبتورة بدأت تتمتها قبل يومين، حينما تجردت حقيقة الأمس من سترها، وخلعت خديعة الماضي حجابها..

تنهد بثقل، استند برأسه المتعب لظهر الأريكة عائدًا لحاضره المبعثر.. لا يملك له خيط بداية، ولا يدرك معه نهاية!..

من وسط حيرته انتزعته الطرقات التي يحفظها..

طرقاتها فقدت مرحها لكنها احتفظت بتتابعها المعروف لديه.. تصلب جسده لحظة بوجل ثم نهض متعثرًا بخطوة أولى يأذن لها..

تلاقت الأعين.. نظرتها بها تحدٍ، صمود.. وانكسار مغلف بوهم قوة تفتعل وجودها..

ونظرته تتمنى، تتوسل.. تناشدها ألا تخاطر بضعفه أمامها فتسلبه أبوتها:

- ممكن نتكلم شوية؟!

مبادرتها وصلت لأذنيه متشبثة بصلابة يدرك كونها ظاهرية..

نظرة أخرى عابرة وهروب باتت تجيده من تتبعه لحيرة وجهها وتيه بصرها.. دنا واحتوى كفها بين يديه هامسًا بموافقة انتهت بإجفاله عندما ابتعدت هي عن مرمى لمسته..

بل نأت عن محيطه القريب وتوجهت نحو النافذة تراقب السماء المنذرة بمطر ثقيل من خلف زجاجها المغلق.. تتردد في نطق ما تريد، تبحث عن صياغة ملائمة لسؤال يؤرقها وجوابه يقع في تلك المنطقة المتأرجحة بين الموت والحياة!..

- تيا!..

نبرته المستفهمة والألم المحسوس بها دفعاها لتتخطى حاجز صمتها دون تريث.. بالتفاتة حادة ولقاء أعين صاخب جوار لهجة هجومية اتخذت من عنفها وسيلة دفاع.. أو فرار!..

- أهل أبويا موجودين؟..

تجمد بمكان وقوفه، عيناه لا تفارقان عينيها وإن غاب عقله بماضٍ أُسدِل عليه ستار الرحيل وأتت هي تنبشه كما نبشت ما سبقه..

داهمها بتأكيد عنيف لم يخلُ من انكسار:

- أنا أبوكِ..

مازال يكابر.. يعاند وهي تأخذ خطوة نحوه فتتألق زرقة مقلتيها الحاسمتين:

- خالي..

- تيا!..

- أهل أبويا موجودين ولا يتيمة برده؟..

طعنته بالكلمة وانتظرت الرد.. فحين الوجع تبرر القسوة بالاحتياج وتقدم الغلظة على التفهم:

- يتيمة!..

صمتت دون رد، كل ما فيها يخبره أنها لن تعيد السؤال.. هي فقط تنتظر الجواب ولن تقبل ما هو دونه.. زفر بحرارة تحرق كيانه وتنهشه ثم قلب كفيه برضوخ:

- ليكِ عم واحد.. عايش في لندن..

الرعشة احتوت جسدها بالكلية..

شفتاها.. نظراتها.. تشتت فاستندت لمقعد يواجه مكتبه وحارت فيما ترغب به أو تبحث عنه:

- يعرف بوجودي؟!..

منحها ردًا صامتًا بإيجاب فطغى انفعالها الغاضب على سكون المكان:

- وسابني ليه؟..

يالقسوتها ابنتك يا مراد!..

هز رأسه وعاتبها:

- سابك لمين يا تاليا؟!.. أنا دمك.. أبوكِ..

بدت حائرة، تائهة تنطق بأحرف متلعثمة شبه مبهمة:

- هو عمي.. ليه ما ربانيش وكتبني باسم أبويا؟!..

ودارت حول نفسها تبحث عن موطن أمان:

- هناك ده عادي مش كده!.. كان ممكن ينسبني له بدل ما أسرق لقب مش لقبي..

- تيا!..

تجمد مبهوتًا من وجهة أفكارها..

ألهذه الدرجة باتت تكرهه؟!..

- أخدتني منه ليه؟!..

انتبه لسؤالها فتألمت عيناه لكنها تغافلت عن ألمه:

- اتفقنا إن ده لمصلحتك.. عمك كان عنده بيته وولاده وماكانش هيقدر ياخدك معاهم.. كان هيعرضك للتبني، أنا كنت أولى بيكِ يا تاليا.. أنا أبوكِ..

- هو يعرف عني حاجة دلوقتِ؟!..

تتجاهل تمسكه العاطفي بها، تتشبث بقشة واهية أنها تهم أحدهم وكأن الواقف بمقابلها تحصيل حاصل المهدور من عمرها:

- بابعت له أخبارك وصورك كل فترة..

هدأت نفسها للحظة فاكتراث عمها بوجودها كرم تمنته وخشيته بذات الوقت..

توجهت نحو الأريكة التي غادرها والدها عندما ظهرت على بابه..

تقوقعت فوقها بجلسة كسيرة وابتعدت بعقلها عن الصورة..

وقف يراقبها بتوجس!..

صمتها ورد فعلها أقلقاه.. تفكيرها وشرودها أثارا بنفسه الحيرة والخوف..

بمَ تفكر بهاته اللحظة وعلام تنوي!..

- كان شكلها إيه؟!..

وبعناء قليل فهم مقصد سؤالها ورد:

- ما قابلتهاش..

- أنت ما حاولتش..

تهاجم من جديد ويدافع هو:

- أنا دورت عليها كتيريا تاليا.. ولما لقيتها كانت..

- ماتت مش كده؟!..

أوجعته فرمق سكونها بحزن، بعد دقائق ظلت محط عينيه خلالها رفعت رأسها بالقرار الذي ألقى بفؤاده في بئر الخسارة السحيق:

- أنا عاوزة أسافر لندن..

العزم ملأ اللمعة بين جفنيها ومر بخطوطه الصارمة حول نبرتها:

- عاوزة أتعرف على عيلتي..

وعقب سقوط قلبه أُسقط في يده وليت حكم القدر ملك يمينه تلك المرة!

***

جمال كل مرحلة يكمن في البدايات.. شغفها، غموضها والفضول الذي تثيره بالنفس!..

حتى لو كانت مخادعة لا تشي بما يليها لكنها تظل خطوة أولى تتبعها خطوات إن لم تكن سقطة..

نصف العام على الأبواب.. وذاك عامه الأخير بكليته لو رفض رغبة أساتذته في العمل بها، وتركها محققًا حلمه بالانخراط بالسلك الدبلوماسي كما تمنى دومًا..

عامه الأخير الذي لن يمتلك من الحجج ما يقدمه ليراها بعد نهايته..

نهض من فراشه باكرًا يفكر بخطط اليوم للجنتها بالاتحاد.. قائدها نسَّق رحلة خدمية تتبع نشاط الجوالة لإحدى قرى الفيوم يتم بها توزيع بعض التبرعات العينية على أهل المكان فقير الموارد..

تجاهل حمامه الصباحي واكتفى ببعض الماء البارد فوق رأسه، ارتدى ثيابه بسرعة طامحًا للحاق بها قبل الرحيل، نيل نظرة وربما جدالًا محببًا لنفسه يبدأ به يومه..

هبط الدرج لتقابله أخته مخففة من اندفاعه بمباغتة:

- إيه يا مستردارسي؟!.. بتجري على السلم كده ليه!..

وهو اندهش من وجودها وتجاهل اللقب الذي نادته به بسماجة:

- أنتِ بتعملي إيه هنا على الصبح؟..

لوت شفتيها ساخرة وعقدت ذراعيها فوق صدرها:

- صباح الخير عليك برده..

منحها نظرة تخبرها أنه لن يتراجع فيما نطق به فلكمت كتفه بضيق مصطنع:

- بارد على فكرة وسخيف.. أنا هاقضي اليوم مع ماما النهاردة، عندك مانع؟!..

- براحتك..

كلمة باهتة وخطوات تخطاها بها حد اندهاشها فأوقفته:

- استنى بس.. أنت مستعجل كده ليه!..

وناوشته بمداعبة لم تدرِكم كانت صادقة:

- الشمس هتغرب قبل ما تلحقها ولا إيه!..

استدار إليها بنظرة هازئة، نعم هي على حق.. لكنها تجاوزت حده الخاص:

- خليكي في حالك..

- يا مارو..

- بلاش الاسم ده..

ونهرها بحدة شبه جادة أضحكتها فغمزته واقتربت منه تتعلق بذراعه هامسة بخبث:

- طيب قولي هي مين؟!.. وأنا مش هاسأل تاني..

انتزع يده منها، حدق بها زاجرًا ووبخها بإدعاء أجاد رسمه:

- ركزي مع جوزك وطلعيني من دماغك..

تابعت رحيله المتعجل جوار قضمة من شطيرة أعدتها له والدته ورشفتين متتابعتين من قهوته اليومية قبل أن يختفي يصاحبه هتافها:

- الله يسهله يا عم..

سمعت زمجرته المغتاظة فضحكت وأمها تؤنبها:

- سيبي أخوكِ في حاله امتحاناته قربت، أنتِ عارفة إنه مش بتاع الكلام ده..

ورمقت زوجها الذي يهبط الدرج وعيناه تحطان عليها ببسمة:

- طالع لأبوه..

- تيرارارارا..

تظاهرت الابنة بحالمية وعزفًا وهميًا لتخبرها والدتها برفعة حاجب:

- أنتِ الجواز جننك..

نعم.. تدرك صدق الأم، لكنه لم يكن الزواج بالتحديد، بل زوجها العاشق الذي يغرقها بعشقه دون أن يمنحها فرصة نجاة..

- أمال فين مروان؟..

- مشي..

سأل "أدهم" وانعقد حاجباه مع الجواب:

- غريبة!.. نازل بدري يعني؟..

جاورته السيدتان على مائدة الإفطاروابنته تخبره:

- أكيد وراه حاجة مهمة..

وبالفعل هي الأهم.. فبينما يصف سيارته كانت عيناه تبحثان عنها جوار الحافلة التي ستُقل المجموعة في رحلتها..

ترجل منها واتجه نحو قائد لجنة الجوالة، تبادل معه حوارًا قصيرًا ماطل فيه قدراستطاعته رُغم الملل منتظرًا ظهورها..

ووقتما لاح طيفها مقتحمًا بصره -بسترة شتوية زرقاء وسروالٍ من الجينز يناسبها، خصلاتها القصيرة معقوصة برباط صارم منحها صورة تفوق عمرها وملامح جامدة حازمة جادة- أنهى حواره باقتضاب مع زميله وقطع طريقها بوقفة جعلتها ترفع رأسها إليه بحدة مستغربة..

لكن لقاء النظرة متفرد، يعزف على إيقاع كلاسيكي أنيق..

نظرته عقدت لسانها لثوانٍ وبسمته جذبت ناظريها وهو يلقي بتحية كطرف خيط:

- صباح الخير..

تراجعت لحظة.. ردت تحيته بخفوت وعيناها تبعثان إليه بالتساؤلات:

- هترجعوا من الرحلة إمتى؟..

- المفروض هنبيت هناك النهاردة لأن في بكرة جولة حرة.. غالبا على حسب الطريق..

ولهجتها أتته متوجسة شبه حائرة كحيرته بمواجهتها، لمَ يسألها هي؟!:

- ما تتحركيش برا مجموعتك أو لوحدك، وما تروحيش مكان مش من ضمن البرنامج..

رفعت حاجبيها دهشة انقلبت في الثانية التالية لمكابرة غاضبة:

- إيه الأوامر دي؟!..

تحرك خطوة مقتربًا ونظرته تحيطها دون وعي مبررًا بسخافة:

- دي تعليمات أمان..

- والتعليمات دي نبهت بيها على كل الجروب؟..

تتحداه وقبِل التحدي بشجاعة.. هو لا يلجأ أبدًا لطرق ملتوية، ووجهته دومًا خط مستقيم، باترة حاسمة:

- لأ..

مع صراحته ارتبكت هي، لقد ظنت أن هجومها سيوقفه أو على أقل تقدير يوتره.. لكنه فقط دفع به ليكون أكثر وضوحًا وجرأة خاصة مع استطرادته بلهجة أقرب للأمر رُغم نبرة الاهتمام:

- خلي بالك من نفسك..

بسمتها ارتسمت فوق شفتيها سمجة باردة:

- ما تقلقش.. أنا أعرف آخد بالي من نفسي كويس، ومن الجروب كله كمان..

تألقت عيناه بنظرة غامضة لم تفِ غموض صوته حقه عندما وازاها بتأكيد:

- عارف..

في كل مرة يخبرها أنه يعلم بقوتها.. يردد ذات الكلمة فتكبح هي البسمة الحقيقية من الظهور على ثغرها، تهرب.. تبتعد.. تتجاهل، لكن كل الأدلة والبراهين ضدها..

يجذب اهتمامها بشكل خاص، فلا تجد لذلك مسمى وحينها لا تبالي..

تجاهلت أفكارها المتضاربة وزادت مؤكدة أنها ترفض نصائحه ولا يعجبها اهتمامه:

- أنا عارفة الفيوم شبر شبر على فكرة.. مش محتاجة تعليمات..

كانت تهم بالتفات ورحيل، وهو اكتفى بالحوار القصير كعادته وظل يتأملها لتباغته بعنادها:

- إيه؟!..

وبخت نفسها وقضمت لسانها بقسوة بين أسنانها تعنفه على نطقه الأرعن فقد كان على وشك المغادرة.. وقت التراجع فات فأكملت ببساطة مثيرة للغيظ:

- عادي.. كنت باروح مع بابا كل موسم نصطاد بط..

- بط!..

ومع كلمته المستغربة التي رأتها اعتراضًا هاجمته:

- أيوة بط.. بابا علمني الصيد من زمان، وباسافر هناك من قبل أنت ما تتولد أصلا..

كلماتها العفوية المندفعة ببراءة طفولية لا تشبهها انتزعت منه ضحكة.. وضحكته حاصرت أذنيها في صورة احتوته هو وحسب فتعلق بصرها به حتى توقف يتأملها ساكنًا غامض النظرة!..

فرت من نظرته تتوهم سلاح صيد بين يديها، وجهت فوهته نحو قلبه وأخبرته بتفاخر:

- على فكرة أنا بانشن كويس قوي..

واختلقت بفمها صوتَ خروجِ الطلقة فشعر كأنها غاصت بين ضلوعه حقيقة.. وبميل طفيف نحوها همس بنبرة عابثة لم يعتدها بنفسه:

- هاستنى المرة الجاية تعلميني.. الصيد..

نطق آخر كلماته ببطء، زمت شفتيها تقتل فوقهما البسمة، لكنهما أصرتا بعناد لم تستطع كبحه أو السيطرة عليه فارتسمت عليهما آسرة ولمعت بها غيومها بينما تستدير راحلة بتمتمة:

- هابقى أشوف..

استقلت الحافلة مع رفاقها، جلست جوار النافذة البعيدة كأنما تهرب من وداع عينيه.. وقسرًا أفكارها تمحورت حول اختلافه معها..

وحول تلك النبضة التي زاغت هاربة من قيد نبضاتها لتتذكر ضحكته، قربه، اهتمامه، وتشرد مع المستحيل بين صفحات رواية لم تستسِغ قرائتها يومًا!..

***

ويتشابه حالها مع حاله وإن تضاد الاتجاه..

عندما تتفلت خيوط السيطرة من بين أصابعك، وتكتشف بغتة أنك كنت دمية لعب بدوام مؤقت وحسب، بيدقًا تمت التضحية به لأجل هدف آخر؛ تبحث بجنون عن سبب.. عن عقاب، عن جواب لأسئلة لم تطُف ببالك من قبل..

وقتما توقن أنك صياد فتستفيق على حقيقة كونك فقط.. طريدة سقطت في الفخ بغباء؛ لا ترى من الصورة سوى الغضب ولا تبدأ أو تنتهي إلا عنده..

غضب حارق جعله ينتظر حضورها طيلة أسبوعين تغيبت فيهما عن الجامعة، ووازاه حيرة وتساؤلات جمة..

لمَ فعلت ما فعلت؟!..

هل كانت تعلم من هو؟!..

لمَ استغلته بالذات لتنفذ خطتها الحمقاء؟!..

ونعم هي خطة محبوكة ومرسومة بحرفية.. نظرتها، بسمتها، خطواتها.. كل ما فعلته حين رأتهما صديقة عمته التي لا يعرف عنها سوى اسمها وشكلها يمنحه دليلًا قاطعًا على خطة حيكت وكان هو صيد شباكها الثمين..

وبعد محاورة ملتوية مع العمة علم أنها والدتها فحصل على اليقين..

يود أن يعنفها، يصب غضبه فوق رأسها، يفهم.. لمَ اختارته وما الذي كانت تسعى إليه بالتحديد!..

نعم لم يكن ضحيتها تمامًا، لقد أرادها وتقبل منها ما جادت به..

فقط اتجاه اللعبة لا يعجبه، هي فتاة صغيرة.. تبدو جامحة متمردة، وجموحها أعجبه لكن أن توجهه لصدر من رغبت مارة فوقه هو!.. ذاك ما لن يتجاهله..

تذكر لمستها.. احمرار وجنتيها المؤقت وهروب عينيها.. لقاءه الحار بشفتيها والاستجابة لإغواء اشتهاه وماكرًا توقعه منها..

كانت قبلة مبتدئة وحتى عبث أصابعها غرّ.. مرتبك!..

جذب خصلاته بعنف..

حيرته تحيط بها علامات استفهام لا حصر لها.. والجواب بين يديها وحدها..

تلك التي دلفت للمكان بنظرات لا مستقر لها سوى موطئ قدميها على غير عادتها، تتوجه بشرود نحو مدرج محاضراتها دون أن تحادث أحدًا أو تلتقي بناظريه..

زفر أخيرًا وهمس بكلمة مبهمة قبل أن يبتر خطواتها بوقفة متصلبة ونظرة جامدة توجست لها، غرس أصابعه بمرفقها وجذبها خلفه خارجًا من المبنى بلا صوت.. وفي ركن منعزل أوقفها وواجهها:

- حمد الله على السلامة..

ساخر، حانق.. غاضب وله الحق، لكنها لا طاقة بها لجداله فاكتفت باعتذار خافت:

- آسفة يا آسر..

- ها.. آسفة!..

وعاد يمسك بذراعها يجبرها على النظر إليه مقررًا:

- أنتِ كنتِ مرتبة للمشهد..

وهزها بقسوة اعتلت عينيه وتخللت لمسته:

- بتستغفليني يا تاليا؟..

نزعت يدها من قبضته وولته ظهرها:

- أنا اعتذرت لك؛ ما فيش داعي لـ..

- لإيه بالظبط؟..

هجومه فجر سخطها الكامن وطغى على ضعفها فالتفتت إليه بهجوم مقابل:

- ما تعملش زعلان قوي كده.. الموضوع كان منفعة متبادلة، اللي حصل أنت كنت عاوزه، وأنا كنت محتاجاه.. واحدة بواحدة..

حملق فيها باستنكار!..

هي تتبجح بفعلتها وزاد الأمر عندما اقتربت تنظر بعمق عينيه متحدية:

- إيه هتنكر إن ده اللي كنت عاوز توصله معايا من أول لحظة!..

لم يرد لثوان، أحكم شفتيه يمنعهما من نطق ما يجرحها أو يهينها، اكتفى بنظرة مزدرية أوجعتها ورحل بكلمات أخيرة:

- معاكِ حق.. ياريت بس تكوني وصلتِ لهدفك.

ودت لو نادته لكن الكلمات أوقفتها..

نعم وصلت لهدف لم ترجُ معرفته، وخسرت في طريق الوصول الكثير..

خسرت ثقة أمها وظلمتها باتهامات باطلة مهينة..

فقدت استقرار حياتها وأمانها..

أضاعت حقيقة كانت الأفضل، بمقابل أخرى كسرتها..

وانتهت بعزم على الرحيل اشترط والدها أن تتم عامها الدراسي قبله ووافقت بعد تردد طويل..

وافقت حتى تسترد عافية روحها المنهكة بعالم لم تدرك قتامته إلا عندما خطت بدربه المُعبد بالألم..

***

أيمكن أن تكتمل الحياة دون منغصات!..

هل ننبش نحن عما يدنس سعادتنا بالخوف والقلق!..

أم أنها بديهيات دنيوية وفطرة بشرية خالصة!..

كانت تقف بحمام غرفة نومها، تستند للمغسلة قيد الانتظار، عيناها معلقتان بالاختبار المستقر فوقها بأمل..

أمل اضمحل وتراجع متواريًا عندما طال الوقت وأتت النتيجة..

سلبية!..

التقطته بين أناملها تتأمله بشرود أنهته خطوات زوجها عندما وصلت هادئة لأذنيها من ورائها وظهر مناديًا باسمها بنبرة مهتمة..

استدارت إليه دون أن تحجبه عن ناظريه.. ثوان من صمت امتدت بينهما تمتمت بعدها برعشة شفاه ورجفة أجفان:

- سلبي..

- يبقى نِجَودِ..

نطقها بعبث وهو يجذبها خارج الحمام.. رفعت بصرها تواجهه حائرة لتفاجئها نظرته الوقحة فعبست تنهره:

- نزااار..

انزوى فمه ببسمة ماكرة وازت غمزة وانحناءة من جسده ليحملها بين ذراعيه نحو الفراش:

- إيه!.. الإتقان ده أهم خطوة..

ونزل بها يضمها بحنو:

- بعدين دول يا دوب أربع شهور يا ملك..

ثم قطع عليها طريق الاعتراض بلثمات دافئة متتابعة مطمئِنة ومثقلة بالشغف..

وقبل أن تتيه معه محاصرةً بمشاعره لم يتركها شيطانها إلا وقد نفث شره بقلبها..

أتراها تبالغ!.. تتعجل وتفتقد صبر الانتظار!..

أم أن هناك خطأً مجهولًا تبعاته ستكون يومًا ما فوق احتمالها!..

(١٠)

الحياة.. فرصة!..

لا تتكرر مرتين..

لا تعود..

لا تمنحك الكثير من الوقت لتفكر..

فإما مُضيع

أو غانم لما قدم إليك على طبق من فضة!..

لذلك؛ اقتنصها..

نحن لا نصنع من العالم ثوبًا مفصلًا، نحيكه تبعا لمقاساتنا الخاصة..

هناك قدر، وهناك قضاء لا مفر من الخضوع لمساره.. حتى حين الاختيار نسلم مقاليدنا لظروف تحتم علينا الاتجاه الذي يسقطنا من فوق حافة هوى النفس ورغبات الفؤاد..

توأمتها تخبرها أنها على خطأ..

الواقع أثبت لها بالدليل والبرهان القاطع الموجع أنها لن تنجح فيما فشل فيه غيرها..

نهاية قصة رأتها وعايشتها بنفسها تجعلها تنزع عنها رداء الشك وتتلبس ثوب اليقين أن ذلك هو المصير..

لكنه القلب..

تلك المضغة الواهنة المختبئة بحرص خبيث خلف سجن الضلوع..

الجزء الصغير بحجم قبضة، المقتطع من الجسد ليدخل حيز المشاعر وجموحها ورعونتها..

هو من يتحكم.. يأمر ويسيطر وهي فقط؛ تطيع!..

تحبه ولا صلة لذلك بسنوات عمر أو قرابة دم.. تعشقه ولا رابط بين عشقها وهروبه أو تغاضيه عن ذاك العشق.. وهبته خلاصة عاطفتها وشغف عينيها بمتابعته بينما هو لا يأبه بمقلتيها تدوران في فلكه..

لا علاقة لبعد أو رفض أو تجاهل بما يُقره القلب وتسكن إليه الروح..

تستعيد ما ذكرتها به شقيقتها التي تكبرها بثلاث دقائق.. ذكرتها به بقسوة تتحدى عشقها بالألم:

- شوفي حال يوسف يا سما..

وكأنها لا تراه بالفعل، فالأخ الأكبر ابتعد.. هجر الأهل ورحل عن الوطن مكتفيًا بوحدته ولو في نصف وطن آخر:

- الحب من طرف واحد وهم، خسارة كبيرة ووجع أكبر..

وهي خير من يدرك ذلك.. لكنه الأمل!..

لن تميته بداخلها بينما لا يزال حيًا ينبض ويمنحها القدرة على التشبث بإحساس هو لها الحياة:

- يوسف عرف يبعد ويمكن جرحه يطيب أسرع..

تقذفها بحقيقة تعلمها وتتغافل عنها منتشية بنظرة أو لمحة أو تيه في حلم:

- لكن أنتِ هتفضلي هنا، هيفضل هو قدام عينيكِ، ولو قلبه مال لغيرك؛ هتعيشي قصتهم يوم بيوم من غير هروب..

ألقت بوجهها تفاصيل الصورة بألوانها الباهتة وأعتمت عليها مشهد النهاية المحتوم..

زفرت تعاند ببراءة عاشقة صغيرة تستنكر صوت العقل وتعاند إلحاح المنطق:

- ومين قال إنه هيكون لغيري!.. ليه بتفترضي نظرية وتبني عليها المستقبل؟..

- لأنه عارف بمشاعرك ومتجاهلها، زي ما ملك كانت بتعمل بالظبط..

وقذفتها بوجهها حادة باترة لا تقبل جدلًا أو تفنيدًا:

- وده راجل.. لو عاوزك ومع مشاعرك اللي هو عارفها هياخد خطوة فورًا..

- يمكن مستني يخلص دراسته!..

تتعلق بحبال واهية تقطعها الأخرى بسخرية شبه قاسية:

- اقنعي نفسك بكده يا سما.. أنا خايفة عليكِ ومش عاوزة وجع يوسف يتكرر معاكِ..

- أنتِ إيه يا بنتي بجد؟!.. كله بالعقل، طب والقلب..

وتنهدت تغيب بذهنها في بسمته محدودة الظهور، ضحكته العميقة المستخفة على الدوام كأنما يسخر من العالم بأكمله:

- ليه نسجن مشاعرنا ولسه في أمل؟!..

- قصدك ليه بنضحك على نفسنا رغم إن الواقع قدامنا بيكشف الحقيقة بوضوح!..

- صبا.. اطلعي برا..

طردتها من غرفتها يصاحبها رنين صوتها بكلمات أخيرة أضافت لجدار مخاوفها صدعًا جديدًا:

- حلو نعيش الوهم أحيانا، لكن نصدق إنه حقيقة!.. ده غباء..

عبارة غليظة قبضت قلبها، لكنها صادقة..

تأففت وتجاهلت صدقها ثم غابت في جولة تتصفح بها صوره بحسابه الشخصي على موقع الفيس بوك.. واستعدادات الجامعة على قدم وساق للبطولة التي سيخوضها للمرة الأخيرة في السباحة هذا العام..

صور لم ينشرها بنفسه بل فقط تمت الإشارة له فيها، واحتفظت هي بها على هاتفها كمخزون لا ينضب من رؤياه..

تنهدت لمرة أخيرة وانغلق جفناها هربًا لحلم لا ترى بحيثيات أركانه سواه..

ابن العم الجاد المتباعد.. رسميّ الكلمات والنظرة وحتى البسمات!..

***

لا تترك نفسك لتيار العشق دون خبرة وإلا فمصيرك الغرق!..

وقد غرقت..

باتت تحفظ عاداته اليومية وذاك منتهى الخطر..

لقاء صباحي بمقهى قريب من الجامعة، هو وهي وشقيقته صديقتها الأقرب ولن تلمز نفسها مدعية أن الاقتراب خالص لأجل الصداقة؛ بل هو جزء من الصفقة، البقاء بقربه.. حوله، وبتلك النبضات التي بات يملكها عنوة من قلب لا يباح له حق الرفض..

واجتماع آخر يتكرر عقب انتهاء ساعات الدراسة.. هما تنتهيان قبله فهو بالكاد يجد الوقت ليتناول الغذاء معهما مرتين أسبوعيًا..

وصديق آخر تجاهلته أو سقط منها في خضم غوصها بمشاعر تطفو على سطحها للمرة الأولى.. وترتطم بقاعها الغائر مرات ومرات..

صديقها الذي لم تلحظ تغير أحواله مؤخرًا حتى أعلن غضبه ورحل قاطعًا عليها طريق الاهتمام:

- واضح إنك لقيتِ أصحاب جداد..

وسخر ببسمة بدت لها هازئة فظة:

- ربنا يهنيكم ببعض..

- آسر!..

نادته وخطواته المبتعدة لم تكترث للذنب في نبرتها.. بعدها عاتبت نفسها ولامتها عندما رأت ضيقه وعصبيته وابتعاده عن شقرائه التي اختفت لفترة ثم ظهرت بوجه غير ذاك الذي غابت به!..

لكن هل للحب من رادع عندما يسيطر على القلوب!..

هل يهدينا الفرصة لنرَغيره!..

استرضته كثيرًا حتى عاد ذلك الساخر من خشونتها المختفية بين طيات أنثى تعيد اكتشاف ذاتها، دعته للانضمام لقاعدة أصدقائها الجدد ورفض متمنيًا لقصتها حلاوة اكتمال لا يصدق بوجوده..

وحينها اغتاظت منه وأظهرت جانبها العدواني كعادتها بلكمة ووكزة ورحيل غاضب..

أضحت لا تفهمه فاكتفت باعتزازه بصداقتها، ويشغل بالها عنه تلك البداية التي لم تكن ضمن التوقعات..

هي تحب!..

وشابًا.. بل رجلًا، تراه رجلًا رغم أنه يكبرها بثلاثة أعوام فقط، ألقاه القدر بطريقها صدفة.. دون سابق تخطيط..

كانت تجلس مع شقيقته تعبث كل منهما بهاتفها حتى ظهر فأشارت له المجاورة لها، أتاهما بخطواته الرزينة وابتسامته التي تحملها معها فوق غيمة ناعمة لا تليق بها:

- ها.. جاهزين؟!..

استقامت تواجهه ببسمة خجول وأخته تسأل باهتمام طفولي:

- هتغدينا فين النهاردة؟..

- زي ما تحبوا..

عيناه تحادثانها وحدها، والجواب أتاه من الأخرى بلهفة دون أن تنتبه للنظرة:

- خلاص يبقى على ذوقك..

ثم تترك له زمامها كما فعلت هي..

وينتهي اليوم بها مُستقَرُ بصره بمرآة سيارته لدى جلوسها بمقعدها الخلفي، يمنحها لمحة من دُكنة مقلتيه، تهرب بنظرها ليجذبها بمنتصف حديث لا تتابع معظمه فتعود وتلتقي بسوادهما وتنال ألقهما الخاص بها وحدها..

عند باب بيتها ترجلت، تبعها تلك المرة تحت أنظار شقيقته المستغربة، همس لها بتمتمة خافتة.. ونبرة مسيطرة:

- المرة الجاية هنتغدى لوحدنا.. عاوزك في موضوع..

وراقب الحمرة المباغتة التي اكتسحت وجنتيها بمتعة جاورت شبيهتها تعلو صوته:

- موضوع ما بقاش ينفع يتأخر..

- جواد..

تلعثمت أحرفها بموازاة إشارة يده التي منعتها استكمال ما بدأته:

- لما نتقابل..

طافت ببصرها هاربة من اقتحام عينيه الغريب عليها، فهو لطالما كان هادئًا بنظراته، ببسمته وحتى برنين ضحكته..

وقع بصرها على تلك المراقبة بدهشة مستعجبة لم تلمح فيها الضيق من بعيد:

- أنا هامشي.. دلوقتِ مريم مستغربة وقوفك معايا كده..

لم يلتفت بل أكد قبل رحيله:

- هاكلمك..

وطارت هي حول ألوان قوس المطر حتى سقطت فوق فراشها..

تستعيد قتامة عينيه التي تغرق فيها..

تبتسم بحالمية لم تمر بدروبها أبدًا، وتقرر النوم علَّ لقائه هناك حيث الغياب عن الوعي أكثر قربًا من لقاء واقعي..

لقاء تراه بعيدًا رغم أن كل ما هو آتٍ قريب!..

***

حينما تولد بين نبضات قلوبنا نبضة الحب الأولى، تلك النبضة العاصية؛ لا نملك بمواجهتها الخيار..

تحمل معها أصفادها لتكبل بها قراراتنا، رغباتنا، وحتى نظراتنا التي تشرد بملكوت العشاق بحثًا عن صورة الحبيب وقد كنا نظن أننا محصنون ضد سقطة في فخ الـ "غرام"..

استيقظ عقله بغتة على ذكراها..

وابتسم عندما تجسدت نظرتها المعاندة تقتحم عزلة عينيه المغلقتين عقب إفاقته من نومه كأنما تتحداه..

لقد داهمت حلمه..

غزت أفكاره..

ولا يدري ما المختلف بها لتفعل لكنه لا يستكثر عليها امتلاك ما استحال على غيرها منه!..

هي مختلفة.. فريدة، هي حالة مستعصية على الفهم، عاصفة هوجاء لا تُبقي ولا تذر، وغيوم ماطرة بندى رقيق صباحي ماتع..

وهو!..

هو لا يستنكر.. ولا يمانع!..

خلال الفترة الماضية تلاقت بهما الدروب.. وكلما تلاقيا رحلت عنه تاركة بسمة غامضة فوق شفتيه، وأثرًا بداخله ظل يتعاظم ويكبر حتى ظهر بمجال عقله وأقرَّبه..

نهض من فراشه وأسفل الماء شبه البارد بحمامه الصباحي رفع وجهه يستقبل القطرات المندفعة باستمتاع، يتخلل خصلاته الفحمية بأنامله لتعود هي وتسيطر على أفكاره..

منذ ذلك اليوم قبل أشهر عندما تدخل مبعدًا عنها الفتى اللزج "سليم" وعاندته بقدرتها على ردعه وهو لا ينفك يفكر بها..

كان لا يفهم لمَ فعل ما فعل!.. ومن بعدها كلما التقاها جذبت انتباهه أكثر..

حينما يركز فيها.. تعود لذاكرته المصادفة القدرية الأولى التي جمعت بينهما، لتعنفه بعينيها ويتجاهل وجودها بلحظتها كعادته طوال سنوات دراسته مع الفتيات..

لكن القدر كان له رأيًا مخالفًا..

جمع بينهما بطريقته الخاصة، لتشغل حيزًا ليس بالهين من ذهنه، ويتساءل هو عن كيف تفكر به!..

حين يتدخل القلب بمعادلة لا نعلم نتيجتها؛ يصعب معه رد الفعل.. نحتار، نخاف ربما، وتتشتت أفكارنا وعقولنا.. نجهل أي خطوة هي الأصح، هل نقترب فنمتلك؟.. أم ننتظر فنخسر!..

أغلق المياه ولف منشفة حول خصره، واجه عينيه بالمرآة بعدما مسحها بكفه ماحيًا ذرات البخار لتكشف له خبايا نظرته المتسائلة..

نظرة تتساءل أي مسلك هو درب القدر!..

وأي اختيار سيمنحنا ما نطمح إليه!..

نعم شغلته لكنه لا يطلق على ذاك الانشغال اسمًا محددًا بل تركه معلقًا سابحًا في سماء مبهمة..

لا ينظر لها كما ينظر الرجل لامرأة، فتجذبه خصلات جامحة منكهة بالشيكولاتة وإن كانت قصيرة، أو بريق غيمة تسكن مقلتيها..

لا تحرك به رغبة ذكورية قدر ما تحرك به غريزة حمائية جوار غيرة كانت تثير حنقه بالبداية..

لا يرى منها منحنيات فاتنة تثير قديسًا، ولا يأمل في سرقة قبلة تحت ظل شجرة خلف مبنى كليتهما كما يفعل زملاؤه!..

هي تجتذبه بيسر كما يجتذب لهب النيران فراشة غافلة، لا حول لها ولا قوة.. فتقترب لتحترق!..

عادت أنامله تغوص بخصلاته وبسمة ماكرة تنحني بها شفتاه.. بينما عقله يوبخه مستخفًا بإنكاره واقعًا لا يمكن التغاضي عنه..

فكيف يعترض وكل تلك الأفكار التي تطوف حولها راودته بالفعل؟!..

كانت هي الأولى التي تحيي به مشاعر رجل تجاه أنثى..

وباتت الوحيدة التي تحرك به كل كوامن نفسه المختبئة خلف صلابته المعتادة.. تنبش اهتمامه، تسرق نظراته، تسلب فكره وتزجي سعير غيرته ليصطلي به في صمت من لا يجيز التصريح لنفسه حتى تمام الإدراك..

ارتدى ثيابه وهبط يتناول إفطاره مع والديه، التقط همهمات من حديث بينهما لم يستوعب فحواه لكنه يدور حول أخته.. ألقى بتحية صباح وجاور أبيه على المائدة حين بادره:

- ميعاد البطولة اتحدد؟..

أومأ بإيجاب وهو يقضم شطيرة الجبن المُذاب خاصته:

- كمان شهر ونص.. التدريبات بدأت من أسبوع..

ابتسم والده بفخر أبوي حانٍ:

- وطبعًا هتكسبها زي كل سنة..

غمزه ونهض بعد رشفة أخيرة من قهوته خالية السكر:

- عيب يا بوص.. ده العادي يعني..

ضحكت أمه تودعه ببصرها وتعيد على مسامع زوجها ما كررته من قبل:

- طالع لأبوه..

وهو رمقها بنظرة ماكرة احتوت عبثًا لم يبهت بريقه بعينيه أبدًا:

- وماله أبوه بقى!..

ربتت على كفه المضمومة فوق الطاولة بحبٍ لا ينضب:

- حبيبي..

تلك كانت آخر كلمة وصلت لمسامعه بينما يغلق باب المنزل خلفه بابتسامة متجاهلًا التعليق كعادته.. يعلم عن قصة العشق التي جمعت بين والديه، وإن لم يدرك تفاصيل البدايات فيكفيه عمق الاستمرار وقوته..

وصل لكليته وعيناه تبحثان عنها، فاته اللقاء وحل محله اشتياق.. اشتياقًا جعله عصبيًا بعض الشيء وهو يتمرن مع زملائه، تدفق الأدرينالين بشرايينه ففاز بجولة وثانية وثالثة دون أن تكَّل ذراعاه أو ينهك جسده..

عندما انتهى التدريب وخرج من المسبح يجفف نفسه ويحيط كتفيه بمنشفة عريضة متجهًا نحو غرفة تغيير الثياب.. لمحها..

لمحها وتوقف الزمن بين أعينهما بنظرة..

كأنما يسألها: أين كنتِ؟!..

وتعاند بجوابها في تحدٍ دون حرف: وما شأنك!..

اقترب مُسيَّرة خطواته حتى واجهها دون أن يرى فعليًا الملاصقة لها بتأمل حالمٍ تطوف به حوله..

والمبادرة أتت مخالفة لتوقعه، بل وتوقعها بعدما أبعدت عينيها في خجل عن عينيه.. خجل يراودها لأول مرة من تلك النظرة التي تغزو مقلتيه:

- بتعملي إيه هنا؟..

تغضن جبينها واستعادت سيطرتها على مشاعرها التي أفلتت من عيارها للحظة:

- هاكون باعمل إيه!..

وأشارت للجمع المنتشر بالمقاعد من خلفها:

- جايين نشجع التيم..

انتبه فجأة للفتيات والفتيان الجلوس بالمكان وأصوات التشجيع التي تعلو لرفاقه بعدما أنهى تدريبه وأوشك على الرحيل..

ابتعدت بناظريها عن صدره المكشوف أسفل المنشفة تستنكر غرابة ما يراود أحاسيسها:

- ربنا يوفقكم..

لاحظ ابتعادها وأدرك السبب، تراجع خطوتين يتناول قميصًا قطنيًا من حقيبته، ارتداه بسرعة ولف منشفته حول خصره يخبرها بثقة:

- إن شاء الله.. البطولة لينا زي كل سنة..

ثقته حفزت فيها عنادها الفطري فجابهته عائدة ببصرها إليه:

- دي بطولة الجامعات..

- يعني!..

الثقة تحولت لضيق سبق لهجته:

- يعني البطولة الحقيقية مثلا تبقى الجمهورية..

وأشاحت بكفها في دائرة واسعة تغوص بتلك القهوة الداكنة بين جفنيه بمكابرة:

- العالم..

كأنها تخبره أن ما يفعله غير كافٍ، وأن المرتبة الأولى بكل تحدٍ هي الأهم..

عقد حاجبيه وابتسم ساخرًا.. تثير هي به كل الأضداد!..

تمنحه حالمية حب لم يسمِه باسمه بعد، وتستحث غيظه وحنقه وتفجر انفعاله.. ومن رجل اعتاد السيطرة لم يكن بالأمر الصعب أن يمرر طموحها وتحديها ثم يخبرها ببساطة عن أفكاره:

- أنا ليَّ طموحات تانية..

وتلاعب بكلمة إضافية قبل أن يهديها فرصة الرد:

- أهم..

بدا ماكرًا وهو يراوغ بنبرته، يعزف على وتر أنثى بداخلها مهما خبأتها تحت ركام الجمود لها لحظة طفو وصعود..

خجلت!..

ولغرابة الموقف شعرت بسخونة طفيفة بوجنتيها فظهر حنقها بصوتها:

- وليه ما تكونش في كل طموحاتك الأول!..

رفع حاجبًا كأنما يتفهم رد فعلها الدفاعي:

- على كده أنتِ الأولى!.. نقول مثلًا في الرماية بما إنك بتحبي الصيد!..

استخفاف طريقته وسؤاله ضاعف من سخطها فتصدت له بشموخ:

- تاني الجمهورية..

مال برأسه وأسعدها أن تنال من ملامحه دهشة رأتها لها مستحقة فأردفت بعنفوان:

- وهاكون الأولى إن شاء الله..

رغم أنها تعانده؛ فقد أعجبه وهج عينيها..

تاه فيه لثانية..

ثانية واحدة بدت كدهر طويل، دهر بين الغيوم الداكنة، وفوق رمادية سحب مثقلة بحملها.. وابتسم!..

ما تحركه به لا يمكن تفسيره، فقط تلك الحركة الخافتة التي تستدعي نبضاته من سباتها بسجن ضلوعه تعجبه، كرر ما دعت به قبل قليل:

- ربنا يوفقك..

والتفت عازمًا على الرحيل، لكن قبلها حفر بصمته على صفحة ذاكرتها:

- وقتها هتلاقيني باشجعك..

زوت ما بين حاجبيها دون تصديق، تابعت خطواته بشرود حتى أتتها الوكزة المعتادة تفيقها من غيابها بشقاوة مزعجة:

- سيدي يا سيدي..

- أمل!..

تحصل هي على الغضب والثورة والتوبيخ فترفع كفيها باستسلام:

- إيه يا بنتي!.. اهدي بس، أنا ملاحظة إن في الأمور أمور..

رمقتها بنظرة محذرة واستدارت تغادركاظمة غيظها:

- أنا بقى ملاحظة إنك بتكبري كل الأمور..

تبعتها بضحكة مرحة مشاكسة:

- سيبي نفسك للتياريا روما، الحب حلووالله..

تصلبت خطواتها جوار اللفظة التي بترت أنفاسها..

الحب!..

***

وتعيش مأساتك الخاصة كأنها نهاية العالم، وترى بعينك أن مصيبتك لا يوجد ما هو أكبر منها.. وكأنما خلقت أنت من ضلع الحزن الأعوج!..

الطريقة الوحيدة التي يمكنك أن تخطو بها للأمام؛ هي أن تحرك قدميك وترمي عوالق ما فات خلف ظهرك..

لكن ماذا لو حاولت وعجزت، أعدت المحاولة وتكرر الفشل.. حاربت وانهزمت!..

كل منا يواجه مخاوفه بطريقته الخاصة، يتحمل خسارته بشكل ما يناسبه..

اختار هو العمل.. الكثير والكثير من العمل والدراسة، انغمس فيهما متجاهلًا أصدقائه القدامى ولقاءاتهم الدورية الاعتيادية، متباعدًا عن الجميع حتى جده الذي بات اجتماعه به على وجبة واحدة سريعة هي العشاء ينطلق بعدها لغرفته متحججًا برسالته..

لكنها ملَّت هروبه..

لقد أتى من موطنه بجرح، والآن ينعزل بذاته متوحدًا معها لاعقًا جرحه وضاغطًا عليه لينزف المزيد من الألم.. لاعنًا العشق والنسيان..

خطتها التي قررت بها أن تستحوذ على قلبه المتواري بظلال الهزيمة لم تعمل كما يجب.. فحتى هي أصبحت لا تراه بما يكفي، ولا تحادثه كما ينبغي..

لذا كان هناك قرارًا جديدًا.. ستقتحم عزلته وتسحبه منها عنوة ولو دون إرادته!..

توجهت لمقر عمله، انتظرت بصبر انتهاءه من إحدى العمليات الطارئة لتقاطع خطواته العائدة نحو غرفة الأطباء برفقة زميله وصديقهما القديم كذلك..

الوحيد الذي يراه من مجموعتهم حاليًا!..

أصابها سهم غيرة أعمتها للحظات بينما تواجههما فيرحب بها الصديق:

- مرحبًا جين!.. أية رياح لطيفة أتت بك لمشفانا المتواضع؟..

ابتسمت بسماجة، لم تنظر إليه، بل حطت بعينيها على المجاور له مانحًا إياها نظرة مستغربة:

- جئت أختطف هذا الوسيم من هنا..

ردت بجرأة وجذبت يده نحو غرفته التي تعرفها مسبقًا متجاهلة الدهشة على ملامحه، أغلقت الباب والتفتت تواجهه بوجه متجهم:

- بِت تقضي الكثير من الوقت مؤخرًا بصحبة سام..

نبرتها كانت حانقة بينما لا يبدو عليه الاكتراث لضيقها أو اشتياقها، لقد ظنت أن طريق الوصول إليه أصبح أكثر يسرًا مع قلبه الخالي.. أو حتى مع خسارته التي توقن من قدرتها على تعويضه عنها.. لكنه يتهرب من اللقاء، ينطوي على نفسه مبتعدًا متعللًا بالعمل ويالها من حُجة:

- نحن نعمل معًا.. ذلك بديهي..

اندفعت بحدة طائشة ترمي بوجهه ما يغير بصدرها كأنها تخشى فقدانه مجددًا بشكل أو بآخر:

- هو لديه صديق حميم كما تعلم..

- جين!..

ولأول مرة يعلو صوته زاعقًا بمواجهتها، لا تدري أغيرة هي أم أنها تخطت الحد بالفعل!.. تجاوزت نظرته القاسية هاربة بعينيها ومتمتمة بحشرجة:

- أنا لا أتهمك بشيء جوزيف.. فقط أفتقدك..

ولَّاها ظهره وخلع عنه زيه الجراحي بغضب أقلقها:

- ذلك لا يبرر أن تجنح بكِ أفكارك لهذه الدرجة..

- جوزيف!..

اقتربت تحط بكفها على كتفه لتلحظ كظمه لغيظه وتصلب جسده:

- آسفة..

صمته ضاعف من توترها فأدارته ليواجهها:

- وماذا بعد؟!..

لم يجِبها، أهداها تأملًا صامتًا متسائلًا فاستطردت بوضوح من ملَّ المداراة:

- قصتك معها انتهت، وأنت تكتفي بالهرب، لا تمنح نفسك أو قلبك الفرصة لينبض مرة أخرى..

فقد السيطرة على عقال غضبه بتلك اللحظة.. لقد اكتفى!..

وكأنما نسي لتعود فتذكره هي بما أضاع وخسر:

- وما شأنك أنتِ جين!..

- أنا صديقتك..

- صداقتنا لا تعطيكِ الحق بالتدخل في شئوني..

- ماذا عن حبي إذًا!..

خرجت منها بنبرة عالية ساخطة وأسوأ اعتراف بأسوأ توقيت ممكن!..

لكن خطوة السقوط مرت وما يليها لن يكون سوى ارتطام مدوٍ بالقاع، لذا فالاستمرار في الاستسلام لجاذبية الهبوط بات أمرًا حتميًا لا مناص عنه..

اقتربت أكثر تضع يدها فوق صدره، تغض الطرف عن نظرته المستنكرة:

- نعم أحبك وأعلم أنك لم ترَ ذلك الحب من قبل، بل وتتعامى عنه في الوقت الحالي..

ورفعت وجهها إليه لتغوص بعينيه، تنهيدة وحشرجة وبحة صوت عاشقة.. خائفة من جموده:

- لم ينل من قلبي غيرك طوال عمري جوزيف..

ودت لو خُتم المشهد بحالمية خيالية.. احتواءه وذراعيه تقربانها منه، ضمة وخصر خاضع لسيطرته، وعناق شفاه شغوف موقعًا به صك العشق..

حينها كانت ستصبح له!..

لكنه خالف التوقع وابتعد..

تراجع خطوة وثانية يتأملها بشيء من ضيق.. سكونه أوجعها، هدوءه شتت مشاعرها، ووجوم ملامحه أخبرها برد فعله لكن الاستسلام حين خلو ساحة المعركة من غريم؛ لم يكن من ضمن المعادلة:

- قل شيئًا..

برقت سمائه للحظة وأيقنت فيها الغضب:

- ما الذي تودين سماعه جينيفر!..

اسمها المكتمل من بين شفتيه أكد لها خطأها، وخطوته الهجومية التالية أرجفتها بينما يستحوذ على ذراعها بقبضة قاسية كادت تئن بسببها:

- أنني في حلٍّ من عهد أخذه قلبي على نفسه لأخرى والآن يمكنه أن يمنح نبضاته لمن يريد!..

ثم جذبها يُداهِم ضعفها بنظرة جامدة مخيفة:

- أنني بضغطة زر سأنسى وأحيا وليذهب الماضي إلى الجحيم!..

واقتراب أكبر حتى باتت عيناه المشتعلتان تحتلان الأفق قبالة ناظريها:

- أتعلمين ما سيذهب إلى الجحيم معه صديقتي القديمة؟!..

نفث أنفاسه الحارة بوجهها جوار همس مستعر أسبلت له جفنيها دون إرادة:

- إيماني بما تسمينه أنتِ.. حبًا..

بعدها أفلتها..

وعندما فتحت عينيها وجدت أنها تحدق في الفراغ الذي تركه يتأجج بنيران رحيله من خلفه، والهلع ينهش روحها..

لقد تعجلت الفوز.. فمُنيت بالهزيمة، وليت العودة بالزمن للوراء ممكنة!

***

بعد كل رحيل هناك عودة.. وعقب كل منتهى؛ مستهلٌ جديد..

لا تختتم حياتنا سوى بالموت، ومادام في الصدر أنفاس تتردد؛ فالاستمرار، غرس الكيان بأرض الواقع، الحياة ولو بهامش شبه مهمل؛ أمرًا لا مفر منه ولا بديل عنه!..

نعم خسرها قلبه.. خسرها كحبيبة وزوجة ظلت أمنيته لوقت فقد حسابه، لكنها لا تزال هناك بمحيطه، بمرتبة صداقة لا غنى عنها والجرح متروك للأيام تطيبه بطريقتها.. أو للدهر بنسيان آتٍ لا محالة..

هو رجل صلب.. لا يجيد سجن نفسه بصندوق الذكرى؛ فقام بفتحه رويدًا رويدًا وتنفس!..

لم يكن أبدًا عاطفيًا لدرجة تفقده اتزانه، فقط الخلل حين يحدث يترك الصورة مهزوزة بعض الشيء، يستبقي بالنفس بعضًا من هشاشة تجعلها واهنة وإن أظهرنا التماسك وادعينا المرور فوق صراط الألم الحاد..

أشهر طويلة مرت، لقد باتت امرأة رجل آخر وقد تكون في طريقها لأن تصبح أمًا لأطفاله!..

استرخى بمقعده وطافت بخياله صورتها، بطن منتفخ، خطوات بطيئة ضعيفة ووجه تعلوه نضارة حمل طفل!..

ابتسم لذاك السحر وإن لم يكن له..

"أستاذ ياسين.. الأستاذ فؤاد عاوزك في مكتبه"

انتبه من شروده على نداء الساعي فنهض بنشاط مشيرًا إليه باستجابة..

هناك صدمته المفاجأة فأتى رد فعله رافضًا:

- لا يا ريس.. شوف حد غيري تتدرب معاه..

- ليه يا ياسين؟!..

استقام بحزم لا يرضى بمجرد نقاش:

- حضرتك عارف إني اليومين دول ورايا كذا موضوع مهم، مش فاضي كمان أدرب واحدة مبتدئة..

وانعقد حاجباه بضيق مستهجن:

- وبنت كمان!.. أفضل لها تتدرب مع ليلى وتعمل فوتوسيشنز لعروض الأزياء أووصفات الطبخ..

ضحك الرجل بوُد، تبعه مربتًا على كتفه في أبوة وهمس بتورية:

- والله أنا مش ممانع، بس هي دماغها ناشفة ومندفعة.. بتعشق الخطر..

ثم ابتعد متممًا بهزة رأس حانية جوار نظرة شجن:

- عنيدة ورأيها من دماغها زي والدتها الله يرحمها..

مع التساؤل على وجه مصوره الأول ابتسم وأوضح:

- راما.. بنتي..

وتلك كانت مفاجأة أخرى!..

مالت رأسه قليلًا نحو كتفه بتفكير، وبسمة ناوشت شفتيه، هو لن يرفض طلبًا لمعلمه ومرشده، لذا في هاته الحالة ومع استسلام ملامحه:

- تمام يا ريس، موافق..

"واضح إن كلام أستاذ فؤاد عن المصور الأول للجريدة في محله!"..

التفت الاثنان لمصدر الصوت الرخيم الواثق..

بشرة حنطية، خصلات حالكة معقوصة بإهمال لطيف، ومقلتان معتمتان بسواد ساحر جوار وهج يشي بذكاء.. كبرياء وعناد!..

قامة ممشوقة متوسطة الطول وزي بسيط تمثل بسروال من الجينز وسترة بنية قطنية، تقدمت ببطء متجاهلة تأمل عينيه، محافظة على نبرتها التي حوت شيئًا من استخفاف لم يغضبه البتة بل بدا له ممتعًا:

- مخلص.. جاد جدًا.. فنان مبدع.. عدسته لها نظرة خاصة..

آخر خطوة واجهتها به لتباشر النظر إليه ببريق آسر:

- لكن نسي يقول إنه مغرور..

- راما!..

أتت موبخة من الأب الذي لم يلمح ابتسامة "ياسين" بينما يطالعها بصمت وهي تردف بتحدٍ ورفعة حاجب:

- مغرور وتفكيره عقيم وقديم.. بس عاطفي كمان!..

ووازى التحدي فوق وجهها بسمة خافتة مشاغبة انحنى بها ثغرها:

- أول ما عرف إني بنت والده الروحي؛ وافق فورًا..

بيسر سيطرت بحضورها على المكان كأنما تلك طبيعتها، تتخطاه دانية من رئيسه وبصرها لا يحيد عنه:

- على العموم أنا مستنية أستفيد من خلاصة خبرات صاحب العدسة المبهرة..

ثم مدت يدها بمصافحة بسيطة وابتسامتها تتسع لتشمل شيئًا من وُد فبدت أكثر شبهًا بوالدها:

- تشرفنا يا أستاذ ياسين..

- الشرف ليَّ يا آنسة راما..

وتلك!..

تلك كانت بداية أخرى!..

***

نحن لا نأخذ من الحياة سوى تفاصيلها المملة!..

نمرر الوقت حينما نرغب..

ونوقف الزمن وقتما نريد..

نعدو وراءه فيتفلت من بين أناملنا، أو يركض هو خلفنا فنهرب منه خوفًا أو قلقًا قد لا يكون بمحله!..

أشهر أخرى عبرت خط حياتها.. تجاهلت عدَّها للحظات ثم حصرتها في التالية..

كم كانت؟!..

ثلاث.. أربع!..

نعم.. وحصيلة مدة زواجها ثمانية.. قضتها في سعادة يسعى زوجها لغمرها بها، وهلع من غدٍ مجهول تخشى فيه الخسارة.. النقص، الفقد!..

كل شهر تعيد الاختبار، تحظى بذات النتيجة.. ويزداد جبل مخاوفها ارتفاعًا..

سلبية!..

وتبكي..

سلبية!..

وتنام تهجر قربه وعشقه..

سلبية!..

وتبتعد بقلق ونظرة شك لا يفهمها عندما تحيطه بها..

سلبية!..

وتتأخر عادتها بعض الشيء فتأمل، ثم تنزفها غزيرة فترتعب..

بعدها فاض الكيل فاقتحمت عليه سهرته بين أوراق عمله الذي يهرب إليه مؤخرًا بمكتبه عقب عودته للمنزل:

- إحنا لازم نروح لدكتور..

ببتر حاد حاسم.. قرارًا ألقت به في وجهه فتنهد هو بصبر، رفع رأسه إليها:

- ملك...

- ما تحاولش تقنعني نأجل أكتر من كده..

ودارت حول المكتب تواجهه بحزم مفتعل شابَ نبرتها خلاله رجفة لاحظها وإن دارتها:

- مش معقول مش عاوز تكون أب..

كرر تنهيدته وجذب يدها برفق ليحتويها بين ذراعيه، ضمها إليه وتسلل بأنامله يتخلل خصلاتها بهمس حانٍ:

- أكيد عاوز أكون أب..

قبل رأسها وابتسامة تداعب شفتيه سارحًا بخيالاته عن أطفاله:

- ولعشرة كمان..

بعدها رفع وجهها لتقابله عيناها المنكسرتان بحزن:

- المهم يكونوا منك أنتِ..

رعشتها، تيهها، ضعفها ووهن ملامحها جوار صوتها الخافت بخيبة وعجز أوخزوا قلبه عليها:

- يبقى تسمع كلامي.. نروح لدكتور ونشوف ليه التأخير!..

عاتبها بنظرة فمدت كفها تحيط بوجنته في توسل:

- عشان خاطري يا نزار..

أمسك بيدها ولثم باطنها بدفء، احتواها مرة أخرى فتعلقت به بجسد مرتعد جعله يضمها بقوة وزفرة مستسلمة:

- حاضر يا ملك، هنروح لدكتور..

استكانت أخيرًا فوق صدره..

استكانت تتمنى، تحلم..

وتخاف!..

(١١)

ابحث عن صداقة..

فتش عن الحب..

تَتَبَع بداية رعناء..

نقِب عن قُربٍ مشروعٍ..

انبش عن الخوف..

بالأحرى..

فتش عن المرأة!..

ثم لا تعترف بعدها أنك كنت تفعل..

الحب صدمة..

مباغَتّة لا تمنح الفرصة للتماسك، ولا تتمهل قبل أن تجهز على قلبك!..

صدمة قد يراها البعض ختامًا مسكيًّ العطر، أو مُستهل حدوتة خيالية تليق بدنيا الأساطير..

وكلٌ يخلق أسطورته الخاصة!..

أما أسطورتها هي فكانت من صنع يديه، وما جنته منها صارتيًا بعالمه..

بمعادلة أينشتانية نسبية بسيطة الوقت يقتلها ببطء مروره وهي قيد انتظار موعد قُرب من معشوق أجاد لعبة الحب، أكثر من شهرين على تلك المحادثة الخاطفة بينهما، بجملتين منه وكلمة هروب منها..

وحدث اللقاء..

وما بعد اللقاء سرد سريع غير وافٍ لتخبط المشاعر وجنون العشق!..

بادرها يومها بتصريح تضمن تقريرًا بديهيًا فاجأها:

- أظن واضح إني بحبك..

ألقى الكلمة بوجهها وعيناه لا تتركان تفاصيل ملامحها..

ورُغم كونها تستدعي قناع التماسك الخشن وقتما تريد فقد تهشمت بمواجهة صراحته..

واكتساح نظرته!..

وطارت منها قطعة أخيرة باحتواء أصابعه المسيطر، وهمسه الخافت المتسلل بمكر ساحر نحو أذنيها:

- شذى!..

يسألها باسمها عن سكونها ومحاولة هروب فاشلة بعين لا تجد مستقرًا آمنا من حضوره حولها:

- عاوز أتجوزك..

أبدى رغبته دون تأخير..

وزاد في العرض بتأكيد لا يقبل الشك:

- نكتب كتابنا بعد النتيجة..

يملي عليها ما يريد، وهي مبهورة البصر والأنفاس والحِس..

جامدة الجسد، صامتة حد الخنوع!..

كرر النداء لترتفع رأسها إليه شاردة حائرة، مرتبكة بحمرة ممتعة فيميل مقتربًا مكملًا سطوته على المشهد:

- أنا قلت لك إني بحب الشعر الطويل؟!..

ببساطة ألقى ما بجعبته ثم غير فحوى الحديث لما يريده كذكر من أنثاه..

هزت رأسها بنفي واهن فابتسم وقرر عنها:

- هتبقي أحلى لو طولتيه..

وتخابث بعبث رجولي منح أنوثتها الدلال ومنح ذاته التملك:

- مش لايق عليك دور الراجل الخشن مع رقة وجمال ملامحك..

ازدردت لعابها..

لم تنطق بكلمة بعد، فهمس مستمتعًا باستحواذه على جوارحها:

- القطة أكلت لسانك ولا إيه!..

تنحنحت..

تعثرت الأحرف فبحثت عنها بعسر وهزت كتفيها بينما يدها تنسحب ببطء متحسر من دفء يده:

- جواد!.. مش ملاحظ إنك قلت كلام كتير قوي، وما اديتينش فرصة أقول حاجة!..

بدت كأنما تهبُ نفسها شيئًا من عودة نحو صورتها الصلبة وثباتها الوهمي المتهدم أمامه.. تراجع في جلسته عاقدًا ذراعيه وأهداها حرية التعبير بكلمتين:

- أنا سامعك..

توترت!..

وبعالمها ارتباكها ذاك أمر جلل، ودت لو تستطيع معه التخفي وراء واجهة المشاغبة والفظاظة التي اعتادتها مع أصدقائها..

لكنها بمواجهة هيمنة عينيه مجرد.. أنثى!..

أنثى حائرة متلعثمة تشعر بالضعف وترغب في المنح دون نقاش..

- أنا لسه قدامي سنتين في الكلية!..

- وإيه المشكلة؟!.. كتير بيتجوزوا وهما بيدرسوا وبيكملوا عادي..

أول عقبة لم تعجبه فمحاها بلحظة:

- بابا مش هيوافق..

- المهم أنتِ موافقة، إقناعه بقى مهمتي أنا..

عرقلة غير محسوبة تخطاها بلا تمهل:

- أنا بحب الشعر القصير..

أما تلك فكانت منها معاندة كأنما تحاول استعادة سيطرتها المفقودة وابتسم ليزلزل المحاولة بنجاح ساحق:

- وأنا بحبك..

وحاصرها ببصره مجددًا:

- زي ما أنتِ..

حينها أجادت ما تجيده كل أنثى في موضع خجل..

نهضت تستقيم بخطوات متعجلة مشتتة:

- أنا لازم أمشي..

وهروبها كان بمثابة كلمة واحدة لا غير..

نعم!..

***

عندما نقف على ذلك الحد الفاصل بين الحلم والوهم؛ فنسقط من فوق حافة المجهول..

نأمل فنركض ونمد أناملنا لتلامس السراب..

أو ما كنا نظنه المصير!..

نتعثر وننهض، نتابع ونسعى للاستمرار فتعود الخسارة لتذكرنا أن محاولاتنا محض عبث..

لا يتذكر متى آخر مرة تحدث عنها أو ذكر اسمها، وكلما مرت بخاطره نبذ الصورة وهرب، نعم..

هو رجل يجيد الهروب حد الاتقان.. ويومًا ما مضى أجاد التخاذل حد الضياع!..

والآن كل كيانه، جوارحه، عقله.. وخافقه المذنب بجريرة عشقها يمتنعون عن مبارحة أرض هواها وإن ترك لها الوطن وطال الغياب وتطاولت المسافات..

ويسب نفسه على حماقته..

هي امرأة رجلٍ آخر، زوجته، لكن من قال أن الحب ليس سوى بئر لا ينضب من الحماقة والجنون!..

جنون أن يستمر على عهد حبها وفيًا..

جنون أن يفكر فيها وتشن غاراتها على خيالاته كلما شرد..

وخبالٌ محقق أن تجتاح أحلامه ليفيق منها على الوهم!..

يفيق على واقع مَر فيه بشبه فَقْد لصديقة عمره وطفولته سربَّته إليه فوق اعتراف أرعن بعشق، يصحو على وحدته منطويًا مبتعدًا عن مخالطة رفقائه لعله يتناسى..

يتعايش ويتكيف!..

أغلق كتابه بضيق جوار زفرة افتقاد..

تلك الطائشة يشتاقها بالفعل، ومنذ ألقت على مسامعه بكلمتها وفرَّ من المواجهة كمن يفر من طاعون لم يرها.. هل مر شهر!..

أقل قليلًا أو ربما أكثر!..

خلع منظاره الطبي ودلَّك أعلى أنفه بتعب..

الغبية..

تناول هاتفه وقرر أن يعيد ربط ذاك الخيط الذي انفصم، وإن تجاهل لأيام مرت؛ فوقت الحسم قد حان.. وارتفع الرنين خارج باب غرفته..

رنين هاتفها هي!..

فتحه وتصلب بمقابل عتاب عينيها..

خطوة فثانية ودخلت.. استدارت تؤنبه بنظرة بادرت بعدها دون تأخير:

- أنا آسفة..

- جين..

- لا تقل شيئًا..

فركت كفيها بارتباك، التفتت عقبه توليه ظهرها بهروب:

- لم يكن ينبغي عليَّ التصريح بمشاعري، الآن أدرك أنها لا تهمك..

اقترب يديرها بقبضة متحكمة يلاحق كلماتها:

- لا جين.. أنتِ وكل ما يخصكِ أهتم لأمرك، فقط..

- تعجلت!..

تأملها بضياع:

- ربما.. لا أعلم!..

ابتلعت ريقًا وهميًا وجفاف حلقها لم يسعفها:

- هل ستفكر بأخرى في يوم ما؟!..

هز رأسه بحيرة مكررًا الجواب الحائر:

- حقًا لا أعلم..

ابتسمت بحزن واهن، دنت تمنح نفسها حق الغوص بسماء عينيه الداكنتين:

- أنت لا تجود على نفسك بالفرصة..

- بل هي من لا تجود عليَّ بها..

جوابه أتاها جوار بسمة بطعم مُر، بسمة وشرود أوجعاها فتماسكت تعاند تيه مشاعره:

- أتعلم شيئًا جوزيف!..

رمقها بتساؤل لم تنتظر تحويله لمسموع مردفة بصلابة:

- أنا لن أخفي كيف أشعر نحوك بعد الآن..

ورفعت يدها تريحها فوق نابضه بتملك:

- يمكنك أن تهرب، تدعي.. تتشبث بما مضى أو بعشق لم يكتمل..

لم يتحرك وهي تأخذ خطوة اقتراب أخرى تتحداه بها:

- لكنني أحبك.. وأريدك أن تعلم ذلك وتتيقن منه..

- أنتِ مجنونة جين..

ابتسامته تلك المرة شابها مرح طفيف افتقده:

- وأنت مغفلٌ كبيرٌ جوزيف..

وتعالت تشب فوق أطراف أصابعها تهمس بأذنه:

- وستكون لي..

يثير غرور كل ذكر؛ أنثى تطارد رجولته وتسعى لقلبه..

لكنه فقط هز رأسه وأمسك بيدها يقبل أطراف أناملها:

- ومن أنا لتسعى إليّ فاتنة مثلك؟!..

- الغزل الجيد لن يفيدك، فلا مهرب لك مني..

تلك المرة خرجت منه ضحكة فتعلقت بعنقه تباغته بضمة:

- اشتقتُ ضحكتك يا أحمق..

ثم تراجعت بسرعة تبعًا لقوانينه التي تعلمها، تتأمله بنظرة صامتة طويلة مغزاها واضح دون أن يدركه:

- يومًا ما طلبتُ منك أن تكون أول رجل بحياتي جوزيف.. أتذكر؟!..

انعقد حاجباه ومنحها موافقة صامتة على تذكره مستعيدًا الذكرى بعقله:

- حينها أخبرتك أنني فقط أثق بك، أنك لن تؤذيني، أنك صديقي وأشعر بالأمان معك..

- نعم!..

غابت للحظة وابتسمت بشرود:

- كنتُ أكذب..

كان حائرًا!..

حيرته أجبرتها على الاستمرار فأوضحت أمامه حقيقة جلية لم يعد من المباحات تجاهلها:

- أردتُك أن تكون الأول لأني أحببتُك..

وعادت تدنو منه تواجه عينيه بجرأة:

- أعلم مدى اهتمام الشرقيين بذلك الأمر، أن يكون أول رجل بحياة امرأته.. وأردت أن أمنحك ذلك رُغم نصفك الغربي ورُغم جهلك بشعوري تجاهك..

- جين...

رغب بمقاطعة بترتها بإشارة:

- نصفك الشرقي تغلب عليك وقتها، لكنني لم أفقد الأمل واحتفظت بنفسي لك عام آخر وتكرر رفضك.. ثم أوضحتَ لي بعدها..

وتنهدت بذكرى ودت لو كانت له:

- التزامك بعقيدتك يمنعك..

- ما الداعي لهذا الحديث الآن؟!..

طافت حول نفسها بخفة وابتسامة تزين وردية شفتيها بينما عيناها تلمعان بمكر محبب:

- فقط أُعلِمك أنك امتلكت مشاعري منذ مراهقتي لذاك الحد..

ووكزت موضع قلبه بسبابتها بقوة:

- وأنني لن أتنازل عنك هذه المرة..

ثم تقدمت نحو خزانة ثيابه تفتحها وتفتش فيها بعشوائية:

- سأكتفي بالصداقة حتى إشعار آخر..

استدارت بسترة وقميص وسروال بسيط:

- والآن.. لنمارس صداقتنا كما اعتدنا، هيا.. أنا جائعة وأنت ستدفع ثمن العشاء الليلة..

استحوذت منه على ضحكة ثانية..

ضحكة صادقة افتقدها قلبه واشتاقتها روحه..

وأهدتها له.. هي!..

***

ماذا بعد أن مررنا بسحر البدايات وشغفها!..

حيرتها وارتباكها وغموضها!..

هل سنفهم!..

نبدأ سطرًا جديدًا متممين به ما سبقه بوعي تلك المرة!..

ربما.. بعضنا يفعل ذلك ويتقنه ويتتبع الإشارات..

إشارة لقاء عابر أقرب لتصادم عنيف..

إشارة احتياج..

إشارة اهتمام وحماية..

إشارة قُرب غير مبرر..

وإشارة بكلمة متهورة من فهم صديقة حالمة..

"الحب حلو"..

أي حب وأي حلاوة وهي من يومها تتحاشى لقائه!..

وكأن توصيف ما يحدث، أو وضع تلك المشاعر بخانتها الصحيحة أرعبها..
فأجادت الهرب..

وساعدها انتهاء العام الدراسي واختبارات خاضتها فشغلت ذهنها عن أفكار لا تمت لها بصلة..

هبطت الدرج بحيوية لتقابلها أمها ببسمة:

- رايحة الكلية!..

اقتربت بضمة وتحية صباح توازي بسمة واثقة:

- أنا عارفة النتيجة من غير ما أشوفها، بس لازم نوثقها رسمي..

ربتت "دينا" على وجنتها بتأنيب:

- حلوة الثقة دي، بس عارفة لو...

- من غير لو يا دودو، أمال فين فهد بيه!..

أشارت خلفها بحركة مبهمة فهمتها فهرولت إليه تعرف طريقها، تذهب حيث يجلس كعادته كل صباح بشرفة المنزل المطلة على الحديقة، جوار كوب قهوة خفيفة السكر وجريدة تسيطر على انتباهه لمدة ثلاثين دقيقة يتناول بإثرها الإفطار مع زوجته وأحيانًا تصحبهما ابنته..

عانقته من الخلف بضجتها المعتادة وقبلة الوجنة:

- أنا قلت أصبح قبل ما أمشي..

أمسك بيدها المحيطة بعنقه وربت فوقها:

- هاستناكِ لما ترجعي..

- الموضوع مفروغ منه..

نطقتها بزهو متدلل ليضحك في خفوت وقور:

- ماشي يا بنت الراجي.. يلا وما تتأخريش، اعزمي أمل على الغدا..

تحركت مغادرة بخطوات شبه راكضة:

- هتيجي من غير عزومة..

تبعها بعينيه بفخر.. ثوان وشعر بكف زوجته أعلى كتفه، رفع ناظريه إليها ليجدها تلاحقها بنظرتها القلقة التي لا تختفي أبدًا:

- مندفعة..

- قوية..

همس بها يمنع عنها أفكارها المحصورة دومًا في..

الخوف!..

لم تصل الصفتان لمسامعها وإن طابقتا الموصوف.. هي تلك الصلبة التي تخطف ما تريد من بين أنياب القدر بعنفوان..

وصلت لحرم الجامعة ودون وعي بحث بصرها عنه!..

مر أكثر من شهر على آخر مرة سقطت عيناها بمحيط حضوره، آخر يوم بامتحانات فرقتها، أوقفها.. بل قطع طريقها بتصميم غريب، ابتسم وأهداها ببسمته ارتباكًا تمقته، سألها عن أدائها وردت في شبه شرود.. دعا لها بتوفيق وهي دعت أن يختفي من أمامها وحسب!..

وفعل..

بضع كلمات أخرى لم تنتبه لفحواها ورحل، ومع رحيله اشتاقته ولعنته ثم اعترفت أن ما تشعر به..

ليس "حلوًا" على الإطلاق!..

والآن ها هي ذي تفتش عنه ولم تكن تدرك أنها محط نظره ومحل اهتمامه منذ وطأت قدماها المبنى.. تبعها، خطوة تالية ستجعله يتنفسها كما يتوق بهاته اللحظة، خطوة منع نفسه عنها كونها خارج حدود كل ما هو مشروع..

وضجت مسامعها بهمسة..

همسة تحمل صوته واسمها، استدارت بشبه لهفة التقطتها عيناه فابتسم:

- إيه الأخبار؟!..

هكذا!..

دون مقدمات، دون تحية أو سؤال.. وياله من فظ..

وهي لا تقل عنه فظاظة:

- الأولى طبعا..

رفع حاجبًا بدا لها مستخفًا حد هجومها عليه بحدة:

- إيه؟!.. مستغرب؟..

- لا.. متوقع..

- مش فاهمة!..

- غرام دايما الأولى..

رنين اسمها كان مختلفًا، ولأول وهلة انتبهت أنه بنبرته العميقة ونطقه البطيء.. مميز!..

- بتتريق!..

كانت غاضبة بينما أراد شيئًا فبحث عنه:

- لأ.. واثق..

هو يهديها الخجل وهي تهديه نشوة امتلاك حُمرته فوق وجنتيها..

وتلك باتت متعته الخاصة جدًا..

وقتها باغتها بقرار بقائه حولها.. ربما يخبرها ببساطة أنه لأجلها، وحدها سبب وجوده وقبوله متخليًا عما أراد من قبل:

- هابقى معيدك السنة الجاية..

تغضن جبينها فأخبرتها مقلتاه بكل يسر دون حواجز..

"نعم.. أنتِ السبب"..

ولثاني مرة يربكها في لحظة..

بوقفة واحدة ولقاء قصير، ترك بصمته بكيانها قرب نهايته كعادته بإشارة جديدة ترفض تتبعها كمثيلاتها:

- مبسوط إني هاشوفك تاني..

وبعدما تخطينا مرحلة البداية..

أليس الأجمل من البدايات؛ سحر استكشاف ما يليها ببطء!..

***

نحن من نبني أوثان مخاوفنا ثم نتبتل في محرابها.. نشيد لها مقامًا مقدسًا ونهبها مكانة لا تُمس!..

نتعايش مع وهم حقيقتها دون أن نلامسه بالفعل، ونؤمن أنها ستلتهمنا كما الوحش أو النار فنخسر لذة الحاضر ونغيب برعب الغد..

ابنتها تفعلها بقصد أو بدون، وهي قلقة..

شقيقتها تطمئنها لكن قلبها لا يصدق:

- مش فاهمة بتعمل في نفسها كده ليه!..

- أنا مقدرة شعورها..

التفتت إليها بعدما تابعت رحيل ابنتها الواجم:

- لا يا لميا.. أنتِ صبرتِ سنين، إنما هي بتقضي على فرحتها بإيدها وهي حتى ما كملتش سنة..

ربتت أختها على كتفها برقة:

- بس برده دورت قبل السنين دي..

استعادت ذكرى وجع مرت به وانتهى لكنه يلسع روحها بسوطه وإن تخطته:

- ولو هي صبرت تعرف منين إنه هيصبر؟!..

- لأ.. نزار بيحبها..

تعترض فتنال نظرة عاتبة ويفترسها شيء من قلق:

- مش عارفة يا لميا.. أنا خايفة عليها..

- هو جوزها كلمك!..

- لا خالص، بالعكس.. متفهم قوي وبيحتويها بس كل حاجة لها حد..

نالت تربيتة أخرى أكثر حنانًا وهي تضع فصل الختام:

- اعذريها، مش سهل عليها تعرف إنها خسرت ابنها من قبل ما تحس بوجوده..

هي تتفهم..

هي أمها، تعلم وتشعر وتقدر وخسرت ما هو أكثر.. بل كادت بيدها تضيع العاشق الصبور وابنتها تسير على خطاها كأنما هي حماقة انتقلت إليها في جيناتها منها..

ويالها من حسرة..

نهضت "لمياء" تنوي الرحيل:

- هامشي أنا بقى، هو آسر لسه فوق!..

رمقتها بنظرة تائهة تتشبث بوجودها:

- قاعد مع مروان وأنس.. ما تخليكي معايا شوية..

نبض قلبها بأمومة.. العمر يمضي، نكبر ونزداد حكمة.. يختبرنا الواقع بقسوته فنسقط ونستقيم، نهرب ونواجه.. وتظل شقيقتها هي ابنتها الأولى!

عادت تجاورها بعين حانية ومواساة وفحوى حديث مختلف علّها تشغل بالها عن طفلتها وذاك الخوف القابع بركن مظلم بأعماقها يتربص بها..

وفي الأعلى كان المشاغب يتنمر على الجاد ويهزمه بشقاوة عابثة في لعبة "بلاي ستيشن" رافعًا قبضته بظفر:

- أيوة بقى.. دارسي انهزم يا مينز..

لكمه "مروان" بشيء من عنف تأوه له فنهض يطرحه على الأريكة ويهدده برد اللكمة:

- يا بني أنت فاكر نفسك إيدك خفيفة؟!.. يخربيت هزار البوابين..

والآخر دفعه فأسقطه أرضًا برفعة حاجب:

- ما تبدأش حاجة أنت مش قدها بس..

نال من شفتي "آسر" التواءً مستخفًا انطلقت له ضحكة من المقابل لهما:

- على فكرة باين عليكم أنتم الاتنين قوي..

التفتا له سويًا فأشار للأكبر:

- الحكاية فيها تاء تأنيث..

وتحركت سبابته نحو المشاكس وبعينه نظرة هروب:

- وتاء تأنيث برده بس من زاوية تانية..

أشار له الأصغر بسخرية:

- والله نصيحة يا أبو الأنس، سيبك من التخصص بتاع الطب النفسي ده.. وخليك في جو شيرلوك هولمز، لايق عليك أكتر.. وعليَّ دور واطسون.

كعادته "مروان" لم يصدِّق على ما قال أو ينكره، اكتفى ببسمة غامضة ونظرة أكثر غموضًا وتجاهُل!..

- لسه بدري على التخصص يا آسر، بس الحكاية واضحة..

وتحدى الصامت بإشارة ثانية:

- هو راجع الجامعة بعد ما كان ناوي يقدم في امتحان الخارجية، وتحسه منتعش بشكل غريب ولا إيه رأيك!..

تقمص ابن الخال الدور فاعتدل يميل برأسه ويدقق في ملامح "مروان" بشفاه ممطوطة:

- إمممم.. تصدق معاك حق..

- وأنت في حاجة مضايقاك ومش عارف تتكلم عنها..

انعقد حاجباه..

فتلك ضربة مباشرة غير متوقعة أصابت الهدف!..

- رغم إنها مش عادتك..

تخطى "آسر" الموقف باستقامة وهجوم غير اتجاهه نحو "أنس" متغاضيًا عما ذكر:

- مروان.. قوم يا بني الموضوع بقى كرومبو خالص..

وإن تجاهل واحد وهرب آخر.. تبقى الحقيقة بازغة بأعماق كل منهما حتى لو استترت وراء ضحكة مصطنعة، أو تخبط توارى خلف عناد!..

***

نحن نلعن مخاوفنا ثم نتمسك بها..

نهرب منها بعدها نتوقف عن الركض ونلقي بأرواحنا بين أحضانها..

نرتعب، نهلع.. فنخسر وتتجسد هي من عالم الوهم لحقيقة نعايشها كفخٍ محكمٍ لا نجاة منه!..

وهي فعلتها، بيسر فعلتها..

بعد قرارها الأخير بزيارة طبيب واستجابته برفق اعتادته معه؛ علمت أن رحمها لن يحمل طفلًا كباقي النسوة..

رحمها أضعف من قوة كتلك، وقلبها أقوى من كابوسٍ كذاك..

ينقصها الصبر وحسب..

ينقصها ولا تمتلك منه ذرة!..

حتى مع تفهمه وحضوره واهتمامه الذي انقلب على رأسها اليوم حينما عاد للمنزل بهدية، ضمها إليه بحب خالص وهمس لها أنه هنا:

- وحشتيني..

استدارت بين ذراعيه فقبَّل جبينها:

- إيه رأيك نتغدى برا النهاردة!..

- ماليش نفس أخرج..

ابتسم وحاول مجددًا:

- طيب.. ناكل من إيدك!.. أنا رجعت مخصوص عشان نتغدى سوا..

غادرت ضمته نحو المطبخ بخطى رتيبة:

- حاضر..

تتحرك بآلية، تنتقل من البراد للموقد..

تقلب طعامًا مبهمًا في إناء.. تتلمس بطنها وتشرد وعيناه لا تتركان فوضى روحها وهزة كيانها.. بعد وقت غير محسوب اجتمعا حول طاولة الطعام.. تعبث بطبقها ويغص هو بلقمته حتى ملّ.. مد يده يحيط بكفها:

- ملك..

رفعت إليه بصرها بتيه:

- ربنا هيعوضنا خير بس...

- بس إيه!..

باهتة بنبرة لمس بها هجومًا لم يعيه، حتى نظرة الشك بعينيها لا يدرك مغزاها:

- العلاج والصبر يا ملك..

تركت المائدة بحدة:

- أنت مستحيل تحس باحساسي، مش أنت اللي شيلته جواك وضيعته لأن جسمك مش متحمل جنين، مش أنت اللي ما لحقتش تعرف بوجوده إلا لما الدكتور فاجئك بيه وبعد إيه!.. بعد ما خسرته..

تبعها يضم ظهرها إليه:

- وبعدين يا ملك!..

انتفضت مبتعدة وعلت نبرتها بلهجة قاسية:

- ولا قبلين..

تأفف بغضب لطالما كبته معها.. زفروأبعد يديه عنها..

تحرك بخطوات مهرولة وذكر شيئًا عن فقدان شهيته ثم رحل صافقًا الباب خلفه بعنف أجفلها..

تبعته هي خروجًا نحو منزل والديها وعاد هو للعمل بصداع مزعج وضيق يعلو وجهه بوضوح..

استقبلته مساعدته باهتمام:

- مالك يا مستر نزار!..

استقر بمقعده بعد تنهيدة طويلة يدعك جبهته بألم:

- صداع يا ميسون..

اقتربت تحنو بنظرة، تدلل بأخرى وتزلل عقبة بتالية:

- هاعملك قهوتك وأجيبلك مسكن..

بادلها نظرتها بسكون فمنحته بسمة واعدة وتركته، عندما عادت بقهوته ارتفع رنين الهاتف فوق مكتبها، أجابته ووجدتها الزوجة التي سرقت حلمها:

- آسفة يا مدام ملك، مستر نزار مشغول جدا ومنبه عليَّ ممنوع أي مكالمات، حضرتك لو الموضوع مهم تقدري تتصلي بيه على الموبايل..

كادت تخبرها أنها فعلت لكنه لا يجيب!..

تراجعت ومزيد من الشك ينهشها..

خوفها يتضاعف بعد نصيحة أمها وتوبيخها، أيمكن أن تستحوذ عليه أخرى!..

لن تمنحه طفله حتى وإن كان الأمر عسيرًا فقط وليس المستحيل، تهرب من قربه واحتوائه، وتبخل عليه بعطية عاطفتها كما اعتاد..

ارتمت على فراشها بضياع، كررت الاتصال وحازت ردًا مختلفًا هاته المرة..

الهاتف مغلق!..

أما عنده فقد دلف صديقه لمكتبه يتأمل وجومه وصمته بعين ناقدة مازحه بعدها:

- إيه!.. العسل خلص بدري ولا إيه!..

الجواب كان نظرة زاجرة تنطق بثلاث كلمات دون صوت..

"مش فايق لك"

- لا ده الموضوع كبير بقى، طب بأقولك.. إيه رأيك في سهرة من بتوع زمان؟..

واضطجع على أريكة المكان بغمزة عابثة:

- بدل الطياري اللي ما بقاش ورانا غيره من ساعة ما اتجوزت!..

لم يهتم بهاتف فرغت بطاريته، وتجاهل رسالة تمنحها طمأنة عنه أو عن مكان وجوده..

وبات الصمت علامة موافقة مؤكدة..

أما النظرة فجمعت بين الغضب، الشرود.. والعناد!..

(١٢)

عندما تفوق خيبة الأمل..

أسوأ التوقعات..

فنتشبث بالوهم..

نمد أيدينا نحو السراب..

ونفتش بيأس عن معجزة..

تعيد لعالمنا التوازن!..

دومًا الحقيقة جرحها مليء بالقيح..

مؤلم، مشوه.. يزكم الأنوف!..

إلى آخر الحياة نبحث عنها كأنما ننبش عن مصير لا ندرك أنه قد يحمل معه النهاية غير المتوقعة!..

نصطدم بها، ننصدم لها.. نخاف فنجبن ونتراجع أو نخطو نحوها بحماقة..

لا فارق..

التتمة واحدة والختام آتٍ: نحن من فتحنا القبر لذا فعفونة المدفون فيه على عاتقنا ولا مهرب من المواجهة..

هي اختارت..

عبثت بقفير النحل، نالت اللدغ وبعده قررت الابتعاد، ورغم أن قرارها تبعاته ليست بالهينة عليها أو على والديها فهي أصرت عليه بعزم لا يلين..

ستعود لمسقط رأسها..

ستقابل العم الذي لا تعلم كيف يبدو..

ستعيش بكنفه لفترة تعنتًا ضد إرادة والدها.. وللدقة الخال المُربِي..

وترى العالم من زاوية أخرى لا تتهم أمها الراحلة بالعهر، بل تحلل خطأها وتبيحه كحرية شخصية..

وحتى مع ملامح "علا" -تلك التي ربت واعتنت واهتمت- الواهنة الواجمة قرب الرحيل لم تتراجع، سارت بطريقها المختار مسبقًا وإن ناوش قلبها نزف أو جرحت عينيها عبرة..

أراحت رأسها لظهر مقعدها تراقب إقلاع الطائرة بعيدًا عن أرض وطن لم تعرف غيره ولم تعِش بسواه.. إلى جوارها "مراد" بشرود حائر وقلق يخط ملامحه، يتذكر وصية زوجته، ويستعيد لحظات الفراق الأخيرة وعقله يبيح له كل تصور مخيف وكل فكرة مثيرة للذعر..

"خلي بالك منها يا مراد.. إوعى تسمع كلامها وتسيبها وترجع، تفضل هناك لحد ما هي ترجع معاك"..

ودون حاجة لكلماتها كان يدرك أن هذا هو ما سيفعله..

فكيف يتركها ويعود!..

حتى لو ببيت عم لكنها لم تره من قبل، لم تعاشره وهو لا يعرفها إلا من صورة باهتة..

مثله شردت هي في حديثها الأخير مع والدتها، تغمض عينيها مخفية لمعة الألم:

- برده مصممة تسافري!..

- لازم أعرف أصلي..

- وهو أصلك عمك وبس يا تيا؟!..

- أنا ليَّ جدور، فروع.. ما ينفعش واحد فيهم يغني عن التاني..

ودارت حول نفسها ببقايا غضب تتشبث به في مواجهة حنان يضعفها:

- مش من حق حد يحرمني أعرف أهلي..

عاتبتها "علا" بنظرة أجادت تجاهلها، بل تعمدته ولم تقاوم الضمة والدفء والتعلق بصدرها بينما تحتويها بين ذراعيها بقوة قاربت القسوة كأنها ستفقدها:

- هاستناكِ..

لم تعلق.. مررت الكلمة والموقف ولوم الأعين وغادرت بحزم فضح زيفه ارتباك خطواتها واختلاج جفنيها..

أفاقت من تيهها على إشارة ربط أحزمة الأمان، وتحية من قائد الطائرة بسلامة الوصول، لا تعلم أوصلت سالمة بالفعل، أم أنها تركت خلفها قطعة منها ليست بدم أولحم!..

فقط خلاصة مشاعرلم تحيَ غيرها طوال سنوات عمرها المعدودة..

بعد وقت لم يطُل، سارت بها السيارة بحي بريستول العريق بلندن، تطالع الشوارع من نافذتها، تتأمل رسومات "الجرافيتي" التي تغرقه، وتشعر بغربة ما تطرق أضلعها..

غربة تضاءلت بعض الشيء عندما ترجلت أمام منزل خشبي عتيق شبه متواضع، على بابه وقف رجل لمحت به بقايا وسامة لم يمحُها الزمن بالكلية..

بابتسامة فضولية لامسها شيء من حنان وهمسة طغى عليها التساؤل دون حاجة فعلية له:

- تيا!..

واجهته بتوتر، لم تجد بحلقها صوتًا يجيبه فصمتت تتأمله وأبيها يرد بدلًا عنها بانجليزية أنيقة للغاية:

- نعم سيد برادفورد.. هذه هي تيا..

رحب به الرجل بشيء من تحفظ لم يخلُ من ترقب غير مفهوم.. بعدها مد يده نحوها بمصافحة منتظرة خطوتها، خطوة ترددت فيها قليلًا ثم قامت بها وهي تعانق بأصابعها يده ومقلتاها لا تتركان وجهه للحظة:

- أهلًا بك صغيرتي.. أنتِ تشبهين والدتك كثيرًا..

ولم تقاوم السؤال المندفع منها بلهفة أوجعت قلب الواقف خلفها:

- هل كنت تعرفها!.. ألديك صورة لها أو لوالدي!..

ابتسم الرجل وأشار بيده يدعوهما للدخول:

- بالطبع عزيزتي، هيا لتقابلي أبناء عمك وبعدها لنا حديث طويل..

مرت لحظات طافت بها بتأمل مستحٍ حول أركان المنزل قبل أن يثير انتباهها جلبة أتت من ناحية درج خشبي بسيط يقود لطابق علوي وعاصفة صغيرة تقاربها سنًا تهبط فوقه بسرعة نحوها:

- أهذه ابنة العم آلان!..

هز والدها رأسه بإيجاب فدنت منها بشبه حذر:

- مرحبًا.. أنا باتريشيا، يمكنك القول أنني جوهرة تاج هذا البيت، ودعكِ من أختي فهي البلهاء الكبرى..

قبل أن تبتسم لترحيب الفتاة الودود على غير عادة الانجليز حجب بسمتها الصوت من أعلى:

- تيش أيتها الحمقاء..

بعدها دخلت لمجال بصرها صهباء تكبر الأولى سنًا، ببشرة يزينها نمش مبعثر على وجنتيها وأنفها، وإن لم يخفِ جمال ملامحها وخضرة عينيها الداكنة.. واجهتها بنظرة بدا فيها شيء من تعالٍ قبل أن تصطنع ابتسامة باردة:

- مرحبًا بكِ في لندن تيا.. أنا أنابيل، الأخت الكبري..

ابتسمت بتوتر..

تشعر بحيرة، الوالد صامت مراقب.. والعم يبتسم بتحفظ، فتاة ودود وأخرى باردة وهي لا تدري كيف تتعاطى مع الموقف البتة!..

موقف اقتحمه حضور ذكوري من شاب يشبه "أنابيل" للغاية وإن كانت عيناه لطيفتان بود محبب..

اقترب بخطوات واسعة، يتداخل حاجبًا شقيقته بعناق مباغت وقبلة على الوجنة انعقد لهما حاجبا "مراد" وأخذت الصدمة خلالهما "تيا" فتجمدت بين ذراعيه:

- يا إلهي.. أنتِ كما يروي أبي، شقراء فاتنة بعينين كموج البحر الغاضب..

ابتعد عنها ببساطة كأنما لم يتجاوز مساحتها الخاصة بجهل مردفًا:

- أنا براندون، توأم هذه المتعالية الصهباء..

ومال نحوها بغمزة شقية مرحبة:

- أهلًا بك في عاصمة الضباب حلوتي..

ترحيبًا محيرًا غريبًا لاقته..

موقفًا لم تظن أنها قد تسقط بهوته أبدًا.. لكنه قدرها وقد قرر عنها بينما هي فقط سايرته..

تخشى الغد.. تبحث عن أرضٍ صلبة تتحمل وقوفها عليها..

وتفتش عن جذور اندفنت دون أن تدري عنها شيئًا سوى بصدفة جمعت بين أشلائها وجع من تحب..

وإن كانت الحقيقة تولد من ألم؛ فالغد يولد من أمسٍ مررنا عليه ويومٍ صنعناه بأيدينا!..

***

الحب ورطة..

لا تدرك أنك علقت ببراثنها إلا إثر انطباق الفخ على قلبك..

حينها يصعب التملص من بين فكيه وقد يستحيل لأن الخافق يعاند، والقدر أخذ خطوته ولم يعُد هناك من رجعة!..

ورطة لم تعِ أنها كذلك إلا عندما تقدم لخطبتها بصحبة والده.. وزوجة والده!..

زوجته التي علمت أنها ليست أمه، وأن ابنتها "مريم" ليست شقيقته كذلك.. بل فقط يجمع بين أبويهما عقد زواج تكونت بناءً عليه علاقة أخوية تربطهما معًا..

قبل قليل زيلت بتوقيعها عقد زواجها الخاص تؤكد به على ميثاق عشق وامتلاك..

والاسم.. "جواد عبد الرحمن الشهاوي"..

اسمًا لم يمر بأذنيها سوى منذ أيام ليست بالطويلة عندما خاطب والدها والده باسم يغاير ما تعرفه مسبقًا عن اسم صديقتها..

"مريم حسين عياد"..

وأتت الصدمة وباغتتها الحقيقة..

عندما استغربت.. توتر قلبها وبحثت عن مخرج من حفرة سقطت بها دون وعي كأن يكونوا أخوة من الأم وحسب؛ فاجأها حديث أمها بعد رحيل أسرته حين بدت مندهشة من أنها لا تعلم بالفعل:

- إزاي يا حبيبتي؟.. هو أنتِ ما تعرفيش؟!..

- أعرف إيه بالظبط يا ماما؟..

- مريم بنت مرات أبو جواد.. مش أخته أصلا..

أسقط بيدها.. ووضحت الصورة المشوشة بناظريها منذ البدء..

ضيق ملامحها في الفترة الأخيرة..

تباعدها المفاجئ، غيابها عن أهم المناسبات التي تقف فيها الصديقة مع صديقتها.. بل مع حبيبة أخيها!..

وعندما واجهته بسؤال واجم وعين غاضبة ابتسم بدهشة:

- أنا ماكنتش أعرف إنك ما تعرفيش..

وتناول كفها بين أصابع حازمة تعاند رفضها وتراجعها:

- وهو كان المفروض أسأل عن حاجة زي دي؟!..

تظاهر بحزن ومطة شفاه مشاكسة:

- كنت فاكرِك عارفة عني كل حاجة، على الأقل اسمي بالكامل!..

- ما ترميش الغلط عليَّ..

- شذى!..

وبدا بنبرته حدة ألجمت اندفاع غضبها فرفعت عينيها إليه:

- انا ما مانعتش الإجابة على أي سؤال عندك، يعني غضبك مالوش داعي..

سكنت تراه على حق، هي افترضت كونهما أشقاء وبالتالي السؤال لم يكن بمحله، لكن كان من واجبه هو أن يخبرها مادام قد قدم لها عرضًا بالزواج..

وصمتت على مضض حتى اليوم..

اليوم وجدت صديقتها صامتة، جامدة، واجمة.. ترمق من بات زوجها بنظرات متحسرة موحية بخسارة، تمتلئ بشجن غير مبرر وحزن لم تجد له معنى..

وتهديها هي نظرات باردة حينًا، ساخطة بحين آخر، نظرات بها اتهام مبهم، وغضب مكبوت..

تأجج حنقها من جديد، اشتعلت غيرتها وأساءت الظن تهاجمه بشكوكها ليحجمها بضيق اعتلى وجهه ونبرته:

- هو ده موضوع مناسب لأول مرة لينا نخرج مع بعض بعد كتب كتابنا!..

توترت، ارتبكت وخجلت وشعرت أنها تعنفه على شكها بأمر لم ينتبه هو إليه، لكن الموقف برمته مثير للحنق والريبة:

- أنا بس مستغربة، مش فاهمة معنى سكوتها ولا نظراتها!..

- أنا ماليش في شغل البنات ده يا شذى.. غير كده..

وقرَّب المسافة بينهما أكثر ماحيًا ترددها، دنا يبيح لنفسه حق اللمسة والهمسة والجرأة:

- ده مش موضوع نتكلم فيه دلوقتِ..

- بس..

وبترًا كان من حقه مع مسُّ أنامله لثغرها المرتجف لتعلن وجنتاها عن خجل شهي انتزع منه بسمة مستمتعة:

- بس.. مبروك عليَّ..

هربت بعينيها، بوجهها، برأسها، بجسدها.. ابتعدت تنأى عن ملامسته التي اجتاحت قلبها بنبضة عكس اتجاه نبضاته مع كلمة أخيرة أنهى بها جدالًا لا يراه ذا أهمية بحق ذكر امتلك أنثاه منذ وقت لم يُحسب بعد:

- كل واحدة فيكم غلاوتها مختلفة، هي أختي..

عندما عادت بناظريها إليه وفي ظلمة وضيق سيارته؛ تحكم بذقنها بقبضة حازمة تجبرها على الانصياع:

- وأنتِ حبيبتي..

ثم اقتنص شفتيها بقبلة أولى..

قبلة ذكرتها بحقيقة واحدة حدثت للتو ونسيتها هي في خضم انفعال أحمق..

حقيقة.. أنها باتت زوجته!..

***

الحب مخاطرة غير مدروسة..

سير على حبل رفيع ومع أول هفوة، فقدان توازن.. يحدث السقوط، والسقوط فيه قاتل..

طرقة على الضلوعِ لتفتح بابًا ليس من السهل إغلاقه..

وعندما نقابل ذاك الباب المفتوح نفقد السيطرة.. نخسر التعقل، وينطلق مارد العشق من عقاله محطمًا سد التماسك!..

ماردها انطلق بتصريح مباغت في لحظة تهور رعناء، استعادته محتجزًا بعدها بقمقمه وإن ظل يهاجم خافقها بتحدٍ سعيًا للخروج، للفرار..

إدعاء الصداقة وحسب عقب نطق لفظ الحب من بين شفتيها لم يكن بالأمر الهين، وإن أخبرته أنها ستمتلكه، ستعاند رفضه وتنتصر بحرب توقن فيها من خسارة طرفها الآخر كونه يقتات على الوهم ويحيا متطلعًا نحو سراب..

حتى وإن فعلت ذلك يظل بداخلها شيء ما يقلقها ويثير بنفسها بعضًا من خوف!..

خلال الفترة الماضية كان معها صديقها القديم مجددًا.. زادت اللقاءات عن حدها السابق والذي أجاد فيه الهروب من صحبتها بل والرفقاء كلهم، خرج من قوقعته لمسافة تراها قصيرة لكنها تحمل معها الأمل..

الأمل أن تمتلك قلبه وكيانه كما فعل معها.. الأمل أن تخترق شرنقة ماضيه الذي سجن نفسه خلف قضبانه بإرادته الحرة..

الأمل أن يصبح لها!..

لقد عادت بالأمس فقط من رحلة عمل طالت لأسبوعين، افتقدته والشوق يسابق خطواتها نحو منزل جده وصدمها أنه بعمله.. نوبة ليلية علمت بعدها أن صباحه انشغل بالمزيد منه..

هاتفه مغلق وهي كانت تبحث عن مفاجأة بعودتها قبل أيام من الفترة المحددة بالفعل، لذا ها هي ذي تطرق الباب وتنتظر..

فقط تتمنى ألا تلقي بنفسها بين ذراعيه كما اعتادت وإن كانت تحترق لضمته..

فتح لها الجد فابتسمت بوجهه بحميمية:

- هل عاد!..

بادلها الرجل البسمة بعتاب لطيف:

- أين التحية يا فتاة؟!..

منحت وجنته المتغضنة قبلة جوار ضحكة خافتة ولمعة عين مشتاقة:

- عذرًا جدي.. أفتقده بشدة..

أفسح لها الطريق محافظًا على وُد ملامحه وأشار للأعلى:

- عاد منذ ساعة، لكنه نائم.. كان يبدو مرهقًا للغاية حتى أنه لم يتناول عشاءه..

- سنتناوله معًا إذًا..

وازت كلماتها ركض خطواتها فوق الدرج وصولًا لغرفته، لم تطرق بابه بل فتحته بهدوء، تسللت للداخل متخللة ببصرها الضوء الخافت بالمكان لتجده فوق فراشه بصدرٍ عارٍ وسروال منامة بسيط مضطجعًا في وضع بدا لها منهكًا..

اقتربت بتمهل تلتهم تفاصيله بعينيها.. تفاصيل لطالما عاثت بكيانها الفوضى!..

تقاطيعه المرهقة، شفاهه المزمومة بضمة شبه مستريحة، ذقنه النامية بعشوائية مثيرة، يده التي تعلو رأسه بينما الأخرى تجاور جسده.. أنفاسه المنتظمة دخولًا وخروجًا يدل على نوم عميق متعَب!..

انحنت جوار الفراش تتأمله بلهفة، مدت أناملها برقة تلامس وجهه وتسير على ملامحه ببطء، تغوص بها في خصلاته الطويلة الناعمة المشعثة ومن بين شفتيها ترتحل همسة حارة:

- افتقدتك حبيبي..

همسة تعلم أنها لن تصل لأذنيه، لمسة تدرك أنه لن يشعر بها.. لكن يكفيها أنها وجهتها إليه ولو دون رد!..

مررت يدها على منحنيات كتفيه ثم نادته.. عليها الآن أن تغوص ببحره الصافي الذي تهفو للغرق بين ارتفاعات موجه وانخفاضاتها..

لم يفِق فابتسمت بحنو ومالت بتردد تلثم فكه.. تتوهج عيناها بحب وشقاوة عابثة، ابتعدت بسرعة وكررت النداء بنبرة أعلى..

الرد أتاها صامتًا، توجست رُغم انتظام وهدوء أنفاسه فضغطت كفها تهزه برفق:

- جوزيف!..

أعادت الهمس باسمه ونبرتها شابها شيء من قلق!..

تلمست جبينه بكفها الأخرى بتوتر ففتح عينيه يرمقها بنظرة غامضة لم تفطن لمغزاها..

لكنها قابلته ببسمتها المرتاحة المطمئنة ونظرتها التائقة، راقبت تفاحة آدم خاصته تتحرك في ابتلاع عسير لريقه وبإثرها أطبق بكفه على أناملها فوق صدره..

فاجأها تسلل يده الثانية بنعومة لتغوص بخصلاتها وتطوق جيدها تمنعها الهرب، بل تجذبها إليه وقبل أن تتمم نطق حروف اسمه لمرة ثالثة مندهشة في محاولة لفهم ما يحدث أخرس شفتيها بقبلة..

ولحظة تجمدتها في ذهول بعدها..

بعدها انتصر الشغف!..

***

الحب اكتشاف مذهل، مخيف لا تدرك وجوده أحيانًا إلا عندما تصدح به رُغم أنف قلبك..

الحب غيرة مزعجة وشعور غير مريح تقدمه وتنال الحنق!..

والغيرة كانت تتآكله منذ أكثر من عشر دقائق..

بدأ عام دراسي جديد..

بات أستاذها وإن كانت عيناه تخصانها بنظرة لا يفهمها سواها، وتتجاهلها كذلك..

فازت باكتساح في انتخابات اتحاد الطلاب لمرة ثانية وها هي ذي أولى الرحلات التابعة للجنة التي اختارتها لذلك العام..

رحلة صيفية منظمة لسهل حشيش حيث المياه الفيروزية، المكان الأنيق.. والوجه الحسن كما تطرق لمسامعه قبل قليل من أحد زملائها يتحدث عنها هي..

احتدم غضبه ورمقه بنظرة ساخطة لم يرها..

نعم.. كانت آسرة بشكل يثير الضيق..

خصلات الشيكولاتة استطالت قليلًا، تركتها حرة تداعبها النسمات بفتنة مهلكة.. وغيومها بدت رائقة متوهجة بينما تتعامى عن محاصرته لها ببصره..

تضحك بعفوية وتزيح خصلة شاردة خلف أذنها، تشاكس صديقتها وتركض خلفها ترشها برذاذ الماء بشقاوة ساحرة..

دون وعي تألقت فوق شفتيه بسمة واحتفظ لنفسه بصورتها بين جفنيه.. غطى عينيه بمنظار شمسي ضخم واكتفى باستلقاء مستمتع فوق مقعد طويل على الشاطئ..

ضحكاتها تنعشه وإن حركت به غيرة غير محمودة بالمرة..

غيرة استعرت أكثر عندما تناهى لأذنيه حديث شبه خافت بين زميلها وصديقه:

- مزة ها..

- أنت هتقولي!..

- طب إيه؟!..

- إيه يا فتك؟!.. البت حالة مستعصية..

- مش عليك يا أسد، ولا هتقلب قدامها قطة..

وجد الثاني يستقيم بحنق طفولي:

- عيب عليك.. مستني اللحظة المناسبة بس، الفرسة دي بتاعتي..

وقبل أن يتحرك ثلاث خطوات كان يقطع طريقه رافعًا منظاره فوق رأسه، يهديه نظرة صامتة ظهرت رادعة كفاية ليبتسم بارتباك:

- إيه يا مستر!..

- اقعد مكانك يا معاذ..

والنظرة التالية أخبرته بقسوة أنه سمع كل حرف دار بينه وبين الأحمق الآخر..

تراجع بهدوء وهو التفت عنه بغيظ.. نحوها..

خطواته تجاهها ضربت الرمال بغضب، ومن خلفها ناداها بنبرة متحفظة شبه جادة:

- مش شايفة إنك مزوداها شوية!..

حدجته بعين اهتاجت بها العواصف فسَبَت عينيه:

- أفندم!.. مزودة إيه؟!..

شرد لحظة عاد بعدها بذات اللهجة التي لم تفهم لمَ هي محتدة عليها بلا سبب:

- الضحك والهزاروالجري اللي مالوش لازمة ده!..

نظرتها تلك المرة استدعت دهشة مصطنعة وضحكة ساخرة:

- بجد؟!.. هو إحنا جايين هنا عشان نقعد مربعين إيدينا ولا إيه!..

فتح فمه يعارضها لكنها بترت معارضته بحدة:

- بعدين أنت مش وصي عليَّ..

واقتربت خطوة تواجهه بعنفوانها:

- بأي حق تكلمني كده!..

- بحق إني...

والبتربات من نصيبه بهاته اللحظة..

هل يملك حق الجهر بمكنون قلب يحبو بدنيا العشق!..

يتهجأ أحرفه بعسر..

يتعثر في حفره وتفقده مطبات طريقه اتزانه مثيرة بكيانه الصلب كل خلل ممكن!..

تراجع..

خطوة وثانية وعيناها تتحديانه بنطق ما هو محرم.. بدت لثانية كأنها تطالبه بتصريح ما، انعقد حاجباه ووازت خطوات رحيله همسة أخيرة فظة رُغم كل شيء:

- في حدود لكل حاجة يا غرام..

همستها تبعته وإن لم تصل لأذنيه بحنق جاورها بين جفنيها وقبضة مضمومة ودت لو وجهتها لوجهه الوسيم بانفعالاته الغامضة دومًا..

"جبان!"..

تساءل قلبها:

"أكنتِ تودين منه اعترافًا بما ترفضينه أنت!"..

وردت بسخط:

"كنت عاوزاه شجاع بما فيه الكفاية "..

كلمتها أتت بمثابة تصديق على مشاعر لا تجد بها راحة لكنها فقط تجتاحها عنوة!..

بعد فجر اليوم التالي غادرت غرفتها، جافاها النوم فنالت منه مقتطفات متقطعة مرهقة، أخذتها خطوات شاردة نحو الشاطئ محدود الرواد وقت الشروق، بسروال قصير من الجينز الباهت وقميص فاتح فضفاض، خصلات طليقة بحرية وحيرة ترسم ملامحها..

جلست على الرمال تضم ركبتيها لصدرها وتستند بذقنها إليهما، تملؤها التساؤلات ومن بيده الجواب اكتفى بالهرب وقت المواجهة..

وسبَّته مجددًا..

"جبان"..

أغمضت عينيها تاركة للهواء ورائحة البحر إنعاش حواسها التائهة..

"بحق إني باغير عليكِ من كل حد وأي حد"..

همسته العميقة بثُقل اخترقت سكون لحظتها فتيبس جسدها كأنما توقف العالم عن دورانه بغتة..

"بحق إن جوايا مشاعر مش لاقي لها أي تفسير يقنعني"..

أكان صوته أقرب!..

"بحق إني كل ما بادور لها على اسم.."

صمتْ تعالت له نبضاتها..

"مش بالاقي غير حرفين كانوا أبعد ما يكون عن خيالي"..

فوق ثغرها وُلدت بسمة لا مدلول لها بينما يتمم هو همسه خلفها تمامًا كأنما جلس مقتربًا لتسمعه وحدها..

"بحق إني.. بحبك"..

ورُغم الانتفاضة التي غزت الكامن بين ضلوعها فقد لفَّت رأسها نحوه بعناد:

- كل ده ما يديكش حق تتحكم فيَّ أو تحدد لي طريقتي في التصرف..

لمح بسمتها فمد قبضة مضمومة يطرق رأسها:

- قلت لك.. بحبك على فكرة..

- سمعتك على فكرة..

- غرام..

- نعم يا مروان!..

- أنا هاقتلك في لحظة تاريخية قريب جدًا..

وضحكت لتجتاح عقله وتتركه هاربة لأفكارها ودقات خافقها التي تستصرخها النطق باعتراف مشابه..

اعتراف تتوق إليه.. وتهابه بذات الوقت!..

***

عندما تحدث المعجزة؛ ننسى ما عايشناه قبلها من خوف..

ومعجزتها حدثت بلا توقع رُغم التمني.. الترقب والانتظار!..

كانت تمسك بيدها آخر اختبار حملٍ قامت به قبل دقائق، اختبارًا أظهر أخيرًا وبعد صبر طال لأكثر من عامٍ كامل.. نتيجة إيجابية..

قلبها تراقص بصدرها بنبض غير متناسق..

هي تحمل بأحشائها طفل حبيبها..

حبيبها الذي قاسى معها الكثير خلال العام المنصرم، فكان يحتويها بحنوه تارة، يغضب تارة.. وثالثة يَمَل فيرحل عنها!..

والآن ها هو الرباط الذي لن ينفصم بينهما أبدًا..

لم تستطع الصبر فالتقطت هاتفها تحادثه، وقبل أن يفتح الخط بثوان تراجعت عن قرارها..

فالخبر يستحق انتظارًا.. يستحق طريقة خاصة في إخباره عنه..

يستحق مفاجأة!..

- معلش يا ملك.. هاتأخر شوية في الشغل، صفقة مهمة هاسهر عليها..

ألجمها الموقف فتجمدت للحظة..

عاودتها أوهامها التي لازمتها خلال الأشهر الأخيرة.. تسللت إليها بخبث ماكر شكوكها التي أنهكتها ولم تتركها لحالها..

شكوكًا بأن هناك أخرى تشاركها به!..

بذلت محاولة ثانية متشبثة بأذيال النكران:

- أيوة يا حبيبي.. بس في موضوع مهم كنت عاوزاك فيه!..

- طيب استنيني لما أرجع، هاحاول ما اتأخرش..

وألقى تحية ختامية أغلق بعدها الخط، وفتح مقبرة الريبة بنفسها حتى لفحها فساد أفكارها وقتامة ظلمتها..

نهضت بعين تائهة ثم اتخذت القرار..

ارتدت ثيابها بعجالة.. النية اقتحام مباغت لخلوة ادعاها عملًا بظاهرها، وفي الباطن الذي تراه بمستنقع خيالها الضحل..

تلبَّسَ بخيانة!..

وصلت لمقر الشركة والهدوء يعم المكان في ذاك الوقت عقب انتهاء الدوام.. على مكتب مساعدته لم تجد الفتاة فزاد جبل ظنونها ارتفاعًا..

أهي معه بالداخل؟!..

خطت بتلكؤ خائف نحو بابه، وقفت أمامه تمد أناملها نحو مقبضه ثم تعود فتسحبها..

تطويها بانقباض مؤلم، وتفردها لتلامس المقبض بتوتر..

تبتعد..

تستدير بجسدها وتتراجع خطوة..

ثم تعود بنصف لفتة من رأسها لتنظر نحو مكتبه كأنما تنتظرها أفعى مميتة هناك..

أوربما هي حقيقة..

حقيقة ستفقد عالمها توازنه بالكامل!..

ثلاث دقائق وبضع ثوان أعلنت مرورها ساعة حائط مجاورة، دقائق طالت كأبد حتى استجمعت شجاعتها ومدت يدها تدير المقبض بحدة وسرعة..

ولم يستجِب!..

أعادت الكرة ونالت الرفض، تحولت حركاتها لعشوائية عنيفة جوار نداءٍ ساخط باسمه:

- نزار..

طرقات متتالية تصاعد إيقاعها ونبوءة بكارثة وشيكة تعتصر فؤادها..

- نزار.. افتح الباب!..

مرت دقيقة رابعة قبل أن تقابلها عيناه..

بتجهم ودهشة لم ترها سوى مفتعلة، بموازاة لهجة قاسية تمر بأذنيها حاملة نبرته للمرة الأولى:

- ملك!.. بتعملي إيه هنا؟!..

دفعته ومعه دفعت بمخاوفها لأعماق جحيم خطت بنفسها وبكامل إرادتها بين ألسنة لهبه المستعر:

- مين معاك؟!..

- أنتِ اتجننتِ؟!..

دارت بالمكان بالفعل كالمجنونة، تفتش هنا وهناك..

خلف الستار الضخم المغلق، أسفل المكتب.. بركن جانبي ضيق، وبين مقاعد طاولة اجتماعات عريضة..

تحركت بهوس والخبال يرسم نفسه فوق وجهها.. عيناها زائغتان ومظهره غير المهندم يجذب عينيها..

قميص بأزرار نصف مغلقة، شعر مبعثر، وعينان بهما وهج لم تفهمه..

بل فهمته!..

وهجٌ دومًا ما زيَّن مقلتيه بعد لحظاتهما الحميمة معًا!..

- مين معاك؟!..

كررت بهيستيريا وخطت نحو حمام غرفة المكتب بتعثر:

- خبيتها فين؟!..

قرب بابه تنفست بصعوبة:

- هناك!..

وفتحته جوار سؤاله شبه الصارخ:

- هي مين بالظبط!.. أنتِ بتخرفي يا ملك!..

لكن لم تكن هناك أخرى..

بل صديقه "باسم" بمظهر يقارب مظهره..

وبسمة متوترة ونظرة تتعلق بالواقف خلفها..

- قلت لك أنا هاتأخر عندي شغل، أنا وباسم سهرانين النهاردة على ملف صفقة مهمة.. أنتِ أكيد اتجننتِ..

طافت بناظريها بالمكان دون أن تجد مصدر الخيانة المزعومة..

وهنت نبرتها فسألت الصديق بضعف:

- هي فين يا باسم!.. خبيتوها فين!..

والآخر زاد ارتباكه:

- هي مين يا ملك!.. زي ما نزار قالك إحنا كنا بنشتغل..

لم تحتمل النكران أكثر فصاحت بهما:

- أنتوا بتكدبوا عليَّ..

ثم أشارت بسبابتها نحو زوجها:

- ليه لبسك مبهدل كده وشكلك مش طبيعي؟!..

- لاااا أنتِ زودتيها بجد؛ اتفضلي قدامي على البيت نتفاهم هناك.. كفاية فضايح..

- لأ..

بصراخ محتد وقلبها تتسارع نبضاته لحد مؤلم بصدرها:

- هي فين!..

عادت تدور بجنون في المكان:

- خبيتوها فين!..

وواجهت المتوتر بنظرات شابها شيء من غيظ تعلو عينيه:

- فين يا باسم؟!.. أنت هتقولي مش كده!..

وكانت الجذبة الخشنة من قبضة زوجها هي التالية:

- ملك!..

اصطدمت بصدره فغاص بمقلتيها بنظرة قاسية:

- كفاية قوي لحد كده..

دفعته بعنف بينما تردد بهذيان:

- هي فين!..

"كفاية يا ملك"..

كانت تلك زاعقة من الصديق الصامت ليستحوذ على انتباهها الحائر:

- مافيش ست..

واستدار يلاقي نظر زوجها متغضن الجبين أعلى نظرة زاجرة:

- مافيش غيري أنا وهو بس..

تقدم بعدها منها خطوة متحدية بعناد:

- عاوزة تعرفي بيخونك مع مين!.. معايا..

وازت كلماته إشارة لصدره، تلاها تجهم وانعقاد حاجبين ثم تراجُع وزمة شفاه:

- لأ، هو في الحقيقة.. خانني أنا معاكِ لما اتجوزِك..

وخطوة تالية بغضب ولهجة تقطر كمدًا:

- ورغم كده سكت ورضيت تشاركيني فيه، جربي ترضي أنتِ كمان..

والثالثة وازت آخر أحرفه لها:

- ها.. فهمتِ كده؟!.. ولا محتاجة توضيح أكبر!..

ثم تحول بحديثه يواجه زوجها كامرأة غيور:

- أنا زهقت.. كفاية جبن بقى وقول لها الحقيقة..

عدل من هندامه بعجالة، التقط سترته وعيناها تدوران بمحجريهما بتيه، التفت لصديقه بلهجة قاطعة:

- أما تتأكد أنت عاوز مين فينا..

وصمت بزفرة حارة تفيض بالغضب:

- أنت عارف تلاقيني فين!..

رحل بخطوات تدق الأرض ساخطة، عيناها تتبعانه جوار همستها المصدومة بلا فهم:

- هو قصده إيه يا نزار!.. قصده إيه!.. أنا فهمت إيه!.. أنا فهمت صح!..

بصره كذلك كان معلق بالباب الذي خرج منه "باسم" بجمود.. لقد هدم المعبد فوق رأسه ورأس الجميع مطبقًا مبدأ "شمشون"..

وأتت النهاية بأسرع مما توقع..

بل أتت بعدها بلحظة عندما تناهى لسمعه صوت ارتطامها بالأرض فاستدار بجزع ليجدها متكومة تحت قدميه..

"ملك"..

ناداها بلهفة مذعورة وخطا نحوها، انحنى يحملها نحو أريكة بركن الغرفة، وضعها فوقها برفق وكرر النداء..

ابتعد لحظة يربت على وجنتها يحاول بث الحياة في وجهها الشاحب..

وما جذب بصره تاليًا..

كانت تلك الدماء القانية التي تغرق كفه متسللة إليه من جسدها..

وبالتحديد..

من بين ساقيها..

ونهاية المشهد حقيقة أخرى، واحدة..

الخسارة!..

(١٣)

الحب بمفهوم الأنثى غاية وبعرف الرجل وسيلة..

هي تقدم في سبيلها كل غالٍ..

وهو يتقبل غاليها بصدر رحب ويمنح بقدر ما يريد..

يمنحها متخذًا من العشق مطية توصله لغاية أزلية..

الامتلاك!..

التصريح بالعشق هو صك امتلاك غير موثق..

يبيح ملكية بحق القلب، ويمنح قربًا بدافع هوى بات يسكنه!..

منذ همس لها حينما كانت تشرق شمس الكون جوار شمس غرامه بكلمات تمم أحرفها بـ "أحبك"؛ منذ ذاك الحين وهي في حالة من التشتت.. هي الفتاة الحازمة القوية المسيطرة تشعر بنفسها مبعثرة.. يتأجج غيظها أكثر من توهج حالمية أنثى سقط على مسامعها اعتراف الحب قسرًا!..

تنهدت بضيق وعمق، صعدت للحافلة التي تقلهم عائدين من رحلتهم، كانت تعلم أنه تبعهم بسيارته في طريق الذهاب، لذا فطريق العودة آمن من حضوره الذي يربكها، يزعجها.. ويلعب على وتر أعصابها النارية معزوفة تخيفها..

نبضة قلبها المرتجفة في مواجهته تخيفها.. هروب عينيها من لقاء سيطرة نظراته يخيفها.. فرارها من كلماته، حديثه يثير بنفسها الهلع..

هي التي اعتادت المواجهة وخوض حروبها بشجاعة!..

هي التي ألفِت الوقوف على خط النار والانتصار بكل معركة واغتنام أصعب تحدٍ..

لذا فقد ظلت تتحاشاه طيلة اليومين الماضيين.. وفطن هو لتهربها فأهداها مساحتها الخاصة لتهضم بعسر جهره بمعصية قلبه الذي أفشى سره في لحظة تمرد..

وما بعد اليومين!..

هو حق خالص له، شاءت أم أبت..

وعليه اتخذ القرار، فحينما انتبهت كان يجاروها في مقعدها بعدما أشار برأسه لصديقتها لتبتعد بابتسامة وردية كعادتها..

انتبهت فتقلصت ملامحها وانعقد حاجباها وهو يمنحها نظرة جانبية ماكرة وهمسة لم تتخطَ أذنيها وحدها:

- أظن يومين كفاية..

لم تكن تعلم ما يقصده فتجاهلت صخب حضوره بصدرها..

هو ببساطة احتلها!..

ولم يكتفِ بل احتل المقعد والأنفاس ومجال البصر..

وذاك كثير على أنثى لا تزال تستوعب معنى الضعف أمام رجل لأول مرة..

كادت تنهض بهروب جديد أعاقه بمد ساقيه وتمتمة حازمة:

- خليكي مكانك..

حازمة، باسمة.. خبيثة وعينين نصف مغلقتين لتلمح من بين أجفانه شبه المتعانقة لمعة خاصة.. أخجلتها..

لمعة تخبرها بحسم ألا مهرب هاته المرة..

واللعنة عليه!..

تفقد نفسها معه وهذا مزعج للغاية، بل يستلزم رد فعل حاد، عقدت ذراعيها فوق صدرها ورمقت الأفق مبعدة نظرها عنه بعين غاضبة:

- على فكرة اللي بتعمله ده ما ينفعش..

أرخى جسده في جلسته بإغاظة، هي ممتعة.. غضبها، حنقها، ملامحها الساخطة.. عقدة حاجبيها المعاندة.. زمة شفاهها الـ...

الـ ماذا يا ابن الحسيني؟!..

ارتفع جانب فمه بانحناء عابث لم يعلمه في نفسه:

- أنا قاعد في كرسي جنب طالبة.. عادية، إيه الغريب في كده!..

وأدار رأسه نحوها مكملًا إغلاق عينيه ببسمة فجرت بركانها الخامد، هل يتظاهر بالنوم الآن!..

وقبلها يخبرها بأنها عادية!:

- أنتِ اللي اخترتِ أول كرسي وده طبيعي يكون مكاني..

كأنما ينبئها أنها تعمدت قربه!..

من يظن نفسه!..

- على فكرة برده أنا ما كنتش أعرف إنك هتركب الباص!..

فتح عين واحدة ترنو إليها بحب لم يعد من الممكن إنكاره أو تسميته بغير اسمه الحقيقي:

- وأنا ماكنتش عاوزك تعرفي..

مجددًا عادت للهروب..

تبًا لذلك الخجل، واللعنة عليك "مروان".. لعنة وأخرى وألف..

- أنت عاوز إيه بالظبط؟!..

همستها بضعف تختبره بنبرتها للمرة الأولى..

الويل لها من رجل تسلل نحو مكامن ضعفها بخبث لم تلحظه.. وويل له من أنثى كان هو سقطتها!..

- هو لازم أكون عاوز حاجة عشان أقعد جنبك؟..

- مروان.. أنا ما بحبش اللف والدوران..

قررتها بنبرة صارمة بدت لأذنيه فاتنة ففرق بين جفنيه يظهر لها نظرة أخرستها:

- وأنا بحب...

صمت لحظة.. لحظتان دون تتمة توقعتها، ولن يبالغ قلبها لو اعترف أنه ينتظرها لتنشق شفتاه بعبث رصين يخصه وحده وقد أيقن ترقبها:

- بحب الهدوء وعاوز أنام شوية.. الطريق طويل..

ثم عاد يغمض عينيه بوضع أكثر استرخاءً متجاهلًا بتره لرومانسية اللحظة، ومكملًا بهمس ناعم:

- حاولي تنامي أنتِ كمان..

زفرت بحرارة كادت تحرقه فابتسم ورأت بسمته..

هو يلاعبها وهي لن تكون أقل من خصم.. جدير بالفوز!..

***

الحب بنظرها "نزلة برد عنيفة"..

لا علاج يجدي معها، قد يخفف قرصًا طبيًا من أعراضها.. لكنها أبدًا لا تغادرك إلا وقد أتمت دورتها بقلبك..

وهي تكره البرد وأعراضه ودواءه غير الشافي..

أن تكون أنثى فدعوى الحالمية حاضرة، لكن أن تكون متمردة.. فقل عليها السلام!..

التمرد على الحب كأنه حرب مع المجهول؛ الخسارة واجبة، والنصر للطرف الأكثر قوة وصبرًا.. والحب ذو بأسٍ شديد، له السطوة والغلبة..

الحب هو الفائز في كل مرة..

لا يطرق باب القلب، بل يحطمه ويعبر فوق أشلائه، يعلن نفسه ملكًا متوجًا على عرش مكان لا يليق به..

انعقاد حاجبيها لم ينفك للحظة، أنفاسها الحانقة تباعدت لكنها تطلقها من حين لآخر، ومع كل واحد يتوسع ذاك الانحناء المثير للغيظ على جانب فمه..

انحناء متلذذ شبه عابث، بعد نصف ساعة كان يرسم الخجل فوق وجنتيها بحمرة شهية، لقد التزم الصمت، ادعى النوم.. وتركها تنهش دواخلها بسكون مفتعل..

حانقة ترمقه بنظرات جانبية مختلسة بين كل فينة وأخرى وهو..

صامت كحجر ودت لو حطمته بمطرقة!..

انتبهت لأفكارها الدموية فمرت عند أطراف شفتيها ابتسامة شريرة أثارت فضوله حينما توافقت مع فتحه لعينيه، وقبل أن يحول ذلك الفضول لسؤال تعالى رنين هاتفه، التقطه متسائلًا.. تظاهرت بالتجاهل وجوارحها تعاندها بالإنصات لنبرته التي توترت فجأة بموازاة اعتداله في جلسته، وانتقلت لها عدوى التوتر:

- مستشفى!.. ليه؟!..

- طيب إحنا راجعين، مسافة الطريق..

وقبل أن يغلق الخط مع محادثه سأل بلهفة قلقة:

- ملك كويسة بجد!..

سمعت اسم أنثى!.. ورغم توجسها لما يظهر على وجهه، لغة جسده ولمعة مقلتيه التي انطفأت؛ فقد شعرت بشيء مبهم..

حرقة طفيفة كأنما هي شعلة شمعة صغيرة لامست خافقها الذي تساءل عن فتاة قلبت حاله من النقيض للنقيض في لحظة!..

"أيوة يا عز.. أنت فين!.. طيب معلش ارجع بالعربية وقابل الباص، أنا محتاج أوصل القاهرة بأسرع وقت.. ماشي مستنيك"..

انتبهت لمكالمته مع صديقه الذي ترك له سيارته ليعود بها، وجاورها في الحافلة بطريق الإياب.. ترددت، أرادت أن تطمئن، تسأل.. رأت قبضته المضمومة فوق ساقه بشدة كأنما بطء مرور الوقت يقتله.. ورغمًا عنها نطق لسانها بتحريض من قلبها:

- خير!..

ثم عضت شفتيها ونهرت فمها الأحمق تغلقه بحدة.. التفت إليها بصمت يتشبع خلاله من ملامحها لحظة وعاد لساعته يرمق عقاربها بعقدة جبين:

- أختي في المستشفى..

تنهيدة راحة غادرت الضلوع وحبستها الشفاه، غضب منها العقل المتمرد، رقص لها الفؤاد وتدخل الضمير باقتضاب ليحل أزمة عاطفة باتت تستعمرها ولا فائدة:

- ربنا يطمنك عليها..

دقائق أخرى زحفت بتمهل قاسٍ قطعته عيناه عدة مرات بتطلع قصير نحو الوقت..

عندما وصل صديقه بالسيارة لحق به، احتل مقعد السائق تحت بصرها الذي تبعه من النافذة وانطلق بسرعة قبضت قلبها لثوان..

تغلب عنادها عليها بعدها فادعت النوم وتظاهرت بالتجاهل..

أخبرت نفسها بحزم أنها لا تهتم.. كل ما فيها يكذبها لكنها تناضل وحسب، تناضل وتعلم أن معركتها ختامها هزيمة!..

وصل للمكان بعد ساعات طويلة من القيادة المرهقة والمتهورة، دلف إليه يسأل عن أخته بارتباك حائر..

الموقف كله عبثي!..

لا يفهم ما حدث، لا يستوعب رقادها بغرفة مشفى فاقدة للوعي خاسرة مكسورة بالوجع..

ولا يريد سوى أن يحطم موضع سوء ظنه بتلك اللحظة ولا يدري لم!.. لكنه على يقين من تلطخ يديه بدنس فقدانها، لذا فأول خطواته توجهت نحو القابع بمقعده أمام بابها بجمود، عيناه تعانقان الأرض في تيه.. رفعه من ياقة سترته وواجه نظرته المبهوتة بعين مستعرة ونبرة قاسية:

- هاقتلك لو أنت السبب في اللي هي فيه..

وقرر بصرامة حادة قبل زفرة لاهبة منفعلة:

- انطق.. عملت فيها إيه؟!..

"مروان"

نداء حازم باسمه حمل صوت والده.. لم يحرر زوجها، للحظات ظل يقبض على ياقته وعيناه قاتمتان بظلمة شك ثم تركه..

استدار لأبيه الذي رفع رأسه بهدوء:

- ملك أجهضت تاني، نزارما لوش دخل، اللي ضاع ده ابنه برده..

اهتزت مقلتاه لثانية وقلبه ردد بغصة:

"مجددًا!"

لكن قناع التماسك كان حاضرًا وهو يتجاهل ما فعله دون اعتذار:

- هي كويسة!..

- لسه ما فاقتش!..

وعاد إليه القلق بعنف:

- ليه!..

هز "أدهم" رأسه بحيرة بعد نظرة سددها للواقف خلف ابنه بصمت واجم، هاتفه قرب الفجر يخبره أن ابنته فقدت وعيها بالشركة معه ونزفت جنينها للمرة الثانية، كانا على اتفاق وموعد عشاء متأخر لتفاجئه بسقوطها دون سبب واضح فيهرع بها مذعورًا لأقرب مشفى:

- الدكتور بيقول إنها جسديًا كويسة ومافيش داعي لفقدان الوعي..

نعم.. هو على حق، الشك يحرقه ولا دليل، التفت برأسه نصف لفتة يمنح "نزار" نظرة ارتيابها سافِر، تحرك نحو الباب المغلق وفتحه بهدوء، ومن

وراء كتفه تعلقت عينا الزوج بالغارقة في نومها بحزن يحفر أخاديد نيرانه حول سكونها..

اقترب "مروان" وتبعه والده ثم هو..

رآه يربت على كتف والدته الجالسة بحسرة بمقعد مواجه للفراش، يتوجه إليها ويحيط كفها بأصابعه برفق قررت بعده "جمانة" بما لا يقبل الاعتراض أو محاولة النقاش:

- أنا هافضل معاها..

وكان لها ما شاءت..

عند الرحيل انحنى "نزار" فوق جبينها بقبلة طويلة، توقف عند أذنها بحثًا عن أحرف مبعثرة لا يجوز معها تكوين الجمل..

رغب في الاعتذار..

تمنى الهرب..

أراد الغضب..

ود لو لامها ففي الصمت راحة وفي الجهل أمان!..

لكن ما خرج من بين شفتيه كان همسة ضائعة متعلقة بقشة عشق يملأ قلبه مهما أنكروه أو استنكروه:

- بحبك..

ربما كان من الأحرى أن يتخفى أسفل رداء الساحرة الشريرة..

ويمحنها هو تفاحتها المسمومة وقضمة الموت!..

ربما كان.. وربما فعل!..

***

من حقنا عندما نعيش الحلم أن نتشبث به، أن نرتعب لمرور فكرة أنه فقط وببساطة الواقع التي لا تترك المجال للخيال.. مجرد وهم! ..

وهو تشبث بحلمه حتى مع إدراكه أنه محض كذبة اختلقها عقله ليخفف عناء قلبه حال نومه..

حلمًا كان أشبه بأسطورة لا يناسبه دور بطولتها، فهو لم يحارب الوحوش ليفوز بالجميلة، ولم يعبر الأرض شرقًا لغرب من أجل الوصول إليها..

حلمًا تجسد بقوة لا تبيح ما يشعر به وجسدها بين يديه!..

حلمًا خرج عن طور التصديق وهي تبادله شغفًا بشغف وعشقًا بعشق!..

حلمًا أجمل من أن يكون واقعًا هو يعلم حقيقته، تمتم باسمها متبوعًا بلفظة عشق لم تعلم معناها لكن النبرة تدلل عليها، ضمها واللهفة تغزو كيانه..

بشبه انتباه كان دفئها يغمره، وببدايات يقظة فعلية ومع تجمدها مستسلمة لحصاره، مع همسته وندائه لها؛ مع فتور شغفها، أدرك أن ما يحدث لا يمكن أن يكون ملموسًا لتلك الدرجة!..

أدرك أن هناك خطأ ما في.. الحلم!..

وفتح عينيه على الواقع المحسوس بشدة ليجدها صديقته القديمة..

حدق في وجهها لحظات بحيرة بعدها انتبه لوضعها قربه، بفراشه، فوق صدره وفوضى ثيابها من أثر أصابعه..

دفعها عنه كأنما لدغته أفعى، استقام قفزًا خارج الفراش ورمقها بغضب لم تره بملامحه من قبل:

- ما الذي تفعلينه هنا جين؟!..

ونسي هو ما فعل، نسي أنه سحبها معه لحلمه ثم تركها قبل نهايته على حافة هاوية الواقع فسقطت..

نسي أو تجاهل.. لا يهم!..

اعتدلت ببطء ورغمًا عنها تجسد ألمها واضحًا بنبرتها وعبرة تصارع جفنيها ثم تتعلق بأهدابها خشية الفيض:

- كنتَ تظنني هي!..

تغضن جبينه متغابيًا بعمد والنار تشتعل بصدره مفكرًا فيما كان على وشك فعله:

- ماذا تفعلين بغرفتي جين!..

حاولت النهوض لكنها لم تستطع لثوان فخضعت لجلوس مهتز:

- عدتُ من سفري للتو وأردتُ أن نتناول العشاء سويًا..

- وهذا منحك التصريح للتواجد بغرفتي وبفراشي!..

- جوزيف.. أنا لم أكن وحدي، أنت من بدأت القبلة، أنت من جذبتني بين ذراعيك أنت الذي..

صرخ يقاطع سردها للحظة خزي:

- أنتِ كنتِ الواعية هنا..

قبل استطرادة تنهي صداقة عمرها الأبد رن هاتفه، كاد يغلقه بتأفف مستعر لكنه لمح اسم أخيه ففتح الخط بلمسة سريعة، لحظات تبادل معه كلمات شعر بها مقدمة لشيء لن يسعده، والتالية كان اسمها يتردد بانزعاج متوجس عابرًا شفتيه:

- ملك مالها؟..

بعدها تجمدت أنامله التي تمسك بالهاتف لحظة..

لحظة انعقد خلالها حاجباه..

لحظة دارت فيها عيناه بغرفته وسقطتا على صورته المنعكسة بجذع عارٍ فوق مرآته فغض الطرف عنها هاربًا بضيق..

لحظة تعانقتا في نظرة مع عينيّ الجالسة على طرف فراشه تلملم قميصها بأصابع مرتجفة ووجنة مبتلة بدموع يأس..

لحظة تبعتها تنهيدة ثم ارتباك وحيرة فلهفة:

- إيه اللي حصل؟!..

الرد أتاه بطيئًا متمهلًا يخترق ضلوعه كسكين ثالم:

- ماحدش لسه عارف، بس..

- بس إيه يا آسر؟.. انطق!..

خرجت منه زاعقة فزفر أخيه باستسلام:

- هي في المستشفى، تحت تأثير مهدئ والدكتور بيقول انهيار عصبي بسبب..

تلعثم مجددًا وأتت الزعقة شبه صارخة قلقة تلك المرة:

- بسبب إيه ما تتكلم؟!..

- بسبب الإجهاض..

كان يعلم أنها فقدت جنينًا قبله من صغيرته التي تخبره عنها بجهل وردي اعتاد استغلاله بخبث..

نعم هو يتتبع أخبارها..

لم تترك قلبه بعد، وربما لن تفعل.. هو يدمن أوجاع روحه التي يخلقها عشقها بخلاياه..

وليت لإدمان العشاق علاج!..

- أنا جاي على أول طيارة..

قرارًا حازمًا ألقاه على مسامع الأخ الأصغر دون جدال، أغلق الخط والجالسة تستقيم بعين عاتبة تحاول فهم ما دار أمامها بعربية تجهلها فلم تلتقط منه سوى اسم المعشوقة، تجاهلها ونبرته تكتسب قسوة يمارسها معها للمرة الأولى:

- آسف جين.. ما حدث لم يكن ينبغي له أن يحدث، أنا سأرحل..

لم يفكر.. قرر بلحظة وانتوى التنفيذ..

وأهداها اعتذارًا باردًا لا يغني قلبها عن خسارته ولا يسمن من جوعه لقربه..

***

هل جربت أن تختنق بالعشق!..

هي حبست مشاعرها طوال عمر بأكمله، وعندما جهرت بها كانت ذنبًا دنس براءة صداقتهما..

باتت أنشوطة إعدام تلاها موت..

لثوان ظل جسدها ساكنًا متيبسًا عقب قراره الذي ألقاه بوجهها بكل حزم ممكن، عقلها نفسه تجمد في حيرة محاولًا استيعاب ما حدث للتو..

دوامة غضب خالطه قنوط ابتلعتها وهي تتبعه بعينيها يلتقط قميصًا قطنيًا ويلقيه فوق جسده بعجالة دون أن يلتقي ببصرها..

تعلم أنه خجِل مما حدث..

تدرك أنها لم تكن ضمن حلمه وإن كان هو حلمها!..

لحظات ووجدت نفسها تعترض طريق تحركاته العشوائية في المكان كأنه يود الهرب أو يتمنى أن تختفي هي من أمامه:

- جوزيف!..

صدره يعلو ويهبط بحدة شُقت عليه أنفاسه، تأملها بحاجبين معقودين وقبضتين تعتصران الهواء بقسوة، لم يرد لكنها أردفت دون انتظار:

- لا تمرر ما حدث وكأنه لم يحدث..

هل الغضب يبيح القسوة!..

الخزي ربما!..

ماذا عن صداقة عمر!..

تراجع يوليها ظهره، يُخلل خصلاته بأصابعه في حركة شرسة كادت تمزقها:

- بل سأفعل جين.. سأفعل..

عاد يلتفت، يواجهها بعينين جامدتين ونبرة مختنقة:

- تعلمين أنه كان خطأً، وتعلمين أنني لم أكن لأفعلها لو كنتُ واعيًا..

قطعت خطوتان إليه وتوقفت، الطعنة التي سددها لقلبها قتلتها وما تتمسك به هو آخر قشة دهست تحتها كبرياء أنوثتها:

- ربما نعم..

وابتلعت ريقًا حارقًا:

- لكنه حدث وما من سبيل لإدعاء العكس..

- بلى.. هناك!..

وتحولت نظرته لصرامة قاطعة:

- أنا عائد للوطن..

شعرت فجأة أنها اكتفت، هل حبها ميئوس منه!..

أتلك هي النهاية!..

سيعود؟!..

لكن لمن يعود!..

هزت رأسها بعنف واقتربت خطوة ثالثة تسبقها حدة نبرتها:

- رباه جوزيف.. هي امرأة متزوجة، ماذا تظن أنك ستفعل عندما تعود!..

طعنت عشقه في مقتل وكانت على حق..

ارتسمت حيرته على وجهه بقساوتها؛ حينها ظنت أن هناك أمل ما، إفاقة ربما تحدث فدنت أكثر تهدهد روحه:

- أنت أبدًا لا تحاول التحرر من دوامة غرامك بها..

سخر من منطقها.. كأنه يستطيع ولم يفعل:

- ليت الحرية بتلك البساطة..

ولاها ظهره مجددًا وعقله يغيب في أفقٍ محرمٍ عليه كحرمة الفردوس على شيطانٍ عاصٍ، يتيه في قربٍ محروم منه واشتاقه كوطنٍ اغترب عنه:

- كلما حاولت تعنتَ قلبي بالرفض وعاندت روحي دون الغرق فيها..

لامست كتفه بربتة حانية مدفوعة بأمنية عاشقة:

- كرر المحاولة جوزيف.. لا تيأس، الاستسلام ضعف والضعف في حالة العشق موت..

وأدارته ليواجهها برفق:

- أتريد أن تموت وأنت على قيد الحياة!..

ارتعاشة فكه المضموم بشدة شجعتها لتغوص أكثر في مستنقع غرامه الآسن:

- امنح نفسك الفرصة..

سخريته تضاعفت بانحناء شفتيه في غضب مكبوت:

- وكيف أفعلها جين؟!..

ثم أبعد يدها وأشاح بذراعه ممررًا غلظة حديثه وفظاظته باندفاع:

- هل أرمي بنفسي بين ذراعي أخرى في فراش وأدعي التناسي فوق جسدها؟!..

شهقة حادة حررها صدرها، شهقة أنبأته أنه حقًا في هذه اللحظة.. حقير!..

أراد التراجع والاعتذار لكن أوانه قد فات، الرصاصة غادرت فوهة السلاح وانغرست بقلب الهدف، أجهز عليها مبتعدًا يراقب النزف.. اكتفى بالإشاحة بوجهه بعيدًا ضاغطًا أسنانه بقوة..

صمتها طال فعاد إليها بعينين نادمتين يتأمل سكونها:

- جين.. أنا..

لم يتقن إتمام حديثه فسكت عنه، هزت رأسها ببسمة شاحبة تحمل خلاصة مرار اللحظة مدركة أنه لم يكن ليؤذيها عامدًا:

- لا جوزيف..

تأملته قليلًا تراقب جبينه المتغضن، وريده النابض بعنقه كأنما يكبت صرخة ما، حيرة ملامحه مع نفيها لما صرح به:

- بقلبها.. بحب لطالما سكنها نحوك.. بمشاعر ترفض مبادلتها إياها..

كانت تصر على الوصول لشفير هوة حبها له، فإما أن تحلق معه أو تسقط دونه، احتوت وجهه بين كفيها وهمست بدفء:

- امنحني أنا الفرصة لأتسلل لقلبك، لا تغلقه بوجه حبي.. لا تحجبه خلف ستار من وهم..

واقتربت حد شعوره بأنفاسها تلفح بشرته:

- لا تبخل على نفسك أو عليَّ بها..

وإن كان الضعف يبيح الاستسلام؛ فالعشق يمنعه..

أمسك بكفيها دون حدة، كفاه ما هدر به قبل دقائق.. أبعدهما عن وجنتيه وخطا للخلف بهزة رأس نافية:

- ذاك القلب الذي تتحدثين عنه لم يعد مُلكي، هو معها.. امتلكته منذ أدرك معنى السقوط في الحب..

وضع كفه مفرودة فوق صدره عند موطن خافقه يتحسسه بتشتت شارد:

- ترك فجوة في صدري فرحلتُ دونه..

وتلك المرة كان القرار حاسمًا لا رجعة فيه:

- آسف جين.. أنا أحبها رغم زواجها ورغم محاولات الهرب والنسيان..

فتح بعدها باب غرفته وخرج يسبقها، يهرب منها، وينهي عقم جدال طال..

عاشق!..

لا، بل مريض به..

قلبه عاصٍ لا توبة له، وخلوده في جحيم العشق هو المصير..

***

أفاقت..

مشتتة تائهة، مشاعرها في صراع، وعقلها تعيث به الفوضى..

تذكرت تفاصيل آخر مشهد..

ارتعبت..

الفاجعة التي صدمتها بلحظة حقيقة تعرت من سِتر الغفلة..

بكت..

استعادت النزف.. السائل الدافئ الذي استشعرت زحفه فوق ساقيها كحية تنتظر لحظة قنص..

صرخت..

فالواقع تخطى حدود التحمل..

خسرت..

هيستيريا ملأت كيانها وهلع اقتحم قلب أمها وهي وحدها معها.. ثم أتى تشخيص الطبيب بسيطًا للغاية، انهيار عصبي.. وعلل بالسبب: الإجهاض!

وليت كل الأمور بذلك اليُسر..

حقنة مهدئة وغياب جديد جوار دموع أم..

الأسطورة الشرقية العتيدة تقول: أن المرأة دومًا ما تبحث عن الغم والهم، أنهما يسريان بدمها والحياة دونهما كأنها بلا ملح لا طعم لها، تعِسة تجر خلفها البؤس أينما حلَّت..

لكنها عندما اقتحمت مكتبه لم تكن تطبق حرفية الأسطورة، بل كانت فقط مذعورة كقطة أصابها الهلع فخرجت تحت سيل المطر ليضاعف البلل من شعورها بالرعب.. والغرق!..

هي ببساطة خاسرة..

والمهزوم لا يحق له الاعتراض على من كان له النصر!..

النصر كان للخوف، للوجع..

للصدمة التي لا تطوف بعقل امرأة عن رجلها أبدًا!..

النصر كان للدموع التي باتت نديمًا دائمًا فوق وسادتها خلال اليومين السابقين عقب صحوتها الصامتة من غفوة علاجية لم تطُل للأسف، وليت بالعبرات راحة.. بل هي فقط متنفس لسدادة مكتومة تحبس صراخها بما لا تدري كيف تخبر عنه!..

وأحيانًا تتساءل هل يمكنها حتى أن تفعل؟!..

الخسارة تبيح الغضب، والألم يبيح الضعف..

وهي خاسرة ضعيفة، علمت أنها كانت ساذجة حد البلاهة!..

لكن أنَّى لها أن تفهم أو تدرك أو حتى تشك!.. أقصى ما جال بخيالها الأنثوي التقليدي هو خيانة دارجة مألوفة وأقسى ما صال بنفسها عن شعور بنقص أنه يبحث عن أبوة قد لا يحققها معها..

بكلتا الحالتين.. رجلها يقابل أخرى وحسب!..

لم يصل الأمر بذهنها حد المعاشرة قط، وإن خشيت زواجًا مرتقبًا، لتسقط بغتة فوق منحدر مثالية العشق الحاد، سقطة أفاقتها على جحيمٍ

مستعر، مستتر بخبث خلف جنة مزعومة أجاد رسمها متهم بالعشق الكاذب..

قلبها الذي تعثر بأولى خطواته على أرض الهوى اكتفى بالانطواء على نفسه، بالانكماش بكنف صدرها بخجل، كأنما يعتذر لروحها عن خطأٍ كان هو السبب فيه، يعلن مسؤولية صامتة لا تشاركه فيها الجوارح عن جريمة قتلها بسبق إصرار وتعمد..

تقلبت في فراشها لا تريد رؤية أحد..

استعادت مشهده عندما أتاها فور أن علم باستفاقتها، نظرة عينيه المتوسلة، المذنبة.. والعاشقة!..

لا تدري كيف!..

لا تفهم!..

لوثة ما أصابتها بالشلل فتجمدت تراقب اقترابه فلا هي أبعدته ورفضته، ولا هي سمحت به.. كانت فقط حائرة، ضائعة.. خائفة!..

بتر استرسال خيط أفكارها ظهور شقيقته عند بابها، رمقتها بوهن وهي بادلتها الوهن بالشفقة والعطف وشيء من ارتباك تخشى تخمين سببه..

تقدمت خطواتها نحوها بتردد بطيء..

بتمهل استقرت فوق مقعد يقابل فراشها، تزدرد لعابها بعُسر، ترمش بأهدابها بتسارع سخيف، تهز قدمها وتفرك كفيها معلنة عن توترها بكل طريقة متاحة، قبل أن تبصق الجملة بلهجة شبه حادة:

- أنا آسفة يا ملك..

تعثر لسانها في تكوين كلمة، أو حتى سؤالٍ تستفهم به عن مقصدها، أردات أن تغمض عينيها عنها، لا تراها، تطردها ربما..

لكن أسفها ألجم الراقدة بفراشها، لم تحرك ساكنًا سوى رأسها، أدارته للجهة الأخرى تتطلع بنظرة باهتة خارج النافذة المشرعة لضوء النهار الغارب معلنة غضبها.. فلم يظهر منها سوى ضعفًا!..

تجهر باحتجاج على وجودها فأتى أشبه بأنَّة ألم!..

تردعها عن حديث لا تود الخوض في تفاهته فهي لا تنعي جنينها وحسب لكن الواضح منها يسبب خوف من حولها عليها!..

"كان المفروض أقولك ويكون لك حرية الاختيار!.. بس.."

أتمت حديثها تمنحها سبب الاعتذار قبل أن تقطعه بلعثمة، سببًا أعاد وجهها نحوها مجددًا حتى كادت عنقها تنخلع من فوق كتفيها وعيناها ذاهلتان تطالعانها بصدمة:

- شفت حبه ليكِ خفت..

واحتوت كفها البارد كأنها تحيا بصقيع القطبين:

- خفت ترفضيه وقلبه ينكسر..

تيبس جسدها، تجمد كيانها وسقطت روحها سقطتها الأخيرة، تسارعت نبضاتها لحدٍ مخيف.. حدٍ مُقبض وأنفاسها تعلو متقطعة لاهثة وازتها الهمسة المتحشرجة كأنما انحشرت بحلقها تقتلها:

- أنتِ كنتِ.. كنتِ عارفة.. هو إيه؟!..

وأتتها التنهيدة الطويلة، عناق الأجفان يخفي نظرة آسفة كاسفة، وانخفاض الرأس نحو الأرض بخجل كجواب..

جواب لا معنى له إلا الألم..

جواب لا مدلول له سوى.. نعم!..

***

نحن في الحياة نسير على حبل رفيع..

خطوة خاطئة قد تعني سقطة، وفقدان التوازن يوزاي الموت..

وهي لا تعلم أكان ما حدث مجرد سقوط أم أنه النهاية التي لا يجوز أن تليها بداية جديدة!..

شفتاها منغلقتان بلا صوت، لسانها عاجز عن الحركة وحتى أهدابها لم ترمش لمرة بينما تطالع صديقتها في غير تصديق..

هل كانت هي الثمن!..

هي الشاة التي سيقت للذبح بلا تردد ودون رأي أو اعتراض!..

هي البيدق المضحَى به ليعيش.. الملك!..

نعم.. ففي رقعة الحياة الأنثى بيدق رخيص، خطواته محدودة.. والتخلص منه سهل..

ظلت على صمتها الواجم المستنكر بوجوم، فقط أغلقت عينيها والجالسة بمواجهتها تخفض رأسها بخزي بان جليًا في نبرتها الخافتة المبررة:

- كان عندي أمل تكوني أنتِ نقطة النور، طريق الرجوع..

كأن البحث عن دافع مباح!..

لا تزال تسرد الحكاية، تدفع بالأدلة.. تتمسك بالبراهين:

- ما كانش من حقي أتكلم أو أحكي لِك حاجة تخصه مادام هو رفض..

ويالجمال الصورة التي ترسمها، لقد كانت بيده الفرصة ليهبها الخيار فاختار نفسه:

- اضطريت أسكت وأتمنى..

دمعة قهر سالت من خلف جفنها المغلق، لا تود أن تراها أو تسمعها.. كل ما تتمناه بهاته اللحظة: هو غيبوبة لا تفيق منها.. أو إفاقة: أن جُل ما مر كان محض كابوس مزعج:

- طب وأنا؟.. ما فكرتيش فيَّ؟..

العبرات تسبق الكلمات المتقطعة والحروف المبتورة بالألم:

- ما فكرتيش في صدمتي؟.. مشاعري؟.. إن من حقي أنا كمان أختار أكمل أو لأ؟..

الصوت يتعالى وكبح جماح الغضب بات حلمًا:

- ما فكرتيش إن ده ممكن يضرني؟.. فكرتِ في مصلحة أخوكِ وبس!..

واعتدلت بفراش المرض تحتضن نفسها بوهن:

- أنا خسرت ابني بسببه..

ثم عادت لتيهها وشرودها بفكرة جديدة:

- بس عارفة!.. كده أحسن..

وابتسمت بمرارة ساخرة تداوي وجعًا لا أمل في زواله:

- كنت هاتعايش مع وجوده في حياتي إزاي؟..

دموعها تساقطت أكثر حتى أغرقت وجهها وقلبها ينتفض بين ضلوعها لحدٍ مؤلم:

- كان هيربطني بيه للأبد..

انتقلت الانتفاضة لأخته فاستقامت على طرف مقعدها:

- يعني إيه!.. عاوزة تطلقي؟..

- أنتِ شايفة إيه!..

صرختها في وجهها بضعف، أرادتها غاضبة لكنها خرجت بنبرة متخاذلة خائفة، تحركت "شيراز" تجاورها فوق الفراش تضم كتفيها لصدرها وتربت عليها برفق بينما هي تهذي:

- أكمل معاه إزاي!..

- آآمن على نفسي معاه إزاي!..

- أصدقه تاني إزاي وحياتي معاه كانت كذبة!..

هنا أجبرتها على النظر لوجهها تقاطع هذيانها:

- لا يا ملك.. نزار بيحبك، بيحبك وما يقدرش يعيش من غيرك..

- حب!..

وقهقهت بسخرية أقرب للوثة:

- وجهة نظركوا عن الحب مقرفة قوي يا شيراز..

ثم دفعتها بعيدًا عنها بحدة كادت تفقدها توازنها:

- امشي من فضلك، امشي لأن مروان خرج وجاي تاني ولو عرف أنا ما أضمنش رد فعله..

والثانية تمسكت بالأمل فسألتها:

- أنتِ مش عاوزة حد يعرف!.. ملك أنتِ برده بتحبيه..

كانت الكلمة تقريرًا أشبه بطعنة ثالمة تُسدَد لعقلها وقلبها على السواء فانهمرت دموعها مرة أخرى:

- دي أكبر غلطة عملتها في حياتي..

"ملك!"

أتاها صوته، نبرته الملهوفة والحزينة كأنما ما سمعه أوجعه..

رفعت بصرها إليه، يقف عند بابها بعين عاتبة، نظرة خانعة آملة متوسلة..

نظرة ألجمتها فلم تشعر برحيل شقيقته بينما هو يغلق الغرفة عليهما ويقترب..

وقع خطواته في سكون المكان كان قاتلًا.. ورغم ذلك لم تستطع الدفاع عن نفسها ضد هجوم عينيه.. لم يمكنها الرفض..

تجمدت في مكانها تتأمل اقترابه دون حركة وكادت تظن أنها حتى لا تتنفس..

تجمدت كأنما هي في انتظار الموت!..

***

معضلة أخرى..

نحن نظل نشجب ونستنكر، تعلو أصواتنا وتحتد مطالبة بحرية الاختيار..

وعندما نختار؛ نتراجع بجبن خوفًا من نتيجة اختيارنا..

هل كنا على حق!..

أم أننا حمقى غير مؤهلين لتحمل مسؤولية رغباتنا الخاصة!..

هي ببيت عمها منذ يومين..

الأب وزوجته رحبا بها بلطف.. الابنة الصغرى مرحة دعتها للإقامة بغرفتها، الابنة الكبرى تتعامل معها بتعالٍ بارد لا تفهم سببه وتوأمها مشاغب لكنه محتمل عنها..

كانت جالسة بالفراش الذي وُضع بالمكان خصيصًا لها، تمسك بهاتفها شاردة..

والدتها حادثتها أمس واليوم وستفعل غدًا وبعده وكل تالٍ..

توقن أنها تقسو عليها وعلى الخال الحنون، ومن يلومها وهي اكتشفت أن حياتها كلها محض كذبة!..

تذكرت عتاب عينيه وهو يتركها عائدًا لمنزله في الطرف الآخر للمدينة:

- برده مش عاوزة تيجي معايا!..

أفلتت من حصار عاطفة أبوته بهروب واهن:

- هنا بيت عمي.. وهو مرحب بيَّ، أنت وعدتني إن أجازة الصيف هأقضيها في لندن..

- بس ما وعدتكيش إن كلها تبقى بعيد عني..

أمسك بيدها معيدًا بأصابعه وجهها إليه لتناظره بصلابة ظاهرة وقلب واجف:

- تاليا أنا مش هاقدر أطمن عليكِ..

مشاعره التي تخط نفسها على ملامحه بوضوح رقَّ لها قلبها فابتسمت تطمئنه وتميل بوجنتها إلى كفه المحيط بها:

- ما تقلقش عليَّ..

إصراره وقلقه بمواجهة تصميمها وهروبها.. والغلبة كانت لها!..

بترت شرودها "باتريشيا" وهي تقفز فوق الفراش:

- تيا.. هيا ارتدي ملابسك، سنخرج..

انتبهت لها متسائلة:

- نخرج!..

ضحكت الفتاة بمرح:

- نعم.. أنابيل وصديقها سيذهبان للرقص، وبراندون أخبرني أننا سنذهب معهما..

ثم نظرت للأفق بحالمية غريبة:

- توني قادم أيضًا..

نبرتها ولهجتها وهمسها جعل "تاليا" تتأملها بفضول باسم:

- ومن توني!..

ردت بافتتان وهي تشير بيديها في وصفٍ مبهرٍ:

- أنتونيو دي لاكروز.. صديق جوش، الوسيم..

- ومن جوش!..

السؤال كان بحيرة أكبر فانتبهت الفتاة أنها لا تعرفه فعلًا:

- أوه.. جوش صديق أنابيل الحميم.. وتوني هو صديقه الأسباني..

- أسباني!..

- نعم.. وسيم، أسمر.. يمتلك حرارة حوض المتوسط..

وانحنى جانبي ثغرها ببؤس طفولي:

- لكنه يخبرني أنني صغيرته وحسب..

انطلقت ضحكة خافتة من "تاليا" بينما تسأل بفضول:

- كم عمره!..

- بعمر جوش، وجوش يكبر آنا بعامين..

طمأنتها بربتة رقيقة على كفها بموازاة ابتسامة ناعمة:

- ليس كبيرًا لتلك الدرجة..

مطت الفتاة شفتيها ونهضت تحثها على اللحاق بها وهي تغادر الغرفة:

- هيا إذًا.. سيمر جوش وتوني بالسيارة ليأخذونا..

لم تكد تنهي كلماتها حتى سمعت البوق خارج البيت يتعجلهم فهتفت بخفة تسابق خطواتها:

- لقد أتوا..

بعد دقائق كانت تخرج من باب المنزل مودعة عمها وزوجته، تلتقي عيناها بعيني "أنابيل" المتأففة، تلمح "براندون" الذي يضحك مع أحد الرجلين الآخرين.. و"باتريشيا" التي تراقب ذلك الشاب بحالمية صامتة أدركت معها أنه فتاها..

اقتربت بتؤدة خجلى ليناديها ابن عمها:

- تيا..

عرفها ببساطة مشيرًا لشاب أشقر نحيف:

- هذا جوش صديق آنا..

واستدار نحو الآخر الذي وقف يتأملها بإعجاب لم يغِب عن عينيها:

- أما هذا فهو توني.. صديقنا جميعًا..

أتم جملته بضحكة مداعبة، مد الشاب يده بمصافحة احتوى بها أناملها بتحكم متسلط، ولمعة جريئة تمر بمقلتيه قبل أن يهمس بترحيب:

- مرحبًا تيا..

سحبت يدها بارتباك..

ظنت أنها وحدها من انتبهت لطريقته المختلفة عندما نظر إليها منذ دقيقة مرت..

كانت مخطئة؛ فابنة العم الكبرى وصديقها انتبها أيضًا..

ويبدو أن القدر كما في كل مرة.. له تصاريفه!..

قد تختار.. تقرر.. تتراجع.. تجبن.. لكنها دومًا تأخذ خطوة لا عودة فيها..

انطلقت بهم السيارة المكشوفة وصوت الموسيقى يدوي بعنف..

عندما رفعت رأسها تبعد خصلاتها التي تضرب وجهها باندفاع رأته يتأملها في مرآة السيارة بمقلتين سوداوين ونظرة..

مقتحمة..

نظرة تخبرها أنها باتت.. ضمن اهتماماته!..

(١٤)

الخلل مرحلة وسطى..

بين فقدان التوازن فالسقوط..

وبين محاولات التماسك شبه الناجحة..

الخلل أمر حتمي..

لكن تبعاته باختيارنا.. بقدراتنا.. بقدرنا..

إما فشل.. وإما أمل!..

هل جربت السقوط من مبنى عالٍ مسبقًا!..

بالطبع لا فأنت مازلت حيًا تتنفس؛ إن اعتبرنا الأنفاس حياة.. إذًا هل رأيت أحدهم يسقط!..

النظرية سهلة وبسيطة حد بساطة أفكارك بهاته اللحظة أو ربما الرعب الذي تسلل إليها..

أنت تراه يسقط بسرعة حددتها الجاذبية الأرضية..

أما هو فيمر أمام عينيه شريط مفصل لحياة بائسة أو سعيدة أو مزيج بينهما عاشها وعلى وشك الانتهاء بعد أجزاء معدودة من الثانية..

كانت تراقب خطواته بسكون أقرب لموت حقيقي..

وذكرى كل لحظة جمعت بينهما تعاد بذهنها، تجلدها بسوط الغفلة والحُمق، وتلعنها بحق انكسار الروح..

خطوة ونظرة أولى فبسمة واقتراب وبال ينشغل برجل دون غيره لوهلة لم تكن بالقصيرة..

ثانية وافتعال اللقاء، اختلاق الكلمات والغزل المتواري خلف رسمية حوار العمل..

ثالثة ودعوة فعرض زواج ومشاعر تخرج من حيز الصمت لدنيا الحقيقة.. تغادر أرض التلميح لتضربها بقوة التصريح ويسقط القلب معترفًا بمثلها وإن لم يصدح بها اللسان..

ورابعة وازت وقوفه جوار فراشها وعيناه تخبرناها عن أسف.. وعشق!..

شذرات من ندم ذُرت فوق النظرة، ولمحة عاتبة تجاور غضب خفي!..

قلبها غاص بصدرها هاربًا وعقلها كاد يثب من مكمنه وهي ترى ذلك المزيج الغريب.. يعشق، يعاتب، يغضب.. ومحاولة اعتذار غير مجدية!..

جلس فابتعدت ليزيد العتاب بعينيه:

- ملك!..

النبرة كذلك مغموسة به، مطمورة وسط بحة ألم غير مفهومة أو مبررة ولا مقبولة.. أيستنكر خوفها!:

- ما كانش المفروض تعرفي حاجة زي دي..

كأنه يلومها أن علمت قسوة حقيقته، قسوة كذبه، وقرفٍ عاشته بجهل عاشقة بلهاء عُميت عليها صورة المعشوق:

- أنا بحبِك..

ومال يقترب لتتباعد ويصر فتهز رأسها تنفي برفض ملتزمة صمت القهر:

- ما تبعديش عني، أنتِ كده بتوجعيني أكتر..

عيناها تنبئانه أنه يتمادى، تصرخان به أن يتراجع، تتوسلانه الاختفاء من أفق البصر وقلبه مقاتل عنيد في معركة عشقها:

- مش هامشي يا ملك، مش هامشي قبل ما تردي عليَّ وتقولي لي إنك مش هتسيبيني..

سكن للحظة تردُد مد كفه بعدها يتملك بها يدها بثبات، يقيدها به عندما حاولت سحبها:

- أنا بحبِك.. ومستعد أهد الدنيا عشانك، بس ما تسيبينيش أحارب لوحدي..

كررت محاولة الهرب من حصار كلماته وقربه ويده التي تأسر يدها، مرة واثنتين وعشرًا ثم يئست فهمست بدموع قهرت جفنيها بشراسة هطول:

- من فضلك امشي.. كفاية اللي عملته، كفاية لحد كده..

رأت حاجبيه ينعقدان وشفاهه اللتين تكورتا في وضع حديث مبتور.. فأي كلام قد يفند حقيقة لا غبار عليها!..

أي حروف قد تسوغ جريمته!..

جذبت يدها مجددًا فتركها.. فرك كفيه معًا وكل مبررات العالم بعينيه اجتمعت بكلمة:

- ملك.. أنا بحبِك.. أنا..

- أنت كسرتني..

صرخت بها تجهض دفاعه، أنَّت بوجعها تشكوه سقطتها في بحر غرام دون علمٍ بموجه الغادر أو خبرة بظلمة أعماقه التي لا يغشاها نور.. واجهته بوهن امرأة اكتشفت بشاعة جُرم رجل ظنته حبيبًا.. علمت أن عشقها له ذنب والتوبة منه مشروطة بفراق:

- أنت كذبت، اخترت نفسك عليَّ.. قررت تدخلني حياتك من غير ما تفكر في حياتي أنا..

وغضت بصرها عنه بهروب.. بشجن.. بألم:

- ده مش حب يا نزار؛ دي أنانية..

- وأنا معترف يا ملك..

رفعت رأسها إليه بحدة مذهولة ليكمل بهزة كتف كأنما ما يقوله بديهيًا كبداهة الكون:

- أنا أناني في حبك..

- أنت.. أنت..

تلعثمت والجنون إليها أقرب.. دنا منها وعيناه تحتلان بدُجنة مقلتيهما النظروالقلب بسيطرة متبجحة مغرورة:

- أنا ما كذبتش، أنا بس اخترت أخبي جزء من الحقيقة.. خبيت عشان عاوزك في حياتي.. عاوزك حبيبتي ومراتي وصاحبتي وأم ولادي، عاوزك بغض النظرعن أي اعتبارات تانية المهم تبقي ملكي لوحدي وبس..

أتراه يخدرحواسها بحديث عشق!..

أهي حمقاء لتستمرفي مسلسل حبها الوهمي وقد فشل مؤلفه ومخرجه في إتقانه فأتى عرضه الأول دون متابعين!..

ابتعدت أكثرحتى كادت تميل فوق وسادتها وهو من فوقها يراقب، يهيمن بل ويكاد يأمر:

- وأديك خسرتني..

همستها بحشرجة، نفى بحزم شبه آمر كأنما يحق له:

- مستحيل أخسرك..

لمس جبينها بأنامل حانية فدفعته بوهن:

- وهاقدم كل دليل ممكن عشان تصدقي ده..

رمقته بتعب..

تبحث عن كلمات.. صراخ.. رفض.. غضب.. لكن كل ما بها ضعيف!..

هذا ليس عشقًا.. بل هو سرطان خبيث تمكن منها وأجاد هو استغلال خبثه..

- هاسيبك ترتاحي، بس هترجعي على بيتنا..

- لأ..

نطقتها بحسم لم يمنحه فرصة الجدال فيه دخول أخيها الأصغر بابتسامة انقلبت لتجهم عندما لمحه بفراشها يكاد يضمها..

تراجع ببطء بعد قبلة جبين ارتجفت لها فأغمضت عينيها..

شعر برجفتها فأعاد القبلة كأنما ينتشي بسلطته على قلبها ويبتهج بصمتها في حضور طرف ثالث..

صمتًا أخبره ببساطة أنه قريب للغاية من الاستحواذ عليها، أنها موشكة على القبول به..

لم يتساءل أكانت رجفة حب.. أم قرف!.. بل حتى لم يفكر..

أو ربما كان خوفًا من عيني الصقر اللتين تراقبان انفعالاتها عند باب الغرفة وصاحبها يتجاهل وجوده ويدنو منها بعاطفة واضحة ومرح غير مفتعل:

- اتأخرت عليكِ!..

وجذبها لجهته من فراشها يبعدها عن الآخر يضع فوق ساقيها علبة بيتزا لأحد المطاعم الشهيرة:

- جبت لك البيتزا اللي بتحبيها..

وكما تجاهله فعل هو بالمثل وانحنى يهمس لها:

- هاجيلك بكرة من بدري..

لكنها كانت تقرر هاربة بنظرها تتشبث بيد أخيها:

- أنا هاروح بكرة على البيت عند بابا..

وتحداه "مروان" بنظرة صارمة أن يعارض..

ابتسم ومنحها موافقة تطمئنها..

هو يعلم أنها تفر من ضعفها معه لكنه كذلك وعن يقين قد سجل هدفًا بمرمى قلبها قبل الرحيل..

ستعود له..

وتلك المرة رقعة اللعب مكشوفة للطرفين..

هل العشق يبيح الكذب!..

نعم..

فالعشق خدعة..

***

الحب حماقة كبرى..

سباحة ضد التيار، وغرق لا تليه نجاة..

هناك في العشق دومًا خسارة.. ألم، شيء من ضياع وحيرة.. هناك هزيمة وهروب برحيل مبرره ضعف.. دافعه جرح!..

هناك رجل لا ينسى، وقلبه يؤكد عليه أنه ربما أبدًا لن يفعل..

هناك حرب لم يكن أحد طرفيها.. بل نكص على عقبيه فرارًا من أرض معركة لم يكد يمتلك فوقها خطوة أولى..

هناك عاشق أهوج طائش.. وأول أوجه طيشه؛ عودة!..

يومان مرا تقريبًا على تلك المشادة بينه وبين صديقته التي لم تعد كذلك..

ألم يقل أن العشق حماقة!.. وها هي حماقتها ورعونتها في الاعتراف به بل ومطالبته بمثله تنهي ما كان بينهما..

لا يدري أيسخط عليها أم يغضب من نفسه!..

فقط لو لم تنطق، لو لم تحاصره وتبيح لنفسها قربًا لا يريده قلبه أو تقبل به أخلاقه!..

لكن "لو" لا تعيد الزمن للوراء ولا تصلح أخطاء غبائنا البشري..

حضر حاله للسفر..

يدرك تمام الإدراك أن عودته خطأً بالغًا لا داعي له، لكن جنون خافقه لا يوافقه الرأي..

ولأننا في شريعة العشق لا حرج علينا حال الثمالة؛ فقد ساير الفؤاد واختارما جنحت إليه مشاعره..

طائرته صباح الغد.. اطمئن عليها من صغيرته "سما" التي أبلغته بمكوثها بمنزل عمه.. يعلم أن توأمها لن يحادثه عنها مرة أخرى، خاصة بعد قراره المتهور..

يتجاهل مكالمات والده على مدار اليومين السابقين، فهو يوقن أنه سيرفض عودته وسيحاول إثنائه عنها..

وجدال عاشق أحمق.. مجرد سفه!..

كان يضع ثيابه في حقيبته متذكرًا أسف ملامح جده عندما أخبره برجوعه للوطن، رن هاتفه برقم الصغيرة فابتسم بحنان ولهفة، لمس شاشته وكلماته تسابق بعضها البعض:

- سمسم.. طمنيني!..

- تطمنك على مين بالظبط يا يوسف؟!..

صوت أبيه، نبرة حازمة، لهجة صارمة وغضب مكبوت:

- بتتجاهل اتصالي بيك عشان تنفذ اللي في دماغك؟..

تنهيدته وصلت عبر الأثير حارة طويلة مستسلمة، والآن لا مفر من حديث لن يغير من قراره شيئًا:

- أنا لازم أكون موجود..

- بأي حق!..

تصلب جسده وشد قبضته، فها هو يدور بذات الدائرة التي تحرمه قربها وتُحَّرِم عشقها على قلبه:

- بنت عمي..

بتر والده أفكاره الباحثة عن مبرر مقنع بحسم:

- مش كفاية يا يوسف..

وزفر بقنوط استشعره ابنه فانعقد حاجباه:

- ليه بتفتح الجرح من تاني؟..

سخر بمرارة هزيمة لاتزال تغزو بمذاقها الموجع كيانه كله:

- ومين قال إن الجرح طاب من الأساس..

وانكسرت النبرة بألم:

- لسه مفتوح وبينزف..

- لأنك مش عاوزه يطيب..

- أنا!..

هتف بها رافضة مستنكرة ليقاطعه "آدم" قبل مزيد من الاعتراض:

- أنت كل مرة بتضغطه أكتر عشان ينزف، بتتابع أخبارها من أختك ورغم إنها عارفة إن ده هيتعبك بتسايرك وحسابي معاها بعدين، بتسأل أخوك عنها.. بتفكر فيها باستمرار.. أكتر من سنة ما نزلتش أجازة ودلوقتِ بعد ما تعبت؛ عاوز تظهر في الصورة!..

وصمت لحظة قرر بعدها مخالفًا رغبة قلبه في رؤية ابنه:

- بأي حق يا يوسف عاوز تظهر في صورة عمر ما كان لك مكان فيها!..

يؤمن هو بأن البتر علاج فعال، والقسوة أحيانًا هي ما نحتاجها كصفعة إفاقة..

تحولت لهجته للحزم الصارم في لمسة أبوية قلما تخالط حنانه على بكريه:

- ما ينفعش ترجع..

أتاه صمت ابنه برهانًا على تصميمه فتمتم بشرود:

- زمان كنت قلت لعمك كلمة بس خلاص ما بقتش تنفعك.. أنت مصمم تسبح ضد التيار وفي الاتجاه الغلط..

وهو تغاضى عما سمع.. لن يجادل رغم الألم الحاد الذي اخترق ضلوعه، ونقطة النور التي اخترقت عتمة أفكاره الرعناء تفندها، كلا.. لن يرضخ لرغبة عقلٍ مهملًا نشوة قلب يتراقص بين جنبيه منذ اختار العودة:

- طيارتي بكرة الصبح يا بابا..

وانتقل الحسم لصوته تلك المرة:

- أشوفك على خير..

- يوسف..

يداه مكبلتان، يشعر بعجز عن حماية ابنه الذي يصر على الغوص بجهل وطيش لقاع بئر جافة لن ترويه منها نقطة عشق..

أتت زعقته باسمه تزجر رد فعل لا يناسب رجلًا ناضجًا مثله وكلماته أكثر ثباتًا بلا تردد:

- حاول المرة دي تختار صح..

تكرر السكون موازيًا لوجوم هيمن بتعنت على وجه الابن:

- وتتصرف صح..

توتر.. ارتبك وتردد..

ثم باللحظة التالية حسمت نبضة القلب القضية لصالحها مهما كان الحكم غير عادل.. أنهى المكالمة بعزم لن يلين:

- أنا عارف أنا باعمل إيه..

ألا ترون!..

من قال أن الحب حماقة كبرى؛ لم يكن مخطئًا أبدًا..

***

كان يشتاقها..

فجأة باتت الحياة أسهل، والمشاعر أكثر وضوحًا..

لم يعد يستغرب نبضات خافقه عند رؤياها، لم يعد يستنكر أفكاره التي تحوم حولها، ولم يعد يرفض أن يسمي ما يمر به باسمه الحقيقي..

فالاعتراف سيد الأدلة..

وهو أعلن حبها ووقع على أقواله بيقين لا يقبل الشك..

أما الشوق فكان خير برهان.. وعيناه اللتان تفتشان عنها بعد غياب ثلاثة أيام عن الجامعة قرينة تدحض بقايا الإنكار بنفسه..

لقد سقط في الحب ولا عزاء لقلب ظن أنه أقوى من ذاك السقوط!..

تحرك بخطوات بطيئة نوعًا كأنما يمنح نفسه وقتًا أطول لإيجادها، تلفت عدة مرات يمنة ويسرة يخفي نظرته المتفحصة منظاره الشمسي الداكن.. تأفف بضيق، بدأ يسير متجهًا نحو مبنى الكلية ظنًا منه أنها لم تصل بعد رغم أنه يحفظ جدول محاضراتها عن ظهر قلب..

"مروان!"

أتاه صوتها من خلفه.. نبرتها مترددة على غير العادة، خافتة كأنها كانت تود بتر الحروف قبل أن تنطق اسمه أو تناديه.. استدار يكبت لهفة فؤاده،

يحتويها بعينيه دون أن تراهما، وتنشق شفتاه ببسمة هادئة ونبرة مرر خلالها افتقاده:

- غرام..

صمتت لحظة تبتلع شوقه الذي لم يحاول مداراته.. وكأن الاعتراف فتح باب المباح أمام قلبه:

- ملك عاملة إيه دلوقتِ؟!..

انتبه لاسم أخته الذي نطقت به، زوى ما بين حاجبيه متسائلًا:

- أنتِ عرفتِ اسمها منين؟..

وكأنما ضبطها بجرم مشهود..

ارتبكت قليلًا، أزاحت خصلة يداعبها الهواء بنعومة من فوق وجنتها، هربت ببصرها وبللت شفتيها بلسانها في تردد:

- سمعته منك في الباص..

هي تهتم وإن لم تُقر بمشاعر..

أليس الاهتمام بداية!..

أو هو إشارة.. علامة تخبره بوضوح أنه يحتل جزءًا من أفكارها!..

رفع حاجبيه في شبه دهشة لم تكن مدعاة، وزاوية فمه اتخذت انحناءً عابثًا مع إزاحته لمنظاره ليهديها نظرة غاصت بقلبها:

- ده أنتِ مركزة معايا بقى!..

تحول التردد لغضب، وتبدل الارتباك لحدة وزمة شفاه قبل أن تدور حول نفسها مبتعدة بخطوة واحدة حانقة أوقف تاليتها بهمسة أشعلت النار بكيانها:

- وحشتيني..

تصلب جسدها ونبض خافقها يتعالى، هذا الرجل مجنون أو مجنون.. لا خيار ثالث هنا!..

سمعت صوت خطوته التي ابتعدتها يقتربها وبنبرة أعلى ولهجة أكثر جدية لامسها حنو:

- ملك أحسن الحمد لله..

حنوه المفاجئ مع حديثه عن أخته رسم بسمة ناعمة فوق شفتيها، عاد المرح يتلبس صوته والهمس يصل لأذنيها مشاغبًا:

- مش هتطمني عليَّ أنا كمان!..

لم تلتفت.. ولم ترحل!..

فقط وقفت ساكنة للحظات راقب فيها صمتها وخصلاتها تحوم حول وجهها الذي لا يراه، تحكمت في ابتسامتها وأدارت رأسها تهديه نصف نظرة من فوق كتفها:

- أنا شايفاك زي البمب أهو..

ضحكة خافتة داعبت أذنها فعادت لها بسمتها:

- ده بس عشان.. شفتك..

ومجددًا ابتعدت بوجهها وعينيها، وكيانها كله يحثها على الهرب من أسر نبرته وكلماته، لا تجد ما تقوله، هي حتى ترفض الاعتراف لنفسها أن مشاعرها باتت ملكه، تُقدم في أرض عشقه قدمًا وتؤخر أخرى..

تخاف!..

ربما نعم..

رُغم أن تجربة والديها هي الأجمل بنظرها، لكنها فقط.. تخاف!..

تجد أن الهروب هو الحل الأمثل لكنه ضعف..

وترى أن السقوط في غرامه ضعف..

فأي واحدٍ منهما تختار!..

تمسكت بكتاب وملف ورقي تحملهما بكلتا يديها، أخفت تنهيدة كادت تغادر صدرها.. وانتقت الخيار الأسهل بتلك اللحظة..

فرار مؤقت تكتيكي لا يُظهر ضعفها في الصورة:

- ربنا يخليكم لبعض.. بعد إذنك عندي سيكشن..

قاطع هروبها مرة أخرى بشبه حزم:

- على فكرة.. أنا عاوزك معايا..

لم تفهم فقررت أن تمنحه نظرة أخيرة بالتفاتة:

- معاك فين!..

قلبها يدق بعنف..

عيناها حائرتان..

وفي الخلفية لمعة تشي بغضب يوحي بإدراك خاطئ لمضمون حديثه..

راقب انفعالاتها وكاد يشاكسها عندما خمن ما تفكر به، لكنه فضل اختصار الطريق بشيء من حسم:

- في السيكشن..

وتمم بهمس أخير خالط نبرته فيه عزمًا:

- عاوز أشوفك في كل لحظة..

ثم بادر برحيل ليتركها خلفه غارقة في دوامة ارتباكها..

هل يجيز العشق الامتلاك!..

عند الحالمات نعم.. لكن عندها هي..

"لا"..

لا تقبل الجدل أو الالتفاف من ورائها..

"لا"..

وإن امتلك منها القلب وسيطر على المشاعر وانغرس بالكيان والروح..

***

الحياة أبدًا ليست سهلة..

لا تهبك الخيار المريح، ولا تهديك الفكرة الأبسط..

بل تحيطك بكل ما هو معقد، غير مفهوم.. ومؤلم!..

مِنَحُها تيه وعطاياها ضياع..

ظنت أن الحقيقة دومًا الأفضل، بعدها الراحة والاستقرار؛ لتجد أن ذلك وهم صُراح.. هي لاتزال حائرة، مشتتة تبحث لها عن جذور تثبتها لأرض حقيقية تنتمي إليها..

كانت تجاوره في سيارته التي يقودها بتمهل غريب يغاير طريقته السابقة عند أول لقاء!.. تلقي برأسها على مسند مقعدها تاركة الهواء يتصارع مع خصلاتها الطويلة بحرية..

أداروجهه إليها يتأملها لحظة ثم عاد بعينيه نحو الطريق وابتسم:

- كان وقتًا لطيفًا تيا..

وهي لا تشعر بأنه كذلك حقًا..

بل تشعر بنفسها خائنة لابنة العم المدلهة في حبه!..

ولأنها جريئة وصراحتها تبدو قاسية أحيانًا فقد سألته بما يثير فضولها:

- لماذا أنا توني؟!..

رفع حاجبًا واحدًا يدعي الدهشة:

- لا أفهمك!..

التفتت إليه تعتدل بجسدها في المقعد:

- لمَ دعوتني على العشاء!.. لمَ طلبت لقائي!..

ابتسم بإدراك وكان صريحًا مثلها:

- لأنكِ تعجبينني..

تملكها شيء من حيرة، فهي تقارب "باتريشيا" في السن.. ولولا غيابها بصحبة شقيقها وأمهما في رحلة لمدينة قريبة وزيارة عائلية..

لولا بقائها بصحبة العم و"أنابيل" التي تعلم أنها لا تحبها.. أو على أقل تقدير لا يشكل لها وجودها أي فارق؛ لولا ذلك لما وافقت على الخروج بصحبته فقط لشعورها بالملل والوحدة والهرب من رسائل أبيها التي لا تنقطع ليلًا أو نهارًا..

هزت كتفيها واستمرت بوضوحها:

- أنا على يقين من أنك تعلم كيف تشعر باتي نحوك!..

لهجتها تقريرية شابها استفهام طفيف وعدم ثقة، توسعت بسمته وتنهد:

- تنادينها كما تحب!..

ومد يده يربت على كفها برفق:

- هي مجرد طفلة، عدما تنضج ستجد لنفسها رجلًا مناسبًا أكثر مني..

أبعدت يده وردت بعناد رافض:

- أنا أكبرها بعام واحد!..

لوى شفتيه بمكر عابث:

- ليس بالسن فقط عزيزتي..

وغمزها بينما يصف السيارة أمام المنزل ويتأملها بعين جريئة متفحصة يعجبها ما تراه:

- أنتِ بالتأكيد لستِ طفلة..

لم ترتح لتلميحه أو نظرته رغم أنه لم يتخطَ حدوده معها..

رمقته بصمت للحظات ثم ترجلت من السيارة، تبعها بهدوء وعند الباب توقف يواجهها كأنما ينتظر شيئًا أو ينتويه!..

أهدته بسمة ممتنة تنهي بها الليلة:

- شكرًا توني على الوقت الممتع..

- كان أكثر متعة بالنسبة لي تيا..

وباغت وجنتها بقبلة..

قبلة كادت تلامس طرف شفتيها أو ربما لامسته بالفعل..

تراجع وعيناه تلتمعان بنظرة بدت عصية على فهمها أو براءة إدراكها.. نظرة تشتهيها وتجهل هي أن اشتهاءه هو الخطوة الأولى وحسب..

لقد علم عنها بخبث بعض التفاصيل من صديقه وابن عمها "براندون".. فهم شيئًا عن خلفيتها ونصف حقيقتها والجانب الشرقي فيها..

استمتع بحمرة وجنتيها وخجلها بينما تنظر إليه بانشداه..

ارتباك غزاها فتراجعت تفتح باب المنزل وتدلف إليه بسرعة دون تحية وداع..

تستند عليه بظهرها وقلبها يضخ الدم بقسوة أجبرت وعيها على غياب باهت وهي تفكر بأي عالم حشرت نفسها!..

وبأي فوضى زجَّت روحها!..

وخوف ما.. خوف مبهم لا تدرك مصدره يتسلل إليها فيغرس في الفؤاد بذوره تاركًا لما هوآت مهمة إروائها ببطء..

وجهل.. جهل لا تأثم عليه بوقفة ابنة العم الكبرى المراقبة.. بحقد!..

***

المرأة تحب بكل قلبها.. والرجل يحب بكل قوته..

"ماركس أوربيلوس"

وهو أحبها بقوة..

أهداها قلبه فكانت لغيره..

لا يعلم ما يمكنه فعله!.. هل يباح له رؤيتها؟!.. يطمئن.. يرتاح.. يواسي!..

أم أن ذاك من المحرمات رُغم صداقة لم تنقطع لكن غطاها تراب الزمن وعام زواج بدا أقرب لدهر!..

كانت في المشفى أثناء سفره للأسكندرية في مهمة تخص جريدته، عندما عاد أخبرته والدته بأسى عن حال ابنة صديقتها إثر فقدانها جنينها للمرة الثانية..

والدته التي أجاد إخفاء حبه حتى عنها!..

زفر ونهض يراقب السماء من نافذة مكتبه، لقد أرسل إليها باقة من الورود البيضاء.. نقية صافية كما يراها، تثير البهجة بالنفس كما يتمنى لها..

فخسارتها موجعة حتى وإن سمع عنها من بُعد..

استرسال أفكاره وتشتته -بين رغبة قلب لم ينسَ بعد وعقل يجيد تكبيله- بترته ثلاث طرقات متتابعة على بابه ليدرك صاحبتها على الفور، رسم بداية بسمة فوق شفتيه ودعاها للدخول.. اندفعت هي بحماس تناوله عدة صور:

- إيه رأيك؟..

ازدانت ابتسامته بلمسة مرح عاتبة:

- صباح الخير..

توقفت لحظة لتجد أنها في غمرة حماسها نسيت أن تحييه، لم تفتر لهفتها بل اقتربت تنشر صورها على المكتب وتبتسم باعتذار لطيف:

- صباح الخير يا سيدي..

ونقرت بسبابتها فوق إحداها باهتمام:

- ها..

تأمل الصورة بتدقيق، عقد حاجبيه وانتقل ببصره للأخريات.. أمسك بواحدة وتغلبت احترافيته على نبرته:

- الصورة دي العزل فيه زايد عن اللزوم..

ورفع رأسه إليها مشيرًا بأنامله لمناطق معينة من صورتها:

- اللعب بالفوتوشوب مش دايما بيكون مفيد.. جربي تقللي ال Aperture..

مطت شفتيها بعدم رضى بينما تأمل هو واحدة أخرى:

- الصورة دي كانت محتاجة تفاصيل أكبر والعدسة ال ٣٥ مش هتساعدك، أظن عدسة ٥٥ هتكون أفضل..

وثالثة دقق فيها للحظات قبل أن يهز رأسه:

- دي كانت محتاجة عدسة زووم مش برايم..

ثم نظر نحوها بابتسامة مُعلم يجيد مهنته حد الإتقان:

- مصور الحوادث صعب يستخدم عدسة برايم، مش كل مرة هيكون متاح لك تكوني قريبة من مسرح الحدث، في مرات هيكون في خطر عليكِ فلازم دايمًا تكوني مستعدة بالزووم المناسب..

أما الصورة الأخيرة فابتسم بينما يعيدها لسطح المكتب:

- دي بقى مهزوزة شوية..

زفرت بضيق ولملمتهم بتأفف:

- ياسين مش شايف إنك دمرتهم كلهم!..

ضحك للحظة فتأملته وابتسامتها تسيطر على شفتيها وتقهر تجهم ملامحها:

- شوفي يا راما.. عاوزة تبقي مصورة محترفة!..

مال نحوها بلهجة خبيرة لم تخلُ من تواضع محبب:

- لازم تتقبلي النقد، تشوفي الخطأ وتتعلمي منه، تحاولي مرة ومليون.. ومع كل صورة هتزيد خبرتك.. مع كل لقطة هتتعلمي حاجة جديدة واللقطة اللي بعدها أكيد هتكون أفضل..

تراجعت خطوة تناظره بإعجاب لم تبذل جهدًا لإخفائه:

- كل يوم باكتشف إن بابا كان عنده حق..

واستدركت تخشن صوتها وترسم جدية مفتعلة على وجهها:

- أقصد سيادة رئيس التحرير.. إحم.. بابا دي في البيت يا راما..

وازت ضحكته نظرته المتسائلة عن مغزى جملتها فأخبرته بلمعة تغزو ما بين جفنيها:

- أنت فعلًا فنان..

ارتفع حاجباه باندهاش وكادت تجزم أن بسمته تلك التي ناوشت ثغره هي بسمة خجل!..

بادرته بحيويتها المعهودة:

- قولي.. بتحب الأكل الشعبي؟!..

تضاعفت الدهشة التي تطل من عينيه جوار سؤال غير منطوق جاوبته بحماس:

- أيوة.. يعني كباب وكفتة، ممبار.. محشي.. فتة!..

عادت إليه البسمة وداعبها:

- هو ده شعبي!..

هزت كتفيها بعجالة:

- يعني.. المهم، عازماك على الغدا النهاردة، وهاخد منك درس عملي مجاني.. اتفقنا؟!..

راحة غريبة تسللت إليه وطاقة دافئة أحاطت به في وجودها..

هي امرأة لها حضور صاخب.. لا يمكنك أن تتجاهله، أو تنساه.. حتى بعد رحيلها..

وافقها ببسمة لم تكد تفارق شفتيه معها:

- موافق.. بس العزومة عليَّ..

وكانت مشاغبة كعادتها بينما تتجه نحو الباب:

- أيوة طبعا، جو أنا الراجل وأنا اللي لازم أدفع..

فتحته ووقفت جواره بنصف التفاتة:

- عامة أنا المستفيدة في جميع الأحوال.. وموافقة على العزومة..

هز رأسه باستسلام وتعجب للمرة المائة في أقل من خمس دقائق..

ومجددًا..

هي امرأة تدهش من حولها أينما حلَّت.. وقطعًا هو ليس استثناءً!..

***

هل يجوز مع العشق خوف!..

وإن وُجد؛ هل ذاك عشق قد يستمر!..

هي لا تريد أن تخاف، وكلما نبتت فكرة بذهنها استنكرتها ورفضتها ثم تجاهلتها ومررتها محاولة تناسيها..

في كل لقاء يزداد يقينها من أن الأخرى تحبه، هو ينكر.. يدعي لامبالاة؛ أو ربما لا يبالي بالفعل.. وكلما تسلل الشك لقلبها عاد يحاصرها بمشاعر لا تستطيع أن تكذبها!..

رمت بنفسها فوق المقعد المجاور لصديقها بتنهيدة حارة جعلته ينظر إليها بتهكم:

- مالك يا عطية!..

نظرت إليه بغل وهو أدرك السبب فابتسم ولم يتراجع عن لقبها الذي لا يغيره أبدًا:

- بعد المحاضرة نتكلم..

كانت تحتاج لصديق تفضي إليه بما ينغص سعادتها، ومن أفضل من السيد الخبير!..

قرب نهاية اليوم الدراسي، تجاهلت محاضرتها الأخيرة وجذبته لرصيف الكلية لتجاوره في جلسة متوترة..

سردت عليه التفاصيل.. صرحت في ارتباك بمخاوفها ثم ختمت حديثها بكلمات حائرة:

- مش عارفة.. أنا محتارة يا آسر..

وأمسكت بكفه تناشده رأيه:

- قولي أنا صح ولا غلط!..

مسح وجهه بيده الحرة وفكر للحظات أتتها بعدها نبرته شبه ساخرة:

- والله أنتوا الستات فعلا بتحبوا النكد..

توسعت عيناها باستنكار وهي تلقي يده بعنف، رفع حاجبًا مستخفًا وابتسم موبخًا:

- يعني هو بقى جوزك، وبيقولك إنه بيحبك وإنه مالوش دعوة بمشاعرها ناحيته أيا كانت وأنتِ مصممة تزرعي الشك جواكِ وتعكنني على الراجل كل ما تتقابلوا!..

- آسر.. أنا...

- أنتِ نكدية يا ماما..

قرر عنها بيسر، علا وجهها الغضب فبادرها بجدية:

- هاسألك سؤال..

ترقبت كلماته وقلبها يؤنبها على شكٍ في ساكنه:

- هو لو بيحبها؛ اتجوزك أنتِ ليه!..

- أنا ما قلتش إنه بيحبها..

- قلتِ إنك خايفة يتأثر بمشاعرها ويحبها..

أومأت بسكون موافق فأردف:

- تفتكري منطقي إن راجل بيحب واحدة فعلا هيلاقي واحدة تانية بتحبه فيحبها بالمرة!..

تهدل كتفاها بقنوط:

- مش عارفة يا آسر!..

طرق رأسها بقبضته برفق:

- لأ اعرفي.. الراجل ما بيحبش واحدة لأنها بتحبه، ممكن تعجبه الحالة، يعيش الجو والفكرة تحسسه إنه مرغوب بس الحب لأ..

- تفتكر!..

- متأكد..

تنهدت تريد بها راحة لكنها خرجت مبتورة ورنين هاتفها يخبرها أنه قد أتى..

استقامت تعلمه برحيلها وخطواتها تتسابق في شبه عدوٍ إليه..

جاورته في سيارته التي انطلق بها على الفور وشفتيه مزمومتان كأنما هو.. غاضب!..

استغربت صمته فبادرته بتحية عاتبة:

- إيه!.. مافيش حتى إزيك؟!..

منحها نظرة جانبية بها من الضيق ما بها، مالت برأسها تكرر تساؤلها بصمت.. نقر فوق المقود بأنامله وزفر بحدة:

- هو أنتِ مافيش أصحاب غير آسر ده!..

ازداد استغرابها.. فكيف رآها معه وهو كان ينتظر خارج سور الجامعة!..

تنحنحت تحول سؤالها لصوت:

- أنت دخلت الجامعة؟..

شعر أنها تريد استفزازه أكثر ولا يدري لمَ!.. فهي لم تتعمد إغضابه من قبل..

تكررت الزفرة وتضاعفت الحدة بنبرته:

- شذى ما ترديش على سؤالي بسؤال..

ارتبكت للحظة.. ما به!..

- ليَّ أصحاب كتيريا جواد، بس آسر أقربهم..

انفجر غيظه بداخله فضغط دواسة الوقود أكثر وصوته يعلو قليلًا:

- أقربهم!..

كان هو غاضبًا.. وهي مندهشة مستغربة..

لأول مرة يتدخل بعلاقتها بأصدقائها.. ولم اختص ابن الحسيني بالتحديد!..

- جواد في إيه؟!.. أول مرة تتكلم معايا كده عن أصحابي..

الأنثى تضعف أمام العشق وتبعاته..

ومن تبعات العشق غيرة!..

غيرة أحلَّت له الأمر والنهي والغضب:

- باغيريا شذى..

- وده يديك الحق تتدخل في صداقاتي؟!..

كانت حانقة هي الأخرى.. رغم سعادة تسللت لقلبها بخبث:

- ده يديني كل الحقوق.. أنتِ مراتي..

لهجته شابها شيء من استنكار، فهي رفضت وعارضت ما ظن أنه لجام سيطرة!..

أنهى الحواربحزم قاطع:

- شذى.. قللي علاقتك بيه شوية، مش هاقولك اقطعيها..

- وأنا لوقلت لك قلل علاقتك بمريم ما تقطعهاش هتعمل كده؟!..

- يادي مريم اللي عاملة لك زلزال في دماغك!..

واتخذ منحنى طريق لم يكن ينبغي أن يمر به، فهما متجهان لتناول الغذاء:

- مريم أختي وعايشة معايا في نفس البيت.. اتكلمي بالعقل..

راقبت الشوارع للحظة قبل أن تلتفت إليه بتقرير:

- مش أختك يا جواد وبتحبك وأنت عارف..

زعق تلك المرة بينما يسرع أكثربحسب ما يسمح به الزحام الطفيف:

- كفاية يا شذى..

توقف فجأة لتجد أنها أمام المبنى الذي تقطنه:

- أنا مش فاهم أنتِ بتفكري إزاي؟.. وإزاي أصلا تلفتي انتباهي لمشاعر واحدة تانية ناحيتي وأنا ما كنتش شايفها من الأساس، وكمان مصممة عليها..

سكنت تبتلع هدره..

هو على حق بالفعل!..

- اطلعي البيت ورايا مشوار..

- جواد..

بتر كل حديثها بحزم مشتعل:

- مش وقت كلام تاني.. اتفضلي..

وألقى بصره عبر زجاج السيارة الأمامي يتجاهل وجودها..

تنهدت باستسلام وترجلت، قبل أن تستدير لتودعه انطلق بسرعة وشت بمدى استيائه..

بغرفتها ليلًا ظلت الأفكار تنهش عقلها وقلبها يوبخها ويلومها على رحيله..

وبين شد وجذب، غضب وعشق.. هرب ومواجهة أرسلت رسالة..

"أنا آسفة"..

وكلمات صديقها تدوي بالخلفية..

هل مع إصرارها بحشر الفتاة بينهما وسعادته الذكورية بتلك المشاعر؛ هل يمكن أن يميل إليها حقًا!..

وعاد إليها الخوف..

فهو يجوز مع الغفلة!..

***

ماذا بعد السقوط!..

البعض ينهض، يعتدل ببطء.. يستقيم ويكرر المحاولة..

والبعض انهياره ثورة وفشله صمود..

أما الأخرون.. يكون لهم نهاية!..

لا تدري أي صنف هي!..

كلما حاولت التماسك قهرها الألم، ووقتما ظنت أنها ستهب دفاعًا عن أنوثة منتهكة باسم العشق وجدت أن كل ما بها واهن هيّن..

وفي لحظة ما.. لحظة قنوط فكرت أنها من النوع الأخير..

الذي ينتهي مع صدمة قاصمة تهاجم روحه وتفترس كيانه..

هي بمنزل العائلة منذ أربعة أيام تقريبًا، تسمع رنين هاتفها باسمه وتتجاهله، ترى رسائله عبر كل وسيلة تواصل متاحة وتغض الطرف عنها..

ماذا يريد منها بعد!..

هل يشتهي ما تبقى منها!..

أم يريد أن يُجهز عليها!..

لمسة فوق كتفها بربتة حانية انتزعتها من شرودها، رفعت رأسها لتجده..

وانتفضت..

أبعدت يده واعتدلت في جلستها ترمقه برفض:

- طنط قالت لي إنك هنا..

كانت تجلس بحديقة المنزل قرب المسبح، عيناها تغوصان بمياهه الراكدة بضياع، أخبرها مستجيبًا لدفعتها بهدوء.. رُغم ألم قلبه فهو يتفهمها:

- هترجعي بيتنا إمتى؟..

سكنت للحظة تستوعب ما هذى به.. عن أي عودة يتحدث!..

وبعد السكون محاولة رد فاشلة انقلبت لضحكة هيستيرية انتهت بحشرجة ودمعة تخالط النبرة الخافتة:

- أنت فعلًا مش طبيعي.. أنت بتفكر إزاي؟!..

نهضت تتحرك بعشوائية أقرب للفوضى التي تعيث بعقلها الفساد:

- أرجع فين بعد اللي عرفته؟!..

والتفتت تواجهه بزعقة مختنقة:

- أرجع لمين؟!..

ثم اقتربت خطوة مهتاجة:

- للي غشني وخدعني ودخلني في دوامة كلها قرف..

وخطوة أخرى وازت انعقاد حاجبيه بشيء من استنكار:

- اللي بيخون إيمانه بربنا قبل ما يخوني!..

توقفت وهي تشعر بأن ما تقوله هو عبث بحت..

هل سيفكر في خالقه وهو على معصية ستكبه على وجهه في الجحيم!..

- أنت أصلا حاسس بتعمل إيه ولا مش مستوعب؟!..

لوحت بذراعيها في حيرة، بعدها ثنتهما تضم جسدها بهما وترتعش:

- أبسط حاجة إني خسرت ابني..

ورفعت رأسها تجلده بسياط نظرة تمازج فيها القهر بالقوة والعناد بالضعف:

- خلاص يا نزار.. ما فيش حاجة تربطنا ببعض..

أنهت حديثها وانتهت معه، وصمت!.. لا تدرك معنى صمته ولم تكن تبالي.. فقط ولَّته ظهرها في دعوة للرحيل..

لكنه على أرض معركة تخص قلبها ليس بالخصم السهل، لا يستسلم أو يهرب.. تبعها ووقف قريبًا منها..

قريبًا لحد أثار غثيانها فابتعدت أكثر:

- طب والحب يا ملك!..

كرر الصمت وأطال التفكير ثم أتت نبرته واهنة تتلمس حنوها:

- الحب مالوش حق علينا!.. ندافع عنه ونحاول نحميه، ما نسيبوش يموت!..

هزت رأسها بمرارة ورجفة جسدها تزداد بإطراد سخيف:

- أنت اللي دفنته بالحيا..

- ساعديني أكون زي ما واحدة زيك تستحق..

- لا يا نزار، دي حاجة تعملها لوحدك..

- طب خليكي جنبي، وأنا هاحارب.. بس أحس بقربك..

ابتعدت أكثر وعقلها يحذرها من مغبة الاستماع لكلمات تخدر وعيها وتلعب على وتر مشاعر تملأ قلبها ولم تغادره بعد:

- ما ينفعش..

تذكرت اليوم.. الساعة.. القرار.. اللحظة.. والمواجهة:

- أنا حتى مش عارفة أقول على اللي أنت عملته إيه!..

أغمضت عينيها تعتصرها لتكبت دموعها فانحسرت تنزف مع جروح خافقها الأحمق:

- ما ينفعش حتى أسميه خيانة!..

وازى كلمتها الأخيرة صوت خطوة..

خطوة ظهر صاحبها ربما في التوقيت الخاطئ تمامًا..

خطوة لا يعلم أهي صدفة..

أم تخطيط قدر!..

(١٥)

الحب ميزان.. دومًا مختل!..

الحب طعنة في مقتل المنطق!..

"باردوس"

ليس أصعب من حياة المرأة التي تجد نفسها واقفة بين رجل يحبها.. ورجل تحبه..

"جبران خليل جبران"

ولو قلصنا المدة.. لقلنا لحظة..

لحظة تخص امرأة تقف بين زوجها، وذاك الذي صرح بعشقها في رعونة ثم هرب عندما أصبحت لمن اختاره قلبها بغفلة عاشقة حمقاء..

في الحب.. الجهل منحة من القدر، والحقيقة تحمل معها الألم..

في الحب.. العمى راحة، والتجاهل أمان..

في الحب.. لا خيارات متاحة، أنت بين نارين؛ نار القرب.. ونار الفراق!..

تقف بين رجلين؛ بنظرة مشتتة ضائعة شبه مذهولة من حضوره المباغت، والزوج يلتفت وتتشابك الأعين في حرب قصيرة..

حرب لم تكن لتنتهي على خير خاصة مع كلمة "خيانة" التي داهمت مسامعه بقسوة أقرب لصاعقة برق..

تحركت لتفض اشتباك النظرات، ترحب بالقادم بفتور لامسه تساؤل أوجع قلبه:

- يوسف!.. حمد الله على السلامة..

سكنت ببساطة أفق البصروالفؤاد، استحوذت بحضورها ووقفتها المهتزة ونبرتها الغارقة في الوهن على الكيان، أجبرت الشفاه على بسمة حانية، ولغة الجسد بأكمله تعلن الشوق:

- الله يسلمك يا ملك..

والطرف الثالث لم يقنع بحضور مهمل، فجاور زوجته دون لمس يستدعي هدوء الموقف، يرحب هو الآخر ويبتسم بتمعن رجل يدرك كيف ينظر آخر لزوجته!..

بحاسة أنثوية فطرية أدركت ما يحدث..

ذاك يريدها وهذا لن يرحل ويتركها وحدها معه، فبادرت بالحل الذي يريحها من ثقل وجود كليهما، تخطت الواقف قبالتها متجاهلة المجاور لها بهمسة لم تكد تصل إليهما:

- عن إذنكم.. محتاجة أرتاح..

ولإثبات ملكية لا تزال عند طرف أصابعه تبعها مناديًا باسمها:

- كلامنا لسه ما خلصش، ما تفتكريش إنك هتهربي مني يا ملك.. أنا مش هيأس..

بلغتها كلماته خافتة متشبثة بأثر عشق على يقين هو من كونه مدفونًا بأعماق قلبها وروحها، لم تنظر إليه.. فقط أغمضت عينيها ورحلت بخطى متعثرة وبصر العاشق المحروم راحل بإثرها..

"نورت مصر يا يوسف.. يا ترى زيارة وراجع ولا هتستقر خلاص!"..

انتبه من غفوة عشقه على كلمات "نزار".. نظر إليه بحاجبين معقودين..

أيظنه أحمقًا أم أصمًا!..

لقد سمع، حتى لو كانت مجرد كلمة.. والويل له إن لم يتمسك بطرف الخيط الذي خُلق من العدم فانتشله من غياهب اليأس!..

رسم بسمة جليدية فوق فمه، كانت أقرب لاعوجاج طفيف حاد وشاب نظرته تحدٍ ظهر أكثر وضوحًا بصوته:

- هاستقر إن شاء الله..

تخطاه هو الآخر مضفيًا على لهجته برودة بينما يلمح الضيق والقلق يلتهمان ملامحه من خلفه:

- هاروح أسلم على مرات عمي..

وبين رحيل زوج وتتبع عاشق فرَّت هي..

لاحقها كأنه لو ركض سيلحق بها!..

وهم تمناه لكنها اختفت بالطابق العلوي و"جمانة" تستقبله، ترحب به بحبور وتسأل:

- جيت إمتى يا يوسف؟!..

قابل حنوها ببسمة ودود:

- جيت من المطارعلى هنا..

ارتفع حاجباها دهشة..

وبعد نظرة متفحصة أدركت بخبرة عاشقة مخضرمة السبب!..

لم تجادل أو تبحث بفضول، فيكفيها مطاردة عينيه لخطوات ابنتها التي هربت تحتمي بغرفتها؛ ربما من حضوره..

ابنتها التي لا يوجد بها متسع لأحد!..

لن تنكأ جرحًا يُصر هو بغباء المحبين على فتحه في كل مرة..

لم تعد له لكنه لا يمحوها من فؤاده..

أشارت إليه بحزم أم:

- تعالى، مادام لسه ما روحتش اتغدى معايا، عمك في الشغل وهيتأخر، ومروان خارج مع أصحابه..

كاد يهمس باستفهام عن تلك المختبئة بالأعلى لكنه فجأة آثر السكوت، وتوقف..

توقفت خطوات زوجة العم مع توقفه والتفتت إليه بتساؤل:

- هاستنى في الجنينة، ونتغدى هناك..

- طيب، كلم لميا وقول لها إنك هنا بدل ما تقيم علينا الحد..

ضحك وتذكر افتقاده لأمه..

بحماقة المغرم الشريد كان لقلبه القرار فغير مساره إليها، وليس على العاشق حرج..

انتقى مقعدًا يواجه شرفة غرفتها علّها تطل منها، كأن الأسطورة تليق به، أويصلح هو أن يكون روميو آخر!..

لن يمرر الأمر..

قد تكون حروفًا معدودة هي التي وصلت إليه، لكنه سينقب عن المزيد ولن يتراجع حتى تمام الفهم..

عينا زوجها أدركت تفاصيل نظرته وهو يعلم، كيف يغض بصره عنها وهي تقهر صموده وتستعمر تلك المسافة الضئيلة بين جفنيه!..

لا يبالي ولم يبالي..

فلو علم الكون بأسره عن قلبه المقتول عشقًا ما اهتم!..

***

أحيانًا نكون أكثر ضعفًا من مواجهة يصر طرف لا مكان له فيها على خوضها..

بعد هروبها هرولت لفراشها، نزعت عنها وشاحها وارتمت فوقه وأنفاسها تحرق صدرها..

ما الذي أتى به!..

هل جاء ليشهد سقوطها!..

أم عاد ليرجمها بذنب خديعة هي ضحيتها!..

أوربما قدِم بحثًا عن فتات تركه غيره وقبلها طبع عليه أثرًا لن يزول!..

انكمشت على نفسها بوضع جنين ضعيف، ضمت ركبتيها لصدرها بذراعيها وتعالى شهيقها كأن الهواء يتعثر بطريقه لرئتيها..

دمعة خادعة غادرت جفنيها، وآهة صامتة اخترقت ضلوعها.. ودت لو صرخت بها.. تمنت لو امتلكت شجاعة الاعتراف والتصريح.. و..

الفضيحة!..

أتراها لن تُمس حينها؟!.. أم أن السقطة المدوية ستجذبها معها نحو القاع!..

هي.. أبيها.. أخيها والعائلة!..

هل تمتلك القوة لتصرخ والعزم لتطالب بحرية لا تريد غيرها!..

ماذا عن الحب؟!..

والآن أي سخرية موجعة دفعت به وسط معمعة أفكارها!.. أي عقل ذاك الذي تخطي دوره وترك دفة القيادة لخافق مدحور بمعركة تمخض عنها رحم السِلْم بغتة!..

رأسها دارت فاعتدلت توازن جسدها.. مطارق عنيفة تضرب دماغها وعنقها، دموعها انهمرت بسرعة أكبر كأنما تخبرها أنها عاجزة.. مقهورة.. ومستضعفة بحماقة عشق أسود..

استقامت تواجه نفسها بمرآتها، لم تنظر بدقة.. خشيت أن ترى تلك المتبقية من حرب كانت فيها سبية بكذبة صدقتها ببلاهة..

مسحت وجنتيها المبللتين بكفها ببراءة لم ترحل عنها بعد، أدارت وجهها بعيدًا وتنهدت تمسك جانبي رأسها بيديها، تحركت نحو المنضدة المجاورة للفراش تفتش في جواريرها واحدًا تلو الآخر حتى أسقطت أحدها..

تلعن اختفاء مهدئها الذي وصفه لها طبيبها حين الحاجة، وتقسم لو أن أخاها نفذ ما هدد به وأخذه منها قلقًا عليها لـ..

لا تدري ما ستفعل به لكنها بالتأكيد ستفعل شيئًا!..

كانت تتمنى النوم، الهروب جيد لمن هي مثلها..

الغوص في دنيا اللا شعور.. اللا وعي، في عالم الأحلام النقي، في ماضٍ لن يعود، وربما توق طفولي بأن ما حدث.. كان هو الحلم!..

كان هو الكابوس!..

خرجت من غرفتها تعيد ربط الوشاح بعشوائية، تهبط الدرج مرتكنة لسوره في محاولة لتماسك ضائع..

فكرة ما انتبه لها عقلها قبل أن تترك نهايته؛ هل مازالا هنا!..

أي منهما!.. أحدهما أو كلاهما!..

تلفتت حولها بتوجس، لم يصلها سوى أصوات خافتة من المطبخ وهو كان مقصدها، ذهبت إليه بحثًا عن أمها والصداع ينهش عقلها حتى أوشكت على الصراخ..

ألمًا وغضبًا!..

وجدت خادمتين في المكان الخالي من والدتها، رمقتهما بتيه تسأل عن والدتها.. ردت الصغرى منهما باحترام والكبرى تراقب الواقفة بتوازن مختل أمامها في قلق:

- في الجنينة يا مدام ملك..

زفرت بحرارة ومسحت جبينها ووجنتها بكفها..

تشعر أنها على شفا السقوط، والهاوية مظلمة وقاعها بعيد مخيف..

غيرت وجهتها نحو حمام الطابق السفلي تفتش في صيدليته الصغيرة بعنف حتى وجدت مسكنًا ابتلعت منه قرصين دون ماء، ثم خرجت تبحث عن أمها..

وتعثرت به هو!..

تعثرت وكادت تهوي فانتفض يمسك بها وقبل أن يمسَّها اعتدلت تصنع بينها وبينه حاجزًا عاليًا بعينيها..

- فين ماما؟..

أشار بيده من وراء ظهرها:

- جالها مكالمة من عمي ودخلت جوا..

ورُغما عنه دنا خطوة بقلب عاشق ونظرة طبيب:

- ملك أنتِ كويسة؟!..

قهرها ضعفها فتمتمت بتشتت:

- محتاجة المهدئ بتاعي، مروان أخده مني..

تأمل ضعفها بعجز..

لو كانت ملكه لاحتواها؛ لصنع من صدره وسادة تريح ألمها، من نبضه لحن أمان.. لحملها بين يديه وأغلق عليها جفنيه فلا ترهقها حرارة شمس ولا يؤذيها برد شتاء..

قرب منها مقعدًا محاولًا إضفاء العملية على صوته:

- اقعدي..

- لأ.. عاوزة ماما..

- ملك.. أنت هتقعي من طولك، اقعدي هي جاية..

هزت رأسها بنفي صامت ونظرة تائهة أثارا حنقه فاقترب يدفع المقعد نحوها أكثر:

- أنتِ بتعاندي في إيه بالظبط؟!..

ومد يده نحوها كأنما سيجبرها:

- أنا مش هاكلك..

تراجعت خطوة وكادت تتعثر مرة أخرى فشهقت تتشبث بالمقعد، تماسكت بعسر وأوشكت على الرحيل لولا أن أوقفها:

- مالك يا ملك؟!..

منحته نصف نظرة وكانت تستكثرها عليه:

- مالي!..

أشار إليها وعيناه تحيطان بها قسرًا، تقهر إرادة عقله ورفضها:

- أنا سمعت كلامكم..

توقف نبضها لحظة، أم تراها تتوهم!.. ما الذي يقصده بالضبط!..

وهو اتخذ من الهجوم وسيلة فعالة للغاية نحو النصر:

- بيخونك يا ملك؟!..

هزت رأسها بعنف تتخلص من أثار ما هدر به:

- إيه اللي أنت بتقوله ده؟!..

احتدت نبرته عنوة مقررًا بثبات:

- اللي سمعته، أنت قلتِ خيانة..

واقترب خطوة واسعة:

- اللي أنتِ فيه ده بسبب خيانته!..

- اسكت..

كانت منها شبه صارخة وهي تغطي أذنيها بكفيها..

هي على وشك الانهيار، ستترك نفسها للسقوط فربما تحملها سقطتها نحو السماء وترحل في صمت..

هزت رأسها برفض عنيف وقتما وقف يراقب تخاذل ساقيها عن حملها بتوتر:

- أنت بأي حق بتتدخل؟!..

- ملك!..

قاطعت اعتراضه المؤنب:

- يوسف.. نزارده جوزي.. فاهم يعني إيه؟..

الكلمة اخترقت قلبه بقساوتها.. وواقعيتها:

- يعني أي مشاكل بيني وبينه بنحلها إحنا مع بعض.. ما حدش له حق يتدخل، خصوصا أنت..

- أنا!..

نطقها مستنكرًا فأردفت بقسوة مؤكدة:

- أيوة أنت.. وأكيد عارف السبب..

غضبه فاق حد سيطرته عليه فهاجمها بغلظة:

- حبك له عاميكِ حتى عن خيانته؟!..

خطوة تالية جعلته منها أقرب بينما صدرها يعلو ويهبط بجنون أنفاس متقطعة:

- ده مش حب يا ملك، لما يكسر قلبك ويخدعك وأنتِ تسامحيه يبقى مرض.. تبقي بتهيني نفسك..

امتلكت شيئًا من صلابة لتخبره بفظاظة:

- كويس إنك عارف إنه مرض..

والخطوة الثالثة كانت منها هي تشير إليه بسبابتها:

- حاول تدور له على علاج بعيد عني وعن حياتي يا يوسف..

لم يصدق ما نطقت به!..

أهذه هي الفتاة الرقيقة التي زلت قدمه عند حافة جحيم حبها فرحب بالسقوط؟!..

هل كسر العشق يطمس الهوية والروح!..

يغرس القسوة وينبت الألم!..

- يعني هترجعي له!..

- الموضوع ده يخصني أنا وهو بس..

- وعمي عارف؟..

استعرت عيناها بلهيب شرس يملك من الجاذبية ما يملك.. بدا لعينيه وكأن شمسًا سقطت بمقلتيها فجأة:

- لو عرف؛ هيبقى منك أنت.. ولو ده حصل؛ انسى إني كنت موجودة في حياتك من الأساس..

ودمدمت بكلمة أخيرة قبل رحيلها:

- يا بن عمي..

هدمت صرحًا وشيدت آخر..

كسرت قلبًا وأهانت عشقًا..

ومضت بكبرياء امرأة رآه جريحًا وشاهد نزفه، بينما كبَّلت يديه بقيد الخوف!..

رحلت تجر قدميها بضعف.. والدموع تعود لتروي وجنتيها من جديد..

هي باتت أنثى معطوبة..

وذاك العاشق التعِس يخاطر عابرًا خط نار الحب بطيش.. مقاتلًا على جبهة حرب خاسرة وبعد فوات الأوان..

لكنه فقط.. سيحترق!..

***

عاطفة المرأة مؤذية..

في الحب..

في الكره..

في الخوف..

في القلق..

والغضب..

مؤذية لها هي!..

تستنزفها، تهلكها وتبعثر ثباتها وركود أفكارها..

قلقها على ابنتها يؤرق نومها، خوفها يقبض قلبها..

خاصة عندما ارتطمت بتخبطها عائدة من خارج المنزل حيث كان ينتظر عودتها "يوسف" لتناول الغذاء سويًا..

وعلى مروره بذهنها تنهدت، نهضت من جوار زوجها ترتدي مئزرها، تحكمه عليها وتغادر للشرفة وسط ظلام الليل وضوء القمر الهادئ..

لم ترغب في سؤالها عن احتكاك ربما حدث بينهما، فهي تذكر المرة الأخيرة.. هروبها وضيق أبيها..

تأملت السماء بتيه وقلب أم يخبرها أن الأمور ليست بخير..

صغيرتها ترفض العودة لمنزلها رغم أنها أفضل حالًا!..

زوجها يزورها لكنه لا يمكث كثيرًا.. وأخيها يتمسك بها ويخبرها أنها بينهم أفضل..

كم كانت كلماته صادقة!..

ابنتها ذبلت.. لمعة عينيها انطفئت.. ملامحها بهتت.. وحتى مشاعرها محبوسة بداخلها كأن في تحريرها إثم!..

اتكأت بكفيها فوق السور وتنهيدة حارة ترتحل من صدرها ببطء..

تنهيدة بها من الحيرة أكثر ما بها من الراحة..

شعرت بيديه تحيطان بكتفيها وتسندها لجسده بحنو، أغمضت عينيها واستكانت لعناقه:

- صحيتَك!..

نبرته الهادئة المطمئنة كانت باسمة بينما يضمها أكثر:

- أنتِ عارفة إني بقلق لما تقلقي..

أراحت رأسها فوق كتفه، فرَّقت أجفانها تنظر للأفق المظلم باعتذار:

- غصب عني..

قبَّل خصلاتها بشفقة وتنهد:

- عارف..

أدارها بين ذراعيه يواجه تشتت مقلتيها وهو أدرى بسببه:

- ما تخافيش عليها.. ملك قوية ومؤمنة.. مش فقدان الجنين اللي هيكسرها، هي بس محتاجة وقت عشان تستعيد توازنها..

ثم رفع وجهها إليه بجذبة من أنامله لذقنها:

- إديها وقتها.. الخسارة مش سهلة على أي حد، وكل اللي تعمليه إنك تكوني جنبها وبس..

- قلبي واجعني عليها.. خايفة وحاسة بيها وبوجعها..

لم تكن في حاجة لأن تمرر إليه مخاوفها، فمثلها بداخله..

تلك التي تناديه "أبي".. من تربت على يديه وباتت ابنته، تلك المليئة بالحيوية والعنفوان والعزيمة..

تغيرت!..

انكسرت!..

لا يعلم، هناك خطأ مبهم في الصورة وهي تحتفظ به لنفسها.. نعم خسارة طفلها لمرة وثانية بعد انتظار أمر يعصر القلب، لكن هي يمكنها تحمله.. صحيح!..

أخرس أفكاره يبثها اطمئنانًا تحتاجه، احتوى وجنتها بكفه فمالت تستسلم لدفئها:

- لازم تكوني قوية عشان هي بتستمد قوتها منك.. أنا واثق فيكِ..

ابتعدت خطوة تعود ببصرها نحو القمر الذي حجبته غيمة رمادية لثوان فبدا باهتًا كطفلتها:

- باحاول..

استمر على رفقه بقلبها المرتعب:

- مش مطلوب منك أكتر من كده..

ابتسمت لعينيه بحب بادلها إياه..

التفت يجرها خلفه عائدًا للغرفة ولهجته تشوبها جدية أدهشتها:

- وآخر مرة تخرجي البلكونة كده حتى لو الفجر..

لا يزال على غيرته..

وإن مر بهما العمر..

وإن كانت شرفة غرفتهما تواجه شجرًا كثيفًا يطل على حديقة المنزل الخلفية الخالية من الحراس..

ارتفع حاجباها وابتسامة تدحرعبوس شفتيها:

- أدهم!..

توبخه!..

توقف واستداروووجهه على الضوء الخافت لم يكن يمزح!..

هزمتها تلك المرة ضحكة خافتة:

- أنت مش معقول بجد..

لم يرد، اكتفى بمطة شفاه طفيفة وانزواء حاجب..

انتهت خطواته عند الفراش فجذبها لتسكن صدره، يمنح رأسها قبلة ثانية ويهمس بنبرة تبعث في أوصالها الأمان:

- تصبحي على خير..

ودون استغراب.. دون توتر أو ارتجاف خافق قلِق.. نامت!..

نامت على يقين أن كل شيء سيكون بخير..

طالما هو هنا..

ومادامت هي بين ذراعيه، مسكنها ومستقرها..

***

البعض لا يتعلم متى يُسلم للهزيمة.. متى يترك الأمس ويفكر بما هو آت..

يظل يركض خلف سراب، ويطارد أملًا وهميًا؛ ربما للأبد..

ابنه يفعل..

ابنته تفعل..

ويداه مغلولتان إلى عنقه في عجز!..

رغم خسارة الابن وكلمة تمت التي خُتمت بها حكايته دون أن تشمله؛ فهو لايزال يتشبث بحب أقرب لصدع بعمق القلب..

والابنة ليست استثناءً..

تترك قلبها يهيم في ملكوت رجل لا يراها..

ومهما نصحها على لسان توأمتها دون توجيه مباشر، تتعلق بحلمها أكثر..

يخشى عليها انكسارًا لن تتحمله بريئة مثلها، لكن..

يظل الألم هو معلم الحياة الأول..

معلم فشل في تلقين بكريه درسًا، وطالب غير نجيب لم يستوعب جيدًا فرسب بالاختبار..

لقد عاد..

تجاهل رفض أبيه وعاد..

ذهب إليها ليراها، وعندما رآه لم يكن في حاجة لتخمين ما حدث..

رفضت وجوده!..

جرحته!..

هشَّمت قلبه مجددًا!..

لا يدري أيحزن على شجن وضياع ملامحه عند عودته للمنزل، تلك الحيرة التي ظهرت بعينيه.. أم يغضب لأنه لم ينصت إليه، لأنه يتدخل فيما لا يخصه!..

يود لو صفعه ليفيق على حقيقة واحدة..

هي زوجة رجل آخر؛ كيف تسول له نفسها منها اقترابًا!..

وتدخل الضمير بلحظة ضعف يخبره ببساطة أنه الفؤاد.. هاته المضغة الضعيفة، الكامنة بين الضلوع.. وتنحني لخياراتها جباه أعتى الرجال..

وكأن ذلك مسوغ ضعف!..

صغيرته نالها منه تأنيبًا حادًا ولومًا لاذعًا على تدخلها بشكل غير ملائم فيما لا يعنيها، تتبُع أخبار ابنة عمها ومراسلة أخيها بها بلا حذر..

فقط تخضع للحب وأحكامه.. وتلك حماقة إن غلبت العقل..

طرق باب ابنه بهدوء ثم فتحه دون انتظار، وجده ممددٌ بفراشه على ضوء خافت وعيناه تحملقان في السقف بشرود..

أضاء نور الغرفة فرمش باستياء.. اعتدل يواجه أبيه الذي وقف يشد قامته ونظرته تخبر بالكثير، تهدل كتفاه واكتفى بالصمت..

زفر وكلماته مترددة بين التوبيخ والمواساة، لكنه من جلب ذلك على نفسه:

- اطمنت عليها يا يوسف؟!..

أخفض بصره واستمر على جموده فهز "آدم" رأسه:

- أنت عارف اللي بتعمله ده هيوصلك لإيه معاها؟!..

لا شيء..

كان جوابه لنفسه لكن والده صدمه وأجبره على النظر إليه باقتضابٍ قاسٍ:

- هتفقد احترامها ليك..

اقترب خطوة بدت أشبه بهجوم:

- هتخسر أي ود كان بينكم وكان ممكن يستمر..

وعدَّد بغضب بشَّرت به نبرته قسرًا:

- أخوة، صداقة..

الخطوة الثانية جعلته عند الفراش مجبرًا ولده على رفع ناظريه ليواجه قسوة لهجة فرضها خوف:

- هتخسر إنك تكون سندها وقت ما تحتاج لسند لأنها مستحيل هتلجأ لك..

ثم مال نحوه يتمم بغلظة علَّه يصحو من غفوة عشق أمره محسوم، غفوة أقرب لغيبوبة:

- حصارك ليها هيخلي مشاعرها ناحيتك تتحول للنقيض.. عارف نقيض اللي جواها إيه!..

راقب انفعال مقلتا "يوسف" والغيمة الغامضة التي ظللت وجهه:

- كُره..

اعتدل غير آبه برجفة لامست فك الجالس بوجوم، بطرفة عينه المأخوذة.. كان كأنه اكتفى وبقي سطر واحد يضع به كلمة النهاية، لا يهمه منه ردًا بل فقط أن يعقل ما يقوله:

- اللي بتعمله ده لا يرضى بيه دين ولا مجتمع.. راجع نفسك يا يوسف..

وخطوات اقترابه ابتعدها..

خرج وتركه لشيطانه يوسوس له جهرًا بما يعرف.. غادره ويأسه يرسم الصورة بقتامة ألوانه..

هو لا يعلم كم من مرة عليه أن يُهزم في تلك الحرب؛ حتى يرفع راية الاستسلام!..

لكن هذه المرة بالتأكيد لن تكون الأخيرة..

***

ضعف الحب مشروع.. أم مرفوض!..

هل عليها أن تقرر الحب.. أم تخضع له وحسب!..

هو اختطفها بكلمة..

أسرها بقرار عشق..

ثم تركها تسقط في غرامه على مهل..

لم تهوِ فتفزع، ولم ترتطم بقاع فتتوجع.. هي معه تحلق، ترتقي.. تترك نفسها لدنيا الحلم للحظات، فتحِب وتحَب..

ورُغم خوف البدايات المجهولة؛ فغموضها جاذب مثير للفضول..

ركضت خطواتها فوق درج المنزل بعجالة، تركت حقيبتها على طاولة قريبة من بابه وتوجهت نحو المطبخ حيث والدتها تعد الإفطار بنفسها في عادة لم تنقطع يومًا..

احتضنت خصرها من الخلف وقبلت كتفها، التقطت من أمامها شريحة خبز بمربى المشمش التي تعشقها وتحركت مغادرة:

- معلش يا ماما اتأخرت على السيكشن، مش هافطر معاكم..

لاحقتها والدتها بكوب من العصير قبل أن تخرج:

- استني.. اشربي دي..

توقفت باعتراض طفولي:

- ماما..

- اشربيها..

تناولتها تتجرع منها رشفات سريعة كادت تغص بها والأم تضحك:

- بالراحة يا غرام.. الكلية مش هتهرب..

ابتسمت وتابعت برشفة أخرى غصت بها فعليًا مع استطرادة "دينا":

- ولا يا ترى حد تاني هو اللي هيهرب!..

وضعت الكوب على سطح المبطخ وهي تسعل بشدة مما جعل أمها تربت عليها برفق لامسه قلق..

إذًا هي على حق!..

قلب ابنتها الوحيدة لم يعد خاليًا!..

أترى من امتلكه؛ يستحق أن يسكنه؟!..

أم سيكون لها سقطة، انكسارًا قد لا ينجبر!..

"إيه يا ماما اللي بتقوليه ده؟!"..

افتعال المرح واضح، التصنع بين، والهرب حل سهل:

- كنت باهزر معاكِ، بس طلع بجد..

مسحت فمها بمحرمة ورقية واستدارت ترحل:

- هو إيه اللي بجد بس يا دودو؟!.. أفكارك راحت فين!..

- غرام..

أوقفتها بنبرة امتزج فيها الحزم بالحنان وبعض خوف حاولت مداراته بينما تلتفت إليها:

- وقت ما تحسي إنك عاوزة تحكي؛ هتلاقيني مستنية أسمع..

هزت رأسها باعتراض، لقد انحشرت بين سندان الاعتراف ومطرقة الرفض.. فاختارت الفرار:

- ما فيش حاجة تتحكي يا دودو.. وسلام بقى عشان اتأخرت..

تأكل الكلمات، تهرول في الخطوات.. وتعدو وتسبه، تلهث وتلعنه..

هو السبب..

وصلت لكليتها بعد طريق مزدحم نال من غضبها أكثر، قصدت قاعتها ولسانها يدمدم بكلمات لا معنى لها.. وهناك وجدت سببًا جديدًا لتقتله وترتاح.. لقد نقلها دون علمها لتصبح معه!..

تحركت متوجهة لمكان تواجده، طرقت الباب ودخلت تتفادى النظر إليه لكنه لم يتفادَ منحها مزيدًا من الغيظ:

- على فكرة ما بحبش حد يدخل بعدي.. بس عشان أول مرة هاسمح بكده..

رفعت بصرها إليه وغيومها تلمع بصواعق نفضت قلبه، الانتفاضة تحولت لبسمة بها شيء من عبث لا يراه سواها ونظراته تتحداها أن تعترض..

هزت رأسها واتخذت مقعدها بعيدًا عن مكان وقوفه، تلافت لقاء عينيه حتى انتهى وقت المحاضرة، جلس بمقعده منشغلًا بعدة أوراق أمامه وكانت تعلم أنها حجة ليحادثها، ماطلت هي الأخرى في لملمة حاجياتها حتى خرج الجميع وتبقى..

هو وهي.. وشعلة تتوهج بينهما..

شعلة من غضب..

- ممكن أفهم أنا جيت هنا إزاي؟!..

وكعادته لم يناور أو يراوغ، نهض ودار حول المكتب، استند إليه ويديه في جيبي بنطاله:

- عادي.. اعتبرت أنك قدمتِ طلب تغيير السيكشن ووافقت ونقلتك..

- بس أنا ما طلبتش..

- قلت لك عاوزك معايا..

انعقد حاجباها وأنفاسها تتسارع بحنق:

- أنت اعتبرت أنك كده عملت اللي عليك؟.. بلغتني واتصرفت على أساس موافقتي اللي حتى ما سمعتهاش؟!..

- غرام..

زفرت تراقب استقامته، رفعت بصرها إليه وضيقها يتضاعف.. تبغض شعور الضعف، تكره أن يعتبرها أحدهم من المسلمات.. وما يثير جنونها أن يجبرها ذلك الأحدهم على ما لم توافق عليه..

من يظن نفسه؟!..

عاشقها!..

ثم ماذا!..

- لو مش عاوزة ممكن ترجعي السيكشن بتاعك تاني.. أنتِ مش مجبرة..

تأملت تجهم ملامحه بحيرة، عيناه غامضتان لا تقرأهما بيسر:

- أنا كنت عاوزك معايا وبس.. لكن لو أنتِ مش عاوزة، براحتك..

وألقى الكرة بملعبها..

أهو اختبار مشاعر!..

تبًا لك "مروان"..

هل يُكتف يديها بذريعة حب!..

يقنن حريتها والعذر قرب!..

صمتت للحظات وقلبها يؤنبها على معاندته، أتت نبرتها بعدها متذمرة:

- مادام اتنقلت خلاص..

تطلع إليها قليلًا دون رد كأنما يشعل بها لهيب الانتظار، بعدها عادت له ابتسامته المشاكسة:

- طيب ما كان من الأول..

زمت شفتيها وشيطانها يهمس لها أن تسدد ركلة عنيفة لساقه، رغمًا عنها ناوش ثغرها بسمة شريرة وأفكارها الدموية عنه تتكرر، هذه المرة انتبه باكرًا وعلق بعبث بينما يداعب ذقنه متظاهرًا بالتفكير:

- دي تاني مرة أشوف الابتسامة دي.. وأعتقد إنك تقريبًا بتفكري تقتليني إزاي!..

وكانت ضحكتها الأولى له..

ناعمة، رقيقة.. بها حياة وطاقة دافئة غمرته فطافت عيناه حولها بعشق سافر أهداها الخجل..

ضعف الحب مشروع.. نعم..

حتى لو خشينا السقوط!..

***

نحن نكسر، نجرح، نؤذي من أن نعلم أن حبه لنا غير مشروط..

لن ينتهي أو يزول..

نجيد طعن قلبه واليقين يجعلنا نؤمن أنه سيجد لنا من المبررات والدوافع ما يحكم به لصالحنا..

وهي تفعل ذلك في كل يوم..

بخالها الذي هو أبيها..

أتاها بالأمس ورُغم أنها كانت تود أن تستقر بأمان أحضانه لكنها فقط لم تفعل..

قابلته..

استمعت لإلحاحه عليها بالعودة معه للمنزل، عارضت وغضب ثم قست عليه تجبره على ما تريد..

تنتزع منه وعد البقاء حتى نهاية الصيف..

تغفل عن قلقه وخوفه، وتهرب من طوق ألمه الذي يزعج قلبها.. وفي النهاية رحل يودعها بنظرة عاتبة علقت بروحها..

"تيا.. هيا حضري حالك، سنذهب للشاطئ"..

انتفضت مع حماس "باتريشيا" المبالغ فيه وهي تقفز فوق فراشها بلهفة فرحة:

- توني دعانا لقضاء نهاية الأسبوع بجزيرة ميرسي Mersea..

وضمت كفيها عند صدرها بنشوة:

- المكان رائع هناك ..

منحتها بسمة باهتة، تردد غير مفهوم جعلها لا تجيبها بذات اللحظة..

"توني" خلال الأيام الماضية لم يقترب متخطيًا حدًا وضعته بينهما، تراه صديقًا ودودًا حتى أنها أخبرته شيئًا عن ماضي أمها الذي عرفته مؤخرًا..

يدعوها للسهر بالخارج بصحبة أقربائها وصديقه، يخصها باهتمامه الذي يسعدها.. يطوف حولها بنظرة تشبع أنوثتها..

لكن ارتباكها في محيطه يخيفها خاصة مع ما بقلب ابنة عمها له!..

"هيا تيا.. إلى أين ذهب عقلك؟!"..

انتبهت لها تجذب يدها تحثها على النهوض:

- هل وافق عمي.. باتي؟!..

"ولمَ قد يرفض؟!"

أتاها الجواب من "أنابيل" التي تقف عند باب الغرفة تنظر نحوها بتعالٍ بارد:

- أفيقي تيا.. نحن هنا في لندن، التحضر في كل مكان، اتركي شرقيتك الرجعية حيث كانت وإلا عودي إليها..

- آنابيل.. توقفي..

كانت هذه من الفتاة الودود لكنها لم تكن كافية لردع شقيقتها وهي تهز كتفيها:

- ماذا!.. هذه هي الحقيقة، أبي لا يتحكم بنا.. لسنا أطفالًا..

- لا تكترثي لها تيا.. هيا..

كأنها ستفعل، تدرك كيف تشعر نحوها وتتجاهلها.. وربما ذلك ما يثير حنقها!.. كان مع "باتريشيا" حقيبة ورقية أنيقة ألقتها على الفراش والتقطت منها زي سباحة من قطعتين أزرق بلون موج البحر.. تأملته بتفحص ثم ناولته لها:

- هذا لكِ تيا.. سيكون مثيرًا مع لون عينيك..

لم تأخذه منها وهي تفغر فاهها باستنكار:

- ماذا.. لا باتي، أنا لن أرتدي ذاك الشيء..

- لماذا؟!..

ارتبكت لحظة فكيف تشرح لها ما تفكر به!..

- عارٍ للغاية..

كانت أول كلمة جالت بذهنها والرد من "أنابيل" ضحكة عالية ساخرة بينما تستدير راحلة:

- أخبرتك تيش.. شرقيتها ستنتصر..

نظرت لها الفتاة بإحباط فابتسمت لها تكبت غضبها من البلهاء الكبرى التي تهزأ منها في كل مناسبة متاحة:

- لن أرتديه لكنني سآتي..

المكان بالفعل كان مميزًا..

أكواخ ملونة متراصة على شاطئ ساحر، الرمال الناعمة والنسيم الدافئ..

في النهار السباحة وحمامات الشمس والمشروبات الاستوائية، وفي الليل الموسيقى والرقص والمرح حول نيران أشبه بالمخيمات..

بعد رقصة مرحة معه جذبها بعيدًا تحت أعين ابنتا عمها المراقبتين، واحدة بحزن والثانية بغموض!..

أحاط يدها بكفه فحاولت استعادتها، تمسك بها وغمزها:

- لن أخطفك يا صغيرة..

تضايقت من تلميحه عن خوفها فتحدته:

- ولو حاولت؛ لن تستطيع..

- وااو.. القطة لها مخالب..

هزت كتفيها تؤكد على كلماته فأكمل هو:

- ألم أقل لكِ أنكِ تعجبينني..

ثم أوقفها تواجهه، تأملها على ضوء القمر ونيران الأصدقاء القادمة من بعيد، مد يده الأخرى يبعد بها خصلاتها التي يداعبها الهواء عن وجهها وتأملها بسكون..

اقترب منها خطوة وأنفاسها مسجونة بصدرها.. تتطلع إليه في ترقب، تخمن ما سيقدم عليه وتعود فترفض الفكرة..

رفع يدها التي يمسك بها فوضعها عند موضع قلبه، أحست بنبضه القوي فتوترت أكثر..

نيته ارتسمت بعينيه فخافت، تعثرت في ارتباكها وعندما حاولت التراجع؛ احتجزها في قبلة..

قبلة حشد فيها كل خبراته بعالم النساء ليسقطها في عالمه، قبلة لم ترفضها بل تجمدت لها ورنين ضحكات "أنابيل" الساخرة يدوي في أذنيها..

"شرقية"..

"رجعية"..

ويداه تتحركان فوق جسدها كثعبان سام.. هادئ، بطيء لا يريد إثارة ذعرها حتى لحظة القنص.. يضمها بواحدة ويستكشف مفاتنها بالثانية..

أدركت ما يفعله متأخرة فدفعته بحدة جعلته ينظر إليها بدهشة:

- ما الذي حدث تيا؟!..

جف حلقها..

هي لا تدري ما حدث..

كيف تركت نفسها تغرق في قبلته، ومن تتحدى!..

نفسها أم حمقاء تكرهها!..

ومن حينها ستخسر!..

"تيا.. هل أنتِ بخير؟"..

من نظرة واحدة فهم..

ذلك الصراع على وجهها بين معتقدات تربت عليها عمرًا بأكمله، وبين تمرد جديد تحياه في كل لحظة..

اقترب يطمئنها:

- تيا أنا لن أؤذيكِ أبدًا..

ابتعدت أكثر، حاوطت جسدها بذراعيها ورعشة باردة تطولها بالكلية:

- أنا.. أنا..

- أنت ماذا حبيبتي؟!..

- حبيبتُك!..

تلاقت الأعين بين سؤال مشدوه وجواب مبهم:

- ولمَ لا!..

وعاد يقترب.. يتسلل.. يذلل العقبات:

- ما الخطأ في أن أقبلك؟.. لمَ ابتعدتِ؟..

هزت رأسها رافضة:

- هذا ليس صحيحًا..

- من قال ذلك؟!..

رمقته بحيرة فأردف بنبرة خافتة ناعمة:

- كل شيء مباح في الحب تيا..

- لكنك لا تحبني؟!..

مط شفتيه وأهداها بسمة عابثة:

- أنا من يقرر وليس أنت..

وخطوتان تاليتان تركتا الفارق بينهما لا يذكر:

- هل تخافينني؟!..

نفت بهزة وتمتمة غير مسموعة.. أحاط خصرها بكفيه واحتوى عينيها في نظرة أقرب لأحجية لا تمتلك كامل قطعها:

- قبليني إذًا..

- لا توني.. لا أستطيع..

وحررت نفسها من حصاره..

فرَّت عدوًا تلجأ للكوخ الذي ستبيت فيه..

فرَّت وكل ما بها ينتفض.. والسؤال يتردد بذهنها عاليًا..

عند الخضوع لإغواء التحرر والانفلات من رداء الشرق الضيق..

من ستخسر؟!..

***

في العلاقة بين الرجل والمرأة.. الأنثى دومًا هي الطرف المخطئ، الحلقة الأضعف..

تُحاسب على خطئها وتُجلد على أخطائه!..

وهو كان يجلدها بالفعل.. مرت أيام طويلة يرد على مكالماتها باقتضاب، يتعلل بالعمل الذي يشغل كل وقته لأنه في حاجة لإثبات كفائته، لا يمر عليها كما اعتادا يومًا بعد يوم لتناول الغذاء سويا..

في النهاية لم تعد تعلم ما تفعل إلا.. محاولة مواجهة..

بمقر عمله..

خرج ليجدها ترتكن لسيارته عبر الشارع، تجهم وجهه فشعرت ببؤس، انحسرت بسمتها التي ولدت لأجله حتى وقف قبالتها، جعد جبينه واقتحم عينيها بنظرة غاضبة دون حديث.. بادرت بارتباك عاتب:

- ينفع تخاصمني ده كله!..

انحنت زاوية فمه ببسمة حانقة شابها سخرية:

- مخاصمك؟.. إحنا بنتكلم كل يوم يا شذى..

- إزيك عامل إيه؟.. الحمد لله.. طيب هاقفل عشان مشغول!..

كانت تقلد نبرته وحدته، لم يبتسم وظل على صمته يعاقبها:

- جواد ده غصب عني، أنت لو مكاني هتتعب.. مجرد وجود آسر ورفضته مع إنه بيعاملني على إني واحد صاحبه.. فما بالك بقى بواحدة بتحـ

- شذى..

زعق بها يبتر كلمتها فبدلتها باعتذار:

- أنا آسفة..

- اعتذرتِ قبل كده..

رفعت عينيها إليه بقنوط:

- إيه اللي يرضيك؟..

نظر للبعيد بتنهيدة وهزة رأس مستسلمة:

- بطلي تفكري في الموضوع ده، ما تتكلميش فيه تاني نهائي..

- حاضر..

همستها برقة أجبرته على بسمة وزفرة حارة، فتح لها باب السيارة وجاورها في مقعد السائق، أمسك بكفها يقبل أناملها ويلقي إليها بقرار آخر:

- أنا هاتفق مع عمي الفرح يكون في أجازة نص السنة..

والآن ماذا!..

يضغط عليها بورقة عشق!..

شهقت ممانعة:

- لأ ما ينفعش..

- ليه؟!..

تحركت في مقعدها بتوتر:

- خليه في الصيف.. على الأقل أقضي أطول وقت معاك قبل الدراسة ما تبتدي تاني..

غمزها بمكر:

- إذا كان كده ماشي..

وكزت كتفه بخجل وأرسلت بصرها بعيدًا عنه..

تحبه!.. نعم..

فلمَ بحماقة تترك الخوف يعكر صفو ذلك الحب!..

***

الحرب خدعة..

العشق خدعة..

والكذب غواية العشاق..

وقلبها في تلك المعضلة، معلق بين حياة وموت..

في وسط جلسة فتيات شملت "صبا".. "حلا" و"سها" كانت شاردة، حالها لم يتغير منذ أسبوعين تقريبًا..

أصبحت تجيد الهروب والإدعاء والتظاهر أكثر مما تتقن التنفس..

باتت تحترف الصمت وتبرع في كتمان الألم والخذلان..

بالأمس قبل أن تغيب في نوم متقطع غارق في كوابيس الوحشة والخسارة أرسلت له كلمة واحدة..

كلمة ردت بها على رسائله المتواصلة بمعدل كل ساعة تقريبًا على مدار اليوم..

كلمة تظن أنها القاصمة، مقصلة البتر لعنق علاقة فاشلة لا يجوز أن تستمر وإن خرجت منها بذكرى مرارة هزيمة تنهشها أنياب الخيبة..

"طلقني"..

لم تزد عنها حرفًا، ولم ترِد غيرها..

وسخرت منها بقايا إدراك.. أتظنينه سيفعل بتلك البساطة!..

قاطعت "سارة" حديثهن من حولها بدخولها لغرفتها:

- حلا.. سها، يلا بابا وصل، صبا تعالي هنوصلك في طريقنا..

ودعنها بابتسامات حانية وغادرن المكان، وقفت العمة تواجهها برفق:

- مش ناوية تروحي بيتك بقى؟!..

رفعت إليها عينيها بتساؤل:

- أنتِ بقى لك هنا أكتر من أسبوعين، وجوزك أكيد محتاج لك يا ملك..

- سارة.. أنا..

بترت دوافعها بحنو:

- عارفة أنك محتاجة الوقت ده، بس ما تستغليش صبره لآخر قطرة..

قبلت جبينها وهمست في أذنها بمكر رقيق:

- على فكرة هو برا..

انتفضت..

هل أتاها يستنكر رغبتها أم ينفذها!..

وجدته عند بابها بنظرة عاتبة وملامح مرهقة كأنه لم ينم لأيام، اقترب بتشبث عاشق وتباعدت بهروب مجروح..

- عاوزة تسيبيني يا ملك؟!..

رمقته بتعب..

لمّ لا يحررها فيريحها ويرتاح!..

لمَ يثقل عليها بجريرة حب سكنها نحوه وآخذها عليه!..

همسه يتسرب بخبث إليها:

- طيب إديني فرصة!.. فرصة واحدة بس..

ومع كل تمتمة ناعمة خطوة اقتراب يداهم بها قلبها:

- خليكي جنبي، خدي بإيدي..

والآن هو يواجهها تمامًا، يود لو تعلق بيدها..

يخبرها أنها قشة نجاته..

أنها الحلم والوهم والعشق..

أنها الجنون، الشغف والاشتياق..

أنها ترياقه وشفاء روحه..

- أنا مستعد أعمل أي حاجة ترجعك ليَّ..

وركع عند طرف الفراش يحيطها بعينيه، يضعف عزيمتها ويحرمها حرية القرار:

- هاروح لدكتور نفسي.. هاحاول أبطل، هاكون ليكِ وبس..

- لأ..

همستها بوهن وعبراتها تنساب ببطء:

- كل اللي بتقوله ما ينفعش.. لا الكذبة هينفع تبقى حقيقة، ولا هترجع عن اللي بتعمله إلا لو مقتنع إنه غلط..

وصمتت لحظة أكملت بعدها بمرارة:

- الكذبة خلاص؛ مش هينفع أصدقها.. لا أنا ولا أنت..

تردد يريد معانقة أناملها المرتجفة، كف يده عنها وعيناه ترمقانها بانكسار:

- فرصة واحدة بس.. وأوعدك هاحاول وهانجح، المهم تكوني معايا.. جنبي..

احتواها في نظرة حب يثير جنونها وجوده:

- تكوني نقطة النور..

يكرر كلمة شقيقته، لكن أيمكن أن تكون صحيحة!..

هل تمد له يدها فتصبح طوق نجاته من ظلماته وآثامه!..

هل يمكنها أن تعيد الحياة لعشقٍ ظنت عمره الأبد؟!..

أن تنقذ رجلًا كان الحبيب والزوج وفي حلم ما كان لأطفالها أبًا!..

هل عند الله تشاركه الجرم!..

أم تثاب على عودته عن ذنبٍ عظيم!..

مد يده إليها وشرودها يدلل على استسلام، همس يدفعها نحوه:

- مش مطلوب منك أي حاجة غير إنك تكوني جنبي..

ناظرته بوهن غريب فأردف:

- هتمسكي إيدي وترجعيني يا ملك؟!..

انتقل بصرها لكفه الممدودة نحوها، الحيرة تفترس عقلها، الخوف يلتهم قلبها، وكيانها كله ينهشه ضياع..

الحب ضارية؛ لا تهرب فريسة من براثنه دون خسارة..

والحب دفع بيدها لتستقر في يده..

على أمل!..

في زمن الحرب قال أحدهم ذات مرة: كلما كانت الكذبة كبيرة كانت أقرب إلى التصديق..

وكذبة العشق هي خديعة كل أنثى!..

لأجلها تسقط..

تنهض..

تقف..

تركض..

تهدأ..

تثور..

تحيا وتموت..

لأجلها تقدم كل ثمين وترضى بأقل قليل..

عند الأنثى؛ الحب نقطة تلتقي عندها كل مبررات العالم..

فيكفي أن تقول: "أحببت" لتقنع ضميرها بكل خطيئة ممكنة وتتجلد عند جُل وجع محتمل.. بل تُسلِّم نفسها لتياره وإن سحبها نحو القاع مستكينةً للغرق!..

(١٦)

الحب هو تلك الحماقة..

التي لا يمتنع بنو البشر..

عن السقوط فيها..

الحب هو المجازفة..

التي لا يتخذ معها أحد..

احتياطات أمان!..

العشق معزوفة متمردة على أوتار القلوب..

بإيقاع صاخب لحظة السقوط، ولحن حزين وقت الانكسار..

مقطوعة لا تملك منها بداية.. ولا تختار لها نهاية..

ولحنها الآن مشروخ، تحاول تتبع نغماته لكنها تسلك درب النشاز، تتفلت النوتات من بين يدي خبرتها القصيرة بعزف الحياة، وتفقد تناسق سيمفونية الاستمرار..

اختارت التشبث بمصير تدرك أنه ليس تتمة تلك الحكاية، حكايا الخيال دومًا مختومة بسعادة.. وروايتها رسمها واقع وكتب لها السيناريو ألم..

طوال الطريق لم تهمس بحرف، واكتفى هو بنظرات مختلسة إليها، كان يسرق من صمتها أملًا، ومن عودتها امتلاكًا..

منحته الفرصة، أمسكت بيده لثوان لم تطُل فاللمسة تثير بجسدها قشعريرة باردة لا تتحملها، أهدته قلبها للمرة الثانية، ارتأت أن النجاة بها، ولها.. حتى وإن كان ذلك هو الخطأ بعينه..

زوجها لا يعي عِظم الإثم.. ولا يبالي بتبعات الجُرم..

لكنها هنا.. ستقوده عبر متاهة ظلماته، علَّ بوجودها يكون الترياق..

سبقته بخطوات متوترة فوق درج المنزل، كان يصعد خلفها يحمل حقيبة ثيابها وقلبه ينبض بقسوة..

عادت إليه والعودة خيط ضعيف، يخشى أن يفر من بين أصابعه فينقطع، وتعقبه خسارة أخيرة..

وجهته اليمينية قطعتها بنبرة خافتة ميز فيها الحزم بيُسر:

- لأ..

توقف يرمقها بحيرة من لا يفهم رفضها، وهي لم تبخل بتوضيح مقتضب:

- هانام في الأوضة دي..

ووجهتها كانت اليسار.. صمت يحترق بهروب بصرها نائيًا عن حضوره.. هز رأسه في استجابة خاضعة وتمتمة لم تتجاوز حدود شفتيه..

ترك الحقيبة بالغرفة وتأملها لحظة..

لحظة أراد سرقتها لكنها باغتته ببابها حاجزًا بينهما..

خلعت وشاحها، تخلصت من ملابسها كأنها تختنق بها.. وأسفل ماء بارد تركت جسدها تلسعه ضربات سوطه..

أغمضت عينيها واستندت للجدار، تتمازج دموعها به.. بل تتسابق في الهطول وإياه..

قالوا أن في العبرات راحة.. كلا؛ هي فقط نزف يسحب الروح معه..

ارتدت مئزرًا ثقيلًا وارتمت فوق الفراش تبلل وسادتها بخصلاتها الطويلة..

شيطانها يخبرها أنه لا يستحق ذرة ثقة..

فؤادها يهمس على استحياء بفرصة وافقت عليها بالفعل..

وعقلها حائر، مشتت بين عاطفة لم تخرج منها سوى بكسر، ومنحة ربانية بتوبة قد تكون سببًا في خوضه الطريق إليها..

ويعود شيطانها يوسوس مشوهًا الصورة..

هو تحدث عن علاج وحسب؛ فلا تطمحي لجناحي ملاك لا يمتلك مثلهما بشر!..

راحت في نوم مجهد تطاردها آلامها، تقتحم كوابيسها فتزيدها عتمة وخوفًا.. تحتضن وسادة ناعمة وتنكمش قربها كأن في ضمتها الأمان..

وحاله لم يخالف حالها كثيرًا..

يعلم أنه آلمها، خدعها.. كذب وغش ودلَّس وأخفى الحقائق؛ لكن خافقه يسوق له كل مبرر محتمل..

في العشق لا يوجد ما يسمى بالكذب..

متاح لك أن ترسم كامل الصورة بألوانك الخاصة، مباح لك كل وسيلة تقربك من الغاية..

وغايته هي..

هي المصيروالمنتهى..

الهدف والمقصد..

هي من امتلكت قلبه ولن يطلب منها استعادته أبدًا..

لها الحق بالابتعاد، الخوف ربما رُغم أن ذاك يوجعه، نعم تحتاج وقتها.. مساحتها الخاصة بعيدة عنه، لكن بقربه..

يهديها فقط حرية مقننة..

الحقيقة دومًا موجعة، كان يود لو لم تنبش وراءه، لم تفتش عما تجهل.. الغفلة هبة الصادقين، فلا يمكنك رفض ما لا تعلمه!..

رن هاتفه باترًا شروده فألقى نظرة فاترة نحوه يتأمل الاسم الظاهر على شاشته، خطيئته وسبب غيابها المؤقت عن عالمه..

سبب فقدان طفله!..

الأحمق الذي يتصرف بغيرة كأنه امتلكه.. وببساطة أضاعه..

زفر بحرارة، ألغى المكالمة وأقفل الهاتف، تمدد بفراشه بكامل ثيابه يتطلع لمكانها الفارغ منها، تلك الفجوة التي تركتها بدنياه..

وإن كانت تجاوره في غرفة قريبة..

لأول مرة منذ أكثر من أسبوعين ينزاح عن كاهله ثقل الوِزر..

ويغط في نوم عميق، مرتحلًا لأحلامه معها..

***

كانت مقطوعة كلاسيكية حتى قرر عزفها بصخب..

سوناتا أنيقة بأنامل مسيطرة راقية، أفقدها هو اتزانها..

تدخل بعد فوات الأوان، وفي التالية واجه بتوقيت لا يحتمل ظهوره، ثم اكتملت قصته القصيرة دون حدث يخصه..

ولايزال يحاول، يراقب ويتتبع ويأمل..

في الحب؛ عشقه حماقة..

وبعرف المحبين هوعاشق لا تليق به ملحمة العشاق..

لامست يدها الحانية كتفه في حنان لا ينضب، أخرجته من لُجة أفكاره بابتسامة وهمسة ترفق بقلب أب مملوء بالخيبة..

أب يعجزعن حماية أبنائه من فخ العشق وليت بيده الدواء..

جاورته في جلسته على أريكة غرفة المعيشة، عيناه تنظران نحو شاشة تلفازدون أن تلحظا ما تعرضه:

- أنت بتتعب نفسك بزيادة يا آدم..

تمخضت شفتاه عن بسمة باهتة، لديها كل حق.. لكنه لا يملك سوى التعب:

- يوسف محتاج يتعلم الدرس بنفسه..

واحتوت يده بدفء كفيها:

- وواضح إن الدرس لازم يكون قاسي عشان يفهمه..

تنهد بحيرة..

لأول مرة يرى وجه تقصير في نشأة ابنه، وجهًا يخصه هو..

في زمن ما مضى كبَّل عاطفته خشية الفقد، حتى أتت هي فحررتها من أغلال سكونها.. ترى هل سيصل صغيره لذات القيد يومًا ما بعد ألم!..

أتت أنفاسه بشكل زفرة وهو يغيب بعينيها:

- الدرس كان قاسي يا لميا، في المرة الأولى والتانية.. بس هو مش عاوز يشوف الحقيقة..

وشرد في أفق ممتد أقرب لسراب:

- مش عاوز يعيش الواقع ويعترف بالخسارة..

ثم دمدم ونبرته يمسها شيء من غضب:

- ومش هاقول هزيمة.. هو من الأساس ما حاربش..

قلبها كان يوجعها عليه، ربما لم تحمله قرب ضلوعها، لم تجاور نبضاته خفقاتها، لكنه ابنها.. طفلها..

من منحها الأمومة للمرة الأولى..

ربتت على كفه تخبره بما يملكان:

- الحل اللي في إيدينا هو الزمن، سيبه والوقت هو اللي هيثبت له إن دي الحقيقة الوحيدة..

ونهضت تحثه على القيام بالمثل:

- اطلع له.. أنت المرة اللي فاتت كنت قاسي معاه قوي..

ابتسم بمرارة ساخرة.. ليت تلك القسوة التي تتحدث عنها زوجته أتت بفائدة؛ فهو لا يزال على ضلاله في دنيا العشق..

وبرغم ما يملأ عقله استجاب لطلبها.. دقيقة وكان يواجهه بغرفته، الابن يتظاهر بالغوص في كتاب بين يديه، والأب يقف بصمت مراقب..

منذ حديثهما الأخير وهما يتبعان سياسة التجاهل.. تحية صباح وخروج ثم عودة وتحية مساء، اليوم بات أقصر من حقيقته، بينما يعلنان خصامًا صبيانيًا لا يناسبهما..

بادره والده بحدة طغت على نبرته قسرًا:

- هتفضل على الحال ده لحد إمتى؟!..

قابله سكون.. تلاه اعتدال جسد الابن، أغلق الكتاب بيده، خلع منظاره الطبي وفرك جسر أنفه بإرهاق.. حرر نفسًا بطيئًا ونهض يواجه أبيه:

- حال إيه يا بابا؟!..

وأشار خلفه للكتاب الذي تركه للتو:

- كنت باذاكر ومركز في الدكتوراة، رجعت المستشفى عند دكتور محمد والدنيا استقرت..

- الدنيا مش شغل وبس يا دكتور..

واقترب يحتل بصره بحنو نظرة:

- ما توقفش حياتك عشان قصة حب ما كملتش يا يوسف..

ربت على كتفه ولم يبعد يده بل قبض عليه برفق:

- هي عاشت حياتها واختارت، أنت كمان من حقك تعيش وتختار غيرها..

تراجع هو يهرب من الحنان والرفق:

- حياتها؟!.. ما هي رجعت بيت عمي..

والأب لا يفهم..

ماذا إن كانت ببيت أخيه فترة راحة أو نقاهة؟.. ما المشكلة!..

عقد حاجبيه وأخبره بحقيقة الأمس:

- رجعت بيتها إمبارح يا يوسف، حتى لو فقدت جنين لسه قدامها العمر ربنا يعوضها عنه إن شاء الله..

والمتجاهل تصلب جسده..

عادت إليه!..

بعد خيانة!..

كيف استطاعت!..

"خيانة؟!"

أتت مستنكرة من الأب غير المصدق، ليدرك أنه نطقها عالية في غفلة من وعي:

- خيانة إيه يا يوسف؟!..

تذكر كلماتها.. وعيدها.. تحذيرها بفقدان نهائي..

لكن سبق السيف العذل، والكلمة تملصت من قيد الصمت:

- مش عارف..

- يعني إيه مش عارف؟!.. أنت قلت إنها رجعت بعد الخيانة!..

علت نبرته والضيق يخنق أنفاسه:

- مش عارف يا بابا.. مش عارف..

ودار في المكان بغضب مكبوت، حنق على نفسه وهفوة لسانه:

- أنا سمعت الكلمة، لكن ما عنديش تفاصيل وهي رفضت تتكلم معايا..

أطرق الأب بتفكير ثقيل ختمه بتقرير بديهي:

- ومش هتتكلم معاك أبدا..

ثم تركه وعقله منشغل بحقيقة جديدة مخيفة..

غادر وقلبه قلِق!..

***

كانت لحنًا ناعمًا بدلته الحقيقة لمعزوفة شجن..

ماسة صقلتها الحياة فأكسبتها حدة وصلادة، رغم انكسار النور بحناياها..

منذ عادت للمنزل قبل أيام وهي تقريبًا يجافيها النوم، تغمض عينيها دقائقًا معدودة ثم تنتفض من داخل أحلامها على كابوس الواقع..

فجر اليوم أدت صلاتها وأطالت في سجود خاشع حتى ابتلت الأرض بدموعها، كانت حائرة تائهة لا تعلم بمَ تدعو فاختارت البكاء الصامت وما بين قلبها وبين الله باب مفتوح..

راقبت شروق الشمس البطيء وتمنت لو أن ضوءها يكفي ليضيء ظلمتها التي علقت بها، جلست على أرضية شرفتها ترتكن لجدارها، ساكنة دون حراك.. دون صوت، وأنفاس هادئة هي فقط ما تدلل على أن بالقلب نبض..

جاوزت عقارب الساعة الرقم سبعة، حينها انتبهت من جمودها، فالبكاء على الحليب المسكوب هباء، ضعف.. وضياع وقت!..

أشرقت بعقلها الفكرة فاستقامت تعود لغرفتها، تخرج حاسوبها المحمول من حقيبته وتستقر فوق فراشها، فتحته وقررت البحث..

قررت الفهم!..

مر الوقت، ساعة، اثنتان، ثلاث.. ونصف الساعة..

تشنجت عنقها وشعرت بالخدر يسري في ساقيها والألم بظهرها، قرأت الكثيروكل حرف كان يزيدها خوفًا وقلقًا..

قرأت قصصًا مشابهة، زوجات حُشرن بذات الموقف، رجال يروون تجاربهم، أسبابهم، العودة.. اللاعودة!..

والأمل هرب من بين حروف اليأس في إمكانية علاج.. احتمالية الأوبة، التوبة وإن كان الدرب مديدًا والسير فيه شاقًا عسيرًا..

أغلقته وخرجت من غرفتها، هبطت للطابق السفلي تتجه للمطبخ، تشعر بالعطش وشيء من جوع.. هي لم تأكل جيدًا منذ عادت من المشفى وقبلها كانت عروقها تتغذى على محاليل تعويضية..

نحف جسدها قليلًا وغزت الهالات السوداء أجفانها المرهقة، ابتلعت بضع رشفات ماء بارد، التقطت ثمرة تفاح والتفتت عائدة لغرفتها..

كانت تتفادى لقاءه طيلة الأيام الماضية بحثًا عن تماسك ما قبل مواجهة حتمية وقرارات مصيرية لم تعد تحتمل تأجيلًا..

استدارت واصطدمت بعينيه تراقبانها باشتياق!..

تصلب جسدها وبصره يحيط بها..

تفرقت شفتاه في كلمات تحشرجت قبل التحرر.. تنحنح يجلي صوته وولدت شبه بسمة عند زاوية فمه:

- صباح الخير..

حثتها قدماها على الهروب، لكن المنطق أجبرها على الصمود..

الفرصة التي منحتها له لن تكتمل وحدها، وفرارها الدائم من حضوره غير مجدٍ، رفعت رأسها تناظره ببأس:

- محتاجين نتكلم..

تأمل ضعفها وقوتها المصطنعة، بنيتها التي وهنت، تفاصيلها التي يحفظها بل رسم خريطتها؛ تغيرت.. فرد كفيه في تسليم:

- أنا تحت أمرك..

سحبت دفقة هواء تحتاجها، توجهت بخطوات ثابتة نحو غرفة المعيشة وتبعها بتلقائية، أشارت إليه بالجلوس فاستجاب، تركت ثمرتها فوق طاولة منخفضة ووقفت تبحث عن خيط بداية لحديث أقرب للخيال، للخبال.. حديث لم يطُف بذهنها أن تخوض مثله أبدًا:

- إحنا لازم نروح لدكتور..

زوى حاجبيه بدهشة، نعم لقد وعدها ولم يكن ينوي أن يخلف وعده:

- ما أنا قلت لك يا ملك، هاشوف دكتور نفسي كويس وها...

- مش نفسي..

بترت اندفاع كلماته فنظر إليها بتساؤل:

- لازم نعمل فحص شامل يا نزار.. أنا.. أنا..

تلعثمت..

رباه.. ما يجري الآن.. عبث!..

فوضى زجت بنفسها بها، وهو سرق منها حق الاختيار منذ البداية:

- أنا مش ضامنة إيه الأمراض اللي ممكن تكون عندي..

ورمقته بلوم مجروح:

- أو عندك..

أخفض رأسه في صمت لم تفطن لمعناه..

هل يرفض؟!.. يشعر بخزي؟!.. غاضب ربما!.. فهو يلومها على حقيقته، تأملها بغموض وكلماته تتردد باردة جامدة، تخترق قلبها ببطء قاتل:

- على فكرة أنا باخد احتياطاتي كويس لما باكون معاه.. وعارف إن مافيش حاجة من اللي في بالك دي..

ثم هز كتفيه بخضوع مهتم:

- بس.. حاضر، هاعمل لك كل اللي أنتِ عاوزاه..

واستقام يقترب منها، يمد يده إليها.. لم تتراجع، تسمرت مكانها ترميه بنظرة زاجرة أوقفته، تمتم بعد زفرة قصيرة:

- المهم تكوني مطمنة..

أومأت بإيجاب حازم.. وكأن له الحق ليمانع أو يعترض!..

تحركت تنوي الرحيل لولا أن همس باسمها في رجاء:

- هو ده هيبقى شكل حياتنا بعد كده يا ملك؟!..

عادت تنظر إليه والألم ينقش ندوبه على ملامحها، واجهها بعد خطوتين قربتاه منها:

- أنا إديتك وعد، مش هارجع فيه.. بس محتاجك جنبي عشان أقدر أمشي الطريق ده..

والآن يستضعفها بحق ما بقلبها نحوه!..

باسم ما كان وعدًا متبادلًا بينهما!..

هزت رأسها ودمعة تغافل سد كتمانها:

- أنا جنبك.. بس..

لفت وجهها ترفض اللقاء بعينيه:

- أنا محتاجة وقت أنا كمان.. محتاجة أفهم، محتاجة أكون قوية كفاية عشان أمشي معاك..

تسللت أنامله لذقنها يعيد عينيها إليه:

- أنا معاكِ.. لو حابة نتكلم، بس ما تسيبينيش لوحدي..

انتفضت مبتعدة فتغضن جبينه بحزن.. ادعت أنها لم تره، فماذا بيدها لتقدمه أكثر من نفسها ببيته وجدرانه تخنقها حتى لو كان الحب هو سيد الموقف!..

سمعت تنهيدته فتعانق جفناها بتعب..

هي مرهقة، منهكة.. قلبًا وروحًا..

حتى صلابتها التي ظنت بامتلاكها يومًا.. تبدلت لهشاشة تغضبها ولا تملك حيالها شيئًا..

نظرت إليه بصمت أنعش فيه الأمل.. اتخذت من مقعد منفرد ركنًا تجلس فيه فتبعها على الأريكة التي تجاوره.. خيم الوجوم عليهما لدقائق همست بإثرها:

- فهمني..

سألتها عيناه عن مقصدها فأردفت بارتباك متردد:

- إزاي بقيت كده؟!.. وليه!..

أخفض بصره مفكرًا فاستمرت بحديث حائر استخلصته من تجارب نظرية عبر الشبكة العنكبوتية:

- يعني حد وأنت صغير.. حد.. حد..

تعثرت الكلمات مجددًا على طرف لسانها، الجنون يكاد يصيبها.. وفي لحظة صرخت بها روحها.. ما هذا العبث؟!..

تأمل تعثرها بصمت مُرشابهُ تهكم:

- حد اتحرش بيَّ؟.. حد اغتصبني؟!..

ضغطت شفتيها بين أسنانها ورمقته بانهزام، اعتدل يضحك بسخط مستنكرًا احتجاجها الصامت على ما تلفظ به بلا اكتراث:

- مش ده اللي عاوزة تقوليه؟!..

ترك جلسته بعنف نفضها، اضطرب في خطوات غير ثابتة:

- إيه!.. كنت بتعملي أبحاثك عن الحالة يا ملك؟.. بتدوري على سبب؟!..

سكنت تحدق فيه من موضعها بألم، انحنى يواجه عسل مقلتيها الباهت بحسم:

- بتبرري ليَّ ولا لنفسك؟..

- أنت بتقول إيه!..

صرخت بها واستقامت تهرب مبتعدة عن مرمى يديه:

- باقول الحقيقة.. أنتِ رجعتِ عشان بتحبيني، بس عقلك مش سامح للحب ده يكون طوق نجاتي، بيقسى عليَّ وقلبك بيحاربه..

ودار حولها يواجهها رُغما عنها:

- وأنا هاحارب معاه على نفس الجبهة..

ثم ضحك بسخرية اختفت قبل نهاية ضحكته، بل تبدلت لخوف:

- بيحاول يدور على مبرر عشان يكمل..

ظلت متجمدة في وقفتها، هو فاق حد التعقل وأجبرها على صمت العجز..

ما يجري الآن.. هذيان!..

- اقعدي يا ملك..

انتبهت من تيهها على نبرته الآمرة، تتبعت عيناها إشارته نحو مقعدها الذي غادرته قبل ثوان وخضعت بوهن.. عاد هو الآخر لموضعه والقسوة تكسو ملامحه:

- شوفي.. كل اللي قريتيه انسيه، أنا لا اتربيت مع أب مسيطر وأم قاسية، ولا حياتي كانت مليانة عذاب.. لا انفصلوا ولا أهملوني..

وأشار بيده في حركة مسرحية:

- كل النظريات دي ما تنطبقش عليّ..

وانطلق يخبرها عن قصة تحمل معها البداية..

الذكر الوحيد لعائلة "غالي" المكونة من أبيه وعمه.. العم لديه ثلاث فتيات، وهو لديه شقيقة واحدة.. كان وحده مدلل العائلة بأكملها ووريثها صاحب النصيب الأكبر..

كل طلب مجاب، وكل رغبة مباحة..

جاب العالم في رحلات ترفيهية قبل أن يتم عامه العشرين، وبعدها تحولت سفراته لدنيا رجال الأعمال وصفقاتهم، أنهى دراسته ولم يهتم أحدهم بتفوقه، فالشهادة كانت ديكورًا هامشيًا أنيقًا يتمم صورة رجل الأعمال الناجح..

لم يجرؤ أحد في يوم على معارضة توقه لشيء مهما بلغ جنونه أو تخطى حدود المسموح به، تنهد ببسمة هازئة:

- كنت بامشي بحرس خاص معايا في كل خطوة.. ماحدش يقدر يعترض على اللي باعمله، ما حدش حاول يمنعني من أي حاجة عاوز أجربها..

نبض قلبها بعنف داخل صدرها:

- يعني.. أونكل عماد عارف بموضوع الـ...

- لا مش للدرجة دي..

ومال نحوها بصراحة فجة:

- بس ماما عارفة..

استند بمرفقيه لركبتيه، وشبك أصابعه:

- كان عندها نفس الأمل اللي عند شيراز..

هطلت عبراتها دون رادع وخرجت نبرتها مختنقة:

- إنك تتغير عشاني!..

وافقها بهزة رأس، استقام يخبئ عينيه عنها:

- أنا حاولت يا ملك.. صدقيني حاولت..

وارتد بناظريه إليها:

- بس كان صعب..

اقترب يجثو أمامها دون أن يمسها:

- لكن لما أنتِ عرفتِ، لما كنتِ هتضيعي مني؛ كان لازم أحاول تاني، والمرة دي أنا مصمم أنجح..

كانت تود التصديق..

تتمنى إقناع نفسها بأن رغبته حقيقية، فخداع النفس مخدِّرفعَّال عندما نتعرض للألم..

ولاتزال على حيرتها..

تقترب..

تخاف..

تُكذِّب..

تثق..

تفشل..

وتهرب..

- أنت وصلت لكده إزاي؟!..

همستها بحُرقة تشتعل بكيانها، وهو تنهد.. تراجع عائدًا للأريكة واستند لظهرها بجسده:

- أول علاقة ليَّ كانت مع صديق ألماني..

ونال من ثباتها شهقة.. أهداها نظرة مترددة:

- كان Gay سالب، أقنعني إن الموضوع يستحق أجربه ولو من باب الفضول.. ووافقت، زي أي مغامرة باخوضها عشان التغيير..

ابتسم بسخرية مستعيدًا الذكرى.. السقطة:

- تخيلي أول مرة أجرب الجنس كان بالشكل ده!.. بعدها فضولي خلاني عاوز أعرف شكل العلاقة إزاي مع واحدة ست..

ظلت جامدة تحدق فيه بذعر.. لم تعد تدري من زوجها، لا تعلم من يكون ذاك الذي يواجهها!.. قلب كفيه ببداهة كأن ما يقوله أمر مألوف:

- وجربتها، كان عندي ١٨ سنة، واكتشفت إن عندي نفس الشغف والرغبة في الحالتين.. Bisexual مش Gay زي ما أنتِ فاكرة..

ويتحدث ببساطة.. بصفاقة!..

تكررت شهقتها..

لكنها هاته المرة لم تحتمل استئناف حديثه..

فرَّت من محيطه تسد أذنيها عن الحقيقة، تختار الغفلة، وتتوهم أنها مازالت بكابوسها اليومي الذي ألفته..

فمهما بلغت قسوته؛ هو أكثر رحمةً بها من واقع تحياه قهرًا..

***

كانت نغمًا حائرًا في نشاز حتى عزفها بلحن عشق..

تائهة في كينونة أنثى ودرب رجل بين أربع أشقاء من الذكور..

تربت على الخشونة في الخطوة والنبرة والملبس ثم أتى هو فاستخرج نعومتها من تحت ركام اعتياد الغلظة..

هي به أنثى.. وله وحده أنثى..

وأخيرًا عادت المياه لمجاريها كما يقولون، حاولت تجاهل مخاوفها وتناسيها، قررت أن تنعم بقربه وحسب.. لكنها لم ترضخ لرغبته بالابتعاد عن صديقها اللدود الساخر على الدوام..

جاورته في مقهى الجامعة، تقرأ في مذكرة ورقية وهو يشاغل تلك ويغازل أخرى بعينيه، يوزع ابتساماته دون بخل حتى انتبهت له، وكزت قصبة ساقه بطرف حذائها بعنف فتأوه غاضبًا:

- يا بنت الـ... في إيه يا مجنونة أنتِ!..

ألقت الورق من يدها على الطاولة بينهما وزجرته من خلف أسنانها المضغوطة:

- احترم نفسك وأنت قاعد معايا يا آسر..

ضحك بدهشة وشاغبها بغمزة عابثة:

- ليه؟.. مراتي مثلا؟!..

جذبت عينيه سمراء مارة فأردف وهو يتابعها ببصره:

- أنا يادوب قاعد مع واحد صاحبي..

زمجرت بحنق ونهضت تتركه:

- تصدق هو معاه حق؟.. أنا باعرفك ليه أصلا!..

استدار إليها فجأة مستغربًا ما قالته:

- هو مين ده؟..

وأمسك بكفها يعيدها لمقعدها:

- إوعي تقولي زوج المستقبل مش عاوزك تعرفيني!..

لم ترد وهو استنبط الجواب من نظرتها الساخطة إليه فقهقه بمرح:

- ليه!.. غيران مني لا سامح الله؟!..

استقامت مجددًا والنيران تستعر بمقلتيها:

- أيوة غيران.. عندك مانع؟..

رمقها من جلسته بمكر:

- هو عارف النيك نيم بتاعك؟..

- آسر..

زعقت تنهره بضيق لكنه استمر على تهكمه:

- طيب قلتِ له إني باشوفك بشنب!..

شعرت بالعجز فدبت الأرض بقدمها وتحركت تغادره:

- أنت بجد سخيف..

- عطية.. عطعط، استنى بس يا عم ما يبقاش خلقك ضيق..

ركض يتبعها يحاول مصالحتها..

ورغم كونه يعاملها كأشقائها.. فيراها ويرونها ذكرًا مثلهم؛ كانت لا تهتم..

طالما أنها بعيني عاشقها.. أنثى!..

***

كانت إيقاعًا صادمًا، قوي النغمات، ولا تزال.. فهو لم يسيطر على عزفها بعد..

اعترف بالعشق وأقر بسلطانه، بينما لا تزال هي على هروبها منه.. ينبض قلبها له ويحجم لسانها عن نطق كلمة تسأل عنها عيناه في كل لقاء..

أنهت فطورها مع والديها دون عجالة، فمع انتباه والدتها قبل أيام قررت إخفاء مشاعرها أكثر كأن في تعريتها فضيحة..

حملت كتبها وودعتهما ببسمتها الشقية:

- سلام بقى، عندي يوم طويل النهاردة..

وانطلقت تراقبها نظرات أمها حتى استشعرت لمسة من يد زوجها لكفها، ورأت سؤاله غير المنطوق..

يريد أن يفهم ما بها!..

انشقت شفتاها عن ابتسامة متوترة:

- بنتك بتحب..

وكرجل عادي.. لا ينتبه لتفاصيل عاشقة صغيرة وإن كان هو عاشقًا:

- هي قالت لك؟!..

نفت بهزة من رأسها وعيناها تشردان:

- مش محتاجة تقول..

أعادها إليه بربتة حانية من كفه الدافئة:

- أنا واثق إنها لو بتحب فعلا: هتختار صح..

- تفتكر!..

- واثق..

أكد وكرر الكلمة.. تنهدت بقلق أم..

لقد منحتها مساحتها من الحرية دون قيود تخنقها، لكنها تمسك أطراف الخيوط بيدها.. فلن تتكرر مأساتها مع ابنتها الوحيدة..

تريد أن تصنع منها ما لم تكنه هي..

تريدها أن تختار من يختارها أولًا، من يريدها دون غيرها..

لم تكن تدري أنها اختياره الأول..

الدقة الأولى ونبض العشق الأوحد..

وصلت للجامعة ونظرها تلك المرة يفتش عنه.. تبحث، وتتظاهر بعدم الانتباه.. ثم تهرب وتتركه حائرًا..

على حافة هواها..

يسقط..

لا يسقط..

يتماسك ويعتدل متشبثًا بقدره معها..

وهي تتبع سياسة الدلال بوجهة نظر ذكورية بحتة، واختار هو النفس الطويل والصبر..

"البرنسيس وصلت!"

وصلت الكلمات لمسامعها وبدا لها للحظة أنها المقصودة..

"برنسيس إيه!.. هو في برنسيس بتتشقط؟!"

النبرة متهكمة بها من الخبث ما بها..

"أووبس.. لا يابنتي، ده لامور"

وتنهيدة حالمة.. أو ماكرة لا تعلم..

"حب!.. والقمر ده هيبصلها على إيه!.. ده يشاور بس كلنا نقول شبيك لبيك"

تجمدت في وقفتها المتأهبة والحروف تتصارع في حرب الوصول لأذنيها..

"على رأيك.. تلاقيها هي اللي مسهلة له الدنيا، هو في واحد هيقول لا لـ..."

وصمتت لكن المغزى الوضيع وصلها كاملًا خاصة مع الضحكة العابثة المهينة التي جلجلت خلف ظهرها..

"ما أكيد بتستفيد هي كمان، النهاردة معاه في السيكشن.. بكرة هو معاها في الامتحان"

انتفخت أوداجها وتحركت عائدة لسيارتها..

ولأول مرة منذ كانت طفلة، دمعة تخدش مقلتيها.. دمعة لن تلامس وجنتها، لن تهطل قهرًا ولن تسمح أبدًا بوجودها..

فقط تريد الخروج من هذا المكان..

خاصة بعد النظرة التي كانت في عيني الفتاتين عندما استدارت نحوهما..

أهذا ما يقال عنها الآن؟!..

أهذا ما يتهمونها به!..

عهر!..

قبل أن تفتح باب السيارة سمعت النداء باسمها.. اعتصرت جفنيها وحبست أنفاسها لحظة تستعيد فيها قوتها ثم التفتت لصاحبه:

- خير يا سليم؟..

ابتسم بسماجته المعتادة وأشار بأوراق في يده:

- عاوز أعزمك على الغدا النهاردة ونجهز خطة رحلة العلمين..

قست نبرتها وتجهمت ملامحها وهي تخبره بفظاظة:

- ما بتغداش مع حد، جهز اقتراحاتك وأنا هاشوفها ولو في تعديلات هابلغك..

- ده تقدري تعتبريه غدا عمل يا غرام، ما تحبكيهاش قوي كده..

برر مستمرًا بإزعاجه لها، وبتر اعتراضها -وربما سبابًا كادت تتفوه به- الزجر الصارم من خلفه:

- سليم..

استدار ببطء، تلك لم تكن المقاطعة الأولى.. ويبدو أن الأقاويل بالكلية عنهما صادقة:

- أظن أنا نبهت عليك قبل كده ما تضايقش زميلتك..

والفتى لوى فمه باستخفاف:

- أنا ما ضايقتهاش، ده شغل الاتحاد..

نهره بعينيه وأتت لهجته أكثر حزمًا:

- شغل الاتحاد في مكتب الاتحاد..

وصرفه بهزة من رأسه ثم عاد ببصره إليها، ودون مقدمات كانت تهاجمه هو:

- أظن أنا بقى قلت لك قبل كده إني أعرف أتصرف في المواقف دي..

رفع حاجبًا وقرر الهدنة:

- وقلت لك عارف.. بس ما أقدرش أشوفه بيسخف عليكِ وأقف أتفرج..

فتحت باب سيارتها وقررت بنبرة غاضبة:

- لا حاول، والمرة الجاية ما تدخلش لو سمحت.. أنا أقدر أحمي نفسي..

- غرام!..

كأنها ستستجيب لضيقه ولومه الآن أيضًا:

- ده آخر كلام عندي يا مروان..

ودخلت تصفق الباب خلفها بعنف، تدير المحرك وتنطلق دون أن تأبه لوقفته المشدوهة أو ملامحه المستنكرة..

ماذا فعل!..

هو أراد حمايتها وحسب..

هي مجنونة ولا خيار آخر..

وناوشه قلق، أيمكن أن تكون مشاعرها نحوه لا تشبه ما بقلبه تجاهها!..

لهذا لم تنطقها بعد!..

لهذا تتهرب أحيانًا!..

لهذا تخبره عن طموحها العملي وأحلامها للغد.. دون أن تشمله!..

دون أن يجد نفسه في الصورة!..

"وفيها إيه يعني لما أبقى سفيرة!"

ترددت كلماتها تقتحم أفكاره من غياهب ذكرى يومين مضيا:

- سفيرة مرة واحدة!.. والسفر والغربة!..

هزت كتفيها ببساطة:

- عادي.. ما الرجالة بتتغرب وتسافر..

- بس الست موضوع تاني..

حينها نظرت إليه بغموض لم يدرك تفاصيله وابتسمت قبل رحيلها تخبره:

- ما فيش فرق على فكرة..

انتبه على صوت نفير سيارة مرت بجواره عائدًا للحظة الحالية..

ومرة أخرى فكر..

أتراه لم يمتلك قلبها بعد!..

أم أنها وساوس خافقه العاشق!..

***

كانت لحنًا بسيطًا حتى ضربتها أوتار الحقيقة، فسقطت بين أصابع عازف مغمور..

تاهت وشردت واختارت البعد بقرار، والآن هي أكثر حيرة ورعبًا..

بعد رحلتها الأخيرة مع أبناء عمها والصديق الصدوق "توني".. عقب تلك القبلة والهروب غير المدروس فلا هو حاسم قاطع.. ولا كان استكانة وقبولًا، عادت لمنزل العم بحال مختلف..

ما الذي ترمي نفسها به!..

أي جحيم ستزل قدمها فيه وحينها لن يحترق سواها!..

باتت تهرب من تجمعاتهم، تتلقى سخرية الابنة الكبرى بتجاهل ظاهري واشتعال داخلي، تغض الطرف عن بؤس عيني الصغرى ونظراتها العاتبة بصمت..

حتى أتت الدعوة..

حفل ذكرى ميلاد شقيقة "توني" بقصر عائلته بوسط عاصمة الضباب، ولم يكن هناك بدًا من القبول، والفرار من الأب الذي استنفذ حيله معها ولم يبقَ سوى الضعف!..

كان الحفل صاخبًا مليئًا بأناس تجهلهم.. انطوت في ركن خفي تراقب الحضور الراقص، الموسيقى المدوية والتحام الأجساد بفجاجة ارتجفت لها..

"القطة مختبئة"

همس بها في أذنها فقفزت من مكانها بهلع، تستدير إليه، تراقب ضحكته المستمتعة بغيظ:

- تهربين مني تيا!..

- لا..

- لم تحضري لقاءاتنا منذ أسبوع!..

ولته ظهرها تتظاهر بتأمل المكان ومن فيه:

- كنت مشغولة..

داعب خصلة حرة من شعرها بينما يجاورها:

- القطة تكذب أيضًا..

قرر بيسر، فابتعدت بخطوات سريعة:

- أحتاج لبعض الهواء، سأخرج للحديقة..

تحركت بشبه ركض، وعندما وصلت للخارج سحبت نفسًا باردًا عميقًا بعدها أحست بيديه تحيطان خصرها من الخلف وشفتاه تمسان عنقها من بين همساته المخدرة لحواسها:

- افتقدتك..

وأدارها لتواجهه، بل تواجه فمه في قنص لوردية ثغرها:

- أنت فاتنة تيا.. مميزة للغاية، تفقدينني تعقلي..

أبعدته بوهن وعيناها تخبرانه ألا يقترب:

- ماذا تريد مني توني؟..

- أريدك..

تأملته بحيرة مرتبكة كان جوابه عليها عمليًا وهو يحاصرها بين ذراعيه:

- لا تخافي مني..

- لا.. توني، توقف..

وحاولت فك طوقه المتشبث بها، استجاب لها دون أن يحررها تمامًا:

- أنا لا أفهمك تيا..

تلعثمت ومازالت تحاول الفرار منه كفأر وقع بمصيدة:

- أنا فقط.. أنا..

- أنت ماذا؟..

- هذا خطأ..

تراجع يرمقها بدهشة، هدهد بعدها مخاوفها برقة:

- هل ترين كونكِ معي خطأً!..

- أنا فتاة عربية توني..

- لستِ كذلك بالكلية، أمك انجليزية وأنت تحملين ذات الجنسية تبعًا لأبيك، أو خالك كما أخبرتني..

التفتت تغمض عينيها بتشتت:

- هذا لا يعني أن أمنح نفسي لرجل بتلك البساطة..

- أملكِ فعلتها..

شهقت وارتدت تناظره باستنكار بدده بهزة من يديه مبررًا:

- أقصد أنه أمر عادي عزيزتي.. أخبريني أنتِ..

واقترب يداعب تمردها المكبوت:

- هل ترين أملكِ كعاهرة؟..

- لا..

هتفت بها قبل أن يتمم حروفه، ورددتها كأنها تقنع نفسها لا هو:

- بالطبع لا..

ابتسم وأمسك بيدها يسير بسبابته بباطنها متتبعًا خطوطها بنعومة مغوية:

- لمَ الرفض إذًا!.. سيكون وقتًا ممتعًا للغاية..

ورفع ذقنها ينظر بعمق زرقة مقلتيها:

- تجربة -صدقيني- ستريدين خوضها..

لاحظ حيرتها وترددها فأكمل إغوائه مترفقًا ببرائتها:

- أنت تنتمين إلينا تيا، هنا الحقيقة التي لن ينكرها أحد.. هنا أصلك الذي أخفوه عنكِ..

ورفع حاجبًا مستهجنًا:

- أنتِ عشتِ ما مضى من حياتكِ في كذبة؛ جربي أن تختاري ما هو آت..

ختم كلماته بهمس فوق شفاهها، وبلطف ضمهما في قبلة رقيقة، تبعتها ثانية وثالثة وبين واحدة وأخرى يكمل وسوسته بتحررها من ظلمات الشرق..

يده تتجاوز حدها المسموح، تُغير على حدودها وتحتل منها ما لا يباح له..

في لحظة استفاقة مباغتة دفعته، تحدق فيه بخوف حاول تفنيده:

- لن أؤذيك حبيبتي، ثقي بي..

واحتوى وجنتها بكفه والثانية تتخلل شقرة خصلاتها:

- أعلم أنكِ عذراء.. سأكون رقيقًا معكِ..

تراجعت أكثر والكلمة تضرب ناقوس خطر بعقلها!..

يتردد صداها بعنف، والشرف يتسلل باستحياء لصورتها مطموسة المعالم.. هزت رأسها برفض وعادت عدوًا للداخل تبحث عمن تحتمي به..

"رباه.. توني العظيم يفقد لمسته!"

فاجأه الصوت من خلفه فنظر لصاحبته بضيق:

- ماذا تريدين آنا؟!..

دارت حوله كأفعى رقطاء:

- أريد مساعدتك في الوصول إليها..

تطلع إليها بتساؤل صامت تكرمت بجوابه:

- هي تحبك يا عزيزي، لكنها خائفة..

وهزت كتفيها تسوغ الممانعة بدلال:

- أنت تعلم.. فتاة شرقية جديدة على عالمنا، تحتاج لدفعة فقط حتى تصبح منا..

- ماذا تقصدين؟!..

ابتسمت وغمزته بوقاحة:

- لنخفف من وعيها قليلًا ونمنح رغباتها الدفينة فرصة التحرر من عقال تخلفها ورجعيتها..

ولم يفهم فأوضحت دون انتظاروبيدها زجاجة خمر:

- لنجعلها ثملة، وحينها لن تقول لا..

عقد حاجبيه باعتراض:

- هذه ليست طريقتي آنا، أنا أريدها برضاها..

استدارت ترحل بإثر الهاربة:

- أخبرتك أنها تحبك، وخوفها يكبلها.. لكن كما تشاء، عالج الأمر بطريقتك..

- انتظري..

هتف يقاطع خطواتها فتوقفت دون التفات تنتشي بالفوز:

- كيف ستقنعينها بتذوقها؟!.. لقد رفضت من قبل..

نظرت إليه من فوق كتفها بتشفٍ:

- دع هذا لي..

وبوسط جمع الأصدقاء قررت لعبة شهيرة..

حقيقة أو جرأة!..

تحلق البعض معها في دائرة، وفي مواجهتها كانت ابنة العم اللطيفة، حركت زجاجة فارغة على الأرض فتوقفت فوهتها نحو الغافلة، سألتها بتحدٍ كأنما تخبرها أنها لا يمكنها مواجهتها:

- حقيقة أو جرأة عزيزتي تيا!..

والفتاة قررت الحرب، قبلت المواجهة واختارت.. "الجرأة".. محققة بذلك مطلب "أنابيل".. رفعت بيدها زجاجة الخمر تناولها لها باستخفاف:

- أتحداكِ أن تشربي هذه الزجاجة بأكملها.. يا صغيرة..

تنمرت المغفلة برفض ضعيف:

- أنابيل.. تعلمين أنني لا أحتسي أي نوع من الخمور..

واجهتها بسخرية تدفعها نحو غايتها:

- كنت أعلم أنك لن تفعليها، شرقيتك تتغلب على تحضرك في كل مرة..

والعناد تطايرت شراراته في المكان من حولهما:

- ليس كذلك..

- ماذا إذًا؟!.. صغيرة!.. خائفة!.. تخشى ما تجهله!..

زمت "تاليا" شفتيها بغضب ثم جذبت الزجاجة من يدها بفظاظة، فتحتها تتجرعها بسرعة ومع أول رشفة غصت بها وسعلت بينما تبصقها بتقزز..

امتزج بغصتها ضحكة ابنة عمها الساخرة وهي محط أنظار من حولها.. تنفست ببطء وبدأت تشرب..

مع كل جرعة كانت تعلم أنها تغوص بأوحال مستنقع لن تعود منه أبدًا كما دخلته..

انتهت اللعبة وبدا رأسها خفيفًا فنهضت تتمايل مع النغمات الفوضوية، وهو تبعها يحتضن خصرها.. يتمايل معها، يضمها ويبعدها ثم يقربها بقسوة فترتمي فوق صدره..

كأس وآخر..

ثالث ورابع..

وكانت كدمية في أحضانه..

جذبها لركن هادئ ثم حملها بين ذراعيه وتوجه نحو غرفة خارجية بحديقة القصر.. غرفة تخصه هو، صومعته كما يسميها..

أنزلها برفق فوق الفراش وهي تشدو بكلمات أغنية علقت بذهنها الغائب:

- توني.. أين نحن!..

قبل أرنبة أنفها وضحكة تشق ثغره:

- نحن في الجنة حبيبتي.. تماسكي لحظة..

تراجع عدة خطوات يحكم إغلاق الباب عليهما بعدها عاد إليها.. ومن بعيد وقفت الحقود تراقب بشماتة، وابتسامة نصر ممزوج بغلٍ غير مبرر تغزو شفتيها..

لقد سقطت البريئة ولا عزاء للمغفلين..

(١٧)

كلنا مثاليون حتى لحظة الحقيقة..

كلنا مقاتلون أشداء حتى لحظة الوقوف على الجبهة..

كلنا محاربون بواسل حتى لحظة بدء المعركة..

كلنا قديسون نرى الأمور بعين الصواب حتى لحظة السقوط على أرض واقع بقلب المعمعة..

كلنا ملائكة..

والشياطين لا يزورون عالمنا..

الألم.. معلم الحياة الأول..

والخسارة هي أقسى دروسه..

أما المختبر فيها؛ فراسب بدرجة قدير..

استيقظت على لحظة عُري، وثقل يحيط بخصرها يشلها لمكانها.. ألم ممض يغوص بحناياها ورأسها تنفجر به ألعاب نارية..

أين هي؟!..

وماذا حدث؟!..

رفعت يدها تزيح شعرها عن وجهها، تعب الهواء لصدرها بعسر، تحارب تشوش الرؤية التي بددها ضوء شمس حارق تسلل بصفاقة من بين خصاص نافذة تواجه الفراش الراقدة فوقه!..

فراش!..

ومكان مجهول؟!..

وحرارة جسد يجتاح مساحتها الخاص!..

انتفضت تستدعي ما فات بمشقة..

تتذكر من خلف جدار وعي متهدم لمساته التي استباحتها..

قبلاته التي رسمت خريطة جسدها..

ثيابها التي خلعها عنها قطعة قطعة..

وشهقة ألم..

شهقة فقدانها عذريتها!..

وبعدها ظلام، غياب وعي تام حتى أتت لحظة الصحوة..

قفزت على قدميها تتأمل الفراغ بذعر، وتبدل ذعرها لهلع بل رعب مخيف عندما وجدت أنها عارية تمامًا..

صرخة مقهورة تنعي نكبتها..

خطوة تجذب بها شرشفًا تلف به جسدها، واستفاقة ذاك الذي استحل منها كل ما هو محرم عليه..

يفرك عينيه بتكاسل منتشٍ، يرمقها من بين أجفان شبه مغلقة.. ويبتسم!..

تجمدت تستوعب ما كان..

تفهم وترفض الاعتراف بالفهم، فالإدراك وحده كارثة، الإدراك يوازي تصديق الحقيقة والحقيقة فجيعة سقطتها:

- استيقظتِ إذًا!..

يتساءل كأن شيئًا لم يكن!..

تراجعت تلتصق بجدار خلفها تراقبه بفزعٍ، تهز رأسها برفض، ترتجف كورقة شجر أسقطها خريف مبكر، وهو اعتدل جالسًا يستند لظهر الفراش بعري يشبه عريها، يلتقط لفافة تبغ من فوق منضدة صغيرة تجاوره، يشعلها ويتأملها بخبث ماكر لم يخلُ من وقاحة:

- ما بك صغيرتي؟!..

سحب نفسًا، أطلقه دخانًا حمله الهواء وتأمله حتى التلاشي، نهض يجذب سروالًا داخليًا من الأرض ويرتديه تحت عينيها اللتين هربتا بعيدًا تمحو عنهما قرف الصورة..

يقترب وهي تتراجع كأن هناك مفر، الجدار خلفها أوشكت على الالتحام معه، صوتها مكتوم كأنها خرساء، عيناها تهطل منهما العبرات بفيض موجع، وهزاتها الرافضة لا تتوقف..

واجهها بمتعة فائز، يمد يده نحو وجنتها بمداعبة رقيقة:

- كانت ليلة لن أنساها ما حييت تيا..

قدماها أبتا الفرار من محيطه فتيبست بضعف، أدارت وجهها ودموعها الصامتة تحولت لنحيب، شهيق صعب، بكاء يسحب روحها معه.. وسقطة أخرى انزلقت بها أرضًا تضم جسدها إليها بارتعاش، تهتز في إيقاع رتيب وترفض، تحتج.. تعارض وتتمنى النجاة..

تتمنى الكابوس!..

وازاها جلوسًا وهمس بنعومة ثعبان:

- لا تخافي صغيرتي.. المرة الأولى فقط هي الصعبة..

رفعت ناظريها إليه، تأمل عينيها المنطفئتين بجبين متغضن، وأخيرًا تحرر همسها باختناق:

- ماذا حدث؟..

ناوشت ثغره بسمة متملكة:

- أصبحتِ امرأتي تيا..

- لاااا..

صرختها تنتفض من مكانها، تدور وتفقد توازنها.. تتمسك بمقعد ويزل بصرها فوق الفراش..

فوق الشرشف الأبيض المدنس بحمرة برائتها..

وتعود لتسقط على ركبتيها، تخفي وجهها بين كفيها وتنتحب.. نحيبًا كاد يمزق أحبالها الصوتية، وهو اقترب يمسك بمرفقيها، يوقفها ويهتف بها يمنع جنونها الذي قد يصل لأهله فالخدم كُثُر:

- تماسكي تيا.. توقفي عن ذلك الخبال..

دفعته بعنف وتراجعت تتطلع للا شيء..

تود لو ابتلعتها الأرض، سكنت قبرًا وتاهت في غياهب ذكرى مفقودة..

صرخت وهاته المرة اضطر لتكميم فمها بكفه وإحاطة عنقها بذراعه بينما تتشبث في سترها بذعر، الدموع تلامس يده وهمسه يقتحم مسامعها:

- توقفي يا حمقاء.. ما الذي حدث لذلك كله؟!..

دفعته.. تخلصت منه وركضت لركن لا يصله النور تتوارى فيه:

- أنت اغتصبتني..

كان صياحه غاضبًا بتلك اللحظة:

- ماذا!..

خطواته أثارت هلعها فمدت يدها أمامها تمنعه الاقتراب أكثر:

- سأبلغ الشرطة..

انهمرت الدمعات المشتعلة تغرق وجهها بعدما جمدها خوفها بمآقيها، وهو تصلب في وقفته هنيهة ابتسم بعدها، ثم ضحك ساخرًا:

- وتقولين ماذا عزيزتي؟!..

يتهكم من براءة أفكارها:

- أنتِ كنتِ معي بإرادتك.. لا توجد أثار مقاومة، ولم أخدرك لأنالك..

دنا خطوة أخيرة يميل نحوها بنظرة عابثة:

- بل في الحقيقة أنتِ كنتِ أكثر حرارة من أي امرأة أخرى عاشرتها..

والابتسامة تحولت للوقاحة المشتهية:

- قطة ناعمة مغوية لعوب..

- اصمت..

عنف حركة رأسها يزداد:

- لا تقل ذلك..

الرهبة تدس الصور التي رسمها بعقلها دسًّا:

- أنت كاذب..

عاد لتهكمه بنفي صادق:

- لا حلوتي.. أفيقي وستتذكرين كيف كنتِ بين ذراعي!.. كيف ساعدتني في خلع ملابسي!.. كيف كانت قبلاتك ويداك...

- اصمت..

تكررها بهياج تبتر استطرادة خزي..

تسد أذنيها بكفيها بطفولية عما يحشره بعقلها، وتستقبلها الأرض ببرودتها قبل انحناءته الأخيرة نحوها:

- فكري جيدًا قبل أية قرارات هوجاء..

عيناها تابعتا ابتعاد خطواته، يرتدي سرواله وقميصه ويعود إليها!..

يميل ليدخل مجال بصرها بحاجب مرفوع لا تعلم أهو شامت أم صريح وحسب!:

- كانت عذرية لطيفة تيا، أسعدني أن ساعدتك في التخلص من ذلك الحاجز..

وزفر أو تنهد لا تعي، فقط وصلتها حرارة أنفاسه فقلبت معدتها:

- ربما تعرفين الآن لمن تنتمين فعلًا!..

ثم غادرها بعد أن أخبرها عند الباب:

- سينتظرك أحد السائقين ليعيدكِ للمنزل..

وغاب وعيها مجددًا فلم تشعر بثياب مبعثرة ارتدتها كيفما اتفق، بخطوات واهنة سقطت بتوكؤ منكسر على مقدمة السيارة التي أقلتها لبيت عمها.. بطريق طويل تمنت لو أنها لم تقطعه يومًا وليت النهايات بالتمني..

هناك استقبل وجهها -الذي لم تجف عبراته بعد- المنزل الهادئ؛ فساكنيه مازالوا نيامًا، صعدت للغرفة التي تجمعها بالابنة الصغرى بتسلل أشبه باللصوص، هي لا تملك تبريرًا لليلة قضتها بين أحضان رجل!..

فتحت الباب لتباغتها عينا "باتريشيا" الحزينتان..

الفتاة كانت مستيقظة وكأنها تنتظر عودتها لترمق فوضاها بألم، تعتدل من جلستها وتتخطاها عبر الباب بهمسة بها من البغض ذات القدر من العذاب:

- هنيئًا لكِ به تيا.. أجدتِ سرقته مثل لص محترف..

وهي لم تكن بها طاقة لدفاع لن يغنيها شيئًا بعد ما خسرته بالفعل، توجهت نحو حمام الغرفة وجثت على ركبتيها أمام المرحاض تفرغ معدتها بقسوة..

ورائحة الخمر الكريهة تزكم أنفها فتتقيأ أكثر..

انتهت بتعب فارتكنت للحائط.. حائرة، مشتتة.. متوجعة، خائفة تبحث عن أمان وأمانها الوحيد لا يحق لها أن تطلبه فقد رفضته من قبل..

رفضته وتعنتت في رفضه بغلظة فخسرته!..

عادت لبكائها المكسور النادم، فهل الندم يجدي!..

عشر دقائق امتدت لنصف ساعة وهي على حالها، أخيرًا استدعت ما تبقى فيها من قوة لتقف، تخلع ثيابها وتلقيها بسلة المهملات جوارها، تنزل أسفل الماء لتتركه يطهرها من أوساخها..

اتهمت أمها بعهر؛ فباتت هي العاهرة..

والآن من يبرئها؟..

خرجت تلف جسدها بمنشفة ضخمة، ارتدت ملابسًا لم ترَ تفاصيلها، تكومت بفراشها وانطوت على نفسها بضياع ورجفتها لا ترحل عنها..

لحظات قصيرة وقطعت غيابها "أنابيل".. تدلف للغرفة دون إذن، ترمقها باستعلاء وتبتسم في سخرية شامتة.. رفعت عينيها إليها فمطت شفتيها بانتصار:

- كيف كانت ليلتك عزيزتي تيا؟..

هنا أيقنت أن ما حدث لم يكن خطأها وحدها.. لكنها وقفت على حافة الهاوية برعونة غافلة فدفعتها الحقود لتسقط بطيش..

اعتدلت تحاول السيطرة على ارتجافها، تنظر بحيرة والسؤال يغزو مقلتيها دون أن تنطقه حقيقة:

"لماذا تكرهينني؟!"

والفتاة فهمت ببساطة ضعف النظرة وتيهها، أتى ردها كضحكة ساخرة عالية ممطوطة انتهت بتهكم لاذع ونبرة غارقة في ضغينة لا تجد لها دافعًا:

- أنا لا أكرهك كما يجول بخاطرك؟!..

عقدت ذراعيها قبالة صدرها بغرور:

- لا.. لا يا حلوة.. لا تعطي نفسك حجمًا أكبر مما تستحقين! ..

وتحركت خطوة تستند للفراش بكفيها لتواجه عينيها باحتقار:

- أنتِ فقط حمقاء عربية ظننت أن لها مكانًا بيننا..

وضاعة اللهجة أنارت بصيرتها فجأة..

الفتاة عنصرية، تزدري كل من لا ينتمي للدم الأزرق كأنها تعيش في عصر بائد:

- أنا ابنة عمك..

نطقتها بانكسار وتكررت الضحكة وتضاعف الاستهزاء:

- وإن يكن!.. لا تظني أنكِ تنتمين إلينا بحق..

ورحلت خطواتها تكمل درب الشماتة، تتركها من ورائها فريسة الندم.. ذبيحة القهر والوجع..

طريدة الخوف الذي لا مهرب من مخالبه التي تنهش روحها..

***

في أقسى لحظات ضعفك، قد تستنجد بمن خذلته علَّه ينتشلك من أوجاعك..

نعم خذلتهما، ونعم تحتاج دفء أمانهما..

تحتاج أمها التي وإن لم يضمها رحمها فقد كان صدرها مستقرها ومأواها..

تحتاج خوف أبيها عليها، اطمئنانها وسكينتها معه.. وعقابه!..

هاتفته، سمعت صوته الحبيب يعاتبها على تجاهلها له:

- تيا.. حبيبتي..

استسلمت للصمت تتشبث بنبرته المطمئنة:

- كده يا تيا؟!.. كل ده تغيبي وما تتصليش، ولما أتصل تلغي!..

يستمر معاتبًا وتحتضن هي صوته ودموعها لا تتوقف:

- مكتفية بالرسايل وخلاص!.. الدراسة بدأت من زمان والوعد كان الصيف بس..

رُغمًا عنها قهر نحيبها صمتها..

ومن بين الدموع التي أوجفت قلبه وصلته همستها تتعلق بقشة غفرانه:

- بابا..

الهمسة اخترقت ضلوعه وميز فيها العبرة، بارتعاشة.. بلهفة:

- أنا محتاجة لك قوي..

- مسافة الطريق وأكون عندك..

لم يمنح نفسه الفرصة ليفكر، ليسأل، ليفهم..

فقط هرول لسيارته والوقت يمر ببطء يضاعف خوفه عليها..

انتهت الدقائق وبباب البيت وجدها تسقط بأحضانه، تتمسك بقميصه بأصابعها كما كانت تفعل بطفولتها عندما تخطئ!.. تبلل صدره بدموعها وأنفاسها تتعثر على صراط اليأس فتكاد تهوي إلى جحيم الموت..

ودعت العم المستغرب من مظهرها ورحيلها المفاجئ، تجاهلت الابنة الكبرى وأخفت عينيها عن الصغرى والأخ لم يكن موجودًا.. بالنهاية لا فارق!..

هي خرجت خاسرة..

بجوار الخال برتبة أب لم تستطع الحديث، احتفظت بجمودها وبصرها يراقب السماء الضبابية بشرود حتى وصلا للمنزل..

وهناك كان أوان الحقيقة..

بعد أسئلة ورفض وهروب وخوف..

بعد إصراروامتناع وحزن وصراخ..

أخبرته..

قذفتها في وجهه لينال وجهها منه صفعة كادت تخلع عنقها.. صفعة جرحت ركن شفتيها فسال منه خيط رفيع من دم قانٍ.. صفعة أولى ووحيدة ودت لو كررها حتى يقتلها..

وقف بعدها بجسد مضطرب في مواجهتها، كفه يرتعش.. شفتاه مزمومتان وأسنانه تطحن بعضها البعض بعنف وجنون على وشك أن يصيبه..

جذب ذراعها يرفع وجهها إليه، لمح النزف الضعيف مثلها وتجاهله:

- هي دي آخرتها يا تاليا؟!..

تملك من ذراعها الثانية يرجها بقسوة دارت لها رأسها:

- ده اللي رفضتِ أبوتي عشانه!..

ثم دفعها بعيدًا عنه..

لم تعترض..

فبأي وجه يحق لها الاعتراض؟!..

استكانت لغضبه الذي تراه لأول مرة بعمرها..

زعيقه..

تحركاته العشوائية المهتاجة بلا هدف..

وانتفضت برهبة على صوت تهشم مزهرية كانت تعلم أنها ثمينة على جدار مقابل..

بعدها أتت الإفاقة على قراره الصارم:

- أنا هابلغ البوليس.. ده اغتصاب..

- لأ..

هتفت بها ترجوه فنظر نحوها بعين متقدة:

- لأ!.. يعني إيه لأ؟!..

سقطت فوق مقعد خلفها وكأن ديدن يومها السقوط:

- أنا...

- أنتِ إيه؟.. انطقي..

وصلته الهمسة بهوان:

- أنا كنت سكرانة..

بدا لها للحظة أنه سينقض عليها يخنقها، يحبس عنها أنفاسها حتى الهلاك..

بريق عينيه أرعبها فأخفت وجهها بين يديها واندس رأسها بانكسار بين كتفيها، تترك انفراجًا بسيطًا من وراء أصابعها تلمح كبته لصرخة ما..

لألم..

لهياجِ لو ترك له نفسه لحطم عظامها واحدة تلو الأخرى..

ولدمعة..

دمعة واحدة تخطت كل انفعالاته لتخدش قوته.. تحطم صموده.. تهين كرامته.. وتقهر رجولته..

لمحتها فاستقامت رُغم الخوف تقترب بينما هو يناظرها بخيبة وظهره مثقل بهمه:

- ما كنتش في وعيي.. بس ما رفضتش، مش عارفة حصل إزاي!..

كانت صادقة، فالصورة بذهنها مشوشة باهتة، مدت أناملها نحوه تتردد في الإمساك به.. تخشى لمسه فيرفضها:

- أنا آسفة..

وأطرقت بمذلة تتلعثم بكلمات لا فائدة منها:

- ومستعدة لأي عقاب تفرضه عليَّ..

عن أي عقاب تتحدث!..

أي عقاب قد يمحو ما فعلته!..

أي عقاب قد يطهرها من الإثم!..

طال صمته يتأمل رأسها، يستمع لأنين دموعها المخفية خلف خصلاتها المشعثة، ويقرر بصلابة حازمة دون أن يعلق على ما نطقت به:

- هنرجع مصر من بكرة.. وعلا مش هتعرف حاجة عن الموضوع ده..

ناظرته بحيرة فغلف نبرته بقساوة وهو يوليها ظهره:

- مش هاكسر قلبها وأقولها اللي عملتيه خيرعشاني زمان بيترد لك شر..

وبات التجاهل هو صاحب السلطة..

هي لن ترى حنانه بعد اليوم..

أمره التالي كان قاطعًا بلهجة جاهد ليلبسها الحزم، فوجودها يحرق قلبه:

- اطلعي أوضتك.. وما أشوفش وشك لحد ميعاد الطيارة..

تعاظم بداخلها الوجع..

الحسرة..

الوهن ووساوس نهاية لم تكن بالحسبان..

أما درس الحياة؛ فقد خرجت من اختباره راسبة دون شرف..

***

نحن نعلم أن الحياة قصيرة؛ لكننا لا نجيد استغلالها..

نظل نُماطل، نُسوِف..

نأمل في معجزة وننتظر حتى تأتينا صفعة الخذلان فتترك بداخلنا خواءً، ثقبًا أسودًا يبتلعنا في دوامته فلا نمتلك فرصة مقاومة..

لا نعرف طريق عودة أو ندم..

هي تفتش عن معجزة وتسلك دروب الخيال متعلقة بحبال أمنية..

ألف سؤال وسؤال يخلقون بنفسها طوفانًا من الهموم والمخاوف..

سؤال عن كيفية!..

عن ثقة!..

عن خطوات!..

عن عودة قد لا تبيحها الروح!..

مر ما يقرب من أسبوعين على حديثه معها، على اللامبررات التي صاغها إليها، على صدمة جديدة ألقاها فوق رأسها، على تبجح غريب كأنما يفتخر بذنب عظيم..

على خطيئة رمى عليها بإثمها، وهروب آخر تستدعي به الصبر، التماسك وتعيد معه لذاتها التوازن.. على ابتعاد ورفض ثم خنوع فاستمرار..

على توبة غير مذكورة في السياق..

وعلاج لأجل خاطرها هي!..

أسبوعين اختارت وإياه خلالهما أحد الأطباء النفسيين المشهورين بمجالهم.. تم الاتفاق معه على السرية التامة؛ فسمعة العائلة لا تتحمل كارثة كتلك..

ظلت تتفادى حضوره، تغيب عن وجوده.. عادت لعملها وقررت أن تستمر، فذاك هو الاتجاه الوحيد أمامها.. لا تفرعات أخرى تمنحها الخيار..

منذ يومين ظهرت نتيجة الفحص الطبي الشامل الذي أرادته والنتيجة كانت..

نظيفة..

حينها سخرت من نفسها، فيبدو أنه يهتم ويحتاط كما أخبرها يومها..

أما عن ذلك الذي لا تجد لصفته بحياتها اسمًا فقد أصرت على رحيله واستجاب هو بيسر كما اعتاد منذ عادت ونقله لأحد أفرع الشركة حيث لا يوجد.. هو!..

"ملك.. ملك!"

تردد النداء باسمها مرتين ليخرجها من غفوة الذكريات التي غاصت فيها، رفعت عينيها لتجد ابتسامة العم العطوف ونظرته تراقب ملامحها في اهتمام، اعتدلت في جلستها بتساؤل صامت جعله يواجهها بمقعده:

- بانادي عليكِ وأنتِ مش هنا خالص..

أجبرت شفتيها على ابتسامة رقيقة تزيح بها قلقه:

- معلش يا عمي كنت سرحانة شوية..

احتواها بعينيه في أبوة رؤوفة، وتنهد بحثًا عن مدخل لحديثه:

- عاملة إيه دلوقتِ؟!.. طمنيني عليكِ..

وألقى بنظرة نحو زوجها الذي يجاور أخيها وابنيه في ركن آخر من حديقة المنزل بيوم العائلة المقدس:

- نزار كمان عامل إيه معاكِ؟!..

هزت رأسها ونبضها يتسارع بتوتر..

هل أخبره "يوسف" عما سمعه!..

- الحمد لله كويسين..

ورمقته من بعيد بعين غرست فيها ما استطاعت من هدوء وحب:

- نزار بيحبني قوي.. ومتحمل كتير عشاني..

كان يعلم بحبه، بل والعائلة كلها.. يوقن أنها فتاة قوية لو سقط زوجها في مستنقع الخيانة فستتركه يغرق وترحل!.. أو هكذا يظن.. ابتسمت واستقامت متجهة للداخل:

- هاروح أشوف ماما وخالتو محتاجين حاجة ولا لأ..

- ملك!..

استدارت تحبس ارتباكها بصدرها:

- لو حد ضايقك تيجي لي فورا.. مش هاقولك أبوكِ أو أمك..

ونهض يمنحها بسمة تمازج فيها مع الشفقة حنانًا طاغيًا:

- أنا زي بابا برده..

- أكيد يا عمي..

كانت تخفي عينيها عنه..

تخفي بهما الخوف، صرخة النجدة والحقيقة المسجونة..

تتعثر في ذعرها من انكشافها ولو بطريق خطأ.. وعينا الزوج تتبعانها، وبصر العاشق يطارد غيابها..

بعد اختفائها من أفق كليهما تلاقت نظراتهما..

واحدة بشك غاضب، والثانية بلامبالاة، وهزيمة!..

امتد اليوم بهم كما هي العادة، بين اجتماعات صغيرة وجلسات الشباب والكبار، النساء والرجال..

وكل منهم بحال.. خاصة العشاق المهزومين بدنيا الغرام..

فالصغيرة قرب نهاية اليوم كانت تقف مع ابنة الخالة بالمطبخ لتحضير بعض المشروبات الباردة والساخنة تبعًا للرغبات المختلفة، وفي طريق خروج خطواتها شبه الراكضة اصطدمت به..

أغرقت قميصه بكوب العصير خاصتها وغرقت هي في خجلها والمفاجأة غير السارة على الإطلاق.. فماذا سيقول عنها الآن!..

فتاة خرقاء!..

تراجعت تهتف بارتباك:

- يا خبر!.. أنا آسفة يا مروان بجد..

خطوته المرتدة وازت توترها وهي تجذب منشفة تمد يدها بها نحو ثيابه تحاول تنظيفها بنفسها، ثم تتعثر وترتبك أكثر، تبتعد وتضعها بيده بينما يتظاهر هو بعدم رؤية تلك الحالة التي تلبستها في حضوره.. في قربه:

- يا بنتي عادي..

ومسح القميص في ثوان، أهداها بسمة حلقت بقلبها خارج حدود الأرض:

- هاطلع أغير.. بسيطة..

من خلفها كانت العاشقة المكسورة تراقب بحزن.. نادتها تريد أن تقطع أملًا لا طائل من ورائه، فأخيها في حالة عشق ولو لم يخبر عنه..

عندما تلاقت بعينيها اللامعتين ببراءة ابتسمت.. ترددت وتراجعت وأخبرتها بهدوء:

- خدي الصينية دي برا..

ثم تبعتها تحمل أخرى..

تتجنب لقاء عيني زوجها.. تبتعد عن مرمى بصر ابن العم الذي لمحته يدفن رأسه في هاتفه كأنما يتفاداها هو أيضًا..

وكم بدا ذلك مريحًا لقلبها!..

انتهى اليوم وبدأت مأساة..

مأساة وجودها معه وحدها بالسيارة.. بالبيت.. بأي مكان يجمعهما دون بشر..

عندما وصلا لمنزلهما تسابقت قدماها في صعود الدرج هربًا لكنه لحق بها يناديها لتتوقف رُغما عنها:

- مش هترجعي أوضتنا بقى؟!..

هو لا يدرك كم الأمر شاق على نفسها..

لا يفهم أو ربما يتغابى.. لا فارق!..

التفتت تجود عليه بنظرة تحمل من اللوم مقدارًا لا بأس به ليزفر عند لقاء عينيها:

- مش هاقدر يا نزار..

كان غاضبًا ويكبت غضبه، لديها الحق لتفارقه وإن أصبحا بذات المكان..

لكنها أطالت الأمر أكثر مما ينبغي:

- حتى مع كلام الدكتور؟!..

وتنهدت..

تستعيد حديث الطبيب الذي أخبرها أنها ستحتاج لجلسات تأهيل خاصة بها لتساهم في زوال السلوك المنحرف عن رجلها..

وفي الجلسة الأولى قالها بوضوح..

هي التعويض المناسب والجانب المشبع الذي ينبغي أن يغنيه عن العلاقات الشاذة، وعليه فقربها منه هو خطوة من خطوات العودة..

أخبره أن يتقرب من زوجته، أن يشبع نفسه بها ومعها مادامت ترضيه ويشغفها..

لكنها فقط.. لا تستطيع!..

- على الأقل مش دلوقتِ..

هي لا تتخيل أن يلامسها..

يقبلها..

ينال منها ما ناله قبلها من رجل!..

ومرور الفكرة ببالها أثار تقززها، بعث بقشعريرة ثلجية بأوصالها فعادت تفر دون مزيد من ثرثرة جدباء:

- تصبح على خير..

أقامت بينهما حاجزًا ليس من السهل أن يتجاوزه..

أغلقت عليها باب غرفتها بخوف..

وسجن نفسه بغرفته بضيق..

***

هل نختار الحب أم يختارنا هو؟!..

ينتقي من بيننا الأقوياء ليذيقهم ضعفه.. يخضعهم لسلطانه!..

يقهرهم بالألم..

يهديهم الأمل..

الرفض..

القبول..

الشغف والقرب..

يكسر شوكتهم ويزلزل دنياهم!..

يهزمهم وينتصر!..

كان هذا هو تعريف الحب البسيط كما تراه، أما هو فيراه.. امتلاكًا..

أن يسطو عليها بالكلية، يباح له منها كل ما تراه عيناه ويرغب فيه قلبه..

أن تكون له، معه وبه..

ظلت تتحاشاه طيلة ما يقرب من أسبوعين، تأبى لقاءه.. تتفلت من محاولات قربه، نقلت نفسها مجددًا من محاضراته، ابتعدت.. تناءت.. هربت!..

كلها مسميات لفعل واحد؛ هي ترفضه.. وبغتة دون مقدمات..

بعد تفكير طويل، وقلق يداهم كيانه وإن أجاد تحجيمه، غضب منها وعليها.. قرر أن يقطع الشك باليقين خاصة مع تلك الرحلة التي حددها الاتحاد وسيكون فيها بصحبتها السمج الذي يفتأ يضايقها..

بحركة رعناء متهورة بتر خطواتها المتعجلة نحو سيارتها عقب انتهاء اليوم الدراسي:

- ممكن أفهم في إيه؟!..

توقفت فجأة بعدما كادت ترتطم به، تراجعت قليلًا ترميه بنظرة متضايقة فاترة:

- نعم!..

عدد بنبرة شابها شيء من حيرة:

- سيبتِ السيكشن، بتهربي مني طول الوقت ورافضة إننا نتكلم.. وكمان أخدتِ قرار الرحلة وأنا آخر من يعلم!..

أمالت رأسها بلية شفاه مستهجنة:

- وهو أنا المفروض آخد إذنك ولا إيه!..

هي تستفزه وهو سيتمالك أعصابه حتى يجمع أطراف الخيوط المتفلتة من بين أصابعه:

- تعرفيني على الأقل..

لمحت نظرات البعض من وراء ظهره فزمت شفتيها وقررت الابتعاد:

- ما فيش حاجة تديك الحق ده..

وتحرك يوازي حركتها يمنعها الفرار:

- غرام..

كادت تشهق وهي ترى طيشه يزيد من نارٍ دخانها لن يصيب سوى سمعتها وكرامتها:

- مروان لو سمحت.. اللي بتعمله ده ما يصحش..

تأفف بضيق، هي على حق..

أدار عينيه في المكان من حوله لتجد اللمزات تفر بجبن فابتسمت ساخرة:

- طيب هامشي، بس عاوز أفهم مالك؟!..

- ما فيش حاجة..

زفر بحرارة وغضبه يطفو للسطح:

- أوك يا غرام.. زي ما تحبي، لكن رحلة العلمين مش هتطلعيها..

- أفندم!..

تستنكر، تعترض.. وتهاجم:

- كفاية يا مروان.. مش من حقك الأوامر دي، مش من حقك تملي علي أفعالي وأكلم مين أو أتعامل مع مين!..

- بسيطة.. حددي لي ميعاد مع والدك، بعدها هيبقى لي كل الحقوق!..

وهكذا ببساطة قرر شهريار أن يمتلك شهرزاد..

لكنها امرأة لا تشبه باقي النساء..

لن تقص الحكايا ولن تمنحه الحلم والليالي.. ونفسها!..

هل يظن أنه بورقة سيستحوذ عليها؟!..

يملي شروطه ويُسيرها وفق قوانينه!..

تأجج سعيرها فبان لهيبه بغيوم مقلتيها وهي تشد قامتها بحسم:

- لأ..

نحن في الحب لا نختار..

بل فقط نسقط!..

***

ونظل نهرب من الحقيقة حتى تصفع وجوهنا عنوة.. وبقسوة!..

نفِر منها في مطاردة سفسطائية تنتهي بنا بين مخالبها، تتلذذ بأنّات أوجاعنا..

وهي مهما حاولت التناسي، التجاهل والاستمرار؛ تبقى الحقيقة واقعًا تحياه بكل لحظة، ليست كابوسًا يمكنها أن تفيق من متاهاته ولا وهمًا أصابها به مرض..

أسبوع يجر آخر..

وشهر يليه ثانٍ..

هو ينتهج سياسة الصبر واللين.. وهي يرغمها ألمها، خوفها.. فجيعتها على الجفاء والهجر!..

يتقرب إليها بكل وسيلة يملكها، وهي تحاول..

صدقًا تحاول.. لكن الخنجر الثالم لايزال مغروسًا بروحها..

استمر على جلساته وتابعت خاصتها، في كل مرة يخبرها الطبيب أنه بحاجة لها وأن ابتعادها خطأ، وتستمع.. تفكر.. تتردد.. وتتراجع تنطوي على نفسها بغرفتها دونه..

حتى فقد صبره وإن سلك درب اللين:

- ملك..

على بابها يهمس باسمها.. بنبرة رقيقة تفيض بالشوق..

يطوقها بعينيه، يحاصرها بنظرة افتقاد.. بنظرة عشق، وبثقة يخطو نحوها.. يجذبها من جلستها مبعدًا كتابًا كانت تقرأه من يدها:

- وحشتيني..

ونبضها يطرق ضلوعها حد الألم:

- كفاية بُعد بقى..

يتلمس طريقه لقلبها ببطء، يتحسس دربه المظلم إليها بتمهل.. ونعومة خبير بفنون العشق:

- ما بقيتش قادرعلى بعدك..

ثم يميل..

يسيطر على الفراغ.. الزمان والمكان.. يبحث عن شفاه يحفظ مذاقها، يضم برفق ويهدهد بحنو..

وكانت تجاهد كي لا تهرب..

تصارع نفسها.. قرفها.. مشاعرها المطحونة بين مطرقة الدعم وسندان القبول..

تحارب وتتماسك وتقشعر وترتجف.. ويتجاهل..

لكن عندما ضربت حرارة أنفاسه صفحة وجهها وقبل أن يحتوي ثغرها في قبلة دفعته، ركضت نحو حمامها بجنون.. وأفرغت جوفها بموازاة دموعها التي جرحت أجفانها..

وكبرياءه..

عادت إليه بانكسار تخفي بصرها عنه، وهو همس استنكاره بغضب:

- للدرجة دي؟!..

اعتصرت عينيها بقوة بينما يتخلى عن لينه ويهاجم بحدة:

- قرفانة مني يا ملك؟!..

يقترب، يتملك من ذراعها ويواجه بتهكم حانق:

- هو ده الدعم؟!.. هو ده اللي المفروض تعمليه؟!..

زفر بسخط، وهياجه يشتعل فتيله:

- هو ده التعويض اللي المفروض يخليني الراجل اللي أنتِ عاوزاه؟!..

ثم نفضها عنه بنفي رافض:

- تقرفي مني!..

- غصب عني..

تمتمت بها واهنة بالكاد وصلت لأذنيه..

وولته ظهرها تبوح بما سجنته خلف قضبان كتمانها طوال ما مضى من وقت:

- اللي بتعمله ده قرف.. ذنب كبير وأنت مستهين بيه..

ارتعاشها كان جليًا لعينيه وهياجه ينفلت من عقاله:

- أنا حتى مش فاهمة إزاي بتحبني وإزاي.. إزاي..

ولم تجد أحرفًا مناسبة تصف بها ما يفعله، اللفظ ثقيل.. المسمى قاس، وهو لا يكترث:

- إزاي بتعمل كده!..

كان قد وصل لحدود السيطرة وما بعدها سيكون صراحة.. وقاحة.. صفاقة، وهجوم مضاد:

- وإيه علاقة الحب بالموضوع؟!..

التفتت إليه في صدمة تدافع وتبرر:

- الحب هو كل حاجة..

استعار ملامحه لم ينطفئ وإن تلبست نبرته بسخرية:

- لا يا ملك.. اسمحي أقولك الخبر ده..

واقترب يتمم بهمس بارد:

- الحب مش أساس أي علاقة..

ثم استمر يشرح كينونة الرجل وغوامض الكون ببساطة مخيفة:

- جايز عند الست الحب رقم واحد، بتحب راجل فالجنس بينهم كده يبقى له سبب، تدي له نفسها لأنها بتحبه..

وتلك المرة تحولت البسمة لشبه شماتة لم تفهمها والذعر ينقض على روحها فيجهض فيها الأمل:

- لكن الرجالة لأ، العلاقة بالنسبة لنا مجرد وقت لطيف، متعة مش مرتبطة بمشاعر..

والتتمة أتتها دون مراوغة أو تحايل:

- مرتبطة بشهوة وبس..

صمت لحظة انحنى بعدها يواجه عينيها باحتدام نبرته:

- متعة أنتِ رافضة توفريها لي..

واستدار يغادر، يتركها وراءه أكثر ضياعًا..

أكثر وجعًا..

يسحب من أسفل قدميها بساط الأمان ويسدل على وحدتها ستار الخوف والعتمة..

عند الباب توقف لحظة دون التفات:

- وعلى فكرة.. اللي باعمله مش حرام، دوري كويس.. أنا ما باجبرش حد ومادام بالتراضي حلال..

وسكن ثوانٍ قصيرة:

- الفكرة بس إني خنتك.. وإننا في مجتمع بيجبرني أداري ميولي عشان شايفها عار..

وكان من حقها شهقة كادت تخترق رئتيها..

أي جنون يهذي به الآن!..

رباه..

بل أي مستنقع دفنت نفسها في أعماقه باسم العشق!..

هو فاقد للرشد، زلزل ثباتها ويريد تقويض عقيدتها بجهل..

ارتمت فوق الأريكة التي سكنتها قبل قليل وكيانها يسقط في غياهب جحيم آثم، ستتركه..

هذه هي النهاية..

هو لا يبحث عن توبة..

هو يجاريها بعلاج كي تعود إليه، لكنه لا يخشى عقاب خالقه، ولا يستنكر ما يفعله..

وتدخل الفؤاد الخاضع والضمير المؤنب..

أنت آخر حبل يعتصم به، وإلا فمصيره السعير..

ولم تعلم ما تفعل!.. فبكت..

دقائق تاهت فيها مع دموعها..

ثم هداها عقلها لطلب استشارة، لكن ممن؟!.. لن تخبر أمها، وبالطبع لا الأب ولا الأخ يصلحان..

تريد إخراج ما بصدرها المشحون بالمخاوف والأوجاع..

ومن أفضل من مجهول ليخبرها دون لوم أو تقريع أو محاسبة!..

فتحت حاسوبها المحمول، وعلى موقع التواصل الاجتماعي "فيس بوك" أنشأت حسابًا نظيفًا فارغًا من المعلومات، وبأحد المجموعات الشهيرة كتبت مشكلتها..

وجلست تنتظر.. تقضم أظافرها ومقلتاها تدوران في المكان بضياع..

ثم تذكرت هذره الأخير فعادت للحاسوب، تبحث عن موقع دار الإفتاء المصرية وتترك السؤال.. ليس لأن الشك تولد لديها، لكن علَّ الجواب يصبح طرف خيط آخر يتعلق به زوجها الغافل..

"ما قولكم فيمن يدعي بأن الشذوذ الجنسي حلال وليس حرامًا؟!.. وأن عقاب قوم لوط إنما أنزل بهم لأن العلاقة بين الرجال لم تكن عن تراض، بل كانت غصبًا؟!"

وانتظرت الرد..

الأمر جلل والهلع يصفعها لتفيق لكنها فقط تهلع أكثر..

ساعة أو أكثر وأتاها الجواب القاطع:

"اللواط حرام شرعًا، وكبيرة من الكبائر ويستسلزم ممن وقع فيه أن يبادر بالتوبة منه والندم عليه، والعزم مع كثرة الاستغفار على عدم العودة إلى مثله مرة أخرى..

وقد ذم الله تعالى في كتابه المجيد وعاب من فعله.. فقال {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (٨١).. سورة الأعراف}..

وقال النبي ﷺ: "لعن الله من عمِل عمَل قوم لوط" ثلاثًا.. أخرجه ابن حبان..

وعن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: "إذا أتى الرجل الرجل فهما زانيان" (السنن الكبرى للبيهقي)..

وأجمع الفقهاء على أن اللواط محرم مغلظ التحريم وأنه من الكبائر، قال الماوردي: واللواط أغلظ الفواحش تحريمًا.."

قرأتها بدموعها ثم قامت بطباعة عدة نسخ منها بلا تردد..

لن يتحرك في المنزل إلا وتقع عينه على واحدة، وبعدما صرفت الخدم لتستكين لوحدتها لم تعد تأبه لوقوعها في اليد الخطأ.. تسللت لمكتبه وتركت إحداها فوقه، وبغرفته وضعت أخرى..

عادت لغرفتها تدعو وتبتهل.. ترجو الصبر وتأمل في توبة.. في عودة..

فتحت المجموعة التي راسلتها بمشكلتها وجلست تقرأ في تأنٍ صامت ردود الرجال والنساء على حد سواء.. كانت غارقة بكيانها كله قبل أن تنتفض على رنين هاتفها برسالة من تطبيق "واتس آب"..

وعندما فتحتها بدهشة أدركت أن الأمل الذي تبحث عنه لم يولد من الأساس..

بل مات في رحم الخديعة..

***

غضبه يحرق أعصابه ويذرو صبره أدراج الرياح..

ختمتها بتقزز منه، باشمئزاز وبراءة فكر لا تليق بنجاسة حياة قاسية..

دار بسيارته في شرود استفاق منه عندما وجد نفسه أمام البناية التي يقطنها "باسم"..

تأملها بين شهيق وزفير..

أفكاره تنهش بعضها بعضًا وقلبه يستجديه ألا يوافق شيطانه؛ لكن الغلبة كانت له..

بدافع غضب.. أو اشتهاء، هو لا يهتم..

طرق بابه فانفتح له بابًا على جحيم سيصلاه راضيًا، واجه العينين الساخرتين بصمت انقطع بتهكم:

- إيه؟!.. الحورية طردتك من جنتها؟!..

زفر بضيق واستدار ليرحل، لكن جذبة لكفه أوقفته ونبرة مداهنة تطالبه بالبقاء:

- خلاص خلاص.. تعالى..

في الداخل ارتمى على أريكة عريضة بتعب، والعشيق بمسمى صديق يتأمله من وقفته بتساؤل غلبه الفضول فنطقه:

- حصل إيه بينك وبينها؟!..

هز رأسه باعتراض حانق:

- مش عاوز أتكلم عنها..

- طبعا.. أكيد مش جاي للكلام..

والغاضب اكتفى..

هناك قرف وهنا لوم!..

والغيرة واضحة كأن هذا ما ينقصه، استقام عازمًا على الذهاب فمنعه "باسم" بتملق:

- ما تتعصبش عليَّ بس..

وربت على وجنته برفق:

- خمس دقايق وحصلني..

توجه نحو غرفة داخلية..

جمد يراقب رحيله..

والقلب في حرب شعواء مع شيطان نفسه.. أما ضميره فرقد في سلام!..

(١٨)

تسألني عن وجع الحب؟!..

ذلك الوجع يعرف ببساطة في اللغة: أنه ألم يطعن القلب دون هوادة..

أما في الاصطلاح: فهو أن أمنحك خلاصة نفسي وروحي قطرة قطرة..

ثم تبخل أنت.. بمقابل!..

لا تخبرني أنك تحبني.. دعني أرى حبك فعلًا.. ثقةً وأمانًا!..

عندما نرتطم بقاع الحلم، لا يتبقى لدينا سوى التطلع للأعلى والتشبث بوهم النجاة..

قد نتحطم مع السقوط، ننكسر.. نتألم ونعجز عن النهوض، نبحث عن شيء، شخص يستحق العودة لأجله، نفتش عن أمل.. ننقب عن حبال نتعلق بها في محاولة صعود نصف فاشلة، نصف موجعة، ومخيفة بالكلية..

في النهاية نحن لا نُبعث من الرماد؛ إلا بعد تمام الاحتراق!..

"اطلقي.. البيت ده مش كويس دي حاجة ما تستخباش.. ده كان لازم يتعالج مش يتجوز، هو وأهله كذبوا عليكي كذبة لا تغتفر.. دول عالم ظالمة.. شاذ يعني تضمني منين على ما يتعالج ما يكونش نقلك إيدز مثلا!..

الشاذ ده غالبا ماعندوش غيرة على بيته.. واللي بيناموا معاه هيطلبوا مراته وغالبا بيشوفوا صورك وعارفين كل حاجه عنك..

تخيلي لو جبتِ منه أطفال هيبقى وصمة عار عليهم.. مافيش حاجة بتستخبى، تروحي تعملي تحاليل ضروري.. وميقربش منك تاني نهائي"..

"طالما جرب فضول يبقى ده مش طبع ده اسمه تطبع، اعتبريه مريض اعتباري، لأنه مش مريض بجد، ده جرب حاجة وعجبته وزي المدمن لازم يبطل..

فوقي من صدمتك و من رد فعلك.. حقك عليه وعلى نفسك طالما بتحبيه تحاولي تقوميه.. روحي لدكتور لوحدك الأول عشان تفهمي تتعاملي مع الموقف إزاي!.. و بعدين أنتِ وهو.. ممكن حبكم لو اتعاملنا مع الموضوع صح يحل الدنيا.. وتنقذيه هو نفسه من كبيرة من الكبائر"..

"خليكي جنبه وإديله ثقة في نفسه مادام بتحبيه وبيحبك..

أكيد حيكون في تغيير للأحسن بعون الله.. وما تحسسيهوش إنه عنده نقطة ضعف، خليه يحس إنه أكبر من أي عواقب ممكن تكون له نقطة مش كويسة في حياته وقدام ولاده..

هو محتاج ثقة في نفسه مش أكتر وربنا إن شاء الله يعوضك خير فيه"..

"اقفي جنبه وسانديه لعل وعسي يكون حبه ليكِ دافع ليه.. بس طبعا أجلي الخلفة دلوقتِ وروحي معاه للدكتور.. كلنا عصاة لولا ستر الله لعل ربنا ستره عشان تكوني سبب في توبته"..

"تعاملي معاه على إنه مريض واقفي جنبه.. لو جوزك عنده مرض ومحتاج علاج من واجب الست تقف جنب جوزها وتوديه للدكتور..

اعتبريه كأي مرض عضوي عادي وإن شاء الله ربنا معاه ويبطل بفضل الله ثم بفضلك..

بلاش تسيبيه، صدقيني الحالة هتسوء أكتر وقصة إن مامته وأخته عارفين ففعلا دي حاجة مش في صالحهم نهائي وده تدليس لحياة لسه بتتبني"..

"أنا بس عندي سؤال.. ده هتخلفي منه عادى كده؟!.. يعنى مش خايفة على ولادك منه أصلا؟.. اطلقى يا بنتي بلا علاج بلا بطيخ.. ما تضحكيش على نفسك وما تصدقيهوش وملعون الحب اللي يخليكِ ترضي تعيشى في القرف ده"..

"يا بنتي الحب بيغير القلوب والأحوال.. حبيه هو مش بإيده، اقفي جنبه و اتكلي على الله.. مازال بيخاف ربنا بمعاملته معاك.. وحاولي تجيبي بيبي تنشغلي بيه"..

"اطلقي.. اطلقي.. اطلقي"..

"بعيدا عن الجدل ما بين ده مرض أو بإرداته؛ دي كارثة بكل المقاييس.. وإقلاعه عن الكارثة دي لازم يكون نابع منه هو، الموضوع مش مجرد اعتذار أو وعود..

لازم يبطل علشان هو عاوز ومقتنع بنسبه ١٠٠% إن ده ضد الفطرة ومن كبائر الذنوب مش علشانك إنتِ، لو علشانك وارد مع أول مشكلة بينكم يرجع تاني..

الخلاصة.. للأسف نسبة التخلص من الوباء ده لا تذكر.. صلي استخارة واسألي الله الخير"..

"مش هيتغير.. لو كان في أمل كان اتغير بعد ما اتجوزك وجرب معاكِ الطبيعي"..

"اللي فيكم ما بيغلطش يلومه أو يقول عليه مذنب.. أنتِ بنفسك قلتِ إنه ندم على اللي عمله، ما باقولش إنه مش غلطان.. لا هو غلطان بس أنتِ واجبك إنك تساعديه وتقفي جنبه..

مش هاقولك للأبد، بس حقه عليكِ إنك تديله فرصة.. ما تصدريش الحكم وتنفذيه..

لو هو حد وحش هيقولك ارفعي قضية وطالما هو بايسيكشوال هيبقى مطلوب منك تجيبي إثبات فعلي للشذوذ ده.. يعني في كل الأحوال هتطلعي خسرانة ومش هينوبك غير بهدلة المحاكم..

ومين عارف يمكن يكون وجودك جنبه هو اللي يعينه ويقويه وبعدك عنه يدمره بزيادة..

وساعتها هتبقي مذنبة قدام ربنا..

ربنا بيسامح وبيغفر وبيدينا كل يوم مليون فرصة وفرصة"..

"عملها من باب الفضول يعني مالوش عذر، جربها مع ستات قبل الجواز يعني ماعندوش حاجز ديني، مش حاسس بالذنب طول المدة اللي فاتت يبقى صعب يتغير"..

"والله مش هتخسري حاجة لو إدتيله فرصة مادام بتحبوا بعض.. يمكن ربنا يهديه"..

"مش فاهم الناس اللي داخلة تقول اطلقي دي!.. يا جماعة أدوا للرجل فرصة يصلح نفسه..

أنتوا مش بتغلطوا؟!.. أنتوا كلكم ملايكة؟!..

هو ميوله الجنسية غصب عنه مش بإرادته..

زي بالظبط واحد مريض.. هو المرض بيجي بالمزاج؟!.. ارحموا الراجل وادوا له فرصه يتعالج وفي علاج لحالته على فكرة..

وكلمة لصاحبة البوست:

لو أنتِ عندك كانسر لا قدر الله؛ هتكوني مبسوطة لو سابك؟!..

دي حاجة مش بإرادته والله وأنا عارف أنا باقول إيه، اقفي جنب جوزك.. لحد ما يتعالج و يبقى طبيعي"..

زادوا من حيرتها..

فمنهم المؤيد لاستمرارها ومساندتها ودعمها له، ومنهم الرافض المشمئز، ومنهم المتمسك بعِظم الجرم..

منهم من يخبرها أنه مرض وذاك ما لم تقتنع به..

ومنهم من قالها كلمة واحدة واضحة وصريحة.. "اطلقي!"..

والأخير.. أثار الهلع بنفسها؛ أتراه يعريها أمام آخر!..

خللت خصلاتها بأناملها في تشتت واجف والحل تائه عنها..

لقد أرسلت مشكلتها تبحث عن استشارة من مجهول فإذا بهم يزيدون من ضياعها ويوسعون المتاهة التي سقطت بدروبها..

قاطع أفكارها المبعثرة رنين هاتفها بصوت رسالة من تطبيق "واتس آب".. شعرت بدهشة خاصة مع تأخر الوقت وانتصاف الليل!..

كانت من رقم غريب صاحبه غير مسجل بالهاتف..

رسالة توجست لها خاصة أنها كانت عبارة عن "فيديو" مدته أربع دقائق وتسع ثوان..

نال التردد من ذهنها وأناملها التي تقترب وتبتعد بارتباك.. في النهاية أشعلت الفتيل ولينفجر اللغم حتى وإن كان يحمل معه النهاية..

أول ما وصلها كان صوته!..

ذاك الذي غادرها غاضبًا قبل ساعتين.. صوته بألفاظ نابية لم تكن تتخيله قد ينطقها!.. صوته بنبرة مثقلة بشهوة سافرة!.. نبرة تحفظها بوقتهما الخاص!..

وبعد الصوت أتت الصورة..

جسدين..

عري..

التحام..

ومشهد لن ينمحي من عقلها وذاكرتها مادامت حية!..

زوجها وصديقه في وضع ارتج له عالمها بأكمله كأنما أصابه زلزال وصل على مقياسه لأعلى درجة فتهدم فوق أشلائها التي جمعتها بضعف لأجله..

لأجل دعمه وقربه واحتوائه..

انفلت الهاتف من بين أصابعها قبل أن تكتمل الدقيقة الأولى وكانت أكثر من كافية.. سقطت ترتكن على ركبتيها ويديها تفرغ معدتها أرضًا دون أن تسعفها قدماها للوصول لحمامها..

جوفها يحترق..

روحها تستعر..

ولهيب خسارتها يصليها جحيم غفلتها وغبائها..

للمرة الثانية!..

جلست ترمق تلوث الأرض بقيئها في جمود..

نهضت بعده نحو الحمام واختارت منه منشفة، بللتها ووضعت فوقها بعض الصابون العطر وعادت للغرفة، انحنت فوق البقعة التي خلفتها ورائها وبدأت بفركها ببطء..

بطء تسارع حتى احتك جلدها فجأة بخشونة البساط فخُدِش..

وبآلية تامة عادت تلقي بمنشفتها في سلة ما، تجذب أخرى وتعاود الكرة..

تغسل يديها وتعود برجفة أفقدتها توازنها فسقطت من جديد..

ها هي تسقط، وستظل تسقط.. حتى حطامها بدا أقرب لشظايا مفتتة تنتظر رياحًا عابرة لتتناثر معها..

سالت دموعها بصمت وكل ما تملك من انفعال كان هي..

تبكي وترتعش..

تخاف وترتعش..

تنكسر وترتعش..

بعد دقائق ظل عقلها خلالها فارغًا تمامًا من أفكاره استقامت بهدوء، تحمل حقيبة وتفتح خزانة ثيابها..

تلتقط منها شيئًا وترميه بباطن حقيبتها على الفراش.. ولوهلة وبعد خطوة انتبهت!.. تلك المنامة كان يشاكسها عنها، يخبرها أنها ينقصها جديلتين لتصبح ابنته..

ثم يضمها، يلتهمها.. ويؤكد لها أنها امرأته..

وتلك غلالة.. قال لها عندما رآها للمرة الأولى أنها تخطف أنفاسه.. ولم يمهلها لحظات الوصول للفراش.. بل أخذها حينها بجنون، ودون أن يخلعها عنها..

وهذه الكريمية الحريرية..

لمعت عيناه حينما ارتدتها، وقبَّل كتفها يهمس لها أنها تليق بنعومة بشرتها حد أنه يود لو يأكلها!..

وأخرى وثانية وثالثة.. وثوبًا رسميًا أنيقًا غاروقتما ارتدته لعملها..

ووشاحًا اشتراه لها..

انقلبت معدتها لكن لم يكن بجوفها شيئًا تفرغه..

جذبتهم كلهم تلقي بهم أسفل قدميها، تدهسهم بعنف، وخرج صوت صراخها أخيرًا يحمل معه حرية الغضب..

القهر..

والقرف..

رمت الحقيبة بعيدًا وقررت؛ في رحيلها لن تأخذ معها ما يذكرها به، ما كان يخصه.. ما كان له..

انتقت ثوبًا قديمًا حملته من منزل أبويها حين زواجها، لفت وشاحها والتقطت الهاتف تطبق عليه بقبضة قوية، تتشبث به كأنه حبل النجاة..

هبطت للطابق السفلي، جلست على مقعد يواجه باب الشرفة تتأمل السماء السوداء، وتنتظر لحظة الحسم..

كانت جامدة.. بوجه شاحب وملامح مصمتة كحجر لن تخدشه قطرات عشق..

غيابه لم يطُل، ساعة وسبع وثلاثون دقيقة بالتمام وكان يفتح باب المنزل مشعث الهيئة كأنما لا يكترث منها برؤية.. أو ربما يظنها هجرته لأحلامها..

والمفاجأة أتت من نصيبه تلك المرة وهو يراها جالسة توليه ظهرها دون أن تتحرك مع عودته.. ألقى بسلسلة مفاتيحه فوق طاولة جانبية، خلع سترته ومرر أصابعه بشعره بموازاة زفرة ضائقة..

في لحظة لمح ما ترتديه!..

وبذات اللحظة انقبضت كفها المتشبثة بالهاتف حوله كأنما تستمد منه ثباتها وقوتها.. توجه نحوها وخطواته تترقب رد فعل منها، يتساءل عن دافع، ويفكر في مبرر يسوقه لتأخره..

هل ضعُف؟!..

نعم..

خان العهد وكسر الوعد؟!..

بالتأكيد..

لكن من يبخل على مدمن بعلاج يستحق انتكاسة..

وهي كانت علاجه!..

اعتدلت تنهض بهدوء، تستدير لتلتقي بعينيه، شفتاها تتحركان وبرود انفعالاتها يثير بنفسه توجسًا قلقًا..

ثم خرجت الكلمة بكل ما تحتويه نبرتها من حزم.. من أمر.. وقرار لا بديل عنه:

- طلقني..

بوغت لثانية وفي التالية كان يهزأ من طلبها بغضب كأنما لم يكفِها رفضه فزادت:

- أنتِ اتجننتِ مش كده؟!..

لم تهمس.. ترمش.. تتحرك، فقط وتيرة صوتها تصاعدت وهي تكرر بصرامة وأناملها تضغط الهاتف حد الألم:

- طلقني..

دار حول الأريكة يواجهها بفظاظة:

- أنتِ واعية للي بتقوليه ولا دور الشهيدة عاجبك؟!..

طعنتها كلماته.. هو لم يشبع بعد من أوجاعها..

رفعت بصرها إليه بثبات، ببرود قاتل:

- واعية.. وباقولك طلقني..

- ولو ما نفذتش يا ملك!..

لديه الجرأة ليسخر، لكنها لم تكن تملك طاقة لسفسطة غير مجدية:

- كل الناس على الميديا هتعرف حقيقتك..

وأيقظت شيطانه الذي أخافها، أوقف تراجعها بقبضة قاسية تنغرس بلحم ذراعها:

- مش باقولك اتجننتِ!.. أنتِ بتهدديني؟!..

أخفت ذعرها المفاجئ ورفعت رأسها تجاهه بعنف مشابه:

- أنت شايف إنه تهديد؟!..

وواجهت بحدة تحاول الثبات بشيء من قوة:

- يعني معترف وعارف إن اللي بتعمله حاجة مخزية.. فضيحة!..

دمدم بغضب مكبوت ووقاحة تنفي الاعتراف ولا تقر بالذنب:

- لأ.. عشان المجتمع اللي عايشين فيه رجعي ومتخلف وعايش دور المتدين بطبعه.. مجتمع عمره ما هيفهم ولا يقدر الاختلاف، مجتمع بيرجم وينفي ويحكم من غير عدل..

ظلت تناظره بصدمة، هو مصدق لما ينطق به كأنما لديه الحق، الحديث معه لا يحمل فائدة، مناقشته عبث.. تخطت هذره وواصلت وعيدها:

- أنا هانفذ يا نزار.. هانفذ، أنا مش بتاعة كلام وبس..

وترشقه بالكلمات أيضًا!.. رجها بحركة واحدة ثم نفضها:

- مش هاطلق يا ملك، وأعلى ما في خيلك..

كانت تعلم أنه لن يفعلها، كانت تدرك أنها أضعف من مواجهة غير مدعومة بدليل، لذا فتحت هاتفها وألقته بيده دون حرف زائد..

وهو راقب دليلها بأعين متسعة، بسخط مازجه جنون..

في اللحظة التالية قذفه نحو جدار مقابل فسقط قطعًا متناثرة، ضم قبضتيه بقسوة وأنفاسه تتعالى، تتسارع بلهاث:

- بعته عندي.. ما تفتكرش إنك كده خلصت من دليل إدانتك..

استعرت عيناه حينما كان يبحث عن مبرر يسوغ فعلته، رِدته:

- ملك أنتِ ما شفتيش وش نزار غالي التاني، وما فيش داعي تخرجي شياطينه..

شدت قامتها تكبت خوفها وصقيع نبرتها يطغى على الصورة:

- ومش هاشوفه يا نزار.. طلقني..

ومن نصيبها كان تجاهله..

بل صراخه وانقضاضه عليها بخطوة أطلقت منها شهقة خارج سيطرتها:

- أنتِ مافيش فايدة، وعدتك وبقى لي شهرين باتعالج ده لو فرضنا إني مريض فعلا، عملت لك كل اللي أنتِ عاوزاه..

دفعها فاصطدمت بالجدار الزجاجي خلفها وشعرت باهتزازه مع ضغط جسدها وشدة الدفعة:

- وبرده ما بتحاوليش تساعديني..

اقترب يحيطها بذراعيه وأنفاسه تضرب وجهها:

- اتحملت قرفك مني، بعدك عني.. عاوزة تعرفي اللي حصل الليلة غلطة مين؟!..

ومال قرب أذنها فأدارت وجهها عنه:

- غلطتك أنتِ..

صفع الزجاج فوق رأسها بيده وصوته الزاعق يرعبها:

- أيوة غلطتك أنتِ.. أنتِ السبب، أنتِ اللي قصرتِ وخليتيني أرجع له تاني..

وضربة أخرى جوارها:

- أنتِ ما حاولتيش يا ملك.. ما حاولتيش..

- طلقني..

صرختها اختلطت بصرخته قبل أن تهرب من حصاره كعصفور واهن:

- أنت اللي ما حبتنيش.. أنت مش عاوز تتغير.. أنت حتى مش حاسس بالذنب اللي بتعمله..

- ذنب؟!.. يعني إيه!.. كنتِ تفضلي الخيانة تبقى مع واحدة ست؟!.. كده تبقى عادية ومناسبة؟.. متوافقة مع معايير مجتمعنا اللطيف؟!..

رمقته بذهول لا تدري بم ترد للحظات:

- كل اللي بتقوله قرف.. كل حاجة بتعملها قرف، حتى حبك مجرد كذبة..

انطلقت منه نصف ضحكة ساخرة بها شيء من مرارة:

- لا يا ملك.. Guess what? أنا بحبك فعلا..

- ما فيش دليل على الحب ده..

- لأنك مصرة تحطيه في خانة الجنس وبس..

لا يزال يثير استنكارها ويجمد ردود أفعالها، اقترب خطوة ولهجته تهدأ حد الجليدية:

- بحبك!.. أيوة.. يعني طبيعي يكون عندي رغبة فيكِ..

صمت لثانيتين أردف بعدها يهد ما تبقى قائمًا من معبد عشقها فوق ظلال ثباتها:

- عندي رغبة في حد!.. ماشي، بس مش شرط أكون بحبه..

وواجه عينيها بصلابة وأفكاره تتمحور حول موضع شكوكه:

- أنتِ بتربطي بين الحب والجنس زي كل ست، وأنا زي أي راجل.. باقولك لأ، الربط ده غلط.. وإلا ماكانش أي راجل خان..

دلو الحقائق البارد الذي سكبه على روحها لم ينتج عنه سوى كلمة تعيدها عقب كل طعنة:

- طلقني..

- عاوزة تطلقي عشانه؟!..

هدربها صارخة بنبرة جنونية:

- إيه؟!.. بتحبيه!.. أنا مش عبيط وشايف كويس هو بيبص لك إزاي!..

حيرها بسؤال وأذهلها بجوابه، تفرق جفناها باتساع لامع بالعبرة:

- أنت.. أنت..

تعثرت في لعثمة غارقة في الخيبة وهو يهاجم بغلظة فذاك أفضل دفاع:

- أنا المغفل مش كده؟!.. اللي لقيتِ حجة تخلصي بيها منه وتروحي لحبيب القلب..

جذب ذراعها بقساوة حد أنَّة ألم خرجت رُغمًا عنها:

- يا ترى أنا كنت مغفل لحد فين؟!..

وتملك منها يلصقها به.. يحرك جمودها، يكسر هشاشتها:

- لحد السرير!..

ولم تشعر سوى بيدها الحرة، لم تشعر سوى بالصفعة.. لم تملك سوى دموع القهر تغسل بها ألمها وترددها وضياعها..

هو لا يمتلك حق تبرير، وهي لا تحوز سوى سباب رقيق يشبهها:

- أنت سافل وحقير.. أنا مش عارفة حبيتك إزاي!.. رجعت لك ليه!..

انتزعت نفسها منه وعيناه بدتا كجمرتين بينما يتحسس وجنته وأثر أصابعها فوقها:

- طلقني.. وإلا هتلاقي الشو الرخيص بتاعك على يوتيوب مع اسم نزار عماد غالي..

ثم كررتها بصرخة متحشرجة أقرب لاختناق:

- طلقني..

وتحول الطائر مكسور الجناحين لرماد..

أتراه ينهض منه، أم يتلاشى معه عندما تذروه الرياح!..

***

السقوط لم يكن أبدًا اختيارًا..

يحدث الخلل، نفقد التوازن.. وتمارس قوانين الفيزياء سلطتها فلا نملك سوى الخضوع!..

تريد أن تهدم صرح عشق رجل!..

لامس كبريائه، وتحسس طريقك لكرامته ثم أفقده لجام السيطرة واسحب بساط السلطة..

رفضته.. رفضت حبه وعرض الزواج وإن باغته كما باغتها، نعم كان يريد أن يمضي ما تبقى من عمر معها، تخيل أنها له.. بل تمنى..

رسم ملامح أطفاله منها، وفي كل لحظة يعشقها أكثر، فتلك تحمل عيناها، وذاك لون خصلاتها.. وآخر عنادها وقوتها، ورابعة ابتسامتها..

زفرة حارة ارتحلت خارج صدره بعُسر، تمدد بفراشه والحيرة تفترس عقله، هل طلبها للزواج!.. نعم، أكانت طريقة تسعد بها أنثى مهما ادعت القوة وتمسكت برداء الصلابة!.. لا..

هو فقط شعر فسبق لسانه عقله بدفعة طائشة من قلبه..

وفي النهاية.. رفضته!..

لا يفهمها!.. ظن أن مشاعرها تشبه ما بداخله، لكن يبدو أن بعض الظن إثم..

وإثمه في دنياها هو العشق..

تعانده.. تجادله.. تتعنت وتتشبث باندفاع بتلك الفتاة المسيطرة متخذة من الفظاظة درع حماية وأمان، وعندما ظن بفكر عاشق ولو كان ذكوريًا شرقيًا بحتًا أن ضعف أنوثتها سيكون له وحده..

خذلته!..

لمَ لا تشبه أمه!..

يراها تخضع لأبيه ببساطة..

هو ليس مستبدًا متسلطًا، ولا هي بالضعيفة المستسلمة..

فقط الحب هو سيد الموقف..

هو شعرة التوازن التي لا تنقطع!..

شعرة لم يمتلك مثلها فخسر من المعركة الأولى..

أغمض عينيه يستعيد تفاصيل خاتمة القصة القصيرة وقبضتاه تنضغطان في عنفٍ موجع..

"لأ!"..

همس بها مستنكرة غير مصدقة، ومع ذهوله تعاظم غضبها:

- أيوة لأ..

واتخذت من السخرية دربًا يسكن وجع قلبها الذي يحاول منعها من بتر حكايته الخيالية:

- إيه؟!.. متخيل إنك أول ما تطلب تقابل بابا؛ هاقولك شبيك لبيك جاريتك بين إيديك!..

دون وعي كانت تكرر اللمزات الحقيرة عنها، وهو حائر لا يفهم.. عرض زواج يسعد أي فتاة من حبيبها الذي تحبه!..

فما المشكلة!..

أم تراها لا تحبه؟!

هل أخطأ في قراءة الإشارات وأصاب قلبه بانتكاسة عشق!..

- جارية إيه يا غرام؟.. أنتِ بتقولي إيه!..

كان مندهشًا يسعى جاهدًا لربط خيوط لا يمسك بأطرافها.. وهي تجاهلت النظرات وحافظت على ثبات نبرتها عندما شدت قامتها بحزم:

- أنت اللي قلت.. عاوز بورقة، بمجرد عقد جواز يبقى لك كل الحقوق..

وهزأت بلية شفاه سخريتها مريرة:

- تتحكم في قراراتي واختياراتي، أكلم مين وأتعامل مع مين..

ثم ابتسمت بوهن سرعان ما نفضته عنها:

- من الآخر.. جارية..

زم شفتيه.. فبمفهومه كرجل.. وكعاشق؛ هو يحق له كل شيء.. هو شهريار وهي شهرزاده ولو كان السيف فوق عنقها:

- أنتِ شايفة إني لما يكون ليَّ حقوق عليكِ تبقي جاريتي؟!..

حافظت على صمت كان يعني الإيجاب ببساطة فأكمل:

- طيب وإيه المشكلة؟!..

- نعم!..

هتفت بها في صدمة حانقة، أوضح بيسر كأنما يسرد عليها بديهية الكون:

- إيه المشكلة لما أتحكم وأقرر عنك يا غرام؟!.. دي طبيعة أي علاقة بين اتنين، وده ما ينفيش إنك برده هتشاركيني قراراتي..

كادت تشد خصلاتها في غضب.. عن أي طبيعة يتحدث!..

دمدمت ساخرة بحنق ظاهر:

- أشاركك وأنت تقرر عني!.. تفتكر كده الحياة هتستقيم؟!..

- ليه لأ!..

وبخلفية المشهد تغزو عقله علاقة أمه بأبيه، كيف تتفهمه وتحتوي غيرته عليها، تطيع أوامره مادامت تخص صالح العائلة.. تطوي كيانها فيه كامرأة وعاشقة، تستكين إليه ويظلها بجناحه كرجل وحامٍ.. وزوج!..

وهي فندت كلماته التي أدهشتها قدر ما أثارت سخطها غير مصدقة لذلك الجانب فيه:

- أقولك..

سحبت نفسًا عميقًا شرحت بعده:

- أنا عندي طموح محدد، ليفل نجاح معين عاوزة أوصله.. أسافر وألف العالم وأنجح في شغلي..

ورمقته بنظرة تغوص بداوخله، تخبره أنها تعلم باختفائه عن الصورة معها ولو ظن العكس:

- تقدر تقولي هتدعم نجاحي ده ولا هترفضه؟!..

عقد ذراعيه قبالة صدره ونبرته الجدية تقتحمها ببطء:

- أنا مش ضد نجاحك أو طموحك يا غرام.. بس كل حاجة ولها حدود..

ومال برأسه يقرر المدفون بعمق كل ذكر مهما ادعى التحضر:

- لكن برده ما تنكريش إن أعظم إنجاز لأي ست؛ بتعمله في بيتها مع جوزها وولادها..

عقدت حاجبيها تستنكر طريقته، تهز رأسها بنفي:

- طيب بلاش نجاحي وكارير شغلي.. أنت شايف إن سيطرتك عليَّ وعلى حياتي ده الصح!..

ونظرت إليه بتحدٍ تستعيد به سيطرتها على حيرتها:

- أنا ما بحبش الأوامر، وأكتر حاجة باعملها وقتها إني بارفض السمع والطاعة..

كانت تعاند، تبحث عن مبرر رفض ويكفيه منها ما تدافع به:

- طيب ممكن نقعد في أي مكان ونتفاهم في نقطة السمع والطاعة دي؟!..

- لأ طبعا.. مش هارفض واحد وأوافق على التاني!..

زوى ما بين حاجبيه بضيق وأتبعه بزفرة متضايقة:

- أنتِ كمان بتقارنيني بيه!..

حدجته بنظرة أشبه بأنشوطة ودت لو لفتها حول عنقه:

- إحنا وقفتنا كده ما تنفعش.. بجد كفاية يا مروان..

تنهد بحرارة يكبت بها سخطه وعيناه تدوران في المكان:

- ما هو أنا عاوز أحط النقط على الحروف، عاوز وقفتنا دي تبقى رسمي..

نفت بكل لغة جسد متاحة، وبين ضلوعها ألم الطعنة يشتد:

- مش هينفع.. أنت مش هتساندني، مش هتقف في ضهري وتدعم نجاحي وتشجعني أحقق طموحي.. مش هينفع..

صوته علا بعض الشيء ونبرته يتلبسها ضيق سافر:

- أنا مش فاهمك بجد!.. مين قال إني ضد نجاحك أو طموحك..

- كل كلامك مالوش معنى غير كده!.. عاوز تسيطر وتتحكم وتملك..

- ولو عاوز كل ده؛ إيه المانع مادام معايا؟!.. دي سنة الحياة.. الراجل راجل والست ست!..

لم تصدق ما يقوله فتلفتت حولها كأنما تناشد أن يكون أحدهم قد استمع لذلك الجنون:

- هاحاول أوضح أكتر..

همست من بين أسنانها وتحركت نحو سور قصير جلست فوقه بتعب، جداله يرهقها وأفكاره تنهكها:

- أنت كنت عاوز تقدم في الخارجية، عاوز تلف العالم مش كده؟!..

أومأ بموافقة وهو لا يدري إلى أين تذهب بحديثها:

- إيه المانع إن يكون عندي نفس الطموح!.. ليه سمحت بيه لنفسك وأنا لأ!..

جاورها بصمت قصير ثم أدار وجهه نحوها:

- عاوزة تلفي العالم!.. تمام، لفيه معايا..

ارتفع حاجباها تستنكر محورته لكلماتها:

- كتابعة ليك!.. في ضلك مش كده؟!..

وعادت ترمق الأفق بغيظ:

- طيب لو عكسنا الوضع، كان ده شغلي ومحتاجاك جنبي: هتسافر وتكون معايا؟!.. هتضحي عشان نبقى سوا!..

- غرام.. العادي إن الست هي اللي بتبقى جنب جوزها..

وكادت شهقة تنفلت من حلقها وعنقها تعود إليه بحدة:

- بجد!.. وليه ما يبقاش في تفاهم؟.. نقطة وسط ممكن يبقى عندها تواصل أو حل؟.. طيب لو كان شغلك قصاد شغلي؟!..

نظر لها بسكون..

يشعر بأنها تجادل للعناد لا أكثر..

تجادل في فطرة الكون وخلقته الأزلية:

- هتسيبي أنتِ شغلك، ده الوضع الطبيعي.. أمي سابت شغلها لما بابا رفضه..

الموقف بدا لها عبثيًا، فهو يقارنها بأمه!..

من أي عهد بائد أتى ذلك الرجل!..

- دي مامتك.. أنا بقى مستحيل أسيب شغلي..

قررت بعزم لا يلين:

- شغلك هيبقى أهم من بيتك وجوزك؟!..

- لو جوزي بيحبني ويهمه نجاحي هيساندني وما يقفش في طريقي..

نهض يشبك أصابعه بملامح متجهمة:

- والحب يا غرام؟!..

- حاول تخرج المشاعر من الحكاية، بلاش تخليها ورقة ضغط..

وتبعته بمواجهة تحسم بها النهاية، تخط كلمة تمت دون أن تبدأ الحكاية حقًا:

- لو بتحبني هتقف جنبي، هتفرح لنجاحي أكتر مني.. ده الحب اللي أنا عشت قصته بين والدي ووالدتي..

هي لا تفهمه..

لن يمنعها العمل، لن يعارض نجاحها أو يعرقل طموحها..

هو فقط يريده أن يتوافق مع معاييره الخاصة، مع كونه الأول في خياراتها وحياتها..

رأت الحيرة على وجهه، التفكير الطويل الموحي بالاستياء والرفض.. فاتخذت عنه القرار وجفنيها يلتحمان بقوة منعًا لعبرة خذلان!.. تكبت مشاعر الحب، وتنهي قصة لن يباح لها اكتمال:

- إحنا ما ننفعش لبعض يا مروان..

وأدارت وجهها عن نظرته تحبس بحة الدموع بصوتها دون أن تهزم قوتها المصطنعة:

- مجرد اتنين طريقهم متوازي، عمره ما هيتقابل أبدًا..

لولا البشر من حوله، لولا المكان والزمان وبقايا تعقل لجذبها يهزها حتى تفيق من هذرها:

- طيب والمشاعر اللي بيننا!..

همس بها مشتتة كأنما يود تصديقها لكنها محض كذبة، وهي لم ترحم ضعف رجل عاشق بل ذبحت فيه كبريائه كما ذبح قلبها قبل ثوان:

- بيننا؟!..

سكنت لحظة تكبت غضبها، تجاهد لرسم الجمود فوق ملامحها وتهرب من نظرته التي لأول مرة تراها تتوسلها ألا تكسره.. أن توافق وتمنح وتندمج فيه وله:

- إحنا ما فيش بيننا حاجة..

ثم انحنى طرف شفتيها بالتواءٍ ساخرٍ قاسٍ:

- ما تألفش القصة بنفسك بعدين تصدقها..

وبإصبع شبه متوار أشارت في دائرة تقصد بها المكان:

- هنا.. تقدر تشاور وهتلاقي الجواري كتير..

بعدها رفعت حاجبًا وجاهدت لتجبر شفتيها على بسمة متهكمة وقلبها يسقط صريعًا بين ضلوعها ناعيًا قتلها لما ولد بحناياه، بل يكتب في قصة لم تكتمل مرثية لا تليق بها:

- هيقولوا لك شبيك لبيك.. اتفرج واختار..

ود لو كرر لها كلمة العشق..

همس لها بالحب..

شرح لها أن الامتلاك هو برهان قلب امتلكته بين يديها..

لكنها فقط اعتصرته بقسوة.. أجهزت عليه بلحظة فسقط عند قدميها نازفًا عشقه!..

شد قامته بمواجهتها وقناع الصلابة يتمكن من كل خلية فيه، يدهس بنفسه ذات القلب ويذبح ذات المشاعر.. ينظر للصورة من زاوية أخرى، ويقرر بما يوافق كرامته المهدورة على عتبات قلبها:

- واضح إني كنت فاهم الحب غلط.. آسف، مش هتلاقيني في طريقك تاني..

هما وقعا بين صفحات رواية قصيرة للغاية..

رواية كل من أبطالها يرى أن للحب قيمته، أن التضحية لأجله واجبة.. فقط إن ضحى وتنازل الطرف الآخر!..

استدار عنها بخطوات أقرب لهرولة ثابتة كأنه لم يهتز.. لم يتصدع خافقه المستكين بصدره في ألم وخوف..

خوف من غضبه الذي يحرقه.. ويهدي الرياح ثراه؛ فلن يعود من رماد الاحتراق..

وخُطت النهاية برعونة عاشقين لم يفهما حبكة العشق المعقدة ولم يبذلا الجهد.. خُطت تتمة لم يستمتع طرفاها بجمال البدايات بعد..

تتمة رسمتها عيناها في وداع أخير وهي تتعلق برحيله في صورة تبدو للناظر بصلادة ألماسة نقية، وبالداخل توسع الشرخ حتى ابتلع عنفوانها المدعى وخافقها ينزف بصمت..

نحن لا ندرك أننا قد وقعنا في الفخ إلا عندما ينطبق على أعناقنا.. وكلما حاولنا التملص من فكيه؛ زادنا انطباقًا.. ونزفنا أرواحنا..

انتهت أفكاره بزفرة أخرى وجبين متغضن، برجولة تخبره أنها قررت وهو وافق قرارها.. أن ذنب الأفئدة المكسورة يثقل كاهله وحده..

فهو لم يحسن الاختيار..

وكأننا في الحب نقرر أو نأمر ونتحكم!..

هي امرأة لن تضعه على رأس أولوياتها، وهو لن يقبل بأقل من تلك منزلة..

انتهت برنين جرس المنزل باستمرار مزعج.. ثم صرخة أمه في ذلك الوقت المتأخر باسم أخته تصله عالية فتنفضه من مكانه، يأكل الدرج بركض لاهث ويتلقف سقوطها بين ذراعيه..

يناديها بقلق، يحملها نحو غرفتها، يهاتف طبيبها بارتباك متوتر نادرًا ما يزوره.. وعيناه تلتقطان دموعها التي ترطب وجنتيها، انتفاضها المرتجف فوق صدر أمها..

ونظرة أبيه التي تلاقت مع نظرته لتخبره أن الأمر جلل!..

***

هناك خطأ لا يمكن إصلاحه..

وهناك سقطة يليها كسر لا ينجبر..

هناك جرح مميت يترك ندبة لا يخفيها زمان، ولا تمحوها عمليات تجميل..

ندبة بأعماق القلب والروح!..

مدت يدها تمسح الدموع في محاولة فاشلة للتماسك وتوضيح الرؤية بينما تقود سيارتها نحو منزل العائلة..

هل انتهت القصة!..

ربما نعم.. احترقت وتركت الدخان يحمل بقاياها بعيدًا فهي لم تعد تصلح لشبه حياة..

رجفتها تتواصل، عبراتها تهطل بفيض مزعج، والرؤية مشوشة.. حتى النحيب بُح له صوتها وهي تسعى لكتمانه..

تتمسك بواجهة قوية، لكنها فقط فتاة لا تجيد الإدعاء.. والتظاهر لم يكن يومًا لعبتها..

نظرت جوارها بحثًا عن محرمة ورقية تجفف بها وجنتيها، نقبت بيدها وبصرها يتابع الطريق بنصف انتباه..

من طريق مقابل غشي الضوء الساطع عينيها، اقتحم الزمور العالي مسامعها فأدارت عجلة القيادة لأقصى اليمين وهي لا تكاد ترى وجهتها.. ضغطت الفرامل بقوة، ولولا حزام أمانها مع دوران سيارتها حول نفسها لأصابت رأسها..

أوقفت المحرك وأظلمت أنوارها.. انكفأت بوجهها فوق المقود وسمحت لنشيجها بالتصاعد عبر حلقها المتشنج من وجع الكتمان..

بكت كما لم تبكِ من قبل..

بكت كما لم تظن في يوم أنها قد تفعل..

صرخت وهمست بأسئلة وجودية لا جواب لها وقبضتيها الواهنتين تضربان المكان من حولها بعشوائية حد الألم..

ثم انهارت تنتحب بضعف..

تلعن الحب ومريديه..

تقسم أنه لن يقتحم بابها حتى الموت..

وفي النهاية تلوم نفسها.. قلبها وعقلها، فهم جميعًا اشتركوا في جريمة الذبح!..

عادت تدير المحرك.. تستدير بالسيارة وتقودها بهدوء تاركة لدموعها عنان الانهمار، محاولة التوقف غير مجدية.. وحتى مسحها بلا فائدة فهي لا تنقطع..

وصلت بشبه معجزة إلى بوابة المنزل التي اندهش حارسها من وجودها في هاته الساعة، خطت نحو الباب الداخلي وقدميها على وشك خيانتها..

على وشك منحها سقطة أخرى..

استندت بذراعها إلى الجرس حتى فُتِح الباب..

رأت الخادمة المسنة ترمقها بصدمة، أمها وأبيها من خلفها يهرولان على الدرج والصرخة باسمها تصل إليها من خلف غشاوة تسطو بسرعة على وعيها..

وآخر شعور لها كان عطر أخيها يقتحم أنفها وذراعيه تتلقفانها أخيرًا فتستكين بأمان!..

دقائق أو ثوان لا تدرك بالتحديد غابت خلالها عن الدنيا ومن فيها، وبين غفوة وإفاقة وصلها صوت الأخ القلق بمهاتفة لطبيب..

ثوان أخرى شعرت بحضور غريب..

محقن ينغرس في وريدها ويد أمها الحانية تلامس جبينها، ثم تتبعها شفتاها ونبرة تحمل بقايا بكاء تخاطبها بها..

همس ودعاء وتوسل..

توتر وخوف وضعف..

وكل ما استطاعت الهمس به قبل أن تعود لغيبوبتها الاختيارية وإن كانت من أثر دواء:

- أنا اتطلقت..

أتراها احترقت كليًا..

أم أن ما بقي فيها صحيحًا سيتوجع نيابة عما احترق!..

***

أكبر خوف، أن نخشى على من نحب..

وأعظم ألم، أن نتوجع على من نهتم لأمره..

ليلة طويلة مرت عليها جوار ابنتها الغائبة عن العالم، الابنة التي بين كل فينة وأخرى تنتفض بفراشها.. وتسيل من خلف جفنيها المنغلقين دمعة وحيدة ثم تعود لأحلامها..

ليلة انتهت بأعجوبة وبدأ النهار التالي بغضب الأب وهياج الابن بعد الخبر الصادم الذي همست به قبل نومها..

أجبر "أدهم" ابنه على الهدوء وقرر أن يتحرى الأمر بنفسه..

هاتف الزوج "السابق" وطلب لقاءه، على طاولة في أحد المقاهي وبينما يتجرع قهوته المرة بملامح صارمة ناوش القلق تفاصيلها استمع إليه:

- أنا تعبت يا عمي..

والعم لم يفهم!..

فنظر بهدوء ينتظر استطرادة إيضاح سرعان ما أتت وقد أدرك صاحبها أن الهاربة لم تنطق بحرف، لم تخبر ولم تفضح وأبدًا لن تفعل:

- ملك فعليا حولت حياتنا لجحيم، من أول شهور الجواز والسعي ورا الحمل لحد آخر إجهاض وهي تقريبا مش شايفة إني موجود في حياتها..

ارتكن "أدهم" بيده فوق مسند مقعده ورمقه بصمت يسبر أغواره بحثًا عن شيء يخفيه:

- ودورك هنا إنك تقف جنبها وتحتويها، تحسسها بالأمان وتدعمها.. مش تطلقها..

- بس لما الموضوع يوصل للشك فيَّ وإني باخونها، والخناقات اليومية وطلب الطلاق كل ما تشوفني، يبقى خلاص الحياة بقت مستحيلة..

أجاد الكذبة وأتقن حبكتها لحد مبكٍ!..

قبض الأب يديه يمنع نفسه من لكمة تحطم فكه:

- يعني إيه!..

أدار "نزار" وجهه بعيدًا يصدق كذبته كأنه لم يكن مؤلفها وكاتب سطورها:

- يعني هي طلبت وأكتر من مرة، وأنا صبرت كتير.. وما بقاش في إمكانية لصبر أكتر..

ثم عاد بعينيه إليه ينهي الأمر بحزم بارد:

- هي طلبت الطلاق وأنا نفذت..

ألجم "أدهم" لسانه عن سؤال.. سؤال باسم الحب، العشرة وإن كانت قصيرة.. عهد زواج هو أقدس العهود..

سؤال لن يهين سوى كرامتها.. وهي أثمن من الجالس أمامه بكل جاهه وسلطانه..

عندما عاد للمنزل استقبلته زوجته بعين مجهدة من البكاء والسهر:

- قابلته!..

- أيوة..

جواب مقتضب باهت والنبرة صارخة بالغضب وإن كان مسجونًا بصدره..

أدركت ذلك وهي تقترب منه، تواجه عينيه وتسأل دون صوت، زفر هو ورد بأبعد ما طاف بذهنها:

- أنا كلمت محامين الشركة وهنفض الشراكة مع مجموعة غالي، ومكتب ألمانيا هيبقى تابع للحسيني جروب..

لامست ذراعه فشعرت بتشنج عضلاته أسفل كفها:

- مش ده اللي بسأل عنه..

جاوبها بسكون خانق أثار عصبيتها فصاحت بحدة تحثه على النطق:

- رد عليَّ يا أدهم.. إيه اللي حصل؟!.. طلقها ليه؟!..

- عشان مش راجل..

زعق بها ثم ضرب قبضته بكفه المفتوحة بعنف وشهقتها تجيبه عن حيرتها:

- عشان مش قادر يقف جنبها وقت ما كانت محتاجاه.. ما عندوش أصل وعمره ما حبها..

دمعت عينها اليسرى وهي تتبشث بساعده وتستند إليه في وهن:

- مش فاهمة..

أغمض عينيه لحظة، بعدها أحاط بكفها المتعلقة بيده:

- مش متحمل تعبها وضعفها يا جمانة، بيقولي بكل برود إنها طلبت وهو نفذ..

أدارت وجهها تخفي شهقة أخرى بأصابعها، تحجبها خلف شفتيها بينما هو يضم رأسها لصدره بحنو:

- على فكرة كويس إننا عرفنا معدنه الحقيقي قبل ما يكون في بينهم ولاد يربطوها بيه أكتر.. هي كده خرجت كسبانة، هو اللي خسرها..

ورفع وجهها إليه يهدي جبينها قبلة أمان:

- هي دلوقتِ محتاجانا، ولازم نكون جنبها..

ثم لامس وجنتها بكفه فتعانق جفناها بتنهيدة حائرة:

- اطلعي لها.. ما تسيبيهاش لوحدها..

بقلب أم ترفض انكسار ابنتها، ترى أن الحبل لا ينقطع مادامت هناك مشاعر لم تمت بعد:

- يعني مافيش فايدة؟!..

أثارت غضبه بلحظة فانقلبت ملامحه وهو يبعدها عنه:

- فايدة في إيه بالظبط؟!..

وأقسم بصرامة لا تقبل تراجعًا:

- والله لو جالي على باب البيت يترجاني زي الكلب ما هترجع له..

- أدهم!..

- اطلعي يا جمانة.. ولما تفوق أنا هاجي لها..

بتر اعتراضاتها بالأمر والرحيل ولم تملك سوى الخضوع..

جاورتها في فراشها تضم جسدها الهش لصدرها، تقبل رأسها ويدها وتعتذر..

لا تعلم علام الاعتذار!.. لكنها تستجديها العودة إليها..

هي تريد طفلتها وحسب..

تهمس لها بحنان ألا تهب لأنياب الخوف الفرصة لنهشها..

ألا تبيح لمخالب الألم القدرة على تمزيقها..

هي فتاتها الصغيرة القوية العنيدة.. والمكسورة باسم العشق..

***

نحن لا نشعر بالسقوط إلا بعد ألم الارتطام..

ننكسر..

نقنط..

نتعلق بخيط واهن من أمل معه قد نعود للحياة، نرى فيه النجاة..

لكن في النهاية قد تكون تلك السقطة هي سقطة الموت، هي خاتمة مبتورة لرواية أفقدها كاتبها تناسقها وأضاع تماسك حكاياها..

بنو البشر لا يفطنون لما بين أيديهم إلا بعد فقدانه، حينها يعلمون كم كان قيمًا في عالمهم، وكم أبخسوه ثمنه..

وهي لم تختلف البتة..

بل ربما خسرت بأسرع مما ينبغي..

خسرت نفسها، أبيها.. حنانه واهتمامه واحتوائه، دلاله ورفقه بها..

منذ عادا سويًا من "لندن" والعلاقة بينهما باردة..

في الواقع؛ لم تكن هناك علاقة..

تجمعهما طاولة غداء ثم عشاء.. لا حديث، لا نظرات.. ولا حتى لقاء أمام فيلم مفضل كعهدهما معًا..

وهي استكانت لقدرها وعقابه..

أخطأت، ولكل خطأ ثمن باهظ لابد وأن يُحصَّل..

أنهى عشاءه بهدوء، مسح فمه ونهض يبعد مقعده ويخاطب زوجته باقتضاب:

- ابعتي القهوة مع صفاء على المكتب، عندي شغل..

رحل وعيناها متعلقتان به ونظر أمها يرى كيف تنظر في أثر غيابه!..

كأنها تستجدي ببصرها شيئًا لا تعلمه..

بعد لحظات تبعته بهمس شاحب:

- هاطلع أوضتي أنام..

بخطوات متعثرة غادرت وهي تتابعها بحيرة قررت بترها والحصول على جواب حاسم عندما اقتحمت مكتبه ووقفت تواجهه بحزم:

- ممكن أفهم في إيه؟!..

رفع رأسه عن أوراقه ورمقها من خلف منظاره الطبي بتساؤل مندهش جاوبته بعجالة:

- إيه اللي حصل في لندن يخليك تتعامل مع تيا بالشكل ده؟!

ترك مقعده واتجه نحوها، جذب كفها يحتويها بين يديه برفق:

- ما حصلش حاجة يا علا..

وشرد لحظة أردف بإثرها مبررًا مقاطعته لها:

- هي بس محتاجة تحس هي كانت هتخسر إيه!..

لم تستطع ابتلاع تبريره وهو يدرك أنها لن تمرره، هي أكثر من يفهمه على وجه الأرض ومن نظرة صامتة:

- إحنا تعبنا قوي معاها، كنت بالنسبة لها الأب وأنت الأم اللي ما عرفتش غيرها، ورغم كده في لحظة قررت تبعد حتى لو بشكل مؤقت..

ثم تنهد واستدار عنها بجبين منعقد:

- يمكن أنا سمحت لها وإديتها المساحة دي وعليَّ جزء من الذنب.. بس لازم تحس إنها غلطت في حقي أنا وأنتِ..

هزت رأسها بحيرة وهي تلامس كتفه:

- أنت بتقسى عليها.. من ساعة ما رجعتوا وأنت كأنك مش شايفها..

وأدارته إليه، تغوص في سماء مقلتيه الداكنتين بحزن دفين مكبوت:

- القسوة ما بتعلمش الحب يا مراد..

هزأ بوجع أجاد كتمانه فخرجت الدمدمة أقرب للغضب:

- ولا حتى الحب يا علا..

- أنت غلطان يا مراد، كل بذرة حب بتزرعها هتحصدها ثمر طيب، إنما القسوة بتولد كره.. بلاش نخسرها أكتر..

انقبضت يداه وزم شفتيه يحجب صرخة قهر، يمنع نفسه عن اعتراف وضمة يحتاج سكناها فوق صدرها.. التزم الصمت فهمست هي:

- أنا هاطلع لها.. فكر في كلامي..

عندما دلفت لغرفتها وجدتها متكومة بين شراشف فراشها بضعف انتفض له قلبها، جاورتها تمسد خصلاتها بحنو، تقبل رأسها وتهمس لها بُغية اطمئنان:

- حبيبتي.. نمتِ؟!..

لم تجد ردًا فتنهدت بضعف أم يرتعب فؤادها على طفلتها..

منحتها قبلة ثانية واعتدلت تستقيم راحلة، أوقفها تمسك يد ابنتها بيدها..

بل تشبثها بها حد أنها كادت تسقط مثلما نهضت..

نظرت إليها بقلق فكان الجواب الهامس أكثر من كاف لتخضع له:

- خليكي جنبي..

تنهدت وفي لحظة كانت تضمها لصدرها كما كانت تفعل بطفولتها..

تتخلل شعرها بأناملها، وبين كل حين وآخر تهديها قبلة أمان.. لم ترَ دمعتها التي انسالت في سكون تنعي خسارة فوق الاحتمال وهي تندس بأحضانها وأخيرًا شيء من راحة يتسلل لكيانها المهزوم في معركة حياة ما قبل الحياة..

اكتفت أمها باحتوائها وقلبها يدرك أن الصورة المرسومة أمام عينيها..

مزيفة!..

(١٩)

من رحم الخسارة يولد الأمل..

ومن أسفل ركام الألم؛ نرى الشفاء وإن دُفن عميقًا..

تلوكل هزيمة هناك معارك لم نخُضها بعد..

هناك حرب لم تنتهِ..

ولن تنتهي إلا بنهاية النبض..

بإثر أي سقوط قيام..

ووقت مرور العواصف يمكننا فقط أن ننحني ونقرر النجاة..

نحن لا ندرك أننا قد وصلنا لخط النهاية إلا عندما نعبره بالفعل..

نتوقف قليلًا، أنفاسنا تعلو بلهاث ربما لا يحمل معه نصر المركز الأول.. لكنه يخبرنا ببساطة أننا قد أنهينا السباق..

نحاول أن نستعيد طاقتنا، نروي عطشنا.. ننظر من حولنا بحثًا عن أعين من نهتم لأمرهم، نراقب ونأمل.. ونستمر..

أنهت سباقها بعد ركض لم يكن ذا جدوى، فعندما وصلت للخط المنتظر؛ كانت خاسرة وبجدارة..

خسرت العشق الذي تمنته خالدًا..

نفسها..

إيمانها بما يسمى الحب..

كبريائها وأنوثتها وحقها في الغضب..

هو دون عسر كسرها.. وإن كانت الروح تنتهك!.. فقد انتهكها..

كلما أجبرتها آهة على البوح بها دحرتها وأعادتها مهزومة نحو الخافق الذي أضناه التعب وبُح نبضه من صراخ لا يتخطى حاجز الضلوع..

تنهدت ببطء وانقلبت على جانبها ترمق ضوء النهار الغارب من خلف النافذة المشرعة بضياع تام.. هي لم تغادر فراشها منذ عادت للمنزل قبل ليلتين..

تختبئ بين طياته وتتدثر بشراشفه كأنما ينتظرها وحش طفولتها أسفله وفي الاختباء نجاة..

لم تتحرك حدقتاها الشبيهتين بحدقتي ميت في تلك اللحظة، لم ترمش بأهدابها ونظرتها يملأها خواء موحش..

لقد باتت امرأة خاوية، ووحدها دفعت ثمن عودتها الباهظ بانكسار آخر..

اللعنة عليه وعلى كذبه وخداعه..

عشقته.. منحته كل ما تملك بل وكانت على وشك إهدائه طفلها؛ ثم فاجأها هو بعطية أكثر تميزًا..

باغتها بطعنة ستظل تنزف أبد القلب..

طرقة على بابها انتبهت لها بلا اكتراث، أمها.. أبيها.. أخيها!.. لا يهم.. لا تبحث عن سند ولا تريد دعمًا من أحد.. كل ما ترغب به ولمدى لا تعلمه أن تبقى وحيدة، أن تترك وشأنها..

ألا يسألها أحدهم عن دوافع أو يناقشها في أسباب لن تستطيع التصريح بها.. ظلت ساكنة بأنفاس هادئة حتى ظهر ببسمة حانية أمام ناظريها..

- عاملة إيه دلوقت؟!..

رمشت كأنما تستفيق من ضعف أجاد التحكم بخلاياها:

- الحمد لله..

سحب مقعدًا وجاور فراشها يستند إليه بيديه:

- إحنا دايما بنحمد ربنا يا ملك حتى لو تعبانين أو مكسورين.. عارفة ليه!..

عيناها تشبثت بعينيه كطوق نجاة من غرق محتوم، وهو جمع بين الأمان في مقلتيه والحنان في ابتسامته والرفق بنبرته:

- عشان ربنا بيختارلنا الصح.. يمكن بنتعب شوية، بنقول ليه.. بنفكر كتير ونحزن ونضعف.. بنقع..

مد يده يحتوي أناملها المرتجفة، يمنحها الثبات والطمأنينة:

- بس بنقول الحمد لله عشان عارفين إنه أرحم بينا مننا، إنه مش هيكلفنا فوق طاقتنا، إنه حطنا في الاختبار ده عشان نخرج منه أقوى..

واليد الثانية احتوت ذات الكف بمزيد من السكينة:

- عارفين إننا لما بنقع؛ بنرجع نقف.. بنستمروما نسيبش أي ألم ينتصرعلى روحنا..

كان وكأنه يقرأ أفكارها ويهدهد مخاوفها بأبوة لم يبخل بها عليها يومًا، ضمت أصابعها في احتواء يديه تتعلق به بوهن فتوسعت بسمته بشيء من ثقة وازت كلماته:

- أنا واثق في ملك بنتي كويس قوي.. عارف إنها هتخرج من المحنة دي أقوى بكتير..

وماله برأسه يواجهها بعينيه في حزم:

- ومش هاسأل ليه، أي قرارأخدتيه أوهتاخديه أنتِ عارفة إني في ضهرك..

بعكس ما توقع تضاعفت رجفتها، ودموعها الصامتة ترقرقت بلمعة مهمومة دون أن ترتحل خارج أجفانها:

- ملك!..

استشعرت قلق صوته فاعتصرت عينيها لحظة قبل أن تهمس باختناق:

- ربنا يخليك ليَّ..

قبض قلبه ضعفها، عجز ما تسرب لنفسه وحيرة جعلته يود لو دق عنق ذلك الأرعن الذي أوجع طفلته..

من خلف الباب الموارب ظهروجه أخيها باهتمام متوتر فأشار له أبيه وهو ينهض، ينحني فوق جبينها بقبلة دافئة ويتخلل خصلاتها المنسدلة على وسادتها باستسلام باهت يشبهها..

يهمس في أذنها بطمأنة ويتركها لرعاية الأخ الغاضب..

اقترب منها هو، جاورها في فراشها ورفعها عنوة لتسكن صدره ويهمس اختلط خوفه بمزاحه أخبرها:

- على فكرة أنا ممكن أكسرلك عضمه لو عاوزة، أنتِ بس إديني إشارة..

انحنت شفتاها ببؤس مرير والبسمة ترفض عناقهما، انقبضت أصابعها حول قميصه وتركت لعبراتها حرية الهطول في أمان ذراعيه.. ارتجاج جسدها جعله يرفع وجهها إليه، يلمح بكائها فيستعر غضبه أكثر.. بإبهامه مسح وجنتها ونهرها بعصبية عاجز:

- بطلي عياط.. ما يستاهلش أصلا..

ثم أعادها يغرسها بشبه قسوة بين ضلوعه، هي أخته الكبرى نعم.. لكنه رجلها وحاميها، وببساطة لا يتصف بالتحضر!..

كل دمعة من عينيها توزاي عنده لكمة سيحطم بها فك ذلك النصف رجل..

- لأ يا مروان..

ابتعدت تجفف بلل عبراتها بيديها، تنظر إليه ببراءة ملأها الألم بخدوشه:

- خلاص.. الموضوع انتهى، اتبتر..

وأدارت وجهها لنافذتها والليل يسدل ظلامه على عالمها:

- أي كلام فيه هيفتح الجرح ويزود النزيف..

حاولت الإدعاء تداعبه ببسمة لم تستطع إخفاء مرارتها بالكامل:

- كده هاتصفى..

وهو التقط محاولتها شبه الفاشلة فقرر إنجاحها:

- هابقى أتبرع لك بلترين..

كل ذلك كان فوق طاقة تحملها في الوقت الراهن..

الابتسامة قهرًا انكسرت عندما حاولت التمسك بها.. انقلبت لفيض من عينيها، صوتها يخونها بنشيجٍ عالٍ وجسدها يغدر بها في رجَّة وجع..

تأمل انفعالها المباغت مأخوذًا للحظة، غلبته بعدها مشاعره فانتفض يضمها إليه، انطوت على نفسها بأمان أحضانه وتركت لذلك السكين الذي يمزق كيانها وروحها حرية العمل..

هي عبرت خط النهاية بجهل..

وبخسران مهين..

***

البشر يجيدون التخلص من إحساس الذنب ببساطة، يقومون بإلقاء اللوم على آخر وهكذا يستكين الضمير لو كان فيه أثر حياة..

يقلبون الطاولة رأسًا على عقب، ويتقنون دور الضحية حين الضرورة..

تستقيم أمورهم بكذبة برعوا في تصديقها بمهارة الذئب البريء من دم ابن يعقوب..

وفي حقيقة الأمر، النسبة الأكبر من خطأ خسارته لها تقع على عاتق ذلك الذي يتصرف بحماقة امرأة غيور..

يومين مضيا..

يومين طويلين بدونها في حياته..

اللعنة على الحب الذي يتفنن في تحطيم قلوبٍ سكنها..

لأجلها كان سيتغير..

لكنها لا تختلف كثيرًا عن مجتمع عاش فيه مكبلًا بأصفاد الخزي والكتمان، مختبئًا خلف الواجهة اللامعة لرجل الأعمال الشاب الناجح والمسيطر على السوق..

لم تفهمه.. لم تحاول، بعينيه هي لم تحاول.. فحتى عودتها أتت مبتورة لا تفي بالغرض منها..

لم تسعَ لتعويضه عما ينقصه بإقلاعه عن إدمانه..

ومع أول انتكاسة هربت..

تركته بمفرده فكفَّ عن الصراع، وليحترق وحيدًا في جحيم عشقه لها..

توقف أسفل البناية التي يقطنها ذلك الطائش، منذ يومين أيضًا كان بذات المكان والموقف والساعة..

يحارب مع رغباته وشيطانه يجمل له الصورة في حين فرَّضميره من قتال كان خاسرًا..

صعد إليه والهياج بداخله يتزايد..

لن يحمل إثم ضياعها وحده.. بل لن يحمله البتة، وحامله خلف ذلك الباب الذي قرعه؛ لذا وجب عقابه..

بابًا ما إن انفتح حتى اقتحمه كعاصفة بلكمة عنيفة تراجع لها "باسم" خطوتين وتعثر في الثالثة فسقط أرضًا يتيح له الانقضاض عليه..

يهدي فكه ووجهه وصدره عدة لكمات متتابعة..

يصرخ فيه ويسبه..

ويقابل استسلامه بعنف أكبر حتى أرهقه ما يفعل فسقط دون أن يترك قبة قميصه من قبضتيه:

- أنت السبب..

تحشرجت كلماته بلهاث منهك جعل صديقه يدفعه ويستقيم، يبحث عن محرمة ورقية يمسح بها خيط الدم المنسال من ركن فمه:

- لا يا نزار.. أنت السبب، فكر شوية وهتعرف..

كان يجلس على الأض فتأمله من موضعه بضعف زاد من قسوته وهو ينحني نحوه:

- أنت السبب لأن مستحيل مجتمعك هيقبلك أو يقبلني..

ووكز ذقنه بسبابته في خشونة:

- من الآخر مالناش إلا بعض..

تحرك يرمي بنفسه فوق أريكة خلفه:

- ما تلبسنيش التهمة عشان شايفها على مقاسي..

نهض يتبعه، يتأمله بعصبية ويفند برهانه:

- أنا ماليش دعوة بالمجتمع بتاعك.. كانت معايا في بيتي، كانت هتكمل.. بس أنت قطعت آخر خيط..

وقف يواجهه بصراحة فجة:

- لا يا حبيبي، أنا قطعت عرق وسيحت دم..

وكتف ذراعيه يردف بجمود:

- أنت مصدق الوهم ده؟!.. ما كانتش هتتقبلك ولا هتقدر تعيش معاك أبدا.. كل ما تخرج وتسيبها هتشك فيك، مسافر، عندك شغل، مع أصحابك.. كانت هتعيشك في جحيم مستحيل كنت هتتحمله.. وبرده كنتوا هتتطلقوا في الآخر..

ثم أشار لنفسه بكبرياء:

- أنا بقى قصرت الطريق عليك وعليها، وخرجتك من الليلة دي بأقل خساير ممكنة..

واقترب يلامس وجنته بيده ويضع كفه على صدره اللاهث بنعومة أفعى لدغت وانتصرت وتريد الاستمتاع بنصرها حتى الثمالة:

- انسى بقى وعيش، أنت عارف إن عمرها ما كانت هتفهمك أو تحس بيك وتقدر إن ده مش نقص فيك..

استكان لنظرته المداهنة بخضوع صامت..

فهو مهما عاند وغضب واحترق؛ يدرك أن ما قيل قبل لحظات كان الحقيقة المجردة التي لا تقبل الجدل أو الالتفاف حولها..

حقيقة ستظل مطموسة لن تفضحها هي أو يخبر عنها أحد طرفيها..

تركه يقترب..

استسلم ليديه اللتين تخلعان عنه قميصه ببطء..

أخرس ضميره الذي استفاق بنصف صحوة، وأذعن لشيطانه مستجيبًا لشهوة تنسيه ما أضاع..

فإن كانت الخسارة موجعة؛ هو لديه مخدره الخاص ليسكن به آلامها..

***

هو كان قيسها المجنون؛ لكنها لم تكن ليلاه..

وبين أساطير العشق لم يصبحا واحدة، بل باتا قصة مبتورة ربما أبدًا لن تكتمل!..

البعض من قاع اليأس تنبثق أمامه طاقة نور..

حينها يخشى الركض نحوها خوفًا من أن تكون محض سراب!..

تتعثر خطواته بين كرٍّ وفرٍّ، يتقهقر.. يهاجم، يحارب، ينهزم.. في محاولة يائسة لانتزاع النصر من بين أنياب الفقد الحادة..

فقدها وبعد ما مر به معها أيقن أن الحرب لم تعد تستحق القتال..

هي اختارت مرة وثانية وذاك المفترق الذي أخبرها مسبقًا عنه لم تحد عن مسارها فيه..

هل استسلم أخيرًا؟!..

لم يطاوعه قلبه على النطق بنعم، لكن عقله تدخل بحسم يوبخ الخافق العاشق وينطقها عنه..

وعندما قررها وأيقن أن الاستمرار دونها هو الحل؛ أصبحت حرة!..

هي الآن.. حرة..

والطريق إليها وإن كان حالك العتمة معبدًا بأشواك الانكسار؛ فالسير فيه فرض عين..

شعر بلمستها فوق كتفه فرفع عينيه إليها خارجًا من شروده، ابتسمت له وبادلها البسمة.. واجهته بجلستها على مقعد يفصل بينهما طاولة أنيقة بحديقة المنزل:

- أنا عارفة أنت بتفكر في إيه!..

صمت يدرك أنها كعادتها تفهمه من نظرة واحدة وإن كانت حائرة تائهة:

- بس ما ينفعش دلوقتِ يا يوسف..

ظهر انفعاله بميلاد حنق واعتدال مفاجئ:

- هاتأخر تاني؟!..

- المرة دي التأخير واجب..

هز رأسه بعنف محتج:

- مش هينفع، ما عنديش استعداد أضيعها..

- ما تنساش إنها لسه في عدتها..

احتقن وجهه..

أيمكنها أن تعود إليه؟!.. وتكون تلك هي الثالثة!..

انتصب واقفًا باستنكار:

- مستحيل ترجع له..

تبعته تواجه عينيه المتأججتين بغضب.. وخوف!..

- ده مش قرارك أنت..

- يعني إيه؟!..

همس بها شبه ضائعة فاحتوت ضياعه بحنو نبرتها:

- يعني جراح القلوب محتاج يستأصل ورم الحب من قلبه..

تشتت مقلتاه وقلبه يكاد يترك صدره هربًا من قسوة النبض:

- أستأصله؟!.. دلوقتِ؟!.. بعد ما بقى في أمل!..

نالت من أنفاسها تنهيدة صبروهي تفسرله بيسر:

- دلوقتِ هي مش عاوزة حد يرمم جرح ممكن يكون حبيبها سابه جواها، ملك دلوقتِ محتاجة تعيش عشان ملك..

وواجهته بحقيقة جديدة لا مهرب منها:

- أي تدخل منك في اللحظة دي هتخسرأي فرصة ممكن تكون لك معاها أكتر..

نعم يخشى خسارتها..

وبخلفية عقله هناك قناعة طفيفة بما تخبره به أمه.. لكن الفؤاد المتمرد يأبى الخضوع، ولهجته تسخربسخط مع كلمة واحدة أشعلت كيانه:

- حبيبها؟!..

والتفت يقبض يديه:

- هو عمره ما حبها.. لو حبها ما كانش يكسرها بالشكل ده..

اقتربت تلامس كتفه، تقنعه بما يرفض العاشق تصديقه:

- يمكن عندك حق..

عاد يلتقي بعينيها الرؤوفتين بينما تبرر برفق:

- يمكن فعلا ما حبهاش، بس اللي متأكدة منه..

وألقتها بوجهه تقصم بها أفكاره المعاندة:

- إنها هي حبته..

قالتها بتقرير، بقصف مباشر نحو قلبه.. وابتسمت بحكمة اعتادها منها قبل رحيلها:

- المرة دي.. محتاج تتصرف بهدوء وحكمة وصبر، قرر صح يا يوسف..

تركت رنين كلماتها يتردد صداه بعقله وغادرته..

اشتبك بخطوات غيابها ظهور المشاغب الصغير بابتسامة عابثة، يحمل بيديه كوبين من الشيكولاتة الساخنة ويستقر مكان من رحلت:

- جبت لك هوت شوكليت..

زوي ما بين حاجبيه بتساؤل مندهش فأشار إليه بشقاوة:

- اقعد بس ما تقلقش مني، عندي ليك كلمتين..

سخر منه وهو يلتقط كوبه الدافئ بين كفيه:

- والعميق عنده إيه بقى يفيدني بيه؟!..

- بتتريق!.. ماشي، بس اسمع مني..

لم يجبه بل انتظر خلاصة خبرته وبداخله ضحكة مستمتعة:

- خسارة معركة مش معناها خسارة الحرب..

جمد في جلسته فجأة والجملة تخترق كيانه بلحظة:

- الحرب لسه ما انتهتش يا جو، ودلوقتِ المعركة هتبقى معاها هي..

ارتشف من كوبه بتلذذ:

- يعني صدقني أصعب بكتيريا كبير..

ثم أشار إليه بحزم لا يناسب سنه الصغير:

- يعني برده ما تستسلمش، لو بتحبها بجد هتهزم خوفها ووجعها وهتهدم جدار رفضها..

والمواجه له دهشته تتضاعف بكل ثانية:

- إيه الحكمة دي كلها يا آسر؟!..

- بص.. مش لازم أكون بحب عشان أحس بيك أو بيها، أو حتى أفهم هي محتاجة إيه!..

وتحولت نبرته لجدية تخالف عبثه المعتاد:

- من الآخر.. خليك اللي هي محتاجاه وفي الوقت المناسب..

نهض يحمل كوبه تاركًا إياه لأفكاره وشتات نفسه:

- حب، أمان، ثقة، سند.. جنون، ورد، شيكولاتة..

انتهت كلماته بدعابة ونال كتفه منه ربتة:

- المهم ما تتخلاش عن حلمك معاها..

وصدى آخر يرتج له عقله..

أتراه يمتلك من الحكمة ما يهديه لمعالجة الموقف بطريقة صحيحة هذه المرة!..

أم ان العاشق سيظل أهوجًا كلما واجه الخوف!..

***

كل امرأة لها نكهة مميزة..

هناك التي تشبه الياسمين، ناعمة بسيطة عطرها صباحي منعش..

وتلك التي تفوح بالخوخ، شهية كالفاكهة، تحمل أسفل قشرتها الحلاوة جوار اللذوعة في لذة مذاق..

وثالثة كعطر فرنسي أنيق وراق..

ورابعة اختصت بقوة العطور العربية.. العود مثلًا..

لأول وهلة تقتحم أنفاسك باندفاع لا يقبل مناورة، تتجعد أنفك وبعد لحظة وأخرى تعتاد فواحها بخلاياك..

تعتاده حد الإدمان!..

بعد أشهر من العمل سويًا، من التدريب وتنقيح ما تعلمته؛ خرجت معه في مهمة عملها الأولى..

كمساعدة له.. وكملاحظ لها..

وهناك في مسرح الحدث كانت تثير جنونه حد أنه فقد أعصابه وجذبها من ذراعها نحو سيارته قبل أن تنتهي المهمة بالفعل:

- أنتِ مجنونة يا راما؟!..

كتفت ذراعيها وعقدت حاجبيها ببسمة بدت لعينيه مستفزة:

- ما تزعقش بس..

زم شفتيه وأهداها نظرة قاتلة صامتة، أدار محرك السيارة وانطلق بها دون حديث منه أو اعتراض منها.. وبمكتبه قرر بحدة:

- ما فيش نزول معايا تاني قبل ما تتعملي القواعد وتنفذيها..

ببساطة أخبرته بنبرة هادئة كأنما تريد إثارة غيظه أكثر:

- مش مشكلة.. أنزل لوحدي..

أدرك ما تفعله فرفع رأسه يرمقها بغموض..

ابتسمت له وهزت كتفيها، حرك حاجبًا مستخفًا:

- وأنتِ فاكرة إن الريس هيسيبك تنزلي لوحدك من غير ما أديله الأوك!..

انتقل الحنق إليها وإن كان طفيفًا وأجادت إخفاءه:

- ياسين أنا شرحت لك، عدسة الزووم بتاعتي اتفاجئت إني نسيتها، أبوظ الميشن يعني؟!..

سخر بحنق وهو يشير بيديه:

- لا.. تنزلي في وسط ضرب النار..

تفحصته للحظة ثم تحركت لتستقر فوق مقعد يواجه مكتبه الصغير:

- ده خوف عليَّ، ولا عشان البوص موصيك تاخد بالك مني؟!..

أربكته لثانية!..

واحتار في وصف لما يعتمل بداخله!..

مع حيرته انتبه بضيق فقرر أن ينحيها جانبًا، أن يتجاهل تشتت عقله مع كلماتها المستفسرة.. تغضن جبينه ثم عزم على خوض طريق الوضوح:

- الاتنين يا راما.. التهور في شغلنا ما ينفعش..

سبرت أغواره بعينيها ونبضة تسافر عبر أوردتها تخالف كل ما سبقها:

- ما تخافش عليَّ قوي كده، لعلمك أنا أفوت في الحديد..

رسمت ابتسامة قسرًا على ثغره الذي بترها بأمر حازم:

- ماشي يا حديد، بس برده آخر مرة تتهوري بالشكل ده..

- أوك..

بهزة كتف خاضعة لذيذة استغربها فنظر إليها بحذر بينما تنهض، تحمل حقيبة الكاميرا الخاصة بها وتتجه إليه:

- يلا بقى.. اعزمني في سينابون وناخد جولة في شوتاتي تقولي إيه رأيك..

ابتسامة أخرى اختطفتها من قلبه وازت ابتسامتها التي شابها لأول مرة شيء من خجل تحت تفحص عينيه..

هي عطرٌ عربي قوي.. وهو اعتاده حد الألفة، والمتعة..

عندما عاد لمنزله كانت تحتل أفكاره.. بجنونها وجموحها، بطيشها وصدقها، برقتها وذلك الحياء المستتر خلف ثوب القوة والاندفاع والصراحة..

استقبله والديه بتحية، قبل رأس والدته وجاور أبيه في جلسته حينما حولت "نورا" كل ما يفكر به لشظايا بخبر قصير:

- ملك اتطلقت يا ياسين..

عاتبها والده بصمت لم تنتبه فيه لنظرته، تحول بعينيه لولده الواجم وأمه تردف بحزن:

- جوزها الله يسامحه مش عارفين عمل فيها!.. البنت بتنام بالمهدئات..

بغرابة مدهشة؛ هو أخفى مشاعره باحتراف عن أمه فظلت تحدثه عن صديقته وابنة صديقتها باستفاضة..

لكن عينا أبيه التقطت تلك المشاعر بفهم رجل وهو يتابع شروده وانقباض ملامحه بعد انفراجها السابق..

في معركة الحب لمن تكون الغلبة!..

للعشاق!..

أم العشق نفسه؟!..

***

عشقها نعومة وعشقه بركان..

عشقه غرق وعشقها نجاة..

هي في عالمه أنثاه، وهو في دنياها الكون بكواكبه وشموسه، صيفه وشتائه، ربيعه وخريفه..

هو لها كل الصورة، وإن كانت الأنثى في عرف الرجل قطعة أخرى تنضم لقطع أحجيته المنقوصة..

نعم.. هو دونها بلا إكتمال..

وذلك ما كان يخبرها به، أنه قبلها لم يكن ذات الشخص.. أنه بها، معها ولها يصبح رجلًا لا يمت بصلة لمن عايشه طوال عمره..

جلست ساكنة بجواره في سيارته الصغيرة التي يقودها ببطء وسط زحام العاصمة، تزم شفتيها، تبتعد ببصرها وتتخذ من منهج الصمت عقابًا تراه مناسبًا..

هما في طريقهما لاختيار ثوب الزفاف..

رفضت حضوره، أخبرته أنه فأل سيء رؤياها قبل الحفل، بينما أصر وعاند وتجبر بأمر ثم قليل من تدليل أذعنت له في نهاية جدالهما قبل أيام..

تحكم بكفها معارضًا تمنعها ومخرسًا احتجاجها بقبلة دافئة لثم بها ظاهرها:

- بعد ما نختار الفستان هنطلع على الشقة، تشوفي الحاجات اللي ناقصة عشان ننجز..

سحبت يدها ولم تنظر إليه فرفع حاجبه مشاكسًا:

- برده هاجي معاكِ يا شذى وأنتِ بتختاري الفستان..

ومال نحوها بعدما صفَّ سيارته قبالة أحد المراكز التجارية بهمس عميق:

- ولما نروح شقتنا هاصالحك..

شهقت بارتباك عندما التفتت إليه تعاند ببراءة:

- مش جاية معاك..

- هتيجي..

- لأ..

- هنشوف..

في أحد المحال الخاصة بأثواب الزفاف انتقت واحدًا ناعمًا، في عينيه كان لا يناسب حيويتها وشقاوتها.. بحث بنفسه لدقائق حتى وجد ضالته..

ناولها إياه فتأملته بضيق:

- لأ.. أنا عاوزة ده..

هادنها برقة:

- جربي الاتنين ونشوف مين هيبقى أحلى عليكِ!..

كادت تعارض ثم غيرت رأيها بلحظة واستدارت تدخل لغرفة القياس تحمل اختيارها معها، ارتدته وشعرت بخجل غريب..

الثوب يظهر أنوثتها الرقيقة كما لم ترها من قبل!..

خرجت إليه لتأسر عينيه وتقتنص البسمة من شفتيه، أخفضت بصرها هربًا من اقتحام نظرته وتراجعت فرارًا من اقتراب خطواته:

- تصدقي يجنن.. خلاص، مش مهم اللي اخترته..

تلاقت بدفء مقلتيه فهمس لها دون صوت بكلمة حب.. عادت نحو الغرفة الضيقة، وخلعت عنها ثوبها المختار..

رحلت معه وفرحتها ترفعها عن الأرض نحو سماء الحلم والعشق..

بشقة الزوجية المنتظرة احتجزها بين ذراعيه في اختطاف عاشق..

دللها بهمسة وقبلة واعتذار معاند..

وهي كررت الهروب وقلبها يصم سمعه عن شيطان خبيث يحاول تشويه جمال قصتها الخاصة..

بحشر أخرى..

قريبة منه..

وبفؤادها له حبًا وإن أنكره..

- الفرح بعد الامتحانات على طول زي ما اتفقنا..

وافقت بهزة رأس ناعمة وترجلت من السيارة أسفل منزلها تودعه..

ربما الخوف يتسلل بمكر خادع إلى كيانها، لكن العشق يتحداه أن يعبر خط القلب..

***

الأنثى لا تجيد تحييد مشاعرها..

تحب بعنف أو تكره بعنف..

وهي أحبته..

بكل ما في الكلمة من يسر وعسر..

من غرق ونجاة..

من نعومة موج أو طوفان لا يُبقي ولا يذر..

بكل ما بها من تناقضات..

أحبته!..

ومعه وللحظات ضعف استسلمت لها؛ تلاشت قوتها.. لكنه أراد ما هو أكثر..

أرادها أن تفقد نفسها فيه.. والمبرر أبدًا غير كاف..

فالحب في عالمها معجزة في حد ذاته، لكنه ليس أبدًا بصانع معجزات!..

تقلبت بفراشها تلعن قلبها الذي خان عهد الثبات بسقطة كسرته، لا تذكر آخر مرة بكت فيها لكن دموعها يومها قهرت صلابها وانسابت عنوة فوق وجنتيها.. تجاور نزف مضغتها الواهنة المستكينة بين ضلوعها في انكسار..

لم تفهم كيف تخلى بذلك اليسر!..

وعن أي حب أخبرها من قبل إن لم يصمد مع أول مواجهة لاختلاف بينهما!..

لم تقابل رجلًا يتقن احتواء امرأته سوى أبيها..

وبلحظة ضعف..لحظة احتياج..

أطلقت على نفسها لقب أنثاه.. وكان ليصبح رسميًا لو أجاد احتواء رفضها..

لكنه ببساطة الكلمة وعشوائيتها واعتيادها.. رجل شرقي تقليدي بحت، يريدها تشبه أمه..

يريدها تابعة تختبئ في ظله..

كانت لتمنحه الأولوية دون طلب لو سد هو احتياجها لتفهمه وقربه، لو نالها باستحقاق دون إجبار..

كانت لتكون حبيبته.. وزوجته!..

"غرام"..

أجفلت على صوت أمها القلق فنظرت إليها بضياع لثوان:

- خبطت عليكِ كتير ما رديتيش..

ودنت تجاورها بفراشها، تتأمل وجهها وضعف عينيها:

- مالك؟!..

تحتاجها..

هي باعتراف صريح تحتاجها..

وببساطة ذلك الاحتياج حررت لجام لسانها وأهدت قلبها القدرة على البوح..

أخبرتها عنه..

عن مشاعره..

عن قربه وعرض الزواج..

ورفضها ثم استسلامه..

أغفلت شيئًا واحدًا..

ما يسكن قلبها نحوه، لكن الأم لم تغفل عما أسقطته من حديثها عمدًا.. حديثًا ختمته بقنبلة نزعت فتيلها دون قصد:

- مروان الحسيني كل البنات بتتمناه، فاكر إنه لما يطلب يتجوزني هاطير من الفرحة وأقوله تحت أمرك..

هدرت بها غاضبة.. ساخطة.. والنبرة قرأ فيها فؤاد الأم دموعها، لكن الاسم الذي نطقته ألجم كل أفكارها وحصرها في سؤال أخفت قلقه وتوجسه بمهارة:

- اسمه مروان الحسيني؟!..

أومأت ابنتها بإيجاب مندهش، رغبت بالمزيد فاستفسرت:

- مروان إيه الحسيني؟!..

- مروان أدهم الحسيني..

سقط قلب "دينا" بين قدميها..

هل عاد وحش الماضي ليقتحم حاضرها، يشوهه، يغير معالمه ويذبح روحها على ابنتها!..

هل يعرف من هي!..

هل أحبها حقًا أم أوهمها بالحب!..

- هو كان بيحبك؟!..

أخفت وجهها عن والدتها وكل جوارحها ترغب في تكذيبه، لكن الواقع صدَّق على مشاعره.. مشاعره التي وُلدت لأنثى لا تناسب قائمة متطلباته:

- أيوة..

مسحت على ذراعها بحنان والخوف ينهشها:

- متأكدة؟!..

مجددًا ودت لو أعلنت أنه مجرد مخادع آخر لكن لسانها سبق بالحقيقة:

- مشاعره كانت واضحة، وعرض عليَّ الجواز..

- ورفضتيه؟!..

إيماءة موافقة ثانية وإغماضة حزينة، احتوتها أمها بأحضانها:

- ليه!..

استدارت تغادر ذراعيها بحدة شبه عنيفة:

- عاوز يسيطر عليَّ، عايش في عصر مش عصره.. تقريبا متخيلني في المطبخ شايلة ابنه وحامل في التاني ومشغولة باحضرله الغدا..

وأشاحت بذراعها قبل أن تنتفض واقفة:

- شايف إن طموحي لازم يبقى له حد هو بس اللي يقرره.. ما أعلاش عن السقف اللي هيخبيني تحته..

ناظرتها "دينا" من جلستها بدهشة محبوسة..

حقًا هذا الشبل من ذاك الأسد!..

أم أن الثمرة لا تسقط بعيدًا عن شجرتها..

كم يشبه أبيه!..

تخطت ما يجول بعقلها وتبعتها تضم كتفيها بين يديها لتجبرها على مواجهة حتمية:

- وأنت يا غرام!.. حبيتيه؟..

السؤال اختلط فيه الخوف بالقلق، الانزعاج المبطن لمحاولة التماسك والرهبة أن يكون الجواب بنعم..

هي "نعم" تراها بعينيها:

- لأ يا ماما..

و"لا" نطق بها لسانها ثم بررها بجمود:

- كنت مبهورة بالحالة..

وأخفت عنها انفعال جوارحها عندما ولتها ظهرها:

- نجم الكلية وبطل الجامعة اللي البنات منبهرة بيه بيقولي إنه بيحبني.. مشاعر ما جربتهاش قبل كده وما أعرفش شكلها أو معناها غير بينك أنتِ وبابا..

بعدها تماسكت ترسم قناع الصلابة وتتخفى برداء عنفوانها الفطري:

- كانت حالة مختلفة فوقت منها لما عرفت هو بيفكر إزاي!..

ظلت تنظر إليها بصمت حين همست بتتمة لا بديل عنها:

- بنت دينا عارفة هي بتعمل إيه..

- غرام..

نادتها وقلبها منقبض..

يخشى من نوائب العشق وتبعاته على الجاهلة بدروبه:

- ما تفتحيش باب قلبك للحب إلا لو واثقة إن الشخص ده يستحق..

ورغم أنها تعلم عن يقين بعشوائية الحب وسطوته الأقرب لاحتلال غاشم فقد ألقت ما يجول بخاطرها..

تخاف على ابنتها..

تدرك أن "غرام" ليست هي، وأنها لا تشبه أمها..

لكن ذلك الهاجس يطارد طمأنينتها ويحارب أمانها، يهديها اضطرابًا لا تدري كيف تخبر عنه..

- غرام..

همست تكررها في شبه مناجاة واستشعرت الابنة ما فيها من خوف :

- ما تقلقيش يا دودو.. بنتك بتعرف تختار صح..

تصدقها.. والجزع يكذب كل حرف..

أما الزمن..

أصبح وحده يملك الجواب عن كل سؤال أثارته مخاوفها..

تظاهرت باطمئنان وغادرتها بحيرة تفترسها.. غادرت ومن وراء ظهرها لمعت بعيني ابنتها دمعة أقسمت بحزم أن تكون الأخيرة..

في لعبة العشق؛ خرج الاثنان بهزيمة مستحقة..

الأنثى لا توجد عندها منطقة مشاعر وسطى.. وإن وجدت؛ احذر السقوط فيها..

فـ لامبالاتها مُهلكة..

***

ذات حزن أدركت أن ما ضاع لن يعود ولن يُعوض..

ليست براءتها وحسب.. شرف أبيها وعرضه الذي لوثته، بل حبه وحنانه أيضًا..

ثلاثة أشهر طويلة مرت..

وقتما أقرت بخنوع أنها مستعدة لتلقي عقابه؛ كانت تطمع في عطفه وشفقته.. لكنه أتاها أقسى مما ورد بذهنها لحظة..

وأمها حائرة بين ضعفها وتجاهله لها..

وقفت تواجه باب مكتبه بتردد.. تستعيد كل مرة ذاقت فيها غلظة لم تعلمها عنه.. تتذكر كل إهانة وإن كانت صامتة بنظرة أو التفاتة بعينيه تهجر النظر إليها..

بعد عودتهما من عاصمة الضباب بأسبوع وجدته فوق رأسها بغرفتها، انتفضت بخوف عقد له حاجبيه قبل أن تظلم ملامحه بأمر:

- قومي البسي هدومك وحصليني على العربية..

كان الوقت غريبًا، والدتها بالعمل وكذلك ينبغي أن يكون هو..

تبعته بضعفها الذي بات رفيقًا دائمًا، اتخذت المقعد المجاور له بسكون وجسدها يرتجف بضياع حائر وسؤال خافت تردد عابرًا شفتيها:

- هنروح فين؟!..

عصر المقود بيديه وهو ينطلق بالسيارة:

- معمل تحاليل.. هنعمل اختبار حمل..

شهقت بصدمة..

أيمكن أن تحمل سفاحًا!..

وقاطع هو التباس أفكارها بسخرية قاسية:

- ولا كان واخد احتياطه يومها؟!..

شعرت بالدم يندفع نحو وجنتيها وهمست باختناق:

- مش عارفة.. ما كنتش واعية..

ضرب مقوده بعنف جعلها تنكمش على نفسها قرب بابها حتى وصلا.. وبعد وقت ليس بطويل أتت النتيجة..

سلبية..

تنهدت بارتياح تحمد الله أما هو فلم تفهم تصلب وجهه.. فقط جذبها من يدها كطفلة وعادا للبيت.. ومن يومها والعلاقة بينهما.. لا تسمى علاقة..

لا يلتقي بعينيها..

لا يرأف بحالها..

تحيا في البيت كطيف غير محسوس..

وكل محاولة من أمها لمصالحة تنتهي بفشل..

أو غضب!..

تماسكت متعلقة بقليل من شجاعة تبقت بنفسها إثر ضياع غرقت فيه، فتحت الباب بعد نقرة خافتة.. عندما وقع بصره عليها لم تتغير تعابيره..

أصاب الجمود كل ما فيه وراقب خطواتها نحوه بنظرة ثلجية جف لها حلقها:

- بابا.. كنت عاوزة أخد رأيك في حاجة!..

منحها الصمت ورآه كافيًا، سحبت نفسًا بطيئًا متوترًا:

- عاوزة أحضر امتحانات التيرم.. أنا ضيعت كتير..

- لأ..

باترة هادرة بنبرة أرجفتها:

- بس..

نهض يقاطع تبريرًا تدافع به واقترب يطل عليها بصرامة فظة:

- لأ يا تاليا.. السنة دي خلاص انتهت، والسنة الجاية ما فيش كلية.. هتحولي انتساب وهتذاكري هنا، هتروحي الامتحانات مع حارس خاص.. غير كده هتفضلي في البيت..

ارتعشت شفتاها ودمعة تكسر سد تماسكها:

- للدرجة دي؟!..

رفع حاجبًا مستهجنًا:

- أنتِ شايفة إنك تستاهلي ثقتي تاني؟!.. أنتِ خنتِ الأمانة وكويس قوي إني مسيطر على غضبي.. صدقيني ده فوق طاقتي فبلاش تجبريني أقسى عليكِ أكتر من كده..

عبراتها اختلطت بنبرتها المتحشرجة:

- دي أول غلطة ليَّ وأنت..

- أنا إيه!..

جذب ذراعها يدمدم بوجهها كاتمًا صرخة هياج ومحجمًا جنونًا على وشك تمزيق لجامه:

- أول غلطة وأكبر غلطة ممكن بنت تعملها في حق أهلها.. خلاص يا تاليا، خلاص..

انغرست أصابعه في لحم يدها لحظة صمت كدهر..

دفعها بعدها بعيدًا وشيء من الغضب ينفلت من عقال تحكمه:

- كفاية قوي كده.. أنا بحمد ربنا إن ما حصلش حمل نتيجة مغامرتك الطايشة..

وأداروجهه عنها كأنه يطردها وعنف لهجته يشتد:

- وإلا كنت هاتورط تاني بطفل غيرشرعي..

شهقتها نبهته لقسوة ما نطق به..

أغمض عينيه وضميره يصرخ فيه أما قلبه فلم يفقد أمله في حنان سابق، حثه على الالتفات.. أن يضمها ويطمئنها.. يمنحها أمانًا هي في أشد الحاجة إليه..

وقبل رفض أوتلبية رغبة الفؤاد سمع ركض خطواتها..

شهيق دموعها..

سقطت بعيني أمها وهي تصعد الدرج نحو غرفتها بنحيب متقطع موجع..

هل يقصدها!..

هي ورطته..

أم يهين أمها التي أخرجوها من جثتها!..

هي ورطته..

كرهها ويريد التخلص منها!..

هي ورطته..

حسنًا.. ستعفيه من ثقل مسؤوليتها التي أحنت ظهره.. أو كسرته..

مسؤولية رحبت بها أمًا لم تنجبها، ولا تزال تحملها وهي تندفع داخل الغرفة بحدة:

- كفاية بقى يا مراد.. أنت بتعامل بنتي كده ليه؟!..

استنكر حدتها وعنف نبرتها، تلك حالة لم يختبرها معها من قبل:

- في إيه يا علا؟!..

- في كتير أنا ما أعرفوش، مخبيه عني وبتأذيها بيه..

واقتربت تواجهه بصلابة حازمة:

- بس أيا كان ده، كفاية بقى.. لو مش قادر تحن عليها ما تقساش..

وعقدت ذراعيها والنبرة يعلوها أمر حاسم بصيغة سؤال لن تقبل إلا بجواب صريح عنه:

- حصل إيه في لندن يخليك تعاملها بالشكل ده؟!..

زفر بضيق، وعاد يجلس خلف مكتبه:

- ما حصلش حاجة يا علا.. من فضلك أنا معايا ملف صفقة مهم محتاج أركز فيه..

- مراد!..

عقلها يكاد يفقد صوابه.. منعها من الجامعة وخسرت عامها الثاني فيها.. لا تخرج وحدها من المنزل، دومًا بصحبتها، وبظل حارسة خاصة تجاور خطواتهما.. والآن تهرب من مكتبه باكية ولا يمنحها سببًا يبرد به نيران قلبها:

- مصيري أعرف مخبي عني إيه.. بس دلوقتِ هي محتاجة لي جنبها..

تركته حائرًا، غاضبًا..

من نفسه.. منها، وعليها.. ولا يملك زمام ذلك الغضب كلما تذكرأنها ببساطة خانت أمانته وكسرت ثقته..

طرقت "علا" باب غرفتها برفق، لم تجد جوابًا فنادتها بينما تفتحه وتجول ببصرها في المكان بحثًا عنها..

التقت بالفراغ سواها..

لمحت باب حمام غرفتها المغلق فتوجهت نحوه، وقفت خلفه وهمست باسمها.. حاولت فتحه فكان موصدًا وذلك أوجف قلبها الذي انتفض بصدرها وهي تكاد تكسر مقبضه وتصرخ في المختبئة بالداخل..

قلبها الذي انقبض بعد الانتفاضة ثم سقط مضيعًا انتظام نبضه مع خيط النزف الأحمر المتسلل بضعف أسفل قدميها.. عابرًا ما وراء الباب المقفل بقسوة في وجهها..

نزفًا يدلل على شيء واحد لم تحتمل مروره بأفكارها..

لقد فقدت طفلتها..

وآخر ما تذكره كان صراخها بنداء مجروح..

مذبوح..

"تاليااااا"..

(٢٠)

بين الحلم والكابوس..

هناك حقيقة واحدة!..

الخوف..

في أقسى لحظاتنا جزعًا وألمًا نهرب..

قليلون هم هؤلاء الشجعان الذين يتخذون من المواجهة دربًا، يجيدون الصراع وينزفون دماءهم لأجل النصر..

لم تكن شجاعة، وبالتأكيد لا تتقن القتال وفنون الدفاع عن النفس والروح..

كانت هشة.. بريئة.. صغيرة وضائعة..

وحينما قررت التمرد، الاختيار.. سلك طريق لا تبدو نهايته من بعيد سوى سرابًا مموهًا باهت الملامح والنتيجة والخاتمة؛ سقطت بانكسار لا عودة منه..

وكسرته معها..

قال أنها ورطة.. بكل ما في الكلمة من وجع وبساطة نُطق، هي ورطته..

هي تلك الطفلة غير الشرعية المنتزعة من جسد هامد موصوم بالعهر ورحم حملها سفاحًا..

هي الخطأ والخطيئة..

الإثم والجرم والنقطة السوداء التي تعكر صفو نقاء حياته..

ظلت تحبس أنينها بينما تصعد الدرج بخطوات سريعة متعثرة، لم يمكنها السيطرة على عبراتها التي تلسع وجنتيها بحرقتها.. وعندما وصلت لغرفتها أغلقت بابها ودارت فيها ببصرها بتشتت!..

ستخلصه من حملها الثقيل..

وتطهر نفسها من جريرتها.. وبأغلى ثمن قد يدفعه بشر..

الدم، الحياة..

ظل صوته يصلها من عمق أفكارها وكلماته تتردد بداخلها بدويٍ مخيف.. دوي يحطمها ويدهس أشلائها، رفضه.. هجره وجفاؤه، تعنته وقسوته التي تواجهها للمرة الأولى..

"أنتِ عارفة عقوبة اللي عملتيه في ديننا إيه يا تاليا؟.. 100 جلدة.. هتتحمليها بدل عقابي أنا؟!"

دمدم بها في وجهها يومًا بنبرة عنيفة أثارت الفزع بنفسها.. كانت تتوسله أن يحادثها، أن ينظر إليها.. أن يعاقبها كيفما شاء إلا بغيابه عنها فهي تحتاج أمانه وضمته..

حتى لو اختار عقوبة شرعية ستنفذها شرط أن يعود أبيها..

وذاك كان رده..

هي ستغسل نفسها من ذنوبها.. وآلامها..

تحركت نحو طاولة الزينة، رمقتها بتيه حائرة.. الفتاة المتمردة الضائعة التي لا تجد لروحها مستقرًا.. مدت يدها نحو زجاجة عطر والتقطتها برعشة..

توجهت لحمامها..

نظرت لانعكاسها في المرآة.. باهتة، باكية.. مكسورة..

وبهدوء قدر ما أمكنها ورجفتها تتصاعد لحد منعها من التحكم بيدها التي تحمل الزجاجة فدعمتها بأصابع الثانية؛ ضربتها على طرف المغسلة بشيء من قوة فانكسرت وتناثر السائل منها يفوح بعبيره في المكان.. انحنت تجذب أكبر قطعة من الحطام وعادت للباب تحكم إغلاقه بذات الارتجاف..

استندت برأسها إليه تواجهه، جسدها يكاد يتهاوى.. وشهقاتها تبيح لها حرية النحيب..

وفي لحظة قسوة..

لحظة طيش..

لحظة هروب..

لحظة خوف!..

لحظة تأملت معصم يدها اليسرى ثم بقطعة الزجاج وقفت عند طرفه..

تتردد.. تفزع.. تجبن.. وفي التالية؛ تنهي الأمر بجرة حادة وهي تغرسه قدر شجاعة حمقاء تمكنت منها..

تأوهت بشهقة أخرى، ترى انفجار النزف والألم يعتصر جسدها في قبضة قاسية..

ارتخت يدها قليلًا.. أمسكت القطعة الحادة باليد النازفة، وبذات التردد والجبن تجمدت لنفس اللحظة.. ثم بترت خوفها ومعصمها الأيمن في تاليتها ودمها يغرق الأرض أسفل قدميها مشكلًا بركة صغيرة ويتسلل خارج الباب يعلن عن حالها..

دقيقة.. ثانية.. وخمس!..

وهمس أمها كان بالخارج بينما هي تكاد تفقد وعيها..

الروح تنسحب منها ببطء موجع، الاحساس تتخلله برودة رهيبة.. وقبل أن تسقط سمعت صوته..

لهفته!..

ذعره!..

استجدائه لها أن تفتح بابها!..

اتهامه إياها بالجنون فهو يحبها كالحياة!..

ثم محاولة يائسة لفتح الباب المحكم.. حاولت التراجع بترنح، لكن الدفعة التالية من كتف أبيها كسرته فارتطم برأسها الذي كان يستند إليه ثم دفعها لتسقط بصدمة جديدة فوق طرف المغسلة..

وأخيرًا تستكين باستسلام للغياب..

عن الوعي..

والحياة!..

***

في زخم الحياة ننسى أنفسنا أو نقدسها..

وفي زخم الخوف؛ منا المحاربون ومنا من يتجمد في انتظار المصير..

على تلك الأرض الجافة لسنا ملائكة أو شياطين، نحن فقط بشر.. نحيا بوسطية بين الإثم والتوبة، بين الطهر والدنس، بين نفس تلوم وأخرى غارقة في ذنوبها..

نهلع.. نرتبك.. نحتار، حين نجد أننا في لحظة قد نفقد من نحب..

ظلت تحتضنها طوال الطريق تقريبًا، بسيارة الإسعاف جاورتها والمسعفون يحاولون إيقاف النزيف.. الدم يغرق ثيابها وزوجها يتبعهما بالسيارة وقلبه يسلخه حيًا..

أما ضميره فيجرمه ويلقي على كاهله جريرة قسوته..

هي تستعيد مشهد سقوطها والدم يحيط بها.. صدمة رأسها ونزفٍ ثانٍ وازى غيابها عن الوعي وصرختها..

وهو لا تنمحي من أمام عينيه ذات الصورة..

وبالمشفى والصغيرة محتجزة بين جدران غرفة عمليات واجهته:

- لازم أعرف حصل إيه يا مراد!..

بلهجة حازمة ونظرة حاسمة وإصرار لا يقبل مناورة:

- دلوقتِ حالا..

أراد تهدئتها فاحتوي كتفيها بكفيه:

- أنتِ شايفة إن ده وقت مناسب؟!.. نطمن عليها الأول..

أخرسها عن زعقة كانت ستثير فضيحة خروج الطبيب بملامح غير موحية بتعبير:

- جرح الإيد الشمال كان أعمق وفقدت دم كتير، القلب وقف في أوضة العمليات...

شهقة والدتها قاطعت سرده البارد وهي تتراجع لتستند فوق صدر زوجها الذي تمتم بنبرة أقرب للاحتضار:

- ماتت!..

خفف الرجل من وقع كلماته قليلًا وإن ظلت لهجته على برودها:

- لا يا فندم.. الحمد لله أنقذناها.. أنعشنا القلب وعوضنا الدم وهتتنقل أوضتها خلال دقايق..

وبحزم أخير مع تنهيدة الارتياح التي غادرت صدريهما غشى صوته جدية:

- المستشفى في إجراء روتيني بلغت البوليس بحادثة الانتحار وطلبنا استشارة نفسية..

بدا كأنه يحملهما ذنب تلك الخطوة الرعناء وهما يجلدان روحيهما بالفعل:

- في حاجة كمان.. خلال الجراحة وقبل توقف القلب لاحظنا عدم انتظام النبض فعملنا فحوصات قالت إن في مشكلة في الصمام وهيحتاج تدخل جراحي..

تكررت الشهقة وتضاعف الحزن ولوم الذات:

- جراحي!..

تمتمت بها والدتها مشدوهة بشبه ذعر جعل الرجل يرفق بكلماته:

- العملية مش صعبة ما تقلقوش.. كلفت بيها واحد من أفضل جراحين المستشفى هنا.. دكتور يوسف الحسيني..

وفي غمرة حيرتها وحسرتها لم تنتبه للاسم والطبيب يردف:

- فترة توقف القلب ماكانتش طويلة الحمد لله، متوقع ما يكونش في أثر جانبي على المخ.. بس أي خلل مش هيظهر إلا بعد ما تفوق..

انقبض قلبها مرة تلو مرة.. واعتصر قلبه قيد الذنب:

- يعني إيه اللي ممكن يحصل!..

هز رأسه بحركة نافية:

- هنطمن لما تفوق، بإذن الله مافيش مضاعفات.. والجراحة هتكون بعد استقرار الحالة..

تحرك يغادر بمعلومة أخيرة:

- دكتور يوسف هيتابع الحالة ويتواصل معاكم قريب عشان تحديد ميعاد الجراحة والعلاج بعدها..

الراحة تندمج مع الرعب في رباط واحد، فكلما ناوشها أحدهما جاوره الآخر وقلبها متعب.. متعب..

همست تناشده، توقف رحيله:

- أنا عاوزة أشوف بنتي..

رمق الطبيب دموعها، حمرة ثيابها القانية ورفق بحالها وإن ليس كثيرًا.. تتبعت عينيه ونظرت لنفسها بتشتت كأنها لم تنتبه إلا عند نظرته.. لقد احتضنتها عندما سقطت، جلست على الأرض تحاول سد نافورة الدماء بأصابعها،، تناديها وتصرخ فيها، تلومها وتعنفها وتبكيها..

كانت لحظة جنون أخلت بتوازن حياة..

توسلته بقلب مكلوم ونبرة مجروحة:

- عاوزة أشوفها!..

تتساءل أو تقرر..

تتماسك او تسقط..

تصبر أو تجزع..

هي لم تشعر بمثل ذلك الألم الذي يطوق روحها فيكاد يخنقها يومًا أبدًا..

رأف بحالها فمنحها إيماءة موافقة أعلمها بعدها بثبات:

- هاسمح لحضرتك تشوفيها، بس هنغطي الدم ده.. اتفضلي معايا..

التفتت لزوجها تتشبث به في وهن وقوتها تخبو بحزم أخير:

- تعالى معايا.. لازم أعرف..

تطلع إليها بصمت حول نبرتها لآمرة حادة:

- هتحكي اللي حصل بينكم بالتفصيل يا مراد..

وبلحظة ضعف منه وإصرار منها أخبرها..

كانت أصابعها تمسك بزي طبي نظيف بغرفة الأطباء تحاول ارتداءه حينما نزع فتيل اللغم المدفون بوجهها دفعة واحدة..

تيبست ونظرتها تتيه نحو الفراغ..

قلبها ينبض بعنف وأنفاسها تنحبس بسجن صدرها لحد مؤلم..

لم تعلق..

أو ربما لم تجد ما تمنحه إياه..

اكتفت بنظرة خذلان لائمة وتحركت عائدة لابنتها.. هناك بحذر جاورتها بفراش مرضها الضيق، احتوتها في أمان أحضانها.. وهمست بأذنها بكل ما يعتمل بنفسها من مشاعر فوضوية:

- أنا هنا..

شددت من ضمتها بوهن أم تعلم أنها لن تحتمل الخسارة:

- أنتِ مالكيش ذنب.. كل اللي بيحصل ده أنا ومراد اللي حطينا أساسه، مش هنغضب عشان مبنى اتهد وهو اتبنى على أساس مغشوش.. اتبنى على كذبة..

مسدت خصلاتها بحنو وبسمة ضعيفة تكلل شفتيها بمرارة:

- أنا آسفة..

ثم أهدت جبينها قبلة ودمعة تفارق أجفانها وتستكين جوار موضع قبلتها:

- آسفة.. المهم ترجعي لي وكل حاجة هتتصلح..

كانت تأمل..

تلقي بأمنياتها نحو السماء..

تدعو وتتضرع لله أن يعيد إليها طفلتها وإن لم تسكن ظلمات أحشائها..

تغلق عينيها وتقرر..

أن الوضع سيستقيم مهما كلفها الأمر..

وعاقبته بتجاهل..

لم تمنحه راحة طمأنينة على ابنته، لقد أخفى عنها ما حدث.. عاقبها بقسوة كأنها تحمل أخطاء الكون على عاتقها وحدها.. وفي النهاية كادت تخسرها..

لذا هو يستحق بعض الألم وإن اشتد..

فدرس الحياة على وشك البدء!..

***

تنهدتك زمنًا..

وتوهمتُ زمنًا..

أنك رجلي وحبيبي..

وأنك يد العطاء والفرح..

وصرخت: أشهد أن لا حب إلا حبك..

ولكنني..

كنتُ كالساعي إلى حتفه.. بقلبه!..

وقفت بجسد متصلب وروح مصلوبة تتأمل اللافتة الأنيقة التي تحمل الاسم الذي اختارته من بين مجموعة كبيرة عُرضت عليها بحسابها المزيف..

سألت عن طبيب نفسي فروحها تستغيث.. تختنق وتبحث عن متنفس..

تريد أن تخبر أحدهم.. أن تنطق وتعترف، أن يُغفر لها بفضفضة بات كبتها نار تستعر بكيانها..

"دكتور.. أكمل الوزير.. أخصائي الطب النفسي"

التردد نال منها قبل خطوة الدخول الأخيرة..

لم تشكُ لقريب، فهل يمكنها سرقة أذني غريب لتلقي عليهما بإثم قلبها!..

تنهدتُك زمنًا..

وها هي الذاكرة كالمحراث..

تنبش أرض الهشيم..

بحثًا عن وتد يقين..

لم يمزقه زلزالك..

أتراه يكون الوتد.. واحة الراحة بعد طول عطش في صحراء الألم!..

أخذت خطوتها بدفعة خفية من حياة تحفر الرماد لتعود، واجهت المساعدة ودودة الملامح بابتسامة متوترة تفهمتها المرأة وبادلتها إياها برقة:

- ريم عبد المجيد.. في حجز عند دكتور أكمل..

اسم مزيف وهيئة حالكة يطغى عليها الغموض، بثياب داكنة ووشاح لم يتخلَ عن سواد لونه، جوار منظار شمسي ضخم يخفي نصف وجهها..

بعد دقائق كانت تجلس في مقعد عريض مريح يواجه مكتبه إثر صدمة جعلتها تتجمد لثوان في وقفتها بينما هو يرمقها باهتمام وبسمة مطمئنة..

أتت إليه وهي تظنه بسن والدها لتجده شابًا بالكاد يقترب من نهاية عقده الرابع!..

وباب الفرار أغلق من خلفها..

تنهدتُك زمنًا..

وكانت المسافة بين جرحي وغرورك..

ليلة احتضار..

وكانت المسافة بين صرختي وأذنيك..

قارة لامبالاة..

تنهدت ترغب في راحة، تريد مقابلها الاختفاء من أمام نظرته المتفحصة..

كان يتأملها بصمت كأنما يمنحها كل فرصتها في محاولة الصمود، والحديث.. نزع عويناته الطبية وخلل خصلاته متراجعًا في جلسته باسترخاء:

- على فكرة أنا ممكن أفضل أسمع سكوتك طول الجلسة.. من غير ملل..

انتبهت إليه من بحر شرودها الموحش، فأمال رأسه بهدوء ونبرته العميقة تحتوي توترها جوار الموسيقى الناعمة الخافتة التي تتسلل من مكان مبهم في الغرفة.. بل من كل مكان وبدا لها ذلك مريبًا:

- وقت ما تحبي تتكلمي هتلاقيني مستمع كويس..

ارتجفت ولاحظ الرجفة:

- أنا.. هو..

تلعثمت ببراءة طفولية لم تعهدها في نفسها وذلك أغضبها:

- أنتِ إيه يا ريم؟!..

منحته نظرة مندهشة.. فالخطاب الموجه لها باسم لا تألفه كان مربكًا.. استقامت تحمل حقيبتها، تلوي حمالتها بين أصابعها بتوتر.. وتهرب بالفعل:

- ممكن ترشح لي دكتورة كويسة!..

اعتدل في مقعده يناظرها بتساؤل:

- نفسية!..

أومأت بإيجاب أثار دهشته.. وفتح له باب الحوار:

- هو الموضوع اللي عاوزة تتكلمي فيه محرج قوي كده!..

ارتدت خطوة بدهشة وضعف..

لا تريده أن ينظر إليها..

لا تريده أن يسبر أغوارها ويغوص بأعماق آلامها ومخاوفها..

تأبى أن تفتح صفحتها معه وبذات الوقت تموت كمدًا لتصرخ بسرها..

تنهدتُك زمنًا..

لكن ذلك الصوت..

الصارخ بي: اهربي..

قد افترس أصوات القلب الأخرى..

اهربي.. اهربي..

وزحفتُ من عالمك الكابوسي.. ممزقة..

ممزقة كورقة بترها طالب فاشل من كتابه وألقى بها في مهملات الرفض..

همست بضياع مشتت:

- ممكن بس ترشح لي دكتورة..

طوال صمتها كان يراقب ملامحها، يتكهن بما تخفيه.. يخمن ويفكر ويبحث لها عن مدخل آمن لتصرخ بذلك الألم الذي يفرض نفسه على حركاتها وسكناتها..

نهض يستند لمكتبه ببسمته الهادئة:

- لأ.. على فكرة أنا راجل عنصري وشايف إن الأفضل تتكلمي معايا..

ناظرته بتعجب مستغرب قارب الاستنكار..

هز رأسه بتعبير غامض.. وهزتها هي كانت رافضة توازي استدارتها بعزم الرحيل وندائه:

- آنسة ريم..

تجمدت.. عادت تهديه نظرة حادة:

- مدام.. مدام ملك!..

ارتفع حاجبه دون إدعاء دهشة..

فالتي تمتنع عن الحديث معه لأنه رجل، بالتأكيد لن تضع بياناتها الحقيقية في ملفها عنده..

أشار لها بيده نحو مقعدها بينما يعود هو لاسترخائه وبضغطة من يده تنخفض الإضاءة بشكل مريح:

- طيب ممكن تقعدي؟.. جربي.. غمضي عينيكِ واعتبريني مش موجود، كأنك بتتكلمي مع نفسك.. بتفضفضي لها، أو حتى بتلوميها وبتصرخي فيها..

تعلق بصرها به في إذعان غريب فتابع بنبرة رخيمة:

- اشكيها أو اشتكي لها.. وهي هتسمعك وتفهمك..

باستسلام خضعت عائدة لجلستها..

تنفذ أمره الهادئ، تريح رأسها للخلف، يتعانق جفناها في رحلة هروب نحو الظلام.. ولسانها يهديها أخيرًا حق التصريح بما هو مسجون بقلبها ويفترسها من الداخل لكن شفاهها تحجبانه بغلظة:

- تحبي أنادي لك ملك ولا ريم؟..

رد سؤاله جمده لحظة رغم اعتياده المفاجآت:

- أنا جوزي شاذ..

بدت كأنها ترمي بالكلمات قبل أن تتعثر موتًا على أطراف شفتيها، فهم أنها لا تريد رده فسكن دون حراك:

- أو خليها كان.. أنا اتطلقت، وعدتي قربت تنتهي.. فاضل منها يوم واحد بس..

شعر بأنها تريد منه العطاء كما أخذ منها حديث الخوف، استمر على سكونه سوى من سؤال جعله عابرًا:

- عاوزة ترجعي له؟!..

انتفضت فجأة تفتح عينيها والمقلتين القاتمتين في الضوء الخافت تنذران بسيل محبوس خلف جدار صلابتها:

- لأ..

أتت أقرب لصرخة موت.. بل حياة، هي تنشد الحياة:

- كنتِ بتحبيه!..

تأملته بحيرة فتحرك يغادر بقعته المظلمة، يقتحم مخاوفها بعينيه:

- عشان كده جيتِ النهاردة!..

والسيل هدم الجدار وتخطى حاجز الكتمان بصمت فوق وجنتيها:

- عشان مش قادرة تقولي لحد إنه شاذ؟!..

رآها تعبث بحقيبتها، تخرج محرمة ورقية تجفف بها عبراتها وتعتدل بثبات، تنهض وتغادر دون أن يردعها..

الفتيل اشتعل.. والانفجار المتسلسل بدأ..

يبدو أن رحلة العلاج التي بدأت قبل دقائق؛ ستكون طويلة.. وطريقها غير ممهد..

هذا إن قررت العودة!..

ولم تترك لي الخيار..

كان علي أن أختار..

بين موتي معك..

أو موتي بدونك..

فاخترتُ أن أرمي بزمننا..

على قارعة النسيان..

علَّني أنجو منك..

القصيدة لغادة السمان

***

بين الحلم والكابوس تهاجر أمنية قتلها الواقع في المهد..

أمنية بعودة.. ورجاء وازى الأسف فهو لم يظن بها يومًا ظن السوء!..

نغترب عن ذواتنا عندما نؤمن بأننا خسرنا، ثم يعود لنا اليقين بأن ما ضاع لم يكن لنا منذ البدء..

ليلتها كان يهذي في محاولة استجداء مدفونة بقبر الهجوم..

لكنها لم تكن له..

وإن أغدق عليها العشق..

وإن وهبها القلب..

وإن ضحى بما يريد في سبيل ما تريد هي.. لأجل خاطر وجودها معه..

بيسر المنطق وشرعيته، لم تكن له!..

وهو أضعف من مقاومة إدمانه حتى وهي حوله..

مرت شقيقته أمام ناظريه تقطع شروده، جلست تواجهه وبعينيها سؤال يعرفه ولا يرغب في طرحه:

- العدة هتنتهي بكرة يا نزار..

طالعها ببرود.. فكتمان كل المشاعر فرض عين..

كتمان الخوف وحبس الوحدة..

أسر العشق بل وذبحه:

- عاوزة إيه يعني؟!..

تعلم بحاله لكنها لا تملك من الأمر شيئًا، هي لم تستطع حمل الثقل فانهرست أسفله، وهو لم يحاول تخفيفه عنها.. لكن القصة تستحق نهاية أفضل بنظرها:

- مش هتكلمها!..

تأملها لحظة في دهشة مستنكرة تلتها قهقهته الساخرة:

- بتهرجي مش كده؟!..

- نزار..

- شيراز.. الحدوتة خلصت..

بزعقة حادة حاسمة..

وهي تكاد تجزم بما صرح به لكن قلبها يجبرها على معارضة.. على أمل:

- بإيدك تغير النهاية..

نهض بعنف وصوته يعلو في غضب:

- لا يا شيري.. إحنا مش في عالم ديزني..

تأملته بحيرة فاقترب وانحنى يستند بكفيه فوق مسندي مقعدها، يواجه عينيها بنظرة تضطرم بها نيران الهزيمة ونبرة تخبرها أن تغلق الكتاب على ما فيه:

- يعني مافيش أمير مسحور، مافيش جنيات.. مافيش True love's kiss .. مافيش وحش بيتحول لأمير وسيم وتنتهي الحدوتة Happily ever after..

غاصت بمقلتيه لحظة ثم همست بشفقة:

- بس أنت مش وحش..

التوى فمه بتهكم ومرارة العلقم تغمر حلقه:

- هي شايفاني وحش..

ربتت على كفه برفق:

- أنتوا تستاهلوا محاولة أخيرة..

عقد حاجبيه واربدت ملامحه لدرجة أخافتها فتراجعت للخلف بتوتر.. وتلك المسافة القصيرة التي احتمت بها من نظرته قطعها في دمدمة صارمة:

- الحدوتة خلصت..

ضغط أحرفها بين أسنانه ومطَّها بتأكيد.. ثم اعتدل دفعة واحدة يأمر دون نقاش أو تراجع:

- ما تحاوليش تدوري لها على نهاية تناسب أحلامك..

- هي حلمك يا نزار..

سخر بنصف ضحكة مكتومة:

- وفوقت منه على الحقيقة..

وعاد نحوها بانحناءة أخرى:

- أنا وهي ما ننفعش لبعض..

بتر أفكارها.. وأغلق الرواية بعد بضع صفحات..

لم تكن الحبكة تناسبه.. ولا شخصية البطل تليق به، هو شرير الحكاية.. ويجيد دوره حد الإقناع التام..

فليسعد القارئ به إذًا..

***

بمفهوم أحدهم كان الحب.. هو: وجع أنيق نعشق ارتداءه ويقتلنا خلعه..

وبمفهومه كعاشق لا يليق به سوى ألم العشق: هناك امرأة تستحق القتال لأجلها..

امرأة واحدة في عمره وإن طال..

امرأة استثنائية لن تتكرر..

ينال شرف الاستبسال في حرب هي غنيمتها، والجهاد حتى آخر قطرة دماء ينزفها القلب لخاطر أن تقبل سكناه..

حتى وإن كان كل ذلك.. مع النفس!..

أو معها!..

هو جاهد، كرَّوفرَّوانتصر بالصبر..

كان الأمر بعسر واحة صحراء فلما أتاها وجدها سرابًا..

انتهت عدتها قبل شهر.. لم تعد إليه، وهو لم يحاول استعادتها.. وصدق حدسه: الآخر لا يحبها، وربما أبدًا لم يفعل!..

في يوم الاجتماع العائلي المقدس كان ينتظرها بجَلَد..

الأول أُلغي، ولم يكن يعلم كيف سيمرره دون تهور!.. والثاني حضره على مضض ليراها من بعيد، يمنع نفسه عنها.. عن كلمة ربما تفرط العقد وتنهي الحرب..

والثالث ومع جمود ملامحها حد الصلابة، انحسار بسمتها الناعمة التي قلما فارقت ثغرها؛ قرر أن يهديها مساحتها الخاصة دون حضوره فاكتفى بإشباع عينيه منها وإن هربت هي بعينيها بعد زجر صامت..

أما الأخير.. فهو اليوم، وهذه المرة له حق الحديث..

حق الهجوم..

حق خوض النزال..

حق الاقتراب..

لكن فقط؛ بحكمة كما أخبرته أمه..

الجميع منشغل عداها..

أختيه مع بنات العمة والأم والخالة بالمطبخ.. أخيه المشاغب مع ابني عمومته في المسبح، وهي وحدها..

لا.. هو معها وإن لم تشعر بوجوده..

تجلس على طاولة بالحديقة وعدة أوراق في يدها بعدما عادت لعملها كمديرة للعلاقات العامة بشركة العائلة، وجهت نشاطها وغربتها عن نفسها لعمل مجهد مُجد كأنما تثبت لروحها أنها ستمر فوق جثة عشق منحور بسلام..

خطا إليها بثبات عاشق قرر النصر إثر هزيمة ماحقة..

واجه جلستها لثوان لم تعره فيها انتباهها بتجاهل مقصود.. ابتسم واحتل المقعد بيسر وهمسة شبه مرحة تغلف نبرته:

- ممكن أقعد؟!..

لحظة مطت فيها شفتيها ثم رفعت بصرها إليه بلا انفعال.. أدنى انفعال، وبصمت رد هو عليه:

- عارف إني قعدت..

كتف ذراعيه واسترخى في مقعده يضمها بعينيه لحد جعلها تعقد حاجبيها وتبادر بشبه عنف:

- قول اللي عندك يا يوسف وامشي، عندي شغل محتاجة أركز فيه..

تلاعب بأعصابها قليلًا حتى كادت تزعق فيه فلاحقها يبتر هجومها:

- أنا جاي أقعد هنا بس في الهوا.. مش لازم يكون عندي كلام..

لا يعجبها ما يفعله.. بل وكانت تتربص به خطأً ما حتى تقطع أي أمل قد يكون تسرب إلى نفسه عقب طلاقها.. ومن يومها وهو صامت..

مراقب.. لكن صامت..

وذاك يغضبها!.. فقررت استفزازه:

- قولها..

لم يدرك ما تقصده فنظر لها بتساؤل جاوبته بحدة:

- I told you so..

لاتزال ملامحه لا تفطن لمبتغاها:

- قلت لك إيه بالظبط؟!..

زفرت وتوترها يتسلل لجوارحها بسرعة كنزف مذبوح:

- إن الحب بعد الخيانة مرض.. إهانة..

أدار وجهه ينظر بعيدًا عنها..

يومها كان يخبرها والكلام يرتد لصدره فيعجزه..

كان على حق، وكان أولى بتوجيه النصح لنفسه..

تنهد بحرارة يحتدم بها كيانه عاد بعدها إليها يتمتم بصدق صريح:

- في من الحب كتير بيكون مرض..

ضغطت أسنانها بقسوة مؤلمة وهو يتهرب أو يتقن الالتفاف حول غضبة تنشدها:

- مرض عادي زي الالتهاب كده لازمه شوية مضادات حيوية وبنخف منه..

ومال على الطاولة يشبك أصابعه فوقها:

- مرض مزمن.. بنتعايش معاه ومع علاج يخفف أعراضه..

ثم هز رأسه بشرود:

- أو مرض قاتل.. سرطان خبيث مالوش علاج ولا جراحة بتستأصله من القلب..

وانتبه يزم شفتيه لحظة:

- يومها ما كنتش باوجه الكلام ليكِ وبس، يمكن من غير ما أحس كنت باوجهه لنفسي..

هل يخبرها أنه لم يعد يحبها؟!..

أنه لن يبحث عما تبقى منها ليقضي عليه بوهم عاشه وتأبى القبول به؟!..

أنها حرة، بريئة من إثم عاشق تبختر بعشقه ثم أهانه!..

- يا ترى حبك ليه من أي نوع؟!..

تبًا له.. لم يكن ينبغي أن يطرح ذلك السؤال..

هو ليس غبيًا..

هو فقط يبغي البتر، ثم كي مكان الجرح.. والكي بالنار مخيف، موجع.. وحاسم!..

لمعت دمعة بعينيها دون هطول، لمحها وألهم نفسه الصبر.. شيئًا من قسوة يجيدها كجراح ماهر..

دمعة ضعف لن تسمح له برؤياها، وسؤال ليس من حقه الحصول على جوابه..

استقامت تحمل أوراقها بلهجة باردة:

- أنا داخلة لماما أشوف يمكن محتاجين حاجة..

- ملك!..

أوقفها بصرامة نداء لا تعي سببه، لم تلتفت وهو أراد ترك بصمة أخيرة بروحها فنهض واقترب من ورائها..

يسحب الهواء ببطء وعمق، يحتفظ بعبيرها بأنفاسه.. ويخبرها بثقة عاشق قرر الفوز في لحظة حقيقة:

- مرة واحد فيلسوف قال لي: خسارة معركة مش معناها خسارة الحرب.

ارتبكت بتفكير حائر وجبينها يتغضن بسؤال وازى استدارتها لتتفاجأ بقربه وتهرب بخطوة بينما هو يكمل برفق:

- المعركة دي مرحلة وانتهت، لسه في بعدها معارك.

هزت رأسها برفض تذبح به أملًا رأته يولد بين حروفه:

- معاركي تخصني أنا.. أنا وبس يا يوسف..

وانعقد حاجباها بصرامة قاسية حادة باترة اعتادتها بعد مخاض مؤلم:

- معارك مش هاسمح لحد يحارب معايا فيها..

- بس أنا مش جاي عشان أحارب معاكِ..

حيرة مبهمة سيطرت على ملامحها وهي ترمقه بتيه:

- أنا جاي أقولك: خليني أحمي ضهرك.

حولت حيرتها لسؤال منطوق بعد صدمة رده:

- يعني إيه؟!..

هدهد ألمها ومخاوفها.. ماضيها وحاضرها، وبحث عن مستقبل أقسم أن يكون له بعد أن تطيب جراحها:

- يعني اعتبريني ابن عم بمرتبة صديق، زي زمان..

دنا خطوة هروبها بهدوء يخشى إرهابها:

- زي زمان.. من غير نظرة أنتِ عارفاها، صديق وبس..

وابتسم باحتواء لم تره فيه من قبل:

- وقت ما تحتاجي تتكلمي.. تزعقي.. تعبري عن غضبك أو حزنك هاكون موجود..

ثم فتح كفيه أمامها باستسلام يعلن هدنة مشاعر تحرق قلبه وروحه:

- مش أكتر من كده..

دقيقة مرت..

دقيقة تحمل في ثوانيها حيرتها.. خوفها.. استنكارها واستهجانها لما قال..

عدم تصديق ونظرية مؤامرة تدور في ذهنها عن خطة يحبكها لينالها في نهايتها..

وثانية أخيرة حركت رأسها فيها بلا معنى..

ورحلت!..

رحلت دون رد واضح أجاد استنباطه من عينيها..

هي خائفة.. وعليه أن يطمئن ذلك الخوف مادام قد قرر محاربتها..

لم يظن في لحظة أن المحاولة الأولى ستكلل بنجاح، لكنها بكل يقين؛ لن تكون الأخيرة مادام في صدره نفس يتردد..

فوجئ بساعد أخيه يرتكن لكتفه.. عيناه تتابعان الراحلة بتفكير.. وأصابع يده تحك ذقنه في محاولة تظاهر نصف فاشلة بالعمق:

- ها.. أخبار المعركة إيه يا مجند يوسف؟!..

ابتسم وعاد ببصره إليها حتى اختفت داخل المنزل.. همس بتآمر ولهجة عسكرية:

- غيرنا الاستراتيجية يا فندم.. والخطة الجديدة هنعتمد على التسلل خلف خطوط العدو..

ربت على ظهره بتشجيع وهو يغمزه:

- أيوة كده.. المعركة ديماينفعش فيها اقتحام..

وكان صادقًا..

فكيف سيقتحم قلبًا مهشمًا!..

عليه أولًا أن ينتظر التئام جرحه، يساعد في مداواته ويتفنن كجراح تجميلي خبير في إخفاء ندوبه..

بعدها.. لن يقبل إلا بأن يكون مالكه..

***

بسلاسة الأبجدية هو "كان" عاشقًا..

وكان تفيد الماضي.. فماذا عن اليوم؟.. عن الساعة والدقيقة واللحظة!..

هل مازال!..

ودون مناورة أو التفاف، الجواب أتاه من قلبه بنعم.. لكن المعشوقة ترفض العشق..

والعشق ليس بفرض، بل سنة القلوب.. إما أن تأتيه، أو لا تأتيه بمحض إرادتك..

هو اختار عشقها، وهي قررت إنهاءه..

هكذا خرج من الحلم، للكابوس.. وفي النهاية استقر بأرض الواقع، وحدها تحمل صلابة الحقيقة دون مخاطرة أو فقدان توازن..

في اجتماع العائلة كان يتهرب من الجميع.. خاصة صاحب العين المتفحصة الذي اقتحم جلسته بهدوئه المعتاد، وطاف حوله بنظرة غامضة جعلته يمط شفتيه باستياء:

- خير يا هولمز!..

ضحك "أنس" بمرحٍ صافٍ:

- ولا حاجة.. لقيتك قاعد لوحدك قلت آجي أسليك..

رفع "مروان" أحد حاجبيه بتهكم:

- لا والله فيك الخير..

حافظ ابن العمة على بسمته وقرر أن يتخذ الطريق الملتوي للوصول للهدف:

- سمعت إنك هتسيب الجامعة.. صحيح الكلام ده؟!..

الرد وصله ببساطة عادية:

- أيوة.. لقيت إني ما أنفعش في التدريس..

راقب "أنس" ملامحه بدقة:

- بس كده؟!..

- أنس أنت لما تتخرج من الكلية ما حدش هيعرف يتكلم معاك.. مش كل حاجة وراها نظرية مؤامرة..

ضحك جليسه مجددًا وتمتم بشقاوة:

- لا.. وراها تاء تأنيث..

زفر"مروان" وأداروجهه عنه لحظة قبل أن يعود لموضوعه الأول:

- بفكرأقدم في الخارجية السنة دي..

"بجد!"..

السؤال أتى من جواره يحمل نبرة ابنة عمه الناعمة، وعندما رفع عينيه إليها كانت تحمل كوبين من العصير البارد، تتأمله بوله ألفه.. وتحمر خجلًا مع لقاء نظرته المتسائلة.. ترتبك وتتلعثم وفي الختام تبرر:

- أقصد يعني.. أنت بتحب المجال ده وكنت فعلا عاوز تشتغل فيه بعد التخرج..

هي تعلم ما يريده!..

الأمر خرج من حيز المشاعر نحو محيط الاهتمام الواسع.. أهداها بسمة هادئة خفق لها قلبها خلف ضلوعها بعنف:

- معاكِ حق يا سما..

ومع نطقه العميق لاسمها بللت شفتيها بلسانها في حركة خاطفة وهزت كتفيها ببديهية:

- طيب خلاص.. اشتغل الحاجة اللي بتحبها..

تناول منها الصينية يضعها على الطاولة أمامه.. تأملها لحظة جعلتها تفر بعينيها كغزال صغير:

- يعني رأيك أقدم فعلا؟..

عادت إليه ببصرها لثوان تتعلق بتأمله لها كأنما يراها للمرة الأولى:

- مادام أنت بتحب المجال ده وعاوزه.. يعني ده الكارير اللي شايف إنك هتنجح فيه، ما تتأخرش..

كرر بشرود وتوأمتها تظهر في الصورة:

- معاكِ حق..

"سما"..

التفتت نحو شقيقتها التي جذبتها من بينهما وعينا "أنس" تتابعان الموقف بصمت العارف، ثم فضل عدم التدخل أو التعليق على تلك الحالمة أو ما بقلبها نحو المواجه له..

- ارحمي نفسك بقى بجد..

كان تعنيف "صبا" وهي تكاد تضرب رأسها في أقرب جدار من سذاجة العاشقة الوردية:

- يا بنتي أنتِ مالك؟.. طب ما أخدتيش بالك من كلامه معايا النهاردة؟..

وتحولت نبرتها الهجومية لغائبة في دنيا الحلم:

- بياخد رأيي في شغله..

وكزتها تفيقها من أوهامها بحدة:

- أنتِ بنت خالته وعمه في نفس الوقت، عادي يعني..

ومالت نحوها تبحث عن زر صحوة تلك المغفلة:

- ما تديش الموضوع أكبر من حجمه وتبني عليه حكاية مالهاش أساس..

أبعدتها بضيق..

هم لا يعلمون.. بل هو نفسه لا يدري أنها تدرك غيابها عن الصورة بعينيه..

تفهم وتخاف وتتشبث بالوهم لأنه أكثر رحمة من مجرد تصور الواقع الذي تحياه وترفض اعتناقه أو التصديق عليه..

لذا أزاحتها من طريقها ودلفت للمنزل بانزعاج:

- لا مش عادي، أول مرة يتكلم معايا في موضوع بالشكل ده.. فلو أمكن خليكي في حالك..

أوقفتها بحقيقة أخيرة لا مهرب منها:

- ما تتعلقيش بأمل مالوش وجود يا سما، ماحدش هيتوجع غيرك..

منحتها نصف استدارة ساخطة قررت بعدها الفرار:

- دراما كوين يا صبا، أنا هاروح أشوف ملك..

نحن نجيد الفرار حين الخوف أحيانًا..

لكننا نظل نتمسك بأذيال العشق وإن كنا نعلم أن طرفه الآخر ليس بأيدينا..

بل بيد القدر..

***

عندما نلامس سماء السعادة نتخلى عن مخاوفنا التي عاصرناها على الأرض..

نسخر منها ونتهمها بالمبالغة..

نضعها في خانة الوهم ونهرب منها نحو حقيقة ما أصبح ملكًا تامًا لنا..

كلنا نفعل وهي لم تكن لتخرج عن السرب..

سرب الحالمات المتمسكات بدنيا العشق الوردي..

نعم تقصر خصلاتها، تعاشر أشقاءها من الذكور وتندمج في خشونتهم.. ترتدي مثلهم، وتمرح كما يفعلون..

إلا أن أنوثتها لم تبهت للحظة..

كانت تنتظر من يراها ويستحوذ عليها..

والليلة..

الليلة هي ليلة العمر.. ومعانقة النجوم والقفز فوق سطح القمر..

تتجاهل نظرات صديقتها القديمة لزوجها..

تتغافل عن عيناها المتعلقتان به حال جلوسه جوارها في مقعد العروسين..

تغض الطرف عن تتبعها لخطوات مراقصته لها..

وتتعامى عن قنوط ملامحها وضياع ابتسامتها وابتسامة أمها..

لكن في نهاية حفل العرس عندما تأبطت ذراع حبيبها استعدادًا للرحيل نحو منزل الزوجية..

سقطت العاشقة المهزومة..

وسقطت معها مقاومته..

ثم فارقت هواجسها دنيا الوهم لحيز الواقع..

أفلت يدها.. يد عروسه بثوب زفافها الأبيض، تركها وحدها وركض إلى تلك التي فقدت وعيها بغتة..

يرفعها عن الأرض بين ذراعيه ويصرخ باسمها..

وفي لحظات اختفى الجمع من حولها بما فيهم هو!..

فقد أضاعها من حساباته عندما هجرها وحيدة وحمل الأخرى لأقرب مشفى، خاتمًا بغيابه عن المشهد أسوأ ليلة عرس..

بطعنة أطاحت بها من سماء الحلم..

(٢١)

قبل لحظة الموت، التسليم للعشق..

نتظاهر بالشجاعة وندعي البأس..

لكن بعد العودة من سكونه، إثر السقوط بجحيمه..

نوقن أننا جبناء!..

هل تساءل أحدكم يومًا لمَ تدفن النعامة رأسها بالرمل؟!..

أهو الجبن أم اليقين بأن في ذلك النجاة!..

من البشر من يفعل، يتجاهل حقيقة أن الوجع قادم وبقوة فيتظاهر بأن الأمر سيمر.. أنه لن ينكسر، هو صلب شديد.. ظنًا منه بأن في الافتعال كرامة، وبالتصنع ماء وجه غير مراق..

لكن وجع العشق؛ ينحر القلب ويهزم الروح..

كانت بجناح ليلة زفافها.. أشقائها يحيلون المكان لسعير، أمها باكية تنعي حظ ابنتها المعتم.. وأبيها صامت يراقب الكل دون رد فعل واضح..

وهي!..

سكنت بوجوم فوق فراش زين خصيصًا لاستقبالها.. بثوبها، ودموع تحجرت خلف أجفانها المتفرقة باتساع باهت..

"ده بيستهبل.. هتروحي معانا ولما ييجي البيت هناك هاكسر رجله"..

"هو فاكر نفسه مين؟!.. حتة مهندس لا طلع ولا نزل"..

"اسكت يا بني أنت وهو مش شايفين أختكم؟"..

"ما هو ابن الكلب ده هو السبب.. بس لما ييجي ها..."..

"بس.. كفاية.."

للحظات ظنت أن المعركة ستمتد للأبد.. معركة كلامية عنيفة أصابتها بصداع شج رأسها حتى تدخل والدها يحسم الأمر فساد المكان صمت مهيب بترته خطواته إليها..

جاورها في جلستها المكسورة يحيط كتفيها بذراعه ووالدتها تراقب في دهشة.. قبَّل رأسها وهمس لها:

- شذى.. حبيبة أبوها..

رفعت عينيها إليه فلمح اللمعة المكبوتة بهما ورقَّ لها قلبه.. ربت على وجنتها بحنو:

- ما تسمعيش كلام أخواتك.. دول عاوزين جنازة، ما أنتِ عارفاهم..

نعم كانت تعلم..

تعلم عن حميتهم وحمائيتهم..

تفهم حبهم لها وخوفهم عليها كذلك..

ابتسم لها أبيها وهو يعيدها لتسكن صدره بربتات متتابعة رفيقة:

- لو فرح حد منهم وأنتِ وقعتِ قدامه هيجري عليكِ وينسى الدنيا وأنتِ عارفة..

وشهقت بنحيب وُلد للتو..

والدها صادق في رأيه..

لكنها ليست شقيقته، بل هو معشوقها الذي أصبح لغيرها.. وهو المكابر في أرض عشق ظنتها جرداء فإذا ببذرة مغروسة بعمقها أصرت أن تزهر..

كانت على حق..

قلبها يخبرها.. شيطانها يسيء للصورة ويضفي عليها رتوش سوء الظن، هو عاشقها.. ربما وعدها بزواج وأخلف وعده، بل ربما هي زوجة بالسر..

قد تحمل طفله لهذا فقدت وعيها!..

والكثير من الألوان القاتمة التي صبها إبليس فوق لوحتها التي بدأت نقشها بسعادة فحولها لظلمة تخنق أنفاسها..

شهقت مرة ثانية..

ابتعدت عن حضن أبيها، ترمق الحضور حولها بعزم وتصميم، تمسح العبرة الغادرة التي خانت عهد الصمود:

- بابا معاه حق.. ولو واحد منكم أنا برده كنت هانسى الدنيا..

جثى شقيقها الأكبر أمامها على ركبتيه، يحيط بكفها بين يديه في دفء محاولًا استدعاء شيء من الحكمة والهدوء:

- أنا عارف.. بس أنا لو مكانه مش هانسى مراتي وأسيبها لوحدها، هتبقى معايا..

عضت شفتها السفلى بين أسنانها لحد كاد يدميها:

- كان المفروض أنا أروح وراه، مش أفضل واقفة مستنياه يناديني.. دي أخته وصاحبتي..

قلب الأب جوارها كان يشعر بوجعها.. يرى ارتجافة أجفانها وارتعاشة جسدها، يسمع اهتزاز نبرتها في إدعاء فاشل بالصدق..

لكن ابنته لن تخرج من هنا مهزومة..

هو يعلم وهي تعلم.. حتى أشقائها يدركون ذلك..

نهض الجاثي دون مزيد من مهاترات يوقن أنها لن تجدي معها، انحنى يهدي جبينها قبلة طويلة مطمئنة وأنهى وجوده بهمسة حازمة:

- هاكلمك الصبح أطمن عليكِ..

تسربوا من المكان واحدًا تلو الآخر حتى بقيت وحدها وأبيها وأمها..

ضمها وتمتم لها بمباركته وغادر يتبع أبناءه.. ووقفت في مواجهة الأم الحزينة، احتوتها بين ذراعيها تهديها شيئًا من أمان لا تملك الكثير منه:

- ما تخافيش على بنتك يا ماما.. بميت راجل وأنتِ عارفة..

دمعت عينا والدتها وهي تعتصرها بأحضانها:

- مش عاوزة أسيبك، بس عشان عارفة دماغك وعارفة إنك بميت راجل هامشي وأنا مطمنة..

رسمت الكلمات فوق شفتيها بسمة حزينة قبل أن تتراجع بافتعال مرح:

- طيب ممكن ماما تساعدني أغير الفستان بقى!..

دقائق أخرى وكانت وحدها..

أقسمت بعناد وربما كبرياء أنثى أنها لن تبكي..

لن تمنح نفسها راحة الوجع إلا بعد استكمال قطع الأحجية المنقوصة..

ومرت الساعات..

قارب الوقت الخامسة صباحًا، أذن الفجر والشمس تناوش السماء على ظهور ناعم..

هاتفها بيدها كقطعة من حجر..

أخرس يشبه من رحل وتركها دون اهتمام أو حتى اعتذار!..

راودتها أصابعها على اتصال بصديقها الذي غادر الحفل باكرًا هربًا من نظرات الزوج الغيور، واهبًا إياها ما ظنه فرحتها المكتملة..

همستها بسخرية..

غيور!..

أم يجيد دوره فحسب!..

وبين قوة تتعلق بأذيالها قبل رحيلها عنها، ويأس تسلل بخبث لنفسها: نامت..

أو فرَّت فلا فارق..

هي فقط تريد أن تغيب وتنسى ما كان..

***

في بعض الأحيان يكون التسليم للعشق والخضوع لسلطانه أشبه بالموت..

لن تعود لذات الحياة بعده..

أو هكذا تظن!..

رحل بغتة وعاد متأخرًا كأن الليلة لم تكن ليلة عرسه، كأن مكانه لم يكن هنا معها، جوارها.. بين أحضانها..

دلف للجناح بخطوات متوترة يعلوها جمود الصمت..

الساعة تعدت السادسة بدقائق والشمس أعلنت عن حضورها بشموخ..

وهي، حبيبته وزوجته..

عروسه!..

متكومة على نفسها بالفراش بثوب نوم حريري ناعم ظهرت أطرافه عندما انحسرعن ساقيها مئزره الذي يوازيه نعومة ورقة تشبهها..

وهاتفها الأبكم بين أصابعها..

تأملها لحظة ومرر كفه يمسح بها وجهه وعنقه ثم أعادها لشعره بعنف كاد يجتثه من جذوره..

كان يحمل سترته على كتفه، ربطة عنقه محلولة ومعلقة كأنشوطة متهدلة فوق قميصه الذي فُتح منه أول زرين في إشارة لاختناق غير واضح السبب..

تحرك بهدوء نحو الحمام، ألقى بجسده أسفل ماء اختاره باردًا علّه يطفئ تلك النار المبهمة والمستعرة بكيانه..

لا يعلم ما حدث!..

هو لا يعاند.. لا يكذب.. لا يسرق عشق امرأة أو أخرى..

لكن سقطتها نفضت قلبه..

وعندما ركض إليها لم يشعر بسواها، بحماقة وغباء لم يشعر بسواها..

هي أخته وإن لم تكن من دمه.. صحيح!..

مبررًا ساقه لنفسه وعقله وضميره المؤنب بحثًا عن سكينة تحتاجها روحه التي ترتع في أرضها جيوش متناحرة بمعركة لا تخصه..

جفف جسده وارتدى منامته..

بذات السكون استسلم لراحة مؤقتة وصورتها تحتل بصره..

مد أنامله يزيح خصلة نفرت من شعرها الذي استطال بعض الشيء وتنهد ببطء:

- سامحيني..

همسة ربما لم تغادر مكمنها بين شفتيه لكن قلبه رددها بحرقة..

وتمدد يستند لظهر الفراش، يشرد في المستحيل ويضرب أخماسه في أسداسه بحيرة..

ثلاثون دقيقة مرت وهو حولها..

تتنفس رائحته وتفيق على حضوره.. مراقبته وصمته!..

اعتدلت فجأة تبتعد خارج الفراش.. ترمقه بنظرة احتارت بين الغضب والحزن..

الانكساروالصمود..

العتاب والكبرياء..

نظرة جعلته يتبعها، يواجهها بوقفة مهتزة واعتذار أبدًا غير كاف:

- أنا آسف..

حافظ على مسافة آمنة تمنحها حقها في الابتعاد والرفض دون جهد:

- عارف إن أسفي مش كفاية..

وتوسلها بعينيه في استجداء ضلَّ طريقه بين العشق والخوف:

- بس لو أنتِ مكاني وأخوك وقع قدامك هتنسي الدنيا..

يسوغ الحدث وينفي التهمة ويبرئ إثم جوارحه..

لنفسه ولها!..

وهي تتذكر اللهفة.. الخوف.. النظرة التي اعتلت مقلتيه عندما سيطرت بسقوطها على وعيه هو..

يسخر عقلها.. "أخويا".. يتحدى القلب بسبعين عذرًا، والروح تهتف بوجع يحتاج مخدرًا فعالًا لا يملكه.. بينما لسانها يتمرد بتهكم مرير حاد:

- بس هي مش أختك..

ويملك الجرأة لينهر ويوبخ ونظرته تبعث إليها باللوم:

- شذى!..

لكنها تتحدى..

هذه المرة لن تمرر الأمر أو تؤثر السلامة بصمت..

هو أفزع أمانها وهز ثباتها:

- مش أختك يا جواد ومش هنضحك على بعض..

يكابر ويعاند ويصر بحماقة أو بخبث.. لقد باتت لا تعرفه، وتخشاه!..

التحم جفناها في عناق بائس مرتجف تهرب به من أفكارها:

- هي عاملة إيه دلوقتِ؟!..

على عجزه استمر.. لم يتقدم خطوة أو يتراجع واحدة..

ثابت في مكانه ينتظر منها إشارة اقتراب أو رفض.. هز رأسه وزفر:

- مش عارف.. لما مشيت كانت لسه ما فاقتش..

تكرر السؤال بعينيها فمنحها المزيد من التفاصيل التي تزيد من سوء موقفه:

- الدكتور بيقول انهيار عصبي..

ابتلعت رده كمن يزدرد دواءً علقمًا لكن لا بديل عنه..

فيه الشفاء أو معه النجاة:

- يعني بتحبك!.. بتحبك وما قدرتش تتحمل تشوفك متجوز واحدة غيرها..

أخيرًا تخلى عن هدوءه بتعب.. بزعقة مستاءة نافذة الصبر مرهقة:

- شذى من فضلك..

ثم اقترب.. يبيح لنفسه استنشاق عطرها الناعم، يجيز لروحه اطمئنان وجودها.. ويهدي قلبه حرية النبض لها:

- أنا.. أنا..

تلعثم كطفل صغير وجد فجأة أن الأبجدية عسيرة فتعثر بين أحرفها عجزًا عن تعبير لا يجود على خافقه بشيء من رحمة:

- مش عارف.. دلوقتِ كل حاجة ملخبطة..

تأملته بحيرة تتساءل عن كنه ما يهذي به..

هو حائر لأن ناقوس عشق امرأة أخرى دق بفؤاده؟!.. أم لأن ذلك الفؤاد غارق بذنب عشقها هي!..

- حياتي بقت ملخبطة..

خطوة تالية جعلتها ترفع رأسها لتنظر بعمق قتامة عينيه التي فقدت بريقها:

- أنتِ الحاجة الوحيدة اللي ثابتة فيها.. الوتد اللي مخليني متماسك.. الأرض الصلبة اللي شايلاني..

وتشبث بنظرتها عندما أصابها وهن لوهنه ونبرته يعلوها استجداء رجل عاشق:

- ما تحوليش حياتي لزلزال..

عم الصمت..

لم تستوعب منطقه أو مخاوفه وهو اكتفى بحديث لم ينقطع بين عينيه وعينيها.. اكتفى وتأمل العبرة التي ترقرت هناك دون أن تبيح لها هطول..

هز رأسه يمانع بكائها، اقترب وضمها لصدره..

لا.. بل زرعها فيه قسرًا، يحيطها بذراعيه حد أنَّة تحررت من بين شفتيها عنوة، حد تباعدها وتعلقه.. حد شهقة بكاء استباحت ذبح كبريائها..

دفعته..

بضعف وقوة..

باعتراض وخضوع..

بعشق وخوف..

دفعته وهو احتواها أكثر وألقى برأسه فوق كتفها يسحب الهواء بسكينة وجدها هناك:

- ما تبعدينيش عنك.. محتاج الراحة اللي في حضنك يا شذى..

لكن الخوف هزم العشق في معركة خاسرة منذ البداية فحررت نفسها من حصاره.. وهو استجاب يتوسل احتوائها، يغوص بعمق عينيها اللامعتين بدمعة حائرة ويهمس بمكنون صدره:

- أنا بحبك..

انهار سد التماسك أمام فيض الوجع فسالت دموعها:

- أنا كمان بحبك، بس خايفة.. خايفة الحب ده يكسر قلبي..

وشهقت بنحيب مكبوت:

- يكسرني..

لم يمكنه الابتعاد..

رأى أن في خوفها حبل نجاته فاعتصم به وهو يعيدها بين ذراعيه يعارض اعتراضها.. يهدهد رعشتها ويبعث في قلبها أمان عشقه:

- ما أقدرش.. صدقيني ما أقدرش..

تراجع دون أن يحررها، يحتوي وجهها بين كفيه، يتأمل رطوبة وجنتيها وضعفها:

- أنا بحبك.. والله بحبك..

اختلجت شفتاها بين هروب وقبول..

هل تذعن للعشق وتتعامى عن خدوش الصورة التي شوهت مفهومه بعقلها!.. أم تعاند وتفر من مطاردته كفرارها من أسدٍ جائع لا يريد سوى افتراسها!..

أفاقت من تيهها على شفتيه..

تمسحان برفق ناعم دموعها..

ولسانه يردد عقب كل لمسة همسة الحب، وهمسة اعتذار.. يمحو التردد ويذيل عقد زواج مقدس بتوقيع ترى صدقه وتخشاه بذات الوقت..

ولأنها تعشقه؛ كان لزامًا عليها تقديم فروض الطاعة والولاء في مملكة ذلك العشق..

وأول العشق..

امتلاك..

***

الموت..

الضوء في نهاية النفق..

فلسفة نهاية الحياة والقبروما يليه من حساب، ثواب وعقاب..

الحقيقة الوحيدة في كون الأكاذيب..

اختياره بين الدين والقنوط..

بين رحمة خالق وقسوة بشر..

بين ضعف وحماقة ومحاولة هروب كانت فاشلة..

الفقد وتبعاته.. انكساره ووجع الخسارة التي تعقبه، الخوف والتعلق والندم فالتوبة..

طيلة شهر مضى لم تمر ليلة دون كابوس لحظات الاحتضار!..

الصحوة المفزوعة والإفاقة الصارخة برعب:

"مش عاوزة أموت"..

وبعد اطمئنان أن الأنفاس لاتزال تتردد دخولًا وخروجًا من صدرها، بعد أمان في حضن أمها ودفء صوت أبيها يغزو المكان من حولها؛ تكرر بصوت باكٍ لا تخالطه دموع:

"أنا خايفة أموت"..

هي محض طفلة مذعورة خرجت من رحم الجهل لواقع الحقيقة دون مقدمات..

والحقيقة دومًا.. دومًا مخيفة ومؤلمة..

قالوا أن الضربة التي لا تكسرك.. تقويك!..

حماقة..

فالضربة التي لا تكسر تترك شرخًا..

وإن تلتها أخرى توسع الصدع؛ حتى تأتي القاصمة فتكسر.. تفتت.. تطحنك في طريقها ودون أن تبالي بك..

انكسارك هكذا ليس نتاج ضربة واحدة؛ بل مائة سبقتها فوق روحك وقلبك..

وكم ضربة تلقتها براءتها!..

أبوين ليسا بأبوين..

طفلة غير شرعية نتجت عن لحظة عُهر..

مجتمع لا يليق بها والاندماج فيه هدف بعد ضياع..

وخسارة..

خسرت نفسها وطهارتها ودعم والدها وحبه..

فماذا بعد الخسارة سوى الضلال المبين!..

ضلال انتهى بدمائها، تشبع بنزفها.. تضاعف مع انسحاب روحها، لتعود بطفولة لم يهزمها الزمن بمعوله بعد..

لا أريد الموت.. أنا خائفة!..

طيلة شهر استيقاظها المفزوع كل ليلة كان فرضًا على عقلها المذعور المتشبث بعهد أمان بائد..

أم تحاول التعويض، الصمود.. الاحتواء وقلبها ينعصر خلف ضلوعها في كل مرة..

وأب نادم لا يجد بيده سوى طمأنة حضوره..

واليوم، وبعد وقت لم يمر بيسر حُدد موعد عملية قلبها الضعيف، كانت ترقد بفراش المشفى وبمواجهتها يقف جراحها وطبيبه المساعد، يخط بضعة أشياء في ملفها بين يديه ويراقب ملامحها الواجمة باهتمام:

- أنتِ في كلية إيه يا تاليا؟!..

انتبهت على سؤاله ووجها يكسوه شبه دهشة متسائلة..

كانت "علا" تنظر إليه وارتباك مجهول يكتنفها.. ففي غياهب خوفها السابق على ابنتها أضاعت اسم طبيبها الذي ولاختيار القدر المعقد هو ابن أستاذها القديم، وطارق باب قلبها الأول..

وأخو ذلك الذي امتلك براءة شفتي ابنتها في لحظة انتقام..

وهو يسعى بلطف لإزالة الذعر الذي يتسلط بقسوته ووشمه على جمودها وصمتها، انتظر الجواب بصبر وبسمة هادئة وأبيها يجيب بدلًا عنها:

- ألسن..

ترك "يوسف" الملف من يده، وضع سماعته بأذنيه وهو يقترب منها بنبرة مرحة:

- فعلا؟!.. أخويا الصغير في ألسن على فكرة..

استمع لنبضها الهادئ..

أمرها لتعتدل مصغيًا لتلك الدقات الرتيبة تتخللها خفقات تبعثر انتظامها:

- خدي نفس عميق وبطيء..

استجابت..

- كمان مرة..

تراجع يشير إليها بأخذ وضع الراحة وعينيه تهديانها أمانًا غريبًا:

- في سنة كام بقى!..

بصعوبة وصلته نبرتها الخافتة:

- تانية..

خط شيئًا جديدًا في الملف وأمر مساعده بعمل تخطيط جديد للقلب قبل تحضيرها للعملية:

- لا أخويا أكبر.. آخر سنة أهو، بس يمكن تعرفيه!.. آسر الحسيني، هو أمين اللجنة الاجتماعية في الكلية..

هل انتفضت!..

هل أمها وازت انتفاضتها!..

لا تعلم.. فقط تلعثمت في رد مبهم تفهمه هو بعد دراسة حالتها التي أدخلتها المشفى واكتشاف عيب قلبها إثر حادثة انتحار!..

غادر الغرفة بصحبة الأب القلق وأسئلته التي لا تنتهي..

نهضت "علا" لتجاورها بالفراش، تتجاهل الموقف برمته وتضمها إليها.. صمتها وحده أمان.. سكينة وراحة..

"ماما!"..

تمتمت بها فربتت على رأسها تمنعها من قول ما تظن أنها تعرفه:

- ششششش.. قلنا ما فيش كلام في أي حاجة غير بعد العملية..

رفعت وجهها إليها بكفها تهدي جبينها قبلة دافئة:

- بعد ما أطمن عليك بيننا كلام كتير قوي.. بس نرتب أولوياتنا يا قلب ماما..

ارتعش فكها تحاول كبت دموعها سُدىً:

- أنا آسفة..

والرد كان اعتصارًا تشتاقه بين ذراعي أمها:

- بجد آسفة على كل حاجة..

اهتز جسدها بنشيج لا تريد سجنه بين جنبيها فألمه قاتل:

- أنا غلطت كتير قوي..

- بس يا تاليا..

نهرتها بلهجة جادة وهي لم تأبه، بل رددت بهذيان:

- أنا نفسي كنت غلطة.. كل حاجة فيَّ غلط.. آسفة، آسفة..

أبعدتها والدتها عنها بعنف، تمسك وجهها بين كفيها وتجبرها على الالتقاء ببصرها المتأرجح بين الغضب والحنو والخوف:

- كفاية.. أنتِ مش فاهمة حاجة، صغيرة ومش فاهمة حاجة..

وأسكنتها أحضانها مجددًا:

- مش عارفة أنك دنيتي، أنك هدية ربنا ليَّ ولمراد.. مش حاسة قد إيه بنحبك وبنخاف عليكِ..

ثم تخللت خصلاتها الباهتة بأنامل مرتعدة واجفة:

- ما تأذينيش فيكِ يا تاليا..

اختلطت عبراتها بنزيف قلبها دون أن تحررها من أسرقوتها..

تلك القوة التي تقيم أود عائلتها بهذه اللحظة..

القوة التي دونها سيكون السقوط!..

***

نحن نجيد الهروب وقتما نرى أنه وسيلة نجاة..

حيلة دفاعية بسيطة يستخدمها العقل عندما يشعر بنفسه مسجونًا خلف قضبان الخيبة والفشل، يتظاهر بأن الأمور على ما يرام..

أن ما كان لم يكن..

أن ما حدث لم يحدث..

أن ما مضى قد فات ومات..

وبذلك يلوذ بالفرار من أسر الخوف، ويدعي أنه قد عاد بعدما ظن ألا عودة..

ألا حياة بعد الفناء..

يدفن رأسه برمال التيه كنعامة ترى أن في خطوتها غير محسوبة العواقب تلك.. السلامة!..

هي تنكر، وتنكر أنها تنكر..

ثم تستنكر صراخ ضميرها بها، تستهجن أوجاع قلبها، وتشجب تفاعل الجوارح مع كل تلك التداعيات بالانصهار في نفس الألم..

لكنها في ذات التوقيت تصر على أنها بخير..

لذلك وبناءً على قرارها بأنها مرت فوق حطام سفينة عشقها الغارقة ودهست أشلائها دون اكتراث؛ عادت إليه..

بعد أكثر من شهر حددت موعدًا لجلسة جزمت بحزم أنها الأخيرة..

أتت لمكتبه بهيئة أكثر بساطة، ثياب بألوان فاتحة ودون منظار ضخم تبحث عن اختباء خلف دُجنة زجاجه.. وانحناء ثغر واثق!..

ابتسامة رسمت بها صلابة وحافظت عليها فوق شفتيها باقتناع..

أيضًا هذه المرة كسابقتها، تعلن الصمت وتراقب اللاشئ.. ترفض لقاء عينيه، وهو وإن توقع العودة تظاهر بعكسها:

- جيتِ تاني..

أقر ببسمة هادئة تليق بملامحه الباعثة على الطمأنينة.. وهي حافظت على سكونها عدة ثوان أخرى عقبت بعدها هاربة من تفحصه:

- أيوة..

وأردفت بهزة كتف كأن ما تقوله بديهي كبساطة نطقه:

- جاية عشان أقولك إني رجعت شغلي..

لم يعلق، بل ظل على حاله من تأمل خبايا نفسها التي تقهر جمود وجهها وتبعث بالتشتت لمقلتيها.. أنصت إليها تستطرد بيسر:

- من حوالي شهر تقريبا..

هي تدور.. تلف، تبحث عن بداية حديث أو تنهي آخر دون التطرق لنقطة البدء الحقيقية.. كأنها في المرة السابقة ألقت بالقنبلة ثم تجاهلت انفجارها وشظاياها وارتاحت..

لذلك عاد هو للطريق المستقيم:

- يعني بعد العدة ما انتهت!..

رمق ابتلاعها للعابها باهتمام أجاد حجبه عن الظهور..

لقد تغلبت على مرحلة الصمت والكتمان، ودخلت لمرحلة جديدة..

الإنكار!..

- أنا بشتغل مديرة علاقات عامة..

رمت الجملة بسرعة تمنع نفسها عن التفكير فيما يريد هو:

- في شركة العيلة..

تمنحه تفاصيل التفاصيل ببؤس أو يأس..

بخوف أو جبن..

بفرار أو نصف مواجهة لم تكتمل..

قرر خوض الحديث معها والسير تبعًا للوجهة التي اختارتها.. همس بابتسامة مداعبة:

- ويا ترى بقى بمجهودك الشخصي ولا أبناء عاملين!..

جمدت لحظة تبتلع سؤاله قبل أن تفهمه وتغرق في موجة من الضحك..

ضحك غريب عالٍ متواصل انتهى بانقطاع أنفاسها ورعشة بكفها وجدال سفسطائي يتفهمه:

- لا على فكرة.. أنا شاطرة جدا في شغلي..

شجعها بإشارة من يده وترك لها حرية البوح:

- أنا جاية بس عشان أقولك إني الحمد لله بقيت أحسن..

ونهضت كما فعلت من قبل.. تلوي حمالة حقيبتها بين أصابعها وتخبره بهدوء حازم:

- تقدر تقفل ملفي عندك..

تراجع في مقعده دون أن يحثها على البقاء:

- يعني مش هتزوريني تاني؟..

ناظرته للحظة بحيرة تمازج بها ضيق وضعف:

- أنا بقيت أحسن الحمد لله..

استقام هاته المرة ببسمة أوسع، دار حول مكتبه ليقف قبالتها بحثًا عن فُتحة ولو ضيقة ينتشلها من خلالها لتعود لأرض الحقيقة..

لتنزع رأسها من بين رمال النكران وتواجه ما تخشاه..

ففي المواجهة سلام وإن انتهت لصالح الخصم:

- ولا حتى كصديق!..

اكتنفها الصمت للحظات تالية..

تفكر وتنظر إليه بشبه بسمة وازت هزة كتف ورحيل:

- ممكن صديق..

ناولته طرف الخيط..

لذا فكل قادم سيحمل توقيعه هو..

ومن هنا تأتي البداية!..

عادت للمنزل تهنئ نفسها على نجاحها في المرور من ثقب الحياة الذي حاول احتجازها بسواد اختيارها للعشق..

سجنها لسوء سلوك القلب..

تهنئها وتنحني لها احترامًا، هي العائدة من قاع جحيم العشاق الخاسرين..

رن هاتفها قبل أن تفتح الباب بينما تفتش في حقيبتها عن مفتاحه، التقطته لتجد اسم العاشقة الوردية كما اعتادت..

لا تدري لمَ لا تقتل أمل عشقها في المهد!..

لمَ لا تخبرها أن تنساه وتمرر حكايتها معاه كحلم لن يطفو نحو الواقع بسلاسة كما تتمنى!..

وتفكر.. لمَ ظنت من قبل أن بقلبه إحداهن، لتعود بعدها وترى في عينيه.. خواء!..

أجابتها تحاول وضع المفتاح بثقبه:

- أيوة يا سما.. الحمد لله.. يا بنتي قلت لك هيروح النهاردة.. أنا لسه واصلة البيت حالا ماعرفش حتى جه قبلي ولا لأ!..

"هو مين ده؟!"..

نبرته المشاكسة من خلفها أسقطت مفتاحها بموازاة التفاتتها إليه بانتفاضة..

انحنى يمسكه بأطراف أصابعه ويعود نحوها بنظرة مستغربة:

- إيه يا بنتي؟!..

لكمت كتفه بغيظ متناسية الحالمة التي صمتت تسترق السمع لصوته عبر الهاتف، تختلس من عمر الزمن لحظة وخيالًا يخصها:

- إيه أنت!.. في حد يخض حد كده!..

أزاحها من طريقه بحركة واحدة وهو يفتح الباب بدمدمة ساخرة:

- أوفر..

زفرت وقررت بدء مشاجرة تفرغ بها بعضًا من الخوف المفاجئ الذي لامس قلبها:

- طب سلام يا سما.. هابقى أكلمك كمان شوية..

وتوجهت نحوه توخز صدره بسبابتها ناسية إغلاق الخط أو ظنًا بأن الأخرى أنهت المكالمة من طرفها:

- هي مين اللي أوفريا مستردارسي؟!..

مال نحوها بغمزة مشاغبة:

- أنتِ..

زمت شفتيها بحنق وغيرهو الموضوع ببساطة ولامبالاة أغاظتها:

- هي سما كانت بتطمن على امتحاني؟!..

توقفت لحظة ثم قررت الكذب.. كذبة صغيرة تحفظ بها ماء وجه ابنة خالتها:

- بتسأل علينا كلنا عادي وأنت كنت من ضمننا يعني..

تحرك يتركها نحو الدرج:

- طيب.. ابقي قولي لها تدعي لي..

ودون وعي منه أو منها..

كان قلب المنصتة بسكون يسبق لسانها ويلهج بالدعاء له..

يلهث باسمه..

ينبض بجنون ونبرته الرخيمة بعمق تغازله..

عبر هاتف نسيت أخته خطه مفتوحًا ورأتها هي.. هدية قدر!..

***

الحرب خدعة..

والعشق خدعة..

فأوله هدنة.. وآخره استسلام!..

في آخر لقاء عائلي اقترح هدنة غير مشروطة، أهداها فيها أمانًا من عشقٍ يسكنه وتعلمه.. ترَوَى في حديثه، ووقع معها معاهدة سلام..

سيكون الصديق ويُسقط الحبيب من المعادلة..

بشكل مؤقت!..

خطة التسلل تقتضي الحصار..

حصارًا أخفاه بتمويه متقن وهو يطل عليها برأسه عبر باب مكتبها بالشركة وابتسامة شقية تزين شفتيه..

يتنحنح بخفوت يشد انتباهها إليه..

رفعت عينيها عن الأوراق التي استحوذت على عقلها لتتطلع نحوه باندهاش مستغرب:

- يوسف!..

دلف للداخل مقتربًا منها ببراءة:

- إزيك يا ملك؟!..

ودون مقدمات ألقى إليها بملف ضئيل الحجم وجلس متظاهرًا بالتعب قبالتها:

- عارف إني جاي فجأة بس أنا محتاج نجدة..

نقلت بصرها بينه وبين أوراقه في تساؤل وحاجبيها ينعقدان..

والآن ماذا!..

اعتدل هو بنشاط مباغت ينقر فوق الملف:

- دي List بأسماء مجموعة أطباء كنديين هيكونوا في زيارة لمصر خلال أسبوع.. المفروض بنجهز لهم أماكن الإقامة طبعا وفي حفل استقبال وشغل العلاقات العامة ده..

تراجعت في مقعدها ترمقه بحذر:

- محتاج مساعدتك..

حقًا!..

إما أنه أحمق أو يظنها حمقاء وهي تدرك أن كلتا الصفتين خطأً، افتعلت نظرة مندهشة أهدته إياها:

- فعلا؟!.. والعلاقات العامة عندكم في المستشفى أخبارها إيه!..

ضحك بمرح وشاكسها:

- بتسلم عليكِ..

تحولت دهشتها لحقيقية وتغضن جبينها بضيق فسارع هو:

- بصي، نتكلم جد.. دكتور محمد والدي الروحي.. كلفني بالموضوع عشان جايين من كندا، وقالي أتفاهم مع الناس بتوعنا بس بصراحة..

ولوى شفتيه بامتعاض:

- لو نفذت أفكارهم الوفد هياخد أول طيارة على أرض الوطن..

بكل براءة وبساطة كان يتحدث..

بكل صدق ووضوحٍ دون حِيل مجهدة..

وأخبرها نصف الحقيقة وحسب.. فالنصف الآخر خطته التي لن تعنيها في شيء!..

هو أتاها لأنه يريدها معه.. قربه..

ثم ختم مناورته بنزاهة وقبضته فوق موضع قلبه:

- هتساعدي ابن عمك!..

ألقى باللقب يمحو به شكوكها..

صمتت..

طوال الفترة الماضية وهي تتحاشاه، لكنه وللغرابة لم يقتحم حدود متاريسها.. كما وعدها التزم خانة ابن العم بمرتبة صديق عند الحاجة..

وهي مرتبة رفضتها على كل حال..

تملأها الظنون السيئة نحوه، تتفحص ملامحه التي صمتت لصمتها بهدوء واثق.. تعيد كلماته وتفكر وتفند.. وتخاف!..

فقط لو يواجه.. لو يتصرف برعونة تعرفها عنه ويخبرها عما بقلبه لها!..

حينها ستذبح منه الوريد وتضع كلمة النهاية فوق العلاقة المموهة التي يتشبث بها معها..

ولأنها عاجزة عن إيجاد نقطة ارتكاز تتوكأ عليها في حربها غير المعلنة ضده فقد التقطت الملف وفتحته بعملية تجاهلت بعدها وجوده..

خلال الأيام التالية كانت تعمل معه على قدم وساق في الاستعداد لاستقبال ذلك الوفد بحرفية تجيدها وخبرة لم تبخل بها..

وهو كان مبتهجًا كطفل صغير..

بكل ما في كلمة بهجة من معانٍ وحروف ونقاط..

كانت حوله، معه.. أنفاسها تخالط هواء صدره ولو من بعيد.. والخطة نجحت نجاحًا منقطع النظير..

فأول متراس وضعته بينهما: سقط..

سبعة أيام يلتقيان في كل يوم منها لساعتين أو يزيد.. تخطط، ترسم.. تختار الأماكن وتناقش العاملين بها بذكاء لتحصل على العروض التي تناسب الميزانية المخصصة..

إعجابه يتزايد..

عشقه يتضاعف..

ولمعة عينيه لا تخفى على أحد.. إلاها..

كان يخفيها عنها، يبتعد ببصره عندما تلتفت إليه ليحجب عنها كيف يراها!..

في اليوم الأخير.. ومع وصول الوفد واستقرار أفراده بغرفهم والتحضير لحفل الاستقبال بأحد الفنادق الفخمة كان الظلام قد حل وهي تتبع العاملين في المكان الأشبه بخلية نحل نشطة..

تعدل هذا وتصلح ذاك..

تغير شيئًا وتستحسن آخر..

حتى أنهت العمل وواجهته بملامح مرهقة وإن كانت فخور بما صنعته يداها:

- خلصنا..

بصدق صراح ابتسم لها ولم يقاوم:

- ملك.. أنتِ بجد هايلة..

لدهشته لم تغضب!..

ربما لأنها تعلم أن مدحه عمليٌّ للغاية..

بل برقة وفتنة تسللت حمرة ساحرة لوجنتيها دون أن تهرب بعينيها:

- ميرسي يا يوسف.. ابقى طمني بعد الحفلة بقى..

واستدارت لترحل..

شعر كأنما قفز قلبه خارج صدره ليلحق بها، ناداها فتوقفت.. عادت إليه بنظرة متسائلة جاوبها:

- أنتِ مش هتحضري الحفلة؟!.. كملي إشرافك للآخر..

هزت كتفيها ببديهية ورفضت بلطف:

- أنت عارف إني مش بتاعة حفلات..

- ولو كلمت عمي!..

عاتبته بنبرة شبه مستاءة تعيد ما صرحت به قبل ثوان:

- أنا مش بحب الحفلات..

وضغطت أحرفها تؤكد على رفضها هي.. رفع كفيه في استسلام وبسمته الممتنة، والحقيقية تغزو شفتيه:

- خلاص يا بوص.. آسفين..

شعرت بيأس يخالجها..

نعم لم يتخط حدًا رسمته، لكن تسلله المقيت ووجوده حولها يثير سخطها أكثر..

فقط لو يمتلك الجرأة أو الحماقة ليصرح بما تعلمه ويعلمه وينهي الأمر!..

قبل رحيلها احتواها بنظرة دافئة شاكرة وتمم بهمس:

- أنا مش عارف أشكرك إزاي!..

همهمت بحديث غير مفهوم وركضت خطواتها تتسابق نحو باب الخروج بفرار مشروع..

"هي دي؟!"..

أتاه الصوت من خلفه وعيناه معلقتان بمكان اختفائها عنه.. التفت لصديقته باستفهام أوضحته دون مواراة:

- دي اللي سافرت بسببها.. وبرده رجعت بسببها!..

خرجت منه ضحكة خافتة وهي تداعبه:

- ما تحاولش تنكر.. وشك الاعتراف عليه بالصوت والصورة، والاعتراف سيد الأدلة..

حافظ على بسمته وإن تخللها عشق:

- هي يا دانة..

اقتربت منه بحماس أنثوي فضولي:

- لاااا.. بعد هي دي؛ نخلص الحفلة وأعرف التفاصيل..

لم يعترض أو يقاوم..

بل لمَ عساه أن يقاوم وهو غارق في العشق.. لا يبحث عن نجاة!..

عندما عاد للبيت ليلتها استقبله أخيه بالطابق العلوي بتأمل متفحص لوجهه وعينيه الغائبتين في عالمها:

- إيه يا دوك!.. آخر أخبار الهدنة إيه؟!..

ابتسم وصورتها تسيطر على أفقه وكيانه:

- كله تمام..

وكز جانبه بكوعه مشاغبًا فتأوه وأهداه نظرة غاضبة:

- بطل غباوتك دي يا آسر..

وتوجه لغرفته لكن قبل أن يختفي خلف بابها توقف لحظة:

- آسر.. تعرف واحدة اسمها تاليا مهران؟!..

لم يكذب أو يتحايل.. بل رد بيسر ضمن به إنهاء الحديث دون شكوك:

- معانا في الكلية.. أنت ناسي إني أمين اللجنة الاجتماعية وعارف معظم الطلبة!..

واقترب منه بوجه مصمت لا يشي بشيء مما يدور بخلد صاحبه:

- بتسأل ليه!..

هز أخيه كتفيه يخبره بمعلومة صدمته.. وآلمته رغم موقفها معه:

- أبدا.. لسه عامل لها عملية في القلب من كام يوم، فقلت لو تعرف أصحابها ممكن تتجمعوا وتزوروها..

بعقله يدرك مساوئ الصورة الأكبر لكن ميثاق مهنته يحجبها:

- هتبقى محتاجة دعم..

وكان صادقًا..

هي تحتاج الكثير من الدعم والعلاج النفسي.. وأضعاف ذلك من الثقة المفقودة والتي جعلتها تتمنى الموت..

وتسعى إليه!..

***

في الخوف والعشق نتصرف بطيش..

الذعر يدفع بنا للتهور، والعشق يضاعف من ذعرنا فنخطو نحو متاهة الحب بحماقة وسفه جاهلين أو متجاهلين أن ما ينتظرنا داخلها.. هو الضياع!..

خلال أسبوع زارها مرتين بعد عودتها للبيت..

مرة أولى بصحبة عروسه وكفه تحتضن كفها كأنما يستمد من وجودها تماسكه..

والثانية كانت قبل قليل عندما أتى ليطمئن عليها فوجدها تشاهد فيلمًا قديمًا على التلفاز بصحبة أمها..

حياهما واتخذ من مقعده القديم جلسة متوترة..

استقامت الأم بحجة مشروب.. كاد يتشبث بها يرجوها البقاء، لكن الموقف لم يكن ليحتمل المزيد من الغباء.. رسم بسمة عند طرف فمه:

- عاملة إيه دلوقتِ يا مريم؟!..

اقتضبت في ردها ودون أن تلتقي بعينيه:

- الحمد لله..

لاحظ جمودها ونبرتها.. ارتبك وهو يصطنع المرح:

- ينفع تخضينا كلنا عليك كده!..

التفتت برأسها إليه فجأة، بحركة حادة تهديه نظرة حانقة:

- معلش.. آسفة إن الفرح باظ بسببي..

افتعل ضحكة يكسر بها ضغط اللحظة:

- يا بنتي وتبوظي مليون فرح.. أنتِ أختي يا مريم..

توسعت عيناها وحنقها يغادر النظرة نحو النبرة واللهجة ودرجة الصوت:

- أختك!..

تراجع مأخوذًا من زعقتها:

- في إيه يا مريم!.. أيوة أختي؟!

لهثت لثوان بأنفاس مشتعلة..

صمتت ثم هزت رأسها بسخط:

- ما هو يا إما أنت مش شايف بجد.. يا شايف وبتتغابى!..

قبل أن يتساءل عن فحوى تصريحها ألقت في وجهه بقذيفة اعتراف لا تترك له بعدها منفذ هروب آمن:

- أنا بحبك..

تصلب جسده لحظة انتفض إثرها واقفًا:

- أنتِ بتقولي إيه!.. أنا راجل متجوز.. فرحي كان من أسبوع يا مريم..

كأن ذلك هو المانع الوحيد!..

استقامت تواجهه وعيناها تحاصر عينيه قبل أن ترتعش شفتاها بمجاهرة رعناء أخيرة:

- وأنا موافقة أكون زوجة تانية..

وأغلقت حوله القيد..

فهل سيمكنه يومًا أن يكسره!..

(٢٢)

لا تجادل سفهاء الحب..

ففي دنيا العشق والعشاق..

لم يربح أحد!..

العشق تفاعل متسلسل..

كل خطوة فيه تقود لأخرى..

كل اندفاع يتبعه ثان..

كل فعل له ردود أفعال متتالية حتى يقع الانفجار!..

وعندما ننزع فتيل قنبلة؛ علينا أن نتحمل شظاياها.. نواجه موجاتها الضاغطة وإن كانت عنيفة.. ونتقي السقوط قدر استطاعة قلوبنا..

هذا إن لم تكن السقطة قاتلة كسقطتها..

أقرت بالذنب وجهرت به..

وإثم القلوب عشق من لا تملك..

أعلنت حبه بطيش ووافقت على مرتبة ثانية بحياته وهو لم يطلبها أو حتى يلمح لها..

أخبرته بيسر الأحرف وترددها السلس عبر شفتيها أنها توافق على حمل لقب الزوجة الثانية!..

بكل ما معه من ألقاب أخرى..

السارقة.. الخاطفة.. الخائنة.. إلى آخر تلك القائمة المزرية المفروضة من مجتمعها..

وليته قام برد فعل!..

نظر إليها مبهوتًا لثوان وحسب، ثم دون تعليق أو حتى إيماءة رحل..

رحل بخطوات رتيبة متوالية في طياتها رفض موجع..

وبعدما أغلق الباب من ورائه بشبه هدوء ارتمت على الأريكة في وجوم، جسدها كله يغزوه ألم.. ناهيك عن قلبها المنتفض كطير مذبوح بين ضلوعها..

أتت أمها في هرولة متسائلة، تفتش ببصرها عن وجوده الغائب وتسأل:

- مشي!..

جواب السؤال كان بكاءً..

بل نحيبًا جرح حنجرتها فجأة وهي تدفن وجهها بين كفيها وتشهق بدموعها وأنين فؤادها الموصوم بعشق محرم:

- في إيه يا مريم؟!

للحظات طالت لم يمكنها تكوين جملة أو تحرير رد مناسب، والأم الحائرة جاورتها تحتوي كتفيها لتلتقط الهمس الخافت بعسر:

- قلت له..

تغض جبين والدتها بينما تتراجع قليلًا وتجبرها على رفع وجهها والالتقاء بعينيها:

- قلتِ له إنك بتحبيه؟!..

والرد التالي لم يناسب سؤاله، بل صرح بجريمة أكبر بنظرها:

- طلبت منه يتجوزني..

الشهقة هاته المرة غادرت صدر أمها وكفها تهوي فوقه بضربة مصدومة:

- ليه يا مريم؟!.. ليه يا بنتي؟.. ما هو لو كان شايفك ولا بيحبك كان اتجوزك من زمان..

قلبها يوجعها على ابنتها.. توبخها وتلوم رعونتها وبذات الوقت تتمنى لو ارتاحت روحها الهائمة في دنيا رجل لم يشعر بها في لحظة:

- ليه تدوسي على كرامتك كده وهو خلاص بقى على ذمته واحدة بيحبها!..

مزيد من النحيب.. بل تحول لنشيج متأوه تقطعه شهقات أنفاس متعسرة:

- طيب هو قال إيه!..

تبحث عن اطمئنان.. أو ربما رد اعتبار بقبول:

- مشي..

رد فعل صامت وهروب يوضح الصورة..

لقد أهانت ابنتها نفسها ولا عزاء للكرامة في مواجهة عشق مصيره محتوم..

ضمتها لصدرها تمر فوق ظهرها بربتات حانية.. تعجز عن تبرير خطيئة القلب، فهي لا تخضع لقانون الإرادة.. ولا تريد اللوم على خطأ اللسان وتهور العقل..

فالحب يعمي البصيرة..

سكنت أحضانها تبلل صدرها بدموعها بعجز انتفضت بعده:

- أنا بحبه قوي يا ماما..

ونهضت تشهق ومن بين أنفاسها اللاهثة بلا دافع تكاد تصرخ:

- بحبه لدرجة ما حسيتهاش إلا لما شفته خلاص بقى ملك واحدة تانية، ما حسيتهاش إلا دلوقتِ وأنا لساني بيسبق عقلي وباعرض عليه نفسي بالرخص ده..

بظهر يدها مسحت وجنتيها وجسدها يرتعش وفكرها يشرد:

- مش عارفة لو خرج من حياتي أنا ممكن يجرى لي إيه!..

والأم تعرف أن القرب غير مباح..

والقطيعة مستحيلة..

هو ابن زوجها وهذا بيت والده.. وتلك التي تحيا الهذيان في غيبوبة عشق لم يرَها سوى أختًا فرضها عليه عقد زواج لا يخصه..

وصحبة خمسة عشر عامًا كانت طفولتها خلالها معه..

تحركت "مريم" بتعثر هارب وتمتمة بها مزيج مرهق من الوهن واليأس:

- أنا هدخل أنام..

فرار آخر من واقع ترى فيه القسوة وتؤمن بأن انتزاع الحق فيه ولو من بين أنياب الشرعية بسرقة هو فرض عين..

فراربعد خطوة أولى وثانية في تفاعل ربما لن ينتهي أبدًا بسلام!..

***

العشق مرواغة..

تجيد فيها الهروب حين الحاجة، وتتقن المواجهة وقتما يتطلب الأمر..

حاصرته بمشاعر يراها للمرة الأولى بوضوح شمس ظهيرة يوم حار.. صدحت بها سافرة لا تقبل التفافًا أو مواراة أو تفاسير عشوائية..

والتتمة تخبره أنها تتقبل حضورها في حياته وإن كان المسمى "زوجة ثانية"!..

هي جُنت بالفعل، واغترابه عن نفسه في هذه اللحظة جنون آخر..

فوضى مشاعره حين سقوطها..

إغفاله الزوجة والحبيبة في ليلة عرس لم تكتمل والبقاء جوارها في المشفى..

لعبة طرفيها لا يملكان شيئًا من خبرة لكن باتت أوراقها مكشوفة فلم يعد يصلح معها تجاهل أو تحوير..

توقف أسفل البناية التي بها منزله دون أن يغادر سيارته الصغيرة.. شرد في مجهول لا يراه البصر والحيرة تسطو وتسيطر على كيانه بلا هوادة..

يعشق زوجته..

نقطة..

ويقين لا يتحمل جدالًا أو تشكيكًا..

حب امرأة انكشفت عنه ورقة التوت فهتكت ستره في لحظة عريّ..

نقطة..

وحيرة اختلطت بضياع ثم نثر فوقهما خوف!..

فإن كان عشقه نقيًا خالصًا؛ لمَ كلمة الحب من بين شفتي "مريم" زلزلت عالمه وهو ظنه استقر بين ذراعي "شذى"!..

هل يحبها كذلك!..

وهل حب امرأتين في قائمة المتاح كما يصرح الرجال في كل زمان ومكان!..

كيف تملك القلب اثنتان وهو مضغة واحدة!..

كيف تُقسم المشاعر!.. كيف يُشطر الهوى!.. كيف تتجزأ غرفاته لقسمين!..

زفر بحرارة ونفى عنه تهمة دافعها توتره؛ الموقف كان صادمًا لم يستطع مواجهته..

فهرب..

عليه أن ينسى.. عليه أن يبحث عن ملجأه الآمن ومستقره الصلب..

عليه أن يتشبث بها..

زوجته.. وحبيبته..

صعد إليها متجاهلًا أفكاره، وجدها بالمطبخ تصنع عصير الليمون والنعناع الذي يحبه.. أحاط خصرها ومنح كتفها قبلة دافئة:

- وحشتيني..

استدارت بين ذراعيه.. تستدعي الصبر، تتجاهل الغيرة وتتجلد في حرب عنيفة مع الفضول والخوف.. تهدي وجنته قبلتها وتريح كفيها فوق كتفيه:

- شفتها!..

أومأ بإيجاب صامت بينما يغوص بأنفه بين خصلاتها وجيدها الناعم.. جارته للحظة تخفي توترها قبل أن تبدي اهتمامًا مرتبكًا:

- عاملة إيه دلوقتِ؟!..

من بين قبلاته المشتاقة.. أو الهاربة تمتم باقتضاب:

- أحسن الحمد لله..

ثم التقى بدفء نظرتها في تشتت أقلقها:

- مش كنتِ جيتِ معايا؟!..

ربتت على كتفه ثم مرت بأناملها فوق شعره القصير:

- معلش يا حبيبي.. أنا زرتها مرة وأنت عارف؛ عروسة بقى وكده..

كان يدرك موقفها..

يتذكر نظرة الفتاة لها في الزيارة الأولى.. نظرة أمها وبرود المقابلة لحد مربك.. ومثير للحرج..

لم يطل مكوثهما يومها وعندما عادا لشقتهما لم تنطق بحرف.. صمتت كثيرًا وعندما قررت الحديث تجاهلت الأمر كله..

بحكمة.. أو بحماقة!..

لا يعلم..

فهو كان يحتاجها اليوم معه.. بكل أنانية الرجل يحتاجها، وبكل خوف وغضب!.. هي درع أمانه وأرضه الثابتة وموطن احتياجه..

اختار التناسي وضمها إليه يهيل على فوضاه تراب الحقيقة الوحيدة..

حقيقة أنها هي.. زوجته، حبيبته وملك يديه!..

ابتعد يهدي صدرها أنفاس راحة محدودة يستند بجبينه لجبينها وكأنما هي دعامة روحه.. كان يود لو اندمج فيها أو احتوته بكيانها وقلبها وعشقها فلا يعد له وجودًا ملموسًا.. أرجع رأسه ينظر في عينيها ويرى حمرة الخجل الناعمة تتسلل لوجنتيها بينما تلهث قليلًا من اقتحامه وتسلط شفتيه:

- إيه رأيك نسافر أسبوع عسل!..

ابتسمت برقة ومدت كفها تحيط بوجنته فحكها بخشونة ذقنه في مداعبة توسعت لها بسمتها:

- هو مش كان شهر؟!..

عاد لشفتيها يختطف منهما قبلة لم تكفه فاحتجزهما لثوان وهو يهمس دون أن يفارقهما:

- موافق.. شهر..

دفعته برفق تتأمل ملامحه التي تتيه في تفاصيلها:

- طب وشغلك!..

سكن لحظة بتفكير ثم دفن نفسه في منحنى عنقها يمسه بتتابع خاطف نبض له قلبها:

- مش هيطير..

رمشت بتشتت..

ما به!..

كأن شبحًا ما تراءى له وترك لمخالب الخوف استباحة نهشه!..

عانقته في المقابل وهمست بحب:

- خلاص نخليها أسبوع..

وهو حمل جسدها النحيل بين ذراعيه نحو غرفة نومهما بدمدمة أخيرة:

- اختاري أنتِ المكان..

منحها حرية الاختيار..

ناولها دفة القراروإن كان في ظاهره عاديًا بسيطًا..

لكن معه..

كان يسلمها دفة قلبه لتوجهه شرقًا أو غربًا، هي الآن قبطان سفينته وبوصلة نفسه التائهة..

***

الشجعان فقط هم من يعترفون بأخطائهم.. ثم بعدها يمتلكون القدرة على تصحيحها..

هم حرفيًا وإن كان الأمر مجازًا في تضاد غير منطقي؛ يرمون أنفسهم بين فكي الأسد..

أسد الخوف والتردد وصراع الأفكاروحيرة الروح..

مرت عملية قلب صغيرتها بسلام.. انتهت فترة النقاهة قبل أيام، ووصف لها طبيبها أقراصًا ما لن تتوقف عن تعاطيها مدى حياتها..

لا يهم..

كل ما مر لا يهم..

تعري الحقيقة.. سفرها.. ضياعها.. محاولتها الهروب لبراثن الموت كأنه أكثر راحة من واقع قاسٍ..

كل ذلك لا تبالي به..

ما تكترث له حقًا.. أن ابنتها بخير، عادت للمنزل، عادت لأحضانها وكل ما عداه خارج معادلة قلبها وحرب عقلها المتمسك بالإياب نحو طريق السلامة والخلاص الحقيقي..

هي انتوت النجاة.. قررتها وحان وقت مشاركته قرارها:

- الكلية فاضل عليها أسبوعين يا مراد..

صمت يرمقها بتساؤل حائر:

- أنا عاوزة أصحح نسب تاليا..

صمتت دهرًا تتجاهله، تخاصمه، ترفضه.. ونطقت كارثة!..

انتفض من مقعده بصدمة حادة:

- أنتِ بتقولي إيه يا علا!..

شدت قامتها بحزم، بعزم لا يلين:

- باقول الصح..

واقتربت خطوة تعلن بها مداهنة أو تطالب فيها بصبر:

- الصح قدام ربنا، وقدام القانون..

سخر بوجع ناوشه ذعر من مجهول:

- وقدام الناس!.. هتكسريها تاني؟!..

ناظرته بصرامة وحدة، تبرر وتدافع عما تراه الأسلم بيقين:

- عمر الصح ما بيكسر، ولو..

ثم بترت اعتراضها وتذكرت الشيطان الذي يسكن هذين الحرفين.. تراجعت عن تتمة لا يجوز نطقها، وعادت لطريقها القويم:

- الصح هو اللي هيعدل الميزان يا مراد..

وأخيرًا تركت لرعب نفسها لجام السيطرة، احتارت حدقتاها في سكن وتقطعت نبرتها بوهن:

- مش هاستنى بنتي تضيع مني..

تأملها بجمود وانعقد حاجباه والسؤال ينطلق من بين شفتيه كرصاصة طائشة:

- بنتك!..

لم يقصد.. لكننا نرتكب الحماقات وقتما يتملك الهلع منا.. واجهت عينيه بقوة، بقسوة لم يعتدها منها.. وبحسم نهائي:

- أنت لما جبتها من لندن ورميتها في حضني وقلت لي دي بنتنا؛ أنا سكت..

واقتربت تشير إليه أولًا ومن خلفها ثانيًا:

- عشانك وعشانها..

لمعت بين أجفانها عبرة، فيها الراحة ربما لكنها لا تبحث عن راحتها هي في هذه اللحظة فكبتتها بينما تضغط أسنانها لثوان:

- ربيتها زي أي أم ما بتربي ولادها..

وفردت راحتها فوق صدرها حيث النابض بوجل:

- حبيتها..

هنا قهرتها الدمعة فسمحت لها بزيارة سريعة لوجنتها قبل أن تمحوها بأناملها:

- اعتبرتها حتة مني حتى لو ما حملتش فيها تسع شهور، ولا مريت معاها بساعات ولادة وألم..

بدت أشبه بقاضٍ اطلع على حيثيات القضية، قرر الحكم ولم يتبقَ سوى تنفيذه:

- حتة مني.. مش هاسمح لأي حاجة تانية تأذيها حتى لو أنت يا مراد، أو هي نفسها..

والتنفيذ كانت تحدده بعدها بلهجة جدية:

- اتصل بمحامي الشركة يشوف لنا محامي كويس في القضايا دي، ويقولنا إيه الإجراءات المطلوبة بالظبط وهنعملها إزاي!..

استدارت لترحل.. تعود لابنتها التي أبعدتها عن أحضانها تلك الدقائق المعدودة، لم تعد تأمن ابتعادها عنها.. وحتى طبيبتها النفسية ترى أن احتوائها هو الحل الوحيد الصحيح لذا فهي تمنح ما تملك..

حبها وحنانها..

- علا..

ناداها يوقفها بتردد، تصلبت في مكانها تستعد لخوض نزال لن تخرج منه بهزيمة، التفتت إليه لتجده يدنو ويمد يده إليها كأنما يبحث عن مصدر قوته من روحها:

- أنت واثقة إن ده الصح!.. بعد السنين دي كلها!.. قدام الناس، الكل هيعرف الحقيقة.. هتتوجع يا علا..

ضاعت عيناها للحظة في دوامة الخوف لكنها تعلقت برحمة خالقها في التالية:

- لما ترضي ربنا يا مراد إوعى تخاف.. أبدا..

وصعدت نحو الغرفة الغارقة في الظلام إلا من مصباح هادئ يجاور الفراش.. رفعت الغطاء واندست أسفله تضمها إليها.. تقبل جبينها وتمسد خصلاتها بهمس مطمئن وبسمة لم تتركها المرارة تكتمل:

- كل حاجة هتتصلح بإذن الله..

أغمضت عينيها تبحث عن غياب في نوم قلق..

فمنذ ذلك اليوم والصورة لا تنمحي من ذهنها.. الدماء القانية، الصرخات والاندفاع والضعف والتيه والفقد..

لقد كادت تفقدها..

وهي الآن تصحح الخطأ..

علَّها تعود إلى حيث تنتمي بينهما، هما أبيها وأمها!..

***

العشق مبارزة تتناحر فيها القلوب والعقول معًا حتى تكاد تسمع صليل السيوف وترى نزف الدماء يغرق أرض المعركة..

مبارزة تشبه تمامًا تلك التي تخوضها بهذه اللحظة مع غريم يتقن اللعبة أكثر منها ومع ذلك منحها نقطتي فوز!..

وتشجيع الصديق القديم يأتي من خلفها لها.. وزميلته -أو ربما ما هو أكثر لا تدري- تراقب بصمت وحماس مصطنع..

لا تدري كيف أقنعها بالعودة للنادي!..

بارتداء زي الشيش وإحكام قبضتها حول السيف!..

بل لا تدري لمَ تشعر به حولها في كل ثانية وإن لم يكن حاضرًا بجسده!.. لكنه عندما يتركها يترك معها بصمة تخصه تثير جنونها..

يتلبس رداء ابن العم بإتقان ويجيد دور الصديق بحرفية مبهرة..

حججه للقاء لا تنضب وكلها تغريها بالمشاركة فيه..

مرة عمل.. ومرة ذكرى ميلاد صديقهما المشترك.. مرة يساعدها هو في مشكلة كادت تحدث في عملها بمساعدة من أحد مرضاه.. وأخرى لقاء مستتر خلف زي وقناع وسيف..

واجتماع مع خبير اللعبة وصديقته وهو!..

من وسط شرودها خسرت تلك النقطة بينما تبحث عن مهرب ولا تجد ففي انشغالها معه منفذ فرار من وحدتها وأفكار الأمس التي لا ترحل عنها.. توقف لحظة يلهث قليلًا بينما تخلع قناعها بيأس:

- ده مش عدل، أنا ما لعبتش بقى لي كتير جدا..

خلع قناعه بدوره وعيناه تطوفان في محرابها بصلاة صامتة:

- على فكرة أنا برده ما لعبتش من زمان..

وادعى الغرور بابتسامة جذابة:

- بس غلبتك..

عقدت حاجبيها في ضيق طفولي، تراجعت للخلف نحو "ياسين" الذي يرمق الشجار باستمتاع وأخبرته:

- قوم اغلبه..

تحول استمتاعه لابتسامة واسعة وهو يقفز لأرض النزال بحركة سريعة:

- أيوة بقى.. نيجي للجد، مش شغل الهواة بتاعكم أنتوا الاتنين..

ربعت ذراعيها بانتشاء وهي تعلم أن ابن العم سينهزم لا محالة:

- هاشجعك..

من فوق كتفه لمحت "يوسف" يتظاهر بالدهشة ثم الأسى والحزن:

- بتشجعيه وهو هيلعب ضد ابن عمك!.. طب ما ده مش عدل برده..

تراجعت تجاور المراقبة بحماس:

- هو الخبير..

اتخذ "ياسين" وضع الاستعداد عقب ارتداء قناعه، تبعه "يوسف" وهو يهمس له بمشاغبة:

- باقولك إيه.. ماهو لازم أكسب، ما تخليش شكلي وحش قدامها..

تجاهله صديقه تمامًا بينما تبدأ المباراة القصيرة، خطوة وثانية والنقطة الأولى كانت له ليتعالى معها صوت "ملك" المتحمس بتشجيع..

جوارها "راما" الهادئة على غير عادتها..

ترقب أعين الرجلين، تتأمل حركاتهما وسكناتهما وتدرك أنهما سقطا في بحر عشق امرأة واحدة تجاورها بلامبالاة..

كأنها لا تعلم..

أو تعلم وتتجاهل!..

رغمًا عنها طعنت الغيرة قلبها بسهم حاد..

هل تغار عليه!..

تأملت رشاقة خطواته، إقدامه.. انتصاراته المتتابعة ببساطة كأنما هي عادته..

وفي فجوة مقتطعة من الزمن اعترفت لنفسها..

هي تحبه.. بكل صراحة ووضوح تحبه!..

فجوة ابتلعت مشاعرها بجوع وخافقها تعلو نبضاته بصدرها..

بعد ذلك الاعتراف الذي نطق به القلب كأنه بديهي لا يحتمل لحظة شك رمقت المجاورة لها بتفكير..

ابن عمها عشقه لا يخفى على أي عين ملاحظة.. لكن الصديق يجيد التنصل من النظرات المسروقة التي يوجهها إليها..

نظرات حانية، مهتمة.. بها تعاطف أو شفقة!..

تعاظمت الأسئلة بداخلها دون إجابة..

تجاهلت إفراط "ملك" في الحماس والانفعال بطريقة لا تفهمها وحادثتها بنبرة حاولت بث البرودة والحياد فيها قدر ما أمكنها:

- ياسين بيكسب!..

أهدتها المنفعلة نظرة وابتسامة ودود:

- ياسين بطل في اللعبة.. يوسف الشيش مجرد هواية..

جادت شفتيها ببسمة مشابهة بينما عيناها تراقبان النزال المستمر:

- أنتِ عاوزة مين يفوز؟..

بحديثها ترمي لصراع القلوب، والجواب أتى بريئًا دون أفكار:

- ياسين دايما هو اللي بيفوز.. دي حاجة ترجع لمهارة كل لاعب..

تأملتها قليلًا ودهشة تتسلل إليها، هي لا تصطنع تلك الهالة البريئة حولها، لا تفتعل التجاهل أو تتظاهر به..

بل هي كذلك بالفعل!..

واشتعل فضولها نحو من أقر القلب بالتسليم له في مباغتة بغيرة..

راقبت انتهاء النزال وعودة الثلاثة نحو غرف الثياب، عندما خرجوا جميعًا وجدت "ملك" تتوجه بخطوات متعجلة نحو "ياسين".. تشير إليه وتسير بجواره لينعقد جبين ابن العم بضيق وحرج بينما يبتسم لها ويسير معها بصمت..

هو يغار بوضوح وهي الفضول تحكم بها فسألته:

- بتحبها!..

كان السؤال يتكرر على لسان "ملك" لصديقها كأنما هو قدر!..

رمقها "يوسف" بتساؤل قبل أن يتفهم قلبه العاشق نظرتها.. خوفها، ويشعر بما يعتمل بنفسها فيجيب ببساطة بلا مناورات مرهقة:

- جدا..

وابتسم دون أن يمنحها فرصة سؤال جديد:

- بس هي لسه خارجة من محنة من فترة مش طويلة، وحبيت أعملها حاجة كانت بتسعدها فكلمت ياسين بما إنه الخبير وصديق مشترك..

بادلته بسمته بتردد محاه باستطرادة هادئة تطمئن القلب المذعور من اعتراف باغت أمانه وصنع دوامة تيه بركود مياهه:

- أنا ناوي أتجوزها..

شعرت بذهول مؤقت من تصريحه الحاسم فاتسعت ابتسامته وضحكت تشجعه برقة:

- ربنا يوفقك..

وعند الآخرَين قابل "ياسين" سؤالها بصدمة:

- هي مين!..

عاتبته بنصف نظرة وإبهامها يشير لخلف ظهرها:

- ماتلفش وتدور عليَّ..

شعر بحرج مستنكر ورأسه تلتفت لتهدي السائرة خلفهما نظرة حائرة كأنما يراها للمرة الأولى:

- دي زميلتي وأنا المشرف على شغلها.. تقدري تقولي أصحاب على خفيف..

زوت ما بين حاجبيها تتظاهر بالتصديق:

- مادام أنت مقتنع هاعمل نفسي مصدقة..

- ملك!..

وبخها بغضب مفتعل فضحكت بمرح:

- خلاص خلاص..

ومالت تخبره بحماس طفولي غريب عليها:

- بس هي بتحبك..

اكتنفه صمت شارد..

فمنذ متى تنتبه صديقته القديمة لأمور القلب وترى بالعينين عشق!..

كانوا قد وصلوا للمرآب المفتوح، تبادلوا التحية واتخذ "يوسف" مقعده خلف المقود تجاوره "ملك" بهدوء قطعه باهتمام:

- كان يوم حلو.. مش كده!..

التفتت إليه بابتسامة رائقة:

- قوي..

انتعش قلبه بين ضلوعه فقام وانتفض ورقص على لحن نبرتها الناعمة:

- طيب تحبي تتعشي فين!..

حافظت على ابتسامتها في محاولة للتماسك أمام خطوة حصار لن تقبل بها:

- أنت توصلني الشركة عشان عربيتي هناك، وبعد كده لما تخطط لخروجات زي دي ابقى قولي قبلها..

اتخذ طريقه نحو شركة العائلة ببساطة كما طلبت مثيرًا حنقها:

- لا.. بحب أفاجئك..

رمقته بنظرة مبهمة مشتتة والتزمت الصمت والتزم بالتبعية برغبتها..

فهو وإن كان يخطط لامتلاك؛ الوقت الذي يقضيه معها يمتلئ بنقاء محبب للنفس.. يقضيه دون أفكار أو محاولات اقتراب تتخطى حدودها..

وقتًا يسعد روحه أنها تتقبله فلا يرحل إلا وابتسامتها تكسر جمود شفتيها بروعتها..

في السيارة التي تحركت في الاتجاه المعاكس كان هو غارق في صمته وأفكاره في حرب بين التصديق والرفض..

الاستجابة والاعتراض..

الاقتراب والبعد..

عندما باغتته بطلب يحمل لهجتها المعاندة التي يحفظها:

- أنا عاوزة أتعلم شيش..

العشق مبارزة..

والعشاق في صراع أبدي.. بين فوز..

وهزيمة!..

***

عندما نقرر الفرار والاختباء، نبحث عمن يخبرنا أن ما قررناه هو الصحيح..

لذا في اليوم التالي كانت في مكتبه، تجلس بهدوء على شفتيها ابتسامة بسيطة وهو يتطلع إليها باهتمام وبداخله يدرك أنه كان على حق عندما منحها صك الصداقة متجاهلًا لقب الطبيب النفسي الذي يتخوف منه البعض:

- إحنا مش اتفقنا إننا أصدقاء!..

هزت رأسها بإيجاب فأردف:

- طيب ليه دفعتِ تمن الجلسة!..

ردت ببديهية وهي تنهض من مكانها وتتحرك نحو نافذة عريضة في الجدار المواجه:

- عادي.. ده وقت من حق ناس تانية وأنا أخدته..

لم يجادل فهو يدرك رفضها للمسمى.. اكتفى بالصمت حينما نظرت للخارج بتأمل:

- الفيو تحفة من هنا..

ابتسم ببساطة دون رد؛ يدرك أنها لا تريده منه..

عادت تدور في المكان بعينيها كأنما لم تره من قبل، تلاحظ التفاصيل وتفكر في اللاشيء.. وقعت عيناها على إطار صغير فوق مكتبه، التقطته بأصابعها فجأة:

- دي بنتك؟!..

حافظ على الابتسامة المتفهمة مجيبًا بحنان أبوي:

- أيوة.. مارية..

- ماشاء الله.. زي السكر، ربنا يخليها لك..

تمتم بشكر خافت بعده عادت لمقعدها تلقي ما بجعبتها، تقهر ترددها وتبحث عن جواب لسؤال حائر يغزو كيانها:

- ابن عمي بيحبني..

كانت تخبر بيقين والنبرة يلامسها تردد، سؤال!..

ارتفع حاجبه مسافة طفيفة، اعتدل في مقعده ينصت بتركيز:

- من زمان وإحنا صغيرين.. ما صرحش بالحب ده إلا لما عرف إني اتخطبت..

كانت تسرد عليه الحكاية كأنما لا تخصها، تتحدث بهدوء خالي من أدنى انفعال.. ثم تصمت في انتظاررد فعل منه:

- لطليقك!..

يسحبها لذات المنطقة التي تدور حولها وتأبى العودة إليها:

- يومها اتجنن وقال لي إنه بيحبني، للأسف كسر الصداقة اللي كانت بيننا، شوهها..

- وأنتِ قلتِ له إيه؟!..

جاوبت بيسر:

- رفضت أسمعه طبعا..

استقامت مجددًا تتحرك في الغرفة بشرود:

- بس مش دي المشكلة.. المشكلة إنه حاليا بيحاصرني..

عقد حاجبيه وتساءل بهدوء:

- إزاي!..

توقفت تشيح بيديها في شرح مرتبك:

- بيقولي إنه موجود كابن عم وصديق، بيطلب مني مساعدة في شغله ويساعدني في شغلي.. بيعملي حاجات بحبها وموجود حواليا باستمرار لدرجة تعصب..

وصلتها نبرته تتأرجح بين الاستفهام والتقرير:

- طيب ما ترفضي وجوده!..

شعرت بحيرة غامضة تشتت لها صوتها:

- بس أنا بابقى مبسوطة..

فهم أنها تهرب كعادتها.. تنكر ما مضى، وتتعايش مع الحاضر بتجاهل تام ومحاولة فاشلة للنسيان دمجتها بظهور ابن عمها:

- متعصبة ولا مبسوطة!..

جمدت لحظة تبحث عن جواب.. ارتمت بمقعدها ثانية في ارتباك:

- الاتنين..

والعصبية التي تتحدث عنها لامست لهجتها وهي تردف:

- أنا عارفة إنه بيحبني بس هو بيقول خلاص هنبقى ولاد عم وبس، مش لاقية حجة أبعده بيها وهو ما بيحاولش يتخطى أي حد رسمته بيني وبينه!..

أمسك بقلمه يخط به بعشوائية في مذكرته:

- يعني أنتِ متضايقة إنه خلاص ما بقاش بيحبك!..

- مين قال كده!..

- هو..

- هو بيكدب..

رفع حاجبيه بدهشة وهي أكملت بتحدٍ:

- هو بيقول كده بس عشان يقرب مني ويخليني أحبه..

- ومحاولاته يا ترى ناجحة!..

انتقلت دهشته إليها وإن كانت أقرب للصدمة والاستهجان:

- يا دكتور مافيش حاجة اسمها حب..

وأقرت بحزم رأى فيه الألم مختبئًا في ثنايا قوة غير حقيقية:

- الحب ده كذبة.. اخترعها الرجالة والستات صدقتها، كذبة كل اللي بيؤمن بيها بيتوجع.. بينكسر..

كان ما تهدر به في غضب شبه زاعق هو طرف خيط لن يتركه يتفلت من بين أصابعه:

- ملك.. كلميني عن قصة حبك..

صمتت بوجوم تدرك أن قلبها صرح بما كبتته بقسوة:

- أنا عاوزة حل ليوسف وحصاره..

استنتج أن هذا هو اسمه، شد جذعه قليلًا وشبك أصابعه فوق المكتب.. أمال رأسه بنظرة مطمئنة:

- إيه رأيك تسيبي نفسك للتيار؟!..

- يعني إيه!..

ابتسم شارحًا بإشارة من يديه:

- يعني ما تقاوميش، لو هو صادق في تخليه عن مشاعره ناحيتك مش هتخسري حاجة، بالعكس هتكسبي أخ وصديق.. ولو لسه مشاعره دي

موجودة أكيد هيغلط، هيكسر حد من حدودك ووقتها تقدري تاخدي رد فعل حاسم..

برقت عيناها وصمتت لثوان بتفكير، استقامت تختطف حقيبتها مغادرة باندفاع:

- أنت صح.. شكرا يا دكتور..

تابع رحيلها باستغراب حتى أغلقت الباب وراءها، تأتي فجأة وترحل فجأة..

تناول ملفها من أحد الأدراج وخط فيه شيئًا بعناية وهو يدرك أنه على الطريق الصحيح..

لقد جهرت بألمها اليوم وإن عاودت هروبها بعدها..

لكنها خطوة أولى..

***

العشق عند البعض مباراة..

دفاع وهجوم..

مكسب وخسارة..

اجتياح واحتياج..

مكابرة واستسلام..

رفض.. أو خضوع!..

هي اختارت الجانب الأكثر أمانًا، الأكثر قوة واحتمالًا وإن كان قلبها يتمزق بين جنبيها..

"غرام!"..

انتبهت لصديقتها التي تجذب يدها:

- أنتِ شايفة بتعملي إيه؟!.. ولا أنا اللي باهلوس!..

تأملت الثياب أمامها باهتمام وسحبت قميصًا ورديًا في مخاطرة لونية لا تقوم بها أبدًا:

- حلو قوي ده..

- غراااام..

أوقفتها بإشارة من كفها:

- ششششش.. إيه يا بنتي!.. بتزعقي ليه!..

شدته من يدها باستفسار:

- أنتِ مش شايفة اللون!.. من إمتى بتلبسي بينك؟..

علقته على ساعدها تنتقل لحامل آخر:

- من دلوقتِ.. التغيير مطلوب أحيانا..

وتجاهلتها تمامًا مندمجة بشدة في رحلة تسوق جنوني لا تشبه عاداتها في شيء.. رحلة انتهت بالصديقة توقفها وهي تدب قدميها في الأرض:

- غرام أنا تعبت.. كفاية بقى، تعبت وجُعت وعطشانة جدا..

أهدتها نظرة مستنكرة ثم هزت رأسها بموازاة زفرة حارة:

- خلاص.. تعالي نقعد في أي كوفي شوب بعدين نكمل..

- نكمل!..

همستها باتساع عينين ذاهلتين.. تحركت تتبعها نحو أقرب مقهى صادفهما والحقائب تعيق سلاسة خطواتها حتى اصطدمت بظهرها..

بل صدمها تراجعها السريع للخارج كأنما تهرب من المكان..

- فيه إيه يا غرام!..

زعقتها لفتت انتباهه.. اسمها.. حضورها.. وعيناها!..

العواصف والبروق والرعود التي غيمت بمقلتيها فحجبت عنه كل ما يحيط به إلاها..

ونظرة عشق لم تمت بعد بعينيه كبلتها لثوان..

صديقتها تحاول الفهم، وصديقيه اللذين يجاورانه فوق طاولة جانبية يتحدثان دون أن يدركا غيابه عن فحوى الحوار..

"مروان"..

"غرام"..

نداءان عندما التفت كلاهما لأصحابه غابا من جديد..

ركضت تغادر تتبعها "أمل" بتعثر مستغرب، وهو عاد ببصره لصديقيه يتظاهر بنصف انتباه وعقله يقتفي أثر من رحلت..

استقرت بسيارتها تلهث، صدرها يوجعها والهواء يزوره بعسر..

- غرام.. هو ده كان مروان؟!..

حبست أنفاسها للحظات قبل أن تديرو وجهها إليها:

- مروان مين!..

أهدتها نظرة معاتبة كأنما تستهجن إنكارها:

- اللي أول ما شفتيه وشافك نسيتوا اللي حواليكم بعدين هربتِ من الكافيه..

- انزلي يا أمل..

ارتفع حاجباها بصدمة:

- غرام أنتِ...

- انزلي يا أمل مش هاوصلك واتصرفي..

تراجعت تؤثر السلامة وهي ترى الجحيم المستعر يسكن غيومها:

- خلاص خلاص.. مش هاتكلم..

رمقتها بصمت لم تفهمه الأخرى فرسمت على وجهها ابتسامة بريئة متوترة..

غضت الطرف عنها وهي تدير محرك سيارتها وتتحرك بها في انطلاقة جنونية..

وصوت احتكاك العجلات بالأرض ينتزع من صدرها شهقة وتشبث مذعور بحزام مقعدها دون محاولة للفهم..

أما التي تلون العالم أمامها بقتامة فقد نهرت قلبها وعقلها معًا..

هي اختارت القوة وركنت لجانب الكبرياء..

فلتتحمل ما ينتج عن اختيارها إذًا!..

***

هي امرأة تمحو الكون عداها..

تسيطر بتجبر على البصر والنبض..

وهي امرأة أهانت عشقه فكيف يتركه تحت قدميها لتدهسه ولو بنظرة غافلت عينيه لتصرح بذات العشق!..

كان يشعر بالغضب من نفسه..

من تيهه في حضورها..

من تشتته بعد غيابها..

من كل شيء..

ومن ذلك الموقف الذي بدأ كاحتفال بعمله كملحق دبلوماسي في وزارة الخارجية وانتهى به عائدًا للبيت بهزيمة جديدة مُنيَّ بها قلبه..

هز رأسه على عتبة الباب ينفض عنه ملامح اليأس.. يرتدي قناع القوة المعتاد ويظهر التماسك بصلابة يجيدها..

وجد أخته على أريكتها المفضلة، تتناول رقائق البطاطس المحمرة وبجوارها كوبًا كبيرًا من مشروب غازي.. تنهد واقترب منها ليسمع ردها على الهاتف:

- الله يبارك فيك يا سمسم..

ابتسم وفي لحظة كان يختطفه من يدها بحركة مباغتة وازت شهقتها:

- الله يبارك فيك يا سما.. طيب مش تباركي للي نجح شخصيًا!..

نهضت أخته تقف فوق الأريكة وهو يبعد الهاتف عن أذنه، ينظر إليه بدهشة ثم يناوله لها وهي تستعد لشجار تريده:

- المجنونة قفلت في وشي..

دفعها برفق فأسقطها بين الوسائد وهي تلعنه:

- نفس الجينات..

ثم تحرك نحو صومعة انعزاله والمسمى البسيط غرفته.. حتى محاولة الاندماج وتمرير الموقف باءت بالفشل..

الفتيات وحماقاتهن!..

نادته أخته عند أول درجة فتوقف ليجدها تقترب بجدية بدت له عجيبة:

- بلاش العشم يا مروان..

وواجهته بنظرة تجيد إخفاء الألم بها لكنه يراه ويجاريها في مداراته:

- عشان لما ما بيحصلش اللي كنا متعشمين إنه يحصل بنتوجع قوي..

ارتعشت شفتاها قبل استطرادة خرجت مختنقة:

- بنتكسر..

تغاضى عن إسقاطها لحديثها على نفسها وسألها بحيرة:

- عشم إيه مش فاهم!..

عقدت ذراعيها فوق صدرها تجابهه بحدة:

- ما تقربش وأنت عارف إن مافيش حاجة هتحصل بينكم..

صمت قليلاً..

في عرف الرجال يرى أنه لم يفعل شيئًا وفي عرف عاشقة سابقة هو ارتكب الجرم الأعظم!..

بحركة.. بكلمة.. بنظرة يعد قلبًا يملكه بما لن يفعله!..

وازاها في وقفتها بنبرة ضائقة كأنما أوجعه سوء ظنها به:

- طيب أنا عندي سؤالين..

انتظرت استطرادته وهو يعدد على أصابعه بلية شفاه متهكمة:

- هو ليه أنتم البنات بتكبروا كل حاجة وتعملوا حدوتة من مافيش!..

عقدت حاجبيها بينما تفكك ذراعيها وتقترب منه خطوة هجومية:

- يعني إيه؟!..

تضاعفت سخريته وقبضته تطرق رأسها:

- يعني أنا مش هاقاطعها.. ما أنا طول عمري باتكلم معاها ومع صبا وحلا وسها.. وما حدش بيكبر المواضيع كده؛ إيه اللي جد فجأة يخلي كلامي معاها عشم في قصة رومانسية!..

هتفت بدفاع بديهي وغريزتها الأنثوية تنشط في حالة قتال:

- عشان أنت عارف إن سما...

- بتحبني!..

بتركلماتها بحدة أردف بعدها:

- طيب خدي السؤال التاني..

وانحنى يواجه عينيها بنظرة أثارت توترها:

- مين قال إن مافيش حاجة هتحصل بيننا!..

تركها قافزًا الدرج يقطع معه مسافات شاسعة بعمق قلبه..

لا يفطن لمَ ألقى بداخلها بذرة شك عنه وعن العاشقة الوردية.. لا يدرك حتى أنه نطق بما قال إلا عندما عبر شفتيه وراقب ملامح الصدمة تتشكل فوق وجهها..

صدمة لم تلتزم الصمت حيالها فوجدها تفتح باب غرفته بدفعة عنيفة:

- مروان..

توقف يزفر بحرارة:

- يا بنتي أنا مش فاضي لك.. عاوز آخد شاور وأنام، بكرة يوم مهم..

لكمت ذراعه بقبضتها الصغيرة فرمقها بغيظ:

- يا بني أنت احترمني.. أنا أختك الكبيرة والله..

لوى شفتيه باستهزاء وهو ينحيها من طريقه:

- طيب ما تتصرفي على الأساس ده..

تصلبت في مكانها وواجهت عينيه.. بل اقتحمتهما بنظرة ثابتة:

- ما تهربش.. أنا عاوزة أعرف؛ الفترة اللي فاتت كان في حاجة متغيرة فيك، بعدين رجعت مستردارسي بتاع زمان بس الفرق..

وفكرت لحظة:

- إنك بتضحك بزيادة، بترغي كتير..

قاطعها باستنكار حانق:

- بارغي!..

أكدت عليه بتحدٍ:

- أيوة.. كأنك بتداري حاجة انكسرت جواك!..

وعادت تعقد يديها أمام صدرها، تجلس على الفراش تراقب تغير تعابيره من الصمود للانفعال والتشتت بينهما:

- وساعات تانية بتقعد لوحدك وعلى وشك إحساس..

سكنت تفكر ثم أردفت بعين حانية:

- بالعجز يمكن!..

ضحك فجأة فاستقامت بغضب.. تجاهل تصريحاتها وهزأ من أفكارها:

- ده مش أنس بس اللي عايش دور المحلل النفسي..

- باقولك ما تهربش..

كانت تتحرك نحوه فأعلن الضيق بصراحة:

- عاوزة إيه يا ملك؟!..

سألت أو قررت دون مواراة:

- أنت كنت بتحب..

- أيوة..

- وبعدين؟!..

- ما فيش بعدين.. كانت حكاية من طرف واحد وما كملتش..

يرد ببساطة كأنهما يتحدثان عن الطقس والبرودة التي تلوح في الأفق..

وجمت لدقيقة كاملة ركن فيها لجانب الصمت قبل أن تقترب أكثر بسؤال حزين:

- هي ما حبتكش!..

- لأ..

رد سريع باتر يقطع به الطريق أمام المزيد لكنها لم تقنط بعد:

- متأكد!..

تركت له حرية تفكير لم يستغرق منه الكثير وهو يرد بحسم:

- أيوة.. رفضت تعترف بالحب أو تقول أي حاجة تحسسني إن جواها أي مشاعر ليَّ..

ولا تزال تحقق في قضية خاسرة ومتهم أقر بالذنب ونُفذ فيه الحكم:

- وأصريت ولا هربت!..

لم يجبها فأكملت تشرح له كينونة الأنثى وغياهب عقلها وقلبها:

- على فكرة.. البنات ما بتعترفش بسهولة.. ولو بنت قوية؛ مش هتسلم بعد كلمتين حلوين زي ما أنت فاكر..

- ما أنتِ سلمتِ قلبك من أول كلمة حب وفي الآخر دخلتِ تجربة فاشلة..

صدمها رده فسكنت والطعنة تعود لتحيي النزف وتفتح الجرح..

لمس كتفها بيده في ضغطة رفيقة:

- ملك.. آسف أنت عارفة إنه مش قصدي..

تراجعت تبتعد عن احتواءه وإن كان بعد قصف لسانه، توليه ظهرها وتحتوي جسدها بنفسها في لمحة أمان مفقود أوجعه ومنح ضميره إذن الصراخ فيه:

- أنا كان جوايا مشاعر، ونزار عرض عليَّ الجواز يا مروان..

همستها بخفوت فقرر أن يسحبها من دوامة ذكراها التي ألقاها في تيهها دون عمد:

- أنا عرضت عليها الجواز..

عادت تنظر إليه بدهشة:

- ورفضت!..

هز رأسه بموافقة مختنقة لم يستطع أن ينطق فيها بحرف.. دنت منه أكثر تلامس وجهه براحتها في دفء:

- أنت كويس!..

أحاط كفها بكفه ثم جذبها يربت عليها بالأخرى في طمأنة وابتسامة أجاد نحتها فوق شفتيه:

- زي الفل..

لم يقِل قلق عينها مثقال ذرة فقبل رأسها:

- ما تقلقيش عليَّ..

حاولت استيعاب ما قاله منذ عاد من الخارج..

صراحته وجرأة كلماته والتظاهر بالقوة.. ابتسمت وجرته بعيدًا عن ذكراه:

- بس مش معنى كده أنك تداوي جرح قلبك بسما..

انحنى جانب فمه بسخرية ساخطة:

- إيه يا بنتي الكلام الكبير ده!..

ودفعها نحو الباب في طرد واضح:

- اطلعي من الفيلم القديم اللي أنتِ عايشة فيه، وبصي أنت بتتكلمي مع مين!..

وهناك أنبَّها بعتاب:

- أنا مروان أخوكِ، وأخوكِ لا بيضحك على حد، ولا نص راجل عاوز واحدة تعوضه نقصه..

تذمرت تنفي التهمة:

- أنت عارف إن ده مش قصدي..

وحطت بيدها عند قلبه:

- جرح القلوب مش سهل..

أهداها ابتسامة أخيرة اجتمعت فيها المرارة بالألم والصدق:

- بس كل جرح مصيره يطيب، ومش لازم شخص اللي يداويه..

- صح..

أخرجها من الغرفة بدفعة أخيرة:

- اطلعي برا بقى مش فاضي لك..

تصلبت ترفض وهي تشب على أطراف أصابعها تمنح وجنته قبلة وربتة عطوف قبل أن تستجيب لرغبته وتغادر..

أغلق الباب من خلفها واستند إليه بتنهيدة طويلة حرر بها أنفاسًا ظلت مكبوتة طوال حديثه معها..

فكلما أنهى القصة وجدها تبدأ بتسلل ماكر من ثقب جديد لم ينتبه له..

حاول التخلص من عبء الأفكار أسفل رذاذ الماء فكانت تتدافع لعقله مع كل قطرة كأنما تعانده وتصر على تذكيره بما لم ينسَه بعد..

خرج من الحمام يجفف شعره، رمى بجسده فوق الفراش ثم التقط هاتفه يعبث به قليلًا قبل نومه.. ووجد رسالتها!..

"مروان.. أنا آسفة إني قفلت الخط، بس اتخضيت لما اتكلمت فجأة"..

شعر بتردد وسبَّ أخته بقلبه فهي السبب!..

حشرت برأسه ما لم يكن يطوف بذهنه مطلقًا..

كتب بسرعة:

"ولا يهمك يا بنتي"..

رد باقتضاب وقبل أن يتركه من يده مقررًا النوم أتته مباركتها:

"طيب.. مبروك يا سعادة السفير، فرحت لك جدا"..

لم يصلها جوابه فأرسلت بسعادة وخجل:

"ربنا يوفقك"..

ارتسمت ابتسامة هادئة عند طرف شفتيه:

"الله يبارك فيك يا سما"..

وقهرًا سأل ماحيًا تردده:

"بجد فرحانة؟"..

استشعر حيائها من صمت قصير:

"طبعا.. مش ابن عمي!"..

توسعت بسمته ومازحها:

"وخالتك في نفس الوقت"..

انقلب على جانبه بوداع:

"هاقولك تصبحي على خير.. بكرة أول يوم في الشغل، دعواتك"..

كانت تنزلق بفراشها وحلمها يمتزج بالواقع في وهم مشروع:

"من غير ما تطلب.. ربنا معاك"..

تركت الهاتف من يدها وهمستها لا تصل لسواها:

- تصبح على خير..

العشق سقطة..

لا نشعر بألمها إلا عندما نرتطم بالقاع!..

***

نحن نعيش الخوف مضاعفًا عندما يتكرر الوجع..

والرهبة التي ملأت كيانها فأعجزت عقلها عن العمل وقلبها عن النبض بهاته اللحظة كانت تفوق احتمالها..

تيبس جسدها بالكلية وأصاب الشلل قدميها وهي تقف على باب ابنتها..

الباب الذي فتحته بهدوء ظنًا منها أنها في دنيا أحلامها لتجدها في صحوة مباغتة على هلع..

تمسك مقصًا مفتوحًا بيد مرتجفة فبدا أشبه بفكي أفعى سامة على وشك الانطباق حول عنقها..

والنظرة بعينيها عنوانها.. ضياع!..

(٢٣)

في لحظة ما يصبح الحب عبثًا..

عبئًا..

ثقلًا يربطنا لأرض اليأس..

نهفو نحو السراب..

نعتنق الوهم..

ظنًا منا أن في الإيمان به الخلاص!..

البعض يتجمد عند الخوف..

يتصلب جسده، يتوقف عقله.. وتهمد حركته تمامًا..

ولذلك تفسير فسيولوجي بسيط للغاية؛ المفاجأة!..

الصدمة التي تتبعها ردود فعل منعكسة حسية متتابعة، اتساع العينين والحدقتين لاستيعاب أكبر مساحة ممكنة من الصورة، تفرق الشفاه ولهاث غير مسبب يستجدي صراخًا أو هربًا..

يتجمد لأن كل طاقته العصبية والجسدية وجهت نحو مصب واحد محدد..

التفكير في تصرف ملائم للحدث، للتمييز بين حقيقته ووهمه!..

ذلك كان حالها على باب ابنتها التي تمسك بمقص مفتوح الشفرات بين أصابعها تجهل ما تنوي فعله به!..

لمحت الابنة تجمد والدتها بنظرة هلع تعلو عينيها، وفسرت الأمر.. انشطر قلبها بينما تدرك أي فزع سببته لها في المرة السابقة..

أي وجع ذاقته لأنها هي ضعيفة ترى الفرار من على سطح الأرض لباطنها هو الحل..

حاولت تدارك الموقف فاسترعت انتباهها بابتسامة وأناملها تحرك المقص وأصابع يدها الأخرى تمسك بأطراف خصلاتها:

- بفكر أقص شعري..

ثم تركته من يدها لأن نظرة أمها لم تتغير.. يعلوها فزع وذعر، حركت شعرها تتأمل نفسها في مرآتها والذنب يحتلها، ترفعه.. تديره تبعثره:

- إيه رأيك يا ماما!..

أخيرا أفاقت "علا"، تزدرد لعابًا جافًا أوجع حلقها، تهدأ أنفاسها وترتعش شفتاها للحظة قررت بعدها احتواء الأمر وتجاهله..

أن تمنح ابنتها الثقة التي أوصتها بها طبيبتها.. ثقة محاطة بعناية منها ومسيجة بسور آمن من الاهتمام والمراقبة الخفية حتى تعبر نفق أزمتها المظلم بسلام..

ابتسمت وتحركت نحوها، تداعب شعرها، تتخيله مثلها وتحنو برفق:

- فكرة حلوة..

ثم التفتت تهدي وجهها نظرة من خلال السطح العاكس وتفكر، تقترح ممررة خوفها ورعبها كأنه لم يكن:

- إيه رأيك ننزل نقصه سوا!..

رمقتها فتاتها عبر المرآة بدهشة:

- هتقصيه؟!..

- أها.. تغيير..

وابتعدت ببصرها عن بصر "تاليا".. توحي لها بالثقة وتتخذ من الجدية مسلكًا وهي تقترب وتركز في خصلاتها البنية الطويلة..

همست من ورائها بتردد مرتبك، كأنما تخشى رفضها:

-بفكر أصبغه أسود يا ماما..

كانت صدمة جديدة.. فشقرتها فاتنة!..

لكن التغيير إن كان وسيلة تساعد هي لن تمانع البتة.. تأملتها قليلًا ثم عادت إليها بوجهها تلامسها بكفها بحنو:

- الأسود هيبقى جميل قوي عليك..

ونظرت لنفسها مجددًا تهديها صك أمان مفتوح الأجل:

- تفتكري لو فكرت أصبغ أنا كمان، أداري الشعرتين البيض دول.. أصبغ إيه!..

تفكرت لثوان ثم ابتسمت بنصر طفولي:

- cherry red.. هيبقى تحفة مع لون عينيك..

- اتفقنا..

نطقتها دون تردد أو تفكير..

واصطحبتها في يوم يخصهما وحدهما..

أم وابنتها..

بدأتاه بالتسوق فالعام الدراسي الجديد على وشك البدء، تناولتا الغذاء في مكان "تاليا" المفضل.. ثم قهوة "علا" ومشروب الرشاقة الخاص بصغيرتها..

وانتهتا عند أحد أشهر مصففي الشعر لتعودا للمنزل بعد غياب سبع ساعات باختلاف لم يكن تأثيره هينًا على الأب الذي تصلب جسده يراقب عودة أثيرتيه..

كان صادمًا.. وساحرًا!..

وعيناه تنتقلان في تعجب مذهول بين ابنته وزوجته قبل أن تستقرا في النهاية.. عليها..

الحمراء الكرزية بعينيها العشبيتين وبشرتها الناعمة التي لم يؤثر بها عمر!..

يتعلق بصره بها في افتتان أعاد قصة النظرة الأولى..

البسمة الأولى..

الخجل الأول..

وبداية مشاعر ألزمته بمصارحة فامتلاك..

وهي كانت تراقب تأمله بصمت مستغرب، تشير إليه بعينيها أن ينطق بشيء..

لابنته!..

أن يتحرك أو يتنفس حتى!..

ارتبكت ابتسامتها عندما لاحظت كيف يحدق فيها!..

كيف يتفحصها كمسحور عاد لجنته المفقودة بغتة بعد تعويذة ألقاها عليه مشعوذ شرير!..

مع ارتباكها تنبه لحاله.. لعينيه ونظرته.. وصغيرته!..

رسم بسمة على فمه واقترب منهما بنبرة مرحة بها سعادة حقيقية:

- إيه التغيير ده!..

بصره لا يرتحل عنها.. توردت وجنتاها بحمرة خجل لم تزُرها منذ زمن، داعبت خصلاتها التي تغير لونها وقصتها:

- إيه رأيك؟..

وابتسمت لابنتها تسعى لحثه على انتباه مماثل لها:

- أنا وتيا قلنا نغير شوية..

- يجنن..

كان يقصدها..

عضت شفتها السفلى وأنبته بنظرة عاتبة خاصة مع ابتسامة الابنة المستمتعة بما يجري:

- طيب وتاليا!..

أخيرًا رآها.. تحولت بسمته للحنان ودنا يقبل رأسها بعاطفة أبوية وحدها تمتلكها منه:

- زي القمر..

وشعس شعرها القصير للغاية بأنامله..

ضمته بتشبث كأن عودته إليها.. اهتمامه، احتوائه.. أمان قربه وانتهاء هجره وإن كان بعد محاولة موت فاشلة، كان كل ذلك هو مركز مدارها وشمس مجرتها التي تموت كواكبها دونها..

هي العائدة من النفق حالك العتمة وقد رأت الضوء في نهايته ولم تمد يدها إليه؛ بل خافته.. ارتعبت وعلمت أنها طفلة، محض طفلة لا تريد سوى حضن أمها وأمان أبيها..

رفعت وجهها تهدي وجنته قبلة وتركض لأعلى:

- هاطلع أجرب الحاجات اللي اشتريناها..

بعد وصولها لنهاية الدرج توقفت، تلتفت إليهما.. ترى اقترابه من رفيقة العمر بمكر لم تره منه من قبل:

- الأحمر يجنن عليك..

والدتها تخجل.. تهرب بنظرها ثم تشاكس:

- دي معاكسة بقى!..

تلتها همسة لم تسمعها فابتسمت ببهجة نقية تجاهد للتمسك بها:

- اعتبريها كده..

اتجهت لغرفتها تاركة خلفها ما فات..

كل ما فات..

هي تستحدث لحظة ميلاد ثانية، وقد وجدتها!..

وفي الأسفل كان "مراد" يسحب زوجته نحو مكتبه، يغلق الباب ويواجهها بصمت بينما هي تستنكر بظن أنثوي سيء:

- أنت اتجننت يا مراد!.. في مكتبك!..

لوهلة لم يفهم مقصدها، بعدها ارتفع حاجبه وقرر العبث:

- أنتِ نسيتِ أيام زمان ولا إيه!..

زمت شفتيها بتذمر فاتن:

- كان زمان.. دلوقتِ كبرنا فنعقل بقى..

اقترب يهمس وهو يلامس خصلاتها بعشق لا يسقط بحق التقادم ولا يأتيه الزمن بتجاعيد الاعتياد:

- كبرنا إيه بس!.. بصي لنفسك في المراية، أنا اللي عجزت..

وغمزها بمرح خبيث:

- بس على فكرة أنا نيتي بريئة..

رمقته بعدم تصديق جعله يرفع كفيه عنها عائدًا لأمره الهام:

- أنا كلمت المحامي..

رده طغى على كل فكرة بعقلها وهي تتعلق بكفه:

- قالك إيه!..

ابتسم وتحرك يجذبها ليجلسا فوق أريكة جلدية تحتل ركن الغرفة:

- وكلمت دكتورة تاليا..

لم تجد ردًا..

لم تلُم أو تعاتب أو توبخ..

هو على حق، وخطوة كتلك تحتاج كل الثقة لتتم بشكل صحيح:

- المحامي فهمني الإجراءات.. والدكتورة رفضت..

- رفضت!..

ربت على ذراعها بهدوء مطمئن:

- في الوقت الحالي..

وانطلق يخبرها عن ثلاثة أعوام دراسية قادمة لن تنقضي عليها بيسر بعد تغيير هوية!..

ندبة جديدة تضاف لندوب روحها وشرخًا لن تصمد في مواجهته:

- فهمتني إن بعد التخرج هيكون أفضل، لأن عالمها وقتها هيختلف.. هيتجدد وهي هتتجدد معاه..

- بس..

- علا!..

بتر اعتراضها بنبرة حازمة لم تتخلَ عن رفقها:

- بلاش نكرر الغلط، خلينا نختار صح المرة دي..

استكانت لمنطقه..

أو منطق العقل والصواب..

هي لن تحتمل خسارتها.. ولو كان انكشاف الحقيقة بهذ الوقت سيهديها ألمًا؛ فتأجليها فرض نكرانه ذنب..

***

العشق هزيمة رجل وانتصار أنثى!..

وهو بها صامد في أرض معركة لم يكن يحق لها أن تبدأ..

معركة ألقته بجبهتها المشتعلة من تربى معها أختًا فإذا بها تعلن عليه العشق والتمرد والحرب.. ورغبة القرب حتى وإن كانت تخالف قوانين الهوى..

نعم هو يهوى زوجته..

يعشقها..

ولا كلمات بديلة قد تصوغ ما بقلبه أو تخفف حدته..

وقانونه الأوحد حمايتها.. حماية قلبها وقصة بزغ فجرها للتو..

اجتذبته من شروده بنعومة ورأسها يستكين فوق صدره بتنهيدة ارتياح، ذراعها تحيط خصره وهمستها تخترق حُجُب تيهه فتسحبه إليها.. ربت على رأسها وأحاطها في ضمة دافئة:

- جواد..

همهم برد مبهم اعتبرته استجابة فرفعت وجهها إليه:

- أنت سعيد معايا!..

بصوتها شك!..

خوف!..

ضعف ثقة في نفسها، أو فيه!..

احتوى وجنتها بكفه وأهدى جبينها قبلة طويلة ممتنة ومطمئنة:

- سعادة أكتر من اللي كنت باتمناها..

ابتهج وجهها فأشرق براحة وهي ترتفع على مرفقها تراقب ملامحه وترسمها بأسباتها في بطء:

- هتوحشني لما الدراسة تبدأ..

أمسك سبابتها يقبلها، تبعتها باقي أصابعها فوجنتيها وشفتيها، اعتدل يريحها على ظهرها ويتأمل تفاصيلها التي حفظها يومًا بعد يوم..

بشرتها الرائقة.. عيناها الشقيتان العنيدتان.. غرتها التي لا تترك جبينها بل تغفو فوقه بإغواء يجبر يديه على الاقتراب في كل مرة، وشفتيها التي ينسى مخاوفه.. ضياعه وبرود لقاءاته بزوجة أبيه وابنتها كلما زار بيتهم وقتما يغرق بينهما..

برودًا يليه غضبًا، حزنًا تعقبه ملامة.. وهروبًا تلو مواجهة!..

مواجهة قصمت أفكاره وتركت صدره ضيقًا حرجًا بأنفاس عصية..

لقد مر على زواجه ما يقرب من شهر، سافر أسبوعًا كما وعد عروسه ثم عاد لعمله يدفن نفسه في إجهاده.. وحانت زيارة أخرى لم تمر بخير، وثانية مع زوجته وثالثة دونها لم يخرج منها سالمًا..

العتاب والتقريع والانكسار واللعب على وتر الذنب والندم، يومها لم يتحمل التعامل برفق فصاح فيها:

- كفاية يا مريم.. ما إحنا عايشين في نفس البيت بقى لنا سنين، كتمتِ المشاعر دي ليه!..

وأشاح بذراعه بعنف غاضب مستغلًا غياب أبيه عن المنزل، محاولًا بتر العضو المصاب فلا أمل في شفائه:

- صرحتِ بيها بعد ما حبيت واتجوزت ليه!..

دمعت عيناها بعبرة مختنقة وازتها حشرجة نبرتها:

- أنت كمان كنت عاوزني أنا اللي أتكلم وأعترف لك بمشاعري!..

لم تأخذه بها رحمة فهو اكتفى من ثقل الذنب الذي تصر أن يكون مفصلًا على قياسه:

- ما أنت اتكلمتِ أهو.. اعترفتِ، ما كملتيش سكوت..

وضغط أسنانه يكبت لعنة كاد يلقيها عليها وعلى ضعفها وهشاشتها التي تحبس كامل هياجه:

- بس للأسف؛ في التوقيت الغلط..

سالت الدموع بلا حاجز يمنعها وتحشرج بها صوتها:

- عارف سكت ليه يا جواد؟!..

لم يرد، اكتفى بالصمت يدرك أنها ستردف دون انتظار:

- عشان كنت باقول هياخد باله.. هيحس بيَّ وبحبي اللي مرسوم في كل نظرة ولمحة وكلمة مني..

وضربت صدرها بقبضة واهنة تشتكي لضلوعها خذلان القاطن بينها:

- كنت باقول مش طبيعي إني أروح أقوله بحبك، الطبيعي هو يقولها الأول..

ثم ارتمت فوق مقعد بفتور تجفف وجنتيها في محاولة للملمة كبرياء مفتت أسفل قدميه:

- لما قابلت شذى وشفت مشاعرك بتتحرك ناحيتها؛ سلمت إنك عمرك ما هتفكر فيَّ أكتر من أخت..

ورفعت عينيها إليها بتوسل ضعيف عصر قلبه:

- سكت.. رغم الوجع سكت، ماكنتش هاتكلم خالص..

شهقت بعدها بهزة رأس حائرة ضائعة:

- كنت هاضحي بقلبي مادام أنت اخترت وحبيت واتجوزت..

كانت حرفيًا تشحذ حبه..

تستجدي اهتمامه وقربه..

تنشد تفهمه..

وقلبها يأمل في مقابلة.. مقابلة قلبه بمنتصف طريق وعِر لم تخطط للسير فيه يومًا..

استقامت تقترب، تهدي عينيه نظرة تشبث متعَب، مرهَق:

- بس..

ارتعشت شفتاها لحظة تراقب جمود ملامحه وزمَّة فمه:

- بس ما قدرتش.. حاولت وما قدرتش..

لم يلِن وجهه، ولم يرتسم هناك تعبير محدد، كان مصمتًا.. جافًا.. صلدًا، أغلق أمام فؤادها وروحها باب الأمل..

تراجعت توليه ظهرها، تلوم نفسها وعقلها يحتقر إذلالها لحبها ودهسها لكرامتها:

- يوم فرحك، لما شفتك خلاص بتاخد إيدها عشان تبتدوا حياتكم حسيت إن حياتي أنا وقفت..

وعادت تستدير إليه بتفسيرها الوحيد لسقوطها:

- وقفت على أقسى لحظة ألم ممكن تعيشها واحدة بتحب..

سقطت دمعاتها في تتابع منهَك:

- إن حبيبها يبقى ملك غيرها، وللأبد..

- وده يديكِ الحق تحاولي تهدي حياتي!.. تحاولي تسرقي حياة صاحبتك اللي وقفت جنبك أول ما جيتِ هنا!.. تكسريها!..

جابهها بقسوة فصرخت فيه بعنف وهي تضرب صدره في اقتراب غير مباح:

- ده يديني كل الحقوق، أنت ليه مش حاسس بيَّ!..

انهارت بين يديه، تحرك بها يسكنها المقعد الذي غادرته قبل قليل.. يجثو على ركبتيه يواجه عينيها في نظرة ظاهرها حاسم وباطنها مشتت:

- بس ما يدينيش أنا أي حق أخون وأأذي وأجرح..

ونهض يبتعد ببصره عنها ويصم أذنيه عن أنينها:

- شذى مراتي وبحبها.. ومش هيشاركها فيَّ حد مهما كان غالي عندي يا مريم..

اعترف بقيمتها ثم هرب..

هرب لموطنه وأمانه وأرضه الثابتة..

زوجته.. وحبيبته رغم أنف القلب الحائر!..

***

جروح العشق لا تطيب، تتوارى بمكر خادع حتى يوقظها عامل مساعد مناسب فتنزف ألمها بأعماق القلب والروح كأنها لم تندمل أبدًا!..

عام كامل مر منذ قذف مسامعها بكلمة الحرية..

"أنتِ طالق يا ملك"..

عام تجاهلت فيه الجرح ونزفه ووجعه وحتى ندبته الظاهرة لعينيها، المطمورة لعقلها الواعي، المراقب لها عقلها الباطن باحتياط حذِر..

تجاهلت كل شيء، كل أمس، كل لحظة رحلت برحيله وحملت معها عبقه وعطره وهمساته وقرف لمساته..

حملت معها محاولة نسيان فاشلة فادعت التناسي..

ونجحت!..

أو هذا هو ظاهر الصورة، فباطنها مشوه بخربشات عبثية لن تعيدها ألوان لسيرتها الأولى..

تعمل بجد، تندمج في العمل حد إغفال الطعام ولقاءات الصديقات والعائلة.. تنام باكرًا كهريرة وتستيقظ لذات الدوامة اللا نهائية كل يوم..

عام تكرر فيه الاجتماع العائلي المقدس إحدى عشرة مرة وفي كلها كان هو حاضرًا..

لا يمر يومان دون أن يحادثها، يدعوها لشيء ما يجمعهما ويحكي لها عن عمله ومغامراته في غرفة العمليات مثيرًا فضولها حد أنها طلبت رؤيته يعمل..

رؤيته يمارس مهنته كجراح قلوب..

ولم يبخل عليها كعادته، ففي تجمع اليوم همس لها بخبث أنه أحضر لها عملية مصورة على ذاكرة صغيرة ليشاهداها معًا في غرفة العرض بمنزلها..

وقد كان..

وافته بالغرفة لتجده يعد الجهاز للعمل..

يضبط الصوت وإضاءة المكان وأحضر لها علبة من حبوب الذرة كأنها في طريقها لمشاهدة فيلم رومانسي وليس جسدًا ينزف..

حرك مقعدًا منفوخًا ضخمًا يدعوها للجلوس فرمت بنفسها فوقه ساخرة:

- إيه ده يا يوسف!.. أنت بتزغزغ المريض في العملية ولا إيه؟!.. فشار!..

ضحك بمرح ثم صمت لحظة رد بعدها بجدية تامة تشي باحترامه لما يقوم به بينما يجاورها على مقعد مشابه:

- لأ.. دي عملية نقل قلب، لما كنت في كندا..

- بجد!..

هتفت بها في جذل سعيد، فهز رأسه موافقًا وبدأ العرض..

دقائق طالت لساعة ثم اثنتين وثالثة.. عيناها مأخوذتان نحو الشاشة بافتتان تام كأنما هو سحر مبهر يمارسه ساحر محترف خرج من كتاب أساطير قديم..

دقة يديه.. سرعته وحديث الأطباء إليه وإن كان بالانجليزية لكن الجمل التي لا تتضمن مصطلحات طبية توضح ثقتهم فيه..

لم تتحرك عيناها بعيدًا عن الشاشة.. تراقب ويدها تجذب دون شعور العلبة الممتلئة بالفوشار تلتقط منها الحبات برتابة وصبر وذهول..

طال الوقت دون أن تشعر.. طال وهو عيناه معلقتان بها كأنما هي محور كونه ونقطة ارتكازه ومركز دائرته..

بصره لم يحِد عنها كما تفعل هي مع عمليته التي انتهت بالقلب البارد..

ينبض بالحياة!..

شهقت حينها فنفضت عنه تعويذتها المسيطرة:

- بيدق!..

همستها بتساؤل وابتهاج وهو كررها بتوكيد حازم شبه فخور:

- بيدق..

التفتت إليه بنظرة لم يرها بعينيها من قبل.. نظرة تبجيل واحترام وشيء غريب لم يفسره:

- يوسف.. أنت بجد جراح شاطر قوي..

ابتسم كما لو أنها ألقت بنجمة من السماء بين يديه:

- متشكر..

اعتدلت في المقعد تواجهه بجسدها كاملًا، تضع يدها مضمومة أسفل ذقنها كأنها تبحث عن سر الحياة، ذلك الكون المطوي في جسد إنسان واهن.. وهو سيخبرها به:

- قولي.. بتحس بإيه لما القلب يدق بين إيديك بالشكل ده؟!..

تأمل اهتمامها لحظة ثم جاوب ببساطة وبكلمة واحدة:

- بالأمل..

وقبل أن تردف بسؤال جديد دخل والدها للمكان.. وجدها تقفز إليه، تركض خطواتها لتتعلق بذراعه وتجذبه عائدة حيث كانت بحماس:

- بابا.. تعالى شوف يوسف في أوضة العمليات، العملية رهيبة..

وأهدته نظرة تكرر فيها الغموض غير المفسر لعينيه:

- يوسف طلع جراح قلب شاطر قوي..

أعادت العرض واستجاب "أدهم" بيسر وهو يمنح ابن أخيه ربتة كتف ممتنة باعتزاز وبين أعينهما دار حديث مطول صامت..

تخلله شكر واعتراف بعشق!..

هو يكفيه أنه يسعى جاهدًا لتمزيق شرنقة الصمت التي تحيط نفسها بها في حماية فطرية كأنما ترى أن في البوح.. جرمًا!..

***

عندما نمتلك سر الحقيقة؛ نرى أن في كتمانه كارثة.. خاصة لو كانت من تحوز السر أنثى!..

وسرها كان ما رأته فيه..

هو ليس ابن العم وحسب..

ليس العاشق المهزوم..

ليس المغامر في أرض هواها..

ليس المحارب بمعركة خاسرة..

ليس مجرد رجل!..

هو طبيب ماهر ينقذ الأرواح ويبذل الجهد ليهديها الحياة مادام القدر قد أذِن..

وذاك أسقطها بحيرة لم ترضَ عنها!..

كعادتها كلما واتتها فكرة تذهب إليه، تجلس صامتة لبعض الوقت الذي يمتد أحيانًا بها هاربة وبه مراقبًا متفحصًا.. فجأة تحدثت:

- من يومين اتفرجت على عملية نقل قلب ليوسف..

رفع حاجبًا بهدوء وهي تردف بتساؤل:

- أنا قلت لك إنه جراح قلب؟!..

رد ببسمة وعيناه تسبران أغوارها:

- أيوة..

هزت رأسها بلا معنى وتركت مقعدها تدور في الغرفة كما تفعل دومًا:

- العملية كانت في كندا مش هنا..

وتوقفت تنظر إليه بسؤال آخر:

- أنا قلت لك إنه نص كندي؟!..

رده أتاها إيجابًا بصمت وإيماءة فأكملت سردها حائر النبرة:

- العملية كانت على قد ما بتخوف، الجسم وهو مفتوح بالشكل ده والدم.. بس لما خلصت والقلب نبض؛ حسيت قد إيه هو جراح هايل..

عضت شفتيها لدرجة آلمتها:

- لما سألته بتحس بإيه بعد ما القلب يدق في إيدك قال لي بالأمل.. تفتكر قصده إيه!..

عقد حاجبيه وتراجع مسترخيًا بهدوء في جلسته:

- ليه ما سألتيهوش؟!..

أجابت ببديهية سريعة:

- كنت مبهورة بالعملية وبعدها بابا دخل وخليته يتفرج عليها تاني معايا..

مط شفتيه بتفكير للحظات:

- يمكن قصده أمل في الحياة.. لما القلب نبضه بيقف ده معناه الموت، ولما بيرجع يدق معناه إنه رجع للحياة من تاني..

وأدار قلمه بين أصابعه بتفسير:

- معناه أمل في حياة جديدة..

ابتهج وجهها كأنما استنارت بغتة:

- صح.. أنت صح..

كما تصدح بها في كل مرة يوافق رأيه هواها..

خطت تجلس ثانيةً، تسأل باهتمام:

- أنا قلت لك إنه مش ابن عمي بالظبط؟!..

ابتسم وقد أيقن أن حلقة هروبها لابد أن تنكسر وإلا فستكون هي أول حالة يفشل في علاجها:

- أيوة..

- أنت عارف عنه معلومات كتيرة يا دكتور أكمل..

- لأنك تقريبا طول الشهور اللي فاتت هو محور كلامك..

ارتسمت دهشة مستنكرة على ملامحها التي نقش الشجن معالمه فوقها فبات كأنه جزءٌ منها وهي كلها منه:

- بجد!..

تجاهل تلك المحاولة منها لتظل بذات الدائرة المفرغة وقرر الهجوم:

- مش عاوزة نتكلم عن جوزك السابق!..

- لأ..

باردة باترة حادة رافضة بنبرة قاسية تخللها جرح..

ترك مقعده ونهض يدور حول مكتبه.. يجلس في مواجهتها، يسيطر على عينيها بنظرة تدرك وتفهم الحرب بنفسها وعقلها:

- ملك.. ما ينفعش نعدي لبكرة وجرح إمبارح لسه مفتوح وبينزف..

شبكت أصابعها وردت تمط شفتيها ببساطة:

- أنا مبسوطة بالنهاردة جدا.. ما بفكرش في بكرة دلوقتِ..

وهو كان يصر على خوض النزال حتى آخر قطرة صبر:

- حتى النهاردة مش هيتعاش صح طول ما هو مبني على أساس هش..

صمتت في وجوم..

تعطي لبصرها حق التيه والشرود في أفق سراب النجاة، ظل يتحدث بهدوئه الدائم:

- أنت كأنك واقفة قدام حفرة واسعة ضلمة مش شايفة لها آخر، عاوزة تعدي للناحية التانية بس خايفة تاخدي قرار، تنطي ولا تحاولي تبني جسر..

التقت بنظره فجأة وكفها ترتعش.. لاحظ ارتعاشتها فأيقن من قرب الوصول..

أول البوح خوف وآخره انفجار!..

- لو نطيتِ؛ الحفرة واسعة.. هتقعي..

وغاص بعينيه في ضياع مقلتيها:

- ومحاولة بُنا الجسر أنت شايفاها مجهدة، متعبة.. فبتتجاهليها مع إنها الأصح والأأمن..

انحنت شفتاها في قوس بائس.. بدت أشبه بطفلة غادرت دنيا الحلم لأرض الواقع دون سابق خبرة!..

في النهاية فتح الجرح وضغطه لينزف.. فقط ليقطبه بعد تنظيفه من قيح الألم، أكد بحزم:

- اخترتِ تقفي مكانك عشان شايفة إن كده أسهل.. مش عاوزة تحاربي..

الرجفة انتقلت لكامل الجسد وهي تسأل بهمس:

- عاوزني أقول إيه عنه؟!..

همهمت بها في توتر:

- أقولك هو إزاي خلاني أشوف أقسى وجه للحياة!..

وتحولت الهمهمة لدمدمة مختنقة بعبرة مكبوتة:

- هو إزاي أكد لي إن الحب مجرد أسطورة خيالية بينضحك بيها على القلوب عشان نمرر أي ذنب تحت مسمى المشاعر دي!..

ثم تبدلت النبرة لغضب مرير استعرت ناره بين جفنيها ولم تحرق سواها:

- هو إزاي كسر جواية حاجة ما ينفعش تترمم!..

تواترت لهجتها بين الزعيق والخفوت الواجم:

- هو إزاي بعد ده كله كنت أنا السبب في ضعفه ورجوعه للطريق ده تاني!..

ذنب تلوم به نفسها في وقت هشاشة الروح:

- أنا كنت مقصرة وماحاولتش بجد..

بعدها رفعت إليه عينيها لتظهر بهما طعنة الغدر:

- وفي الآخر اتهمني بالخيانة!..

وهبت واقفة بشبه صراخ كاد يمزق حنجرتها بين الكتمان والتصريح:

- عاوز تسمع كل ده!..

لم يتحرك.. لم يأخذ خطوة أو يهديها أمانًا تنشده بهذه اللحظة.. فذاك ما سعى إليه، وما كان الخطوة الأولى في درب الخلاص:

- أيوة يا ملك.. عاوزك تحكي كل اللي مسجون جواكِ وماحدش حاسس بيه غيرك ولا بينهش في حد غيرك..

أشار لها لتجلس، يفسر لها خطأ معتقدها بسلاسة ويكشف أمامها رقعة اللعب محاولًا حثها على إتقان لعبة الحياة حتى الشفاء:

- الخوف وحش بيفترسنا من جوا لو ماقدرناش نواجهه.. والإنكار وإدعاء النسيان عمره ما هيخلي الخوف ده ينتهي، بالعكس.. بيغذيه ويكبره لحد ما يبلعنا..

استجابت لإشارته ودعمه وحديثه بصمت..

ودموع..

دموع لأول مرة منذ شهور ترتحل خارج مآقيها تهديها السلام، تهبها الراحة وتغدق عليها بسكينة النفس وهو يكمل بنبرة هادئة تبعث على الاسترخاء:

- أنتِ قوية يا ملك.. القوة دي لمستها في مواقف كتير حكيتيها، شفتها في عينيك رغم الإنكاروالهروب، قوة ما تسمحيش لأي ضربة تهدها..

ومال يستند لركبتيه بمرفقيه، يحتل بصرها وكيانها وعقلها مانحًا إياها الأمل:

- قوة متأكد إنك هتحافظي عليها..

تمسك قلبها بأمنية حملها إليها صوته وكلماته:

- ليه متأكد!..

سألت بضعف احتواه هو بطمأنة ولهجة متماسكة حازمة دافعة:

- عشان عارف إنك المرة دي هتحاربي..

وألقاها بوسط المعمعمة..

بوغى معركة لم تغادر أرضها بعد..

***

في عرف العشق هي غارقة حتى النخاع.. وهو!..

هو يصبح رجلًا آخر معها وإن كان القلب سابحًا في فوضى مشاعر لم يسمِها بعد..

فقط يرى أن بينهما صداقة حلوة المذاق..

استباحت فيها تفاصيله بحق ما بقلبها وهو وهبها ذلك الحق وإن لم ينبض قلبه بعشق محض..

سبعة أشهر مرت منذ أخبرته بحزمها الرقيق أنها تريد تعلم الشيش..

سبعة أشهر خصص منها وقتًا مرتين أسبوعيًا يدربها فيها واليوم.. ها هي تهزمه!..

تراجع بسرعة يتفادى سيفها، يكر ويفر، يبتسم من خلف قناعه وهي تهاجم بشراسة من يجاهد للفوز وسيناله..

وغنمت نقطتها..

نقطتها الأولى في حربها معه فألقت بالسيف والقناع وقفزت في الهواء بانتصار:

- yes.. yes..

توسعت بسمته بينما يكشف وجهه، يتأملها بنظرة فخور فهو معلمها:

- مبروك..

ضمت قبضتها أمام وجهها في نشوة ظفر طاغية:

- غلبتك..

داعبها برفعة حاجبين وافتعال هدوء:

- واخد بالي..

اقترب خطوة يحتويها بعينيه في تفحص غير مفهوم!..

كأنما يسأل قلبه عنها:

- بقيتِ أستاذة في سبع شهور..

النظرة أصابتها بخجل أنكرته ودارته وانحنت تلتقط سيفها، تركض خارج المكان بسعادة تتبعها خطواته:

- أنا هاختار الغدا النهاردة، وبعد الغدا سينما وأنا اللي هاختار الفيلم برده زي ما اتفقنا..

همس قربها فانتفض قلبها لنبرته الرخيمة:

- اتفقنا.. بس رومانسي لأ!..

عقدت حاجبيها ووقفت تتخصر بعناد:

- مش من حقك تعترض على فكرة.. ده اتفاق..

- ما تبقيش شريرة..

وكان يتراجع باستسلام مصطنع وتظاهُر بحزن، وهي ضحكت كشريري الأفلام بالفعل ورفعت حاجبًا واحدًا فوق نظرة خبيثة:

- أنا شريرة..

بادلها ضحكتها وقلبه يخبره أن موعد النبض لها قد حان:

- أمري لله..

ثم غمزها بمكر:

- هاحاول أتعامل مع شرك ده..

الجملة تعني التوواللحظة..

عقلها ترجمها للأبد، وقلبها استراح للترجمة فرقص طربًا وعشقًا!..

أما الغمزة فقد احمرت لها وجنتاها في خجل منه.. للمرة الأولى، حمرة خلابة لافتة للنظر والقلب والروح..

حمرة علَّقت عيناه بها لتهرب هي بعينيها في رحيل جديد عليها..

في المطعم وجدها تنتقي الطعام الذي يفضله، وفي السينما تختار فيلمًا تعلم منذ بدأ الإعلان عنه أنه يريد مشاهدته..

كان يجاورها بنصف عقل..

فالنصف الآخر حائر، قلق.. يرهقه شيء من خوف!..

خوف الرجوع لبحور العشق وترك القلب لموجها الغادر دائمًا وأبدًا..

في طريق العودة لمنزلها اكتنفهما الصمت.. كان شاردًا وكانت تراقبه، لا تفهم ما حدث له فجأة فبدَّل مرحه واستمتاعه لضياع غريب يرسم ملامحه!..

توقف بالسيارة عند بوابة البيت الضخمة، لم تترجل من السيارة بتحية كالعادة.. بل بقيت جواره تتأمله، توقن أن ذلك الحاجز بين قلبه وحبها..

امرأة أخرى..

شبحها يطوف حول قلبه، ويحوم بكيان شفاف غير مرئي متحكمًا في المسافة القصيرة التي تفصلها عنه..

ركنًا خفيًا هناك احتلته بالقوة..

قوة العشق، ولم ينل حريته منها بعد!..

"سرحانة في إيه!"..

انتزعها من لجة أفكارها التي لم يتخللها اليأس للآن فابتسمت وقررت النبش عن ذلك الركن بنفسها.. ثم المحاربة لتصبح هي مالكته:

- كنت بتحبها!..

أضفت على سؤالها صيغة الأمس بعمد، تغضن جبينه بحيرة:

- هي مين!..

أغضبها التفافه حول الجواب، ولم تكن تعلم أنه رجل لا يناور!..

- ملك..

دهشته التي سيطرت على وجهه ونظرته كانت حقيقية، لم تتصدق عليه بفرصة ليهرب:

- عينيك واضحة قوي يا ياسين.. قلت لك قبل كده إنك عاطفي، مشاعرك مرسومة على ملامحك..

أباح لعينيه الفرار من تفحصها، ولنفسه حرية إفشاء سر القلب:

- بس هي ما شافتهاش..

- عشان غبية..

هتفت بها في رعونة تفضح إثم الفؤاد، تجبره على العودة للقاء عينيها..

تأملها..

أباح لبصره الغوص في سواد مقلتيها القاتم بوهج ساحر كمحيط أسفل ضوء القمر، لم تهرب من ذلك اللقاء، بل تحدته.. أرادته وحصلت عليه:

- تفتكري!.. ولا أنا اللي كنت غبي لأني من البداية وأنا عارف هي شايفاني إزاي!..

أوجعها قلبها ونهشها وحش الغيرة للحظة:

- المشاعر مش بقفل ومفتاح يا ياسين..

تاه في الدُجنة ما بين جفنيها وهي تردف بنبرة ناعمة أسرت سمعه:

- مش هتقدر تتحكم فيها وتديها للي أنت عاوزه، دي مش هدية..

وأخيرًا غضت الطرف عن لقياه:

- المشاعر بتتخطف.. بتتسرق منك غصب عنك، صعب قوي تقدر تدافع عن نفسك في حربك مع اللي سرقها..

كانت تتحدث عن نفسها وعنه.. عن ماضٍ يجبره على البقاء فيه جذر صداقة متين، وحاضر تحاول جذبه إليه:

- ليه ما واجهتهاش بمشاعرك دي زمان؟!..

السؤال منها فيه الفضول.. فيه حمية جاهلية منح العشق صكها لقلبها:

- كنت هاخسر نقاء صداقتنا.. من أول لحظة قلبي دق فيها وأنا عارف هي شايفاني في أي خانة، خانة الأخ والصديق.. خانة لو كنت تعديتها كنت هاكسر حاجة بيننا واللي بيتكسر ما بيتصلحش.. هتفضل شروخه ظاهرة تشوه جماله..

أغضبها حزنه، شجن نبرته ووجهه السابح في ملكوت امرأة غيرها:

- فاخترت السكوت!.. ده جبن..

رمقها بصدمة مستنكرة وهي تردف بغيظ لم تستطع كبته:

- لو بتحب حد لازم تحارب عشانه، تسرقه زي ما سرق مشاعرك.. تخطفه من بق الأسد..

كانت تعني أنها لن تتركه..

وهو فهم..

فهم واحتار ونبض خافقه.. فابتسم!..

وهي في ثوان قررت وبحركة أنثوية بحتة.. أن تلوذ بالفرار..

***

فات عام..

عام منذ رأي أن في امتلاكها اكتماله ورأت فيه سدًا منيعًا أمام طموحها ونجاحها..

منذ صرح بالعشق وأنكرته..

منذ اختارت الرفض وقرر البعد..

وسبعة أشهر في عمله الجديد الذي وجد حاله فيه..

لم ينسَ بعد كيف هي عيناها، ابتسامتها.. حدة نبرتها ونعومتها، ضحكتها الشقية والخجل الذي كان يهديه بحمرة ساحرة لوجنتيها!..

لم ينسَ لكنه يتعايش..

ويرى أنه يستطيع المرور من ثقب العشق الضيق الذي حبسه في ذكراها..

فرك جبينه بإرهاق وصداع يشج رأسه أثناء عودته من العمل..

لولا أن تعطلت سيارة أخته وكان في طريقه للمنزل لأخبرها أن تطلب أحد سائقي الشركة ليوصلها..

توقف بها أمام النادي ليجدها تتجه إليه بصحبة ابنتي العم.. العبوس والوردية!..

جاورته بابتسامة وربته على ذراعه:

- ما نجيلكش في أعطال وحشة يا مارو.. شكرا يعني..

تجاهل مزحتها وتحرك بهن في صمت، صمت قطعته "سما" وهي تمد يدها بكوب قهوة كبير من أحد المحال الشهيرة إليه:

- جبت لك قهوة لما ملك قالت إنك مصدع.. كاراميل مكياتو، صح!..

أهداها نظرة مندهشة في المرآة و"ملك" تتناولها منها:

- صح!..

كيف عرفت ما يفضله!..

بل ولمَ تهتم حتى وإن كان بقلبها ما يخصه!..

بعد آخر مرة حادثته أخته عنها واتهمته بالاستغلال والخداع؛ تباعد..

تباعد حتى أنها ذات لحظة في تجمع العائلة سألته بأسف حزين:

- مروان أنت زعلان مني!..

يومها لم يجد ردًا فادعى عدم الفهم وأقنعها أن ما تفكر به هو وهم بحت..

واليوم تعلم عنه تفصيلًا صغيرًا للغاية.. بل وتهتم بألم رأسه!..

وقتها ابتسم والتفت لها بوجهه حين توقف السيارة بأحد الإشارات:

- شكرا يا سما على القهوة.. كنت محتاجها..

عندما تركها وتوأمتها عند البيت؛ دعتاه هو وأخته للدخول فأبى:

- مرة تانية بقى، أنا تقريبا بانام وأنا سايق..

شهقت الوردية واقتربت من نافذته:

- لأ.. لازم تدخلوا بجد، ارتاح شوية واتغدى بعدين آسريوصلكم..

وشقيقتها تكاد تخنقها والمجاورة له ترفع حاجبيها في دهشة حانقة، بترهو كل اعتراض:

- هاخلي ملك تكمل، قولي له بس ما ينساش ميعاد بكرة..

أومأت بإيجاب تتابع رحيله بعين حالمة.. أفاقتها "صبا" من حلمها بضغطة على ذراعها:

- مابقاش في كلام أقوله.. بس صدقيني هتندمي يا سما..

تجاهلتها وهي تتبعها للمنزل..

فلن تترك لواقعية الشقيقة العابسة الجادة تشويه تلك البسمة التي أهداها لها..

أهداها لها وحدها!..

في اليوم التالي كان بمنزلهم..

يوم أجازته، لقاء مع أخويها انتهى للأكبر برحيل مفاجئ بعد استدعاء عاجل من المشفى، وظل هو وتوأمها بغرفته بالطابق العلوي في اجتماع قمة ذكوري على..

لعب البلاي ستيشن!..

إدمان الرجال في كل زمان ومكان..

قرب انتهاء اليوم نادت شقيقها تعلمه باستعدادها للذهاب، اصطحب ابن العم وانتظراها في الأسفل:

- هي سما رايحة فين!..

- فرح واحدة صاحبتها..

هز "مروان" رأسه في فهم صامت..

صامت لأنها كانت هناك، أعلى الدرج!..

لا.. بل تهبطه في بطء أنيق بدا متعثرًا نوعًا بسبب كعب حذائها العالي..

كانت هناك في طلة لم يرها عليها من قبل، بثوب عسلي يجمل صدره قصة فرعونية راقية.. يطوق جسدها في ضمة لطيفة وينسدل عنه باتساع

رقيق، وقماش هفهاف يتطاير حول ركض خطواتها.. واختتمت الصورة بوشاح يماثله لونًا يحيط بوجهها الناعم..

تأملها بحاجبين معقودين كأنه ولأول مرة يراها.. أنثى!..

أنثى أحنقه وردية شفتيها والخط الأسود الذي رسم عينيها بفتنة والحمرة التي زينت وجنتيها..

وصلت إليهما بعدما طمأنتها والدتها بأمومة أنها تبدو كأميرات الفراعنة تمامًا مثلما أرادت.. تعجلت أخيها هاربة من النظرة التي تعتلي وجه ابن العم:

- آسر اتأخرت جدا.. لمى مش هترحمني..

وجدته يدغدها بشقاوة عابثة:

- إيه الحلاوة دي يا برينسيس!..

ضحكت وابتعدت عن مرمى أصابعه قبل أن يقطع لحظة المرح الصوت الجاف:

- هي لوحة دافنشي دي مش أوفر شوية!..

التفت الاثنان إليه.. ابن العم بدهشة وتوأمته بصدمة حائرة أزالها بإشارة من سبابته لوجهها فتراجعت نحو مرآة كبيرة بتوتر:

- الميك أب أوفر بجد!..

رمقه "آسر" بحذر مستغرب!..

منذ متى يهتم!..

- شويتين..

تطلعت إليه في المرآة من وراء ظهرها، تتأمل الخط الطفيف حول عينيها، واللمسة الهادئة بوردية فوق شفتيها ووجنتيها:

- خلاص هامسحه..

تدخل أخيها بضيق يؤنب ابن عمه بنظرة:

- خففيه بس شوية يا سما ويلا بقى الماتش فاضل عليه ساعة..

عقد "مروان" ذراعيه بمواجهة صدره متجاهلًا الغاضب بجواره، متفحصًا ثوبها:

- والفستان كمان ضيق..

استدارت إليه بدهشة مجددًا..

أيغار!..

- بس ده فستان bridesmaids.. ما ينفعش يتغير!..

تمتمت بها محبطة.. وهو لم يعفِها من خجلها والدافع عينيه، بل ظل يراقبها دون وعي:

- شال!..

- فكرة.. نشتري واحد في طريقنا..

وتدخل الساخط عليهما معًا:

- يا بنتي يلا..

دفعه "مروان" بكتفه بينما يهز رأسه في امتعاض:

- روح يا بني استنى الماتش بتاعك.. أنا هاوصلها..

وسقط قلبها بهواه مرة ومرة..

الأمل..

الأمل الذي تمسكت به يومًا بعد يوم.. يتحقق!..

هو تضايق من زينتها الخفيفة، أغضبه ضيق ثوبها وإن كان الوشاح يغطي شيئًا منه.. وفي النهاية اختار أن يكون معها..

لحظات مسروقة، مختلسة لا تظللها شرعية عشق لكنها تكفيها..

ترويها!..

عندما أصر أن يشتري الوشاح بنفسه لأنها لن تدخل لمكان به بشر بهذا الثوب قفز قلبها وحلق فوق رأسه ثم ارتمى بين كفيه يعلنه ملكه ومليكه..

في السيارة أمام الفندق المقام فيه الزفاف:

- هاروح مشوار وأعدي عليكِ أرجعك.. أوك!..

ابتسمت بحياء جذب بصره:

- أوك..

حينما غادرته تابع رحيلها لثوان بفكر شارد..

فاليوم.. الليلة..

يراها كما لم يرها من قبل!..

***

العشق أكذوبة لم يتقنها فكانت الهزيمة من نصيبه..

عام مضى..

عام طويل دونها.. عام كانت تصله أخبارها فيه صدفة فيتأكد أنها لم ترحل عن قلبه بعد وإن رحلت عن حياته وبيته!..

عام في نهايته وجد والده يحدثه بجدية عن خسارة تكبدتها مجموعة شركات "غالي" خلاله بسبب الطلاق وفض الشراكة بينهم وبين "الحسيني"..

خسارة وجد لها وسيلة تعويض مضمونة، سريعة ووحيدة!..

زواج..

زواج آخر.. اقترح الأب الفكرة، والعروس وكاد يحدد موعد الزفاف لكنه.. رفض..

ببساطة رفض، هو تزوج لأنه أحبها.. أرادها، ومادامت هي لم تعد له بات لا يبالي بغيرها!..

مشادة كبيرة حدثت بينه وبين أبيه.. عناد وممانعات، نقاشات ومداولات انتهت بقبوله المبدئي، وخطة قرر بها إنهاء الأمر بسلاسة مع.. "العروس"..

"رولا عز الدين دويدار"..

ابنة "عز الدين دويدار" قطب عالم المال والأعمال، وأرملة "مهاب الخولي".. قطب آخر لكنه في دنيا السياسة..

ومقابلة أو شر لابد منه في مطعمٍ راقٍ، ووجبة غذاء اختارتها خفيفة..

كانت غانية صهباء استغنت بجمالها عن مستحضرات التجميل، اكتفت منها بلمسة لثغرها المكتنز بإغواء وحسب!..

جسد مثالي منحوت بعناية فنان احترف نحت تحفته..

وبذلة كلاسيكية أنيقة سوداء تناقضت بعنف جذاب مع عاجية بشرتها..

مط شفتيه ينفض أفكاره الذكورية بعيدًا عنها عندما لمح لمعة انتصار مرت خاطفة بعينيها كأنما كانت موقنة من تأثيرها عليه:

- أرملة في السن ده!..

ابتسمت تلوك طعامها بأناقة، مسحت فمها بلمسة سريعة وأجابته:

- مهاب كان أكبر مني بعشر سنين.. برده مش سن موت، بس..

وهزت كتفيها بمعنى أن ذاك قدره، وهو قرر طرق الحديد حال سخونته..

تهكم بنبرة لاذعة:

- بس.. مات من القهر!..

انطفأت ابتسامتها فتأكد من فوزه:

- حادثة عربية..

تغضن جبينه دون اعتذار، فظاظته هي مفتاح فوزه ولن يتخلى عنه..

استلمت هي دفة الحديث تديرها نحوه:

- أنت كمان كنت متجوز..

هز كتفيه بيسر قدر الجواب المقتضب:

- أيوة..

طلبت من النادل قدح قهوة دون سكر، استغرب مزاجها القاتم المُرلحظة وتجاهله في التالية:

- كنت بتحبها!..

- لسه بحبها..

مالت بوجهها قليلًا.. التوى ثغرها المغري ببسمة ساخرة وندَّ عنها صوتًا متفكهًا، كأنه تشدق بدعابة لا عشقًا:

- ولما بتحبها طلقتها ليه؟!..

زفر بضيق..

لو كان بيده لما حررها.. لكنها أبت إلا أن تكسر قيد العشق بينهما:

- هي اللي طلبت..

استرخت بمقعدها تتجاهل ضيق ملامحه:

- مش المفروض ترفض وتصمم إنها تفضل مراتك!..

انحنى طرف شفتيه ببسمة لامستها مرارة:

- رفضت.. بس هي صممت..

- ليه!..

- عشان عرفت إني..

وارتكن للطاولة بينهما يضيق المسافة بين أعينهما في تحدٍ:

- إني Bisexual..

أُخذت للحظة..

بجرأته حد الوقاحة وصراحته حد القسوة واللامبالاة..

اعتدلت في جلستها تتأمله..

وجه ذكوري جذاب، لحية نامية منمقة، خصلات ناعمة مصففة بعناية، عينين لامعتين بذكاء وفظاظة تراها منذ الدقيقة الأولى.. وجسد مثير داراه خلف هيئة غير رسمية، قميص قطني قصير الأكمام يبرز صلابة صدره وذراعيه وسروال من الجينز الباهت..

صمتها طال لدقيقتين باغتته إثرهما بنبرتها الهادئة:

- بيعجبني الراجل الصريح..

اقتنصت منه دهشة بل صدمة جعلت ابتسامتها تتسع:

- إيه!.. كنت متوقع إني أرفض؟..

لم يجبها.. حافظ على جموده حد البرود وهو في حالة من عدم الاستيعاب أو التصديق:

- على فكرة.. أنا شايفاها حرية شخصية..

وهزت كتفيها هزة طفيفة:

- أنت حر ما لم تضر..

لم يصدق أنها تقتنع بما تهذي به، بما تلقيه على مسامعه لأجل صفقة لا يريدها فهاجم بحدة لم تخرج نبرته عن خفوتها:

- يعني عادي يبقى لي علاقة مع واحد صاحبي؟!..

سيطرت على عينيه بنظرة قوية وهي تقترب بوجهها منه:

- ماتسميهاش علاقة..

تأمل شفتيها وهما تتكوران بحركة آخاذة جذبت بصره، في حديث يذهله:

- تقدر تقول وقت لطيف لما أكون أنا مش معاك..

سكن بوجوم..

يتأملها كأنه يراها ولا يراها.. وهي لم تترك له فرصة التفكير أو الابتعاد بعقله:

- سكت يعني؟..

هز رأسه باستفاقة وازت رفع حاجبيه:

- يمكن عشان أنتِ غريبة!..

ابتسمت بدلال بينما تجذب خصلة من شعرها المرفوع بأناقة:

- غريبة دي؛ حاجة وحشة ولا كويسة!..

- مش عارف..

رد بشرود أخرجته منه باستقامة، اقتراب من مجلسه.. وربتة على كفه المضمومة فوق الطاولة:

- طيب فكر فيها وقولي لما نتقابل المرة اللي جاية..

واستدارت لترحل..

نصف استدارة لم تكتمل عندما عادت إليه بسؤال هامس:

- You are clean, right!..

دهشة جديدة تضيفها لسجلها لديه:

- أكيد..

- يبقى هنتقابل تاني..

ورحلت لكن كعاصفة..

عاصفة صامتة، حولت ركوده لفوضى، وتركت بعقله بصمة تليق بعنفوانها!..

***

كان يرى أن النضج لا يعني زيادة العمر بالضرورة..

فكم من أحمق عجوز، وحكيم شاب!..

وعاشق أصابته لوثة العشق بجنون ثم حوله ذات العشق لرجل يحمل قلبه على كفيه في مخاطرة أجاد احتراف قوانينها التي استنها بنفسه..

أخيه وابنة خالته وقصة لا تنتهي..

قصة يتابعها بشغف غريب، ليس لأن سعادتهما تهمه وحسب، ولكن لأنها أول قصة حب يراها تولد أمام عينيه..

حب.. لا يؤمن به، ولا يقتنع أنه أهم من الحياة نفسها كما يرى أهل الهوى وذويه!..

تحرك بهمة حول مبنى كليته، هذا آخر عام..

وبعده البداية الحقيقية.. العمل الجاد!..

تعثر فجأة وكاد يسقط لولا أن استند بكفه على جدار يجاوره.. اعتدل ينظر لسبب تعثره ووجدها تعتدل بسرعة وتنهض باعتذار:

- آسفة جدا..

عندما رأته تجمدت لحظة لم ينتبه لها هو:

- ولا يهمك.. بس..

وكان سيمزح، يغازل العين الزرقاء والشفاه المتوردة بطبيعية ثم يداعب وربما ما هو أكثر.. لكن الأمر اقتصر على نظرة مشدوهة ولهجة مستنكرة:

- تيا!!..

عضت شفتها بارتباك:

- إزيك يا آسر..

تغاضى عن الموقف يتأملها بحيرة:

- إممم.. الحمد لله، أنا تقريبا ما عرفتكيش!..

تخللت خصلاتها السوداء القصيرة بأصابعها وابتسامة متوترة:

- تغيير..

غمز بعبث:

- تغيير تحفة..

واقترب خطوة مشاغبة، ناسيًا أو متناسيًا آخر لقاء بينهما:

- عاملة إيه وفينك من زمان!..

- الحمد لله..

ردت على شطر سؤاله الأول وتركت بقيته، انحنت تلتقط كتبها الملقاة أرضًا بينما كانت تتمدد في ظل المبنى لمراجعة إحدى محاضراتها:

- هامشي بقى، عن إذنك..

وجد نفسه يمسك بمعصمها يوقف رحليها:

- استني بس..

انتفضت..

انتفضت بعنف أثار توتره فتشددت يده حول معصمها بعفوية وكفه تمتد لتطمئنها بربتة فوق يدها:

- في إيه يا بنتي!.. أنا بس عاوز أرغي معاك، لو محتاجة حاجة في الكلية..

وداعبها بمرحه المعتاد:

- إلحقيني عشان دي آخر سنة مش هتشوفيني بعدها..

حاولت سحب يدها بقوة والكتب تسقط منها ثانية:

- لا.. شكرا يا آسر، أنا لازم أمشي..

كان على وشك أن يحررها..

يتركها فهو لا يقصد التطفل وبالتأكيد لا يتحرش بها أو يفرض عليها وجوده..

كان يوشك لكنه لم يفعل وبصره يسقط بغتة على ذلك الأثر غير المنتظم بباطن رسغها المسجون بين أصابعه..

أثرًا انعقد له حاجبيه في فهم وعيناه تلتقيان بعينيها:

- تاليا!..

هل يسأل!..

يفتش عن عرض توضيحي!.. عن سبب!..

انتزعت يدها منه عنوة بنبرة محتدة:

- آسر من فضلك..

وهو بتهور لم يعهده من نفسه عاد يشدها، يمسكها بقبضة مسيطرة ويميل ليجذب الثانية مزيحًا الكم الطويل بإبهامه بحثًا عما يظنه قد وجده..

هل حاولت الانتحار!..

انتزعت يدها من تحكمه مرة وأخرى وهو أطبق عليهما يواجهها باستفهام مصدوم أثار جنونها:

- تاليا أنتِ.. هو اللي أنا فهمته صح!..

جذبة أخيرة حررتها منه فانكبت تجمع كتبها وتكرر:

- أنا لازم أمشي..

لملمها معها واحتفظ بها بيديه:

- أنا عاوز أفهم!..

- بأي حق!..

ألجمته بصرختها المحتدة فتلفت حوله للحظة:

- اهدي بس.. بحق الصداقة!..

يبرر بما تراه صفاقة!.. تأملته باستنكار ثم قهقهت عاليًا بسخرية:

- صداقة!.. بجد؟!.. أنت مصدق إن كان في بيننا صداقة!..

مدت يدها تستعيد الكتب فأبعدها عن متناولها:

- بحق الانسانية يا تاليا.. كويس كده!..

هستيريا ضحك أصابتها وهو يراقبها بحذر:

- انسانية إيه يا آسر؟!.. دي كانت مجرد بوسة جوا عربية في ضلمة جراج..

ضم قبضته يكبت غضبه، واختار الهجوم علَّ الدفاع يخبره عما حدث:

- أنت حاولتِ تنتحري؟!..

سحبت كتبها منه بحركة عنيفة أوشكت أن تمزقها:

- ما تدخلش في اللي ما يهمكش..

تركها لها وهو يتطلع لاحتقان وجهها:

- يهمني طبعا.. أنت ممكن تكوني محتاجة علاج نفسي..

تصلب جسدها ترمقه بصدمة.. تطحن أسنانها دون حذرفكادت تحطمها، واقتربت تدمدم بهياج مكبوت:

- علاج!.. لا ما تقلقش، أنا باتعالج بقى لي عشر شهور تقريبا.. عاوز تعرف باتعالج ليه!..

ألقت الكتب وشمرت عن ساعديها تقلبهما أمام عينيه:

- عشان حاولت أنتحر زي ما فهمت من أثر الجرح.. عاوز تعرف حاولت ليه!..

تأمل ملامحها التي شحبت فجأة.. أنصت لصوتها الذي قارب الهمس ودموعها التي هطلت بسخاء أربكه:

- عشان أنا عاهرة.. عشان زي ما بتقولوا كده..

وضربت صدرها بقبضة عنيفة مرة وتالية:

- بنت حرام، غلطة ما تستحقش الحياة..

وأسقطت المعبد فوق رأسها..

ورأسه!..

***

هناك أمور تحدث في لحظة..

كوارث، انفجارات.. وموت!..

عندما تظن أنك استطعت النجاة..

كسرت حاجز الألم وتخطيته ببسالة..

يعود الماضي ليلقي بك وسط كابوس نسيت رعبه منذ زمن!..

وكابوسها كان خبرًا غير مستتر، بل مصرح به في فجاجة مقيتة..

"تمت بالأمس خطبة رجل الأعمال الشاب نزار غالي على سيدة الأعمال المرموقة رولا دويدار في حفل ضخم بفندق.... ضم الحفل نخبة من رجال الأعمال والسياسين و...."

لم تلتقط عيناها ما تبقى من كلمات..

فقد سقطت في عتمة مخاوفها التي صدقت للحظة..

للحظة واحدة وحسب؛ أنها اقتنصت منها بداية حياة!..

(٢٤)

إلى امرأة أُجبرت على الصمت قهرًا..

ورجل رأى في صمتها نجاته..

إلى معشوقة تجاهلت عشقًا..

ورجل أهداها نبض قلبه..

إلى أنثى بوحها كان نزفًا..

ورجل نزفها بات قيده!..

قالوا أن الألم يهذب الروح..

سرد عظيم مختصر لأقصوصة أتت نهايتها أسرع من المتوقع!..

الألم دروسه قاسية، تترك ندوبها في الذاكرة والقلب وتسيطر على العقل بمخالب الفكر المتعب..

دروس لا تحرر الانسان إلا وقد تعلمها.. بعدها تطلقه على أرض الواقع بجفافها وجمودها؛ فإما يمارس خبرة أوجاعه وينجو، أو ينكسر فتندهس أشلاؤه تحت عجلة استمرار الحياة دون التفاتة واحدة..

الألم الحقيقي لا تنثره حروف في حدوتة يسرق بها أذني مستمع مهتم..

الألم الحقيقي مكبوت لا تناسبه الحكايا..

بل صمت.. صمت تام واجم تخللته شهقات خافتة ودموع بعدما عادت لجلستها على الأرض، تضم ركبتيها لصدرها وتدفن رأسها بينهما وهو يجاورها.. بتقديس ساكن لنحيبها وأنينها..

صمت طال ونحيب يخفت في كل ثانية حتى امتد الوقت لنصف ساعة وزاد..

بعدها بسط يده لها بمحرمة ورقية وهمس يخشى كسر السكون الذي حلَّ عليهما:

- بطلي عياط..

رفعت وجهها أخيرًا ترمقه من خلف غلالة الدموع التي كونت طبقة لامعة بين جفنيها، تناولت المحرمة وجففت وجنتيها بهمس مماثل:

- ليه بتدخل يا آسر!.. ليه بتهتم!..

تنهد في غياب نحو اللا شيء..

هو لا يعلم لمَ!.. فقط شعوره أوجب عليه أن يفعل، غاضًا الطرف عن أي دوافع تبرر حصاره وتسلط أسئلته..

اعتدل يواجهها عاقدًا ساقيه في جلسة مستريحة ومستندًا إليهما بمرفقيه:

- مش مهم أسباب يا تيا.. المهم إني موجود، وعندي استعداد أسمع..

توسعت عيناها بانشداه والعبرة تجف فيهما..

هل يظنها ستخبره عن تفاصيل عهرها!..

عن فوضى ألقت بها على سطح الأرض حينما كان ينبغي أن تدفن مع جثمان أمها!..

رددت كلمته بتمتمة حائرة:

- تسمع!..

أومأ بإيجاب مسيطر ونظرته تنبئها أنها ستستجيب:

- كل اللي ممكن تحكيه..

حركت جسدها برفض..

كلا.. لا يملك أي حق، وفضوله مزعج لا يستلزم إشباعًا.. لملمت كتبها بتعثر وحاولت النهوض لكنه ثبتها بيده.. ثبتها دون أن يحررها وقلب معصمها يلامس بإبهامه ندبة تركها الموت على جسدها ليذكرها بزيارتها لعالمه:

- الهروب مش حل..

- وكلامي معاك مش حل!..

مط شفتيه ببديهية:

- الفضفضة بتريح، ولو في مشكلة أنا ممكن أساعد على فكرة..

- آسر من فضلك..

بتر اعتراضها بجدية تراها على وجهه للمرة الأولى، بل تجهل كونه قادرًا عليها:

- تاليا.. أنا مش فضولي، أنا مهتم وفي فرق.. عاوز أعرف ليه وإزاي ومعناه إيه الكلام اللي قلتيه ده كله!..

وربت على كفها المستكينة بيديه:

- اعتبريني صديق.. وكلنا بنفضفض مع أصحابنا لما بنحتاج..

- بس إحنا مش أصحاب، والموقف اللي حصل...

- نسيته!..

ناظرته بدهشة فهو يقصم كل اعتراضاتها وبإصرار حازم يربكها.. هي كانت تجيد التعامل مع العابث بشخصيته، لكن الآخر الذي يواجهها الآن.. لا تعلم!..

ربما يخيفها!..

ضغط يدها برفق مطمئن:

- اتكلمي..

في لحظة تاهت بنظرته..

في لحظة خاطفة عندما تدرك أنك خسرت الكثيرولم يتبقَ هناك من مزيد تفقد الأمل، تترك نزف جروحك يغادرها بلا ضمادة.. تسلم نفسك للتيار يسحبك حيث شاء..

تخضع للنهاية مهما خشيتها أوهربت منها..

تراجعت تستند بظهرها لجدار المبني خلفها، تريح رأسها للوراء وتغمض عينيها باعتصارقوي كأنما تمنع سيل عبراتها من التدافع مرة ثانية..

وهمست..

نبرتها خرجت هامسة بقصة لا ينبغي لها أن تُحكى..

قصة البداية..

بداية نطفة انزرعت برحم متمرد جامح فقد حياته في لحظة اندفاع..

بداية جنين خرج للحياة من جسد فاقد لها..

بداية طفلة، مراهقة..

فتاة عاشت مدللة تغترف من رغد العيش حتى أفاقت على حقيقتها دفعة واحدة..

وعناد.. خوف وهروب فتح عليها باب الجحيم ولم يغلقه بعد..

جحيمًا خسرت في حربها معه الكثير، برائتها.. حنان أمها وأمان أبيها.. وكادت تفقد حياتها لولا رأفة القدر الذي منحها فرصة أخيرة تكفر بها عن أخطائها!..

فرصة تطهر فيها نفسها من دنس آثامها..

انتهت.. بعد أكثر من نصف ساعة أخرى انتهت..

وجهه أمام عينيها كان بلا تعبير.. ملامحه الوسيمة صلبة وبصره سارح في ملكوت غامض جعلها تهمس بانكسار تقاوم دموعها بعجز:

- احتقرتني!..

همستها أجفلته.. اعتدل يزفر بحدة كأنما كان يحبس أنفاسه، خلل خصلاته بأصابعه في حركة حادة خاطفة بحثًا عن كلمات تليق بالموقف..

كادت تقف بهروب جديد منعه بذات القبضة وإن باتت أكثر غلظة تعيدها حيث كانت:

- من فضلك يا آسر، سيبني أمشي..

نبرته أتتها فظة عنيفة لم تفهمها:

- ليه!.. هتكرري المحاولة تاني يمكن تنجحي المرة دي؟!..

شهقت بصدمة.. وهو لم يتوانَ عن مزيد:

- وبالطريقة دي كل الغلطات اللي حكيتها تتصلح والحدوتة تنتهي!..

- آسر.. أنت.. أنا..

واجه عينيها بحسم ونظرة أخافتها..

نظرة غاضبة، لا.. بل هائجة لم ينل منها عبثه الذي تألفه:

- أنتِ جبانة.. أجبن واحدة شفتها في حياتي..

ولم تهدأ حدة النبرة أو ترق عيناه للذعر الموسومة به ملامحها، لم يشفق على روحها المنهكة أو تأخذه رحمة بالعار الموصوم به صوتها:

- كل مشكلة أنتِ اللي عملتيها، وبدل ما تدوري لها على حل بتفتحي الباب لمشكلة تانية أكبر..

لم يحرر أصابعها التي اعتصرها بقبضته، لم يهبها فرصة فرار تتمناها من شيطان تراقص بمقلتيه:

- كنتِ عايشة في حضن أب وأم كتير يحلموا يبقوا في حضنهم، اتهمتِ والدتك وأهنتِ والدك..

ثم جذبها يهدر بوجهها بعنفٍ قاسٍ:

- عيشتِ دور المتمردة اللي من حقها تطيح في الكل..

وعقد حاجبيه بسخط بالغ لا تدري له سببًا:

- وحتى لما غلطتِ وسلمتِ نفسك لراجل غريب عنك؛ ما اديتيش لوالدك الفرصة إنه يعاقبك..

كانت مرتعبة واجمة تنظر في عينيه المستعرتين بهلع لم يوقفه بينما يردد:

- عقاب بسيط جدا، مجرد هجر.. خصام!.. حتى ده منعتيه حقه فيه بهروب لطيف قوي أنتِ أستاذة فيه..

حاولت جذب يدها من كلابة يده التي تسيطر عليها ولم تفلح فصرخت فيه:

- أنت بتتكلم معايا كده إزاي!.. مش من حقك، مش...

- وقت ما قررتِ تحكي؛ بقى كل كلمة أقولها واجب عليكِ تسمعيها.. وتفهميها يا تاليا..

هدره صار قويًا كشلال فوق منحدر عميق بلا نهاية..

ستبكي..

ثانية ستبكي..

حتى وإن كان على حق فقسوة كلماته ذبحتها.. تمتمت بأنين خافت ومحاولاتها التخلص من تسلطه لا تتوقف:

- أنا لما حاولت أنتحر ما كنتش بامنعه يعاقبني، كنت عاوزة أموت بجد..

رفعت عينيها إليه تتوسله التصديق:

- كنت محتاجة حضنه لأني كنت خايفة.. مرعوبة من كل حاجة وعارفة إن غلطتي كبيرة ما ينفعش تتصلح ومالهاش أسف ولا بعدها ندم..

وارتعشت ليضيق نظرته حولها:

- ما كنتش بضغط عليه، يمكن كنت برده باهرب.. بس كنت باهرب بجد..

- ودي المشكلة..

تأملته بحيرة وهي تحبس نشيجها حتى آلمها حلقها:

- أنتِ ما بتحاوليش تواجهي وتصلحي الغلط؛ بتهربي.. وبأغبى طريقة ممكنة..

أخيرًا حرر يدها وتراجع قليلًا بنبرة شابها شيء من هدوء:

- والدك كان محتاج العقاب ده.. كان محتاج يقسى عليكِ، حتى لو هما غلطوا من البداية فأنتِ حرمتيه من أبوته ليكِ في لحظة عناد وبعدها...

لم يجد تعبيرًا مناسبًا لا يخرج عن سياق أدب الحوار فمرر الأمر:

- بعدها رجعتيه ليكِ بقرار إعدام.. استغليتِ حبه وخوفه..

واحتجزها بأغلال عينيه الداكنتين في نظرة مبهمة:

- ونجحتِ.. ببساطة نجحتِ..

كان يلوم، يوبخ..

أو ربما يكشف مستور نفسها في مواجهتها بكل قبحه ومرارته..

لم تلمح بنظرته تعاطفًا ولم يلامس لهجته رفقًا:

- تفتكر كان سهل عليَّ أكتشف إني مش بنتهم.. إني بنت أخته من علاقة غير شرعية وأكمل حياتي عادي!..

وأعادت جسدها لوضعيته السابقة:

- تفتكر إن ماكانش من حقي أعرف حقيقتي!.. إني حتى مش مصرية أو مسلمة زي ما كنت فاكرة!..

حدق فيها بذهول وحديثها يؤجج غضبه مرة ثانية:

- أنتِ يا بنتي متخلفة ولا مجنونة!..

اعتدلت تتراجع برعدة ليوقف تراجعها بإشارة من يده مستهجنًا خوفها منه:

- هو الوطن والدين بيتورثوا في الجينات!..

زعقت به تخرج أثقال نفسها التي فاقت قدرتها على احتمالها:

- أنت ليه ما بتحاولش تفهم!.. مش سهل تلاقي في لحظة إن حياتك كلها كدبة.. لا باباك هو باباك ولا مامتك هي مامتك، أنت جاي من عالم تاني وجاي الدنيا دي غلط..

صمت لثوان في محاولة للتماسك، كان يود لو ضرب رأسها بالجدار علّها تفيق من هذيانها:

- ماحدش بيجي الدنيا غلط، وماحدش بيعيش وهو قدره يموت..

زم شفتيه بحزم:

- بس اللي بإيدنا نختاره.. إزاي نعيش!..

- وأنا باحاول..

كانت صيحة شبه عالية أجبرته على لمس شفتيها بأنامله:

- ممكن توطي صوتك شوية!..

أزاحت يده بعنف مستجيبة لأمره بتلقائية:

- أنا باحاول يا آسر.. باحاول أعيش وأتعايش وأقنع نفسي إن دي هي حياتي مش حياة مسروقة..

هز رأسه سعيًا لإفاقة نفسه من حماقة ما تنطق به:

- لا.. أنت فعلا متخلفة..

ونقر الأرض بسبابته في توكيد كأنما سيحفرها ويغرسها فيها:

- دي حياتك.. حياتك أنتِ، ما تتخليش عنها عشان شوية وساوس في دماغك لوحدك..

- باحاول أصدق..

- والله متخلفة..

- ما تشتمش..

- متخلفة وغبية كمان..

اعتدلت تستقيم بظهرها ونظرة طفولية موبخة:

- احترم نفسك..

ضحك فجأة فشعرت بتوجس..

هذا الفتى مجنون!..

- محترمها والله..

في الثانية التالية عادت دموعها تشوه المشهد دون أن تهزم حاجزًا وهميًا بنته بوهن لتسجنها ورائه..

تترقرق عالقة بأهدابها الطويلة في أسى..

صمت وتركها تفرغ شحنة الألم الذي حفزه بداخلها وإن كانت نيته طيبة فالطريق للجحيم مفروش بها وهو يعلم.. أباح لها البكاء أو كتمانه بصدرها إلى أن وجد أنفاسها تبدو أقرب للهاث..

هذه الفتاة مخبولة!..

دفعها بيده برفق:

- عاوزة تعيطي!..

كأنما سؤاله كان القشة التي هدت السد فانهمرت بفيض:

- لأ مش عاوزة..

- طيب بتعيطي ليه دلوقتِ!..

- غصب عني..

دموع الأنثى تظل سلاحها الأقوى في مواجهة الرجل.. أي رجل!..

حتى وإن كان ساخطًا حانقًا يود دق عنقها.. أو ضمها وطمأنتها، لم يملك سوى المشاكسة يهديها بها راحة:

- لو ما كناش في الجامعة كنت أخدتك في حضني..

همسه العابث وصلها ليثير حيرتها وجنونها..

رفعت إليه بصرها المصدوم من تقلب حاله في لحظات ثم زمت شفتيها وسبَّته:

- أنت قليل الأدب..

ضحك بلطف ورفع حاجبًا مشاغبًا:

- ماتخليش دماغك تروح بعيد.. حضن أخوي على فكرة..

نشجت وغصت بدموعها لتجده يمسحها بإبهامه ونبرته تتحول للين:

- تاليا.. الخلاصة، كلنا بنغلط.. غلط كبير غلط صغير، غلط يوجع اللي حوالينا ويأذيهم.. يسامحونا أو لأ..

داعب غرتها برقة كأنها طفلة حزينة يتمنى لو أمكنه منح قلبها البهجة:

- المهم نتعلم منه، ونعيش بعده.. مش هنصلحه لأنه فات وحصل خلاص.. بس هيبقى درس اتعلمناه وكملنا من وراه..

وأهداها ابتسامة أخيرة قبل أن ينتصب واقفًا ويمد يده إليها:

- درس مش هننساه، لكن كمان مش هنوقف حياتنا عليه!..

للحظة تأملته من جلستها.. تكتشف فيه ذلك الرجل الذي لم تعلم عن وجوده.. ولم تكن لتفكر حتى أنه هناك!..

نعم رجل..

لفظة فتى لا تناسب الواقف باسطًا يده نحوها؛ كأنما يهديها بوجوده دعامة تتوكأ عليها..

تعلقت بكفه فأطبق أصابعه حولها وجذبها لتنهض في مواجهته بسؤال خافت مستغرب:

- أنت مين!..

قهقه بمرحه الذي اعتادته.. بل وتحبه فيه:

- حنفي..

ابتسمت تتذكر أول لقاء بينهما بينما ينحني ليجمع كتبها ويناولها إياها:

- رقم موبايلي زي ما هو ما غيرتوش؛ لو عاوزة أي حاجة كلميني..

التقطتها منه بعين ممتنة ورجفة شفاه تبحث عن شكر..

شكر لدعم..

وشكر لصحوة كانت تنقصها!..

رجفة تفهمها فقرر رفع الحرج عنها بعبث هو أسهل في التعامل معه، عبث واقتراب وهمس ماكر:

- على فكرة.. أنا بموت في الشعر الأسود..

تركها مفغورة الفم بذهول..

قبل أن ينحني طرفاه في بسمة.. بسمة أمل!..

***

الألم صفعة تحفر أخاديدها بهاوية روحك التي سقطت من فوق سياجها الآمن بظن أحمق منك أنه يمكنك التحليق..

صفعة تخطتها.. آمنت أنها فعلت، عزمت على الحرب وسعت للنصر؛ ليباغتها الوجع بصفعة أخرى تزرع بكيانها قسوتها.. والفكرة الوحيدة المقبولة في الوقت الراهن..

أنتِ خاسرة..

استسلمي للسقوط فالعودة منه عبث!..

هو سيتزوج..

وضع خاتمه في إصبع امرأة فاتنة جاورته في صورة وبسمة ولمعة عين منتشية بغموض مر عليها في لحظة غباء..

هي لم تفهمه.. كل ما عرفته أن الخبر ضربها كبرق..

برق أفقدها اتزانها وتعقلها لتجد أنها في اليوم التالي بمكتبه في الشركة ومساعدته تعلمه بحضورها فيسمح لها بالدخول على الفور..

كأنما كان ينتظرها!..

نهض من مقعده يتأملها..

نحفت بعض الشيء!.. عيناها حزينتان وذاك الحزن يجبرك على الغوص فيه ومحاولة محوه لترسم السعادة عوضًا عنه.. لكنه لم يعد يمتلك ذلك الحق..

أحاطها بعينيه في قيد شعرت معه بالاختناق، تنفست بعسر بموازاة نحنحة متحشرجة، دار يقابلها حيث تيبست قدماها، يبحث عن كلمات.. سؤال، وميلادها فاق المستحيل فصمت يترقب ما ستنطق به..

"هتتجوز!"..

همست بخفوت ونبرة مبهمة لم يفهم منها أتريده أم تؤنبه!..

هز كتفيه ولوى جانب فمه جوار رفعة حاجبيه التي تشير لبديهية الأمر:

- الحياة ما بتقفش..

كادت تضحك بسخرية قدر المرارة التي حبست قلبها في شرنقة التيه والضياع..

حياتها هي توقفت..

توقفت على لحظة تعاد وتعاد كل ليلة في أحلامها فتبدلها لكوابيس لتستيقظ في كل مرة خوفًا أنها مازالت أسيرة قيده!..

- بس لو هترجعي لي؛ هالغي الجوازة من اللحظة دي..

رمقته بحيرة لثوان!..

تعود إليه!..

هل ظنها أتت لأنها ترغب في عودة!..

لم تملك من الأمر سوى الضحك..

ضحك مُر.. موجع.. شبه هيستيري وغير مبرر حتى زعق هو بضيق:

- الفكرة مضحكة للدرجة دي؟!..

وهي حاولت التماسك لكن ضحكاتها كانت تخونها لتهتف من بينها بأنفاس لاهثة:

- الحقيقة آه..

- ملك!..

لديه الجرأة لينهرها ويغضب منها!..

- أنت فاكرني عاوزة أرجع لك؟.. لسه بحبك ولما لقيتك هتتجوز جيت ألحقك لنفسي؟!..

غضبه ولد بلهجته بيِّنٌ مستعر:

- جاية ليه يا ملك!..

عقدت حاجبيها وغضبها يتأجج في عسل عينيها حارقًا كجحيم شياطينه تولول من ألم لهيبه:

- جاية أعرف خدعتها هي كمان ولا لأ؟!.. جاية أقولك إني مش هاسمح لك تكسر واحدة تانية بكذبك وغشك وتزييفك لحقيقتك.. ولو أنت ما قلت...

- قلت لها..

بتر حديثها بقصف مميت!.. لربما كان أسهل لو جذ عنقها وأعتقها من عناء أفكارها التي تكابدها صباحًا ومساءً:

- قلت لها!..

كررتها بشفاه ترتعد دون سبب واضح.. وهو عقد حاجبيه ورد بقسوة:

- أيوة قلت لها..

عندما قررت المجئ أقسمت أنه لن يرى دموعها.. لكنها تجهل هل تتساقط لتغرق وجهها بهذه اللحظة أمامه في هوان أم أنها تتوهم وحسب!..

- ليه!.. إشمعنى هي إديتها حق الاختيار وحرمتني أنا منه؟..

- عشان بحبك..

بصيغة حاضر لا يقبل تفاوض أو يسمح بجدال، وتحرك يدنو منها خطوة دون أن ترق نبرته:

- عشان بحبك ما قلتش الحقيقة الكاملة، خبيت منها الجزء اللي عارف إنك مش هتفهميه أو تسامحي فيه..

وخطوة تالية جعلتها تواجه نظرته الباردة الخالية من عشق صرح به للتو:

- عشان أناني وكل عاشق حقه يبقى أناني..

ثم هزأ بنصف ضحكة بترها بحنق:

- وكان عندي حق؛ أول ما عرفتِ كنتِ عاوزة تغيريني.. ولما التفصيل ما عجبكيش اخترتِ نفسك وسيبتيني، لا حاولتِ تقبلي عيوبي من وجهة نظرك ولا تصبري وتصلحيها بطريقة صح..

كانت ترمق شفتيه اللتين تتحركان بكلمات هي أقرب للهذيان باستنكار:

- أنت بجد مصدق نفسك؟!.. مقتنع باللي بتقوله وظبطت الغلط في حكايتنا على مقاسي وضميرك كده ارتاح!..

- انكري حاجة من اللي قلتها..

هزت رأسها بضعف.. بتعب وروح مرهقة تجاهد للخلاص.. للنجاة:

- أنا مش جاية عشان أدور على أسباب يا نزار..

شوقه لاسمه من بين شفتيها جعله يغفل عن كلماتها عداه.. تلك الراء التي تأكلها فيود لو التهمها هو..

نفض عن عقله أفكاره المضللة.. فقصتهما انتهت ومنذ عام:

- أنا جاية عشان تعرف إني مش هاسكت لو ناوي تخدع واحدة غيري، مش هاسكت وأسيبها تتعرض للي اتعرضت له..

الحمقاء!..

طوقها بنظرة سوداء رأت فيها عتمة لم ترها من قبل:

- لا تقدري تطمني يا ملك.. رولا عارفة وموافقة ومقتنعة كمان..

عقد ذراعيه في مواجهة صدره:

- حياتي مش هتقف عليكِ.. فما توقفيش حياتك أنتِ كمان عليَّ..

وتجولت عيناه فوق جسدها المستتر خلف ثوب فضفاض يعريها منه بنظرة وقحة أهانتها، كأنما يذكرها أنه هو من رسم خارطة أنوثتها بيديه:

- في واحد مستني إشارة منك، إوعي تكوني زهقتِ منه بعد طلاقنا!..

شهقتها العنيفة جعلته يدرك أنه أصاب الهدف..

هي أتت لتوجعه، فرد الصاع بالصاع.. والعين بالعين والبادي دومًا أظلم!..

تراجعت هاربة من المكان بخطوات متعثرة تنذر بسقوط..

سقوط لا يليه قيام!..

***

الألم ضربة عنيفة لا تُهاود.. ضربة إن لم تحتملها؛ كسرتك!..

الألم حرب لا هدنة فيها.. وإن لم تواجه؛ هزمتك!..

وبهذه اللحظة وهي تجلس بسيارتها تنتحب بخفوت وقبضتيها الواهنتين تضربان المقود بضعف رتيب.. كانت مكسورة، مهزومة..

هو استمر..

كما تختطف أحرف الكلمة الخمس في همسة..

كما تنطقها بيسر..

استمر!..

بحث عن غيرها حانثًا بعهد عشق ادعاه، دهسها في طريقه ولم يكترث لبقاياها.. بل يخبرها بصفاقة أن تحيا وتستمر.. وتنساه!..

هل تُنسى الجروح، وندوبها تراها العين في كل ساعة!..

هل يُنسى وجعًا لايزال ينهش النفس من أعماقها!..

وهل يُنسى الخداع وقد أفقدنا الثقة في الحياة!..

حاولت إدارة المحرك.. أصابعها لم تطاوعها، كانت هشة كأنها ستنكسر لو ضغطتها قليلًا، العبرات تغشي عينيها والصورة أمامها مشوشة باهتة معالمها مطموسة..

لم تستطع فبكت أكثر.. وفكرة يهديها لها عقلها لتنفذتها دون تأخير؛ التقطت هاتفها تطلب رقمه..

كان في طريقه لغرفة العمليات لإجراء جراحة يشارك فيها زميلته التي رأته يتوقف فجأة.. يجيب هاتفه بدهشة ولمحة بهجة تتسلل لوجهه:

- ملك..

بهجة انطفأت كما لو أنها لم تولد وقتما هتف بقلق:

- مالِك؟!.. ملك اهدي مش فاهم حاجة!.. طيب هاجيلك، بس فين!..

عندما أملته عنوان مكانها اعتصرت قلبه قبضة قاتلة..

هي ذهبت إليه..

ومتى!.. بعد خبر خطبته الذي أغرق وسائل التواصل الاجتماعي كأنما يكيدها به!..

خطواته تسارعت في ركض مشتت وهو يعود من حيث أتى وصديقته تناديه فيتجاهلها، غير ثيابه في ثوان وأخبرها حينما تبعته أن تختار طبيبًا آخر ليقوم بالعملية معها..

خلال دقيقتين كان يقود سيارته بسرعة لا يأبه بمخالفتها للقانون في طريقه إليها..

أمام المبنى الضخم في المنطقة الهادئة التي يغلب عليها بنايات الشركات عثر على سيارتها.. توقف خلفها وترجل منها بشبه قفز ليصبح عند نافذتها في لحظة..

ووجدها..

قلبه المتلهف الخائف المتألم وجدها..

وأخيرًا تنفس!..

"ملك"..

همس باسمها فرفعت رأسها من فوق مقودها لتنظر إليه بعينين محمرتين لامعتين ببقايا دموع جافة..

دار حول السيارة ليجاورها.. يناديها ولوعة روحه التي تهفو إليها تشتد..

كان ينوي الغضب، الصراخ وفقدان السيطرة لكن وجهها، ضعفها وذلك الانكسار بنظرتها أوقفه..

ماذا فعل بها ذلك الشيطان!..

"ممكن توديني لأكمل!"..

توسلته بنبرة خافتة استجمع حروفها بعسر ونظرته الحائرة بغموض تسألها عن هوية من همست باسمه.. لم تكن بها طاقة فأخرجت بطاقته من حقيبتها وناولته إياها لتصيبه دهشة هي للصدمة أقرب..

طبيب نفسي!..

زفر بحيرة ومسح وجهه بكفه قبل أن يأمرها دافنًا فضوله بصدره:

- انزلي..

وانتزع المفتاح من ثقبه ليلتف حولها، يفتح بابها فتطيعه في وجوم..

يغلق السيارة ويخطو خلفها نحو سيارته باستعداد تام لتلقفها حال سقوطها..

خطواتها، هيئتها.. دموعها وارتجافة جسدها؛ كلها تشي بسقوط محتمل!..

دقائق أخرى قضياها في صمت موحش..

وحشتها في روحها المدحورة بحرب خاسرة..

ووحشته بقلبه الذي يئن بين ضلوعه غضبًا منها وحزنًا عليها..

توقف أسفل المبني المعنون في البطاقة، فتحت بابها دون كلمة لتهبط قبل أن تنتظر للحظة التفتت إليه بعدها:

- ينفع تيجي معايا؟!..

رمقها بنظرة كانت أشبه بأحجية لا يمكن حل ألغازها واستجاب..

ترجل يتبعها إلى أن وصلا للعيادة، هناك استقبلتها المساعدة بتعجب ثم أخبرت الطبيب بحضورها المباغت فسمح لها بالانتظار حتى تنتهي الجلسة التي بين يديه..

كللهما الصمت دقائق أخرى تخطت الثلاثين باثنتين حتى حان موعدها..

استدارت نحوه بوجهها وعينيها الذابلتين تقيدان كل ما فيه من سخط:

- هتستناني؟!..

أومأ بموافقة وتابع تعثر سيرها حتى اختفت وراء باب.. باب أغلق بوجهه بغتة فأغمض عينيه وزفر باشتياق للهواء..

حيرته التي يدور في دوامتها الآن لابد لها من حل.. والحل يكمن هناك..

في هذه الغرفة المغلقة!..

استقبلها "أكمل" بنظرة متفحصة مهتمة بها شيء من فضول..

لم تتأخر عليه كثيرًا في التصريح بما يعتمل بنفسها بل استكانت بمقعدها لدقيقة واحدة تلوي حزام حقيبتها كعادتها بين أصابعها بعنف كاد يمزقه أو يجرحها:

- هيتجوز!..

اعتدل في مقعده بانتباه صامت..

لم يكن بحاجة لسؤال عن هوية المقصود.. فالحالة تشي بوضوح من هو..

زوجها السابق!..

- هو مكمل حياته عادي، كأني كنت لحظة وعدت..

ورفعت إليه بصرها تتشبث به كأنما ترى فيه طوق نجاتها من غرق محقق:

- وأنا حياتي وقفت..

سكنت تفكر ثم احتضنت جسدها بذراعيها في خوف غريب:

- اتهدت..

شردت في اللامكان، تغيب وتعود وتغيب والتيه يسيطر على خلاياها خلية تلو أخرى:

- أفقدني ثقتي في نفسي وفي الحب وفي أي راجل حتى أقربهم لي..

وبدأت نبرتها تعلو بغضب.. بضعف.. بحقد.. بانكسار:

- والكارثة إنه صارحها..

غادرت مقعدها بحركة حادة تتجاهل وجوده وبذات اللحظة تتمنى منه تفسيرًا يريح عقلها وقلبها:

- اختار يخدعني ويكذب عليَّ وصارحها هي..

توقفت تشيح بذراعيها كأنما تشرح ألمها في مسرحية شكسبيرية بطلها تمكن البؤس من كيانه وسخرية مريرة تخنق كلماتها:

- اختاريكسرني وصارحها..

- ملك!..

ناداها بلهجة حازمة لا تردد فيها فانتفضت، تبعها ليواجهها بوقفتها المهتزة وعيناه تمنحانها دعمًا غير ملموس:

- الحياة ما بتقفش..

ارتعشت شفتاها فبدت أقرب لطفلة على وشك البكاء:

- أنا قلت لك قبل كده أنك قوية، إني واثق فيك.. هتحاربي وهتنتصري..

- أحارب!..

همستها بتشتت متخاذل ونظرتها تؤكد على انهيار قادم:

- الحرب انتهت يا دكتور..

نفى بهزة من رأسه وابتسامة شفتيه تخبرها أنها حتى لم تبدأ بعد:

- لأ يا ملك.. حربك مع شبح وجوده في حياتك انتهت وبخط إيده..

رمقته بأمل ضعيف وهو يردف بنبرة لا يهتز ثباتها:

- لكن حربك مع نفسك لسه مستمرة، وهتفضل مستمرة لحد ما تنتصري فيها..

ارتمت على أريكة خلفها بتراخٍ خاضع:

- الانتصار ما بقاش في حساباتي خلاص..

جاورها يحرك يديه أمام عينيها لافتًا انتباهها إليه:

- الانتصار هو الهدف الوحيد اللي لازم تفكري فيه..

صمتت..

صمتت كثيرًا وكان يعلم أن صمتها سيخبر عن خوف جديد..

خمس دقائق كاملة التقت بنظره بعدها في قنوط:

- تفتكر هو عنده حق!..

زوي ما بين حاجبيه في تساؤل جاوبته برجفة تنال من جسدها وصوتها:

- أنا فعلا ما حاولتش.. ما وقفتش جنبه!.. إن مرضه محتاج صبر وتضحية أنا ماكنتش قدها!..

وتوسلته بضعف نظرة:

- أنا كنت السبب في فشل جوازنا؟!..

سحب نفسًا عميقًا وشبك أصابعه فوق قدميه بهدوء:

- ملك.. أولًا الشذوذ مش مرض، تقدري تسميه خلل في السلوك الجنسي بيخلي توجه الشخص مخالف للفطرة والطبيعة..

جمدت بلا إرادة تستمتع إليه بانتباه كأنما في كلماته قشتها الأخيرة لتحيا:

- مش عيب في الجينات طبعًا ولا عنده مشكلة هرمونية، ولا طبيعة الانسان بيتولد بيها؛ لأن ربنا مش هيخلق الشخص بفطرة زي دي وبعدها يعاقبه.. كده حاشا لله بنتهم ربنا بالظلم..

رفع رأسه في تفكير قصير استطرد بعده:

- أينعم الأشخاص اللي بيلجأوا للعلاج النفسي بيظنوه مرض بس هو من تسعينات القرن اللي فات مصنف خارج إطار المرض..

أكمل بعد لحظة صمت أخرى:

- الشاذ ماعندوش مشكلة مطلقًا، اللي بيعمله ده اسمه سلوك خاطئ..

والعلاج عبارة عن مساعدة إنه يتخطى العقبة دي..

ومال يواجه عينيها بنظرة قوية:

- أي شخص عاوز يتخلص من سلوكه السيء؛ لازم يكون قبل أي محاولات خارجية عنده الرغبة من جواه إنه ينجح، وإلا كل اللي بيتعمل مجرد عبث.. حاجة مالهاش لازمة ولا هتسبب أثر..

وسألها بوضوح دون مواراة أو مناورات تهديها الأمان:

- هو كان عنده الرغبة من جواه إنه يتخلى عن السلوك ده يا ملك!..

نفت بهزة رأس دون حرف.. فلطالما أخبرها أنها هي السبب الوحيد الذي يجبره على العلاج وكل خطوة يقوم بها لأجل قربها، لخاطر بقائها معه!.. بل تمادى وتجاهل عظم الذنب بتحليل حرمة إثم عظيم كهذا.. أردف هو بلا انتظار:

- يبقى الغلط مش منك..

ونهض عائدًا خلف مكتبه، يخط شيئًا في ورقة وناولها إياها:

- المطلوب منك دلوقتِ ما تجلديش نفسك، ما تصدقيش أي حاجة هو ممكن يكون قالها لأنه أي حد في لحظة الهجوم بيدافع عن نفسه بطرق

مشروعة أو غير مشروعة..

تناولتها منه تتأملها بضياع:

- ووقت الضعف بنكون عرضة إننا نصدق أي كلام بيتقال لنا حتى لو اللي قدامنا اتهمنا بأبشع التهم..

عادت تنظر إليه بأمل واهن غذاه بصدق:

- ضميرنا بيجلدنا، إحساسنا بالتقصير والذنب بيسيطر علينا.. بس لما بنفوق، بنعرف إننا صح.. وأنا عاوزك تفوقي من اللحظة دي يا ملك..

أشار للورقة بيدها والتي كانت وصفة طبية تحمل اسم دواء وحيد:

- ده مهدئ خفيف، هتاخدي منه قرص واحد النهاردة وواحد بكرة وهتوقفيه.. بعدها مش هتحتاجيه..

ثم أهداها نظرة ثقتها عمياء:

- أنا عارف إنك مش هتحتاجيه..

ليت الأمل بسهولة نطق اسمه..

ليت النسيان يتجسد في أحرفه فنتمتم به فقط لننسى..

ليت الاستمرار في حيز المتاح كالألم الذي يغرس أنيابه بالروح أو قريبًا كالخوف الذي يفترس الكيان والقلب..

الرأي الطبي في المشهد للدكتورة "هبة قطب"..

***

بعض الألم لا يُرى إلا حين الهزيمة..

والصمت في حرم ألمها كان أمرًا من قلبه تلزم طاعته..

كان حيرةً وقلقًا وخوفًا.. ومائةَ سؤال جوابها كلها عند واحد فقط..

"أكمل الوزير!"..

أوصلها للمنزل بوجه غير الذي رآها به.. لم تكن أفضل حالًا بكثير لكن دموعها توقفت وعيناها تغيرت نظرتهما المنكسرة لأخرى..

أخرى تتشبث بما هو آت!..

ترجلت من السيارة بهمهمة شاكرة بترها بحنو..

أخبرها أنه سيعيد إليها سيارتها قبل حلول الليل وعاد من حيث أتى.. عاد للطبيب الذي كان يوشك على الرحيل فأوقفه يعرفه بنفسه وقلبه وجل

من خيالات رسمها عقله عن سبب حضورها إلى هنا.. ابتسم "أكمل" باستفهام طفيف:

- دكتور يوسف!..

تغضن جبينه بدهشة.. هل يعرفه!.. أومأ بنعم هادئة:

- أنا كنت معاها برا لما كانت هنا..

مط الطبيب شفتيه بحركة مبهمة فطرح "يوسف" سؤاله:

- عاوز أعرف ملك مالها!..

استوى في جلسته يتفحصه باهتمام..

هي ذكرت تفاصيله دون أن تدري بغيابها فيها!..

ابتسم بلباقة وحملت نبرته لومًا خفيفًا:

- دكتور يوسف.. أنت أكيد عارف إني ما ينفعش أتكلم معاك في أي تفاصيل تخص الحالة..

- مش جاي عشان أعرف تفاصيل..

عقد "أكمل" حاجبيه باستفسار جاوبه بسرعة، وغضب ما يمس صوته فيخنقه، يكبله حائرًا بين الزعيق والدمدمة الحانقة:

- أنا كنت فاكر الموضوع خيانة!.. حَب واحدة غيرها زي قصص كتير بنسمعها وبعدها العلاقة بتنتهي وكل طرف بيعيش حياته..

وفرك جبينه بتعب ثم استقرت أصابعه بشعره تقبض عليه:

- بس.. علاج نفسي!..

تشتت عيناه في مزيج غريب وازى الحزن فيه الضيق، والغضب جاور اليأس:

- للدرجة دي كسرها!..

تنفس ببطء كأن أفكاره في عراكٍ محتدم: أتصدق ما رأى أم تترك نفسها لعالم الأمنيات!..

- للدرجة دي كانت بتحبه فخيانته تقتلها بالشكل ده!..

ورفع بصره إليه بحسمٍ جادٍ لن يرضى بجدال:

- أنا عاوز أعرف حجم المشكلة عشان أقدر أتعامل معاها..

أنهى كلماته بعزم وصمت..

ودار سجال غير مشروع بين أعينهما..

هو يقاتل ببسالة عاشق لاح له النصر في المعركة وإن تبقى سدًا أخيرًا لا يهابه..

والطبيب يتلقى ضرباته بجمود ختمه بسؤال مباغت:

- بتحبها!..

أخذت فمه بسمة بانحناءة شاردة في أسرها..

في سحرها..

في عينيها وقيدهما الذي يختطفه مع كل لقاء:

- الحب اتخلق في حياتي باسمها..

همس بها من عالم موازٍ، عالم يقطنه وحده فلا يماثل غرامه بها غرام!..
بادله طبيبها البسمة باهتمام يترفق به:

- يبقى كمل في الدور اللي رسمته، أنت لحد دلوقت ماشي كويس قوي..

- هي بتتكلم عني؟!..

أدرك في لحظة أن طبيبها بالفعل يعرفه!.. ليفسر هو:

- هي بتهرب من الكلام عن مشكلتها بالكلام عنك، عن شغلك ووجودك حواليها..

وأشار إليه بيده كأنما يمنحه مباركته:

- كمل زي ما أنت.. وهي هتبقى أحسن إن شاء الله..

تساءل العاشق القلق بتوتر آخر:

- يعني هي كويسة دلوقتِ!..

- هي كانت محتاجة ضربة أخيرة تفوقها عشان ترجع لطبيعتها وتستغل قوتها في إنها تقوم من تاني..

- يعني...

أوقف المزيد من تساؤلاته التي تقود لمنطقة لا ينبغي الخوض فيها:

- أنت بتتصرف صح..

يهديه الثقة بنفسه، بعشقه.. وبها!..

لاح عليه الشرود كأن فكرة ما تناوش عقله.. طرحها بعدها بتردد:

- طيب.. كنت بفكر، إيه رأيك لو آخدها هي وإخواتي وكده نطلع يومين أي مكان!..

استحسن "أكمل" ما طرحه ببساطة وشجعه:

- ممتاز.. ابعد تفكيرها عن اللي حصل، هتكون محتاجة ده..

وتلك هبة أخرى..

مفتاح لباب الغد الذي تغلقه بيدها دونها..

ويصر هو بأنانية عاشق -عازم على التضحية بقلبه وروحه- أن يجذبها إليه..

***

الألم دومًا أهون عندما نتسبب فيه لغيرنا..

والذنب ترتاح ضمائرنا من لومنا عليه وقتما نقرر أنها إرادة القدر!..

وفي حسابات قلب أم: ليحترق العالم وتنجو طفلتها وحدها..

هي ومن بعدها طوفان لا يبقي ولا يذر ولا تبالي..

صغيرتها تذوي.. تذبل في كل يوم عن سابقه، وهج عينيها الواسعتين بهت، والسواد طوقهما بقيد السهاد والتعب..

كم مر بعد زواجه!..

ما يقرب من تسعة أشهر.. وابنتها لا تتوقف عن عشقه، لا تفقد الأمل وتتعلق بأذيال أمنية فاتها قطار التحقيق، وهو!..

هو يحيى في نعيم مع من سرقته من طفلتها..

نعم سرقته.. سلبت قلبه وخلبت لبه وامتلكته، ولولا ظهورها لكان زوج ابنتها الآن..

لذا عزمت على أن تتخذ نهجًا أخيرًا قد يكون فيه الخلاص.. زوجها!.. بين قوسين "أبيه".. والسلطة الأولى بحياته..

فتاتها لا تجيد ألاعيب النساء فتجتذبه إليها، في كل مرة تلتقي به يهرب ويتركها مجروحة الفؤاد.. حان وقت تدخل الكبار إذًا!..

جاورته في الفراش تقطع استمتاعه بفيلم قديم:

- عاوزاك في موضوع مهم..

التفت إليها بنظرة مهتمة لتقابله الإشارات على وجهها.. إشارات لا تبشر بخير البتة، وتأكد منها عندما أردفت دون انتظار لرد فعله:

- بنتي هتضيع مني يا عبد الرحمن وأنت وابنك إيدكم في المياية الباردة..

عقد حاجبيه.. لمَ تجمعه بابنه في صورة واحدة لا مكان لكليهما بها منذ البداية!.. قرر المصارحة بلا مماطلة تزيد الأمر سوءً:

- يعني عاوزاني أعمل إيه يا ماجدة؟!..

وهاجم بما ظنه سيوقفها:

- أجوزها له غصب!..

عقدت ذراعيها أمام صدرها وحدجته بغِل:

- اتصرف.. مش دي بنتك برده اللي ربيتها!..

تجاهل انفعالها القاتم واتجه نحو الهدنة يؤثر السلامة:

- وعشان بنتي؛ يبقى تقعد في بيت أبوها معززة مكرمة لحد ما يجيلها اللي يحبها ويقدرها..

- عبد الرحمن!..

تنهره بغيظ لتهربه، وغيظها انتقل إليه:

- الواد اتجوز يا ماجدة؛ ما كان قدامكم من زمان..

- وأنت يعني ماخدتش بالك منها؟!..

- إذا كان صاحب الشأن ما شافش الحب ده يا بنت الحلال..

كلما سلكت طريقًا قطعه، انتوت تفنيد كل مبرراته بسد منيع:

- خلاص.. كلمه يتجوزها..

رسمت الدهشة نفسها قهرًا فوق ملامحه وهو يعتدل تاركًا جلسته الممددة:

- أنت بتقولي إيه يا ماجدة!!..

كررتها بحزم بطيء وحروف لا تقبل شكًّا في مدلولها:

- يتجوزها..

لم يصدق نفسه..

بل لم يصدقها هي.. هي أمها التي يفترض أن تحفظ كرامتها فإذا بها تدهسها، ولم يتردد في التصريح بما يجول بعقله:

- وأرخصها للدرجة دي؟!..

حاصرته بعينيها في نظرة كالجحيم، وهو يدرك أي جحيم سيعيشه لو رفض:

- ده مش رخص، هي بنتك والمثل بيقول اخطب لبنتك..

- اخطب مش جوزها غصب لواحد متجوز وتبقى مراته التانية..

كانت محاولة منه.. محاولة فاشلة على ما يبدو لأنها دحضتها دون تأخير:

- هي راضية يا حاج..

زفر بضيق..

أي لعنة كتبت عليه بهذه الساعة عندما ظن أن الأمور استقرت والفتاة تناسته!..

حتى زيارات ابنه تباعدت وقصرت مدتها، يغضبه ذلك لكنه يتفهمه:

- يا ماجدة اسمعيني...

- اسمعني أنت يا عبده..

قصمت كل فكرة وكلمة عقد النية على نطقها:

- أنا وأنت مهما عشنا مصيرنا نموت ونسيبهم لوحدهم..

والعاطفة وترًا ليس بالهين للعب عليه، العاطفة تفوز في كل مرة:

- هي بنتك وهو ابنك.. مش هاطمن عليها إلا معاه، هو اللي هياخد باله منها ويحافظ عليها..

وترقرت في عينيها دموعًا حقيقية وازت تحشرج نبرتها:

- كلمه يا حاج.. بنتي بتدبل زي الوردة اللي اتقطفت غدر..

أعاد الزفرة بحرارة أكبر وهو في حيرة من أمره..

من جهة؛ ابنتها وابنه ليس لكل واحد منهما سوى الآخر..

فزواجهما معادلة ناجحة..

ومن جهة ثانية؛ ابنه متزوج ويحب زوجته.. فلمَ عليه أن يكدر صفو حياته!..

اخترقت شهقاتها المنتحبة غياهب شروده وهي ترمي بنفسها فوق صدره بضعف، ربت على كتفها برفق واختار السلامة:

- مش هاكلمه..

كادت تبتعد عنه بصراخ عندما حاوطها مردفًا بحسم:

- أنا عارف هاكلم مين!..

ولتنطبق سماء العشق على أرضه..

فمن يكترث سوى العشاق!..

***

هناك ألم.. وهناك ألم أعظم..

ودومًا نهرب من الثاني للأول، ظنًا منا بأنه محتمل!..

زياراته لبيت أبيه في الأشهر الأخيرة باتت محدودة للغاية، حتى أنه خلال هذا الشهر الذي شارف على نهايته زارهم مرة واحدة وتعلل في بقيته بضغط العمل..

زوجته رغم أن حبه ودلاله لها لم يبخل بهما في لحظة تغار بشدة، غيرة قاربت الشك وذاك حقها؛ ففراره من حضور الأخرى غير مفهوم أو مبرر حتى بالنسبة إليه..

وبقرارة نفسه وبأفكارها..

هو يخشى أن يستجيب، يخشى أن يضعف تجاه امرأة امتلكت من قلبه جزءًا كبيرًا طوال أعوام مضت..

فهل مسمى المشاعر يمنحها ما هو أكثر!..

لو تبدلت لعشق!..

عاد من عمله ليجدها في المطبخ تحضر الغذاء بعجالة ككل يوم بعد بدء الدراسة، تعود من جامعتها لتستقبله..

طوق خصرها في ضمة حانية، قبَّل جيدها وهمس لها بكلمة اشتياق ثم شمَّر عن ساعديه يساعدها.. كان يقطع السلاطة عندما سألته بنبرة رأى جهدها فيها لصبغها باللامبالاة:

- هتروح تزور البيت عندكم الأسبوع ده؟!..

نبرته خرجت بالفعل غير مهتمة:

- لا.. عندي شغل كتير ويوم الأجازة عاوز نقضيه سوا، نخرج ونتعشا برا، ندخل سينما..

انعقد حاجباها في حيرة.. لمَ يتهرب من تلك الزيارات الدورية لهذا الحد!..

هل يرفض رؤياها!..

هل دق قلبه لها لذا رأى أن في البعد نجاة!..

استدارت ترتكن لسطح المطبخ، تتأمله بنظرة غامضة تجاهلها قبل أن تسأله:

- مش ملاحظ إن زياراتك قلِت قوي؟!.. طيب مش عاوز تشوف باباك!..

استمر في تقطيع الخيار ببطء هادئ وازى رده الأكثر هدوءً:

- بابا لما بيوحشني قوي يعني باروح له المحل وأنا راجع من الشغل..

ضيقت عينيها في تفكير وسوء ظن أنوثتها تعلو وتيرته.. هل يزورهم دون أن يخبرها!.. بعد إنهاء عمله فقط لتتوقف عن أسئلتها!..

- ما قلتش إنك بتروح يعني!..

- عادي يا شذى دي كانت مرة..

اقتربت منه وقلبها يرتجف..

تبًا لذلك الخوف الذي يسكنها بحق العشق..

العشق الذي يفرض سلطانه على القلوب فيهديها الأمان، يغرق قلبها هي في هلع دائم..

من ثانية تحبه.. تذوب فيه، بل وتبدل حالها لغيابه.. لمَ يأبى رؤيتها!..

لامست ساعده فتوقف عما يفعله ليتطلع إليها بتساؤل:

- مش عاوز تروح ليه يا جواد!.. خايف من إيه!..

تغضن جبينه بضيق وألقى السكين من يده:

- خايف!.. تفتكري هاخاف من إيه بالظبط!..

- مريم!..

توسعت عيناه في غضب وهي تردف:

- مش عاوز تشوفها ليه!.. بتحاصرك بمشاعرها؟.. خايف تضعف!..

أمسك بيدها التي كانت مستقرة فوق يده تبحث عن أمانها قربه، ضغطها بقوة كافية ليصدر منها أنين خافت:

- خايف!.. لو أنتِ مش واثقة فيَّ مكملة معايا لحد دلوقتِ ليه يا شذى؟!..

لمعت مقلتاها بدمعة خائنة ونبرتها ترتعش ترتجي طمأنته:

- أنا خايفة من مشاعرها..

- مشاعرها تخصها ما تخصنيش..

- طب ومشاعرك!..

حدق بوجهها في استنكار نفض بعده يده منها وتحرك خارج المكان:

- أنتِ زودتيها بجد..

أجفلت مع صفعة باب غرفة النوم من ورائه..

لمَ لا يهدهد خوفها وحسب!.. يبعث في أوصالها اطمئنانه!.. يضمها!..

تلك التي تحبه هي أقرب إليه من كل البشر، هي حبيبة بقلبها وأخت بقلبه؛ حتى هذه اللحظة وتخشى ما يليها..

ودت لو كانت تحمل طفله فتخلق بينهما رباطًا لا ينفصم لكن دراستها أعاقت خطة اكتمال أسرتها.. في الوقت الحالي على الأقل، فعامها النهائي أزف وقته..

تفهم هو الأمر وأخبرها أنه غير متعجل لملء البيت بالأطفال، بل يريد قضاء أطول وقت متاح معها أولًا..

لكنها ببساطة عزمت على تغيير الخطة!..

بتلك الليلة انتوت مصالحته والربط بينهما للأبد، لقد تناول غذاءه في صمت وبعدها جلس أمام التلفاز بشرود غاضب.. انتوت ونفذت ودون حديث يبغضه..

بغلالة يعشقها.. ومراضاة واعتذار وضمة..

بأقراصٍ تخلصت منها في المرحاض قبل أن تبيت ليلتها هانئة بين ذراعيه..

***

ألمنا الأعظم يكمن في الظل دومًا، يترقب خطواتنا المرتبكة فينقض، ننهزم ويظفر هو بتحقيق أكبر مخاوفنا!..

هي تعلم أنها ألمه.. لكنها توقن أنها رأت بعينيه ما لم يره..

ما يخشى الاعتراف به وإن كان في إقراره فضيلة..

رأت في عينيه قصتهما معًا، وهو يأبى سردها.. بل يخافه!..

كانت تقابل صديقتها القديمة والمسمى الحالي زوجة حبيبها كل يوم في الجامعة تقريبًا..

تتعامل معها على مضض؛ فأمام الصديقات الأخريات هما عائلة واحدة!..

تقتصر في الحديث وتهرب حين تتاح لها الفرصة والزوجة ارتاحت للفكرة..

هي لا تطيقها وتود لو خنقتها، بموتها ستغنمه!..

ثم تعود وتؤنب نفسها، يلومها ضميرها ويرتد إليها عقلها بتوبيخ.. "أتتمنين موت أخرى لتحصلي عليه!"..

ويهتف القلب بنعم.. فطوفان العشق لا يميز أحدًا..

رمقت ساعتها بتوتر، لقد تأخر.. كانت تنتظره عند سيارته بالشارع المواجه لمقر عمله بإحدى الشركات الهندسية، هو يحترف الهرب.. وهي لن تقوم سوى بالحصار..

ولتحترق كرامتها فعشقها طغى على كل تعقل!..

وجدته يخرج من المبنى، يجِّد في السير ليعبر الطريق وعندما اقترب رآها..

رآها فتجمد وانقلبت ملامحه لضيق، تلاه غضب ثم.. غموض!..

استقبلته بنظرة ضائعة في دُجنة عينيه:

- وحشتني..

- مريم..

نهرها فهزت كتفيها بتبرير تراه بديهيًا:

- أنت ما بتجيش بقى لك سبعتاشر يوم.. وحشتني..

زفر بحنق، تلفت حوله هاربًا من نظرتها المتعلقة به في وله:

- إيه اللي جابك هنا؟!..

دون وعي مدت يدها تعيد وجهه إليها بجرأة لم تعهدها بنفسها:

- عشان وحشتني وبتهرب مني..

أنزل يدها بحركة عنيفة أرهبتها:

- مريم.. في حدود بينا، إوعي تنسيها..

ارتجفت شفتاها بضعف بينما أردف هو بانفعال:

- ومافيش حاجة اسمها باهرب، في شغل واخد كل وقتي..

- أنت رحت لبابا المحل..

جابهته باتهام أنكره واستنكره:

- وإيه المشكلة؟!.. كنت راجع من الشغل وعديت عليه..

عقدت ذراعيها فوق صدرها بتحدٍ غاضبٍ:

- المحل بينه وبين البيت تلات شوارع..

ضم قبضتيه بسخط..

هل ستحاسبه الآن!..

جذب مرفقها يدخلها للسيارة ودار حولها يستقر بمقعده بصمت، قبل أن يدير المحرك لامست كفه:

- جواد..

أبعد يده عنها فأكملت بحزن، تضم يدها نحو قلبها الذي ينبض بوجع:

- ليه بتعمل معايا كده؟!.. ليه بتهرب مني!..

غضبه وصل لأوج استعاره في تلك اللحظة خاصة وهي تكرر كلمات زوجته..

ما بهما الاثنتان!..

كلتاهما تتهمه بالهرب كأنه يخفي جرمًا، ينكر إثمًا لم يدرِ أنه اقترفه!..

استدار إليها بجذعه يزعق فيها.. يخرج ما يعتمل بنفسه في وجهها وإن كان جحيمًا سيصليها وحدها ناره:

- باهرب!.. باهرب لأنك كل مرة بتدوسي على كرامتك أكتر، باحاول أحافظ لك على المتبقي منها.. أنا متجوز يا مريم وبحب مراتي.. كفاية بقى..

هذه المرة أدار المحرك وانطلق إلى منزل أبيه بصرير أفزعها..

وبكت..

ككل لقاء، تبدأه ساخطة وتنهيه باكية بائسة:

- أنا شايفة نفسي في عينيك يا جواد..

تغضن جبينه وضرب مقوده بعنف فتراجعت نحو الباب تتأمله بحذر من خلف دموعها:

- أنت بتهرب لأنك خايف.. خايف تفكر في مشاعرك ناحيتي..

اتقدت عيناه بلهيب أحرق روحه قبل أن يسري بهشيم كيانه كله:

- خايف تضعف وتعترف بمشاعرك دي..

تطرق الحديد وهو مشتعل!..

توقفت السيارة في إحدى الإشارات فاستدار نحوها وكفيه تعتصران المقود:

- مشاعري!..

ونفث هواءً حارًا اضطرم به صدره الضيق بما فيه:

- عاوزة تعرفي مشاعري؟!..

تعلقت عيناها بعينيه وهو لم يقرر الفرار تلك المرة، بل واجه ونبرته تحيطها بموجة هياج هادرة:

- أيوة يا مريم.. أيوة بحبك..

والصمت في هذه اللحظة: مقصلة لكل ألم..

أو خوف!..

***

البعض يجيد التعامل مع الألم دون مسكنات..

وبعض الدراسات النفسية تخبرك أنك بمجرد الخيال يمكنك التخلص من الصداع، فقط ببعض التركيز ينتهي الأمر!..

ورغم أنه يحاول لكن انكسارها لايزال عالقًا بذهنه، صورتها المهزومة، دموعها.. حشرجة نبرتها وضعفها..

كانت تحبه لدرجة.. الألم!..

وهو يحبها حتى الموت..

حدد موعد السفر، اجتمع هو وأخوته وهي وأخيها وأبناء العمة..

بل العمة نفسها وزوجها قررا الذهاب معهم لمرسى علم حيث تمتلك كل أسرة أحد الفيلات هناك..

استقر الشباب في واحدة والفتيات في أخرى وأُختطفت عمته من بينهم فجأة في الثالثة.. وبين خجل وضحك كان يراقبها..

تنظر للعمة بسعادة منقوصة، كأنما تسعد لأجلها وتتمنى قصة كقصتها!..

تنهد بتعب.. فنفسه مرهقة وقلبه منهك من ذاك العشق الذي يكبله بلا مهرب..

استقر "مروان" بصحبة أنس في إحدى الغرف، وهو مع أخيه الأصغر في الثانية.. تمدد بالفراش وأغمض عينيه يستدعي شيئًا من راحة قبل اللقاء الموعود بعد ساعتين..

في الغرفة المجاورة كان "أنس" يشاغب ابن خاله:

- مش عارفين إزاي نشكر سعادة السفير والله على تواضعه وسفره معانا!..

وتذكر رفضه للفكرة فنهاية الأسبوع هو يوم راحته الوحيد، لكن وجه أخته الصامت، ملامحها الهامدة كأنما وجعها يعاد ويتكرر بعد خبر زواج ذلك الذي كان زوجها؛ كلها جعلته يوافق..

حتى عندما حاول الاطمئنان عليها تظاهرت بالقوة.. وهو يعلم أنها في أكثر لحظاتها هشاشة وضعفًا..

لذا ها هو يأتي معهم بلا تردد آخر..

خلع قميصه وأخرج من حقيبته قميصًا قطنيًا فاتح اللون، ألقاه فوق جسده وتحرك بالهاتف نحو النافذة كأنما يتأكد من كون الجميع بخير:

- طيب احمد ربنا بقى.. عشان تعرف بس إني...

توقفت الكلمات بحلقه، انتهت بحشرجة ونظرة واجمة لثوان جعلت المسترخي فوق الفراش خلفه ينهض ليرى ما رآه:

- في إيه؟!..

لم يكد يتمم سؤاله حتى سقط بعنف عائدًا إلى فراشه بدفعة قوية من يد ابن خاله الذي هو نفسه التف وولَّى النافذة ظهره، نظر للهاتف بعصبية واتصل بأحدهم.. ثم صرخ فجأة بغضب مخيف:

- اقفلي الزفت الشباك اللي مفتوح قدامك ده يا سما وإلا قسمًا بالله هنرجع حالا على مصر..

انعقد حاجبا "أنس" بحيرة.. والتي فتحت الخط لتجد هياج ابن العم يكاد يخرق طبلة أذنها، نهضت من فراشها الذي كانت مستريحة به تقترب من النافذة بحذر بطيء دون فهم:

- في إيه يا مروان!.. ماله الـ..

انقطع صوتها وارتد بشهقة جعلته ينظر خلفه ليلتقط رحيلها بهروب متعثر انتهى بسقطة أجبرته على ابتسامة متفكهة.. انحسرت بشرود!..

شرود في صورتها التي انطبعت بعقله فهز رأسه محاولًا محوها بلا جدوى..

صورتها بثوب بيتي وردي يناسب بشرتها التي يدقق فيها لأول مرة.. عاري الكتفين، قصير لا يكاد يصل لركبتيها، وخصلات ناعمة، بنية طويلة

لامستها حمرة فريدة بين أناملها في مداعبة سارحة، احتجزت بصره لتلك الثوان قبل أن يفيق على خطأ ما يفعله!..

وفهم "أنس" ما حدث ليحاصره بنظرة متفحصة ضايقته فترك له الغرفة، بل والمنزل بأكمله راميًا بنفسه في المسبح كأنما يحاول إغراق ما مر بلهيبه على مشاعره أسفل مياهه الباردة كما هو متوقع في "أبريل"..

أما عندها فقد قابلتها أخته وهي تكاد تسقط، اصطدمت بها فأوشكتا على السقوط معًا:

- في إيه يا سما!..

توقفت تستحضر كل هدوء ممكن وكل أنفاس تجبرها لهاثها:

- ملك.. خدي أنت الأوضة بتاعتي أنا وصبا..

وكانت تهرب..

لأول مرة منذ تعلق قلبها به تهرب!..

لقد رأى منها ما لم يكن ينبغي أن يراه!..

رباه.. كيف ستقضي اليومين القادمين حوله؟!..

انقضت الساعتان..

حان اللقاء فكانت تتفادى قربه، تتجنب حتى الالتقاء بعينيه، مر اليوم بين بهجة ولعب، حزن وشجن.. عشق وهروب.. وسعادة!..

أحرار القلوب كان انطلاقهم بديهيًا..

والعاشق يتأمل معشوقته بحزن عينيها وضياعها في ملكوت غامض كل حينٍ وثانٍ..

وسعادة كللت قصة هي حلم متابعيها، قصة قديمة يرويها العشق بكل دقيقة..

أما العاشقة فقد أجادت التخفي عن ناظريه حتى بحث هو واقترب..

"سما!"..

كانا بمنزل العمة الذي تم الاجتماع في حديقته على وجبة العشاء..

ارتعد جسدها تظن أنه سيصب جام غضبه عليها، ارتجف قلبها بين ضلوعها في شوق لأحرف اسمها التي همس بها.. وارتعش كيانها يحثها على التفاتة تخشاها:

- بصي لي..

أمرها بنبرة عميقة حازمة جعلتها تستدير إليه قسرًا، ساوت حجابها في حركة تلقائية كأنما تتأكد من وجوده فابتسم:

- اللي حصل النهاردة ما يتكررش؟!..

هزت كتفيها وتلعثمت في خجلها:

- سوري يا مروان، بجد ماكنتش واخدة بالي إن الفيلا عندكم تشوف جوا الأوضة بالشكل ده!..

ظهر حنقه في لهجته المعنفة بغتة:

- مش عندنا بس يا سما.. اللي على يميننا وشمالنا يشوفوا برده..

همهمت باعتذار آخر وهي تكاد تذوب أمامه، لم يفسح لها طريق الهرب فقد كان يسد مدخل المطبخ بجسده:

- أنا عارف إنك مش واخدة بالك على فكرة..

رفعت رأسها إليه فأهداها بسمة مطمئنة إثر تنهيدة حارة، وحاصرها بحضوره، ببصره.. بخطوة اقتراب مدفوعًا بما يجهل:

- بس الموضوع ده لو اتكرر هاكسرلك دماغك..

نبض قلبها حد الألم..

هو يغار وتقسم على ذلك!..

بادلته بسمته بحمرة قانية تسللت لوجنتيها.. رأته يرفع حاجبًا وعينيه تركزان عليها بنظرة دفعت بدمها كله إلى وجهها..

ما به اليوم!..

"عندك غمازات!"..

همس بها بدهشة انتقلت إليها بسرعة وهي تحاول الرحيل بتمتمة مستغربة:

- مولودة بيهم والله..

أفسح لها الطريق بضحكة خافتة:

- قصدك إيه؟!.. إني ما باشوفش مثلا!..

توقفت بعدما كادت تغادر.. ما هذا الذي نطقت به!.. هي حمقاء ولن تتحكم بحماقتها تلك. التفتت إليه بحياء:

- ما قلتش كده..

أمال رأسه يمازحها:

- قلتِ بس بطريقة غير مباشرة..

اقتربت خطوة تقلب كفيها بتسليم معتذر:

- لا بجد يا مروان مش قصدي..

رفع حاجبيه وطمأنها بهدوء:

- عادي يا بنتي.. باهزر معاكِ..

- يعني مش زعلان!..

نفى ببسمة واسعة وهو يسبقها نحو الخارج:

- لا يا سما..

علت نبضاتها مرة وتالية..

ما الذي يفعله بقلبها وإلى أين المصير!..

بعد العشاء قرر زوج عمته النوم باكرًا فسحب زوجته خلفه وترك الشباب يمرحون بعد حفل شواء شهي حول المسبح..

بغرفة نومهما حينما كانت تستعد للاسترخاء جواره ومشاهدة فيلمهما المفضل حاوط خصرها ونظر لعينيها بالمرآة:

- باقولك إيه!..

همهمت بجواب مبهم ابتسم له وأهدى كتفها قبلة:

- الولاد كبروا..

ظهر التساؤل على وجهها فتحولت نبرته للمكر العابث:

- ما تيجي نجيب بيبي!..

صُدمت للحظة ثم استدارت بين ذراعيه، تحيط عنقه بيديها في تعجب:

- بيبي!.. في السن ده يا زياد؟!..

داعب أنفها بأنفه وشفتيه تتمرغان بنعومة وجنتها:

- إيه!.. كبرنا!..

أبعدته بدلالها الذي يتيه فيه:

- لا طبعا.. إحنا أصغر من ولادك أصلا..

ضحك بسعادة وتحرك بها نحو الفراش:

- يبقى نجيب بيبي..

وبينما تستسلم العاشقة لمعشوقها كانت معشوقة تتجاهل عاشقها.. تتغافل عن قربه وترفض اهتمامه حتى وإن كان بطعامها وحسب.. ناولها طبقًا من اللحم المشوي كما يعلم أنها تحبه:

- كلي يا ملك..

رمقت الطعام بصمت ثم أزاحت يده:

- مش جعانة، شكرا يا يوسف..

وضعه أمامها عنوة وجواره كوبًا من عصيرها المفضل:

- أنت ما أكلتيش حاجة من الصبح..

وقبل أن تعلن الغضب الذي رآه بوهج مقلتيها القاتل لقلبه بادرها بشقاوة:

- بكرة يوم طويل وهتحتاجي طاقة.. أنا دكتور وعارف باقولك إيه!..

تطلعت إليه بضيق صامت تظاهر بعدم رؤيته وهو يغرس الشوكة في قطعة من اللحم ويضعها بيدها:

- كلي..

نبرته هذه المرة تخلت عن مرحها والتزمت بجدية جعلتها تستسلم حتى يتركها وشأنها..

في جلسة مجاورة اجتمع أخيها بابن العمة في حوار حول عمله.. حوارٍ تحول نحو تلك القادمة إليهما بخجلها المعتاد وكوبين من الشاي قليل السكر ليبادرها "أنس":

- هتبتدي التدريب إمتى يا سما؟!..

انعقد حاجبا "مروان" أما بقية ملامحه فظلت على جمودها وهو يستمع لردها:

- من الأسبوع الجاي إن شاء الله..

"تدريب إيه؟!"..

خرجت منه شبه حادة حتى أنها أجفلت بانتفاضة ردت بعدها بتوتر:

- أنا وواحدة صاحبتي هنتدرب في شركة سياحة بتاعة أخوها..

صمت يفكر وعندما تحركت لترحل أوقفها:

- ما ينفعش يا سما..

عادت إليه بنظرة حائرة مستفهمة:

- أنا هاشوف لك تدريب تبع شركة أكبر، صاحبها أبو صديق قديم..

ترددت.. عضت شفتيها وفركت أصابعها مما جعله يحثها على الحديث:

- بس..

- بس إيه؟!..

- أنا وصاحبتي اتفقنا هنبقى سوا وكده عشان...

- خلاص.. هاتيها تتدرب معاكِ..

بتر اعتراضها قبل اكتماله فارتبكت.. ثم أومأت بإيجاب وغادرت بشبه ركض لاحقته عينيه بلا انتباه..

"أنت بتغير يا مروان"..

كانت جملة اعتراضية.. استفهامية أو تقريرية لا يعلم فنظر لابن عمته مفتعلًا البرود:

- مش فاهم..

تمدد "أنس" فوق العشب، مستندًا لمرفقه ومستمتعًا بدور المحلل النفسي الخبير:

- النهاردة الصبح لو ماكانش السرير ورايا بعد ما زقيتني الله أعلم كان ممكن أتخبط في إيه!..

علا الاستنكار ملامح المواجه له بصمت وقبل تفنيد ما سمع أردف الثاني:

- ودلوقتِ رافض تدريبها في مكان عرفت إنه بتاع أخو صاحبتها.. عن نفسي هاسمي اللي بيحصل ده غيرة!..

قرر سلك درب المنطق والعقل بتبرير صريح:

- عادي.. لو أختك كنت هاتصرف كده، ما تكبرش المواضيع يا دوك..

مط شفتيه وحك ذقنه بتفكير:

- طيب ما صبا بتشتغل؛ ما اتكلمتش يعني!..

- صبا بتشتغل مع عمي زياد، ولما تتخرج هتكمل معاه.. مكان طبيعي نتطمن عليها فيه..

- أنت متأكد!.. الشركة مليانة مهندسين!..

انتصب بحركة خاطفة وركل ساقه في خطواته بعمد:

- أنا جاي أغير جو يومين ولا يتعمل معايا تحقيق، ركز في مذاكرتك يا بني..

ناداه من ورائه وهو يعتدل:

- خلاص يا حِمقي تعالى.. يا مروان..

و"مروان" لم يستمع..

لم يتفهم..

بل وقضى ليلته تلك والتالية في صراع دامٍ بين أفكاره التي تتناطح كثيران هائجة بعقله..

لم تهدأ.. لم تستقر ولم يستطع النوم إلا بعد أن عقد النية والعزم..

وعقب عودتهم للمنزل كان أول ما فعله أن اجتمع بأبيه ليخبره بقرار حاسم:

- أنا عاوز أتجوز سما بنت عمي..

(٢٥)

على أبواب القلوب المغلقة..

هناك حاجب..

إما يمنحك إذن الدخول، أو تقرر أنت أن تتخطاه..

أن تسرق..

تخطف..

تنهب وتسلب..

وتبرر بحقيقة واحدة!..

غرق قلبك أنت..

البعض عندما يخسر في معركة العشق؛ يقرر الخيار الأشهر لحظة السقوط..

عليَّ وعلى أعدائي، وليندَّك المعبد فوق قلوب الجميع..

رفضها!..

بكل ما تحويه الكلمة من ألم ووجع، من انهيار وهتك ستر مشاعر طال سجنها.. من إذلال كرامة وقهر كبرياء أنثى..

بكل ما فيها من خذلان!..

خذلها..

جذبها معه لأعماق بحار العشق ثم تركها عند القاع وحدها تصارع الغرق..

منذ ذلك اليوم ودموعها لم تتوقف، والدتها أخبرتها أن أبيه سيجد حلًا، أنه لها وإن طال الزمن.. أن قلبها لن ينكسر وهي على قيد الحياة..

لكنه هو كسره وبنفسه..

بقراره واختياره..

"أيوة جوايا مشاعر يا مريم.. مشاعر ماعرفش اتولدت إمتى ولا ليه اتوجدت من الأساس!"..

تفسيره تلا اعترافًا مباغتًا بحب تمنته، توهمته وتحقق حينما ظنته سرابًا، ابتسمت.. تجمدت العبرات بعينيها وهي تلتفت إليه بكامل جسدها وروحها وكيانها بينما ينظر أمامه نحو التيه..

كأن في تصريحه راحة..

في فطنته أخيرًا لما يشعر به هداية بعد ضلال..

كادت تمد يدها نحوه تتشبث به، تخبره أنها له لكنه لم يكن معها والسيارة تعودة للحركة بتلقائية ويقود هو كآلة دون شعور:

- يمكن حبيت حبك، كراجل سعيد بلهفة بنت عليَّ..

يفند الأدلة، يدحض البراهين!..

ينقب عن سبب يبرر به جرم قلبه وجريرة لسانه الذي صدح باعتراف لم يستطع كتمانه:

- إنها تيجي على نفسها وكرامتها لدرجة تطلب وتوافق تكون زوجة تانية..

واختتم جملته ببسمة شابها تهكم ممتزج بغضب لم تفهمه:

- لدرجة الحصار والمطاردة اللي ترضي غرور أي راجل..

سعادتها بتصريحه تعكر صفوها بشك..

ما الذي يعنيه!..

حتى وإن بادرت هي بالخطوة الأولى فقد صار قلبه من نصيبها، فلمَ الدوران في دوامة لا نهاية لها!..

كان يستطرد بلا توقف كأنه وحده، لا تجاوره تلك التي يتحدث عنها وعنه:

- ماعرفش..

عندما تمم كلمته استدار إليها بحزم صارم يجذ عنق كل فكرة طافت بعقلها:

- ومش عاوز أعرف..

وعاد بعينيه للطريق كأنما ألقى ما بجعبته وانتهى.. لا يبحث عن مزيد ولا يريد!..

شهقت مع صمته وعيناها تخونان عهد كتمان الدموع:

- يعني إيه!..

لم تلِن ملامحه بل انعقد حاجباه بقسوة تناقض سابق عهدها به:

- يعني مش معنى وجود المشاعر دي إني أتجوزك..

انهيارها بات وشيكًا، بات محتمًا وهي ترى حلمها الذي لامسته أناملها يعود لدنيا الوهم، لكنه اتخذ من كابوسها هيئة مروعة لنفسه:

- ليه يا جواد!..

لم يتردد في منحها الجواب..

الجواب الوحيد الذي يملكه ويمنعه.. بل ويختاره بنفسه:

- أنا راجل متجوز.. ومتجوز واحدة بحبها وبتحبني..

فقدت كل تعقل وهي تصرخ فيه وتضرب قدميها بقبضتيها:

- إزاي بتحبها وبتحبني في نفس الوقت؟!.. دي كذبة بتحاول تقنع نفسك بيها..

- لو عندي تفسير صدقيني كنت ارتحت..

نبرته أتتها حائرة..

هو رجل لا يجيد الألاعيب، بل لا يظن أن بإمكان الفؤاد فتح بابه لأكثر من واحدة..

رجل اعتاد الطريق المستقيم، وعندما حاد عنه وجد إثمه الأعظم!..

خيانة قلب!..

وهي كانت تتعلق بآخر حبل ترى فيه الأمل:

- جواد.. الشرع بيقول إنك...

- مريم!..

خرجت منه زاعقة أجفلتها فارتدت مبتعدة بعد اقتراب، تنظر إليه من خلف غشاوة العبرات ولا تراه.. لا ترى ذلك الرجل الذي ذابت في هواه ولم يشعر..

فكيف تتخلى عنه وقد جهر بالعشق!..

- الشرع قال إني ممكن أتجوز مثنى وثلاث ورباع.. مش كده؟..

دمدم بها من بين أسنانه، كأنما يحارب نفسه على غضب مستعر لن يحرق سواها، أو يحاربها هي لتبلغ معه مفترق طريق لا تتجاوز فيه خطاهما:

- بس ما قالش إني في طريقي أكسر واحدة كل اللي عملته إنها استأمنتني على نفسها وقلبها وحياتها..

وأنهى الحكاية ببتر لن تستسيغه مادام في القلب نبض:

- طب وأنا؟!.. هتكسرني عادي!..

توسلته بعشرة.. بقرب قديم، بحب!..

استجدت منه ما لا يمكنه عطاءه، فهو لا يملكه:

- الشرع ما بيلزمنيش بحاجة ناحيتك يا مريم..

كان حاسمًا يكوي الجرح بنار الفراق:

- أنا آسف.. علاقة الأخوات أقوى وأمتن، خلينا نرجع زي زمان..

وهي كانت تصرخ من وجع.. من خوف.. من طعنة قصمت الروح:

- هه.. زمان!..

لم يهدِها نظرة.. تجاهل حضورها، غضبها.. صراخها اللافت للنظر حينما أكملت بشبه أنين ونحيبها يعلو وجسدها يرتج بنشيج استحوذ عليه:

- أنا زمان عندي زي دلوقتِ مافيش فرق يا جواد..

وأشارت إليه باتهام من نفسها المُهانة ومشاعرها المنحورة بيد من سلمتها إليه:

- أنت اللي كنت أعمى ومصر تكمل في عماك..

أتمت كلماتها ووافاها صمته، وتوقُف السيارة أسفل منزل أبيه..

لامبالاته جادت عليها بخاتمة الحكاية، لا مزيد من كان يا ما كان، وليس هناك تبات أو نبات!.. تضاعفت دموعها وغُصت بشهقاتها بينما تركض نحو البيت بتعثر..

وينطلق هو بلا نظرة أخيرة!..

عادت لواقعها ترمق تلك التي فضَّلها عليها، التي اختار حبها وقلبها ليكسرها هي..

ترمقها بغل!..

بحقد!.. وخطة جديدة قد تحوز بها نصر الحصول عليه..

توجهت إليها بخطوات واسعة، وأمام الصديقات هدرت بها:

- أنتِ ليه أنانية كده؟!..

تلاقت النظرات بين حيرة، دهشة وسخرية.. جذبتها من ذراعها تستر فضيحة على وشك الوقوع:

- قصدك إيه يا مريم!.. أنانية إيه اللي بتتكلمي عنها!..

عقدت الفتاة -والمسمى السابق صديقة- ذراعيها فوق صدرها:

- أيوة أنانية وجبانة كمان، مش عاوزاه يعيش سعيد، خايفة يلاقي إنك ولا حاجة بالنسبة له..

اعتصر قلب العاشقة المخدوعة وجعًا حادًا باردًا كصقيع ينهش الروح:

- أنتِ بتقولي إيه!..

خرجت بنبرة مهتزة.. هشة، والثانية أدركت فزادت من هجومها قوة وغلظة:

- باقول إنه اعترف لي بحبه؛ بس بيبعد عني وبيهرب مني عشان مش عايز يأذي مشاعرك أو يجرحك..

- اعترف!..

- أيوة بيحبني..

سجال سريع مميت..

حرب أعين وكلمات.. وسقط القلب ضحية، فلكل حرب ضحاياها:

- ليه أنتِ بقى بتتصرفي بأنانية ومابتخافيش على مشاعره وتوافقي!..

بدت كأنها في عالم آخر..

دنيا مختلفة لا تشبه دنياها في شيء ومعبدها ينهار فاقدًا الثبات بعد تضعضُع أساساته:

- أوافق على إيه بالظبط؟!..

سؤال خائف، ضعيف إجابته في حدود التوقع والرد لا يجوز معه إلا الصمت:

- على جوازنا طبعا..

وفكت عقدة ذراعيها تميل نحوها بحنق غريب.. كأنما هي صاحبة الحق!..

- فكري تاني، لو بتحبيه بجد هتهمك سعادته.. حتى لو مش معاكِ..

ورحلت..

هل سقط المعبد!..

نعم، لكن لحسن الحظ.. هناك ضحية واحدة!..

***

كان عاشقا خاسرًا فاختار الطريق الآمن نحو السلامة..

اختار النجاة..

أحكام القلب تسيرها عاطفة لا تقبل مساومة، أهدته خيارًا واحدًا.. أن يتبعها..

وحينما تبعها بمحض إرادته؛ كسرته!..

لذا قرر العقل التدخل، والإمساك بزمام الأمور..

وأول أحكامه الزواج من ابنة العم..

ظل واقفًا يرمق القطرات الخافتة التي تضرب الجدار الزجاجي لمكتب أبيه بشرود.. لقد ألقى إليه بالخبر أو الطلب لا فارق ووجد منه الصمت والتفكير..

تفكيرًا مبهمًا دون معالم تفسره جعلته يحترم سكونه ويتجه نحو الجدار ليراقب هبوط الشمس بالأفق ومطر "أبريل" يودعها بعبور لطيف..

"ليه يا مروان!"..

استدار بوجهه إلى والده الذي سأله فجأة بدهشة فأردف بتوضيح:

- ليه سما!..

ارتبك لحظة.. وما المشكلة في أن تكون هي!..

هز كتفيه ببديهية والتفت بكامل جسده محتفظًا بيديه بجيبي سرواله:

- سما بنت عمي وبنت خالتي.. شايف إنها مناسبة ليَّ كزوجة..

أمال "أدهم" رأسه مدققًا في وجه ابنه الغامض:

- يعني مافيش مشاعر!..

دقق بقلبه..

فتش بعنف، دار في غرفاته غرفة غرفة..

وخرج منها بهزيمة جديدة واراها بجواب محايد:

- في مشاعر أكيد، توافق، احترام.. غير إنها جميلة وأي حد ممكن يعجب بيها..

- بس مافيش حب!..

أدهشه سؤال والده ثم تذكر أي عاشق هو فابتسم:

- أنا مش مستعجل على الحب.. يجي في وقته..

تأمله والده بحنان أب يريد لابنه سعادة الدنيا:

- وليه ما تستناش لحد ما تقابل الحب ده!..

يتذكر أنه تخطى الثلاثين بما يقرب من أربعة أعوام حتى وجده، فما وجه العجلة مع ابنه الذي بالكاد يخطو نحو الخامسة والعشرين!..

انتظر حتى عثر على عشق أغنى القلب عما سواه..

لمح انحناءة فم ابنه ببسمة بها حيرة وشيء من فكر التبس عليه قانون الحياة.. حيث العشق، اللا عشق.. والفوز لمن يثبت جدارته:

- ولو ما لقيتهوش!..

أشاح بذراعه كأن ما سيقوله هو فطرة الوجود:

- مافيش حد ما بيلاقيهوش.. مهما اتأخر ومهما قلت خلاص مافيش أمل..

- وليه ما يكونش قدري ألاقيه مع سما!..

نهض والده يتجه إليه، يواجهه ويربت على كتفه برفق:

- لأن لو كان مع سما؛ كنت لاقيته من زمان..

هز رأسه ببسمة ساخرة:

- لأ.. هو الفكرة إن أنا لحد قريب كنت لسه شايفها طفلة..

رمقه والده بحذر مستفهم تجاهل السؤال فيه وأعاد طلبه بحزم أكبر:

- كلم عمي يا بابا..

وطمأنه بربتة من يده لكف أبيه فوق كتفه:

- أنا اخترت سما..

الخيار ليس دومًا للعشق الكامن بالأفئدة..

بل أحيانًا للقدر..

أو للعقل الذي ارتأى أن في الحياة ما هو أَولَى من خيارات القلب..

***

خيارات العقل هي خسارات قلب..

هي قرارات لا يرضى عنها الجميع.. بل يرفضها بعضهم بقوة وعنف، ويخشاها البعض الآخر وتروعه توابعها!..

أبيه أخبر أمه.. وأمه كما علم منها وهي تقف بمواجهته الآن أجلت إخبار العم حتى تتحدث معه وتكرر سؤال والده وإن كان بعاطفة امرأة!..

ويجيب بذات الجواب، فهو لا يملك غيره..

هو الحقيقة التي لا مهرب منها ولا تزيين لها، الواقع كما رسمته ريشة القدر..

ووالدته قررت سلك درب المشاعر التي أعلن تمرده عليها ونكرانه لها بل وجحود خافقه بها:

- يعني ما بتحبهاش!..

زفر وتحرك نحو حمام غرفته، خلع قميصه بحركة سريعة، غمر رأسه بالماء أسفل صنبور المغسلة ورفعها يجفف وجهه وشعره والقطرات المتساقطة فوق صدره وعاد إليها:

- في حاجات مهمة برده زي الحب، ممكن الحياة الزوجية تعتمد عليها..

- بس هي بتحبك..

مط شفتيه وتوجه إلى خزانة الثياب يجذب قميصًا آخر:

- دي حاجة كويسة..

- لأ يا مروان.. أنت مش بتحبها، ولو ما حبيتهاش هتأذيها..

التفت إليها بحدة غير مصدق اتهامها له:

- أأذيها!.. دي بنت عمي.. ليه متخيلة إني ممكن أجرحها؟..

اقتربت والدته تربت على صدره بحنو، تستدعي صبره وتحاول تفسير كينونة العشق لعقل هارب منه وقلب تخلى عنه:

- لأنك حلمها يا مروان.. ولو اتحققت وبقيت واقع غير اللي هي بتتمناه؛ هتكسر قلبها..

اكتنفته حيرة للحظة..

ترددٌ ما وخوفٌ.. من الغد، عليها.. على حياة قد لا تستقيم.. لكن من قال أن الحب هو أساس كل زواج ناجح!..

من قال أن تحقيق الأحلام يكسبنا القوة الكافية لنحيا!..

هو الألم وحده معلمنا ومرشدنا..

ابتعد عن أمه وفتح نافذة غرفته يطالع الأفق بغياب:

- الواقع غير الأحلام يا ماما.. يمكن لازم نتوجع عشان نفوق ونعيش الحياة الحقيقية ونبص لها من الزاوية الصح..

- لأ.. مش لازم نفهم الحياة عن طريق الوجع..

ابتسم غائبًا عما حوله سوى صوت خطواتها من خلفه:

- الوجع هو اللي بيفوقنا، غير كده بنفضل عايشين الوهم..

واستدار ليواجه عينيها بنظرة لم تستطع إدراك مغزاها:

- بنفضل عايشين في أحلام ما بتتحققش..

تأملته لثوان تحاول الغوص بأعماقه..

لطالما كان ابنها غامضًا مبهمًا قليل الكلام ومشاعره مدفونة على بعد سحيق حيث لا تصل إليها عينا مهتم..

لكنها تتمنى له السعادة ولطفلة شقيقتها حبًا تستحقه..

تلك الطفلة الوردية الحالمة الرقيقة كفراشة عهدها كله بالزهور، فلم تلتقِ بالأشواك بعد!..

همست باسمه بضعف أم:

- مروان..

وهو أهداها بسمة أسبغ على الطمأنينة قدر ما أمكنه:

- ما تخافيش عليها يا ماما..

مدت يدها تحاوط بها وجنته، تربت عليها.. تفتش في عينيه عما يخفيه ولا ينطق به لسانه:

- أنا مش خايفة عليها بس، أنا قلقانة عليك..

وأعادت الربتة واليد الثانية تهدي موضع قلبه رفق لمستها:

- مش لازم نعيش الواقع بكسرة قلب..

أمسك بيدها عند وجنته وضمها مع الأخرى بين كفيه، لثَّم كل منهما بحنو نادرًا ما يظهره:

- العلاقات المبنية على اختيارات العقل أقوى وأصح..

نعم هو اختارها بعقله.. هي من تناسبه، هي التي سيدعمها في كل لحظة لكنه سيكون على رأس أولوياتها حين الخيار!..

هي جميلة.. ناعمة، خجول.. تجيد دورها كأنثى..

عاتبته "جمانة" بنظرة منها ونبرتها مغمورة بعاطفة أمومية:

- يمكن أنت اختارتها بعقلك بس هي اختارتك بقلبها..

ابتسم وداعبها محاولًا تلطيف الموقف الذي لا يدرك سبب اشتعاله:

- كويس.. هيبقى في توازن..

بادلته البسمة فهو وإن كان رجلًا الآن لا طفلها الذي اعتاد التعلق بعنقها في كل دقيقة؛ لكنه لايزال غرًّا في هذا العالم..

بريئًا لم تلوثه خبرات الحياة بأوجاعها وقسوة طرقها في تعليم من يعبر جسورها:

- لا يا مروان..

عقد حاجبيه بحيرة فأردفت بعطف:

- هيبقى في خلل.. مافيش علاقة صحية واحد من أطرافها بس هو اللي بيغذيها بالمشاعروالتاني مجرد مستقبل..

صمت بوجوم لمحته لتتمم حديثها بسرد أخير:

- هييجي وقت والمشاعر هتخلص.. هتُستنزف..

وواجهت عينيه بقوة تخبره عن حقيقة واحدة لا خيار بديل عنها:

- ساعتها الطرفين هيخسروا، هيتوجعوا.. اللي اختار العقل، واللي ضحى بالقلب..

ولَّاها ظهره يتأمل القمر الذي توسط كبد السماء بدرًا تامًا بضياءٍ فضي ساحرٍ وصمتت هي تنتظر قراره الذي أكد عليه باترًا كل فكرة ترده عنه:

- أنا اخترت سما..

كرر الاختيار..

كرر العزم..

وأخرس اعتراض القلب الذي توارى مهزومًا بين جنبي رجل..

رجل ضل طريقه عند مفترق العشق ليسقط في متاهاته!..

***

خرجت والدته ودخلت هي..

بملامح مرتابة.. ساخطة، منفعلة وشفاه مزمومة توحي بسجنها لكلمات جارحة ربما!..

ما بهم جميعًا؟..

يشعر وكأنه بمحاكمة غير عادلة على جريمة لم يرتكبها، بل لا يدري عنها شيئًا.. وكل من حوله قضاة وجلادون..

استقبلها بنظرة باردة وسؤال مستهجن:

- جاية تكملي المحاضرة!..

واجهته بثبات..

هو محض رجل أحمق، وكونه أخيها الأصغر لا يعفي جيناته من قسوة الرجال وغلظة قلوبهم.. بإشارة مبهمة وراء ظهرها ونبرة بارد جاوبته:

- لا.. هو الحقيقة ماما كفت ووفت..

كانت غاضبة.. روحها تحترق ولا تصدق أنه قد يفعلها:

- أنا بس عاوزة أعرف ليه سما بالذات!..

زفر بضيق ورمى بنفسه فوق فراشه يخبرها برفضه لذلك الجدال:

- عاجباني يا ملك..

ولم تفطن لإشارته!..

وجدها تطل عليه من وقفتها بعين مستفهمة فلم يجد بُدًا من معاودة الجلوس والتوضيح بصراحة:

- عاجباني كأنثى..

ولم تخجل بل طغى حنقها وخوفها على كل شعور حاضر حتى وإن كان عليه هو:

- لأ.. أنت عاجبك مشاعرها وحبها ليك..

تصلب جسده بصمت.. كيف تفكر فيه!.. أما هي فلم تلتفت لتغير ملامحه أو جمود عينيه:

- عاجباك الحالة فبتستغلها..

- ملك!..

زعق بها فانتفضت تتراجع خطوة متعثرة بعيدًا عنه.. ولم يأبه لارتجافة حدقتيها، بل ولاها ظهره متجاهلًا وجودها.. تماسكت بأنفاس متلاحقة ولم ترحل..

توقن أن والدها لن يدقق في أسباب، ووالدتها لن تفكر في قلبه الذي سكنته غيرها وتظنها مازالت تفعل..

هي وحدها من تعلم!..

غيرت نبرتها وخففت من حدة هجومها.. هو أخيها؛ لا تشكك فيه لكنها تخشى عشقًا سيطر وتحكم بروحه ولم تنتهِ آثاره بعد.. اقتربت خطوة تطمئنه بها:

- مروان.. أنت كنت بتحب واحدة تانية من سنة..

رددتها بيأس فثبت دون استدارة.. دقيقة كاملة وبضع ثوان نظر إليها بإثرها وهو يعتدل مجددًا:

- وإيه المشكلة!..

سأل بلهجة جليدية وصوت مختنق:

- هو الحب حبل مشنقة؟!..

لم تدرك مقصده فعاد نحوها يحيط عنقه بأصابعه في وضع موت:

- بيتلف حوالين رقبتنا مرة واحدة وبس!.. كان غلطنا إننا آمنا بيه ومادام آمنا لازم نموت معاه!..

أوجعها قلبها عليه..

هي لم تقصد إيلامه أو اتهامه، لكنها ببساطة تعلم أن الحياة لن تستقيم بين طرف عاشق، وآخر يجحد بالمشاعر ولا يمنحها..

الحياة لن تكون عادلة بين طرف يعطي وثانٍ يسحب من رصيد عطائه دون حساب:

- لا يا ملك..

كان يكمل بلا توقف كأن الكيل قد فاض:

- الحب بذرة.. يا ترويها فتعيش وتكبر وتمد جذورها في قلبك، يا تتجاهلها ووقتها هتفضل مجرد بذرة لحد ما تجف وتموت..

يتحدث بصدق.. بألم أجاد إخفاءه أسفل عباءة القوة.. بصلابة هي طبع أصيل فيه:

- أنا مش فاهم أنتوا ليه خايفين عليها مني!.. دي بنت عمي يعني مستحيل أأذيها..

عاد لغضبه وحنق كلماته وحيرتها لتجيبه بما التبس عليه في غير وعي:

- لأن عمرك ما هتجسد حلمها بيك..

تكرر كلمات أمهما بمزيد من تفسيرما استغلق عليه:

- سما بتحلم بيك عاشق يا مروان، وأنت ما بتحبهاش هتكون...

- إيه؟.. قاسي!.. بارد!..

- أنت ليه مش عاوز تفهم؟..

جاء دورها لتزعق..

وبطباع أنثى فطرية تحنو بذات اللحظة في مزيج لا تجيده إلاها..

جاورته فأفسح لها، هزت رأسها وربتت على كفه.. بعدها احتوتها بين يديها تناشده التفهم.. والتعقل:

- البنت دايما بتحس إذا كان الراجل اللي معاها جواه مشاعر ليها ولا لأ..

هزأ من حالميتها التي تغرس نفسها بأعماقها حتى الآن:

- مش كلهم..

- ٩٠ %..

سحب يده منها وأبعد عينيه عنها:

- خلاص.. اعتبري سما من العشرة في المية الباقيين..

أمسكت بذقنه تعيد وجهه إليها:

- بالعكس.. سما رقيقة جدا وعاطفية وحساسة، هتكسرها..

تغضنت ملامحه كلها بانزعاج مستاءً من خوفهم عليها:

- في العلاقة دي هي هتدي كل حاجة.. قلبها وروحها وعقلها وهتاخد منك بس..

وصمتت في خجل تبحث عن كلمة تشي بمقصدها دون تصريح أمام أخيها:

- إيه!..

سأل هو وجبينه ينعقد في قنوط:

- وجودك معاها وبس، وجود بارد من غير حب..

ترجمت نيتها بأقرب ما لها من تفسير..

صمت.. صمت كثيرًا ثم ترك الفراش يدور في الغرفة بحيرة، يخلل شعره بأنامله ببطء، يلقي بنظرة لنفسه في المرآة.. يحك مؤخرة عنقه بتعب، وعاد إليها..

عاد بغضب متقد:

- ملك.. هو أنتوا مستكترينى على سما؟..

شعرت بدهشة فاستنكرت بسرعة:

- إيه!.. لا طبعا..

اقترب خطوة ومال برأسه مشيرًا بكفيه في تساؤل:

- طيب شايفينها ما تستاهلش الحب؟..

- إيه اللي بتقوله ده!..

لهجتها ممتعضة من وجهة أفكاره وهو يدنو أكثر:

- بلاش.. هو أن ماعنديش رجولة ولا أخلاق عشان تخافوا عليها مني للدرجة دي؟..

استقامت تواجهه وقد فطنت لغايته:

- مروان.. ما تقلبش الترابيزة..

ترك لانفعالاته حرية الظهور بفك مشدود ونبرة ثورتها مكبوتة:

- ماهو ده التفسير الوحيد لردود أفعالكم اللي أنا مش فاهمها لحد دلوقت..

وترك لها الغرفة بخروج عاصف وزعقة محتدة متذمرة:

- ما كانتش جوازة دي..

كادت تناديه.. ترق لحاله وتهدهد قلبه.. تخبره أنها تريد صالحه، هي أخته التي تهتم لأمره..

لكنها تراجعت..

تجمدت بوقفتها وتنهيدة حارة تخترق صدرها وضلوعها برحيل عسِر..

فلا أحد يتعلم درسه بالطريقة السهلة..

ولا عاشق يختتم حكايته دون أن يبدأها أولًا..

***

العشق قرينه الألم..

علاقة طردية، دوامية لا مستهل لها ولا خاتمة..

وكلما ازددت عشقًا تعاظم خوفك..

خوف الفراق!..

حوف الغياب!..

خوف الخيانة وانكسار القلب..

خوفًا يقهر روحك فيكبل جموح قلبك وحرية عقلك بقيد الاستسلام..

ليوم كامل استسلمت..

كانت في حالة من الجمود.. الوجوم.. عدم التصديق، القلب يستنكر والوقائع تنبئ بحقيقة واحدة..

زوجها يحب أخرى!..

سمعت صوت خطواته بالمنزل فانكمشت على نفسها أكثر بفراشها.. تريد المواجهة ولا تدري كيف!..

ترغب في الصراخ.. الغضب.. الرحيل، وكل ما فيها واهن لا يكاد يقيم أود خافقها الذي يؤمن به ويختلق له الأعذار ويسوق لأجله المبررات..

الآن هو معها في الغرفة.. يقف بالقرب وظهرها إليه، أتراه يتأملها!..

بم يفكر!..

هل يتساءل عن طريقة سلمية يصارحها بها!..

ابتعد..

فطنت لتحركه نحو خزانة الثياب فاعتدلت برجفة تسيطر على كل خلية فيها:

- هتتجوزها؟!..

توقف.. احتار.. فكر.. فهم.. وتنهد ثم استدار بيأس:

- هو ده السؤال الجديد!..

انتصبت تسير بتعثر، تقابله بنظرة تلوم.. تعاتب.. تحرق، وتحبس العبرة:

- هتتجوزها؟!..

بذات النبرة والضعف والألم.. أغمض عينيه يعتصرهما لحظات ثم فتحهما يواجه عينيها بقسوة من حقه:

- تفتكري لو عاوز أتجوزها هاستنى الإذن منك!..

واللعنة عليه..

لا يُطمئن.. ككل رجل لا يجيد احتواء مخاوف امرأته حين تحتاج!..

لم يكتفِ بتجاهله لما يحرق أنوثتها وروحها بل جذب ذراعها بقبضة فظة وبعينيه يتراقص لهيب مضطرم:

- أنتِ عارفة إيه المشكلة في الحدوتة دي كلها!..

ارتعشت وتغافل..

دمعت وتجاهل..

تشبثت به نظرتها في احتياج وهو وحده يحترق فلا يشعر به أحد؛ فلمَ عليه أن يبالي!:

- أنا..

انحنى يلاقي تشتت مقلتيها لا يفاوض.. لا يناور.. لا يتردد:

- أنا المهرج في السيرك ده..

واحتدمت نبرته بحروف مشتعلة:

- مفروض عليَّ أضحك الجمهور مهما كان اللي جوايا..

ثم دفعها ودار حول نفسه بهياج طال أسره بعقال حكمة لا يراها سواه:

- كله بيضغط..

سدد لكمة للخزانة بعنف لم يأبه لألم يده بعدها:

- كله بيدور على راحته وأنا مطلوب مني أدور على راحة الكل..

وضربة تالية تبعتها التفاتة وزعيق حانق:

- ماحدش بيفكر فيَّ..

سبابته تنغز صدره كرصاصة طائشة أخطأت الطريق إلى قلبه فتركته حيًا بالوجع.. والندبة..

مدت يدها تمسك بيده، تتعلق بها كأن الفراق قد آن أوانه وتلك هي لحظات الوداع:

- طيب هي راحتك مش معايا!..

انتزعها منها يشير لها باتهام غاضب:

- شذى.. أنت شايفة وشك؟.. سامعة كلامك؟..

ضم قبضته أمام فمه ينفث فيها جحيم أنفاسه فتكاد تحرقها، أبعدها وأدانها في قضية خاسرة:

- ربنا بيقول "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا".. يعني أنتِ مني، نفسي.. أنتِ السكن اللي لما أتعب أترمي في حضنه وأرتاح..

واقترب بنبرة شابها لمحة من هدوء..

هي حياة اختارها، مرة وثانية وحتى الأبد.. فليسعَ لنجاحها رغم الخيبات ويُسر الانقياد خلف الإخفاقات المتتابعة..

أمسك بمرفقيها وأهداها صدق نبرته وحروفه:

- أنا اخترتك.. وفي كل موقف ومع كل ضغط باختارك..

واحتوى وجهها بين كفيه متناسيًا غضبه واستياءه:

- محتاج منك ثقة إني مش هاكسر وعدي ليك..

كان يطمئنها ويطمئن نفسه.. يعدها ويقسم على البر بالقسم.. يقبل جبينها ويريح وجنتها فوق صدره:

- محتاج السكن اللي في حضنك..

ورأسه تميل لكتفها وأنفاسه تناوش عنقها:

- محتاج منك إيمان بينا، مش الشك والخناق والخوف..

أبعدت نفسها عنه أو أبعدته عنها.. تنظر إليه بجرح وصوتها مختنق بدموعها واتهامها:

- أنت قلت لها أنك بتحبها..

عقد حاجبيه..

البلهاء أخبرتها..

هل تظن أن بإزاحتها من طريقها سيكون لها!..

هل ترى الصدع الذي شرخ الصورة فيما بينهما أم تتجاهله!..

رفع رأسه للسماء بتنهيدة وإغماضة ثم عاد لعينيها باعتراف أمين دون التفاف حول حقائق عارية خُلع عنها رداء الجهل والتغافل:

- أيوة.. أيوة قلت لها إني بحبها..

شهقت وعبراتها تنساب كسيل حار.. شهقت بوجع..

شهقت من طعنة خدعت جوارحها وحواسها فلم تنتبه لها إلا عندما انغرست بقلبها العاشق:

- وأنا كنت فين من حياتك وقصة الحب دي بتتولد!..

صرخت بها..

أنّت ونحيبها يخترق صدرها بقسوة.. ومع صرختها حررت نيرانه من سيطرته فهاجم وهو كان على وشك أن يستكين:

- ماكنتيش لسه موجودة يا شذى..

وفكر ثانيتين قبض على ذراعها بعدهما يواجه عينيها بهياج:

- أو جايز اتولدت على إيديكِ أنتِ..

ابتسم بسخرية ذاق مرارتها قسرًا:

- لما نبهتيني لمشاعر واحدة تانية بدل ما تبعدي تفكيري عنها..

جذبت يدها منه..

نأت بنفسها بعيدًا عنه وغضبها يوازي غضبه حدة واشتعالًا:

- كمان مشاعرك بقت ذنبي أنا!..

وهاجمت بضعف مفاجئ وخسارتها تلوح في الأفق.. خسارة لا تتحملها:

- طيب ليه اتجوزتني!.. ليه بتوجعني وأنت وعدتني إنك..

- وعدتك إني إيه!..

كان يزعق في مقابلها ووجهه محتقن:

- مش هاكسرك؟!..

وأداها بما برأ نفسه منه:

- أنا وفيت بوعدي، ومكمل يا شذى.. بس في كل مرة أنتِ اللي بتختاري الوجع..

ترك صدى كلماته يرن بالمكان..

يتردد بأذنيها صاخبًا مخيفًا وغادر المنزل كله صافقًا بابه من خلفه بعنف كاد يخلعه..

غادر ونسيها خلفه..

نسيها هي ودموعها!..

***

الخوف درس والقسوة درس ثانٍ..

خافت من هجر والدها لتخبرها قسوة صديقها أنها حرمته أبسط حقوقه عليها..

عندما أنكرت أبوته..

وألغت عقابه بمحاولة انتحار..

ترى أن معه الحق، لكن الضعف يسوغ لنا كل ما هو محرم..

أن نبتز المشاعر ونسرق الاهتمام، نسطو على القلوب وننهب منها كل ما نحتاج!..

وضعفها أباح لها كل الوسائل نحو غايتها..

غاية وصلت إليها حينما اقتربت من الموت وحظيت منه بذكرى لن تنمحي..

أطلت بوجهها من باب غرفة أبيها لتراه مستريحًا بالفراش وبين يديه كتاب ما.. تنحنحت برقة فرفع رأسه إليه وابتسم:

- تعالي يا تاليا..

استجابت لطلبه بالقرب وجاورته تفرك كفيها بارتباك وتردد جعله يتأملها بتساؤل..

تساؤلًا عجزت عن إجابته فألقت ما بجعبتها كأنما تتعجل إنهاء الأمر:

- بابا.. أنا مستعدة دلوقتِ لعقابك اللي أستحقه، وصدقني المرة دي هاتحمله..

أدهشته!..

حباها بضمة وبسمة حانية:

- هاعاقبك على غلطي من البداية يا تيا!..

رفعت وجهها إليه فأخفض عينيه ليلاقي نظرتها المستغربة:

- أنا اللي ماكنتش صريح معاك، نسبتك ليَّ وما عملتش حساب إن الحقيقة عمرها ما بتندفن للأبد..

ومسد خصلاتها القصيرة بيده في رفق:

- الحرام أنا اللي ابتديته لما كتبتك على اسمي أنا وعلا.. بس كل غلط ممكن يتصلح..

تراجعت تتطلع إليه بوجل.. تهيب جواب ما ستسأل عنه:

- يعني يه!..

أهدى جبينها قبلة دافئة وأراحها فوق صدره:

- سيبي بكرة لبكرة.. إيه رأيك لو أحكي لك حدوتة!..

زوت ما بين حاجبيها بتعجب، وشفتيها تقتنصان بسمة تائهة:

- حدوتة!..

- أيوة.. حدوتة عني أنا وماما..

برقت عيناها وتألقتا وهي تنتفض بنظرة مبتهجة:

- حدوتة رومانسية!..

قهقه بخفوت وأومأ موافقًا..

أسندت ذقنها لقبضتها ترتكن بمرفقها لركبتها في ترقب جائع.. وهو اعتدل قليلًا وبدأ يسرد عليها بنبرة حانية ما لا تعلمه:

- شوفي يا ستي.. أنا وماما اتقابلنا أول مرة بعد ما كنت جاي من لندن وخلاص قررت أستقر في مصر وشغلي هناك بيديره مجلس إدارة أنا مشرف عليه..

- أنا عارفة ده..

قاطعته بلهفة وتعجل، وكزوجنتها بسبابته يوبخها:

- سيبيني أكمل..

هزت رأسها ليبتسم ويستطرد في حكاية قديمة لم ينسَها؛ فصاحبتها هي بطلة روايتها الخاصة الآن!..

- كنت لسه خارج من قصة حب مش هاقول فاشلة، بس أنا ما نجحتش أكملها لآخرها.. حبيبة كانت محتاجة مني ثقة وقوة وقتها ماكنتش لسه أقدر أديهم لها.. بعدت في البداية وقلت أصفي ذهني وأفكر بعقلانية ومنطقية وأخلي آخر حكم لمشاعري.. بس هي فهمت إن دي النهاية، ووقت ما أخدت القرار ورجعت لها؛ رفضتني.. قالت لي إن الشرخ اللي حصل بيننا مهما تجاهلناه هيفضل موجود، ومع كل ضربة جديدة تتعرض لها حياتنا مع بعض زي أي زوجين الشرخ ده هيكبر ويوسع لحد ما يحصل الانفصال اللي ممكن نتفاداه لو بعدنا من دلوقتِ..

رمقته بنظرة عاطفية حزينة أزالها بربتة من يده على وجنتها:

- بعدها قابلت علا..

غاب في ذكرى اللقاء.. النظرة والبسمة وجديتها في التعامل معه واقتضابه هو:

- بدأنا نشتغل سوا.. مش هاقولك جذبتني من أول مرة، تجربتي اللي لسه منتهية كانت سايبة أثر جوايا خلاني أدفن نفسي في الشغل وبس..

وجدها تنظر إليه بتأهب كأن لحظة الحسم قادمة فعادت إليه ابتسامته:

- العلاقة بدأت صداقة، اندماج في الشغل وتقارب الأفكار.. نتغدى ساندويتشات في المكتب، نشرب شاي وقهوة ونسهر على صفقة مهمة.. ومع الوقت..

توسعت عيناها قبالة شروده:

- مع الوقت لقينا إننا بنكمل بعض، في بيننا حاجات كتير مشتركة، خدت بالي من عينيها وابتسامتها وعنادها وكبريائها وقوتها.. وخدت بالها إن نظرتي ليها اختلفت.. وقتها عرضت عليها الجواز..

وتوقف يفكر مغمغمًا بنبرة من الماضي:

- لأ.. قلت لها: إحنا لازم نتجوز.. لما بصت لي بدهشة وقبل ما تسأل عن أي حاجة كنت باعترف لها بمشاعري.. مشاعر يمكن ما كانتش زي العواصف والأعاصير بتاعة العشاق؛ بس كانت بتزيد في كل لحظة ومع كل يوم بيني وبينها بتتحول للمودة والرحمة..

مد يده إليها فألقت بنفسها بين ذراعيه:

- لحد ما نورتِ دنيتنا..

وأمسك بذقنها يجبرها على لقاء عينيه الرؤوفتين:

- اللحظة اللي شيلتِك فيها بين إيديا، لما كنتِ في حضني صغيرة قوي، ضعيفة قوي.. أقسمت إني هاحميكِ من كل شرور الدنيا، أقسمت إني هاعوضك اللي مامتك اتحرمت منه مهما كان التمن..

دمعة لا معنى لها ارتحلت تتمرد على جفنيها، مسحها بإبهامه وأعادها لصدره بضمة قوية:

- تفتكري ممكن أكسر وعدي!..

تشبثت به وهي تدرك مقصده..

لقد منحها خيط البداية.. أغدق عليها بالأمان والحنان والطمأنينة..

والآن كل ما يريده منها.. هو أن تحيا، أن تصمد في حرب مع عالم يفترس الضعفاء ويرقص مُرحبًا بالشياطين..

أما الطرف الثالث في هذه اللعبة..

فهو صاحب المبدأ.. الذي لا يهتز لخوف أو وهن؛ وهي.. ستكون منهم!..

صادفت عيناه الواقفة قُرب باب الغرفة تتأملهما بعاطفة ومحبة، فهشَّ لها عندما انسحبت بهدوء..

الليلة.. طفلتها عادت..

عادت لأحضان أبيها التي هجرتها من قبل..

***

أخبرته والدته أن والدة العروس وبين قوسين "خالته" ترغب في لقاءه منفردًا..

بمكتبها!..

وهو قرر أن يصل مع تلك العائلة الغريبة لنهاية الخط..

بات يراها زوجته بالفعل ولا يريد سواها، فليرَ إلى أين سيصل به المطاف!..

دخل ليجد ترحيب مساعدتها الودود.. أوصلته لغرفتها فاستقبلته بابتسامة وهي تغلق ملفًا بيديها ليبادر هو بشقاوة:

- إيه يا لولو!.. جايباني المكتب كارت إرهاب ولا إيه!..

أشارت إليه وهي ترفع حاجبًا واحدًا:

- اقعد يا ولد..

خطا نحو الأريكة العريضة بركن المكان وارتمى فوقها بضحكة:

- ولد!.. طيب احترميني شوية ده أنا هابقى جوز بنتك..

نهضت تتجه إليه، تجاوره وتخلع منظارها لتطالعه عيناها بتفحص:

- أنا لسه ما وافقتش..

تظاهر بالصدمة ووضع كفه فوق موضع قلبه بحركة مسرحية:

- بقى كده يا لولو!.. وأنا قلت أنتِ اللي هتفهميني..

استرخت في جلستها ورسمت قناع الجدية على وجهها:

- بطل هزار وقبل أي حاجة أنت تقولي يا خالتو..

- ماشي يا حماتي..

ابتسمت رغمًا عنها فصفق بمرح غريب عليه:

- أيوة كده.. دلوقتِ نقدر نتفاهم، مش هاغلبك في موضوع الستاير والنجف على فكرة..

كان متوترًا..

وتوتره ينعكس عليه بعبث لا يجيده..

ما الذي أصابهم جميعًا!..

لمَ يحاكمونه لرغبته في الزواج من ابنة عمه.. حتى وإن كان اختارها بالمنطق والعقل دون المشاعر!..

"ليه!"..

سألته بملامح ثابتة لا تشي بانفعال محدد.. وهو أدرى بخالته أستاذة المحاماة الشهيرة.. يعلم عن لقبها في عالمها..

"وجه البوكر"..

لقب ينبئك ببساطة أن ما تراه منها خلاف ما يدور بداخلها.. ففضل الصراحة والصدق:

- وليه لأ!..

أهدته نظرة حازمة تمنعه مناورات لا يتقنها على أية حال.. مط شفتيه وأردف:

- بنت عمي يعني عارفها كويس، مناسبة ليَّ.. وكمان شايفها بنت جميلة ورقيقة..

عقدت ذراعيها تتأمله بتدقيق، شعر أنها تود لو فتحت دماغه لترى ما يصول ويجول هناك:

- طيب ما ده مش جديد.. أنت لسه واخد بالك!..

شرد لحظة بابتسامة متسلية:

- بصراحة!.. أيوة..

سرق منها دهشة وهو يكمل ببساطة:

- من قريب جدا.. قبل كده كانت لسه طفلة في نظري..

أخبرته بسلاسة الكلمات وقسوتها وإيثارها كأم لطفلتها على الكون:

- يبقى ما عندكش نظر يابن جمانة..

اختطفت هي منه ضحكة سريعة بعدها أشارت إليه ليستمر بحديثه:

- كنت لسه شايفها البنوتة اللي باتخانق أنا وهي على التاب وأغلبها في الشطرنج.. اللي وقعتها مرة في حمام السباحة ونطيت وراها لأنها كانت ما بتعرفش تعوم..

- يااه.. لسه فاكر!..

استعادت معه الذكرى..

يومها رعبها وصل مداه وهي تركض إليها..

يرى هو محاولتها الفاشلة للطفو دون جدوى، حينها قفز وراءها وأعادها لطرف الحوض لتتلقفها ذراعي أمها وتأنيبها له وغضبها منه ثم خصامها الذي دام لأكثر من شهرين..

وهو يحب خالته للغاية فكان ذلك عقابه..

همس واللحظات.. الذكريات.. البراءة واللهو وكل ما كان يعاد بذهنه:

- في حاجات ما بتتنسيش..

ورمقها بنظرة صادقة:

- البنت الرقيقة دي عملة نادرة حاليا..

صمتت تبتلع أسبابه.. تطوف حوله بنظرة بها من الشك الكثير، والخوف أكثر.. اعتدل يواجهها بحزم:

- أنتِ خايفة عليها مني؟!..

- لأ..

هل تجامله لتطمئنه بثقتها فيه أم تنكر لأنها تكره الخوف!..

- أنا خايفة لأنها رقيقة قوي..

وكأنها تخبره كم هو خشن جاف لا يليق بصغيرتها الناعمة!..

كان ذاك دفاعها الخارج من قلبها وحده.. قلب الأم الذي سأل رغمًا عنها:

- بتحبها؟!..

تنهد بابتسامة مطمئنة مزيحًا الحب خارج تلك المعادلة:

- هو لازم أي علاقة سليمة تكون مبنية على الحب والمشاعر!..

واقترب في جلسته منها:

- كلنا عارفين قصتك أنت وعمي.. حتى عمتي..

طرقت رأسه بيدها برفق:

- ما تلفش وتدور عليَّ يابن جمانة..

ضحك ثانيةً واحتوى كفها بين يديه:

- أنا اللي رباني أمي والأستاذة لميا.. تفتكري ممكن أأذيها..

- بقصد لأ..

- ولا من غير قصد..

زفرت هي، وتركت الأريكة لتدور في المكان بتفكير:

- دي حاجة ما نقدرش نحكم عليها دلوقتِ..

تأملها قليلًا ثم قرر أن يعلم رأيها هي..

من اختارها لتشاركه حياته دون غيرها:

- هي عرفت؟..

استدارت إليه بنفي مقتضب:

- لأ..

توجس بعض الشيء وأفكاره تتزاحم بعقله في صراع مجهول:

- يعني أنتِ مش موافقة!..

صمتت..

صمتت كثيرًا حتى آمن أن كلمتها التالية ستغلق الباب بوجه..

صمتت ووقفت تراقب السماء التي تسلل إليها الظلام ببطء والقمر يدنو من بعيد بخيلاء يستحقها..

عادت ترنو إليه ببصرها..

تتأمله وتتمعن في ملامحه.. تفتش في دواخله الغائبة عن عينيها لكن قلبها يستشعرها.. قبل أن تبتسم..

تبتسم وتمد يدها إليه بسعادة:

- تفتكر أنا أقدر أرفض عريس زيك يا سعادة السفير!..

انتقلت سعادتها له بينما يركض إليها ويقبل رأسها:

- مبروك يا حبيبي..

أخيرًا غنِم ما أراد.. وعلى ما يبدو أنه حارب لأجل امتلاكه!..

***

هل تتحقق الأحلام!..

نعم..

باندفاع وجموحٍ وجنون وذهول.. نعم!..

وعندما تحقق حلمها؛ تجمدت..

والدها ببساطة يخبرها أن حلمها يريد الزواج منها!.. أن تفكر وتأخذ وقتها في التفكير ومنحها أسبوعًا كمهلة متاحة!..

أن تصلي استخارتها وتسأل ربها توفيقًا لما فيه خيرها وخيره..

وقبَّل رأسها ثم ترك لها ولتوأمتها -المستنكرة- الغرفة..

وتجمدت..

تصلب جسدها فوق فراشها، تحبس أنفاسها.. تجاهد لاستيعاب ما أُلقي على مسامعها في غفلة من قلبها المشتاق.. و"صبا" تراقبها وعلى شفتيها تعبيرًا مستهجنًا وبعينيها نظرة رافضة:

- صبا.. هو بابا قال إن مراون طلب إيدي!..

كادت تصرخ فيها.. توقظها من غفوة دنيا الأحلام الوردية فالواقع قاسٍ لا يتحمل براءتها:

- لا.. قال إنه طلبك كلك على بعضك..

سخرت منها لأن بديل السخرية سبابٌ ربما..

قطبت "سما" جبينها بضيق:

- أنتِ مستفزة..

- وأنتِ ساذجة..

مطت شفتيها بتعبير طفولي يؤكد على أفكار شقيقتها التي تركت فراشها وجاورتها بعناد غاضب:

- ما بيحبكيش..

قابلت عنادها بتحدٍ:

- أنا بحبه..

هزت "صبا" رأسها كأنها على وشك الإصابة بجلطة من تلك الحالمة:

- حبك لوحده مش كفاية يا سما..

وفسرت بمزيد علّها تفيق وتدرك إلى أين تخطو قبل السقوط:

- أيًا كان السبب اللي خلاه يطلب يتجوزك فهو مش حب..

وصلت الوردية لنهاية الحلم بصفعة عقدت لها حاجبيها قبل أن تعلن استسلامها لما تفكر به توأمتها وكونها لن تسعى بعد الآن لتغييره:

- صبا أنتِ توأمتي.. ممكن أطلب منك طلب!..

رمقتها بنظرة حذرة مستفسرة فأكملت:

- ابن عمي اللي نعرفه كويس ومتربيين معاه عاوز يتجوزني..

واستقامت واقفة تضم يديها عند صدرها وقلبها ينبض بعنف حتى شعرت أنه سيحلق محطمًا ضلوعها:

- ابن عمي اللي بحبه.. وأنا سعيدة..

ثم دارت حول نفسها بفرح يزورها للمرة الأولى:

- الحقيقة أنا طايرة من السعادة..

توقفت فجأة تهديها نظرة حانقة متطلبة:

- فممكن تفرحي لي وما تبوظيش سعادتي دي!..

تهدل كتفا "صبا" بيأس..

من أكثر منها يسعد لسعادتها!..

من غيرها يتوازى كل شعور بداخلها مع ما بنفسها!..

لكنها لاتزال تحاول حمايتها:

- أنا خايفة عليكِ..

- مروان عمره ما هيأذيني..

طمأنتها بحروف تطارد حروفها:

- ومتأكدة إننا لما نقرب من بعض هنلاقي سعادتنا سوا..

ظلت تتأملها لثوان ثم تبعتها تضمها بحنو:

- مبروك..

وجذبت أذنها بتنبيه كأنما خُلقت لتعترض:

- وبرده صلي استخارة..

ضحكت لها.. ووافقتها..

ليس لأنها لا تعرف ماذا تريد؛ بل لتسأل الله أن يجمعها به..

وأن يجعل فيه الخير لها..

وأن يبعد عنهما كل شر!..

***

هي اللعنة الأبدية..

هي تعويذة سيطرة لا تنحل..

هي سحره الأسود..

وتميمة زائفة منحها له ساحر شرير فلم تمنحه الحظ السعيد!..

وهي التي تقف بينه وبين صهباء مهرة كشبح أصر على مشاهدة لحظة حضور امرأة أخرى بحياته!..

لحظة وثقتها تلك المرأة بغلالة حريرية نبيذية اللون، تتناغم مع خصلاتها الطويلة التي يراها تستريح بدلال فوق ظهرها للمرة الأولى، وتتناقض في ثورة مهلكة مع بشرتها القشدية الخالية من كل عيب..

دنت منه وهو على وقفته ببذلة العرس الأنيقة، دارت حوله بخطوات مغناج وبنبرة أبحة مغوية بحثت عن رضاه:

- إيه رأيك؟!..

ازدرد لعابه والطيف الرقيق الخجول يتوارى فرارًا من الصورة بعد حرب أصبح فيها مهزومًا:

- عاجباك.. صح!..

حينها كانت تواجهه، تلامس أعلى ردفيها بأنوثة وتعض شفتها السفلى في دعوة صريحة:

- أبقى أعمى أوكداب لو قلت غيركده..

أخبرها وتنهد.. أو زفر يحرر أنفاسًا حارة حبسها بصدره، بخبرتها تدرك منذ أن باتا وحدهما أنها هنا معهما..

زوجته السابقة التي استأثرت بالعشق في قلبه..

هي لم تكن تبحث عن مشاعر..

هي تريد السيطرة الكاملة أيًا ما كانت الوسيلة التي تهديها لغايتها!..

السيطرة على رجل..

والسيطرة في عرف النساء منذ عصر الكهف كانت.. بالفراش..

سيطرة استجاب لها الذكر بغرور وصدقتها الأنثى لأنه فقط يمنحها بقدر ما يريد بعدها.. مستمتعًا بما تبذل من جهد، متفضلًا بما يناسب مزاجيته!..

هو يعجبها في الواقع؛ فبعد لقائها الأول به قررت أنه يناسبها تمامًا، يناسب طموحها العملي، ويناسب روح التحدي بداخلها..

تحدٍ بدأته بنية محو من سبقتها بحياته.. استندت لكتفه بكفها وبسبابتها دارت حول ملامحه بنعومة وهمس حميم:

- You see me sexy!..

في تكوين كل ذكر.. أن تبحث أنثاه عن نفسها بعينيه هو انتفاخ مستحق لذكورته:

- أكيد..

وأن تفتش عن رغبته بها، هو خيلاء جدير بها كبرياءه وفحولته:

- عاوزني!..

والسبابة المثيرة تركت وجهه إلى عنقه نحو تفاحة آدم تدور حولها بإثارة، ثم فتحة قميصه عبر ربطته المحلولة:

- رولا..

أنبَّها بضيق طفيف غلبه العبث:

- جاوبني..

تصر وتغوي وتحيطه بحرارة جسدها وأنفاسها..

ومنحها الجواب..

جوابًا عمليًا بذراع جذبت خصرها وأخرى اعتقلت نصف وجهها وعنقها وشفاه التحمت بشفتيها دون صبر.. دون رقة.. وباشتهاء أشعرها بالظفر..

ظفر اختلط بغباء أنثوي معتاد وهي تبعده لتسحب شهيقًا حادًا:

- أنا راهنت نفسي إني هاحرك مشاعرك أكتر من دي.. اللي لسه بتحبها!..

أطفأت نيرانه بحماقة لا تليق بمن هي مثلها..

بغيرة استهجنها، غيرة لا تناسب ثقتها وقوتها ولا تلك العلاقة بينهما..

أطفأتها بلحظة.. واستعرت مقلتاه حين قرر أن يكون الفائز والغنيمة هي..

أبعدها يتعمق بعينيها بغموض لم تستوعبه للمرة الأولى بينهما.. غموض توجست منه، بل أخافها وهي امرأة لا تخاف!..

وقبل أن تجادل، أو تشن هجومًا تظنه حقها؛ اجتاحها هو..

اجتاحها حد الألم!..

***

الحلم لم يتحقق وحسب..

فالتحقيق لا يوزاي تجسده ملموسًا.. محسوسًا كيدها بدفء يده..

كعينيه اللتين لا تفارقان ملامحها.. وتتعمقان في تفاصيلها مسببًا لوجنتيها حمرة خجل آسرة..

كابتسامته لها من بعيد عندما أعلن بلهجة واثقة.. "قبلتُ زواجها"..

وترك مكانه وعناق يد أبيها ليواجهها، يهدي رأسها قبلة ويتمتم لها بتهنئة هادئة ونظرة غامضة:

- مبروك يا حرمنا المصون..

أراد أن يضحكها لكن ارتباكها منعها فأومأت بصمت وهمس غير مسموع رسم على شفتيه بسمة..

بسمة لاتزال مبهمة كنظرته التي لم تفطن لمعناها إلا بعد أن رحل الجميع عن مكان الحفل البسيط بحديقة منزل والدها..

وبقيت هي.. وهو!..

خجلها وتأمله..

هروبها ومطاردته..

براءتها وغموضه..

نهض فجأة ومد كفه إليها، نقلت بصرها من الأرض إليه فهز يده يحثها على الإمساك بها.. امتثلت بحياء ليجذبها ويأخذها في تمشية هامسًا:

- عارفة عاوز أقوم من هناك ليه!..

نفت بسكون وخطواتهما تبتعد نحو الباحة الخلفية بعيدًا عن الأعين المراقبة:

- عشان اللي على شفايفك ده مش عاجبني..

أخيرًا أجبرها على النظر إليه وإن كان بدهشة:

- مش عاجبك اللون!..

ولمست جانب ثغرها بتقطيبة بريئة:

- صبا قالت لي إنه حلو عليَّ..

- ما أنا عارف إنه حلو..

توقف لتواجهه مستغربة:

- بس أنت قلت...

أوقف اندفاعها بلمسة من سبابته لشفتيها:

- قلت مش عاجبني.. يعني ماحدش يشوفه غيري..

لم تفهم!..

وهو لم يوضح، تناول محرمة ورقية من جيبه وببطء بدأ يمحو اللون الوردي المتوهج بقتامة مغوية..

ظلت ساكنة..

واجمة..

متصلبة..

مشدوهة..

وهو يتمم عمل أنامله بشفتيه في قبلة أولى..

طابعًا بروحها وقلبها وفوق شفتيها.. ذكرى البداية!..

(٢٦)

بيني وبينك مسافة شعرة..

وبين قلبينا نهر من ألم..

عذوبة مائه مِلح أُجاج..

لا يروي من عطش..

كما العشق في أرض جافة..

لا يسمن من جوعٍ!..

هل يباح لنا أن نختلس من الزمن لحظة نترك فيها العنان لأرواحنا!..

نتسلل معها لعالم الأحلام حتى وإن أتت بنفسها لواقع نحياه!..

نترنم لها بترنيمة سلام تسحبنا وإياها لأرض الخيال!..

بنعم بسيطة أجابت..

حتى وإن لم يكن ما بقلبه يشبه احتلاله لكل ما فيها..

نسجت من عشقها أسطورة توجته بطلها وتؤمن أنه الفارس الذي استحق ذلك الدور.. هي الأميرة المأسورة، وهو المحارب الباسل الذي سيحررها من أسر قوى الشر!..

وردية..

حالمة..

نقية..

تعيش بدنيا الروايات وخيالها الرحب..

كلها صفات أُلصقت بها كأنها عيوب تنتقص من كينونتها لكنها لا ترى في أيها عيب..

زفافهما يقترب، بعد نهاية اختبارات عامها الجامعي بأسبوعين حُدد الموعد، ومع كل يوم يمر تتضاعف دقات قلبها بجنون وكأن ذلك أمر منطقي..

بعد عقد قرانهما وعندما تحدثا سويًا عن المنزل الذي سيقيمان به أخبرته أنها تريده بعيدًا عن الجميع..

مملكة صغيرة لا تزيد غرفاتها عن اثنتين، ومعيشة كلاسيكية بألوان فاتحة، مطبخ واسع تتفنن فيه كطاهية هاوية.. وشرفة ضخمة بها مقعدين فقط مع طاولة بجوار أرجوحة..

في طابق عالٍ يرى العالم بأسره أدناه..

حلم رقيق يشبه ورديتها.. سخرت منه توأمتها تغيظها:

"إيه جوعش العصفورة يقضينا ده!"..

ولم تكترث..

حلم مسَّ بروحه شيئًا فأعلم والده به متخطيًا اعتراضات الأهل، مساندًا لها في اختيارها..

كان عشهما الدافئ بأحد العقارات المسؤولة عنها شركة زوج عمتها، ها هو شبه منتهٍ إلا من لمسات طفيفة تخصها أتت اليوم وتوأمتها لتنهيها قبل التفرغ لاختباراتها..

وهو علم بمحض مصادفة مبهجة أنها هناك.. في بيتهما معًا فقرر اختطاف لحظة سعادة برفقتها..

وجوده معها يسعده، طيفها حوله يهديه راحة لم تطُف بذهنه أبدًا عندما اختارها، والآن ومع كل دقيقة يقضيها بصحبتها يزداد يقينه من كونها..

هي واحة راحته بعد تعب..

كان يفتح الباب بهدوء سعيًا لمباغتتها وإخافتها..

تبدو لطيفة عندما تنتفض وتشهق كطفلة بريئة، وهو يريد اقتناص ذلك اللطف..

ثم باتت المفاجأة قدره هو عندما خطا نحو غرفة النوم ليجد زوجين من الأعين تحدقان به:

- مروان!..

همسة مستغربة من "صبا" وعيناها تضيقان بتفحص، أجبر شفتيه على بسمة مجاملة والأخرى تفر من نظرته:

- صبا!.. أنتِ هنا..

نطقها بتقرير مستاء فتركت الفراش بنهوض حاد، تأملت ما يحمله واختطفت منه علبة:

- بيتزا!.. كويس أنك جبت أكل، هاموت من الجوع..

تخطته نحو المطبخ النظيف بتمتمة ساخرة:

- تقدر تعتبرني مش هنا؛ بس مش قوي يعني..

اقترب من عروسه بحاجب مرفوع:

- أختك مش راضية عني..

افتعلت ضحكة والخجل يتسلل بحمرته إلى وجنتيها كعادتها معه:

- حاطاك في دماغها..

- وبتراقبني وخدت أكلي كمان..

أغلقت الجارور الذي كانت ترتبه واستقامت تلتقط علبة البيتزا الثانية من يده:

- ناكل سوا.. بس مش هنا..

تأمل المكان حوله بنظرة مدققة شابها خبث:

- ليه!.. ده أحلى مكان للأكل هنا..

دفعته أمامها فثبت قدميه في الأرض يعاندها:

- لا طبعا، ممكن أي أكل يبهدل الدنيا..

نالت منه دهشة بينما يلتفت إليها باستنكار:

- يبهدل!..

هزت رأسها ببديهية وعيناها ترمقانه بتعجب:

- أيوة أكيد..

أبعد العلبة من يديها وألقاها فوق الفراش القريب، جذبها إليه بحركة خاطفة لم تستطع منعها.. واحتجزها بين ذراعيه يأسر ثغرها الناعم في قبلة أضاعت أنفاسها..

استهلها بلهفة، توسطها بحرارة ثم اختتمها بتمهل..

حررها فشهقت بلهاث بطيء، داعب وجنتها بظاهر أصابعه:

- أنا هامشي أصلا..

عاد يسرق واحدة ثانية:

- بس ده appetizer خفيف كده لحد يوم الفرح..

وتوجه بدفء شفتيه لجبينها متجاهلًا خجلها بابتسامة..

تابعت رحيله بوهج مبتهج يغرق مقلتيها وأناملها تتحسس شفتيها بشرود مع غيمتها السائرة في سماء الأحلام..

غيمة أسقطتها من عليائها نظرة توأمتها وهي تقتحم مجال بصرها بملامح متهكمة أغضبتها فأدارت وجهها عنها بحنق..

وعادت لما كانت تفعله..

أما عقلها وقلبها، فقد تناغمت بينهما تهويدة عشقه التي ترسلها بخيالها حيث يكون هو..

من سقطت بغرامه ولا تريد نجاة..

***

لا تفتش بروحي عن مسكنك.. فقد ضللتَ الطريق إليه!..

صعبة هي تلك القرارات التي يريدها العقل رُغمًا عن القلب، الاختيار الذي تحثنا عليه الكرامة ويقاتل لأجل تحقيقه الكبرياء متجاهلًا الضعف والهوان.. والعشق!..

ككل رجل كان..

أجاد تحوير الأمر وقلبه رأسًا على عقب ليصبح خطأها هي..

وككل أنثى تدفع الثمن الباهظ وحدها..

طوال الليل لم يعد للمنزل، لم تعلم أين هو ولم تحاول أن تبحث عنه.. فقط كان كيانها يرتجف ببرودة غير مفهومة..

أن يكون قد ذهب إليها!..

تلك التي اعترف لها بإثم الحب وصرح بذنب المشاعر..

أتراه وجد سكنه معها فارتحل لجوارها المطمئن مخلفًا إياها ورائه بمخاوفها وثقتها المزعزعة به وبنفسها!..

هل هي من رمته بين أحضانها وعليه فاللوم من نصيبها!..

ويتساوى الجواب إن أتى بنعم أو بلا.. هي سترحل، تلك المسرحية الهزلية المسماة بحياتها ليست بحياة.. لا تستحق الحرب، وخائن القلب الغائب ليس بغنيمة..

تغيبت عن الجامعة، لم تنهض من الفراش والساعة تجاوزت الحادية عشرة صباحًا، تشعر بثقل في جسدها وروحها يثبتها لمكانها بوهن..

نظرت نحو الوقت في هاتفها ثم انقلبت على ظهرها تتنهد بشرود..

حائرة في خضم أفكار متنافرة، كل منها تصارع جارتها فتهزمها تارة وتنهزم ثانية..

اعتدلت بملل..

الرغبة في كل شيء باتت باهتة لا تصلح للجذب ولا تثير الفضول..

غسلت وجهها، وازدردت شطيرة جبن بسيطة بعسر جوار رشفتين من كوب عصير بارد وقهوة!..

قهوة قليلة السكر تذوقها للمرة الأولى..

تلك قهوته، قدحه، وكيف يشتهيها!..

ابتلعتها قسرًا وعادت لغرفتها تجر قدميها.. منذ ما يقرب من شهرين كانت تريد ربط نفسها به للأبد، واليوم.. بل الأمس تلك الأمنية اندفنت بقبر خداعه.. وخيانته..

تناولت حقيبتها تلتقط منها العلبة الصغيرة وتذكرت شراءها لاختبار الحمل قبل ذهابها لجامعتها، قبل أن تفجر امرأة أخرى قنبلة الحقيقة بوجهها..

تأملته بشجن وقلبها يبتهل أن تخلو أحشائها من بذرته..

أن يكون رحمها شاغرًا من ثمرة عشق ظنته صادقًا واستيقظت عليه أكبر أكذوبة..

أكبر دعابة مثيرة للسخرية.. والمرارة!..

أجرته وجلست تنتظر.. تترقب ومقلتاها معلقتان بالخطوط التي تأخرت في الظهور كأنما تعجبها تلك النغمة الشاذة التي تلعبها فوق أوتار احتمالها وصبرها.. وخوفها..

ارتفع رنين جرس الباب فانتفضت بشهقة.. وقفت تضع يدها عند قلبها الذي تقافز بجنون بين ضلوعها وانتبهت..

هل عاد!..

ولمَ لا يستخدم مفتاحه!..

خطت للباب بتعثر لتكون المفاجأة من نصيبها:

- عمي!..

- إزيك يا شذى!..

- الحمد لله يا عمي.. اتفضل..

دخل العم بأريحية، ينتقي مقعدًا مريحًا فيتخذ منه جلسة ويغض الطرف عن توترها وشحوب ملامحها:

- هو.. جواد مش هنا..

ابتسم الرجل وأشار نحو أريكة تجاوره:

- عارف إنه في شغله، أنا جاي لك أنتِ يابنتي..

ارتبكت أكثر..

فركت كفيها بسؤال مبعثر كبعثرة كيانها:

- طيب حضرتك تشرب إيه!..

- اقعدي يا شذى يا بنتي.. هم كلمتين ورد غطاهم..

وأورد كل أفكارها مورد التهلكة بخوف جديد، بابتسامة أرادها مطمئنة لتظهر أمام عينيها كتكشيرة ضارية عن أنيابه في استعداد لافتراس ما تبقى من الروح فيها:

- شذى أنت بنتي، مش هاقول زي.. بس بقيتِ مرات ابني وبنتي..

هزت رأسها بهمهمة مختنقة مررها هو باستطرادة غير مبالية بردها:

- ومريم كمان بنتي..

رفعت وجهها إليه بحركة حادة كادت تقتلع عنقها من منبته بينما يردف بلا رحمة:

- شرع ربنا يا بنتي بيقول مثنى وثلاث ورباع.. والمثل كمان بيقول اخطب لبنتك..

عرقلت كل الحروف بحلقها غصة حبست أنفاسها وقتما استمر في جلد قلبها بسوط الغدر:

- أنا وأمها مصيرنا نموت، وهي مالهاش غيره.. مش هنطمن عليها إلا معاه..

رجفتها التقطتها عيناه وآثر الغفلة:

- البنت بتحبه من زمان وكنا بنقول هياخد باله، كبرت وإحنا بنقول مريم لجواد..

أهداها بسمة أبوية بدت غريبة بنظرها:

- اعتبريها زي أختك أنتِ كمان، وما تحرميش عليه شرع ربنا.. هو عامل حسابك، بس لما تيجي منك أنتِ هيعرف مقداره عندك..

- وأنا!..

همسة متحشرجة، مبحوحة شبه مسموعة:

- أنتِ مراته حبيبته، وهي مالهاش غيره..

واستقام يبتر كل فرصة اعتراض قد تجول بخاطرها، يربت على كتفها ويهديها خيار النجاة:

- فكري يا بنتي.. أكيد راحته وسعادته تهمك..

لم تشعر بشيء بعد كلماته..

كل ما تواتر لأذنيها كان صوت الباب يُقفل من خلفه..

ورحيل ما تبقى بقلبها من عشق معه!..

نهضت بجمود تعود لغرفة نومها، لم تذرف دمعة وشفتيها مضمومتان بصلابة عجيبة.. التقطت اختبارها الذي تركته عندما استقبلت ضيفها لتصفعها نتيجته بألم قاسٍ..

هي تحمل طفله!..

انهار الجمود وتفتت الصلابة وتقوض سد كتمان الدموع..

انطوت على نفسها بالفراش، نظرتها ضائعة في الفراغ وجسدها يرتعش كأنما تخوض غمار ألف شتاء مدفونة تحت أطنان من جليد..

صامتة..

منكمشة..

والخيار صعب، فأيهما تصطفي وكلاهما علقم!..

هل مرت ساعة!.. اثنتان!.. ثلاث!..

هل تعدى الوقت الثالثة بالفعل وهي على ذات الوضع!..

لأن مفتاحه يدور في الباب!..

خطواته تقترب وانتباه مباغت جعلها تمسح وجنتيها.. تعتدل في شبه جلوس وتخفي الاختبار في قبضتها المغمورة بين ساقيها..

دلف للغرفة يتأمل انكماشها..

نظر للملف الصغير في يده ودار حول الفراش يواجهها.. لم ترفع وجهها إليه فتنهد وجثى هو على ركبة واحدة وصولًا لمستوى عينيها الباهتتين، يده امتدت لساقها تربت عليها بحنو أرجفها فنأت عنه.. عاد يتنهد:

- شذى..

حجبت صورته عنها تعتصر جفنيها بإغماضة خذلان.. اعتدل يجاورها وذراعه تمتد لتحيط بكتفيها..

ترفض ويعاند..

تبتعد ويصر.. حتى أسكنها صدره مكرهة، يقبل رأسها ويحيط وجنتها بكفه:

- أنا آسف..

لاحظ انتفاضتها.. عادت للبكاء وذاك أكثر ما يهديه العجز، جذب وجهها يطوقه بكلتا يديه، يحاصر بصرها كله دون أن تفلت منه نظرة:

- ما تعيطيش..

ومسح دمعاتها بإبهاميه في لطف:

- والله أنا عاوز أسعدك..

تشبث كل ما فيها به إلا العقل الغاضب هرب عنه بعيدًا وحقد عليه وعلى أبيه وكل ما دفعها لدوامته حتى وإن كان قلبها هي.. شريكه في جسدها:

- طيب أنا عندي الدليل..

لهفة ملقتيها رسمت على شفتيه بسمة مشفقة وهو يميل ليقبض على الملف الذي تركه أرضًا.. يضعه فوق قدميها ويلامس خصلاتها بعاطفة:

- ده عقد عمل، كنت قدمت عليه من كام شهر..

على عكس ما توقع انتحبت بصوت أعلى وهي تفارق ضمته:

- هتسافروتسيبني!..

كم ود لو كسر رأسها الأحمق ذاك!..

شيطان الغضب اقترب يفرض سيطرته لكن قلبه وقف له بالمرصاد وهو يقود الطريق إليها:

- أنتِ مجنونة!.. هاسافروأسيب مراتي حبيبتي بعيد عني!..

تأملته بحيرة.. باحتياج:

- طيب يرضي مين ده!..

- يعني إيه!..

بالكاد سمعها..

أعادها لأحضانه ويده تمسد ظهرها صعودًا وهبوطًا:

- يعني هاسافرالأول، وشهرولا شهرين أكون ظبطت أموري هناك..

وأبعدها يؤكد على عينيها وقلبها:

- بعدها هابعت لك تحصليني..

- بجد!..

كانت تنطقها كطفلة تشعربالحرمان، ويدها تمسك بقميصه في أمل.. أملًا أكده عندما تراجع أكثريحتويها ببصره.. بكيانه وابتسامته ورفقه:

- شذى.. أنا بحبك..

وتلك هي الكلمة التي تحتاجها..

عبرة تسللت تتعلق بأهدابها مع حديثه، مال برأسه وهزها كأنه لا يصدق ما جعلها تمر به:

- بحبك.. واخترتك حبيبتي ومراتي وعاوزك أم ولادي، عاوزك معايا لحد آخر يوم في عمري..

ناوشت بسمة شفتيها..

ناوشتها فحسب ففي اللحظة التالية هاجمتها ذكرى ساعات مضت، حديث أبيه.. طعنات كلماته.. وتلك القطعة البلاستيكية المخفية في قبضتها:

- جواد..

استجاب بنظرة واعتقلها هي الصمت..

سقطت كل حروفها في بئر الضياع وأفكارها لاتزال في تلك الحرب الأزلية رغمًا عنها..

وهو حاول استيعابها..

استيعاب مخاوفها وطمأنتها، مد يديه يقبض على يديها لينزلق اختبارها الإيجابي من بين أصابعها..

أمام عينيه!..

تناوله بحيرة والسؤال يقفز لذهنه قبل أن يترجمه لسانه:

- أنتِ حامل!..

مسحت وجنتها وشفاهها المزمومة تسجن صوتها بموازاة إيماءة..

إيماءة بنعم..

نعم قلبت ملامحه للنقيض ولمعة سعادة تغزو مقلتيه، بهجة تنقش نفسها فوق ملامحه بينما يقف ويجذبها بين أحضانه باعتصار أصدر منها أنَّة:

- حامل!..

ومع أنَّتها تراجع باعتذار:

- آسف..

يده تلامس بطنها برفق، وضحكة متقطعة حائرة لم تستوعب كامل الصورة بعد:

- حامل..

والأخيرة يبدو أن عقله قد اقتنع بها عندما سحبها بين ذراعيه مجددًا، يقبل رأسها ووجنتيها ويدفن أنفه بعنقها:

- مبروك.. مبروك يا أم خديجة..

مع أنفاسه الدافئة أخيرًا شفتيها مالتا ببسمة مشتتة:

- خديجة!..

أبعد رأسه دون أن يحررها:

- أيوة.. أنا عاوز بنت وهاسميها خديجة.. شبهك، مجنونة زيك.. بس تبقى حنينة عليَّ..

ثم داعب أنفها بأنفه:

- عشان مامتها قاسية وشريرة..

تقوس فمها ببؤس شبه جاد:

- أنا قاسية!..

أكد عليها بشقاوة والبهجة تجتاحه:

- وشريرة..

حررت نفسها بتردد، تشتت نظرتها أنبأه أن الأمر لم ينتهِ بعد فانتظر وطال انتظاره حتى ناداها بهمس:

- شذى!..

- عمو عبد الرحمن كان هنا النهاردة..

ارتد خطوة وحاجبيه ينعقدان..

والده أتى لمنزله دون سابق إنذار!..

وفي غير حضوره!..

مع عينيها.. دموعها.. انكسارها وفرحتها المبتورة خمن الأمر وتأجج الغضب بكيانه كله فأشعله بلهيب مستعر..

صمت قليلًا في محاولة للتماسك، قال بعدها بنبرة جادة مخيفة أقلقتها:

- يبقى لازم نفرحه معانا، حفيده جاي في السكة..

ولأول مرة تفهمه..

نحَّت قلقها جانبًا وتطلعت إليه بعين تخالف كل ما سبق..

تراه أمانها ورجلها.. حبيبها وزوجها، اقتربت هي تريح كفيها عند كتفيه:

- بجد فرحان يا جواد!..

- كأني ملكت الدنيا..

وكانت صادقة..

صادقة صافية حد أنها مست قلبها فنفضته..

صادقة حد أنها صدقتها..

فاستكانت إليه..

***

هو رجل سريع الملل وهي لم تكن فاكهة يشتهي مذاقها..

هي تلك الحلوى الجافة التي توجع أسنانه لكنه يستمر في التهامها.. لا يلتهمها بالضبط، هو فقط يعتز بها وبصداقتها وقربها..

هي صديقته التي يراها بشارب ويناديها باسم ذكوري لا يلائم نعومة تفاصيلها..

كاد يضرب ظهرها بكفه في خشونة كما يفعل مع أصدقائه من الرجال ثم تراجع في اللحظة الأخيرة:

- عطية.. حبيبي.. واحشني يا جدع..

كانت جالسة على سلم الكلية شاردة كعادتها مؤخرًا، وكلما اقترب ليتساءل عما بها تهربت وأنكرت، جاورها فابتسمت تستقبله:

- هتوحشني والله يا بن الحسيني..

وكزها بكوعه برفق:

- ليه يا عم!.. أنتِ هتقطعي علاقتك بيَّ بعد ما نتخرج ولا إيه!..

هزت كتفيها تفكر في الغد.. في سفرها، وغيابها عن الجميع:

- أنا هاسافر مع جواد..

أهداها نظرة مندهشة فتوسعت بسمتها:

- أنا حامل يا آسر..

دهشته تضاعفت وهو يتفحصها بتأمل مستغرب..

هي لم تكن بشارب على كل حال، بل تلك الأنثى التي تسقط في الحب بيُسر، وتلعب بدماها كأنها أمهم بغريزة فطرية..

ليست كما كان يراها!..

ربت على كفها بابتسامة:

- مبروك يا شذى..

تراجع بظهره يستند لكفيه على الأرض ونبرته تتحول للجدية:

- هتوحشيني والله.. هتسافروا فين!..

- دبي..

- الله يسهله يا عم..

ضحكت بمرح غير مبرر.. فالخوف لم يبارح أرض قلبها بعد!..

- أنا بقى ورايا جيش..

رمقته باستنكار.. هو!..

لم يدُم استنكارها قبل أن تقرر مداعبته كما اعتادت:

- الجيش للجدعان..

- ربنا يستروما تقومش الحرب..

ابتسمت بافتقاد مبكر.. وعاد لعينيها شرودهما..

تطلع إليها قليلًا ثم نقر جانب رأسها:

- قولي يا عطا.. الغم اللي على وشك ده طبيعي ولا هرمونات!..

شهقت بحنق.. هذا الفتى لن يتغير، سيظل عابثًا وقحًا إلى الأبد..

نهرته بغضب:

- آسر..

استقام وبصره معلقٌ بأخرى رآها قادمة:

- شكلك لسه منكدة على الراجل عيشته..

لم تجبه سوى بنظرة ساخطة فمال يواجهها بمشاغبة:

- هيطفش يا نكدية..

انتوى الرحيل ثم توقف لحظة عائدًا إليها:

- عطية.. فرح أختي بعد الامتحانات بأسبوعين، لازم تيجي..

ولم ينتظر ردها بل ركضت خطواته نحو تلك التي استقبلته ببسمة..

بسمة ممتنة، ناعمة.. وعين متوهجة بالحياة!..

- آسر..

اقترب يغازل بعبث:

- أهلا بالقمر.. عملتِ إيه في امتحان النهاردة!..

لدهشته احمرت وجنتاها بينما تجيبه:

- الحمد لله..

وضمت يديها أمامها بتردد:

- آسر انا عاوزة أشكرك..

- على إيه!..

كان مستغربًا بحق..

رمقته بتقدير غريب:

- كلامك معايا.. أنا كنت محتاجة أسمعه..

ابتسم برقة لم تعهدها فيه من قبل، ودنا خطوة ثانية ممارسًا مكره الذي لا يحيد عنه:

- any time.. تعالي وأنا في الخدمة..

تعلقت عيناها به وهي تعض شفتيها في ارتباك:

- مش هاشوفك تاني!..

ناداه أصدقائه فالتفت يشير إليهم قبل أن يعود إليها بجواب سريع:

- يا بنتي تليفوني معاكِ.. أنا كلها شهر وشوية وورايا جيش، فأكيد عاوز أشوفك في أجازاتي..

- بجد!..

وسؤالها مغموس بأمل لم يستعصِ عليه إدراك سببه:

- بجد..

بغمزة خاطفة ووداع..

يصاحب ابتعاده تنهيدتها..

تنهيدة وازت أمنية بأن يتقاطع دربيهما في يوم ما آتٍ..

هو صديقها الوحيد..

ويد القوة التي امتدت لتنتشلها من قاع أوجاعها بعد سقطة موت!..

***

يذكر الشيء بالشيء..

وعندما يذكر العشق؛ تذكر هي!..

هي الفكرة والتطبيق..

هي النية والفعل..

هي اللغزوالتفسير..

هي القلب وهفواته والروح وزلاتها..

وهي حاكمة دولة العشق في مجرة موازية.. وهوكل شعبها!..

لذا فالتنازل بقانونه غير مشروع، بل ويعاقب عليه بالسجن المؤبد في حالة حب ميؤوس منه..

أنهت رقصتها مع أخيها وختم هو رقصته مع صغيرته الوردية التي تُزف اليوم بثوب يشبهها..

يشبه الأميرات..

منفوش ببذخ ومزين بالزهور الدقيقة الناعمة المتناسقة والمتماشية مع نعومتها..

قبَّل جبينها وعيناه ترتحلان مع خطوات تلك الهاربة نحو شرفة الفندق الخارجية.. بثوب داكن يتمازج بسحر مع لون عينيها..

كوجه قهوة بعد ارتشاف رغوتها..

رقيق ومتحفظ كأنما تعلن به "ممنوع الاقتراب.. فهذا القلب مغلق"..

لكنه كمقاتل باسل لن يتراجع عن حربه؛ تبعها..

كانت ترتكن بكفيها فوق سور عريض، تطوح برأسها للخلف ومع اقترابه لمح إغماضتها وتتابع أنفاسها بتسارع يخبر عن ألم..

هل تتوجع من شيء ما!..

لم يفطن إلى أنها الذكرى المحفورة بأبعد مكان من روحها.. استشعرت حضوره ففرقت جفنيها ليحتل وجوده بصرها بوسامته وبذلته الرمادية الخالية من ربطة عنق..

ابتسمت له فطوقها بنظرة دافئة أقلقتها..

هل ما يحاوطه من مظاهر العُرس يساعد على تدفق العشق بالقلوب!..

يحرر اللجام ويطلق التهور من عقاله!..

ربما..

لكنه الآن يريدها أكثر من أي ماضٍ قد رحل.. يريدها والصبر وصل منه أقصاه والكتمان لم يعد في حدود الممكن..

استند بمرفقيه للسور يجاورها وينظر للسماء بهدوء:

- أخوكِ خطف أختي..

أهدته نظرة خاطفة..

اللحظة ذاتها كانت مخطوفة.. أباح له قلبه سرقتها وأجاز لها هروبها اختلاسها:

- ربنا يسعدهم..

تمتمت بها باقتضاب.. تعود ركضًا من ذلك الطريق الذي يسحبها إليه..

لن تتحدث عن زواج، عن حب وغرام وقصص تنتهي بالثوب الأبيض والرقصة والقبلة..

هي ملَّت تلك الأحاديث، وفي عرفها باتت مجرد أقاويل لن تتخطى حاجز الإشاعات:

- بس ده مش عدل..

همسته المشاكسة حيرتها.. نبرته توجست منها فقطبت واستدارت بوجهها إليه:

- مش فاهمة!..

- المفروض أنا كمان أخطف أخته..

هدر بالتصريح القاتل وواجه..

واجه بكل جوارحه..

بعينيه.. بجسده في التفاف كامل.. بروحه وقلبه وكيانه حتى لو توارى عقله يخبره عن غباء وطيش..

تصلبت هي في استقامة وتقطيبتها تتضاعف والضيق يتسلل لملامحها تليه السخرية:

- كنت عارفة.. كنت عارفة إنك مش هتكمل في دور الصديق اللي حاولت تقنعني بيه..

ولم يكن ليتخلى..

لقد أطلق رصاصته وعليه انتظار وصولها للهدف:

- مستعد أكمل.. بس في حالة واحدة!..

وأحنى رأسه نحوها يحاصر بصرها باستحواذ صاخب لم تتحمله فتراجعت:

- وأنتِ مراتي..

اعتدلت تهديه صرامة قرارها بنظرة حادة:

- أنا مش هتجوز تاني يا يوسف..

اقترب خطوة ابتعادها يسيطر على محيطها وبصرها.. حتى أنفاسها:

- تراهنيني!..

تأهبت بعناد غاضب..

الآن هي ستفقد الصديق فيه وللأبد:

- أنت شايف الموضوع لعبة؟!..

نبرته.. عينيه.. صدقه وكل لغة متاحة ينطق بها جسده أخبرتها بإخلاص وبساطة وحزم:

- أنا شايفه حب ما ينفعش يموت، فعشان كده باقولك.. مش هيموت..

تهكمت وطرف ثغرها ينحني في شبه بسمة حانقة:

- وجبت الثقة دي كلها منين؟!..

- منك!..

استنكرت ملامحها جوابه وقبل أن تعلق بتر إنكارها:

- ملك اللي أعرفها مافيش ألم يهدها مهما الوجع اشتد..

وارتعشت..

سمحت لنفسها بلمسة خوف، استسلام لألم لم يرحل عنها بعد وتخشى أنه سيحتلها حتى النهاية:

- أنا مش سوبرهيرو يا يوسف..

همستها بصوت مرتجف.. مختنق، دموعه تراوده عن نفسه لتقتنص منه انتحابًا مكبوتًا أوجع حلقها..

وهو تجاهل كل تلك المعالم القاسية على قلبه بتأكيد يؤمن به:

- أنتِ بطلة قصتك يا ملك، ما تسمحيش لحد تاني يلعب في الحبكة أو يغير النهاية..

هزت رأسها وتباعدت..

هي امرأة تجيد التخلي وتتقن الكتمان، لذا تماسكت بينما تعلن بحسم:

- جايز.. بس مش هاسمح إنك تكون بطل جديد في الحبكة دي..

صمت..

صمت كثيرًا ليصدح بعد صمته بالغضب:

- ليه!..

أيظن أنها ستهديه الجواب ببساطة كسؤاله المحتد أو لهجته العنيفة!..:

- جاوبيني..

يأمر بحزم لا يحق له:

- عشان خسرت مرة وقمت وقفت تاني ومصمم المرة دي أحارب لحد ما أنتصر يا ملك؟..

هل يبرر لنفسه أم يشرح لها دوافعه!..

أباحت لجفنيها حرية العناق باعتصاريحجب عبرة عنيدة:

- عشان عاوزك تبقي مراتي؟..

- كفاية يا يوسف..

صرخت به.. وكررت الالتفات إليه وجنون اللحظة يتمكن منها:

- كفاية.. كفاية كلام بلغة الحروب، هي فعليا مش حرب.. لا أنت الفارس الهمام، ولا القائد اللي هينتصروكل جنوده مهزومين..

تجادل بفلسفة حمقاء قرر معها مبارحة أرض المعركة لأرض العشق:

- طيب نشيل الراء!..

تأملته بقنوط..

ألا يصيبه يأس يريحها من وجع الخوض فيما يجهل!..

ابتعدت تنأى بكل جوارحها عنه، تدور بعينيها في كل مكان إلاه ووجهها ينظرتجاه قاعة العرس:

- لا نشيلها ولا نسيبها.. الكلمة من البداية مالهاش مكان، مجرد حدوتة زي كل الحواديت وكان لازم لها نهاية تناسبها..

واختنقت بعبراتها فانطلقت منها شهقة خافتة قهرًا:

- حدوتة عادية عمرها ما كانت معركة.. ده ماضي، صفحة وانطوت وبعدها هافتح صفحة جديدة لبكرة وأمسح إمبارح منها بكل اللي فيه..

التقطيبة كانت من نصيبه في هذه اللحظة..

الاقتراب والإحاطة واليد التي امتدت وتوقفت قبل أن تنال منها لمسة محرمة:

- كل اللي فيه؟!..

الوجع في صوته أدركته..

لا تريد إيذاءه لكنه هو من ينبش عن آلامه برعونة طفل أخرق يعبث بسلاح والده وصمام أمانه يبيح له إطلاق النيران:

- يوسف أنا مش عاوزة أجرحك؛ بس في كل مرة أنت بتدفعني لكده..

تمتمت بأنين وخطوة تحركتها إليه:

- مش عاوزاك مجرد مخدر أغيب بيه عن الوعي أو مسكن يضيع الوجع..

- لسه بتحبيه!..

دمدم بها مهتاجة.. مسجونة، غاضبة وموجوعة.. همس بها بخوف، ونفت بصمت قصير فسَّرت بعده:

- الوجع مش لازم يكون بسبب الحب.. لكن بسبب الجرح اللي لسه بينزف..

- يعني للدرجة دي كنتِ بتحبيه..

بتلك الكلمات لم يسأل بل قرر، أجاب بنفسه عن سؤاله بقلب مجروح ونظرة قاتمة أسرعت تمحوها:

- لأ.. ما تتكلمش عن الحب، اتكلم عن الجرح.. جرحه كان قاسي وعنيف قوي، مش سهل يطيب أو يتنسي..

تراجع يتأملها..

يطوقها بناظريه فيما رأته أقرب لوداع..

وداع انقبض له قلبها وهمسته تسبق خطوات غيابه:

- فهمت..

- يوسف..

وهذه المرة..

لم يلبِ نداء ضعفها واحتياجها..

هو بيسر تخلى.. ورحل!..

***

السعادة كلمة ممطوطة؛ في كل موقف وبمفهوم كل شخص تتغير وتتباين معانيها..

والسعادة بعينيها في هذه اللحظة كانت أن "تنتهي مع من تحب"..

سعادة أهداها إياها القدر..

باتت زوجته.. له، وأصبح هو لها..

انتهى حفل الزفاف الضخم وحان وقت التوتر والارتباك.. الخجل والخوف، كعروس وردية بريئة لا تعلم شيئًا عن دنيا الرجال سوى ما بقلبها من عشق ويمتلكه مَن أضحى زوجها الليلة..

في جناح العروسين تشبثت بأمها، سكنت أحضان أبيها..

أوصاه بها توأمها بنبرة تهديد مداعبة أما الأكبر فقد ضمها بصمت، تمنى لها دوام الراحة وبعينيه حزن!..

وأخيرًا ودعتها توأمتها ورحلت بعدما جادت على ابن العم بنظرة محذرة كأنما تخبره أنه مراقب من قِبلها بالفعل، نظرة ابتسم لها بتفكه..

الآن راحت سكرة العشق.. وفرحته، وجاءت فكرة الانفراد وتبعاته..

هما الآن وحدهما!..

قبل دقائق ترك لها غرفة النوم يمنحها بعض الخصوصية ومسافة آمنة منه عندما لاحظ ارتجافها بعد رحيل الجميع..

خصوصية استغلتها بتوتر فخلعت ثوبها وانتهت من حمام سريع أزالت معه زينتها وعادت عقبه للغرفة، فوق الفراش تركت لها والدتها وخالتها..

غلالة!..

تأملتها من وقفتها بامتعاض.. ما هذا الشيء!..

هل يظنونها سترتديه أمامه!..

وردية كلونها الأوحد، حريرية قصيرة تصل لمنتصف فخذيها، بشُق عند ساقها اليمنى كأن ذلك ما ينقصها.. وحمالتين رفيعتين في تصميم بسيط يليق بها..

وضعتها فوق جسدها فانزلقت بنعومة.. أطلقت سراح خصلاتها الطويلة لتناوش ظهرها برقة وبحثت عن المئزر..

كان بطول الغلالة.. لكنه من قماش خفيف شفاف لا يستر شيئًا..

عضت شفتيها بحياء غاضب، رمقت المكان حولها بعجز حتى سقط بصرها عند مئزر الاستحمام الذي نزعته عنها للتو.. جذبته بلا تردد وتدثرت به..

توجهت للخارج بخطوات مترددة تفتش عنه.. عندما لم تجده وتناهى لمسامعها صوت هدير الماء في الحمام الآخر؛ تنهدت بارتياح..

كادت تتعثر بعربة الطعام التي أرسلها الفندق للعروسين، مع الرائحة أنَّت معدتها فجأة..

تبًا، هي تقريبًا لم تتناول إلا ما يقيم أودها منذ الأمس..

التوتر والارتباك وضغط اللحظات الأخيرة..

كشفت الأغطية عن الأطباق وبدأت تلتهم ما تطاله يداها بسرعة وصمت فلم تنتبه لعودته.. لم تلمح نظرته إليها ولا تأمله المستمتع لما ترتديه ولحركاتها وهي تحشر الطعام بفمها كطفلة مذعورة..

قرر اللعب قليلًا.. اقترب بهدوء دون أن يصلها صوت خطواته، وقف خلفها وعقد حاجبيه مصطنعًا اللامبالاة:

- بتعملي إيه!..

التفتت بانتفاضة لتواجهه.. لمعت عيناه قبل أن يحرر ضحكة خافتة بينما يراقب الكرتين اللتين تنتفخان بهما وجنتيها:

- أنتِ جعانة!.. ما أكلتيش من يوم البيتزا ولا إيه!..

أومأت بنعم ثم بلا.. الارتباك يتحكم بذراتها، والكلام محشور بحلقها كاللقيمات التي تصلبت بفمها وهو يجاورها:

- طيب مش تستني أبو عيالك يا فوزية!..

تصلبت أكثر ونظرتها ثابتة على العربة الصغيرة التي عبث بها قبل أن يتناول قطعة من اللحم ويعود ببصره إليها ليفاجئه جمودها..

هي حتى توقفت عن المضغ!..

أمسك بذقنها بين سبابته وإبهامه وحركها لأعلى:

- ابلعي يا سما..

استجابت بتعجل تعطلت معه كل حواسها وتوقف الطعام بمنتصف الطريق مطلقًا منها سعالًا قويًا مؤلمًا جعله يقدم لها كوبًا من الماء البارد بقهقهة عالية لم يستطع كبحها..

قهقهة أثارت سخطها فتغضنت ملامحها بطفولية عزم بعدها على استكمال اللعب، تظاهر بالجدية وهو يرتشف الماء:

- أنا عارف إن في ناس بتهرب بالأكل..

وأهداها نظرة جانبية ماكرة:

- من الخوف..

بترت هروبها بنبرة متحدية:

- أنا مش خايفة..

- بجد!..

- أيوة..

- قولي والله..

كانت تتراجع وهو يتقدم.. خطوة منها توزاي خطوتين منه:

- مش خايفة طبعا، هاخاف من إيه!..

حتى اصطدم ظهرها بباب الغرفة التي غادرتها قبل دقائق..

تيبس جسدها وهي تنكمش على نفسها حينما حاصرها بين ذراعيه، وبصوت هادئ خشن أتقن دوره:

- خايفة مني!.. من الوحش!..

زمت شفتيها وعينيها بوضع نصف إغماضة:

- أنت مش وحش..

رفع حاجبًا واحدًا وحافظ على صمته وتأمله وذات النظرة فعاندت برقتها:

- الجميلة حبت الوحش على فكرة..

رقة ساحرة كاد يتنازل بسببها عن إتقان اللعبة.. تماسك ورد بسخرية اختبئت بين طياتها قسوة لم ينتبه إليها:

- ما هو كان وحش كيوت، جاب لها فساتين ومكتبة أحلامها واللعنة بتقول إنها لازم تحبه قبل آخر ورقة من الوردة ما تقع.. كان مجرد أمير وسيم ملعون ماعرفش يبقى وحش بجد..

والتوى جانب فمه بشبه بسمة عندما مال برأسه يوازي وجهها:

- أنا بقى.. الوحش اللي هياكل الجميلة..

ثم صمت..

جمدت هي مقابله تبحث في نظرته عن دعابة مختفية، لم تعثر عليها فتمتمت بتوتر:

- أنت بتخوفني ليه!..

لم ينطق بحرف..

لم يتحرك..

عشر ثوان وملامحها أفلتت منه ضحكة مرحة جديدة أججت غضبها وهو يداعب وجنتها بسبابته:

- ماتعمليش فيها ستروج اندبندنت بقى..

- أنت بجد سخيف..

سبَّته بعنف أدهشه فتطلع إليها ثانتين أخريين وحاجبيها المعقودين يمنحانها هالة لطيفة، ابتسم لها وأنامله تمتد لخصلاتها:

- وأنتِ بجد لذيذة قوي..

أبعدت يده بحدة متضايقة:

- إيه لذيذة دي!..

زوي ما بين حاجبيه بشقاوة:

- دي حاجة حلوة على فكرة..

طوت ذراعيها فوق صدرها بمكابرة أنثى تولد له دون غيره:

- حلوة!.. ليه هو أنا بنت أختك اللي بضفاير!..

مال أكثر والمسافة إلى شفتيها تقصر:

- لأ.. أنتِ مراتي..

- طيب عاملني على إني مراتك لو سمحت..

غمزها بعبث وقح:

- والله أنا باحاول أتعامل على الأساس ده من أول ما دخلنا الجناح وأنتِ اللي معطلة المرور..

لم تفطن لمغزى كلماته ووجهها ثابت بتفكير حائر..

التقت بعينيه في تساؤل لتصادف المعنى بصدمة، دفعته بعيدًا وقررت الركض:

- أنت قليل الأدب..

تبعها وضحكاته خارج حدود سيطرته:

- استني بس.. يا مجنونة أنتِ، في حاجة مهمة..

توقفت تصدق جدية لهجته فأخبرها:

- اتوضي عشان نصلي..

عندها ابتسمت في امتثال راضٍ وسعيد..

سعيد بتلك اللحظة التي استحوذت على أحلامها حتى قفزت لأرض الواقع في غفلة منها..

أن تصلي وراءه.. هو..

أن يأخذ بيدها ويدعو..

أن يقترب ويضم وتستكين بين ذراعيه..

لكن.. هذه خطوة أخرى مؤجلة..

انتهيا، استقام واقفًا وكذلك هي.. ظلت بموضعها وهو يراقبها بحذر، عيناها مشتتان تدوران في كل ركن سواه حد بسمة مشاكسة ناوشت فمه، خطا إليها فلم تعِ اقترابه:

- أنت هتفضلي كده!..

همس بها بخفوت حميم، لم تدرك معنى سؤاله إلا وقتما أشار لوقفتها الجامدة وبخبث داعبها:

- مش هتقلعي!..

- إيه!..

بشبه صرخة وانتفاضة وتراجع، قلب كفيه يطمأنها وألمح لثوب صلاتها:

- أقصد ده..

تأملت ثوبها لحظة لتدرك أنها استبدلت المئزر به وما تحته لا يخفي شيئًا:

- لأ..

- ليه!..

- ماهو.. أصل.. أصل..

بررت بلعثمة بدت لعينيه فاتنة مع حمرة وجنتيها والتخمينات تتسابق بعقله:

- مش لابسة حاجة تحته..

هدرت بها باندفاع رفع له حاجبيه قبل أن تتحول نظرته للعبث:

- لأ.. كده أتصرف أنا بقى..

كاد يمسك بها لولا فرارها:

- مروان.. لأ..

وتصلبت عند جدار تمد يدها تشكل بها حاجزًا وهميًا بينهما، حاجزًا لم يوقفه:

- أنا لابسة على فكرة بس...

تراجعت أكثر حتى لم يكن هناك من مفر إلا أن يسقطها بين ذراعيه:

- أنتِ مجنونة والله..

لمس غطاء رأسها برفق يحاول فكه.. وآخر ما لمحته كانت انحناءة رأسه، وأنفاسه تلفح وجنتها بينما ينزعه عنها..

تنحدر شفتاه في استحواذ بطيء على شفتيها..

يهدي نفسه ويهديها حرية الغياب في لحظة.. لحظة امتلكت بها حلمها، وامتلكها هو بالكلية..

لحظة تلتها لحظات استسلمت للنوم خلالها فوق صدره ومع انتظام أنفاسها تنهد وابتسم..

وصدَّق على كلمات والدتها..

هي في رقتها لا تشبه أخرى، لقد غرقت في سباتها بعد دقائق معدودة!..

لم يكن يعلم أن الأمر لا يتعلق بالرقة.. بل بالحلم..

بحلم تحقق بين يديها وها هي الآن تستكين بين يديه..

مرت نصف ساعة تقريبًا والنعاس كأنما يخشى الإحاطة بعقله، مط شفتيه بتذمر وأخفض عينيه يتأمل هدوئها بحنق..

ثم عقد حاجبيه.. أتغير لون شعرها!..

حمرة الشفق الآسرة تبدلت للون الشيكولاتة الشهي..

لكن.. ماذا عن طوله!.. أأصبح أقصر!..

خلله بأصابعه في رفق فوجدها تتململ كقطيطة ناعمة، ترفع وجهها إليه ووجنتها تحتك بخشونة صدره.. لتقابله عاصفة ضبابية بين جفنيها..

إعصار رمادي اقتلع خافقه من مكمنه الآمن بين ضلوعه وذبحه في ثوان..

لقد كانت هي هناك..

"غرامه" الموسوم بختم الخسارة.. "غرامه" التي وشمت خافقه بعشقها ثم هجرته يعاني سكرات هوى نتيجته أتت حاسمة ومخيفة بجدارة..

"لم ينجح أحد"..

فهل يا ترى ما مضى كان هو الحلم!..

هو الوهم الذي ظل يخشاه حتى أقَّر أنه الحقيقة!..

أم أن الحاضر هو الحلم!..

الحلم الذي يتمناه ويتغاضى عن وجوده وعيه الصامد بعنفوان يحسد عليه ففرض عقله الباطن عقابًا موجعًا بهلاوس عنه!..

سكن عينيها بعينيه..

بل احتل بصرها ونظرة الغرام بغيوم مقلتيها تقتله..

حينها اختار اقتناص اللحظة..

اختطافها من كادر مخرج مبتدئ فشل في تحويل سيناريو كاتب مغمور لحبكة أنيقة تليق بالعشاق..

اختلس اللهفة.. اللمسة.. القبلة.. واستباح معها الشغف والجنون..

جنون هاوٍ في أرض العشق قرر احتراف التيه..

هو سقط.. سقط في ملكوت عاشق فاته مفترق الاختيار!..

***

ليت الحياة كرقعة شطرنج..

خليط بين الأبيض والأسود دون امتزاج..

دون مناطق رمادية محيرة، مرهقة ومخيفة!..

مناطق هشة لا تتحمل وقفتا فتسقطنا عمدًا، تسقطنا وتكسرنا..

انتهى من جنونه..

انتهى وقلبه ينبض بعنف لا يكاد يصدق ما مر به معها.. انتهى وألقى برأسه عند كتفها تاركًا لحرارة أنفاسه إحراقها..

انتهى ثم أفاق من غيبوبة عشق لا يحل للفؤاد الخوض في ظلماته..

ابتعد بغتة بصدمة، هل حقًا فعل ما فعل!..

تلاقت عيناه بعينيها.. تبدلت الغيوم العاصفة للعسل الرائق بشفافية خلابة، وظلت نظرة العشق الخالص على وفائها بدنياه..

مرر أنامله فوق ملامحها بضياع مؤقت ولسانه يندفع باعتذار مجروح مختنق:

- سما.. أنا آسف..

أحاطت وجنته تلامس ارتجاف فكه بكفها في رقة:

- حبيبي أنا كويسة..

ونطقت بعهد العشق، تطمئنه أنه لم يؤذِ جسدها.. لا تدرك أنه آذى قلبها بالفعل..

بخيال عن امرأة غيرها محاها من عقله ولو لدقائق من الجنون..

ارتمى على الفراش بجمود، احتل الفراغ المصمت كل ما فيه.. لتضيء ببرائتها ركنًا من كهفه المعتم وهي تنطوي على نفسها بنعومة فوق صدره!..

تجذبه من دوامة احتراق روحه بالغضب.. والخزي!..

لقد كانت أخته على حق..

هناك حبيبة لم تبارح قلبه بعد، حبيبة سيطرت على عقله في لحظة لا يباح وجودها بها..

وهناك عاشقة.. تسكن صدره وتمنحه نفسها حتى المنتهى..

ليخونها وهي بين ذراعيه بحضور أخرى..

هو بهذه اللحظة رجل ظالم!..

انتبه لانتظام أنفاسها فعلم أنها غرقت في النوم، تحرك بهدوء يبعدها عنه.. يغادر الفراش نحو الحمام بسرعة ومع قطرات ماء اختارها باردة احتدمت أفكاره..

كيف يفعل بها ذلك وكل إثمها أنها عشقته!..

ضرب الجدار بعنف وسبَّ نفسه مائة مرة، هي لا تستحق منه ما فعل.. لا تستحق أن يحشر واحدة بينهما بينما لم تقدم لقلبه سوى فروض العشق والولاء..

لا تستحق وهو من وعد بالأمان وعاهد بالصدق والوفاء والإخلاص..

فإذا به مجرد رجل خائن آخر!..

ونال الجدار الصلب منه ضربة ثانية، لم يشعر بألمها فاحتراق جوارحه يطغى على ما سواه..

مرت نصف ساعة وأفكاره المضطرمة لا تنطفئ..

تصليه عذابها والمياه لا تغنيه عن شيء، مسح وجهه بكفيه.. جفف نفسه ولف المنشفة حول خصره، خرج لتلفح عينيه نيران ثقتها به..

ثقة جعلتها تقبل اعتذارًا عن خيانة وتصدق أنه فقط يخاف عليها..

كانت نائمة بملائكية أوجعت بصره، تخطى الفراش بهرولة، سحب منامة طرحها فوق جسده ورحل عن الغرفة يرتمي على الأريكة خارجها..

ظل عقله في صراعٍ دامٍ حتى غاب بنوم متقطع غير مريح.. نوم استيقظ منه على هزة من يدها لكتفه وابتسامة خجول تهديه جمال صباح مبهج بكل ما فيها..

شرد لثوان.. كيف سيبرر غيابه عنها!..

ما دافعه للابتعاد وهي يجدر بها كل قرب!..

اعتدل يبادلها ابتسامتها قدر ما استطاع، يفرك عينيه بإرهاق ويمنحها ما تستحق..

سعادة وصباحًا يليق بأرق عروس:

- الفطارجه.. كنت نايم هنا ليه!..

استقام يمرر أصابعه بشعره وصداع يكاد يقسم رأسه، اقترب يلثم جبينها بقبلة طويلة ويجذبها بأحضانه، يهمس بمشاكسة تهبها نصيبًا من سعادة:

- صباح الخير.. قلت أديكِ فرصة تنامي وإلا كنت هاصحيكِ كل نص ساعة..

ضربت صدره بقبضتها برفق وحررت نفسها من ضمته بهروب يشبهها..

تابع ارتباكها وخجل خطواتها بعينيه للحظات ثم تحرك يغسل رأسه ووجهه.. بل في الحقيقة ترك الماء ينساب متخللًا خصلاته لدقيقة كاملة كأنما يطهر بقطراته ما علق به من خطيئة عقل..

عاد بعدها للجناح ووجدها تنتظره عند عربة الطعام.. تصب له العصير وتغدق عليه بابتسامة عشق..

بنظرة عشق..

بلمسة عشق عندما جاورها..

وعلَّق له ضميره مشانق الذنب مع كل لمحة منها.. لم يستطع التحمل فاستقام يجذبها إليه:

- إيه رأيك نروح مرسى علم يومين على ما يجي ميعاد حجز سيشل!..

أومأت بموافقة سعيدة أوجعت قلبه، ضمها يعتصرها بين ذراعيه ثم أبعدها وبدأ يتحرك بعشوائية كأنما أصابته لوثة..

يتناول الثياب فيرميها بالحقيبة المفتوحة بفوضى.. يتوقف ويفكر ثم يتذكر ويركض نحو الحمام عائدًا بفرشاة أسنانه!..

تأملت تخبطه لدقيقة بإثرها قطعت طريقه:

- اقعد أنت وأنا هاظبط الدنيا..

لم يوافق بل صدح بقرار:

- هاساعدك..

استسلمت لرغبته وهي لا تدري ما يمر به..

ما يشعل روحه وينهشه دون رحمة..

بعد ساعات من القيادة المرهقة وصلا للمكان، بمنتصف الطريق رن هاتفيهما وكانت صدمة الأهل عندما علما بهروبهما من الفندق..

ظل يداعبها طوال الوقت تقريبًا كأنما يعوض عن جرمه بحقها..

عندما دلفا لفيلا والديه اختار غرفة بعينها..

غرفة تصلبت قدماها عند بابها بزمة شفاه متذمرة:

- اشمعنى الأوضة دي!..

ابتسم بعبث وأشار للنافذة محكمة الإغلاق:

- ذكرياتها حلوة معايا..

وخطا إليها ببطء يضمها بعينيه قبل أن تلامسها يداه:

- دلوقتِ تقدري تقلعي براحتك..

وكزته في ذراعه بخجل رقيق..

احتوى وجهها بين يديه، يخوض في أعماق عينيها ببصره..

يبحث هناك عن مرساته..

مرفأه الذي يشتاقه بعد طول غياب عن اليابسة الصلبة التي يحتاجها لثبات عالمه..

وعند شفتيها نسي نفسه..

نسي ذنبه..

وكرر العهد..

هي تستحق منه كل ما فيه، بل امتلكته بالفعل.. حتى وإن لم يكن من بينها القلب..

بحق حبها.. وبحق شرع جعل منه زوجها..

***

تتساءل الأنثى على مدار الزمان..

لم تمنح قلبها دومًا لمن لا يستحق!..

لقد تزوج..

مرعام ونيف ثم تزوج!..

كأنها لم تمر بحياته أو تعبر عتبات روحه وتستحوذ على فؤاده كما صرح لها..

كأنها في لحظة كانت هنا وفي التالية لم تعد حاضرة..

كأنها نسمة عبرت حرارة صيفه عبثًا بلا انتباه..

مرت الليلة عليها كأطول مما تحتمل، هاتفها الذي أعلن الخبر تقبض عليه بيدها وهي منكمشة بفراشها..

لقد تخلى عنها فقط لأنه لم يفهم ما تحتاجه منه!..

تزوج بابنة عمه كقصة قديمة خرجت من كتاب بالٍ لن يهتم بقرائته أحد..

تزوج.. وانتهى..

مدت أصابعها تمحو عبرة ضعف وقلة حيلة وانكسار قلب، اللعنة عليه وحده دون غيره فقد سكب دموعها للمرة الثانية وهو حتى لا يدري..

شعرت بحضور والدتها بالغرفة، مجاورتها لها ثم ضمتها لظهرها وتربيتها على شعرها بحنو قلِق:

- غرام!..

اعتصرت أناملها الهاتف بلا وعي..

كانت "دينا" تعلم بالزفاف وموعده قبلها بأيام طويلة، فقد وصلت الدعوة لعائلتهم كما في كل مرة..

وأخفتها..

عن فتاتها وزوجها..

لكن في فضاء الانترنت الرحب كيف يخفى أمر كهذا!..

حاولت سحب جسدها لتديرها إليها:

- حبيبتي..

استجابت لها صغيرتها دون مقاومة وهالتها الدمعة التي تعلقت في منتصف الطريق بين هدر الكرامة وكبرياء النفس..

بين وجع القلب وصلابة الروح..

تهدل كتفاها بتعب على ابنتها:

- ما يستاهلكيش..

وربتت على جبينها ثم أهدته قبلة دافئة حانية:

- اللي ما يحاربش عشانك ما يستاهلكيش.. لو هيحارب المجتمع كله أو حتى نفسه وأنتِ شخصيا..

ضمتها لقلبها بإنهاك خائف:

- لو كان بيحبك بجد كان قدر يخطف قلبك، بس حبه كان مولود ضعيف.. ما قدرش يعيش..

ابتعدت ترمق والدتها بجلد وإن كانت قوته مصطنعة:

- أنا مش زعلانة..

تحسست ملامحها البائسة بعاطفة أم:

- أنتِ حبيتيه، ولحد دلوقتِ بتحبيه.. ما تفتكريش إني صدقت كذبتك قبل كده، أنا بس عديتها عشان كنت عاوزاكِ تنسي..

أشاحت بوجهها بعيدًا في هروب لم تفعله في يوم..

واليوم هو خطوة جديدة تقدم عليها بسببه..

افترستها أفكارها قبل أن تعاند:

- ما حبيتوش بما فيه الكفاية.. أنا جرحته ورفضت حبه، لو كنت بحبه بجد ماكنتش أقدر أأذيه!..

ختمت جملتها بحيرة.. بتساؤل، بشرود:

- لو كان هو حبك بجد: كان حاول يفهمك ويقرب منك بدل ما يهرب من أول خلاف بينكم..

أعادتها لصدرها بضمة قوية:

- كان صمم عليكِ ولو استناكِ العمر كله..

وأتت ذكرى زوجها، عاشقها تتبختر لعقلها من أعماق ماضٍ بعيد لكنه في القلب حاضر:

- زي ما أي عاشق بجد المفروض يعمل..

رفعت ابنتها عينيها إليها بتشبث:

- يعني ماكانش حب بجد!..

مع ما رأته في خلفية السؤال ردت بحزم تبتر به كل عودة نحو وجع رحل.. وما بقي منه ينبغي عليها اقتلاعه من أفكارها:

- الحب اللي بجد بيعيش، زي الحواديت والأساطير القديمة..

وربتت على رأسها برفق:

- حتى لو أصحابه ماتوا بتفضل سيرته حية من بعدهم..

لا تعلم هل ما تقوله والدتها حقيقي أم أنه أسطوري كالأساطير التي تحكي عنها!..

لا تعلم ولم تعد تهتم أن تعلم..

فهي عند مفترق عشقها.. قررت النجاة!..

***

عندما نجبن نهرب، فمن يواجه وقلبه يرتعش ذعرًا من فكرة عودته لحرم العشق!..

تفتقده.. بكل عنف الكلمة وقسوتها تفتقده..

سافر أخيها وعروسه قبل يومين لقضاء شهر العسل بأحد جزر سيشل، ومنذ يوم الزفاف لم تره.. لم يهاتفها، لم يمر عليها بالعمل أو يدعوها لقضاء وقت ما معًا..

هل يقتص لقلبه منها!..

يثأر ببعده بعد رفضها!..

ألا يفهم أنها أدمنت وجوده حولها حتى ولو دون عشق!..

هو من يقرأ أفكارها ثم يهديها السلام..

اللعنة عليه لو ظن أن بعقابه سترضخ..

وأنها قلبها.. لا تخرجيني من المعادلة صغيرتي فمازلت حرًا أنبض.. كبتت نبضاته، قيدت حريته وأسرته بأغلال الألم..

لن تعود لأرض العشق بعد زلزال دمر عالمها..

"يوسف عاوز يتجوزني!"..

تمتمت بها واهنة عقب صمت اعتاده عند كل لقاء، اعتدل بانتباه جاد:

- ده تخمين منك ولا...

- عرض عليَّ الجواز..

بترت سؤاله برد حاسم عقد له حاجبيه في تفكير ثم سألها:

- وأنتِ رأيك إيه!..

جاوبت ببديهية متعجبة كأن ما يسأل عنه أمرًا يخالف كل منطق هاربًا من خبال عالم الخيال:

- رفضت طبعا، أنا مش هاتجوز تاني..

- ليه!..

تجمدت لحظة اندفعت بعدها بحدة:

- أنت اللي بتسأل السؤال ده!..

- أيوة..

إصراره ظهر برد قاطع تلعثمت على إثره بأحرف مشتتة، ونظرة ضائعة:

- عشان.. عشان..

وبترت تعثرها بغضب هجومي:

- عشان كل الرجالة بيكدبوا ويغشوا ويخدعوا..

تركت مقعدها وانتفضت تجوب المكان بعصبية:

- بيتفننوا إزاي يكسروا الست ويوجعوها..

وجزمت بحزم حاد لن تجادل فيه:

- وطول ما هي مكسورة الكورة تبقى في ملعبهم..

- حتى يوسف!..

ألجم اندفاعها سؤاله..

وتذكرت كل شيء..

كل يوم فات بينهما، كل نظرة واحتواء واهتمام أغدقه عليها..

استعادت كل ما قدم لأجلها.. و"أكمل" يكرر سؤاله بصرامة بدت لها غريبة:

- حتى يوسف يا ملك!..

- كلهم..

زعقت بها بنبرة أقرب للصراخ:

- الحب أكبر كدبة.. صدقتها في مرة، بس لو صدقتها تاني أبقى عبيطة..

صمت يترك لها مساحة الرفض الخاصة بها..

يعطيها كل ما تحتاج من وقت لتفكر كيفما يحلو لها.. ثم تدخل بسؤال أخافها:

- يعني فقدتِ إيمانك بالحب!..

صدمة ملامحها أنبأته بصحة سؤاله..

انتظر يترقب ردها بهدوئه المعتاد، وهي عادت تدفن جسدها في المقعد الضخم.. تنكمش على نفسها بألم وصوتها خرج مهزوزًا واهنًا بجواب صادق:

- من زمان قوي..

تخلى عن جلسته ليواجه مقعدها..

هذا هو وقت الحسم الأخير، فإما نجاح في مسعاه.. أو فشل وعودة حيث نقطة الصفر:

- أنتِ عاوزة تشوفيني تاني ولا لأ!..

رمقته بحيرة وشعور غامض يخترقها..

شعور بفقدان السند:

- ليه بتقول كده!..

ابتسم يطمئنها، يترفق بمخاوفها كطبيب ماهر بارعٍ في استئصال الوجع:

- أقصد بصفتي طبيب..

وأخذ معها نهج تصحيح الأوضاع المتمهل:

- آخر خطوة في العلاج هي الاستسلام للحب..

ثم استند لظهر مقعده باسترخاء ويده تتحرك بتناغم مع كلماته:

- مش الاستسلام وبس.. الإيمان بيه كمان..

تهيبت الكلمة ثقيلة الوقع على نفسها.. هل يمكن أن تؤمن بكذبة!..

- هو في إيمان بيجتمع مع الخوف؟!..

عادت لشفتيه الابتسامة الواثقة:

- الخوف ده علامة صحية في حياة أي حد، بس طول ما إحنا بنواجهه ونتعامل معاه ويخلينا ناخد حذرنا في الوقت المناسب..

انتاب قلبها أمل ضعيف سارع لسانها بالتعبير عنه:

- وإمتى يكون خطر؟..

سيطر بلغة جسده وحضوره على كل حواسها:

- لو بسببه حياتنا وقفت وقررنا إن اليأس أسهل والهروب أفضل..

وعلَّل بتفسير أكبر:

- لو ما قدرناش نواجه وإحنا مؤمنين بالنصر..

مع وجومها اختتم علاجه بجملة قصيرة وهو يصدق على كل حرف منها:

- لو فقدنا الإيمان يا ملك..

أخذ بيدها في ركض حر..

وعند مفترق الخطر ترك لها وحدها.. الخيار!..

***

نحن لا نختار الحب؛ بل هو من يسحبنا لعالمه عنوة..

يرمي بنا تارة ويعيدنا تارة كدمى أجاد التحكم بخيوطها..

كل علامات التوتر الممكنة كانت تتلبس هذه الأنثى..

تقضم أظفارها، تهز قدميها، بؤبؤيها محتاران لا يستقران على شيء.. عنقها تكاد تنكسر من تلك الليات الحادة في جميع الاتجاهات..

ظل يراقبها بصمت، يفكر فيها وفي آخر يعلم أنه يعشقها، وهي رغم العناد تميل إليه.. لكنها ترفض الاعتراف كأن في خضوعها جريمة كبرى!..

طال تأمله حتى التقت النظرات.. عقدة الحاجبين تظهر، وافتراق شفاه مرتبك ببداية بسمة تصاحب شهقتها الرقيقة:

- بتبص لي كده ليه يا ياسين؟..

منحها ابتسامته المتفهمة رغم تحدي نبرته:

- بتهربي من الكلام ليه يا ملك!..

ازداد انعقاد الجبين وظهرت تجعيدة أنفها اللطيفة.. مال نحوها يعاندها أكثر:

- أيوة بتهربي، أنتِ عارفة إني فاهمك.. وعارفة كويس قوي إنه طلب يتجوزك عشان...

وتراجع.. صمت.. طال صمته وتوترها ينقلب لعصبية جديدة حتى كادت تنهره..

تعلم ما سيكمل به حديثه ولا تريد أن تستمع؛ فحتى تعاميها عن عشقه لا يخفيه عن أعين البشر.. أردف بلطف يحاول ترطيب الأجواء:

- عشان بيحبك.. أو خليني صريح أكتر: بيعشقك..

وشبك أصابعه أمام وجهه بيقين مبرر:

- مهما سافر وبعد وحاول يهرب، مهما حاول يديكِ حرية الاختيار؛ ما بيقدرش.. بيرجع في النهاية لأن قلبه هنا.. معاكِ..

ثم عاد يميل ويقترب ويوضح بلهجة عاشق قديم فهم الحب ونجا من مخالبه بندبة أجاد إخفائها:

- بيرجع وبيسعى وبيقرب لأنه شايف إن مكانه في قلبك..

ببسمة أخيرة أخبرها بنبرة حازمة شبه آمرة:

- وافقي يا ملك..

تصدع جدار قوتها الذي أجادت الاختباء خلفه عندما اهتزت مقلتاها وارتجف صوتها:

- مش هاقدر أخوض التجربة تاني بالبساطة دي يا ياسين..

تفهم وجعها بقلب اعتاد الاهتمام حد العشق:

- التجربة الأولى.. ما تتحسبش..

تعلق بصرها به في حيرة و.. أمل:

- التجربة اللي تتحسب؛ هي اللي بنعيشها صح بكل تفاصيلها..

بلهجة متماسكة حازمة وحانية حفرت بروحها أثرًا عميقًا:

- عيشي يا ملك..

ووازى خطوات رحيله تذكيرًا بعشق تمتلكه لكنها بحماقة تضيعه:

- يوسف بيحبك..

ابتعد تاركًا إياها تصارع لجة أفكارها..

تتوه في خضم عذاب لذيذ تخشى الغرق فيه، لكن القلب الأحمق ورغمًا عنها وعنه وكل شيء..

ينشد القرب ويحثها على توقيع العهد..

***

هو رجل لم يتعلم المناورات.. في الحرب أو في العشق..

اختار وسار على درب اختياره دون ضلال أو التفاف خاسر حتى وإن تعثر..

يتذكر ليلتها..

حينما أقر باعترافه لغيرها بحب وصفق الباب من ورائه مشتتًا حائرًا..

لم يكن من الحكمة معالجة الموقف بعنف، فمن تقبل أن تعلم ما علمت!..

من تستطيع تحمله!..

ظل يدور بسيارته في كل مكان فاقدًا تركيزه، لم يعد للبيت بل نام بها وذهب لعمله في اليوم التالي يتمم ما بدأه..

يحضر دليلًا يثبت لها اختياره..

اختارها هي..

عندها عاندته الظروف وتدخل الأقرب منه ليرج عالمه المختار بفعل أهوج.. فقرر إنهاء المعركة..

انتظر ما يقرب من شهر، أنهى أوراق سفره ووقع عقد العمل الذي أراده.. أنهت زوجته اختباراتها الأخيرة وتابعا معًا حملها مرتين..

رأى بذرته برحمها.. رأي معجزة الخلق تنبت بينهما فأي رابط أقوى من رابط القدر!..

وحان وقت المصارحة والرحيل.. واجه أبيه بغضب مكبوت، لكن الوالد لم يكبت غضبه، بل نهض يشير إليه باتهام ساخط:

- تسافر!.. وأبوك آخر من يعلم يا جواد!..

لم يكترث كثيرًا، بل استقام يقابل عيني الأب بذات الغضب:

- لازم يكون أبويا آخر من يعلم؛ مادام بيحاول يهد الحياة اللي اخترتها وبنيتها..

صدمة باهتة مرت فوق ملامح والده قبل أن تخفت كأنها لم تولد:

- مراتك قالت لك..

سخر بحاجب مرفوع وشفاه التوت بتهكم مُر كحنظل مجبر على ابتلاعه:

- لا مراتي أعقل من كده، قالت لي بس إنك زرتها وكفاية بصة واحدة لوشها عشان أفهم اتكلمت معاها في إيه!..

ومرر حنقه دون اهتمام:

- مراتي اللي قررت آخدها وأبعد معاها عن هنا عشان نقدر نعيش..

انقبض قلب الأب بحيرة وخوف..

هو طفله الوحيد، سنده وظهره الذي يرتجيه من دنياه، اقترب يربت على كتفه:

- يا جواد يا بني أنا يهمني مصلحتك..

رمقه بنظرة غير مصدقة استطرادته دعمتها:

- ومريم برده بنتي.. ماحدش هياخد باله منها زيك، والجواز التاني لا هو عيب ولا حرام.. ده كفاية إنها بتحبك..

ابتعد عن لمسته وهياجه ينفلت من عقاله:

- مافيش فايدة.. لسه برده عاوز تخرب لي حياتي وتضيع مني مراتي وابني..

- ابنك!..

رددها "عبد الرحمن" بصدمة انطلقت لها ضحكة ساخرة من ولده:

- أيوة.. هتبقى جد يا والدي، بس طبعا ده مش في حساباتك..

- جواد!..

ويزعق به في لوم يراه من حقه.. لوم لم يأبه له وهو يركض خارج المكان:

- أنا مسافر خلال أيام، أشوف وشك بخير..

كاد يصطدم بزوجة أبيه في طريقه، حدجها بنظرة ساخطة وتحرك نحو الباب ليجدها تسده بجسدها، تمنعه من الوصول لمقبضه بانهيارباكٍ:

- لأ يا جواد.. ما تسافرش وتسيبني..

- ابعدي من طريقي يا مريم..

- أنت بتعمل فيَ كده ليه!..

وبلا تردد أو مقدمات كانت تضرب صدره بقبضتيها وتصرخ فيه.. تصرخ بالعشق وتسبُّه في ذات اللحظة، تبكي وتغضب ثم تتوسل، تستغل جموده ووجهه المبهوت بصدمة وترمي بنفسها بين ذراعيه تنشد حنانه.. وقلبه:

- أنا بحبك.. ما توجعنيش بالشكل ده..

أبعدها عنه بحركة عنيفة أجفلتها ولم ينطق بكلمة..

أزاحها من مواجهة الباب ومد يده يفتحه لتوقفه بعناد:

- أحمد اللي ساكن في الدور اللي فوق اتقدم لي يا جواد..

تجمد لحظة ثم التفت إليها بعين باردة لامبالية:

- مبروك يا مريم، عريس ممتاز.. لو عجلتوا ممكن أحضر الفرح قبل ما أسافر..

وفتح الباب يصاحبه صراخها..

انهيارها..

بكائها واحتداد والدتها على والده:

- أنت وابنك هتضيعوا بنتي مني يا عبد الرحمن..

وابنتها هرولت لغرفتها تتجنب عراكًا لا أمل منه، ولا نجاة بعده..

هرعت تقذف بجسدها فوق فراشها بضياع أخير فهذه هي خاتمة الحكاية..

حكاية لم تكن هي بطلتها، لأن البطل الأحمق اختار ممثلة ثانوية لدور البطولة دونها..

في الخارج كان الزوج الحانق يزعق بانفعال:

- الموضوع خلص يا ماجدة، أنا هاكلم أحمد وأبلغه بموافقتنا..

- بقى كده يا عبد الرحمن!..

رماها بنظرة صارمة قاطعة:

- أيوة يا أم مريم، خلي بنتك تعيش وابني يشوف حياته ومستقبله..

نظرتها هي كانت عاتبة مكسورة لم تتخل عن غِلّها، نظرة صامتة تحركت بعدها تجاه الغرفة المغلقة بإحكام.. تنادي طفلتها من وراء الباب بتوسل.. والتجاهل ثم الأمر الصارخ بالابتعاد هو ما نالته..

مرت الساعات حتى اقترب الفجروالفتاة لم تبرح مكانها..

ذهبت إليها تستجديها مجددًا وقابلها الصمت هاته المرة، صمت مرعب أفزع روحها فنادت زوجها ليكسر القفل الموصد بوجهيهما..

وهناك كانت هي ممددة على الفراش..

جسد هامد، بارد كقطعة جليد نسيها صيف عابر..

شفاه مزرقة لم تعبرها أنفاس منذ نصف ليلة..

روح غابت عنها الحياة بقسوة فمنحتها هيبة الموت ووحشية حضوره وسكونه!..

وصرخة أم..

من عمق قلب لايزال ينبض محترقًا، ناعيًا قلبًا.. تخلى عن آخر نبضاته لمن لا يستحق!..

والنهاية مشفى وطبيب وجنون مبهم..

فالقلب "توقف" حين النوم.. وحسب!..

***

هل لو أتيحت لنا الفرصة للاختيار..

نختار أنفسنا بأنانية، أم نؤثر من نحب على ذواتنا!..

في عرف العشاق كل عاشق أناني، قلبه قبل كل القلوب.. وعشقه هو الهدف، هو المقصد والمسعى..

يبيح لروحه التعلق بالمعشوق..

وبحق العشق تلك فريضة..

لا تجزم أن ما بقلبها نحوه هو جنون يشبه جنونه، لكنها تفتقده.. تريده، ترغب في الانتماء إليه.. في السكن بين جنبيه، تختبئ خلف ضلوعه يحيطها خافقه برداء حب يخصها وحدها..

حب لم يرَسواها تناله باستحقاق..

هي له الداء والدواء..

العلة والشفاء..

الماء والنار..

حر الصيف وزمهرير الشتاء..

هي التي اقتنص مضغتها الضعيفة بخبرة لص محترف وعاشق مخلص قلما يجود الزمان بمثله..

تعلم أنها لم تقرر بيسر فكل ما بها عسير متعب ومنهك..

فات أسبوعين، أخيها على وشك العودة من أيام عسله وهي لم تره ولو مرة..

قاطعها كأنما يعاقبها..

جعلها تدمن وجوده ثم امتنع عنها بقسوة..

تلعنه وتسبه وتعود لتفكر به.. وتشتاق إليه!..

هي حقًا تشتاق إليه!..

تفتقد كل تفاصيله، عينيه.. ابتسامته.. دعاباته.. حتى رفعة حاجبه التي توحي بعبث وغموض في آن واحد..

اللعنة عليه..

لقد جرَّها خلفه لمشفاه حيث يعمل، تقف بتوتر أمام مكتب الاستقبال تطلب منهم مناداته.. وعندما أتى ورآها تبدل كل ما فيه..

هي رشفة القهوة الأولى لمدمن يعاني أعراض انسحاب موجعة..

هي مسكن آلامه وهي من تطعنه ليصرخ قلبه بأقسى وجع..

جمد لحظة ينظر إليها قبل أن تهرول نحوها خطواته، خوفه.. قلقه.. رعب مقلتيه وهما تدوران حولها في توجس، تتفحصان كل ملمح ظاهر منها:

- ملك!.. أنت كويسة!..

وخطوة أخرى يدقق إثرها في ملامحها:

- إيه اللي جابك المستشفى!..

ثم يكرر بلهفة طبيب عاشق مشتاق يتوق لقربها:

- أنت كويسة!..

- يوسف..

أوقفت اندفاعه وتوتره ويدها تتحرك في مواجهة عينيه تعيدهما لموطنهما الأصلي بعينيها.. تبتسم بحنو خالطه ارتباك:

- أنا جاية عشانك..

ألقى إليها بنظرة صامتة متسائلة فأردفت بحسم:

- جاية أقولك.. أنا موافقة.. موافقة أكون مراتك!..

(٢٧)

هل يباح لنا أن نختلس لحظة من سعادة!..

نقتطف زهرة من فردوسها!..

نختطف بهجتها ونصدقها.. نؤمن بها!..

هل نظفر برخصة أن نحياها كأنه لم يكن هناك حزن مضى أبدًا!..

كأنه ليس هناك غدًا!..

هل!..

دومًا تأتي صفعة القدرعندما نوقن أننا قد امتلكنا زمام أمورنا..

تأتي لتخبرنا ببساطة..

أننا شئنا أم أبينا تدور حولنا تروسه، وتسيطر على دروبنا وخياراتنا قراراته!..

أننا دمى يتحكم بخيوطها، ومحاولة تمزيقها محض عبث..

عبثًا ألقى به في غياهب عتمة صادمة لم يتوقعها..

ورقم أبيه يحتل شاشة هاتفه برنين مزعج قرب الفجر ليخبره باقتضاب خلا من المشاعر:

"مريم ماتت"..

لم يفهم!..

ما الذي يقصده بالموت هنا!..

موت القلب!..

موت الروح!..

أم رحيل جدي عن الحياة!..

انتفض من الفراش ووازت انتفاضته زوجته تتأمل تعثر حركته في الغرفة بحيرة:

- خيريا جواد!..

تجمد لحظة يهديها ذات النظرة الحائرة بتجهم مبهوت:

- مش عارف.. هاروح أشوف في إيه!..

- مين كان بيتكلم!..

ارتدى قميصه بعجالة وخطواته ترحل عن المكان في شبه ركض:

- بابا..

طوال طريق لم يكن بالطويل تناطحت أفكاره..

بالتأكيد هناك خطأ..

هناك هذيان..

هناك كذبة لا يجوز تصديقها!..

ترجل أمام المشفى الذي علم أنها نُقلت إليه وفي استقباله سأل عن اسمها بلهاث مذعور..

هرول في الممرات حتى لمح والده..

ووالدتها..

تنوح من جلستها على مقعد يقابل غرفة مغلقة..

تباطئت حركة قدميه بتلقائية لا شعورية.. تلاقت عيناه بعيني والده الذي هرب من نظرته بانكسار عاتب حتى وصل إليهما بسؤال خائف مشدوه:

- بابا.. مريم مالها!..

وهي سمعت صوته وإن لم ترَ حضوره..

رفعت وجهها إليه تحرقه بنظراتها.. تود لو تشعل النار في روحه وقلبه قبل جسده، أن تصليه جحيمًا يتأجج فوق أشلاء قلبها بهذه اللحظة ومهجته رحلت عن دنياها..

بسببه!..

نهضت تحث الخطى إليه وقبل أن يمنعها الأب أو يبادر هو بكلمة كانت تلفح وجنته بحرارة صفعة..

تلاها صراخ حاقد، مغلول، عاجز.. ومقهور:

- أنت السبب..

لم تتراجع مع تجمد كل ما فيه وذات الوجنة ترتج بصفعة تالية وازت هتاف أبيه:

- كفاية يا ماجدة..

لم تكتفِ..

فبأي قانون.. وأي كون .. وأي عالم يمكنها أن تكتفي!..

قلبها مُعتصَر بين جنبيها وهو السبب..

كررتها بصرخة ثانية:

- أنت السبب.. بنتي ماتت بسببك أنت..

وهو على وجومه..

لا يستوعب هذيانها وفوضى كلماتها..

لا يدرك مدلولها كأنما فقد الموت معناه بعقله عندما اختطف.. طفلة!..

طفلة صغيرة تربت معه وحظت بمكانة بقلبه وحياته لم تقترب منها أخرى..

والآن!..

قتلها..

هو من قتلها..

هو من أهدى قلبها جنون دقاته.. وآخرها!..

"امشي من هنا.. مش عاوزة أشوف وشك طول ما أنا عايشة، ربنا يقصف عمرك زي ما قصفت عمرها"..

"ماجدة!"..

"بنتي ماتت.. بنتي ماتت بسبب ابنك، مشيه من هنا"..

وتعالى صراخها حادًا يصم أذنيه دون أن يعيه حقًا..

"مشيه من هنا"..

انهيار أخير ثم سقوط.. غياب عن الوعي وخاتمة لا تليق بحكاية كان هو بطلها الأوحد..

والمهزوم!..

***

عندما تتباهى ضمائرنا بحسن السيروالسلوك..

وقتما نحيا على كفاف المشاعروحسم الخيارات..

حينما نعبرجسر التيه بثقة خطوات، تنتهي بسقطة..

يجلدنا الذنب..

يحيق بنا الندم بطوقه الغليظ؛ حد الاختناق!..

وهو بالفعل كان يختنق..

لا يعلم كيف رحل!.. كيف استجاب لرغبة والده بالعودة إلى حيث كان والاختفاء من أمام عيني مَن كانت في يوم ما أمه.. حتى قتل طفلتها!..

لا يدري متى دلف لسيارته وقادها وصولًا لبيته الذي يقف خارجه منذ نصف ساعة!..

"هبوط حاد في الدورة الدموية"..

هكذا علل طبيب المشفى صعود روحها لبارئها..

"ماحصلش إسعافات أولية.. فأدت للوفاة"..

كانت تعاني.. تتعذب دون مغيث!..

والسبب.. غيرمعلوم طبيًا، لكنه وحده يعلمه..

قلبها توقف عن العمل قهرًا.. هو أهان ما سكنها وتمكن منها نحوه، كسرها.. أهداها الأمل باعتراف عشق موصوم بالعاروم دنس بالخطيئة..

ثم في اللحظة التالية انتزعه منها بقسوة.. ببتر حاد، وترك الجرح ينزف دون دواء..

حبه بقلبها كان سمًا زعافًا، ضَنَّ عليها بترياقه!..

تنهد ببطء عسير، تلاحقت أنفاسه لحظة فشهق ويده تمتد لتفتح أول زرين من قميصه بمشقة..

ترك السيارة وعلى درج طويل تهالكت خطواته..

تصعد قدماه بفطرتهما، وتسقط روحه في جحيم الذنب.. تحترق!..

عند باب منزله تصلب جسده بشرود ضائع، يده تمتد بلا شعور إلى ثقب المفتاح.. يديره بجمود ويتخطى عتباته فتتلقفه لهفتها وقلق ملامحها:

- جواد.. طمني، في إيه!..

حملق بوجهها حائرًا لثوان..

هل وصل لبيته!..

بلل شفتيه وأفكاره تستعصي على الترجمة، حتى لسانه منطوٍ على نفسه بحلقه الجاف، اقتربت تلامس ذراعه وفؤادها ينقبض أكثر:

- جواد!..

أفاق على لحظة تعرت فيها حقارته في مواجهة ضميره الغاضب:

- مريم..

صمت بينما عيناها تجولان حول كل ما غاب فيه وتاه عنها، ثم أردف بارتباك:

- ماتت..

أهداها قسوة الحقيقة في أربعة أحرف..

أربعة جامدة، باهتة.. باردة، لا تحتمل معانٍ متباينة.. وربح من صدرها شهقة طويلة، مرتعبة ونظرة هلع تكاثفت بين جفنيها في غير تصديق:

- أنت بتقول إيه!..

رفع وجهه يلتقي ببصرها الزائغ:

- ماتت..

- إزاي!..

- قلبها وقف..

وتكررت الشهقة.. ارتج جسدها برهبة، وهيبة الموت تقتحم المكان بسيطرة لا تضاهيها غيرها، رائحته تزكم أنفها فتصيب نفسها بعلة سبقتها لروحه المتعبة:

- أنا السبب..

غُصت بها بلعثمة حروف، وانتبه!..

تأملها بضعف واراه خلف قناع قوة مصطنع، تحرك يضمها لصدره دون أن تترك عيناه فراغ الخسارة والضياع:

- إيه اللي بتقوليه ده!.. لأ طبعا..

نفضته عنها وحررت نفسها من ضمته الحانية بزعقة وجع:

- لأ أنا..

- أنتِ إزاي!.. اعقلي يا شذى..

- أنا حرمتها منك، سرقتك منها..

تلا فوضاها انهيار سبق ورآه، وثب يحتويها بين ذراعيه، يريحها فوق صدره ويستقر جالسًا فوق أريكة وراءه:

- شذى ماحدش بيموت من الحب..

أبعدت رأسها ودموعها تتسابق أيها تلسع وجنتها بلهيبها أولًا:

- بس في حد بيموت من حرمانه من الحب، من خسارته وضياع اللي بيحبه منه..

نفى بعنف يحتج على مسوغاتها، يدحض دوافعها:

- فوقي يا شذى، لا أنا قيس ولا هي ليلى.. ولا الحدوتة تتحمل خيال..

وتركها يستقيم بنظر مشتت:

- ما حدش بيموت ناقص عمر..

استدار يهديها أمان عينيه وإن كان قلبه يفتش عنه بلا جدوى:

- الموت.. الحاجة الوحيدة اللي ماحدش بيتدخل في ميعادها..

يطمئنها..

يطمئن روحه..

وروحه ترفض، ضميره يعارض ويشجب ويستنكر ويوصمه بالخزي..

ينحسر عن سوأة ظلمات نفسه حجاب الغفلة:

- الله يرحمها..

أتت همسته الأخيرة بخفوت خاشع..

فكل ما فيه مستباح لندم لن يعود بالزمن للوراء..

ولو عاد؛ ما كان ليقدم ما لا يملك.. حينها تبقى حقيقة وحيدة وأخيرة..

مصير محتوم بين يدي قدر!..

***

كل يبحث عن موطن سعادته بجهدٍ وجدٍ..

أما عنه!.. فلم يدُم بحثه طويلًا، لقد كانت هناك..

دنياه وبهجة روحه، عند أطراف أناملها التي تمسك بالسيف بقبضة محكمة..

تناور..

تنقض..

تكر وتفر..

تهرب..

تدافع وتهاجم.. وتسلب قلبه!..

ثم تختطف نقطة من رصيده بابتسامة واسعة شابها شيء من عتاب وهي تخلع قناعها، ترمقه بارتياب مستفهم:

- رابع نقطة وأنت مش معايا..

كشف عن وجهه بدوره ليحاصرها بنظرة دافئة لم يجاهد لتوريتها:

- أنا فعلا مش مركز..

اعترف بيسر..

ببساطته المعهودة.. فهو رجل لا يراوغ، ولا يجيد الاحتيال أو تلفيق الخُدع!..

لا يلتف حول الهدف بل يقتنصه من أول مواجهة..

مواجهة أقرب لمعركة قصيرة بين بصريهما كانت هي أول الهاربين من وغاها عندما انحدرت عيناه بلا تمهيد تجاه شفتيها المزمومتين بتساؤل صامت..

انحدارًا لم ترضَ عنه.. فهي لأول مرة ترى رجولته ترغبها!..

وذلك أخجلها..

تراجعت بالتفافة سريعة وعذرٍ واهٍ لفرار لا تدرك كامل خطواته:

- أنا لازم أمشي، عندي بكرة شغل مهم..

- أول مرة تهربي من مواجهة!..

لاحقها بهتاف عنيد يتحدى فيها قوتها وعنفوانها..

وفاز بالجولة الأولى!..

توقفت وعادت بعينيها إليه، تجابه في حرب تفوق قدراتها وإمكانيات الكامن بين ضلوعها، لكن الاستسلام غير مباح:

- ده مش هروب.. بس عينيك..

التوى جانب فمه بانحناء ماكر زاد ملامحه جاذبية:

- مالهم؟!..

بفطرة أنثى أصابها خجل أحنقها وهي تعقد ذراعيها قبالة صدرها بتذمر:

- أنت عارف..

أخذ نحوها خطوة متظاهرًا ببراءة:

- بلاش سوء ظن..

أهدته مقصدها بنظرة..

هي لا تصدقه، وهو يعلم أنها لا تفعل.. لكنه يصر على موقفه، فاللعبة ممتعة!..

هزت كتفيها وولته ظهرها في رحيل منعه مجددًا:

- راما..

سكنت جامدة بمكانها تترقب كلماته..

وكانت واحدة..

واحدة أقرب لهمس رخيم هيمنت على كيانها كله بينما ينطقها وصوته يحيط بها في فخ خادع..

فخ سقطت فيه، ولا مهرب منه:

- تتجوزيني؟..

هل كانت تتمناها!..

نعم..

هي اعترفت بعشقه منذ زمن، اعترفت وصرحت أنها ستسرقه، تختطفه كما اختطف قلبها..

هو رجل ارتحل عن عالم الأمنيات بلمسة واقعية مبهرة..

رجل لا يتكرر..

وهو لها!..

سعادتها بهاته اللحظة حجبت صوتها حتى أنها تنحنحت قبل استدارة بوجه جاد لا يرسم انفعالًا:

- كلم بابا..

كادت تعدو خارج المكان وسؤاله يتحدى روحها:

- يعني موافقة؟!..

نقشت ابتسامة سعيدة نفسها فوق شفتيها وهي تحرك كتفيها بشقاوة:

- المصور الفنان بيخونه ذكاءه في المواقف العاطفية..

تقررها عنه، ويختار هو طريق الصدق المخلوط بشيء من عبث:

- عاوز أسمعها وعارف إنك تقدري تقوليها..

هذه المرة هزت كتفيها باستسلام وأساريرها تنفرج مصرحة بنظرة عشق له وحده:

- موافقة..

أخيرًا حررها من قيد الخجل..

ثم صرح لها برحيل مؤقت..

فقريبًا..

لن ترحل عنه أبدًا..

***

سعادتك ملك يمينك؛ تشبث بها وحسب..

تشبث بها بكلتا يديك..

بقلبك وعقلك وكل جوارحك وحواسك..

تشبث بها أو استسلم لضمتها..

كان خاضعة لاحتضانه كخضوعها لحلم ناعم راود الخيال عمرًا حتى تسلل للواقع.. بل اقتحمه!..

في مسبح مغلق يخص مكان إقامتهما بجزيرة سيشل، على مقعد عريض، ممدد هو وتقبع هي فوق صدره تتأمل ملامحه الحبيبة بحالميتها التي لا تغيب عنها..

تراقب حركة فكه وهو يمضغ حبات الفراولة بتلذذ، وتتيه في تفاصيله..

هي في حضوره امرأة..

طفلة.. بريئة.. شقية.. رقيقة..

ومغوية!..

احمرت وجنتاها خجلًا عندما تذكرت دلالها له بالأمس..

غلالتها المنتقاة بلون عينيه، خصلاتها التي أطلقتها حرة فوق ظهرها لأنه يحبها هكذا.. وإيقاظه من نومه بقبلات دافئة خاطفة متتابعة لم تطُف بباله، تصارع فيها حياءها الذي لم يتركها بعد.. ولم يصمد هو معها كثيرًا..

سحبها من أفكارها بثمرة حمراء شهية مسَّ بها شفتيها ففرقت بينهما بتلقائية:

- سرحانة في إيه!..

لاكتها ببطء مستمتع وهي تحك أنفها بصدره العاري كهرة صغيرة:

- فيك..

رفع حاجبه باستمتاع مندهش؛ كل ما فيها مدهش حقاً..

بساطتها، صراحتها، وضوحها.. ورقتها..

لا تجيد شيئًا من خبث النساء ولا ألاعيبهن؛ حتى عندما حاولت إغواءه كانت تخفي عينيها عنه.. تتفادى لقاء عينيه وتكتفي بشفتيها فوق بشرته..

- محظوظ أنا..

ثم ابتسم.. وابتسمت تداعبه:

- جدا جدا..

مال برأسه يختطف منها قبلة، اعتدل بإثرها قليلًا وأبعدها عنه:

- طيب مش هتنزلي!..

وبيده أشار للمسبح، نفت بتردد متوتر:

- لأ..

داعب ذقنها بضغطة من سبابته وإبهامه:

- جمدي قلبك.. وبعدين المايوه ده جاي هنا عشان تنزلي الماية..

رمقت نفسها بنظرة متذمرة وفمها ممطوط بحنق طفولي.. زي سباحة لم يتخلَ عن لونه الوردي، ومن قطعتين بأربطة رفيعة لا تدري حتى الآن كيف أقنعها بارتدائه!..

- لأ.. كفاية قوي إنك خليتني ألبس كده..

ضحك بمرح عابث:

- ده على أساس إننا مش لوحدنا.. وإني أصلا شفت من غير كده خالص!..

ضربت كتفه وابتعدت تنهض بغيظ خجول:

- مرواااان..

تنهره برقة باتت تهدي تعقله كل جنون محتمل..

تبعها بحركة سريعة، جذبها نحوه وجسده ينحنى ليحملها بين ذراعيه في ثوان ويخطو تجاه المياه وهي تكاد تصرخ:

- لأ.. مروان بجد، مش عاوزة أنزل..

شاكسها بعناد مستغرب:

- مش هتنزلي.. هأرميكِ..

أمام حوض السباحة استعد لإلقائها بينما تمسكت بعنقه تدفن رأسها في انحنائته:

- إحنا مسافرين بكرة، وأنتِ لحد دلوقتِ كل اللي بتعمليه في أي وقت فاضي تقري روايات وتتفرجي على أفلام رومانسية..

صرخت بأذنه فباعد بينهما باندفاع:

- أنا بحب كده..

عندما شعرت به يستعد لطرحها في المسبح تشبثت به أكثر بخوف سافر:

- مروان عشان خاطري.. أنا بخاف!..

تصلب جسده بدهشة غير مستوعب..

تخاف!..

أرجع رأسه للخلف يسعى للقاء بصرها وهي على إصرارها بالهروب من نظرته المستفسرة:

- بتخافي من إيه!..

همستها أتته واهنة تُحمله الذنب دون رغبة حقيقية منها:

- من يوم ما رميتني في الـ pool وإحنا صغيرين.. بخاف أغرق، بخاف أحس الاحساس ده تاني..

تشددت ذراعاه حولها بتوتر، خوفها بسببه!.. ارتكنت بجبينها لكتفه:

- ما نزلتش المياة من يومها..

أحست بشفتيه تتنقلان بين وجنتها وعنقها بشغف رقيق وهمسته الدافئة تهديها الأمان:

- طيب ولو في حضني!.. هتخافي برده!..

تراجعت تدفن مخاوفها بمقلتيه في صمت طال لبضع ثوان قبل أن تومئ بنفي، تعود لوضعها الأول المطمئن وتترك له دفة القيادة..

سكينتها، وأمانها بين ذراعيه؛ هو حصنها.. وملجأها الآمن من كل شر..

خطا بتهمل لينتهي جالسًا عند طرف الحوض، قدميه في مياهه الباردة نوعًا، وهي لا تترك عناقه..

انزلق بهدوء حتى لامسها الماء فتشنج جسدها.. ضمها بقوة وهمس بأذنها يلغي رهبتها بوجوده، بانتمائها إليه:

- أنا معاكِ..

تركها تهبط لتأخذ وضعًا واقفًا مواجهًا له دون أن يحرر خصرها من بين يديه، ضمته هي وتشنجها لم يهدأ بعد..

دار بها برفق متأنٍ وإحدى يديه تصعد لخصلاتها تربت عليها وتتخللها بحنو..

دقيقة وثانية وثالثة.. في الرابعة تراجع عندما وجد كفيها تلعبان بالماء بضحكة غير مصدقة..

ببراءة طفلة.. بنقاء امرأة تهدي روحه السلام والراحة..

رشته به فجأة تخرجه من شروده فيها، سبح إليها بتهديد مرح:

- بقى كده!..

تحركت في محاولة خرقاء للسباحة فلم تتقنها، قدميها كانتا تحطان على أرضيته فجربت الركض تضحك مبتهجة..

ضحكتها التي تبعث بنفسه البهجة في كل مرة تطرق مسامعه.. والفخر إن تسبب هو فيها!..

قبض على معصمها وسحبها إليه بعنف فلم يمنع الماء من ارتطامها بصدره:

- بنتشاقى!..

ابتسمت بدلال وهزة رأس سعيدة، سعادتها انعكست على ملامحه وهو يوازي ثغرها بغمزة:

- يبقى نتأدب..

لم يحررها حتى دفعته بلهاث ضاحك:

- أنت شرير..

- أنا الوحش..

لم تنسَ ليلة زفافهما..

وهو كذلك لم يفعل!..

وربما لن يفعل في وقت قريب..

فبنهاية اليوم، وبعد ليلة حب أغدقت عليه بدفئها فيها نامت توليه ظهرها في احتواء ذراعيه..

مرت ساعة..

ساعة واحدة مثل ليالٍ مضت وانتفض من نومه باستفاقة مؤلمة..

تفرق جفناه باتساع واجف، وانحسرت نظرته تعدو إلى خصلاتها التي تعانق الوسادة قرب وجهه..

داكنة بحمرة الشفق!..

طويلة تكاد تغطي ظهرها!..

وتنفس..

سحب ذراعه من أسفل رأسها بهدوء وترك الفراش ليدور حوله، يجثو بركبتيه على الأرض مقابل وجهها ويتنهد بارتياح.. بطمأنينة..

هذه هي عهده الباقي..

هذه هي زوجته التي يجلده ضميره حتى هذه اللحظة بلسعات متكررة توصمه.. بخيانتها..

وياله من إثم لن يغفره لروحه ما بقي من عمر..

إثم في غير قصد بات هاجسًا يطارده بكابوسه خشية التكرار..

***

سعادته.. كانت أن يلتقي معها بمنتصف الطريق بين مخاوفها، وجنونه بها!..

أن يركض إليها..

أن تنطوي فيه ويحتويها..

أن تعود لمكانها الفارغ دونها عند ضلعه الأعوج الذي خلقت منه..

أن تكون له في التو واللحظة فقد انتظر ما فات من عُمر وهذا أكثر من كافٍ..

"يوسف ممكن تعقل شوية.. صدقني مش هارجع في كلامي"..

كانت تضحك من هوس أحاط به إثر موافقتها على الزواج منه.. هوس جعله يأخذ بيدها نحو منزل عمه ويطلبها دون تأخير، دون مقدمات.. وبقرار متسلط يخبره عن موعد عقد القران بعد يومين فقط!..

وهو في مواجهتها رفع حاجبه بعناد عابث:

- لأ.. ما أضمنكيش بصراحة.. أنا عاوزك على ذمتي، مراتي، ملكي، بتاعتي.. وكل الألفاظ والمسميات الشرقية العنصرية الرجعية اللي تيجي في بالك..

ومال نحوها بسيطرة لم ترها فيه من قبل:

- دلوقتِ قبل بكرة.. وكويس إني إديت لعمي فرصة يومين يعني، دول بس عشان مروان وسما يكونوا رجعوا..

عاتبته بعينيها فلم يضعف، بل ظل صامدًا:

- ما تحاوليش..

وقد كان..

لا تصدق أن أبيها وافقه على ذلك الخبال المطبق لكنها وقبل دقائق معدودة محدودة.. أصبحت زوجته!..

زوجة للمرة الثانية وخيار آخر، خيار قلب وعقل معًا..

خيار تبتهل أن يكون صحيحًا.. رغم أن كل الدلائل تبرهن عليه، وتجذبها إليه..

كطقس تقليدي بديهي طلبت منها والدتها الاستعداد للقاء زوجها..

زوجها!..

لوهلة بدت حروف الكلمة غريبة على أذنيها..

لثمت "جمانة" رأسها بحنان ودعت لها، صلَّت من أجلها وهمست قبل رحيلها أنه يكاد يفقد عقله بانتظارها، لتهدي شفتيها ابتسامة لم يغِب عنها الحُلم تمامًا بعد..

هبطت الدرج دون أن تراه.. أقبلت بخطواتها الهادئة المتمهلة، تقدم واحدة وتؤخر التالية..

هي أنثاه، امرأته التي هشم عشقها ثوابته، وعزم هو على هدم أوجاعها..

وقفت عند باب الغرفة تبحث عنه، قالوا لها أنه ينتظرها هنا لكنها لم تجده!..

تحركت للداخل قليلًا تمنحه ما أراد..

سجنها معه وأحكم إغلاق الباب من ورائها، وازى انتفاضتها التفاتة لتراه خلفها.. قربها، أنفاسه تطوف حولها وعيناه تطوقانها بنظرة أشعرتها أنه يعتصرها بين ذراعيه..

"يوسف"..

همست باسمه بطريقتها التي تحرك كوامن نفسه..

اقترب خطوة جاهدت ألا تبتعدها، يتأمل خصلاتها المتهدلة بأناقة بسيطة عند كتفها اليسرى، عينيها ولمعة التوتر فيهما.. أنفها، وجنتيها، شفتيها..

واستقر بصره هناك..

حيث تختبئ أنفاس الحياة..

"بقيتِ مراتي!"..

تمتم بخفوت شارد متسائل غير مصدق..

"بقيتِ مراتي"..

كررها وقررها.. ودهشته تهجره ببطء..

"بقيتِ مراتي"..

والأخيرة كانت بسعادة انتقلت لها بخجل مع اقترابه أكثر، ويديه تمتدان نحوها..

تتحسسان ملامحها في لمسة أولى..

كأنما يحفرها بذاكرة قلبه قبل عقله..

يغمض عينيه ويتخيل ما تمر أنامله فوقه، ثم يعود ببصره إليها..

بل تتنقل نظراته بتأنٍ يصدِّق عليه خافقه النابض بعنف لتقبِّل كل تفصيلة ضئيلة فيها..

ويتحرك خطوة دانيًا منها بلا إرادة..

لم يلمح اهتزازها، وكل ما فيه منشغل بحلم.. حلم تحقق حد أنه يخشى قسوة واقع يفيق منه عليه!..

دفعه عشقه لضمة..

ضمة لجسدها المتجمد ولم تكن تتخيل أن يكون اقترابه الأول منها.. احتضان!..

بل طوق ضاق حولها حتى سعلت تدفع خصره:

- يوسف!..

سكن لثوان تالية دون أن يتزحزح بعدها حررها واستقر بعينيها..

ملاذه وموطنه..

تحولت نظرته العاشقة لمكر أثار ريبتها فتراجعت تحاول استيعاب تغيره..

رجلها الآن غادر عالم عشقها الأفلاطوني إلى دنيا الامتلاك.. الرغبة والاشتهاء!..

"يوسف!"..

تغمغم بنداء مرتجف هو كل ما مر عبر شفتيها منذ أتته، خطواته تسبق خطواتها..

بل يهديها نظرة عابثة عاندت معها بتوتر تبعه هروب..

تخشى قربه كرجل، تسلله المثير لحواسها كعاشق نحو العمق، ترفض الخضوع لحب لم تنل منه سابقًا سوى مر الخديعة وعلقم الخيانة لو جازت التسمية..

فاللوحة كانت عبثية مليئة بفوضى جنون غير محتمل!..

حتى وإن كان القلب يرى سلامه بين يديه.. اقترب، وفي كل خطوة كانت دقات قلبها ترتفع، تحثها على الفرار من أمامه لكنه حاصرها..

بكل وجه ممكن أحكم السيطرة وأمسك بالزمام..

زرقة عينيه التي تغرق في بحرها، ابتسامته التي تشع شقاوة وغموضًا مزج بين الأب والعم، جسده الذي لم يعد يبعد عنها سوى مسافة قليلة تعانقت فيها الأنفاس..

خطواتها تباعدت للخلف، وخطواته دنت بتمهل يثير خفقاتها أكثر حتى لم يعد هناك من مجال!..

وجدت الجدار في ظهرها، استند بذراعيه حولها فنهرته بلهجة حادة امتزج بها ضعف ما استشعره:

- يوسف.. ابعد..

ابتسم بمكر متلذذ.. هي باتت امرأته ولينفجر الكون مشكلًا ملامح الحياة من جديد:

- ولو ما بعدتش!..

تعاند أكثر، تبحث عن بقايا تتشبث بها في مواجهته ونبضاتها تكاد تحطم ضلوعها:

- هأذيك..

ضحك بخفوت، ليس ساخرًا أو متهكمًا.. بل بمتعة دغدغت حواسه:

- وريني هتعملي إيه!..

اقترب أكثر، يميل برأسه.. يبحث عن ترياقه المحجوب عنه عند ثغرها الناعم والمغوي بحمرة هادئة تشبهها.. زجرته بيأس واهن:

- يوووسف..

لكنه لم يهتم، ابتلع أحرف اسمه من بين شفتيها، ابتعد للحظة هتفت خلالها تنهره بضعف أكبر، تحاول إبعاده:

- يوووسف..

ابتسم.. انحنى، وحظى بقبلة ثانية.. ثم تراجع يهمس وقلبه يضرب جدران صدره بعنف:

- كل مرة تنادي اسمي؛ هاعتبرها دعوة..

لكنها كانت تائهة، شهيقها يقترب من اللهاث المذعور.. وتريد فقط أن تختفي من أمامه:

- يوووس...

وبترها..

هذه المرة كانت أطول، أعمق وتقطعت لها أنفاسها، فارق عناق شفتيها مرغمًا، يمنحها راحة التنفس وانتظر ترديدها لاسمه مجددًا..

صمتها جعله يبتسم ثانية، لقد تعلمت الدرس..

"يا خسارة"..

كانت تلك تمتمته المتحسرة قبل أن يشاغبها بعناد:

- مش هتناديني تاني!..

هزت رأسها بنفي وعيناها تعانقان الأرض، انحنى أقرب يهمس عند أذنها بحرارة:

- جبانة..

نعم..

هي ليست جبانة وحسب..

بل تشعر بالهلع..

لا..

هي لن تتحمل اقتراب رجل منها..

ليس الآن!..

وابن العم لا يستحق منها ألمًا بينما يجاهد بضراوة لمداواة جروحها.. انسابت العبرات تخترق حاجز قوتها الواهية..

لم ترفع بصرها لتواجهه لكنه أجبرها وكفه تتحكم بوجهها..

"ملك!"..

كانت منه متعجبة.. بشبه صدمة، واختتمها باستنكار..

هل تبكي لأنه قبَّلها!..

أبعدته بدفعة ضعيفة استجاب لها وهي تتمتم باعتذار سبق فرارها:

- أنا آسفة يا يوسف..

امتدت يده تتشبث بطيفها لتقبض على الهواء..

ها قد عادت الحقيقة نحو أرض الحلم؛ فهناك.. هو ترك سعادته!..

فكر بحيرة ووالدتها تتابع ركضها فوق الدرج، تلتقي بنظرته المشتتة الضائعة قبل أن يتغضن جبينه بتفكير ويرحل بهرولة..

عليه أن يحادث طبيبها بجدية، فالأمر لم يعد يحتمل مناورات غير مجدية!

***

هي امرأة احتلالها لخياله إثم..

هي ذنبه الذي لم يتُب عنه بعد..

امرأة حضورها سحر وغيابها لعنة..

وهو الملعون بجحيم عشق لا يريد هجر قلبه!..

بحدة وجد هاتفًا يُلقى على مكتبه بعنف كاد يكسره.. هاتف "باسم" بالتحديد، وعلى شاشته الخبر القاصم.. الخاتم..

الأحمق يتابع حسابها..

وهي ستتزوج!..

ستتزوج من أنكرت قربها منه ورأى هو بعينيه غرامه بها..

تجمد كل ما فيه يخفي جُل انفعال متاح، رفع بصره للمواجه له بسخرية حانقة:

- حبيبة القلب هتتجوز..

لم يجبه للحظات..

فالخبر بصوته الغليظ نفض قلبه..

استقام بهدوء، خطا للباب فأغلقه بإحكام واستدار إليه بثبات بارد:

- وأنت منفعل ليه يا باسم!.. مش المفروض كده تطمن أكتر!..

انفلتت منه ضحكة متهكمة متقطعة:

- أطمن!.. ما هي مشيت وجات غيرها..

تحرك "نزار" ليتخطاه، يجلس على مقعد يواجه المكتب بتؤدة مثيرة للحنق:

- أمال أنت عاوزني ليك لوحدك ولا إيه!..

- ما أنا ليك لوحدك..

بشبه زعيق أجبره على اعتدال سريع غاضب:

- اهدى شوية، وخد بالك إحنا فين..

يخشى على نظافة صورته كأنه هو لعبته..

لعبة يحرر خيوطها وقتما يزهدها، ويسحبها إليه حين الاشتهاء:

- لا ما تخافش.. ميسون مش برا..

- أنت جاي دلوقتِ ليه يا باسم؟!..

شد المواجه له قامته النحيلة بحزم مهزوز:

- جاي أقولك مش هينفع نكمل كده..

اقترب "نزار" يربت على وجنته ببعض من قسوة:

- على فكرة الحكاية كلها حكاية وقت وهتخضع لرغبة والدتك وتختار عروسة من اللي زهقتك بيهم..

وعدل ربطة عنقه باستخفاف:

- يعني كده المعادلة هيبقى فيها توزان..

ابتعد عن متناول يده بسخط لم يبذل جهدًا لكبته:

- أنت السبب.. أنت اللي جريتني للطريق ده..

تأملًا صامتًا هو ما حصل عليه، ورفعة حاجب هازئة تلتها قهقهة فظة:

- أنت كده كده كنت رايح للسكة دي.. أنا بس اللي إديتك أول دفعة..

أنهى كلماته بتعبير خادش، واستعاد "باسم" ما كان..

كيف أتت البداية وسحبته عنوة لطريق مظلم ظل يخشى السير فيه منذ أدرك معنى كونه ذكرًا..

ذكرًا يثيره الذكور دون النساء..

اكتفى بالهرب والتجاهل حتى ظهر بحياته رئيسه.. ولعنته..

بدايات عمل في شركة لها وزنها بسوق المال والأعمال، محامٍ شاب حديث التخرج لكن كما يقول عنه أساتذته بفخر:

"دماغه سم"..

واللقاء الأول بالمدير التنفيذي للشركة وابن مالكها ورئيس مجلس إدارتها..

"نزار غالي"..

يومها دلف لمكتبه يحمل أوراقه بارتباك.. يعدل منظاره الطبي فوق أنفه كل بضع ثوان بتوتر، كفيه متعرقتين كأنما هناك حريق يتأجج داخله..

لم يظهر صاحب المكان، جال فيه ببصره التائه حتى وجده يغادر غرفة جانبية خمن أنها مرحاض..

يخرج عاري الجذع، وسيمًا مثيرًا..

بعينين مقتحمتين، خصلات داكنة وجسد صلب، وقطرات من ماء تسيل فوق صدره بعشوائية حسية قلبت معدته..

لم يلمحه بل كان يسبُّ عامل الشركة الذي سكب على ملابسه قهوته الساخنة..

ثم تلاقت الأعين بنظرة عابرة..

نظرة هرب هو منها وسيطر عليها الآخر بتدقيق غريب.. كأنه يدرسه!..

يدرك ما مرت به مشاعره ورغباته في لحظات قصار؛ ويعجبه..

أبعد عينيه عنه وهو يرتدي قميصًا نظيفًا، ينتقي ربطة عنق من أحد جوارير مكتبه ويناولها إياه بابتسامة:

- باسم مش كده!..

أومأ بوجوم وحيرة تتجلى بتساؤل على وجهه.. ماذا يريده أن يفعل!..

أشار "نزار" إلى الربطة في يده:

- ممكن تساعدني!..

تضاعف ارتباكه حينها لكنه رضخ..

اقترب وأنفاسه تعلو رغمًا عنه والواقف قبالته يفطن لما به، ربطها حول عنقه بأصابع مرتجفة وابتعد بسرعة..

كان اختباره الأول..

اختبارًا نجح فيه وبجدارة!..

وفي كل واحد تبعه.. بين لمسة في ظاهرها عفوية، اقتراب.. حديث ونظرة عين تشي بدواخل أعمق رغباته..

وبعد مرحلة اليقين، جاءت مرحلة الحسم.. والامتلاك..

وقتما بات دميته!..

كان يناقشه في شأن ما يخص أحد عقود الشركة، عندما لاحظ شروده وسأل باهتمام:

- نزار بيه.. حضرتك مركز معايا!..

لم تتغير نظرة "نزار" أو تتأثر ملامحه بانفعال محدد..

فقط لمعة غامضة مرت بمقلتيه، وهو يهديه جوابًا بعيدًا تمامًا عن السؤال:

- نزار بس يا باسم..

ابتلع لعابه بعسر، لا يفهم ما يعنيه الأمر.. فرغم تقارب السن لم تُرفع الألقاب من قبل!..

"قولي.. أنت مرتبط!"..

دهشة سحبته من لجة أفكاره نحو اللحظة بحدة، بعدها رد بتلعثم:

- لأ..

- يعني ما فيش واحدة في حياتك..

تكرر النفي ليأتي الاستفسار الأكثر أهمية:

- ولا واحد!..

تجمد جسده باستنكار..

استنكارًا لم يطُل وهو يمنحه رقم هاتفه الخاص، يخبره بهدوء أنه يفهمه..

يقدر حاجته ويدرك أن إخفاءها عن مجتمع عقيم يعيشان به أمر بديهي..

خطوة فثانية وثالثة.. وسقط بجحيم الشيطان..

سقط في ظلمات بحر الخطيئة، وفي حبه!..

عاد للواقع بمرارة الضياع الذي لم يرحل عن متاهاته بعد:

- أنت أول واحد في حياتي يا نزار..

- ما أنا عارف..

وتحرك نحوه بثبات، يحاصره بعينيه كأنما هناك شيء يخفيه ويجهله:

- وعارف كمان أنت جاي ليه!..

وبدأ بخلع ثيابه.. ربطة عنقه، قميصه.. يده تتجه إلى حزام سرواله والمتصلب بمراقبة غيرواعية لا يكاد يتنفس..

يجاريه في كل خطوة..

يرضخ ويخضع..

يترك نفسه للحظة استسلام ختامية..

لحظة ما إن انتهت حتى جمع شتات كيانه وهندم ثيابه بقرارنهائي:

- أنا هاسيب الشغل هنا.. يا تنقلني فرع اسكندرية؛ يا ترفدني.. مابقيتش فارقة..

وترك من ظن أنه أعاده للمسار الصحيح محملقًا بوجوم يتابع رحيله..

هو الشوكة في حلقه حين عشقها..

هو مسمار التابوت الذي نُقل فيه عشقه لمثواه الأخير..

***

عندما نخسر أغلى ما نملك؛ تتساوى بعده الخسارات..

والويل له.. هي لم يعد لديها حتى ما تخسره!..

دُفنت الصغيرة بمراسم عزاء لم يتوقف خلالها نواحها ولو لثانية.. دُفنت وابنه حضر من بعيد فهو غير مسموح له بالاقتراب..

دُفنت ودَفنت والدتها معها روحها..

كم مر من وقت!..

ما يقرب من شهر.. وهي قلما تغادر غرفة ابنتها، تعتكف بفراشها.. تتلمس دفء مكان تركته باردًا خلفها..

تتشمم ثيابها، تتحس كتبها وأقلامها، تتصفح هاتفها الذي تعيد شحنه باستمرار..

شهر والحياة توقفت..

لا يأتي "جواد" للبيت أبدًا، فتباعدت لقاءاته به كثيرًا.. لم يره خلال تلك الفترة سوى مرتين، يوم العزاء.. ويوم آخر زاره بالعمل يطمئن منه عليه وعلى حالها..

أمه..

أو من كانت كذلك..

رن هاتفه باسم ولده ليباغته، كتم صوته وأجابه بسرعة وهو يدلف لغرفته القديمة:

- أيوة يا جواد.. لا يابني لسه زي ماهي، لا بتاكل ولا تشرب إلا بالضغط.. مافيش دكاترة، مش موافقة تروح ولا راضية تسمع الكلام وتريح قلبي..

وصمت يتنهد بحيرة:

- ربنا يحلها من عنده.. ويصبرها ويصبرنا..

أنهى المكالمة كعادته باقتضاب، زفر بإنهاك واستدار عائدًا ليرابض قربها عندما وجدها عند الباب..

ترمقه بنظرة باهتة لا مدلول لها.. وجهها كله لا ينطق بشعور..

ابتسم محاولًا احتواء الموقف:

- ماجدة.. خرجتِ من الأوضة..

وهي تفادت كل ما يصرح به قولًا وفعلًا ونظرة.. وشدت قامتها تهدي روح طفلتها السلام:

- طلقني يا عبد الرحمن..

***

هو رجل يسلم قلبه لامرأة واحدة، ثم يظل ملكًا لها حتى يفارق الحياة!..

خيالي ربما.. لكنه يرى أنه لا ينتمى إلا لدنيا عشقها..

دنيا ستكتمل اليوم بزفافها إليه..

زفافًا صمم عليه عندما رفضته، ونصحه طبيبها بالإصرار..

استبدال ذكراها الأولى بذكراه هو..

محوها ليحل كل ما يجمعه بها محلها..

نصحه بأن يتبع معها سياسة النفس الطويل فما مرت به دون تفاصيل ليس بالهين.. هي تحتاج ثقته وأمانه واحتواءه..

وهو لم يكن ليبخل بأي منها..

تجاهل ما حدث بعد قبلتهما الأولى.. لم يعلق وتغافل عن خجلها يهديها بغفلته راحة..

لم يقربها بشكل حميمي سوى بلمحات عفوية تُعودها لمسته.. وجوده..

تعامل معها كأنه لم يمر بحياتها رجل من قبل، أو مر وترك أسوأ أثر..

واليوم.. ستُزف إليه..

أجبرها ولا يهم، اختار لها ثوبًا يليق بها بعينيه واعترضت ليقنعها بيسر..

ثوب ملكي منفوش بذيل طويل.. وهي ملكة.. ملكته!..

وها هي من بعيد تأتي بتبختر قاتل لقلبه، تتعلق بذراع عمه.. الشمس الدافئة تمنح بشرتها وهجًا خاصًا.. وعينيها تهديانه نظرة خائفة!..

البلهاء لا تعلم مقدارها لديه..

لا تدري أنه يقدم لها قلبه طوعًا فقط ليستأصل ذلك التوتر الذي يسيطر عليها..

تسلمها من العم..

قبَّل جبينها.. وتناول يديها يحتويها بين ذراعيه في رقصة أولى.. مضى الوقت بسرعة تناسب دقات خافقه المفتون بها..

بل مضى بطيش يناسب رحيل شبح مظلم اختبأ بركن لا تصله عيناها لكنه كان يراها بوضوح..

يرى ابتسامتها..

سعادتها..

نظرة الحب بعين عاشق يضمها..

يرى خجلها..

كل ذلك امتلكه في يوم وأضاعه، أو هي من انتزعته منه بغير حق!..

اليوم ينقطع الخيط الأخير بينهما.. اليوم سيترك لها هدية تحفظ ذكراه بروحها إلى الأبد!..

عاد نحو استقبال الفندق الراقي، تفاهم مع الموظف المختص وناول أحد العاملين مغلفًا ورقيًا صغير الحجم نوعًا ليسلمه ليديها..

يديها وحدها..

أما هي فقد أبلغتها والدتها بمفاجأة زوجها الخاصة لأجلها بعدما رفضت السفر خارج مصر، ساعدتها في تغيير الثوب الضخم.. ارتدت ثيابًا بسيطة تناسب طريق سفر طويل وهي حائرة:

- هو يوسف ما قالش هنسافر فين!..

قرصت والدتها وجنتها ببهجة:

- قال لي طبعا، بس مش مصرح لي أقولك..

قبل أن تعترض أو تلح طُرق باب الغرفة، فتحته "سما" التي كانت تساعدها في ترتيب حقيبتها ووجدت أحد عمال المكان وبيده هدية للعروس..

أنيقة برباط حريري أحمر..

حاولت تسلمها منه لكنه رفض وأصر على وضعها بيدي العروس دون غيرها..

مع إصراره استجابت..

أتت "ملك" بدهشة مستغربة، حملتها بوزنها الخفيف، لا بطاقة تهنئة أو حتى معلومة عن مرسلها..

فضت الأوراق بحذروقلبها منقبض..

وتجسد بغتة الماضي مقتحمًا الحاضر بقسوة أحداثه..

كانت صورة متوسطة الحجم بإطار ذهبي فخم، صورة بعدسة هاوية عليها تاريخ لم تنسَه بعد..

تاريخ اليوم الذي كانت به في هذا المكان..

صورة كوخٍ بسيط ببقعة ساحرة والمياه الفيروزية تحيطه من كل جانب..

صورة تُذَّكِرها أنها هناك كانت بين ذراعي رجل رحل عن حياتها ولكن ليس قبل أن يحفر بها أثره ويشوهها بندوبه..

سقطت من يدها على الأرض بدوي أجفل والدتها.. هرعت إليها ورأت ما رأت وأدركت..

"ملك!"..

رفعت إليها عينيها و"سما" تحاول تخطي الزجاج المكسور بحذائها مع إدراكها للمكان، ولمرسل الهدية:

- أنا اتأخرت على يوسف..

ودون لحظة زائدة تسمح فيها باطمئنان أمها عليها؛ تحركت تغادر الغرفة.. تهبط إليه لتجده بانتظارها بقميص صيفي قطني وسروال من الجينز جوار سيارة أخيها!..

أقبلت عليه ليتلقفها بابتسامة عاشقة وإيماءة:

- اركبي..

توقفت بحيرة مشتتة:

- دي عربية مروان..

غمزها وهو يجذب مرفقها ويسير بها نحو الباب الآخر:

- أيوة.. المكان اللي رايحينه ما تنفعوش عربيتي..

صمتت بعدما أغلق السيارة ودار حولها يتخذ مقعده:

- إحنا رايحين فين!..

ضحك بعبث مبتهج:

- لا.. دي مفاجأة..

ومال يسرق من وجنتها قبلة خاطفة:

- الطريق طويل.. ارتاحي بقى..

ظل يقود حتى حل الليل، بدأت المعالم تضيع منها وهي تهرب من حدث عكر صفو اليوم..

تتناساه..

تنكره..

تستند برأسها للنافذة وتغمض عينيها بتعب..

تبًا له يسعى لسرقة فرحتها، لكنها لن تهبه ما أراد!..

"فاضل نص ساعة"..

فرقت جفنيها ترمقه بإرهاق:

- إحنا عدينا مطروح من زمان، إحنا رايحين ليبيا ولا إيه!..

قهقه بانتعاش كأنه لا يقود طوال أكثر من سبع ساعات:

- هانت.. كلها دقايق ونوصل..

ومع يقينه ارتعشت..

رجفة واضحة أصابت جسدها وانتهت بكفيها المتعانقتين فوق ساقيها.. رجفة لاحظها فانتفض قلبه ويده تمتد لتحيط بيديها بدفء.. بربتة حانية وعيناه على الطريق وقتما راقبت عيناها عناق أيديهما باطمئنان.. براحة وأمان..

ثم كان صادقًا..

فلم يكد يعبر عقرب الدقائق ثلاثون منها إلا ووصلا للمكان الموعود..

فندق "Adrere Amellal.. أدرير أميلال" أو الجبل الأبيض باللغة الأمازيغية في الفردوس المفقود كما يلقبونها، واحة سيوة..

المحيط كان غريبًا بالنسبة إليها وممتعًا بالنسبة إليه..

اختاره من بين الكثير فقط لأنها ستكون له وحده هنا..

لا كهرباء.. لا هواتف نقالة.. لا تكنولوجيا، وأكواخ تضاء بمصابيح الكيروسين والشموع..

وجدته يجري مكالمة سريعة لم تفطن مع من!.. انبهارها بالمنطقة كان يتضاعف في كل ثانية، بعدها جاورها يمد كفه بتطلب:

- هاتي الموبايل..

- ليه!..

- ممنوع هنا..

وملامحه جدية أجبرتها على التصديق..

أغلقه واحتفظ به في جيبه بابتسامة خبيثة وهما يتبعان العامل نحو الكوخ الخاص بهما..

كوخ بنكهة عربية بدوية تراثية تشعرك بالأصالة والعراقة..

مفروش ببساط عتيق التصميم يحمل عبق الماضي معه، وفراش واسع تجاوره طاولة صغيرة..

وفي المواجهة هناك معيشة بطراز عربي تناسب المكان..

"ها.. إيه رأيك!"..

لم تنتبه أنها أصبحا وحدهما إلا عند سؤاله وهي تتطلع ببصرها خارج النافذة، لم تلتفت بل ظلت على وضعها كأنها تهرب من انفراده بها:

- حلو قوي..

شعرت بخطواته تقترب..

بجسده يلامسها..

بكفيه تستريحان بخفة حول خصرها..

وذقنه ترتكن لكتفها متمتمًا بهمس:

- عشان أنتِ فيه..

تشنُج جسدها لم يخفَ عليه، وكما وعد طبيبها وإن لم يدرك كامل أبعاد الصورة.. سيهديها الأمان الذي تحتاجه..

حررها بحركة عفوية وتوجه نحو الحمام الملحق بالكوخ..

غسل وجهه ورأسه واتجه للفراش يتمدد فوق عابثًا بورقة وقلم أتى بهما من حيث لا تدري:

- بصي.. أنا عملت برنامج للأسبوع اللي هنقضيه هنا..

استدارت بوجهها إليه في تشتت ضائع وهو يقرأ ويعدد ما اختاره:

- بكرة هنروح قلعة شالي، اللي هي سيوة القديمة.. بعدها هنطلع على البحيرات المالحة نرجع على بالليل.. تاني يوم هنروح معبد آمون وجبل الدكرور.. تالت يوم هنطلع سفاري مع جروب من الفندق ورابع...

- يوسف..

بترت وتيرة حديثه التي تسارعت حد اللهاث، نظر إليها بتساؤل أربكها وهي تعانق بعينيها لهب إحدى الشمعات المتراقص على نسمة ناعمة مرت عليها:

- هو إحنا هنقضي كل وقتنا برا!..

تأملها بصمت..

لا تدرك ما تفعله به.. بقلبه وعقله وكل ما فيه!..

اعتدل ينهض وخطواته تقوده لقربها:

- أيوة هنقضيه برا..

لمعت الدهشة بمقلتيها والخجل يزين ملامحها بحضوره:

- ما هو لو قضيناه جوا هيبقى أنا وأنتِ والشيطان تالتنا..

لم تفهم دعابته!.. هو لن يتمم زواجه بها!..

ابتسم ويده تمتد لوجهها، تلامسها أنامله بحنو.. يرسم تفاصيلها بدقة ورفق:

- ملك.. أنا مش هاجبرك على حاجة؛ بس برده مش هاحرم نفسي منك..

يخبرها أنه يعلم بمخاوفها.. بهروبها وارتجافها والذكرى السيئة التي تقرر احتلال اللحظة بأقبح ما فات:

- على فكرة أنا ما مانعتش إنك...

كانت تعاند..

ترفض حرمانه حقه حتى وإن كانت تخشى مجرد مروره بذهنها، وهو مسَّ بسبابته شفتيها يسكتها، وعينيه تصدقان على كل حرف يطمئنها به صوته العميق:

- يوم ما هتكوني في حضني هيكون من غير خوف أو ذكريات أو حزن.. هتكوني ليَّ بكل ما فيك؛ من غير ماضي يقف حاجز بينا..

امتلك وجهها كله بين كفيه:

- بس ده ما يمنعش إني أعمل كده..

وأهدى جبينها قبلة.. تسلل بعدها لوجنتها عند طرف شفتيها:

- وكده..

وأسكنها صدره باحتواء آمن:

- ما يمنعش إنك كل يوم مش هتنامي إلا في حضني..

وصدقها الوعد..

منحها صك الأمان وسلام النفس والروح..

مرت الأيام، لا تغمض عينيها بنعاس إلا وهي بين ذراعيه، ولا تفتحهما في الصباح التالي إلا على ابتسامته.. وقبلته الخاطفة لشفتيها..

اعتيادًا جعل الأرق يزورها عندما سبقته للفراش في إحدى الليالي وكان هو يودع بعض الصحبة الذين تعرفوا عليهم بالفندق..

يرهق جسده نهارًا فيسقط تعبًا ليلًا..

لتكون هي مرتاحة.. راضية وهانئة..

خمسة أيام وبعد اثنين تاليين سيرحلان عن المكان الذي عشقته..

تريد أن تمنحه ما يستحقه، لكنها وفي كل مرة تتردد.. تتوتر، وتتراجع في لحظة خوف..

كانت تتجول في "جبل الموتى" وشرودها أبعدها عنه..

أبعدها حد أنها تلفتت حولها بوجل تناديه بصوت مختنق..

بعد خطوة خرقاء قفز بوجهها ثعبان تجهل نوعه، أو ربما أفعى!.. هي لا تعلم عنهما أي شيء ولا تفرق بينهما..

يتأهب للهجوم بحركة مخيفة..

ورأت بعينيه نهاية..

سمعت همسه باسمها من ورائها، لاحظ تصلب جسدها وتجمدها بمكانها فاقترب بحاجبين معقودين:

- مالك يا ملك!..

عندما جاورها لمح ما يثير ذعرها وانقبض قلبه..

انقبض بعنف والأدرينالين يصب في عروقه بجنون جعله يتقدمها، يحميها بجسده والتالي..

انقضاضة مباغتة..

هجوم مخيف، غادر..

ولدغة شرسة كان ضحيتها الأقرب منهما إليه..

(٢٨)

أتُحبّني.. بعد الذي كانا؟..

إني أحبّكِ رغم ما كانا..

ماضيكِ.. لا أنوي إثارتَهُ..

حسبي بأنّكِ ها هُنا الآنا..

تَتَبسّمينَ.. وتُمْسكين يدي..

فيعود شكّي فيكِ إيمانًا..

عن أمسِ.. لا تتكلّمي أبدًا..

وتألّقي شَعْرًا.. وأجفانًا..

"نزار قباني"

يعلمنا الحب القوة، ثم يأتي الخوف فيشعرنا بالتهديد، بالضعف..

يضع نصب أعيننا حقيقة ثباتنا الواهي، ويكشف الستار عن إدعاءاتنا الباهتة بالصلابة والبأس..

يهدينا العشق سعادتنا، ومن بعده ينتزع الرعب كل راحة مرت بقلوبنا..

كما حدث بهاته اللحظة..

ثوان معدودة.. محدودة هي الفارق بين حياة وموت..

بين غرق ونجاة..

بين رهبة وأمان..

بين جمودها واندفاعه لحمايتها بجسده..

فتقتنصه هو اللدغة!..

بعدها دهس الثعبان بحذاءه الثقيل والمختار بعناية للسير في الصحراء وتسلق التلال، ودون إظهار لمحة ألم عاد إليها يتفحصها بهوس جنوني؛ يطمئن أنها بخير..

كانت ترتجف..

عيناها تطوفان بارتعاش على كل تفصيلة منه بحثًا عن أثر..

وفي اللحظات التالية وجدت نفسها مزروعة بين ذراعيه حتى كادت تندمج فيه، شفتيه تجوبان ملامحها بهمسات ضائعة بين التشتت، اللهفة والقلق وتنتهي بالعشق..

ثم يجذبها ويعود بها نحو الفندق لتصدق أنه لم يصبه مكروه..

أن السم لم يمسه، لم يسرِ بدمه!..

نصف ساعة أو أكثر وكانا بغرفتهما، رأت جسده متعرقًا، ساخنًا.. ورعدة ما ألمت به أصابتها بالهلع..

هلعًا لم يكن يشبه ما تبعه عندما ترنح فجأة.. وسقط!..

تبع سقوطه انهيار قلبها، بل انزلاقه في هوة مظلمة لا قرار لها وصراخها باسمه لا يصل لأذنيه..

تلاه جنونًا بينما تحاول جذبه إلى الفراش وثقل جسده لا تتحمله عضلات ذراعيها الواهنة..

تجلس جواره بعجز وأناملها تتجول حول تفاصيل وجهه جوار همسات.. بل توسلات أن يفتح عينيه..

وحرارة كادت تلسعها لتتيقن أن اللدغة نالت منه دونها، وكل ما فعله كان يحميها به..

يحميها من خوفها، ومن الخطر!..

ثم استفاقة..

فأي حماقة تقوم بها الآن وهي ترفع رأسه فوق ساقيها تناديه بلا جدوى!..

استقامت تجذب وسادة تريحه عليها، تعود أدراجها إلى أحد موظفي الاستقبال وتخبره بحروف متعثرة عما حدث..

تجهُم ملامحه أفزعها أكثر فانسابت دموعها، بلغة لم تفهمها تحدث مع زميله وفي غضون دقائق أخرى كانا بالغرفة، يحملانه إلى الفراش وثالث يصطحب عجوزًا منحت التجاعيد وجهها قصصًا أبدية بعمر دهر، حادثته بذات اللغة والتي خمنت أنها الأمازيغية..

لغة أهل سيوة القديمة..

كشفت عن ساقيه بحثًا عن أثر ما بأصابع معروقة وعندما رأته حادثت الشاب الذي أتى بصحبتها فالتفت يسأل "ملك":

- تقدري توصفي الحية!..

حيرة شديدة اكتنفت عقلها.. هي لا تذكر شكل الثعبان، أو لونه..

فقط كان مخيفًا جمد خلاياها، هزت بنفي والمرأة توازي هزتها بتفهم.. تتحسس بأناملها الأثر الواضح وتتمتم بنبرة ثقيلة خبيرة:

- وا غير تيقاسش أُوفيغار ناربيع..

رمشت بأهدابها في غير استيعاب ابتسم له الرجل وهو يترجم بيسر:

- بتقول إن دي لدغة حية خضاري..

وهي من ورائه تردف دون انتظار بحروفها الخشنة:

- أُوتوگدامشي حيتاش سام إناس أويْتاگ..

توسعت بسمته مكملًا بطمأنة وصوته الهادئ يبعث على السكينة:

- ما هو سام.. أو هو نصف سام بس ما هو مؤذي، بيوجع شوي.. لما يفوق راح يتألم..

تلمست العجوز ساق زوجها بلطف واعتدلت يعاونها الشاب على النهوض:

- والو مِينداس إتوقِعاش غير دهاسَّاسيًّا.. واها أُوذِن مين غاناگ تهالا ذاياس..

أشار لها بتفسير محتويًا حيرة عينيها:

- الحرارة والهلوسة بس من الحساسية للدغة، ما في شي بنعمله، خلي بالك عليه..

أومأت بتوتر حائر وعبرة تغافل تماسكها لتنسكب خارج أجفانها..

اقتربت منها العجوز فزادت رجفتها.. مدت يدها تربت على كفها بحنان أمومي دون حديث، ورحلت..

بل رحلوا جميعًا وبقيا وحدهما..

لا.. هناك ثالث، رعبها!..

تحسست جبينه فابتلت يدها بعرقه، سخونته أفزعتها أكثر فانتفضت نحو الحمام، تملأ إناءً صغيرًا بماء الصنبور وتلتقط إحدى المناشف في محاولة للتخفيف من حرارته..

ما إن جاورته حتى لاحظت عيناها رعشة سيطرت على جسده..

رعشة وازت هذرًا لا تعي معناه، كلمات مبهمة وتمتمات أقرب للتعاويذ تجاهلتها وهي تبلل المنشفة ثم تعصرها وتضعها فوق جبينه..

تلك كانت مهمتها طوال ليلة مديدة لا تدري كيف مرت..

لكن عندما أشرقت شمس الصباح كان أفضل حالًا وإن بان على وجهه شيء من ألم!..

اعتدلت تضم رأسه لصدرها.. تربت على كتفه، تتخلل خصلاته الناعمة الطويلة وتنحنى لتهدي جبينه لثمة تبثه فيه كل ما يعتمل بنفسها..

تتحرك شفتاها بدعاء.. برُقية.. بما تحفظ من آيات، وتسأل الله له الشفاء..

بعد ساعة حضر أحد العاملين ليغير الشراشف بصحبة موظف الأمس، تعاونا لنقل زوجها إلى الأريكة وبعدها أعاداه للفراش وهو على حاله..

حال دام لثلاث ساعات أخريات فتح بإثرهما عينيه يطرف بهما في ضياع وهو يرى نفسه بأحضانها:

- ملك!..

مع همسته غير الواعية انتفضت..

تغرق بين جفنيه في نظرة عشق كانت له حلمًا لطالما تمناه..

وهمًا لطالما عاشه..

وهي تعود لتلتصق به ووعيه يتراجع بضبابية نحو الغياب من حيث أتى:

- حمد الله على السلامة يا يوسف..

تاه في رمادية الحلم..

لكن ليس قبل أن يسمع ترحيبها بحضوره بفرحة.. براحة أدهشته!..

***

هو رجل يختطف مشاعرها في حرب.. يسرق قلبها في ثورة..

وهي امرأة تعلن لروحه الهدنة وتهدي عقله السلام..

وبين الحرب والسلام.. لا تفاوض..

لا مناورات..

لا معارك استنزاف..

فقط.. تُرفع راية الاستسلام!..

كان يتوسد ساقيها وبيده هاتفه، يلعب الشطرنج مع أحدهم عبر الأثير، ويهزمه كما اعتاد هزيمتها..

عيناها تتابعان فيلمًا رومانسيًا بنصف انتباه على شاشة التلفاز، تقضم أظافرها بتوتر وفكرها حائر بين التصريح، والتأجيل!..

خاصة بعد عودته لعمله قبل خمسة أيام..

أخيرًا قررت باندفاع بتر صراعها بهتاف يحمل اسمه:

- مروان..

توقفت بلعثمة رقيقة عندما واجهت عينيه، انتظر استطرادتها فعضت شفتها السفلى بتردد:

- شركة Black horse عرضوا عليَّ شغل هناك بعد ما خلصت فترة التدريب..

تذكر شركة والد صديقه التي تدربت فيها بتوصية منه، ابتسم وجذب يدها يدفئ باطنها بقبلة اعتدل قليلًا بعدها:

- طيب ده خبر هايل..

وهذه المرة شدها إليه يحاصر شفتيها بهمس:

- ويستاهل احتفال..

قبل أن يلامسها تراجعت بارتباك عقد له حاجبيه بتساؤل:

- مالك!..

أعادت خصلة نافرة لما وراء أذنيها:

- هيبقى في شهرين تدريب عملي زيادة عشان اخترت الشغل هنا في القاهرة..

استقام يجاور جلستها باهتمام:

- يعني مش هتشتغلي على طول!..

نفت بصمت أثار فضوله:

- طيب ليه اخترتِ القاهرة!..

احمرت وجنتاها بسحر دومًا يحتجز بصره أسيرًا لفتنته، وبصرها هي يهرب منه:

- مش عاوزة أبعد عنك..

في اختطاف عابر سريع أهدته عشقها بتعبير صادق..

تحرك يتحكم بذقنها ليعيد عينيها إليه بتمتمة متخمة بمشاعر غامضة:

- وأنا مش عاوزك تبعدي عني..

ومال يستحوذ على جوارحها بهيمنة شفتيه.. ثوان لم تطُل ثم تراجع مع تشتتها بشبه غيظ:

- أنتِ مش معايا..

ارتبكت أكثر وفركت كفيها ونظرتها تخبره أن الأمر لم ينتهِ بعد:

- في حاجة تاني!..

- عربيتي!..

بصقتها تتخلص من تعثر الكلمات فوق لسانها، رفع هو حاجبًا مشاكسًا:

- بندقة!.. مالها!..

وكزت كتفه بقبضة رقيقة حانقة:

- بطل تسميها كده.. دي أنتيك..

ابتسم بعبث فلكمته مجددًا، اعتقل كفها بين أصابعه يضغطها بشيء من قوة متملكة وهي تبرر:

- من وقت ما خبطتها قبل الفرح بأسبوع وماما رافضة تصلحها، حتى بابا مش قادر يقنعها..

أطلق ضحكة خافتة ويده تسحبها تجاهه بحركة مفاجئة ألقتها بين ذراعيه:

- عنيفة قوي ماما دي..

ابتسمت بمرح بينما تومئ لتوافقه رأيه:

- قوي قوي..

فكر لحظة ثم قرر ببساطة:

- خلاص هاوصلك أنا الفترة اللي جاية، ولما يوسف وملك يرجعوا هابقى أروح البيت عند عمي أسحبها ونشوف هتحتاج إيه!..

احتلت البهجة تفاصيل ملامحها حتى أدقها وهي ترتكن على ركبتيها مقابل جسده وتتعلق بعنقه:

- ميرسي بجد يا مروان..

وأبعدت رأسها بنظرة تحذيرية تصنعت فيها الخطورة كأنها تخيفه:

- بس خلِ بالك عليها Please..

نقروجنتها بسبابته بشقاوة:

- النظرة دي ما تمشيش مع Please دي خالص..

زمت شفتيها بغضب فاختطف منهما قبلة سريعة وهو يحاول إغاظتها أكثر..

هي في لحظات الغيظ.. ممتعة..

بل في كل لحظة!..

تظاهر بتفكير جاد قبل أن يسألها ونبرته تخلو من المزاح:

- تفتكري ممكن أحطها في شنطة الروفر بدل ما أسحبها!..

وجمت تتطلع إليه بغباء لا تعي ما اقترحه تمامًا، لم يقاوم مع نظرتها ضحكة ثانية أنبأتها بمقصده فصاحت تنهره عندما دفعها على الأريكة ومال فوقها:

- مرواان..

كانت آخر أحرف عبرت شفتيها..

ففي إثرها؛ أخذها في لحظة..

لهفة..

توق أغار على كل ذرة فيها.. وكل ما بجعبتها لتجابه استحواذه حينها؛ خضوع..

***

في قانون العشق هناك قاعدة واحدة ثابتة: اترك نفسك للتيار..

لذا بسفينة عشقه قررت ألا ترتدي سترة نجاة، أن تدعه يجرفها حيث شاء؛ فحيثما ارتحل كان ذاك مسكنها.. مستقر روحها ومستودعها..

أن تسلمه زمام قلبها بثقة استحقها فنالها عن جدارة..

أما المتغيرات؛ فهي محيط يدفعك أقرب أو يبعدك..

ما يحدث معها الآن، لا يقربها منه وحسب.. بل يطويها فيه، في قلبه وكيانه..

خمس ساعات مرت بعد صحوته القصيرة وعودته لغياب وعيه، لم تفارق جانبه.. وتقريبًا لم يبتعد بصرها عنه..

لم يستيقظ ثانية، حرارته باتت أفضل.. هذيانه توقف، كذلك هي لم تنم طوال الليل وتكاد تسقط من فرط الإجهاد والقلق لكنها لا تملك ما تفعله سوى العناية به..

شعرت به يتململ في موضعه، جفنيه يرتجفان لثانيتين قبل أن يفرق بينهما وتسقط في موجات مقلتيه الناعستين..

تسارعت أنفاسه بعض الشيء وهو يرمقها بضياع عبر عنه بنبرة أبحة:

- إحنا فين!..

سأل بإنهاك بينما يتأمل لهفتها وذعر نظرتها بدهشة ونصف استيعاب، فعقله لم يستفق كاملًا بعد:

- أنت مش فاكر!..

خلل خصلاته بأصابعه واستاء من ملمس جبينه وشعره المتعرق:

- هو إحنا اتجوزنا!..

توقفت ترمقه باستهجان.. صمتت للحظات تتأكد فيها من صدقه، ورأت وجهه صادقًا لأبعد حد.. جاورته بالفراش تسأله بنبرة محبطة:

- نسيت!..

ازدرد لعابه.. كانت تبدو حزينة، ابتسم وداعبها بصراحة:

- الحقيقة أيوة.. أنا بسأل بس عشان مش هتقعدي قدامي كده إلا لو اتجوزنا..

وأشار لثوبها المنزلي القصير عاري الأكمام.. شعرت بحنق طفيف بان بعينيها ولهجتها:

- إحنا في سيوة، وأيوة اتجوزنا.. والمفروض إن ده أسبوع العسل..

- دي أكيد هلوسة..

تمتم بها باحتجاج استنكرته:

- ليه بتقول كده!..

حاول الاعتدال قليلًا مرتكنًا لمرفقيه فدعمته بذراعيها..

قربًا لم يحظَ به بالفعل سوى في أحلامه!..

نعومتها.. عطرها.. عبقها الخاص..

لمستها ورأسه التي مالت رغمًا عنه لتقترب من صدرها في شبه ضمة:

- طيب.. يعني أنا مش بحلم!..

وضعت خلف ظهره وسادة وعادت لوضعها الأول تعقد ذراعيها بزمة شفاه متهكمة:

- لأ..

- اثبتي لي..

لاحقها بالكلمة فسكنت بحيرة، اقترحت بعدها بشقاوة:

- أقرصك يعني!..

ضحك بخفوت وهو يمد كفه إليها، أمسكت بها بين يديها بتلقائية:

- ليه العنف ده طيب!..

وغمزها بمكر عابث أطلق منها ضحكة خجل:

- ممكن بوسة عادي..

البهجة كانت تخط لوحتها على ملامحها بألوان تسعده..

البهجة التي أزاحت الحزن من وجهها ولا يستطيع تفسيرها..

لم يكن يعلم أن قلبها ينتفض بقسوة بين ضلوعها فقط.. لأنه بخير!..

عاندته بمرح وابتسامة تسيطر على شفتيها:

- طيب ما دي برده ممكن تكون حلم..

فكر للحظة وجدية غريبة ترتسم على وجهه:

- إمممم.. وجهة نظر؛ طيب بوسيني بعدين اقرصيني..

هزت كتفيها بموافقة واستقامت تعتمد على ركبتها فوق الفراش وكفها تستريح على صدره، منحت شفتيه قبلة خاطفة لم يمكنه حتى مبادلتها إياها فعبس بغيظ:

- خلاص.. اتأكدت إنه مش حلم..

تراجعت لجلستها بتساؤل:

- إزاي!..

لايزال على غيظه الممتع وهو يبرر بمنطقية:

- ما هو في الحلم مش هتبوسيني كده..

تاهت في معالم صفاء روحه المنقوشة على كل ما فيه.. نظرته، بسمته، انحناءة طرف فمه بعبث.. حاجبه المرفوع يبادلها تيهًا بتيه وتأملًا بتأمل..

مدت أناملها تدور حول وجهه، وجنتيه وجبينه.. تبعد خصلاته عنه بتنهيدة راحة:

- حمد الله على سلامتك..

كان يتفهم ما مرت به..

قلبه يتعلق بما يبدو عليها، وعقله يختار الطريق الأصوب.. الأكثر أمانًا فالانتظار إجراء أحوط..

منحها بسمة عاشقة وتحرك يغادر الفراش:

- أنا محتاج شاور بارد..

عاونته لينهض ووازت خطواته حتى توقفت عند باب الحمام:

- هاجهزلك هدوم..

التفتت لتجد يدها بقيد قبضته، نظرت إليه بتساؤل جاوبه ببراءة:

- مش هتساعديني!..

غصت بريقها وعيناها تتوسعان بصدمة:

- أساعدك!..

أكد على كلماته ببساطة كأنه يتحدث عن أمر اعتيادي بينهما:

- أيوة.. افرضي دوخت جوا!..

سحبت يدها منه بارتباك وهي لا تدرك هزله من جده في هذه اللحظة:

- مش هتدوخ إن شاء الله..

مط شفتيه ببؤس مصطنع:

- لو جرى لي حاجة باحملك كامل المسؤولية على فكرة..

أخيرًا فطنت لمزاحه الوقح فعقدت ساعديها أمام صدرها:

- هاتحملها..

تحرك للداخل بهزة رأس حزينة أضحكتها:

- شريرة..

حافظت على ابتسامتها باستسلام، تحركت تحضر له ثيابه، تنتظر وقلبها يدق..

يدق!..

هناك بين ضلوعها إيقاع غريب، جديد..

إيقاع تجهله..

معزوفة ناعمة، قوية.. هادئة وشرسة، نارية وثلجية.. مقطوعة متناقضة بين ضد وضد.. أوتارها مُلك أنامل عازف متفرد يجيد سرد الحكاية وسط اللحن بشتاته كله..

بصخبه وجنونه.. وضياعه!..

زفرت أنفاسًا حارة قصيرة، خللت شعرها بأصابع يديها وهي تعيد رأسها للوراء، تطيل الشهيق وتزفره ببطء.. تغمض عينيها والأمل يحاصرها من كل صوب كما العشق الذي أسرها بقلبه..

سمعت صوت الباب يُفتح فاستدارت لتجده شبه عارٍ لا يستر جسده سوى منشفة صغيرة حول خصره، يخطو للغرفة متجاهلًا وجومها وجمودها:

- فين الهدوم!..

رآها بين يديها فأقبل عليها باقتراب أجفلها، رمتها إليه وولته ظهرها بهتاف:

- أنت.. أنت..

هتاف غير مكتمل رسم على شفتيه بسمة ماكرة وهو يرتدي ثيابه:

- أنا إيه!.. ما أخدتش الهدوم معايا جوا كالعادة!..

استشعرت سخونة وجنتيها بل احتراقهما وهي تسبه:

- أنت سافل على فكرة..

انتفضت وكفيه تحطان حول خصرها بتملك وفمه يجاور أذنها بهمس حار:

- وأنتِ مراتي على فكرة..

حقيقة ساطعة لا يجدي معها الجدل..

أحست بشفتيه تلامسان جيدها وأنامله تبعد خصلاتها لتفسح لقبلاته المتتابعة طريقها.. نبض قلبها بعنف ونبضاته وصلته بوضوح عند عنقها فابتسم باستمتاع وأدارها بين ذراعيه..

هذه النبضة مختلفة..

جسدها نفسه بين يديه مختلف..

لم تتجمد.. لم ترفض أو تكره..

كانت فقط متوترة كعروس!..

"وحشتيني"..

تمتمة مستعرة بلهيب عشق لن تنطفئ نيرانه أبدًا..

حلقت بسمائه الصافية وكفيها تستريحان فوق صدره، ثوان اكتنفها خلالها الصمت ثم استبدلت يديها برأسها تستكين بأحضانه وهمستها الوجلة تصله مختنقة:

- ما تعملش كده تاني..

لم يفطن لمقصدها فتغضن جبينه..

هل تطلب منه الابتعاد!.. أم..

ولو كانت تريده بعيدًا فلمَ تتشبث به كأنه حصن أمانها!..

أزاحها عنه وأحاط وجهها بكفيه يغرق بعسل عينيها المتوهج بسحر أسطوري لا يليق بسواها:

- قصدك بلاش أحميكِ بروحي يعني!..

أومأت بإيجاب واجف ابتسم له ونبرته يتلبسها حنو:

- أنا ما أقدرش أشوفك بتتعرضي لخطر وأقف ساكت..

وشفتيه أهدتا جبينها قبلة طويلة عاد بعدها لسكناه بين جفنيها:

- ما أقدرش أخسرِك..

ثم نفى بثبات لا يفاوض أو يتنازل:

- بعد كل ده ما ينفعش تضيعي مني..

- أنا كمان ما أقدرش أخسرك..

تمتمت بها خافتة بأحرف مبعثرة وجدت سعادتها وتُرهبها.. بل يتفجر بشرايينها الهلع مع لمحة خسارة:

- لا عيديها، ما سمعتش..

وعيناه تحتل كل ما فيها، ابتسمت بتعب:

- يوسف.. ما تهزرش..

أنكر بصدق صُراح وابتسامته تناشدها استجابة:

- أنا بجد عاوز أسمعها تاني..

استكانت عند ضلوعه تنصت لمقطوعتها الخاصة براحة.. بسعادة تزورها للمرة الأولى منذ زمن:

- أنا بحس بالأمان معاك..

رفع وجهها إليه في احتواء غارق بعاطفته التي تطوقها.. تأسرها بالكلية:

- وأنا أوعدك مش هتخافي طول ما أنا عايش.. حتى لو كانت حياتي هي التمن..

أخرست شفتيه بأناملها تأبى سماع ما يؤذيها فيه:

- ما تقولش كده..

- أوعدك..

أكد عليها وهمس بإخلاص..

تاليًا إثر صمت قصير قرر الضياع في لحظة..

لحظة اكتمال..

لحظة يحتاجها..يريدها.. يشتهيها، ويدرك أنها لن تعارض.. لن تبعده..

نظرتها تخبره..

ارتعاش شفتيها يبحث عنه..

دفء جسدها الذي يستند لجسده..

قسوة نبضها مقابل جنون نبضه..

وقبل أن يلبي النداء الذي رآه غمغم باسمها، ثم أخذها في اجتياح ناعم يشبه عشقه..

اجتياح كنسمة هادئة..

كعاصفة..

كإعصار..

كدوامة أغرقتهما بين دوائرها..

كبركان صب بحممه داخل أوردته..

اجتياح عاشق تلون بجُل درجات ألوان العشق!..

***

الاستسلام لعشق ما.. مباح، ولغيره مستحب..

أما التسليم للسقوط بغرامه هو!.. ففرض عين..

لحظات عاشتها معه كأنها لم تمر بها من قبل، كأنه هو رجلها الأول.. كأنما لم يسبقه لجسدها وروحها وقلبها آخر..

كانت معه البداية..

كان عند أطراف أنامله الميلاد..

في كل لمسة وهمسة وقبلة منه ظل يثبت لها أنه يراها فتاته الصغيرة التي اعتاد اللعب معها..

أنها ستكون امرأة على يديه هو.. يديه وحده..

يحتويها برقة وبلحظة ينتصر شغفه بها فيهديها ثورة.. اضطراب.. فوضى وبعثرة، ثم يعيد لملمتها بين ذراعيه في ضمة..

كل ما يمنحها إياه منه ببذخ؛ ينبئها ببساطة عن أفكاره..

هو يؤمن مثلها تمامًا..

أنه رجلها الأول!..

يعيد رسم خرائط أنوثتها برجولته، يرشدها إليه ويجذبها من متاهات ألم مضت..

رُغم إرهاقها لم تنم..

لم تستطع..

عقلها يطوف حوله، أنفاسه التي تجاور عنقها بحرارة، منتظمة بهدوء بطيء يدلل على نومه هو..

إحدى ذراعيه أسفل عنقها، والثانية تحاصر خصرها باستحواذ دافئ..

أبعدت رأسها قليلًا تتأمله، ترى جفنيه المضمومين، جبهته التي تهدلت فوقها خصلاته الناعمة بتشعث مثير.. وجنتيه، ذقنه غير الحليقة بخشونة اعترضت عليها وهي معه.. وشفتيه..

بسمة حالمة زارت ثغرها بتردد..

هل يجوز العودة بصحبته لدنيا الأحلام!..

لسحابتها الوردية وهو فارسها!..

تنهدت بتمهل وتحركت بهدوء شديد تزيح طوقه، تحاول النهوض بتلكؤ فهي لا ترغب في الابتعاد عن أحضانه.. لكنها فقط جائعة!..

لم تكد تعتدل حتى وجدت جسدها يندفع عائدًا إلى الفراش بضغط ذراعه، وهمسه المشاغب يخفق له نابضها بحياة:

- رايحة فين!..

جوابها المبدئي كان شهقة، ثم وكزة لكتفه المقابل لها وغضب عينين متوهجتين بعشق نفض قلبه:

- خضيتني..

انحنى فمه بالتواء خبيث وهو يرفع جسده فوق مرفقه ليتأمل تورد وجنتيها بمتعة:

- أصالحك..

احتل شفتيها بتلذذ كأنما يتناولها هي كوجبة عشاء، دفعته لمسافة قصيرة تعانده وبذات الوقت لا تسعى إلى فراقه:

- أنا جعانة جدا..

- وأنا برده.. جدا جدا..

من عينيه أدركت مقصده فابتسمت بدلال:

- أنا ما أكلتش حاجة من إمبارح تقريبا..

- أنا ما أكلتش من...

وصمت مفكرًا يحسب بعقله معادلة غير منطقية تليق بها:

- من أكتر من تلاتين سنة..

- يوووسف..

تنهره بحماقة دون أن تدرك ما يفعله به اسمه من بين شفاهها..

التقمهما بشغف بعثر معه تماسكها وقهر به عنادها:

- المرة اللي فاتت ما تتحسبش..

شدت خصلاته تجبره على الابتعاد بحنق مصدوم:

- نعم!..

غمزها وهو يعود إليها باحتلال جديد:

- أيوة.. كنت لسه فايق من الحرارة والهلوسة..

بان على ملامحها ضيق طفولي أضحكه فمرغ أنفه بنعومة وجنتها تاركًا لأنفاسه إسقاطها بهوة عشقه:

- المرة دي بقى.. بضمير..

يضغط أحرف الكلمة بعبث لم تملك معه سوى مبادلته ضحكته..

شغفه..

جنونه باستسلام بدد ما تبقى من مخاوفها..

بفريضة يجبرها عليها الحب..

بحب..

***

الحب دومًا ما يقترن بشيء من خوف..

خوف على من نعشقه، من بعده.. من ألمه، من غضبه.. أو على غضبه..

وعندما امتنعت عن إخباره بما جرى مع أخته يوم زفافها من زوجها السابق كانت تخشى ردة الفعل التي تؤمن أنها ستكون عنيفة..

مؤذية.. له!..

"أيوة يا خالتو.. اطمنتِ على ملك!.. أيوة عارفة المكان اللي هما فيه بس قلقانة عليها.. طيب الحمد لله إنهم كلموكِ.. لا لا طبعا ما قلتش لمروان زي ما اتفقنا"..

"ما قلتيش إيه لمروان!"..

الخوف قرينه الآخر.. حماقة!..

لقد عاد مبكرًا من عمله فقط ليستمع لكلماتها وتتجمد هي بينما يصلها حديث خالتها المرشد بتعليمات لم تفقه منها حرفًا واحدًا وأصابعها تغلق الخط ثم يتصلب جسدها في مواجهة عينيه الحازمتين..

استقامت تواجهه، تقترب منه بتردد.. تشب على أطراف أصابعها لتقبل وجنته بابتسامة ناعمة ارتباكها جليّ:

- حبيبي.. جيت إمتى!..

لم تتبدل نظرته ويده تقبض على أناملها بصرامة:

- مخبية عني إيه أنتِ وماما يا سما!..

ابتلعت ريقها بعُسر عندما نفت بابتسامتها الباهتة:

- لا أبدا.. ما تقلقش نفسك، يوم فرح ملك بس كان في مشكلة مع الفندق وخالتو اتصرفت..

وجنتيها تحمران.. وتتلعثم!..

هي لا تجيد الكذب ولا تتقن الالتفاف من طرقه الخلفية، تشددت أصابعه حول يدها بقوة مقننة أيقنت منها أنه كشف ابتعاد خطواتها عن الحقيقة.. حافظت على جمود بسمتها وقلبها يطرق صدرها لحد موجع:

- مروان.. إيدي..

لم يحررها وعيناه تحاصرانها بنظرة صارمة طالت لثوان اندفعت بعدها:

- جوز ملك الأولاني الحقير بعت لها هدية يوم الفرح..

بلا وعي انضمت قبضته تقيد يدها أكثر وهي تطمئنه، تحاول منعه من رد فعل جنوني:

- بس ملك بجد كانت قوية جدا، كسرت الصورة وتجاهلت الموقف..

- صورة إيه!..

باقتضاب أخافها فتمتمت باسمه ليكرر سؤاله بصيحة هائجة انكمشت على إثرها وهو أخيرًا يحرر يدها.. ضمتها لصدرها وفركتها بالثانية:

- كوخ في المالديف.. تقريبا اللي قضوا فيه شهر العسل..

وفهم..

كرجل فهم..

فهم دناءة ذلك الخسيس، اندفعت خطواته وخطواتها من خلفه بصراخ.. تقطعها عليه بجسدها الضئيل في مقابله:

- مروان عشان خاطري.. ما تهورش، عشان كده خالتو أصرت ما نقولكش..

- أنتِ بتستهبلي يا سما!..

زعقة أجفلتها..

ولأول مرة يمرر لها صوته العالي..

غضبه واهتياجه.. ومقته!..

أوقفت اندفاعه بيديها فوق صدره، واحدة تربت على موطن قلبه والأخرى تستند إليه:

- أنا عارفة أنت ممكن تعمل إيه وخايفة عليك..

أزاحها من أمامه بسخط:

- كويس أنك عارفة، ابعدي من طريقي بقى..

فتح الباب ليغادر ثم صفعه خلفه بعنفٍ قاسٍ حينما هتفت باسمه في لوعة.. تهاتف والدته وتشتكيه.. تخبرها وتبكي..

الأرعن سيؤذي الرجل.. والأسوأ أنه قد يؤذي في المعمعة: نفسه!..

كان يقود سيارة ابن عمه بأقصى سرعة تسمح بها الطرقات في هذا الوقت، يكاد لا يرى عبر زجاجها.. سحابة سوداء داكنة ظللت كل شيء فأحالته لعتمة نهشت ما بداخله..

ذلك الوضيع سيلقى عقابًا يليق بفعلته..

تجاهل رنين هاتفه برقم أمه ومع تكراره أغلقه..

صف سيارته بعشوائية عند مقر شركات "غالي".. تفاهم مع أمن بوابتها فهو يحمل اسم "الحسيني".. النسيب فيما مضى لمالكها..

بغضون دقائق وصل لمكتبه، يطلب من مساعدته اللقاء..

والمسكينة ما إن فتحت باب الغرفة تخبر رئيسها عن وجوده حتى اندفع هو خلفها كإعصار عاتٍ..

إعصار أطلق منها صرخة.. وبصوت أنثوي آخر وصلت لمسامعه شهقة وقتما مد يديه يقتلعه من مقعده الفاخر ويزين فكه بلكمتين متتابعتين كادتا تكسرانه..

انقض به على أقرب جدار والصوت من وراء ظهره يشجب باستنكار:

- أنت مجنون!.. مين ده وإزاي دخل هنا!.. ميسون اطلبي الأمن بسرعة..

اختلطت كلماتها بكلماته وهو لا يأبه بل ترتفع ركبته لمعدة المحاصر بينه وبين الحائط:

- أحسن لك تبعد عن أختي يا.....

والمسمى سبة ذميمة تلائم ذلك الوغد..

الوغد الذي انثنى على نفسه بسعال ويده تشير لزوجته:

- بلاش أمن..

والزوجة سمعته..

كما سمعت كلام ذلك الهائج الذي يكاد يطحن عظامه.. لم تكترث رغم تأجج غضبها.. بل اندفعت تحاول حمايته بجسدها وهي تدرك بنظرة واحدة أن الغاضب لن يضرب امرأة!..

بالفعل توقفت لكمته التالية بمنتصف الطريق عندما احتلت ملامحها المسافة بينهما.. صرخ فيها:

- أنتِ بتدافعي عن إيه!.. ده حقير ما يستاهلش..

لم تكد تنتهي جملته حتى تراجع للوراء إثر لكمة نالها فكه..

لكمة أدمت شفتيه، وثانية تركت أثرها فوق وجنته ثم لم يكن هناك ثالثة.. بل قبضة "نزار" تستقر بقوتها بقبضته.. يسيطر عليها بغضب مستعر كالجحيم بين جفنيه..

يلويها ومعها ذراعه التي أوشكت أن تنكسر، ويسقطه..

سقط زوجها على ركبتيه بأنين ليتلقى فكه لكمتين أخريين وقدم "مروان" تركله فتقذف به على الأرض، يغرس ركبته اليمنى في معدته ويداه تمتدان لتتحكما بقبة قميصه، يرفع وجهه إليه.. ينحني لينفث لهبه بفحيح مخيف:

- قسمًا بالله يا بن غالي لو قربت من أختي تاني لتكون نهايتك على إيدي..

أهدى أنفه ضربة أخيرة برأسه أفقدته اتزانه بل وغاب بعدها للحظات عن وعيه واثنين من الرجال ضخام الجثة يهرولان للمكان.. يقتربان منه فيوقفهما بصرامة حادة:

- اللي هيقرب مني هابيته في الحبس..

تصلب الرجلان لثوان بتشتت انتهت مع إشارة رئيسهما لهما بتركه يرحل وزوجته التي تجمدت تراقب المعركة تفيق من ذهولها.. يحتلها الغضب،

والرجلين يرحلان خلف الراحل بخطوات متوثبة متحفزة كفهد اقترب فاقتنص ونهش واكتفى..

راقبته ينهض بصعوبة فلم تساعده.. منحها نظرة ساخرة وهو يمسد فكه بألم، وسخريته أفقدتها لجام سيطرتها:

- أنت عملت إيه!..

لم يجِبها فتحركت نحوه باندفاع:

- ده أخو طليقتك مش كده!..

ظل على صمته ورمى بجسده على أريكة واسعة بتهالك، جذب محرمة ورقية يمسح بها خيط الدماء المتسلل من أنفه وفمه:

- نزار.. رد عليَّ..

رفع إليها عينين باردتين جمدتا أفكارها كصقيع سيطر على عالمها:

- عاوزة إيه يا رولا؟!..

- عاوزة أعرف في إيه!..

استرخى متراجعًا بظهره في راحة وبسمة غامضة ترتسم على وجهه..

بسمة أخافتها:

- مافيش.. بعت لها هدية تفتكرني بيها يوم فرحها..

- هدية إيه!..

بسمته تحولت للتهكم وعينيه تتوهجان ببريق مبهم:

- صورة الكوخ اللي قضينا فيه شهر العسل في المالديف..

احتارت بحثًا عن تفسير لتصريحه..

هل يذكرها بما كان بينهما هناك رغبة منه فيها، أم في إغضابها!..

- ليه!..

نظر إليها باستخفاف ثم تمدد على الأريكة كأن شيئًا لم يكن:

- بافكرها كانت في حضن مين هناك..

- ليه يا نزار!..

رمقها بنظرة جامدة.. جليدية بثت بروحها بردًا قارصًا كأسوأ شتاء:

- عشان أفكرها مين أول راجل نامت معاه..

اعتدل بعدها يستند لمرفقه، نظرته تتبدل لدناءة أرهبتها:

- عشان أقولها إني هافضل الأول في حياتها، أول واحد لمسها.. مهما لفت ودارت أنا اللي عرفتها يعني إيه تبقى في حضن راجل..

وفمه يأخذ انحناءً خبيثًا لئيمًا حقيرًا وقاسيًا:

- عمرها ما هتنساني، بوظت فرحتها بحبيب القلب، وكل ما تبقى معاه هتفتكرني.. قطعت آخر خيط يربطني بيها..

ثم قست ملامحه أكثر فبدا كشيطان يستمرئ السلطة بجحيمه الخاص:

- بس الخيط ده هيفضل رابطها هي بذكرياتنا سوا للأبد..

ارتدت بشهقة..

كانت تعلم أنه وقح جريء فاسد لا يخشى شيئًا.. لكن ما فعله!..

كتفت ذراعيها حول جسدها ورعشة تسري فيه:

- أنت بتخوفني منك كده..

نهض بغتة فانتفضت.. انتفاضتها أهدته ضحكة مستهجنة هازئة:

- لازم تخافي يا رولا..

عيناه تغرقها بالخوف حقيقة ومجازًا فلا تكاد تتنفس ورأسها تغوص أسفل موجات هلع تسلل إليها..

هذا الوجه منه؛ تراه للمرة الأولى..

تمتمت بحسرة مشتتة:

- كل ده وكنت بتحبها!..

أفاقت من تشتتها على صوت إغلاق الباب وحصاره الخانق لها بجذبة غليظة مقررًا بيُسر:

- لسه بحبها..

وحَجَب كل أفكارها، اقتلع أمانها وثباتها في طريقه لامتلاكها.. كأنما تلك الحبيبة التي يتشدق بامتلاكها قلبه مرت في حياته كزوبعة.. وانتهت!..

أما المهتاج فقد عاد لبيته ولم يخمد ذلك الجحيم الذي يصطلي بنيرانه..

تجاهل نزف شفتيه وألمهما، عقله يكاد يخترق الحُجُب ليذهب إليها.. يطمئن عليها.. يخبرها أنه اقتص لها..

دلف للمنزل ليجدها قرب بابه تستقبله..

في لحظة دخوله كانت ترتمي فوق صدره، تحيط خصره بذراعيها، تتشبث بأصابعها في ظهر قميصه وتبكي كطفلة تائهة:

- مروان.. والله لو خوفتني عليك تاني كده ها.. ها..

ابتسم رُغمًا عنه مع تلعثمها، أحاط كتفيها بيديه يطمئنها بحضوره:

- ها إيه!..

ضربته بقبضتها بضعف ولم تجد ما تتمم به تهديدها فاستكانت لضمته..

احتواها لثوان لم تدُم طويلًا لأنها تراجعت تنظر إليه.. الصدمة تغزو وجهها وأناملها تلامس طرف فمه المكدوم بانزعاج.. أبعد وجهه بشيء من ألم:

- هو ضربك!..

أدهشه سؤالها فاستنكره:

- أنا طحنت له عضمه..

جذبت يده ليجلس على أريكة غرفة المعيشة:

- أيوة بس ضربك وعورك ونزفت أهو..

مسح قطرة الدماء بإبهامه ساخرًا:

- نزفت!.. دي نقطة..

أزاحت يده وهي ترمقه بنظرة مؤنبة، تخطو خارج المكان وتغيب لدقيقة ثم تعود إليه.. ترفع وجهه نحوها وتبدأ في تنظيف جرحه وعينيها تتأملان ببؤس الزُرقة الشاحبة التي تسللت لوجنته..

ثوان وانتهت بتوبيخ محذر:

- ما تعملش كده تاني..

- حاضر..

استجاب لها باستمتاع وقبل أن تسير مبتعدة عنه جذبها ليسقطها فوق ساقيه:

- أي أوامر تانية!..

أحاطت عنقه بذراع ويدها الثانية تجوب ملامحه الحبيبة باشتياق خائف:

- في الوقت الحالي لأ..

تركها تغوص في أفكارها قليلًا ثم أمسك بكفها يقبلها بحنو:

- طيب أنا محتاج مسكن..

ابتعدت باهتمام قلِق:

- ياخبر.. بتوجعك!..

ضحك بمرحٍ عابث ولم يقاوم الاستحواذ على شفتيها لثوان ابتعد بعدها بأنين خافت:

- شوية..

حاولت النهوض لتجلب له قرصًا:

- طيب هاشوف لك مسكن.. ثواني..

تمسكت يده بخصرها وهو يرفع حاجبه بمكر:

- لا أنتِ فهمتِ غلط..

خللت شعرها بحيرة وهي تعيده للخلف باستفهام أجابه باعتدال، باستقامة يحملها بين ذراعيه، بخطوات تجاه غرفة النوم:

- هاشرح لك جوا بالتفصيل الممل..

أحاطت عنقه بيديها وإدراكها يستوعب التفافه..

خجلها يصيبها بحمرته وهمستها المشاكسة تتجرأ رويدًا رويدًا لتجاريه:

- ولو ما فهمتش!..

ضحك بعبث مبتهج:

- نعيد تاني..

هو رجل.. يهديها نفسه، وتهديه قلبها.. وروحها، بل كل ما فيها.. وكفى!..

***

هناك رجل يسحب من امرأته الحياة.. وهناك رجل؛ يهديها كل حياة..

هي مرت بالاثنين..

الأول ترك ندبة بفؤادها والثاني جمَّلها بحضوره..

قهرًا عقلها يصنع مقارنة غير مجدية..

بين عشق وعشق..

بين قلب وقلب..

بين امتلاك.. وانتهاك!..

انتهاكًا تخطى حدود الجسد ليشمل الروح والكيان والنفس الهشة..

بين استحواذ بجدارة واستنزاف حد الخسارة..

"سرحانة فيَّ طبعا"..

كما في كل غياب يلمحه بعينيها يردها إليه، تلاقت ببصره ببسمة ناعمة:

- أكيد..

ارتفع حاجبه وفمه يشاغبها بنصف ابتسامة وخاصته كانت عابثة:

- استهدي بالله يا بنتي.. إحنا على طريق ووسط جبال، مش معقول هادخل جوا عشان...

- بس..

أخرسته بضربة في كتفه فقهقه بسعادة..

سعادة وحدها من تمنحها لقلبه وعقله وروحه..

ثلاث اجتمعوا على عشقها.. ثلاث لا مهرب من خياراتهم، بل فقط تظل وتبقى أبدية..

جذب يدها بين أصابعه، قربها من شفتيه بلثمة دافئة ونظرته العاشقة تحاوطها من كل حدب وصوب.. تغرقها، تشعلها..

تهديها الراحة وتنزع من أسفل قدميها بساط الثبات والصلابة..

تسقطها فيه..

في زرقة سمائه..

وترفعها معه بين الغيمات..

أعادها من شرودها عندما تحولت القبلة لحسية راغبة بباطن كفها فأجبرتها على شدها منه بتأنيب:

- يوووس..

- بس أنتِ بقى المرة دي وإلا والله...

وأدار عجلة القيادة إلى يمين الطريق تجاه الرمال..

تشبثت به تتوسله من بين ضحكاتها:

- خلاص خلاص.. أنت بجد مجنون..

عاد لطريقه المستقيم ببسمة شقية:

- مجنون بيكِ..

تأملته بتيه..

مؤخرًا باتت تتيه فيه كثيرًا..

في تفاصيله..

في نَصه الأصلي وحواشيه..

في نثره وشطر بيت شعر تدثر بدفء عينيه..

في حروف كلمة عشق تحررها شفتاه لها وحدها..

"فاكرة لما قلت لك أول مرة ما تتحسبش!"..

تعلقت بنظرته التي تبدلت للعشق الخالص:

- أول مرة ما تتنسيش..

وأحاط يدها بيده مجددًا:

- مافيش لحظة معاكِ تتنسي يا ملك..

هذه المرة بادرت هي..

لفت يديها حول كفه ورفعتها لشفتيها تهديها قبلة حب..

قبلة امتنان..

قبلة تخبره عما يعجز قلبها ولسانها حتى اللحظة عن التصريح عنه..

قبلة ابتسم لها ثم تنهد وداعبها:

- لما نوصل هاعاقبك على عملتك دي..

ضحكت بخفوت خجول وهو يردف بحنق:

- أسبوعين عسل مش كفاية.. كان المفروض أمدهم شهر، بس لما اتصلت بالمستشفى أظبط الأجازة رفضوا..

كان تعبير وجهه العابس لطيفًا كرر ضحكتها.. ابتسم لها بتهديد متوعدًا:

- اضحكي اضحكي.. قربنا وفي البيت هنتفاهم..

ثم اعتذر لها مطالبًا بالغفران:

- سامحتيني على موضوع البيت!..

زمت شفتيها وألقت يده تدير وجهها عنه مصطنعة الغضب:

- لأ..

كان جادًا فهو بالفعل خرجت الأمور عن سيطرته وحسب:

- يا بنتي افهمي.. الشقة صبا بتشرف على المهندس اللي ماسكها دلوقتِ.. أنتِ عارفة إننا اتجوزنا بسرعة فماكانش في وقت نلحق نرجع عليها.. كلها أسبوعين تلاتة بالكتيرونبقى في بيتنا بإذن الله..

لم تجبه وظلت على تمرد عينيها بعيدًا عن عينيه.. شاكسها بمكر:

- في بيتنا.. لوحدنا..

قاومت الابتسامة فعاد يوضح بهدوء:

- هتبقي براحتك على فكرة، آسر مسافر كمان يومين على سينا.. وأوضتي هتعجبك..

حافظت على صمتها.. أغاظته فدغدغها بعبث انتفضت له:

- وبالمناسبة السعيدة دي؛ أحب أقولك معلومة مهمة.. السرير بتاعي صغيرشوية..

وأفكاره المنحرفة تجرفه معها كعادته، استدارت إليه توقفه:

- خلاص.. حصل خير..

انتشى بانتصاره فقرر أن يلهو لدقائق أخرى:

- طيب مش تعرفي قصدي إيه!..

- عارفة..

بادرته ببترعنيد خجول قهقه على إثره:

- يعجبني فيك إننا على نفس الموجة..

احمرت وجنتاها فعليًا.. توسعت عيناها بسباب رآه واضحًا فيهما وهي تعود ببصرها للطريق وتمتمة من بين أسنانها تصل لأذنيه:

- قليل الأدب..

تسعده!..

لا..

بل تُمرغ قلبه في جنتها..

***

في وسط العتمة وعمق الظلام كانت هي نقطة الضوء التي تهديه السكينة..

مرفأه الذي ترسو عليه سفينته بعد تيه، عقب طول إبحار بين موج غادر تقاذفها بطيات هيمنته..

لم تكن منارة تهديه الطريق، بل كانت المنتهى..

كانت هي نهاية الطريق!..

طريقًا اختار السير فيه بنفسه، وعليه فكل ما مضى يثقل كاهله وحده حتى وإن قتلها هي الذنب وغرقت فيه..

منذ ماتت "مريم" أيًا كان المسمى الذي تحمله بحياته والحياة لم تعد كما كانت..

والدتها أصرت على الطلاق بل وهددت بالخلع وتدخل أشقائها بلا جدوى.. طيلة أشهر مضت عاصر والده انكسارًا لم يره عليه من قبل..

انكسارًا تخطى حدود شيبته فقهره..

وعندما حاول مراضاتها بنفسه.. الحديث معها، لم تقبل.. بل حتى لم تفتح له باب المنزل!..

ونالت ما أرادت.. ما سعت إليه قبل: أسبوع..

الوقت الوحيد الذي يتناسى فيه إثمه المعاقب عليه من ضميره هو عندما يذهب مع زوجته لطبيبتها ويرى طفلته..

نعم.. زوجته تحمل أنثى..

يستمع لدقات قلبها.. يرى يديها وقدميها الصغيرتين وتصف له الطبيبة حركاتها التي استشعرتها والدتها لأول مرة منذ يومين..

خربشة صغيرة بكت على إثرها وضمها يطمئنها..

طفلته بلغت من عمرها أربعة أشهر وعشرة أيام، للآن تثير غثيان أمها كل صباح، تكره الدجاج وتعشق الأسماك وعصير المانجو والشيكولاتة..

تبعها من باب المنزل وأغلقه خلفه بهدوء.. موعد متابعتها النصف شهري، وموعد سعادتهما الوحيد..

كانت تفرك كفيها بتوتر.. ملامحها حفر الحزن فيها أخاديده وتسلط وتحكم، التفتت إليه:

- هتروح لعمي عبد الرحمن؟..

ألقى مفاتيحه فوق طاولة جانبية:

- بكرة بإذن الله..

توترت أكثر.. ترغب في سؤال ولا تدري كيف تطرحه!..

اقترب منها يمسك بكفيها:

- مالك!..

سحبتهما من دفء يديه..

بل انسحبت بالكلية بعيدًا عنه:

- هتعمل إيه في السفر؟..

رفع حاجبيه بدهشة وظهر الضيق بنبرته:

- هاعمل إيه يا شذى!.. مش هينفع أسافر وأسيب أبويا لوحده..

- أنا ما قلتش كده..

زفر بصبر محاولًا مداراة غضبه:

- شذى من فضلك.. النهاردة، على الأقل النهاردة بلاش خناق..

تراجعت بجرح تنطوي على نفسها:

- آسفة..

بصوتها ارتعاشة خوف دفعته نحوها:

- حبيبتي إحنا..

- أنت مش حاسس بالذنب بجد يا جواد!.. ولا بتطمني أنا وبس!..

بترت اعتذارًا كان على وشك النطق به..

كم مرة احتوى حزنها!.. خوفها!.. أقنعها أن موت من رحلت قدر لا مفر منه مهما كانت الخيارات!..

كم مرة منحها القوة وأهدته الضعف!..

- إزاي مش حاسس بذنب وأنت علقتها بيك!..

وابتعدت أكثر تبكي بفيض من الدموع كعادتها في الأيام الفائتة:

- اعترفت لها بحبك وفي الآخر كسرت قلبها..

تصلب في وقفته..

كان يعلم أنها لن تنسى..

لن تمرر الأمر وستظل تذكره وتعيده عليه مهما امتد الوقت بهما..

طعنة نافذة في قلبها ويتفهم، خطأً وحيدًا ارتكبه وإذا به يعاقب عليه أبدًا..

منها.. من ضميره.. ممن كانت له أمًا، وحتى من وحدة أبيه وضعفه ومرضه الأخير..

وشبح من تظنه عشقها يبني سدًا منيعًا يفصلهما، سدًا يعلو ارتفاعه في كل يوم..

توجه إلى غرفة النوم، بدل ثيابه وغادرها إلى غرفة المعيشة يتبعه سؤالها بعدما استفزها صمته:

- أنت بتعمل إيه!..

توقف دون استدارة يهبها الجواب البارد وقد فاض به الكيل:

- هانام في الليفينج..

وشاب لهجته تهكم وصلها بوضوح:

- هي أصلا مش فارقة..

يشير لامتناعها عنه بسخرية.. فمنذ رحيل "مريم" لم يقربها، كانت تراها بينهما في كل كلمة أو لمسة..

تبتعد وترفضه حتى عافتها نفسه وذنبه يتضاعف بداخله حد ابتلاع روحه..

ولأول مرة يهجر جانبها..

يرحل عنها ويتركها تصارع كوابيسها.. وحدها!..

***

ألقت إليها السماء بنجمة، اختلستها دون علم القمر.. حاكم الليل المسيطر..

وهبتها بها سعادتها..

أنعمت عليها بالاكتمال.. وحينما شاهد القمر ما حل بها؛ لم يعترض..

اختبار حملها إيجابي، تحتضنه بكفها دون رد فعل محدد..

وقفت مشتتة.. كيف تتصرف!..

هل تقفز فرحًا!..

تصرخ باسمه لتخبره بأجمل بشرى!..

تخيفه!..

تعشقه أكثر!..

كانت فقط لا تعلم.. وجهلها سكب من عينيها عبرة تشبه براءتها.. لتعود فتنظر بانشداه إلى الاختبار..

هي تحمل ثمرة عشقها له برحمها..

تحمل خيط العشق الخالد..

لقد سقطت بين صفحات إحدى رواياتها التي تدمنها وحان وقت إبلاغ بطل حكايتها وفارس أسطورتها بهدية القدر..

توجهت إلى غرفة النوم حيث يتمدد على الفراش وفوق قدميه حاسوبه المحمول منشغل به في عمل ما..

لا تصدق أنه قد مرعلى زواجهما ما يقرب من أربعة أشهر!..

أنهت فيها فترة تدريبها وبدأت عملها الجدي، توأمها سافروعاد دون شعره الطويل يلعن الصحراء وحرها نهارًا ثم زمهريرها ليلًا.. ومباشرة يعلن أنه مستمتع بالتدريبات والمناورات التي يخوضها..

أخيها الأكبراستقرمع زوجته بمنزلهما بذات المبنى الذي تقطنه هي..

وزوجها كما هو..

مجدٌ في عمله.. يحنو عليها ويسعى بكل جهد ليسعدها.. لا تطمئن سوى في حضوره، وعندما يغيب تغيب عن حياتها شمسها..

والآن هناك نجمة..

نجمة صغيرة جعلتها تجذب الحاسوب منه، تتموضع على قدميه وتستوطن صدره فيطوقها بذراعيه في تلقائية.. يقبل رأسها بهمس ماكر:

- إيه!..

ابتسمت وتعانق جفناها تهرب منه إليه.. من حقيقة لصورة وتطوف حول الاثنتين بجنون عاشقة..

لم ترِد التفوه بها..

كانت تود مفاجأته وترتيب الأمر لتزف إليه الخبر بشكل مختلف لكن لسانها سبق كل فكرة بتصريح رقيق مباغت:

- أنا حامل..

تصلب جسده لثوان في غير استيعاب..

هل أخبرته للتو أنها تحمل طفلهما!..

بهدوء دون أن ترفع نظرها إليه!..

تحكم بذقنها لتواجهه وشفتيه ترتجفان بين بهجة وعدم تصديق:

- أنتِ قلتِ إيه!..

أمسكت بيده وحركتها تريحها فوق بطنها لتؤكد على ما جهرت به:

- أنا حامل..

انفرجت ملامحه مع بشراها.. عدل جلستها ليضمها أكثر بسعادة حقيقية:

- بجد!..

استجابت لضمته تنطوي فيه:

- مبروك يا سما..

ظلت تتأمل وجهه لثوان..

تمد يدها تتلمس حناياه بأطراف أناملها..

ترسم عينيه وتدور فوق حاجبيه، تضغط بينهما بإبهامها كأنها تفكك عقدة جبينه..

تتحرك بسبابتها هبوطًا على أنفه إلى شفتيه وخشونة ذقنه..

تفرد كفها الصغيرة تحاوط وجنته وتهمس بصدق.. بإخلاص.. بنقاء:

- بحبَك..

كانت المرة الأولى التي تصدح فيها بعشقه بتلك الكلمة..

كانت تناديه حبيبي..

تنظر إليه كأنما لا رجال غيره في هذا الكون كله..

تخاف عليه وتهتم به وتغدق على روحه من نفسها ومشاعرها..

لكنها لم تنطقها..

مع همسها بها اضطربت نبضات خافقه وتاه بصره للحظة بعيدًا عنها..

وجم لحظتين تاليتن تمتم بعدهما بعبث:

- مش باقولك أنا محظوظ..

وتملك من وجهها يعتقل شفتيها في قبلة دافئة.. هادئة بها شغف ناعم لم تبخل عليه بمبادلته إياها..

عندما أطلق سراحها دفنت رأسها في صدره وأفكارها تأخذها لمنحنى قاسٍ لا تريد المرور بمتاهته..

هو لم يصرح بمثلها بالمقابل..

أتراه لا يشعر بها!..

لم يطرق عشقها باب قلبه بعد ولو على استحياء!..

هي دخلت لمعمعة غرامها به على دراية تامة بمشاعرها ومشاعره..

لذا ستظل تسعى.. لتتعادل كفتا ميزان العشق بينهما..

أغمضت عينيها وتركت عينيه هو شاردتين في كلمة تحتاجها ورجولته.. وقلبه يأبى أن ينطقها في كذبة..

فما بمضغته العصية نحوها لا يُجسد خيالها عنه في شيء..

تركتهما ضائعتين بمجهول غامض.. بات يخشاه!..

(٢٩)

أنا لم أحبك..

أنت بكل وقاحة.. سرقت قلبي!..

فرجاءً لا تُعِد ما سرقته..

البدايات الجديدة لا تُمنح كعطية..

بل تؤخذ عنوة.. تُقتنص لأنها لا تأتي أبدًا بيُسر..

لا تُقبل عليك.. أنت تصنعها..

هي تدرك ذلك تمام الإدراك، فمن محنتها اختلست أعظم هدية؛ والديها.. بأحقية لا تشترط حملها برحم أو توثيقها بشهادة ميلاد..

وتلك منحة ستبجلها.. تقدسها..

وقفت بتردد عند باب مكتبه تراقب انهماكه في عمله، منظاره الطبي متهدل بعض الشيء فوق أنفه.. وأنامله تخط بين حين وآخر شيئًا مجهولًا على الأوراق بين يديه..

ابتسمت بحنو فملامحه يبدو عليها الإرهاق.. تنحنحت برفق أجبره على رفع عينيه إليها لتقابلهما بنظرة صافية:

- عاوزة منك طلب..

هتفت بها بنبرة مرحة رسمت على شفتيه بسمة وهو يفتح ذراعيه لها:

- بشرط..

قطبت بطفولية بينما تتوجه إليه وتلقي نفسها بأحضانه:

- شروط من أولها يا مراد بيه!.. طيب مش تعرف الطلب الأول..

داعب ذقنها بين سبابته وإبهامه بهزة لطيفة:

- الشرط هيتنفذ قبل ما أعرف الطلب..

- كمان!.. ده استبداد على فكرة..

- أنا مستبد..

منحت وجنته قبلة دافئة ببهجة تنتشر بحنايا روحها:

- تم التنفيذ من غير ما تقول..

رفع حاجبيه باهتمام فضولي:

- وكمان عرفتِ الشرط من غير ما أقوله!.. إمممممم..

نهضت تدور في الغرفة بحيوية..

لا تريد التفكير في الأمر أكثر، فالتفكير باعث على التردد وهي قررت بالفعل:

- أنا عاوزة أشتغل معاك أنت وماما في الشركة في أيام أجازتي..

كبت دهشته محاولًا رسم الجدية اللازمة للموقف..

لم تكن تأبه لعمله من قبل!..

وحتى عندما أخبرها بعدما أنهت دراستها الثانوية أن تلك الشركات وفروعها بانجلترا ستكون لها بنهاية الأمر وعليها التعامل معها كإرث ينبغي اعتناقه؛ تهربت!..

اعتدل في جلسته بتساؤل هادئ:

- يعني هتشتغلي معايا في الإدارة ولا..

بترت سؤاله بحماس:

- لا لا.. أنا عاوزة أشتغل في تخصصي..

حك ذقنه بتفكير قصير:

- مترجمة يعني!..

- أها..

عاد يفكر لدقيقتين أخريين وحماسها لا يفتر بانتظار قراره الذي أبلغها به بلهجة فخور:

- طيب.. كلمي ماما بقى، العلاقات العامة في نطاق مسؤولياتها..

- يعني موافق!..

استقام يقترب منها، يتأمل لمعة عينيها والحيوية التي تتدفق عبر حركاتها ولغة جسدها..

ابتسم وانحنى يلثم جبينها بعاطفة أبوية وحدها تملكها:

- موافق جدا..

تعلقت بعنقه ترد له قبلته قبل أن تركض خطواتها إلى والدتها:

- Thank you dad بجد..

فتاته الصغيرة تحاول تمزيق شرنقة اليأس..

شرنقة الأمس..

وقريبًا ستمتلك أجنحة فراشات تليق بها.. أجنحة تحلق معها إلى سماء الحلم..

***

هي امرأة تختصر الكون بين شفتيها..

تدمجه بحروف اسمها..

تتوه فيها تفاصيله..

تختصر اللهفة والنعومة..

المنطق والجنون..

الفوضى والعبث..

الشغف والثورة..

تختصر في روحها الدفء والنار..

وبقلبها تتجمع قطرات العشق حد الفيض.. حد إغراقه فيها بإرادة حرة..

كانت في مهمة وحدها دونه، لم يعد معلمها.. لقنها خبراته وتركها تكتسب خبراتها الخاصة بنفسها من خلف عدسة كاميرا أنيقة احترافية أهداها هو إليها..

وكما يحدث في كل مرة تخرج للعمل تشتعل أعصابه في قلق عليها..

يفكر، ويدور حول نفسه.. يجلس بأي مقعد يصادفه، يعود لمعمله الخاص.. يفتح حاسوبه ويتأمل صورهما معًا..

ثم يعود لخلفية سطح مكتبه التي اختارتها بنفسها.. كفيهما المتعانقتين تزين بنصر كل منهما حلقة الآخر..

تنهد وأمسك بهاتفه، عبث به لثوان يرغب في الاتصال بها.. ثم يعود له تعقله عندما يتذكر انها بوسط مهمة لا يجوز معها تشتت..

نصف ساعة تالية مرت بين حيرة وانفعال مكبوت انفجر حينما رآها..

تسارعت خطواته تجاهها حتى كاد يضمها وفهمت هي من لهفة عينيه، ابتسمت تشاكسه كعادتها:

- مش هتبطل تقلق عليَّ!..

ابتسامته هو وازت تنهيدة ارتياح ووقوف يواجه به نظرتها العاشقة:

- غالبا لأ..

عقدت ساعديها بتذمر مفتعل..

لهفته تسعدها.. تنتشي بها مشاعرها الغارقة فيه.. لكن قلقه الدائم يؤذيه، وهي لا تريد له الأذى.. مطت شفتيها وتخطته نحو حاسوبه وأصابعها تنزع ذاكرة الكاميرا الرقمية:

- على فكرة أنا اتعلمت من فنان الجريدة.. يعني ما يتخافش عليَّ..

راقب حركاتها بينما تضع الذاكرة في مكانها المخصص لعرض الصور، تفتح المجلد الخاص وتشير إليه ليقترب:

- تعالى بقى شوف تلميذتك وهي بتتفوق على أستاذها..

استجاب لإشارتها ببساطة وجاورها جلوسًا فوق مكتبه، يتابع صورها بعين شاردة فيها هي.. في وجهها الذي يشبه القلب..

عينيها المتوهجتين بلمعة ذكاء تخطفه..

خصلاتها القصيرة وأنفها الفرنسي الشامخ..

وشفتيها!..

"أنا عاوز أكتب الكتاب"..

أوقف كلماتها بحلقها ليقطع اندماجها التام بالعمل..

بل حبس أنفاسها بصدرها وهي تتطلع إليه من مكانها بدهشة خجول.. تلاقت بعينيه في نظرة مخطوفة أجبرتها على ابتعاد..

ثم تركت المقعد كأنها تهرب منه:

- إحنا اتفقنا قبل الفرح بأسبوع..

تبعها بحصار رجولي خاص نبض له قلبها بعنف:

- خلاص.. يبقى الفرح الأسبوع الجاي..

- إيه!..

انحنى فمه بعبث هادئ:

- إيه!..

عقدت حاجبيها وعاد إليها تذمرها:

- ياسين.. ما تهزرش..

- ما باهزرش..

ودنا منها خطوتين تركت المسافة بينهما أقصر مما يجب..

أكثر مما يحتمل خافقها أو يحتمل هو.. تراجعت أكثر ووازى تراجعها إحاطته لها عند الجدار دون لمس:

- هاكلم الريس ونكتب..

- لأ طبعا.. مش موافقة..

لمعت عيناه بمكر توسعت له عيناها:

- أحاول أقنعك..

- ياسين ابعد أحسن لك..

هز كتفيه ببديهية مخادعة:

- أنا بعيد..

توترت أكثر وهي تحاول إزاحة ذراعه اليمنى لتفلت من احتلاله لكل ما فيها..

هو استوطن قلبها..

وبكل لحظة يسيطر على جزء أكبر منها..

حتى أنها الآن باتت مستعمرة عشقه الخاصة:

- ياسين..

همستها بضعف لا يناسب الفتاة القوية التي يعرفها..

فأي قوة ستتمسك بها أمام عاشق!..

همهم بكلمات غير مفهومة ونظرته تخبرها أن سيقدم على عمل أهوج لا يشبهه، تحولت الهمسة لزعقة ودفعة عنيفة:

- ياسين..

دفعة أصابت صدره تصطدم في طريقها بضلوعه فانحنى مصطنعًا الألم:

- إيه يا بنتي العنف ده!..

تخصرت تتحداه بعناد:

- عشان تفوق..

ضحك بخفوت مرح شابه خبث:

- فايق والله..

واقترب على غفلة منها بخطوة مباغتة وبصره يُسقط بصرها في فخه:

- بس...

صمت تاركًا لنظرته حرية التجوال بطواف صامت حول تفاصيلها.. يستأذن دُجنة مقلتيها ليضيع فيهما..

يمرعند جبينها..

يود لو ارتكن إليه بجبينه فيمرر لها عبر مسام جلده أفكاره وهواجسه..

وتتمهل عيناه عند شفتيها..

حيث التوق والاشتياق..

ورغبة رجل في امرأة تمتلك منه القلب والروح..

بيأس كرر وهذه المرة علا صوته استفهام تمازج به توسل يقطر منه غرامه بها:

- نكتب الكتاب!..

كأنها قرأت كل ما عبر طرقات مشاعره.. كل ما جال بخبايا عقله ونبضات فؤاده فابتسمت بحياء لا ينتزعه منها سواه..

هو رجلها..

حبيبها..

وملاذ قلبها..

هزت رأسها بإيماءة موافقة:

- كلم بابا..

تصلب لحظة لا يصدق موافقتها!.. اندفع عقبها إليها كأنما سيعانقها، لحظة جنون ثم توقف.. يفتح فاهه بحثًا عن كلمات بعدها استدار بشبه ركض إلى الخارج:

- هاكلمه حالًا..

رغمًا عنها ضحكت بسعادة..

فهو المنتهى عند مفترق عشقها.. ولا خيار!..

***

هي أنثى الشغف ولهفته..

هي امرأة العشق ومنتهاه..

هي الصخب في لحظة هدوء..

هي الجنون الذي يُذهب العقل..

بل هي خمره المباح.. هي الفوضى التي عاثت بقلبه فساد الهوى..

هي التي يحوم حولها ببيتهما وبمنزل العائلة في اجتماعها الشهري كأنما لو أغمض عينيه عنها ستتفلت من بين أنامله..

كانا وأخته وزوجها جالسين عند المسبح، "مروان" كعادته يستمتع بالماء ويشاكس زوجته لتتبعه لكنها ترفض خوفًا على طفلهما..

الصغيرة الوردية ستجعل منه "خالوجو"..

كم بدت الفكرة لطيفة!..

هو ممدد بمقعد طويل و"ملك" على ثانٍ يجاوره.. يداعبها كل دقيقة، يختلس منها لمسة.. يتشممها كأنها تفوح بعطر الحياة.. كفه تسير بطول ظهرها فتنتفض وتهرب.. حتى اكتفت فنهرته بعينيها وأخيها يتابع من موقعه بغيرة:

- في إيه يا دوك!.. أنت مش واخد بالك إن في ناس معاكم ولا إيه!..

نبرته لم تكن مداعبة قدر ما بها من حنق، اعتدل "يوسف" في مكانه ومد يده يدلل ذقن امرأته غير مبالٍ بالغيور:

- لا مش واخد.. مش شايف غير مراتي أصلا..

أبعدت يده بوجنتين متوردتين..

جرأته تخطت كل حد، وفي كل زيارة تكررت بعد زواجهما لابد من موقف أو أكثر تتعرض فيهم للحرج والدافع وقاحته..

"ما تحترم نفسك يابني وتراعي إن أخوها قاعد معاكم"..

خرجت نبرته ساخطة بموازاة مغادرته للمسبح، يجفف جسده ويرتدي قمصيه القطني ويده تبعد ابن عمه عن أخته..

تأمله العاشق باستهجان ثم سأل الوردية:

- ماله ده!.. خلي جوزك يحل عني..

- أنا اللي هاقوم وأسيبكم..

كانت من "ملك" التي استقامت بغيظ من الاثنين:

- عاجبك كده!..

- آه عاجبني..

من الزوج والأخ، وكزه "يوسف" بكتفه في طريقه وهو يتبعها:

- طيب خليك في حالك بقى..

قابل والدتها المتجهة للحديقة، ابتسم لها وسأل عنها، أخبرته أنها بالمطبخ فتسابقت خطواته إليها.. وجدها هناك تصب لنفسها كوبًا من عصير البرتقال والخوخ الذي يعلم بعشقها له..

حاصرها بين السطح الرخامي وجسده، ينتزع من يدها الكوب ويديرها إليه:

- أخوكِ ده رخم على فكرة..

دفعته تبعده برفق وابتسامتها الخجول تزين وجهها:

- هو اللي رخم ولا أنت اللي مزودها!..

ارتفع حاجباه بدهشة مدعيًا البراءة:

- أنا!.. كل ده عشان ماسك إيدك!..

زوت ما بين حاجبيها باستنكار فغمزها بشقاوة:

- أمال لو شافني وأنا بعمل كده!..

وهيمن على شفتيها بقبلة شغوف لم يطلق سراحها منها، هو لم يكتفِ بعد وأبدًا لن يكتفي، تملصت منه بشهقة:

- يا مجنون.. إحنا في المطبخ، لو حد جه...

- لو حد جه أنتِ مراتي..

امتلك ثغرها بعد بتر كلماتها باستحواذ ناعم أجبرها على استجابة فتِيه.. وعناق حميمي بترته نحنحة غاضبة..

نحنحة تخللت غيابها في عاشقها فأجفلتها حينما رد هو:

- أنت جاي عاوز إيه!..

خرجت بصفاقة من زوجها الذي يمارس سلطته على خصرها باحتكار كفيه متجاهلًا سعيها للفكاك من قيده دون فرصة:

-ماية يا دوك..

كانت عينا "مروان" ساخطتين ونبرته غضبها مكبوت:

- مش الناس بتشرب الماية من المطبخ برده!..

خطا نحو المبرد بحثًا عن زجاجة، التقطها واعتدل بعدها يرمق استئثاره بأخته بانحناء شفاه مستهجن:

- الأكل والشرب في المطبخ مش...

وسبابته تشير إليهما باستخفاف..

لم تفلح في الابتعاد فاختارت هروبًا مختلفًا..

دفنت رأسها وعينيها في كتف زوجها الذي يأسرها إليه بتملك:

- طيب اشرب ومع السلامة..

أنهى كلماته وعاد إليها كأنما سيستأنف ما كان يفعله، والآخر عقد حاجبيه وهو يلمح انكماشها على نفسها بحرج يدركه:

- عيب عليك والله.. طيب احترم إن أخوها واقف قدامك يابني..

- أنا جوزها يا أخوها.. أي خدمات تانية!..

بجرأة غريبة هز لها "مروان" رأسه وغادر بالفعل بهرولة شبه ثائرة.. انتظرت هي حتى رحل ورفعت عينيها لزوجها:

- أنت.. أنت...

ضحك بمكر عابث وجذبها خلفه:

- المكان هنا زحمة، أخوكِ فصلني..

عندما رأته يصعد الدرج إلى الطابق العلوي ويجرها معه؛ تسائلت عن السبب فأجاب بمرح خبيث:

- أنا عمري ما شفت أوضتك.. وريهالي..

بغرفتها التي تأملها لثوان سحبها بين ذراعيه.. أخذ شفتيها باقتناص أضاع أنفاسها، جال فوق ملامحها.. يده تنزع عنها وشاحها وتتسلل لثيابها متجاهلة مقاومتها الواهية:

- يوسف.. ما ينفعش كده..

تناديه جهلًا بتأثير اسمه المنطوق بنبرتها عليه، بحماقة لا تدرك معنى تلك الفاء بآخره التي تضم ثغرها في قبلة، تغافل عن اعتراضها بينما يخلع عنها قميصها وشفتاه تهمسان لعنقها بحكاية غزل:

- أنت بجد سافل..

نهرته بوهن يبثه عشقه بخلاياها، وهنٍ ابتسم له والابتسامة استشعرت حرارتها بشرتها وهو يهمس بأذنها:

- السفالة بعد الجواز حلال..

شهقت حينما حملها إلى فراشها القديم، يغيبها في دنياه ويغيب معها..

يعلمها أبجدية عشقه حرفًا حرفًا وينظم هو في عشقها قصائده بأبيات تفتقد المنطق والقافية.. بوزن ضائع وبحر جديد من ابتكاره مستحدث على بحور الشعر..

انتهى وابتعد يرمى بنفسه بين طيات الفراش، يسكنها صدره بتسلط مسيطرًا على خصرها وهي تدفعه وخصلاتها المشعثة بفعل أصابعه تغطي وجهها:

- أنت مجنون والله.. سيبني بقى، هنقولهم إيه دلوقتِ!..

ضحك بمكروأزاح شعرها عن وجنتها:

- مش هنقول حاجة.. همَّ فاهمين..

حمرتها التي باتت قانية أفلتت منه قهقهة متلذذة، حينها ضربت كتفه بقبضتها ومحاولات التحرر من ضمته لا تتوقف..

تحررت منه بأعجوبة تلف جسدها بشرشف، تبحث عن ثيابها التي بعثرها بالمكان لحد مثير للغيظ.. وهو استند لمرفقيه يتابع تحركاتها العشوائية باستمتاع.. بدأت في ارتدائها تحثه بحنق:

- قوم البس.. أنت بتستهبل والله..

اعتدل جالسًا يساوي خصلاته بكفه وعيناه تحيطان بها وحدها كأنها سماءه وأرضه..

فضاءه بشمسه وقمره ونجومه..

مده وجزره..

هي مداره الثابت وهو كوكبٌ كان تائهًا حتى التقاها.. ابتسم بغموض يشير إليها بالعودة:

- الاستهبال بعد الجواز حلال برده..

لمحت إشارته بالاقتراب فتباعدت نحو باب الغرفة:

- لا كده يبقى بتهرج..

وفتحته تركض عبره وقلبها ينبض..

بل كل ما فيها ينبض..

العشق حرب.. ومفترق النجاة فاتها بين يديه؛ فمرحبًا بالسقوط إذًا..

***

هو رجل عادي..

لا تناسبه رومانسية الروايات ولا يبحث فيها عن دور البطل!..

حتى وإن حشرته هي في ذلك الدور بعين عاشقة وردية تشبه حالمية بطلة تسرد الحكايا على عاشقها فيعشقها أكثر..

خرج من المطبخ بوجه عابس حانق..

ابن العم الوقح لا يكترث لوجوده بل ويتصرف بصفاقة تحنقه..

رأته والدته فابتسمت مشيرة من وراء ظهرها:

- لسه زعلان منك!..

بادلها بسمتها وبحثت عيناه عن والده:

- لسه..

اقتربت تربت على صدره بحنو أم وقلقها وخوفها على صغارها وإن شبوا عن الطوق:

- أنا كلمته أكتر من مرة.. بس جوايا عارفة إنه معاه حق..

عقد ذراعيه بضيق يكبت غضبه:

- يعني عاوزاني أعرف اللي عمله وأسيبه!..

شردت في عنفوانه الذي يذكرها باندفاع زوجها عند البدايات..

عندما ضرب ذلك الصيدلاني الذي كان يدير صيدلية ابنتها بمكتبه فقط دفاعًا عنها..

لا تسقط الثمرة بعيدًا عن شجرتها.. وهو شبل أبيه:

- لأ يا مروان.. تتصرف بالعقل، أنت عارف إن خلال التلات شهور اللي فاتوا شركات غالي خسرت أربع صفقات مهمين جدا.. لحساب مجموعة الحسيني!..

ارتسمت دهشة على ملامحه مررتها نبرته جوار استمتاع:

- الحسيني الكبير بيضرب بيد من حديد..

التفتت ترمق زوجها الجالس مع أخيه وزوج أخته منشغلين تمامًا في نقاش مجهول..

ترمقه بعين لا ينضب عشقها أبدًا:

- اتعلم منه بقى..

مد يده يقربها منه، ينحني على رأسها بقبلة:

- طيب وصيه عليَّ..

أهدته نظرة موبخة قلب لها كفيه باستسلام وسألها متهربًا:

- سما فين!..

- قولي الأول.. فرحان إنك هتبقى أب!..

تبدلت معالم وجهه العابسة في لحظة لبهجة حقيقية تقص بوضوح دواخل نفسه:

- جدًا..

انتقلت سعادته لقلبها وهي تسعى لاطمئنان أكبر:

- وسما!..

فطن لمغزى سؤالها ولأنه لا يملك عليه جوابًا صريحًا تملص منه:

- أيوة.. هي فين بقى!..

عاتبته بعينيها فابتسم يريحها:

- سما اللي آخر اليوم بارمي نفسي في حضنها عشان أرتاح..

من زاويتها كانت لا ترى أن ذلك كافيًا..

هي عاشقة..

هو يقتات على ذلك العشق دون أن يجدده..

والعشق يفنى ولا يستحدث من العدم!..

تنهدت بعد تفكير قصير:

- خلِ بالك عليها.. هي في أوضتك فوق بترتاح شوية..

دغدغها فجأة بشقاوة:

- قولي لي أنتِ يا تيتة جوجو.. إحساسك إيه بخصوص موضوع تيتة ده!..

ضحكت تدفع يده وعاطفتها تغلب عليها ويدها تمتد لوجنته بربتة رقيقة:

- أسعد تيتة في الدنيا..

لمعت عيناه بذات العاطفة بينما يقبل رأسها ثانية ويصعد لزوجته..

فتح الباب بهدوء ليراها راقدة بفراشه على ظهرها، بصرها معلق بالسقف ويمناها تستقر فوق بطنها بلمسة حانية..

جاورها بابتسامة ويده تحتوي كفها:

- ما نمتيش ليه!..

كان يتكئ على مرفقه ليشرف عليها، أدارت له وجهها ببسمة شاردة:

- ما كنتش عاوزة أنام..

انحنت رأسه عند طفلهما يهمس له بهمهمات لم تعِ منها حرفًا، يقبل بطنها ثم يعود إليها بعينيه وبسمته مبتهجة:

- كنت بتقولها إليه!..

رفع حاجبًا مشاكسًا:

- باقولها!.. هي بقت بنت خلاص!..

هزت كتفيها وهي تنقلب على جانبها لتندس بين ذراعيه:

- عاوزاها بنت..

مسد خصلاتها بأنامله في حركة رتيبة متكررة وشفتيه تقتربان من أذنها:

- وأنا موافق..

أبعدت وجهها تغوص بعسل عينيه الداكن:

- كنت بتقولها إيه بقى!..

داعب ذقنها بسبابته يغيظها:

- هو الحقيقة أنا كلمته على إنه راجل فكان كلام رجالة، لكن لو هتبقى بنت.. أنا بسحب كل كلمة قلتها..

اشتعل فضولها بنظرة وهي تعتدل قليلًا:

- قلت إيه!..

ضحك بعبث رافضًا إخبارها، وكزت كتفه فأمسك بيدها يلثمها:

- مافيش.. باوصيها بس ما تتعبش ماما..

تأملته للحظة.. كعادتها امتدت أناملها تتحسس تفاصيله وهو يتركها حتى تنتهي تحت حصار عينيه.. بعدها هز رأسه بضيق لم يستطع إخفاءه:

- أخوكِ كان بيتحرش بأختي في المطبخ..

- بيتحرش!..

كررت الكلمة بدهشة غير مستوعبة فأوضح:

- أيوة شفتِ!.. مافيش مبادئ..

عادت لوضعها الأول تهديه نظرة مبهمة:

- إزاي بقى!..

مط شفتيه ولم يخفِ حقيقة ما أغضبه:

- يوسف سايب مشاعره تتحكم في تصرفاته بطريقة ما تنفعش..

وداعب خصلاتها بحاجبين معقودين:

- في حاجة اسمها حدود..

لم يفطن لنبرتها الغامضة رغم جوابها الصريح:

- عشان بيحبها..

وتلمست وجهه مجددًا:

- وصبر كتير لحد ما بقت مراته..

أحنقه تبريرها فأحكم قبضته حول كفها:

- برده كل حاجة لها مكانها المناسب..

ثم تجاهل الأمر برمته بينما يميل ووجهته شفتيها:

- يعني هنا مثلا..

مشيرًا للمكان.. غرفته الخاصة، لمسهما بنعومة وابتسامته تتشكل بعبث:

- التحرش مباح..

وكعادتها أيضًا تبادله الفعل بالمثل مغموسًا بمشاعر عاشقة لا ترى في الكون سواه..

أحاطت عنقه بذراعيها تغدق عليه من عشقها علَّه يجد ولو ثقبًا ضئيلًا ينفذ منه لقلبه، جسرًا واهنًا تعبر فوقه إلى روحه.. طريقًا تتغلغل به في كيانه..

أبعد شفتيه دون أن يحررها بهمس شغوف:

- أنا باقول نروح بقى..

ضحكت بمرح خجول.. تحرك يغادر الفراش يمد يده إليها فتمسكت بها، كما في كل لحظة..

تتمسك به..

تعشقه وتنتهي إليه..

في طريق الرحيل بعدما أعلما الجميع بمغادرتهما؛ عانقتها والدتها وألقت على أذنيها عدة وصايا حول الاعتناء بنفسها وجنينها..

أما العمة فقد همست بأذنيها بشيء يجهله.. وبناتها مع توأمتها يحاوطنها ببهجة طفولية؛ حفيد الحسيني الأول بأحشائها..

أو حفيدته كما تتمنى هي!..

بالنهاية عندما اقتربا من سيارته لمحها توأمها فركض إليها:

- أم سكسكة استني..

استدارت إليه بغيظ:

- إيه سكسكة دي!..

ضحك يعاندها بشقاوة:

- بنت أختي.. اللي هتقولي خالو آسر وتبقى شبهي..

- شبهك!.. طيب ترضاها لبنت أختك!..

أتته هازئة من ابن العم فرفع حاجبيه بحركة مغيظة:

- هتبقى زي القمر..

وانحنى عند بطن "سما" يخاطب الجنين بتعليماته الخاصة:

- شوفي يا سكسكة.. أنا خالو آه، بس تقولي لي آسر عادي.. ما بحبش الرسميات..

وطبع شفتيه هناك بقبلة لم تكتمل عندما جذبه "مروان" بحركة حادة من ياقته:

- بس يا بابا.. يلا من هنا..

- مافيش فايدة.. يخربيت هزار البوابين يا أخي..

ضحكت تراقب عناد الرجلين..

تستقر عيناها عند زوجها الذي جاورها بسخط:

- أنت بتغير على ملك من جوزها وبتغير عليَّ من أخويا!..

تغضن جبينه يستوعب سؤالها، أهداها نظرة جانبية دكتاتورية متسلطة:

- آه.. في مانع!..

غرقت فيه..

حرفيًا وبكل مجاز ممكن..

بصدق الكلمة وحقيقتها..

غرقت في عينيه وابتسامته وعقدة حاجبيه..

غرقت في كفه وضاعت بين أنامله..

غرقت ولم تسعَ لنجاة، بل ألقت الطوق وارتأت أن في الوصول للقاع: قمة العشق..

أراحت رأسها عند كتفه بهمسة لن تمل من تكرارها:

- بحبك..

وتعيد ضياع بصره في ثوان.. في شرود مسَّه تلك المرة شيء من غضب لا يدرك كنهه أو أبعاده ودوافعه..

غضب داراه بوقاحة اعتادتها منه:

- وإحنا في العربية!.. طيب استني نوصل البيت..

تنهدت بصبر وهو يردف بمكر بعدما اختطف من شفتيها قبلة:

- عاوزك في موضوع مهم وخطير..

غرقت..

وسفينة عشقه لم يعلم ربانها أنها سقطت عنها.. فرحل وترك قلبها وحده يصارع أمواج العشق؛ لتهزمه في كل لحظة يخونها قلبها فيها..

يخونها فيُملِّكه من كل غرفاته بحُكم غير عادل..

حَكَم به قاضٍ لم يقرأ حيثيات قضية العشق كاملة.. ليأتي حكمه جائرًا على الحق..

حق ذلك القلب فيه!..

***

هو رجل فُطرت مشاعره على عشقها..

وبعينيها هو بطل ألف رواية ورواية..

رجل لا يفاوض في امتلاك قلبها؛ وهي امرأة اللحظة والساعة والعمر..

وقف عند باب الغرفة يراقب انشغالها بالعمل على حاسوبها.. لقد عادا قبل ساعة من الاجتماع العائلي، أولاده انهمك كل منهم بأمر ما وبقيت هي شغله الشاغل رغم انغماسها في تصميم محير أجلته حتى عودتهم..

منظارها الطبي الأنيق ينسدل فوق جسر أنفها بفتنة خاصة.. لقد بدأت في استعماله قبل عام فقط، ومن يومها وحركتها التي تعيده لوضعه الصحيح في كل مرة تأسره..

ارتفعت سبابتها بالفعل توازي أفكاره ترفعه قرب عينيها.. ابتسم وخطا إليها، صعد إلى الفراش بتمهل ومد يده يغلق شاشة الحاسوب ببطء عاندته:

- لأ يا زياد.. أنا لازم أخلص التصميم ده النهاردة..

سحبه منها عنوة وهي تتشبث به.. أنبها بنظرة استسلمت لها، تزم شفتيها بتذمر ساحر طفولي لم يغادرها بعد..

نظرته كانت غامضة لم تدرك مغزاها فراقبته بحذر، ابتسامته ذاتها مبهمة شتت تركيزها فسألت بتوجس:

- بتبص لي كده ليه!..

تحرك طرف فمه بانحناء ماكر:

- سما حامل..

قرر وإن غابت الأحرف في غموض النبرة والنظرة:

- أيوة.. ربنا يتمم لها على خير..

داعب باطن كفها بسبابته في دوائر لا منتهية:

- طيب إيه!..

أمالت رأسها تناظره بحيرة مستفهمة جاوبها باقتراب:

- ما فيش أي مشاعر خالص بخصوص الموضوع ده!..

ظلت على حيرتها وتراجعها مع اقترابه حتى استندت لظهر الفراش:

- مش هنجيب بيبي إحنا كمان!..

دهشة سيطرت على عينيها وابتسامة مترددة بين الحيرة وعدم التصديق.. والاستجابة تناوش شفتيها:

- أنت بتتكلم جد!..

تغضن جبينه أكثر فأكثر وهو يرمقها باستياء:

- أمال فاكراني بهزر!..

رفعت كفيها تحيط بوجهه بنظرة عشق خالص.. عشق يليق به.. برجل عالمها ودعامته وركنه الثابت:

- خلاص ما تزعلش قوي كده..

وبإبهامها دلكت ما بين حاجبيه برفق كما هي عادتها:

- بس إحنا خلاص.. هنبقى في حكم تيتة وجدو..

ابتسم يجذب كفها وفمه يجوب باطنها بتتابع دافئ أثقل قلبها بمشاعره:

- لا.. هم مش إحنا..

وتحرك يحتل الصورة أمام عينيها..

يحتل روحها وكيانها وخافقها الذي ينبض له وحده..

يحتل شفتيها بقرار هامس:

- أنا عاوز بيبي..

ابتسمت عند شفتيه ولم تجبه..

بل سلمت عنان تحفظها لاجتياحه وكل ما بها يصرخ بكلمة واحدة..

أعشقك..

***

هو رجل يتشبث بواقعية الحياة.. لكن أنثاه تبحث فيه عن الحلم!..

حلمًا حاول تحقيقه لها وهي بكل مرة تتمرد وتطالب بمزيد ثم تحاسب، تعاقب وتنفر.. وتهجر..

تردد عند باب غرفة نومهما سابقًا وغرفتها وحدها حاليًا.. تردد يريد طرح الأمر ويعلم أنه يطلب منها الكثير، يضغط عليها أكثر ربما.. وما بيده حيلة!..

سقطت بعينيه تتأمل بطنها ببروزها الطفيف وقد أتمت شهر حملها الخامس بطفلته..

اكتنفه حنين إليها، إلى ضمتها.. إلى احتوائها والسكن بأحضانها..

أشاح بوجهه عن الصورة ينبذ أفكاره، تمتم باسمها فالتفتت إليه باشتياق يماثل حنينه..

اقترب دون إرادة، دفع قلبه خطواته نحوها، يلمس بطنها بربتة رفق:

- تعبانة!..

نفت بهزة صامتة ألجمته.. فتح فمه يبحث عن كلمات تعثرت عند أطراف شفتيه، مد ذراعيه يريدها أن ترمي بنفسها بينهما ولدهشته تأملتهما لثانية ثم استجابت!..

تكومت بوهن فوق صدره وهمسه يتخلل سكونها:

- وحشتيني..

اندست أكثر بحضنه كأنما ترد الكلمة بالفعل، مسد شعرها القصير وهو يمنح جبينها قبلة دافئة.. رفع وجهها إليه بعدها بارتباك حائر:

- كنت عاوزِك في موضوع..

سألته عيناها دون حديث فأجاب بتلكؤ فوق حروف عسيرة الميلاد:

- بابا.. بعد تعبه الأخير؛ مش هاقدر أسيبه لوحده..

تغضن جبينها وابتعدت عنه تضم جسدها بيديها باستفهام مختنق:

- يعني إيه!..

عاد إليه تردده فهو خير من يدرك حساسية العلاقة بينهما:

- عاوز أعرض عليه ييجي يعيش معانا..

رمقته بإدراك غير مندهش كأنما كانت تتوقع ذاك العرض الساخر منه:

- تفتكر أنا أقدر أعترض!..

اقترب ينفي بحزم:

- أنا مش باجبرك يا شذى، ده حل مؤقت لحد ما أشوف مكان قريب مننا يعيش فيه..

- اللي تشوفه يا جواد..

أعجزته قلة حيلته عن رد فعل قامت به هي وهي تعود لتنطوي بين ذراعيه بحميمية:

- وحشتني..

وارتفعت على أطراف أصابعها تلامس شفتيه بأنفاسها:

- وحشتني قوي..

- شذى..

دمدم بها في احتياج..

احتياج رجل لامرأته..

احتياج زوج للسكن إلى زوجته..

لتعب ينساه وهي بأحضانه..

احتياج استسلم بعده لرغبتها في قربه..

يتنعم بدفئها وتنغمس فيه بشغف غريب عليها وهو يخوضه معها كما لم يفعل يومًا..

شغف انتهى بها راضية بين ذراعيه وكفه تتحسس مكمن ابنته برفق حانٍ:

- أنتِ كويسة!..

لكن إجابتها أتته صادمة..

ارتجاف جسدها الذي يدلل على بكاء، علا بعده نشيجها فأدارها إليه يتأمل دموعها المنهمرة بفيض استنكره:

- شذى!..

تدثرت بالغطاء تنظر إليه باتهام:

- أنت دلوقتِ راضي عن نفسك.. مش كده!..

ابتعد عنها يرمقها بغضب حائر:

- شذى.. أنا ما أجبرتكيش؛ أنتِ اللي..

- أيوة أنا.. وأنت انتهزت الفرصة..

انتفض يترك الفراش، يرتدي ثيابه بعشوائية وقلبه يعود لوضع التحجُر بصدره:

- أنا ما بقيتش فاهم أنتِ عاوزة إيه!.. وما بقيتش مهتم أفهم..

اتجه للباب بهرولة، ثم تصلب جسده قبله بخطوة مع صراخها الساخط:

- عشان تخدر ضميرك وتعيش من غير إحساس الذنب مش كده!..

استدار إليها بهدوء..

بوجه مصمت لا يشي بانفعال محدد.. حتى نبرته عندما تحدث خرجت باردة لامبالية:

- أنتِ شايفة إن اللي حصل لمريم بسببي!..

وجمت لحظة اندفعت إثرها برعونة:

- أيوة بسببك.. بسببك أنت، أنت سبب اللي حصلها واللي أنا فيه..

لم يتغير بملامحه شيء.. مقلتاه فقط ارتعشتا لجزء من الثانية، قبل أن تظلما بقسوة تمر بنظرته للمرة الأولى..

قسوة جمدتها حيث هي..

تراقب رحيله دون مزيد..

هي تخسره..

تخسر نفسها معه..

والمعادلة لا تحتمل ناتجًا من الكسور!..

***

في حياة كلٍ منا لحظة فارقة..

أولحظات..

ما يليها ينفصم رابطه عما سبقها بالكلية..

لحظتها أتت مباغتة.. بل مخيفة، حينما تركت عيناها تدوران بغفلة في الموقع الأشبه بخلية نحل..

لحظتها أتت عندما وجدت جسدها يُنتزع من حيث وقفت ليسقط بين ذراعي أحدهم..

لا..

بل فوق صدررجل!..

ومكانها تهوي دعامة ثقيلة من الصلب انقطع حبل الرافعة التي كانت تنقلها أعلى المبنى تحت الإنشاء بموقع البناء..

شهقت بذعرواستكانت لحظة تلهث بهلع.. تنتفض في التالية مبتعدة ترمق منقذها بنظرة ضائعة بينما يصرخ هوفي وجهها بهياج:

- أنتِ مجنونة!.. إزاي ماشية سرحانة كده ومش واخدة بالك!.. أنت فاكرة نفسك في الملاهي هنا!..

واستُبدلت سكرة الخوف بفكرة تخطيه حدوده معها.. استعادت اتزانها توقف غضبه بإشارة من كفها فهي تحتاج لدقيقة أخرى تلتقط فيها أنفاسها:

- بس.. بس..

بتر انفعاله وجوم ملامحها وحنقها.. استنكر ردة فعلها فانعقد حاجباه بصرامة:

- أنتِ مين؟.. وبتعملي إيه هنا!..

ضمت قبضتيها تستنشق الهواء ببطء متعسر.. تسحب نفسًا عميقًا وتجيبه بكبرياء غريب لا يناسب الموقف:

- أنا الباشمهندسة صبا الحسيني..

تضاعفت التقطيبة عند جبينه وهي تردف:

- وعاوزة المهندس المسؤول عن الموقع.. أنت بقى مين!..

شد قامته لتكتشف طوله بغتة، فقامتها لا تكاد تقترب من كتفه رغم توسط طولها..

رسم بسمة سمجة عند زاوية فمه بينما يخبرها بضيق لم تفهم سببه:

- عمر الأسيوطي..

تردد صدى الاسم بذهنها فقد ذكره زوج عمتها عندما أرسلها إلى هنا، والمواجه لها يستطرد بنبرة حادة شابها تهكم:

- المهندس المسؤول عن الموقع..

يربط القدر بين خيوطنا دون إرادة..

يحركنا كدمى.. يسيرها حيث شاء!..

***

اللحظة الفارقة قد تقلب حياتك من نعيم لجحيم..

من فردوس الراحة والاستقرار لسعير عذابه غير محتمل..

لحظته الفارقة هاجمت قلبه وروحه على حد سواء، لحظة كانت تخص موعدًا متفقًا عليه بينه وبين زميله القديم "سام" المتواجد بمصر حاليًا بصحبة زمرة من الأطباء الكنديين لإجراء عدة جراحات صعبة، وإلقاء بعض المحاضرات..

دلف للفندق الفاخر بخطوات متزنة، توجه للاستقبال يسأل عنه والواقف هناك رمقه بنظرة لم يدرك مغزاها..

نظرة تفحصته من أخمص قدميه حتى رأسه بسخرية وازت ابتسامة ممتعضة وهو يسمح له بالصعود للغرفة المعنية..

تجاهل الرجل تمامًا عندما تحرك ليستقل المصعد إلى الطابق العاشر، يخطو في ممر الغرف بحثًا عن الرقم المنشود حتى وجده..

طرق الباب برفق وانتظر..

انتظر لدقيقة كاملة لم يأتِه خلالها رد فعاد يطرقه وأصابعه تلتقط هاتفه ليجري اتصالًا بزميله..

قبل أن يتمم الاتصال انفتح الباب وأطل هو من خلفه بمئزر استحمام ونبرة اعتذار:

- جوزيف!..

ارتفع حاجباه وابتسم مشيرًا لاسطوانة بيده:

- لدينا موعد..

توتر"سام" وهو يلقي نظرة للداخل من فوق كتفه:

- لقد نسيته تمامًا..

شعر "يوسف" بالضيق، كان غير معتاد على فوضى المواعيد من حيث أتى.. وبالتأكيد ليس مع زميل كندي:

- حسنًا سام.. الأمر لن يستغرق الكثير، دقائق فقط لنرتب برنامج الغد..

ارتبك الزميل أكثر وهو يغمزه بخبث:

- في الواقع لدي صديق مصري هنا.. و.. أنت تعلم!..

تضاعف الضيق على وجهه محاولًا إنهاء الأمر والرحيل، ونظرة موظف الاستقبال يتضح له معناها الآن:

- دقيقة واحدة..

فكر"سام" لثوان ثم طلب منه الانتظار ريثما يعود إليه..

تراجع إلى الغرفة حيث الصديق المزعوم، لبرهة سكن بمكانه حتى وصله الصوت..

صوت يعرفه!..

بل يكرهه..

صوت من ماضٍ ليس بالبعيد..

ماضٍ جمع بين حبيبته وآخر.. وغاب هو عن المشهد!..

من فرجة الباب حاول التأكد مما شك به، أزاحه بعض الشيء وأتاه الخبر اليقين..

خبرًا وقعه على قلبه وعقله كصاعقة أشعلت به نيرانها..

أججت غضبه وأحرقت روحه بجحيم مستعر وانقلبت لها معدته..

فالصديق المقصود لم يكن سوى..

"نزار غالي!"..

(٣٠)

ببساطة يا عزيزي..

أنت أسوأ وأفضل رجل مربتاريخ العشاق..

أنت النقيضين دون التقاء..

أنت السقطة والتحليق..

أنت اللامبالاة بوسط بحرالاهتمام..

وأنت العاشق حين لا تبالي..

أنت.. هوأنت وحسب!..

عندما تتحول أعنف كوابيسك لحقيقة.. اهرب!..

لقد سقطت بأسوأ لحظة ممكنة..

خطواته كانت في حرب.. قلبه تعثر بوسط المعمعة، وروحه انزلقت لقاع الهاوية..

الصوت.. الكلمات التي تطايرت مع الهواء، الصورة والمشهد وعري لا يستره سوى مئزر.. ضيق ثم صمت، وملامح لم ينسها ولن يفعل..

هناك خسارة سابقة حفرتها بين أحلك ذكرياته..

وأخيرًا وصل لمدخل الفندق ومنه لسيارته..

فرَّ من أرض النزال، فالموقعة لا تحتمل لقاء نظرة..

تصلب جسده خلف المقود، تتشبث به كفاه ومشاعره كلها تتضارب، تتعارك.. انفعالاته طغى عليها الغضب..

وقلبه منقبض بتوارٍ حزين بصدره..

هكذا خانها إذًا!..

هكذا كسرها!..

وهكذا أحبته!..

بل لتلك الدرجة من الحماقة أحبته؛ لقد عادت عليه..

المعادلة بسيطة وناتجها أبسط؛ حقيقته جمع إجهاضها وانهيارها وتأتي المحصلة المخيفة.. يومها عرفت، وبعدها..

عادت إليه!..

أي جهل جعلها تصدق أنها ستغير ناموس كونه!..

أنها ستعيده لصراطه القويم!..

أنه سيتغير!..

بل أي عشق!..

ويعود عقله لنقطة الصفر.. ألهذه الدرجة عشقته!..

وما الذي أجبرها على الخروج من فخه وقد اختارت العودة إليه بإرادتها الحرة!..

هل آذاها!..

كمٌّ غير محتمل من الأسئلة أصاب رأسه بصداع قبل أن يدير محركه وينطلق بالسيارة.. يخرج من العاصمة بسرعة تخالف القانون فكل ما به مشتت..

كل ما به لا يلتزم بشرعية الحياة أو ثوابتها..

اتخذ طريق القاهرة الاسكندرية الصحراوي وهناك ترك لقدمه العنان لتدفع الوقود بقوة.. يداه مسيطرتان بحزم على عجلة القيادة، بصره لا يحيد عما أمامه..

وأفكاره تتناطح كأنها في حلبة ثيران عتيقة والمصارع يهاجم بلا هوادة..

لم يفِق إلا وقد امتد الظلام من حوله، وهواء البحر المعبق باليود يغرق أنفاسه.. صفَّ سيارته قبالته في مكان هادئ وترجل منها..

اتخذ مجلسًا على السور وأباح لعينيه التيه في الأفق المعتم ولأذنيه الضياع في صخب الموجات الهادرة تضرب الصخور بعنفوان.. كأنها تشكلها قسرًا كما تشاء..

في هذه اللحظة أفكاره عاجزة عن منحه حلًا.. عن منحه الإجابة، عن إهداء قلبه شيئًا من راحة أو صبر..

يود فقط لو عاد إليها وهزها بقسوة، اتهمها بالغباء ولعن العشق وأهله.. ثم زرعها بين ضلوعه وربت على خافقها المطعون بالغدر بيدٍ حانية..

امرأة التناقضات تشعل في كيانه النار وتدفن روحه بقبرٍ من جليد..

لا يدري كيف يتصرف!..

غضبه منها وعليها يدفعه دفعًا نحو مواجهة.. وآخر ذرة تعقل تحجب اشتعال رد فعله وراء هدنة تفكير..

هل سيعيد نكأ الجرح وهو من ساهم في تقطيبه وتضميده!..

هل من طبيب أحمق يفعل!..

استنشق الهواء ببطء، ملأ صدره به ثم زفره بحيرة.. مرت ساعة، اثنتان.. ثلاث، والوقت تخطى منتصف الليل.. هاتفه مغلق فهو لم يكن ليحتمل نداء قربها الآن..

كان خائفًا..

غاضبًا..

عاشقًا..

بل هي بقلبه ملحمة يليق بها سرد الأساطير وحبكات الخيال..

سحب نفسًا أخيرًا وقرر العودة.. عندما دلف للمنزل لم يكن يتوقع أن يراها أمامه متكومة ببراءة على أريكة الاستقبال بمنامة زرقاء تشبه لون عينيه.. منامة أخبرها أنه يحبها عليها..

نائمة كأنما غلبها النعاس وهي بانتظاره.. تحرك يقترب منها بتمهل، خطواته في نزال مع دقات قلبه، في حرب.. أيهما تغلب الأخرى، أيها تسبقها!..

وقف بوجوم يتأمل هدوء أنفاسها.. خصلاتها المنسدلة حول كتفيها وفوق ظهرها، يديها المنعقدتين أسفل وجنتها في وضع نوم نصف مريح..

اعتصر جفنيه يحجب صورتها عن كل جوارحه.. استدار نحو غرفة النوم، خلع ثيابه ورمى بجسده أسفل المرذاذ البارد في بدايات الشتاء.. رفع وجهه إليه تاركًا له حرية صفع وجهه بقطرات كالرصاص..

سجن الهواء خارج رئتيه لثوان طالت حتى أنَّت اشتياقًا، ثم ابتعد يتنفس بشهقة..

جفف جسده وارتدى منامة بيتية كانت هديتها إليه.. عاد إليها وانحنى جاثيًا على ركبتيه يغيب في تفاصيلها..

يضيع في عبث اللحظة وثورة المشاعر وجنون العشق.. بل الهوس..

هو مهووس بها..

وليتها تدري!..

اعتدل قليلًا، مد ذراعيه أسفل ظهرها وعند ركبتيها ورفعها بين أحضانه، تململت تفتح عينيها.. تسقطه في العسل الرائق هناك..

تقتله وتحييه..

تبدأه وتنهيه..

ابتسمت بنعاس ودفنت وجهها في عنقه:

- يوسف!..

كأنها في حلم.. ولا تفهم أنها هي كانت وستظل حلمه.. واقعه وحقيقته، مستهله ومصيره..

جحيمه.. ونعيمه..

أهدى وجنتها قبلة ناعمة وذهب بها للفراش..

أنزلها بهدوء وجاورها يحتويها قربه بكل شكل ممكن..

يغمض عينيه.. ويبيح لنفسه الراحة؛ فهي الآن له..

وما مضى لن يجلب سوى الألم!..

همس لها بكلمة عشق لم تسمعها، تمنى أن تتسلل لأحلامها واستكان..

هي مركز الدائرة، وهو دونها منحنى بلا هوية..

أسوأ عشق هو ذلك الذي لا يستطيع قلبك التملص من مخالبه..

أسوأه.. وأجمله!..

***

يومان مرا..

في الأول منهما هاتفه زميله السابق يعتذر ويتساءل عن سبب رحيله!.. ثم يرمي بخبث كلمات أثارت قرفه عن علاقة قديمة جمعته بمصري حار الدماء على حد قوله وتجددت هذه الأيام وقت إقامته المؤقتة بمصر..

يكرر اعتذاره لا يدري أن "يوسف" يصم أذنيه عنه وعن كل تفصيلة تخصه..

يومان مرا..

غارق هو في حيرته وتائهة هي في تباعده المحير!..

لم تستطع السؤال، كانت عيناها تطوقانه، تطوفان حوله وهو إلى جوارها.. تستفسران عما به، فيفر منهما، من جواب لا يملكه..

حتى في أشد لحظاتهما حميمية لم يكن ذلك العاشق الذي ألفته!..

وخافت..

بل سيطر الخوف على خلاياها وتحكم بها..

هل ملّ!..

هل اكتفى!..

هل ذاق العشق معها ومذاقه لم يكن بلذة الخيال!..

خافت وتباعدت في المقابل ولم ينتبه المغرم في الوقت المناسب، بل تأخر قليلًا ليجدها تهرب من تقربه المختلف إليها..

كاد يجن جنونه..

هو غاضب منها..

من نفسه..

وعليها.. والراحة فارقته منذ تلك الليلة المشئومة..

لم يجد حلًا سوى لقاء يفرغ به شحنة غضبه، ويدًا تأخذ بيده ليتخطى ذلك المفترق الصعب..

مفترق اختبار لعشقه.. هل سيصمد مع أول إعصار يعصف بثباته أم سيستلم له يبعثره حيث شاء!..

نادت المساعدة اسمه فانتزعته من شروده بانتفاضة ضائعة، مرر لها نظرة مستفهمة جاوبتها بإشارة من رأسها نحو مدخل غرفة الطبيب..

لقد حان دوره..

نهض بتثاقل متردد، تحرك بتشتت.. هل يتقصى، يبحث.. يفتش، يحرر سخطه ووجعه!..

أم فقط يعود من حيث أتى ويترك لعشقه دفة القيادة!..

"دكتور يوسف"..

كانت مرحبة من طبيبها السابق والذي توقفت عن زيارته بعد زواجها منه وهو يعلم، صافحه بنصف ابتسامة واتخذ مجلسه على مقعد مواجه لمكتبه مبادرًا باندفاع حاد:

- أنا عرفت الحقيقة..

قطب "أكمل" جبينه بتساؤل جاور نظرة غامضة تجاهلها "يوسف" بينما يصرح بوضوح:

- حقيقة طليق ملك..

تحولت التقطيبة لرفعة حاجبين مستفسرة والنبرة تتأرجح بين السؤال والتقرير:

- هي قالت لك!..

نفى بهزة من رأسه وعيناه تسقطان عن حافة منحدر الحيرة الخطِر:

- شفتها بنفسي..

بعد السقوط تمسكتا بوجه طبيبها الهادئ تعلوهما نظرة ألم امتزج بغضب هادر:

- وماكنتش أتخيل إن اللي وصلها للانهيار بالقذارة دي!..

صمت "أكمل" مانحًا إياه الحرية ليفرغ كل ما بجعبته.. ولم يتأخر، غادر المقعد الذي سكنه لثوان معدودة، يجول في المكان بخطوات متوترة:

- أنا عاوز أفهم.. إزاي قدرت تتحمل!.. إزاي رجعت له بعد ما أجهضت!..

لأن سهل قوي أستنتج السبب وأربط الخيوط ببعض..

عاد إليه بنظرة مطعونة:

- للدرجة دي كانت بتحبه!..

وغاب لثوان في فكرة اعتصرت خافقه بين ضلوعه:

- طيب هي ممكن تكون لسه بتحبه!..

أوقف "أكمل" تسرب خيالاته نحو وجهة غير منطقية بسؤال جاد:

- تفتكر ملك من الشخصيات دي!.. تدخل علاقة وفي قلبها حد تاني!..

رمقه بارتباك والرد مذبذب:

- لأ.. أيوة..

احتجاج وموافقة.. ثم سخط وكفه تمسح وجهه بكمد:

- مش عارف..

- أنت مش واثق في مشاعرها ناحيتك!..

فتح فمه ليجيب باندفاع.. وألجمته عيناها..

طيفها اقتحم أفكاره في لحظة..

نظرتها عندما خافت عليه..

انطوائها فيه..

قربها منه..

دلالها وحزنها وابتسامتها وعاد تاليًا.. إلى عينيها:

- بتحبني..

انتظر الطبيب استطرادة الاستدراك المتوقعة ولم تتأخر:

- بس..

علت عيناه نظرة تتشبث بسبب لا يعرفه ولا يريد أن يسمعه:

- طيب هي كانت فاكرة إنها ممكن تصلحه!..

- اسألها..

بتر اندفاعه وهياجه وحدة نبرته بكلمة واحدة رده عليها كان قاطعًا:

- لأ..

بل مغموسًا بعشقه الذي لا ينطفئ جحيمه بقلبه:

- معنى كده إنك ما واجهتهاش لسه!..

تصلب بوقفته يواجهه بلا تردد:

- ومش هاواجهها ولا هاتكلم معاها في وجع زي ده..

- هي الوحيدة اللي تقدر تقولك أي حاجة عاوز تعرفها..

مجددًا يضعه في نزال غير منصف مع نفسه وقلبه وعشقها:

- دكتور يوسف..

بَتْر آخر لكلمات تشكلت بحلقه ولم ينطقها بعد، بتْر تبعته استقامته من وراء المكتب، لقاء بين بصريهما لا تفاوض فيه..

بين طبيب ومتيم بالهوى حد التيه.. مخمور بالغرام حد الثمالة، ومعلق بين سماء لوعته وأرض ألم مرت به:

- أنت جيت لي ليه!..

احتارت مقلتاه في إجابة يضِّن عليه بها عقله وقلبه معًا.. هو وجد قدماه تقودانه إلى هذا المكان..

يحتاج نصيحة ربما..

يبحث عن حقيقة..

يروي فضولًا ينهش روحه!..

- لأن لو جاي عشان تعرف تفاصيل الحالة، أنت عارف إن ده مستحيل..

تغضن جبين الهائم على وجهه بدنيا العشق وطبيبها يردف:

- أما لو جاي عشان تعرف تتصرف إزاي!..

تعلقت عيناه به كقشة أخيرة تحول بينه وبين الغرق:

- فأنا برده كطبيب الحالة مش هاقولك تتصرف إزاي.. بس ممكن أديك اقتراحات..

مال برأسه ونظرته تزداد عمقًا كبئر لا قرار له:

- يا تسألها على اللي محير فضولك..

ثم عاد لوضعه الأول مشيرًا بيديه:

- يا تتخطاه وتعدي معاها لبكرة..

وعند المفترق تركه وحده..

تركه يصارع في حرب مخيفة..

ينهزم..

ينتصر..

والعشق وحده غنيمة الظافر في معارك القلب..

***

ليس من السهل أن نتخطى ألمًا انزرع وجوده قسرًا بأرواحنا..

ارتوى بمخاوفنا ونما جوار زلاتنا وذنوبنا..

لم تتخطَ وقد لا تفعل ولا تدري كيف تعالج الأمر وتمرر الموقف وتترك الحياة لمجراها المستمر!..

ألا تمنع تدفقها كحجر عثرة تسد مسار نهر ديمومتها..

منذ أسبوعين أتى بأبيه لبيته.. لبيتهما معًا، لم يمكنها الرفض والرجل يحيا وحده في حالة صحية واهنة.. ولا تستطيع القبول بنفس راضية وهو يدرك..

عاد لغرفتهما فالنوم بغرفة أخرى مع وجود والده لا يراه لائقًا..

أخبرها بذلك باقتضاب وجاورها بالفراش كأنها لم تكن هناك..

سارت الحياة بوتيرة روتينية مملة، تقلل احتكاكها بالرجل قدر استطاعتها، وأوقات اجتماعها بصحبتهما تقضيها بابتسامة مصطنعة..

والأب كان قلما يغادر الغرفة التي أعدها له ابنه عند غيابه في عمله، لم يُشفَ تمامًا بعد وطبيبه يمنعه العودة للعمل قبل اكتمال عافيته..

كانت تحضر الغذاء وأفكارها في حرب عندما سمعت نحنحته، استدارت إليه بلا شعور محدد..

فكل لقاءاتها به باردة.. جامدة، وجهها خلالها منحوتة قُدت من صخر..

"خيريا عمي!"..

ابتسم الرجل بارتباك لا يناسب شيبته أمام من هي بمقام ابنته:

- كنت عاوز فنجان قهوة من إيديكِ الحلوة يا بنتي..

وأخيرًا لامس ثغرها انفعال..

انحناء ساخر لا يشبه البسمة ولا يقسو بغضب.. بل غارق في مرارته التي استشعرها الرجل فتراجع خطوة:

- أنا عارف إني متقل عليكِ.. بس جواد بيقول لقى لي شقة في العمارة اللي جنبكم وإن شاء الله البيعة تتم..

لم يمكنها المجاملة..

استعصى عليها الكتمان والمداراة فاكتفت بالصمت وهي تعد قهوته كما يفضلها بالفعل:

- يا بنتي أنا عارف إني جيت عليكِ.. بس عاوزك تعذريني..

منحته نظرة يابسة.. جافة من فوق كتفها دون أن تنبس بحرف وهو يردف بإصرار:

- كانت بنتي، وكنت خايف عليها.. ماكانش قصدي أبوظ لك حياتك، كنت بس عاوز أطمن عليها..

عادت بعينيها نحو الركوة فوق الموقد تنتبه لها ولم يصمت:

- مش عاوزك تزعلي، جواد نفسه رفض.. بيحبك يا بنتي ومالوش ذنب في اللي حصل..

كبتت ضحكة عالية بصلابة..

كبتتها بغضب..

بحزن..

بوجع!..

ليس له ذنب!..

لا يا والده العزيز.. هو يحمل الذنب الأكبر وحده، وإثم قهر من رحلت على عاتقه وعاتق اعترافه المنقوص بعشقها..

بأمل مد لها طرف حبله ثم جذبه قبل أن تتمسك يداها به فسقطت على وجهها.. بقبر!..

صبت القهوة في القدح وناولته إياه بلا كلمة واحدة زائدة:

- قهوتك يا عمي..

وتركت له المكان نحو غرفتها بهرولة..

كلا.. لم تعد تحتمل..

هي من ألقت بنفسها على أرض حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل..

حربًا لن تخرج منها بنصر..

فالعشق وحده.. لا يكفي!..

***

والعشق وحده.. معجزة!..

دواء..

ترياق..

شفاء..

العشق وحده كونًا بمجراته وشموسه، كواكبه ونجومه..

العشق وحده فصوله الأربعة..

العشق أيامه ولياليه.. ساعاته وثوانيه..

العشق وحده.. يكفيه هو ويفيض..

العشق الذي دفعه في اليوم التالي لاجتماعه مع طبيبها إلى مهاتفتها حينما أنهى عمله، يخبرها ببساطة أن ترتدي ثيابها فهو على وشك الوصول للمنزل، وأن تهبط لتلاقيه؛ هما ذاهبان إلى مكان ما..

مفاجأة!..

وهي تكره المفاجآت خاصة بعد برود الأيام السابقة..

جاورته في سيارته بصمت، رفع أحد حاجبيه وزفر ببطء، تلكأت عيناه عند عينيها اللتين تهربان من مواجهته وابتسم في محاولة للعودة بالزمن للوراء..

هو لأجلها سيعود بالزمن، سيوقف الوقت حتى وإن استنكرته الطبيعة وعارضته قوانين الفيزياء..

أدار المحرك وانطلق بهدوء متجاهلًا صمتها.. تجاهله ضاعف من حنقها فالتفتت إليه بسؤال بارد:

- أنت واخدني على فين!..

أهداها نظرة جانبية ورده أتاها بنبرة لا تشي بانفعال واضح.. نبرة أثارت غضبها أكثر:

- هاخطفك..

رُغم رومانسية الكلمة لكنها لم تبتلعها..

قطبت بضيق وقررت اتباع سياسة التجاهل خاصته والاحتفاظ بفضولها واهتمامها بل وعشقها في صندوق مغلق مدفون بأعمق نقطة بكيانها..

كان يتفهم.. يدرك ماهية رد فعلها.. يُقدرويسب نفسه، لكنه سيعوضها..

يومين في "مرسى علم" وبوتقة سيحتجزها فيها لهما وحدهما حتى ترضى عنه..

ترضى عما تجهله ويصالح هوعن حماقة لا تعلم هي تفاصيلها..

عندما وصلت السيارة للطريق الصحراوي تقافزت الأسئلة بعقلها، لكنها لم تهدِه راحة الحديث معه ولو بفضول..

بعد ثلاث ساعات من القيادة أيقنت من وجهتهما فأغمضت عينيها وتركته وحده..

تركت بصره يحاوطها.. يحتويها.. يدثرها برداء عشقه، وندمه..

عندما وصلا لفيلا والديه؛ ترجلت دون كلمة.. وقفت تنتظرما يحضره من حقيبة السيارة عند الباب وعندما فتحه اندفعت للداخل في سكون خانق..

المكان كان نظيفًا مما يؤكد أنه حضَّرللأمر، لكن صبرها نفذ وهي تدور فيه بنظرها ثم تقف عنده.. يحمل أشياءً ما إلى المطبخ المفتوح، يبدأ بترتيبها بالمبرد.. يعود إليها ويقابل وقفتها المتحفزة بهدوء مثيرللغيظ:

- ممكن أفهم إحنا هنا بنعمل إيه!..

اقترب منها بخطوات مخطوفة يطوق خصرها بيديه:

- بأعيد الأمجاد..

تيبس جسدها لحظة بعدها ابتعدت عنه تستنكر مرحه ووقاحته، نظرتها عاتبة.. حزينة، ساخطة:

- جبتنا هنا ليه يا يوسف!..

ابتسم بعبث وحاصرها ثانيةً:

- وحشتيني.. خصوصا أنك كنتِ بتبعدي عني الكام يوم اللي فاتوا فقلت نعوضهم..

وداعب أنفها بسبابته متغافلًا عن الحمرة الحانقة التي امتلأت بها وجنتيها:

- إيه زهقتِ مني بالسرعة دي!..

حاولت النطق أكثر من مرة وعجزت..

ما الذي يفعله!..

دفعته بغلظة، هتفت بحدة مصدومة.. فهي على وشك انفجار لن ترحمه شظاياه:

- أنت بتقلب الترابيزة عليَّ!..

نعم.. كان هذا مقصده، وما باليد حيلة سواه..

افتعل براءة وفرد كفيه بنبرة موبخة:

- أنتِ مش شايفة بجد أنك غلطانة!..

- يوسف أنت اللي كنت بعيد، فما تحاسبنيش على رد الفعل..

براءته ازدادت وعينيه تهديانها نظرة عشق مخلوط بلوم:

- أنا كان عندي شغل ومؤتمرات ووفد كندي وجراحات ورا بعض وأنتِ عارفة..

وتحرك إليها يزيد في العتاب:

- لقيتيني بعيد لأي سبب؛ قربي أنتِ.. مش تبعدي أكتر!..

تناول كفها بدفء يديه وسَيَجَها بضمة عينيه:

- اتعودي على كده يا ملك.. ماتسيبينش أبعد، لقيتيني مضايق، زعلان.. غضبان أو متعصب.. خليكي أقرب ليَّ من أي وقت تاني..

- أنا.. أنا..

تلعثمت بتبرير لم تجده..

وبعينيها خوف!..

خوف أن يكون هو من ملّ.. وفسره..

خوف لعن نفسه لأنه دافعه الوحيد وكان قد أقسم أن يشعرها بالأمان حتى آخر أنفاس تتردد بصدره..

شدها بأحضانه واحتواها بطمأنة، يده حول عنقها والأخرى تطوق خصرها ورأسه عند كتفها بهمس عاشق..

همس يبيح لها الغرق والطفو..

الموت والحياة..

الضياع والنجاة..

همس دافئ.. خافت وصاخب، همس متقد بكل حرارة العشق:

- بحبِك..

همسة اخترقت ما بقي من حصون قلبها صامدًا لتتهاوى وترفع راية الاستسلام.. فرقت أهدابها برمشات متتابعة جوار رعشة شفتيها، لم تنأَ عنه بل انطوت فيه أكثر:

- أول مرة تقولها..

انحنى عند أذنها وكررها.. كررها حتى تقطعت أنفاسه عندما أنهاها بين شفتيها:

- كان لازم لما أقولها؛ يبقى لها معنى..

ورفع وجهها يغرق في دوامات مقلتيها:

- الحب مش مجرد أربع حروف بيشكلوا كلمة سهلة..

كفه تسللت تستكين فوق موطن فؤادها النابض بعنف والثانية عند نابضه هو:

- الحب هو اللي دقات قلبي وقلبك دلوقتِ بتصرخ بيه..

وبحث عن أمانه في تصريح يشتاق سماعه منها:

- بتحبيني.. مش كده!..

وهي دللت على عشقها بقبلة لباطن يده، بوضعها عند وجنتها اليسرى لترتاح بضمتها وبصرها يغوص بواحة الأمان ببصره:

- لأ.. عايشة معاك شفقة..

تعابثه إذًا!..

تجمد للحظة ضحك بعدها بينما يميل ليحملها برعونة:

- بقى كده!.. طيب هنشوف.. والله ما هنمشي من هنا غير لما..

- يوسف..

قاطعته بنداء ناعم أوقف تحركه إلى أقرب غرفة نوم، احتوت وجهه بكفيها وواجهت عينيه بثبات:

- بحبَك..

هي امرأة الصيف والشتاء..

وهو رجل ربيعه وخريفه بين جفنيها!..

***

أنت لست دمية تتقاذفها الأقدار، قدرك.. تصنعه بنفسك..

لطالما آمنت بأنها وحدها من تملك حق الاختيار، القرار.. ووحدها تقع عليها تبعاته، أن القدر يقدم خياراته وهي تنتقي منها ما تشاء..

هي مخيرة في أمور العقل.. مسيرة فيما هو قضاء..

ولقائها به لا تعلم لأي خانة ينتمي لكنه أنقذها ولم تشكره..

يومها بعد زعيقه وغضبه أعطت لنفسها فرصة التنفس إثر الهلع الذي اقتحمها..

كان بينها وبين الموت ثانيتين ربما!..

لولاه هو..

وبعدما علم من هي وأطلعها على المستجدات وحدد معها موعدًا للعودة لأجل تدريبها الأخير قبل التخرج غادرت بصمت.. بل بوجوم، فلم تكن قد تخطت صدمة ما حدث بعد..

واليوم بشركة العائلة عرضت على زوج عمتها تصميمها المبدئي للبناء الجديد التابع لهم.. وهو مرره لمهندسه الأول كما أخبرها دون مزيد من تفاصيل..

حملت حقيبتها بنهاية دوامها النصف يومي وتوجهت للمصعد..

لم تقابل الرجل منذ ذلك اليوم، لم تشكره لكن بنيتها أن تفعل حين تلقاه.. هذا إن التقته مجددًا..

منع انغلاق باب المصعد يد رجولية اقتحمت المشهد قبل أن يظهر صاحبها بطوله الفارع الذي يشعرها بضعف غير محبب..

يرتفع حاجبه لمرآها ويومئ لها بتحية صامتة.. يجاورها بينما يسحب من حقيبة صغيرة يحملها شيئًا ما لم تتبينه وهي تحاول ترتيب بعض كلمات امتنان لاتزال عاجزة عنها مع فظاظته السابقة والتي تصدرت المشهد حتى وإن أنقذها..

ناولها إياه بعملية:

- راجعت التصميم بتاعك.. التصميم كويس بالنسبة لعمل مبتدئ، في شوية تعديلات حطيتها في ملف على السي دي.. راجعها..

تصلبت لحظة تبتلع تعليماته الطويلة ثم التقطتها منه بثبات وزفرت نفسًا عميقًا تنشد به الصبر:

- كنت عاوزة أشكرك!..

رمقها بنظرة مبهمة ونصف التفاتة:

- على إيه!..

ستركل قصبة ساقه أولًا وبعدها تكرر الشكر.. فهو يدعي الغباء أو ربما نسيها!..

- يوم الموقع وكده.. أنا..

- العفو.. بس خدي بالك بعد كده والتزمي بتعليمات السلامة..

بتر كلماتها عندما وصلا للطابق الأرضي.. انفتح الباب فاندفع منه بخطوات متعجلة لاحقتها هي رغمًا عنها بسؤال فضولي:

- طيب ينفع نتناقش في التعديلات دي!..

توقف يستدير إليها باقتضاب آمر:

- نفذيها الأول، ولو في حاجة مش فاهماها نتناقش..

تغضن جبينها بصدمة وهو ينهي الحوار برسمية مقيتة:

- والمرة الجاية لما يكون في زيارة للموقع لازم يكون عندي خبر بميعاد وصولك.. أي حاجة بتحصل هناك مسؤوليتي أنا وتحت إشرافي..

تابعت رحيله بعين جاحظة..

من يظن نفسه وكيف يحادثها بهذه الطريقة!..

المغرور المتكبر.. هو لا يستحق الشكر..

وذاك خطأ منها لن يتكرر..

***

أسوأ عشق.. أن ترتطم بالقاع وتجد أنك سقطت وحدك!..

حينها الاصطدام يصبح قاتلًا..

استيقظت قبله كعادتها خلال الأشهر الفائتة.. لا تدري ما هذه العادة الجديدة عليها منذ احتضنت ثمرته برحمها!..

تفتح عينيها وتطوف بهما في الغرفة إلى أن تقعا عليه، تلتفت بجسدها كله تجاهه وتظل تتأمله حتى يستيقظ ويسألها بخبث:

- ده أنتِ بتراقبيني بقى!..

فتوافقه بهزة لا تقبل إنكارًا أو مواراة..

تراقبه، تقترب.. تندس بأحضانه وتتشممه كأنما تملأ أنفاسها بعبقه..

اليوم لا يختلف كثيرًا، فقط شعرت بالشوق إليه ولا تعلم أهو اشتياق عاشقة أم لعبة من هرموناتها المتقلبة بجنون!.. لكنها تحركت تداعب صدره بأناملها وشفتيها..

فتح عينيه بكسل ومع إدراكه لما تفعله ابتسم بمكر مستمتع واعتدل يقلبها على ظهرها:

- حد يلعب مع الأسد وهو جعان برده!..

ناوشته بدلال يملكه وحده.. دلال لم يخلقه بداخلها سواه.. بأنوثة خط هو خرائطها بحناياها ثم ضاع في متاهاتها:

- ما أنا باصحيه عشان يفطر..

ضحكته الرجولية دق لها قلبها وهو يميل إلى ثغرها:

- إحنا بنتشاق كتير اليومين دول..

أهدته ضحكتها الناعمة قبل أن تبادر هي بالقبلة والضمة وتعلن رغبة القرب.. وكم كان ذلك يسعده فيغرقها بعاطفة شغوف تتمنى ألا تنتهي..

شغف رقيق يدللها، يراعيها ويهتم بها ويخشى عليها.. شغف يمرره لها بكل وسيلة ممكنة..

ما عدا القلب!..

آخر قطعة في الأحجية.. وحل اللغز الصعب..

ابتعد يضمها إليه برفق، أصابعه تغوص في خصلاتها في حركة دؤوب، تدلك منابت شعرها بضغط لطيف فتئن برضى..

"هنسميها إيه!"..

انحنت شفتاه بابتسامة مبتهجة وكفه تمتد لانتفاخ بطنها الطفيف بعدما وصلت لشهرها السادس بسلام وتأكدا من كونها فتاة كما تمنت.. لثم رأسها بدفء شارد:

- أنتِ عاوزة تسميها إيه!..

سكنت للحظات ثم رفعت وجهها إليه فأخفض بصره ليلتقي بنظرتها العاشقة، ابتسمت وأناملها تمتد لتمر فوق تفاصيل ملامحه بحركتها المألوفة:

- أي حاجة تعبر عن اللي جوايا ليك..

تاه بمقلتيها لثوان ويده تجذب كفها ليدفن شفتيه بباطنها بقبلات متتابعة:

- زي إيه!..

أحمق مدعي..

يدرك ما يغزوها نحوه.. يعلم كيف يستحوذ على خلاياها خلية خلية.. ويفطن لما بقلبها لكن لا مردود له عنده..

شردت فيه أكثروالتمتمة الخافتة تجرح أذنه:

- عشق.. غرام..

وبكل سيطرة ممكنة منع قلبه من انتفاضة..

انتفاضة ليست من حقه مع ذكر اسم من امتلكت نبضاته في يوم ما مضى ورحل بكل ما فيه..

غُص بلعابه فتنحنح بعسر:

- إيه تاني!..

يهرب كأن من عشقها له مهربًا.. وهي تهمس بتفكير:

- إمممم.. ممكن وجد!..

ضمها أكثروجفناه يتعانقان:

- حلوين..

تشبثت به في احتياج عاشقة لنبضة عشق من قلب لم يعد يعترف به:

- عندك اقتراحات!..

تحرك يواجهها بابتسامة مداعبة:

- عندي.. هاقوم أعملك فطار..

نظرت إليه كأنما تنظر لإحدى عجائب الدنيا:

- نعم!..

شاغبها بسبابته عند طرف أنفها:

- إيه!.. مش واثقة فيَّ!..

- مروان!..

تضغط أحرف اسمه بتحذير رفع له حاجبًا عابثًا:

- بعمل بيض عيون جبار على فكرة..

ضحكت بسعادة ويداها تحيطان عنقه:

- أكيد هيبقى جبار..

- بتتريقي!..

هدربها عابسًا فلثمت فكه بلمسة مغناج:

- أبدا.. أبدا..

- بقى كده!..

وقبل أن تهرب كان يدغدغها حتى تقطعت أنفاسها بينما تتوسله أن يتوقف..

نظرتها إليه كرجلها وحبيبها تملأ المسافة ما بين جفنيها وهمستها تتردد بصدق خالص، نقي بريء يشبهها:

- بحبَك..

والمهرب متاح لرجل يخشى العشق.. فيفر منه كفراره من ضارية على وشك نهشه:

- قوليها تاني..

بعبث ماجن وفمه يكاد يحبس أنفاسها باختطاف مسيطر..

لم تتأخر بل ظلت تعيدها:

- بحبَك.. بحبَك.. بحبَك..

تراجع بلهاث انتفض بعده خارج الفراش تجاه الحمام:

- كده لا هاروح شغل ولا هاعملك الفطار..

تابعت غيابه خلف الباب بعينيها..

انقلبت على جانبها في وضع انطواء ورجفة تصيب جسدها.. بل قلبها، وعبرة وحيدة تحطم سد صمودها بخيانة..

خيانة لكل وعد قطعته على نفسها بأن المعادلة التي انحشرت بين أقواسها كانت من اختيارها..

خيانة لتماسك دخل في مرحلة.. انهيار..

هي تود سماعها منه.. وهو في كل مرة يناور، يراوغ.. يحتال ويختفي وتظل أحرفها معلقة في الهواء بلا مجيب..

مسحت دمعتها بظهر يدها وراقبت خروجه، مداعبته لها وقبلته الأخيرة تدلل نعومة عنقها:

- قومي يا كسلانة..

توجه إلى المطبخ.. أخذت حمامها ثم تبعته حافية القدمين، أحاطت خصره بذراعيها فانتفض ينظر إليها من فوق كتفه:

- إيه يا بنتي ماحسيتش بيكِ..

كادت تسبه..

نعم أنت لا تشعر بشيء!..

هزت قدمها بإشارة فعقد حاجبيه مؤنبًا:

- كده تبردي، البسي حاجة..

نفت بإيماءة رافضة وتعلقت به أكثر.. ضحك يمازحها بوقاحة:

- إيه هنرجع السرير تاني!..

لكمت معدته بقبضتها فادعى تأوهًا خافتًا لم يوقف عبثه:

- طيب نخليها في المطبخ!..

كررت اللكمة وهذه المرة نهرته:

- اعمل الفطار وأنت ساكت..

- ما أنا مش عارف أتحرك يا باشا والله..

- اتصرف..

رمى ما بيده وجذبها من خلفه لتواجهه، رفعها يريحها على سطح المطبخ ويواجهها بشغف وازى شهقتها:

- هاتصرف بس من غير اعتراض..

وضعت يديها حاجزًا بينهما عند كتفيه وحاجبيها ينعقدان بحنق مفتعل:

- بطل بقى..

- أبطل إيه!..

- قلة أدب..

شاغبها بغمزة ويده تربت على بروز بطنها بابنته:

- والكتكوتة كانت هتيجي إزاي من غير قلة أدب!..

شهقتها الثانية احتوتها شفتاه وابتسامته المراوغة:

- بعدين ده في ناس بتتجوز بالذات عشان قلة الأدب..

مالت برأسها فوق كتفه..

أنفها تواجه عنقه.. بل تتشممه وتستدعي استغرابه:

- بس أنا اتجوزتك عشان بحبك..

- أنتِ بتعملي إيه!..

لم تنتبه لحركة أنفها التي تتجول من عنقه لكتفه ثم أطراف شعره بتلذذ تام غير مفهوم!..

كانت بالفعل تستنشقه!..

- همممممم..

تجمد لحظة يتابع ما تفعله ثم ابتعد عقبها:

- أنتِ بتشميني!..

- الظاهر كده..

وشدته من ياقته تعيده قربها:

- أنت حطيت بيرفيوم!..

- لأ.. شاور بس..

- يبقى ريحتك أنت..

ومرغت أنفها أسفل فكه وشفتيها تلامسان تفاحة آدم البارزة كأنها ستقضمها:

- إمممممم..

دمدمة خافتة تشبه قرقرة هريرة راضية.. دمدمة جعلته يحملها عائدًا إلى غرفة النوم:

- هو شكله النهاردة مافيش شغل ولا فطار..

لا تدري ما بها خلال فترة حملها!..

لكنها تريده..

تريده بجنون.. وتستلم له بجنون أكبر..

وتعشقه كأن بعقلها لوثة.. وبقلبها مخاض موجع لجنين عشق لم يكتمل نموه بعد!..

***

أسوأ عشق.. ذاك الذي نبخل عليه بإرواء..

تجف بذوره، تضمر، ويموت!..

راقبها تحمل أطباق الطعام من المطبخ إلى المائدة بتثاقل.. وصلت شهرها التاسع بل كادت تتمه، وموعد وصول قرة عينه اقترب..

الصغيرة التي ينتظر حلاوة حضورها لتكسب مرارة حياته شيئًا من لذة..

ترك مقعده واقترب يأخذ الطبق من يدها، لم ترفع بصرها إليه.. بل عادت بتلقائية إلى المطبخ لتجلب المزيد وهو تبعها بهدوء..

أوقفها هناك بنبرة شاب حزمها شيء من حنو:

- اقعدي أنتِ.. هاحط الأكل بدالك..

أبعدته عنها بآلية وحملت إناء الحساء:

- مش تعبانة..

تنهد بغضب واستجاب لرغبتها بيسر؛ فتحمله وصل لأقصاه بالفعل..

كل ما يمكن أن يحزنها أو يبعدها عنه أخرجه من حياتها..

حتى والده انتقل لشقة مجاورة قبل شهرين وهو يزوره يوميًا، يحضر له طعامًا بخبرة جديدة اكتسبها لأجله، يوصله لمحل عمله ويبقى معه قليلًا ثم يعود إليها..

يعتني بها ويهتم لأمرها وليس هناك شيء آخر..

خطواته لاحقتها ليجدها تستند لمقعد طاولة الطعام بإعياء، دعم خصرها بكفيه مؤنبًا:

- قلت لك ارتاحي..

أزاحت يديه وتراجعت بضيق:

- وأنا قلت لك إني كويسة..

ضاق بها ذرعًا فزعق حانقًا:

- يا شذى اكبري بقى.. كلها أيام وهتبقي أم..

التفتت إليه بحركة حادة تشعل فيه نيران قلبها بنظرة:

- خليت لك أنت العقل يا جواد.. سيبني بقى في حالي..

وقبل رد منه تشبثت به وعيناها تسقطان عند قدميها:

- جواد!..

بعدها ترتفعان إليه وقلبه ينتفض بخوف بين ضلوعه:

- أنا باولد..

ما تلا ذلك كان الكثير من الهرج والمرج، الارتباك والفوضى..

فوضى طالت لساعات ثم انتهت بها بغرفة عمليات وطبيبتها تخبرهم ببساطة أن الولادة متعسرة والتأخر في إخراج الجنين دون عملية قيصرية يشكل خطورة على حياة الاثنين..

الأم وطفلتها..

وافقها ووالدها يسانده بدعم أبوي وربتة على كتفه مترفقًا بإجهاد ملامحه والإنهاك البادي عليه:

- إن شاء الله هتقوم بالسلامة.. استعد يا بطل، هتبقى أب يا جواد..

اثنين من أشقائها حضرا للمشفى، أبيها انزوى بأحد الأركان ومصحف في يده يقرأ منه، وأمها حائرة بين الدمع والفرحة.. ولسانها لا يتوقف عن الدعاء..

من وسط ذهوله هو ارتفع رنين هاتفه برقم أحد أصدقاء والده.. قطب باستغراب، أتراه علم!..

أجاب بهدوء وخطواته تروح وتجيء بتوتر:

- أيوة يا عم إسماعيل..

انحشرت حروفه بحلقه والرد يأتيه قاصمًا مخيفًا:

- بابا ماله!.. مستشفى إيه!.. طيب إديني العنوان..

أنهى المكالمة وعيناه تبحثان عن الوالد الذي دنا منه باطمئنان:

- ماله الحاج عبد الرحمن!..

- مش عارف!.. وقع في المحل والناس نقلوه المستشفى..

أُخذ الرجل للحظة ربت عقبها على ذراعه ودفعه للرحيل:

- روح له يا بني وإحنا مع شذى، لما تخرج من العمليات هنطمنك..

- بس..

- روح يا بني ما تقلقش..

تردد لثوانٍ أخرى بإثرها قرر.. أوصى شقيقها أن يهاتفه فور اطمئنانهم عليها، ورحل بركض إلى أبيه في مشفى ليس ببعيد..

هناك استقبله صديق الأب بملامح واجمة حزينة:

- شد حيلك يا جواد يا بني.. البقاء لله..

هذيان!..

الرجل يخبره بطرفة، مزحة سخيفة لا يقبلها عقل ولا يرضاها منطق:

- بس ربنا يشهد، أبوك مات وهو راضي عنك.. آخر كلمة قالها كان بيدعي لك..

عبث!..

الرجل يهدر بعبث لا يستحق إصغاء أذنيه:

- اجمد يا بني ولو احتجت حاجة أنا في مقام الحاج الله يرحمه..

ودمعت عينا العجوز وقتما ضم المتصلب أمامه بأبوة:

- كان صديق العمر..

رعشة غير ملحوظة أصابت قبضته والثانية تشتد بعنف..

رجفة اختطفت فكه باحتجاز مهين موشك على البكاء..

ورعدة تحكمت بقلبه..

لقد بات يتيمًا وإن بلغ من العمر أرذله..

والده مات!..

ساعات غابها تائهًا ضالًا ضائعًا في المشفى بين إجراءات روتينية، ونظرة أخيرة ألقاها عليه.. قبلة ليده المتغضنة بتجاعيد الزمن ودمعة تشبه يُتمه ذرفتها عيناه قبل تماسك غريب لجأ إليه..

أنهى الأوراق وعاد للمشفى الآخر بحثًا عنها..

عن حبيبة وزوجة وطفلة هما ما بقيا له من هذه الدنيا..

عاد ليستقبله الشقيق الأكبر بنظرة هم ونبرة ألم:

- البقاء لله يا جواد..

تعلق بصره به في احتياج:

- أنتوا عرفتوا!..

تلفت الشاب من حوله بحيرة:

- عرفنا!.. هو أنت.. يعني..

قبض على ساعده لحد موجع وروحه تنتفض كطير ذبيح:

- شذى كويسة!..

هدأ مخاوفه بتربيتة على كفه وإيماءة وعين حزنها لم يحررها من أسره بعد:

- أمال...

وجم لحظة أردف بعدها وجسده يتراجع مرتكنًا لأقرب جدار:

- خديجة!..

إيماءة أخرى.. مترددة، موافقة!..

جواب بنعم مميتة..

وتوضيح لا يريد سماعه:

- اتأخرنا في الولادة وحصل نقص أكسجين.. للأسف اتولدت...

- لاااأ..

احتج بصراخ..

استنكر بألم رهيب ينهشه..

ينهش كيانه كله..

الصغيرة التي كان يترقب ملأها لفراغات روحه..

الابنة التي اختارلها الاسم والمهد والثياب رُغم أنف والدتها..

الحبيبة التي حُرم ضمتها.. فضمها القبر بدلًا عنه!..

اقترب منه أخيها يمسك بكتفيه:

- شد حيلك يا جواد.. إن شاء الله ربنا يعوضكم..

يعوضهما!..

هو لا يبحث عن تعويض..

الخسارة.. لا تحتمل تكرارًا وما هو آت مُر بمذاق الحنظل؛ فنكهة الحلاوة المنتظرة غادرت دنياه قبل أن يتذوقها!..

***

أسوأ عشق.. هو الذي يتخلى عنك وأنت في أمَّس الحاجة إليه!..

مر أسبوعان قضاهما في حداد، في عزاء..

بل اثنين..

أبيه وابنته..

أسبوعان كانت هي تعتكف بغرفة نومهما.. تراقب المهد الأبيض ذي الستائر الوردية..

تمسك باللعب الطرية التي ابتاعتها لأجل طفلتهما.. تتحسس ثيابها المنمنمة، تتشممها كأن بها عبقها الذي لم يعلق فيها أبدًا..

أسبوعان في نهايتهما وقفت أمامه بجسد مهتزواهن ونظرة لوم..

هي تلومه على كل شيء.. على كل فقد وكل خسارة..

وهو يحتاجها..

فقط يحتاجها..

لم يعد له سواها..

هي شجرته وجذره ودونها هو فقط ورقة صفراء باهتة أسقطها الخريف..

عندما نطقت بعد سكوتها الذي طال، نطقت وجعًا.. جرحًا جديدًا تضيفه لجروحه كأنما لم يكتفِ منه الزمن بعد:

- طلقني..

تجمدت أفكاره.. عيناه.. نبضاته..

إلا من ضحكة مبتورة خافتة.. ساخرة، مريرة.. أغضبتها:

- طلبي بيضحك للدرجة دي!..

وليتها ترى كم أن الصورة في هذه اللحظة: مثيرة للسخرية!..

فبعد كل ما فقد، تزيده هي فقدًا:

- من الزاوية اللي بابص منها: الحقيقة آه..

صدمة ملامحها أنبأته بعزمها الأخير وهي تصرخ بانفلات كل انفعال طال كبته:

- طيب مادام الموضوع ظريف قوي كده: طلقني..

نظرة عينيه أخافتها..

أرجفتها..

نظرته كانت.. ميتة!..

ونبرته لم ترَفيها نبضًا عندما نطق الكلمات الثلاث باقتضاب بارد:

- أنتِ طالق يا شذى..

(٣١)

هناك من يرى الحب حياة..

وهناك من يراه كذبة..

كلاهما صادق..

فالأول التقى بروحه..

والثاني فقدها!..

"محمود درويش"

ليس لكل قصص الحب نهايات سعيدة..

نقطة، وانتهى السطر.

ماذا عن البدايات إذًا!..

هل نختارها أم تختارنا هي!..

هل نستجيب طواعية أم نُقهر!..

إن كانت هي اختارت بمحض إرادتها؛ فهو وحده امتلك خارطة الطريق الذي تاها من بعضهما البعض قبل أن يصلا لمنتصفه..

"مريم مالهاش كلام غير عنك"..

مفتاحه الأول وتتذكر النبرة، النظرة وهدوء الملامح وغموضها..

"المرة الجاية هنتغدى لوحدنا.. عاوزك في موضوع"..

أغمضت عينيها بألم وكفها تتحسس بطنها الموحش دون طفلتها..

تلك الفجوة التي خلفتها ورائها، فجوة بالأحشاء والقلب.. سوادًا معتمًا مؤلمًا ومخيفًا..

"عاوز أتجوزك"..

وتصريح أمها يقتحم حاضرها بعنفه وقسوته..

"مريم بنت مرات أبو جواد.. مش أخته أصلا"..

ثم تبتسم ساخرة عندما أحرقته الغيرة من صديقها الوحيد، أم تراه كان يمارس دور المتملك باقتدار!..

"هو أنتِ مافيش أصحاب غير آسر ده؟!"..

حينها جهرت هي بفزع يفترسها..

أكان ذلك خطأً أم واقعًا لا يجوز التغاضي عنه أو تجاهله!..

"مش أختك يا جواد وبتحبك وأنت عارف"..

لكنه أخرسها.. منع عنها حرية الخوف وبذات الوقت حجب عنها أمانه..

"بطلي تفكري في الموضوع ده، ما تتكلميش فيه تاني نهائي"..

ثم سقطت الأخرى..

وسقط معها قلبه وتهشمت بموازاة السقوط سعادتها..

نالت من بياضها النقطة السوداء التي توحشت بعدها حتى ابتلعتها وابتلعته معها..

ورغم الإثم صدقت تفنيده لحبكة مكررة حد التصديق..

فالتكرار أشد من السحر..

"بس لو أنتِ مكاني وأخوك وقع قدامك هتنسي الدنيا"..

ليتها ما فعلت..

ليتها هربت.. ليتها فرت وابتعدت وكرهت وأغلقت باب قلبها دون عشقه..

"ما تحوليش حياتي لزلزال"..

طغى هو على روحها بفيضان لا يبقي ولا يذر..

وجريرتها أنها استسلمت لحبه بلا شرط.. ومنحته نفسها وقلبها وكيانها بمقابل بخس..

"أنا بحبِك"..

"أنا كمان بحبَك، بس خايفة.. خايفة الحب ده يكسر قلبي"..

كلمة العشق لا تفي بالغرض منها..

فهي حروف مشوشة لا تمنح الصك، ولا تتمسك بالعهد!..

"باقول إنه اعترف لي بحبه؛ بس بيبعد عني وبيهرب مني عشان مش عايز يأذي مشاعرك أو يجرحك"..

كان ذلك آخر ما سمعته منها..

بعدها.. ماتت!..

أربعة أحرف سهلة النطق قدر حركة اللسان والشفاه بها.. قدر الأنفاس القصيرة والدمعة اليتيمة..

قدر غدر القلوب بعشق من لا يبادلها الهوى..

اعتدلت في جلستها بنشيج مكتوم..

هل كل ما فات على مدار أكثر من عام هو اختيارها أم اختبار قدر!..

لقد خسرت كل شيء..

المعشوق.. الصديقة.. الابنة..

والذنب.. الذنب يحرقها، يصليها سعيرًا لا يشعر بلظاه أحد..

وفي لحظة احتياجها القصوى..

قالها باردة.. بلا عاطفة واحدة، لا غضب.. لا حزن.. لا لوم.. لا عشق!..

"أنتِ طالق يا شذى"..

وأمام ذهول عينيها تحرك بسلاسة نحو غرفة النوم، يجمع قطعًا عشوائية من ثيابه في حقيبة صغيرة، يغلقها دون اهتمام.. ويحملها بنية الرحيل:

- أنت رايح فين!..

نبرتها تتشبث به في توسل لم يلمحه، ثبت لحظات قبل باب المنزل وضنَّ بعناء التفاتة:

- هاسيب البيت.. مابقاش بيتي خلاص..

غُصت بدموعها وشهقة حياة تنبعث من بين شفتيها كأنها نجت من غرق قبيل لحظة الموت:

- بالبساطة دي يا جواد!..

كفها تخفي فمها وجسدها يرتمي.. بل يسقط على مقعد خلفها بوهن الدنيا:

- خلاص بعد خديجة ما بقاش في حاجة تربطنا ببعض!..

على ذكر الفجوة تجمد كلاهما..

ثم سقطا لقاع اليأس بعنف فأتى الارتطام ليكسر منهما الروح والقلب..

استسلمت هي لبكاء خافت مبحوح وعيناها تدوران بفوضى في المكان كأنما تبحث عن طيف طفلتها..

وترك هو حقيبته أرضًا وتلبس قناع القسوة بتوحش فالألم يفوق حد احتماله:

- أنت عاوزة إيه يا شذى!..

وصلها سؤاله بنبرة باردة.. جامدة رفعت لها وجهها نحوه بضياع:

- عاوزاني أحتوي وأطبطب وأشيل عنك كل ذنب؟!..

وازت كلماته خطوتين إليها:

- ولا أغضب وأثور أورمي عليك كل التهم؟!..

ويداه تشرحان وجعه بلا وعي فالممثل المغمور فجأة بات بطل المسرحية:

- أنا كنت باداوي جرحك وجرحي أنا بينزف..

يده تشير لصدره.. ثم تتحسس كفه موطن قلبه وتغوص في فجوته الخاصة:

- عارفة أنتِ عملتِ إيه؟!..

مع آخر أحرفه كان يواجهها، اللهجة يشتد ظلامها، وعينيه الهادئتين باتتا غامضتين بنظرة ظللها الواقع بحقيقته..

حقيقة واحدة..

أن المسرحية ساخرة.. وبطلها لا يستحق الدور:

- دوستِ عليه أكتر..

هذه كانت زاعقة أجفلتها فضمت جسدها بذراعيها بضعف لطالما أضعفه:

- لا أخدتِ بالك من النزيف ولا من الألم..

ثم هز رأسه بإيماءة موافقة تثبت جواب سؤالها الذي نسيته:

- فأيوة.. بالبساطة دي، لأن اللي سبقها كتير قوي ودي مجرد القشة الأخيرة..

- تفتكر هو كان جرحك لوحدك!..

همستها بخفوت ثائر تبعه نهوضها لمواجهة تأخرت.. أو ربما ماطل هو فيها:

- أول واحدة انجرحت واتهانت في العلاقة دي هي أنا..

ومسحت عبراتها بيدها بخشونة، تكره معها ضعفها أمامه:

- أنا اللي حبيبي خانني..

- خُنتك!..

قاطعها بذهول بترته هي بصراخ:

-أيوة خُنتني.. أول مرة يوم فرحي اللي هو أسعد يوم في حياة أي واحدة، لما قلبك دق ليها خُنتني.. وجيت بعدها تسكتني وقلت لي إني مراتك حبيبتك اللي اخترتها..

كان يطالعها كأنما يتأمل هاربًا من مشفى للأمراض العقلية.. نظرته أغضبتها فأكملت:

- وتاني مرة.. لما هي جت لي تقولي إني أنانية، إني المفروض أوافق على جوازكم لأنك ببساطة اعترفت لها بحبك.. ولما سألتك: ما أنكرتش حتى لو كذب..

وحركت ذراعيها تشاركه بطولة مسرحيته التي فرَّ جمهورها من العرض:

- وياه على الكرم.. وأنت بتقولي أنا في كل مرة اخترتِك أنتِ..

بعدها نأت عنه بجسدها وبصرها وصوتها يخبو كنيران أطفأها المطر فلم يبقَ منها إلا دخان:

- ولما ماتت؛ سيبت إحساس الذنب يحرقني لوحدي..

واتهمته بعينيها إثر استدارة حادة:

- عشان كان المفروض أسيبك ليها، أو على الأقل أقبل المشاركة.. عشان ماتت بسببي، بسببك.. بسبب جوازنا..

أخيرًا نظرها يدرك جموده بلحظة..

بدا كتمثال أخطأ نحاته في تفاصيله فأتت مشوهة، حتى لهجته أصابتها حشرجة اختناق:

- تفتكري أنا فعلا ما كنتش حاسس بالذنب!..

عنف صوته يتصاعد بإيقاع بطيء:

- ماكانتش مامتها اللي كبرت وأنا باقولها يا أمي محملاني الذنب!..

والعنف شابهُ ألم جاهد ليخفيه بنبرته:

- ماكانش طلاقها من أبويا ذنبي!..

لكن الألم هزمه.. وكانت تلك هزيمة أخرى في معارك حياة اختارها بنفسه:

- ماكانش مرضه ووجوده قدامي ذنب فوق الذنب!..

هزمه حد دمعة جرحت رجولته وكبريائه وأصابعه تمحوها عند مهدها فوق أهدابه بعصبية وصوته يكاد يشابه الهمس:

- ماكانش موته لوحده.. ذنب!..

رجفة واضحة اكتنفت جسدها بأكمله..

مقلتاها طافتا حول تفاصيل ملامحه ثم استقرتا عند لمعة عينيه الباكية:

- وليه ما قلتش!..

عادت تلومه بضعف قاس لا يدري كيف يجتمعان فيها:

- ليه سيبتني أتحرق لوحدي!..

انشق فمه عن ابتسامة هازئة مبتورة وهو ينهي آخر مشاهد مسرحيته تاركًا دور البطولة لمن يجدر به تقمصه:

- كنت باقول أخفف عنها احساسها هي وأشيله لوحدي.. أكتمه جوايا حتى لو هينهشني، بس هي تبقى كويسة..

الجمود غلف كل ما فيه مجددًا.. جمود غامض يخيفها:

- بس واضح إنه ماكانش كفاية..

- أيوة يا جواد ماكانش كفاية..

غمغمت بها في اتهام:

- عارف ليه!..

أرادت منحه الجواب الذي استعصى عليه إدراكه ككل رجل لا يجيد فهم أنثاه:

- عشان القاعدة بتقول إن الاعتراف بوجود المرض هو أول خطوة في طريق العلاج.. وأنت داريت مرضك وسيبت مرضي أنا ياكل فيَّ لحد ماقضى على كل حاجة..

امتدت يده بغتة تقبض على مرفقها بصلابة فظة ووجهه يميل ليحتل الأفق أمام عينيها:

- الحدوتة هتبقى مريحة أكتر لما أقوم أنا بدور الشيطان.. مش كده يا شذى!..

شهقت بوجع ذاهل وميله يزيد حد شعورها أنه على وشك نيل شفتيها.. فقط لامست بشرتها حرارة أنفاسه، بل احتدامها المتقد وهو يردف ببساطة ونبرة خاوية:

- جميل.. أنا الشيطان في حكايتك الخيالية..

نقطة.. وانتهى السطر.

فليس لكل قصص الحب حبكة تستحق المتابعة أو الاستمرار..

حمل حقيبته وخرج من الباب دون نظرة واحدة للوراء، تركها وحدها لانهيارها ومخاوفها وصراعاتها الخفية غير المعلومة له..

هو اختار التخلي في اللحظة التي كانت تريده أن يتشبث بها فيها وحسب!..

***

في قصتها كان هو الشرير الذي هزم الخير..

وفي قصته كانت هي البطلة..

أما في رواية واقعية؛ الاثنان سقطا كطرفي معادلة حاصل جمعها.. خسارة!..

تمم إجراءات سفره، حان وقت الوداع.. قبع في صالة الانتظار بمطار القاهرة الدولي حتى موعد طائرته، وفي ضجيج المكان تداعت أفكاره لتجلده بسياط الندم، الذنب.. والوحدة!..

ويعود قلبه فينتفض بصدره واهنًا مناديًا بشيء من راحة لا تهديه إياها أنفاسه..

أما ضميره الذي توقف عن لومه؛ ظن أنه قتله ودفنه واستمر..

يودع بلدًا لم يعد يربطه بها أحد..

ويستقبل غربة ستكون ملاذه منذ اليوم..

الفقد في حياته ضيع معناه عندما كثُر، فشدة الألم تميت الاحساس به، تخنق الفؤاد وتكمم الروح.. تفقدك تماسكك، تبعثرك.. ثم تعيد تشكيلك بغلظة..

بقسوة..

بوحشية..

تعيدك آخر لا يمت بصلة للقديم الذي رحل!..

في قصته.. أرادها البطلة فتوجته شيطان الحكاية، وفاز بالدور عن جدارة..

"دي شذى.. تقدر تقول ملاكي الحارس"..

بداية لم تكن منها أو منه.. بل من طرف ثالث وضعها بطريقه، ثم استكثرها عليه..

"وأنا بحبِك"..

أول تصريح وازى عنادها ليجد أنها تخطف قلبه في كل حالاتها..

بشعر قصير أو طويل..

بعناد أو خضوع..

بأنوثة خلابة أو خشونة مدعاة..

هي امرأته التي اختارها القلب..

والخيوط تفلتت واحدًا تلو آخر حتى واجهته بما تراه حقيقة ويجهله هو.. بل يرفضه ويبرره..

"كل واحدة فيكم غلاوتها مختلفة، هي أختي.. وأنتِ حبيبتي"..

حتى عندما اشتعلت مشاعره بغيرة فسرتها هي بتملك..

دومًا ما كان محل ظنها السيء!..

"باغيريا شذى"..

وضعت كفة مقابل كفة لتشعل النار بالحطب غير مكترثة بالحريق..

"مش أختك يا جواد وبتحبك وأنت عارف"..

حينها حاول توضيح الصورة.. الخطأ فيها، رتوش الأسود التي لطخت بها جمالها عمدًا..

"أنا مش فاهم أنتِ بتفكري إزاي؟.. وإزاي أصلا تلفتي انتباهي لمشاعر واحدة تانية ناحيتي وأنا ما كنتش شايفها من الأساس، وكمان مصممة عليها"..

وكررتها..

مرة تلو مرة.. لقاء عقب لقاء.. حشرتها بعقله وقلبه..

حشرتها بينهما..

غضب.. ثار.. رفض.. عاند.. خاصم.. منع واحتج واستنكر.. وأصر عليها هي..

ثم سقطت الأخرى التي وضعتها عنوة في منافسة على حبه..

سقوطها زلزله.. حيره.. أذهله وأدهشه وأخافه!..

ووقت الخوف نلجأ لملاذٍ آمنٍ نحتمي به من كل ما يثير الرهبة بنفوسنا..

لذا كانت هي ملجأه..

"أنتِ الحاجة الوحيدة اللي ثابتة فيها.. الوتد اللي مخليني متماسك.. الأرض الصلبة اللي شايلاني"..

"أنا بحبِك.. والله بحبِك"..

وقبل إعلان العشق المكرر وعْد.. وعْد وفَّى به رغم كل ظرف وألم وانكسار..

"وأنا موافقة أكون زوجة تانية"..

البركان الذي انفجرت حممه بوجهه ليحترق بها وحده.. وليت الأمور هينة كما يراها من ينظر خارج إطار الصورة..

في وقت واحد..

تغذي رجولته وغروره امرأة ترغبه بكل ما فيها..

ودونية وانعدام ثقة من غيرها أباح لها وحدها العشق!..

"مش عاوز تشوفها ليه!.. بتحاصرك بمشاعرها؟.. خايف تضعف!"..

تهاجم.. تقطع الخيط.. تبتعد وتقترب وتعيش معه في تذبذب خانق..

وبين واحدة تدفعه بعيدًا وثانية تشده إليها بكل وسيلة مشروعة كانت أو لا..

سقط!..

سقط بخطيئة مشاعرية لاتزال مبهمة له حتى هذه اللحظة..

"أنت بتهرب لأنك خايف.. خايف تفكر في مشاعرك ناحيتي"..

عند السقوط جهر بالإثم..

"أيوة يا مريم.. أيوة بحبِك"..

وفي الثانية التالية بعد الإثبات نفي..

"يمكن حبيت حبك، كراجل سعيد بلهفة بنت عليَّ"..

"إنها تيجي على نفسها وكرامتها لدرجة تطلب وتوافق تكون زوجة تانية"..

"لدرجة الحصار والمطاردة اللي ترضي غرور أي راجل"..

هكذا فتش عن سبب، فنَّد جهره بالذنب ثم أنكر بقسوة..

"أنا راجل متجوز.. ومتجوز واحدة بحبها وبتحبني"..

ظن أن الخيط انقطع، لكنه كان أحمقًا، فاعترافه غير المفهوم له هو نفسه.. سُجل بمحكمة العشق، والجرم أثقل صحيفة أعمال قلبه..

بعدها دون أن يقلب الطاولة كما ظنت هي شرح أوجاعه والدرس كان عصيًا فلم تدرك تفاصيله..

"أنا المهرج في السيرك ده"..

احتاج الثقة، بل طالب بها.. ولم ينلها، ثم توسل الطمأنينة واستكثرتها عليه..

"محتاج منك ثقة إني مش هاكسر وعدي ليك"..

"محتاج السكن اللي في حضنك"..

ورغم تنائيها عنه.. شكها وغضبها حاول وحاول..

"أنا وفيت بوعدي، ومكمل يا شذى.. بس في كل مرة أنتِ اللي بتختاري الوجع"..

الوعد اكتمل بطفلته التي نبتت برحم دنياه لتهديه الأمل..

"أنتِ حامل!"..

ثم من بعدها قامت الحرب.. قامت وانتهت في معركة واحدة.. بضحية واحدة ولكل حرب ضحاياها..

"أنتَ السبب.. بنتي ماتت بسببك أنت"..

وبداية العقدة ذنب قرر أن يحمله وحده..

فمن ظنها الحبيبة لن تحتمل ثقلًا مثله..

"مريم.. ماتت"..

"شذى ماحدش بيموت من الحب"..

"فوقي يا شذى، لا أنا قيس ولا هي ليلى.. ولا الحدوتة تتحمل خيال"..

"ما حدش بيموت ناقص عمر"..

حماها بجسده ليتلقى عنها لسعات سوط الخوف..

فدارت من حوله، وقفت وراء ظهره وأمسكت هي بالسوط.. ثم جلدته..

"إزاي مش حاسس بذنب وأنت علقتها بيك!"..

"أيوة بسببك.. بسببك أنت، أنت سبب اللي حصلها واللي أنا فيه"..

والتالي الكثير من هرج ومرج المشاعر والمخاوف والآلام..

"شد حيلك.. البقاء لله"..

ضربتين في واحدة وأتت منها الثالثة بطلب فراق..

في لحظة كانت هي جذره الوحيد الباقي الذي يثبته للأرض، قطعت الجذر ومنعت الماء وتركته يصارع في معركة أوجاعه وحيدًا..

كالعادة.. حملته وحده اللوم..

رأته.. بل أرادته الشيطان في حكايتهما؛ فمرحبًا بالجحيم إذًا!..

وعندما قابل والدها، عقب تقمصه دوره حد التوحد التام أسقط الثمرة..

"أنا وشذى مابقاش في حاجة تربطنا ببعض يا عمي.. بنتي كانت آخر خيط وانقطع!"..

ورحل..

"على السادة ركاب الرحلة رقم ٣٨٥ المتجهة إلى دبي التوجه إلى بوابة رقم ثلاثة"..

تكرر النداء إيذانًا ببدء رحلته..

رحلة جديدة يقف هو على المفترق الفاصل بينها وبين أخرى سبقتها بحيرة..

حيرة دامت لثوان..

بعدها تحركت خطواته بجمود..

فمنذ اليوم..

لم يعد له وطنًا؛ هو اختار الهامش ودفن نفسه فيه!..

***

سخافات الفتيات..

هكذا كان يفكر فلم ينطقها صراحة، لكن ملامحه كلها كانت تشي بها وهي تخبره عن "حمام طفلتها" أو تلك البدعة المستوردة من الخارج " Baby shower"..

حيث تجتمع مع الصديقات.. يوم مرح صاخب، طعام وموسيقى وهدايا تخص الأم والابنة.. ويسقط الأب دومًا من الحسابات..

ابتسم بتكلف ومنع لسانه عن تشبيه خشن يشبهه..

أوصلها لمنزل والديها، رأى أخته تتبعها بعدما حيته من بعيد..

رحل لعمله والابتسامة المتكلفة تتبدل لساخرة والدمدمة الهازئة تغادر شفتيه..

"هه بيبي شاور!.. الستات دول"..

بتركلماته تاركًا البقية لخيال من يسمع أو يقرأ.. أو حتى دون اكتمال..

في بيت والدها اجتمعت "سما" ببطنها المنتفخ لحد مؤلم، وقدميها المتورمتين.. اجتمعت مع زوجة أخيها وتوأمتها وابنتا العمة وثلاث من صديقاتها..

اتخذت مجلسًا يتصدر المكان، اعتنت بها أمها قليلًا ثم غادرت لعملها أيضًا تاركة للفتيات الحرية..

تعالت الموسيقى وبدأ الرقص..

ما بين أغانٍ شرقية وغربية، موسيقى ناعمة وصاخبة..

وهدايا لطيفة للغاية نبض قلبها لمرآها..

إلا واحدة من صديقتها المشاغبة التي ناولتها لفافة بيضاء بريئة وأجبرتها على فتحها أمام الجميع بخبث لتجد غلالة حمراء صارخة مكونة من عدة خيوط وحسب!..

رمتها بوجهها وسط ضحكات الجميع..

مع انشغالهن بحوارات جانبية شردت ملامحها..

شردت فيه ومن غيره يمتلك ذراتها!..

أكثر من عام مر على زواجها منه، والوضع على ما هو عليه..

بقلبها.. وبقلبه!..

قلبها يغرق فيه أكثر، وهو ناءٍ عنها إلا من شغف الحميمية ونظرته التي باتت تدركها نحوها عندما تطغى عليها عفويتها أو يسيطر خجلها..

نظرة شغوف متلذذة بها..

لكنها أبدًا لا تمتد لما هو أبعد من ذلك..

"إيه يا بنتي الشجن والأسى اللي على ملامحك ده!.. هرمونات برده!"..

توأمتها المشاكسة التي تخرجت قبل شهر وحملت لقب المهندسة "صبا" في الأوراق الرسمية والعملية..

ابتسمت ورنين كلماتها يتعالى بأذنيها وشفتيها تردد إحداها:

- شجن!..

تلوك أحرفه كأنما تستكشف مذاقه:

- شجن.. إممممم..

- في إيه!..

توسعت بسمتها وعيناها تغيبان حيث غاب هو وقلبها متخم بعشقه حد الفيض:

- حلو الاسم..

ربتت "صبا" على بطنها برفق حانٍ ونبرتها تستنكر:

- هتسمي سكسكة شجن!.. مش كانت عشق!..

ولوت شفتيها بتهكم أغضب الوردية فوكزت كتفها وأبعدت يدها:

- لأ.. شجن حلو..

أليس هذا هو ما بقلبها إليه الآن!..

عشق مغموس بالأسى والتعب والإرهاق.. والحزن!..

فجأة وقبل أن تجد ردًا ساخرًا جديدًا تشددت قبضة العاشقة حول أصابع أختها وصرخت بألم:

- صبا.. هو أنا باولد!..

اتسعت عينا المذعورة والضجيج من حولها يتبدل لصمت قلق كسرته "ملك" بركض إليها:

- حاسة بإيه!..

- وجع.. وجع رهيب يا ملك، بطني وضهري..

ختمت كلماتها بصراخ أخبرهم بحقيقة الموقف..

هي تلد بالفعل..

ابنتها تصر بعناد على الحضور قبل موعدها بأسبوعين..

سادت حالة من الارتباك في المكان..

اتصلت توأمتها بأخيهما الأكبر، هاتفت "ملك" الزوج الغائب وقررت حملها بنفسها للمشفى فالأمر لن يحتمل تأخيرًا خاصة مع صرخاتها التي تتابعت ببعد زمني أقل..

وصلت الفتيات للمشفى تزامنًا مع أمها وأبيها ليستقبلهم الأخ هناك..

في لحظات استقرت بغرفتها وطبيبتها تتابعها، توصي بعدة وصايا لم يمكنها تنفيذ واحدة منها قبل أن تطلب منها الصبر لبعض الوقت وبعدها ستحقنها بدواء ما يوقف الألم..

ثم وصل الزوج بعد قيادة رعناء ليجدها تتصبب عرقًا فوق الفراش الضيق.. الجميع من حولها ما بين مهتم وقلق أو مذعور..

اقترب منها بوجل، مد يديه يحتوي كفها ففتحت عينيها وأسنانها تنضغط بعنف:

- مروان!..

وفاضت دموعها.. صغيرته الرقيقة لا تتحمل المخاض..

تحتاج دعمه وهو لا يدري ما يفعله!.. بغباء كل كائن ذكوري على ظهر الأرض لا يملك أدنى فكرة..

إلا واحدة.. قفزت لذهنه فجأة..

بعد استدارة طاف بها بصره في الغرفة رأى أخته، والدته وخالته.. وتوأمتها؛ تحرك رغمًا عنه متجاهلًا تحفظه المعتاد ورفعها بين يديه قليلًا ليزيحها إلى جانب الفراش.. ثم جاورها..

يسكن رأسها بأحضانه، يده تمتد لتمسد ظهرها والثانية تضمها إليه وهمسه المرتبك يصلها خائفًا:

- هششششش.. أنا معاكِ.. جنبك..

وككل أنثى تتشبث بحلاوة اللحظة وجنونها، تضرب صدره بوهن:

- أنت السبب في اللي أنا فيه ده..

جسدها ينتفض فيضمها أكثر، يداعبها بوقاحة تصل لأذنيها وحدها:

- لا يا فندم.. العملية دي مطلوب فيها طرفين، وكل خطوة لازم تكون بالاتفاق..

فتكرر الضربة والهمسة النزقة تسب بها وقاحته:

- قليل الأدب..

وابتسم.. ابتسم لابتسامتها وبمحرمة مسح جبينها قبل أن يعيد رأسها لصدره وتلتقي عينا والدتيهما بنظرة حنون..

نظرة مطمئنة..

على إثرها عادت الطبيبة وكادت تركله خارج الفراش بنظرة مستهجنة لولا أن استقام وحده بحرج..

حقنتها بالدواء وأخرجت الجميع من الغرفة لتطمئن عليها..

أربع ساعات تالية مرت ثم نُقلت إلى غرفة الولادة المجهزة وخارجها ترقب الجميع إلاه.. هو كان لديه مخطط آخر!..

مفاجأة أراد أن يسعدها بها، ولعمره فهي تستحق..

تأخر عنهم وعندما وصل حيث ينتظرونها وجد ابنته؛ صغيرة، منمنمة.. ناعمة ووردية كأمها تمامًا!..

لا.. بل هي تشبهه هو..

تلقاها فوق كفيه بتوتر وسقط بغرامها منذ اللحظة الأولى.. أذَّن في أذنها وأقام بالثانية ثم أخبرها بحنان أنه والدها.. بعدها أخذوها للعناية بها وخرجت زوجته بملامح منهكة عائدة لغرفتها..

غرفتها!..

الوردية تمامًا حتى شراشف الفراش الطبي!..

الجدران المزينة بلوحات ترحب بالصغيرة.. وتحمد الله على سلامة أمها!..

البالونات.. الوردية!..

وأخيرًا "Welcome to our life my little girl"..

انسابت عبراتها وبصرها يتعلق به:

- أنت اللي عملت كده!..

أهداها بسمة دافئة وغمزة مشاغبة بذات الوقت:

- بمساعدة الفنانة صبا طبعا..

تمسكت بيده ودموعها لا تتوقف بحماقة أنثوية وهرمونية:

- ربنا يخليك لِيَّ..

انحنى يهدي جبينها ويدها قبلتين وهمسه الحاني يخترق قلبها:

- ارتاحي بقى..

مسح بإبهامه دمعتها وكفه تحتوي وجنتها:

- شفت شجن!..

- شجن!..

تغضن جبينه بدهشة:

- هتسميها شجن!..

وافقته بنظرة فأردف باستفهام مستغرب:

- هو ده اللي جواكِ لِيَ دلوقتِ!..

تنهدت تنكر حقيقة واقعة فهو يهتم بأقصى طاقته..

يعتني.. يدلل.. ويحنو..

لكنه فقط.. لا يفعل ذلك عن سابق عشق..

ابتسمت تهديه أمانها الدائم:

- أكيد لأ.. بس الاسم عجبني، رقيق قوي..

بادلها البسمة وشفتيه تمسان جبينها مجددًا جوار الهمس:

- اللي ماما تقول عليه..

دقائق تالية قاربت الساعة وأتت الصغيرة في فراشها المتنقل إلى غرفة والدتها..

تتبادلها الأيادي ببهجة وسعادة الدنيا..

فحفيدة الحسيني الأولى.. أنارتها بحضورها..

***

أحيانًا بين العشاق القدامى ينشأ رابط وهمي..

خيط غير مرئي يجعلها ترفع عينيها في اللحظة التي كان يتأملها فيها وهي تحمل الصغيرة بنظرة.. عاشقة، وبعينيه أمنية!..

خيط يربط بين أفكارها وأفكاره فيحرك وجهة بصره ليلتقي ببصرها..

وتولد الابتسامة على الشفاه..

عندما أصبحا بمنزلهما أسقطها في تأمل غامض هزت رأسها له:

- خير!..

حرك كتفيه بلا معنى وغمرها بحنو عينيه قبل أن يجيبها ببساطة:

- يعني.. كنت عاوز أعرف احساسك إيه وأنتِ شايلة شجن!..

اقتربت منه بخطوات خفيفة كأن روحها تطير بين جنباتها بسعادة وتهفو إليه، أحاطت عنقه بذراعيها وتنهدت بعمق:

- بقينا جدود..

حاصر خصرها وشدها إليه بحركة خاطفة:

- مش قلنا همَ مش إحنا!..

ضحكت بمرح وأناملها تمتد لشعره الداكن إلا من شعيرات رمادية مبعثرة هنا وهناك:

- أنت عاوز إيه يا زياد!..

- ما قلت لك..

يخبرها بنظرة معاندة أثارت حنانها كأنما هو طفلها المشاغب:

- فاكر لما قلت لي آخر مرة إنك عاوز بيبي!..

أومأ بإيجاب ويدها تجوب ملامحه وتتجول فوق جبينه:

- رحت بعدها للدكتورة.. ويعني..

صمتت لحظة ثم أردفت بحركة من كتفيها استفسر عنها بدهشة:

- يعني من شهور ما فيش موانع حمل!..

نفت دون كلمة فقطب حاجبيه مثيرًا حيرتها:

- طيب ما قلتيش ليه!..

- كنت عاوزاها تبقى مفاجأة.. بس ما حصلش...

بتر كلماتها بسبابته فوق شفتيها:

- حتى لو ما حصلش، يكفيني أنك وافقتِ..

أراحت رأسها فوق نابضه بسكون:

- أنا عاوزة أسعدك يا زياد..

أبعدها يمسك بذقنها، يجبرها على مواجهة بصره الغارق فيها:

- أنتِ سر سعادتي..

أهدته بسمة عاشقة بادلها بمتخابثة وهو يقترب بها من الفراش:

- بس مادام مافيش موانع حمل؛ يبقى نعمل إحنا اللي نقدر عليه.. ولا إيه!..

ضحكت بخفوت وقلبها يخضع له..

روحها تخضع..

وجوارحها تستجيب بعشق غلب قلبها في معركته منذ الأزل..

ففي روايتها الخاصة كان له وحده دور البطولة المطلقة..

***

في حكايتها لم يقرر أن يكون البطل..

لكنه كان اختيار قدر!..

قدرًا جمع بينهما في لقاء غير مخطط له أمام مكتب شئون الطلاب بالكلية..

هو أوشك على إنهاء فترة تجنيده، وهي تخوض عامها الجامعي الأخير..

"الله.. الأشقر رجع أشقر!"..

"آسر!"..

كانت تشتاقه.. قادتها خطواتها المتلهفة لاقتراب وبصرها معلق به في عتاب:

- قلت لي هنتكلم ونتقابل!..

ناوشت فمه بسمة هادئة بها شيءٌ من دهشة:

- أجازاتي كانت قليلة وقصيرة جدا للأسف.. بس تصدقي..

أحنى رأسه وعينه تهديها غمزة عابثة:

- وحشاني..

ورغم أن الكلمة لا تحمل بين ثنايا أحرفها مدلولًا عاطفيًا محددًا فقد نشرت البهجة بروحها وهي ترد بالمثل:

- أنت كمان..

تلفتت حولها باهتمام:

- أنت بتعمل إيه هنا!..

أشار للمكتب إلى جواره بينما يمط شفتيه:

- فاضل لي شهر ونص وأخلص الجيش، جاي أسحب ورقي عشان الشغل..

لمعت عيناها بفضول:

- أنت مش هتشتغل مع باباك في شركتكم؟!..

- لا.. أنا مش بتاع بيزنس..

أومأت توافقه.. فهي تشبهه في هذه النقطة، توترت في وقفتها بعض الشيء ثم خطت مبتعدة بتردد:

- طيب.. هاسيبك تشوف ورقك، مش هاعطلك..

وقبل أن تستدير أوقفها بتقرير:

- هاشوفِك تاني!..

خضعت بهزة رأس ورحلت..

رحلت وعيناه تلاحقها بشرود وفكرة ما تقتحمه، بل تسيطر عليه كما احتلت أفكاره طوال عام مضى..

فكرة مستحيلة في مجتمع لم يتغير منذ آلاف السنين وربما أبدًا لن يفعل..

فكرة نشرت بكيانه الحيرة كما تأكل النار الهشيم..

لم يكن له من مرشد سوى أخيه الأكبر الذي فوجيء به على باب بيته بابتسامة حائرة:

- فاضي يا دوك!..

بغرفة المعيشة بعدما قدمت لهما "ملك" مشروبًا باردًا شردت أفكاره ثانية..

شردت وطال صمته حتى انتزعه منه "يوسف" بنبرة مهتمة:

- مالك يا بني!..

وتحول الاهتمام لتهكم:

- جاي تسمعنى سكوتك!..

التفت إليه وبصره يتيه في شيء غامض:

- يوسف..

صمت ثانيةً.. صمت لحد مثير للغيظ فوكزه الأكبر في ركبته بحنق:

- ما تنطق يا فيلسوف الفاكهة..

انحنى جانب فمه بسخرية ومازحه:

- بقيت على آخر الزمن محتاج نصيحة من جراح القلوب..

تركزت عينا "يوسف" عليه للحظات هتف بعدها باستنارة متذاكية:

- أنت بتحب!..

لم يربط الفيلسوف بين السؤال وما سبقه فالتوت شفتاه ببلاهة:

- نعم!.. إشمعنى!..

مع الجواب تضاعف الغيظ على ملامح الأخ فكبته ضاغطًا أسنانه:

- ما تنطق يا بني.. مالك؟..

سحب نفسًا عميقًا بطيئًا وقرر سرد أفكاره داخل إطار مموه:

- قولي يا كبير.. لو تعرف عن حد حاجة والحاجة دي كانت منه غلط في حق نفسه بس ممكن تأذيه؛ وأنت في إيدك تساعده رغم إنك مش راضي عن الحاجة دي فيه..

واعتدل في جلسته باهتمام:

- هتيجي على نفسك وتساعد!..

ثم حرك يده يبتر الرد بإضافة:

- مع الأخذ في الاعتبار إن مساعدتك لها مقابل نوعا ما!..

- ما تخليك صريح يا آسر عشان أفهم..

نفى بحزم قاطع:

- الموضوع ما يخصنيش عشان أقولك تفاصيله..

زفر "يوسف" وهو يتراجع في مقعده ونبرته تخبره ببديهية:

- ما تتأخرش عن مساعدة حد مادام تقدر.. حتى لو اللي هتساعده مش مناسب لمعاييرك الشخصية..

وجم لحظة يفكر بصدق الكلمات وفطرتها الانسانية:

- تفتكر!..

- ده اللي أنا ممكن أعمله..

- وهتقدر تتعايش مع الحاجة اللي رافضها دي!..

- مادام نويت خير؛ يبقى هاتعايش..

- حتى لو حاجة صعبة!..

- حتى لو مستحيلة..

ومال يربت على ركبته بحنو الأخ الأكبر:

- ما تترددش في عمل خير أبدًا، لأن مهما كانت النتيجة أنت كسبان..

ووضع بيده مفتاح اللغز المعجز الذي أحاق بعقله منذ مدة طويلة..

دقائق تالية وكان طبيب القلوب يدلف لغرفة نومه، يجد زوجته تتكئ على ظهر الفراش وتتلاعب بهاتفها.. جاورها بهمس مشاغب:

- زحلقته..

رمقته بنظرة موبخة:

- مشيت أخوك!..

- الحقيقة طردته..

- يووووسف!..

تنهره ويقتنص هو قبلته كما أدمن مع كل نطق منها لاسمه، أخبرها بشبه جدية:

- ماهو أنا عندي نوبتجية كمان ساعتين، مش وقته خالص..

عضت شفتها السفلى وعيناها تدوران بارتباك، أمسك بذقنها يجبرها على الاستقرار بعينيه:

- مالِك!..

بدا لها للحظة أنها تستدعي من الذاكرة موقفًا ما في تكرار سخيف ممل..

لقد مر على زواجهما ما يقرب من عام والحال كما هو، يغيبها في عشقه وتتيه هي فيه..

لوت أصابعها حول بعضها البعض بتردد أثار ارتيابه فهمس باسمها.. وجدت أنها ستطمئن أكثر بين ذراعيه فتحركت تسكن صدره ونبرتها تصله بعد عسر:

- أنت عارف إن حملي صعب.. مش كده!..

تغضن جبينه وقد فطن لما يدور بخلدها ويوترها طيلة الأيام السابقة.. مع مولد ابنة أخته وأخيها.. احتواها بدفء حانٍ وصوته يحيط بها ويتخلل ظلام مخاوفها بأمانه:

- أنا راجل صبور جدا..

وأنهك أنفاسها بين شفتيه بشغف عاشق:

- وعاوزك ليَّ لوحدي أطول وقت ممكن..

مازحها بعدها متظاهرًا بالقلق:

- قبل ما يجي باشا ياخدك مني..

رسم أسى مصطنعًا فوق ملامحه:

- وأبقى مواطن من الدرجة التانية في البيت ده..

- يوسف..

حزن نبرتها عصر قلبه فشدد ضمته حولها:

- عاوزة نشوف دكتور!..

انقبضت أصابعها تتشبث بقميصه وصوتها يتحشرج برد غير مصدق:

- بجد!..

أغمض عينيه.. وعقله يسحبه نحو منطقة معتمة مرت بها مع آخر..

منطقة قرر استبدالها بما يخصه هو..

اعتدل يقلبها على ظهرها، يطوقها بذراع ويدعم جسده بمرفق الثانية:

- أكيد بجد..

اختطف شفتيها للحظة غمغم إثرها بعبث:

- ومادام هنروح لدكتور، يبقى من دلوقتِ نبذل جهد أكبر..

وكزت كتفه بخجل فرفع حاجبه:

- إيه!.. الموضوع ده محتاج إتقان..

أهدى جبينها قبلة:

- وتأني..

انتقل لوجنتها اليمنى:

- وتكرار..

ثم اليسرى بابتسامة شغوف:

- تكرار كتير..

وأخيرًا استقر عند ثغرها الناعم:

- فلو سمحتِ نركز الفترة اللي جاية شوية وخليكي معايا على الخط..

استسلمت لموجات عشقه التي ترفعها ثم تهبط بها..

تهديها الحلم، وتغرقها ببئر عشقه..

هو رجل استباح بطولة رواية خيالية؛ بل هو عاشق كما قال الكتاب..

***

لكل قصة أكثر من راوٍ..

ولقصص العشاق هناك اثنان..

هو.. وهي!..

في حكايتها الوردية قام هو بدور البطولة..

وفي زاويته الواقعية كانت هي النجمة..

وبين الوردية والواقعية حرب سرمدية..

فلا الوردية تصنع المعجزة، ولا الواقعية دون حلم تكمل الأحجية..

تحركت على أطراف أصابعها تراقبهما معًا..

تتأمل ملامحها التي اقتطعت من ملامحه بطريقة مغيظة، ثم يرق قلبها فتبتسم..

طفلتها بلغت من العمر شهرًا الآن.. وكلما نمت أكثر كلما ازدادت شبهًا به..

عينيه، أنفه.. جبينه وذقنه..

أي عشق هذا الذي يحتلها فأجبر رحمها على حمل نسخة منه!..

الصغيرة نائمة بسلام فوق صدره، وهو كذلك مستغرق في نوم عميق وكفيه تدعمان الجسد المنمنم برفق..

تنهدت وقلبها ينتفض..

متخمة هي بمشاعرها والأمر بات موجعًا..

لم تقاوم تناول هاتفها، كتم صوت غالق الكاميرا ثم التقاط عدة صور متتابعة لهما بذاك الوضع اللطيف..

نحته جانبًا ومدت يديها تحملها لتضعها بمهدها وتترك له حرية النوم، فهو منذ ميلادها ونومه متقطع مثلها تمامًا..

يساعدها كثيرًا..

يحملها عنها..

يلاعبها ويهدهدها ويحكي لها مغامراته اليومية في عمله كأنما يخرج لصيد الذئاب وليس للعمل بالخارجية..

يعشقها وعشقه تجهر به عيناه في كل لحظة..

عشقًا أوقع في قلبها شيء من غيرة حمقاء؛ فهي ابنتها..

ما إن أمسكت بها حتى أفاق وكفيه يثبتانها بأمان ضمته، طمأنته بهمس:

- هاحطها في سريرها عشان تعرف تنام..

ابتسم ونظره يحيط بالرضيعة النائمة بهدوء ثم بادلها الهمس:

- لأ.. سيبيها، مرتاح وهي كده..

أصرت برفض حازم:

- أنت عندك شغل الصبح يا مروان، كده مش هتنام كويس..

رفضه عاند رفضها وكفه الكبيرة تحتوي الرأس الهش بحنو:

- مادام في حضني هانام..

وشاكسها بعبث مرح:

- ولا ماما غيرانة وعايزة حضن بابا!..

ابتسمت بخجل ونفت بهزة رأس.. خطت بخفوت مبتعدة إلى خارج الغرفة قبل أن تتوقف، تلتفت إليه بسؤال صبغته بحنان أم وتجاهل عاشقة:

- بتحبها!..

- باموت فيها..

الجواب لم يستغرق منه جزءًا من الثانية..

الجواب الذي تشتاقه هي ويبخل به هو..

الجواب الذي فطر قلبها الغارق فيه ودفع بخطواتها للركض هروبًا.. وألما..

الجواب الذي ملأ عينيها بعبرات اليأس..

وويل له من يأس امرأة توجته يومًا سلطانًا على عرش بطولة كل رواية مرت بين يديها..

طبقت عليه سطور الهوى ومنحته كل ما فيها حتى الثمالة؛ ومقابل العشق.. صفرًا!..

***

أحيانًا يضعك القدر في اختبار ما..

يتركك على بداية طريقه ويملكك زمام النهاية، لا تدري أنت أنك مجرد بيدق لم يتقن حساب خطواته وحسب!..

"أدهم.. بلاش عناد.. السوق عاوز سياسة ودبلوماسية"..

اخترق صوت أخيه بحكمته حجُب شروده..

دار بمقعده إليه ونبرته يكسوها الحزم:

- السوق عاوز صياد..

- أدهم!..

أشار إليه يطمئنه:

- ما تقلقش..

قبل أن يكمل "آدم" حديثه دخلت مساعدته للمكان بعملية:

- معتز بيه الرفاعي وصل..

أومأ لها فتنحت ليظهر الرجل من خلفها..

بقامته المتوسطة وجسده النحيف، خصلاته التي شابها بياض أنيق وسيجاره المشتعل بين أنامله.. خبث عينيه الثعلبيتين وابتسامته المصطنعة:

- أدهم بيه.. دكتور آدم..

نال ترحيبًا فاترًا من الطرفين تغافل عنه وهو يتخذ مقعدًا يواجه مكتب "أدهم".. يرفع ساقًا فوق أخرى وينفث دخانه بتلكؤ مثير للحنق:

- طبعا عارفين أنا جاي ليه!..

صمت "آدم" وأخيه الأصغر يعقد حاجبيه ببرود تام:

- مناقصة السلوم بتاعة مجموعة الرفاعي..

- بتاعة الشاطر..

بتر بها "أدهم" استطرادته.. بتر بصرامة قاطعة لا تقبل التفافًا أو جدالًا.. وأردف بحسم كأنما ينهي مقابلة لم تبدأ بعد:

- أنا ما بامشيش صفقات من تحت الترابيزة يا معتز بيه وأنت عارف ده كويس، والمناقصة دي مكسب كبير.. ياخدها اللي يستحقها..

أطفأ الرجل السيجار بمرمدة فضية أمامه على طاولة منخفضة واعتدل بوجه ساخط:

- أدهم بيه أنت واكل السوق، وكذا صفقة قبل كده سيبتها لمجموعة الحسيني بمزاجي رغم الخسارة، سمك صغير بس معلش، السمكة الكبيرة تستاهل إنه يترمي لها طعم..

وضرب سطح المكتب بعنف مباغت:

- السمكة الكبيرة دي بتاعتي وإلا..

- وإلا إيه!..

وازى السؤال نهوض غاضب لم يأبه له الرجل بينما يستقيم في حرب أعين قصيرة:

- وإلا هتندم..

- أنت بتهددني في مكتبي يا معتز!..

غادر"آدم" مقعده محاولًا صنع هدنة بمنتصف معركة مشتعلة:

- الكلام ما يبقاش كده يا معتز، أدهم.. ممكن تهدى وهنتفاهم!..

استدارإليه الرجل بسخرية مستخفة:

- عقَّل أخوك يا دكتور.. عشان أنا ما باهددش؛ أنا بانفذ..

ورحل عن المكان كإعصاربينما بركان يتأجج حد الثورة من خلفه:

- أنت بتراضيه يا آدم!.. مش سامع بيقول إيه!..

اقترب أخيه منه بتوتر:

- سامع.. وعشان عارف إن لعبه مش نضيف قلقان، الموضوع كان ممكن يتحل ونخرج منه كسبانين بالعقل يا أدهم..

الضربة فوق سطح المكتب بهذه اللحظة أتت من كف الثائر وهو يقرر بثبات:

- المناقصة دي بتاعة مجموعة الحسيني..

نقطة أخرى تنهي سطرًا..

وتترك الفرصة لسطر جديد!..

***

هذه المرة كان اللقاء بتعمد منه وليس صدفة قررها القدر..

مر شهران على آخر مرة رآها، شهران طال فيهما تفكيره واتخذ بنهايتهما قراره..

وها هو الآن يضعه حيز التنفيذ..

كان اليوم المتمم لدراستها الجامعية وامتحاناتها، خرجت من مبنى الكلية لتجده بانتظارها.. يبتسم باهتمام لم يخلُ من شقاوة:

- كفارة..

ضحكت بسعادة وخطواتها تتحرك نحوه بتلقائية:

- بتعمل إيه هنا تاني؟!..

أشار إليها ببساطة حد رده السلس:

- جاي لك مخصوص..

وجاوب نظرتها المتسائلة بطلب:

- نتغدى سوا ونتكلم!..

وافقته بيسر.. تبعته لسيارته وفي مكان أنيق يطل على نيل القاهرة بهدوء موجاته أخبرها دون إبطاء:

- عاوزك تحددي لي ميعاد مع والدك..

أخذتها دهشة.. بل صدمة وهي تحدق فيه باستغراب:

- بابا!.. ليه!..

استند بمرفقيه فوق الطاولة بينهما وعبثه يطفو للسطح:

- هو لما واحد يقول لواحدة كده يبقى عاوز إيه!..

لم تفهم فتغضن جبينه بمداعبة ساخرة:

- تؤ تؤ.. كنت فاكرِك أذكى من كده!..

زمت شفتيها بحركة فاتنة تتبعها بعينيه لحظة قبل أن تتبدل نبرته لجدية مباغتة:

- أنا عاوز أتجوزك..

(٣٢)

وضعتك بيدي عُمرًا على عرش العشق سلطانًا..

وها أنا اليوم..

وبيدي..

أُنحيك عن الحكم!..

هو!..

كان يرى النساء كأصناف الفاكهة على تباينها..

شهية.. حامضة وحلوة.. لاذعة وحارة.. شتوية أو صيفية..

وبعرفه يريد تذوقها جميعًا..

هي!..

كانت ترى الرجال...

في الواقع هي لم تكن تراهم قبل أن تلتقي به؛ لذا بات هو النموذج المُقاس عليه..

هو العابث الحكيم.. القديس بدرجة ماجن، والشرير في دور البطولة..

هو من استمال مشاعرها وإن لم تسمِها حبًا، بل فقط نبضة حفر وجوده على خط سيرها فضيع استقامة وتيرتها..

تشتاقه.. ترغب دومًا في حضوره.. الاستماع إليه..

هو اليد التي امتدت لتنتشلها من متاهتها، من هاوية التهلكة الذي أسقطت نفسها بقاعها..

والآن.. هو من يتقدم بعرض زواج مباغت دون مقدمات أو دوافع مسببة فأهداها حق الصدمة والذهول:

- عاوز تتجوزني!..

بسمته العابثة لم تفارق شفتيه بينما يومئ بإيجاب جمدها بمقعدها حائرة..

هزة رأسها أتت مشدوهة شبه رافضة ونبرتها تتخذ منهاج العنف:

- ليه!..

انحسرت بسمته دفعة واحدة ومال فوق الطاولة بحزمٍ جادٍ لا تدري كيف يستحضره حين الحاجة:

- نتكلم بصراحة!..

توجس قلبها..

بل توجس كل ما فيها وهي تخشى كلماته التالية، وافقته بهمهمة متحشرجة فطن لمغزاها فعاد للابتسامة..

ابتسامة هادئة مطمئنة وتنحنح ببطء يستجمع أفكاره:

- مش هاقولك بحبك وأحشر المشاعر في صورة مالهاش مكان فيها..

أتراه استشعر ما بخافقها إليه!.. وهل هذه بداية جيدة يحثها بها على الموافقة!..

- أنا الحب بالنسبة لي رغم إني شفته في كل صوره تقريبًا مش هو أساس أي علاقة، ولا حتى أقوى أساس..

الآن هو يشوه جمال المشاعر بمنطقه الخشن الغليظ:

- باشوفه دايما كاموفلاج.. إطار راقي وأنيق لصورة بتجمع بين راجل وست.. ورغبة!..

شهقت وظهرها يتراجع بحدة، جبينها يتغضن بضيق وهو يشير بيديه مبررًا:

- أنا مش قصدي أشوه الحدوتة الرومانسية اللي بتحلم بيها كل بنت؛ أنا بس باحط النقط على الحروف..

- عاوز تتجوزني ليه يا آسر مادام مش بتحبني!..

خرجت منها بغضب مكبوت ووجنتيها تحمران بسحر فاتن:

- ما قلت لك.. الحب مش لازم يكون أساس كل علاقة..

تراجع لمقعده هو أيضًا ولهجته لا تحيد عن جديتها:

- عندك مثلا والدي ووالدتي.. اتجوزوا من غير حب، وحياتهم ناجحة ومتوازنة جدا..

وأغفل ذكر المشاعر التي ربطت بين قلبيهما بعدها..

أسقطها عامدًا:

- فحكاية حب أفلاطوني، وبحبك عدد نجوم السما والبلا بلا بلا ده.. مش لعبتي..

ألجمتها كلماته تمامًا فتصلب جسدها بجلسته وعيناها متعلقتان به بجمود:

- لسه لحد دلوقتِ ما قلتش ليه!..

- عشان عاوزك..

قطبت بحيرة ونظرتها تخبره بوضوح أنها لم تفطن لمقصده فمازحها بعبث:

- لا أنتِ فطرتِ إيه النهاردة!.. كده هابتدي أشك في ذكائك بجد..

زمت فمها بغيظ جذب عينيه إليه وهو يتأملها بتقييم ذكوري بحت.. بل ووقح:

- هو أي راجل بيعوز أي ست إزاي!..

تفرق جفناها باتساع مبهروزُرقة مقلتيها تتقاذفه بين موجاتها:

- عاجباني.. وعاوزك..

راقبت نظرته تمر فوق منحنيات أنوثتها بتلكؤ ماكر..

تلكؤ لم يشعرها بالتقزز قدر الخجل حد الرغبة في الهروب.. الذكرى تدق ناقوسها بعقلها والكلمات تتردد وتعاد بصدى قاسٍ:

"ماذا تريد مني توني!"..

"أريدك"..

"لا تخافي مني"..

وكانت الليلة التي فقدت فيها نفسها وبرائتها.. الليلة التي دُنست فيها بخطيئة لم تختَرها وإن خضعت ثم استجابت لها..

لمح الجالس أمامها شرودها وفهمه؛ لم يحتج لكثير من ذكاء ليوقن فيما تاهت.. صوته تخلل غيابها برفق:

- عاوزك مراتي يا تاليا..

كأنما قرأ ما خفي بعقلها.. يفنده.. يمحوه، وينبئها بحقيقة ما يريد هو..

زوجة!..

- هو ده المبرر؟!..

تنتزع روحها من التيه بهروب، بصوت حاد وصله رغمًا عنها أبحًا متشنجًا:

- تاليا.. أنا مش تافه ولا حيوان بامشي ورا غرايزي.. ده سبب من ضمن شوية أسباب لكن ما أنكرش إنه سبب مهم جدا بالنسبة لي..

- أسباب؟!..

ابتسم بهدوء ونبرته تعتنق الجدية مجددًا:

- أيوة.. ماهو أكيد في أسباب تانية، زي مثلا إنك جميلة جدا.. ذكية.. طموحة.. من بيت طيب.. باحس معاكِ بانطلاق وحيوية غريبة كأن الحياة بتاخد لون وشكل تاني..

انحنى يستند للمائدة بينهما في مواجهة.. أو ربما هو حصار لم تستطع الإفلات منه:

- كل دي مميزات الزوجة اللي تنفعني..

سكنت بوجوم وجسدها يأخذ وضع منحوتة لا روح فيها..

عيناها تنظران إليه ولا تراه..

أنفاسها تدخل وتخرج بروتينية بطيئة وأفكارها وحدها في حرب دامية..

دقائق مرت لم تعِ عددها ولم يهتم بحسابها عندما قرر منحها كل ما تحتاج من وقت، همهمت بعدها بصوت مذبوح يتخفى أسفل رداء البرود ساعيًا لحفظ ما تبقى من تماسكها.. هي تود البكاء وحسب!..

- نسيت إني مش virgin!..

تنفس بصبر وهو يصل لفتيل اللغم..

إما انفجار وإما نجاة:

- لا مش ناسي.. بس العذرية دي كلمة مطاطة قوي، صعب أختصرها في نقطتين دم ليلة الدخلة..

وقح.. صريح.. جريء، بل فظ بذكورية تبيح له قلة الحياء..

احتقن وجهها بشدة..

لا يدري أغضب هو أم خجل!..

ويبدو أنه كان غضبًا لأنه تحول لثورة بوجهه.. ثورة مكبوتة تراعي المكان:

- والنقطتين دول مش فارقين معاك!.. كراجل شرقي ما بتفكرش فيهم!.. إن في واحد سبقك ليَّ!.. واحد كنت معاه في...

- اهدي..

بتر تسارع أنفاسها وخبال كلماتها بإشارة قاطعة من يده وبكلمة صارمة أخرستها..

صارمة كملامحه تمامًا بهاته اللحظة حد إثارة الرهبة بنفسها..

فالعابث يتقن القسوة إن شاء!..

- العذرية مفهوم أكتر منها تجربة..

- يعني إيه!..

- يعني زي ما قلت لك.. كلمة معناها واسع قوي، مش مقصورة على تجربة جنسية بنص وعي..

عاد لوجهها احتقانه.. كان متأكدًا من خجلها هذه المرة حينما اتخذت من الهجوم وسيلة دفاع وفرار مناسبة للغاية:

- طيب ناسي كمان إني مش بنت مراد وعلا!..

مط شفتيه ينتهج سياسة النفس الطويل:

- المفروض إن ده عيب فيكِ!.. تاليا ماحدش له يد في اختيار أهله..

وسحب الهواء بعمق لحد أشعرها بالاختناق كأنما يمتص أكسجينها.. كأنها تموت في مواجهته:

- مراد وعلا هما الأب والأم في حياتك، ده واقع مالوش علاقة بالجينات..

نعم تؤمن بما يقوله..

لكنه أبدًا غير كافٍ ليدمغها باسمه واسم عائلته!..

قررت إضعاف حججه بحقيقة لا مفر منها:

- آسر.. أنا بنت حرا...

- تاليا..

هل يزعق بها الآن!.. لحد لفت أنظار الطاولات القريبة منهما!..

قطبت بضيق بينما هو يمسح وجهه مستدعيًا صبره من جديد ولهجته تهدأ وتأمر:

- بلاش نعك في الكلام..

جاهدت لتحبس دمعة خدشت أجفانها لكنه لمسها بنبرتها:

- ده مش عك.. دي الحقيقة والسكوت عنها أو الهروب منها مش هينفيها..

مد يده يحيط بكفها فسحبتها منه بحدة.. تنهد وأردف:

- الحقيقة ممكن تتقال بكذا طريقة، مافيش داعي نختار أكتر حاجة فيها بتوجع.. أو تهين عشان نصرح بيها..

دمعتها لم تنحسر نحو نزف روحها، بل أجبرتها على هدرها فوق وجنتها تظهر ضعفها قسرًا وتناوش رجولته:

- آسر أنت عارف عني كل حاجة؛ تفتكر أقدر أتجوز واحد حقيقتي اتعرت قدامه بالشكل ده!..

فكر لحظة جاوبها بعدها بحسم هادئ:

- ده أكتر واحد ممكن تتجوزيه..

ونقر فوق المائدة بأنامله إثر تنهيدة أخرى:

- لأنه عارف وموافق..

- وليه موافق!..

لاحقته بسؤال تمازج فيه الاستنكار بالاستهجان والرفض المستاء:

- قلت لك عاجباني..

أيظنها حمقاء لتصدق على دافعه الوحيد!..

أو الأبرز ربما!..

تود لو نبشت عقله وفندت أفكاره لترى أين تذهب بها!..

رفعت رأسها وسبابتها تمسح العبرة عند أطراف شفتيها:

- مش مبرر كفاية..

راقبها بصمت قصير أخجلها:

- والله المبرر ده يكفيني أنا، كونك مش مقتنعة بيه دي مشكلتك مش مشكلتي..

ثم مال برأسه ناحية كتفه قبل أن يمسك بكوب العصير الخاص به:

- تيا.. أنا مش هاضغط عليكِ، خدي كل الوقت اللي تحببيه وفكري مرة واتنين وعشرة..

ارتشف منه رشفة تلذذ بها في استمتاع غريب:

- عشان لما توافقي يبقى عن اقتناع..

ضيقها طفا على تفاصيل وجهها ثانية وهي تستنكر ثقته:

- أنت ضامن إني هاوافق!..

رفع حاجبًا واحدًا فوق نظرة ماكرة:

- جدا..

لم تأبه لوجهة نبرته أو حديثه بل عاندته بحنق:

- ده غرور ولا شايف إني...

- ما تكمليش.. قلت لك بلاش نعك..

اللعنة عليه..

كيف يقرأها بهذه الطريقة المخيفة!..

كيف يدرك دواخل نفسها ويتنبأ بكلماتها قبل نطقها!..

استطرد هو دون إبطاء بلهجة اختلط مزحها بجديتها:

- شايف إني أستاهل توافقي، شاب مستقبله مضمون وبيدور على نجاحه بعيد عن اسم عيلته اللي بالمناسبة عيلة كبيرة جدا يعني نسب يشرف..

وابتسم برفق حانٍ يهديها أمانًا غريبًا لتتلمس طريقها معه للمرة الأولى وإن كان الظلام والخوف يطوقان روحها:

- عارف عنك كل اللي ممكن تخبيه عن أي حد تاني ومتضامن تماما..

ثم تمم حديثه بغمزة عابثة وأصابعه تعدل من قبة قميصه بغرور:

- وماتنسيش فوق كل ده؛ وسيم جدا..

انتزع منها بسمة..

أجبر شفتيها عليها وهي تحاول مداراتها بلا جدوى خاصة عندما أكمل بنبرة لم تفهمها وقتما أشار لكوب العصير بيده:

- وأهم حاجة؛ بيحب المانجا..

- مانجا؟!..

قهقه بخفوت مرح:

- أيوة.. دي حاجة هابقى أشرحها لك بعد الجواز..

كادت تجزم أن نيته خبيثة وأغراضه دنيئة لكنها فقط لا تستطيع الربط بين الأمرين، رأى حاجبيها المعقودين بتفكير كأنها تبحث عن حل لمعضلة كونية فكتم ابتسامته متظاهرًا بالجدية:

- أنا باشوف الستات فاكهة.. وأكتر فاكهة بتعجبني هي المانجا..

الربط لايزال عسيرًا عليها.. حتى استنارت فجأة عندما أوضح بمجون:

- أنتِ مانجاية في نص الموسم، ألذ فاكهة وأحلى وقت والله..

سبَّته بسرها وأدرك ما فعلت وإن لم تجهر به فضحك منها..

كانت حائرة.. خائفة.. مترددة..

تجهل كل شيء بينما يشرح نظريته وأسبابه ببساطة مثيرة للريبة..

ففي عالم تحيا به: لا تظن أن هناك من هو مثله أبدًا!..

***

في العالم الحقيقي ليس من السهل اقتناص الأمنيات..

لم تكن أمنيته؛ لكنها رغبته..

يريدها بدافع الحماية، السعادة.. والاشتهاء..

يريدها ولا يعول على ذلك بأسباب كثيرة فيكفيه واحد..

عندما علم والداه كانت عثرة..

أبيه صمت بتفكيروأمه صرحت باعتراض:

- متبناة!..

ولأن ذلك لم يكن ليخفى عليهما.. بل هو نصف حقيقتها التي لن يمكنه مداراتها أومأ بإيجاب أثار انفعال والدته:

- لأ.. مش موافقة..

نقل بصره لوالده الذي يظنه أكثر فهمًا للموقف من عاطفة أمومية تحجب عنها كل الأمور العقلانية حين يخص الأمر أطفالها:

- ماما ممكن نتناقش قبل ما ترفضي!..

تتبعت عينيه إلى زوجها وعيناها تطالبان بدعمه ومؤازرته:

- آدم.. أنت موافق على حاجة زي دي!.. هتجوز ابنك لواحدة ما نعرفش عنها أي حاجة!..

صغيرها العنيد تدخل قبل أن يجيب الأب بحزم:

- مين قال مش عارفين عنها حاجة!.. هي متبناة بس اللي اتبناها ده خالها..

وباختصار غير مُخل قص عليهما طرفًا من قصتها..

بدءً من الميلاد وحتى اللحظة:

- يعني هي قالت لك خالها عاوز يصحح نسبها!..

- أيوة..

عاتبته بنظرة كأنما تخبره أنه خيب ظنها به:

- ما فرقتش كتير يا آسر.. بالعكس..

لم يمنحها الفرصة لتعترض قط..

هو يفهم أمه، يدرك مداخلها ومخابئ مشاعرها ونفسها.. ويجيد الضغط على نقاط ضعفها.. وعقلانيتها، أحاط كفها بين يديه برفق هادئ:

- ست الكل.. ماحدش بيختاريجي الدنيا إزاي!..

رمقته بدهشة مستاءة وبمقلتيها احتجاج بتره باستطرادة سريعة:

- طيب أنا كنت محظوظ؛ جيت لقيت إن والدي دكتور جامعي ورجل أعمال مشهور، ووالدتي محامية ناجحة جدا في مجالها..

ثم مط شفتيه ونبرته الجادة تخبرها كم نضج طفلها ولم تلحظ:

- بس الخيارهنا ماكانش ليَّ..

حاولت مقاطعته فرفض مكملًا بتقرير حاسم:

- ولا تاليا كمان اختارت..

وابتسم باهتمام حانٍ بدا غريبًا عليه:

- ورغم كده هي محظوظة بأب وأم زي باباها ومامتها..

- آسر!..

نهرته بوهن أدرك منه أنه وصل لنقطة الضغط المناسبة فواصل استغلالها بلهجة دافئة:

- الحكاية مش رحم بيشيل، الموضوع مين بيكمل ويمشي الطريق بعده..

استقام يهدي رأسها فجبينها قبلتين متتابعتين وعيناه تناشدانها التفهم:

- أنا عارف إن الأستاذة أنضج من التفكير ده..

وعاد لعبثه الماكر بابتسامة لعوب:

- عارف كمان إن يهمها سعادتي خصوصا إن اختياري صح..

استقر بمقعده ثانية دون أن يحرر يدها وأبيه يراقبه بدهشة مستمتعة..

فابنه سيطر على عاطفة أمه بالكلية!..

خاصة مع كلمته الأخيرة كأنما يلقنها ما ستفعله:

- وهتوافق..

- آسر!..

عتاب أخير أكثر وهنًا أيقن منه فوزه فوقف بحماس مبتهج:

- هاحدد ميعاد مع باباها!..

تأرجحت كلماته بين الاستفسار والقرار فتنهدت بقنوط محتج جعله يكرر القبلة وتركض خطواته بعيدًا حتى أوقفتها:

- آسر.. هي وافقت عليك!..

عقبة!..

لم ينل موافقتها بعد.. لكنه موقن منها، التفت إليها برد مموه:

- وهو ابنك يترفض برده يا لولو!..

وهرب هذه المرة خشية تكرار السؤال..

يحيطه بصر والديه حتى غاب عنهما فاستدار "آدم" لزوجته بكلمات غير مصدقة:

- الولد بلفك يا أستاذة..

- آدم..

لامته باستياء أضحكه فأوضح لها السبب:

- ابنك يا لميا..

ابتسمت بحنان..

نعم.. هو يشبهها لحد كبير، وذلك بقدر ما يسعدها لكنه دومًا يشعل بينهما حربًا تفوز فيها مرة وتنهزم بالتالية:

- بس أنا موافق على كل كلمة قالها..

غمغم بها زوجها ببساطة..

كانت تعلم أنه سيوافق، الرجل الحنون الذي لا يكترث بماض؛ سيوافق!..

تحركت تجاوره على الأريكة التي استرخى فوقها وملامحها حائرة:

- هو مش خايف عليها مني!.. ممكن أأذيها أو أجرحها بكلمة لأني مش راضية عن الجوازة دي!..

رفع حاجبيه مستغربًا تساؤلها..

قربها منه يريح رأسها عند نابضه بينما يتمتم قرب أذنها:

- هو واثق في مامته وعارفها كويس..

وصمت لحظة أكمل بعدها بحنو:

- وعارف إنها هتكون أم تانية لمراته..

رفعت عينيها إليه بشك:

- المدح ده وراه إيه!..

انتزع شكها منه ضحكة قصيرة وهو يعيدها حيث كانت وذراعه تحاوط كتفيها:

- بريء والله..

مرت دقيقتان دون حديث..

شرد كلاهما في أفكاره الخاصة..

هي في خوفها وقلقها..

أمه التي تحنو دون قسوة وتتعامل بالحزم بلا إفراط..

من تخشى عليه أن يكون حلقتها الأضعف فلطالما كانت خياراته مندفعة..

أما هو فحول أفكاره لكلمات منطوقة بهمس متضايق:

- آسر هيتجوز.. ويوسف وسما اتجوزوا..

ابتسمت وتتمة كلماته تصلها بحنق طفيف:

- مافاضلش غير صبا..

توسعت بسمتها حتى قاربت الضحكة:

- أيوة.. نعمل إيه!..

- إحنا نخبيها..

بادر بخطة همس بها كسِر حربي مطلقًا ضحكتها عاليًا وهي ترنو إليه ببصرها في عشق خالص:

- الولاد كبروا..

هزرأسه بانزعاج واضح:

- كبروا إيه يا لميا!.. إحنا بقينا جدو ونانا..

- ما تفكرنيش بقى..

واسته ومعه واست نفسها حينما دفنت نفسها بأحضانه أكثر، تاركة لعقلها وقلبها الاندماج معًا..

والعودة حيث صغيرها الذي أوشك على الطيران خارج العش!..

***

قالوا أن الحياة تستمر.. وهي تفعل حقيقة لا مجازًا وربما بطريقة أبسط مما ظننت أو طاف بخيالها..

أنهت دراستها قبل عام، قدمت أوراقها بالخارجية وللأسف ولأول مرة ترسب باختبارما..

لم تهتم كثيرًا للخسارة فقد كانت تضع نصب عينيها خيارات عدة لم يكن أقصاها الانغماس بالسلك الدبلوماسي البحت..

والآن هي غارقة حتى أذنيها بالعمل في إحدى المنظمات التابعة لحقوق الإنسان..

خيارها الثاني..

والدتها تشجعها، والدها يدعمها ويفتخر بها..

وهي ناجحة.. هي امرأة ناجحة تخطت مشاغل القلب بيسر..

أو بعسر..

أم ربما لاتزال تسعى لعبور دربها غير المُعبد!..

لأن الصورة التي أقحمتها صديقتها بمواجهة عينيها على شاشة هاتفها اختطفت من قلبها نبضة غافلة وإن لم يظهر لها رد فعل فوق ملامحها:

- شفتِ بنته!.. قمر.. شبهه بطريقة مريبة..

تأملت صورته لحظات..

دفء اللحظة واللمسة الحانية، الضمة الرقيقة والابتسامة المغرمة..

يبدو أنه يعشقها!..

والتثاؤب الناعم عند فم الصغيرة الأشبه بدمية..

بل أشبه به هو..

- رغم إنه نادر لما بي بوست صور شخصية بس شكله فرحان بيها وبيحبها جدا..

لمست الشاشة بأناملها:

- تتاكل أصلا..

لم تهتم..

أعلنت اللامبالاة وحكمت عليه بالإعدام في محكمة العشق..

ستعدمه من كل دقة قلب خائنة نادته..

ستنهيه من كل ذكرى تحمل عينيه وابتسامته وعقدة حاجبيه..

ستمحوه من على وجه أرض قلبها وإن احترقت هي..

تبًا.. تبًا.. وألف تب..

هو تزوج وأنجب ولم ينظر للوراء، وهي من امتهنت تصريحه بالعشق وآذت فؤاده واستهجنت مشاعره لا تزال باقية على العهد..

عهد رفضته وتعلقت بأذياله قبل الرحيل..

رقصت على سلم العاشقين..

فلا هي انضمت إليهم، ولا هي رحلت عنهم..

زفرت بابتسامة مصطنعة تحجب خلفها كل ضيق.. بل كل صراع ومعركة تحتدم داخلها:

- فعلا شبهه.. ربنا يبارك له فيها..

بنبرة باردة..

لا مكترثة..

وبصر يندفن في أوراق عملها متجاهلًا كل وجع غير مباح..

- أنا مش متابعة حسابه على فكرة.. بس واحدة صاحبتي واحدة صاحبتها عملت لها منشن في الصورة..

وابتسمت بحالمية لم تغِب عنها بعد:

- رغم إنه ساب الكلية من أكتر من سنتين بس لسه نجمها..

تماسكت بعنفوانها المعتاد وبرود نبرتها يطغى على كلماتها:

- أمل أنا ورايا شغل، ماليش مزاج للنميمة دلوقتِ..

غُصت صديقتها بمشروبها وهي تهمهم باعتذار خافت لم تأبه له.. فكل جوارحها كانت تسأل عقلها صاحب اليد العليا في كل حين..

إلى متى ستظل ذكرى النبضة الأولى تخفق باسمه وتتردد بين حناياها لأجله!..

***

هي امرأة تحمل أنفاسها له الحياة..

ابتسامتها إشراقة فجر..

ضحكتها شغف..

قربها لهفة وغيابها توق..

هي امرأة تسرق منه العشق والثورة وتزلزل عالمه وتصنع به الفوضى..

هي امرأة الجنون في ملحمة رجل رصين..

هي بعثرة أفقدته اتزانه..

فتح باب منزلهما بهدوء، أو هي من فتحته فقد كان يحملها بين ذراعيه كما ينبغي لعروس.. خطا للداخل وأغلقه بقدمه، أنزلها أرضًا بابتسامة وحنان نبرته يطوقها حد الغرق فيه.. في عينيه وصوته ودفء احتوائه:

- منورة دنيتي..

تعلقت بعنقه تهدي وجنته قبلة ناعمة:

- أنت دنيتي كلها يا ياسين..

تنهد وقلبه ينبض بصدره حتى ظن أن نبضاته ستخترق جلده لتمر إليها.. استحوذ على خصرها بكفيه وابتسامة ماكرة ينحني بها فمه:

- طيب غمضي عينيكِ عشان المفاجأة بقى..

زمت شفتيها بعناد لذيذ بات يعشقه:

- مابحبش المفاجآت..

- هتحبي دي..

وختم كلماته بغمزة واثقة هزت لها كتفيها بخنوع:

- أمري لله..

استجابت بعناق جفنيها..

ثوان وخرجت منها شهقة عندما عادت محمولة قرب صدره وهمسه يتسلل لأذنها مشاغبًا:

- من غير غش..

ابتسمت ووجهها يغوص بمنحنى عنقه:

- أهو..

تابعت تحركه في منزلهما الصغير بإنصات كأنما تخمن ما يفعله..

لقد عادا من شهر عسلهما للتو.. وهو يباغتها بأمر ما تجهله لكنها تثق به..

أيامًا لا توصف بالسعادة وحسب قضتها معه..

فكلمة سعادة لا تفي بالغرض منها..

سمعت بابًا يُفتح فتركت أفكارها تحلق بعيدًا وأذنيها تصغيان السمع باهتمام تضاعف عندما أوقفها على قدميها هامسًا:

- فتحي..

ببطء أطاعت وعيناها تجولان في الغرفة شبه المظلمة إلا من إضاءة حمراء خافتة ميزتها على الفور كذلك الرائحة والمعدات..

ابتسامتها فاضت بالبهجة عندما قفزت ترتمي بين أحضانه بغير تصديق:

- أوضة تحميض!.. معقول يا ياسين!..

ضمها برفق حانٍ وعمق صوته يسيطر عليها:

- معقول جدا.. أنا راجل كلاسيكي..

وتشددت يداه تحيطان بها قربه:

- وعارف إنك بتحبي الجوده..

تراجعت برأسها تنظر إليه بغموض..

غموض لم يفهمه فزوى ما بين حاجبيه باستفهام أجابته هي ونظرتها تتضح.. بل تتوهج بالعشق وكفها تحيط بخشونة وجنته وتسير منها إلى فكه وعنقه وأطراف شعره:

- أنا بحبَك قوي..

- وأنا بحبِك أكتر..

ثم امتدت يده لتخرج عدة أفلام سلبية من جيب سرواله، رفعها قبالة عينيها بتلميح شغوف:

- إيه رأيك نحمضهم سوا!..

- دلوقتِ!..

ولهجتها تشع بجذل مسرور عندما أومأ بإيجاب صامت..

مضى عليهما منغمسَين في العمل باندماج تام ما يقرب من ساعتين، في نهايتهما قام بتعليق بعض الصور بالملاقط الخاصة على حبال طويلة عبر الغرفة..

بصرها كان يتنقل من واحدة للتالية..

باندهاش!.. فكلها لها تقريبًا..

هنا نائمة بسلام وخصلاتها القصيرة تغطي نصف وجهها..

وهناك تجلس عند نافذة منزل الشاطئ الذي قضيا فيه الأيام السابقة تنظر للأفق بشرود..

تبدو كلوحة أنيقة لامرأة فاتنة..

وأدركت أنه هو من يراها هكذا..

هو من التقط اللحظة وجسدها وحفظها للأبد..

تلك كانت تأكل المثلجات بتلذذ ولم تشعر به يغافلها بصورة..

وبكاميرا عتيقة أخبرها أنها كانت هدية من أبيه عندما قرر التخصص في فن التصوير الفوتوغرافي..

هذه تضحك، تلك تشرب.. وهاته ترقص على نغمات صاخبة عبر هاتفها..

تذكرت تلك اللحظة وقتما شغلت الصوت بأعلى درجة وقامت تتقافز بعشوائية في المكان تحضه ليتبعها..

وتبعها بالفعل بعدما أسر اللحظة بعدسته وغير الموسيقى ليضمها إليه في رقصة هادئة..

ابتسمت ودمعة سعيدة تتعلق بأهدابها.. مسحتها واستدارت نحوه لتجد عينيه معها.. شاغبته بمرح عاشقة تخوض الدرب بطيش المحبين:

- stalker..

قهقه وخطواته تدنيه منها حتى واجهها:

- الملامح دي بكل تفاصيلها.. ببسمتها وشرودها وبرائتها ما تتفوتش..

ولامسها بأطراف أنامله:

- كل لحظة تمر عليها لازم تتسجل..

نبض قلبها تخطى حد المسموح مقتربًا من حدود الألم..

فالعشق وجع مهما كانت لذته..

- ياسين..

تمتمت باسمه بنعومة.. تغيب فيه ويغيب فيها:

- أنا باقول كفاية تحميض النهاردة..

همس بها فتقوس فمها ببؤس طفولي كأنه سينزع منها لعبتها المفضلة:

- ليه!..

دفعها خارج الغرفة بلطف ويده لا تحرر خصرها:

- في حاجات أهم..

تجمدت عند الباب بتذمر:

- لو على الأكل نقضيها ديليفري عادي.. ولو..

حبس تتمة كلماتها خلف شفتيه بلهفة:

- اللي عاوزه مالوش بديل..

وهذه المرة استسلت بخضوع كامل..

خضوع عاشقة بدأت الركض في دنيا العشق..

عاشقة عزمت على الفوز بغنيمة كل عاشق..

وغنيمتها هي؛ سعادتها مع من تحب..

***

الألم ملهم.. كما الخوف تمامًا..

وألمها السابق تمازج بخوفها الحالي ليلهمها الهرب.. الصمت والكتمان..

هي بحاجة لأن تختفي وتلعق جراحها وحدها بعيدًا عن عين كل مهتم وإن كان الأقرب..

عرَض الزواج دون تجميل..

وهبها الأسباب بلا زينة، بصراحة قُحة ألقى الخاتمة بجعبتها وعليها وحدها كتابتها.. والهروب إلى خارج صفحات تلك الرواية الهابطة لم يعد متاحًا..

هي تؤمن بصدقه وحسن نيته..

تمنحه منفعة الشك لأنه يستحقها..

قلبها يدفعها إليه وعقلها يكبلها مكانها بضعف ظنت أنها تخلصت منه..

أتراه يريد لها الستر فقرر أن يكون هو ورقة التوت التي تواري عورة خطاياها!..

أم أنه ببساطة قدم ما قدم بأمانة خالصة!..

بتشتت حائر وازى علمها بغياب أبيها عن البيت طرقت باب غرفة أمها بخفوت متردد.. مع دعوتها لها بالدخول تضاعف ترددها واختلط به رهبة بينما تدفع الباب ببطء، تدلف عبره وتغلقه من ورائها..

تراقب ابتسامة والدتها الحنون واستقبالها الهاش لها بحذر مرتبك، تقدم خطوة وتؤخر الثانية وحيرتها وصلت لأقصاها..

بعد طول وقفتها المهزوزة ونظرة "علا" المتفحصة بتساؤل صامت اندفعت بخطوتين وتصريح مباغت:

- في واحد عاوز يتقدم لي..

لم تنطق أمها للحظات وهي تبتلع الكلمات بتهمل كأنها تبحث عن ردٍ ملائم.. أشارت لها لتقترب وتجاورها فوق الأريكة تاركة الكتاب الذي كانت تقرأه من يديها..

استوت تواجهها بلعثمة:

- آسر قريب طنط سارة..

لم تكمل أكثر فوالدتها أدرى بالتاريخ القصير بينهما..

بقبلة السيارة التي شهدت عليها بقصد منها..

ما تبعها من انهيارات كادت تودي بحياتها.. وإن أودت بروحها..

مدت "علا" يدها ترتشف جرعتين من كوب ماء متروك على طاولة صغيرة جوارها، تتروى قبل الحديث أو السؤال:

- وأنتِ رأيك إيه!..

هل هذا ما يهم!..

تتعامل كأن تلك زيجة عادية وابنتها يخطبها أحدهم فتستعلم عن رأيها!..

- هو ده المهم يا ماما!..

ابتسمت لها بحنو:

- أكيد رأيك مهم، أمال هنجوزك غصب!..

الحنو لم يجدِ مع انفعالها حد الثورة وإن لم تصدح به في زعيق:

- وكل الحقايق التانية هتندفن ولا هنتجاهلها!..

- تاليا..

تعاتبها!..

نعم تنكأ الجرح فهو أبدًا لن يندمل، وإن فعل فمع كل محفز سيعود للنزف..

- آسر عارف كل حاجة..

تفرق جفنا أمها باتساع مصدوم، تبدل لغضب وهي تقبض على مرفقها:

- كل حاجة إزاي!..

استسلمت لضغط أصابعها بدموع صامتة:

- كل حاجة يا ماما.. من الصفر..

- إزاي وليه!..

- أنا قلت له..

- ليه!..

تكرر السؤال بحزم صارم.. بل مهتاج قاس ولأول مرة:

- ما أعرفش.. ضعفت واتكلمت، شاف علامات إيدي وفي لحظة لقيتني باحكي له..

حررت "علا" ذراعها وهي تتراجع بظهرها بإنهاك لتستند إلى الأريكة..

عيناها تلومانها، ملامحها منقبضة بحزن موجوع.. والسؤال ينطلق عبر شفتيها بهمس أبح:

- وعاوز يتجوزك!..

أومأت ابنتها بنعم دون حرف..

عاد عقلها للماضي البعيد..

حيث صديقتها وزميل وزواج بدافع الشهامة..

أتراه يفعلها!..

ما بها هذه العائلة!..

لكنه ليس مثلهم..

قربه السابق من ابنتها يخبر بوضوح أنه ليس مثلهم!..

أم أنها أخطأت الظن وكان ذاك اندفاع متاح لشاب بمثل عمره!..

غرقت في أفكارها لخمس عشرة دقيقة كاملة استكانت لها ابنتها حتى واجهتها بحزم جاد قاطع:

- أنتِ رأيك إيه يا تاليا!..

ارتباك الصغيرة عاد إليها ليعترض طريق الأفكار تخمين باحت به بلا إبطاء:

- أنتِ بتحبيه!..

فرجت الابنة بين شفتيها بحثًا عن جواب لم تجده فأغلقتهما.. وحيرة تامة تحتل وجهها وازت الرد الهامس:

- مش عارفة..

راقبتها لثوان ثم فتحت ذراعيها لها..

باستسلام خانع وضعف تائه استقرت بينهما تتشبث بثيابها:

- طيب هو عاوز يتجوزك عشان بيحبك!..

قلب الأم يبحث عن اطمئنان.. عن راحة في كنف المشاعر، عن أمان يمنحه صك العشق:

- بيقول لي إنه معجب بيَّ وشايفني زوجة مناسبة..

بخلفية ردها تراءت لها نظريته في الحب وأهله..

وبترته من قاموسها للحظة ثم عادت تتعلق بأطرافه، فالحب كما يجرمعه الألم يغدق على القلوب بالأمل..

ربتت "علا" على خصلاتها التي استطالت حتى كتفيها برفق مهتم وعقلها يوازن المعادلة بعيدًا عن أحكام القلب:

- تاليا.. أنتِ موافقة عليه!..

لم تحُزجوابًا شافيًا فكررت بحسم:

- لو موافقة ردي عليَّ عشان أكلم بابا..

تبعثرت نظراتها على كل مكان بالغرفة في ضياع قبل أن تحرك رأسها..

تحركها.. بجواب لا يعني سوى قبولها..

جواب يفيد نعم لبداية جديدة.. فرصة أخرى أهداها إياها القدر!..

***

هي امرأة في العشق؛ تكون أو لا تكون..

في دنيا القلوب هناك حاكم واحد والكل طوع أمره..

الحب!..

تلك الكلمة السحرية التي تجمع بين كل تناقض محتمل..

بقلبها باتت تخلط الألم بالتمسك.. الراحة ورغبة القرب بالقهرواليأس..

وبلا طائل بعد حرب ضروس بالكامن خلف ضلوعها تعود لنقطة الصفر..

هي تعشقه..

كدواء مر لا تستغني عنه..

كهواء تتنفسه ودماء لو غادرت أوردتها لنزفت حتى الموت..

تأملته يطوف الغرفة بالصغيرة الباكية من موضعها فوق الفراش بنصف عين منهكة، يرفعها على كتفه.. كفه تمسح ظهرها برفق وعيناه تهديانها نظرة عابثة:

- بنتك جاية عليَّ بخسارة..

ابتسمت تتأمله بهيام لا ينفذ.. فكل ما فيها نحوه عشق نقي لا يلتف حول المعاني ولا يقبل مترادفات:

- اعترض بقى..

رفع حاجبًا واحدًا يفتعل التذمر:

- هو أنا أقدر!..

طفلته التي ستكمل شهرها الثاني بعد أسبوع، طفلته التي تشبهه في كل تفصيل ضئيل وهام حتى رفعة حاجبيه..

وعندما تفعلها تنال من قلبه بيسر بين كفيها المنمنمتين..

انقلبت "سما" على ظهرها تتمطى بكسل مرهق:

- هاتها بقى ونام أنت..

قطب بضيق حقيقي وازى دهشته:

- نعم!.. أنام!..

خطا إليها بسرعة مال بعدها يسرق من شفتيها قبلة خاطفة ثم استقام عائدًا لتحركه الهادئ:

- مافيش نوم عشان أنا صبرت كتير..

وغمزها بخبث وصوته يخفت حد الهمس:

- بنتك هتنام، والليلة يا عمدة..

انطلقت ضحكتها رغمًا عنها فنهرها بعينيه.. كتمتها بكفها لثوان غمغمت إثرها:

- أنا نفسي بانام أهو..

تثاءبت بلا وعي جعله يهددها ويتوعد بحزم:

- لو نمتِ هاخدك تحت الدش البارد..

- إيه القسوة دي!..

أجاب بإشارة من رأسه كأنما يخبرها أنه سيفعلها ملتزمًا الصمت ومراقبًا تثاؤب زوجته مرتين متتاليتين في إشارة لحاجتها للنوم..

مدللته الناعمة تسهر كثيرًا وتبكي أكثر..

تستكين في أحضانه لوقت قصير ثم تطالب بوالدتها التي تَقَطَع نومها ووصل لحده الأدنى.. أوربما أقل..

رأى أجفانها تتعانق قسرًا فتمتم بتحذيريذكرها:

- الدش البارد..

فركت عينيها تسعى لإفاقة وابتسامتها الواهنة تضمحل:

- خلاص.. صاحية أهو..

دقائق تالية لم تطُل وغطت "شجن" في نومها.. وضعها بمهدها بهدوء وكفه تربت على بطنها لثوان أخرى كأنما يتأكد من غوصها في سباتها..

عاد لزوجته التي يشتاقها بلهفة..

لهفة أصابتها لمسة جليدية فجأة وصورتها تسقط ببصره غارقة هي أيضًا في نوم عميق متعب..

ود لو نفذ تهديده لكنه بالطبع لن يفعل.. يدرك مدى حاجتها للراحة وكل شيء قابل للتأجيل لو أتيحت له الفرصة مرة ثانية..

زفربلا معنى واعتلى الفراش جوارها..

جذبها حانقًا بين ذراعيه كأنما يتعمد إيقاظها فتململت وإن لم تستفِق، همس بأذنها بعدما أزاح خصلاتها بعيدًا:

- عقابك معايا عسير..

ابتسمت..

سمعته وابتسمت، شعر بحركة شفتيها فتحرك بتساؤل:

- أنتِ صاحية!..

تململت مجددًا وولته ظهرها دون أن تغادر ضمته بدمدمة متحشرجة:

- عاوزة أنام..

تهدل كتفاه بيأس ثم قربها منه أكثر:

- ماشي يا أم شجن.. بكرة نتفاهم..

توعدها بنبرة ماكرة نزقة فهمتها فأغمضت عينيها ببقايا ابتسامتها وتركت نفسها لدنيا الحلم..

حيث هناك كل شيء مباح..

في القلب.. والعشق والامتلاك..

***

حينما يتعلق الأمر بالعمل.. هو رجل مختلف!..

كانت خطواته مستقيمة بثبات وخطوات تلك المتدربة تتبعه بانبهار كلي..

فطبيبة الامتياز الصغيرة تؤمن به بطلًا بعد عدة عمليات صعبة ومرهقة تابعتها أو حضرت بعضها معه..

تراه طبيبًا.. رقيقًا مراعيًا ومهتمًا بمرضاه حتى أقصى درجات العناية..

وتشعر به رجلًا.. وسيمًا بعينين صافيتين كسماء سبتمبر قبل بدايات الخريف..

فصلها المفضل..

دخل لغرفة مريضته التي ستجري عملية قلب مفتوح بالغد وابتسامته الرجولية الهادئة تزين شفتيه وتزيده جاذبية، وجدها مستريحة بالفراش في وضع جلوس فحملت نبرته لها البهجة:

- لا ده إحنا زي البمب النهاردة أهو..

ابتسمت والدتها التي تجاور فراشها على مقعد مريح:

- البركة فيك يا دكتور يوسف..

بدأ في إجراءات متابعة سريعة وهو يملي على طبيبته عدة أوامر متتالية دونتها باهتمام وأمها تسأله بقلق:

- أخبارها إيه يا دكتور!..

أهداها اطمئنانًا بلين ملامحه وصوته الرخيم يصلها بدماثة:

- الحمد لله تمام جدا.. وجاهزة للعملية بكرة بإذن الله..

توجه ببصره لمريضته باهتمام:

- ولا إيه يا مدام ندى!..

أومأت برأسها وهي تساوي خصلاتها البنية متغاضية عن شحوب وجهها وضعف نبرتها الحازمة:

- جاهزة جدا..

ابتسم لهما مجددًا وكاد يرحل لولا أن باغتته دموع الأم.. دموعًا صامتة حزينة أعادته لمكانه بينما يشير للطبيبة:

- روحي أنتِ يا بتول، مُري على الحاج شاكر وأنا هاحصلك..

بعد رحيلها التفت للمرأة باهتمام:

- طيب بنعيط ليه دلوقتِ!.. هتبقى كويسة بإذن الله..

والابنة تربت على كف أمها بتعب وتهمس لها دون صوت قبل أن تجيب هي:

- ماليش غيرها في الدنيا بعد أبوها اللي يرحمه يا دكتور..

نشجت بضعف حينما مد يده إليها بمحرمة ورقية:

- كبرتها وراعيتها لحد ما بقت أستاذة جامعية وأنا عايشة عشانها..

- ماما..

تمتمت تناديها في محاولة لمنعها من سرد قصتها الحزينة التي تحكيها للغادي والرائح:

- ده إحنا معانا بطلة كمان هنا بقى..

كانت منه مداعبة تهديها الفخر، مسحت وجهها تجفف دموعها متجاهلة اعتراض ابنتها:

- ورغم كده حظها في الدنيا قليل.. اتجوزت واحد ندل جرحها وطلقها لما عرف بمرضها، من ساعتها وهي كارهة الرجالة كلهم ورافضة تتجوز..

ارتفع حاجباه بدهشة مشفقة والابنة تكرر التوبيخ بلهجة غاضبة:

- ماما من فضلك..

وتوجهت إليه باعتذار:

- آسفة يا دكتور يوسف.. ماما دايما بتحب تـ..

- آسفة على إيه بس!..

أوقفها بإشارة من يده جوار ابتسامته المراعية والأم تتدخل بفضول كأنما تبحث لابنتها عن زوج:

- أنت متجوز يابني!..

وترددت بخجل:

- لو تسمح أقولك ابني..

ربت على كفها باهتمام ورفع بنصره الأيسر لتبرق حلقته الفضية أسفل الإضاءة البيضاء:

- أنتِ تقولي اللي يعجبك يا أمي.. متجوز أيوة..

تضاعف فضولها وهي تفتح فمها بسؤال آخر بترته الابنة بحسم ضعيف:

- متشكرة يا دكتور.. ماما من فضلك محتاجة أشرب..

تطرده وتخرس والدتها ببساطة..

رفع حاجبه لحظة في صمت مقدرًا للموقف، هز رأسه بتحية رحل بعدها وأمها تعاتبها ببصرها بضيق لم تكترث له مغمضة عينيها في انتظار طويل للغد..

بحلول نهاية اليوم عندما عاد لمنزله وجدها بالمطبخ تدفئ له طعامه المتأخر كالعادة.. أحاط خصرها من الخلف ومال يطبع شفتيه فوق كتفها العاري:

- وحشتيني..

أدارت رأسها إليه بابتسامة عاشقة فاقتنص من شفتيها قبلة تائقة:

- عملت إيه النهاردة!..

حررها ليستند إلى السطح الرخامي ويده تمتد لطبق الخضروات فتلتقط قطعة من الطماطم، مضغها بنهم:

- كان يوم طويل، وبكرة أطول.. عندي عملية مهمة ومحتاج أنام.. بس عاوز أراجع ملف المريضة..

اقترب يلثم وجنتها بتقرير:

- وميت من الجوع كمان..

ربتت على صدره برفق حانٍ:

- دقايق وأحط لك العشا..

غادر المطبخ وهتافه المرهق يصلها:

- طيب، هاريح شوية بقى..

إثر انتهائها بحثت عنه فوجدته غارقًا في سبات غير مريح على الأريكة التي لا تسع كامل جسده، إحدى قدميه مدلاة للأرض والثانية مرفوعة فوق المسند..

اقتربت منه تلامس ملامحه المتعبة برقة.. تتخلل خصلاته وتهمس باسمه:

- يوسف!..

همهم دون أن يفيق تمامًا فضغطت كتفه:

- حبيبي.. اتعشى ونام جوا..

فتح عينًا واحدة ثم تمطى بكسل جذبها بعده فوق صدره بمفاجأة:

- عندي اقتراح أفضل..

وكزت جانبه بقبضتها بضحكة مستنكرة:

- والعشا وعملية بكرة!..

تثاءب عندما تشبث بها في حصار ذراعيه:

- إحنا جامدين قوي على فكرة..

تكررت ضحكتها متسللة من بين يديه:

- لأ.. قوم اتعشى وارتاح..

- joy killer..

وازت كلمته نهوضه بتململ وفمه ينحني بتذمر انتزع ضحكتها الثالثة وروحها تغرق فيه أكثر..

هي في غرامه لا تطبق قواعد الطفو ولا تنتظر طوق نجاة..

فطبيب القلوب.. مالك قلبها وحاكمه..

هو سلطانٌ توجته على عرش عشقها..

***

جلسات النميمة لا تندثر في كل زمان ومكان..

وحيث اندمجت هي في عملها كان هو حديث الساعة وزميلتي مكتبها تتهامسان عنه دون تورية:

- هو بس لو يفك المية وحداشر شوية هيبقى قمر..

ضحكت الثانية بخبث:

- ما بيفكهاش.. هو قمر في كل حالاته، وعليه هيبة..

ثم تنهدت بحرارة جعلتها تعقد حاجبيها وهما تجذبانها معهما:

- ولا إيه رأيك يا صبا!..

تبًا..

هي لا تخوض في مثل هذه الأحاديث ولا تحبها.. بل على العكس تبغضها، زفرت بابتسامة باردة:

- أنا اللي يهمني من الباشمهندس عمر الشغل وبس..

نالت سخرية وصلت لمسامعها باستخفاف:

- مهندسة بقى، لازم تبقى بشنب..

كأنهما ليستا مثلها!..

كاد انفعالها يفلت من عقاله مقررة الثورة لولا أن ظهر هو على باب الغرفة المشتركة بتجهم:

- باشمهندسة صبا.. عاوزك في مكتبي من فضلك..

تنحنحت بهدوء، تبعته والفتاتان تطويان رأسيهما في عملهما فجأة حال ظهوره، بمكتبه وفوق شاشة رقمية عريضة ارتكن لطرفها مشيرًا بأصابعه نحو مخططها الهندسي لمبنى حديث:

- إيه غلط في التصميم ده!..

تأملته بتدقيق لثوان قبل أن تقطب بتساؤل:

- مافيش!..

نقر الشاشة بتأكيد جاف:

- راجعي تاني..

أغاظتها طريقته لكنها تجاهلتها وهي تتفحص الأرقام وقياسات الزوايا باهتمام حتى وجدت الخطأ!..

تملك الضيق منها وسبابتها تشير للرقم المغلوط:

- المسافة هنا الرقم معكوس..

عقد ساعديه قبالة صدره بغطرسة:

- أظن عارفة نتيجة ده إيه!.. مبنى بالحسابات دي شهرويقع على دماغ اللي سكنوه..

وتركها عائدًا نحو مكتبه ببرود:

- تقدري ترجعي مكتبك تراجعي التصميم وتعدليه..

كادت تستجيب لأمره دون رد.. لكن خطواتها عاندتها قبل الباب بتوقف غاضب واستدارة حادة:

- باشمهندس عمر؛ لو حضرتك متضايق إن تدريبي معاك أنا ممكن أكلم أونكل زياد يـ...

- أونكل زياد!..

قاطعها ساخرًا فعقدت حاجبيها وهي تردف بتأكيد سمج:

- أيوة.. أكلم أونكل زياد يحولني على مهندس تاني يتابع شغلي..

استرخى بمقعده بهدوء مثير للحنق وابتسامة متهكمة تناوش جانب فمه:

- أونكل زياد هيرجعك ليَّ تاني.. عارفة ليه!..

لم تجبه ولم يثِر فضولها حتى وهو لم ينتظر بل بادر بالتبرير المتعجرف:

- عشان أنا مهندس الشركة الأول وأفضلهم..

كادت تصفه بالغرور في لحظة اندفاع بترها أتى منه بينما يتمم حديثه بحزم:

- ودي خبرة ومكانة وصلت لها بعد جهد وعرق سنين طويلة، مش عشان أنا قريب أونكل زياد..

هل أحرجها للتو!..

اللعنة عليه ذلك المتبجح وعنجهيته الباردة مثله خاصة بعدما صرفها ببساطة:

- تقدري ترجعي مكتبك.. وياريت تركزي في شغلك بدل النميمة والرغي اللي مالوش فايدة..

ولعنة أخرى..

لقد سمع ما دارهناك بمكتبها.. بادرت بدفاع:

- باشمهندس عمر أنا مش..

- عارف إنك مش مهتمة بالمواضيع دي..

أيراها بشارب هو الآخر أم ماذا!..

استند لمكتبه بمرفقيه بحسم نهائي:

- سبق وقلت لك إنك موهوبة يا باشمهندسة، فالأفضل تستغلي الموهبة دي مش تضيعها..

لأول مرة تشعر أنها طفلة تافهة..

وممن!..

من رجل أحمق يمارس سلطته على مرؤوسيه فقط لأنه يمتلكها..

عجز لسانها عن رد لم تكن لتدخره وعيناه تتحديان عينيها في معركة فاز بها حينما دارت على عقبيها بخطوات تدق الأرض.. بسخط..

هذا الرجل يملأها بالغضب، ويومًا ما ستفجره بوجهه!..

***

عندما تجتمع الشياطين؛ احترس.. فربما ينبغي عليك أن تفر من جحيمهم قبل الاحتراق..

راقبه ذراعه الأيمن -كما يسميه- بخبث؛ فاليوم سيتم الإعلان عن الفائز بالجائزة الكبرى.. مناقصة المدينة الجديدة محل المنافسة مع مجموعة الحسيني والتي هدد مالكها إن لم يتراجع عن طريقه فلن يظفر سوى بالندم..

"اهدى يا معتز باشا.. المناقصة في جيبنا وأنت عارف"..

توقف بمكانه باترًا خطواته التي تروح وتجيء بتفكير:

- مش مطمن يا شوقي.. أنا خسرت كتير بس دي لو ضاعت مني هتكون القاضية..

داهنه الرجل بلؤم:

- أي خسارة تتعوض يا باشا.. ده أنت معتز الرفاعي بجلالة قدره..

سخر بابتسامة محتقرة وهو يدرك مقصد مساعده ومكر مسعاه:

- باقولك القاضية.. أنت عارف أنا خسرت كام مناقصة قدام الحسيني!..

نفى "شوقي" بهزة رأس فأتاه جوابه صادمًا:

- أربع مناقصات بملايين.. لأ، بربع ملياريا شوقي..

اقترب من رجله بصرامة ونظرته المشتعلة ترعبه.. بل تحرقه:

- يعني دي لو ما كسبتهاش قول على المجموعة السلام..

تنحنح المساعد محاولًا استعادة رباطة جأشه:

- في جيبنا يا معتز باشا..

تلون وجهه باحتقان غاضب وأسنانه تطحن بعضها البعض بقسوة بينما يدمدم من بينها بخفوت مخيف:

- لو الحسيني كسبها؛ هاندمه عمره كله..

قبل أن تكتمل كلماته ارتفع رنين هاتفه بالمكالمة المنتظرة.. أجابها بلهفة انطفأت مع تغضن ملامحه وتحولها لبغض تام..

لقد خسر!..

تشددت أصابعه حول الهاتف بعنف ألقاه بعده نحو الجدار فحوله أشلاءً مبعثرة أسفله..

لم يصرخ أو يعلن عن هياجه بكلمة واحدة..

فقط تناول من جارور مكتبه هاتفًا آخر، أجرى اتصالًا قصيرًا بأحرف محدودة لم تحتمل تكرارًا أو إيضاحًا..

"نفذ"..

وفي لعبة الشياطين؛ لا تنتصر الملائكة!..

***

يقال أن المرأة لا ترى عادةً ما يصنعه الرجل من أجلها؛ وإنما ترى ما لا يصنعه.. والرجل لا يصنع ما تريده المرأة من أجلها؛ وإنما من أجله..

هي امرأة في العشق لا تُفاوِض، وهو رجل.. معشوق فَوَّت فيه كل اختبار..

فوت التلميح والتصريح..

السر والعلن..

الاعتراف والإنكار..

فوت اللفظ والمشاعر واكتفى بفعل لا يجهر بعشق، بل يجهر بكونه رجلًا كما ينبغي أن يكون الرجل..

زوجًا عطوفًا راقيًا وحنونًا.. ملجأ أمانٍ وسكنٍ لزوجته..

هي تبذل في سبيل عشقه القلب والروح والجسد.. وهو يغترف من مخزونها ظنًّا بأنه لا زوال له، أتراه شارف على النضوب!..

هل أمنيتها بامتلاك قلبه جشع!.. طمع.. فيما يمكنها الاكتفاء بما تحوز بالفعل!..

هل يمكن لعاشقة أن تمنح وتعطي وتغدق عليه عشقها في كل لحظة ويقابل هو ذاك العطاء بلا شيء!..

وإن فعلت فإلى متى!..

حد الاستنزاف والانتهاء!.. أم حد التخلي!..

والخروج من تلك المعادلة بخسارة موجعة لكنها تظل في حيز الاحتمال!..

ذاك السؤال تردد بذهنها طيلة أيام طويلة مضت.. إلى متى!.. أنال منها القنوط بعد أم مازال في الروح بقية من أمل!..

أسئلة سرمدية لا تدرك مستهلها أو إلى أين مصيرها.. أسئلة تطفو بعقلها وفؤادها الذي فاق الوجع حدود تحمله فركن لموطنه بين ضلوعها بوهن خانع، منطويًا على نفسه خاضعًا لجروحه..

أسئلة حجبت عن شفتيها كلمة عشق لم يسأل هو عنها طوال أشهر منذ أتت ابنتها لتربط بينهما للأبد..

راقبته يهزم توأمها في لعبة "بلاي ستيشن" قتالية.. يضم قبضته بانتصار وينتشي بفوزه:

- قلت لك ما تلعبش مع الكباريا بني..

رمى "آسر" ذراع اللعب من يده بحنق مشاغب:

- هم فين الكبار!..

ضحكت فرفع زوجها حاجبه بتأمل متوعد لها.. وأخيها يطلب منها باستعطاف حزين:

- باقولك يا سمسمة أخوك واقع، مافيش ساندويتش محشي ولا رغيف مكرونة بالبشاميل!..

ضحكت ثانية بموازاة وقوفها.. تحركت لتترك صغيرتها بين ذراعي أبيها ببساطة:

- بس كده!.. أنت تؤمر..

والزوج تلقف ابنته والغيرة تتسلل لملامحه المغتاظة:

- وكوباية عصير مانجا بقى من إيديكِ الحلوة..

أومأت موافقة قبل رحيلها.. استدار "مروان" لابن عمه باستهجان وهو يُجلس ابنته التي أتمت ستة أشهر قبل أيام فوق قدميه.. ثم يعيد بدء اللعبة:

- أنت جاي تشغلها!..

أمسك "آسر" بذراع اللعب ثانيةً واستعد للفوز هذه المرة ونبرته تثير حنق زوجها أكثر:

- أختي يا عم..

مع كلمته التفتت له الصغيرة بمناغاة لطيفة مسَّت قلبه فمد يديه يحملها عنوة.. يداعبها ويقبلها ويدغدغ معدتها وشفتيها تنفرجان بضحكة بريئة لحركات ملامحه البلهاء..

تكتنف الغيرة الأب فيعيدها لأحضانه قسرًا:

- قوم يا بني روح.. ليلتك دي مش هتعدي على خير..

عندما حاول المكابرة وجده ينهض ويدفعه نحو باب المنزل، هناك لاحقته شقيقته بدهشة مستغربة:

- الساندويتشات!..

رسم على شفتيه قوسًا بائسًا وهز رأسه:

- جوزك طردني..

ثم رمقه بنظرة مغيظة وفمه يلتوي بخبث:

- بكرة أتجوز ويبقى لي بيتي ومراتي حبيبتي..

ابتسمت هي بحنان والآخر يرفع حاجبه كعادته بسخرية:

- كمان أسبوعين!..

- أيوة..

- لقيتوا الفيلا اللي كنتوا عاوزينها!..

جاوبها بموافقة سريعة:

- مامتها كانت عاوزاها قريبة منها فجبنا فيلا صغننة كده جنبهم..

تضاعف حنو بسمتها وهي تدنو منه أكثر:

- ألف مبروك يا حبيبي..

غيرته تتأجج بل تحرقه فتحرك قربها:

- يلا يا عريس.. بالسلامة..

تناول "آسر" شطيرتين من الطبق الذي تحمله وارتشف كوب العصير كاملًا دون التقاط أنفاسه، مسح فمه بمحرمة ورقية وغمزها في طريقه لتقبيلها:

- والله أنتِ أعسل أخت في الدنيا..

لم تكتمل القبلة أو حتى اللمسة عندما اصطدم بجسد "مروان" الذي وقف حاجزًا بينهما:

- إيه!.. عاوز بوسة من أختي..

- لأ.. ماعندناش..

لوى جانب فمه بتذمروحاجبيه ينعقدان موجهًا حديثه إليها:

- طيب تعالي أنتِ بوسيني..

غادرت مكمنها خلف ظهره بخطوات ثابتة، تقبل وجنة توأمها ثم تضمه..

تتعلق بعنقه في احتياج استشعره وإن لم يدرك كامل تفاصيله..

احتياج لم يرَه وحده!..

بل قبض قلب ذلك الواقف ورائها وبين ذراعيه طفلتهما فتغضن جبينه يداري انفعاله:

- بقى كده يا أمينة.. بتكسري كلمتي!..

لم تبتسم أو تحرر نصفها الآخر وجفنيها ينعصران تكبت عبرة لا يباح لها سقوط:

- لو عاوزاني أبات معاكم النهاردة ماعنديش مانع..

ويده تربت عليها باهتمام حانٍ.. مع مزاحه ضربت كتفه وأبعدته تخفي وجهها عنه وتطرده كذلك:

- خلاص امشي..

أغلقت الباب بهدوء بعد ذهابه وارتد بصرها لمن خضع له القلب..

ارتد إليه يحتويه بعشق كمرض عضال لا شفاء منه..

انحنى فمه بمكرويديه تهدهدان ابنته بتلقائية:

- إيه!.. أنيم جوجو الصغيرة!..

كأنما لم يهمس بسؤال عابث.. بل كأنها لم تسمعه وقدميها تقتربان منه خطوة:

- بحبك..

ارتفع حاجبه وخبث عينيه يتلكأ عند شفتيها:

- يعني أنيمها..

قرر باستمتاع محاولًا تخطيها إلى الغرفة.. وباغتته بقطع طريقه!.. حدق في وجهها باستغراب.. هناك شيء جديد يجهله، ويخيفه!..

- أنا بحبك يا مروان..

كانت مختلفة.. بلهجة مغايرة..

كانت اختبارًا سيرسب فيه بلا وعي أو انتباه..

صمت لحظة يستوعب نبرتها المناقضة لكلمتها، تحديها للفظ وتكراره، حدقتاه تتحركان بعشوائية حائرة وسعيه الحثيث في البحث عن جواب.. فشل!..

- ما هي لازم تنام الأول..

خرجت منه مرتبكة..

وأول تجربة ترصد فيها ارتباكه وعجزه عن الرد.. جمود جسده وتشنجه وتوتر بؤبؤيه.. كررتها بعد تنهيدة حارة تكبت بها دمعة لمعت بين جفنيها، تحجبها بجدار تماسك تختبئ بظله:

- بحبك..

تفرقت شفتاه تفتشان عن مقابل.. وانتظرت!..

تقوستا لثوان ودارتا في دائرة الصمت المفرغة..

عقله لم يهدِه لجواب وقلبه يلومه ويخاف.. يرتعب بين جنبيه فلم يملك سوى التشبث بجسد صغيرته يستمد منها ثباته وهمسه باسمها لا يكاد يُسمع!..

أحاطته بعينيها في نظرة عاشقة.. دافئة، بدت لبصره أشبه بلحظة إسدال الستار..

اقتربت خطوتها الأخيرة تدرك وصولها وحدها لخط النهاية..

لن ينطقها..

لا يشعر بها ولم تستحوذ عليه؛ لن يصرح بها كاذبة..

هي امرأة تتقن قراءته، بل تحفظه كخطوط يدها..

وهو رجل لا يجيد ارتداء الأقنعة..

وما ظننته في البداية ممكنًا ببعض الصبر، تيقنت الآن من كونه شاق عليها وعلى قلبها الذي عشقه دونه، بداية الأمر كانت اختيارها.. والنهاية قرارها:

- طلقني.

(٣٣)

الحب وجع..

لذة..

هروب..

سقوط..

أحجية..

فخ..

امتلاك..

ضياع..

الحب قسوة لا تهدهد القلب بل تعتصره بقبضة لا ترحم..

الحب أحيانًا.. نهاية!..

أعلنت عليك العشق..

عنوان رواية حالمة، رومانسية مارس البطل فيها دور الفارس العاشق حتى النخاع..

مطاردة.. قرب.. امتلاك.. استحواذ..

بسيطرة وتسلط، بعاطفة ناعمة ومشاعر نارية.. وشيء من الامتلاك الحسي الذي يدغدغ الأنوثة..

عندما قرأتها مرت فوق سطورها وبعينيها سقطت مكان بطلتها..

ثم جسدت وجهه هو بدلًا من ملامح البطل..

عاشت معه ثلاثمائة صفحة من الجنون وغرقت بغرامه أكثر أكثر..

وهكذا بين دفتي كل رواية، كان هو فارسها وهي فتاته..

هو من يقاتل لأجل نيلها، وهي من تتقبل تلك الحرب على أرض روحها وقلبها..

حتى أتت لحظة الحقيقة..

الواقع الذي ملَّكته فيه منها ومن كل ما فيها..

فكانت سقطة أخرى..

هذه المرة.. سقطت العاشقة من فوق الغيمة، ودقت عنق عشقها السرمدي.. لقد كتب المؤلف لروايتها الخاصة نهاية لا تمت للشاعرية بصلة!..

ثارت.. تألمت.. استسلمت.. تباعدت واقتربت، ثم حطمت الوردية طوق العشق..

تركت الحلم واستفاقت على الكابوس..

معشوقها لا يبادلها عشقًا بعشق!..

وربما أبدًا لن يفعل..

معشوقها يغترف من مخزونها بلا تمهل، يستخلصه لنفسه.. يسعد به، يطالب أحيانًا ويهرب أحايين.. ويصمت..

وفي حرم العشق عندما تصرح به: الصمت قاتل..

الصمت كقبر ظلت تدفن بترابه رُفات غرامها يومًا بعد يوم..

وبهذه اللحظة: كانت توشك أن تردم القبر على المدفون فيه..

غاب عنها ضياع عينيه، صدمته.. خوف نقش تفاصيله فوق لغة جسده الذي يتشبث بالصغيرة كأنما هي طوق النجاة..

كأنما هي تلك الشعرة الواهية.. الأخيرة التي يفترض بها الربط بينهما حتى نهاية الحياة..

غاب عنها عشقها فكسرت قلبها قبل أن يدهسه هو..

في اللحظة التالية تلاشى الضياع وتأجج السعير..

اتقدت عيناه كجحيم مخيف، خلع عنه زي التحضر وهو يستدير بصمت نحو غرفة نومهما، يضع ابنته بمهدها ويتركها مع لعبتها المفضلة.. ثم يعود إليها..

يجدها على وضع انتظار ختامي، فما سبقه قد طال حد الألم والتشبع.. حد الإكتفاء:

- أنا هاعتبر نفسي ما سمعتش حاجة..

قرر بنعجهية تمازج فيها البرود بالصرامة والقسوة.. وبالخلفية شيء ضئيل من رهبة..

هي لم تعد تريده!..

لكن اللحظة لا تتحمل تسلطه، ولا خضوعها بينما خطواتها تدفعها لاقتراب قصير حاسم:

- يبقى هاكررها تاني.. طلقني يا مروان..

لم تلتقط بين الحروف أنفاسًا، أعادتها بحزم زم له شفتيه ويده تمتد لتنغرس بلحم ذراعها دون رفق:

- أنتِ مجنونة يا سما!.. واعية للي بتطلبيه!..

لم تظهر لمحة ألم..

وهل يجوز التعبير عن ألم الجسد والقلب مذبوح!..

رفعت رأسها تواجهه بنظرة اكتمل خواءها بتصميم:

- في اللحظة دي؛ واعية أكتر من الوقت اللي وافقت فيه أتجوزك..

أجادت الضربة..

وخلو نظرتها من كل شيء وجُل عاطفة يخبره أنها ليست هي من عشقته..

غاص بمقلتيها لثوان ولسانه يتعثر برد ثم حرر يدها وابتعد.. تراجع خطوتين يخلل خصلاته بعنف كاد يمزقها، بألم..

ألم طفيف يتسلل لحنايا روحه التي تشعر في هذا الوقت.. بالوحدة!..

وحدة لم يشعر بها من قبل:

- ليه!..

مقتضبة، مختنقة.. مكبوت بها هياج رجل على وشك فقدان استقراره، حياته.. زوجته وابنته:

- حبك بقى بيوجعني يا مروان..

كادت عنقه تلتوي وبصره يعود إليها بصدمة أخرى..

وهي تخلت عنها قوتها التي اصطنعتها فسالت من عينيها عبرات صامتة وازت تحشرج نبرتها حينما كررت كلمات سبق وصرح بها هو:

- الحب بذرة؛ هترويها هتمد جدورها في قلبك وتعيش.. هتبخل عليها هتموت..

جبينه ظهرت به تجاعيد الوجع وكلماتها تصله بغصة مريرة:

- أنا بحبك.. ويمكن لآخر لحظة وآخر نفس هافضل أحبك..

لم يتحمل..

تصرح بالعشق وتطلب الفراق!..

عاد يتملك من ذراعها بغلظة أشد تجاهلتها وهو يكاد يصرخ بوجهها ويكبت صراخه لأجل طفلته:

- وفين المشكلة!.. فين المشكلة إنك تحبيني!..

متوقعًا منها الصراخ..

لكنها لم تكبته، انحشر بحنجرتها التي غادرها صوتها ضعيفًا، حزينًا مكسورًا:

- المشكلة إنك ما بتحبنيش..

امتهان القلب أكثر وجعًا من امتهان الكرامة.. هي أنثى، والعاطفة عندها تغلب كل انفعال ممكن.. تقهر كل خوف، أو تسببه!..

تشددت أصابعه حتى آمنت أنها ستترك أثرًا:

- وهو لازم عشان نجاح علاقتنا نحشر فيها المشاعر!..

- علاقتنا دي أنا وافقت عليها عشان مشاعري.. مش هاجي في لحظة وألغيها منها..

ولم تستطع..

في ثانية لم يمكنها تحمل قربه أو عينيه فانتزعت نفسها تنأى عنه بكل وجه متاح، ولَّته ظهرها وحيرته تطوقها بتعب:

- سما.. أنا باحاول أسعدك على قد ما أقدر..

اقترب يجهر بشيء ما في قلبه هو:

- وسعيد معاكِ.. أنتِ وشجن بقيتوا دنيتي..

ثم مد يديه بتردد يحيط كتفيها عساها تعود:

- فليه نضيق الزاوية اللي بنبص منها للدرجة دي!..

انتفضت مبتعدة تهديه ألمًا إضافيًا زم له فمه وأغمض عينيه:

- ليه نختصرها في مشاعر أو كلمة حب!..

- ما كنتش أعرف إنك قاسي وأناني كده!..

فرق جفنيه يتأملها باستنكار مبهوت:

- سما..

ينهرها ويوبخ فظاظة كلماتها كأنما لم يودِ بها هو لذاك الدرك الأسفل من المشاعر ودون حتى أن يتفضل عليها بالفتات:

- عاوز تعرف ليه!..

مجردة من كل وعي علا صوتها، هي تموت في مواجهته وهو لايزال على لامبالاته.. بل غفلته عنها:

- عشان علاقتنا دي ماينفعش تتبني على حب من طرف واحد..

وأصابعها تتسلل نحو صدرها، تربت على خافقها النابض بقسوة، أناملها تنغرس هناك كأنما تسعى لإيقاف نبضاته:

- لأن الحب ده موجود جوايا أنا، بس جواك أنت مافيش صدى ليه..

وانهار جسدها فوق أقرب مقعد، بل انهارت بالكلية..

تهدلت كأنما كل ما يقيم أودها رحل عنها وتركها وحدها تصارع طواحين العشق فتنهزم في كل معاركها:

- وأنا تعبت..

صمت طويل تعاقبت ثوانيه إثر كلماتها..

صمت لم يسعَ لاختراقه وعجزه يكبله..

هي تستحق أن تمتلك قلبه؛ فلمَ قلبه مغلق دونها!..

هي من أهدته سعادة دنياه، أهدته الحياة وأغدقت عليه باكتماله بها..

أهدته ابنته وقبلها أهدته نفسها وقلبها وكيانها..

ويتكرر السؤال بصدى بارد..

لمَ قلبه مغلق دونها!..

ليس هناك أخرى، لم تعد هناك أخرى.. فمنذ خانه لا وعيه بحضورها وهو يتأكد في كل لحظة من غيابها عنه..

لكن هل غابت عن الفؤاد وإن نحاها العقل بعيدًا!..

أتراها امتصت عشقه كله فلم تترك لغيرها قطرة منه!..

أم أنه خائف!..

خوف رجل أهانه سقوطه في الهوى فقرر ألا يسقط مجددًا أبدًا..

لا..

هو رجل لا يخاف، وهي تستحق.. هي لن تجرح أو تؤذي..

هي تستحق..

وهو ملعون في أرض عشق لم يستطع إرواء بذرته فسلكت طريقها إلى الموت:

- سما.. إدينا فرصة تانية..

نبرته أجبرتها على نظرة منها..

نظرة أمل تحتوي ملامحه الحبيبة فيها..

نظرة التقت بالتشتت والحيرة والتيه..

نظرة أيقنت أنها لن تجد بتاتًا ما تبحث عنه فهزت رأسها بنفي:

- عارف لو كنت حاسة بأمل إن المشاعر دي تتولد جواك كمان سنة أو اتنين؛ كنت هاكمل..

أوجعها رنين كلمات عشقها المحجوبة عن خافقه، أوجعتها وأهانتها فدمعت بنحيب مكتوم:

- بس.. لأ يا مروان..

واستقامت تدنو منه بتعثر عاشقة انكسرت بعد سقوط مدوٍ في بئر الندم:

- مش هتتولد.. أنت قافل قلبك..

تماسكت بجهد، بأنفاس أقرب للشهيق المتعب منها للراحة، بدموع متجمدة ففيضها بلا جدوى؛ بل يزيد من امتهانها لكرامتها وعشقها:

- بتفتحه لكل أنواع المشاعر إلا الحب..

وأشارت لنفسها بسبابتها ويدها تنطوي عند صدرها المنقبض:

- حبي أنا..

وجعها وصله بكل حرف وقطرة وشعور..

وجعها أوجعه وأشعره باليأس الذي يوازي قنوطها في مواجهته..

كانت تبدو منهكة..

خائرة القوة.. مستسلمة ومهزومة!..

- كل ده عشان كلمة!..

نبرته لم توبخ أو تزعق..

كانت مغموسة بالرفض، الاحتجاج.. التشبث:

- يعني لو نطقتها الدنيا هتمشي؟..

- حاول تنطقها يا مروان..

نبرتها صاغها التحدي والعنفوان المباغت، فهي على يقين من تلعثم لسانه عند تلك الأحرف المحدودة..

واستجاب..

فتح فمه واستجاب..

جاهد، حارب.. قاتل ودماءه أغرقت أرض معركة لم يحارب فيها من قبل، بل ظفر بغنيمتها على طبق من ذهب..

انضمت شفتاه تحجبان الكلمة كقضبان سجن مهجور.. وابتسمت هي بمرارة ساخرة:

- مش هتقدر..

حان منها اقتراب أخير ولمسة لم تكد تمسه بالفعل.. لمسة عند قلبه النابض بتسارع مفزوع:

- مش هتنطقها لأنك مش حاسسها وأنت ما اتعودتش تكذب..

وعاتبته بلوم تنفي فكرته التي صرح بها..

فهي لا تطالب بالسماع..

هي تطالب بالامتلاك.. وذاك ما لن يمنحه:

- وهي مش مجرد كلمة وأنت عارف..

ثم استعارت كلمات إحدى بطلات روايتها المفضلة..

تستدعي قوتها لحظة نطق كلماتها، لحظة اختارت فيها فراق من تعشق..

استعارتها بجمود تنهي به المهزلة، تضع كلمة النهاية.. وتسدل الستار:

- ماحدش بيتسول الحب..

توسعت عيناه بسقوط..

فهو أخيرًا وعى لما يفعله بها!..

هو يعطي ما يملكه لا ما تستحقه.. وما تستحقه ليس لديه، فتش عنه بكل خلية منه.. والمحصلة فراغ أسود ابتلعه وصوته يهتز باسم الرباط الوحيد الباقي:

- وشجن!..

بعدها انقلبت نظرته الخاوية لظلمة، لسخط عليها وعلى نفسه، تحول خوفه لهجوم غاضب كأنما يخبرها عن خيط أقوى من كل المشاعر:

- شجن بنتنا وهتفضل أبوها.. ما تلويش دراعي بيها، مش هتتحمل إن حبي يتبدل يا مروان..

ونالت من حدقتيه رجفة.. رعشة تيه وهي تتمم بأنين:

- يتبدل للامبالاة.. ودي أقسى من الكره..

عناق جفنيها كتب الختام ببحة خانعة:

- هننطلق بعد فرح آسر..

تحركت تتجاوزه نحو الغرفة التي بدأ بكاء الصغيرة يتصاعد بوتيرة منتظمة منها..

تتجاوزه، تتخطاه..

والتخطي لم يكن بحركة الجسد فقط..

بل بعشق قلب وصل للحلم فوجد تفاصيله سرابًا، وروايته بطلها لا تناسبه حبكتها العاطفية.. الرخيصة..

- راجعي نفسك لحد فرح آسر..

كان هو من يسدل الستارهذه المرة..

يسدله بحزم يمنحها الفرصة وهي تراه يبخل بها..

فقلبها اتخذ القراروانتهى..

رمقته بنظرة خاوية.. فارغة تمامًا، نظرة تممت بها الحكاية..

تممتها بخاتمة لن تعجب القراء، ولن يرضى عنها البطل!..

خاتمة حررتها من قيود الوردية وضعفها..

خاتمة قررتها بعيدًا عن واقعية المرأة بتضحيتها الإلزامية.. وقسوتها!..

***

عندما تجود عليك الحياة بفرصة ثانية؛ اقتنصها..

تشبث بها، غامر.. خاطر..

عِش..

فالقدراختارلك الاستمرار؛ وهذه المرة يجدربك أن تجيد تبجيل اختياره..

طلَّت ابنتها عروسًا فاتنة بالثوب الأبيض..

ثوب راق ببساطة وأنيق بفخامة دون تكلف..

تتعلق بذراع أبيها وخصلاتها الذهبية يزينها تاج من اللؤلؤ فبدت كحورية هاربة من كتاب أساطير قديم..

تخطو تجاه الرجل الذي ارتضته لنفسها وارتضاها لنفسه، عيناه متعلقتان بها في نظرة منبهرة.. نظرة رجولية بحتة تقدر ما تراه.. وترغبه..

نظرة أقلقت الأم التي تعلم أن ابنتها لن يمر اليوم عليها بسلام.. لكن ما باليد حيلة!..

انتقلت عيناها لأبيه على الجانب الآخر، يقف بفخر سعيدًا لابنه، وفرحًا بابنتها كما أخبرها بأبوة حانية دون أن يتطرق لماضٍ ناوشت قلبها له فيه مشاعر وأدها هو..

بل كان اللقاء راقيًا مترفعًا عن كل فكرة سابقة، ومتحفظًا وذاك أراحها..

بجواره والدته، امرأة تشع بالعقل والرزانة، الحكمة.. والعاطفة..

امرأة أيقنت الآن أنها تليق به أكثر من غيرها..

وتعود ببصرها لذاك الرجل الذي يقبل جبين ابنتها الآن، يسلمها لزوجها ليأخذ يدها ويلامس جبينها ثم وجنتها بقبلة.. يهمس لها بشيء ما أخجلها..

وابتسمت له!..

هو يستطيع رسم البسمة على شفاهها وهذا كنز لا يقدر بثمن..

كان يومًا خفيفًا ناعمًا تعاقبت ساعاته بسرعة قاسية على قلبها، انتهى بها توصلها للمنزل الصغير الذي انتقته قربها، حتى موعد السفر بعد يومين..

وهناك تركتها..

تركتها وعقلها وكل أفكارها معها حتى زوجها لم يستطع جذبها إليه فاكتفي بتنبيه يرفق بها:

- أنا مطمن يا علا.. آسر فاهم تاليا كويس، مش خايف عليها معاه..

واستعاد ذكرى رفضه لعقد القران قبل الزفاف بأسبوعين..

رفضًا متعنتًا ومخاوف الأمس تغزو اليوم بدنسها، حينها وجد زوج ابنته يخبره بحسم:

- والله يا عمي لو مش واثق فيَّ فعادي، معاك حق أصلا..

كان يمازحه يخفف من توتر الموقف، قبل أن يردف بجدية وعينه تلمع بذكاء وازى حزم نبرته:

- أما لو مش واثق في تيا!..

ومط شفتيه بلا معنى ثم تركه لضميره يؤنبه ويستصرخه عفوًا كاملًا ظن أنه قدمه، ليجد تلك الشائبة السوداء تلوثه بحضورها..

حينها ناداه، أعاده وبحزم أب يوشك على منح ابنته لرجل آخر:

- أنا واثق في بنتي يا آسر؛ مش محتاج حد يقول لي إنها أهل لثقتي..

واقترب يربت على كتفه بقلب واجف:

- خلِ بالك منها، عشان لو زعلتها ماحدش هيرحمك مني..

واليوم لم تعد ببيت أبيها..

لم تعد على اسمه حتى فهي في الأوراق الرسمية الآن "تاليا برادفورد.. الشهيرة بمهران"..

باتت زوجة "آسر الحسيني"..

وببيته..

زوجته التي كانت تقف واجمة، مرتجفة بوسط ردهة الفيلا المكونة من طابق واحد يحوي ثلاث غرف نوم، استقبال حديث ومعيشة مريحة دافئة بتناغم ألوانها الفاتحة.. ومسبح صغير أصر هو على وجوده..

تتصلب جامدة حتى أحاط خصرها بكفيه من خلفها فأصاب جسدها رعشة.. انتفاضة عقد لها حاجبيه وعقله يتفهم ضغط اللحظة، يدرك غيابها في ذكرى!..

ليلة مشابهة وإن اختلفت التفاصيل..

فهو زوجها وهي امرأته..

أحنى رأسه وأنفه تنزلق بنعومة فوق وجنتها إلى عنقها، يتشمم عبقها وشفتاه تهديانها لثمات خافتة شبه محسوسة:

- مبروك يا مانجايتي..

ابتسمت..

بكلمة واحدة خفف توترها بعض الشيء، تحشرج صوتها برد لم تجده فاكتفت بالصمت.. أدارها بين ذراعيه وبصره يطوقها بدفء مطمئن متخليًا عن اشتهائه بهذه الثوان:

- مافيش الله يبارك فيك يا سبعي وكده يعني!..

انتزع الضحكة الخجول ليهتف بالمقابل:

- الله.. هو ده..

حملها يرفعها عن الأرض يدور بها كطفلة صغيرة لينال ضحكة أطول، أكثر مرحًا وخفة.. أنزلها برفق، أنامله تمتد لذقنها تعيد وجهها المنحني إليه:

- أنا أكتر راجل محظوظ في الدنيا النهاردة..

والتقى بعينيها وتلك النظرة المتشبثة هناك تحجم كل رعونة فيه.. لامس وجنتها بظاهر كفه وهمس لها بينما يدفعها تجاه غرفة نومهما:

- هاسيبك براحتك وهاغير أنا في الأوضة التانية..

سحب منامته المهندمة من فوق الفراش جوار غلالة انتقاها بنفسه، عندما سقطت عيناه عليها انحنى فمه بخبث وغمزها في طريقه للخروج:

- أي مساعدة قبل ما أمشي!..

نفت بهزة مرتبكة فحاصرها بمكر يدرك أنها تحتاجه وتنكر:

- والسوستة دي!..

وسبابته تشير نحو سحاب ثوبها الذي يمتد بطول ظهرها، رمقتها من فوق كتفها بتردد همست بعده بنبرة أبحة:

- أوك.. افتحها بس حتة صغيرة..

تحرك يديرها بهدوء:

- صغيرة قوي يعني!..

- آسر..

- خلاص يا عم ما تزقش..

وحرر الزر، وبتلكؤ مثير للأعصاب والجنون بدأ يجذب السحاب ومع كل مسافة قصيرة يتخطاها كانت أنامله تمس نعومة بشرتها برفق..

رفق لم يمنع قشعريرة باردة من امتلاك قلبها وإجفال جسدها بعيدًا عنه بصيحة متوترة:

- كفاية كده..

توقف تبعًا لرغبتها وقتما نطقت بالكلمات وانتفضت بهروب، التفتت إليه ببسمة متشنجة:

- امشي بقى..

مط شفتيه والابتسامة لا تفارق وجهه..

ابتسامة متلونة غريبة تتنقل بين مشاعر متنوعة..

ابتسامة تشتهي، تطمئن.. تحنو.. ترفق، تتخابث وتعبث وتقول ببساطة:

"لا تخافي مني.. أنا زوجك وهناك فارق!"..

ترك لها الغرفة فتأملتها بحيرة، رغم أنها اختارتها بنفسها وقررت تنسيقها بالكلية لكنها تشعر بغربة شديدة..

بوحشة تغرقها بين ظلمة جنباتها..

بمتاهة دخلتها بإرادتها الحرة والآن هي عاجزة عن إيجاد مخرج مناسب..

خلعت عنها الثوب ومسحت زينتها، غسلت وجهها بالماء البارد وعادت لترتدي ما تركوه لها ولمَّح هو بمكر أنه من ابتاعه خصيصًا لهذه الليلة..

طوال فترة خطبتهما التي لم تتجاوز الستة أشهر كان يقترب، يرمي بالكلمات.. يعبر عما بخياله، كأنما يأخذها إليه بهدوء محبب قبل أن يمتلك منها الجسد..

يهدهد خوف روحها التي غابت في ماضٍ عاد ليغزو ليلة عرسها بقسوة حضوره، ليخبرها أنها من فرطت من قبل..

أن جسدها كان قيد سيطرة جسد رجل آخر في ليلة مشابهة دون أحقية..

أن تلك اللحظات التي امتلك فيها عذريتها قبل زوجٍ هو أحق بها لن تنمحي من خيالها ما حيت!..

تجاهلت الغلالة السوداء ضئيلة الحجم وفتحت الخزانة تنتقي منها منامة قطنية بسيطة اللون والتصميم، ارتدتها.. أمسكت بحقيبة يدها الموضوعة بركن الغرفة وتناولت منها شريط أقراص حدقت فيه برهبة..

ابتلعت واحدًا بحلق جاف وذاكرتها تستعيد تنبيه الطبيبة:

- يوميًا من غير نسيان، ولو نسيتِ قرص خديه أول ما تفتكريه حتى لو وقت القرص اللي بعده قرب..

أعادت الشريط للحقيبة ووقفت تواجه الباب برعدة تركض عبر خلاياها.. تفرك كفيها وتخطو للأمام ثم تتراجع..

ظلت على ذات الوضع لثلاث دقائق بترها هو بطرقة هادئة وصوته يصلها:

- تيا!..

فتحه بتمهل يطل من ورائه بنظرة تائقة انطفأت وقتما لمح ما ترتديه..

لمحت غياب حماسه فأشارت خلفها بارتباك بينما يدنو منها:

- آسر.. هو.. أنا..

مس ثغرها المغوي بسبابته بهمس ناعم:

- ششش. مش مهم..

ومال إلى أذنها ونبرته تتحول للعبث الوقح:

- كله بيتقلع في لحظة..

شهقت!..

محاولة تراجعها ألجمها حينما حاوط خصرها يلصقها به ووجهته تتبدل إلى عنقها، يمر فوق بشرتها الملساء بدفء أنفاسه متغاضيًا عن تيبسها باستسلام خانع كأنها تخبره أن ينتهي وحسب!..

أبعد خصلاتها، بتصميم معاند أصر على امتلاك استجابتها..

ابتعد برأسه يستند لجبينها وصوته يحتلها عنوة:

- تيا.. أنتِ مراتي..

همهمت باختناق مرره باستطرادة حازمة تزرع الفكرة برأسها.. بل الحقيقة بروحها وكيانها:

- وأنا آسر.. جوزك..

سارت ببصرها تتبع زري قميصه فياقته، بداية عنقه وفكه ثم وصولًا مرتجفًا لعينيه وهناك أسقطها باحتواء النظرة.. يده تهديها لين اللمسة، وكلماته تشدها إليه بتؤدة..

يتروى.. يلاطف.. يداعب ويفوز بالضحكة والاقتراب المستسلم بعاطفة بريئة مرتبكة..

يحملها للفراش ويزيل من عقلها ومن ذاكرة جسدها كل لمسة مدنسة سبق ومرت فوقه، يبتر الأمس بوجعه المحفور بالروح ويعالج جرح البتر بوجوده هو..

يوقف نزفًا ظل خفيًا حتى رأت نفسها بالقهوة الداكنة التي تفوح بعبق ساحر من مقلتيه..

تراجع دون أن يفلتها بل طواها تحت ذراعه ورأسها تستكين عند نبضات قلبه العنيفة، قيدها إليه وهمسه يطوقها بشقاوة عابثة:

- كان عندي حق لما قلت صاروخ..

قطبت بحيرة، تمتمت بخفوت خجول وهي لا تصدق أنها أصبحت امرأته حتى النخاع، ودون خوف أو رفض:

- صاروخ!..

ضحك متذكرًا اللحظة التي أطلق عليها فيها اللقب وامتدت أصابعه تدغدغها فانتفضت:

- أنت يا أرض جو..

جاهدت لتبعده ولم يحررها، بل تشبث أكثر فلم تستطع إلا ضرب كتفه بحنق لطيف:

- بطل سفالة..

قهقه مبتهجًا ويده تبعثر خصلاتها أكثر:

- يابنتي لو بطلت سفالة مش هنجيب عيال..

أصابها ارتباك مبهم لم يلحظه..

فهي قبل أن تصبح له منعته ذاك الحق دون علمه!..

- باقولك..

قطع شرودها عندما قلبها على ظهرها وأشرف عليها بحاجب مرفوع:

- تفتكري الرادار لقط من أول مرة ولا نحاول تاني!..

تطلعت إليه باستفهام مرددة ما استعصى عليها:

- رادار!..

تملك من عنقها وجانب وجهها بسيطرة راغبة وشفتيه تقرران عنها باستحواذ مشتهٍ:

- أنا باقول نحاول تاني..

ابتسمت وحررت نفسها من حصاره بغتة، تركت الفراش بركض طفولي والشرشف يكاد يسقطها.. ترفض بدلال وخطواتها تتجه إلى الحمام ثم تغلقه خلفها تحت عينيه المشدوهتين..

عندما أفاق من دهشته التوى فمه بعبث وتبعها..

هو رجل يعشق الفاكهة..

وهي امرأة استوائية النكهة، صيفية المذاق..

***

لا أريد أن أحبك ولا أن أنساك، أريد أن أظل أتأرجح على حافة ذلك الوجع الغامض؛ الملقب حبًا..

"غادة السمان"

هناك عشق لا يباح له سوى نهاية واحدة..

البتر..

الاستئصال..

كورم خبيث أنشب جذوره بأعماق القلب وحان لطبيب ماهر نزعه من مكمنه..

انتزعته برعونة، بطيش.. بوجع.. كوشم لا يزول إلا بالكي والنار والدم، رفضته وأبعدته وعقب إتمام زيجة أخيها بيوم كانت بمنزل أبيها بعدما هجرته بعشهما الصغير وتركته وحده في غرفة نومهما نائية عنه مع ابنتها بالغرفة الأخرى..

توأمها علِم وأجل سفرته، والأكبر غاضب منها حزين عليها..

أمها تأملتها بأسى وهزت رأسها في صمت ثم تركتها لقرارها، أما أبيها.. فقد نالها منه هجر!..

لأول مرة منذ عمريخاصمها..

ولأن طاقتها أوشكت على النفاذ حقيقة، والجدال أشبه بدوامة لا تنتهي ولا تجدي.. اتخذت لنفسها وابنتها ركنًا وتوحدت مع ذاتها فيه..

توأمتها تراقبها باستياء مشفق.. وهي تتجاهل الجميع حتى هو، اتصالاته ورسائله..

مالك القلب لآخر الأنفاس..

مسحت دموعها وذراعيها تضمان طفلتها لصدرها نائمة عندما وصل لمسامعها الطرقات المتتابعة على باب الغرفة..

طرقات تميزها وتعلم صاحبها.. انقبض قلبها بين ضلوعها..

فالمدلول تدركه، زوجها أتى..

سيخط النهاية وإن كانت من اختيارها، وقف والدها عند الباب بملامح متجهمة تفيض بالخيبة، استقامت تغادر الفراش، تدثر ابنتها وتقترب منه بخطى متعثرة:

- بابا..

رفع كفه يسكتها ورأسه تنفي رغبته في الإنصات:

- مش عاوز أسمع أسباب أو مبررات يا سما، أنتِ طلبتِ الطلاق وكأن مافيش كبير تلجأي له.. ودي مسؤوليتك لوحدك، هتتحمليها لوحدك..

نشجت بوهن أوجع فؤاده فأدار وجهه عنها حينما أمسكت بيده:

- أنا كنت باموت معاه كل يوم..

التفت إليها بحدة غاضبة:

- يعني إيه!.. كان بيعمل إيه!..

ارتعش فكها والجواب يقف بحلقها دون مرور سلس.. جففت وجنتيها بيدها والأخرى لا تحرر يد أبيها:

- الأذى الوحيد إنه عمره ما حبني، ولا هيحبني..

الدموع التي جفت عادت للسيل وصوتها يتأرجح بين الأنين والهمس المختنق:

- أنا اخترته بقلبي وقدمت معاه كل حاجة فيَّ، وهو اختارني بعقله وقرر إن

ده شكل الحياة اللي هنعيشها سوا..

تغضن جبين الأب وعينيه تستنكران تصريحها العاطفي فدافعت ضد منطق مجتمعي يستكثر عليها عشق من عشقت:

- ما حبنيش، ولما سألته قال لي خرجي المشاعر من حياتنا.. إنها مش مهمة عشان نعيش سعدا سوا..

تطلع لها "آدم" بنظرة غامضة مجردة من كل انفعال يوضح لها ما يدور بعقله:

- بس أنا ما كنتش سعيدة..

ظفرت من جفنه برجفة..

من عينيه عاطفة تعني بها هي.. طفلته، دفنت نفسها بين ذراعيه تصرح باعتراف:

- في الأول كنت حاسة إني ملكت الدنيا، كنت باقول هاعلمه حبي ولو هاسقيه له بالمعلقة.. كنت طفلة لسه عايشة جوا رواية رومانسية من اللي بتقراهم ومتأكدة إن البطل هيحب البطلة بعد فصلين تلاتة..

آلمت قلبه فضمها إليه وكفه تملس على رأسها:

- بس لا هو كان بطل رواية، ولا أنا عرفت أأدي الدور صح..

ورفعت عينيها المغرورقتين بالعبرات المحترقة إليه:

- ما عرفتش أكسب قلبه.. وماعدتش قادرة أكمل..

أخيرًا ابتسم لها.. ابتسامة حانية متفهمة ولائمة:

- ماكانش ينفع تصبري شوية كمان!.. يمكن البطل كان محتاج وقت أطول، والبطلة محتاجة تبذل مجهود أكبر!..

ابتعدت عنه ومحاولاتها الفاشلة لتجفيف وجنتيها لا تتوقف:

- مشاعري كانت بتدبل يا بابا..

رمقها بدهشة حزينة بينما تضرب موطن قلبها:

- فجأة لقيت قلبي بيقسى عليه، بابعد عنه.. باستكتر عليه كلمة الحب..

تسللت حمرة ناعمة لوجنتيها وصوتها يخفت حد الشحوب والأسى والقنوط:

- بارفض قربه وباغير من بنتي اللي هو متعلق بيها بجنون..

ثم توسلت من والدها جوابًا يطمئن روحها الهشة التي تكاد تتهشم لفتات بهذه اللحظة:

- تفتكر منطقي أو صحي إني أغير من بنتي!..

ولأنه رجل وأب فالأمان بأحضانه، ضمها إليه وترك لصمته الرد على أسئلتها وسحبها من متاهة ضياعها..

دقائق أباح لها الراحة فوق صدره قبل أن يهمس لها:

- هو تحت، مع المأذون..

الخبر ألجم حروفها.. ضعضع بقايا تماسها، هزها كزلزال عنيف كاد يهدمها لولا تعلقها بثيابه..

غسلت وجهها فهو لن يرى ضعفها، لن يلمح أثر دموع سكبتها في غيابه منه وعليه..

بصلابة مدعاة شدت قامتها وتبعت والدها تهبط الدرج بشموخ..

كان هناك..

قرب نهايته..

عند أريكة استقر فوقها من سيفرقهما، يتأمل هبوطها وفي عينيه مناشدة صامتة..

مناشدة قررت أنها لن توهن عزيمتها أو تغير فكرها وقناعة قلبها باختياره هذه المرة..

جلست بمواجهته، في ظهرها توأمها وأخيها الأكبر والأب الرافض.. وفي جواره أبيه الذي يحدجها بنظرة عاتبة قاسية أوجعتها..

وبدأت تفاصيل النهاية يرسمها مأذون شرعي كما بدأها واحد..

يخطها بقلم جاف وكلماته تصلهما قبلها بروتينية مملة، عن إعادة نظر.. إعمال فكر، مراجعة نفس..

تشبثت بموقفها وظل هو على صمته..

حتى لحظة الحسم، تلك التي سيرمي فيها بيمين الفراق الذي سيُحرمها عليه ويُحرمه عليها!..

وجم وملامحه ترتبك، فكه يشتد مع مثيله وبصره يتعلق بها لثوان ثم ينتقل لعمه علَّه يشفع له، يراجعها.. ينهاها ويمحو ما بقلبها من صدود:

- عمي.. قول حاجة!..

زم العم شفتيه للحظات صعبة..

لحظات لم تتعدَ العشر، لكنها كانت بعينيه دهرًا طويلًا مخيفًا نهايته معتمة لا يرى منها تفاصيلًا أو يفقه لها معنى..

ختم الأب لحظات تفكيره بدعم ابنته، بيده تستند للمقعد الذي ضمها ونبرته تواجه الزوج بحزم باتر:

- مش هاجبرها تعيش معاك يا مروان..

كأنما أُخذ على حين غرة..

تجهمت نظرته وشفتاه وعرق جبينه النافر ينبض بقوة.. يرنو إليها ببصره؛ يطالبها هي بالتدخل، يطالب قلبها بحسم الأمر لصالحه كما فعل من قبل..

ولم تحنُ عليه..

لم تشِح ببصرها.. لم تهرب أو تفر أو تماطل.. ثبتت لقاء الأعين لمرة أخيرة تتمم الحكاية..

حينها أدرك أنه وصل لنهاية الخط، خسر السباق ولم تكن هناك معركة فهو جندي فرَّ من أرض النزال..

نهض يتأملها، كف والده تدعم كتفه بربتة مساندة..

سرد الموقف لا يتحمل رومانسية رواية.. بل مجرد وصف تراجيدي ضعيف يليق بقلم كاتب مغمور ظن أن في الوردية عامل جذب..

السرد أجبره على الترديد وراء المأذون بصيغة تحرير رسمية..

والحوار قهر صوته بحشرجة عندما انفعل ببساطته العامية موجهًا الخطاب لها وحدها:

- أنتِ طالق..

ولم يبقَ لثانية إضافية..

تسابقت خطواته بعدو إلى خارج المنزل صافقًا الباب من ورائه، عمها يهديها نظرة مبهمة رأت فيها الخيبة، والغضب.. قبل أن يتبع ابنه متجاهلًا نداء أخيه بإشارة مقتضبة:

- مش وقت كلام يا آدم..

استقامت هي بعدما جذت مقصلة النهاية عنق عشقها، تتوجه لتوأمها بضعف وسؤالها يتردد:

- هو عمي زعلان مني!..

لكن الحانق طمأنها بينما يضمها:

- زي ما بابا متضايق من مروان، أيام والأمور هتمشي..

تحملها وصل أقصاه وطاقتها نفذت بالفعل، تركتهم جميعًا عائدة لطفلتها، لغرفة شهدت مولد العشق ومماته..

لذكرى بداية الحلم وجحيم الكابوس..

وجدت الصغيرة مستيقظة بين ذراعي توأمتها التي تمازج بعينيها الحزن بالعطف والضيق، احتضنتها تتشممها كأنما تستجدي عبقه العالق بها..

تقبل حنايا ملامحها المقتطعة من ملامحه..

تبكي..

وتغلق صفحات كل رواياتها، فهي لن تقرأ بعد اليوم..

نظرت لأختها بجسد يابس وروح عالقة عند أطراف رغبة النجاة والاستسلام لمصير زائف بالموت:

- عاوزة تقولي إن كان عندك حق!..

نفت "صبا" وجاورتها على فراشها تربت على ركبتها.. فالوجع مناصفة بين الجسدين الذين تشاركا رحمًا واحدًا بوقتٍ واحدٍ:

- الحب ده نقمة يا سما، خصوصًا لو اتحكم فينا..

انتحبت وكفها تكبت صوتها لا تريد إخافة ابنتها:

- لأ.. لأ يا صبا..

ثم غامت عيناها تستدعي قوة ظاهرية لاتزال تؤمن بالعشق وتتمسك بعقيدته:

- مش ذنب الحب إننا ما بنعرفش نحب..

همستها بشرود واثق قبل أن تنحني شفتاها ببسمة لها طابع ساخر مرير:

- مش هنعمل منه شماعة نعلق عليها أخطاء اللي حبيناهم وكانوا الشخص الغلط، أو نعلق عليها أخطائنا وضعفنا قدامهم..

وتعانق جفناها هربًا من النظرة المؤنبة بشيء من شفقة:

- كانت حدوتة ما ينفعش تبتدي من الأساس، عشان كده نهايتها مش وردية!..

الحالمة تتعلق بأذيال الحلم وإن جرها وراءه وأغرقها بمستنقع قسوة الواقع الذي يدهس أمثالها..

تزعزع إيمانها به قليلًا، لكنها لا تلومه..

بل تلوم قلبها الذي منح الصك لمن كان امتلاكه له مجرد خربشة عشوائية في هامش نص غير مكتمل!..

***

وتخسر ما كنت تظن أنه من المسلمات؛ فلا يعود مذاق أي شيء يشبه ما فات..

بيته..

جدرانه..

ألوانه..

ستائره الشفافة التي انتقتها بذوق ناعم..

أثر عطرها الرقيق الذي يفوح بغموض في المكان..

دمية طفلته التي داسها دون وعي فأصدرت صوتًا ملأ خواء اللحظة..

حطم السكون..

تحرك في المنزل وبصره يطوف فيه بتشتت..

هنا.. كان يعود من الخارج فيجدها باستقباله، حافية القدمين كما تحب.. تقترب بخفة وتشب على أطراف أصابعها لتدفئ برودة وجنته بقبلة يطبعها هو فوق شفتيها..

هناك.. كانت تجلس على مقعدها الهزاز تحمل ابنتهما، تهدهدها بابتسامة حانية رقيقة حتى يظهر بأفق عينيها فيظفر بابتسامته..

وعلى تلك الأريكة كان يتوسد ساقيها، أناملها تتخلل خصلاته، أو يجبرها على سكنى صدره بينما يهزمها في لعبة ما..

صقيع غزا جنبات ما حوله فغض الطرف عن كل ما يستدعي الذكرى بهروب..

فتح الباب عائدًا إلى الخارج وكاد يصطدم بأخويها!..

تفحصه الأكبر باهتمام ضنَّ به الأصغر وعينه تتوهج بغضب:

- بتعملوا إيه هنا!..

دفعه "يوسف" يعيده للداخل ليتبعه هو وأخيه متجاهلًا برودة النبرة وعنف السؤال:

- قلت بلاش نسيبك لوحدك..

وتمتم توأمها بحنق لم يبذل جهدًا في إخفائه:

- عن نفسي كنت هافضل جنبها، بس جراح القلوب قلبه حنين..

- آسر..

- تقدرترجع، ترجعوا أنتوا الاتنين.. هي أقرب لكم مني..

اسمه بتوبيخ من أخيه والطرد المتزمت المتمسك بجليدية اللهجة من ابن العم الخاسر..

والجليد أصاب غضب التوأم باشتعال جعله يجذب قميصه:

- تصدق معاك حق.. هي فعلا اللي المفروض أكون جنبها..

جليد لم يذُب مع اللهيب المتقد بعين الممسك بخناقه:

- مستني إيه!..

نفضه بامتعاض وقرر طعنه في مقتل غيرته:

- مستني عدتها تخلص، وهتبقى في عصمة راجل يستاهلها..

فاز بالجمر المستعر بين جفني ابن عمه بينما يردف بتحدٍ:

- عشان أنت ما تستاهلهاش..

بل فاز بقبضته تجذب ثيابه والثانية تتجه لأنفه في بداية دامية لليلة طويلة..

أوقفتها يد الطبيب العاشق بحزم صارم:

- كفاية أنت وهو بلاش لعب عيال..

ورمق أخيه بنظرة محذرة آمرة:

- امشي يا آسر، أنا غلطان إني جبتك معايا..

أبعد التوأم المتألم لألم توأمته يد الزوج المنكوب بحدة، استدار تجاه الباب الذي عبره قبل ثوان:

- أنا اللي غلطان إني جيت..

غادر وصفعه بعد عبوره بخشونة رجت أنحاء قلب الخاسر قبل جدران المكان..

وجمد الراحل خارجه يتنفس بلهاث..

الأحمق ضيع عاشقته بطرفة عين، حطم بعينيها أسطورة العشق الخالد..

وهو وإن كان لا يؤمن بأفلاطونيته والجانب الرومانسي منه؛ لكنها لاتزال أحد أثلاث مضلع يضمها هي وشقيقته معه، ثلثه التي تتوجع بعد فراق اختارته بنفسها..

مسح وجهه بصبر وزفر بحرارة قبل أن يطرق الباب مجددًا.. يبتسم الأكبر موقنًا من عودته ومتخوفًا بذات الوقت، فتحه فدلف عبره باندفاع نحو الجالس على الأريكة في ركن اعتادت هي احتلاله:

- أنت إزاي توافق تطلقها!..

حدجه من موضعه بنظرة فارغة:

- كنت هاغصبها تعيش معايا ولا إيه يا آسر!..

احتار الثائر برد، قبل أن يزعق بتصريح لا يوجد من يجهله على وجه الأرض:

- بتحبك يا غبي..

- عارف..

واستقام يواجه زعيقه بزعيق مشابه..

يدور حوله نحو باب الشرفة، يزيح الستائر الرقيقة فيكاد يمزقها.. يفتحه ويدلف إليها بحثًا عن أنفاس تختنق بصدره..

يفرق شفتيه ويتنشق الهواء بقسوة تسحق رئتيه كأنما هي لحظاته أخيرة قبل الغرق..

تركاه يفرغ شحنة مشاعر متضاربة تحفر أخاديد التيه بداخله لدقائق، حين عاد إليهما سألهما باقتضاب لامبالي:

- أنتوا جايين ليه!..

اقترب "يوسف" يقبض على كتفه بيد مهتمة، بقلب عاشق.. وزوج يدرك قيمة زوجته:

- أنا جاي أطمن عليك..

أزاح يده بلا تردد وتحرك مبتعدًا.. هو يريد وحدته وحسب:

- أنا كويس.. تقدروا تمشوا..

- مش قلت لك غبي، يلا بينا يا يوسف..

كانت من "آسر" الذي لم يكد ينطفئ غضب ملامحه إلا وأشعله ابن العم بحماقة..

تخطى الاثنين إلى خارج العش الذي كان دافئًا والآن بات قطعة من زمهرير تنشر في روحه صقيع الوحشة:

- خليكم.. أنا اللي هامشي..

وغاب عن أعينهما المدهوشة والمواسية..

غاب بحثًا عن متنفس..

فاللعنة.. هو يختنق!..

***

كل رجل بفطرته الذكورية يظن الكون عند أطراف أنامله..

لذا فحينما تنطبق سماءه على أرضه تحدث الصدمة..

هو منبوذ..

كعاشق.. ومعشوق..

من عشقها رفضته، ومن عشقته تخلت عنه..

رحل عن ولدي عمه إلى الخلاء، اختار أعلى نقطة بالمقطم وصف سيارته في بقعة مظلمة منها، ترجل وجلس فوق مقدمتها مادًا ساقيه قبالة جسده، تاركًا لرأسه حرية السقوط على زجاجها الأمامي..

عيناه تعلقتا بظلمة السماء التي تتسلل إليها دون هوادة..

لا ترحم ضوء النهار الغارب ولا شفقها الأحمر، بل تقسو بعتمتها..

كتلك العتمة التي أحاقت بقلبه في تلك اللحظة، عتمة لا يفهم لها سببًا ويخشى أن يفتش عن واحد يقنعه لمَ تخلى!..

ولمَ تخلت هي!..

مالت شفتاه بشبه بسمة ساخرة.. فعلى من يقع اللوم في معضلة العشق!..

المعشوق الهارب من العشق، أم العاشقة التي تمسكت به!..

هو لم يتخلَ، لم يبخل.. لم يحتج أو يعارض ميل قلبه لها.. لكن قلبه نفسه هو من فعل، من سيطر على الوضع ورفض الغياب فيها، رُغم غياب عقله وأفكاره في تفاصيلها التي لا تغيب عنه..

ود لو تشبث.. أجبرها على العودة.. احتال على الكلمات بكذبة؛ لكنه خير من يدرك أن الغش في العشق أكثروجعًا من نكرانه..

فلو نطقها في غير صدق لكسرها..

أغمض عينيه وحرر أنفاسه بتمهل، ولوهلة حمل له الهواء عبقها!..

ذلك السحر الناعم الذي تتفرد به عن غيرها..

قطب بدهشة وفرق جفنيه يبحث عن وجودها ليواجه حقيقة واحدة..

هي ليست هناك.. لم تعد له، والسحر عالق بذكراه الموجعة داخل روحه وحده..

كسر السكون رنين هاتفه، تأمله بلا انفعال ثم أجاب على أخته بنبرة باهتة:

- أيوة يا ملك..

اعتدل بدهشة فصوتها يصله باكيًا متألمًا:

- ملك.. أنتِ كويسة!..

شهقات.. نداء.. استجداء.. وصمت!..

انغلق الخط ليقفز من فوق سيارته ويقودها بلا عقل عائدًا إليها، ببيتها عندما فتحت له دخل يتفحصها بعينين متوجستين:

- أنتِ كويسة!..

وقبل رد واضح منها أمسك بكتفيها:

- يوسف زعلك!..

يظن السوء بالأخ الأكبر، كأنما يتخيل أن تُرد له صفعة القلب المكسور بأخته!..

لكن ضمتها كانت الجواب..

جذبته إليها تتعلق بعنقه وتجبر رأسه على الانحناء فوق كتفها وهمسها يتخلل أحزانه:

- أنا كويسة..

وتراجعت تلمس وجهه بكفها برفق حانٍ:

- أنت بقى كويس!.. طمني عليك..

أبعدها عنه بغضب فاللعبة لم تعجبه:

- أنتِ بتستهبلي يا ملك؟!..

اقتربت ثانيةً تقدر ما يمر به ويدها تربت على صدره:

- ماكانش في طريقة تانية أخليك تيجي بيها.. لو قلت تعالى هترفض وتسيبني زي ما مشيت وسيبت يوسف وآسر..

ضم قبضتيه والصراخ يعلو بحنايا روحه.. يكبته فيعلو، يرتفع، يصم أذنيه.. ويسجنه بصلابة فيؤلمه، لكم الجدار بهياج وزعقته تجفلها:

- حقي..

- مروان!..

عاد إليها بعينين يستعر فيهما الجحيم:

- عاوز أبقى لوحدي.. حقي يا ملك، مش لازم كل شوية حد يتدخل عشان يطبطب عليَّ.. أنا كويس، ممكن تسيبوني في حالي بقى..

كاد يخرج لولا أن تعلقت به تعيده لأحضانها.. وهو يلهث..

لم يبعدها.. تشنج جسده يخبرها عن صراعه، عن وجعه وخسارة توشك على ابتلاعه:

- ما ينفعش تبقى لوحدك.. ومش هاسيبك تخرج من هنا..

ارتجف..

رجفة سريعة طافت بكل خلية فيه فربتت على كتفه ويدها تمسح ظهره كأنما تمحو عنه الألم..تبتسم وتتراجع لتنظر بعينيه:

- عاملة لك الكانيلوني اللي بتحبه..

عقد حاجبيه لحظة فجذبته ورائها إلى المطبخ:

- ومش هتمشي النهاردة، هتبات هنا وتاكل الأكل اللي عملته وإلا..

ابتسم بمرارة لايزال يغص بها حلقه المتعب:

- وإلا إيه!..

رمقته بنظرة مشفقة وحركت يدها بملعقة خشبية مهددة:

- وإلا ماحدش هينقذك مني..

جلس على مقعد يواجه مائدة صغيرة وابتسامته تنحسر:

- هي كانت ممكن تنقذني..

تضاعفت شفقتها وهي تري زيغ بصره وتيه مقلتيه كأنما يرى طيفها على جدران منزلها:

- ماحدش يقدريحميك مني يا بابا..

وخطت إليه تشعث خصلاته:

- أنا أختك الكبيرة..

رفع وجهه إليها فهالها تلك اللمعة المحبوسة بعينيه..

لمعة دامعة لن يبيح لها هطول..

- مروان!..

- تفتكري أنا ليه ما قدرتش أقولها بحبك!..

طالعته بحيرة، تدرك شروده، حديثه لنفسه أكثر من كونه موجهًا إليها:

- يمكن عشان جربت الحب وانجرحت!..

وخفتت نبرته بتفكير ضائع:

- عشان ماسيبتش الجرح ده ينزف!..

تأملته باهتمام وهي تدرك أن تلك المرة الأولى التي يتكلم فيها عن معشوقة مرت بقلبه فكسرته:

- عيشت دور القوي وشغلت نفسي بمليون حاجة، وقلت عادي!..

وتضاعف التشتت الذي يطويه تحت جناحه:

- خطفت من قلبي الوجع!..

ثم ضرب صدره بقوة أجبرتها على الإمساك بيده فواجه عينيها بسؤال لا يعلم له إجابة:

- منعته حقه إنه يتألم!..

ارتجفت شفتاه لثانية موقنًا أنه يعيد فتح صفحة سبق ومزقها من كتابه:

- داريت الجرح وتجاهلت وجوده!..

سكن..

سكن تمامًا وهي تتأمله قبل أن يسحب يده منها باستنارة مباغتة وازت انتفاضته واقفًا:

- دي كانت أكبر غلطة ياملك..

لم تفطن لمقصده فأوضح بتصريح حزين:

- الإنكار عمره ما كان حل ولا علاج..

تفهمت منطقه فأعادته لمقعده تهدئ نبضه المبعثر:

- مروان.. أنت لسه بتحبها!..

- مش عارف..

- طيب لو شفتها هتعمل إيه!..

- برده مش عارف..

وتعلق بصره بها كأنما يسترشد بحضورها:

- أنا محتاج وقت أفتح الجرح تاني وأنضفه يمكن يخف المرة دي صح..

انحنت تقبل رأسه، تربت عليها وتضمها لصدرها وهو تعلق بضمتها للحظات أبعدها إثرها مفتعلًا المرح:

- فين الكانيلوني!.. أنا ميت من الجوع..

- مروان!..

- أنا كويس..

طمأنها بهدوء..

هو رجل يدرك صلابة كيانه مهما تعرض لكوارث القلب..

لا يحرقه بركان ولا يسقطه زلزال..

هو.. يجيد الاعتناء بنفسه مهما تعاقبت على روحه الأزمات!..

***

الحب حماقة.. لا يسقط فيه سوى البلهاء أو الحالمين..

ومن يسقط لابد أن ينكسر، أيًا ما كانت الدرجة التي بلغتها صلابته تظل الروح حين العشق.. هشة..

توأمتها انكسرت..

وأخيها الأكبر انكسر من قبل..

ومن يدري على من تدور تلك الدائرة العبثية!..

كانت متأخرة بالعمل، فمنذ طلاق شقيقتها قبل أسبوعين وهي تنطوي على نفسها مع ابنتها بملامح حزينة باتت تثير غضبها..

الوردية الحمقاء وافقت على الزواج..

طالبت بالفراق..

والآن هي لا تتحمله وتتعلق بما بقي لها منه..

الصغيرة التي تشبهه..

الحالمة قارئة الروايات الرومانسية جمعت كل رواية قرأتها يومًا في صندوق ضخم، وتركته لأبيها يدفنه حيث شاء..

كأنما تواري حالميتها قبر الأبدية..

وهي قررت الفرار من حضرة شرودها الدائم إلى الانغماس بالعمل، كوب شاي ثقيل اعتادت مذاقه في مواقع البناء وبضع شطائر تسد بها رمق جوعها..

تنكفئ فوق شاشة التصميم العريضة بتركيز، وإصرارها يعاند أنه لن يجد أخطاءً في تصميمها هذه المرة..

على ذكر طيفه بعقلها كان هو يمر في طريقه لبيته عندما وجدها بمكتبها، تلتهم شيئًا ما بنهم وترتشف الشاي الذي لا يستسيغ مذاقه، تنحني فوق تصميم معقد طلبه منها اليوم فقط!..

طرق الباب بهدوء خشية إفزاعها وتنحنح بموازاة الطرقة..

رُغم ذلك انتفضت والكوب يسقط من يدها ليتحطم عند قدميها وهي تلتفت إليه بتوتر.. رفع كفيه يهدئ من روعها:

- أنا عمر..

لهثت لثوان وبصرها يتطلع إليه بخوف امتزج بالغضب من حضوره المباغت، والحسرة على الكوب المكسور خاصة مع رحيل عامل الشركة الذي يحضره لها:

- لسه ما روحتيش!..

نفت بهزة صامتة حينما اقترب يتطلع للمخطط الرقمي الناقص باهتمام:

- الوقت اتأخر..

حجبته بجسدها فتأملها بدهشة وكاد يسأل لولا أن انتبه للطعام المحشور بحلقها..

فابتسم!..

ولأول مرة ترى ابتسامته التي انفرجت لها ملامحه المقطبة على الدوام بينما يردف:

- معلش ما قصدتش أخوفك..

ازدردت اللقمة بعنف وردها يأتيه حادًا:

- ما خُفتش..

رمقها بحاجب مرفوعٍ قبل أن تنتقل عيناه إلى الكوب المهشم قربها على الأرض فعاندت بتفسير يناسبها:

- الصوت المفاجئ بس.. كنت فاكرة إني لوحدي..

- أنتِ بتشربي الشاي ده إزاي!..

- طعمه حلو جدًا على فكرة، عم رزق بيقول اسمه شاي كُشري..

حوارًا بدا لها عجيبًا للحظة، خاصة وقتما ابتسم وهذه المرة شعرت بتهكمه واضحًا بنبرته:

- ما أنا عارف..

زمت شفتيها بضيق، تركت الشطيرة من يدها:

- باشمهندس عمر؛ حضرتك محتاج حاجة!..

أجاب بنفي بسيط وعينه تحيط بها في تدقيق غريب:

- لأ.. بس كده مش هاقدر أروح غير لما أنتِ تمشي وأطمن عليكِ..

ارتفع حاجباها دهشة ثم انعقدا وهي تُصرح بغضب:

- أفندم!.. تطمن عليَّ!..

أشار بيده يخمد نيران حدتها ويتفهمها:

- أيوة.. مش هاسيبك لوحدك في الشركة، ما اتعودتش على كده..

- يعني إيه!..

تنهد وأجاب بسلاسة مغيظة:

- أنتِ ما تضمنيش مين ممكن يدخل المكان في الوقت ده..

- برده مش فاهمة!..

هز كتفيه وبساطة كلماته تثير حفيظتها وتهدي نفسها خوفًا دارته لكنه لمحه:

- يعني أي مكان معرض للسرقة في أي وقت.. وأنتِ لوحدك، فهاستنى لحد ما تخلصي وأوصلك لعربيتك كمان..

- أنت بتهزر!..

- أكيد لأ..

منها مندهشة ومنه جادة..

لملمت أشيائها، انتزعت اسطوانة التصميم من الجهاز الخاص ثم التقطت حاسوبها المحمول وحقيبتها وتقدمت نحو باب الغرفة:

- أوك.. هاروح خلاص وأكمل في البيت..

أوقفها باهتمام عملي:

- لو حابة تكملي شغل هنا عادي على فكرة، أنا مش متضايق..

طالعته باستغراب، انتبهت لأريحية وجهه بهذه اللحظة وشعره القصير.. شبه الابتسامة التي تخط نفسها فوق شفتيه..

ونعم هي شبه فيبدو أنه لا يجيد الابتسامة الكاملة!..

أمال رأسه بحثًا عن رد منحته إياه حينما تحركت تغادر بحسم:

- متشكرة.. هاكمل بعدين..

تركته بخطوات ثابتة سريعة تبعها في صمت..

عندما وصلت لسيارتها والتفتت تفتح بابها وجدته عند سيارته يراقبها باهتمام كأنما يتأكد من سلامتها..

خالط غضبها منه شيء من اطمئنان متعجب..

حيث أنها ترى منه جانبًا رجوليًا لم تعلم عن وجوده من قبل..

جانبًا أعجبها، وأثار استياءها من نفسها..

فمنذ متى تنتبه هي لتفاصيل رجل!..

***

عندما يدرك الرجل أن المرأة خُلقت من ضلعه..

كجزء لا ينفصل وبرباط لا ينفصم؛ يكون قد أضاعها..

أسبوعين انفرطا من بين أصابعه بعدما حررها منه ولم يتحرر هو منها..

هو اعتادها، اعتاد أنفاسها من حوله.. حفظ أدق تفاصيلها، ما فتنه منها وما أغاظه..

بل اشتاقها.. واشتاق صحوته الليلية على بكاء صغيرته وهدهدتها لها حتى لا تزعجه..

منذ الطلاق لم يرها.. امتنعت عنه كأنما تعاقبه بالحرمان..

يذهب لبيت عمه ليتنعم بطفلته بأحضانه فتحضرها إليه توأمتها بابتسامة معتذرة وحجة تتبدل في كل مرة..

يبقى بصحبتها لساعة أو أكثر..

ثم يرحل وعنقه تلتوي في محاولة لسرقة لمحة لها..

لم يعلم أنها بتلك القسوة!..

لم يظن أن الرباط الذي جمعهما بميثاق غليظ وابنة قد ينقطع بطرفة عين!..

لكنها فعلتها وتركته يعاني وحدته ببيتهما حتى أنه رحل عنه قبل أسبوع وعاد لغرفته القديمة بمنزل والده..

ليلة أرق طويلة تتصارع فيها أفكاره ومشاعره.. حرب لا يعلم متى ستنتهي!..

مجزرة ذبح فيها قلبه، وحيرته لاتزال تحاصر أشلائه..

هبط الدرج متجهًا للمطبخ، فتش بالمبرد عن شيء ما ليشربه عندما أضاء المكان وكانت أمه..

أمه التي يتمزق قلبها لأجله وتتظاهر بالقوة، تتماسك حتى لا تعاتب أو تغضب.. أو تضم..

منحها بسمة مبتورة وتجرع بضع رشفات من زجاجة مياه غازية:

- مش جاي لك نوم ولا إيه!..

اقتربت تنتزعها من يده بحرص أم:

- ما تشربش حاجة ساقعة، اقعد وهاسخن لك كوباية لبن..

ضحك بسخرية واستجاب لأمرها:

- لبن!..

ضربت رأسه بخفة ودارت حوله إلى الموقد تشعله:

- أيوة لبن، وما أسمعش اعتراض..

دقائق ووضعت أمامه الكوب على الطاولة، دون نكهة أو سكر.. ثم جلست في مواجهته بعين حانية:

- ليه مش جاي لك نوم!..

مط شفتيه بعد رشفة من الكوب الدافئ:

- يمكن عشان اتعودت تنام في حضني..

أوجعها قلبها فتأملته بحزن حاول محوه حينما ربت على كفها:

- ما تيجي أنتِ في حضني يا جوجو يمكن أعرف أنام..

ابتسمت تنهره برفق:

- كنت أنت اللي بتنام في حضني، كبرت عليَّ ولا إيه!..

أشار لجسده العريض ببديهية:

- هتاخدي كل ده في حضنك إزاي دلوقتِ!..

تركت مقعدها وفي ثوان كانت تدفن رأسه في صدرها:

- أهو يا لمِض..

للحظات أغمض عينيه..

ترك نفسه بدفئها واحتوائها..

بل انغمس فيها أكثر وأنامله تتعلق بطرف ثوبها كأنما عاد طفلًا..

لحظات لم تدُم إلا وأبعدها بمرح مفتعل:

- يعني هتنيميني في حضنك النهاردة..

ربتت على خصلاته، تخللتها برفق:

- لا.. هتنام لوحدك عشان تتعود..

آلمته..

بقصد!..

أو ربما بدون لا يفهم.. عندما عاتبها بعينيه عادت لجلستها بحزم:

- لازم تتحمل نتيجة اختيارك يا مروان..

- ده ماكانش اختياري.. كان قرارها..

- قرارها لأن قلبها انكسر، لأنها حست إنك ما بتحبهاش..

ترك مقعده بحركة حادة وصوته يعلو رغمًا عنه:

- وليه لازم الحب يتحكم بكل حاجة!.. أنا كنت سعيد في حياتي معاها.. كنت فاكرها سعيدة وراضية، بس هي ضربتني في ضهري فجأة.. غدرت بيَّ..

نظرة لائمة وجهتها إليه ونبرتها تتشبث برداء الصلابة متجاهلة حزن قلبها:

- ماتقلبش عليها الترابيزة.. أنت وجعتها قبل ما هي تقرر تهرب باللي باقي في قلبها ليك..

عقد حاجبيه وهي تضرب بغلظة:

- كانت هتكرهك لو كملت معاك.. قولي: كنت هتتحمل كرهها!..

- لا.. أتحمل بعد بنتي وبعدها عني عادي..

واجهته بقسوة صريحة:

- أيوة تتحمل، مادام ماقدرتش تحبها يبقى تتحمل..

صمت وملامحه تنقلب بشراسة لم تخبرها معه أبدًا..

صمت فلا دفاع يملكه وهي شعرت بغضبه وحزنه الذين يقتتلان بروحه فعادت لحنوها الحائر:

- ليه ماحبيتهاش يا مروان!..

سؤال يوازي ضربة على الرأس..

ضربة أفقدته توازنه فسقط بمقعده بينما يطرحه على نفسه بإنهاك ولا يجد جوابًا مقنعًا، إلا في سؤال والدته التالي:

- أنت حبيت قبلها!..

واجه عينيها بدهشة منحتها إجابة صادقة فتنهدت بفهم:

- قصة وفشلت وقررت تتجوز سما بعقلك..

كيف تدرك ذلك!..

- ولأن مشاعرك ناحية سما مش زي الحالة اللي حسيتها قبل كده؛ خرجتها من خانة الحب.. سميتها اعتياد، اهتمام.. رضى.. مش كده!..

تشتته وصلها بكل تفاصيله وهي تفطن لحقيقة غابت عنها..

ابنها عشق وانهزم وعاد وتكررت الهزيمة لكن زاوية النظر مختلفة..

استقام يدور في المكان بشرود أوقفته باهتمام، تفسر له ما استغلق عليه:

- الحب مش قالب جامد غير قابل للتشكيل يامروان..

تأملها بحيرة صامتة..

هو في اللحظة الحالية بات يكره الحب وأهله ومريديه، بل ومن يمنحونه قلوبهم ببساطة المنح ويتعثر غيرهم في الطريق بذنبه:

- الحب بياخد روح اللي بتحبه..

فلسفة عاشقة مخضرمة..

بل سفسطة أنثى عاطفية لن يعاند مع سلطتها عليه، راقبها تقترب.. تواجهه بعين مشفقة مهتمة متفهمة..

تبسط المعلومة المشاعرية كي يتشربها الطالب الفاشل في دنيا العشق بعد رسوبه في اختباركان بمستوى التوسط:

- في حب هادي، حب ناعم، حب مجنون، حب عاصف، حب يوجع، حب قوي، حب جامح، حب متملك..

عقد حاجبيه مكتفيًا بجموده وتنهيدتها تخرج حارة، طويلة وقلقة:

- حب يخطفك، حب يبدل كيانك.. وحب يتسلل لقلبك من غير ما تحس بيه..

كفها كانت تحط برفق عند خافقه تتلمس نبضاته الرتيبة:

- ولما بتحس: بيكون امتلك منك كل حاجة..

أخذته دهشة خاطفة لثانية.. عاد لوضع السكون بعدها..

فلوكان بداخله عشقًا يجهله حتى الآن: متى سيدري به إذًا!..

احتوت وجنته بكفها متجاهلة خشونة لحيته التي استطالت أكثر، ربتت فوقها وقلب الأم ينتفض على صغيرها بلوعة لم تصل لنبرتها المطمئنة بشيء من لوم:

- ما تعممش مشاعرك ناحية البنت اللي حبيتها وتختصر شكل الحب في تفاصيلها..

ثم انتقلت الربتة لموضع الفؤاد الهارب من فخ العشق بجرح:

- راجع قلبك يا مروان..

قالتها وغادرته..

خلفت من ورائها رنينها يتردد بصدى عنيف بجوفه، بروحه وعقله.. وقلبه!..

والحيرة تغرقه في أعماقها أكثر..

***

كل شيء قابل لاعتياده..

القرب.. الفراق..

الألم والنسيان..

الحضور والغياب..

ولو كان عشقًا لكانت بين يديه الآن..

لكنه لم يكن، وربما لن يكون..

استسلم لحياته الحالية، لخوائها وبرودتها..

خضع لوحدته، عاد لأيام خلت فيها أفكاره من كل شيء..

انقضى شهر على الطلاق.. والاعتياد بات أمرًا مسلمًا به..

كان يقود سيارته جوار صديقه بتأفف، حنقه يطغى عليه وضيقه يحتل نبرته:

- عز.. أنت حسابك معايا بعدين على التدبيسة دي..

داعبه الصديق محاولًا انتزاعه من حالة الجمود التي سيطرت عليه مؤخرًا إثر طلاقه:

- يابني والله ماكان قصدي، هو قال عيد ميلاد خطيبتي وأنتوا معزومين وأكد عليَّ أنك تيجي.. أعمل إيه!..

حدجه بنظرة جانبية ساخطة:

- ترفض، أنت عارف إني ماليش في الجو ده..

ربت على كتفه باستسلام:

- معلش بقى، هي نص ساعة نوريه وشنا ونمشي..

زفر"مروان" بحرارة أكبروضيقه يتضاعف..

المكان كان مقهى جديدًا بأحد أطراف المدينة.. الحدث حفلًا صاخبًا يبغض ما يشبهه، والعلاقة صديقًا مشتركًا دخل لحيز أصدقائه منذ أشهر معدودة أخذ الليلة هناك لحسابه..

دلف للمقهى بوجه متجهم وبصره يطوف فيه باستياء.. الموسيقى العالية تكاد تصم أذنيه، الإضاءة المتلونة الراقصة والهدف يقبل عليهما بترحيب حاروحفاوة مبالغ فيها:

- سعادة السفير.. منورنا والله..

صافحه بابتسامة مفتعلة دون أن يخفي ضيقه:

- إيه اللي أنت عامله ده يا فادي!..

ضحك الشاب وهو يربت على كتفه بحميمية لا تليق بعمر صداقتهما القريب:

- الليلة خمرونساء، مش أنت رجعت للعزوبية من تاني ولا إيه!..

وكزه "عز" يوقف اندفاعه:

- مروان مش بتاع الكلام ده..

والقهقهة تتكرر بينما يقود كليهما لركن هادئ خاص:

- ما أنا عارف، باهزر معاه بس.. ها تشربوا إيه!..

أشار لإحدى النادلات فاقتربت تتهادى بزيها القصير الضيق:

- قهوة.. بلاك..

- برتقال..

غمزهما بمكر خبيث بينما ينحني بهمس ماجن وسبابته تشير للفتاة الواقفة بانتظار:

- يعني يبقى في الجمال ده هنا وتطلب قهوة يا سعادة السفير!..

أهداه نظرة باردة تراجع لها بمرح مصطنع:

- خلاص ياعم، ما تكشرش..

التفت يغمزها بأمر:

- قهوة سادة وعصير برتقال يا شاهي..

تبعها مندمجًا بحفله:

- براحتكم بقى، عندي خطيبتي اللي لازم تلاقيني جنبها وإلا...

لم يتابعه كليهما بل انشغل "مروان" بهاتفه، وصديقه يتأمل ما حوله بفضول..

كما لم يره أحدهما عندما تبع الفتاة وبقدح القهوة أسقط قرصين غامضين بهمس صارم:

- نص ساعة وتنفذي اللي اتفقنا عليه..

أومأت بإيجاب خاضع.. اقتربت تقدم القهوة، تنحني بمواجهة المنشغل عنها تظهر نهديها بفجاجة وتتمتم بنبرة تليق بفيلم إباحي:

- قهوتك يامروان بيه..

رفع بصره إليها بغتة ليباغته ما تفعله وانتبه إليه "عز" باستنكار..

تناولها دون أن يكرر النظرة وهمهم بشكر خافت..

ابتعدت عنهما تتمايل بخطواتها وصديقه يوخز ذراعه:

- أنت يابني في اللالا لاند!..

لم يُعني بالتطلع إليه وجوابه يأتيه لامباليًا:

- لأ.. بس المفروض أعمل إيه يعني!..

- عرفني إنك معايا على الخط على الأقل..

ألقى إليه نظرة خاطفة وهو يرتشف قهوته:

- أنا لا معاك ولا معاهم.. أنا باقول أشرب القهوة ونقوم نمشي..

تراجع صديقه باسترخاء في مقعده:

- شوية طيب عشان فادي ما يزعلش..

دقائق أخرى مرت انشغل هو بصور ابنته على شاشة هاتفه، يتصفحها بابتسامة حانية عندما بترتأمله عودتها..

قربها غير المقبول وخطواتها التي تتخطى حد السكوت:

- أي طلبات تانية يا مروان بيه!.. فادي بيه موصيني عليكم..

صرفها بهدوء مهذب:

- متشكر..

استقامت.. وتحركت بتراجع..

خطوة واحدة وتعثرت، لتسقط فوق ساقيه.. ترتمي بين ذراعيه في تمثيلية رخيصة تجمد لها لثوان معدودة..

تلامسه بفسوق بموازاة محاولة فاشلة للتظاهر بالاعتدال:

- آسفة جدا..

وقبل أن يدفعها بقسوة فظة تعالى الزعيق وشخص ما يجذبها، يبعدها عنه.. يهدر بكلمات لم يعِ معظمها، عقله يدور في دوامة غريبة والرؤية أمامه تصبح ضبابية ببطء..

عرق خفيف يتسلل فوق جبينه وشعور بعدم الراحة يتملك منه، يجاهد لينهض ولكمة عنيفة تعيده لسيرته الأولى والكلمات تتضح:

- أنا هاقتلك.. مش كفاية بنشتغل عندكم كمان بتتحرش بيها!..

ضيق عينيه ينظر لمهاجمه محاولًا تفاديه وفهم ما يجري..

كان نادلًا بالمكان يرتدي زيه الخاص، يخفي الفتاة وراء ظهره وينظر إليه كأنما هو وحش على وشك نهشها.. استقام يدلك فكه مبررًا بحزم مهزوز:

- أنت فاهم غلط.. هي وقعت مش أكتر..

وبالركن الهادئ الذي حرص الصديق المزعوم أن يظل محجوبًا عن أغلبية الحضور بدأت مشادة مخطط لها بدقة!..

مشادة انتهت بسلاح ناري بيد النادل يصوبه إلى من يتهمه بالتحرش بينما يصرخ بجنون لم يميز عقل "مروان" المغيب افتعاله له:

- ابقى قول كده في جهنم..

لكن غريزة البقاء تستفيق قرب الموت لتعيد الزمن للوراء..

تقتنص منه لحظة نجاة و"مروان" يندفع بجسده، يقيده.. يحاول التماسك ويضرب يده ليسقط السلاح، ينحني بتشوش ليلتقطه معيدًا تصويبه إليه بلا وعي:

- أنت غبي!.. باقولك ما لمستهاش أصلا.. واسألها..

والفتى يجبن، يتراجع بخوف، يعاند بحذر ويشير بيديه:

- ما كل مرة واحد حقير زيك يعمل كده وتقول ماعملش، خايفة تترفد من الشغل وما نلاقيش نعيش.. ودلوقتِ هنموت ببلاش..

تأمله بضياع وتركيزه مشتت..

بماذا يهذي!..

بعدها بإدراك مفاجئ استشعر ثقل السلاح بقبضته، انتبه لتهديده للرجل.. رمقه برهبة والصدمة تجمده حائرًا لثوان، ألقاه بعنف غير مصدق إلى الجهة الأخرى..

ثم فرك جبينه وبين حاجبيه محاولًا استعادة صفاء ذهنه.. أكد بزعيق صارم:

- أنا مش زي اللي بتتكلم عنهم..

واستدار لصديقه المبهوت:

- يلا بينا يا عز من القرف ده..

وبين اندفاع النادل الثائر تجاهه..

وخطواته التي تكاد تتعثر إلى الخارج..

انطلقت رصاصة..

سقط جسد..

جسدًا احتل الفراغ بينه وبين الطلقة في اللحظة الأخيرة بلا تخطيط ليهبه حياة..

سقط النادل مضرجًا بدماء قانية تتفجر من موضع قلبه بفيض يسلخ عنه حياته..

(٣٤)

حكمت المحكمة..

لحظة!..

القضية لم تُنظر بعد..

الأدلة مُزيفة..

الشاهد زور..

والعدالة عمياء!..

تجنب سم الأفعى فتأثيره قاتل..

لا تكن حملًا وسط قطيع من الذئاب، بل لا تخطُ نحو طريق به ذئب واحد، هو لا يروَض وأنت ستصبح حينها مجرد.. فريسة!..

سارعدوه بقدميه داخل الفخ..

رسم الخطة بدقة ليسقط بين مخالبها فلذة كبده.. وحيده الذي ستنتهي حياته بفضيحة مدوية..

فضيحة ستهبط بأسهم شركات "الحسيني" إلى الحضيض، وربما تنهي حياة الأب كذلك..

وهنأ الثعلب نفسه على مكره بصدر منشرح.. فهو الظافر في كل حال..

أفعى.. ذئب.. ثعلب، وزِد عليهم أنه عقاب جارح يقترب، يهاجم فيقتنص بقسوة ويعود ليرتفع بشموخ..

خطة رتب لها بعد لقائه القصير مع "أدهم الحسيني" الذي لا يجيد لعبة الشطرنج.. السوق يتطلب أن تخسر بيدقًا، قلعة وربما وزيرًا ليعيش الملك، وخصمه العنيد.. يرفض تقديم فروض الولاء في أرض حرب دامية..

الطُعم.. "فادي"..

شابٌ متوسط الحال، يعمل في إحدى شركاته.. أجاد اصطياده ليلبسه ثوبًا لا يليق به، يخرجه من عالم "الرفاعي" لعالم جديد يخصه..

حفنة من الأموال، مكتب صغير وصداقة مخطط لها مع الابن الوحيد لمنافسه..

الخطة بسيطة للغاية، الدخول في زمرة سفير المستقبل، التقرب منه.. دعوة لحفل خاص ماجن بمقهى جديد، قرصين من الترامادول في دمه كافيين لتهدئة انفعالاته وتشويش ذهنه، وفتاة!..

أمام أعين الرائي من بعيد بالركن المحجوب عن الضجيج؛ ابن رجل الأعمال الشهير تحت تأثير المخدر يتحرش بأنثى، خاطبها يتدخل.. يغضب.. يثور، يهدد ووسط المعمعة يُقتل المتحرش..

النادل قبض الثمن مقدمًا بتهمة لن يناله فيها أذى..

الدفاع عن الشرف!..

ثم يفقد "الحسيني" وريث امبراطوريته وليلتقي معه في الجحيم إذًا..

والشهود.. أصدقاء القتيل..

"فادي" دميته..

"عز".. الصديق الذي وجد ورقة الضغط المناسبة له بفيديو خاص.. حيث هو وعاهرة مدفوعة الأجر وفراش..

فضيحة كارثية تنتظره لتقضي على مستقبله إن لم يرضخ!..

اتفاق نصفه كذب؛ بأن الليلة ستتضمن تهمة تحرش مزعومة فقط.. دون دماء، فلا داعي لأن يعرف جزءًا لا يخصه من الخطة..

وها هي الحبكة بدأت..

ظل يدور في مكتبه قيد انتظار مكالمة من رجله المراقب من بعيد تخبره بالحدث السعيد..

بخبر الموت!..

المكالمة لم تتأخر كثيرًا عقب انتهاء خيط أفكاره، عندما ضج المكان برنين هاتفه فتح الخط بلهفة:

- أيوة يا شوقي.. إيه!.. ما ماتش!.. استنى مش فاهم، الجرسون إيه!..

صمت لحظات منصتًا للرجل قبل أن يبتر حديثه باهتمام وانعقاد حاجبيه يتضاعف.. رأسه تدور وعقله يفند الأحداث.. يعيد رسمها تبعًا لمقتضيات الموقف المستجد:

- اهدى كده واحكي لي اللي حصل بالتفصيل، مش هنخرج من الحكاية دي بخسارة..

دقيقتين مرتا وكل ما يصدر عنه كان همهمات تتجاوب مع رواية مساعده..

الخطة انقلبت رأسًا على عقب..

وعندما حاول ساعده الأيمن التدخل وقتل الابن بنفسه بذات السلاح متجنبًا ظهور بصماته عليه عبر إمساكه بمحرمة؛ أصابت الرصاصة النادل الأحمق الذي احتل المشهد بغتة ليتحول إلى جثة..

ابن "الحسيني" صلب كأبيه. المخدر الذي تعاطاه للمرة الأولى لم يضيع كامل تركيزه.. بل بقي به ما ينقذ حياته.. يمسك السلاح الناري ويقلب الطاولة!..

فكر لدقيقة أخرى والخطة تُطهى بعقله على نار متأججة فلا وقت للهدوء.. بعدها استدعى انتباه رجله بحسم:

- هتسمع اللي هاقولك عليه يا شوقي.. وتنفذه بالحرف..

ومن بين أنياب الهزيمة؛ انتزع نصره الأكبر..

فالتحوير المغاير في خطته مكسبه مضاعف.. ونتيجته أقسى!..

أنهى تلك المكالمة بتأمل، تناول من فوق مكتبه هاتفًا محمولًا قديمًا يعلم أن شريحته مجهولة لا يمكن تتبعها، وهو سيعدمها على أية حال عقب اتصال هام على وشك أن يجريه..

اتصال سيضمن له الفوز، والثراء الفاحش.. والانتقام!..

الساعة تخطت الواحدة ليلًا، والطرف الآخر لابد وأنه يغط في نومه.. لكن لا بأس من إفاقته على كابوس!..

انفتح الخط، نبرة صاحبه تنبئ عن نعاس لم يستفق منه بشكل كامل بعد:

- أدهم بيه.. معلش صحيتك من النوم..

ومحادثه يعي للمتصل، يستوعب الصوت واللهجة الشامتة ويصحو عقله بغتة، يسأل.. يغضب فيخرسه بصرامة فظة:

- لأ.. من دلوقت هاتكلم وأنت تسمع، وتنفذ وبس..

وقبل أن يناله انفعال هائج من غريمه بدأ يسرد خطة جديدة..

خطة شيطانية استحدثها عقله وقت فشل الأولى، هو يجيد رسم الخطط "ب" بمهارة إبليس بينما يختبيء بظل هيئة بشر..

يأمر.. يضع الشروط، ويختار ممثلي العرض ومخرجه ونصه..

فالمسرحية بدأت تروقه ودور الكاتب يعجبه!..

تعديل بسيط في السيناريو..

القتل انفلت منه ابنه بمعجزة..

لذا الخطة الحالية تحتم غنيمة..

نقطة أولى..

كنتُ أنوي قتله..

نقطة ثانية..

عاش..

نقطة ثالثة..

الابن متهم بجريمة قتل وبصماته على أداة الجريمة..

نقطة رابعة..

بيدي أن تصبح عمدًا فيلتف حول عنقه حبل المشنقة، أو خطأً تستحل من عمره عامًا أوربما اثنين مع تعاطيه للمخدر..

نقطة خامسة..

الشهود بجيبي فلا تسعَ لنجاة..

نقطة سادسة..

قريب بمنصب هام بالداخلية سيساعد بتفصيل الثوب على المقاس الذي يناسبه..

نقطة سابعة..

ملف المناقصة التي فاز بها وملف المدينة الجديدة المقامة تحت اسم مجموعته دليل خضوعه..

نقطة ثامنة..

لا اتصالات بأحد أو بي شخصيًا.. هذا الخط غير مدرج وسيُعدم في لحظة إنهاء المكالمة..

نقطة تاسعة..

موافقته تنقذ ابنه.. وتعنته ومعاندته تقتله..

نقطة أخيرة..

لا تتذالكَ!..

أنهى "معتز" حديثه بسخرية والصامت المتجمد قلبه ينعصر بصدره:

- كنت ناوي أخرجه من الدنيا بفضيحة، بس لسه باقي له عمر يا أدهم بيه.. في إيدك تلحق الباقي ده..

وتمم حديثه بتوضيح ختامي كأنما يخبره أن بقراره المخرج الوحيد من هذا المأزق وهو يسده بزر عند أطراف أنامله:

- قبل ما تاخد قرارك فكر كويس، التويست اللي حصلت دي ضاعفت مكسبي.. هافلت من الإفلاس وآخد حقي منك وزيادة..

صمت ثانٍ شاب المكان إلا من صوت أنفاس "أدهم" اللاهثة، وتكة قداحة "الرفاعي" وهو يشعل سيجاره، يسحب منه بتمهل ثم ينفث دخانه بتلكؤ أكبر، دمدم بسخرية حازمة:

- قدامك نص ساعة وملف المناقصة والمدينة الجديدة يكون عندي، يا إما المسدس يبقى بتاع ابنك وطلعه يقتل بيه الجرسون الغلبان لما حاول يدافع عن خطيبته.. أو..

وتوقف عن الحديث بدهاء، يهدي كلماته التأثير المطلوب:

- أو يبقى بتاع الجرسون اللي فهم الموقف غلط ولما اتخانق وحاول يقتل ابنك؛ مسك منه المسدس وجه يشرح له الرصاصة خرجت بالغلط..

ثم أقفل الخط..

كان يدرك أن قاعدة البقاء للأقوى.. للأشرس: صحيحة تمامًا..

فالبقاء في غابة وحشية دومًا.. للضواري!..

***

أحيانًا لا تكف الحياة عن مباغتتنا..

ومفاجآتها في الغالب صادمة.. مخيفة!..

أيقظه وزوجته رنين هاتفه باتصال من العمل، حادثة هامة ومؤشر لقضية رأي عام..

جريمة قتل..

سبق صحفي، والصور تحتاج للمصور الأول..

ترك دفء فراشه ونهض يتجه للحمام.. يغسل وجهه، يرتدي ثيابه بعجالة وقتما استرخت في موضعها تتأمله:

- إيه اللي حصل!..

ابتسم يطمئنها وبعينيه بريق النشوة، فالقضية صفحة أولى بالتأكيد:

- الخبر لسه طازة، أنا هاقابل عاصم في الطريق، بيقولوا ابن راجل أعمال قتل جرسون في كافيه في المعادي..

انتفضت جالسة وحماسها يوازي حماسه:

- بتهرج!.. كمان عاصم!.. يبقى الموضوع كبير..

ركلت الغطاء تحرر نفسها منه، تستقيم خارج الفراش بلهفة:

- هتروح لوحدك!..

ضحك بينما يقترب منها، سبابته تداعب أنفها كأنما يؤنب طفلة:

- أمال هاخد المدام معايا!..

انحنى يختطف شفتيها في قبلة سريعة:

- أينعم أنتِ بقيتِ فنانة، بس ما تنسيش إن أنا أستاذك..

تدللت بهزة من كتفيها ونبرتها تنضح بالثقة:

- ما تنكرش أنت إن الطالبة بتتفوق على أستاذها أحيانا..

تناول سترته ليرتديها بمشاغبة محبة:

- الطالبة وقَّعت الأستاذ في غرامها..

لمعت عيناها بعشق خالص ودلالها يتضاعف، أناملها تمتد لتعدل ياقة السترة وتناوش عنقه:

- لا على فكرة، هو وقع لوحده..

الشقية التي امتلكت قلبه تتخابث معه..

أحاط خصرها بذراعه ويده الأخرى تتحكم بكفها، يبتسم بعبث هادئ:

- أنتِ مش عاوزاني أنزل مش كده!..

حررت يدها منه لتحط على خشونة وجنته بنظرة مشاكسة، استسلم لها باقتراب كاد يدمجها به، يلثم جيدها وأطراف أذنها حال همسه الدافئ:

- هو فعلا وقع لوحده، عشان هي ماعندهاش تفاهم.. لازم تتحب..

وأهداها نظرة أخيرة قبل أن يحررها منه، يلتقط حقيبة الكاميرا خاصته، يفتحها ليتمم على حاجياته ثم يعلقها على كتفه في طريق الرحيل:

- نامي وهابقى أكلمك أحكي لك التفاصيل..

تبعته حتى باب المنزل بحسم:

- أنت عارف إني مش هانام، ابقى طمني عليك..

سرق قبلة أخرى بابتسامة يبدأ بها يومه مبكرًا..

قاد سيارته للمكان المنشود بعدما التقى بزميله "عاصم".. الصحفي الذي سيتابع الخبر والتحقيقات.. عندما وصلا للمقهى النائي نوعًا ما ترك للزميل مهمته وانشغل هو بشغفه..

الصور..

باحترافية ودقة مدهشة كانت عدسته تلتقط الكثير من الوجوه..

المشاعر..

العبوس والخوف..

الشرود والتيه..

الرهبة والضياع!..

ملامح يعرفها، ولا يتخيل أن تكون بمسرح جريمة!..

"مروان الحسيني"..

حاول الاقتراب ليمنعه أحد الجنود بصرامة:

- ممنوع يا حضرة..

ارتبك للحظة، فبأي حق سيخترق مساحة حاوطها الطب الشرعي وانتشر بها رجال المعمل الجنائي!..

كمصور صحفي له حد معين لا يتخطاه، وكصديق!..

لا يملك أي وسيلة..

زفر بحنق وخلع حقيبة الكاميرا عن كتفه، وضعها بها مكتفيًا بما اقتنصته عدسته.. ناولها لزميله وأخبره أن يطلب من الجريدة إرسال مصور آخر لمتابعة القضية.. وعندما سأله عن السبب!..

جاوبه ببساطة أن أحد المشار إليهم بأصابع الاتهام؛ من عائلته!..

ساعتين تاليتين وانتهى رجال البحث الجنائي، حُملت الجثة إلى المشرحة لتشريحها.. وقضى وكيل النيابة الذي أمر بصوت جهوري:

- افتح يابني المحضر، في ساعته وتاريخه.. قررنا نحن جمال رفيق وكيل نيابة المعادي بتحويل كل من مروان أدهم الحسيني.. عز الدين عبد الغني

ضرغام.. فادي حسين الزيات.. شاهندة منصور عبد الواحد.. إلى الطبيب الشرعي لتوقيع الكشف الطبي عليهم..

سقط الخبر كصاعقة فوق رأس الصديق المشدوه..

الأمر أكبر من قدرته على التخيل، فالواقع يخبره أن عنوان تلك الصورة المشوهة.. فضيحة لن يحتملها أحد..

***

سنة القلوب وآفتها.. الميل!..

منها ما يميل بزاوية حادة، يقترب بشدة من مالكه.. ينحني، ينثني؛ وبالنهاية ينكسر!..

ومنها ما يرسم الطريق أمامه مستقيمًا، يتجاهل الزوايا ويتخطى المنحنيات.. قد يصل للنهاية دون عطب، وقد يصل خاسرًا لمن مال إليه..

وأخرى.. ترى أن في الزاوية القائمة السلامة، فإما عشق.. وإما فراق!..

كالمستجير من الرمضاء بالنار؛ كانت تتعلق بابنتها عوضًا عنه..

تتشبث بالجزء اشتياقًا للكل الذي اقتطعت منه..

هي فوضت لعقلها اتخاذ القرار ورضيت به؛ لكن قلبها لايزال بين حناياها يئن، يتوق.. يحنو ويلوم..

ثم يصمت مخذولًا مختنقًا بالخزي عندما تذكره بالجرح..

ليلة أخرى من الأرق، من ساعات النوم المحدودة والمتقطعة التي تعقب نوم طفلتها.. تترك الغرفة لتعد مشروبًا عشبيًا مهدئًا تحمله معها عائدة للفراش، ترتشفه بشرود وحينما تصل للرشفة الأخيرة تتذوقها باردة..

وقتها تشرق الشمس، يناوش أجفانها نعاس مجهد وتسبح في دوامات أحلامها التي لا تتذكر أيًا منها بعد صحوها..

عندما حملت القدح وعبرت باب المطبخ ببطء تلاقت مع أبيها الذي يستشعر خطواتها كل ليلة..

يترك لها حرية الاحتفاء بقرارها ووحدتها..

لا يعاقب لكنه غاضب، يقدر ما مر بقلبها ولا يستسيغ انفعالها العاطفي المتهور، ودَّ لو كانت أكثر صبرًا ثم يعود فيتذكر أنها لا تشبه أمها في شيء، ولا حتى تشبهه هو!..

هي الحالمة التي تحطمت توقعاتها العشقية على صخرة الحقيقة المجردة..

ابتسم لها وقد قرر أن يحتوي ألمها هذه المرة:

- اعملي لي كوباية معاكِ..

تقوس فمها ببسمة شاحبة ويدها تمتد إليه بقدحها:

- خد ده وهاعمل غيره..

تبعها للمطبخ يتأمل سلاسة تحركاتها، آليتها وجليديتها كأنما روتينها بات اعتيادًا تقوم به مغمضة العينين..

رق قلبه لتفاصيلها الباهتة ونزعة القوة التي تظهرها أمام الجميع لكن ضعفها لا يخفى عليه:

- ما بتناميش كويس ليه يا سما!..

استدارت له بوجوم لا يشي بانفعال واضح..

تمنت لو صارحته بأنها تهفو لضمته، لذراعيه تطوقان جسدها قرب صدره.. لأنفاسه عند رأسها وتشبث كفيها بيديه حولها..

لكنها استبدلت كل خواء المشاعر وصخبها في تناقض موجع برد عقلاني بسيط:

- شجن لسه نومها مش منتظم، على ما بتنام بيكون وقت الفجر فبعمل البابونج لحد ما أصلي وأنام..

جوابًا تلقائيًا يسد عليه طريق المزيد من الأسئلة التي ستعجز عن سماعها..

ارتشف من الكوب بهدوء ودون التفاف واجه:

- ولا مروان وحشك!..

تخضبت وجنتاها بحمرتهما القانية.. تظاهر بعدم الانتباه بينما يسرد عليها حكايته اليومية:

- لما بيجي يشوف شجن بيسأل عليك، بس أنا عارف إنك رافضة تقابليه..

تهربت بعينيها ولم يبحث هو عن لقائهما مستطردًا بيسر:

- باشوفه من المكتب وهو مروح، بيبص على شباك أوضتك..

لم تكن تعلم!..

كانت تتهرب من لقياه..

من رؤياه..

من ضعف قلب سيرمي نفسه بين كفيه في لحظة، ويندهس تحت قدميه في التالية..

- بابا!..

رفع وجهه إليها مع آخر رشفة دافئة لتحسم هي أفكاره التي يطرحها عن عمد:

- أنا مش عاوزة أشوفه..

عقد أبيها حاجبيه بضيق، استقام يضع القدح بالمغسلة، يلتفت ويستند إليها طاويًا ذراعيه بهدوء:

- ليه يا سما!..

وأمال رأسه باهتمام نافذ البصيرة:

- عشان خايفة تضعفي!..

نفت بكل جوارحها ونبرتها تستدعي صلابة ظاهرية:

-أضعف!..

وواجهت بتجهم جديد على رقة ملامحها:

- عشان عارفة إنه هيحاول يرجعني، يضغط بشجن وحرمانه منها وبعدها عنه..

- لوكان عاوز يرجعك ماكانش طلق يا سما..

ابتسمت بمرارة.. من أكثر منها يفهمه!..

أوضحت لوالدها كأنما تتحدث عن قصة لا تمت لأبطالها بصلة:

- لأ يا بابا.. مروان طلق عشان اعتداده بنفسه وكبرياؤه ما يسمحوش إنه يرفض، إنه يجبرني أعيش معاه وأنا مش عاوزة..

وانحسرت بسمتها بتعب:

- بس دلوقتِ وبعد البعد؛ هيكون معتقد إني جربت فراقه فممكن بشوية ضغط نرجع..

ظهر التعاطف على وجه "آدم" مستغربًا تفكير ابنته الوردية الحالمة:

- مش شايفة إنك بتقسي عليه بالظن ده!..

تحركت تبتعد، تغادر المكان فالحديث عنه حمل زائد يثقل قلبها..

يكفيه الأفكار والنبضات والشوق:

- جايز، بس القسوة دي هي اللي مخلياني مكملة..

"آدم"..

نداء ملهوف، مختنق.. شابه هلع جلي من أمها عند الباب..

- خيريا ماما!..

استجاب الزوج بخطوات قربته منها، يحتوي كتفيها ويطمئن رعشة جسدها وعيناها تستقران على ابنتها الواقفة بشبه ترنح..

تعلقت بيديه وأنفاسها تتصاعد بإيقاع مكتوم:

- محتاجاك توصلني نيابة المعادي..

تبدلت نظرته لاستنكار لامس صوته:

- دلوقتِ!..

انقبض فؤاد العاشقة فتخطت والدها تقترب من والدتها بتوجس:

- نيابة دلوقتِ ليه يا ماما!..

تنهيدة طويلة وزفرة أطول حتى ضاق صدرها، تلبست قناع العملية ونبرتها تتبدل للجمود:

- قضية.. اتصلوا بيَّ ولازم أروح..

واستدارت على عقبيها نحو غرفتها لترتدي ثيابها:

- يلا يا آدم من فضلك..

عند منتصف الدرج وعينا المتوجسة تتبعهما توقف الأب..

لزم إحدى الدرجات كأنما أخبرته أمها بصدمة!..

بعدها هرولت خطواته جوار زوجته ودقائق أخرى كانا يرحلان عن المنزل وبصرها معلق بالسيارة من نافذة غرفتها..

قلبها يوسوس لها بمخاوف لا حصر لها..

عقلها يسخر من مخاوفها..

لكن طفلتها التي استفاقت فجأة ببكاء حاد؛ دعمت القلب المذعور فتشبثت بها في احتياج ولسانها يبدأ بالدعاء..

دعاء لا تدرك سببه، تجهل فحواه.. لكنها تبتهل لخالقها وحسب!..

***

في الغاب.. مادمت قد ارتضيت دور الفريسة؛ لا يحق لك سوى الخضوع!..

بمبنى النيابة وبعدما تم نقل الجميع، هو وصديقه الصدوق الذي طعنه في ظهره واختار نفسه عليه.. والآخر الذي رسم وخطط ونفذ: هناك حاول الالتقاء به..

كانوا جميعًا يقفون بعشوائية خارج غرفة وكيل النيابة في انتظار التحقيق معهم، حضر أحد المحامين مع "فادي" الذي أشار إليه وبنفحة لأحد الجنود أوصله محاميه قربه.. كان يريد التأكيد عليه فالتعليمات وصلته بخضوع الأب والصفقة تبدلت لتخفف عقوبة الابن:

- اطمن يا عز، الأستاذ حفظي هيبقى معايا ومعاك، معتز بيه ما بينساش حبايبه..

لكن توتر الفريسة التي هربت من الفخ وورطت فيه غيرها بلغ أوجه بانفعال مرتجف:

- ما اتفقناش على دم يا فادي.. ما اتفقناش على دم..

- اخرس..

وتلفت حوله يتيقن من غفلة الجمع عن حماقة ذلك الأبله، قبض على مرفقه بغلظة وهمس بدمدمة مكبوتة:

- النهاية واحدة يا عز وأنت عارف التمن، كده كده صاحبك هيتسجن، تحرش بقى ولا قتل خطأ مش هتفرق.. فما تعملش فيها شريف!..

رعدة مرت بجسده والكلمات تطعنه، تنزف -من جرحٍ غائر بقلبه- حقارته وغدره:

- إزاي مش هتفرق، والراجل اللي مات ده!..

- كان ممكن يكون هو..

توسعت عيناه بذعر بينما ينتزع يده من قبضة "فادي" بعنف:

- أنتوا كنتوا عاوزين تقتلوه!..

رفع الذئب الصغير أحد حاجبيه بسخرية مؤكدًا الجواب الذي أخرس الخائن تمامًا..

اقترب بتمتمة شيطانية تمزجِ ألوان اللوحة العبثية بفوضى خانقة وتشوه تفاصيلها:

- القضية دلوقتِ مستقبله قصاد مستقبلك.. هتقول في التحقيقات اللي اتفقنا عليه وإلا..

ثم تركه مبتعدًا في خطوات غير لافتة للانتباه خاصة ذاك المشوش بوقفته المتكئة إلى الجدار البعيد عنهما:

- اختار.. ونصيحة، كله بيقول يلا نفسي..

نصيحة صادقة لحد مخيف في غابة لا ينجو فيها إلا المفترس، والفريسة دومًا نهايتها بين أنيابه!..

تعلق بصره بصديقه.. بل صديق عمره وفكه يرتعش، يضغط أسنانه ويعتصر جفنيه، يحجب عنه صورته وتركيزه الذي بدأ يعود جواروجومه، جمود ملامحه وحيرته..

جلبة من الطرف الآخر جذبت عينيه، لقد أتت عائلته..

والديه، عمه.. والمحامية الشهيرة زوجة عمه!..

أتراه قد ينجو من تلك المسرحية فائزًا بدور الكومبارس!..

أم أنه بطل العرض!..

تأمل إحاطتهم لابنهم ولهفتهم.. ذعروجوه نصفهم وتماسك النصف الآخر، راقبهم بصمت وبعقله تنطحن أفكاره..

شيطانه يحتل الصورة..

قلبه يدافع بضعف، وخوفه يتصدر المشهد..

الصديق لديه عائلة تهتم به، لديه شركات تغنيه عن الحاجة لمستقبل وظيفي بالخارجية.. عكسه هو، فذلك العمل كان وسيظل حلمه، أمنيته التي ستنتشله من طبقة التوسط لأطراف المُخمل..

وحينما نودي اسمه للتحقيق معه؛ تحرك عاقدًا النية والعزم..

لقد اختار نفسه!..

***

نهاية الأسبوع، صباح باكر مثالي..

واستفاقة ممتعة على رائحة عطر الاستحمام التي تخللت أنفه عند استيقاظه ليراها تمر قرب طرف الفراش بمنشفة عريضة تجاه خزانة الثياب..

بحركة مفاجئة باغتتها قفز يجذبها إليه، يسقطها بين ذراعيها وشهقتها توازي ضحكته العابثة:

- آسرواحد.. تيا صفر..

ضربت كتفه بدلال وحاولت الاعتدال فلم يمانع:

- برده مش هاروح كلاس الرقص الشرقي..

سارت سبابته فوق عنقها إلى ما بين ترقوتيها في إغواء:

- يبقى نلعب..

عقدت حاجبيها باحتجاج جعله يؤكد:

- يا كده يا كده..

وتناول من جارور الطاولة الصغيرة جواره بضع بطاقات مكتوبة بخط يده:

- اللي يخسر ينفذ حاجة من المكتوب هنا..

أمسكتها من يده تتجول بينها وشفتها السفلى بين أسنانها في تفكير بدا لعينيه مثيرًا:

- إممممم.. بوسة!.. مساج.. إيه!..

ووجنتاها تنفجران بحمرة ساحرة:

- Strip dance!..

رمتها من يدها كالملسوعة، وثبت خارج الفراش بهرولة تتخصر قبالته:

- ولو أنا كسبتك هتعملها أنت!..

قهقه بمرحٍ وعينه تغمزها بمكر:

- لأ.. هتعمليها أنتِ برده!..

زمت فمها بينما أناملها تحكم المنشفة حول جسدها:

- ده.. ده.. اسمه إيه!.. Cheating..

تعالت ضحكاته مجددًا وهو ينهض.. يقترب منها بخطوات متمهلة وعيناه تخبرها ألا مفر:

- حمرقة قصدك!..

- أيوة..

بتراجع وهزة رأس موافقة، ألجم تراجعها بجذبة أعادتها لأحضانه عندما همس بخبث:

- بصي.. هو هنلعب وهنختم بقلة أدب..

عاندت بشقاوة ويدها تدفعه:

- ولو ما لعبتش!..

انحنى إلى شفتيها بجوع:

- يبقى ندخل في قلة الأدب على طول..

تهربت منه بضحكة خافتة فركض وراءها:

- طيب ده أنا كان عندي مفاجأة..

توقفت ليمسك بها بنبرة مشاغبة:

- حجزت أسبوع في بالي.. بدل شهر العسل اللي اتلغى!..

ظهرت سعادتها بعينيها لكنها وارتها ويدها تتحسس وجنته بتفهم:

- آسر.. أنا قلت لك مش مهم صدقني، دي أختك وطبيعي تكون جنبها..

أحاط خصرها ورفعها عن الأرض:

- عسل يا ناس..

ثم أنزلها بهدوء ولهجته يشوبها جدية:

- بس ده حقك..

فتحت فمها لتجيبه عندما بتر حديثها نغمة هاتفه سريعة الإيقاع، ارتفع حاجباه بتذمر:

- اتصال على الصبح كده!..

حررها وتناوله ليجد اسم والده، فتح الخط بدهشة..

وظفر بنصيبه من الكارثة!..

دقائق وكان يقود سيارته بجنون إلى نيابة المعادي حيث احتجز ابن عمه للتحقيق معه..

في جريمة قتل!..

حينما وصل للمكان؛ لم يكد يترجل من السيارة حتى سمع صوت غالق الكاميرا من جواره..

التفت بسرعة فحاز المصور على لقطة ثانية لوجهه وأحد الصحفيين يقترب منه بأسئلة متتابعة لم يستوعب معظمها..

تكررت الصور، تضاعفت الأسئلة وظهر صحفيَين آخرين يلاحقانه..

ما هذا العبث!..

تحرك بعنف يتجاهل الجميع إلى داخل المبنى، قبل أن يصله سؤال أشعل جنونه:

- أختك طلبت الطلاق من المتهم نتيجة لتصرفاته المشبوهة؟..

استدار لصاحبه يمسك بخناقه ويده ترتفع سعيًا للكمة بالأنف.. لكمة أوقفتها قبضة حازمة وصاحبها يحيط بكتفه ويشده بعيدًا:

- اعقل يا آسر، مش هتضرب صحفي قدام النيابة..

ازدرد لعابه وهو ينتبه لمن يسحبه معه:

- أنت بتعمل إيه هنا يا ياسين!.. بتأدي مهام وظيفتك!..

كان الصديق يتفهم الموقف، يكبت حس المصور بداخله حين يختص الأمر بالعائلة، وهم عائلته..

والدة صاحب الصدمة بمثابة خالته..

دفعه إلى المبنى وخطواته تجاوره متجهًا إلى حيث قبعت أسرته:

- أظن أنت مش شايف في إيدي كاميرا..

بنبرة عاتبة وابن العم ثورته تخبو بعض الشيء:

- هم فين!..

أشار أمامه فوقعت عيناه على الجمع واضطراب ملامحهم بين خوف وأمل:

- أنا كنت في الكافيه اللي حصلت فيه الحادثة، وجيت ورا مروان بعربيتي..

- ياسين.. أنا آسف، بس..

ربت على كتفه بهدوء حازم:

- أنا فاهم..

كان قد وصلا إلى حيث يقف أبيه الذي استقبله بقلق..

فالأمور.. لا تبشر بخير!..

***

أنت لست فريسة، لا تصلح لدور الطرائد العاجزة التي لا تكف عن النظر إلى الوراء حتى تسقط بين مخالب الضواري..

كما أنك لست ضارية!..

أنت تعيش على الحد الفاصل بين مبدأ السلامة وقانون التوحش..

أنت مثالي.. لا يجوز لك سقوط!..

استند بوعي غير مكتمل إلى الجدار، يستعيد اللحظة: الرصاصة والدوي المرعب.. الجسد الهامد.. تناثر الدماء.. الارتباك وعشوائية التحركات..

يتذكر محاولته الفاشلة للاتصال بالإسعاف، صراخه بأن يتحرك أحدهم لينقذ الرجل.. جمود صديقه واختفاء الآخر..

ثم ظهور الشرطة.. حضور النيابة، وكثير من التفاصيل التي لا يفقه عنها شيئًا ولا يدري عقبها إلا أنه.. محتجز..

لأنه ببساطة.. متهم!..

متهم بأي شيء!.. لا جواب لذلك السؤال الوجودي بداخله أو حتى ممن حوله..

فرك جبينه والصداع يوشك على شطر رأسه لنصفين، دقائق مرت وبصره يطوف في المكان بتشوش.. بسعي حثيث للفهم، لإدراك أبعاد الصورة التي انحشر داخل إطارها بلا رغبة منه..

عند بداية الممر ظهر والده..

تشبثت به عيناه في لهفة وأمان ما يتسلل لروحه التائهة، فمهما كبر أو نضج يبقى الطفل الصغير بداخله يبحث عن الأب.. الأم، والعائلة..

احتواه "أدهم" بضمة اعتصر فيها جسده بين ذراعيه، يتمتم بنبرة متحشرجة ما لا يعيه، يتفحصه باهتمام ويدقق في ثيابه ووجهه ويده تتحسسه بهلع..

أما أمه فقد أبعدت أبيه واحتضنته، مرت بكفها فوق ملامحه وعيناها غارقتان بالدموع:

- مروان.. أنت كويس!..

والأب يسأل من وراء ظهرها:

- إيه اللي حصل؟!.. طمني.. حد قرب منك!..

ضغط كتف والدته بطمأنة وعيناه تتعلقان بعيني أبيه الساخطتين..

بنظرة الحسرة فيهما..

بلمعة الذنب و.. الندم!..

ويزداد تيهه:

- أنا كويس.. بس مش فاهم حاجة..

اقترب عمه يربت على ظهره بهدوء وأعصابه مستعرة، أما خالته فقد تلبست رداء العملية بعسر:

- أنا هافهم دلوقتِ.. خليكم هنا..

تعلقت أختها بيدها في ضعف:

- رايحة فين!..

ضعفها أوهن قلبها لكن عزيمة المحامية هي المطلوبة بهذه اللحظة:

- هاجيب نسخة من المحضر عشان نفهم.. ما تخافيش..

تسارعت خطواتها بعيدًا عن عاطفة عائلية لا يباح لها ظهور..

هي في هذه المعمعة لا تحتاج إلا لرداء المحامية ووجهها الخالي من الانفعالات..

دقائق ونودي اسمه..

ارتجف قلب والديه..

لا.. انعصر فؤاد أبيه، فهو يدرك ما لا يدركه ابنه أو زوجته..

ابنه ستلصق به تهمة لا جريرة له فيها..

بل الإثم يلطخ يديه هو!..

عند باب الغرفة تقابل مع صديقه الخارج منه، صديقه الذي قابل نظرته ببريق دامع وانكسار.. تلاه همسة آسفة لم تصل سوى لأذنيه:

- أنا آسف يا مروان..

ضاعف حيرته وولد بداخله فضولًا لم يتَح له إشباعه والمحقق يستقبله بصحبة خالته:

- تعالى يا مروان.. اقعد..

قدمت هي نفسها بعملية:

- لمياء أبو الفتوح.. حاضرة مع الـ..

وانحشرت الكلمات بحلقها لحظة..

"المتهم!"..

بدلتها في التالية بذات اللهجة:

- حاضرة مع مروان الحسيني..

- اتفضلي يا أستاذة..

وأشار لكاتبه من خلفه بتلقائية:

- اسمك وسنك وعنوانك..

أسئلة لم يسمعها سوى في الأفلام..

مشهدًا لم يره إلا على شاشة ووقت مستقطع ما..

جاوب بهدوء متجاهلًا تلك النار التي تتقد بداخله، ترتفع ألسنة لهبها لتشعل عقله.. تتأجج وتحرق الأخضر واليابس بروحه ثم تقضي على قلبه في النهاية..

جاوب وكل ما يملكه الآن هو منح الإجابات:

- قولي بقى يا مروان.. كنت بتعمل إيه في الكافيه!..

سكنت خالته تتابع، تشير إليه بعينيها إثر استشارته لها بنظرة مرتبكة ليرد بالحقيقة الخالصة:

- كانت عزومة من صديق على عيد ميلاد خطيبته..

حكَّ وكيل النيابة ذقنه باهتمام وهو يستند لمكتبه:

- فادي.. مش كده!..

- أيوة..

تراجع الرجل باسترخاء في مقعده:

- تمام.. احكي لي بقى اللي حصل هناك بالتفصيل..

قبل أن يجيبه بترحديثه بتوضيح متعمد:

- أصحابك حكوا طبعا، بس أنا عاوز أسمعك..

وكانت "لمياء" تدرك مقصده..

هو يخبره ببساطة أنه يعلم الحقيقة فلا داعي للالتفاف حولها أو الكذب، أنه يملك كل التفاصيل وحكايته محض استكمال للرتوش..

دلَّك "مروان" جسر أنفه في محاولة للتركيز:

- رحنا عادي، وفادي استقبلنا.. أنا مش بحب الحفلات دي فقلنا..

- قلتوا!..

- أنا وعز..

أومأ الوكيل باهتمام ليكمل سرده:

- قلنا هنجامله شوية ونمشي..

- وبعدين!..

تنهد "مروان" بتعب وتلك الليلة الطويلة تجهد ذهنه أكثر من اللازم:

- شوية وحصلت الخناقة..

صمت لوهلة أردف بعدها بإيضاح:

- هي مش خناقة!.. سوء فهم، البنت الـ waitress كانت بتشوف لو محتاجين نشرب حاجة وبعدين وقعت..

- وقعت!..

رددها الرجل بحاجب مرفوع في استهجان، هز هو رأسه بارتباك وبصره يعود لخالته التي دعمته بنظرة حازمة:

- أيوة.. وقعت على رجلي..

- قصدك وقعت في حضنك..

- لأ.. أنا مالمستهاش..

- يعني هي لمستك؟..

ركز قليلًا وبقايا المخدر بدمه تشوشه:

- مش عارف.. مش فاكر..

- لأ يا مروان، افتكر كويس..

زفر بحرارة وإنهاك عقله يبلغ أوجه:

- مش بالظبط، كانت بتحاول تقوم لما الجرسون جه وافتكر إني باتحرش بيها..

- أنت اتحرشت بيها؟..

- لأ..

وانعقد حاجباه بغضب مستاء:

- باقول لحضرتك وقعت..

رفع المحقق رأسه بانتباه صامت ينتظر التفسير:

- هو فهم غلط.. ولما حاولت أشرح له طلع مسدس من جيبه وكان هيضرب عليَّ نار.. فضربت إيده وأخدته منه..

اعتدل الوكيل في مقعده باهتمام:

- ضربته وأخدته منه؟..

- لأ.. ما ضربتوش، خلصت المسدس من إيده بس ومسكته..

- تهدده بيه..

يقرر عنه كأنما حضر المشهد:

- لأ.. ما كنتش أقصد، ما كنتش واعي..

تراجع الرجل بانتصار شامت:

- يمكن عشان كنت مبلبع ترامادول..

وفاز من متهمه بدهشة.. صدمة، جمود واجم بينما يردد خلفه بتشتت:

- ترامادول!..

رأسه تستدير للخالة بتساؤل فأشارت للتقرير بيدها:

- تقرير الطبيب الشرعي المبدئي أثبت إن في دمك مخدر..

- كمل يا مروان.. مش وقت دهشة!..

وكيل النيابة المتحفز يعيده إليه بصرامة:

- أنا ماباشربش الحاجات دي حضرتك.. أنا راجل رياضي وباشتغل في الخارجية..

قاطعه بحسم بارد لا مبالي، مستهين:

- ملحق دبلوماسي، عارفين.. وأكيد أنت عارف إن الحصانة بتسقط في حالة التلبس..

عاد يميل إليه، يدخل ببصره حيز الضوء ليحاصره بدُجنة عينيه في أمر:

- بعد ما ضربته وأخدت منه المسدس؛ عملت إيه؟..

كاد انفعاله ينفلت بهياج:

- باقولك ما ضربتوش..

- اهدى بس.. تمام، أخدت المسدس.. عملت إيه؟..

ونبرته كأنها تسخر منه!..

ازدرد لعابه كنبتة صبار تجرح حلقه بقسوة أشواكها:

- حاولت أشرح له الموقف، ولما أخدت بالي إن المسدس في إيدي رميته..

ثم استدعى الموقف دون إهمال جوانبه:

- بعدها كنت هاخد عزونمشي، بس حد ضرب نارعلى الجرسون..

ابتسامة وكيل النيابة كانت فظة.. بل مفترسة كأنما وجد ضالته:

- حد!.. حد ضرب نارمن المسدس اللي عليه بصماتك!..

تغضن جبين "مروان" بحيرة قصيرة انقلبت لدهشة تبعها غضب:

- نفس المسدس!..

- شُفت اللفة!..

- حضرتك بتتريق؟..

ضرب الرجل سطح مكتبه بخشونة:

- عشان بتتذاكى يا مروان..

وناول "لمياء" بضع وريقات موضحًا بنبرة ختامية:

- أقوال الشهود بتقول إنك أنت اللي ضربت النارعلى الجرسون، حاولت تفهمه إنك ما تقصدش تتحرش بخطيبته وأخدت منه المسدس بس الرصاصة خرجت لأن صمام الأمان كان مفتوح..

استقام المضطَهد برفض حاد:

- ما حصلش الكلام ده..

وتذكر صديقه فأفاد بلهفة:

- عز يشهد إن ده ما حصلش..

مط الوكيل شفتيه بلا معنى:

- أقوال الشهود التلاتة متطابقة؛ عز الدين، فادي وشاهندة.. الجرسونة.. وسقط..

سقط عائدًا لمقعده وعيناه تدوران في المكان بتمزق.. ببعثرة وكل ما فيه يتصدع ببطء:

- عز قال إني ضربت النار!..

سؤاله خرج هامسًا، حائرًا.. مطعونًا بالغدر!..

تأمل الرجل اضطرابه بصمت، أغلق بعده أوراق القضية.. فالقاضي ليس هو:

- هل لديك أقوال أخرى!..

تجمدت..

وتجمد ابن أختها بمكانه وضياعه يغرقه بموجات عنيفة قاسية، مع وجومه كتب الوكيل النهاية باقتضاب وقتما أشار إليه بلا اكتراث:

- امضي على أقوالك.. طلباتك يا أستاذة!..

جملته الأخيرة وجهها إليه، وهنا تدخلت "لمياء" كمحامية، تنزع عنها ثوب العاطفة بحزم.. تطالب سدى بما تعلم أنه لن يحدث:

- أنا بطلب الإفراج عن موكلي بضمان محل إقامته..

سحب نفسًا عميقًا.. تراجع في مقعده بسيطرة مهيبة، وخاطب كاتبه:

- قررنا نحن.. جمال رفيق وكيل نيابة المعادي.. حبس المتهم خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق، ويراعى التجديد في الميعاد.. مع ضرورة استعجال تقرير الطب الشرعي النهائي..

أنت لست فريسة، لم تكن ضارية..

أنت خارج التصنيف..

أنت.. لا شيء!..

***

"رجال الأعمال وأبنائهم يعيثون في الأرض فسادًا.. مقتل نادل بمقهى في المعادي على يد ابن أحد حيتان السوق"..

"الابن المدلل لرجل الأعمال الشهير يتسبب بمقتل شاب بسيط رفض تحرشه بخطيبته"..

"مات دفاعًا عن شرف خطيبته.. من ينصفه!.. والقاتل شاب ثري دمائه ملوثة بمخدر الترامادول"..

"وريث امبراطورية الحسيني قاتل ومدمن.. والضحية لا تجد من يدافع عنها"..

"سهرة حمراء لوريث الحسيني تنتهي خلف القضبان"..

ألقت الجهاز اللوحي من يدها على الأريكة بعنف، فلم تمر بضع ساعات على الحادث إلا وبدأت الصحافة في نهش لحم أخيها وعائلتها.. افتراسهم كأنما هم سرب من القروش اشتمت رائحة الدماء..

ربت زوجها على كتفها باحتواء وعيناه تطوفان في المكان.. بيت أبيه الذي اجتمعت فيه العائلة وكل منهم في واد..

رفعت عينيها إليه فابتسم لها بحنو:

- دي شغلة الصحافة، التحابيش اللازمة عشان تبيع..

اهتز فكها برجفة طفيفة حانقة:

- حتى لو كذب، ظلم!..

هز كتفيه بتسليم يجيب عن سؤالها بواقعية.. عادت ببصرها إلى أبيها وأمها المتجاورين على أريكة بعيدة..

والدها بملامح جامدة وأعين شاردة في أفق مجهول، لا تدري فيمَ يفكر أو ماذا يدور بعقله!..

صامت كأنما امتنع الهواء عن نقل صوت أنفاسه..

لا يهتز ولا يتحدث أو حتى يلتقي بأعين من حوله!..

هي اعتادت قوته وصموده في الأزمات، لكنه هذه المرة تائه عنهم وذاك يخيفها عليه..

وأمها لم يتوقف سيل دموعها، دموع بدت وكأنها تحرق في طريقها قلبها وروحها وأفكارها، لا ينقطع لسانها عن الدعاء..

ولا الأسئلة..

اسقامت تقترب منها، تربت على كتفها في محاولة لاستدعاء ثباتها فهي وتد تلك الأسرة الصغيرة بهذه اللحظة رغم تمزق مشاعرها على أخيها الوحيد..

نظرت لها والدتها بوهن أجبرها على مجاورتها وضمها وطمأنها بصوت متماسك:

- إن شاء الله هيخرج من الأزمة دي.. ما تخافيش عليه، مروان قوي وهيتحمل..

ارتعشت "جمانة" بين ذراعيها لكنها لا تصدق ما تحاول ابنتها إقناعها به..

ابنها لم يعتَد تلك الدرجة من قسوة الحياة.. لم يمر بعمره تحت خط الظلم.. لم يغدر به صديق..

أبعدت نفسها عنها واستدارت لزوجها ترتمي فوق صدره بهمس متحشرج ونحيبها يخنق صوتها:

- أنا عاوزة ابني يا أدهم..

ضمتها ذراعه بآلية وكيانه ينهار ببطء..

القيد الذي يغل يديه إلى عنقه يخنقه.. يقتله..

تركت "ملك" جوارها لتتجه إلى ابنة عمها، إلى من كانت زوجته قبل شهر.. إلى أم ابنته التي وجمت بمقعد وحيد شاردة، تائهة.. تحتضن جسد طفلتها الضئيل كأنما يشعرها وجودها بوجوده هو، تستمد منها أمانها.. لا تذرف دمعة ولا تنطق بحرف..

هي فقط لا تصدق!..

جلست على مسند المقعد تحتوي كتفيها:

- سما..

نظرت إليها بهدوء ساكن.. كسكون الموت:

- ما تخافيش.. هيرجع صدقيني..

رأت شفتيها تنحنيان ببسمة باهتة ونبرتها تتلحف بالغياب وذراعيها تتشددان حول صغيرتها النائمة:

- أكيد هيرجع.. عشان شجن، مش هيقدر يبعد عنها..

- سما!..

كانت تتحدث وكأنها في عالم آخر..

دنيا أخرى غريبة.. بعيدة كل البعد عن منطقة انعدام التوازن التي تقف فوقها العائلة لأول مرة!..

اقتحمت خالتها الجلسة باهتمام انتبه له الجميع بعدما غادرت معتكفها بمكتبها لساعتين مضيتا.. ومع انتباههم والحقيقة التي لا تحمل غيرها ولا تمتلك سواها تنهدت:

- الأدلة كلها ضده..

انتفض "آسر" من مجلسه بغضب:

- يعني إيه يا ماما!.. كلنا عارفين إن مروان ما يعملش حاجة زي دي..

أسكتته والدته بإشارة حازمة من يدها:

- عارفين دي مش دليل يا آسر..

وشرحت باستفاضة متجاهلة انقباض قلبها:

- المسدس عليه بصماته وبصمات الجرسون بس.. وده بيأكد كلام الشهود وجزء من روايته هو شخصيا، إن الجرسون طلع المسدس وهو أخده..

تحركت في المكان كأنها تحلل الموقف مجددًا بعقلها:

- بعد كده بتيجي نقطة الخلاف..

توقفت لحظة تفكر قبل أن تكمل بحسم:

- هو بيقول إنه رماه.. والشهود التلاتة بيقولوا إنه ضرب نار، إن صمام الأمان كان مفتوح والرصاصة خرجت من غير قصد قتلت الجرسون..

قاطعها ابنها بانفعال:

- بيكذبوا..

تطلعت إليه بصمت تتدبر اعتراضه:

- ولو بيكذبوا؛ صعب تقدر تخليهم يتراجعوا عن أقوالهم مع تطابقها بالشكل ده..

تدخل "زياد" بتفكير:

- طيب ما التطابق ده في حد ذاته مثير للشك!..

وأبيه يتمسك بالقشة كغريق لا يأمل في شاطئ نجاة.. الذنب يحرقه، يحول روحه لرماد.. يشعل النار في قلبه ثم يصب فوقها الماء قبل تمام الاحتراق، يبدله لدخان وبعدها يعيد إشعالها من جديد فلا يكاد يتنفس:

- أيوة.. كلام زياد صح..

ومع تأييد "أدهم" لكلامه استطرد زوج العمة بحزم:

- ومادام كلنا عارفين إنه مش مروان، فأكيد اللي عملها حد من التلاتة دول..

ثم فكر لثوان بجبين معقود:

- أو على الأقل مادام بيكذبوا بالشكل ده يبقوا عارفين مين عملها!..

ضمت "لمياء" قبضتها عند فمها تتنفس عبرها:

- الحل؛ إننا نحاول نخلق تضارب بينهم في المحكمة..

"أو ندور على ورقة ضغط تخليهم يقولوا الحقيقة"..

خرجت حازمة من والده الذي خضع للصمت كثيرًا، وطوال صمته كان يفكر.. يفند.. يبحث بلا جدوى!..

حيث يكمن رعبه الأعظم؛ أن يغير الشهود أقوالهم فتنتقل الحادثة لخانة القتل العمد..

وتنتهي معها حياة صغيره الوحيد..

استدار إليه الكل فأردف بصرامة قاسية لا تشبهه:

- مادام بيكذبوا، يبقى ما ينفعش إحنا نلعب بنضافة..

كان يتحدث بدافع الأب الخائف، عقله لا يراجع ما ينطق به لسانه.. لكن قلبه ينقبض بخوف.. عاتبته "لمياء" بضيق:

- دي مش طريقتي يا أدهم..

انتفض من مكانه مبعدًا زوجته عن ذراعيه بعنف، ومشيحًا بنظره عن دموعها:

- طريقتك هتحبس ابني يا لميا..

انفعلت بالمقابل وهي تشير إليه بغضب:

- وطريقتك ممكن تثبت التهمة عليه لما الشهود يقولوا إن أبو المتهم حاول يشتريهم أو يضغط عليهم قدام القاضي..

"المتهم"..

كلمة اعتصرت قلوب الحضور.. ليصرخ الأب ثانية بعجز:

- ده فخ يا لميا.. ابني وقع في فخ..

- تقصد إيه يا أدهم!..

كانت من شقيقته التي وقفت قربه باهتمام..

اهتمامًا لم يعِ تلك الحرب الدائرة بين جوانحه، بدواخله المستعرة..

بأنه يعلم التفاصيل..

أنه السبب..

أن الدليل بعقله ليس بيده.. ولا يملك تقديمه!..

وزوج أخته يتمم حديثها:

- فخ إزاي يا أدهم!.. مين هيعمل كده مع مروان!.. وليه!..

ترك مجلسه هو الآخر، يفكر مع الصمت الذي حاصر الجميع فكمم أفواههم بسلطانه:

- كمان صاحب المسدس اتقتل.. فمش منطقي إن أصحابه يعملوا كده، صاحب المسدس مات..

كلمات "زياد" كان تطوقه أكثر.. تكبله.. تقذفه بقلب جحيم لا نهاية له..

وحقيقة حديثه وحديث زوجة أخيه فهمها جيدًا، خطأ واحد منه قد يكلف ابنه حياته دون تردد!..

سقط عائدًا حيث كان بضعف والأخ الأكبر يقترب منه، يضع حدًا لاضطراب الكل وهَياجهِم، يضغط كتفه بيده في دعم:

- لميا هي الخبيرة هنا.. نسيبها تتصرف..

التقى ببصرها في اللحظة التالية..

الحمل الثقيل على عاتقها يكاد يودي بها..

والهاوية هذه المرة لا قرار لها، بل سقوط أبدي في عتمة الذنب إن خسرت!..

***

لكل جواد كبوة.. ولكل فارس سقطة..

كبوة جواده كانت حجرًا عثرة وسقطته أوصلته لقاع الهاوية..

لا.. هو لم يسقط!..

بل دفعه أحدهم عنوة ولم يمنحه فرصة إدراك السبب!..

كلا.. فارسها لن تكون نهايته بحفرة مظلمة، نعم فارسها وفارس قلبها وسيظل إلى نهاية العمر..

رحلت العائلة تباعًا عن المنزل بعد انتهاء الاجتماع الطارئ، عمتها تواسي خالتها.. زوج العمة يدعم العم، والأبناء في حالة تشتت.. منهم من يتماسك، والبعض لا يزال في مرحلة عدم التصديق لم يتخطاها بعد..

وهي من هؤلاء..

حتى عندما حادثتها أخته ثم توأمتها بدعم منهما لم تسمع ما قالتاه حرفيًا..

كانت في عالمها الخاص.. معه!..

هي لم تتركه لمنح قلبها المجد في حكاية عشق، هي رحلت عنه لأنها تعشقه ولا تريد لذلك العشق خاتمة لا تليق بلمحميته بروحها..

رحلت عنه.. ومن بعدها بات وحيدًا يصارع الغرق عندما ثُقبت سفينته دونها..

لا يمكنها أن تقترب..

لا يمكنها أن تضمه..

لا يمكنها أن تطمئنه وتقف في ظهره وتسانده..

لا يمكنها تقديم أي شيء..

هي في هذه اللحظة عاجزة تمامًا، حتى عن التنفس براحة.. وضمها لصغيرتها لا يهدئ من روعها مثقال ذرة..

كانت تمر بشرود قبالة باب غرفة والديها، ابنتها عند قلبها النابض بوجع، وعيناها سابحتان في فضاء لا نهاية له..

لكن.. وباستدراك مفزع، أوقفتها الزعقة غير المصدقة..

"يعني إيه كان هو المقصود بالرصاصة!"..

صوت أمها المصدوم باختناق..

"يعني معتز رسم الخطة وكان هيقتله، بس لما الجرسون هو اللي مات أجبر أدهم يتنازل عن المناقصة والمدينة الجديدة عشان الشهود يقولوا إنه قتل خطأ مش عمد"..

صوت أبيها في ضيق غاضب مكبوت.. بل مكبل..

"يعني كده كده القضية خسرانة!"..

حزم أمها يهتز.. يضيع.. ينكسر..

"إلا لو لقيتِ ثغرة!.. أي تدخل من أدهم؛ معتز هيجبر الشهود يغيروا أقوالهم، إن مروان قصد يقتل الجرسون"..

غضب أبيها يتبدل لخوف.. تماسكه يتصدع..

وفتحت الباب بلا استئذان مع صحوة مفاجئة لكل اضطراب ممكن يقتلع هدوء نفسها:

- مروان كان هيموت!..

وجوم ملامح والديها مع ظهورها المباغت حثها على اقتراب متعثر:

- كانوا عاوزين يقتلوه!..

وذراعيها تعتصران جسد الصغيرة التي شرعت في البكاء، تناولها منها والدها ووالدتها تحتضنها:

- اهدي يا سما.. هو بخير..

لكنها انتفضت نائية عنها بهلع، عيناها تتعلقان بأبيها ونبرتها بحزم لا يقبل الجدل تطالب:

- أنا عاوزة أروح له..

وقد كان..

في اليوم التالي وبمحبسه المؤقت بقسم الشرطة كانت تواجهه.. أودعت طفلتها أحضان خالتها وذهبت إليه مجردة..

مجردة من كل حس وشعور إلا الخوف.. والعشق!..

عندما واجهته، سقط بصرها على وقفته المهتزة.. على انكسار عينيه.. على انعقاد حاجبيه وعتابه الصامت لعمه كأنما يسأله لمَ أتيت بها إلى هنا!..

على ضعف ألم به، وطوق داكن حاصر جفنيه..

على هيئة مشعثة، متعبة.. وملامح منهكة..

عندما رأت منه ما رأت دنت حتى واجهته وبلا تردد أخبرته:

- رُدني..

تقطيبته انفكت لثانية ثم عادت لانعقادها..

ينظر لعمه بدهشة بعدها يعود إليها والغضب يتشكل فوق وجهه مخيفًا..

يصمت حتى ملَّ الهدوء صمته وعندما تحدث انفجر:

- شفقة دي يا سما!..

ارتدت خطوة مبهوتة اقتربها هو دون اكتراث:

- طلقني.. رُدني.. إيه!.. دلوقتِ الحب هيقدر يكمل ويعيش!..

رفعت يدها إليه.. تتوقف قبل أن تلامسه.. تنحشر الكلمات بحلقها وعبراتها تنسكب بفيض:

- مروان.. أنت بتقول إيه!..

لم يجبها.. استمر انعقاد حاجبيه وبصره يلتقي ببصرها جامدًا، قاسيًا.. ثم ينتقل لوالدها المتعجب والمتألم، يبتعد عنها.. يدير إليها ظهره فهو لا ينقصه عطفًا أو رثاءً:

- عمي.. من فضلك ما تخليش سما تزورني تاني..

شهقت تغص بدموعها، انفعالها يمنع استسلامها.. يدفعها نحوه تتشبث بذراعه في وهن:

- ليه بتعمل كده!..

جذب يده منها في غير رفق، يخاطب عمه كأنها ظل وهمي تراءى له في حلم:

- عمي لو سمحت.. خد سما وروحوا..

طعنة نجلاء سددها لقلبها الذي عشقه..

همست باسمه وتجاهل الجواب..

استجدت والدها أن يتدخل، فاستجاب.. يحتوي كتفيها، يجذبها معه بعدما منح ابن أخيه ربتة مطمئنة.. ويرحل!..

في سيارته انهارت..

انتحبت ونشجت بصوت متحشرج:

- ليه يا بابا!.. ليه رفض وأنت سمعت كلامه!..

قرر والدها أن الصراحة هي الحل الأسلم خاصة مع ذاك الضيق الذي اكتنفه من طيش ابنته التائهة بأرض العشق:

- أنتِ عاوزة ترجعي له ليه يا سما!..

انكمشت بضعف عاجز:

- عشان أقف جنبه.. عشان أحضنه وأطمنه، بحق الحب اللي جوايا لازم أكون معاه..

تنهد الأب.. فابنته لا تجيد لعبة الحياة وتظن أن اللونين الوردي والأسود هما الوحيدين بها:

- الجوازمش لعبة يا سما.. موافقة، طلقني.. رُدني!..

حاولت الاعتراض فبتره بحسم:

- عاوزة تقفي جنبه؛ أنتِ بنت عمه وأم بنته.. مش أكتر..

- بابا..

دامعة منها.. واهية، مناشدة تريد منه طمأنة منحها إياها بضمة وصوت هادئ:

- أنتِ فاهمة مروان يا سما.. دلوقتِ هو مش هيحتاج مشاعر، كل ظنه فيها هيكون شفقة..

نظرت إليه بتأمل منتظر.. أردف يجيبه:

- الفارس محتاج حصانه ودرعه يا سما..

اقشعربدنها مع كلماته..

رجفة باردة استشعرها ليضمها أكثر..

فهو خير من يدرك أن الفارس..

انكسر!..

***

لو كنت من هواة قراءة الجرائد القديمة..

تحب ملمس الورق ورائحة الطباعة، ذلك السواد الذي يخلفه الحبر فوق أناملك..

لو كنت!..

ووقفت عند أقرب بائع جرائد تطالع العناوين لتختار إحداها تشتريها..

تلتقط واحدة نصف مغمورة اشتهرت بكونها من الصحف الصفراء التي تتعايش على الأخبار المدسوسة..

الشائعات وشيء من الحقيقة الملوثة..

ربما تفتح الصفحة الثانية..

تقع عيناك على ذلك الخبر الذي يحتل نصف الصفحة بعنوان بخط أحمر..

"الحكم على وريث امبراطورية الحسيني في قضية مقتل نادل المعادي بالسجن لمدة خمس سنوات"..

لا تهتم بالخبر كثيرًا..

تمرره فرجال الأعمال هؤلاء لا تكترث لهم في شيء.. هم يبتلعون البلد وحسب..

تستمر في التصفح..

تصل للصفحة ما قبل الأخيرة.. ويصدمك خبر آخر..

لا.. بل فضيحة تجيد تلك الجريدة اقتناص شبيهاتها..

"فساد رجال الأعمال يتخطى المحظور، نزار عماد غالي ولي العهد بمملكة غالي.. شاذ جنسيًا!"..

وبصحبة الخبر صورة مطموسة المعالم.. لا تكاد تميز محتواها..

تتضايق بعض الشيء وربما تسبُّه في سرك..

تترك الجريدة من يدك وتفضل شراء علبة سجائر رخيصة تدخنها بشراهة جوار كوب من الشاي الثقيل على المقهى مع أحد أصدقائك..

هناك تتشدق بما قرأت.. وتستمر في السباب..

لن تدرك كامل أبعاد الموقف..

وبالتأكيد لن تسمع صرخة زوجة خسرت ابنها في تهمة ظالمة..

وزوجها.. أبيه، يسقط أمام عينيها بشفاه شاحبة، وأنفاس متلاحقة شبه مقطوعة تعلن قرب النهاية!..

(٣٥)

في هذه الرواية؛ هناك فصول عنكَ أنت..

لكَ وحدك..

هناك ذروة..

لم تصل إليها بعد!..

على حدود القلب المُتعب؛ تعجز الكلمات.. تُقهر المشاعر.. تنزوي الرغبات ويُدفن الأمل بمستنقع اليأس..

على حدود القلب المُتعب؛ أنت ميت على قيد الحياة..

تريد رؤية رجل مهزوم!..

أفقده روحه وبيده..

البعض عندما لا يملك ما يخسره يتوحش.. يتبدل.. ينتقل من خانة الفريسة لخانة المفترس.. الصياد!..

والبعض الآخر..

ينكسر..

ينطوي..

يبتعد..

ويسقط!..

الطود الحصين سقط.. عماد العائلة رُغم أنه ليس الأكبر، الرجل الذي يستند إليه الجميع..

سقط بمنتصف ردهة المنزل بعد عودتهم من محاكمة ابنه الجائرة وحكمها الأقرب لتصريح بالقتل..

أوربما لم تكن كذلك، فالجُور طرف خيطه بدأ عنده!..

انهار وصدره يعتصره الألم، ألم انتشر إلى ذراعه اليسرى ليؤكد على علة قلبية مباغتة.. دوار.. أنفاس لاهثة، تعرق مقيت وانتهت الصورة بفقدان وعي..

بل انتهت بصراخها..

شريكة العمر التي كانت آخر من لمح وجهها قبل أن يغمض عينيه وأنفاسه تتباطأ لحد مخيف..

ثم أفاق..

كأنما مرت ثوان أو دقائق على الأكثر، الضوء الأبيض يزعجه، يغمض عينيه مجددًا.. الرائحة التي تدلل على وجوده بمشفى تخنقه وتصيبه بغثيان، يستمع لتوسلها.. نداءها الواهن فينبض قلبه ملبيًا:

- أدهم!.. سامعني!..

كانت تبكي..

دموعها تغرق فيها أحرفها التي تمتمت باسمه واستجدته الجواب:

- حبيبي رد عليَّ..

جاهد ليفرق جفنيه، حارب ليكون كلمة ما خرجت منه همهمة لا معنى لها.. شعر بتلك الأصابع التي تتحسس نبضه، الصوت المطمئن لابن أخيه:

- اطمنوا.. الحمد لله عدينا مرحلة الخطر..

وعاد لسباته برغبة تامة..

فقط حضورًا خاطفًا أخبرهم به عن بقائه معهم، وغاب في المجهول حيث لا يجلده ضميره بما اقترفته يداه بحق ابنه.. بحق أمه مكسورة الفؤاد.. وبحق عائلته التي طالتها الفضيحة المزيفة..

عندما فتح عينيه للمرة الثانية كانت أول وجه يراه..

تبتسم بحزن والمرارة تغلف أدق تفاصيلها، تقترب وتلامس جبينه بكف باردة.. تنحني لتقبلها ثم تهمس له بتنهيدة احتياج:

- حمدالله على سلامتك..

بعدها تتابعت الأحداث..

علم أنه ظل في سباته ليومين، أنه خرج من العناية المركزة قبل ثلاث ساعات وحسب..

أنه أصيب بجلطة قلبية، لم تكن بالقوة الكافية لتقتله لكنها لم تمر على قلبه وجسده مرور الكرام بل سيحمل معه أثرها ما بقي له من عمر..

لم يصرح له ابن أخيه بالخروج من المشفى بعد، رُغم مرور أكثر من أسبوع.. تحركاته القليلة باتت على مقعد متحرك كأنها تزيده عجزًا على عجز..

وبحزم أكد عليه أنه لن يغادر إلا بعد اختبارات عدة تؤكد لهم سلامته..

"أنا السبب!"..

خرجت منه مختنقة بعد رحيل أخيه وابنه وحفيدته التي قبعت بأحضانه طيلة الساعة الماضية تفي ببعض الشوق الذي يغزوه لابنه..

استدارت له زوجته الراقدة فوق فراش مجاور أصرت أن يحتل ذات الغرفة لتكون بصحبته طيلة الوقت..

تركت مكانها وجلست قربه تضمه إليها:

- ماحدش السبب يا أدهم، ما تحملش نفسك فوق طاقتها..

رفع لها وجهه بنظرة كسيرة هالها وجودها بعينيه:

- دي الحقيقة الوحيدة، ومهما حاولت ألف وأدور حواليها هتفضل حقيقة..

- أدهم!..

تعاتبه بحنو رافض هزله رأسه:

- كابرت وعاندت وكنت عارف إن الخصم ماعندوش شرف، ما بيلعبش بنضافة..

وارتجف فكه بغضب مكبوت لامسه ضعف:

- طلعت أنا كمان ما باعرفش ألعب، وخسرت..

ثم أغمض عينيه تاركًا للعتمة احتواء أفكاره:

- خسرت اللي أهم من كل صفقة عملتها في حياتي..

ضمت رأسه لصدرها بضغطة قوية كأنما تزرعه بين ضلوعها:

- عمر الشرف ماكان سبب للندم، اللي حصل لمروان مش ذنبك..

انسابت عبراتها ككل مرة يُذكر فيها اسم صغيرها السجين خلف قضبان الظلم والنكران والخديعة:

- اللي حصله ذنب وحوش فاكرين الدنيا غابة وماشيين بقانونها..

- ما هي فعلا غابة يا جمانة، بس واضح إننا بنلعب فيها دور الفريسة..

كان يتخلص من احتضانها بشبه عنف استجابت له لتطوقه ببصرها بحسم:

- لأ.. مش غابة، ومهما حصل واتظلمنا مش هتتحول لغابة..

أمسكت وجهه بين كفيها تجبره على النظر إليها:

- مروان صاحبه خانه، شهد زور أيا كان السبب.. مش ذنبك يا أدهم، ولا ذنب الدنيا..

اهتزت مقلتاه للحظة اقتنصتها هي بجدية حازمة تجبر كسر روحه وقلبه:

- مش ذنبك إنك ماشي صح في زمن بيكسب فيه اللي بيعرف يغلط ويهرب من العقاب..

صمته أجبرها على الاستمرار..

تحسست وجنته بإحدى كفيها والأخرى تثبته لتحاصره بدفء عينيها:

- مش ذنبك إن الوحوش ماعجبهمش طريقك فقرروا يخلقوا قدامك مفترق خطر عشان يجبروك تعدي منه..

ثم أعادته لأحضانها، تعتصر جفنيها، تكبت دموعًا لن تزيده إلا انكسارًا ولهجتها تتشبث ببقايا صلابة لأجله.. لأجل ابنها:

- مش ذنبك أنك اخترت صح في وقت اختيار الغلط مافيش أسهل منه.. حتى لو هتدفع التمن..

قبلت رأسه بحنو أم:

- أنت عملت اللي تقدر عليه، واللي إحنا فيه دلوقتِ ابتلاء من ربنا..

كلماتها كانت تنزل كالندى على جرح أبوته فترطب جفافه وتتركه ينزف مهدرًا دنسه:

- وعشان هو ابتلاء؛ هنصبر ونحتسب وندعي..

عادت تبعده عنها، تغوص بعينيه الباهتتين بقوة تحاول مده بها وإن كان مقدار ما تملكه منها ضئيلًا..

تدرك أنه يحتاجها..

تدرك أنه في هذه اللحظة ليس رجلها الذي عاشرته طوال سنوات مضت..

ليس هو من كاد يفقد حياته، وأفاق يشاغبها بمزحة..

ليس هو من فقد والده فوقف كالركن المنيع في ظهر كل عائلته..

ليس هو من أوشك على فقدها وخسر طفله برحمها ثم عاد ليجذبها من هوة ضعفها لتتقوى به..

هو آخر جديد..

لا تعرفه وتخشى عليه..

وترعبها نظرة الخوف والانكسار والذنب بعينيه..

بترت دوامة أفكارها الخاصة حوله وقتما استرسلت بهدوء متماسك ونبرة تتلحف بالثبات:

- هناخد بالأسباب.. لميا رفعت دعوى استئناف، وإن شاء الله ربنا هيحفظ لنا مروان ويرجعهولنا..

استقامت تترك قربه..

تبلل منشفة خفيفة بقطرات من الماء البارد، تمسح بها جبهته ووجنتيه وعنقه قبل أن تحتويه فيستكين لضمتها مدهوشًا من امرأة هي له كل شيء..

القوة والبأس..

الحنان والاهتمام..

الأم والزوجة..

- قول يارب..

ترك لجسده حرية الاستسلام لعناقها ولسانه يكرر ورائها بتضرع خاشع:

- يارب..

ضعفه تمكن منه فخنع لإرادته وأنفاسه تهدأ:

- مروان عرف اللي حصل لي!..

نفت باقتضاب تفهمه:

- لأ..

دقائق ساكنة وراح في نوم قلق..

أحلامه تتمركز حول قُرة عينه؛ تراه كيف ينام!..

***

في الغاب..

لا تنجو بالافتراس وحسب..

فهناك دومًا الحيلة!..

الخداع، المكر.. والمرواغة..

ظل صامتًا لوقت طويل، عيناها تتأملانه بغموض، تضيقهما بنظرة حانقة لثوان ثم تعود لظلمة مقلتيها المبهمتين..

طال سكونه حتى ضايقها فتركت مقعدها بحدة لم تلفت ذرة من انتباهه:

- نزار!..

دون أن يكلف نفسه عناء أدنى حركة دارت حدقتاه نحوها بلامبالاة ضاعفت من ضيقها:

- هنعمل إيه!..

- بفكر يا رولا..

عقدت ذراعيها وسيطرتها على ضيقها تضمحل:

- قولي بتفكر في إيه!.. نفكر سوا..

تجاهلها ببرود تام وجفنيه يتعانقان بتمهل أحنقها فأظهرت انفعالها المكظوم من بين أسنانها:

- نزار..

قبل رد جليدي جديد اندفع إعصار غاضب من باب مكتبه بمنزله والخادمة تتبعه بتوتر بعدها تنصرف بإشارة من يد سيدتها التي استقبلت القادم بحرارة مفتعلة:

- أنكل عماد..

تجاهلها والد زوجها تمامًا بينما يتجه نحو ابنه بخطوات ساخطة:

- الكلام اللي اتنشر ده صحيح!..

وألقى بالجريدة في وجهه مردفًا بسباب:

- هي وساختك دي مالهاش آخر!..

- بعض ما عندكم يا عماد بيه..

الرد المباغت بلهجة كالصقيع، والنهوض المتلكئ بتهكم هازئ ثم المواجهة:

- هذا الشبل من ذاك الأسد؛ ولا إيه!..

تلاقت الأعين في حرب دامية.. اندلعت النار بينهما وتصاعد لهيبها قبل أن يشير الأب لزوجة ابنه بثورة مكبوتة:

- سيبينا شوية يا رولا..

رفع ابنه حاجبًا ساخرًا خاصة مع خضوع زوجته بهدوء لأمر أبيه، استند "نزار" لمكتبه ويديه بجيبي سرواله بتراخٍ مغيظ:

- ما يصحش برده مرات ابنك تعرف فضايحك..

حدجه والده بنظرة مستعرة وشفتيه المزمومتين تنفرجان بسؤال كطلقة رصاص:

- الكلام ده صحيح!..

هز ابنه كتفيه بلا اكتراث:

- زي ما الكلام عن عاهرات عماد غالي صحيح رغم حرصه الشديد على السرية التامة..

ضم الأب قبضتيه بغضب:

- مش شايف إنك بجح شوية!..

فاجئته القهقهة المستهزئة كأنما ولده يشاهد عرضًا هزليًا يروق له:

- البجاحة دي وراثة برده by the way..

ثم اعتدل بغتة يواجهه بحركة حادة:

- ما كنتش بتخبي نزاوتك عن العيلة وماحدش اعترض..

تهكم والده بفظاظة:

- على الأقل نزواتي مع ستات وسمعتي في السوق نضيفة..

عاد حاجب الابن يرتفع بسخرية ماكرة:

- وأنا مع رجالة، عادي يعني.. وبرده سمعتي نضيفة..

وأخرج إحدى يديه من جيبه مشيرًا بحركة مسرحية:

- اللي حصل ده غلطة وهتتحل..

كان حوارًا خارج حدود المعقول، يحطم المنطق.. بل يهشمه لأشلاء جوار كل ثوابت الدين والمجتمع..

جوار كل ما هو محرم أو حتى حكمت عليه العادات بالعيب..

بدا الوالد قانطًا باستسلام لرغبة ابنه التي تماثل عنده كل شذوذ سالف..

كل مغامرة.. كل مخاطرة.. كل جنون سبق وقام به لأجل متعته:

- عشان كده ملك طلبت الطلاق..

قررها بفهم متأخر.. وعلى ذكرها تحفزت ملامح العاشق السابق بمقت:

- ما تجيبش سيرتها..

- هه.. ما تقولش كنت بتحبها، اللعبة دي مش على أبوك..

- لسه بحبها..

مشتعلة.. هائجة..

رفعة الحاجب الهازئة أتت من الرجل الأكبر هذه المرة بموازاة اقتحام الزوجة للغرفة ثانيةً وعيناها تبرقان بنشوة ظافرة:

- لقيت الحل..

استدار إليها الاثنان والنظرة تجمع بين اللهفة والاهتمام:

- هنكذب الإشاعة..

سخر الزوج بهمس خفيض:

- إشاعة!..

تحركت تقترب منه بثبات، تستند لكتفه بيدها والأخرى تداعب ياقته بدهاء:

- طبعا إشاعة.. وإشاعة حقيرة كمان..

ضحكته خرجت مبتورة باستخفاف فاستطردت دون اهتمام:

- هنعمل حفلة كبيرة جدا، هندعي رجال الأعمال المهمين وفنانين وسياسين.. الحفلة على شرف..

وصمتت لتمنح كلماتها فضولًا مستحقًا طفا بأعينهما:

- على شرف ولي عهد "غالي" اللي هيشرف بعد شهور..

تغضن جبين الزوج والأب يهتف بدهشة شابها بهجة:

- أنتِ حامل!..

تراجعت مستهجنة:

- لا يا عمي.. ده مجرد رد على الخبر اللي اتنشر..

دارت حول نفسها بخيلاء في المكان تكمل خطتها الشيطانية:

- وقبل الحفلة هنرفع قضية سب وقذف على الجريدة، هنطلب تعويض ما يقلش عن مليون جنيه.. والصحفي اللي نشر الخبر ده لازم يتعاقب..

دام السكون للحظات تأملها خلاله الاثنان بإعجاب..

فهذه المرأة، هي صاحبة الثمرة المحرمة..

هي التي لا يجوز العبث معها أبدًا؛ لأن النهاية لن تكون سوى جحيم مستعر..

***

إن كانت القلوب تختار زوايا الميل؛ فحبها لم يكن له زاوية..

هي لم تبِح له بداية.. لم تتِح له ميلاد..

هي أغلقت الكتاب قبل أن تمر عيناها فوق سطور الصفحة الأولى..

وبعدها عادت تفتحه لتجد صفحاته بيضاء، لا نقوش هناك حيث أن العشق ترك كتابها وهرب.. ووحدها لن تستطيع كتابة قصة!..

صبرها نفذ..

سافرت بمهمة تابعة لعملها رأت فيها مهربًا جيدًا من أخباره التي تحتل الجرائد الورقية والالكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي..

أخبارًا سيئة، مخيفة.. وكاذبة وهي تعلم..

تابعتها قهرًا وقلبها يسيطر على كل تعقل ممكن فيكسره، يهدم جدار الصلابة ويفتح به ثقبًا عبرت منه مشاعرًا لم تُدفن بعد.. ربما لأنها في الحقيقة لم تمت!..

في كل دقيقة ومع كل تطور جديد كان نبضها يفوق حد التحمل وصولًا لشفا الجنون..

حتى أتت لحظة الحسم..

لقد حُكِم عليه بالسجن.. لخمس سنوات!..

هنا الانهيار كان واجبًا، اقتحمت جلسة والديها الهادئة كزوبعة غاضبة.. وأمام نظرة أمها الثاقبة والقلقة توقفت..

انحشرت الكلمات بحلقها وأفكارها تهت رويدًا رويدًا لتظهر اندفاعها..

فأي حق تمتلكه!..

ابتسم لها والدها بهدوء بينما يفسح لها جواره:

- بنت الراجي..

تحركت نحوه خطوة وتوقفت، والدتها تحجم كل انفعال ممكن بعينيها والفهد يشجع كأنما يفهم الصراع الذي يحرقها:

- تعالي يا غرام.. قولي عاوزة إيه!..

تلعثمت بحماقة أنثوية قلما تنال منها..

بل لم تنل منها من قبل:

- بابا.. أنا..

- غرام..

- سيبيها يا دينا..

أمها تنهرها والأب الحاني يشجع، لكن ضعف الأم تحكم:

- لا يا فهد..

ضم "فهد" يد زوجته بين كفيه بتفهمٍ حانٍ:

- أنا عاوز أقعد مع غرام شوية، ممكن اتنين ليمون بالنعناع من إيديكِ..

عاتبته بعينيها فرمقها بنظرة لم تفهمها الابنة الحائرة بين الاثنين..

تأملتهما لثوان..

كانا يتطلعان لبعضهما في صمت كأن بين أعينهما لغة خاصة تجهلها..

لغة تقص الكثير، يتحدثان دون كلمات أو حروف.. حتى اقتنعت الأم فاستقامت بتردد والأب يتابعها ثم يشير لطفلته:

- تعالي يا غرام..

جاورته بارتباك بحثًا عن مستهل لحديثها، مستهل تجاهله هو حينما رفع وجهها إليه لتلتقي غيومها الشاحبة بغيومه المثقلة بالحنو:

- عاوزة تروحي له!..

انتفضت والفهد يبتسم بفطنة وأنامله تقرص أذنها:

- أنتِ فاكرة عشان بابا ما بيتدخلش يبقى نايم على ودانه ولا إيه!..

تعسر ميلاد الجُمل عند أطراف لسانها، وفمها الجاف يجبرها على سعال مصطنع توسعت له بسمة الأب:

- لأ.. بنت الراجي، ما تهربش من الكلام..

أجلت صوتها بنحنحة خافتة:

- مش هروب، بس مش لاقية صفة تخليني أفكر حتى في الموضوع..

تأملها والدها باهتمام، يسبر أغوارها دون حاجة لتفاسير طويلة:

- مادام في مشاعر؛ يبقى لها حق عليكِ.. يبقى في صفة..

استغربت كلماته فتلاقت ببصره في نظرة حائرة:

- يعني موافق إني أروح أشوفه!..

تنهد "فهد" بصمت لم يطُل:

- وتاخدي معاكِ الأستاذ شاكر كمان..

- بابا.. أنا..

قاطعها بربتة رفيقة فوق وجنتها:

- غرام.. أنتِ واثقة إنه مظلوم!..

- طبعًا..

تشابكت حروفها الأربعة بذيل كلماته في لهاث خاطف فابتسم:

- حب ولا..

نفت بهزة خجلى من رأسها:

- لأ يا بابا، مروان اللي عرفته سنتين في الجامعة ما يعملش كده، مش أخلاقه..

جادلها أبيها سعيًا لإيصالها لمرفأ ترسو عليه، تبدأ منه:

- بس ده قتل خطأ، كلنا معرضين لحاجة زي دي لو توفرت الظروف..

اعتدلت بحزم وكل جوارحها تنفي بصدق:

- لأ.. كل الكلام اللي اتكتب عنه كذب، مروان لا هو مدمن ولا متحرش عشان نختم الحدوتة بقتل..

إخلاص نبرتها والإيمان فيها طمأنه..

ابنته تكبر، تعي جزءًا معتمًا من الحياة بقسوتها وجبروت ساكنيها..

تتفهم وتوقن بما يتثبت منه قلبها دون مناورات مرهقة هباءً.. صمت قليلًا بشرود وعقله يفكر بماضيه المظلم..

سنوات قضاها بين جدران الزنازين وخلف القضبان..

سنوات خلقت منه رجل اليوم..

رفع وجهه يتأمل غياب عينيها عنه بتقطيبة انفكت ونبرته تخبرها بحسم:

- روحي له يا غرام..

تعلق بصرها به في أمل نفض قلبه فقربها منه:

- أنا كنت مكانه في يوم، وعارف إنه دلوقتِ محتاج للي بيحبوه أكتر من أي وقت تاني..

تراجعت مبهوتة فابتسم يطمأنها:

- أيوة.. بابا كان مسجون زمان؛ تحبي تسمعي حكايته!..

تضاعف ذهولها وشفتيها ترتعشان في غير تصديق:

- مسجون!..

جوابه أتاها صامتًا بنظرة لم يمسها خجل، بل فقط ذكرى تربعت هناك بين جفنيه ووحشة تلك الأيام تغزوه بحضور قاس:

- احكِ لي..

تمتمت بها في وهن مختنق..

وتفهم.. هو يهدم ثوابتًا تربت عليها حيث كان هو الفارس، الفهد.. الصفحة النقية الخالية من الشوائب بحياتها..

تكررت بسمته وإن أسرها الشرود بين مخالبه:

- أنتِ قريتِ رواية the count of monte cristo..

أومأت بإيجاب كان يعلمه.. فهو من أهداها إياها في ذكرى ميلادها الخامس عشر..

تنهد بعمق وحرر ذكرياته من عقالها..

عقالٍ سيطر عليها عمرًا بأكمله فلم تخرج سوى مرة واحدة؛ لشريكة الحياة والعشق والألم..

حرر الكلمات والقصة تبدأ معه بامرأة جميلة.. فقيرة، في سرد معتاد جعلها مطمعًا لرجال منطقتها العشوائية منذ لامستها استدارات الأنوثة ففتنت رغباتهم وأسرت شهواتهم دون وعي منها..

عن أب منحها لأول رجل يطرق بابه قبل أن تكمل عامها السادس عشر فقط ليتخلص من حملها الثقيل عليه مع إخوتها الخمس بورقة عرفية لا تثبت الميثاق..

ورجل انتهك منها كل ما طالته يداه..

كان يرى في فتنتها ملامح شيطان، في أنوثتها خطيئة وفي خضوعها له نشوة..

رجل لم يدُم وجوده بحياتها عندما علم بحملها.. وبمرض عضال أصاب قلبها؛ فهرب!..

عندما أتمت ثمانية عشر عامًا كان المرض قد تمكن منها أكثر، ورضيعها بين يديها لا تجد ما تطعمه إياه..

تتابعت عليها السنون والكل ينهشها..

يتحرش بجسد منهك، ويجبر روحًا متعبة على الاستسلام..

جاهدت في دنيا الجهاد فيها هزيمة، الصغير يكبر بجسد هزيل ضعيف.. وضعفها هي يزداد يومًا بعد يوم حتى ماتت..

رحلت عن عالمها المحدود حيث هي وابنها فحسب عندما أكمل هو سبعة أعوام..

رحلت وتركته وحيدًا بشوارع باردة وقلوب قسوتها أشد برودة من أسوأ شتاء..

تنقل بينها وجسده يكبر.. عقله ينقم على الحياة وقلبه معبأ حد الفيض بالبغض لكل من يرى فيها راحة..

عمل بورشة ميكانيكي سيارات لفترة، بعدها ورشة نجارة.. انتقل لمخبز يقف بمواجهة النار يتصبب عرقًا حتى شارف على الذوبان.. ثم ورشة لخراطة المعادن، تعامل مع تجار المخدرات.. باعها وسلمها من موردها لموزعها..

وفي تلك الأيام قُبض عليه..

كان يبلغ مع العمر خمسة عشر..

لايزال يتأرجح بين الطفولة والشباب، لكن الرجولة نالت منه بصلابة.. وقذارة ما عايشه أصقلت وحشيته..

حُكم عليه بالسجن سبع سنوات قضى منها ثلاثًا بالأحداث.. ثم انتقل لسجن الرجال؛ حيث لا شفقة، لا رحمة.. لا شيء سوى القسوة والدماء..

دماءً أهدرت عندما أنقذ رجلًا من طعنة غادرة تركت في كتفه هو ندبة لم يمحُها زمن..

وكانت أول مرة يظهر فيها نُبل ما داخل الفارس الكامن بقلبه..

بل كانت أول نبضة حية ينبضها..

عاد يتنهد، يشرد وصوته يحاوطها بعمق:

- الراجل ده؛ كان بالنسبة لي فاريا اللي قابل إدموند دانتيس في السجن..

ملامحها اختلطت فيها مشاعر شتى.. أوضحها الخوف وأحدها الألم، ربت على وجنتها بحنان مطمئن:

- بس ما إدانيش خريطة لكنز مدفون في جزيرة..

همس بها بابتسامة انعكست على وجهها بوهن:

- إداني عيلة.. ودي كانت الكنز الحقيقي..

تراجع في جلسته مستريحًا وبصره يعود للماضي البعيد:

- كان عاوز يجوزني بنته، هو كان محكوم عليه بمؤبد.. قال لي لما تخرج هتروح وتتجوزها وتبقى راجل البيت ده.. كان مستأمني عليها وعلى والدتها..

وتحولت نظرته الغائبة لشيء من بهجة وحاجبيه يرتفعان:

- بس اللي ماكانش يعرفه إنها بتحب فعلا..

ثم أكمل بسرد غير مفصل حكاية فتاة لم تنل من قلبه وإن كانت له كأخت لم يحظَ بها..

أختًا وقف جوارها وساندته حتى زوَّجها لمن تعشق بيده وحمل أطفالها..

وانطلق يحفر اسمه مقسمًا أن يأخذ من الدنيا رُغمًا عنها، برعونة.. بشرف أو بدون.. حتى خلق لنفسه الاسم الذي أراد..

اقتحم السوق وسرق أضواء مسرحه الوحشي..

بعدها سمع عنها..

امرأة انهد عالمها فوق رأسها بلحظة..

امرأة يطاردها ماضٍ عفنٍ يخنقها..

امرأة قوية نهضت من كبوة سقوطها بصلابة لا يملكها سواها..

امرأة تشبهه..

وأرادها له..

حينها كانت معادلته عملية للغاية، دمج رأسمالي خاص يطويها تحت جناحه.. حتى قابلها!..

وهنا كان للقدررأي مغاير..

كان تدخله حاسمًا لصالحها..

كان لقلبه السلطة مهما قاوم..

سقط في العشق..

حاصرها بكل وجه ممكن، لم يخفِ عنها فوضى ماضيه.. كما أنبأها بعلمه لماضيها وتفهمه..

وجمع بينهما ميثاق أصبحت هي ثمرته..

غرامه بها التي مزجت بين قوتيهما في روحها وعنفوانها وعقلها..

ختم الحكاية ببساطة قاص كتب النهاية منذ زمن:

- السجن مش آخر المطاف، ولا كل مسجون عاش اللي جوا السجن هيخرج منه وحش..

تأملته بحيرة فأردف يوضح بيسر:

- مادام هو كويس وأنتِ واثقة فيه ولسه جواكِ مشاعر ناحيته؛ خليكي جنبه.. ما تتخليش عنه..

استكانت لحديث أبيها..

كان دفعة أخيرة تحتاجها..

ورغم ما تلاه عليها قبل دقائق فهي بهذه اللحظة فخرها به أضحى أضعافًا مضاعفة..

الآن أدركت لمَ رسبت بامتحان الخارجية الذي خاضته!..

ومع إدراكها لم تكترث سوى لثوان..

ففارسها الأول انتشل المجد من قاع الخزي..

وخلق القوة من عمق اليأس..

"هاروح له"..

وذاك مجد عشقها هي..

تخلت من قبل؛ لكن حان وقت التشبث.. فما ضيعته سابقًا لم يرحل عن القلب بعد..

***

يضربك القدرعلى رأسك مرة ولا تكاد تفيق حتى تأتيك ضربة أخرى..

كأنما يسعى لكسرك بكل صورة ممكنة..

"فضائح الطبقة المخملية، زوجها شاذ وأخيها قاتل.. قصة ملك زيدان.. المرأة الغامضة بحياة نزار غالي"..

"هل ميول نزار غالي هي سبب الفشل السريع في زيجته بربيبة أدهم الحسيني!"..

ومسلسل الأكاذيب اختتم بحقيقة غابت عنها لأن ابنتها دفنتها..

وقفت تواجهها بغضب.. كل ما فيها يتأجج بنار تحرقها كأن هذا ما ينقصها:

- عشان كده اطلقتِ..

لم تكن تسأل، بل تقرر دون جدال..

والابنة جسدها متصلب بوقفتها المهتزة بعدما أعاد لها الخبر ماضيًا ظنت أنها تخطته:

- ماما.. أنا..

- أنتِ إيه!..

بزعقة أجفلتها..

هي لم تمر مع أمها بمنحنى صعب كهذه اللحظة:

- أنتِ عرفتِ يوم ما أجهضتِ وجالك انهيار عصبي وفضلتِ هنا شهرين مش كده!..

وجمت بتطلع صامت أجبرها على تكرار الزعيق:

- ردي عليَّ..

بحنق بادلتها الصياح:

- أيوة يا ماما.. أيوة عرفت وقتها..

اشتعلت عينا أمها بكمد:

- ورجعتِ له تاني!..

واقتربت تعتصر ذراعها بقبضة واهية، ضعفها مصدره انكسار قلب:

- إزاي!.. ليه!..

انتشلت نفسها بعيدًا عن عتاب الصوت ولوم النظرة:

- كنت بحبه..

- بتحبيه!..

وواجهتها بقسوة تكتم حزن روحها:

- الحب يخليكِ تأذي نفسك!..

أشاحت بيدها في جنون مؤقت:

- تاخدي العيلة في سكتك!..

وصرخت بها بلا وعي:

- عاجبك الفضيحة دي!..

- ماما..

صراخ بصراخ ودموع بدموع..

والدتها تنكأ الجرح وهي تقدر رعبها لكنها لا تستطيع تحمله:

- كفاية..

رمقتها والدتها بغضب مكبوت ثم ولتها ظهرها بجمود:

- هو فعلا كفاية.. جوزك اتصل وقال هيعدي عليكِ، زمانه جه برا..

كانت تطردها!..

رجفة طالت نظرتها العاتبة لأمها..

رجفة غضت عنها الأم الطرف وهي تبتعد بخطوات واسعة عائدة لزوجها الذي أخفت عنه الأمر.. فالخبر لم يُنشر سوى في تلك الجريدة المغمورة، وبضع عناوين أشبه بثرثرة على مواقع التواصل..

غادرت المنزل بهَم يثقل روحها التي جاهدت لتنجو بها من فكي وحش الأمس.. وجدته بالفعل قابع بسيارته في صمت أوجعها..

قاد بها دون حرف تعثر خلف شفتيها هي الأخرى..

أسفل منزلهما وعندما صف السيارة التفتت إليه بتعب:

- يوسف..

أهداها نظرة خالية من المشاعر اعتصرت خافقها، ترجل وأشار إليها لتتبعه.. صعدا ومع كل خطوة كان صمته حاجزًا يقتلها، بالبيت وقفت تواجهه، تقطع تحركه نحو غرفة النوم:

- قول حاجة.. السكوت ده بيخوفني..

انفعال عينيه المبدئي ظهر غامضًا ثم تلاشى ليحل محله التفهم الذي استغربته، تممه بابتسامة خافتة انحنى بها فمه:

- ماعنديش حاجة أقولها يا ملك..

ارتجفت وارتجف قلبه معها:

- ليه!..

تنهد بصبر.. جذب يدها وجسدها كله خلفه ليجلسا فوق الأريكة:

- أنا عارف من زمان..

الرعشة طالت حتى أناملها المستكينة بين يديه، انتفاضة أبعدتها عنه بنظرة تمازج فيها الذهول بالانكسار:

- من بداية جوازنا تقريبا..

- وليه ما اتكلمتش!..

حاولت أن تهاجم لكن نبرتها وصلته بحشرجة واهنة:

- عشان أنا دكتور..

لم تفطن لمغزى رده فتأملته باستفسار ساكن جاوبه بحزم:

- مش هاساهم في علاج جرح وبعد ما يطيب أرجع أفتحه وأسيبه ينزف..

وتراجع يستند بظهره للأريكة:

- وما كنتش هتكلم..

رمقته باتهام حزين:

- ودلوقتِ بعد الفضيحة ما طالت الكل!..

مط شفتيه بلا تردد:

- مش هعاتب ولا هلوم.. ولا عاوز سيرته تيجي بينا..

حيرتها أغرقتها فاستقام وأقامها معه:

- كل موقف بنتعرض له في الحياة بيبقى درس، وكل درس بيكون أصعب من اللي قبله..

ثم أهدى جبينها قبلة دافئة:

- ماحدش بيتعلم بالطريقة السهلة..

وتراجع يضمها في نظرة:

- المهم وقت الامتحان نبقى عارفين الحل..

يطمئنها.. لكنه كان غاضبًا..

يكبت غضبه وهي تستشعره ولا تدري كيف تفجره؛ فبكل انفجارراحة وإن أوجعنا..

تركها عائدًا لقوقعة صمته، خطواته ترحل عنها إلى غرفة نومهما.. تبعته بسؤال تردد مخترقًا فضولها:

- أنت عرفت إزاي!..

توقف لحظة أداربعدها وجهه من فوق كتفه:

- شفته..

شهقت بصدمة وازت استئنافه لحركته ونبرته المبهمة ترهبها:

- مع دكتور كندي، زميل قديم كان في زيارة لمصر..

التخيل ذاته قاتل..

تشعر أنها تعرت أمامه بعدما فقد شغفه بها ليبصر تفاصيل اهتراء أنوثتها..

أن ورقة التوت التي سترت خطيئتها سقطت وأسقطتها معها..

المشهد بخيالها مثيرللغثيان، وهي هنا في موضع المتهم لا الضحية..

تسلل خوف لقلبها عندما راقبته يخلع ثيابه ويدلف للحمام، تستمع لصوت المياه وعقلها يصور لها أكثر مخاوفها تتبدل لواقع..

هي تفقده!..

وإن تحمل من قبل واستمر؛ فنبش قبر الحقيقة المدفونة بعفن على الملأ هو لبنة أولى في سور تراه بدأ يعلو بينهما..

***

تنفيذ قرار لم يكن أبدًا في يوم بسهولة اتخاذه..

قبل أيام وبعد حديث أبيها عقدت العزم على زيارته، على التدخل وإن كان القلب يخاف.. على المساندة بأي طريقة متاحة، والدعم بعشق لن تبخل به هذه المرة..

لكنها اليوم وهي بانتظار لقائه تتردد، ترتبك وتعيد التفكير!..

تخشى نظرة عينيه..

توقن من غضبه ولا تدري كيف ستسيطر عليه..

بل لا تعلم كيف ستطبب جرحًا نافذًا بعمق قلبه هي من اصطنعته..

نعم فعلت، ونعم تبحث عن ضمادة الآن.. فهو رجل حر..

لقد بتر والدها اندفاعها المشاعري يومها بتنبيه قاسٍ:

- هتروحي يا غرام.. بس ما تنسيش إنه كان متجوز..

عادت لأبيها بعينين تائهتين وهو يردف:

- حتى لو حصل طلاق عنده بنت تربطه بالست اللي كانت مراته للأبد..

- يعني إيه!..

اعتدل ونبرته تتخذ منهاج الحزم متخليًا عن حنوه الذي غلف كلماته منذ أتته:

- يعني هتروحي وتقفي معاه لأنك عارفة إنه بريء.. لأن جواكِ مشاعر ليه، بس ما تدوريش على مشاعره هو في اللحظة دي..

تغضن جبينها بفهم بينما يتمم حديثه بختام مناسب:

- وما تنتظريش مقابل لأي حاجة هتعمليها عشانه..

ولم تكن تفعل..

إلا أن القلب رُغمًا عنها وعنه يريد.. يتوقع ويترقب..

ويخاف!..

رأت الباب يُفتح، طيفه يعبره ببطء ساكن مستسلم كأنما فقد كل طاقته دفعة واحدة..

رأت عينيه ترتفعان لتلتقيا بغيومها الندية..

وتركت العشق يفيض من مقلتيها علَّه يصله دون كلمات..

لمحة من دهشة خاطفة مرت فوق وجهه واختفت في لحظة..

تأملت جموده..

بدايات الرفض التي أخبرتها به لغة جسده..

وتفهمت..

أنت في لحظة ما كنتَ شبحًا..

كنتَ على الهامش..

أو حتى ظننت أنك لا تصلح لاعتلاء خشبة المسرح من الأساس..

وفي التالية؛ أصبحتَ بطل الحدث.. وصلت لذروة الحبكة..

ودون إرادة منك، أو حتى رغبة..

لكنكَ أخذت دور الشرير الحقير بأسوأ صوره..

"مروان"..

نبرتها تعود بالزمن وبه..

همستها تكسره.. اسمه من بين شفتيها لا يود سماعه..

بل لا يود سماع صوتها أو رؤيتها:

- بتعملي إيه هنا!..

بتوحش أخافها منه للوهلة الأولى..

توحش لامس اللهجة والنظرة وخطوته التي قربته منها بشبه هجوم:

- جاية ليه دلوقتِ!..

قُربها هي كان رقيقًا مهتمًا حاسمًا:

- جاية أقولك إني جنبك..

دهشة ملامحه بدت لها مصطنعة.. بل متهكمة ونبرته تتحول للاستخفاف:

- فعلا!..

لم تكن لتتوقف وقد مرت اللحظات الأصعب:

- أيوة.. ومعايا أستاذ شاكر، محامي بابا..

- عشان!..

ارتبكت قليلًا فالغرض من وجوده لا يحتاج لتصريح:

- عشان توكله.. يعمل استئناف أي حاجة من اللي ممكن تتعمل..

- أنا عندي المحامية بتاعتي ومكتفي بيها..

ببرود طاغٍ أصاب قلبها بصقيع كانت تتوقعه:

- أوك.. خليه يساعدها، اتنين أفضل من واحد..

- لأ..

باقتضاب يبعدها عنه:

- مروان!..

- أي معلومات تانية تحبي تضيفيها!..

كان يتأهب للعودة لمحبسه فدارت حوله تقطع طريقه بانفعال:

- أيوة في..

رفع حاجبًا واحدًا بفظاظة غريبة عليه معها:

- خير!..

سؤاله غليظ، رافض، مبتور.. دون اهتمام:

- أنا..

البتر كان من نصيب كلمة عشق أوشكت على الظهور بصورة لا مكان لها فيها..

على إعادة تلوينها برتوش سبق وكسرته!..

لم يحثها على إكمال حديثها، بل رأته لامباليًا يسعى فقط للرحيل عنها وهي من سعت إليه:

- أنا بحبَك..

أخذته على حين غرة وقلبها يعلن انتصاره في معركة الحماقة..

فالأنثى حين العشق لا ترى.. لا تعقل.. ولا تبخل..

تراجع خطوة ودهشته تتمكن منه..

تتحول لشرود..

ثم يتبدل الشرود لاستهجان..

بل قهقهة ساخرة عالية قاربت الهيستيريا وكانت تفطن إليه، تأملته يفرغ جنون المشهد وعبثيته في ضحكات متتابعة حتى توقف بلهاث ويده تشير إليها بلا رأفة:

- حاجة تاني!..

كان دورها في الاستنكاروإن خلا من التهكم:

- أنا قلت إني...

- سمعت..

جذ عنق تصريحها بمقصلة الرفض..

لا يريد منها تكرارها وحسب:

- هل لديكِ أقوال أخرى!..

يستمر في سخريته وإن شابها استخفاف.. يتراجع عاقدًا ذراعيه قبالة صدره وقامته التي اعتادت شموخها طالها انحناء انكسارأوجعها..

أوجعها أكثر من تجاهله لما نطقت به.. وألجمها ليردف هو بقسوة واقتراب مباغت:

- قصة الحب هتبقى أحلى مع واحد سوابق يا غرام!..

- ما تقولش كده..

باندفاع أنثى عاشقة تتلبسها بضعفها..

لم تمربها هي ولم يرها هو من قبل، وحاجبه عاد لارتفاعه باستهانة:

- مش لايق عليكِ الدور ده..

شدت قامتها تواجهه بعزم لا يلين:

- ولا ينفع أنت تعيش دور اليائس، وَكِّل أنكل شاكر..

- لأ..

- مروان..

تعترض كأنما يحق لها الاعتراض!..

قبض على ذراعها فجأة فانتفض جسدها..

انتفاضة راقبها هو بنظرة ساخرة للحظة قبل أن يحررها بدفعة ثائرة:

- خايفة مني..

لم يكن يسأل وجابهت هي بعناد:

- أكيد لأ..

مط شفتيه وزفر بلامبالاة:

- تمام.. عندك حاجة تاني عاوزة تقوليها!..

عجزت عن حديث تطاير من عقلها مع رفضه، لم تكن تتخيل اللقاء حارًا فائضًا بالعشق.. لكن كذلك لم يطُف بذهنها أن يكون عنيفًا فظًا غليظًا!..

مع صمتها تحرك تجاه باب مكتب مأمور القسم، فتحه فوجدت الجندي المرابط أمامه يتحفز للقائه.. حينما مد معصميه إليه بخنوع ليحيطهما بالأصفاد غافلتها دمعة مست صوتها وهي تناديه..

استشعرها وتوقف، لم يلتفت.. لم يكترث، اقتربت تقف خلف ظهره بتصميم:

- أنا هافضل واقفة عند باب قلبك لحد ما تفتح لي..

ناوشت شفتيه بسمة قاسية لم ترها بينما تستطرد:

- المرة اللي فاتت أنا اتخليت، المرة دي مش هاكرر نفس الغلط..

لم تجد منه ردًا..

فقط تتابعت خطواته وغاب عن عينيها..

غاب عنها وضعف أنثى بداخلها خلقت لأجله يتمكن منها..

المرأة حين العشق تولد من جديد، تتشكل من عجينة لينة سهلة.. تطوع كل ما فيها لأجل ذلك الرجل..

الرجل الذي عشقت..

***

المرأة حينما تخسر عشق العمر تفقد معه روحها، تبهت ملامحها ويطالها الشحوب..

تضم الجسد الصغير بتشبث وتنام بأحضانها، تتقصى أثار وجوده عليها وتترك لوالدتها مهمة الاعتناء به فهي الأقدر..

لقد رفضها عندما أرادت قربه..

وهي تفهمت وابتعدت بقدر ما يسمح به قلبها..

فإن عجزت الكلمات عن الوصال بينهما تبقى صغيرتها حبلًا لا ينقطع..

على الهاتف الذي مرره له أحد الجنود بعد نفحة كريمة من والدها أرسلت له صورة ابنته.. كل يوم تفعل، بل طوال اليوم..

حين نومها.. حين تأكل، وهي ترفع جسدها في محاولة للزحف.. وهي تنظر للكاميرًا بابتسامة.. في كل وضع ممكن يدمجها بحياته الباردة..

سمعت الطرقات على باب الغرفة فسمحت لأمها بالدخول، ابتسمت لها بضعف.. جاورتها فوق الفراش تداعب حفيدتها بأناملها:

- الاستئناف اتقبل..

تعلقت بها عينا ابنتها بأمل ملهوف:

- الحكم اتخفف، بقى سنتين..

انتابها الإحباط ثانية وكتفيها تتهدلان بإنهاك:

- سما.. لسه في نقض، مش هاسيبه..

أمسكت بكفها بيد مرتعشة:

- يعني ممكن يطلع براءة!..

تريد الأم أن تمنحها الراحة..

لكن المحامية تقف لها بالمرصاد لتحجم انفعالًا عاطفيًا لا يباح له ظهور:

- ممكن النقض يأكد الحكم أو يخففه، بس بياخد وقت..

وتركت جلستها المواجهة لها لتضمها إليها:

- دلوقتِ المهم والمطلوب منك إنك تكوني أقوى..

ثم ربتت على وجنتها تجبرها على النظر إليها:

- مروان محتاج أم بنته تكون قوية..

الرجفة التي نالت من جسدها الكامن بين ذراعي أمها أوجعت قلب "لمياء" فاحتضنتها أكثر تطمئنها وهمستها الخافتة تصلها بعسر:

- هاحاول..

خللت خصلاتها بأصابعها والابنة تحمل طفلتها لتعانقها..

كان المشهد من بعيد لطيفًا حانيًا حيث تحتوي كل أم صغيرتها..

لكنه من قريب.. لعين أب طلت من الباب المفتوح..

كان قاتلًا..

***

ويفوز باللذات كل مغامر..

أو ربما كل مخادع، محتال!..

عاد من عمله ليجدها بغرفة النوم تتأنق بغلالة نبيذية تناقض قشدية بشرتها.. قصيرة لا تكاد تتجاوز ردفيها..

تقترب منه بإغواء ونبرتها تتغنج بهمس:

- وحشتني..

خلعت عنه سترته، ثم امتدت يداها لربطة عنقه تفككها بتلكؤ مثير جعله يرمقها بمجون:

- إحنا بنحتفل بحاجة معينة!.. ولا ده دلع بس!..

مررت أناملها عند بداية صدره بعدما فتحت بعض أزرار قميصه:

- بنحتفل..

استجاب لإغوائها باستحواذ من كفيه لخصرها وعينيه تتساءلان، أراحت كفيها فوق كتفيه وفحيح همسها الحار يلفح أذنه جوار أنفاسها:

- مبروك.. الجريدة إياها اتقفلت بأمر محكمة..

تراجع برأسه يتطلع إليها بدهشة رسمت بسمة ماكرة فوق ثغرها اللامع بحمرة داكنة:

- كسبنا القضية، ما قدروش يدفعوا المليون جنيه.. اتشمعت..

سبابتها دارت حول ملامحه بلمسة مثيرة:

- والصحفى اللي نشر الخبر؛ اترفد من النقابة..

ضحك بغير تصديق قبل أن ينحني لشفتيها بنهم:

- لا.. ده إحنا كده نحتفل فعلًا..

بادلته قبلته لثوان دفعته بعدها لتخبره بسعادة حقيقية هذه المرة:

- والأهم..

- إيه!..

أشعلت فضوله والترقب يسيطر على وجهه، تحكمت بيده التي تحاوطها تنقلها إلى بطنها بدلال:

- الإشاعة ما بقتش إشاعة..

انعقد حاجباه بينما تميل برأسها على كتفه بحالمية استهجنها:

- أنا حامل..

لم يكن يريدها أمًا لأطفاله..

بل لم يتمنَ أطفالًا البتة..

لكن يبدو أن للقدر رأي آخر!..

***

المسمار الأول في التابوت..

هزيمة في أرض عشق..

المسمار الثاني..

خسارة امرأة كانت وطنًا..

الثالث..

وردية صغيرة هي بضعة من قلبه..

والأخير..

بعده يحين الدفن!..

استند للجدار الرمادي الرطب بجسده ورأسه في جلسة شاردة لم ينتهِ تيهها بعد..

نعم بات نزيلًا بأحد السجون ولا داعي للدهشة فقد مرت أشهر..

ماذا!..

لا تسأل عن العدد، هناك أنتَ منسي..

في الداخل أنت محكوم عليه، معاقب.. لن تهتم بك الصحافة أو تتقصى أخبارك، لن تنهش لحمك بحثًا عن قطعة لم ينلها غيرها..

في الداخل أنت مجرد رقم!..

تريد الدقة إذًا!..

حسنًا.. ثلاثة أشهر، سبعة عشر يومًا، خمس ساعات..

أهذا تفصيل كافٍ!..

أغلبها كنتَ في محبس مؤقت بانتظار محاكمة تظنها عادلة؛ كان لديك الأمل.. كنتَ توقن أنك لستَ من هؤلاء الذين يقعون تحت طائلة الظلم..

كنتَ تؤمن..

والآن هي لحظة الحقيقة الوحيدة التي تعلمها..

أنت سجين..

بتهمة القتل!.. لوثوا يديك بالدماء دون أن تريقها..

الآن أنتَ تذوق علقم الجُور وتخضع له بإذلال..

الآن..

أنتَ تُنكس رأسك..

تشرد.. تبتعد.. تحاول إعادة التوازن لعقلك وفكرك.. الفهم.. الرجوع لما كنته.. تسعى جاهدًا للإفاقة مما تظنه محض كابوس، وتفتح عينيك لتراه الواقع الذي لا مهرب منه..

هو الصحوة..

هو اليوم وغدًا وما يليه..

تعتاده بعض الشيء، تغيب وتعود ثم تغيب، وتمر الأيام..

تنأى عن الجميع..

والديك.. أختك.. ابنتك وأمها وكل عائلتك..

ترفض رؤياهم وتترك لهم التمزق والخوف والدموع..

تستيقظ كل صباح بجرس روتيني وموعد محدد، تحمل رقمًا خاصًا محفورًا فوق سترتك الزرقاء..

تنزل لساحة السجن الذي نقلوك إليه قبل أيام.. مستقرك الأخير لعامين قادمين، أو ربما أقل بعد خصم ما فات أثناء محاكمتك.. وكذلك لو كنت ولدًا طيبًا وأحسنتَ السلوك واخترتَ السير على صراط مستقيم..

تركض..

تركض لساعة في دائرة مفرغة، مغلقة عليك وحدك..

حين تتوقف ليستوعب صدرك بعض الأنفاس؛ تلهث بوجع.. قلبك يئن ويعترض منهكًا، تجبره على مجهود أكبر..

تتريض أكثر..

كأنما تصب طاقة غضبك المكبوتة في حركات قاسية متتابعة، أو ترهق نفسك حتى تسقط آخر اليوم متهالكًا فوق فراش يجاور عددًا لا بأس به من الفُرش الأخرى..

وشخير سجناء يشاركونك مكان نومتك يخترق كوابيسك فيزيد من وحشتها..

تتململ، تفيق أو تستكمل نومك عنوة..

لا فارق..

تتناول طعامًا بلا نكهة أو مذاق..

تحشره بجوفك حشرًا ليقيم أودك على الكفاف..

لا تعرف اسم وجبتك ولا تهتم..

لا تعد الساعات حتى الرحيل..

فكله سواء.. أنت لم يعد لديك ما تخسره، لا تمتلك ما تبكيه.. حيث أنك منذ لحظة الظلم الأولى..

فقدت كل شيء..

حتى روحك..

تستطيل لحيتك لحد غير مسبوق بحياتك، تقصر خصلاتك عامدًا رغم راحة يحرص عليها سجانوك تبعًا لأموال أبيك..

وتنأى عن الجميع..

جميع من احتجزته تلك الأسوار..

لا تتحدث مع هذا أوتجيب على سؤال ذاك..

استفزوك.. أغضبوك.. تحايلوا على معرفة ما يجول بداخلك..

لا تبالي.. وتبتعد..

وقرب ميل الشمس إلى المغيب، قبيل عودتك لداخل الجدران الرمادية وفراشك الحديدي ووحدتك..

تستوي على الأرض الباردة، تستند لجدار رطب..

برأسك وجسدك..

تغمض عينيك لدقائق، ثم تفتحها لتلتقط آخر صورة للشفق حتى رنين جرس العودة..

لا تنتبه لمن حولك..

لا تكترث..

لا تستمع لهمسهم، نميمتهم.. أوغضب من نصَّب نفسه زعيمًا لثُلة منهم..

اسمه "جابر".. وفي رواية أهل مهنته "الهجَّام"..

هكذا كان لقبه قبل أن يُرمى بالسجن في عدة قضايا سرقة بالإكراه انتهت آخرها بجثة!..

ينظر إليك ويضيق عينيه..

يرى فيك كل ما حُرِم هو منه يومًا..

ويسأل المجاور له بتوحش مهتم:

- الواد ده مالوش سِكة ولا إيه!..

والمجاور له يتأملك، يتطلع لغيابك عن الوجود بنصف عين ويبتسم كضبع جائع:

- اللي عرفته إنه ابن حوت كبير، أبوه بيدفع عشان ابنه يقضي اليومين بتوعه هنا مرتاح..

هرش "جابر" رأسه الحليقة أسفل قبعته بينما يبصق عن يمينه:

- وداخل في إيه!..

جاوبه رجله بتملق:

- ماحدش عارف لسه، وهو مش مدي وش لحد يعرف..

- شايف نفسه!..

- قوي يا ريس..

ابتسم الضبع الأكبر بسخرية وجسده يستقيم باعتدال مباغت، يرمق الشارد بسكون أسود يفيض بالبُغض غير المبرر:

- هو بس مش عارف مين ريسه هنا..

تبعه الرجل كظله بتزلف:

- نعرفه..

راقب رجله يخطو نحو الجالس على الأرض في ملكوت خارج حدود الكون، وقف يتأمل تجاهله له..

وعندما جذبه تابِعه من ياقته ليقيمه قسرًا امتدت قبضة الشاب المدلل ليده، تعتصرها بعنف كاد يكسرها:

- خليك في حالك..

ذلك كان أمره الصارم الذي لا يجدي معه الجدل..

يدفعه ويرميه بنظرة كالجحيم..

يوليه ظهره ويعود نحو محبسه بخطوات باردة، والرجل ينقلب مهزومًا لزعيمه الذي استقبله بفهم ساخط وعينه تبرق بوحشية:

- الواد ده لازم يفوق ويعرف هو فين وتحت طوع مين!..

داهنه الخانع لسلطته بصوت خبيث بينما يفرك كفه بألم:

- نفوقه ياريس..

استدارله "جابر" بنظرة كالدماء، قانية.. قاتلة وشرسة:

- يبقى يتعلم عليه..

(٣٦)

بين جدران الزنازين؛ أمامك خياران..

إما أن تميت قلبك وضميرك بصحبة إنسانيتك..

أو تموت أنت!..

أحيانًا تصدمك الحياة بقوة لتفيق على حقيقة واحدة؛ أنك لستَ مثاليًا كما ظننت..

تجذبك بقسوة لترتطم بالقاع..

لتعلم أن تلك الذرة الخالية من الشوائب والمسماة بحياتك نواتها دَنَس!..

تقرر الاستمرار فمحاربة القدر عبث، تتناسى الأمس لأن النسيان غادر قائمة المباح، تمر من الثقب الضيق موقنًا بأنك قادر على النجاح..

على التخطي..

في وقت محدود قصير انطبقت سماء عالمها على أرضه..

في وقت محدود قصير ضاع سلامها النفسي، وقلبها!..

في وقت محدود قصير علمت عن سواد ما مضى من عمر أبيها، ورفضها من عشقت كما رفضته من قبل..

لكن يقينها بهذه اللحظة أنه لم يفعلها عنادًا أو ردًا لصاع بصاع؛ هو فعلها لأن كبرياءه التي لعبت على وترها في السابق تمنعه..

لأنه لم يعد كما كان..

وربما لأنه رحَّلها عن قلبه كما فعل مع حياته دونها..

قبعت بغرفتها هادئة، عيناها شاردتان في مجهول لا يقتنصه بصر البشر..

نعم اختارت الذهاب إليه، واختيارها كسرها..

مرتين!..

مرة لرؤية رجولته واعتداده بنفسه ينزفان أمامها من خلف حجاب التماسك الساخر، القاسي..

وثانية لأنه أغلق على نفسه شرنقة التيه وحده واستنكر، بل استاء من حضورها حيث لا يوجد لها مكان..

تتفهم وتقدر وتغضب.. تسخط وتسبه وتحزن عليه..

تتهمه بالحماقة وقلبها يسقط بالعشق..

مجددًا يسقط.. وتكرار السقوط حماقتها هي الخاصة..

تبحث بفلسفة متمردة سابقة عن جدار صلب تستند إليه، فيهوي بها سابحة في فضاء غرامه..

نعم لم تتغير.. ولا هو تغير، ولن يفعلا..

هي تريده سالمًا وحسب، وبعدها فلتتقاطع طرقهما أو تستمر بتوازيها؛ لا يهم..

لا يهم من يبدأ بالتنازل أو يختار التضحية..

تركت فراشها لتنظر لدُجنة الليل وسماءه الغائب عنها قمرها، تتذكر شيئًا من نحول طال جسده.. فوضى تشبعت بها ملامحه وتشعثًا بعثر هندمته..

تستعيد رعشة جفنيه.. رجفة مقلتيه.. تسارع أنفاسه وانحناء شفتيه بشراسة متهكمة لم تعتدها منه..

وتهرب..

تهرب إليه من حقيقة لا تريد التفكير فيها..

حقيقة أن والدها خالف القانون بالفعل وسُجن، وأن ما وصل إليه لم يكن بطرق نظيفة بالكلية..

فارسها؛ لم يعد فارسًا..

لقد سرق الجواد وانتحل الصفة.. وفي حرب ما؛ انتزع السيف من غريمه وفر..

شيطان اندفاعها يوسوس لها بما تعلم أنه قد وقع ولا سبيل لتبديله؛ والقلب يتدخل منافيًا كل عقل ومنطق ليلومها..

هذا هو الفهد يا ابنته فلا تتجاهلي ما عاشرتِ لما علمتِ، الصورة تغلب الصوت.. والرؤية تهزم السماع..

أنتِ عايشت نُبله وقوته وبأسه؛ لا تستسلمي لحكاية قديمة تلوثت بالسواد لأن القسوة منحتها لونها القاتم..

هزت رأسها بعنف تنفض عنها عناء أفكارها..

هي في اللحظة التالية لحكايته كانت تفتخر به وإن تسبب في حرمانها من رغبة عمل ما..

لقد كان قويًا بما يكفي ليتخطى عثراته وينهض من كبواته..

والجمع صيغة مناسبة فأي منها لم تكن واحدة، بل تكالبت عليه حتى شكلته وصقلته وخلقته..

خلقت الفهد الذي تربت في كنفه..

هل راحت سكرة الفخروأتت فكرة الخزي!..

ربما لوقت ما..

لكنها لم تكن لتصبح هي لولاه..

هناك فوضى بداخلها تعجز عن ترتيبها لأول مرة!..

"غرام!"..

صوت والدتها أجفلها فانتفضت بالتفاتة تراقب اقترابها الهادئ منها:

- خبطت كذا مرة، كنت عاوزة أتكلم معاكِ..

ابتسمت لها بشحوب..

لم تخبرهما عن نتيجة لقائها به، لكن نظرة واحدة لعينيها.. لوجهها أكثر من كافية، جذبتها أمها لتجاورها فوق فراشها:

- مش هاسألك عملتِ إيه مع مراون؛ كنت متوقعة إن ده يحصل..

أدارت وجهها عنها فأعادته "دينا" قسرًا إليها:

- أنا عاوزة أعرف بتبصي لبابا إزاي دلوقتِ!..

مررت لها دهشة بنظرة مستنكرة لمحت فيها الأم افتعالًا فقررت سلك الدرب المستقيم:

- فهد ده الفارس اللي مستحيل تلاقي زيه..

عاتبتها ابنتها بنبرة خافتة:

- مش محتاجة تقولي لي كده..

نبرة أمها أتت حازمة ترتب عاصفة أفكارها:

- أنا عارفة إنك اتفاجئتِ بماضيه.. أنا اتفاجئت زيك لما حكى لي!..

علا الغيوم الرمادية المحملة بغيث مكبوت استغرابًا، تتابع شرود والدتها كأنما غاصت بلا إرادة فيما فات:

- بس بعدها ماخدتش وقت طويل ووافقت أتجوزه..

- ليه!..

كان السؤال شبهَ مسموعٍ يصل بفوضاها لمرفأ دون أن يلقي بمرساتها لتستقر عليه:

- عشان فهد راجل مصنوع من الألم..

تغضن جبينها بعدم فهم فككته هي بربتة حانية من أناملها تعلو حاجبيها المعقودين:

- الألم بيخلق فرسان أو وحوش، اللي بيعيشه يا يبقى نبيل لدرجة يحمي اللي بيحبهم منه.. يا يتحول لوحش يسعى يدوقه لكل اللي حواليه..

وانسابت يدها إلى وجنة ابنتها تحتويها بحنو:

- وبابا هو النبيل..

"النبيل"..

ترددت الكلمة بصدى عالٍ داخل روحها تهديها سلامًا ضيعته وضاعت معه لأيام.. تابعت أمها بينما تستقيم، تناظرها من وقفتها بابتسامة هادئة ناوشها خوف مبهم:

- قبل ما تفكري في مروان تاني؛ اتأكدي هو هيخرج من اللي هو فيه أي نوع فيهم!..

وانحنت بشفتيها فوق جبينها بقبلة طويلة دافئة:

- مش عاوزة أشوفك مجروحة يا غرام..

ثم حررتها من ذلك الأسر الداكن بعينيها كأنما وهبتها راحة تحتاجها وتلك كانت غايتها..

تركتها لوحدتها مجددًا، وفاءت هي لصراعها الدامي..

تلك الحرب الدائرة بجنون بين قلبها وعقلها..

بين خضوع لعشق، وإنكار له!..

وسكينة تتسلل للروح، تتشبث بأب ذاق طعم الشقاء حتى استعذبه.. ودون أن تظفر وحشية الحياة بنزف آدميته..

***

أتمنى أن أبكي وأرتجف، ألتصق بواحد من الكبار..

لكن الحقيقة القاسية هي أنك الكبار!.. أنت من يجب أن يمنح القوة والأمن للآخرين..

"أحمد خالد توفيق"

الحقيقة القاسية هي أنك سند الظهر الذي كسرته..

ومحل الثقة التي خُنتها..

أنت الآثم والمذنب ولا غفران لك!..

أنت تريد البكاء ولا تستطيع، بل تكبته.. فالعبرات راحة لا تستحقها..

أنت تحاول التماسك لكن القوة التي تتشبث بها ترحل عنك، تترك يدك بمنتصف الطريق لتجد أن أصابعك الواهية لا تطالها..

لتجد أنك تسقط مع من سقط..

تسقط على ركبتيك بوسط التراب الذي يحيط بقبري والديك المتجاورين..

تتأمل الأسماء المحفورة فوق الشاهدين، تمد أناملك نحوها لتتلمسهما وتسأل باختناق:

- كنتم بتحمونا وتحافظوا علينا إزاي!..

وتستقريدك بارتكان مُنهك لشاهد والدك:

- من بعد ما سيبتني وأنا باضيع كل حاجة..

تتحشرج نبرتك وتغمض عينيك غارقًا في سواد ماضيك:

- ماعرفتش أحمي أختي من الانتهاك..

تهز رأسك برفض كأنما تبعد الذكرى التي تسيطر على الصورة أمامك عنوة:

- ماعرفتش أحمي مراتي وابني اللي مات جواها..

تشهق بعسر فالهواء يستعصي على رئتيك المنطبقتين:

- ماقدرتش أحمي بنتها اللي هي بنتي وسيبتها تتجوز واحد...

تتلعثم هنا فلا سباب يناسب الموقف، بل لا سباب.. لسانك لم يعتَد البذيء من الكلام، وبشرف اعتدت التعامل به، نزاهة هي دومًا صراطك المستقيم؛ خسرت:

- وفي النهاية ضيعت ابني وأنا فاكر إن ماحدش يقدر يتحداني أو يهددني ويأذيني..

تُفرق جفنيك برجفة مترددة، تناظر الغيوم الداكنة التي احتشدت فوق رأسك كأنما تنذر بسيل يخصك وحدك:

- الأذى جه فيه هو..

تنغرس أناملك في الشاهد الرخامي تود لو تحطمها أو تحطمه:

- كنتم بتحافظوا علينا إزاي!..

تضرب الشاهد بقبضة ضعيفة تشبه انكسار أبوتك:

- بتحمونا إزاي!..

تتمسك به، تجذبه كأنك تريد خلعه من مستقره.. تنشد ضمة، قربًا، أمانًا لن يمنحك إياه أحد..

فأنت الكبار!..

- أنا فشلت..

وتنهي المشهد بجلوس لا يكترث لثيابك، أو وهن جسدك الذي لم يرحل عنه المرض بعد:

- فشلت أكون أخ، وزوج.. فشلت أكون أب..

تستسلم للحظة تئن فيها روحك بصمت لا يسمعه سواك..

صمت قطعه حفيف خطوات لم تنتبه إليها إلا وصاحبها يهمس باسمك بإشفاق:

- أدهم!..

ترفع رأسك لأخيك الأكبر الذي دومًا ما كان في ظهرك، تتنهد وأنفاسك تتقطع رغمًا عنك، ترغب في البوح بما لا تدري كيف تنطقه..

أو حتى كيف تشعر به!..

ليس كل ألم قابل للتوصيف، ولا كل كسر يمكن جبره..

فقط.. أنت لم تعد أنت..

تراه يجاورك في جلستك، صوته يتلبس بقوة لا تأبه لها، يده تمتد إليك.. تقبض على كفك بحزم كأنما يبثك شيئًا من صلابته بعروقك الضامرة:

- هتعمل إيه مع معتز!..

تناظره بلا دهشة فبعد ما مررت به لم يعد هناك ما يثير حفيظتك أو يصدمك، تنحني شفتاك بتهكم مُر كمذاق العلقم الذي يخنقك وصوتك الخفيض شبه المسموع لا يكاد يغادر حلقك:

- هاعمل إيه!..

يدعمك هو أكثر ويعتدل ليواجه عينيك:

- تجيب حق ابنك..

- ابني ضاع..

- أنت وابنك في امتحان، لازم تنجحوا فيه..

- أنا فشلت من زمان..

هنا تقتنص منه أنت دهشة فيعقد حاجبيه ويجبرك على النظر إليه:

- أنت عمرك ما كنت فاشل، لا مع مراتك ولا مع ولادك.. وبالأخص مش معانا أنا وسارة..

- آدم.. أنا مش محتاج رفع معنويات..

- وأنا مش بعمل كده، أنا بقولك حقيقة حزنك هيخليك ما تشوفهاش..

يشد جسده ويسحب الهواء بعمق:

- وجعك هيخلي كل خوف جواك أعظم، هيكبر كل ذنب حملته لنفسك من زمان لحد ما يبلعك..

ويضغط على يدك بعزم حاسم:

- كل ذنب مش ذنبك من الأساس..

يستقيم، يجذب يدك ليقيمك في مواجهته قسرًا ويغلظ حديثه حد القسوة:

- الضعف اللي أنت فيه ده لا يشبهك ولا يليق بيك، الضعف ده مش هيفيد مروان بحاجة.. مروان محتاج أبوه اللي متعود إنه يكون في ضهره مع كل أزمة..

وتبتعد أنت..

تنأى عنه وعن الجميع..

حتى عن أفكارك التي تنهش قلبك:

- أبوه انكسر يا آدم..

ترحل بخطوات بطيئة لا تبالي بشيء:

- والمكسور بيجرح اللي يقرب منه وبس..

لا تهتم إن تفهم أو غضب أو استاء..

تبتعد وحسب..

تبتهل في سكون، وتقسو بنفسك على روحك التي تشتاق عبرة..

تمنعها إياها وتكبلها بأغلال الذنب والندم..

تعود لبيتك..

تتجاهل الحبيبة، تهرب بعينيك من الربيبة.. تعتكف متوحدًا مع ذاتك في غرفة اصطنعت منها سجنًا لك وحدك..

سجنًا لن تغادره إلا مع حرية ابنك..

هذا إن سامحك!..

***

أحيانًا تستصغر مخاوفك، آلامك وتوقعاتك عندما ترى ما يحدث للآخرين..

نعم نالت منك الحياة بأسوأ طريقة..

ذبحتك وتركتك تنزف على قارعة طريق اليأس حتى امتدت إليك يد من حُلكة ظلامه تنتشلك بمعجزة..

ومع تعاظم خوفك؛ عضضت تلك اليد وغدرت بها!..

وقفت تتأمل شروده أمام شاشة التلفاز التي يدور فوقها فيلم حركي عنيف، اعتاد مشاهدة ما يشبهه، واعتادت تركه وحده لأنها نوعية لا تفضلها..

ما تمر به عائلته ليس بالهين، وتأثيره عليه يثير بها شعورًا غريبًا لم تألفه من قبل!..

هي المتمردة العنيدة والطائشة..

شعورًا بالأمومة..

خطت نحوه بهدوء متمهل، وقفت خلف مقعده تمسد كتفيه بيدين رقيقتين استكان للمساتهما بأنَّات خافتة مرتاحة جذبها بعدها بين ذراعيه..

مرت بأناملها على ملامحه التي تبدلت خلال الفترة الماضية..

غاب عنها العبث وداهمها التوتر والغضب.. وهناك عجز ما في الخلفية يزعجها ويخيفها عليه..

ابتسمت قبل أن ترمي برأسها عند كتفه:

- كلمت مامتك!..

مط شفتيه بلا تعبير محدد فتساءلت باهتمام:

- سما عاملة إيه!..

تسللت أصابعه لخصلاتها عائدًا لشروده:

- كويسة.. لسه بتبعت صور شجن لمروان كل يوم..

مسَّ قلبها شفقة فجذبت انتباهه إليها:

- وأنت!..

ناوشت فمه بسمة باهتة:

- أنا إيه!..

- كويس!..

تنهد بحرارة قصيرة:

- عادي يعني..

اعتدلت بأحضانه قليلًا:

- مش هتروح تزوره!..

مسح وجهه بكفه الأخرى في ضيق وثورة مكبوتة يتسلل شبحها لنبرته:

- رافض يشوف حد..

تحركت تغادر أحضانه، تشده لأحضانها هي فيستكين برأسه بدفء صدرها وشفتيها تلثمان جبينه برقة:

- حقه.. أنا ما أعرفش مروان للدرجة، بس الكام مقابلة اللي شفته فيهم بتقول إنه معتد بنفسه قوي..

أغمض عينيه تاركًا لأصابعها منحه شيئًا من راحة وهي تدلك جبينه وما بين حاجبيه:

- واللي زيه صعب يخلوا اللي بيحبوهم يشوفوهم مهزومين..

التوت شفتاه بدهشة وعيناه ترتفعان إليها:

- إيه الحكمة دي كلها!..

وكزت كتفه بحنق طفيف:

- قصدك إيه!..

أمسك بيدها يقبلها بنعومة:

- قصدي شريف والله..

ذبذبات ضحكتها الخافتة ارتدت بصدره فتوسعت بسمته وهي تناديه بتردد:

- آسر!..

تراجع يناظرها باهتمام ضاعف من ارتباكها، ساوت خصلاتها باضطراب لم يفهم سببه إلا عندما همست بسؤال لم يطُف بباله بهذه اللحظة:

- أنت فعلا عاوز ولاد!..

تراجع أكثر بجسده ودهشة تحتل وجهه:

- بتسألي ليه!..

عبثت بخصلاتها مجددًا وعيناها تهربان منه:

- يعني.. أول ما اتجوزنا اتكلمت عنهم وكده..

جذب ذقنها يجبر حيرة بصرها على الاستقرار بأمان نظرته:

- وإيه اللي فكرك!..

قبل أن تجيبه شاغبها بشبه مرح غاب عنه:

- عاوزانا نحاول دلوقتِ ولا إيه!..

أبعدت يده بدفعة مغتاظة ونهضت تتحرك بعشوائية:

- أنا سألتك سؤال؛ ما ينفعش تجاوب عليه ببساطة وخلاص!..

استقام يوقف تحركاتها لتقابله بينما يتفرس فيها بفضول:

- أجاوب عادي؛ أيوة عاوز ولاد.. بس مش مستعجل يعني، ييجوا في الوقت المناسب..

يدها تخللت شعرها للمرة الثالثة في ثوان معدودة لتدلل على قلقها فأمسك بها مستفهمًا:

- أنتِ عاوزة ولاد!..

لهثت لحظة جاوبت بعدها بنبرة خفيضة:

- لو أنت عاوز..

أعاد وجهها إليه بسيطرة:

- وأنتِ!..

تاهت عنه ثم انتبهت على إبهامه يداعب باطن يدها في حثٍ دافئ على جواب..

دنت تحيط عنقه بذراعيها.. ترتفع على أطراف أصابعها وتلتصق به في ضمة عنوانها تشبُث:

- عاوزاهم منك أنتَ..

زفر براحة وحاوط خصرها بتملك يرفعها بين يديه دون أن تتخلى هي عن عناقه، عبث نبرته يعود ليبعث به شيئًا من حياة.. وشقاوة رحلت عنه تناوش لهجته، تحرره من أسر الألم.. عندما توجه بها إلى غرفة نومهما:

- طيب مش المفروض نحاول بجد بقى، عيب علينا والله..

ابتسمت والأريحية في صوته تبهجها..

هي حاولت انتزاعه من ظلمة غرق بها في وحدته.. ونجحت بثاني خطوة..

أما الأولى: فكانت عندما تخلصت من شريط أقراص منع الحمل بالقمامة بالأمس، وبنيتها أن تهديه ما يعيد له بسمته.. ولقلبه نوره..

***

نحن لا نختار العشق، بل هو من يجبرنا على السقوط، الخضوع والاستسلام.. ثم الامتلاك!..

نحن لا نختار من نعشق؛ هم فقط يختطفون قلوبنا عنوة.. يسرقون أرواحنا بالإكراه..

نحن لا نختار نهاية الحكاية؛ هي تأتي وحسب!..

خرج مريض ودخل آخر.. بل أخرى!..

بعينين خضرتهما شفافة كزجاج لامع، بريق ساحر يشع بالقوة وشيء من تهكم كأنما بات مهد النظرة.. خصلات بنية متوسطة الطول وكثيفة بدرجة ملحوظة..

بذلة رمادية أنيقة تنورتها تخطت ركبتيها بمسافة قصيرة وأسفل سترتها المفتوحة قميص حريري أسود يعتم الصورة..

ابتسم لها باستقامة وازت اندهاشًا لم يهتم بتوريته؛ هي لا تبدو كامرأة تخطت عملية مخيفة بالقلب قبل فترة:

- مدام ندى!..

شاب بسمتها شيء من امتنان وهي تحييه ببساطة:

- دكتور يوسف..

أشار للمقعد المواجه لمكتبه فاستوت فوقه برقي:

- ميعاد متابعتي بعد العملية..

التقط جهازه اللوحي باحثًا عن ملفها باهتمام:

- طبعًا..

وتكررت إشارته لتتبعه متمددة فوق فراش الكشف، دقائق انتهى فيها وعاد لما خلف المكتب.. تناول من أحد الجوارير شريط أقراص ما ابتلع منه اثنين مع عودتها باكتراث طفيف:

- سلامتك!..

طمأنها ببسمة مجاملة:

- مجرد صداع بس..

كررت دعوة الشفاء واستقرت بذات المقعد بينما هو يخط بضع كلمات في ورقة أمامه:

- إحنا تمام الحمد لله، الضغط ومعدل النبض والتنفس كويس جدا..

- البركة فيك..

همستها برقة شاكرة هزلها رأسه بتواضع عندما ناولها وصفتها الطبية:

- دي أقراص هتستمري عليها لحد ميعاد المتابعة اللي جاية بإذن الله..

تناولتها منه بهدوء ولم تنهض، تطلع إليها باستفهام ترددت في جوابه لحظات:

- عاوزة أشكرك بجد، لولاك مش عارفة إيه كان ممكن يجرى لي!..

عادت إليه بسمته البسيطة:

- ده واجبي..

مطت شفتيها باعتراض:

- مش كل الناس بتعمل واجباتها باتقان..

لامس ثغره ضحكة خافتة:

- في الطب ما ينفعش غير الاتقان..

تركت مقعدها بنية الرحيل هذه المرة ونبرتها لاتزال على امتنانها:

- برده مش زيك..

قدرت تواضعه وبسمته الخجول قبل أن تغادر منطقة المدح لمنطقة الفضول:

- عندي سؤال فضولي أتمنى ما يضايقكش!..

رمقها باهتمام وهو يستند بمرفقيه لمكتبه:

- مروان الحسيني صاحب الحادثة الشهيرة اللي غرقت أخبارها الفيس بوك؛ قريبك!..

تغضن جبينه باستفسار لوحت بيدها عندما لمحته:

- قلت لك فضول، بس لو مش عاوز تجاوب...

- لا عادي.. مروان ابن عمي..

علت عيناها الرائقتان نظرة مبهمة لم يستطع تفنيدها، جلست مجددًا دون أن تختفي النظرة:

- غريب!.. أعتقد دكتور في مركزك كان هينكر أي علاقة له بمجرم!..

نبرته أتتها حاسمة حازمة بيقين:

- مروان مش مجرم وما عملش حاجة من اللي اتنشرت عنه..

كادت ترد لولا استطرادته المثالية لحد أطلق منها ضحكة شبه هازئة:

- ولو عمل؛ مش هانفي صلتي بابن عمي..

استغرب ضحكتها فبترتها برقة:

- اعذرني.. بس مش شايف إن دي مثالية ده مش مكانها ولا وقتها!..

اعتدل أكثر وسماء عينيه تظلم بعض الشيء:

- والواقعية إني أتبرأ منه!..

عادت تمط شفتيها المصبوغتين بنكهة كرزية وردية متوهجة متجاهلة ضيق وجهه:

- الواقعية أسوأ.. الواقعية هتصدق إنه أجرم جوا قلبك بدون ذرة ندم..

سكن لثوان يفكر بكلماتها..

مع تجربتها التي قصتها عليه والدتها والغدر الذي مرت به؛ كيف تثق بمخلوق بعدها!..

عندما يرحل عنك من تحب حين ضعفك..

لا يرمم صدوع روحك ولا يضمد جراح مخاوفك!..

تحرك مغادرًا مقعده ليستوي فوق المقعد الذي يواجهها أمام مكتبه:

- مش كل الناس بتتخلى..

نظرتها انقلبت لساخرة بامتياز فأردف بابتسامة:

- مروان أخو مراتي..

شاب السخرية دهشة لم تقترب من النبرة:

- وده يديه حكم البراءة بدون نقاش!..

ومالت تحاصره بنظرة داكنة:

- للدرجة دي بتحبها!..

لم تتخيل أنها تجسدت قبالة عينيه وهو يجيبها بشرود في حزنها الذي يحتل ملامحها مؤخرًا:

- بحبها لدرجة إنها اتجوزت واحد تاني بعد قصة حب، واتطلقت وأنا كنت لسه ما فقدتش الأمل..

دهشتها هاته المرة بانت لبصره حقيقية فقص عليها باختصار كيف بدأ مع معشوقته وإلى أين انتهى..

طال بعد كلماته صمت غامض قطعته هي ومقلتاها أكثر غموضًا:

- لا.. كده أنت فعلا راجل نادر..

انثنى جانب فمه بتلك البسمة الخجول التي تزيده جاذبية خاصة مع عمق صوته بموازاة جوابه:

- أنا راجل عاشق..

تأملته لحظة قبل أن تحول أفكارها لسؤال:

- وبعد جوازكم!..

لم يفهم ففسرت بيسر:

- لسه مشاعرك ليها زي ما هي!..

- هي المفروض تتغير!..

كان سؤالها ساخرًا باستغراب مفتعل، وجوابه منطقيًا كما يراه بصوت هادئ:

- يعني.. الرجالة بعد الامتلاك بتوصل لمرحلة الشبع، بعد الشبع ييجي الملل ويبتدي البحث عن نكهة مختلفة، مذاق جديد..

التبرير منها كان مرًا بدرجة قاسية مع مرتبة الألم، تراجع في مقعده يتأملها بتفحص متفهم:

- تعميم التجربة غلط..

بادرته بسرعة باترة:

- بس الحرص منها واجب.. مع الاختلاف!..

- ده زي اللي اتلسع من الشوربة!..

تجاهلت تهكمه الودود بضحكة رائقة تخالف حزن عشبية عينيها وواقعية كلماتها:

- اللي يتلسع من الشوربة صعب يدوقها تاني.. إنما حكاية النفخ في الزبادي دي غباء..

ونهضت بابتسامة أنيقة، كلاسيكية تشبهها وإن لم تتخلَ عن لمسة قسوة:

- الزبادي هتفضل زبادي والشوربة لو شربتها سخنة من غير حذر هتفضل تحرق لسانك.. مافيش رابط..

وازاها بذات الاستقامة والابتسامة وإن أسقط منها الغلظة:

- كلامك نظري أكتر منه صالح للتطبيق..

زوت ما بين حاجبيها بدهشة:

- بمعنى!..

أمال رأسه للأمام بزاوية صغيرة:

- بمعنى إن ما حدش بيتعامل مع التجربة الأولى على إنها التجربة الأخيرة..

واعتدل يشد قامته بنبرة متماسكة:

- كده كل اختراع وكل موقف وكل أزمة اتعرضنا ليها كانت هتوقف حياتنا، بكرة كان هييجي علينا وإحنا فاضيين من جوانا.. لا مشاعر ولا أفكار..

تعلقت عيناها به في تأمل حزين:

- مش باقولك نادر ومثالي..

همستها بتقرير قبل أن تنحني فوق مكتبه لتخط عنوانًا بخط أنثوي ناعم على ورقة مهملة ثم تناوله إياها:

- أنا عندي تقدر تقول كده موهبة على قدي.. بارسم، في العنوان ده كمان شهر هيكون أول معرض للوحاتي.. أتمنى أشوفك وتقولي رأيك..

ورحلت بخطوات سريعة متجاهلة جوابه بالموافقة أو الرفض..

رحلت ونظرة غامضة منه ترافقها..

بعد ساعتين كان يعود لمنزله، قبل أن يترجل من سيارته ابتلع قرصين آخرين لاعنًا ذلك الألم الذي يغزو رأسه إثر مناوبة امتدت لثماني عشرة ساعة أجرى خلالها عملية طويلة مرهقة..

كان يشتاقها..

يشتاق نعومتها وارتباك تفاصيلها كلما التقت بعينيه..

ترتبك منها الأهداب فترمش بتتابع سريع فاتن، ترتبك الشفاه فترتجف بسحر.. ترتبك المُقل فتفر من حصار بصره ببراءة آسرة، ويرتبك الجسد فتنعقد الأنامل وتُفرك الكفان ثم تعلن الجوارح عن ارتباك الروح بهروب..

هو غاضب لكنه لا يعاقب..

وهي تظن نفسها معاقبة فتبتعد عنه..

تترك له حرية الاقتراب أو البقاء محل سكونه..

تنتظر منه الخطوة الأولى كما في كل مرة مع أنها لو خَطَتها لكانت الأمور أيسر!..

دلف للمنزل بهدوء ليجد وجبته بانتظاره، مشروبًا عشبيًا رائحته خففت من صداعه.. ضوء خافت مريح وعطر ناعم يسيطر على أركان المكان..

كل ذاك دونها هي!..

تناول بضع لقيمات وأنهى المشروب الدافئ، أخذ حمامًا سريعًا واسترخى بالفراش الخالي منها..

دقائق أخرى وقبل استغراقه في سباته شعر بها تجاوره ككل ليلة.. تنطوي على نفسها بالطرف البعيد عنه وتتقلب بلا راحة لوقت ليس بقصير قبل أن تخضع لسلطان النوم..

حينها كان يقترب.. يلامسها.. يتخلل خصلاتها.. يستنشقها ويهدي كتفها وعنقها قبلتين دافئتين ثم يعود لمكانه تاركًا لها زمام المبادرة..

زمامًا لم تمسك به طيلة الفترة الماضية حتى أتعب قلبه..

نعم غاضب منها لكنه لا يبغي ابتعادها ولا يريد منها تباعدًا كما تفعل!..

الليلة وباختلاف أرغمه عليه العشق دنا حين صحوها..

كانت توليه ظهرها في وضع جنيني موجع، جذبها بلا مقدمات لصدره يحتويها بين ذراعيه.. قبَّل رأسها بتمهل وأطبق عليها قربه بلا كلمة.. بلا حرف أو صوت..

ثم أغمض عينيه بإنهاك وتعانق جفناها هي برعدة لم يشعر بها..

رعدة تمس منها القلب والروح دون الجسد..

الخوف نفذ من باب أفكارها قسرًا فقفزت بقية المشاعر هاربة بذعر!..

في دنيا العشق دومًا هناك منفعة متبادلة..

أنت تقدم قلبك مقابل قلب آخر..

أو ربما هو ببساطة قانون حياة، أخذ وعطاء..

قد نمسك، نبخل، نتوقف لالتقاط الأنفاس وتأمل القدر الذي نمنح به..

قد نزيد وقد ننتظر الثمن..

على كل حال لا أحد يعطي لنهاية الخط، ولابد من لمسة أنانية مستحقة..

انتظار..

ترقب وتوقعات..

وكتتمة تليق بواقعية الحدث لا حالمية رواية؛ لا يظل أحدهم مستقبل عام للمشاعر والآخر مانح حد النزف الأخير!..

***

هناك لحظة يباح فيها الانفصال، يجوز حينها الهروب!..

كانت عاكفة على تصميم صعب تضع فوقه اللمسات النهائية دون رضى..

كل ما تفعله في الآونة الماضية كان بلا مذاق..

وكأن مشاعر توأمتها تحتلها هي!..

في وقت متأخر بمكتبها كعادتها، تبتعد عن أختها التي باتت تخفي دموعها وإن كانت صامتة في إدعاء باهت بالقوة..

تترك لهم المنزل بعجز أمها وإنهاكها..

بغضب أبيها ومحاولته التحكم بدفة الأسرة التي انفلتت من يده ويد العم فانفرط العقد بغتة.. بحزن الأخت وسخط الأخ الأصغر وشرود الأكبر!..

كل منهم في وادٍ، سابح في ملكوته الخاص وهي لا تشعر بأنها ذات فائدة لأي منهم بعد ما حدث..

ابن العم بات سجينًا!..

وفي رواية اعتادت نعته بـ "مستردارسي".. متهم بالقتل والتعاطي..

ذاك الذي نصحت توأمتها الوردية ألا تقترب منه ثم وصمتها بالغباء لأنها لم تنتزع عشقه لها رُغمًا عن قلبه..

تراجعت بظهرها تلقي نظرة ختامية على عملها المرهق وهي تدرك أنه بمكتبه لم يغادركما اعتادت كلما تأخرت بالعمل..

نعم اعتادت ولم تسأل.. بل لم تهتم!..

لم تشعر بالرضى فاقتربت تمحو بضع خطوط بينما تفرك عينيها بتعب..

تخللت نحنحة خافتة المكان من حولها كأنما ينبهها بحضوره برفق، استدارت إليه بروتينية فهي لن تنتفض كما فعلتها في المرة الأولى.. وجدته يحمل بين يديه مغلفًا ورقيًا يحمل اسم مطعم مأكولات سريعة شهير.. وصينية عليها قدحين من الزجاج تتصاعد منهما أبخرة الشاي المنعشة!..

ابتسم لها ببساطة:

- عم رزق مشي فعملت لك الشاي الكشري!..

لم تصدق ما صرح به فتهكمت ببرود:

- بنفسك!..

رفع حاجبًا لامباليًا:

- في مشكلة!..

عقدت ذراعيها وذات النبرة تحتل صوتها:

- المهندس الأول للشركة عامل للمتدربة اللي معاه شاي وجايب لها أكل!..

شاكس فمه شبه بسمة تعرفها حق المعرفة فهي أبدًا لا تكتمل:

- هو بعد ما قلتيها بالشكل ده..

لكن البسمة توسعت أكثر حد الاكتمال المتفهم:

- عادي برده!..

تخلت عن دهشتها بسرعة وازت اقترابه ووضعه لحمولة يديه على مكتبها، التقط كوب الشاي خاصته بهدوء وجلس فوق المكتب ببديهية غريبة عليها:

- حضرتك عاوز حاجة يا باشمهندس عمر!..

هز كتفيه بلا تكلف:

- جايب لك عشا والشاي اللي بتحبيه..

وأشار لكوبه بعد رشفة منه:

- وليَّ شاي بالنعناع، مختلف شوية..

- ليه!.. وإيه الاهتمام المفاجئ ده!..

كانت حادة هجومية، عيناها تتوهجان ببريق مشتعل و.. جذاب!..

تأملها لحظة محافظًا على هدوئه في تقدير انساني للموقف:

- اهتمام انساني عادي..

- أفندم!..

شعر أنها على وشك خنقه فتراجع باستسلام:

- ملاحظ الفترة اللي فاتت إنك بتتأخري في الشغل من غير أكل، فقلت..

- لا مش المفروض حضرتك تهتم أو تقول أو تساعد..

بترت بفظاظة ما يراه مجرد لياقة منه، كياسة يقدمها رجل لزميلة تمر بأزمة ما!..

اعتدل يترك القدح فوق المكتب بحزم:

- آنسة صبا..

- باشمهندسة..

تقاطع من جديد بغلظة أكبر..

ورغم التنهيدة الطويلة بصبر وتأكدها من إثارة حفيظته إلا أن شبه البسمة خاصته عادت إليه:

- ده اهتمام عملي جدًا ما تحمليهوش سوء نية الستات المعتادة!..

- نعم!..

وبرقت عيناها بسخط أجبر شفتيه على زمة ثبات..

هو لأول مرة يشعر بارتباك في مواجهة أنثى!..

بل وكأنه يرى لأول مرة أنثى تلفت النظر بجنون تفاصيلها، أخفى ما مر بفكره ولم تجِد ملامحه عن جدية الحوار:

- يعني ده اهتمام بين زملاء عمل مش أكتر، غير مقصود بيه أي محاولات للتدخل أو الفضول أو أي أفكار تيجي في دماغك..

كأنما يعلن أنها تبالي وتغضب وتظهر أنوثة معه!..

تراجعت خطوة بتفكير قصير ابتسمت عقبه بسماجة وهي تتناول شطيرة من الحقيبة الورقية، تقضمها بلا شعور وتشكره بفتور:

- أوك تمام.. شكرا يا باشمهندس على اهتمامك الانساني..

وعادت لعملها توليه ظهرها بلا اكتراث، راقبها لدقيقة كاملة أجادت خلالها تجاهله قبل أن يظهر اهتمامًا من نوع آخر:

- لو حابة تتكلمي أنا مستمع كويس، وما باقاطعش!..

ارتفع رأسها بصدمة تضاعفت مع استطرادته:

- أكيد موقف ابن عمك له تأثير قوي على العيلة كلها..

- أفندم!..

مذهولة غاضبة وللمرة الثالثة ربما فهي لم تعُد، لوح بكفيه في طمأنة هادئة:

- هروبك كل يوم للشغل والتأخير ده دليل إنك مش عاوزة تتكلمي مع حد، أو المشاعر في البيت عندك حزينة لدرجة بتتعبك!..

تركت الشطيرة وجبينها ينعقد بتهكم:

- وحضرتك بقى محلل نفسي!..

ابتسم بهدوء أكبر.. هدوء احتل نبرته ونظرة عينيه ولغة جسده:

- مش لازم.. بس في ناس باقدر أقراها بسهولة..

وأشار إليها دون جهد:

- أنتِ منهم..

زمت شفتيها وعينيها تهديانه تحذيرًا أخيرًا:

- تمام.. فهمت ومتشكرة على اهتمامك، الشاي والساندويتشات..

وطردته تقريبًا بلهجة كالصقيع:

- ودي آخر حدودك يا باشمهندس..

صمت لحظات ثم شد قامته الطويلة في مواجهتها كأنما يشعرها بالعجز، لم يقُل كلمة زائدة بل أومأ لها برأسه وحمل قدحه في طريق الخروج..

عند الباب توقف بغتة مع صوت تحطم الزجاج من خلفه..

مع استدارته السريعة المهتمة وصلته لعنة تصُبها على العمل والطعام وكوب الشاي الذي تهشم تحت قدميها للمرة الثانية!..

تراجع إليها بانفعال رجولي بدا لعينيها غريبًا:

- أنتِ كويسة!..

لم تتخلَ عن جليدية نبرتها وإن شابها شيء من انفعال مختنق:

- دي مجرد كوباية يا باشمهندس..

كأنها تستنكر عودته البطولية كفاتح عكة..

زفر بحرارة وتغاضى عما بادرت به، كاد يعود من حيث أتى لكنها فجأة.. بكت!..

لمعت دموع مكبوتة بعينيها وهي تناظر كوب الشاي بحسرة:

- اتكسر تاني..

تجمد بمكانه في دهشة مبهوتة دون حرف.. كان يدرك أنها بهذه اللحظة لا تراه!..

- كنت عاوزة أشربه..

وتماسكت في الثوان التالية بحزن لم يخرج عن سجن ضلوعها:

- كل مرة يتكسر..

ورمقته بنظرة لم يفهمها:

- بسببك!..

كاد يخبرها أنه كان مغادرًا عندما أسقطته لكن وداعة ملامحها التي لم يألفها غيرت كلماته:

- ممكن أعملك واحد تاني..

تأملته كأنما فاجأها وجوده رُغم أنها كانت تتهمه قبل ثوان، أغلقت أجهزتها وحملت حقيبتها بهروب آخر:

- لأ.. أنا هامشي..

غادرت بخطوات سريعة كاد يسبها عليها فهو لم يغلق حاسوبه أو مكتبه، تبعها بلا تفكير وبمرآب الشركة انتظر حتى دلفت لسيارتها وظلت ساكنة بها بضع دقائق أقسم أنها تبكي خلالها!..

لكنها وفي طريق رحيلها توقفت..

فتحت زجاج نافذتها وواجهته بوجه جامد وأعين ثابتة خالية من كل دموع الأنثى التي مرت بخياله.. والنبرة يشوبها امتنان طفيف يوقن أنها جاهدت لتظهره:

- متشكرة على اهتمامك..

أهداها بسمته المخطوفة فبادلته إياها ورحلت..

رحلت تتابعها عيناه.. مدركًا أن أفكاره قد ذهبت خلفها، بحيرة!..

فهو رجل لم يؤمن يومًا بأن هناك امرأة تستحق أن تشغل ولو حيزًا ضيقًا من..

قلبه!..

***

لا أحد يختار الخسارة؛ هي تهزمنا وحسب..

روتينيته لم تتغير طيلة أسبوعين مضيا بهذا المكان الرمادي، حيث تفقد الألوان كل مدلول لها ويتيه الأبيض بانحسار مخزٍ في حلكة السواد..

يستيقظ.. يتريض.. يستحم.. يأكل.. ينام..

لا يحادث أحدًا ويرفض أن يحادثه أحدهم.. بل يتوحد مع ذاته محتفظًا بجمود أفكاره في بوتقة فقدان الوعي المؤقت..

نعم.. هو لا يعي بعد أنه نزيل أحد السجون بتهمة مخلة بالشرف والمروءة والانسانية..

لا يعي أنه بات قاتلًا محكومًا عليه بلا عدالة..

وكل احتكاك به كان يتحول لدفعة قاسية بطول ذراعه..

سواء من مهتم، أو فضولي.. أو حتى مثير للشغب!..

لا تكترث عيناه بغير محيطه الضيق المنغلق حوله، ولا يصيخ السمع لحديث يدور في الخفاء عنه!..

"إيه الأخبار!"..

"الرجالة جاهزين لحفلة الاستقبال المتأخرة يا ريس جابر"..

و"الهجام" يحك ذقنه الخشنة، يتأمل الغائب في دنياه البعيدة بوحشية ضبع جائع:

- طيب يلا.. احتفلوا بالوارد الجديد..

بقاموس أهل السجن؛ هو شريك عنبر حل عليهم من وقت قريب.. توجه رجله بصحبة ثلاثة من أتباعه إلى الجالس في ركن بعيد بالساحة التي تناثر فيها السجناء بعشوائية..

جذبه أضخمهم من سترته باستخفاف:

- إيه يا حيلتها، بابا حاش عنك المصروف!..

ثم قربه منه ينفث أنفاسه العطنة بوجهه:

- جاي في إيه ياض؟..

حاول "مروان" تخليص ثيابه من قبضة الضخم بغضب:

- وأنت مالك!.. خليك في حالك..

والرجل لم يستجِب، فكان من نصيبه لكمة بمعدته انحنى لها جسده وهو يحرر سترة الغافل عما يحدث..

كانت لكمة أولى تعلن بداية العرض!..

عرضٍ توالت فقراته بشكل سريع والسجناء يتجمعون حول المشادة العنيفة التي لا ينبغي لها أن تطول فالحراس يعتنون بالمدلل بنظرهم..

الفقرة الأولى ضربة منه، الثانية لوجهه.. والثالثة صدها ولوى ذراع صاحبها وصرخته الهائجة تهدر فتكاد تهدم أسوار المكان:

- سيبوني في حالي..

هائجة!..

مكبوتة!..

ضائعة!..

لا.. هي مكسورة، مقهورة..

اقترب رجل "جابر" من خلفه بتسلل يليق بالجبناء أمثاله، أخرج مُدية من ثنايا ثيابه لينهي العرض..

الخطة كانت اصطناع جرح!..

يتخطى رقة الخدش إلى ما قبل حدود الغائر.. يمر بخط عرضي فوق الضلوع مخلفًا وراءه ندبة مستحقة..

الخطة كانت جرحًا ليس عميقًا بالقدر الكافي ليقتل؛ لكنه موجعًا بقدر يمرر سيطرة ويترك ألمًا غير منسي..

الخطة كانت مرسومة بدقة..

افتعال مشكلة من لا شيء، وبوسط الهرج والمرج تصله الرسالة بصدره ليعرف حدود وجوده.. ليسلم ويخضع وينضم لجمهور التابعين..

الخطة كانت ستنفذ في دقيقة واحدة قبل أن يظهر الحراس..

الخطة فقط..

لم تسِر كما ينبغي!..

فمع فوضى اللحظة وتدافع جسده وتلاحمه مع الآخر جاءت التفاتته العنيفة في التوقيت غير المناسب..

أتت مبكرة قليلًا بفارق أجزاء من الثانية لم يأخذ فيها السلاح الوضع المطلوب..

لم يسبب الجرح المنشود أبدًا..

بل انغرس في الجسد حتى المقبض!..

وتجمد الفارس بلا شعور لثوان، ثم سقط على ركبتيه بشهقة متحشرجة وعيناه تلتقطان الهارب بعدما راقب نزفه بهلع..

شهقة كادت تتحرر معها روحه ويده تتحسس صدره، تحمل دماءه أمام ناظريه..

المحيطون به يتفرقون بذعر..

حارسيَن قادميَن بركض مفزوع..

والنزف تتضاعف حدته عبر فمه باختناق تلاه السقوط الأخير..

فالفارس حفل استقباله انتهى بطعنة نافذة.. في القلب!..

(٣٧)

للحياة أساليب كثيرة لاختبار إرادتنا..

إما بألا يحدث لنا أي شيء على الإطلاق..

أو..

أن يحدث لنا كل شيء دفعةً واحدةً!..

"باولو كويلو"

هل جربت أن تنظر للعالم من زاوية مختلفة!..

تراقبه من الأسفل حيث الكل يعلوك..

يتأملك بخوف، بارتباك، بجزع وتوتر.. بفقدان أمل!..

هل جربت أن تموت!..

الكل في ركض فوضوي يبحث عن هدف، غوث.. طبيب صغير السن يسعى لانتشالك من بين مخالب الاحتضار..

وطبيب آخر يتطلع إلى نزفك بترقب، أكبر عمرًا وربما أكثر خبرة..

خبرة ألهمته الجمود والمتابعة اللامبالية..

أتراه أَلِف الموت حتى فقد في حضرته هيبته!..

يظن ألا نجاة هنالك فيترك لك حرية الرحيل بسلام!..

- أنا عملت كل الإسعافات الممكنة..

صوت ذا المعطف الأبيض الغاضب..

- بإمكانيات بدائية بس هتساعد على استقرار معدلاته الحيوية لحد ما يتنقل مستشفى تاني..

الطبيب محدود الخبرة يرى أنك لن تحيا إن لم تخرج من هذا المكان!..

- نزف كتيروالضغط واطي جدا، محتاج عمليات فورا وإلا هيموت..

ويتداخل مع صوته صوت آخر بلهجة حازمة توقن أنك سمعتها من قبل..

- يعني مش هتقدرتساعده هنا!..

- أنا مش جراح قلب..

الطبيب يبرر للحازم بضياع يغشي نبرته:

- لازم جراح متخصص، وقفت النزيف بشكل مؤقت بس محتاج نقل دم في أقرب وقت.. اللي نقلته له هنا مش كفاية..

تتباطأ أنفاسك أكثر، بل تتحشرج جوارالطعم الصدئ الذي يغرق فمك..

تؤمن أنك أوشكت على الرحيل وهم في جدال عبثي حول كيفية نجاتك!..

تغلق عينيك لتكتشف أنهما مغلقتان منذ اللحظة الأولى..

أن روحك تطوف بالمكان حولهم وترمق جسدك الهامد الغارق بالدماء من علو ثم ترتفع أكثركأنها في طريقها لرحلة وداع..

- مين المسجون!..

- مروان الحسيني..

الاسم له منزلة خاصة على ما يبدو فقد اشتعل الموقف..

يتسلل لعقلك اسم آخر ارتبط بالصوت الثاني فتدرك أنه مأمور السجن الذي احتجزوك خلف قضبانه مع سؤاله:

- يعني لازم يتنقل مستشفى!..

ثم ترى استجابته بتنهيدة كأنما نال إيماءة موافقة.. تظهر نبرة أخرى بالصورة كما لو أن الأصوات اكتسب كل منها لونًا خاصًا:

- انقلوه القصر العيني..

أهذا الطبيب الذي لا يأبه لقرب نهايتك!..

ربما هو.. فلهجته ساخرة..

والمأمور يتدخل بحسم ينهي جدل اللحظة:

- أنا هاتصرف.. هتروح معاه..

كان يخاطب الطبيب الأصغر مثلما تبادر لذهنك..

تسمع هسيس خطواته يبتعد وكلماته تتردد من جديد تشي بمكالمة ما..

تفقد وعيك وتعود..

هل حقًا بلحظات الاحتضار يمر أمامنا شريط ذكريات حياة عشناها!..

ذنوب القلب وآثام الجوارح!..

ملامح ووجوه لكل منها سَمْتٌ باهت!..

الجواب احتلك ببديهية.. فأنت تتشبث بصورة ابنتك وابتسامتها الآسرة لكاميرا نقلت لك أربع أسنان احتلت فمها الصغير..

تسترخي بعدها بقنوط تاركًا للموت حرية الغوص بخلاياك..

ربما مع الرحيل راحة..

لم تكن أبدًا من الفارين في يوم؛ لكن يبدو أنه قد حان الوقت..

لعودة..

أو غياب أخير!..

***

الألم والخوف قرينان يتسليان على القلب دون شفقة أو رحمة..

كان ينطلق بأقصى سرعة ممكنة تسمح بها الطرقات وهي تجاوره في صمت دامع، الخبر وصل للعائلة.. ووصله هو بشكل خاص حيث تم استدعاؤه لجراحة عاجلة..

جراحة لقلب ابن العم الذي شارف على التوقف التام نتيجة طعنة غادرة.. بالمشفى استقبله فريقه الطبي والمتدربة التي تساعده باهتمام جاور ركض خطواته ونسيانه لمن أتت بصحبته:

- الحالة في العمليات..

دلف للغرفة الملحقة لإجراء التعقيم وعيناه تطلان من خلف الزجاج على الجسد المسجى فوق الطاولة الجراحية بشحوب الموت..

ارتجف فكه بغضب لا يدري له سببًا محددًا وهو يسأل بحدة أجفلتها:

- معدلاته!..

جاوبته بحرفية توازي حركته وإحدى الممرضات تساعده في ارتداء زيه الطبي:

- الضغط ٤٠/٧٠.. النبض ١٢٦.. معدل التنفس ٤٠/ الدقيقة.. نقلنا له ٥ وحدات دم..

تغضن جبينه بتوتر قلما ينال منه، وقف جوار الطاولة يتأمل الوجه الباهت لثانيتين قبل أن يأمر بحزم:

- غطوا وشه..

استجابت لأمره ممرضة متفهمة بعدها تلبس هو قناع العملية بقلب منقبض:

- مشرط..

يده تشق الصدر النازف قرب الجرح..

وتنفجر نافورة الدماء بوجهه وفوق ثيابه مع جنون الجهاز المتابع لنبضه وضغطه..

تبدأ يداه بالعمل في سباق مع الزمن..

لا.. مع الموت الذي ينتظر قرب رأس ابن عمه..

يباعد بين الضلوع، يرى جرح القلب ووتيرة نبضه الأقرب لخبال حقيقي، يرى القطع الذي تسلل لرئته اليسرى.. النزف الذي يملأ صدره ويحتاج لتفريغ عاجل قبل إعلان انتهاء الأجل..

تتابع أوامره للحاق بآخر الدقات..

ثم يتعالى الصفير القاتل مثيرًا به مشاعرًا لم يمر بها من قبل مع صوت متدربته:

- Flat line..

أمسك بالقلب بكف ثابتة يدلكه بضغطات رفيقة..

يهمس بداخله بوجل:

- هتعيش يا مروان.. هتعيش..

وجهه الجامد لا يشي بشعور..

هو يعمل ويعمل وحسب..

سيعيده مادام في عمره بقية..

توترًا ما بدأ يناوش ملامحه مع تأخر النبض، يستمر في تدليك القلب المطعون بأمل حتى هتف الجهاز بصوت أول نبضة واهنة تتعلق بالحياة..

ومع الوقت تعلن الطبيبة استقرار الضغط بموازاة معدل النبض والتنفس..

أنهى عمله بيد ثابتة لم تعتد الارتجاف وإن كان كل ما فيه يرتعد..

دفع مزيدًا من الدماء إلى عروقه، قطب صدره داعيًا أن تمر الأيام القادمة على خير وخرج لعائلته بعدما خلع عنه الثوب المدمى..

كان الجميع هناك، بين باكٍ ومذعور.. مرتعب ومنهار.. وجامد غير مصدق..

الصغيرة التي كانت وردية ركضت إليه جوار زوجته، تتعلق بكفه، تناشده طمأنة لم يستطع منحها لهم بحرف واحد وحلقه الجاف يشجه الألم..

أومأ برأسه فقط..

إيماءة لا تعني شيئًا سوى أنه.. نجا!..

فاجأته معشوقته بارتماء واهن فوق صدره، بدت لعينيه بضعف لم يره عليها أبدًا.. تنكمش بين ذراعيه اللتين أحاطاتها بأمانهما وتبكي بانتحاب خائف..

قبل رأسها وعينه تطوف حول الجمع بهمس مختنق:

- هيبقى كويس بإذن الله..

الأمل!..

هو ما نحيا به وإن كان الخوف يملك زمام السيطرة!..

***

الأمل!.. أحيانًا خطوة خاطئة..

حجر عثرة تجعلك تتشبث بسراب، تلتفت وراءك بحثًا عن وهمك الخاص..

تنكسر.. عندما لا تجود عليك الحياة بأمنيتك، حينما توقن أنك تتعلق بأسوأ خيال!..

نُقل الجسد شبه الهامد إلى غرفة الرعاية المركزة..

ومن خلف جدارها الزجاجي حُجبت عنه ضمة أم، لمسة عاشقة وقرب أخت.. قبلة جبين ود الأب لو طبعها فوق جبهته باعتذار دامع..

ترى إلى أين ستنتهي هذه الحكاية التي تسبب في حشر ابنه بطلًا لأحداثها بحكم غيابي ورُغمًا عنه!..

سجن!..

قرب من الموت!..

هو لم ينجُ تمامًا بعد.. لا تزال أنياب الظلمة تنهشه لولا تشبثه بالحياة..

لولا بقية من عمر محفوظة كقدر..

غادر طبيبه وابن عمه الغرفة يطمئنهم بوجه هادئ، هو عاجز عن سرد تفاصيل ما جرى.. كرجل وكطبيب..

برود الجراح الذي يتسم به مكبل خلف أطنان من مشاعر مذعورة حجبت عنه حرية النطق والتعبير..

ترك وجوههم بتشتتها وحيرتها وتيهها، ترك تصلب أجسادهم حوله وإن لم يلامسوه، ابتعد عن غزو المشاعر المحيطة بالمكان وقدميه تحملانه بعسر..

يبحث عن انفراد ولو لدقيقة واحدة بعيدًا عن الجميع..

لم يكد يصل لنهاية الممر حتى دوى إنذار مخيف قادم من الغرفة التي تركها قبل ثوان، عدد من الممرضات تركضن نحوها وإحداهن تدفع عربة إسعافات أما خطواته هو فتسابقت رجوعًا من حيث أتى:

- code blue..

لقد توقف قلبه!..

أزاح واحدة وتحرك ليحتل مكانها.. يده تضغط صدر "مروان" في تتابع مقنن، يلتفت للواقفة جوار العربة بأمر:

- charge، 100..

ويمسك الأقطاب كاشفًا الصدر المقطب، يضغطهما فوقه بهتاف:

- Clear..

ولا نبض!..

يكرر الشحن والصعق.. ويعلو بالقدرة الكهربية..

ولا نبض!..

ثلاث..

أربع..

ويصرخ:

- أمبول أتروبين بسرعة..

وتضخ ممرضة ما الدواء في وريده..

يتكرر الصعق..

مرت ثلاثون ثانية..

خمس وثلاثون..

ولا نبض!..

زميل يناديه بنبرة خاملة يدرك مقصدها:

- يوسف!..

يخبره ببساطة أنه قد حان وقت إعلان الوفاة!..

أن العمر انتهى!..

أربعون ثانية..

رفع عينيه نحو الجدار الذي التصقت به الأعين التي تفيض بالهلع.. بالندم.. بالانكسار والضياع..

تهدلت يداه المطبقتان بشدة على جهاز الصدمات الكهربي..

تأمل الوجه الشاحب وعاد للأوجه المترقبة..

الدموع المتجمدة قيد الانتظار بالمآقي..

خمسون ثانية..

وأخيرًا.. الوجه البريء الذي لا يفهم شيئًا مما يحدث، ترتكن كفها الصغيرة للزجاج وتطرقه كأنه لعبة يعجبها صوت ارتطام أصابعها بها..

العيون التي لا تدري عن هذا العالم شيئًا سوى أفضل ما فيه..

لا تدري أن الأب.. على وشك الرحيل!..

خمس وخمسون ثانية..

"أمبول إبينيفرين"..

زاعقة آمرة لم تملك متدربته سوى طاعته فيها وأمره يتوجه لغيرها:

- 200 ..charge..

ويهدي الصدر الخامد صدمة أخيرة..

يترك الأقطاب لتسقط أرضًا وعيناه متشبثتان بالجهاز الذي لم يتذبذب خط النبض فيه..

شبَّك أصابعه وبدأ إسعاف القلب يدويًا بضغطات متتابعة وتمتمة مختنقة:

- بنتك برا يا مروان.. هتسيبها وتموت!..

خمس وستون ثانية..

ست وستون..

سبع وستون..

ونبضة..

نبضة ارتجف لها كيانه وهو يتأمل الشاشة بأمل تنضح به ملامحه..

تبعتها ثانية فثالثة، ورابعة ثم خامسة.. والطبيبة المبهورة تعلن في غير تصديق:

- الضغط بيرتفع..

لقد عاد..

عاد مرة أخرى من الموت ولا يدري إن كان ذهابه مجددًا قد ترك أثرًا ما من ورائه أم لا!..

تحرك خارج الغرفة ليتلقف جسد أخته بأحضانه بينما تعانق زوجته أمها المنهارة تمامًا..

انهيارًا ذابحًا لروحها التي لم تنسَ مشهدًا مشابهًا مرت به من قبل..

توجهت نحوه تتعلق بكفه وجسدها يرتعش كأنما ستصاب بلوثة وبصره يراقب تجمد جسد عمه كأنما تحول لمنحوتة من ألم:

- دخلني ليه يا يوسف..

احتوى يدها يهديها أمانًا لا يملك منه سوى الفتات:

- حاضر..

الأمل!..

قد يكون على حافة هاوية وما بعده فقط سقوط..

***

ست وثلاثون ساعة دون إفاقة..

أحيانًا نختار الهروب لأن المواجهة كاسرة..

فهل يا ترى اختار الراقد بفراش المرض الغياب عن الوعي بإرادة حرة!..

الحالة مستقرة لحد كبير، لم تتم إزالة أنبوب التنفس من حلقه بعد لكن بذات المعدل ربما ينقله لأنبوب الأنف بعد بضع ساعات..

"ملك" وخالته لم ترحلا عن المكان..

العاشقة العائدة أجبروها على الذهاب مع طفلتها التي لا يناسبها جو المشفى..

عمه في وضع جمود غريب لم يتخلَ عنه منذ لحظة البداية..

وباقي العائلة بين مرتعب ومساند وغير مصدق..

اختلى بنفسه باستراحة الأطباء، ممدد فوق فراش ضيق وساعده يغطي عينيه بإرهاق.. فكره شارد، حائر.. ومخاوف لا حصر لها تجتث من صدره أنفاسه.. وأمانه!..

ماذا لو كان فقده!.. ماذا لو توقف نبض القلب بين يديه!..

هل سيكون قد قتل ابن عمه.. والد طفلة أخته وأخا زوجته!..

هل كانت ستستقيم الحياة بعدها!..

انغماسه بأفكاره لم يشعره بحضورها إلا عندما انكمشت فوق صدره بضعف، فتح عينيه ينظر إليها بدهشة ليسمع تمتمتها المهتمة رغم ابتعاد ناظريها عنه:

- أنت كويس!..

تحرك بصره نحو الباب المغلق ثم عاد إليها بهمس متحشرج:

- لأ..

استشعر رجفتها وتراجعها، رآها تستند لمرفقها تواجه عينيه باحتواء:

- إن شاء الله هيبقى كويس.. اطمن..

بدا كأنه يخترق حدود وجودها بنظرة ساهمة واجمة ونبرته تختنق أكثر:

- تفتكري لو قلبه وقف في إيدي؛ كانت الحياة هتكمل عادي!..

ربتت على خافقه هو بحنو:

- بس هو ما وقفش..

- عشان لسه له عمر..

وأزاحها عنه قبل أن يعتدل جالسًا، ينزل ساقيه للأرض وينهض في ثوان:

- هاروح أطمن عليه.. ارتاحي أنتِ هنا..

تمسكت بكفه تحاول لملمة بعثرة روحه:

- ماما معاه..

التفت برأسه إليها في غياب:

- هاقعد معاه أنا كمان..

وتركها في هرولة سريعة أقرب لركض متخبط.. بغرفة الرعاية المحتجز بها وجد "جمانة" فوق مقعد يجاور الجدار، عيناها مسلطتان عليه دون أن ترف بأجفانها كأنما لو رمشت فسيتلاشى من أمامها..

كان يعلم أنه أجبر عمه على الرحيل فقلبه لم ينهض من كبوته بعد لكن زوجته ووالدتها أصرتا على البقاء..

أبعد نظره عنها واقترب من فراش مريضه، تفحص نبضه وأنفاسه وبهوت وجهه كأن جسده قد خلا من الدماء.. تحسس حرارته ودنا يراقب صدره وإيقاعه الرتيب بجمود غريب..

ودَّ لو تحدث معه لكن الكلمات عاجزة عن التشكل بحلقه..

لا يعرف ماذا يقول أو لماذا عليه أن ينطق بحرف، هي رغبة لا واعية وحسب!..

قبل ابتعاده سمع الحشرجة..

الاختناق..

السعال وعنف الحركة واليد التي قبضت على معصمه بقسوة وازت اليد الأخرى وهي تحاول خلع أنبوب التنفس من حلقه.. توسعت عيناه بجزع مكترث والأم تنتفض من مكانها:

- اهدى يا مروان.. ما تخافش..

تلاقت النظرات في هوس..

المطعون يبحث عن أنفاس يحجبها عنه شيء ما يسد حنجرته، والطبيب يهدئ من روعه وقلبه نفسه ينبض بجنون بين ضلوعه:

- مروان اهدى.. أنت كويس، أنت في المستشفى..

ومد يده يسعى لإزالة الأنبوب تاركًا الثانية محتجزة في قبضة الخائف الذي استفاق على ظلام يغلف كل شيء..

قبل أن يسطع الضوء فجأة وتقتحم الأنفاس صدره بشهقة جعلته يحرر رسغ "يوسف" الذي وضع جهاز التنفس حول أنفه باهتمام:

- أنت في أمان..

ودارت عيناه من وضع رقوده في المكان..

البياض يسيطر على كل ركن..

الرائحة..

الضوء المزعج..

الوجوه الضبابية..

ثم عاد لغيبوبته ثانيةً جوار بكاء أمه:

- يوسف.. نام تاني ليه!..

طمأنها بخبرة طبيب يواجه الخوف للمرة الأولى:

- اطمني.. إديته مهدئ عشان يرتاح..

فاضت عيناها بالدموع وأناملها تتحسس جبين صغيرها:

- كان خايف..

- عارف..

- هيبقى كويس يا يوسف!..

الجواب أتاها بعد تنهيدة حارة يشتعل من ورائها كيانه:

- إن شاء الله..

وعم الصمت..

يوم وثان..

أربعة أيام عاد لجسد مريضه فيها شيء من حيويته..

استفاق على حنو أمه وهرب بصر أبيه منه.. على ضمة أخته ولمسة من كف طفلته وخلفها عينا أمها الوجلتين.. كان يرى عشقها يكاد يستصرخه مع كل لقاء نظرة..

عادت للجسد حيويته.. والقلب الذي أوشك على نزف آخر نبضه غشاه الجليد.. لا انفعال يثيره به أحد..

حتى صغيرته ضمها بذراعه في آلية وعقله يحارب الطواحين بأقصى طاقة ممكنة..

نُقل لغرفة عادية وحينها أخبروه أن قلبه توقف مرتين، علم أن في الثانية كادت تعلن وفاته فابتسم لزوج أخته ساخرًا:

- يعني اتولدت من جديد مرتين!..

راقب وجوم والده ونظرة الندم غير المفهومة بمقلتيه، قبلته الطويلة لجبينه واعتذارًا صامتًا لا يدري له مسوغًا..

راقب بلا شعور..

مزح العابث..

اهتمام الطبيب..

تشبُث العاشقة..

حنو العمة والخالة.. ودموع الأم..

راقب تتابع زيارات أبنائهم بلا اكتراث..

راقب من خلف عينين زجاجتين حجبتا عنه كل صوت وعاطفة..

مضى أسبوع آخر وتحسنت حاله أكثر، عندها أتت لهجته صارمة.. حادة وهو يخبر طبيبه:

- اكتب لي على خروج..

تأمله "يوسف" بدهشة بينما يحقنه بشيء ما:

- عاوز ترجع السجن!..

انحنى طرف فمه بسخرية قاسية:

- إيه!.. مش ده مكاني!..

تنهد ابن عمه باستسلام، جذب مقعدًا وجاور فراشه:

- تقرير الحالة في إيدي.. ممكن أخليك تقضي أطول وقت ممكن في المستشفى..

لم تنقص بسمته مثقال ذرة بل لامستها وحشية أقلقت المقابل له:

- عارف.. وعارف إن نقلي هنا عشان اسم الحسيني وفلوس الحسيني، بس أنا عاوز أرجع..

تضاعفت حيرة "يوسف" وهو يتطلع إليه باستفهام لم يبالِ بجوابه.. انعقد حاجباه للحظة ثم سأله:

- أنت عارف مين عمل فيك كده!..

استنتاج بديهي، سخيف ربما.. وأظلمت النظرة بعتمة مقبضة كانت أكثر من شافية:

- أنت عاوز ترجع تنتقم!..

اللهجة المستنكرة توسعت لها البسمة الساخرة بموازاة النبرة المستخفة:

- مبروك.. كسبت المليون..

استقام "يوسف" واقفًا باهتمام منفعل:

- مروان.. ده مش أنت، في تحقيق وكل اللي تعمله إنك تشهد وبس..

التوت شفتاه باستهزاء:

- أنا اتولدت من جديد، ولا نسيت يا دكتور!..

- يعني إيه!..

- يعني عاوز أرجع السجن..

السخرية ارتحلت عن النبرة والنظرة ولغة الجسد..

تبدلت لتوحش مخيف..

فالفارس ترجل عن جواده ورمى بسيفه ودرعه..

الفارس غير تكنيك الحرب..

والخطة ستكون بيديه هذه المرة!..

***

تمر بنا العقبات..

نتعثر، نعاود الوقوف.. نخطو بثبات أو بتخبط..

ما يهم.. أننا نستمر..

برعونة -لا تناسبه ربما- كان يصف سيارته خارج المعرض الذي دعته لحضوره مريضته..

قبل عشرة أيام غادر ابن عمه المشفى تبعًا لرغبته الخاصة معارضًا إرادة الجميع.. بل ضاربًا بتعلقهم به ومشاعرهم عرض الحائط..

تغير!..

نعم.. لكن من قال أن العودة من نفق الموت حالك العتمة هينة ليظل "مروان" كما هو!..

أوقف المحرك وسكن لبضع لحظات يراقب مدخل المكان الراقي بلا وعي..

علاقته بزوجته بعد عودة أخيها لاتزال عند وضع التوقف المؤقت..

لم تأخذ خطوة سوى تلك التي أودعتها اهتمامًا بالمشفى، وهو على حاله..

ينتظر منها التالية..

ينتظر منها عشقًا يرى أنه يستحقه..

ينتظر منها اقترابًا لا يفهم لمَ تماطل فيه!..

ترجل من السيارة متوجهًا إلى الداخل.. تأمل الحضور بعين نصف مهتمة، الأناقة والأرستقراطية تطغى على الأغلبية.. بعض المصورين والصحفيين، نساء متشحات بالثراء ورجال يرتدون الغنى الفاحش!..

هل هؤلاء هم من يهتموت بالفن أم أنهم مجرد معارف!..

"دكتور يوسف!"..

أتت من على يمينه بنبرة مبتهجة وصاحبتها تتهادى في خطواتها باقتراب سعيد..

وأخذت عينيه في دهشة قصيرة..

كانت ببساطة.. فاتنة!..

وككل رجل يرى بحِلّ النظرة الأولى تأملها..

الثوب الأحمر القاني المناقض لعقلانية ظنها تملكها.. خامته الحريرية المطوقة لحنايا أنوثتها في إغواء راقٍ.. ظلال عينيها الداكنة والتي ضاعفت من شفافية خضرتهما بسحر، وأخيرًا الحمرة التي اختلطت ورديتها بلمعة نبيذية فوق شفتيها..

مدت يدها ترحب به في حبور:

- أنا مبسوطة قوي إنك جيت..

هز رأسه ببساطة:

- قلت أتعرف على الفن..

- هاوي!..

- مستجد..

وتعبيره عن حاله أطلق منها ضحكة ناعمة وازت جذبها لساعده نحو أولى اللوحات باهتمام:

- اللوحة دي قريبة من الباب عشان عاوزة كل اللي يدخل تبقى هي أول واحدة عينه تقع عليها..

تأمل اللوحة التي أشارت إليها بتفحص..

درجات الشفق التي تباينت حمرتها من أقصى ركنها الأيسر السفلي وصولا للأيمن العلوي..

الشمس الغاربة والمحيط من أسفلها يتلون بأشعتها البرتقالية وهي تردف:

- عارفة إنها نوعًا ما رسمة تقليدية.. غروب وبحر، بس الحالة نفسها تهمني..

ابتسم بإعجاب فاللوحة متقنة.. حية:

- ألوانها تخطف..

- بجد!..

سعادة نبرة سؤالها بدت لأذنيه طفولية فاستدار إليها:

- بجد..

قبل أن تجيبه بُترت أحرفها بنداء..

نداء لم يمر بأذنيها منذ دهر..

بل تمنت أن يكون دهرًا، أو ربما الأمنية كانت ألا يمر بمسامعها البتة!..

"ندى!"..

توترها لمحه الواقف إلى جوارها فتغضن جبينه مع التفاتها:

- نادر!..

كان رجلًا وسيمًا بعينين سوداوين.. ملامحه مصمتة كأنما هو فارغ من كل شعور، وإن افتعلت عيناه.. اشتياقًا!..

لعاشق مخضرم.. هو رجل متصنع!..

وجدها تتحرك قربه في غير راحة بترحيب فاتر:

- نورت المعرض..

والآخر يجيب باهتمام لزج:

- كان لازم أحضر..

لاحظ "يوسف" ابتلاعها لريقها بعسر فعقد حاجبيه بحيرة.. حيرة تضاعفت عندما تحركت هي خطوة مقتربة منه ونبرتها يعود لها اتزانها وثباتها:

- ميرسي بجد.. أعرفك..

وأشارت إليه بحماس وعيناها تبرقان بمشاعر لم يفهمها:

- دكتور يوسف..

ثم صمتت لحظة أكملت بعدها بعاطفة غريبة:

- اللي رجع قلبي للحياة..

ابتسم بحرج ثم تجمد جسده كله عندنا تعلقت بذراعه في حميمية دافئة:

- وخطيبي..

لم يجد ردًا لثوان..

الواقف بمواجهتهما كذلك انعقد لسانه وهي تتمم التعارف بتشفٍ:

- يوسف.. ده نادر، طليقي..

وفهم، فطن لمغزى الكذبة!..

لم تنظر نحو الآخر ثانيةً رغم أنها تخاطبه:

- يوسف ده راجل نادر يا.. نادر، عشان كده ما قدرتش ما أقعش في حبه، وافقت أول ما طلب إيدي بعد العملية..

التفت للرجل المشدوه ببسمة مرتبكة وازت همهمة غامضة لم تعبر شفتيه، راقب رحيله مع تجمد جسدها وابتعادها عنه باعتذار:

- آسفة يا دكتور يوسف على الكذبة دي.. بس كنت محتاجاها..

سيطرعلى ارتباكه بلحظة وأهداها بسمة متفهمة:

- ولا يهمك.. أنا فاهم، بعدين أي راجل يعتز إنك تكوني مراته..

تأملته بنظرة مبهمة قبل أن توقف نادلًا مارًا وتتناول كوبين من العصير تمنحه أحدهما ببسمة رائقة وملامح مرتاحة:

- نكمل المعرض!..

أومأ بإيجاب صامت وتبعها يتنقلان بين اللوحات..

تشرح له كل واحدة.. تتحدث باستفاضة عن الحالة والحس واللون، تبدي شغفها بفنها وتظهر له جانبًا آخر عنها لم يكن يتخيل وجوده..

عاطفة امرأة تجيد التحكم بالريشة ومزج الألوان..

بعد انتهاء الوقت عادت به جوار الغروب الأول، أشارت لأحد العمال بتنزيلها ولفها بعناية بينما تخبره:

- دي هدية مني.. أغلى لوحة عندي..

- أيوة بس..

قاطعته بحسم:

- من غير اعتراض يا دكتور لو سمحت.. أنت فعلًا رجعت قلبي للحياة..

حملها العامل خلفهما وهي تصاحبه لسيارته، تواجهه قبالتها ببسمة ممتنة:

- على فكرة؛ أنا عندي طلب..

فتح حقيبة السيارة للرجل الذي وضع بها اللوحة ورحل جوار استفساره الصامت:

- ليك نظرة معينة تستاهل تعيش للأبد في لوحة..

ابتسم باستغراب:

- عاوزة ترسميني!..

هزت رأسها بموافقة فسأل مجددًا:

- أي نظرة تقصدي؟..

اقتربت خطوة تقتنصها من عينيه:

- لما بتتكلم عن مراتك..

واقتنصتها بعد لحظة من ذكرها ببسمة مشاغبة:

- أيوة.. هي دي بالظبط..

استحقت منه ضحكة خافتة وشبه وعد:

- أفكر..

تابعت رحيله بمراقبة متحسرة..

كأنما أضاعت غاليًا!..

فربما في زمن آخر؛ كان ليمتلك قلبها بالفعل..

***

في العشق هو يبدأ، وهي تكمل من بعده..

حتى الأبد!..

كل رجل يقدم الخطوة الأولى، بديهية.. بسيطة..

احتلال.. استحواذ..

شغف وقبول..

والخطوات التالية تحمل اسمها..

لكنه يختلف.. هو عاشق مختلف!..

وبحق عشقه الخطوة التالية لها وإن تبعها ألف منه..

أوقف سيارته في مكانها المخصص بمرآب المبنى الذي يسكنه، دار حولها يفتح حقيبتها في نية لحمل اللوحة المهداة إليه..

توقف بتفكير دام لثوان مترددة أعاد بعدها إغلاق السيارة وصعد لمنزله دون هديته..

لن يفتح بابًا لحديث وإن كان محض فضول..

المفتاح ملك يمينها هذه المرة..

دلف لبيته بهدوء ليجدها بانتظاره في جلسة متحفزة!..

تأملها لحظة وقبل أن يتحرك واجهته برجفة وأناملها تزيح خصلاتها خلف أذنها:

- ممكن نتكلم!..

منع عن شفتيه بسمة وأومأ موافقًا، جذبت إثرها كفه نحو غرفة النوم ليواجهه الفراش غير المرتب..

لقد بعثرت فوقه غلالاتها التي يحفظ تفاصيلها حول جسدها..

إلا من ثلاث..

هاته لم يرها من قبل!..

لوحت بيدها إليها في حشرجة:

- اشتريت جديد وطلعتهم كلهم أختار منهم حاجة بتحبها عشان أصالحك..

قطب بحيرة بينما تردف بوهن غريب..

بضمة من كفيها وذراعيها تطوقان جسدها بارتباك:

- بس أنا مش عاوزة نعالج مشاكلنا في السريريا يوسف..

أخيرًا اسمه الذي اشتاقه!..

لم يجبها وهي لم تنتظر منه ردًا، فقط نظرتها العاتبة آلمته:

- يوسف.. أنا خايفة..

تمخضت أحرفه بعسر عن كلمة مبهوتة:

- خايفة!..

هزت رأسها بعشوائية قلقة:

- أيوة..

دنت تلامس وجنته بكف باردة مرتعشة:

- خايفة أخسرك..

ثم تراجعت بابتعاد وظهرها هو ما واجهه فعيناها تحبسان خلف أجفانها الدموع بمشقة:

- خايفة تكون مشاعرك ليَّ انطفت.. خايفة تضيع مني..

عادت إليه بمقلتين مهتزتين وجسدها يفقد ثباته:

- خايفة تكسرني..

حديثها أغضبه قدر ما أوجعه..

أهذا هو مقابل عشقه!..

خوف!..

تحرك يقبض على ذراعها بضيق مكبوت:

- أنتِ شايفة أي خوف من دول منطقي!..

لكن حنقه تسلل رغمًا عنه لنبرته:

- طيب بحسبة بسيطة، نقول حب بعمري كله مثلا.. منطقي!..

تناءت عنه بانتزاع واهن ليدها من يده وجسدها من قربه:

- حبك خلاني أضعف مما كنت أتصور..

- أضعف!..

الآن سيحطم رأسها ثم يسجنها بين ضلوعه وينهي الأمر:

- هتسمعني!..

همستها باختناق جعلها مستقر بصره المتقد، لم يجبها وإن أباحت لها عيناه حرية تشكيل الكلمات.. حرية الصراخ.. حرية سرد مخاوفها وأوجاعها:

- هاتكلم عنه..

وقلبت كفيها بتسليم رفضه هو:

- لأ يا ملك..

جابهته بهتاف محتد استشعر فيه العبرة المسجونة:

- هاتكلم عنه يايوسف وهتسمعني..

ضغط فكيه بقسوة وقبضتيه تتشددان بعنف حينما أكملت هي دون هروب:

- مش هامحي وجوده السابق في حياتي رغم كل أثر سابه وراه؛ دي حقيقة لازم تسلم بيها..

تغافلت عن غضب وجهه واستعار النيران بسماء مقلتيه..

تحركت بتوازن مختل تجوب الغرفة كأنما لا تجد لخطواتها موطنًا إلا قربه، لكنه بعيد عنها ككوكب في مجرة سحيقة..

وبدأت السرد تجبره على الإنصات بأنين ألم كسا صوتها:

- عارفة إني غلطت لما رجعت له..

لمحت جمود نظرته وثبوت عينيه عليها فأكملت بلا توقف:

- عارفة من نفس اللحظة اللي رجعت فيها..

وواجهته بحزم:

- بس كان لازم أحاول..

بترت محاولته الحديث بسبابتها عند شفتيه:

- كان لازم أحاول.. كان في حب يا يوسف وكلكم عارفين إنه كان موجود، وبحق الحب ده كان لازم أصدقه وأحاول معاه..

تأجج اللهب غير لون حدقتيه لدجنة تفهمتها:

- رجعت له وفي أمل ضعيف جوايا إنه يتغير، عشاني.. عشان الحب، ما كنتش أعرف حجم المشكلة ولا أبعادها.. ما كنتش أعرفه!..

هدأت نظرته وناوشها تساؤل جاوبته بهدوء:

- ما كنتش أعرف قد إيه هو انسان مشوه!.. كسر جوايا حاجة مابقاش ينفع تتصلح، حاجة تجاهلتها وكملت بس الندبة موجودة والذكرى عايشة..

عاد لعينيه اشتعالهما فمرت بين جفنيه بالجحيم، ربتت على صدره تهديه مع وجودها طمأنة:

- لحد أنت ما عالجت الجرح.. أيا كانت نيتك أو قصدك وقتها بس وجودك فرق..

لم يعلق.. وهي استطردت بدفء:

- أنا حبيتك يا يوسف..

- ودي مشكلة!..

برود لهجته أوجعها فأدارت ظهرها إليه:

- يوم ما واجهته آخر مرة كنت عارفة أنا عاوزة إيه.. ووصلت للي أنا عاوزاه، ما كنتش مترددة أو خايفة..

عادت إليها بضعف عينيها مكملة:

- ما كانش فارق معايا.. بس دلوقتِ، معاك.. أنا خايفة..

كلمتها الأخيرة نطقتها مكسورة.. مرتجفة عصرت فؤاده العاشق فأجبره على اقتراب.. على احتواء:

- بحبك لدرجة ممكن تقتلني لو بعدت عني..

ورفعت بصرها إليه وأذنها تنصت لهدير نبضه:

- وأنت بعدت..

لام نفسه على حماقته.. غضب منها ولعنها ثم ترك كل أفكاره وراء ظهره وكفاه تحيطان بوجنتيها، يغوص بعسل مقلتيها المفتون بهما:

- أنا كنت عاوزك أنتِ تقربي.. عاوز أحس بحبك..

وقبل أن تجيبه أعادها لصدره بسباب لنفسه:

- أنا غبي..

تعلقت أناملها بقميصه تخبره بحزم باكٍ:

- ما تشتمش حبيبي..

ابتسم بحنو وشفتيه تستقران فوق خصلاتها بلثمة دافئة:

- حاضر..

تلاقت مع نظرته العاشقة بصدق ونبرتها يكسوها الإخلاص.. الثقة والغرام:

- أنا بحبَك يا يوسف..

الكلمة أعادت صياغة مشاعره..

بل نحتت قلبه بصدره فكررت ولادته ونبضه وعشقه..

ضمها لدقيقة بصمت، شاكسها بعدها بعبث وبصره يسقط على الفراش المبعثر:

- طيب بخصوص موضوع قميص النوم؛ في حاجة لون عينيكِ!..

وكزت صدره فضحك وكفه تحتوي يدها..

يتبع القبلة بالقبلة فوق رأسها وجبينها ووجنتيها وبين شفتيها:

- بحبِك..

العشق!..

كارثة تنتظروصولك لعمق الهاوية لتنال منك..

***

أسوأ ما في الكون؛ التعايش!..

أسوأه وأكثره راحة..

فمن رحلت الدنيا دونه يؤمن أنه سقط بخانة نسيان من حوله..

ومن حوله تهدأ نفوسهم بحق التكيف على غياب جسده وإن لم يغِب حضوره عن القلب والعقل..

مهما بررنا أو اعترضنا يظل التعايش سنة كونية وفطرة انسانية..

في حق من غاب وحق من بقى بعده..

كابوس..

ككل ليلة منذ عاد لمحبسه.. لعنبر النوم المظلم المليء بالوجوه الغريبة عنه..

كابوس ينتفض له جسده بفراشه الصلب.. يتعرق.. يجاهد.. يصارع، تشق عليه الأنفاس ولمعة المدية تبرق قبالة عينيه..

تنغرس بقلبه..

تقتله!..

"مروان!"..

وصل لسمعه اسمه بصوت لا يعرفه..

وفوق كتفه شعر باللمسة الضاغطة التي تسعى لإيقاظه..

فتح عينيه بإجفال واستقامة مباغتة وازت تفرق جفنيه عن نظرة شرسة كأنما انتقل عدو كابوسه وتجسد بواقعه..

أمسك بخناق ذاك الذي أيقظه يعتصر عنقه، تحشرجت أنفاس الآخر فدفعه عنه بقوة:

- مروان.. أنت كنت بتحلم..

لم يتخلَ عنه لثوان وجمود عينيه بدا مخيفًا.. تراجع بعدها بانتفاضة أخيرة سبقت السؤال:

- أنت مين!..

وعقله ينتبه أنه ناداه باسمه!..

طمأنه الشاب العشريني ذا الملامح الهادئة والعينين الداكنتين ببريق ذكاء حاد:

- أنا مسجون معاك هنا.. لقيتك بتتحرك في السرير ومش عارف تتنفس قلت أصحيك..

رمقه دون انفعال لثوان تالية عاد عقبها لوضع النوم متجاهلًا الجالس على طرف فراشه والذي منحه نظرة سمجة متهكمة وتركه لحاله..

في الصباح التالي وبعد طقوسه المعتادة جاوره الفتى بلا استئذان ونال التجاهل مجددًا..

أشعل تبغًا رخيصًا وقدم له واحدة حدجها في يده ببرود ثم ثابت عيناه لشرودهما بلا اكتراث.. نفث الشاب دخانه ببطء متلذذ وسأله دون فضول كأنما يعلم الجواب:

- ليه ما اعترفتش على نعيم في التحقيق!..

استدار إليه "مروان" بنظرة قاتمة أدرك مغزاها فابتسم:

- أيوة.. اسمه نعيم..

ثم نفث الضباب الرمادي ببطء:

- أنا عارف على فكرة..

الصمت كان من نصيبه كما سبق، أردف بذكاء:

- عاوز تنتقم منه بنفسك؛ مش كده!..

حطت العينين البنيتين على الجالس جواره ببرود كالصقيع وهو يردف:

- واخد بالك إنه ما بيجيش جنبك!..

ومال نحوه بغمزة عابثة:

- عشان هو كمان عارف..

تحركت الشفاه الثابتة ببسمة قاسية والنبرة غلفتها وحشية وليدة:

- عارف إني هانتقم!..

- كلنا متوقعين، بس لسه مش عارفين إزاي!..

- كلكم!..

أشار الفتى حوله بلا معنى:

- زمايل العنبر والدور..

وتحرك بفضول هذه المرة يواجه جلسته:

- ناوي على إيه بقى!..

سكن "مروان".. سكن حتى أن أنفاسه تباطأت جوار احتدام أفكاره:

- طيب أقولك أنا..

فاز بنظرة شبه مهتمة من الصامت فكرر الغمزة:

- مش هتعمل حاجة..

أخفى "مروان" علامات المفاجأة بداخله والشاب يكمل:

- حرب نفسية، استنزاف.. ما قلتش وهو متوقع إنك تنتقم ومستني، الانتظاريا صديقي ممكن يقتل..

وضحك بخفة وذكاؤه يعجب رفيقه الذي تأمله بتقييم..

جسد نحيل وقامة متوسطة، عينان هما أبرز ما في وجهه، حادتا النظرة وأنف دقيق مستقيم يعلو شفاه رفيعة يحيطها لحية دائرية خفيفة:

- بيقولك وقوع البلا ولا انتظاره..

طال الصمت بعد كلماته حتى أنهى لفافة التبغ، أطفأها بيده في الأرض ثم مد كفه بتعارف:

- حاتم..

حدج "مروان" يده بنظرة جليدية فوجده يمد الأخرى ليصافح نفسه بسخرية:

- مروان.. تشرفنا يا حاتم والله..

كاد الجامد يتركه ويرحل لولا أن ثبته بسؤال:

- طيب مش عاوز تعرف مين زقه عليك!..

عاد بعينيه إليه في نظرة صارمة:

- أنت عارف!..

- اسمه جابر، وبيقولوا له الهجَّام..

وتراخى بتمدد مسترخٍ على الأرضية الصلبة:

- ماكانش عاوز يقتلك على فكرة، كان عاوز يعرفك مين البيج بوص.. بس حظك بقى..

جلجلت ضحكة "مروان" الساخرة فاستدعت ابتسامة "حاتم":

- المشكلة إنه مش البيج بوص أصلا..

- كمان!..

خرجت هازئة باستخفاف مستهجن رد عليه الفتى الذكي بتقليد لممثل قديم:

- ده يا عزيزي تقدرتقول إنه الرجل التاني..

والابتسامة انحسرت لتحتل ملامحه جدية هادئة:

- أيوة في زعيم.. بس هو ما بيحبش يتكلم عن نفسه كتير..

ثم استند لكفيه واعتدل واقفًا:

- وأنت دلوقتِ تحت حمايته..

تعايش الجميع دونك..

ماذا عن تكيُفك أنت إذًا!..

***

لم تحب المفاجآت في يوم..

ربما لأن نصيبها منها دومًا كان غير مبهج..

بل كان قاتلًا..

فلمَ عسى واحدة جديدة أن تختلف!..

هاتفها قبل نصف ساعة يخبرها أنه في طريقه للبيت بعد انتهاء عمله ومحاولة زيارة أخرى فاشلة لابن عمه..

فجر اليوم حصلت على اختبار حمل سلبي ثانٍ..

كانت تود منحه هدية بخل بها القدر عليها، براحة وسعادة حجبها القدر عنه..

استسلمت بدمعة عابرة وتركت الأمر يمر.. لقد امتنعت عن الأقراص قبل ما يقرب من شهرين!..

الظلام طغى على السماء وقلبها لا تدري سببًا لتذبذب نبضاته..

قلبها الذي سقط في هواه دون أن توقفه..

امتلك منه ما لم يصل إليه رجل قبله، لكنها كتمته بين جدرانه..

هو لم يفطن لمشاعر تملكت منها نحوه، ولا تظن أنه يريد عشقًا في المعادلة!..

انقباضة متوجسة ناوشته بين ضلوعها مع رنين هاتفها العالي برقم تجهله..

تمتمت باسمه في تيه..

"آسر!"..

وفتحت الخط..

الخبر..

حادث سيارة.. مروع!..

لقد اصطدمت سيارته بمقطورة نقل ثقيل فوق أحد الكباري فاندفعت ساقطة من علو ليتكرر الاصطدام بسيارة أخرى متوقفة أسفله..

والنتيجة..

زوجها في المشفى بين حياة.. وموت!..

(٣٨)

في مدار أحدهم أنت المركز..

في قلبٍ لا تعلم عنه شيئًا أنت الحاكم بأمره..

وفي دنياه..

كنتَ الأهم!..

عند البداية لا نخطط أبدًا لنهايات لا ترضينا..

مهما بلغت ظنوننا من سوء تظل شعرة واهية من أمل نتعلق بأطرافها علَّ فيها السعادة..

يوم عادي بأحداث مكررة، ختامه كان الأسوأ!..

زوجها، ثم حادث مباغت مخيف..

وعقب ركض بممرات المشفى الذي نقلوه إليه بصحبة والديها الذين قابلاها عند بوابته؛ وجدت أهله..

والدته الصامدة.. أبيه الواجم، أخيه الذي يزعق بطبيب ما..

وتوأمتيه.. بين دامعة وأخرى تكبت كل شعور ممكن!..

تعلقت بأمه في صمت كأنما تستمد منها شيئًا من ثباتها، وعن الوقت الذي طال فقد انتهى به في غيبوبة اصطناعية تهدئ من أوجاعه..

حيث أن كسور جسده تعدت حاجز التحمل..

والقائمة تطول!..

خلع في الكتف الأيمن..

كسور في الضلعين الثامن والتاسع..

كسر في الحوض..

شرخ في القدم وتمزق في أربطة الكاحل..

جسد أكثر من ثلثيه مجبَّر ونجاة بشبه معجزة!..

وعملية تم تأجليها بعض الشيء لعلاج كسر الحوض الذي سيحتاج لتركيب شرائح ومسامير في طريقه للالتئام..

انتهاءً بعلاج سيستغرق ما يقرب من أربعة أشهر؛ فقط ليعود لمشيته الطبيعية!..

جاورت فراشه فوق مقعد صغير متماسكة وقلبها يرتجف، بل جسدها كله.. كفاها تحتضنان يده التي لم تنل منها السقطة سوى ببضع رضوض وكدمات، عيناها تتأملان خدوش وجهه وشق جبينه الطويل..

تتمنى أن يفتح عينيه لتطمئن، وتخشى عليه من الألم!..

كانت والدته على الطرف الآخر من الفراش بعد رحيل الجميع وإصرارهما سويًا على البقاء جواره.. تتنهد كلتاهما بالتتابع، تبتهل.. تتلاقى الأعين بنظرة

تمتن لرحمة الخالق بهما.. ثم تسقطان على شحوب ملامحه الساكنة فتدمع عيناها وتسجن الأم كل انفعال مباح في لحظة كتلك..

تسجن الخوف.. الحزن.. الألم والأمل..

وتهدر بزوجة صغيرها في حزم صارم:

- بطلي عياط يا تاليا..

رفعت زوجته بصرها المجهد نحوها فأردفت بصلابة:

- آسر كويس الحمد لله، الدكاترة قالوا إن الكسور دي كنتيجة لحادثة بالحجم ده تعتبر معجزة..

وكان هو ذاته معجزتها..

حلمها الذي طال انتظاره حد الاستسلام والقنوط..

حلمها الذي تحقق في غير توقع..

لامست بظاهر أناملها وجنته كأنما تستدعيه من سباته:

- هيرجع زي الأول وأحسن..

ثم كبتت عبرة عنيدة مست نبرتها باهتزاز طفيف:

- آسر أقوى أخواته، وهيفضل قوي..

مع عاطفة كانت تغمر كلماتها انسابت دموع الزوجة وصوتها يتحشرج برد يكرر كلماتها ويتشبث بالأمل بين أحرفه:

- هيفضل قوي..

تنهدت "لمياء" بحزم أخير تبثها قوتها:

- يبقى لما يفوق لازم يشوف مراته قوية زيه، في ضهره.. تسنده مش تقع معاه..

وليتها تمتلك نصف صمودها..

فهي تتقوى به هو!..

***

هي امرأة اللاانفعال..

مبدأها التحكم في كل اضطراب، والسيطرة على جُل رد فعل..

هي وجه البوكر..

وقلب الأم الواهن بين الضلوع..

صرفت أبناءها بعدما طمأنتهم على أخيهم، الأكبر أخبرته أن يذهب لزوجته وبيته الذي غاب عنه معسكرًا بالمشفى جوار المجبَّر..

التوأم المتباين منحت كل منهما ما ينقصها من دعم ومساندة..

أنهت مكالمة مع شقيقتها تطمئنها على أحوال السجين وابنها الراقد بفراش المرض..

وخلا المكان من الجميع إلاها وزوجها..

الزوج الذي ينظر إلا ما وراء الجدار المتماسك المختبئ خلفه ضعف أنثاه، المدفون على بعد سحيق من روحها..

ضعفًا لم تسمح له في يوم بالظهور فبات يقتات على صلابتها الداخلية متجاهلًا المظهر الصامد..

ضعفًا يرى أنه قد حان وقت طفوه إلى السطح فتحرك مقتربًا يطوق كتفيها ويريح رأسها فوق صدره، تنهدت بتعب وتعانق جفناها تعيد شحن طاقتها بين يديه كما اعتادت..

لكنه لم يكتفِ بالصمت هاته المرة بل بادر بصراحة:

- ابكي يا ميا..

تغضن جبينها وجسدها يبتعد عنه بحدة:

- أبكي!..

حاول استعادة قربها وأبت، أمال رأسه رافضًا عنادها:

- أيوة.. دلوقتِ مافيش غير أنا وأنتِ، خرجي الدموع اللي حابساها وقلبك بينزفها من غير ما حد يحس بيه..

ضحكت بخفة شابتها سخرية:

- دموع!.. أنت منتظرمني دموع يا آدم!.. وفي التوقيت ده!..

ثم تركت جلستها قربه واستقامت تطل عليه من علو:

- الوقت اللي الكل محتاج لي فيه!..

نهض يواجهها بحزم:

- وفين احتياجك!..

- احتياجي مش بكا..

وولته ظهرها ونبرتها تستتر برداء مهترئ من قوة مدعاة:

- دموعي مش الحل..

سكنت لثوان التفتت بإثرها تواجهه بقسوة:

- دموعي مش هترجع بالزمن..

- الدموع أحيانًا راحة..

تبريره أغضبها فدنت تثبت عينها قبالة عينيه:

- الدموع ضعف.. وأنت عارف..

- أحيانا لازم نستسلم للضعف؛ عشان نقدر نسترد قوتنا..

ضربت كلماته عمق قلبها فأنَّ بوجع.. نفت باختناق مسَّ روحه:

- أنا عمري ما استسلمت..

احتوي وجهها بين كفيه بحنو:

- طول عمرك محاربة على خط النار، شجاعة وقوية..

وأعادها فوق صدره برفق خضعت له:

- لكن كل محارب محتاج استراحة، محتاج وقت يستسلم فيه لضعفه، يرضى بالهزيمة لو حصلت ويعالج جروحه؛ عشان يقدر يكمل.. عشان حربه لسه ما انتهتش..

قبّل خصلاتها المعقوصة بتزمت قاسٍ قبل أن يحررها من عقالها كأنما يهدي رأسها راحة من نوعٍ آخر:

- مش ذنبك يا لميا، أنتِ عملتِ كل اللي تقدري عليه..

كان يجيب عن سؤال يحيط بعنقها كأنشوطة حكم بالإعدام لن تهرب منه.. اكتنفتها دهشة فرفعت ناظريها إليه باستغراب ابتسم له:

- أنتِ ما قصرتيش مع مروان.. واللي حصله في السجن مش ذنبك، آسر دي حادثة.. قدر..

تراجعت بارتباك:

- أنا ما قصرتش، ولسه في نقض.. أنا باحاول...

بتر اندفاع أحرفها بضغطة رقيقة لكفها:

- أنا ما قلتش إنك قصرتِ.. أنتِ من وقت الحكم الأول عليه وأنت مش في حالتك العادية..

ضمها عنوة فلم تحاول الإفلات بل استكانت لدفء ذراعيه:

- ودلوقتِ بتحبسي كل الخوف والوجع جواكِ.. وده بينهشك أنتِ، بيأذيكِ..

وتحول الدفء لاعتصار يزرعها بين ضلوعه.. لا؛ هي ضلعه بالفعل..

ضلعه الذي يرفض العوج رغم أنه يحمي القلب!..

- ابكي.. استسلمي للضعف المرة دي، وبكرة..

تنهد ببطء يستجمع أفكاره دون أن يحررها:

- بكرة الأستاذة ترجع تسيطر..

وحاولت بصدق..

هو رجلها، مصدر قوتها وأمانها..

مكمن صلابتها وعزيمتها التي تنهار دونه..

هو من شهد كل لحظة سقوط ومد يده إثرها في دعم..

هو من تتشبث به، ويتعلق بها..

هو والد أطفالها.. طفلها الصغير الراقد بمشفى بعدما تخطاه الموت هذه المرة..

طفلها الذي لو ناله أذى لانتهت بعده..

وبكت!..

***

هي امرأة تجيد الاعتناء بقلبها وإحاطته بسياج حماية يقيه طعنات العشق وغدر متاهاته..

هي أنثى طُرِق باب فؤادها فوارِبته تنتظر من الطارق؛ واقتحمه العشق بغتة دون موارِاة أو مقدمات..

خلعه من مكمنه وترك الخافق مفتوحًا مكشوفًا أمام مشاعر تختبرها للمرة الأولى، تركه معرضًا للهشاشة والكسر، تركه بلا ساترٍ واقٍ ضد هجمات الهوى..

وهي القوية التي كانت محصنة منيعة ولم تعتد الكمون في الظل أو التراجع للخطوط الخلفية..

لم تعتد الهروب من حرب ولم تتنازل في يوم عن السلاح..

لذا فالتعتيم الذي تحياه مؤخرًا مزعج، مثير للغضب والجنون!..

لا توجد معلومة واحدة عنه.. حسابه على موقع فيس بوك مغلق، حساب أخته مهمل صامت.. ولا تمتلك واحدًا آخر تتقصى من خلاله أخباره..

حتى صديقتها التي كانت تصل إليه أحيانًا عن طريق أصدقائه عاجزة..

بعد تخفيف الحكم عليه شعرت براحة، فالخطوة القادمة قد تخرجه من محنته.. خطوة تعلم أنها ستطول لكنها تبسط الأمل على قلبها بربتة حانية..

وجلست قيد الانتظار المميت..

مرت أشهر منذ ذهبت إليه، منذ عرضت قلبها دون صفقة فالعشق لا يستوجب المقابل..

هي تؤمن بذلك.. وتخشاه!..

تخشى ضعفها الذي لم تخطط له، لكنها تريده سالمًا.. معتدًا لكرامته وفخورًا بنفسه كما رأته أول مرة..

عيناها الشاردتان في أوراق عملها بصحبة أفكارها الغارقة فيه حجبت عنها حضور صديقتها الفوضوي كعادتها فلم تنتبه إلا عندما وكزت كتفها باهتمام:

- اللي واخد عقل القمر!..

انتفضت فتراجعت الصديقة بدهشة:

- إيه يا بنتي أنا أمل!..

رمقتها بنظرة عصبية:

- في حد يعمل كده!..

رفعت "أمل" حاجبها باستنكار طفولي:

- يعمل إيه!.. أنتِ اللي مش هنا خالص..

ووازتها جلوسًا على الأريكة العريضة بحديقة منزلها:

- برده مش عارفة توصلي لأخبار عنه.. صح!..

تقرر وتتساءل وتتهم!..

تتهمها أنها تفكر به، تبحث عنه.. وتقرر أنها تتقصى أخباره..

ثم تتساءل عن كونها لم تصل لشيء!..

زفرت بحدة وأغلقت ملف أوراقها:

- هو مين ده!..

تهرب!..

رد فعل مستحدث عليها..

منذ تعثر قلبها بحبه وهي فقدت اتصالها بذاتها السابقة.. وبعدما حدث له؛ فقدت ذاتها نفسها:

- غرام ما تلفيش وتدوري.. أنا حاولت أدور عند أكاونتات أصحابه بس ماحدش منهم بيـ بوست أي كلام عنه..

انتفضت صديقتها من مقعدها بعنف غاضب أفقدها اتزانها ودحض إنكارًا توشحت به قبل دقيقة:

- مصدقين..

بتأكيد لا يقبل الشك، والجالسة تسألها بغير فهم:

- مصدقين إيه!..

عادت إليها بعينين تبرقان بالحسرة، بالوجع.. والعشق!..

عادت إليها بنبرة مختنقة وإشارة من يدها نحو اللاشيء:

- مصدقين إنه قتل..

وتحركت في خطوات محدودة تلوم وتود لو سبَّتهم جميعًا:

- كأنهم ماعرفهوش في يوم.. صدقوا كلام الجرايد والإشاعات الحقيرة..

قابلتها صديقتها بتربيتة فوق كتفها وسؤال فضولي:

- وأنتِ ليه مش مصدقة زيهم!..

استدارت إليها بتوحش كأنما حربها مع الوهم تبدلت وجهتها لمن يظن به السوء، تبتركل فكرة أوسؤال جديد:

- مروان ما يعملش كده..

فارسها الذي لعبت على وتر كبريائه لا يتحرش بامرأة وهو عندما زلزل كيانها باعتراف عشق لم يحاول حتى لمس كفها!..

فارسها بطل.. بطل بعينيها لا يتعاطى ولا يدمن..

فارسها لن يلوث يديه بالدماء ولوعن طريق الخطأ..

أتراها ترفعه إلى مصاف الكمال!..

نعم..

وليشتعل العالم بأسره وإن أضعفها هواه..

هو بعين القلب؛ مثالي كما يقول الكتاب..

وكما يُسرد في خيالها عن حكاية غرام!..

تتمنى أن تراه، فيعلن القلب انتفاضة رغبة.. يشجب العقل جنون مشاعر.. ويتدخل الواقع بلمسته الحاسمة..

هي لا يحق لها رؤيته..

لا صفة لها، حقيقة وقانونًا وإن كان العشق هو ملك اللعبة..

***

الآن أنت تنظر للعالم من زاوية ثالثة..

زاوية رمادية بدرجة قاتمة..

لم تعد تراه من ثقب مثاليتك الضيق، ولا تراقبه من خلف جدار هش كضحية..

أنت الآن ضارية في طور الشرنقة..

وقريبًا ستمتلك أجنحة الشياطين..

"أنت عارف!"..

انطلق السؤال من بين شفتيه بغتة يوجهه للمجاور له على أرضية الفناء الباردة وعيناه متعلقتان برحيل الشمس الدامي:

- الحياة ما ينفعش تعيش فيها مثالي..

وشردت نظرته الداكنة نحو الأفق المحمر بشفق باهت:

- لازم تعرف تلوي دراع الحقيقة وتفصل الواقع على مقاسك عشان تكمل..

أشعل "حاتم" تبغه وعرض عليه واحدة نظر إليها بصمت كما في كل مرة خلال شهرونيف مضيا.. نفث السحابة الداكنة وابتسم باستمتاع:

- ده الواقع يا صديقي، بس ماحدش بيتعلم الدرس ده ببلاش.. لازم دراعك يتكسر قبل ما تفكر تلوي دراع غيرك..

ناوشت أنامل "مروان" موطن جرح الطعنة بغياب انتهى بسخرية سوداء:

- أنا اتعلمته بطريقة أصعب شوية..

وأشار لبقعة ليست بعيدة عنه، بها احمرار طفيف لم يبهت أثره تمامًا:

- دمي لسه معلم هناك..

تتبع الصديق الجديد إشارته بلامبالاة:

- كلها أيام ويختفي، بس العلامة اللي في صدرك هتعيش..

تضاعفت سخرية "مروان" بينما يستدير إليه بوجهه في حنق مُر:

- خبيرفي التنمية البشرية..

قهقه "حاتم" بمرح لطيف:

- يسرنا خدمتكم..

ثم اعتدل فجأة يقتنص عينيه في استحواذ مسيطر:

- القصد.. مادام هتعيش بالندبة يبقى تتعلم درسك صح عشان ما يبقاش جسمك طريق مفتوح قدام ندوب تانية..

غام بصر التلميذ المبتدئ في غابة التوحش بقسوة رفقتها باتت الأفضل لروحه:

- لا.. خلاص، اتخرجت من جامعة الغابة اللي إحنا عايشين فيها.. ودلوقت لازم أثبت جدارة..

ربت صديقه على ركبته بدعم هادئ:

- من غيرما تخسرنفسك في الطريق..

وكعادتهما مؤخرًا، كلما تبدل الحواروطاف حوله تهرب منه..

هذه المرة وجه اهتمامه للذكي الذي اعتاد صحبته.. بل أحبها:

- ما قلتليش أنت مسجون ليه!..

أشعل "حاتم" لفافة ثانية.. استند للجدار بتلكؤ ونظرته تستفز المنتظر للجواب:

- سمعت عن أرسين لوبين!..

زوى "مروان" ما بين حاجبيه في دهشة وازت إيماءة موافقة:

- تقدرتقول إني حاولت أقلده.. بس فشلت..

وتراجع شاردًا والدخان يشكل ضبابه الخانق حول ملامحه:

- كنت موظف محترم في بنك، متخرج من سنتين والوظيفة دي اتقدمت لي على طبق من فضة عشان عرفت أجيب واسطة..

مالت عينه بتهكم ونبرته تتيه في درب الغموض:

- أنا بقى بجانب الوظيفة المحترمة دي؛ كنت hacker..

- hacker!..

خرجت شبه مندهشة من "مروان" فاستدارإليه زميله برأسه:

- أيوة.. هاكر محترف كمان، بس دي كانت حاجة في الضل من غير أذى..

وتوسعت بسمته الهازئة بلا اكتراث:

- سرقة كده على خفيف..

- يا راجل!..

ضحكته العالية خرجت دون معنى وكفه تنفرد فوق صدره جوار انحناءة مسرحية:

- شفت!..

وعاد لوضعه الأول ينفث اللهب مخالطًا الدخان بشرود:

- كنت بحب، وانسان لا غبار عليه من برا الصورة النضيفة.. بس من جوا عشان أعيش وأنجح وأتجوز اللي بحبها كان لازم لعب وسخ..

- وفين لوبين في الموضوع ده!..

تنهد بضيق شابه ندم:

- لوبين ظهر لما الهاكر اتدخل في حياة الموظف المحترم، وبدأ ينقل مبالغ بسيطة من حساب للتاني عشان ياخد من الغني ويدي الفقير.. وينوبه من

الحب جانب..

ثم استقام بحركة مباغتة ولهجته تعود لمرحها اللامهتم:

- بس يا سيدي واتقفشت بغلطة غبية خدت فيها سنتين سجن فاضل فيهم سبع شهور..

تابع "مروان" تقلبات نبرته ونظرته فقرر سحبه من منطقته المعتمة، جاوره بوقفته:

- مش هتقولي مين الزعيم بتاعك!..

كان يعلم أن الكلمة تغضبه.. انفعل بحدة ولكم كتفه:

- انا ماليش زعيم قلت لك..

- أمال دراعه اليمين إزاي!..

- أنا لا دراع ولا صباع، أنا هاكر.. المفروض تكون فهمت..

حرك "مروان" حاجبه باستخفاف:

- طيب هو مين!..

أغاظه بنبرة باردة:

- قلت لك لما يحب يعرفك هو مين هيكلمك بنفسه..

وأوشك على إشعال اللفافة الثالثة عندما انتزعها السجين بدرجة صديق من يده ليغرسها بين شفتيه في إشارة واضحة لرغبته في التجربة!..

تأمله "حاتم" ممررًا دهشته:

- بقى لي أكتر من شهر باعرض عليك!..

أمسك بالقداحة ليشعلها ومع أول الأنفاس سعل بعنف ثم كبته بقوة جعلت الشاب يظهر اهتمامًا بدا غريبًا للحظة:

- ده نوع رخيص، هيتعبك.. وأنت راجل رياضي..

كان متهكمًا رغم اكتراثه، تجاهله "مروان" وكرر سحب الدخان ثم نفثه ببطء ممارس لايزال يكتسب بداية خبراته:

- رياضي الله يرحمه ويحسن إليه..

وهذه المرة لم يسعل، بل تشكلت ملامحه من بين قتامة أنفاسه:

- مروان.. لو مش قد النفس ما تسحبوش..

تأمل حدة عينيه والعاطفة الوليدة بهما بسخرية!..

تبدلت سخريته في الثانية التالية لوحشية مبهمة لا تجد لها مدارًا سوى بين جنبات العائد من الموت في توحد مع ذاته، متناسيًا عائلته ومشاكلهم.. بل غاضًا الطرف عن آلامهم:

- ساعات الاستسلام للغرق بيكون أحسن من محاولة العوم ضد التيار..

أنتَ تسعى لتمزيق الشرنقة..

أخذتَ الخطوة الأولى..

أنتَ تهرب من نفسك القديمة وتخلق أخرى لا تعرفها، أخرى تعلم أنها ستنتصر في الغابة التي تقطنها..

حيث اللاسلم واللاحرب..

بل استنزاف حتى الرمق الأخير!..

***

اجتماع رجولي فقد طرفه الرابع..

غائب هو بالجسد لكنه بالفكر حاضر.. وبالحديث كذلك:

- مروان عمل إيه لما عرف إني اتدغدغت!..

مرتاح بفراشه بالمشفى وحوله أخيه الأكبر وابن العمة الهادئ، فات ثلاثة أسابيع تقريبًا على حادثته.. عاد إلى وعيه بشيء من ألم يتغلب عليه ببسمة واحدة تجاه ممرضة بعينها فتمنحه مخدرًا يقتل آلامه..

طابت جروح وجهه إلا من أثر خفيف، وعمليته تمت بسلام.. لذا من المنتظر أن يتخلص من جبائره في الفترة القادمة ويبدأ علاجه الفيزيائي..

جاوبه "أنس" ببساطة:

- مش راضي يشوف حد فمانعرفش رد فعله، بس سما بلغته..

كاد يرد عندما ظهرت ممرضة بمنتصف العمر عند باب الغرفة، اقتربت تحقنه بعقار ما ووجهها الصارم يكبت كل تعليق خلف شفتيه..

تأوه بخفوت مع انغراس الإبرة بذراعه ونال منها ابتسامة شرسة متهكمة تعجب لها، عندما خرجت التفت لأخيه باستخفاف:

- هو محمود المليجي زعلان مني في حاجة!..

ضحك الاثنان بمرح ونظرة الأخ تعلن الافتقاد:

- مين المليجي؟!..

أشار بيده نحو الباب بحاجبين معقودين بعناد طفولي:

- الممرضة اللي كانت هنا.. كل ما أشوفها وأنا ضارب مورفين باشوف المليجي في فيلم الأرض..

اعتدل "يوسف" بدهشة غاضبة:

- يخرب عقلك.. أنت لسه بتاخد مورفين!..

رد ببرود حانق:

- مافيش فيَّ حتة سليمة يا بني..

وغمزه بعبث شقي:

- أجيبلك بلسم تديك حقنة!.. بابتسم لها بس وآخد اللي أنا عاوزه، اسم على مسمى والله..

ارتفع حاجبا الأخ بحنق تحول بعدها لعتاب خفيف:

- ارحم نفسك.. أنت متجوز، مراتك هتعمل منك كفتة..

تعالت قهقهاته التي انتهت بأنين:

- مش لو قفشتني!..

ومع انتهاء كلماته ظهرت تلك التي يتحدث عنها ببسمة ناعمة وعين مفتونة بالكلية:

- صباح الخيريا أستاذ آسر..

وهو كرر الغمزة للأخ مشيرًا لابن العمة في خبث:

- صباح البلسم يا بلسم..

توسعت بسمتها بحياء وهي تتابع معدلاته الحيوية وتساعده ليسترخي في جلسته أكثر تحت الأعين المراقبة باستنكار..

فالعاشق لا يرضيه أفعال أخيه..

صرفها بجدية حازمة:

- هو مرتاح كده، تقدري تمري على مرضى غيره..

تراجعت بصدمة بريئة لم يكترث لها جراح القلوب ونظرته ثابتة على موجة الصرامة فانصرفت بخطوات متخبطة مرتبكة تصاحبها لهجة المشاغب الرافضة:

- أنت يابني بتقطع رزقي ليه!..

وكزيده السليمة بضيق حقيقي:

- أنا هانقلك المستشفى عندي وأكلف هجرس ياخد باله منك..

تظاهر "آسر" بالخوف والارتجاف في مشاكسة لم تفقدها روحه مع الحادث:

- مين هجرس ده!.. وليه بتقولها زي ما تكون بتقول فرج!..

ضحك الثلاث و"أنس" يخبره بوشوشة خبيثة:

- هجرس ده الممرض اللي بنخوف بيه الأطفال..

رفع ابن الخال حاجبه باعتراض ساخر:

- وأنت بقى مبسوط في فترة تدريبك مع هجرس يا دوك!..

أشار بيده في خفة:

- كلها سنة وأختار التخصص..

- وعلى العباسية معتدل ماااارش..

خرجت من المصاب ممطوطة بتهكم ليرد ابن العمة بجدية:

- لا.. على أمريكا معتدل مارش..

سأله "يوسف" باهتمام:

- أنت مصمم تسافر برده!..

هز كتفيه ببديهية:

- سنتين تلاتة.. هناك هاستفيد أكتر..

قاطع حديثهم دخول الزوجة ببسمة نقية.. يكاد العشق يفيض منها، تحمل بين يديها طعامه ونظرتها تتعلق به وحده كأنما خلا الكون من البشر عداه:

- صباح الخير..

رفع رأسه إليها يستقبلها، يبادلها ابتسامتها بواحدة من خاصته يشوبها عبثه المعتاد وكلماته تخاطب أخيه وابن عمته:

- طيب بالسلامة أنت بقى يا فرج؛ إذا حضرت القشطة..

ضحكت بخجل وجاورته بضربة خافتة فوق كتفه:

- خليهم طبعا، هتتغدى وهاسيبكم براحتكم..

استقام "يوسف" وتبعه "أنس" مبررًا ببساطة:

- لأ.. هنمشي بقى ورانا شغل..

ولوحا إليه في وداع دفعها بعده بحماس جدي:

- اقفلي الباب بقى وتعالي..

توسعت عيناها فباتت زرقتهما مهلكة:

- آجي فين!..

قهقه بشقاوة ماكرة:

- دماغك راحت فين يا لئيمة أنتِ!.. هتغديني.. إيدي لسه ما باعرفش آكل بيها..

تغضن جبينها بتقطيبة لطيفة وكادت تضربه فاستسلم مدعيًا الضعف:

- لأ ما هو مش عشان مش قادر أتحرك تمدي إيدك، على فكرة العملية نجحت يعني وممكن في لحظة تلاقي نفسك هنا..

وسبابته تنقر الفراش جواره، عقدت ذراعيها قبالة صدرها بتحدٍ مداعب:

- ما تقدرش..

ارتفع صوت ضحكاته وقد ذكرته برجل قصير واهن الجسد في مسرحية عتيقة، ادعى التعب ووجهه يرسم الحزن:

- طيب أنا جعان بجد.. هتأكليني ولا إيه!..

لامس قلبها رغمًا عنها وكانت تعلم أنها حمقاء لكنها ستدلله وليفعل ما يشاء، اقتربت تجاوره بعدما أغلقت الباب بالفعل وفردت الطعام فوق صينية المشفى..

دست في فمه قطعة من اللحم، تحيطه بعينيها كأنما هو طفلها الوحيد:

- أنا اللي طبخت على فكرة، أخدت الطريقة اللي بتحبها من طنط لميا وعملته..

تلذذ بما ذاق والتوت شفتاه بخبث بينما أوعزلها برغبته التالية:

- ده أنتِ بطلة بقى، يابن المحظوظة يا آسر..

امتدت يدها إليه بقطعة أخرى عندما أوقفها وسحبها نحوه بمكر:

- لأ.. كده مش عدل، العدل كل لقمة ببوسة..

ضحكت بخفوت خجول وصدمة ملامحها تعجبه:

- أيوة.. وإلا مش هاكل..

ضاقت الضحكة لبسمة محبة تبعتها استجابتها، فمالت إلى شفتيه بقبلة دافئة ومن ورائها ملعقة من الأرز الهندي..

وظلت تطعمه وتقبله حتى انتهى باستمتاع:

- الواحد كده هيطول في المستشفى، إيه الدلع ده كله!..

وبختته بنظرة خائفة.. كفاها تعانقان يده ونبرتها المرتجفة تنهره:

- بعد الشر، ما تقولش كده..

ناوشها بابتسامة مطمئنة:

- بهزر والله..

قاطع حديثهما طرق عند الباب، ثم ظهور أحد أطبائه عند عتبته بفحص جديد كان قد أخبره عنه بعد الأشعات التي تمت إثرعمليته..

أخرج زوجته من الغرفة وبدأ العمل بجهاز الموجات فوق الصوتية لدقيقتين ثم أخبره بهدوء عملي:

- للأسف يا أستاذ آسر شكوكي في محلها..

تغضن جبين مريضه بحيرة وسأل بعدم فهم:

- أي شكوك!..

رفع الطبيب رأسه مؤكدًا دون تفاصيل:

- الحادثة اتسببت في حصول عقم..

ولم يستمع لتتمة..

غاب عنه التفسيروشرد خارج حدود الكلمات..

لقد سقطت المقصلة لتبترعنق الاختيار!..

***

العشق جنون..

ومن الجنون كذلك أن تقف على حافة الهاوية واثقًا من عدم السقوط!..

هاتفها، ثم ببساطة أخبرها بموافقته على عيش الأبدية في لوحة تحمل سكناها بعينيه..

ووضع شرطًا واحدًا لم يثِر فضولها كفاية لتسأل عنه في التو، بل ابتهجت بقبوله وذللت العقبات بيسروهي تمليه عنوان مرسمها..

مع وعد بالموافقة على شرطه بعد حضوره!..

قاد الطريق إلى أحد الأحياء القديمة بمصر الجديدة، حيث المباني الكلاسيكية التي تعود لستينات القرن الماضي أوربما تسبقها..

المرسم كان بالطابق الثاني، صعد الدرج بهدوء وهناك استقبلته بترحيب دافئ:

- كنت عارفة إنك هتوافق..

بادرته بمرح فابتسم معاندًا:

- لما تسمعي شرطي الأول!..

فردت كفها أمامه ليتبعها وعيناه تجوبان المكان بسقفه العالي ونوافذه الطويلة الواسعة..

أرضيته الخشبية العتيقة التي تئز تحت وقع خطواته واللوحات المتناثرة هنا وهناك، حتى لطخات الألوان التي لوثت الجدران كما يبدو بتعمد!..

عبر بابًا ضخمًا نحو غرفة ثانية ليجد اللوحة البيضاء في انتظار ريشتها لتزينها بملامحه.. مقعد عالٍ معد له، خليط الألوان والقلم الأسود الجاهز على بعد خطوة من استخدامه:

- ها.. إيه الشرط!..

بعد طواف بصره في الغرفة استقر عليها.. يتأملها بمفاجأة جديدة فهذا مظهر مختلف..

مظهر ثالث عفوي بسيط وعشوائي للغاية.. يتفرد عن فاتنة المعرض ورسمية أستاذة الجامعة!..

كانت ترتدي زيًا من الجينز مكونًا من قطعة واحدة ذات حمالتين عريضتين فوق قميصٍ قطني أبيض اللون، وتعقص خصلاتها الكثيفة بربطة مطاطية زرقاء تهدلت من عقالها بعضها بنعومة. صمت للحظة قبل أن يجيبها دون تردد:

- اللوحة هتبقى هديتي ليها..

طالعته بدهشة مفتعلة.. فهي توقعت مطلبه:

- ولما أنت تاخدها أنا هاستفيد إيه!..

هز كتفيه بلا معنى فدفعته نحو المقعد بحماس:

- أوك.. Deal.. بس بشرط. هاعرضها في المعرض اللي جاي الأول..

استجاب بيسر وهي تعدل من وضع وجهه قبالة ضوء الشمس القادم من نافذة مجاورة:

- ولو حد حب يشتريها!..

تراجعت خطوة تتأمل تموضعه بحرفية:

- مش للبيع طبعًا..

بدأت بمزج الألوان ووضع الخطوط العريضة للوحتها بيد ثابتة سريعة قبل أن تفاجئه بنبرة مهتمة وعين مراقبة كصقر في وضع انقضاض:

- كلمني عنها..

نالت منه ابتسامة طفيفة فعلقت ونظرته تتحول للعشق الخالص:

- بتحبها من إمتى!..

مازج العشق شرودًا يجذبه نحو الأمس، خرج صوته هامسًا مغموسًا بالغياب في ذكرى:

- مش عارف.. هي بنت مرات عمي، أول مرة شفتها كان عندها تلات سنين تقريبًا..

والبسمة التصقت بشفتيه جوار التيه في تفاصيل صغيرة يحفظها عنها:

- يمكن من وقتها..

ثم عاد للحاضر واللحظة دون أن تتغير النظرة:

- تقدري تقولي؛ مفطور على حبها..

صفرت بإعجاب دون أن تغفل عن تقلب ملامحه أو ريشتها:

- طيب وهي!.. بتحبك زي ما بتحبها!..

هز رأسه فأنبته باعتراض صامت جمد له:

- أكيد لأ..

- ياه!.. مش واثق في حبها!..

- واثق.. بس عارف إنه مستحيل يوازي مشاعري ليها..

توقفت لحظات تتأمله باستغراب لم يفهمه فتساءل بلا كلمات وأجابت هي بسلاسة:

- يا بختها بيك..

وابتسمت بمكر عابث:

- بس خلِ عندك ثقة في مشاعرها شوية.. الست لما بتتعرض لسوء التقدير حتى لو لمقدار الحب بتتحول..

- تتحول!..

كانت منه ضاحكة فقلبت وجهها في محاولة لإخافته:

- أيوة..

وعادت لجديتها بلا اكتراث:

- مشاعرها بتتبدل، بتحس إنها مهما عملت أو قدمت هيفضل اللي بتعمله مش محل تقدير فبتتوقف عن العطاء..

اقتنصت وجومه اللحظي فداعبته:

- حسسها إنك عارف إنها بتحبك وحسسها بحبك، الموضوع مش صعب ولا مكلف.. لفتات، ورد، كلام حلو.. الستات عاطفيات بالفطرة..

وبدلت لوحة ألوانها بأخرى محافظة على بسمة مبهمة:

- بينضحك علينا بسهولة بس الراجل اللي بيعرف يمارس المهمة دي باحتراف بيبقى خاين وبتاع ستات..

ضحك بقنوط بائس:

- يعني مافيش أمل!..

بادلته الضحكة مشجعة:

- في ماتقلقش.. المهم تتمسك بيه..

بعدها خيم الصمت وعقله مع معشوقته بينما يداها تعملان بلمسات احترافية لتنقش غيابه في امرأته..

انتهت الساعتان بمرورسريع فاستقامت تتمطى بإرهاق:

- عيونك متعبة يا دكتور..

ابتسم دون تعقيب وحديثه يتحرك لوجهة مغايرة:

- لما اللوحة تخلص هاعرفك عليها..

توقفت وقد كانت تتقدمه خارج الغرفة، استدارت إليه بسخرية لاذعة:

- ومش خايف تغير!..

فتح فمه ولم يجد ردًا، صمت مفكرًا فأردفت بخبث:

- ولا أنت عاوزها تغير!..

رفع كفيه في تبرير:

- لأ.. أنا مافكرتش في موضوع الغيرة..

ثم ناوشت ثغره بسمة عابثة:

- بس ماعنديش مانع أجربه..

ضحكت بمرح وتوجهت للمطبخ الصغير تناوله زجاجة مشروب بارد:

- بتلعب في عداد عمرك..

ابتلع قرصين من المسكن مع أول رشفة ونبرته تشرد فيها:

- مستعد أخاطر..

- بتاخد مسكنات كتير!..

انتبه لتغييرها فحوى الحوار بتعليق عابر قطب له:

- صداع عادي، أنا جاي من شيفت طويل.. ومافيش نوم مريح لجراح، وراجع على المستشفى كمان..

ودعته على وعد بتكرار اللقاء:

- ربنا يعينك.. ميعادنا بعد بكرة بإذن الله..

أغلقت الباب من ورائه وعادت للوحة التي لم تقتنص سوى خطوطًا شبه واضحة لعينيه..

خطوطًا لم تمنع نظرته من احتلالها بعشق أقرب لحلم..

فالعاشق المثالي لم يُخلق بعد..

أو هكذا كانت تؤمن حتى التقته!..

***

لكل أنثى نقطة ضعف تخصها..

لكن جميعهن تشتركن في واحدة!..

العشق..

وهي كانت تقف على حافة الهاوية حائرة بين السقوط.. أو الهروب والنجاة!..

فمن سبق وسقط توجع.. ومن هرب لم يغنم الراحة..

بات طقسًا معتادًا بينهما، تتأخر في العمل معظم الوقت.. ويظل هو قابعًا بمكتبه حتى تنتهي ليتبع رحيلها مطمئنًا عليها..

علاقة صامتة غريبة تسللت لقلبها..

بل هو من تسلل!..

تفاصيله.. عاداته.. عيناه.. شبه ابتسامته.. صرامته وتقطيبة جبينه..

وهي!..

لم ترَ نفسها يومًا غارقة في حواشي رجل تائهة بين خطوط يده..

رغم ما مر من أحداث انتهاء بتحطم جسد توأمها فقد ظلت صامدة.. صامدة دون تماسك داخلي فعلي، كانت طبقة رقيقة هشة من الصلابة سرعان ما تهتز وتتصدع في لحظة صدق مع النفس..

لتسيل دموعها في خشوع.. بخضوع..

والليلة كانت المرة الثالثة التي غالبتها العبرة فسكنت خلف مكتبها شاردة تاركة لبرودتها رسم خرائطها فوق وجنتيها..

بلا وعي صدر عنها نحيب خافت أقرب لشهقة التقطتها أذناه عندما أتى ليتأكد من رحيلها؛ فمنذ آخر حديث لهما.. تباعد!..

تباعد لأنه يخشى على فؤاده..

ويعترف أنه في الحب رعديد جبان.. فلا امرأة تستحق عقابًا بوجودها في مداره!..

خاصة هي..

توقف عند الباب في توتر، لم توتره أنثى من قبل أبدًا لكنها تفعل، تثير بروحه العواصف ولو دون لقاء.. همس باسمها ماحيًا الألقاب والرسميات وكاسرًا الحد الأول بما يرى أنه رعونة ولا يبالي:

- صبا!..

لاحظ تيبس جسدها للحظات وكفها ترتفع نحو وجهها فعلم أنها تمحو الدمعات التي تظهر هشاشتها.. اقترب عدة خطوات وفي كل خطوة كان نبض خافقه يؤلمه، يدفعه إليها وعقله يثبت قدميه في الأرض..

استدارت تجاهه بابتسامة واهنة أسقطت قلبه قسرًا فرفع راية الاستسلام.. والسلام!..

دنا أكثر ونظرته تطوقها بدفء حانٍ، ربما لو كانت في موقف قوة لرفضته لكن ضعف عينيها تشبث به وهمسها المتحشرج يصله بفضفضة فجائية:

- أخويا.. توأمي كان هيموت..

تنهد وقدم لها محرمة ورقية بابتسامة مطمئنة:

- بس هو دلوقت كويس الحمد لله..

مسحت عبراتها واستقامت تدفع مقعدها بحدة غاضبة:

- لسه قدامه شهور علاج طبيعي عشان بس يعرف يمشي كويس أو يسوق عربيته..

دفعة ضعيفة بنبضة أكثر ضعفًا قربته منها ليواجه لمعة مقلتيها الدامعتين:

- بس عايش وكويس.. العلاج مجرد وقت مش أكتر فنقول الحمد لله..

طال صمتها الشارد في عينيه..

طال حتى أنها عندما انتبهت احمرت وجنتاها فتباعدت بهمس خافت:

- الحمد لله..

ابتسامته بهذه اللحظة كانت آسرة، تجذبها لأعماق فخه بلا اتزان..

لم تكن تلك المبتورة أو الرسمية الجامدة..

كانت تخصها وحدها بشعور لم تخُض دروبه أبدًا!..

تراجع هو فجأة فتأملته بدهشة بينما يغادر:

- أنا في مكتبي لو احتجتِ حاجة..

تابعت رحيله المباغت بحيرة وأفكارها تعود لتسيطر..

زفرت بحرارة نافضة حضوره عن عقلها وقلبها الذي تستنكر ما يمر به.. لملمت حاجياتها وقررت الرحيل، لكنها هاته المرة لم تركض برفض لوجوده بل طرقت بابه ببسمة هادئة احتوت شفتيها بنعومة:

- أنا هامشي..

راقبها لثوان بتيه ثم نهض ينهي العمل ويغلق حاسوبه ليتبعها بدعابة فاجأتها:

- مش هاجري وراكِ زي كل مرة عشان أطمن عليكِ!..

كان يسير خلفها فأبطأت خطواتها حتى وازاها وأهدته نظرة جانبية غامضة:

- قلت بلاش أتعبك..

عند سيارتها التي أوصلها إليها أتت همستها ممتنة رغم شحوب النبرة:

- شكرًا..

أمال رأسه بنصف استدارة وبصره يتساءل بدهشة حقيقية:

- على إيه!..

عاد لنظرتها غموضها المحير حينما أجابت بدفء:

- على إنك دايما موجود ومهتم..

ورحلت..

تركت لديه شيئًا من عبقها، ومحملة هي بذكرى عينيه!..

***

عندما نضغط زر البداية نقرر معها النهاية وإن لم نخترها تحديدًا، وإن كنا على جهل؛ فما بين البداية والنهاية متوالية أحداث ومشاعر وتقلبات تقودنا مسيرين نحو ختام ما بدأناه..

لا نرسم النهاية فهي قدر، لكننا نحدد البداية لأنها اختيار!..

قبع بصمت هادئ قبالة النافذة العريضة بغرفته يتأمل حرارة الشمس تلسع بشرته بلا اكتراث..

عقله داخل مطحنة أفكاره وفي حرب مع المنطق والمعقول والعاطفة..

عقله مشتعل.. بل مستعر يتأجج بلهيب الغضب.. والفقد!..

وملامحه ساكنة.. لحد مرعب فلا يكاد طيف انفعال يخط نفسه فوقها، عيناه جامدتان باردتان وأنامله منقبضة حول مسند المقعد كأنما لا يشعر بوجوده فيكاد يخترق لحمه..

سمع خطوات حضورها.. لم يلتفت حتى واجهته بانحناءة وقبلة لفكه غير الحليق:

- وحشتني.. خلصت شغل وجيت فورا..

لم يكلف عضلة في جسده عناء الالتقاء بنظرها، تاه بصره أكثر وأظلمت مقلتاه فشارف لونهما على السواد الداكن حين انحنت قبالته جاثية تربت على ساقه:

- مالك يا آسر!..

ويدها تلامسه برفق تجبره على التحليق بسماء عينيها.. تصلبت نظراته فوق تفاصيلها للحظات ثم أبعد يدها بحزم خرجت بعده الكلمات القاتلة:

- إحنا لازم نتطلق..

ارتدت بحدة والأحرف تمر بأذنيها مبعثرة فلا تكاد تفهم ما ينطق به!.. اعتدلت بدهشة تنهره وتتمنى أن يصدق ظنها:

- هزارك سخيف.. مش كل حاجة نهزر فيها..

قبض على معصمها بقسوة آلمتها فتأوهت خاصة عندما جذبها لتواجه مستوى نظرته المعتمة كأنما فقدت عيناه كل نور:

- أنا بقيت عقيم يا تاليا..

ارتجف جسدها كله بدءً من المعصم النابض بعنف بين أصابعه وكفها الثانية تكبت شهقة:

- أنت بتقول إيه!..

جاهد للنهوض فحاولت مساعدته، دفعها عنه بغلظة:

- مش محتاج مساعدة.. أنا خارج بكرة من المستشفى..

- آسر..

النبرة والكلمة والنداء كلهم يتشبثون به لكنه لا يبالي، يوليها ظهره والقرار محسوم بين جنبيه:

- لما أخرج هنتطلق رسمي عند المأذون..

غلت الدماء بأوردتها فدارت حوله تواجهه بغضب:

- ومين قال إني عاوزة أتطلق!..

سخر منها بفظاظة:

- الغريزة اللي جوا كل ست بتطالب بالأمومة مثلا!..

- مش عاوزة أكون أم إلا لولادك أنت..

- كده مش هتكوني أم أبدًا.. فوقي..

وارتمى على فراش مرضه بإجهاد مستقبلًا صرختها:

- مش مهم.. المهم إني معاك..

انحناء شفتيه كان ساخرًا.. قاسيًا.. تشوبه مرارة الحنظل:

- بلاش حماس اللحظة يجرفك يا تاليا، كل ست عاوزة تكون أم.. وأنتِ قلتِ...

- قلت لولولادك أنت.. أنت بس..

جثت بمواجهة الفراش تمسك بركبتيه سامحة لدموع الضعف والعشق بالتسلل خارج مآقيها:

- مش عاوزة غيرك..

هز رأسه بجمود:

- وقت الجد بعد ما تروح لذة فكرة التضحية هتفوقي على واقع صعب، بعد سنة اتنين عشرة هتقولي أنا عاوزة أكون أم..

وواجه نظرتها المتمسكة به بصقيع يغلف لهجته:

- وقتها أنتِ اللي هتسيبيني..

- فقررت تاخد أنتَ الخطوة دي!..

لامته بحنق أجابه بتهكم:

- وقوع البلا ولا انتظاره..

قبضت على كفه بيديها تتوسله:

- أنت خمنت وحكمت وعاوز تنفذ بناءً على وهم!..

رده كان الصمت..

باستقامة جاورته، تحيط وجهه بكفيها وتغوص بحزن عينيه الذي طعن قلبها بالعمق:

- أنا بحبك..

انعقد حاجباه متباعدًا عنها:

- قلت لك بلاش نحشر المشاعر بيننا..

- غصب عني..

تجاهل بكاء نبرتها ودموعها التي بللت وجهها بحسم:

- مشاعرك مسؤوليتك لوحدك يا تاليا..

- ماكنتش أعرف إنك قاسي كده!..

عادت لفمه البسمة الهازئة.. المُرة فاندفعت بحماقة:

- أنا كنت باخد حبوب منع الحمل أول جوازنا..

استدار إليها بحركة حادة ونظرته أجفلتها:

- يعني ما كنتيش عاوزة تخلفي مني!..

نفت بتبريريائس ويداها تضمان جسدها لنفسها بعدما أبعدها عنه:

- لأ.. مش كده، كنت خايفة.. وبعدها وقفتهم عشان عاوزة أكون أم ولادك..

انعقاد حاجبيه لم ينفك.. والجحيم بين جفنيه لم ينطفئ، تضاعفت الشرارات حتى استشعرت حرارتها فوق بشرتها أو ربما كانت تهلوس:

- خلاص يا تاليا.. ما بقاش ينفع..

- يعني إيه!..

كان السؤال خافتًا في انهيار.. والجواب باترًا حد القطع الأخير:

- أنتِ طالق..

أحيانًا سوء ظننا في النهاية؛ لا يصل لمدى ظلم الواقع وظلامه..

أحيانًا تنفتح الجروح وتتهشم الروح المجبورة قبل تمام الالتئام..

أحيانًا وربما كثيرة.. نخسر!..

***

في الصباح التالي كانت ممرضته المفتونة به تعد له حقيبته باهتمام وهو غافل عنها بانتظار أخيه الذي سيقله لمنزله..

انتهت بابتسامة رقيقة:

- محتاج حاجة تانية يا أستاذ آسر!..

لم يستدر نحوها بل صرفها باقتضاب:

- متشكريا بلسم..

عندما غادرت الغرفة وقبل أن تغلق بابها ظهر طبيبه الودود:

- ها يا بطل.. عامل إيه!..

منحه نظرة باهتة وردًا أكثر بهوتًا:

- الحمد لله..

اقترب الطبيب باهتمام:

- قررت هنعمل العملية إمتى!..

- مش هاعملها..

كلمتين سريعتين قاطعتين أدهشتا الرجل فتساءل:

- أنا قلت لك إنها عملية سهلة حتى لو دقيقة ومش مقلقة أبدًا.. مش عاوز تكون أب ولا إيه!..

واجهه بعزم حاسم ينهي به الحوار:

- مش في الوقت الحالي..

استقبل طبيبه الجواب باعتياد ورحل متمنيًا له تمام الشفاء ومذكرًا:

- ماتنساش، قطع القنوات الناقلة عقم مؤقت ممكن يتعالج.. ما تخليش الزمن يجري بيك..

نبهه بفلسفة سفسطائية امتعض لها..

لوى فمه بتهكم لم يختفِ من فوق شفتيه حتى عندما جاور أخيه في سيارته وأخبره:

- روحني على بيتنا..

مع دهشة الأخ ووصولهم للبيت وجد والديه وتوأمتيه في استقباله فأعلمهم بالنبأ الصادم ببرود:

- أنا طلقت تاليا..

وقبل سؤال عن مسوغ الحدث اندفع بالرد الذى رسم نظرة مبهوتة بعيني أخيه:

- الحادثة عملت لي عقم ومش هاظلمها معايا..

وحينها.. قطع عليهم طريق الاعتراض!..

(٣٩)

الرجل المحب لنساء كثيرات يعرف المرأة..

الرجل المحب لامرأة واحدة يعرف الحب..

"سيغموند فرويد"

هو رجل سريع الملل..

يشتهي كل الألوان والنكهات، وينتوي التجربة!..

- ليه بتكذب؟!..

كان سؤالًا حادًا شبه غاضب بادره به أخيه الأكبر فور صعوده لغرفته.. استند إليه فعاونه حتى ارتاح بفراشه مفتعلًا الدهشة:

- باكذب!..

- أيوة يا آسر وما تلفش وتدور عليَّ..

تململ الأصغر في جلسته وعقله يستنير لدوافع سخط طبيب القلوب:

- تصدق نسيت إنك دكتور وأكيد عارف تفاصيل حالة أخوك..

لم يجبه "يوسف" بل ظل يحدق فيه بضيق من وقفته المتحفزة، فقرر منحه جوابًا مريحًا:

- مش باكذب.. الحادثة عملت عقم وحتى لو مؤقت أنا ماأضمنش نتيجة العملية ومش...

- آسر!..

بتر تبريراته التي بدت لأذنيه سخيفة مملة ومدعاة، اقترب يواجهه ولهجته تقسو:

- الكلام العاطفي ده تضحك بيه على حد تاني..

تبادلت الأعين نظرة أشبه بحرب قصيرة انتهت لصالح الطبيب وأخيه الصغير يسأله بلامبالاة مصطنعة:

- نتكلم بصراحة!..

الرد أتاه صامتًا بفضول متوجس من عيني الأكبر، اعتدل قليلًا محاولًا البحث عن وضعية جلوس أكثر راحة قبل أن يطلق الرصاصة:

- شبعت..

- نعم!..

رفع كفيه في إشارة تسليم:

- قبل ما نرغي: ما تطبقش عليَّ نظرياتك العاطفية عشان أنت عارف رأيي في موضوع الحب ده..

تراجع "يوسف" مبهوتًا بضيق:

- يعني ما حبيتهاش!.. أمال اتجوزتها ليه!..

برر بشفاه ممطوطة دون اكتراث:

- الجوازة كان لها سبب ولما السبب راح خلاص ممكن ننهيها..

كتف أخيه ذراعيه قبالة صدره وتحفزه لم يقل ذرة:

- سبب إيه!..

ارتكن لظهر الفراش بتأوه خفيض:

- السبب ما يخصنيش عشان أتكلم فيه، بس الموضوع خلاص انتهى يا يوسف..

وأفند بإنهاء للحوار:

- بنت وعجبتني اتجوزنا فترة بعدين وصلنا لآخر الخط..

- إيه السبب يا آسر!..

رمقه العابث بنظرة باهتة أثارت بنفسه الشك فاندفع بظنونه:

- أنت كان في حاجة بينكم قبل الجواز!.. اتجوزتها عشان...

- بس بس.. إيه يا دوك ما تخليش دماغك تروح بعيد!..

- أمال إيه فهمني!..

ودارت الحرب من جديد بين العيون والأفكار..

فالزوج السابق لا يملك ما يدافع به عن نفسه سوى أنه اكتفى..

لقد تزوجها رغبة منه في منحها صك حريتها بمجتمع يقيدها بأغلال عذرية فقدتها ولم يأبه لها هو كثيرًا..

شهامة ربما!..

لكنه ليس ذلك الفارس النبيل الذي سيستمر في زيجة محكوم عليها بالفشل لدواعي الشهامة أيضًا!..

لقد تذوق فاكهة شهية.. والآن!..

الآن يشتهي غيرها، ورغم عنف الحادث ومردوده على حياته فقد أتى في صالحه وصالحها..

النهاية حدثت بلا جرح..

إلا جرح عشق سكنها نحوه رغم أنه لم يطالب به أو يأبه له..

استشعر كف أخيه تقبض على ركبته تنبهه بغضب:

- حصل بينكم إيه قبل كده يا آسر يخليها تحاول...

قطع كلماته تَذَكُره لميثاقه الطبي..

كان سيسأل عن محاولة انتحار ربما من كان زوجها لا يعلم عنها شيئًا!..

لكن "آسر" انتبه لزلته فاستفسر:

- تحاول إيه!..

نال الصمت ثانيةً كجواب.. تغضن جبينه في محاولة استنتاج شبه ناجحة عندما برقت عيناه بفهم وازى انحناء شفتيه بفطنة:

- طبعا لازم تكون عارف؛ ما أنت عملت لها أيامها عملية في القلب..

ووصلت الرسالة..

الآن هما بذات المنطقة وعلى نفس موجة الفكر:

- أكيد مش أنا السبب.. وصدقني ماكانش بيننا حاجة من اللي في دماغك دي..

نهض "يوسف" وثقل ما يضغط قلبه:

- أنا مش راضي عن اللي أنت عملته، هي مالهاش ذنب تحشرها في معتقداتك وأوهامك عن المشاعر والحب..

ضحك "آسر" باستخفاف عابث:

- إيه الكلام الكبير ده!.. أوهام إيه بس يا دوك!..

ثم تحولت نبرته لديناميكية غريبة:

- الحب ده شوية معادلات كيميا على حبة هرمونات بتتلخبط، ومش معنى إن الشعرا حاولوا يجملوا الصورة بعيد عن الجزء الفسيولوجي فطلعوا القلب بيحب وبيدق للي بيحبه وجو رومانسي رخيص؛ إن إحنا نصدقه..

- رخيص!..

استهجان العاشق لم يكن حادًا أو هائجًا، كان باردًا حزينًا والأصغر يردف بعملية:

- أيوة.. مش عشان الهرمونات بتشوشر على تفكيرنا لما نشوف واحدة ست معينة يبقى كده نبتدي نقول قصايد حب..

رمقه باستياء متعجب.. فكيف تربى الاثنان بكنف قصة عشق خالدة بين أبويه!..

همس بغير تصديق:

- يعني دي كانت النهاية في كل الأحوال!..

حرك "آسر" كتفيه ببديهية:

- بصراحة مش في البداية..

- وإيه اللي حصل!..

غمزه بابتسامة متلاعبة:

- اكتشفت إن امرأة واحدة لا تكفي..

أكمل "يوسف" ما ظنه استطرادة حتمية:

- واللي حصل بسبب الحادثة كان حافز مناسب تنهي بيه القصة.. صح!..

وافقه بإيماءة صامتة بادر بعدها بحزم ونظرته تتبدل للجدية:

- يوسف.. مش هاوصيك، حكاية العلاج والجراحة دي تخصني.. فياريت..

- ما أقولش لحد.. مش كده!..

مط اللامبالي شفتيه بتأكيد هز له العاشق رأسه بأسى وقرر الرحيل، فالجدال معه محض عبث..

كل منهما في وادٍ.. لا يرى وجهة نظر الآخر أو يؤمن بها، لكن قبل أن يفتح الباب استدار إليه بنظرة لائمة ولهجة تفيض بالشجن:

- كانت بتحبك..

نعم رأى عشقها بعينيها.. ويبدو أنه ليس وحده:

- عارف.. وعشان أنا وهي ما ننفعش لبعض كان لازم ننهي الحدوتة قبل ما تكبر، وبأقل خساير ممكنة..

تابع مغادرة المهزوم في أرض العشق بلا انفعال..

هو ليس شرير الحكاية..

وليس بطلها كذلك..

هو فقط رجل عادي يعشق النساء بطريقته الخاصة ويريد تذوقهن جميعًا..

امتلك فاكهته المفضلة حد التشبع والاكتفاء، فلمَ لا يجرب غيرها إذًا!..

***

هناك شعور ممضٍ بالعجز يحاصره.. يخنقه..

والدته تشارك صديقة العمر حزنها ومخاوفها، وصديقته انطفأ فيها شيء بظلم أخيها الأصغر..

تلك العائلة التي دومًا ماكان فردًا منها وإن لم تربطهم الدماء تتوالى عليها نوائب الدهر بلا هوادة خلال أقل من عامين..

وكل نائبة تتنافس مع سابقتها في قسوتها..

وضعت بيده كوب الحليب البارد غير المحلى قبل أن تتموضع قربه بالتصاق أشبه بقطيطة صغيرة، حرك ذراعه ليحيط كتفيها في حين طوقت هي خصره وأراحت رأسها فوق صدره باحتواء وإن انطوت فيه:

- رُحت له النهاردة!..

ارتشف من كوبه ببطء ورغم أنه يضمها إلا أن شرود عينيه أخبرها أنه ليس هنا معها:

- وكالعادة رافض الزيارة.. ما بيشوفش حد غير خالته عشان أي أخبار عن القضية وبس..

ربتت على جانبه برفق حانٍ:

- اللي اتعرض له مش سهل..

تنهد وذقنه ترتكن لجبينها دون ضغط:

- والكل عاوز يكون جنبه ويقف معاه، هو اللي رافض إن حد يقرب.. محاوط نفسه بسور مش سامح لحد يعدي منه..

سألته باهتمام فضولي:

- حتى ملك!..

أومأ بموافقة غافلة:

- حتى والدته وولاد عمه.. حتى بعد حادثة آسر ما اهتمش يطمن عليه، يادوب عرف إنه عايش من سما..

تضاعف فضولها فخاطرت برعونة:

- يمكن عشان حاسس بالذنب!..

انتبه لها أخيرًا وبصره يسقط بهوة عينيها الداكنتين بلا فهم:

- ذنب ليه!..

ترددت لحظة.. هي تدرك أنه يرى نفسه فردًا من تلك العائلة، لا يقبل عليهم السوء ولا يصدق فيهم الشر:

- لأنه قتل فعلا!..

تراجع بدهشة مستنكرة:

- بعد كل اللي حكيتهولك عنه يا راما وبتقولي كده؟!..

ربتت على موطن خافقه المتسارع بغضب:

- أنا باحط معاك أسباب.. رفضه يشوف حد مش منطقي لأنه محتاج اللي بيحبوه حواليه..

تباعد أكثر وضيقه يظهر على ملامحه جليًا بينما يضع الكوب على طاولة أمامه:

- رفضه منطقي جدا بالنسبة لشخص زيه.. مروان متعود يكون مثالي، ماشي على حد السيف.. الناجح القوي الفخور بنفسه..

وغاص بمقلتيها كأنما يزرع قناعاته بأفكارها:

- فجأة كل الاعتداد ده اتقلب لاحتقار من اللي حواليه وإشاعات مغرضة وأخبار في جرايد صفرا كلها بتثبت عليه التهمة.. وفي النهاية اتحاكم واتسجن واتعرض للموت..

هدأته برقة ويديها تضم كفه:

- حبيبي أنا ماقصدش.. دي مجرد فكرة..

- فكرة غلط..

نطقها بحدة فبدلت فحوى الحوار بذكاء:

- مين كان معاك النهاردة لما رُحت؟!..

رمقها بنظرة غامضة ثم أجاب بلا اكتراث:

- ملك وأنس ابن عمته..

تغضن جبينها باهتمام:

- يوسف ماجاش؟!..

استرخى مستندًا بظهره للأريكة، مقتضبًا في الجواب وجفناه يتعانقان بكسل:

- لأ..

- وأنت كل مرة بتروح مع ملك!..

فتح عينًا واحدة يحدجها باستفهام مفتعل:

- عادي.. إيه المشكلة!..

ثم اعتدل بغتة يأسر بصرها ببصره:

- ولا دي غيرة!..

كان باسمًا متلاعبًا فطوقت عنقه بذراعيها وهي تقترب منه:

- لأ طبعا.. أنا مش بغير..

رفعها لتجلس فوق ساقيه بمشاكسة:

- أحب الواثق في نفسه..

ناوشت أنفه بأنفها بمداعبة ناعمة:

- مش كده وبس..

وتسللت كفها لتلامس هدر نبضه:

- عشان عارفة إن ده ملكي أنا لوحدي..

بسمته فاضت بعشقه وعيناه غرقتا في تفاصيلها:

- أنا كلي ملكك لوحدك..

ابتسمت بغرور لطيف:

- عارفة برده..

ضحك واستقام يحملها بعبث مرح:

- أنا باقول أثبت لك تاني..

تشبثت به..

فبقلبها عنوان عشقها له هو.. التشبث!..

***

نحن نعتاد الخسارة حتى تفقد كل الأشياء الثمينة قيمتها..

نألف الألم فتندمل الجروح دون أن نشعر بها..

نعاقر الشدائد ثم ندمنها فلا تطيب لنا حياة يسيرة أو عبور سهل!..

سبعة أيام..

عشر ساعات..

ثلاث وأربعون دقيقة..

حساب دقيق للوقت الذى تلا كلمة الفراق بينهما!..

ولدهشتها لم تبكِ!..

يومها بكت بين يديه، توسلته ألا يفعلها.. قدمت العشق قربانًا لم يُتقبل منها.. أقسمت أنه وحده يغنيها عمن سواه..

وهو بكل يسر النطق ومحدودية الأحرف صدح بها..

وبذات اللحظة تجمدت العبرة خلف أجفانها، تباعد عنها بناظريه وأهدته هي نظرة أخيرة لم تعلم مكنونها لكنها كانت تطبع صورته بقلبها وعقلها ورحلت..

هكذا وحسب!..

عند باب الغرفة لم تتوقف.. لم تستدِر.. لم تتمنَ أن يناديها..

كانت محنة جديدة..

اختبار آخر، وهذه المرة لن تحتمل الرسوب..

فقط تمنت لو أنها حملت ثمرة قربه برحمها قبل أن ينقطع عنه الثمر.. قبل أن يصيب أرضه البوار؛ لكن حظها لم يسعفها باكتمالها معه وبه..

لا.. بل خوفها وتشتتها وضياعها حرموها قطعة منه بأحشائها فحرمته منها..

واليوم.. ورغم اهتمام والديها بها ورعايتهما وقلقهما كانت تستيقظ باكرًا، ترتدي ثياب العمل وتستعد لفطور خفيف بصحبتهما قبل أن تذهب معهما..

استدارت تلتقط سترة بذلتها الكلاسيكية الرمادية عندما فاجأها تأمل أمها لها عبر الغرفة، أهدتها بسمة هادئة ومع أنها لا تشعر بشيء فقد جاهدت ليخرج صوتها متماسكًا ثابتًا:

- هارجع الشغل النهاردة..

اقتربت منها "علا" باحتواء لم تبخل به عيناها:

- مستعجلة ليه!..

ساوت خصلاتها برفعة أنيقة فوق رأسها:

- أخدت أجازة وشايفة إن ماكانش لها لازمة من الأساس، هاطول فيها كمان!..

عدلت والدتها من وضع ياقة قميصها الأبيض الناصع بحنو:

- إزاي بقى مالهاش لازمة!.. أنتِ..

- أنا إيه يا ماما!..

وتراجعت تنزوي عنها بهروب تتفحص ساعاتها وتنتقي واحدة بيضاء توازي لون القميص:

- اتطلقت!.. عادي يعني.. لا أنا أول ولا آخر واحدة..

- تاليا!..

همهمت "علا" باسمها في قلق..

هي تخشى عليها ذلك الكتمان..

تريدها أن تبكي.. تنهار.. تصرخ، تسبه حتى!.. فقط لا تصمت وتركن للسكون..

- ما تقلقيش يا ماما، هو فترة هاسيبه يراجع نفسه، قراره كان انفعالي وأنا عارفة ومقدرة.. بعدها هارجعه ليَّ..

وتلك كانت ضربة صادمة لم تتوقعها أمها..

ابنتها تنوي الذهاب إليه!..

هل تعيش مرحلة من الإنكار!.. أم تدعي الغباء!.. أو ربما بالفعل لا تعلم أن تلك هي النهاية!..

تماسكت بعسر وجاهدت لتبث في لهجتها الهدوء:

- ترجعيه ليه يا تاليا؟!..

- بحبه.. وما يهمنيش حاجة تاني..

- وهو!.. بيحبك!..

تجمد جسد الابنة مع السؤال المباشر.. تصلب بينما تواجه زرقة عينيها الأشبه بموجات بحر هائجة.. حائرة، تنظر لنفسها بتيه وتتعلق بأمل غير موجود..

تقابلت نظرتها مع "علا" عبر السطح العاكس عندما تحركت لتقف قربها:

- لو بيحبك يبقى يستاهل تضحي عشانه وترجعي تكملي معاه..

وأدارت وجهها إليه لتحصل على نظرتها الحية:

- واثقة في مشاعره!..

نفت بصمود مهتز والأم تمسك بكتفيها بقبضتين داعمتين:

- يبقى خلاص.. ما تحاربيش في معركة خسرانة.. هو لو عاوز يرجع هيختار الرجوع، ووقتها لو لسه في جوالكِ مشاعر له؛ ارجعي له..

تمسكت بوالدتها تستمد منها ثباتها:

- يعني أستناه!..

وافقت برفق حانٍ:

- بس مش كتير، ولو هو رجع يبقى فيها كلام..

ثم تحركت تجذبها خلفها:

- دلوقتِ بقى ننزل نفطر مع بابا، وتسبقوني أنتِ وهو على الشركة ورايا مشوار مهم وهاحصلكم..

ونيتها كانت.. قطع الخيط الأخير!..

***

هناك حكايا لا تنتهي على أرض الواقع ببتر نظيف..

تترك خلفها أطرافًا مهملة ونزفًا لابد من تطهيره ليتم التعافي بسلام!..

استغرب رسالتها إليه تحدد فيها موعدًا ومكانًا للقاء..

لا ينكر أن بداخله شيء من رهبة مع مواجهة تلك المرأة..

لكن.. مجبرٌ أخاك لا بطل!..

ارتدى ثيابًا خفيفة متجاهلًا ذلك التوتر الذي يتسلل إليه بخبث، فمهما كسرت صراحته من حدود وصولًا للوقاحة يظل هناك حد نهائي لا يتخطاه..

وفي حالة زيجته وطلاقه.. هي ذاك الحد!..

زرر قميصه ببطء وهو مستند لطرف فراشه، استقام معتمدًا عليه قبل أن يتناهى لمسامعه الطرقة الخافتة على بابه..

طرقة تتكرر في كل صباح منذ عاد للمنزل..

أمه وأبيه!..

ابتسم بروتينية والتفت يستقبلهما، عندما لمحته أمه في حالة استعداد للخروج بادرته:

- أنت رايح فين!..

تحولت البسمة للمزاح الشقي وهو يعترض:

- طيب قولي صباح الخير الأول يا أستاذة..

تحركت نحوه تحاول إعادته إلى الفراش:

- مافيش صباح، ارجع سريرك..

ثبت قدميه في الأرض بصعوبة متماسكًا أمام دفعتها الرفيقة:

- يا ماما أنا زهقت، هاخرج أفطر مع أصحابي.. مش هاتأخر ما تقلقيش..

طافت حوله بعينيها بعاطفة.. بل مزيج من العواطف المبعثرة..

الحب.. الشجن.. الخوف والقلق:

- وهتروح إزاي بقى!..

تحول لأبيه ببصره ببديهية:

- هاخد عم سعيد، هيوصلني ويجيبني..

بسمة الأب أتت دافئة متفهمة لكن "لمياء" لم تستطع الاطمئنان:

- هاوصلك أنا..

أمسك بكفها يلثمها بتملق:

- حبيبتي أنا كويس، زهقان بس..

لم تكترث لما تظنه إدعاءً..

اقتربت تحيط وجهه بكفيها، تتفحصه وتتأمل ملامحه بضعف:

- بجد كويس!..

هذه المرة قبلته لكفها كانت مطمئنة طويلة يهديها بها دليل وجوده:

- يعني الأستاذة هتبقى بتاخد بالها مني وما أبقاش زي الحصان!..

قبلت هي جبينه بعدما جذبته ليحني رأسه، ربتت على وجنته واستدارت لزوجها بنظرة مبهمة ثم غادرتهما..

وكان يعلم أن دور أبيه في الحديث يتلخص في:

- كلام رجالة بقى من غير عواطف مامتك!..

شاغب والده ببسمة عذبة:

- ماهو كل يوم بنقول كلام رجالة يا بابا..

تجاهل "آدم" إشارته لتكرار حديثهما اليومي منذ عاد للبيت:

- آسر.. أنا أب، وفاهم الحرمان من الأبوة ممكن يأثر إزاي على أي راجل.. وكمان طلقت مراتك وما بتتكلمش في الموضوع مع حد...

بتر حديث أبيه بضغطة من يده لساعده:

- أنا عارف والله.. بس مش هاظلمها معايا، وأنا متعايش وعارف إن ده قدري، راضي.. وعندي أمل في علاج.. يمكن قريب يمكن بعيد، بس الطب بيتطور كل يوم..

ومنحه بسمة مطمئنة واثقة مقررًا ببساطة:

- في أمل..

تقبل الأب بسمته بابتسامة مشابهة احتوت حنان الدنيا:

- أيوة.. في أمل..

تابع رحيل والده بعين نادمة..

على عمق سحيق بقلبه هناك ذنب ينهشه، مهما حاول دفنه وتجاهله أو تناسيه.. مع كل كلمة أو بسمة حزينة أو نظرة كسيرة يراها على وجه والديه يطفو للسطح.. ويقتله!..

لكن كيف يبرر فراقًا مضى.. وكيف يسوغ كل ما يجول في فكره عما هو آتٍ!..

تناول عكازه يتوكأ عليه..

خلال نصف ساعة كان يدلف للمقهى محل اللقاء.. رآها جالسة برقي شامخ على طاولة تواجه الباب كأنما تتحفز لمقابلته، رفعت وجهها تتابع اقترابه دون انفعال محدد.. وقف ببسمة ظاهرها الثقة وباطنها الفضول المغلف بالارتباك:

- اتأخرت!..

أشارت إليه ليجلس ويدها الثانية تحث أحد النُدل على إحضار شيء ما يجهله:

- لا في ميعادك..

استقر فوق المقعد بتمهل معتمدًا على عصاته.. لجام ما يحجم أفكاره، يربطها.. ولسانه معقود عن سؤال ترك لها حرية جوابه وإن طال الوقت..

لكنها لم تتأخر عليه، واجهته بنبرة حازمة:

- الحقيقة يا آسر: أنا مش عارفة أضربك قلم يفوقك.. ولا أشكرك!..

انعقد حاجباه لحظة بحيرة ثم استدعى شقاوته التلقائية:

- ليه العنف ده بس يا طنط!..

لم تبتسم بل شبكت أصابعها فوق ساقيها بجدية:

- أنا جاية عشان..

وتوقفت لثوان..

عقلها ووعيها وتفهمها في وادٍ.. وعاطفتها وأمومتها في وادٍ بعيد عنه كل البعد!..

في نهاية الثوان كبتت كل شعور وأكملت كأنما لم تنقطع كلماتها:

- عشان أشكرك بسبب اللي عملته لتيا..

قطب باستفهام نصفه حقيقي وأجاب بإدعاء لفهم خاطئ:

- ده حقها يا طنط، أنا مش هاربطها جنبي وأحرمها من إنها تكون أم..

بهذه اللحظة ناوش ثغرها بسمة خافتة تخبره أنها تدرك تلاعبه والتفافه:

- أنا بحب ذكائك يا آسر.. وبحب استخدامك له، بس ساعات بيخونك..

حاول الحديث فأوقفته بحزم:

- لما أكون باتكلم معاك بصراحة ما تلفش وتدور عليَّ..

وتنهدت بعد تراجعها في مقعدها.. ترتشف قهوتها وتراقب النادل الذي وضع أمامه كوبًا ضخمًا من عصير المانجو كأنما طلبته قبل حضوره:

- أنا عارفة أنت اتجوزت تاليا ليه!.. الحكاية دي عشتها مع حد قريب مني قبل كده بس النهاية اختلفت.. خلينا نقول إن الحدوتة اكتملت بقصة حب..

ثم مطت شفتيها بنبرة عادية لا يشوبها ثورة أو اضطراب:

- بطل القصة دي مختلف عنك، بس كان في مكانك لسبب مشابه..

هز رأسه بلا فهم:

- أنا مش فاهم حاجة..

- مش مهم تفهم..

كانت مباغتة فارتد بدهشة وهي تردف:

- المهم إني عارفة بنتي، وأقدر أقول إني فاهماك كويس.. تاليا حبتك، أنت ما حبيتهاش.. عملت معاها حركة شهامة ووصلت لآخر الخط.. ولما قررت

تكتفي وتبعد اخترت سبب ما يأذيهاش، رغم الحب فجرح قصة فاشلة أهون..

وهنا انقشعت الغشاوة عن عينيه وفطن لمغزى كلماتها..

أنهى نصف كوبه دفعة واحدة بتلذذ وعاد إليها بنظرة جادة:

- والله يا طنط كلامك جميل..

ومال فوق الطاولة يواجهها بعين صارمة ونبرة باترة:

- بس كله غلط..

أُخذت على حين غرة وكادت تعترض حينما أكمل هو بحسم:

- أنا طلقت تاليا لأنها هتعيش معايا حياة منقوصة، هتضحي في الأول وتقول الحب بيعمل المعجزات وأنت هتبقى ابني وكلام الأفلام ده.. بعد كام سنة طالوا أو قصروا هتشتاق لطفل، غريزتها هتحركها ووقتها يا تكمل وفي كل لحظة أشوف اشتياقها ووجعها في عيونها..

تباعد يحرك عصاته بيده ولهجته لا تتغير:

- أو ترفض الاستمرار وتختار الفراق.. ووقتها أنا هانكسر..

ثم شاب اللهجة غضب لم تدرك أهو مفتعل أم حقيقي!..

- سميه غرور، تكبر، عناد.. بس أنا فضَّلت آخد الخطوة دي في الوقت الحالي بدل ما هي تسيبني بعد كده وتحسسني بنقص أكبر..

وتنهد بزفرة حارة أخيرة:

- تاليا تستاهل حد أحسن مني.. راجل كامل يحقق لها كل أحلامها وأولها طفل..

عم الصمت وصدى آخر كلماته يطفو حولهما..

لم تستطع تصديقه لكنها تحيي لعبته التي أصر أن ينهيها لصالح صغيرتها..

أن يعود بالعيب على نفسه مجملًا الصورة وإن فطنت هي للعكس أو حتى ظنت وحسب..

لم ينظر إليها بدونية بل اعترف أن الخطأ فيه وهي أفضل منه!..

استقامت ترمقه بنظرة صارمة وضعت فيها قرار الختام:

- مش عاوزة طريقك يتقاطع مع طريقها تاني يا آسر..

كانت تلك نيته..

لكنه أومأ بسكون خاضع وراقب رحيلها بخطوات قوية واثقة..

لو انتهت فتاته "سابقًا" كأمها، ربما إذًا تفوز بحربها مع العالم!..

***

الحب لعبة دومًا ما ينهزم فيها القلب.. بل يُجتاح!..

وهي كانت على وشك التسليم، الخضوع لنبضة الغرام ودقة الهوى.. كان على وشك السقوط بدنيا العشق..

كانت!..

لأنه في لحظة أعاد لها توازنها فتماسكت وتشبثت بصلابة الحقيقة الوحيدة التي اعتادت الإيمان بها..

الحب مهزلة تصديقها يليق بالحمقى المغفلين..

وهي لم تكن منهم في يوم!..

دخلت لمكتبها المشترك مع زميلتها والزميل الجديد الذي حل مكان الثانية عندما أخذت أجازة وضع.. دخلت ترغي وتزبد والنار تنبعث من عسل عينيها فيكاد اللهب يطال الجدران، همست الزميلة بتوجس:

- مالك يا صبا!..

والغاضبة رمت بحقيبتها فوق المكتب بأكبر قدر متاح من العنف وصوتها يجيب بحدة لم تبذل جهدًا لإخفائها:

- مالي!.. ما أنا كويسة أهو!..

أخرجت حاسوبها وهمهماتها المتسعرة لا تتوقف، تضرب بأناملها أزراره بقوة تكاد تخلعها.. تتأمل شاشته بحنق وتحرك القلم لرسم أو محو شيء ما..

دقائق شارفت على نصف ساعة ثم حملت الجهاز وتحركت بخطوات تدق الأرض بكبرياء، طرقت باب مكتبه وفتحته عندما أذن بالدخول..

تعمدت عدم النظر إليه وهي تضع الحاسوب أمامه ونبرتها تكبت انفعالًا ناريًا ينتظر الفتيل المناسب لينفجر بوجهه:

- التعديل يا باشمهندس..

هو الآخر تجاهلها!..

تأمل الخطوط المعدلة قبل أن يحرك أصابعه مشيرًا للشاشة ببرود:

- برده في أخطاء.. أظن إنك منفعلة وده مأثر على تركيزك، تقدري...

- منفعلة!..

بترت كلماته بهتاف فظ أجبره على مواجهة عينيها.. وتبًا لها من مواجهة!..

لقد فر منها فراره من الضيغم لكنها تحيق به، تطوقه بلا إرادة:

- لا حضرتك.. ده مش انفعال، ده اسمه استياء وغضب.. لأن الطريقة اللي حضرتك كلمتني بيها في الموقع قدام العمال ما تنفعش حضرتك..

وكررت كلمة "حضرتك" ثلاث مرات في جملة قصيرة تشدد بها على الرسمية، تمسك هو بتعنتها في استقامة تقابلها:

- أنتِ هتعلميني شغلي يا باشمهندسة!..

تراجعت بتظاهر خضوع وكفيها تنحيان بإذعان متهكم:

- لا طبعا.. العفو حضرتك..

استند لمكتبه بكفيه فمال يجابه تأجج نظرتها:

- دي الطريقة اللي باعامل بيها كل المهندسين اللي بيشتغلوا معايا، مافيش تهاون في الشغل أو تمرير أخطاء في التصميم.. ومش هتكوني أنتِ استثناء..

تجمدت لحظة والكلمة تخترقها كسهم حارق..

لقد قالها بوضوح لو فكرت بعده لباتت من مجاذيب الغرام..

هي ليست استثناءً!..

شدت قامتها بثبات ونبرتها تستتر بالصلابة:

- أكيد حضرتك ما ينفعش تتعامل معايا بشكل مختلف..

وانحنت تلتقط الحاسوب بنية مغادرة:

- بس أعتقد الأفضل لو تغير طريقة تعاملك مع الكل، لأنها مهينة..

واستدارت بعزم أوقفه بنداء جهوري:

- باشمهندسة صبا..

كان ينوي إلقاء محاضرة ربما!..

استكمال المشادة والضغط على قوة تحملها في حين أنها تبغي الابتعاد..

تيبست بوقفتها دون التفاتة ولهجتها أتت لائمة رُغمًا عنها وعن عقلها الذي كاد يصفع قلبها بغلظة:

- من أيام ناديتني صبا..

ورحلت..

رحلت تتابعها عيناه وقلبه وعقله وكل جوارحه..

رحلت.. والندم ينهشه..

فالقلب يريدها، وكل ما عداه يمنعه!..

***

الجبل لم ينهد، الطود لا يسقط ولا تهزه رياح وإن شكلته الطبيعة بقسوتها..

هو فقط متعب!..

منهك وقلبه ناقم عليه، ضميره يجلده بسياط من نار، وعقله لا يسعفه دفاعًا عن نفسه في مواجهة محاكمة الضمير..

لم يخرج من معتكفه، تتابعت الشهور وعلاقته بالعمل باتت هاتفية إلا من زيارات محدودة لمقر الشركة، أنباء المدينة الجديدة التي سُرقت منه تغرق وسائل التواصل والتلفاز بدعاية جنونية..

وابنه!..

منطوٍ على نفسه ببوتقة اليأس والضياع..

لقد بدأ يدخن التبغ قبل شهرين!..

صغيره الأحمق يظن أنه بعيد عن عينيه، مختبئ بجحره العفن وحده.. لا يعلم أنه يتابع خطواته، يحرسه ويطمئن عليه مهما كلفه الأمر ومهما خالف من قانون..

يترك له حرية خياراته وإن كانت خاطئة.. ضارة..

فهو سحب منه كل حريته عندما ظن أنه بمأمن من غدر البشر..

تفاجأ بعدة ملفات ورقية واسطوانات تلقى أمامه لتجذب انتباهه، رفع وجهه لأخيه الذي بادره بحزم:

- كل بلاوي معتز الرفاعي، قضايا توديه ورا الشمس وبالقانون..

تغضن جبين "أدهم" بدهشة مستفسرة ويده تمتد بتلقائية لتلتقط أحدها:

- جبت الورق ده منين وإزاي!..

جلس يواجهه باهتمام منفعل:

- أنت ماعرفتش اللي حصل في المدينة الجديدة!..

رمقه بتساؤل يدلل على جهله..

هو بعدما مل من ملاحقة إعلاناتها -الأشبه بهوس- له توقف عن متابعة كل ما يخصها..

أردف "آدم" وعيناه تلمعان براحة:

- حصل انهيار أرضي تحت كام مبنى من اللي طلعوا، وقعوا طبعا ومعاهم كل المباني اللي حواليهم.. الإشاعات غرقت الدنيا إن في غش وإهمال في الأساسات وهو عرف يلاقي كالعادة مخرج وكبش فدا..

وأشار بيده في غضب:

- مهندس صغير لسه بيبتدي حياته شال الليلة والله أعلم هياخد فيها كام سنة مع العمال اللي ماتوا في الانهيار..

انعقد حاجبا "أدهم" بتفكير..

فما يسمعه يبدل كل شيء!..

اعتدل بعد قراءة عدة أوراق ودهشته تتضاعف مكررًا:

- أنت جبت الورق ده إزاي!..

مال "آدم" بابتسامة محنكة:

- مهندس عنده ضمير، كان صديق قديم لزياد وعارف كل وساخة الرفاعي، اتصل بيه وحصل بينهم كلام.. المهندس ده تقدر تقول عنه دراع معتز اليمين في الشغل.. الواجهة النضيفة؛ بس ماعندوش استعداد إيده تتلوث بالدم..

ونقر فوق الملفات بتوكيد:

- الملفات دي فيها كوارث.. من الغش في مواد البنا لحد غسيل الأموال..

صدمة باهتة ناوشت ملامح الأخ الأصغر والأكبر يخبره بتقرير:

- أيوة.. متورط مع ناس كبار في غسيل أموال، ولو اتقبض عليه واتفتش وراه ساعتها هيكون هو كبش الفدا..

كانت عيناه تتفاعلان مع كلماته بين البريق والنصر.. الراحة والاهتمام، نهض بكلمة أخيرة أراد أن يعود معها أخيه إلى الحياة:

- خد حق ابنك يا أدهم..

تأمله الجالس من مقعده بشرود لم يدُم، تناول بعده هاتفه باتصال قصير حاسم:

- سيادة اللوا.. مساء الخير.. أيوة يا فندم أدهم الحسيني معاك.. يا ترى أقدر آخد من وقتك نص ساعة!..

وابتسم المهتم بحبور وغبطة..

فالأسد عاد يحكم..

الأسد عاد يزأر..

***

أن أكون معك، أو لا أكون.. تلك هي المسألة!..

غادة السمان

وهي معه وله وبه تكون..

بتواصلها وإياه وإن كان من طرفها وحده.. تكون..

بما في قلبها إليه وروحها التي تحوم حوله.. تكون..

قبعت على الأرض جوار الفراش، هاتفها بيدها ترسل إليه أحدث صور صغيرته، وابنتها تلعب حولها وتناغيها..

أخبرته بطلاق توأمها وكان يعلم.. ويتجاهل، لكن عندما وصله منها النبأ ابتسم بسخرية في جلسته الباردة وأرسل الرد المتهكم لأول مرة منذ بداية محبسه:

- إحنا الطلاق ده الـtrademark بتاع العيلة..

ورغم قسوة العبارة واستخفافها إلا انها ابتسمت..

لقد أتاها منه استجابة!..

ثم تحولت البسمة لدمعة خائنة، وأناملها تكتب ببطء موجوع:

- إحنا جيل فاشل في الحب..

وأغلقت الهاتف متحولة لطفلتها.. تلاعبها وتهمس لها بحث حنون:

- بابا..

تفتح الحاسوب وتقلب في صوره.. تغذي بها عقل وذاكرة الصغيرة، تخبرها مع كل لقطة:

- ده بابا يا شجن..

والابنة تضرب الشاشة المضيئة بيدها وتتعلق عيناها به ثم بأمها وتكرر وراءها:

- بابا..

لا تفهم المعنى.. لا تربط بين الكلمة والمضمون والصورة.. لكنها تعيدها بضحكة بريئة تغمرها أمها بعدها بحنو حزين..

وعلى الجانب الآخر من كونها الدافئ كان هو..

بكوكبه الجليدي..

يتأمل آخر صورة ببسمة وحدها من ترسمها فوق شفتيه..

بسمة تبدلت في لحظة لاستهجان لاذع، فالوردية تتحدث عن الحب!..

هل لاتزال تؤمن به!..

"بنتك نسخة منك"..

كانت من الصديق الذي جاوره بتأمل فضولي لشاشة هاتفه مردفًا باستمتاع:

- مامتها بتحبك للدرجة دي!..

تلبس ثوب البرود ونبرته تلحفت به حينما أجاب:

- أنا مطلق..

والآخر أعاد الجملة بصياغة ماضية دون اكتراث:

- كانت بتحبك..

- وإيه علاقة الحب بالوراثة!..

ضحك "حاتم" ببساطة، أشعل تبغه وناوله واحدة:

- ده خرافة قديمة كده، بتقولك اللي يحب التاني أكتر الولاد يبقوا شبهه..

خرافة قابلة للتصديق في حالته!..

نفث الدخان القاتم بلامبالاة متجاهلًا ثرثرة صديقه:

- كانت بتحبك يا سعادة السفير..

انقلبت ملامحه دفعة واحدة..

غزتها شراسة مباغتة وازت اعتدال جسده وخشونة نبرته:

- ماتناديـنيش كده تاني..

راقب "حاتم" انفعال وجهه وصوته بتفهم لا يظهر اهتمامًا خاصًا:

- أيوة صح، أنت بقيت زيي.. رد سجون..

وتوقع غضبه، لكن فاجأه تبدل مشاعره للسخرية السوداء:

- مستر دارسي..

رفع الصديق حاجبيه بافتعال دهشة:

- Pride and Prejudice!..

- أيوة..

غمزه بعبث مرح:

- تصدق لايق عليك..

غشيهما الصمت لدقائق أنهيا فيها لفافتي تبغ أخريين.. ثم قطعه "حاتم":

- بقيت مدخنة..

- بعض ما عندكم..

- يابني أنا مدخن قديم، عادي..

مط "مروان" شفتيه باستفزاز:

- مش بالخبرة..

تأمله زميل العنبر لحظة ثم قرر الخوض في تفاصيل لا يستطيع الوصول إليها بيسر والجالس أمامه هو الوحيد الذي يملك التصريح بها:

- أنت اتحكم عليك ليه يا مروان!..

علت شبه دهشة متسائلة وجهه الجامد:

- إيه السؤال ده!..

بادره الفضولي بإيضاح مؤلم:

- يابني اللي زيك واكلين البلد، فإزاي أنت اتحكم عليك!..

تبدلت الدهشة لوجوم..

والرد جاء بطيئًا.. موشومًا بالغدر وطعنة الظهر ندبتها لا تزول:

- صاحب عمري شهد عليَّ..

وعادت إليه بسمته المتهكمة بشيء من غموض:

- زور..

- باعك!..

أومأ بإيجاب صامت فجر سكونه الصديق بسؤال:

- تفتكر إيه أغلى من الصداقة عشان يبيعك ويقبض تمنك!..

- مش هتفرق..

- فكرت في الخوف!..

حدجه بنظرة قاتلة:

- أنت هتبرر له!..

- لأ.. بس بفكر معاك..

استقام يترك المزعج بضيق:

- فكر لوحدك..

ثم تحرك خطوة بعدها عاد فيها بسؤال بات شبه يومي:

- زعيمك!..

يصبغ عليه صفة التبعية ليغضبه، فيتجاهل "حاتم" بعمد مغيظ:

- هيكلمك وقت ما يحب..

ونهض يقابله بهمس مسرحي مدعيًا الخطورة:

- بس هنا الحرس والمساجين بينادوه بالباشا..

- باشا!..

نطقها مفكرًا ومستنكرًا، غادره "حاتم" هذه المرة مؤكدًا بحسم:

- الباشا..

وتلك ربما بداية أخرى!..

***

كيف تُعرَّف السعادة!..

هل هي تحقيق الأمنيات وتجسُد الأحلام.. أم أنها في مجملها تعني التخلص من الألم فحسب!..

وأخيرًا آن لهذا العشق أن يثمر..

نعم.. تحمل بذرته بأحشائها، اختبار إيجابي انهمرت له عبراتها بصمت..

حقًا هاته النسوة حمقاوات، تتسابق دموعهن مع الحزن وحين الفرح.. تبكين إن نلن ما أردن وتنتحبن إن فقدنه!..

هما متزوجان منذ ما يقرب من عامين، عامين ترددت فيهما على طبيبتها والتزمت بأدويتها لتحتوي طفله برحمها..

وها هي المعجزة تحدث.. بل حدثت..

معجزتها الصغيرة التي ستبذل في سبيل الاحتفاظ بها كل غالٍ ونفيس..

لم تعلم كيف تخبره!..

فكرت كثيرًا حتى استقرت على فكرة رأتها لطيفة، تركت المنزل لنصف ساعة عادت بإثرها محملة بحقيبتين من الورق الأنيق، في واحدة قميص يخصها، والثانية واحد يخصه.. ارتدت خاصتها وتأملت نفسها في المرآة ببسمة حالمة..

قرأت الكلمات المطبوعة على صدره بعين دامعة:

"Best mum ever"..

تناولت قميصه من حقيبته وفردته فوق الفراش تقرأ بنبرة مرتعشة.. عاشقة:

- Best dad ever.. حبيبي أحسن وأحن بابا في الدنيا..

غطت ثيابها بسترة خفيفة لتفاجئه، انتظرت عودته من عمله ولم يخيب ظنها فقد أتى باكرًا..

استقبلته ببهجة بدت سافرة تغرق فيها ملامحها، بهجة لم ينتبه لها فهو ينتوي أن يهديها الضربة القاصمة!..

ارتفعت على أطراف أصابعها تلثم وجنته بقبلة دافئة:

- حبيبي.. وحشتني..

لم يبادلها القبلة!..

لكن سعادتها أعمتها عن جموده وتباعده، شدته ورائها نحو أقرب أريكة ودفعته ليجلس باهتمام:

- ما أخدتش مسكنات النهاردة زي ما اتفقنا مش كده!..

افتعل بسمة مبهمة وأجاب بموافقة:

- الصداع ما بقاش يجي خلاص بعد ما ظبطت الشيفتات..

جاورته تربت على وجنته ثم تحتويها بكفها:

- والدكتور!..

- أنا دكتور يا ملك..

عاندته بعشق خالص:

- لأ.. اتفقنا هنشوف إيه الأسباب المحتملة للصداع ده، ما تتهربش..

اهتمامها كان مزعجًا..

يغضبه.. يؤجج نيران ضميره التي تشتعل بعقله، أوقفها بمقاطعة باردة:

- أنا عاوزك في موضوع..

توسعت بسمتها لتتدفق من حروفها بهجة الكون:

- أنا كمان عاوزاك في موضوع..

أسكتها بإشارة لم تفهمها.. إشارة كالصقيع:

- اسمعيني الأول..

وجمت للحظة والخوف يتخابث نحو مكامن ضعفها بتسلل ماكر..

راقبته ينهض..

يدور في المكان..

يتحرك بعشوائية..

يفرك كفيه وجبينه وبين عينيه..

يفكر..

وبدأ دوار ما يُلم بها مع بداية حديثه..

فعاشقها.. يخبرها عن أخرى!..

قصة حب بدايتها لعنة ونهايتها قرب..

فراق غير محتمل وحبيبة مرت بتجربة العشق والألم من قبل ففقدت الثقة..

يريدها!..

لا يريد سواها!..

تتباعد عنه لأنه زوج..

والجواب يكمن في حِلٍّ من هذا الزواج!..

بعدها سيأخذ المعشوقة ويرحل عائدًا لموطنه الآخر، بعيدًا عن العائلة التي ستنبذه لأجلها..

كانت تسمعه بجمود.. بوجوم..

يدها تمتد لتحيط ببطنها كأنما تستمد منها الثبات..

كأنما تخبر جنينها أنه هو الباقي..

أنها صامدة لخاطر وجوده..

لن تنهار أو تبكي أو تصرخ وتفقده..

وغافل هو عنها..

عن حركاتها وسكناتها.. عن ثباتها واحتراقها.. عن حيرتها بين الأنين والكتمان.. عن النزف والجرح والغرق!..

ثم ختم الرواية ببتر نافذ دون أن يمنحها لحظة استيعاب، أو ثوان لرد..

"أنتِ طالق"..

دويّ الهمسة أتاها عالٍ كطلقة مدفع بحرب..

حرب خاضتها مرة وخسرت..

وها هو الخسران الثاني..

الخسران المبين!..

والنهاية بتكرار ممل؛ يسرد تفاصيلها، يسطر أحرفها رجل.. حبيب.. معشوق..

خائن!..

(٤٠)

البطولة تُصنع من الألم..

وكلما تعاظم وجعك..

استحققت أن تحوز دور البطل في رواية!..

حقيقة..

أنت لا ترى بطلًا يحيا بروتين ممل تقليدي باهت..

بل ترى الحياة تعتصره، تطويه وتدهسه فتخلق منه ذاك الذي تقرأ عنه الآن!..

وللبطولة حماقتها..

لأنك تدمنها، تستمرئ سلطتها وتستعذب مذاقها.. فتمنح مقابلها كل باهظٍ وغالٍ دون اعتبارات أخرى..

تجتهد.. تنهك روحك وقلبك وذرات جسدك.. تدحرج الصخرة إلى الأعلى ولا تبيح لها فرصة سقوط..

وتصل!..

انظر إليك..

أنتَ وصلت لقمة الجبل بعد جهد..

ثم قفزت..

كنتَ معتوهًا كفاية لتفعلها!..

انغلق الباب من خلفها.. وانفلتت الصخرة، انحدرت حتى السفح وسحقته في طريقها..

رقد بقاع الهاوية.. فالبطولة تمت بعنصر أخير!..

التضحية..

ويالمثالية عاشق في غابة المنفعة..

تذكرَ جمودها، صمتها.. حركاتها الآلية نحو غرفة النوم وغيابها فيها لدقيقتين أو أكثر، ثم عودتها وقد ارتدت ثيابها وعقدت وشاحها.. راقب ثبات خطواتها تجاه باب ما كان بيتهما معًا.. تابع أصابعها تدير مقبضه.. تفتحه..

طيفها يعبره.. وترحل عنه!..

لم تتشبث به.. لم تصرخ، لم تصفعه أو تسبُّه، فقط غادرته..

وتهدل جسده فوق الأريكة التي سكنتها هي بينما يقص عليها أسطورة العنقاء الخيالية عن قصة خيانته..

يطعنها في الجرح القديم..

يمزق القُطب ويقبض عليه بقسوة..

يعيد النزف ويتأمل نزع الروح..

كان يدرك أنه اختار نقطة الضغط الأضعف، تلك التي لن تجلعها تنظر إلى الوراء.. تلك التي ستنتزعه من قلبها وعقلها على حد السواء..

الخيانة.. هدم جدار الثقة الذي كان آيلًا للسقوط بالفعل، كسر حاجز الأمان شبه المهشم..

وصفق لنفسه بمرارة..

مرحى أيها العاشق البطل.. نلت وداعك كما أردت!..

تمدد بإنهاك ووعيه ينسحب ببطء، أحلامه تغوص به في دوامة أسبوع مضى.. في مريض أوشك على فقد حياته بين يديه..

في عناد ورفض حد القتل!..

"يوسف.. مش كتير المسكنات دي!"..

أتت من خلفه، من الطبيبة برتبة صديقة "دانة".. باستراحة الأطباء تنظر إليه بقلق وتكرر:

- لازم تشوف سبب الصداع المتكرر ده!..

تجاهلها وابتلع قرصين، سبقها للخارج باستخفاف ساخر:

- مش عارف كلكم مكبرين الموضوع ليه!.. كأني أول واحد يجي له صداع، حتى ملك عاملة معايا اتفاق أبطل مسكنات وأشوف أي دكتور..

تبعته إلى غرفة العمليات بينما تعانده:

- يعني كلنا غلط وأنت صح!.. المفروض أنت دكتور.. يعني لوحدك تفكر وتدور على السبب..

أداررأسه إليها بنصف نظرة:

- حاضر.. هابقى أدور..

أراد إخراسها وحسب..

هو لا يهرب، لكنه فقط يرى الأمر أهون مما يرونه!..

تحضرا بعناية، العملية الهامة اليوم تعتمد عليهما معًا.. أخذ كل منهما موضعه حول جسد المريض وتناول المبضع ليشق صدره..

عندها هاجمه عرضٌ آخر.. بل ثلاث!..

غثيان قبض معدته.. تشوش جعل الرؤية ضبابية.. والآخير ظهر بيده التي تكاد تخترق اللحم..

كانت ترتعش..

حرك أصابعه بانقباض وانبساط، رمش بعينيه عدة مرات وأعاد المبضع لوضع القطع..

الرجفة لا تزال تمنعه.. ثبت يده أكثر، بدأ في فتح صدر الرجل، وتعرجت الفتحة لحد أفزعه فأبعد أصابعه بهتاف:

- دانة.. خدي مكاني..

رأت هي كل شيء، تحركت بعجالة لتقوم بمهمته وخرج بخطوات متعثرة يخلع عنه زيه الجراحي وكمامته والدواريلم به..

هناك شيء ما خطأ!..

بالاستراحة هوى فوق فراش ضيق بلهاث مشتت.. خوف مبهم يتسلل إليه، وحقه أن يخاف!.. أغمض عينيه وتمنى ألا يتخطى الأمر حاجز الإرهاق وداومة العمل التي يدور بها كل يوم..

حينها غرق في سبات طويل..

سبات أفاق منه مع لمستها لكتفه برفق، ورغم خفوت اللمسة فقد انتفض يسأل:

- مات!..

كان يعتدل بحركة عنيفة كادت تفقده توازنه، ساعدته باهتمام:

- اهدى يا يوسف..

استعاد اتزانه بعسر وعيناه تمرران إليها ارتباكًا لم تره عليه من قبل، طمأنته:

- المريض كويس.. المهم أنت!..

- أنا إيه!..

أشارت بعينيها إلى يده بحزم:

- إيدك..

رفع يمناه قبالة جذعه يراقب ثباتها بعين مشوشة.. لكن الهزة لم ترحل عنها، رعشة اقشعر لها وجعلتها تأمره بصرامة ويدها تجذبه ليقف:

- هنعمل MRI..

توقف بمكانه مستنكرًا:

- رنين!.. أنتِ مكبرة الموضوع ليه يا دانة!.. ده مجرد إرهاق..

عقدت ذراعيها عند صدرها، تحدثه بإيضاحٍ قاسٍ:

- إرهاق!.. كان في مريض ممكن يموت في إيدك، أنت بتعاند ليه!..

وجم لحظة فعادت تصر:

- هنعمل رنين يا يوسف.. الأعراض دي مش طبيعية خاصة مع شعور الإرهاق المستمر ده..

يومها استجاب..

تبعها كطفل حائر خالعًا عنه ثوب الطبيب المتمرس..

والنتائج أتت كما لم يتخيل في يوم!..

جراح القلب الماهر الذي امتلك الموهبة الفطرية كهبة من خالقه؛ لديه اختبار جديد يمر به..

اختبار ختامي!..

ورم بالمخ..

حددت أشعة الرنين المغناطيسي موضعه وحجمه الضخم وانتشاره الذي سيطر على أعصابه الحركية..

وبقيت خطوة هامة لتحدد كونه قاتلًا أم عليه أن يتعلق بحبال الأمل الواهية..

خطوة لن تتم هنا..

عينة للتأكد من كونه ورمًا حميدًا أو سرطانًا خبيثًا مميتًا..

ولأنه طبيب يفطن لما يرى ويفهمه فقد أدرك أنه ربما لن يحيا، مع ورم بهذا الحجم وبذاك الانتشار وصعوبة الاستئصال وما يليه من مراحل علاج قد لا تنتهي على خير..

خيط الأمل أكثر وهنًا من النظر إليه أو بذل محاولات غير مجدية للتشبث به..

فكان قرار الرحيل الذي أخذ منه خمسة أيام كاملة جبُن خلالها في كل لحظة ثم أتى العشق ليحسم القرار لصالحها..

هي تلك البداية التي أنعشت روحه والنهاية التي لن يحتمل ختامًا معها..

ختامًا مؤلمًا مخيفًا غير مأمون العاقبة..

ختامًا منتهاه موت!..

فكر بغباء العشاق.. استغل مريضته التي باتت برتبة صديقة، اغتنم قصتها وورطها في خيانته..

هي استغلت وجوده من قبل فلا مانع من ربح متبادل إذًا!..

اتصل يعتذر عن إكمال اللوحة ورغم حيرتها فقد تقبلت اعتذاره ببساطة..

ثم قدم المسرحية على مرأى ومسمع من الحبيبة..

ظهر فيها بدور المؤلف والمؤدي والمخرج وكانت وحدها جمهور العرض..

بعدها أسدل الستار بقرار فراق لا رجعة فيه..

هل فاز!..

خسر!..

عاش أو مات!..

أن تكرهه فيموت بعيدًا خائنًا بعينيها، أهون وجعًا من أن تراقب موت المعشوق وهي تمسك بيديه حتى القبر..

أحمق ككل عاشق مخلص متفانٍ..

أحمق ومغرم هو بها حتى الممات..

أحمق وهو يقفز بعد عناء الوصول إلى القمة.. قمة العشق وعرش القلب..

وأحمق وهي تتسلل لأحلامه الآن بعدما أجبرها على الرحيل عنه..

هو الناسك في محراب عشقها..

القديس الذي لن يتوب عن خطيئة هواها..

والرجل الذي قضم التفاحة لأجل أنثاه؛ فخرج من جنتها!..

***

الفارق بين عشق وعشق أشبه به بين سماء وأرض..

وبين قلب وقلب هو أقرب لجحيم ونعيم..

وبين رجل و.. رجل!..

ربما كان وجعًا.. والآخر موتًا..

في وقت قصير باتت بعيدة عن كل مكان يحمل عبقه.. عن جدران رددت صدى صوته بينما يسرد عليها قصة خيانته..

يقتلع وجوده من تربة قلبها، يقتل الجذور التي امتدت سحيقًا حد امتلاك سرمدي لا بداية له ولا نهاية..

في وقت قصير أفاقت بإثره لترى نفسها بسيارتها، يدها تقبض على المقود برجفة..

والثانية تحيط بجنينها في ضمة..

لم تنتحب، كبتت كل عبرة فأوجعها حلقها وتغشاشت الرؤية قبل أن تنهزم الدموع في معركة إرادة؛ معركة إرادتها انتصرت بأرضها..

فكرت لثوان ومحور أفكارها لم يكن هو، الخائن!..

بل تلك النطفة الساكنة برحمها..

لن تفقده هذه المرة.. ترجلت من السيارة وأشارت لأول واحدة مرت بها.. توقف سائق الأجرة العجوز يراقب اهتزازها قبل أن يسألها بحنو أبوي:

- أنتِ كويسة يا بنتي؟!..

دلفت للمقعد الخلفي ونبرتها تدعي الثبات:

- الحمد لله.. من فضلك وصلني التجمع..

تبع الرجل إرشاداتها بهدوء وعينه لا تغادرها في مرآته الأمامية حتى وصلا عند منزل أبويها، نقدته ماله وخطت بترنح إلى مدخل البيت متجاهلة نظرات رجال الحراسة المستغربة ظهورها في هذا الوقت شبه المتأخر!..

كل ما فيها كان متجمدًا كأنما لامسته قضمة من صقيع..

جُل انفعالاتها باهتة.. ضائعة.. غائبة في دنيا اللاوعي، اللااهتمام!..

بعد بحث غير مجدٍ عن مفاتيحها طرقت الباب بوهن، ومن خلفه رأت والدتها في البهو ترمقها بدهشة..

لم تشعر إلا وهي بين ذراعيها..

تهطل عبراتها أخيرًا.. بصمت، بسكون الموتى.. بتيه الغافلين في متاهات العشق المظلمة.. والأم تحتوي وتربت دون فهم..

بعد دقائق احتضر فيها قلبها مئات المرات همست بخفوت متعب:

- يوسف طلقني..

تصلب جسد "جمانة" وإدراكها لا يستوعب تصريح ابنتها المباغت، أبعدتها تنظر بعينيها في تساؤل مصدوم:

- طلقك!.. أنتِ بتقولي إيه يا ملك!..

تباعدت عن أمها أكثر تحتوي جسدها وحدها في ضمة واهنة:

- بيقولي إنه بيحب واحدة تانية وعاوز يتجوزها.. وأنا عقبة في طريقه..

ارتفع حاجبا والدتها بدهشة غير مصدقة قبل أن يتغضن جبينها بحسم:

- اللي بتقوليه ده ما يدخلش عقل طفل صغير، يوسف بيحبِك أنتِ..

حدجتها بنظرة خاوية:

- كان!..

تحكمت "جمانة" بكتفيها بقبضتين ثابتتين:

- مين قالك الكلام ده!..

تحررت من يديها بانتزاع حاد:

- هو.. هو قال كل حاجة، حكى لي قصة حبه الجديدة، كلمني عن حبيبته وخوفها ووجعها.. قال لي إنه مش عاوز غيرها..

وصرخت أخيرًا تحرر غضبها، ضعفها.. مقتها ودُجنة ظللت روحها:

- يوسف العاشق الأسطوري اللي العيلة بتتغنى بحبه؛ باعني..

تجمدت لحظة أردفت عقبها وكفها تربت على بطنها برفق حزين:

- باعنا..

ثم قابلت عيني والدتها المأخوذتين في تنقلهما بين وجهها وموضع يدها:

- خرجنا من حياته من غير تفكير، من غير حتى ما يديني حق الرد..

- أنتِ حامل!..

احتارت نبرة الأم بين السعادة والأسف، الأمل والحسرة، الطمأنة والغضب مع إيماءة ابنتها:

- ما لحقتش حتى أقوله..

اقتربت "جمانة" خطوة بتشبث:

- يعني ما يعرفش!.. لو عرف...

- لو عرف إيه!..

صرخت بها.. كلا، أنَّت وتوجعت وأوشكت على الانهيار مع دوار يعتم المشهد فيعمي بصرها:

- لو عرف هيهتم ويرجع عشان ابنه!..

وتكررت الصرخة فباتت أقرب لمخاض عشق متعسر، بل في حالة اختناق:

- أنا مش عاوزاه يرجع..

- ملك!..

صوته الحازم.. الحاني.. الداعم من خلفها، التفاتتها المباغتة ومرآه لسيل دموعها، ملامحها.. هتافها المحتد الغاضب والحزين..

ثم ظلام يسيطر على الأفق..

سقطت بوعي ينسحب منها ببطء، أمها تتحرك لتسند جسدها وأبيها يركض إليها.. همستها تعلقت بمسامعه وهي تتوسله:

- مش عاوزاه يرجع، اللي كان بينا انتهى..

وغابت عن واقعها الموجع جوار تمتمة "جمانة" القانطة:

- ما انتهاش.. مستحيل ينتهي وجواكِ جزء منه..

لكنها لم تسمعها..

فالغياب في هذه اللحظة كان مخدرًا تحتاجه.. مخدرًا لابد منه..

***

هناك أمور لا تتحمل الصبر أو الانتظار..

في غضون نصف ساعة أو أكثر قليلًا، بعد اطمئنانه عليها أخرج سيارته وكان خارج منزل أخيه يهاتفه بأمر حاد هائج:

- أنا مستنيك برا، البس واطلع لي..

الأخ الأكبر لم يفهم.. ومحاولة الفهم ذاتها فقدها عندما انغلق الخط بعد الكلمات السِت.. دقائق معدودة مرت صاحبه فيها قلق زوجته وجاور أخاه في الطريق إلى بيت الابن:

- في إيه يا أدهم!.. فهمني!..

ضغطت قبضة الأخ الأصغر المقود بقسوة كادت تمزق جلده، اكتفى بمنحه نظرة جانبية خاطفة بعد طول صمت والجواب وصله مقتضبًا مكبوتًا.. حائرًا:

- طلقها وهي حامل، بيقولها بحب واحدة تانية وهاتجوزها..

رمش "آدم" في غير استيعاب:

- مين طلق مين!..

لكمة "أدهم" لعجلة القيادة أجبرته على ثوان من تفكير سأل إثرها بانشداه:

- يوسف!..

- أيوة ابنك..

- هي ملك حامل!..

إدراك متأخر لفحوى الخبر اغتاظ له الأخ فزعق:

- بقولك طلقها..

أشار "آدم" بكفيه يطلب التمهل:

- أدهم أنا مش فاهم حاجة.. ملك حامل ويوسف طلقها!.. أنت قلت كده ولا أنا سمعت غلط!..

تنفس الأصغر باختناق ساخط:

- أدينا هنروح له ونفهم..

وتبدلت نبرته لساخرة تخفي شراسة:

- البيه بيخونها..

مر الوقت كدهر، وقف أمامهما بشعر مشعث جراء نوم مرهق على أريكة استقبال داره.. لم ينم منذ يومين تقريبًا، والآن فقط حصل على راحته واستكان لنهايته..

العم يصرخ بغضب مستعر، لهيب نيران يتأجج على ملامحه.. أليس بحقه!..

وأبوه ذاهل في غير إدراك ليقطع هو الشك باليقين حازمًا باردًا:

- أيوة حبيت واحدة تانية..

أصاب منهما بهوتًا وصدمة جمدت انفعالاتهما للحظات بينما يردف بلااكتراث:

- واللي حبيتها رافضة الجواز إلا لو أنا لها لوحدها؛ وأنا ماأقدرش أعيش من غيرها..

ثم توجه لعمه بعينيه كأن ما يحكيه لا يمسَّه بصلة:

- أنت جربت الحب ياعمي وأكيد فاهمني..

أكانت كلماته قاسية!..

مهينة!..

موجعة!..

لأن الإجابة أتته بشكل صفعة مؤلمة أطاحت بثبات وجهه وعناق جفنيه..

صفعة لم تأتِ على كرامته..

بل على قلبه المستكين اللاهث بأنين الخسارة..

وآه لو يعلمون!..

الأب يهمس باسم أخيه في جزع، والعم يهدر بصرامة باترة تقطع آخر شعرة بينهما:

- أنا غلطان إني استأمنتك على بنتي..

وكرر القرار الذي سبق وأعدم به آخر ذبحها من قبل:

- اللي بينكم انتهى، حتى لو جيت لي زي الكلب تترجاني ترجع لها..

كإعصار رحل بعد كلمة أخيرة مطعونة ونظرة لائمة للأكبر الواجم:

- ولادك بيعملوا في ولادي كده ليه يا آدم!..

إغلاق الباب العنيف خلفه أفاق والده من غيبوبة الذهول التي غاب فيها وانتهت بصفع صغيره.. هو لا يصدق..

لا يستطيع ابتلاع الأمر..

ابنه يذوب عشقا لزوجته، يذبل دونها..

بل يموت!..

هي ملكة قلبه منذ الصغر، قبل حتى أن تعي حبه أو ترى اهتمامه.. غيرته، جنونه، لمعة مقلتيه عندما تسكنهما صورتها ..

إذًا ما الأمر!..

بالتأكيد هناك خطأ ما، خطب ما ألم بباكورة مهجته..

لم ولن يحب غيرها، ليس وهي بين جنبيه متربعة على العرش.. هو يكذب، لابد وأن يعلم السبب.. في الحال..

وعنه فقد ظل متسمرًا مكانه.. لم يتراجع جسده أو يهتز ثباته أو تبدي ملامحه أدنى شعور..

الآن هي تكرهه، عمه غاضب منه وعليه..

أبوه مستنكر مصدوم صامت..

لن يؤلم الوداع فلم يتبقَ الكثير!..

لاتزال وجنته تنبض بألم إثر أصابع أبيها المتقدة لكن ألم قلبه يطغى..

خافقه يئن بخفوت مكبوت ووجعه لا يزول..

باغتته نظرات أبيه إليه.. متفحصة، سابرة لأغواره الغامضة، غير مصدقة..

بعد صمت أتاه صوته بحزم حنون:

- من غير كذب فهمني في إيه!.. سامعني!.. من غير كذب..

رفع عينيه نحوه بمرارة ظن أنه سجنها بين ضلوعه.. يظنه يكذب!..

لطالما كان والده هو الأقرب إليه.. يفهمه من نظرة، يرى الألم بعينيه الضاحكتين وداخل ابتسامته الواسعة.. دمدم بجمود:

- مافيش كذب يا بابا.. أنا قلت لكم اللي حصل.. مريضة عندي حبيتها، غيرت فيَّ حاجات كتير.. ولأنها اتخدعت قبل كده من راجل؛ مصممة تبعد عني ورافضة الجواز لأني متجوز..

وتراجع خطوتين يهرب ببصره ويوليه ظهره:

- أنا بحبها وعاوز أتجوزها.. بس..

صمت "آدم" للحظات.. غضب التمع بمقلتيه حد الاحترق، وقهرًا قلبه يرفض التصديق بخزعبلات خرافية يتمسك بها ابنه:

- مش قادر أصدقك.. كل الحب اللي كلنا كنا بنشوفه في عينيك مستحيل يتغير في لحظة وينتهي بالشكل ده أبدا.. لازم أفهم ولازم تقول لي مخبي إيه!..

نبرته مع نهاية كلماته تبدلت لصرامة حادة.. والعاشق أصابه الملل فقرر إنهاء الأمر بفظاظة:

- بابا أنا مجرد راجل عادي..

قطب والده باستفهام استطرد هو مجيبًا عليه بغلظة:

- راجل عادي ليَّ رغباتي وتقلباتي.. هي كانت حب مراهقة!..

برر بصفاقة جارحة:

- دلوقتِ أنا بحب بجد.. ومش هاقدر أستغنى عن اللي بحبها لأي سبب..

وخزت صدر أبيه قبضة عاصرة..

عقله يقف على الحد الفاصل بين تصديق الخرافة والإيمان بسابق عشق.. والأمر يحتاج اختبارًا حاسمًا بادربه بنبرة قاسية:

- نتيجة رغباتك وحب مراهقتك هي طفل بينك وبينها يا يوسف؛ هتبيعه هو كمان؟..

توقف العاشق المهزوم عن رد الفعل.. بردت انفعالاته وتيبست حركاته حد السكون التام، جف حلقه وضاع صوته.. وتمت الصورة بلمعة عابرة مرت بين جفنيه..

لمعة سعادة أطفأتها ظلمة الخوف والحزن.. والموت!..

بعدها ارتمى بجسده على مقعد خلفه وهو يهمس بذهول:

- حامل؟!..

والجواب جرح مسامعه بلهجة أشد قسوة:

- أيوة حامل، ابنك هيتولد لأب خاين ما عندوش ضمير ولا قلب..

واستسلم الجفنان في تعب..

ثم غادرتهما دمعة وحيدة!..

لمحها الأب تسيل فوق وجنته حتى اختفت خلف شعيرات لحيته النامية بتشعث.. لمحها وأدرك أن ما يحكيه ابنه هو بالفعل.. كذبة!..

كذبة كانت أكثر هونًا على قلبه وروحه من التعديل الذي أجراه صغيره على تصريحه الأخير:

- ابني هيتولد.. يتيم..

كلمة واحدة.. أربعة أحرف اخترقته كسكين ثالم، ذبحت أوردته ببطء وغاصت بالقلب بلا روية.. تحرك ناحية ولده خطوة أو ربما خطوات، قدماه قربتاه منه ووعيه لم يقم بالحساب، فقط كان يجثو أمامه وكفه تستند لركبته برجفة:

- أنت قلت إيه!..

وما رآه فوق وجه أبيه أكد له حقيقة آمن بها..

كان قراره السابق بالكذب والابتعاد صحيحًا لأقصى درجة، علامات الصدمة والهم التي حفرت تفاصيلها على ملامح والده بعد كلمة واحدة أكثر من كافية لتصدق على اختياره..

انهيار وشيك ربما، وهزيمة في حرب مع الموت..

حرب لم يفُز بها أحد من قبل.. وتجاعيد زمن تسربت فجأة لتغزو وجه الجاثي قبالته بعد سقوط.. لكن سبق السيف العذل!..

تمسك بيد الأب الباردة وهزرأسه بتسليم ثم أخبره بالتفاصيل..

أغفل بعضها لا يريد إيلامه أكثر، فالصورة الكاملة نهايتها رحيل.. وتمم الحكاية بخاتمة مبتورة لا تليق بها:

- كنت باحاول أخفف وجعكم كلكم.. كنت هاسافر لوحدي وأموت لوحدي..

والأب الذي لم تتحكم به عواطفه في يوم كان بأشد لحظات ضعفه، تحرك بتهالك يجاور طفله، يجذبه لأحضانه ويدفن رأسه في صدره.. يعتصره وذراعاه تتشددان حوله:

- أنت أغبى مما كنت أتخيل يا يوسف..

لم يحرره واستمر بتقريعه والنبرة التي تصله رعشتها أنبأته عن مقاومة بكاء:

- بتقرر لوحدك، واخترت تبعد الكل عنك حتى مراتك اللي بتحبك.. حتى أبوك وأمك وأخواتك.. قررت تستسلم للمرض والموت..

أبعده يمسك بوجهه يحيطه بكفيه فيكاد يغرس أصابعه في لحم وجنتيه:

- لأ.. ده أنت كمان قررت إنك هتموت..

استكان لغضب أبيه وخوفه واحتواءه بألم:

- ده مش قراري، دي حسبة بسيطة قوي بعد ما بعت التقارير تورونتو وعرفت إن الورم منتشر لدرجة هتصعب استئصاله بالكامل.. وإن مرحلة العلاج بعده ممكن تنتهي بالموت..

اشتعلت نبرة "آدم" بهياج أب مرتعب:

- حتى لو هتموت؛ عاوز تموت لوحدك!.. بتحرمنا حقنا نكون جنبك!..

- بابا.. أنا...

- أنت غبي..

بتر دوافعه قبل أن ينطق بها وأعاده لصدره متشبثًا بالأمل والقوة..

الوقت لا يتحمل الضعف والخنوع..

الآن هو الأرض الثابتة التي تقف عليها عائلته.. وأولهم ابنه الأكبر القانط بحماقة:

- ليه ما قلتش لمراتك؟..

حرر نفسه من ضمة والده وترك الأريكة نحو أقرب نافذة، فتحها وتطلع لسواد السماء الحالك، يعبُ الهواء بحشرجة:

- مش عاوزها تعيش الوجع ده معايا..

تبعه "آدم".. جاوره في محاولة للتماسك:

- بس ده حقها عليك يا يوسف..

- لأ..

هدربها شبه زاعقة ورأسه تلتفت نحو المجاور له:

- أنا شفت حالات كتير زي كده، شفت وجع الزوج أو الزوجة عشان آلام اللي بيحبوهم فوق احتمالهم.. مش هاخليها تمر بتجربة زي دي..

واهتزت مقلتاه بشجن غائب:

- تجربة نتيجتها مش مضمونة..

ثم انتقلت الهزة لشفتيه برعشة تكبت الوجع:

- خصوصا دلوقتِ وهي حامل.. مش هاخليها تمسك إيدي وأنا بموت قدامها وهي عاجزة مش قادرة تعمل حاجة تساعدني بيها..

وتعلق بساعد أبيه يناشده الموافقة:

- أرجوك يا بابا..

تجاهله "آدم" وتحرك يلتقط هاتفه، راقبه الابن يتصل بأمه فأدرك أن محاولة إخفاء ما يمر به كانت عبثًا..

ترك والده مع المكالمة الطويلة وتوجه إلى غرفة النوم..

هناك واجهه القميص المفرود على الفراش بصفة حرم نفسه منها..

"Best dad ever"..

هذا لو عاش؛ ربما حينها يمتلك التعويض المناسب.. وربما يُحرم منه للأبد!..

مرر أنامله فوق الكلمات بتعب وربتة الأب المشفقة فوق كتفه تدعمه جوار حنو صوته وصلابته:

- أنا هاسافر معاك..

أومأ بإذعان..

فلا ضرر من يد تحتضن كفه عند الرحيل، ضمة تقيه صقيع الوحدة ومخاوف الألم!..

***

اللقاء كان حارًا متخمًا بفوضى المشاعر..

العابث الحانق القلق..

الوردية المتماسكة بشكل غريب..

العنيدة التي ترمقه بنظرات ساخطة بين فينة وأخرى..

وهي!..

أمه التي لم تدعه يغادر أحضانها منذ دلفت للمنزل يتبعها أخوته، أخيه الذي أصبح أفضل وتخلى عن عصاه فبات يسير بتوازن دونها بل ويقود سيارته..

التوأم الناعم المتناقض والكل يحيط به.. حتى الصغيرة المدللة والمشاكسة استقرت فوق قدميه تعبث بهاتفه..

انفعالات الجميع وعواطفهم رغم كل شيء تسللت بالدفء والأمان لقلبه..

قلبه الذي تراءت له معشوقته فتمنى أن تكون حوله، لكن مالك الجسد الذي يسكنه نحاها عن حياته بطيش..

أشرقت الشمس ولم ينم منهم أحد..

خرج أخيه الأصغر لإحضار فطورٍ شعبي كما طلب منه الأكبر مازحًا بأنه قد يكون فطوره الأخير بأرض الوطن، أهداه ضربة مغتاظة بكتفه وغادر..

الوردية تجلس على مقعد عريض وعيناها عليه كأنما سيهرب من بينهم، صغيرتها نائمة بفراشه، وأمه لم تتخلَ عن جواره..

أما والده فكان يجري عدة اتصالات عاجلة بخصوص العمل والسفر المفاجئ..

وأتته هي.. تأخذ جانبه الآخر على الأريكة، تدير وجهه إليها وبحسم غريب تقرر:

- هتبقى كويس..

صمتت لحظة كررت عقبها والنبرة تتأرجح بخوف دفين بين الأمل، الثقة والسؤال:

- هتبقى كويس يا يوسف!..

أمسك بيدها التي تجبره على النظر بعينيها بيديه يطمئنها:

- هاحاول..

تشبثت بأصابعه في لحظة ضعف لم تعتدها:

- لأ.. اوعدني..

ابتسم بشجن:

- ده الوعد المستحيل..

رمشت فتيقن من محاولتها حبس دموعها..

هي القوية التي اعتاد ثباتها في الأزمات، كان يعلم أن وراء تلك القوة قلبًا رفيقًا حانيًا غارقًا في العاطفة.. جذب رأسها يقبلها بحنان:

- اللي أقدر أوعدك بيه يا صبا؛ إني أحاول..

وكزت صدره ثم ابتعدت في إدعاء صلابة:

- هتبقى بابا، ده أكيد لازم تحاول..

ابتسم وشرد في ملامح طفل ربما لن يشهد لحظة ميلاده..

طفل يحمل ابتسامتها، عسل عينيها.. أنفها المرتفع بكبرياء وخصلاتها البنية الداكنة..

غاب في تفاصيل وهمية حتى أعاده أبيه لأرض الواقع بخبر حازم:

- هنسافر على طيارة بكرة الضهر يا يوسف بإذن الله..

وهذه بداية طريق آخر..

مفترق يبعده عن درب عشقه..

فعند الخيار بينها وبينه.. اختارها هي!..

***

عندما طلب منها وعدًا بألا تخبر من كانت زوجته وستبقى إلى الأبد حبيبته: تمسكت بالصمت..

كان يعلم أنها ستفعل، وكانت تدرك أنه يفهمها.. طيارته في الجو الآن وبعد ساعات سيصل إلى "تورونتو" حيث جده الذي لا يعلم بعد، والمشفى محل عمله السابق هناك..

عادت من المطار بعد لحظات وداع هي الأقسى ووجهتها بيت أختها..

فالابنة تحتاج لدرس جديد!..

استقبلتها "جمانة" بهدوء وأتت ابنتها بوجه مرهق، ملامح متعبة ونظرة باهتة، ظلت كل منهما تراقب الأخرى لثوان حتى استسلمت "ملك" بسؤال مستخف:

- يا ترى يوسف سافر ولا لسه!..

أهدتها خالتها نظرة مبهمة قبل أن تجيبها باقتضاب موجع:

- سافر..

حاولت شقيقتها التدخل فأشارت إليها بالصمت وهي تردف:

- مع آدم..

انتفضت "ملك" في جلستها بحيرة:

- عمي سافر معاه!..

أومأت "لمياء" بسكون.. عندما حاولت الحديث تحشرج صوتها وتعثرت الحروف ثم ماتت على أطراف شفتيها..

ماذا عساها أن تقول!..

هل تدعوله بالسعادة مع من يحب!.. أم تنقم عليه وتلاحقه بكل اللعنات الممكنة!..

- مش عاوزة تعرفي آدم سافر معاه ليه!..

تركت مقعدها باستقامة مباغتة تريد بها العودة لغرفتها:

- ما بقاش يهمني أعرف عنه حاجة..

- ولا حتى تعرفيه إنه هيبقى أب!..

استدارت لخالتها والهياج يخط فوضاه على وجهها بجنون:

- والله يا خالتو أنا حاولت، بس هو ما إدانيش فرصة.. كان عنده موضوع أهم يتكلم فيه..

- ملك..

- غبية..

هتاف باتر من أمها يستهجن لهجتها، وسبة من الخالة التي نهضت تواجهها بغضب لم تفهمه:

- غبية وأغبى منه كمان..

تبعتهما الأم القلقة لا تدري كيف تفض اشتباكًا على وشك الحدوث:

- اهدي يا لميا، ما هو طلقها من غير ما يديها فرصة تتكلم..

التفتت لأختها بزعقة هادرة:

- عشان غبي هو كمان..

تراجعت "ملك" بوهن تتشبث بالمقعد الذي غادرته قبل ثوان:

- أنا مش فاهمة حاجة.. مش هو اختار؛ أنا مطلوب مني إيه مادام ما بيحبنيش!..

تقدمت منها خالتها بصرامة قاسية:

- أنت مش واثقة في حبه ليكِ!..

وسخرت بمرارة والوجع ينخر بقلبها:

- هه.. طيب أنتِ قدمتِ له إيه!..

ثم جذبتها تواجهها بنظرة لائمة:

- كان إيه مقابل مشاعره!..

انتزعت نفسها منها وتباعدت..

دارت حول نفسها بضياع وأنين نبرتها يقبض قلب أمها ويطلق مخاوفها من عقالها وهي تراقب حركاتها بحذركأنها ستسقط في أية لحظة:

- طلقني من غير ما يفكر، من غير ما يديني فرصة أوافق أو أعترض.. خد القرارونفذه بدون نقاش.. مطلوب مني إيه!..

نهاية كلماتها خرجت مكررة صارخة حائرة ومتوجعة.. والخالة تتراجع بإنهاك:

- مطلوب منك تثقي فيه وفي حبه ليكِ اللي عاش عمره كله مخلص ليه..

وعادت تقترب بغضب وليد:

- مطلوب منك تشوفي حزنه ووجعه..

وازتها بعد ثلاث خطوات تجبرعينيها على لقاء محتدم:

- مطلوب منك تحسي بخوفه..

"خوفه!"..

همسة تكررت من الأم وابنتها بتوترودهشة..

همسة تحمل السؤال ونالت الجواب باستفاضة حد السقوط..

سقطت "ملك" عائدة لمقعدها بجمود وخالتها تخبرها بكل التفاصيل الغائبة عنها، ارتجف جسد "جمانة" كأنما تلقت صفعة وازت الخبر..

ختمت "لمياء" الحدث بسردٍ كالنحيب:

- قرر يموت لوحده عشان ما يوجعش حد.. قرر يبعدك عنه عشان ما تعيشيش معاه لحظات ألمه..

وسالت من خلف أجفانها دمعة هاربة:

- حتى إحنا ما كانش هيقولنا..

ثم منحتها نظرة عاتبة تلاشى غضبها بحزنها في مزيج مرهق:

- أيوة.. بيحبك للدرجة دي..

لمحت أختها دمعتها فاقتربت تضمها وهي على ذهولها..

لا تدري ماذا تقول أو تفعل!..

كان الأمر فوق احتمالها هي الأخرى فكل نائبة تتعرض لها عائلتها تتضاعف قسوتها عن سابقتها..

عيناها كانتا تراقبان ابنتها الجامدة بمجلسها كأنما باتت جزءًا من المقعد..

ابنتها التي تلوم نفسها وتجلدها..

ابنتها الغارقة في الذنب وضميرها يُسقِط فوق عنقها مقصلة الندم..

ابنتها التي تحركت يدها بلا وعي إلى ثمرة عشقهما في قرارها المكين، تحاوطها كأنما تناشدها طمأنة!..

وجدتها فجأة تنهض، تلتقط هاتفها وتعبث فيه بلهفة.. تتصل بمجهول وتخبره بصرامة:

- كريم.. محتاجة تأشيرة لكندا؛ تاخد وقت قد إيه وإيه الورق المطلوب!.. لأ دي أول مرة.. تمام، قابلني كمان ساعة في الشركة أكون جهزته..

وقفت تواجه المرأتين الأكبر سنًا بصلابة وعزم:

- أنا هاسافر أول ما ورقي يجهز، وبطريقتي هاعرف أخليه جاهز في أسرع وقت..

اقتربت أمها بقلق:

- ملك.. أنتِ حامل والرحلة لكندا طويلة جدا وحملك...

ربتت على كف أمها بتصميم:

- حملي لو مقدرله يكمل هيكمل يا ماما.. ولو مش من نصيبي..

وغُصت بالكلمة لحظة:

- يبقى خلاص.. قدر..

تشبثت بها والدتها في توتر:

- ما تنسيش إنه جزء منه..

- وأنا عاوزة الكل قبل الجزء..

بادرت بعشق خالص وعقلها يغيب فيه.. بل يطير إليه:

- يوسف محتاجني..

وتوجهت ببصرها لخالتها التي تأملتها بحنو:

- يوسف محتاج مراته وابنه جنبه..

وعند مفترقها هي.. كان هو الخيار!..

***

هناك.. خلف القضبان؛ تحيا على هامش المسرح..

لا ترقى لدور البطل ثم في النهاية يُسدل الستاردونك..

هناك.. خلف القضبان؛ أنتَ منبوذ، مكبل.. وآخر من يعلم!..

هناك.. أنتَ لا تهتم..

أو كنت تظن أنك تفعل حتى اللحظة!..

في جلسة باتت اعتيادية روتينية بشكل يومي كان يجاور صديقه، يتبادلان حديثًا فلسفيًا وجوديًا عن اللاشيء وكل شيء.. يتنفسان التبغ عوضًا عن الهواء..

وآخر نبأ أعلمه به:

- النقض اترفض..

تأمله "حاتم" بصمت قصيروهو يكمل بسخرية:

- بعد سنة وشهرين النقض اترفض.. والحكم زي ما هو..

نفث صديقه الغيمة الرمادية بلامبالاة:

- سنة السجن بتسع شهور مادام في حسن سيروسلوك..

نظر إليه دون رد فهزرأسه ببساطة:

- يعني لو حسبتها فاضلك أربعة بس وتخرج..

ومدد ساقيه أمامه في استرخاء مغيظ:

- أنا بقى؛ هاخرج آخر الشهر ده..

ثم ابتسم بمكر محبب:

- مش هتحتاج حاجة from the other side!.. أنا في الخدمة يعني..

ضحك "مروان" بخفة ووحشة ما تحيق بقلبه كأنما سيفقد عزيزًا..

هناك رباط ما جمع بينهما خلف هذه الجدران القاتمة..

رباط أصبح له قيمته!..

رباط عقدته من طرفه تختلف عن الطرف الآخر لكنها لا تزال عقدة.. رمقه بنظرة مبهمة ساجنًا كل شعور قد يغافله بطفو إلى السطح:

- مش هاحتاج.. بس حاول أنت ما ترجعش هنا تاني..

وضع "حاتم" كفه مفرودة فوق صدره بانحناءة مسرحية:

- لا يا عم.. تُبنا إلى الله..

بتر اندماجهما وصول رسالة لهاتف "مروان" المُسرب.. فتحها بدهشة ليجد الخبر الذي تأخر في معرفته..

ابن العم مريض..

أخته حامل.. وباتت مطلقة!..

تناوبت الانفعالات في السيطرة على مشاعره..

غضب، تقطيبة ساخطة.. دهشة، ألم.. صدمة وشيء من سخرية قاسية بدت أشبه بطبع جديد التصق بابتسامته ونظرة عينيه..

الوردية قذفت بوجهه كل الصدمات دفعة واحدة لتخبره أن "ملك" بالمطار الآن وستطير بعد ساعتين في طريقها إلى "كندا" حيث أخيها وأبيها..

ترددت أنامله عند اسمها وزر الاتصال..

لا يتذكر آخر مرة سمع صوتها، متى رآها أو اهتم لأمرها!..

تأمله صديقه بفطنة وتمتم قبل أن يتركه وحده:

- أنا ما قريتش رسالة أم بنتك، بس شايفك عاوز تتصل بأختك ومتردد!.. لو حاسس إنها محتاجة لك ما تبخلش عليها بوجودك..

أغمض "مروان" عينيه بجمود..

تلك العاطفة التي عبثت بدواخله الكامنة الساكنة لا تعجبه..

هو اعتاد انفصاله عن العالم.. ألفه واستأنس به، لا يريد أن يعود لمنطقة المشاعر الهشة وضعفها غير المرغوب..

لكن رغمًا عنه كان للقلب الغلبة في معركة الأخوة، نقر اسمها وانتظر حتى وصله صوتها المشدوه بسعادة مهمومة..

قابلها صمته، حيرته بين الرد والرفض.. همست برفق:

- مش مهم تتكلم ولو إني نفسي أسمع صوتك..

وتنهدت براحة لامسته عبر الأثير:

- المهم إنك اهتميت بيَّ في التوقيت ده..

ثم سكنت لحظة تمتمت بعدها بنبرة مختنقة:

- وحشتني قوي..

انغلق جفناه بتعب وأنامله تتخلل خصلاته بضيق..

لم تسمع رده ولم يستطع النطق..

فقط أنفاسه تصلها لتمنحها أمان حضوره، ظل معها على الهاتف دون كلمة حتى سمعت نداء طائرتها فاستقامت بلهفة:

- دي طيارتي.. أشوف وشك بخير..

أدرك أنها تعدو مع لهاثها فكاد يهتف بها أن تتمهل حفاظًا على جنينها لكنها من بادرت:

- لما أرجع؛ أكيد هاشوفك إن شاء الله..

وأنصتت لحظات بينما تنهي إجراءات سفرها بصحبة ابن خالتها الذي أصرت والدته على ذهابه معها وتودع أبيها المغتم والمراقب لحديثها مع صغيره:

- ادعي له يا مروان..

أغلقت الخط لتنفصل عنه..

أسند رأسه للجدار من ورائه وأشعل لفافة تبغ نفث دخانها بشرود..

بروده وموت الكلمات بأعماقه مع أخته يثير دهشته.. وخوفه..

هل مازال "هو" القديم يحيا بداخله؛ أم أنه فقد روحه بالفعل!..

باعها لشيطان الجحيم الذي يسكنه، رافضًا العودة لجنة المثالية الحمقاء..

لكن ما يعلمه عن يقين؛ أنه لا شيء سيعود كما كان..

***

الفارق بين عشق وعشق أشبه به بين سماء وأرض..

وبين قلب وقلب هو أقرب لجحيم ونعيم..

وبين رجل و.. رجل!..

ربما كان موتًا.. والآخر حياة، أمل، تشبث.. ودرب طويل من دروب الغرام مُعبد بنقاء المشاعر وصدقها..

بعد رحلة مجهدة وصلت لمنزل جده بصحبة "آسر" الذي تولى مهمة الاهتمام بها طوال الطريق..

أصابها دوار بعد هبوطها من الطائرة فأجبرها على الجلوس لفترة حتى استعادت كامل ثباتها ووعيها، هاتف والده وأعلمه أنهما على وشك الوصول إليه.. وطلب منه أن يحتفظ بحضورها مفاجأة!..

استجاب الأب بقلب واجف، فلمحة سعادة لابنه تكفيه..

في المنزل استقبلها الجد بترحاب شديد رغم حزن عينيه، اكتشفت أنه يعرف ملامحها واسمها والكثير من التفاصيل عنها.. منه!.. من عاشقها الذي اختار موته وحيدًا على ألا تتألم معه..

جاهل هو وساذج؛ والجهل في العشق مأساة..

الأنانية وحدها تفوز، وأنانيتها انتصرت برغبة قربه..

كانت تعلم أنه نائم في هذا الوقت، ففي الصباح الباكر سينتقل إلى المشفى لتبدأ رحلة العلاج الصعبة..

صعدت الدرج حيث غرفته، فتحت الباب بتردد ثم دخلت بتمهل.. خطواتها خافتة هادئة كأنها تخشى أن يفتح عينيه ويراها!..

تخشى أن تراه هي وهو على هذه الحال..

اقتربت من الفراش الذي تمدد بركنه، بدا شاحبًا قليلًا فانقبض قلبها.. اتجهت نحوه واستقرت جالسة إلى جواره بهدوء في محاولة لعدم إزعاجه..

مالت تتطلع إلى وجهه بافتقاد، بحنين.. بشجن يطغى على جوارحها وخوف من فراق محتمل!..

مدت أصابعها تتخلل خصلاته الكستنائية الناعمة، تمسح عليها برفق.. استقرت بشفتيها على جبينه و دمعة تخدش لمعة العسل الساكن في مقلتيها.. فرق جفنيه بغتة ليرى وجهها مقابلًا لوجهه!..

غرقت في بحر عينيه الفيروزي كعادتها كلما احتواها بنظرته، ابتسم بحب وعاد يغمضهما.. همس بشوق:

- أجمل أحلامي لما أنتِ تبقي فيه..

ابتسمت هي الأخرى، أيظنها الأحمق حلمًا!..

خانتها دمعتها لتنسال على وجنتها ببطء، فتح عينيه ثانيةً محتفظًا بابتسامته..

قرأ غيابها، خوفها.. نظرتها.. حزن، عتاب، قلق، ألم.. وعشق!.. تمتم بخفوت:

- مش عاوز أشوف حزن في عيونك أبدًا..

تأملها لحظة ثم مد كفه يجذبها برفق.. يخبرها بقبلة كم يعشقها، يشتاقها، يخشى فراقها.. بل يرتعب منه، ويأبى أن يكون سببًا لوجع يصيبها!..

تركها بعد ثوان غائبًا في دنياه الخاصة من جديد، أراح رأسه على وسادته مستطردًا بنبراته الحالمة الهامسة:

- أجمل أحلامي..

حاولت التماسك أكثر فلم تستطع.. هطلت عبراتها لتسقط بين شفتيه وتستقر بملوحتها فوق لسانه.. همست هي:

- أنا مش حلم يا يوسف.. أنا معاك بجد..

توسعت عيناه ينظر إليها بفزع وطعم دموعها بفمه يؤكد له أنها بالفعل أمامه!..

تراجع للخلف بينما يرفع جسده مستندًا للفراش، ظل ينظر إليها وهي تملأ عينيها بصورته، هز رأسه بألم رافض:

- ليه يا ملك!.. جيتِ ليه!..

انتحبت بحشرجة:

- عشان أنت غبي.. ولو فكرت تعمل فيَّ كده تاني أنا اللي هاقتلك بإيدي..

تهدلت أكتافه في استسلام يائس وأخفض بصره في تعب..

اقتربت منه، أمسكت بكفه لتضعها على بطنها بعاطفة:

- أنت محتاجنا.. أنا وابنك.. زي ما إحنا محتاجينك بالظبط، إياك..

وأجبرته على التيه بغياهب العشق بعينيها:

- فاهم.. إياك تفكر تبعد عني تاني، أو تسيبني تاني.. أنت كده بتوجعني أكتر..

لم يسحب يده التي تلمست مكمن طفله برقة حانية، ارتجفت شفتاه ببسمة مهتزة فأحاطت وجنته بكفها تأمر بحزم:

- ردني..

تنهد وشاب بسمته لمسة من عبث طفيف:

- بعد البوسة أكيد يعني..

قاطعته بجدية حاسمة:

- لأ.. المهم النية، أنا حقيقة مش حلم..

لثم باطن كفها المتشبثة بوجهه بعشق:

- أنتِ الحقيقة الوحيدة اللي عشت بيها وليها..

لمعة سريعة عبرت بين أجفانها، واستقرت هناك مع استطرادته:

- أنا رديتك لعصمتي يا ملك..

ابتسمت فقربها يبتر ابتسامتها بشفتيه في اشتياق وأبعدها يستند بجبينه لجبينها:

- وآدي التوقيع والبصمة..

أراح رأسها عند نابضه.. استكانت لدقيقة ثم فارقته تنظر إليه.. شعر بدهشة محتها وهي تجذب جسده بين ذراعيها ليستوطن صدرها..

مأواه ومثواه..

مستقره وسكناه..

تتمتم قرب أذنه وأنفاسها تشعره بالدفء:

- المرة دي أنت اللي هتنام في حضني..

ونام بالفعل..

نام في راحة لم تمر بخلاياه منذ علم عن مرضه..

نام قرير العين..

فإن كان موته قادمًا قريبًا لا محالة؛ هو راضٍ..

***

في اليوم التالي استقر بغرفته بالمشفى الذي اعتاد العمل به حين مكوثه بموطنه الثاني..

كانت تتحرك حوله باهتمام ودعم قلِق.. تساعده في كل صغيرة قبل الكبيرة رغم أنه بصحة جيدة حتى هذه اللحظة..

تتعامل مع كل شيء رافضة تدخل أبيه أو أخيه، ترهق نفسها لدرجة نبض لها قلبه فجذب يدها بإشفاق:

- ملك كفاية.. أنا كويس..

عدلت الوسادة خلف ظهره بحنان أمومي:

- بجد!.. مرتاح كده..

أجبرها على الجلوس جواره هامسًا بعشق:

- مادام أنتِ معايا أنا مرتاح في أي وضع..

ارتعشت بدمعة اندهش لها وأناملها تمسحها بضيق ساخط وتبرر بحنق:

- هرمونات..

ضحك بخفوت واحتفظ بيدها بين يديه غير آبه لأي وجود حوله..

"صباح الخير"..

التحية أتت من باب الغرفة..

اللهجة تحمل عبق الوطن الأول..

الصوت هادئ.. واثق..

ومع الالتفاتة تناسقت الملامح المريحة مع نبرة صاحبها المطمئنة بموازاة دخوله للغرفة.. بمعطف طبي وجهازلوجي، عرف نفسه ببسمة رزينة:

- دكتور محمود زيدان، رئيس الفريق الطبي المسؤول عن حالة دكتور يوسف..

ومد يده له ولوالده الذي استقام باهتمام في مصافحة ودود:

- والجراح اللي هيعمل العملية بإذن الله..

- مصري!..

صدحت بالسؤال باندفاع مستهجن رافض جعله يتأملها باستفهام أجابته باعتراض:

- هو إحنا جينا كندا عشان اللي يعمله العملية دكتور من مصر!..

تنحنح "يوسف" بحرج وضغط كفها بقبضته معتذرًا:

- أنا مصري يا ملك..

استدارت إليه بفخر:

- أنت مختلف..

نظر نحو الطبيب الصامت بذات البسمة:

- وأنا متأكد إن دكتور محمود مختلف برده..

رد هو من خلفها:

- هو لو في أي اعتراض على مهارتي الطبية تقدروا تتفاهموا مع إدارة المستشفى لاختيار طبيب تاني.. بس لو عشان الجنسية!..

وهز رأسه باستنكار ضئيل أغاظها خاصة مع كلمة زوجها:

- معلش يا دكتور، أنت فاهم بقى.. عقدة الخواجة..

التفتت إليه بعين غاضبة توسعت لها بسمته وطبيبه يجيبه:

- المستشفى اختارتني لعملية صعبة وطويلة زي دي لأنها واثقة في مهارتي كجراح، خاصة إن دكتور يوسف له اسمه ومكانته هنا..

جاورت زوجها في جلستها بتبرم والاحتجاج يسيطر على تفاصيلها، ضغط يدها ثانيةً فأهدته بسمة ناعمة وأنصتت للطبيب الذي بدأ يشرح تفاصيل الحالة ومراحل العلاج المتتابعة.. طويلة المدى!..

خطة مرهقة أوجعت قلبها وهي تحفظها عن ظهر قلب..

خطة تبدأ بجلسات مكثفة من العلاج الإشعاعي لمدة ثمانية أسابيع لتقليص الورم وتحجيمه عن مزيد من النمو والانتشار..

تتوسطها عملية استئصال خطرة ستمتد لساعات مديدة..

وانتهاء بجلسات مكثفة أخرى من العلاج الكيميائي المنهك للقضاء التام على الورم بعد أن أثبتت الخزعة التي أجراها قبل البدء في البرنامج العلاجي أنه.. سرطاني خبيث!..

انقبض خافقها ومرت بجسدها رعدة كبتتها قدر استطاعتها وهي تسأله:

- يعني في أمل!..

توقف الرجل لحظة خرجت نبرته إثرها بثبات حازم:

- طبعا في أمل..

لم تعجبها لهجته رغم رغبتها في التعلق بكل حرف من كلماته، عاندت بتحدٍ:

- وده رفع معنويات بقى!..

عادت له بسمته الهادئة حينما أجاب ببساطة صادقة:

- لأ.. عشان الأمل دايما موجود مادام ربنا موجود، وعشان عارف كويس أنا بعمل إيه..

أنهى اللقاء وسلم مريضه لفريقه لبدء خطوات العلاج..

تمسكت هي بالكلمة ونظرتها تتابع ما يحدث بقلب نابض..

نابض بالخوف..

والأمل!..

(٤١)

بين البداية وما نظنه نهاية عواصف وأعاصير..

فيضانات وزلازل..

كوارث قلبية وبراكين ذكريات تنفجر حممها لتحرق الروح..

بين النهاية.. وما يليها..

هناك بداية أخرى!..

في العشق ينطلق زناد النبضات، وبعدها نسأل..

ثم نسقط.. وتلو السقوط غرق..

في العشق تأثم القلوب ولا تبحث عن توبة، تتجاهل الغفران وتتيه في دوامات المشاعر..

في العشق حرفة الأفئدة المنح وآفتها الخوف!..

وهي كانت خائفة، في كل يوم.. تستتر برداء القوة والبأس، تتمسك بحبال الثبات والدعم، تهديه من صلابة روحها فيرتكن إليها ويصيبها هي هشاشة احتياجه..

تستغل وحدتها في لحظة انهيار لا تطول.. لا تترك لها الفرصة لتطول، فلو انهارت لهدت معبد العشق فوق رأسها أولًا..

مر شهر منذ بدأ زوجها علاجه الإشعاعي لتقليص حجم الورم المنتشر بمخه كقاتل محترف يتربص به موضع ظلام ليفتك به..

شهر طويل هاجمتها خلاله نوبات غثيانها الصباحية فكانت تخفيها عنه..

شهر تتناوب فيه مع والده البقاء إلى جواره بعد رحيل أخيه حتى موعد العملية المحدد بعد شهر آخر..

ثلاثون يومًا نحف فيها جسده بعض الشيء، غارت عيناه وبهت بريقهما بضعف، ضعفٍ لم يجبرهما لتتخليا عن نظرة الغرام المدلهة بحبها حين تهوي ببحر مقلتيه..

يداعبها.. يشاغبها ويعابثها وحين خلو المكان عن سواهما يسرق منها قبلة.. يضمها ويعود لذلك الماجن الذي تسبَّه بدلال فيضحك بمكر..

روحه ظلت كما هي رغم أن روحها التي تتشبث به ترتجف كلما أغمض عينيه.. فتجد نفسها تتابع أنفاسه، تتحسس نبضه.. تختبر دفء جسده وتنام قربه..

حملها المرهق أجبرها على نظام غذائي يتكون من المشروبات والفواكه فحسب، فجنينها يرفض كل ما عداها لحد يقلب معدتها مع أي طعام يجبرها حموها على ابتلاعه..

الطبيب الذي ظنته غير مؤهل في البداية كان يمارس عمله بمهارة وخبرة تستحق الثناء..

بل يدعم زوجها كذلك ونمت بينهما صداقة طفيفة بدأها بمشاركته لعب الشطرنج ليلة كل أحد في عادة باتت روتينية..

عادت لغرفته بعدما أحضرت كوبًا ضخمًا من مشروب الليمون بالنعناع والكيوي في خليط تطلبه خصيصًا لأجلها عندما وجدت والده يؤازره بالحمام بينما يفرغ معدته بتعب..

نوبات قيئه كذلك تزايدت مع تتابع جلسات العلاج، وفي كل مرة يبعدها.. يأبى أن تراه حال وهنه، أو يخشى أن يثير اشمئزازها خاصة مع حملها..

اقتربت تقف عند الباب تتأمله بعاطفة، غسل فمه واستند للمغسلة لثوان ثم انحنى يمسح وجهه بالماء البارد، يرفع عينيه لتتقابلا مع عينيها بالمرآة أمامه.. يزم شفتيه ويهمس دون صوت باسمها وأبيه إلى جواره يرمقها بنظرة لها مدلول واضح..

"لا تنصتي إليه.. لا تبتعدي"..

ولم تكن بحاجة لوصايته، أشارت إليه بعينيها واقتربت تحيط خصره بذراعها في ضمة مساندة أجبرته على اعتصار جفنيه:

- ملك!..

كان يؤنبها بنبرة متهالكة وحلق جاف، تحركت خطوة تناوله كوبًا من الماء بأمر حازم:

- اشرب..

خضع بلا جدال.. سار معها عائدًا إلى فراشه، دثرته وحرصت على راحته ككل مرة ثم جاورته.. لم تعد لمقعدها بل ظلت تلتصق به، تواجهه بنظرة حانية.. عاشقة، تغرقه في دفئها..

وهو كان يفتش عن الشفقة.. الوجع.. الخوف.. التراجع.. الملل.. التعب.. اليأس..

دارت بين المقل حرب شعواء، فازبها العشق وانتصر فيها الغرام.. أخفض بصره وأدار وجهه تجاه النافذة يطالع خارجها لدقيقة كاملة، دقيقة لم تقطع فيها صمته..

كانت تدرك حاجته، تعلم أنه لا يريدها أن تمر معه بما يمر به، لكنه أحمق.. فعن أي عشق يتحدث إن لم نعبر معه موجه العالي المخيف ونجتازهاويته السحيقة!..

أي عشق ذاك الذي لا يخضع لاختبارات قاسية.. فيكبر، ينضج ويستمر!..

"المفروض ترتاحي"..

بترشرودها فيه بهمس متبرم..

نعم يعشقها.. وهو ليس غبيًا ليبعدها عنه بعد ما حدث آخر مرة، لكنه فقط يخشى عليها..

يبغي دلالها وقربها، ويكبت رغبته تلك ليعتني بها..

لامست وجنته بأناملها في مشاكسة:

- أنا مرتاحة معاك، إلا لو زهقت مني بقى..

ثم جذبت أذنه تداعبه:

- ولا أنت بتعاكس الممرضات هنا وأنا مش موجودة يا دكتور!..

ابتسم لها وعينيه تخبرانها عن حقيقة واحدة..

حقيقة ألا سواها شمسه التي رسمت مداره وهو في حضورها محض كوكب:

- بجد يا ملك..

خللت شعره برفق:

- أنا مش هامشي، حاول ترضى بالأمر الواقع..

مع نهاية كلماتها تعلقت بإصبعها إحدى خصلاته، جذبتها تراقبها بارتباك.. بألم، برهبة رآها وليدة بنظرتها فرفع رأسه ليلمحها بين أناملها:

- ده متوقع!..

تمتمت بها متحشرجة ليكمل هو بسخرية كالعلقم:

- كده بسيط قوي، الكيمو بقى هيطير حتى حواجبي..

ولحظة الأسى ورثاء الذات انقلبت بقدرة خارقة لضحك.. ضحكتها المرحة وهي تتحسس حاجبه الأيمن بعبث مرح:

- هتفضل برده يوسف حبيبي، النص خواجة.. الوسيم أبو عيون زرقا..

بادلها ضحكتها بخفوت، ضم حاجبيه في محاولة لمجاراتها عندما تبعده عن مواطن الوجع:

- ده العادي بتاعي..

وكزت كتفه بسبابتها وغيرت جلستها لتسكن صدره وتحيطه بذراعها:

- وأنت بتاعي أنا..

ضمها إليه بتلقائية فلثمت فكه لتأخذه باختطاف ناعم لدنيا عشقها:

- على فكرة؛ عاوزة أقولك إن الفيلم الهندي اللي عملته عليّ قبل ما تسافر ده ماتفتكرش كان هيكمل معايا للآخر..

قبض على يدها باحتواء كفه وهو يهديها نظرة متخابثة:

- بجد!..

اعتدلت بصراحة جدية تقابل دهشة عينيه:

- طبعا.. كنت هاحتاج وقت بس أتخطى عملتك المهببة دي، بعدين كنت هاوصل لنفس النهاية..

- أي نهاية!..

ضمت وجهه بين يدها وغاصت بزرقة مقلتيه الصافية:

- إنك عمرك ما حبيت ولا هتحب حد غيري..

ابتسم برضى..

كأن وصولها لتلك النتيجة وحده كافٍ..

كأن إيمانها بعشقه هو المنتهى وما بعده لا يبالي به..

استكانت بأحضانه مجددًا وسؤالها الفضولي يتردد:

- قولي بقى، ومن غير لف ودوران.. هو في مريضة بجد ولا كان تأليف!..

توسعت بسمته وشابها مكر خفيف:

- في..

انتفضت باعتدال تواجهه بحدة استغربها:

- في!.. مين دي!..

مع رفعة حاجبيه انتبهت لانفعالها ولم تكترث، قطبت بغيظ وظلت على وضعها حتى جاوبها:

- اسمها ندى، تقدري تقولي إنها بقت صديقة..

ومد يده يجذب يدها، يقبل باطنها.. بل يغوص في نعومتها بشفتيه وأنفه وفكه، يتشممها ويبتسم بشرود:

- لو رجعنا هاعرفك عليها..

بلا وعي قبضت كلمة "لو" قلبها، تجاهلت ضيقها.. غيرتها بتقرير حاسم حينما آبت لسُكنى صدره:

- لما نرجع إن شاء الله أكيد هتعرفني عليها..

وفهم تحويرها للكلمة، تنهد ببطء.. يتمسك بالأمل نعم، ويخشى القادم تلك حقيقة.. يتمنى رؤية صغيره الذي يشغل به ذهنه عن أفكاره السيئة؛ الأمنية:

- عاوزة ولد ولا بنت يا ملك!..

حركت رأسها لتواجهه دون ابتعاد، وفكرت لثوان:

- إمممممم.. ولد..

قطب بدهشة مداعبة:

- إيه العنصرية دي!..

ضحكت وارتفعت تقبل فكه ثانية:

- عاوزاه شبهك، ياخد دفا عيونك.. ولو لونهم مافيش مانع، ياخد قلبك الكبير اللي بحجم الكون كله، اللي بيقف جنب اللي حواليه لآخر لحظة.. ياخد ملامحك عشان لما تبقى في نوبتجية في المستشفى يبقى هو معايا.. بتوحشني..

غامت نظرته بعشقه الذي يعلن عن نفسه مهرًا متجددًا في كل يوم:

- أنا بقى عاوزها بنت شبهك، تجنن الراجل اللي هيحبها لحد ما يقدر يخطف قلبها..

داعبته بشقاوة:

- خلاص، يبقى نجيب الاتنين إن شاء الله.. لو المرة دي ولد المرة اللي جاية تبقى بنت أو العكس..

انتقل عشقه لبسمته الخافتة متمسكًا معها بأملها:

- موافق..

وقع بصره على كوب عصيرها الذي تناسته عندما رأت تعبه، أشار إليه من خلفها:

- ما شربتيش العصير بتاعك!..

ودفعها لتحضره بلوم:

- أنتِ مهملة في أكلك وده ما ينفعش..

تبرمت في استجابة لدفعته ودمدمت بحنق مرهق:

- ده أنا برده!..

"جوزيف!"..

كان ذاك جواب سؤالها..

الهتاف الناعم بنبرة أبحة باسم زوجها.. ومن خلف الهتاف فتاة فاتنة عسلية الخصلات ممشوقة القوام وركض!..

تركض إلى زوجها وتضمه!..

اللعنة.. ستسفك دمه بهذه اللحظة، استدارت تتأمل قربها منه، لمستها لوجهه وأناملها تدور فوقه بشوق.. بتوق واضح تفهمه كعاشقة:

- لقد عدتُ فور أن علمتُ بالأمر، كيف تخفي مرضك عني جوزيف!..

تنحنح بحرج وأمسك بكفها في شبه مصافحة:

- لم أخفِ شيئًا جين، لكنني علمت بسفرك فلم أُرِد إرهاقك..

أحاطت يده بيديها وقلق عينيها يتفجر سافرًا جليًا ينبئ عن عشق:

- تبًا لك يا أحمق، كنت لأدور حول الأرض وآتيك..

كرر النحنحة والتفت لزوجته ببسمة مرتبكة ليلمح الجحيم ينشق على وجهها وبنظرتها:

- هذه ملك.. زوجتي..

وجهت بصرها إلى الواقفة باشتعال فعلي فتكاد ترى ألسنة اللهب تتراقص حول رأسها، عالجت الموقف بحنكة وابتسامة.. قرب ويد تصافح:

- إنها أنتِ إذًا!..

الحديث كان يدور بالانجليزية التي تتقنها، نقلت تأملها لها بعدما أحرقت زوجها وتوعدته:

- أنا من!..

صافحتها بود لطيف:

- عشق الصبا والعمر!..

تغضن جبين الزوجة المشدوهة بحيرة فأشارت "جين" من وراء ظهرها نحو الراقد بفراشه في ترقب:

- أنا صديقة جوزيف، منذ طفولتنا ونحن معًا، كان دومًا يخبرني عنك.. وعن أحلامه لحياتكما سويًا..

واستدارت إليه برأسها في نظرة عاتبة:

- لا أصدق أن صديقي الأقرب يخفي عني مرضه!..

ثم قررت المكوث قليلًا فلو هربت الآن من نظرات الزوجة المستعرة لألصقت به تهمة غير حقيقية..

جاورت الفراش في مقعد وأخذت تقص عليه ما فاته من أخبار خلال الثلاثة أعوام الماضية.. أعوام لم تره فيها وافتقدته كثيرًا رغم أن الوداع لم يكن عاطفيًا بل كان قاسيًا لحد كاد يبتر صداقتهما..

بعد نصف ساعة غادرته وآن أوان المواجهة الدامية كما يرى في تأملها الغامض له وهي تبادر بحدة:

- جوزيف..

تقلد نبرة الراحلة وطريقتها، تشيح بيديها في سخط:

- وبترمي نفسها في حضنك وأنت عادي، وتمسك فيك وتلمسك وأنت عادي!..

وكتفت ذراعيها بحنق:

- أنت فاكر نفسك خواجة بجد!..

لم يقاوم ضحكة عالية..

هي تغار!..

وهكذا تبدو غيرتها إذًا!..

شهية.. لذيذة، ولطيفة.. مد يده إليها فتأملتها بجمود جعله يهزها محفزًا:

- ملك!..

بهمس ناعم حركت له وجهها بعناد.. استجابت بعده لتتفاجأ بجسدها يسقط بين ذراعيه، يقبل جبينها ووجنتها وقرب شفتيها يهمس بالحقيقة الوحيدة التي يعلمها الكون بأسره:

- بحبِك..

ضربت كتفه برقة وحاولت التباعد بتبرم:

- لأ.. ما تقولش بحبك..

كررها بأنفاسه التي تلامس وجهها، بتعديل أكثر واقعية وطوقه يشتد حولها:

- بلاش بحبك.. بعشقك..

زمت فمها مغتاظة بطفولية.. وجدته يحرك ذقنها ليتقابل مع شفاهها في قصيدة ناعمة.. دافئة.. قطعت أنفاسها هي وكلماته تتكرر..

تعاد..

يصدح بالعشق ويعلنه على ملأٍ من روحها وقلبها وجوارحها التي تؤمن به وتصدق عليه..

يجهر به في جنون أقرب للهوس..

يجبرها على الشعور به والغوص في أعماقه..

يجبرها حد الخضوع..

***

في لحظة اكتشفت أنها ليست قوية كما تدعي!..

فحين غيابهم حدث الانهيار، البكاء الصامت المكبوت، الضعف ثم طفا الخوف على السطح..

أخيرًا عاطفتها أمسكت بالزمام فنهشتها، أسقطتها فريسة لأنياب الضياع ومخالب الألم..

أخيها الأكبر يقف على شفا الموت، تأمل نعم.. ورغم الأمل يقتنص الرعب لحظات ضعفها فيسيطر..

كان انهيارًا واحدًا حيث بعده حدث التماسك وعادت الواجهة الصلبة التي تعلم أنها ذاتها الحقيقية فتعتمد عليها..

واجهة تشبثت بها أمام الجميع؛ حتى هو!..

ترى نظراته التي تحوم حولها، اهتمامه الذي لا يبادر به واضحًا بل يدمجه بشيء ما تتجاهله هي.. رغبته في المواساة والاطمئنان التي تجبرها على التنائي أكثر..

إثر آخر مشادة بينهما تحدثت مع زوج عمتها وانتقلت للعمل بصحبة أحد مهندسي الشركة سواه، كان كلما قابلها عاتبها بصمت.. وسأل عن السبب، وبذات اللحظة يهرب بعينيه كأنما هناك صراع يخنقه يدور بداخله..

صراع قاتل بين رغبة القرب وقرار البعد.. بين الاهتمام واللامبالاة..

بين نظرة عشق تلبس بها في لحظة من ضعف قلب، ونظرة تفر من لقاء عينيها كفراره من سبع جائع!..

حيرتها، غضبها، ضيقها.. ومخاوفها التي تمر بها كلها أجبرتها على تباعد قسري عن محيطه..

حتى عادتها في التأخر بالعمل بعد رجوعها من أجازتها القصيرة؛ تنهي عملها.. تحمل أشيائها وترحل بهدوء.. مرة يلمح رحيلها ومرات لا..

يتبعها دون كلمة، يراقب غيابها بلا تعبير سوى التوق!..

وفي اليوم التالي تخلو ملامحه من كل التعابير الممكنة لحد مثير للجنون..

إلى أن فقدت اهتمامها، تلاه فضولها واعتنقت الصمت..

"صبا!"..

الآن يأتي..

يقتحم عزلتها.. ويهمس باسمها في عمق بطيء متغاضيًا عن الرسميات..

ويكرره!..

ماذا يريد منها!..

رفعت رأسها إليه بحدة قاسية.. الهجوم تلألأ بعينها فمنحهما بريقًا خاطفًا آسرًا ساحرًا ألجمه:

- باشمهندسة صبا..

واستقامت من خلف مكتبها تواجهه بخطوات حادة:

- أيا كانت اللعبة اللي بتلعبها؛ تأكد إني مش طرف فيها..

- لعبة!..

يتظاهر بالدهشة أو ربما هي حقيقية لا تهتم..

لمَ يتناوب على قلبها وروحها بالقرب والهجر!..

لمَ يقسو ثم يهتم ثم يقسو!..

لملمت حاجياتها تتناسى وجوده كما تفعل مؤخرًا:

- أنا ماشية..

وبلا وعي كان معصمها بقيد يده..

بلا وعي منه أو منها!..

تأملته بنظرة مستعرة وحنق لهجتها يتصاعد:

- باشمهندس عمر!..

تدمدم باسمه واللقب من بين أسنانها، تأمل قبضته التي تراود عقله عن اتزانه فتفقده كل منطق سوى أن يحررها:

- أنا عاوز بس أطمن عليكِ..

انتزعت يدها منه بغلظة وعسل عينيها يتبدل لنار متقدة ألقته بسعير لا نجاة منه:

- أنا كويسة الحمد لله، أي طلبات تانية!..

صدمتها نظرته..

بل أسقطتها بفخه..

وساذجة هي حد التصديق أن قصص الحب تولد أحيانًا خالية من المقدمات..

عيناه تستصرخها بحب.. سجين الضلوع!..

حب تأجج وخبا بلحظة واحدة حررتها من أسره إثر السقوط:

- طيب ممكن أطمن على أخوكِ!..

- الحمد لله.. كويس هو كمان..

تبادر وتود لو تبتر كلماته.. لكنها كانت تكذب وكذبتها سمحت لعبرة مهينة بالهطول عبر جفنيها، عبرة لم تشعر بها بل لاحظت حضورها بنظرته التي تبدلت لرأفة.. وعطف لا تتقبله ولا تريده..

مسحت وجنتها بعنف وحاولت العبور:

- ممكن تعديني لو سمحت!..

لم يتزحزح من وقفته قيد خطوة، ظل على تأمله لها.. على احتوائها بعينيه كأنما يضمها إليه بلا اقتراب حقيقي..

ما يفعله يضعفها وهي تمقت ضعفها..

ظلت تجابه تطلعه والتفافه ببصره حول تفاصيلها بجمود ونظرة صلبة باردة ختمها هو بهمس مطمئن..

بنبرة تعلن السلام وتهدي روحها الهدنة:

- إن شاء الله هيرجع بالسلامة..

بوهن كيانها كله وقَّعت على هدنته بقبول، منحته نظرة أخيرة تخبره عن تشبث.. عن احتياج.. عن أمان يمكنه تقديمه ولم يتأخر!..

خطوته لم تبعده من طريقها بل قربته منها فرفعت رأسها تقابله بسكون:

- ممكن أمشي معاكِ لحد عربيتك النهاردة.. محتاج أطمن عليكِ!..

أومأت موافقة بلا حرف.. حروفه هو يتردد صداها بذهنها..

أمانها احتياجه!..

بكلمة واحدة عاد يبني تمثال حضوره بقلبها..

وبعاطفة الأنثى التي مهما تجاهلتها وغمرتها أسفل طبقات من المنطق والصلابة؛ تظهر لتخبرها أنها قريبًا..

وقريبًا جدا..

ستقف على مفترق العشق!..

***

هو رجل أحال الخيال لحقيقة وجذب يدها معه لتحيا الحلم..

رجل اللحظة والقلب والعشق والعمر..

رجل لن تتحمل فراقه!..

شهر آخر مر.. شهر نهش فيه المرض والعلاج جسده فبانت أعراضه عليه لحد أوجعها مهما جاهدت للكتمان..

واليوم سيدخل لغرفة العمليات، بصحبة طبيبه وفريقه الطبي.. لمدة اثنتي عشرة ساعة بلا انقطاع!..

خطواتها كان تهرول جوار الفراش الذي يتحرك به، تتمسك بيده وباليد الأخرى تتعلق خالتها التي أتت وأخيه بالأمس ليكونا معه..

عند المنطقة الخاصة توقف الجميع، أهداها الطبيب بسمة هادئة:

- ده آخرنا يا مدام ملك..

رمقته بنظرة خاطفة وعيناها تلمعان في مقاومة مضنية للعبرات، انحنت تقبل وجهه.. تطوف بشفتيها فوق تقاطيعه كلها وتهمس له بعشق صراح:

- هاستناك.. ما تتأخرش عن الوقت المحدد لو سمحت..

حرك يده التي كانت تتعلق بها يلامس بها وجهها، يمحو دمعة خانتها:

- مش هاتأخر..

ثم تسلل بلمسته لبطنها المسطح فلم تنتفخ بطفله بعد:

- خلي لي بالك منكم أنتوا الاتنين..

استدار يرمق والديه وأخيه على الجانب الآخر بنظرة باسمة:

- هاشوفكم كمان كام ساعة ما تقلقوش..

ربتت "لمياء" على رأسه الحليق تمامًا في استعداد مبدأي لعمليته، تكسي نبرتها بالحنان، الدفء.. والبأس:

- مش قلقانة.. مستنياك..

جذب يدها يقبلها وبعينيه يودع الرجلين الذي يقفان بصلابة في ظهره، الأخ المشاكس يمازحه بعبث:

- ركز أنت بس جوا عشان ناخد الورم ده تذكار، نحطه في أوضتك لما نروح بإذن الله..

وكزه والده باحتجاج ونال نظرتين حانقتين من الزوجة والأم.. لكنه أعاد البسمة والأكبر يوازيها بمرح هادئ:

- هاحطه في أوضتك أنت، بيقولوا بيطرد الكوابيس..

ضحك الاثنان والأب يقترب..

ينحني ليقبل جبينه ويهمس له بكلمة لم يتبينها أحد لكن الابن ابتسم لها، شدد قبضته على يد أبيه ثم رحل عنهم..

عادوا للمكان المخصص لأهل المرضى على قيد الانتظار القاتل، كأنهم يجلسون فوق هوة جحيم محتدم تضرم في قلوبهم النيران..

تحرقهم.. توجعهم وتخيفهم..

مرت الساعات ببطء خانق، توالت فيه اتصالات العمة وزوجها، أبيها وأمها ثم أختيه..

امتدت العملية لوقت أطول، خرج خلاله أحد مساعدي دكتور "محمود" ليطمئنهم على سير الأمور..

ساعة زائدة..

ساعة كادت تموت فيها وهي تبكي رغمًا عنها بين ذراعي خالتها التي قدرت حالتها فاكتفت بضمها..

كانت هي الأخرى خائفة.. تشعر بضعف غريب يكتنفها..

بفكرة مخيفة تحتلها وهي ترمق ملامح زوجها المجاور لها بجسده بينما عقله وأفكاره خارج حدود المجرة ربما..

ساعة زائدة.. وأخبروهم بنجاح العملية، أنه بغرفة الرعاية المركزة حتى الإفاقة..

أخبروهم.. أنه بخير!..

***

لم يستفِق بعد!..

ثلاثة أيام تلت عمليته الطويلة المرهقة ولم يفتح عينيه.. لم تسقط فيهما فتغوص في بحر رمال عشقه المتحركة حد الغرق ككل مرة..

كل نظرة بعشق..

كل نظرة بتجدد..

كل نظرة بحياة..

والآن هي باقية إلى جواره على عشق بنكهة الأمس؛ لا.. بل بنكهة ثلاثة أيام فائتة، ولا تستسيغ مذاق الذكرى فيها..

كانت تتظاهر بالقوة، تدعي التماسك والصلابة لأجل أبيه وخالتها، لأجل طفله الذي يسكن رحمها وقد علمت جنسه قبل ساعات فقط..

لأجله ولأجل نفسها فلو حررت دمعة واحدة سينهدم السد..

لم تترك جواره والإنهاك ظلل جفونها بسواد متعب، تراقب وهن ملامحه وسكونها.. رأسه المربوط بإحكام، نحول وجهه الذي ظهر أكثر وأكثر..

تستجديه بصمت أن يعود، تعانق يده بين كفيها تهديه دفئها، عشقها، قلبها وروحها..

بل لو استطاعت لأهدته حياتها..

تنام بنصف عين وأذنيها معه.. مع كل نفس يدخل لصدره أو يغادره فهي تخشى أن يكون رحيلًا بلا عودة..

تهمس له بكل ما يعتمل بنفسها، تقص عليه الجديد الذي يطرأ على يومها وجنينها واليوم كانت شفتاها تحملان بسمة حانية، تتشبث بأمل لن يموت مادام في القلب نبض:

- يوسف.. وحشتني..

انحنت تستقر بشفتيها فوق كفه لعشر ثوان، تميل لتريح وجنتها عليها وابتسامتها تهتز:

- المفروض تفوق على فكرة، أنت كده بتغش..

شهقت بغصة تخنقها بينما ترتفع لتراقب سكونه:

- المفروض أول سونار نعرف فيه نوع البيبي تكون معايا زي ما وعدتني..

استبقت إحدى يديها تضم يده والثانية تجولت بظاهرها عند وجنته بلمسة اشتياق:

- ولد يا يوسف..

وتنهدت بثبات يكاد يقتلها الحفاظ عليه:

- حمزة يوسف الحسيني؛ زي ما اتفقنا..

شعرت بربتة خالتها فوق كتفها فرفعت عينيها إليها:

- روحي أنتِ ارتاحي يا ملك، لما يفوق أكيد هابعت آسريجيبك..

نفت بلا كلمة..

لن تغادره مهما حدث، لن تبتعد وتتركه وحده يصارع الموت.. ماذا لو خسر في تلك الحرب وهو وحده!..

ماذا لو فقدته.. وكانت بعيدة عنه!..

لم تبتعد ليلًا أو نهارًا ومر خمسة أيام..

تجلس قربه، رأسها تستلقي على الفراش في ضمة من كفه الساكنة.. تناشده عودة وتنال الغياب..

تغضب وتحزن وتسبَّه ثم تقبله..

لم تيأس، لم تقنط.. وظلت تبتهل وتصلي ليعود..

الليلة هي السادسة، كانت في نومتها المعتادة وإن قربت مقعدها من موضع رقوده أكثر حتى وضعت رأسها فوق صدره وكفها تستكين بكفه..

غارقة في شبه نوم ووالدته على أريكة بالركن المقابل تتأمله..

تتأمل طفلها ووجعه، أول من منحها لقب أم.. من نفض قلبها به عندما نطقه.. من كان كالأب لإخوته، المعلم والناصح الأمين..

طفلها الأول الذي هو بعينيها مثالي تام دون نقصان..

وتهبط نظرتها إلى زوجته التي تنام بحضنه وإن لم يشعر بها.. تتنهد وتستقيم، تدثرها بوشاح صوفي ثقيل وتعود لجلستها حيث لا تتركه عيناها..

لا تتركه حتى أنها لمحت هزة جفنيه.. الرعشة والانتفاضة الطفيفة، الحركة الخافتة.. ثم الانفراجة!..

طارت إليه.. تأملته ينظر إليها من خلف غشاوة رمادية سيطرت على كل شيء، راقبته يستشعر وجود زوجته عند نبض قلبه، يحني رأسه إليها بتمهل ثم يبتسم لأمه التي سمحت لدموعها بالسيل..

هذه العبرات كانت سعيدة..

رفض بحركة من وجهه فمسحتها وقبلتها تنطبع عند جبينه:

- حمدالله على سلامتك يا حبيبي..

ورغم خفوت همسها فقد استفاقت التي انتبهت لتغير تسارع نبضاته وحركة أنفاسه..

تلك التي سقطت في عشقه من جديد عندما طوقها بنظرته الدافئة.. ببسمته الحانية وأصابعه التي تحركت لتعانق كفها..

- يوسف!..

تحشرج بها صوتها في اختناق..

تبكي وأول همسه لم يرِد أن يسمح بتلك الدموع:

- من غير بكا يا ملك..

تراجعت لمسافة محدودة لا تبعدها عن مداره، تمسح وجنتيها بيدها كطفلة خائفة بلا تردد، تومئ باستجابة بريئة:

- حاضر.. حاضر..

كل ما في الكون عند هذا الحدث بدا بخسًا..

فأثمن ما بحياتها قد عاد!..

***

في رواية ما أنت البطل، القدوة التي يتطلع الجميع إليها، أنت النجم.. وبرواية أخرى أنت الشرير الذي ينبغي للخير أن ينتصر عليه في النهاية..

وفي كلتا الروايتين؛ أنت.. لست أنت..

لأنك لم تعد تدرك حقيقتك..

هل أنت ذلك الأبيض الذي تلطخ بدنس العالم ففقد معالمه وتاهت منه ملامحه وسط ظلام روحه!..

أم أنت الأسود القاتم الذي استسلم للعتمة بعد العودة من الموت!..

حقًا.. من أنت!..

ظل مبهم حجب عنه مشهد الشفق الغارب فنفث تبغه بتلكؤ وازى حركة وجهه إلى الواقف أمامه..

قامة متوسطة تميل إلى البدانة، وجه عادي الملامح ببسمة بسيطة يشوبها شيء من ود..

كل ذاك غير مهم..

فاللحظة الفارقة حدثت مع لقاء الأعين وصاحبها يجاوره في جلسته بطلب مهذب:

- ممكن تطفي السيجارة!.. الدخان بيتعبني..

عينا الرجل كانتا سوداوين، داكنتين بدرجة مهيبة..

نظرته حادة سابرة للأغوار كأنها تحمل مع كل طرفة أجفان مسبارًا قويًا يغوص عميقًا بالروح..

نظرته كانت قاسية بخلفيتها رُقي زائل!..

والمتمرد على مثاليته البائدة رفض ببرود:

- تقدر تروح تقعد بعيد..

تأمله الرجل لثانيتين وابتسم متجاهلًا رد الفعل:

- لأ.. أنا عاوزك في موضوع كده قبل ما تخرج الشهر اللي جاي..

رمقه "مروان" بنظرة باهتة شابتها سخرية غير مفهومة:

- الباشا.. طبعا..

لم يكن يتساءل، بل يقرر.. ويخبر نفسه بنفسه، والرجل أومأ بسلاسة دون مزيد من تعريف لا يراه ضروريًا..

- ليه مهتم بيَّ!..

سؤاله بلمسة طفيفة من فضول توسعت له بسمة المجاور له:

- عشان اللي دخلني السجن..

ومال نحوه يسيطر على بصره بنظرة صارمة مخيفة:

- هو نفسه اللي دخلك..

لم يتأثر "مروان" بالنظرة قدر الجواب، اعتدل يواجهه باشتعال مكبوت:

- مين!..

- معتز الرفاعي..

الاسم لم يدُر بمداره من قبل.. لا يعرفه ولم يسمعه ولا يفهم لمَ تسبب في أذاه!..

وتلك كانت البداية..

بإثرها سرد عليه رواية تمُت بعينيه للخيال بكل صلة، خاصة عندما علم أنه كان بيدقًا جازت التضحية به للنيل من الملك!..

"معتز الرفاعي".. رجل الأعمال ذا الواجهة البراقة والدواخل حالكة الظلمة..

الرجل الذي يتحكم بمعترك السوق ويفوز بهزيمة الآخرين في حرب قذرة يستغل خلالها كل الوسائل التي تبرر وصوله لغاياته..

مشروعة كانت أو مخالفة للقانون والانسانية..

رجل الأعمال الذي تحداه والده في عدة صفقات كانت آخرها ستسقطه عن العرش فقرر عقاب المذنب..

أبيه..

والعقوبة!.. الابن..

كان يستمع للخطايا التي يقصها عليه حاميه بأذن مشدوهة وعقل يستوعب حد الخطورة..

كان يفهم.. يدرك.. ويستعر!..

كيانه كله يتلوى فوق جحيم يصلاه بلا هوادة..

"ما سابش حاجة ما وسخش إيده فيها، لدرجة غسيل الأموال والقتل!"..

كلمة ختامية لم تشبع الصامت المنصت فالتفت للرجل:

- يعني أنا كنت ورقة ضغط اتلعب بيها في الوقت المناسب..

هذه هي الفكرة.. وكانت الخطة، فبشكل ما تبدو الصورة مشوهة غامضة..

لكن الجواب انتزعه من تيه بين درب الغد ومتاهة الأمس:

- معتز اتقتل من أيام..

- اتقتل!..

صدمة جديدة هي!..

- أيوة.. تقدر تقول والدك له يد في موته..

جذب "مروان" ياقته بعنف مباغت:

- أنت بتقول إيه!..

أمسك "الباشا" بيده يهدئه ببسمته التي لم ترحل عن شفتيه طوال جلسته:

- اهدى.. والدك جاب لك حقك، قدم ورق يدينه للنائب العام، معتز اتقبض عليه خصوصا بعد المخالفات المهولة في المدينة الجديدة اللي كان بيبنيها ومع التحقيقات والحبس الاحتياطي هدد الكبار اللي واقفين وراه وبيحموه.. يا يطلعوه منها يا إما مش هيقع لوحده..

للحظة توحشت البسمة ثم عادت لهدوئها:

- المرحوم كان غبي، فاكر إنه كده بيلوي دراعهم.. اللي حصل إنهم فعلا خرجوه وتاني يوم لوري هرس عربيته، خرجوه منها أشلاء..

انقبض قلب "مروان".. فهناك.. في العمق لا تزال نقطة بيضاء ترفض جرائم الحياة، تستنكر عنف قاطنيها ووحشيتهم..

الدنيا غابة..

والناجي وحده من يجيد الصيد!..

- يعني تار، مساعدتك ليَّ تار..

أخبره الرجل بهدوء اعتاده بعد تدريب طويل من التحكم بالنفس:

- مش عاوزك تبقى زيي يا مروان..

مع النظرة المستفهمة بفضول جديد أكمل قصته..

هو أيضًا كان رجلَ أعمال منافس، لكنه لم يطمع لمكانة أعلى.. اكتفى بشركته الصغيرة وحياته المتزنة وزوجته وطفله..

ولأن فوزه في معركة ضد الحوت الأكبر يعني النهاية فقد أتت خاتمته البائسة بأسرع مما تخيل..

فقد الزوجة والابن بحادث وعندما حاول الانتقام لهما ليقينه بأنه مدبر؛ مات في طريق انتقامه أحد حراس "معتز" وأُلقي هو في غياهب السجن ليتعفن في وحدته..

حينها وبعد يأس دام طويلًا لحد جعله لقمة سائغة في يد من حوله من سجناء وحراس قرر السيطرة..

والمال.. يفتح كل باب مغلق..

لم يكن بحاجة لعضلات يمارس بها فتونته على من حوله، بل امتلك النقود التي تخضعهم دون لكمة واحدة أو قطرة دماء..

تبدل.. توحش.. أظلمت نفسه واستجابت روحه فخضعت لذات الظلام..

بات مجرمًا حقيقيًا لا يبحث عن توبة ولا يريد أوبة:

- ما تخسرش نفسك زي أنا ما خسرت نفسي.. أنت عندك بنتك، اتمسك بنقطة النور دي..

واستقام باهتمام أبوي مرطيفه بنظرته:

- لما تخرج من هنا، هتلاقي حاتم مستنيك بهدية.. اعتبرها هدية وداع مني..

رحل عنه ثم توقف بعد خطوتين:

- خد بالك من حاتم، صاحب جدع هتلاقيه في ضهرك وقت ما تحتاجه ومالوش حد..

وصية أخيرة كان يعلم أنه سيتمسك بها..

لم ينتبه أن لفافة تبغه احترقت بين أنامله دون أن يتنفسها.. لسعت إصبعه فألقاها بشرود..

أنت الآن.. تختار اللون الرمادي وتعلم أنه مستقرك الوحيد..

فالأبيض غاب عنك، والأسود.. تخشى منه احتلالك، واستعمار روحك!..

***

هو رجل اللحظة.. فالعمر ليس في متناول اليد!..

عاد قبل أسبوعين بعد عملية أخيه.. شهر ثالث مضى منذ سقطت قنبلة مرضه في محيط العائلة لتخترق قلوب الجميع بشظاياها..

أخيه الذي دومًا ما كان داعمه وقت الحاجة، وقت العاطفة والخوف وحتى وقت العبث!..

ابتسم وهو يرمق شاشة هاتفه بحنين قبل أن يخط فوقها بأنامله:

- يا جو يا حبيبي أنت في حضرة الخبير.. يعني اسأل ونحن نجيب..

أتاه وجهًا ممتعضًا من الأكبر أضحكه، فبادر مشاكسًا:

- هيبقى شبهي وهتشوف..

كان يحادثه عن طفله القادم، يغيظه ويرسل إليه وجهًا يخرج لسانه جوار غمزة:

- بعدين أنت تطول!..

أصبحت هذه آخر كلماته عندما قطع محادثته الكتابية رنين الهاتف برقم أحد أصدقائه، أجابه تاركًا جلسته قرب سور كورنيش النيل:

- أيوة يا بني أنتوا فين!.. ماشي ماشي مسافة السكة..

قفز داخل سيارته الجديدة والتي اختارها رياضية بسقف متحرك ودرجة داكنة من الأحمر اللامع..

قادها وعيناه منشغلتان بالطريق حين قطعه فجأة جسد ضئيل أجبره على استخدام المكابح بعنف قبل أن يدهسه..

لكن الصدمة حدثت دون إرادته، سمع الصرخة فركض خارج السيارة والبشر يتجمعون حول الجسد الساقط على الأرض بأنين ناعم.. مال يدنو بوجهه محاولًا الاطمئنان:

- أنتِ كويسة!..

كان وجهها مختبئًا خلف خصلات سوداء طويلة كثيفة، رفعت رأسها تزيح شعرها للخلف بتأوه:

- لأ.. تقريبا رجلي انكسرت..

وكما يحدث في الأفلام الرومانسية التي تدمن مشاهدتها..

تقابلت عيناها معه واختفى الكون عداه..

لقد صدمها فارس أحلامها الوسيم بسيارته، والآن ستسقط بغرامه لا محالة!..

تأمل نظرتها بدهشة للحظة.. دهشة تبدلت للإدراك العابث وشفتيه تلتويان بمكر:

- يعني تقدري تقفي ولا لأ!..

من خلفه تعالت أصوات البعض..

"راكب عربية ما تعبش في فلوسها عشان يدوس بيها الخلق"..

"آدي اللي بناخده من الناس اللي واكلين البلد في كروشهم"..

"حد يكلم البوليس، مش هنسكت له"..

"حبيبتي يا بنتي"..

عجوز.. رجل أربعيني.. شاب حانق، وامرأة تضرب صدرها، استدار إليهم بحنق:

- على فكرة الآنسة هي اللي نزلت من على الرصيف من غير ما تبص.. أنا حتى ماكنتش سايق بسرعة..

وأكدت هي على كلماته بحالمية غريبة:

- هو معاه حق يا جماعة.. أنا فعلا كنت سرحانة وباتكلم في التليفون..

أهداها نظرة ساحرة كأنما يشكرها، نظرته أسرتها فابتسمت بخجل.. وتحول غضب الناس إلى مصمصة شفاه ثم انتقل السباب إليها قبل أن يسألها هو متجاهلًا الحضور الذي يحيط بهما:

- هتقدري تقفي!..

أمسك بساعدها يؤازرها، مع محاولتها الأولى هاجم قدمها وجعًا أطلق منها صرخة فارتمت بالأرض:

- لأ.. لأ.. بتوجع قوي..

باغتها قربه الذي تخطى كل حد ويده تستقر أسفل ركبتيها في حين امتدت ذراعه وراء ظهرها تقربها لصدره..

في الثانية التالية رفعها..

في الثانية التالية كان جسدها محمولًا بين ذراعيه فتشبثت بياقة سترته بلا إرادة وأحلامها كلها تتحقق في أول لقاء مع خبث نبرته:

- مادام مش قادرة تقفي؛ أشيلك..

وتحرك نحو سيارته يهدي من حوله نظرة مهددة، لاحقته السيدة التي تخشى على الفتاة:

- أنت واخدها ورايح بيها على فين!..

قطعت طريقه فابتسم لها من بين أسنانه:

- هاوديها المستشفى حضرتك..

- هاجي معاكم..

وفتحت باب سيارته تعبر منه إلى مقعدها الخلفي قبلها، تستقبلها وتدعمها بأمومة استغربها:

- ما أضمنش يا بنتي ياخدك يروح بيك فين!.. الدنيا مالهاش أمان..

كاد يقهقه ساخرًا لكنه تماسك ببسمة عابثة وغمزة أصابت قلب التي كانت تنظر إليه عند أعمق نقطة فيه..

انتبهت لغيابها في عينيه فنفضت رأسها هاربة بنظرها:

- موبايلي فين!..

انحنى يلتقط حقيبتها ولمح الهاتف خلف عجلة السيارة وقد طحنته، تناوله بأسى:

- للأسف المرحوم هندفنه النهاردة..

أمسكته منه بضحكة مندهشة..

فرغم أنه كان هدية أبيها الأخيرة لها إلا أنها في هذه اللحظة لا تكترث خاصة عندما قفز لمقعده وابتسم لها في مرآته الأمامية:

- أنا آسر.. وأنتِ!..

رفرفت بأهدابها وشفتها السفلى تكاد تتمزق بين أسنانها مع حمرة وجنتيها:

- أمل!..

للقدر صروفه..

لكن يظل على عاتقك أنت الخيار!..

***

ما فائدة الدنيا الواسعة، إذا كان حذاؤك ضيقًا!..

كلمة قرأها ذات مرة وطافت بذهنه وهو يغادر ما خلف الأسوار عابرًا الباب ووجهته حرية!..

روحه ظلت معلقة بأنشوطة الموت داخل جسده ولا يكترث لاتساع العالم..

يتنفس الهواء الذي لم يعبر القضبان فيحمل عبقها الصدئ قبل أن يصله..

يحبسه بصدره في شهيق عميق ثم يطلقه بزفرة بطيئة متمهلة متقطعة كنظرته الباهتة إلى شمس منتصف النهار..

نظرة بترتها خطوات أبيه وضمته..

ضمة عنيفة قاسية كادت تختلف فيها ضلوعه..

وتيبس جسده تمامًا!..

منذ عام ونصف لم يلمسه أحد، حتى أثناء بقائه بالمشفى رفض قربهم فلم يستجب لضمة ولو من أمه.. والآن..

الآن روحه تشعر بصقيع لا يفهمه..

صقيع أجبره على تباعد، هروب بالجوارح والبصر والنبرة الجامدة:

- عاوز سجاير..

راقبه ابن عمه الذي أتى بصحبة والده وابن العمة وعند أول محل بقالة توقف ليحضر له ما طلب..

دهشة وجهه لم تنل من اهتمام العائد ذرة، قدر صمت والده وتتبعه له بعينيه كأنما يعلم أن ابنه المدلل المثالي بات مدخنًا ولا يبالي!..

هناك في البيت وجد الاستقبال الحافل.. الدافئ، بل الحار المغموس بمشاعر العائلة التي يعلم أنهم في ظهره دومًا..

وكما فعل مع والده تصلب جسده بضمة والدته، خالته.. عمته وتقبل مصافحة زوج العمة بفتور..

بصره كان يبحث عنها..

الوردية التي لم تغادر عالمه ولو لثانية، بل حفرت وجودها فيه قسرًا!..

كانت غائبة عن الجمع..

هي وصغيرته!..

وتردد لسانه بين الصمت والسؤال حتى هدر فجأة بنبرة مكبوتة:

- أنا محتاج أرتاح.. هاطلع أوضتي..

لدهشته تفهم الكل ما يريد!..

حتى أمه مسحت دموعها وتعلقت بكفه:

- أوضتك كنت باهتم بيها بنفسي، هتلاقيها زي ما هي..

ابتسم ساخرًا وأغمض عينيه:

- مش هتفرق..

انقبض قلبها..

طفلها تغير.. لم يعد كمان كان وتدرك أنه لن يعود..

لكن نظرة القسوة بعينيه تخيفها، تبعث في جسدها قشعريرة رهبة من القادم.. وحتى صمته متجاهلًا السؤال عن ابنته وأمها يقلقها..

صعد أول درجة وعند الثانية أتاه النداء البريء:

- بابا..

تجمد بمكانه لحظات بعدها استدار ببطء، راقب ركضها إليه وطفلتهما بين ذراعيها حتى كادت تتعثر.. واجهته في وقفتها وابنته تكرر ببسمة نقية أزالت جزءًا من الغشاوة السوداء التي تظلل الأفق أمام بصره:

- بابا..

يدها الضئيلة الناعمة المكتنزة تمتد لوجهه الخشن، تداعبه.. تلامسه وتبتسم بموازاة بسمة أمها وتحت نظر العائلة:

- كانت بتشوف صورك كل يوم..

ثم قربتها منه في دعوة لحملها..

تردد!..

توتر!..

في النهاية خضع للسلام الذي منحته إياه لمستها لوجنته فحملها ووالدته تنظر إليه بحنو وازى قلق نظرة والده..

ضمها برفق وهو يشعر أن ظهره مصب لسهام نظرات كل من حضر لاستقباله.. بادر بسرعة وخطواته تتحرك:

- ممكن آخدها معايا فوق شوية!..

كادت "سما" تسأله عن رغبته في الاختفاء!..

كادت لكنها لم تفعل، ربما لأنها فهمت.. نظرته، ولغة جسده التي اعتادت قراءتها أخبرتها بالجواب دون حاجة لنطقه:

- أكيد.. لو عيطت...

بترت جملتها فانعقد حاجبيه، ابتسمت بعشق لم تنكره وأبدًا لن تفعل:

- لأ خلاص.. هي مش هتعيط، أكيد هتحس بالأمان معاك..

أهداها بسمة مبتسرة ماتت في مهدها حين الميلاد، صعد الدرج بهدوء يخشى أن يخيف صغيرته لو قفز درجاته!..

عندما فتح باب غرفته خيل إليه أنه قد عاد بالزمن..

ليس لعام ونصف فحسب.. بل لما يقرب من ثلاث سنوات مضت على رحيله حين زواجه، أغلق الباب من خلفه وابنته مستكينة بين ذراعيه لدرجة أدهشته.. وضعها فوق الفراش وجاورها يتأمل ملامحها التي تشبهه في كل يوم أكثر من سابقه..

ابتسم لها..

أجبر شفتيه على بسمة وضع بها كل ما بروحه من بقايا صفاء ونقاء تستحقه منه..

ناولها هاتفه فأمسكت به ضاحكة وذاك أقصى ما يمتلك.. فقلبه كان ينقبض بصدره متواريًا، حزينًا..

"جاهل أنا بدنياكِ صغيرتي.. جاهل وفقير"..

مد يده بلفافة تبغ لشفتيه وتوقفت القداحة قبل أن تمسها؛ لن ينفث دخانه في حضورها.. لن يؤذيها فيكفيه ما ناله هو من أذى..

ابتعد عن الفراش يفتح باب شرفته، يراقب من خلفه السماء الغائمة بسحب جافة لا تحمل فيها خير المطر كنفسه تمامًا..

نفسه التي جف ما فيها من حياة، من نور..

إلا نقطة!..

وسقط بصره على الناعمة الضئيلة التي تبعته بخطوات بريئة تتعلق ببنطاله، تمد يديها إليه رغبة في أن يحملها.. وتناديه:

- بابا..

انتفض قلبه..

انتفض وعاد ينبض..

انحنى يوازيها، يضمها، يتشممها وتغوص أنامله في خصلاتها التي تشبه في لونها حمرة شفق أمها..

ثم استقام وتباعد، تحرك إلى الباب ينادي أي عابر ووجدها تكاد تطرقه، ارتبكت لحظة فتغضن جبينه بفكرة سوداء..

هل تخشى عليها منه!..

نظرته القاتمة أجفلتها فازدردت لعابها بعسر وتحركت خطوة للداخل:

- أنا..

لم تتبدل قتامة عينيه.. بل مسَّها توحشًا أخافها فوجدت نفسها تختفي بغتة بين ذراعيه..

أو تضمه هي بأحضانها..

ركضت إليه تحيط عنقه ويدها تربت على كتفه ببطء:

- وحشتني..

تهديه عشقها وروحها وقربًا غير مسموح باختناق ارتجف له فكه.. وانقبضت يداه في محاولة للابتعاد عن ضمتها..

لكن دفئها هزم جليد قلبه..

امتدت يداه بحرمان ومشقة تحيطانها برفق لخمس ثوان فحسب.. بإثرها أبعدها ليقابله العشق الخالص بنظرتها وتضاعف خجلها وارتباكها..

ابتسامتها وفركها لأصابعها ثم تراجعها:

- أنا تحت...

- خديها..

لهجته الجامدة أثارت بنفسها حيرة:

- مش عاوزها معاك!..

التفت يتأمل اقتراب "شجن" منهما دون شعور واضح:

- كفاية كده.. عشان ماتخافش..

- مش هتخاف..

- خديها يا سما.. محتاج أشرب سيجارة..

صدمتها كبتتها بينما يخبرها مبررًا أجاد افتعاله..

لم تكن تعلم أنه بدأ تلك العادة ورغم تنائيه عنها فقد دارت حوله:

- أنت بتدخن!..

زفر بغضب تقافز بين حروفه المتهكمة:

- إيه!.. بوظت صورة الفارس المثالي!..

كادت تعترض..

كادت ولم تفعل كما حدث قبل دقائق..

فهذا الرجل ليس هو من عشقت..

تغير!..

ولا شيء.. لا أحد سيعود كما كان..

(٤٢)

عندما تكتفي بدور الممثل الصامت بفيلم هابط..

لا تعترض على المخرج..

لكن إن أردت زرع وجهة نظرك قسرًا وربما تغيير الحدث..

فعليك اختيار دور شرير الحكاية!..

للعشق مفاهيمه الخاصة جدًا..

مفاهيمه الوردية.. والواقعية، ونادرًا ما تجتمع الاثنتان بقلب أنثى.. لكنها تختلف!..

من زاوية كل عاشق تغدو الأرواح كأنما هي شقين لواحدة توزعت في غير عدل بين جسدين..

كانت تراه نصفها..

بل تتمناه كذلك..

بحالمية فتاة اقتحم وحده قلبها واستحوذ على جميع غرفاته، وبواقعية امرأة تريد أن تكون امرأته دون غيره؛ لكنها تدرك وعن يقين أن من رأته يوم أمس ليس هو من نثر على مسامعها أجمل اعتراف بالعشق..

تتذكر شرودها بسيارتها في مواجهة مبنى السجن منذ الصباح الباكر.. قلبها يهفو لرؤيته، أفكارها تحوم حوله وتطوف في مداره..

وعقلها يهديها شيئًا من خوف!..

نعم وبوعي كامل؛ من سيغادر هذه البوابات ليس هو من عبرها للداخل قبل عام ونيف..

لم تعلم عن ذاك العام الكثير لكنها استطاعت وبمساعدة محامي والدها تحديد يوم خروجه، قبعت بالسيارة ما يقرب من خمس ساعات حتى ظهر..

خطواته أشبه بحبو طفل خارج المهد، لا يزال يتعلم السير ثم يتعثر..

يرفع رأسه للسماء، يحجب شمسها بكفه ويتنفس كأنه عانى الاختناق طوال فترة مكوثه خلف القضبان.. يدور بعينيه نصف دورة لم تكتمل لأن والده واثنين معه اقتحما الصورة..

راقبت بمشاعر متناقضة كيف تشبثت به ذراعا أبيه..

لدقيقة أو يزيد.. تأملت جموده، إغماضة عينيه للحظات ثم تفرق جفنيه عن نظرة غامضة لا تفضي بأي شعور.. يداه اللتان لم تتحركا من وضع السكون في مواجهة العناق، وانعقاد حاجبيه الذي رسم قوسًا قاسيًا فوق نظرته..

لا تنكر أن خافقها ارتجف..

حينها تمسكت بمقود السيارة بكلتا كفيها، لم ترفع منظارها الشمسي عن عينيها تحافظ على دُجنة اللحظة..

تظن لو بات تأملها مباشرًا فسيستشعرها، يلتفت إليها.. ويراها!..

يرى تلصصها..

يرى رعشة قلبها وفقدانه لانتظام نبضاته..

يرى شوقها.. وحيرتها!..

كيف ستقترب وهو ينأى حتى عن ضمة الأقرب إليه!..

دقيقتين وكانت سيارتهم تحملهم بعيدًا.. ظلت حيث هي لثوان أخرى بإثرها رحلت..

منذ ذلك الحين وهي تائهة، شاردة.. لم تخرج من قوقعتها إلا مع اتصال صديقتها ودعوة لإفطار متأخر بمقهى قريب.. والأمر هام!.

أنهت قهوتها الثانية دون طعام بانتظارها، هل أتت باكرة أم أن الصديقة هي من تأخرت!..

رمقت ساعتها الرقمية التي تشير إلى الثانية عشر ظهرًا، عندما رفعت عينيها وجدتها تقبل عليها بوجه باسم وعين مبتهجة وإيحاء أشبه بفوزها بجائزة العمر، انحنت تقبل وجنتها بمرح:

- روما.. وحشاني جدا، الشغل واخدك مني طول الوقت..

ابتسمت وتأملتها بينما تستقر بمقعدها:

- معلش يا مولي.. أنا فضيت نفسي النهاردة عشانك أهو..

اقتربت صديقتها برأسها منها بهمس خبيث تبحث عن إضفاء جو من التشويق على كلماتها:

- والموضوع اللي عاوزاك فيه يستاهل..

ثم ضمت قبضتيها عند صدرها بحالمية ناعمة:

- أنا لقيت فارس أحلامي خلاص يا روما..

اعتدلت "غرام" بجلستها مندهشة:

- بجد!..

أومأت "أمل" بموافقة متحفزة:

- أيوة.. بجد جدا، واللقاء كان خيالي، أحلى من الأفلام الرومانسية..

تنهدت تتذكر ابتسامته وعينيه:

- خبطني بعربيته وكان هيكسر رجلي.. يومها شالني يا روما ودخلني العربية ووداني المستشفى وفضل معايا لحد ما اتطمن عليَّ وإن الموضوع بسيط..

وتحفزت نظرتها أكثر وعيناها تدوران في المكان بسعادة:

- بعدها وصلني لحد البيت.. وخد رقمي، ومن وقتها وهو مهتم بي وكل يوم يتصل يتطمن عليَّ..

رمقتها "غرام" باهتمام قلق وهي تتساءل عن مكمن المنطق فيما تحكيه:

- وبعدين!..

هزت كتفيها بغبطة كأن ما ستقوله بديهيًا:

- اتقابلنا تلات مرات لحد دلوقتِ؛ بس حاسة إنه هيطلب إيدي قريب..

لم تشعر الصديقة بالراحة فاستقامت بمقعدها قليلًا:

- أمل.. أنتِ واثقة فيه للدرجة دي إزاي وأنتِ ماتعرفيش عنه حاجة!..

استنكرت "أمل" السؤال والاحتجاج بغيظ:

- مين قال ما أعرفش عنه حاجة!..

وعددت على أصابعها بشرود وأفكارها تطير إليه:

- اسمه آسر وزي القمر، ساكن في التجمع.. عربيته چاجوار نبيتي.. خريج ألسن وبيشتغل مترجم في دار نشر..

عقدت "غرام" حاجبيها باستغراب:

- مترجم وراكب چاجوار!..

أشاحت "أمل" بيدها في تبرير:

- لا لا.. ما هو أصلا عيلته غنية جدًا..

عقدت صديقتها ذراعيها فوق الطاولة بعناد:

- وهو من عيلة مين بقى!..

توترت "أمل" لحظات وقتما أدركت أنها لم تسأله عن لقبه.. وهو لم يقُله!..

فركت أصابعها بارتباك:

- ما سألتوش..

وعادت لتحفزها بفكرة بسيطة:

- لما نتقابل يوم الجمعة هاسأله..

- أمل!..

كانت تعلم أن وقت إيقاف رعونتها قد حان، بحزم أخبرتها:

- ماتقابليهوش..

مطت الحالمة شفتيها بضيق حائر:

- ليه بقى!..

ربتت على كفها برفق حانٍ، لا تريد المكابرة:

- لو بيحبك هيدخل البيت من بابه زي ما بيقولوا، إنما مقابلات عمال على بطال كده...

- ما هو لازم نتعرف يا غرام، أمال هيتجوزني ليه!..

تراجعت "غرام" بظهرها تستدعي الصبر وتتجاهل مقاطعتها:

- عشان كده في حاجة اسمها خطوبة..

- بس..

- ما بسش..

- طيب وميعاد الجمعة!.. كنا هندخل سينما ونتعشى بعد الفيلم..

- الغيه..

بحسم قاطع تخشى ألا تستجيب إليه؛ لكنها لا تملك غيره..

بعدها غامت أفكارها بذكرى حضوره..

ذكرى عرض زواجه، رفضها، جرحها وجرحه.. ونهاية اختارتها بالعقل رغم اعتراض القلب..

ثم حقيقة واحدة..

الزمن لا يعود إلى الوراء!..

***

هو يجيد لعبة الشطرنج حد الاحتراف..

يتقن قوانينها ويفوز فيها بلا جهد كبير، يحرك البيادق، ينقل القلاع وقطعته المفضلة كانت الجواد..

ربما لأنه ظن نفسه فارسًا!..

كان أيضًا يكره الملك.. آخر القطع سقوطًا وفي سبيل الحفاظ عليه يجوز التضحية بكل شيء، يباح تقديم قرابين الضعفاء ليعيش الأقوى.. ليستمر..

الآن يبدو أن إجادته تلك ستكون في صالحه.. فاللعبة هذه المرة لن تتضمن انتصاره وحسب؛ بل وصوله لغايته مطبقًا المبدأ الأشهر في تبرير كل وسيلة..

هاتفه صديق ما خلف القضبان.. اتفقا على موعد ولقاء رآه مثيرًا للريبة..

أعلى هضبة المقطم بسيارته!..

جلس الاثنان مستندين لمقدمة السيارة، "حاتم" ينفث دخانه بصمت والشارد يحبسه بصدره للحظات قبل أن يعيده إليه عبر لفافة تبغه..

رمقه بنظرة جانبية ومط شفتيه:

- أنت جاي تسمعني جمال سكوتك!.. في إيه يا حاتم!..

ابتسم الصامت يغيظه، نفخ الهواء المعبق بالتبغ بوجهه واعتدل بعض الشيء:

- طيب مافيش عامل إيه!.. إزيك!.. وحشتني!..

التوى جانب فم "مروان" بتهكم مستخف:

- وحشتني!.. ليه أنت مراتي وأنا ماعرفش..

تظاهر الآخر بالخجل والمرح العابث:

- يوه يا سي مروان، ماتكسفنيش بقى..

وانطلق يقهقه كأنما راقت له دعابته السمجة تحت بصر الحانق بعقدة جبين لم تعد تنفك:

- اخلص يابني..

تبسم "حاتم" بتفكه:

- بقيت بتاع مصلحتك يا مستر دارسي!..

جوابه كان الصمت البارد، مد يده بجيب سترته الجلدية والتقط منه شيئًا ضئيلًا رفعه قبالة عينيه صديقه باهتمام:

- الهدية..

ذاكرة هاتف صغيرة!..

- إيه ده!..

- تمنك يا صاحبي..

تغضن جبين "مروان" أكثر فأكثر ويسراه تشكل قبضة قاسية:

- مش فاهم!..

وضع "حاتم" الذاكرة بيده وأشار إليها بسلاسة:

- التمن اللي باعك بيه عز الدين ضرغام.. صاحب عمرك..

انضغط فكاه بمباغتة ويده تنغلق بغلظة حول الذاكرة الصغيرة بينما يكمل الصديق:

- فيديو من اللي قلبك يحبهم، بس نصيحة.. اتفرج عليه لوحدك؛ مش عاوزين فضايح..

لم يكترث "مروان" بنصيحة لا يستوعب سببها، أخرج هاتفه وفي ثوان حشر الذاكرة بالفتحة الخاصة بها والمجاور له يراقبه بدهشة مستمتعة:

- هتودينا في داهية والله..

مع كلماته تضاعف الفضول..

وفي الدقائق التالية أُشبع!..

تجمدت عينا المثالي على شاشته التي تعرض مقطعًا ليس بالقصير لمن كان في يوم أصدق الأصدقاء..

مقطعًا إباحيًا..

هو وعاهرة وعري..

والثمن!..

مستقبله!..

حياته!..

لم يطرف جفناه، لم تتحرك مقلتاه حتى انتهى عرض المقطع ..أظلمت الشاشة، وعقبها أظلمت نظرته لحد مخيف..

لحد اعتدل له الجالس بمواجهته يناديه برفق:

- مروان!..

- أنت جبت الفيديو ده إزاي!..

رفع "حاتم" حاجبًا مستنكرًا:

- ما تسألش Hacker بيعمل شغله إزاي!..

وأشعل لفافة أخرى مد يده بها إليه فتناولها بآلية:

- الفيديو ده هددوه بيه، أنت أو مستقبله ويطلعوه من الخارجية بفضيحة..

ثم تنهد وجمدت نبرته كقطعة من ثلج:

- الفيديو معاك، دفعه التمن..

لم يجبه..

ظل على صمته والمشاهد تعاد بذهنه..

الكثير والكثير مما كان يجهله.. ومما يريد فعله!..

يود لو يقتله، يمحيه من فوق الأرض.. يدفنه بباطنها؛ ثم يرى أن في الموت راحة.. أن عذابه يستحق حياة طويلة يتجرع خلالها كؤوس الندم.. والخسارة!..

وحدها الخسارة قد تهدئ بعضًا من السعير الذي يتقلب على جمره.. الذي تتلظى فوق لهيبه روحه..

مرت ربع ساعة سأل إثرها صديقه بلهجة خالية من كل انفعال ممكن:

- الباشا بتاعك يقدر يوفر لي سلاح!..

اعتدل "حاتم" وعيناه تظهران الاكتراث:

- ناوي على إيه!..

قفز إلى الأرض بخطوة واحدة وأشار إليه ليتبعه:

- ناوي آخد حقي..

هو قرر أن يكون الملك فوق رقعة الشطرنج..

ولا عزاء للبيادق التي سيسقطها في سبيل عرش مُلكه..

***

أن تحترق روحك تلك نقرة.. وأن تُبعث من الرماد فهاته نقرة أخرى..

روحه الآن كانت تنتفض..

الطير الذبيح لايزال ينزف، الجرح عميق وقاتل.. لكنه يقاوم للنجاة، يتشبث بالحياة، يريدها وسينالها!..

"مروان!"..

أوقف صعوده لغرفته نداء أبيه القلق..

منذ عاد للمنزل لم يجتمعا سويًا، يتهرب الابن من الأب، ويتوتر الأب في حضور الابن.. أسبوع مر والنتيجة الحتمية تتطلب مواجهة، استدار لوالده بتساؤل غير منطوق رأى فيه الرفض، تنهد ببطء وخرجت نبرته هادئة:

- محتاج أتكلم معاك..

تبع خطواته لمكتبه وأغلق الباب من خلفه.. وقف بثبات يواجهه.. كعادته منذ نال حريته التي تحجبها عن قلبه أسوأ ذكرى وندبة باقية لا تزول..

لا انفعال.. لا شعور.. لا اقتراب حقيقي منه أو حتى من والدته الممزقة روحها خوفًا عليه..

أشار إليه ليجلس فتجاهل الإشارة وظل على صمته، أمره أبيه بحسم:

- اقعد يا مروان.. بيننا كلام كتير..

زفر بضيق؛ وذاك انفعال مبشر حتى وإن كان مختنقًا حارقًا، تحرك نحو أريكة الغرفة واستقر فوقها بجمود.. جاوره "أدهم" وبادر بطرح ما يريد دون تأخير:

- أنا عاوزك تمسك مكان ملك في المجموعة..

لاحظ تصلب نظرته.. تلاه الاشتعال، زمة الشفاه ثم الالتواء الساخر:

- ولما ملك ترجع!.. أشتغل المساعد بتاعها!..

رفع والده رأسه بتقرير حازم:

- لما ترجع مش هتبقى فاضية للشغل مع وجود ابنها..

تهكم الابن بنبرة كالعلقم:

- وده هياخد كام سنة ويبقى من حقها ترجع لمكانها!.. سنتين رضاعة!..

تماسك الأب بعسر..

يدرك ما يعتمل بنفس ابنه، يخشى عليه.. ويفطن إلى أن طريقه طويل مليء بالعثرات كي يصل إلى دواخله..

هذا إن منحه الفرصة وفتح له الباب.. تنهد باهتمام وشاب نبرته عاطفة رغمًا عنه:

- لما ملك تحب ترجع هتكون أنت عرفت طريقة شغلنا وبقى لك مكانك الخاص..

استقام "مروان" برفض باتر:

- آسف.. ما بفهمش في شغلكم..

وازاه "أدهم" بصرامة حادة:

- تتعلم..

بدأ صراع بين أعينهما ختمه هو بقوله الفصل:

- أنا اتعلمت بما فيه الكفاية، دلوقتِ المفروض مرحلة التطبيق..

ودار على عقبيه يغادره مع كل خوف مباح..

يراقبه والده بنظرة حائرة، قلبه يدفعه للين وعقله يأمر بالحزم.. حيرة أجبره عليها شعورًا بالذنب لايزال يسيطر على جوارحه..

شعورًا لن يستأصله من ضميره نسيان..

والابن رحل عنه، يقفز الدرج بخطوات أشبه بالمرور على صراط أعلى الجحيم.. نيران ضياعه تحرقه لكنه عبورًا جبريًا لا بديل عنه..

صفق باب غرفته من ورائه وامتدت يده تشعل لفافة تبغ نفثها بهوس.. يده الأخرى تعبث في هاتفه بحثًا عن مقطع ما كان ثمن خيانته..

وبتر البحث رسالتها..

مقطع مختلف تزيل به شيئًا من غشاوة تظلل كل ما يصل إليه بصره بحلكة قاتمة..

مقطع مدته دقيقة لطفلته تركب قطع أحجية تناسب سنها، تضحك وتشاكس أمها.. ثم تلوح للكاميرا ببسمة واسعة وتناديه..

"بابا"..

"جوجو شطورة"..

تنطقها بأحرف طفولية اقتحمت قلبه قبل سمعه خاصة مع وصول رسالة والدتها المكتوبة:

"جوجو بتسأل على بابا!.. وحشتها"..

هل يمكن لنقطة نور ضئيلة واهنة، هزيمة عتمة تحتل وتستحل كل ما يحيط به!.. هل تحلو مياه البحر المالحة بقطرة من نهر عذب!..

الجواب أتاه من عقله، ورغبة سوداء في استرداد شيء من حقه باقتضاب..

لا..

***

عاد لجفائه!..

كأن قربًا لم يكن.. كأن أمانًا لم يمنح.. كأن همسًا باسمها لم يعبر شفتيه، همسًا دافئًا بات سجين الصمت..

وفي ظل هدوء ما يشوب حياة العائلة بعد تحرر ابن العم ونجاح عملية الأخ الأكبر؛ كان قلبها يتحرك نحوه.. يجبرها على البحث عنه، على الاهتمام بتفاصيله..

على رؤية ما لم تره من قبل حتى لون عينيه الذي يقترب من احتراق أشعة الشمس في ضوء نهارها.. لمعة مقلتيه عندما يحدث اللقاء بين النظرات والهروب بعد اللحظة الأولى..

هروبًا بعد اشتياق.. بعد تصريح، ثم يطل خوف مبهم لا تفهمه ولا تدرك مغزاه..

ويبتعد..

اليوم أيضًا أثار جنونها.. بغيرة!..

في موقع الإنشاء الخاص بأحد تصاميمها وجدها تتناقش مع المهندس المسؤول عن عدة تعديلات.. وتبتسم!..

ويبدو أن الكارثة كانت في ابتسامتها الودود أثناء حديثها معه..

اقتحم مكان وقوفهما، تدخل بعنجهية.. عدَّل على قياساتها وأمر بحزم.. أظهرها بمظهر الجاهلة المبتدئة رغم خبرة أكثر من عام ونصف مضيا وفي النهاية رمقها شذرًا وأنبَّها بكلمة موجعة:

- ده مكان شغل يا باشمهندسة..

حينها تابعت خطوات رحيله التي تكاد تخترق الأرض بغضب..

بل بهياج..

والآن وبعد مغادرة الجميع حان وقت المواجهة.. هذه معركة أخيرة: فإما النصر.. وإما النهاية!..

وقفت تراقبه عند باب مكتبه، لم تأتِ بصوت أو حركة وفي المقابل رفع هو وجهه كأنما أحس بحضورها..

رأت تغضن جبينه، تقطيبته تتضاعف، ضيقه يعلن نفسه سافرًا جليًا على ملامحه، تحركت للداخل تعقد ذراعيها وقررت البتر:

- ممكن أفهم في إيه!..

نبرته الباردة أكدت لها أنها على حق..

أن الخيار في هذه اللحظة حتمي:

- مش فاهم يا باشمهندسة!..

تقدمت أكثر حتى ارتكنت لمكتبه بكفيها بشبه انحناء تجابه عينيه:

- لأ.. فاهم يا عمر..

اسمه المجرد بنعومة صوتها ارتجف له فكه.. ولمحت الرجفة فمالت أكثر:

- إيه اللعبة اللي بتلعبها معايا!..

كأن قربها يشعل في نفسه حريقًا.. تباعد بنهوض حاد عقدت له حاجبيها، فتح نافذته التي كانت مُشرعة وتنفس بعمق بإثره استدار إليها:

- واضح إنك فاهماني غلط..

وأكسب لهجته رداء الرسمية الجاد:

- إحنا حدود علاقتنا شغل وبس، فكلمة لعبة اللي لتاني مرة بتستخدميها أنا مش فاهم إيه الداعي لها!..

وجدها تقترب.. بثبات أوجف قلبه حتى حدث اللقاء.. بينهما خطوتين وحسب، وبين أعينهما سعير طال فؤاده باحتدامه:

- شغل!..

أمالت رأسها بتفكير بينما تقضم شفتها في حركة فتنته بالكلية:

- إمممم.. خليني أفكر كده..

لم تترك حصار بصره بل ظلت تعانده بالنظر:

- مهتم بيَّ، بزعلي وبتطمن عليَّ حتى لو ده هيتعبك..

أخذت نحوه خطوة أخرى فبات الفاصل ضئيلًا يوازي جرأتها وغضبها:

- تاني يوم بتتحول لحاجة مش لاقية لها وصف..

وابتسمت من بين أسنانها تختم قرائنها الصغيرة:

- والنهاردة، كنت غيران عليَّ لدرجة أنك غلطت فيَّ قدام مهندس من مهندسين الشركة وبطريقة ما تنفعش..

راقبت اندفاع الهواء إلى صدره بخشونة، ارتفاعه بشبه زفرة حارة وظهره الذي غيَّب صدق عينيه عنها:

- كل دي أوهام.. الأفضل نركز في شغلنا يا باشمهندسة..

- لأ..

أجبرته على العودة إليها باستنكار:

- لأ!..

عقدت ذراعيها فوق صدرها بحسم:

- أيوة لأ.. دلوقتِ هنحط النقط على الحروف، يا نبتدي الحدوتة..

وصمتت فترقب استطرداتها بقلب نابض:

- يا ننهيها قبل ما تبدأ..

كان الحل في سخرية.. إيذاء ربما، رغبة منه لإبعادها رغم تشبث كل ما فيه بها:

- الله.. وكمان بقى في بينا حدوتة!..

أصاب منها رعشة فأدرك أنه على طريق الصواب:

- مش شايفة يا باشمهندسة إنك مدية الأمور أكبر من حجمها!..

وأردف يميل هو هذه المرة حتى كاد يوازيها طولًا:

- اهتمام الزمالة ده مش معناه قصة رومانسية مستخبية بين السطور، ده واجب على رجولتي مضطر أعمله..

تراجعت خطوتها السابقة وهو يكمل بصرامة فظة:

- موقف النهاردة مش غيرة؛ ده مراعاة لاسم الحسيني والأنصاري.. لأن ما يصحش المرقعة اللي شفتها دي والضحك اللي مالوش داعي في موقع شغل..

- أنت اتجننت!..

- الزمي حدودك يا باشمهندسة..

اقتربت خطوتها مجددًا باندفاع ساخط واشتعال عينيها يأسره:

- لأ.. أنت اللي تلزم حدودك يا باشمهندس.. وهاعيد تاني، اللعبة بتاعتك ما تلزمنيش..

- مافيش ألعاب، دي أوهامك..

- أوهامي!..

لم يجبها فأردفت باقتناع تام:

- بتقرب وتبعد، تاني يوم ترجع تقرب وتهتم.. بعدين تغضب وتبعد!.. ده تسميه إيه!..

- وهم..

- ماتكذبش..

- العلاقة شغل وبس يا باشمهندسة..

- ده اللي بتضحك بيه على نفسك!..

- خدي بالك من كلامك..

- خد بالك أنت من تصرفاتك واحسب خطواتك صح..

- أنا مش مسؤول عن القصة اللي ألفتيها في خيالك..

- تمام.. يبقى تبعد عن طريقي نهائي..

أخذته على حين غرة..

ولا ينكر أن القرار ذبحه، والذبح نفض قلبه وروحه عافرت وجاهدت لتصطنع جمود الرد الذي قسرًا خرج أبحًا:

- أنا مش في طريقك..

- تقدر تروح دلوقتِ أنا هاقعد شوية..

هل تلوي ذراعه!..

تسحب منه بساط القرب والاطمئنان عليها فقط لأنه ماذا!..

خائف!..

- ده مكان شغلي، أفضل فيه زي ما أنا عاوز..

ابتسمت بسخرية رآها إهانة لما بقلبه تجاهها:

- أوك.. هامشي أنا، وياريت ما تجيش ورايا..

أشارت بإصبعها في تهكم:

- عشان تطمن عليَّ..

- هاجي طبعا..

- أنت مالكش حق..

- ليَّ كل حق!..

وأتت لحظة النهاية التي تنتظرها..

البتر أو البداية..

- اللي هو إيه ده!..

تهكم، تسخر.. تلتف حوله بأنشوطة الغضب والتعلق:

- مالكش أي حقوق يا باشمهندس..

واستدارت..

تتمنى أن يوقفها..

تخشى أن يتابع رحيلها في صمت..

جسدها يرتجف في انتظاره وهو لم يتأخر بل هدر بزعيق أجفلها:

- صبا..

توقفت دون استدارة فدار هو ليواجهها:

- ليَّ كل حق..

أهدته نظرة باردة أجبرته على اقتراب تخطى به حدودها ولم تبتعد كأنما هي حرب، النصر فيها للأكثر ثباتًا:

- أنا بحبك..

نالت النصر!..

نصرًا بريقه انطفأ مع ابتعاده المباغت وكلماته الأخيرة:

- بس ما ينفعش نكون لبعض..

وتلك كانت حربه هو الخاصة..

حربه التي لا تدري عنها شيئًا سوى أنها شطرت قلبها لنصفين فتهاوى نازفًا عند قدميه..

***

مختلف كما ظنت والآن باتت تؤمن..

فرجل غيره كان سيصطحبها لمشاهدة فيلم رومانسي لن يخلو من قبلة هنا وفراش هناك، ولو كان ذئبًا كما تظن صديقتها فلن ترى تتر النهاية دون أن ينال منها ما لا يباح..

لكنه مختلف..

فارس أحلامها اختار ركنًا عاليًا من قاعة العرض، الحضور قليل نوعًا، والحدث.. فيلم رعب!..

جاورته بضحكة خافتة وعلبة ضخمة من حبوب الذرة بين يديها:

- على فكرة ما باخافش..

أهداها نظرة جانبية لم تلمح عبثها في ظلمة الصالة:

- هنشوف!..

حركت العلبة قربه فتناول منها بضع حبات بتلذذ والفيلم يبدأ:

- كنت فاكراك هتدخلنا فيلم رومانسي!..

حك ذقنه بمكر وأفكاره تعود للحظة التي قرر فيها اختيار فيلم رعب جديد أغرق مواقع التواصل بأخباره.. الرومانسية لم تكن يومًا طريقه، فما من محفز أكبر لينال ما يشتهي سوى.. الأدرينالين!..

الإثارة..

الخوف..

وربما الانتفاضة والقرب.. وما يلي القرب!..

فكرة شاهدها في فيلم قديم والتطبيق مع الساحرة السمراء يبدو مناسبًا للغاية، ابتسم واسترخى في جلسته قدر ما استطاع:

- لأ.. ماليش فيها..

كأنما أصابها إحباط مباغت؛ اعتدلت تلف جسدها تجاهه في التواء ساخط:

- بجد!..

همس بإشارة هادئة:

- ششششش.. الفيلم بدأ..

هو على حق، فبعد ربع ساعة فقط كانت يدها تقبض على كفه، وليهديها طمأنة احتواها بين يديه..

ربع ساعة أخرى وكانت تنكمش قربه ورأسها تكاد تندفن في كتفه فأفسح لها لتستقر فوق صدره..

ثم ثلاثون دقيقة عند انتصاف الفيلم كان يشغل ذهنها عن الرعب والدماء التي تغرق الشاشة بهمس مشاغب..

وقبلة مسروقة من وجنتها أخجلتها.. هربت بعدها مبتعدة عن ضمته قبل أن تعود إليه بعد دقيقة واحدة..

لم يتمادَ أكثر، لقد أدرك تفاصيلها عند اللقاء الأول وأيقن منها في الثاني..

انتهى العرض وأظلمت الشاشة، ظل جسدها متجمدًا في مقعدها وهو يفرك كفيها بخبث:

- إيه يا وحش!.. أمال فين ما باخافش بتاعة قبل الفيلم!..

ضربت كتفه بحنق عفوي:

- مش للدرجة دي.. دم كتير قوي..

قهقه بمرح سحر قلبها أكثر فتأملته ببسمة حالمة اقتنصها هو فغمزها:

- طب والبوسة!..

اشتعلت وجنتاها ونهضت تشير إليه بسبابتها في توبيخ:

- ما تعملش كده تاني!..

واجهها ويده تقبض على إصبعها المشهر بوجهه:

- طيب بذمتك مش شغلت بالك عن الخوف!..

وبنظرة خاطفة للمكان حوله تأكد من خلوه، جذب يدها يلثم أنملتها ببطء:

- البوس بيفيد والله..

سحبت كفها منه بدهشة والخجل يغمرها، ركضت تغادر بشبه هروب:

- وقح..

لكنها لم تفلح فقبضته تحكمت بها لترتد إلى صدره ويده تحاوط خصرها:

- وسافل كمان..

شعر برجفتها حينما نهرته بارتباك:

- آسر..

حررها ببسمة هادئة ورفع كفيه كأنما يطمئنها:

- بريء أهو..

شعرت بالحنق، زمت شفتيها وضربت قدمه بكعب حذائها فتأوه راكضًا خلفها:

- يابنت الـ...

كانت تضحك وخطواتها تهرول حتى وصلت لسيارته بالمرآب الضخم، استكانت جوارها تنتظره وأتى هو بتلكؤ مغيظ..

فاجأها باحتجازبين جسده والسيارة لم تستطع التملص منه:

- أنت قد اللي عملتيه فوق ده!..

تدللت بعناد طفولي:

- عشان أنت بتقل أدبك..

رفع حاجبًا خبيثًا وابتسم بعبث متظاهرًا بالصدمة:

- أنا!.. أنا مسكين ..

رمقته بنصف عين؛ فوضع قبضته عند قلبه بقسم:

- والله مسكين جدا جدا.. جدا..

دفعته برفق وغيرت الموضوع عندما انفلتت تدور حول السيارة بفرار ناعم:

- هتعشيني فين!..

جاراها وفتح لها الباب بانحناءة مسرحية:

- المكان اللي تختاريه..

لكنها تذكرت بغتة ما حادثت صديقتها بشأنه وتجاهلت معظمه بينما هو يدير المحرك، أمسكت بكفه فنظر إليها بتساؤل توترت حين جوابه:

- أنا ماعرفش أنت اسمك آسر إيه!..

افتعل الحزن وهز رأسه بأسى:

- ما أنتِ لو مهتمة هتعرفي يا آنسة أمل الجبيلي..

تمسكت بكفه بعد ربتة نادمة:

- ماتزعلش..

وجدت يدها قرب شفتيه بغتة في استعداد لقبلة:

- الحسيني يا ستي.. آسر الحسيني..

استشعر رعشة كفها حال لمسته فنظر إليها مستغربًا، تلعثمت لثوان والاسم يطرق باب الذكرى..

وليست ذكراها هي..

- تعرف واحد اسمه مروان الحسيني!..

- اشمعنى!..

بادر بغموض لم تفهمه، أعادت خصلاتها الطويلة خلف أذنها بارتباك:

- كان معيد عندي في الكلية وبعد كده.. بعد كده..

حرر يدها وأكمل عنها:

- اتسجن بتهمة قتل خطأ..

قابلت عينيه بتوجس تحول لانتفاضة غير ملحوظة بين ضلوعها عندما تمم هو ببساطة:

- مروان يبقى ابن عمي..

القدر يمنحنا طرف خيط البداية، ثم يترك لنا حرية جذبه..

يبيح لنا رسم النهاية، ومن حيث تقف؛ ترى القادم كسراب!..

***

ربما البداية لم تكن من اختياره؛ لكن النهاية لن تكون إلا بيديه..

قراره وحده..

مكالمة قصيرة من صديقه أخبرته بأن المراد قد تم وطلبه في انتظاره، قطع الطريق بنهم حتى مكان اللقاء المنشود وهناك ربض في ترقب..

أفكاره في حرب..

مشاعره في ساحتها كانت الضحية..

والعقاب أصبح الغنيمة..

هو دهس قلبه ليصل، ولا مانع من الاستجابة لشيطانه الذي يستحق السيادة في هذه اللحظة..

لاحظ اقتراب الرجل الذي ينتظره منه.. التفاتته خلفه كأنما يتيقن من خلو المكان عن المتلصصين، ثم إشارة من كشافات سيارته جعلته يخطو إليها، يحتل المقعد المجاور له بموازة سؤاله المختصر:

- جبت الأمانة!..

لهث الرجل بجشع زائد مع مرآه للسيارة الفخمة الداكنة وصاحبها الغامض، يتطلع لجانب وجهه في ظلمة المكان محاولًا تبين ملامحه التي يرفع ياقة معطفه لتخفي نصفها:

- أمال إيه يا باشا!.. ده أنت متوصي عليك من الغالي..

- إخلص..

ازدرد الملثم لعابه..

هو في أرضه الملك، لكن في أرض يحكمها المال لا يزال يحبو ليناله..

مد يده إليه بحقيبة صغيرة فتحها الآخر بسرعة يتأمل ما طلبه قابع بداخلها في سكون:

- حتة ٩ مللي زي ما الباشا وصى، نص آلي خمستاشر طلقة من غير أرقام..

والغامض أمسك بالسلاح من حقيبته، أخرج خزانته يتفحصها بتدقيق، أعادها لمكانها بحركة واحدة ثم جذب مشطه وتركه يرتد بحدة.. أمال ساعده الأيسر وارتكن إليه بيده اليمنى في وضع تصويب كأنما يخوض في عقله معركة وهمية..

أنهى الفحص وأخبر المجاور له بحزم:

- في التابلوه اللي قدامك ظرف، خده وانزل..

بلهفة سحب الرجل المظروف وفتحه بعينين تبرقان بالشهوة..

شهوة حقيقية واضحة للمال وكل ما يمكن أن يزيده في خزينته.. وسال لعابه بدهشة:

- يا بيه ده كتير قوي..

أدار محرك السيارة كأنما يطرده بيسر، بل باقتضاب معتم ككهف بسفح جبل لا قرار له:

- انزل..

تأمله لحظة ثم أطاع بعدما ترك له كيسًا أسودًا ملفوفًا حول شيء مبهم:

- دول علبتين ذخيرة، هدية مني..

تسابقت خطواته خارج السيارة..

هذا الرجل صموت، قاتم ومخيف.. لم يعلم عنه سوى ما أخبره به صديقه القديم، وما طلبه منه..

أن يلبي رغبته ولو فداها عنقه.. وحسب!..

والقاتم عاد لمنزله، ألقى بتحية فاترة على أمه التي استقبلته بوجه متعب وعين تتوق للتشبع من رؤياه ثم اختفى بغرفته، أخرج السلاح وأعاد فحصه بابتسامة وحشية..

فتدريبات الرماية التي أضاع فيها سنتين من عمره لن تذهب هباءً!..

الآن حان وقت استغلال ثمارها..

أغلق الحقيبة وترك مسدسه بخزينة ممتلئة جوار الفراش، خلع ثيابه ووقف بجسد مشتعل أسفل الماء البارد..

كانت القطرات تكاد تخترق جلده كرصاص قاتل في هذا الطقس الثلجي ولم يكترث.. ذهنه يرسم الخطة، عيناه مثبتتان على المجهول، وشروده يتمم الحكاية باقتناع تام فالتنفيذ اقترب!..

أنهى حمامه ولف منشفة حول خصره..

خرج ليراها.. ترتجف وبصرها لا يبتعد عن السلاح الذي ابتاعه للتو!..

أدارت وجهها إليه وقبل أي سؤال أو اعتراض أو حتى إعلان الغضب سقطت بنظراتها عند أثر ندبته الطويلة بصدره..

ندبة تخبر بوضوح عن ذكرى لن يمحوها زمان أو يقربها نسيان..

رأى اتجاه عينيها وصمت.. راقب اقترابها بجمود كالصقيع، وتحدى أناملها التي امتدت إليه أن تلمسه..

كان يرفضها..

يرفض اهتمامها، احتوائها وقربها..

وهي قبلت التحدي بلمسة خافتة أجفلت قبل أن تمسَّه عندما قبض على يدها وأبعدها عنه بدفعة غليظة من يده:

- مروان!..

تخطاها نحو خزانة ثيابه يفتش عن شيء يرتديه:

- خير يا ماما!..

تجاهلت جموده وجليدية صوته ثم ابتعدت بوجهها عندما أسقط منشفته وبدأ في ارتداء سرواله أمامها بلا اكتراث:

- وحشتني.. قلت آجي أخدك نتعشى سوا ونتكلم شوية مع بعض..

زفر بينما يمرر رأسه عبر قبة قميصه القطني البيتي، يتحرك ليلقي بجسده بين طيات فراشه ويده تجذب علبة التبغ كأنما لا يبالي بوجودها:

- لا معلش.. مش جعان، اتعشي أنتِ.. أنا هانام..

اقتربت تجلس إلى جواره، تطلع إليها بلا انفعال فمدت يدها تربت على كفه:

- ليه بتخوفني عليك!..

رمقها بنظرة افتعل بها الاستنكار الساخر:

- غلط.. دلوقتِ المفروض تطمني، يمكن مروان القديم كان يتخاف عليه..

ثم قست عيناه لحد أخافها وارتعد له قلب الأم بين ضلوعها:

- عوده أخضر..

اعتدل يواجهها بعدما نفث سحابته في وجهة بعيدة عنها:

- اللي قدامك دلوقتِ..

وحل محل القسوة ظلامًا بدَّل الرعدة بكيانها لهلع:

- يتخاف منه..

مال يسترخي ثانية، يلتقط المسدس ويعيد تفحصه تحت نظرها بلامبالاة:

- اتعلم درسه بأقسى طريقة، مات ورجع للحياة.. وناوي يعيشها بقوانينه هو..

تأملته بحسرة..

دموعها تراودها عن نفسها، وقوتها التي تقيم أود روحها هي آخر خيط لو انقطع ستنهار بين يديه، لا تعلم ما الذي ينبغي عليها فعله!..

والصمت لا يجدي..

الصمت ليس حلًا مطروحًا..

عليه أن يسترد نفسه وذاته وروح الفارس الذي كانه..

عليه أن يفعل وإن كان قهرًا..

زمت شفتيها ونبرتها تحتويه بحنانها:

- كلامك ده بيخوفني عليك أكتر!..

جذب مشط السلاح فارتد بعنف نفضها تحت نظرته المستخفة:

- ما بقاش في مكان للخوف..

- والمسدس ده هو اللي هيحسسك بالأمان!..

لم تسأله عن مصدره؛ فالجواب بعد ما مر به ليس عصيًا.. رمقها بشرود رغم فظاظة لهجته:

- أنا مش بادور على أمان في الوقت الحالي، أنا بادور على حقي..

صدمة وجهها وعينيها عقد لها حاجبيه بغضب هادر بعث في نفسها الخوف ويدها تتعلق به:

- يعني إيه!.. عاوز تنتقم!.. ومن مين!.. هتضيع نفسك يا مروان!..

وثب خارج الفراش بعيدًا عنها بحدة فكادت تسقط ويدها تسعى للتمسك بطيفه:

- مروان مش هيضيع يا أم مروان، ماتخافيش عليه..

وفكر للحظات هزت هي خلالها رأسها بوجع.. بحزن.. بقلق وتوجس ثم قرر:

- أنا هارجع شقتي..

نفضها مجددًا فاستقامت تتبعه، تضع يدها فوق صدره والثانية أصابعها تقبض على ساعده في وهن:

- عاوز تسيبني تاني؟.. عاوز تعيش لوحدك!..

ابتعد عن حنو لمستها وتشبثها بهياج أوجعها:

- ما أنا مش كل ما أتنفس أو أتحرك ألاقي في عيونكم صدمة أو خوف ولا حتى قلق..

صرخت في وجهه برعب أم:

- ده خوف عليك..

- أنا مش محتاج حد يخاف عليَّ..

بادلها صراخها بصراخ.. وخطوة واجه بها ضعف عينيها بقساوة عينيه وزعيق نبرته:

- مش عاوز حد يخاف عليَّ..

كبتت شهقتها بكفها وحيرتها تطفو إلى السطح؛ تراه لا يبالي.. لا يهتم، يتباعد عن الجميع حتى هي وابنته.. ولم تعد تعرف الخطوة الصحيحة معه.. هل تترك له حريته التي سُرقت منه، أم تجبره!..

وهل بإمكانها أن تجبره!..

حركت رأسها بتيه، ثم شدت جسدها في حسم تمنحه به ما يحتاج.. تمنحه به حرية القراروالتنفيذ مهما تعاظمت مخاوفها، وإن أهلكتها:

- ماشي يا مروان.. اعمل اللي يريحك..

توجهت خارجة من الغرفة بعد تنبيهه بما يتغافل عنه:

- وما تنساش تتصل بأختك تطمن عليها هي وابن عمك؛ دول جزء من مسؤوليتك ما تهربش منه..

أغلقت الباب وجمدت خلفه بشهقة مكتومة.. سمحت لعبراتها بمشاركة قلبها نزفه..

هي فقدت صغيرها وعليه أن يجد ما ضاع منه قبل أن تجده هي!..

بالداخل وبعد لفافة أخرى أحرقها وأحرق روحه وأفكاره معها كان يهاتفها، يستمع للرنين الذي لم يطُل، تلاه صوتها الذي اتقد بالبهجة ترحب به..

تعانق جفناه بتنهيدة وهمس لها بعد طول صمت:

- إزيك يا ملك!..

خيار أخير بدافع المشاعر..

وبعده يحين الدفن!..

***

أنا لا أقيم حقًا إلا في عينيك..

"غادة السمان"

في قلبه.. الوطن، فوق صدره.. السكن، وبين يديه الحلم.. والأمل..

أما في السماء الصافية ما خلف جفنيه.. فحرية..

حريتها كطير يهوى التحليق منحه هو بحق العشق جناحان ليعانق الشمس..

في العشق الأنانية مباحة، كما فعلها من ادعى عشقًا قد مضى..

كما أن في العشق الإيثار له أفضلية؛ مثلما قرر معشوقها ونفذ..

عمليته آتت ثمارها وحان الجني، سيبدأ علاجه الكيماوي خلال أيام بعد أن يسترد عافيته، استكانت في مقعد جواره تتأمل ملامحه الوسيمة حتى وإن طغى عليها التعب وعلامات المرض..

تتذكر لحظة استفاقته.. بصره الذي احتواها وجال حولها بطواف عاشق، حضور طبيبه وإجراءات التأكد من نجاح العملية بشكل كلي دون تأثير ضار على وظائف المخ والذاكرة..

حينها سأله باهتمام بينما يراجع معدلاته الحيوية:

- فاكر اسمك!..

- يوسف الحسيني..

- بتشتغل إيه!..

- جراح قلب..

- عايش فين يا يوسف!..

- مصر..

- متجوز!..

لحظتها أدار عينيه إليها فتاهت فيهما حد الغرق.. حد الغياب فيه وفي همسه الذي اختصها بعشق:

- عاشق..

اكتنف وجنتيها حمرة وردية فاتنة وأصابعها تتعلق بكفه فأطبق عليها بحنو..

لم يهتم بسؤال الطبيب، لم يكترث بوجوده فقط تابع معه العناية به حتى انتهى ثم استقبلها بين ذراعيه بهمس مشتاق:

- وحشتيني..

عقبها أخبرها بافتقاد تعجبت له:

- المرة دي كانت غيبوبة من غير أحلام، ما كنتيش بتزوريني..

ولثم رأسها مغمضًا عينيه براحة:

- فوحشتيني قوي..

أما اليوم بينما تتأمل ضعفه وتخشى عليه من ضعف أكبر؛ تعلم أن الأمل هو نديمها الوحيد معه.. ودونه هي ضائعة..

أفاقت من شرودها فيه على لمسة أنامله ليدها، ابتسمت بعشق واستقامت تجاوره بفراشه في جلستها:

- عامل إيه دلوقتِ!..

عانق أصابعها بأصابعه وجذب يدها قرب شفتيه:

- مادام أنتِ معايا أنا زي البمب..

جابت بأناملها تفاصيل ملامحه ويدها تضع كفه فوق بطنها:

- حمزة اتحرك لأول مرة النهاردة..

ابتسم وسعادته تحتل نظرته:

- بجد!..

أومأت موافقة وهمست تخبره:

- نادي له، سمعه صوتك يا بابا..

تحسس بطنها واستجاب بعاطفة:

- حمزة.. أنا بابا، وكنت عاوزك في موضوع كده بس بيني وبينك بعيد عن ماما..

تخصرت تشاكسه بمزاح:

- والله!..

توسعت بسمته فتحدثه بدلال تختصه به وحده:

- مافيش أسرار هتستخبى على ماما يا حضرة جراح القلوب..

- ولا حتى كلام الرجالة!..

مطت شفتيها بأمر حاسم:

- ولا حتى كلام الرجالة..

أعاد يدها لعناق يده باستجابة فورية:

- حاضريا فندم.. إحنا تحت أمر معاليك..

عادت لها بسمتها المحبة الحانية ومالت تحتوي وجنته بكفها.. تهمس له وشفتيها تلامسان شفتيه بتتابع ناعم:

- بحبَك..

العشق..

معجزة عالمها.. والمعشوق هو دنياها بأكملها..

***

إن لم تكن ذئبًا أكلتك الذئاب.. حقيقة..

وإن لم تكن وحشًا فربما عليك أن تتعلم كيف تكون واحدًا!..

تعلم بكل الطرق المتاحة، أتقن دروسك واستذكرها، احفظها.. وحين التطبيق العملي كن ضارية..

لا تتردد..

لا تتراجع..

لا تبِح لعاطفتك ظهور..

الصديق الغادر تزوج قبل عشرة أشهر، يسكن بشقة فخمة في حي راقٍ.. يمارس عمله ويعود منه لبيته بإخلاص واستقامة لا تليق بالفاجر الذي شاهد مقطعه الإباحي قبل أيام..

ظل واقفًا أمام بابه لثلاث دقائق..

يسبغ البرود على انفعالاته، يخطط، يفكر. ويقرع الجرس.. عندما واجهه صديقه القديم رفع رأسه بنظرة من أعماق الجحيم..

نظرة ارتعد لها كيان "عز" وهمسه يتحشرج باسمه في صدمة:

- مروان!..

تصلب جسده مكانه بينما يتخطاه العائد كشبح:

- أنت خرجت إمتى!..

لم يتحرك من وقفته.. يراقب من غدر به يخلع معطفه الأسود الثقيل، يلقيه على ظهر مقعد قريب.. يسترخي فوق أريكة كريمية فاتحة من اختيار زوجته.. يتمدد براحة ويشعل لفافة تبغ بأريحية كأنما زار المكان عشرات المرات:

- إيه ياعز!.. هتفضل واقف عندك ولا إيه!..

جموده لم يتأثر، ظل عليه حتى أمره "مراون" بحزم صارم:

- اقفل الباب وتعالى، بينا كلام كتير..

أخيرًا أعطى مخه الأمر لأطرافه فاستجابت بحركة كالموتى، أغلق الباب ووقف يواجه الجالس برجفة ملحوظة انتشى بها الشيطان القابع أسفل غلاف المثالية المتصدع..

انتشى واشتهى أكثر..

مد يده لحزامه وأخرج سلاحه الذي تراجع لمرآه "عز" خطوتين إلى الوراء بذعر يليق بجبنه، وضعه بضجيج منفر فوق طاولة زجاجية منخفضة وابتسم بشراسة:

- معلش يا عز.. تقيل في الحزام ومضايقني، قلت خليه هنا دلوقتِ..

تأمل وقفة صديقه المتيبسة بنظرة ساخرة:

- أنت عارف من أيام تدريبات الرماية ما مسكتش مسدس.. بس هنقول إيه!.. عادات السجن..

وتضاعف التهكم بنظرته عندما أخبره بإشارة مستخفة:

- كوباية شاي مغلي من ايدك بقى..

وصلته النبرة المختنقة بسؤال شابهُ دهشة:

- شاي!..

أنهى لفافة التبغ الأولى فدهسها بإصبعيه في مرمدة أنيقة قربه وأشعل الثانية:

- آه.. أصل قهوة السجن ماكانتش قد كده، اتعودت على الشاي.. قرنفل وسكر كتير الله يخليك يا عز..

التقط هاتفه من جيبه مراقبًا من رحل بتعثر تجاه المطبخ المفتوح بمواجهته يعد له ما أراد بخضوع مثير للشفقة.. بل الاشمئزاز:

- مبروك الجواز.. شقتك حلوة على فكرة، والصرف باين..

اعتدل في جلسته دون أن يبعد عينيه عنه:

- مراتك بتزور أمها خميس وجمعة مش كده!..

وتهكم بحركة من فمه:

- تؤ تؤ.. مش مسيطر يا عز..

- أنت بتراقبني!..

أتته مستاءة رغم اللعثمة.. رغم الخوف، قهقه هازئًا لها:

- كان بودي بس أنت مخلي حياتك مشاع على أكاونت الفيس، مراتي راحت مراتي جت..

ازدرد الخائن ريقه بمشقة واقترب يحمل قدح الشاي الساخن، اقترب ومن كان صديقه الصدوق قبل طعنة الظهر يعبث بهاتفه.. ويأتيه الصوت!..

صوت من ماضٍ ليس بالبعيد..

صوته هو وإحدى العاهرات التي سقط في براثنها بلحظة ضعف..

اندفع تجاهه بجنون:

- إيه ده!..

ترك له "مروان" الهاتف يشاهد العرض الخاص به:

- ده التمن اللي بعتني بيه، ماتقولش نسيت!..

- أنت جبت الفيديو ده إزاي؟!..

كاد ينقض عليه عندما واجهته فوهة السلاح..

ثم اندفاع مشطه بقوة ورصاصة تتوق للانطلاق والغوص بجسده، تيبس بمكانه حتى أتاه الخبر:

- مش مهم إزاي، المهم.. إن التمن الحقيقي لازم يتدفع..

برر بهلع وكيانه كله يرتعش:

- مروان دول قتلوا الراجل قدامنا.. كان لازم أخاف، صعب تقدر موقفي إلا لو اتحطيت فيه..

تأمله "مروان" بصمت غامض.. داكن لم يفهمه ثم أرخى يده قليلًا:

- أنت صح.. الخيانة والغدر دول ببلاش.. إنما الحق صعب، مش للي زيك..

- كانوا هيفضحوني، هيضيعوا مستقبلي ولو عاندت مش بعيد يقتلوني..

- يعني أنت تنام مع مومس وأنا أشيل الليلة!..

كانت وقحة تتخطى حدود مثالية من كان صديق العمر، تتخطى حدود مبادئه وأخلاقه التي رحلت برحيل روحه وإن عادت للجسد وعاد للقلب نبضه بعد سبع وستون ثانية:

- بس أداءك مش عاجبني يا عز.. أنت كنت مبلبع حاجة ولا إيه!..

لم يتخلَ عن سلاحه ويده الأخرى تتناول القدح المُعطر، يرتشف منه بتمهل متجاهلًا ذاك الذي يتصبب عرقًا في طقس كالزمهرير:

- ماكنتش أعرف إنك ليك في الصنف ده!..

تلذذ بمذاقه بأنَّة خافتة دون أن يرحمه من سياط عينيه:

- بس الواضح إني ماكنتش أعرف عنك حاجات كتير..

وتنهد مشيرًا إليه بالجلوس كأنما الآخر ضيفه لا العكس:

- عارف!.. قبل السجن كنت عايش دور المثالي وشايف نفسي فيه..

رشفة تالية وبصره يغرق في أيام قضاها سجين قضبان بلا جريرة جناها:

- في السجن جربت دور الفريسة..

وضع الكوب على الطاولة بعدما أنهاه، وامتدت أنامله بمرور متأنٍ فوق ندبته:

- ماعجبنيش بصراحة؛ طرطشة دم وعك.. مش لايق عليَّ..

- دم!..

سؤال آخر مختنق وجواب بسيط بانتباه متهكم:

- آه.. حكاية كده هابقى احكيها لك مرة تانية..

مال يربت على ركبته مستمتعًا بانتفاضته:

- ماهو أكيد هنتقابل تاني.. المهم المرة دي قررت أجرب دور..

وتوحشت عيناه.. أظلمت النظرة بعتمة يخشاها النور:

- الوحش..

انتقل التوحش لنبرته وأنامله تداعب الزناد في لحظة عبثية منتشيًا بكل مظاهر الرعب والهلع على ملامح من كان في يوم الصديق الأقرب وكاتم السر:

- الوحوش هم اللي يستحقوا الحياة..

في لحظة شجاعة مباغتة قرر "عز" المواجهة..

هو اختار بأنانية الواقع، ومثالية الفارس السابق لا تناسب الحدث..

نهض بغضب رافض متناسيًا خوفه الذي يغزو خلاياه:

- أنت جاي ليه يا مروان!..

واجهه "مروان" بوقفته رافعًا إصبعين في وجهه:

- لسببين يا عز..

وعدد بلهجة غريبة امتزج فيها السعير بالصقيع:

- أول حاجة نصيحة.. أنا لو منك؛ لما أنام أغمض عين واحدة..

- أنت جاي تهددني في بيتي!..

بحنق مرتجف سخر منه متلقي الغدر باستخفاف مصطنع:

- لا لا ما تاخدهاش كده..

ووكز وجنته بسبابته بقوة آلمته:

- دي مجرد نصيحة من صديق.. قديم..

أبعد يده غير مكترث بالمسدس في الأخرى:

- أنت مش هتقدر تأذيني، مش هترجع السجن تاني..

وكان الرد ضحكة..

ضحكة عالية لم يدرك أبعادها "عز" حتى صمت عنها صديقه بإيضاح مفصل:

- ومين قال لك إني مخطط أرجع!..

ثم مال برأسه تجاهه في ثقة شرسة:

- أنا ممكن أأذيك عادي، ومش هاخد فيك ساعة تحقيق حتى..

ودار حوله يداعب ذقنه غير الحليقة بفوهة سلاحه:

- أنت عارف فين المشكلة في مروان الجديد يا عز!..

توقف لحظة خلفه، اقترب بفمه من أذنه بهمس جليدي:

- أنه ماعندوش حاجة يخسرها.. وده الوقت اللي لازم تخاف فيه..

- وبنتك!..

حقًا!..

أكان على الأحمق أن يخطو إلى منطقة وعرة كتلك!..

قبض "مروان" على عنقه بغتة والفوهة تنضغط بقسوة خشنة أسفل فكه:

- اتكلم على قد حجمك يا عز، عشان في ثانية ممكن أفرمك..

ولم يأبه الخائن كثيرًا، بل سخر بمرارة:

- وإيه الجديد!..

تحشرج صوته بضعف مقيت:

- أنت ولا معتز، اللي زيي مجرد ماريونت خيوطها في إيد اللي زيك..

حرره "مروان" فجأة وداريواجهه ببسمة ذئب على وشك نهش فريسته:

- جميل.. يبقى الماريونت المطيعة هتقدم استقالتها من الخارجية..

وراقب توسع عينيه بنشوة كخمر مسكرة تغمر عروقه للمرة الأولى:

- وإلا هتخرج منها بفضيحة..

الآن أنت..ضارية..

تقتنص الحياة.. وتستحقها!..

(٤٣)

في حبكة كل شرير هناك نقطة ضعف..

وفي سرد حكايا الطيبين..

لابد من نقطة تحول..

الفارق!..

الفارق.. اختيارك أنت..

الانتصار بالعشق.. وللعشق يبدو مناسبًا لخاتمة ملحمة رومانسية لم تقرأها في يوم..

أما الانتصار في حرب مع العشق؛ فهو بداية لم تجُل بخيالها البتة عما قد يكون قصتها الخاصة..

الطرف الآخر أعلن الهزيمة ورفع راية الاستسلام.. فرَّ من أرض المعركة دون مبارزة، واكتفى بالصمت في حرم الخسارة غير المبررة..

رفعها فوق أكتاف الظفر باعتراف الغرام..

ثم رماها بقاع الخيبة وطمرها أسفل رُفات الفشل ببتر لذات الغرام..

أُحبكِ.. نطقها، لن نكون معًا.. أطلق رصاصة الوجع!..

ولم تفهم.. صدمتها جمدتها في مواجهته لدقيقتين كاملتين، وبعد الصدمة تتابعت الانفعالات على وجهها، بقلبها.. بعينيها اللتين لم تبتعدا عنه..

إحباط..

غضب..

حزن..

ثورة..

وهن..

رفض..

ثم تشبث..

وهو رأى آخرها فقرر كيّ مكان البتر:

- أنا مريض، مش ممكن أكون أب..

وأعاد شريط الصدمة من بدايته حد أنها كادت تخنقه..

يخبرها بألم حاول كبته عن احتمالية إصابته بمرض مميت غادرت به والدته دنياه عندما كان طفلًا، مرض سيرثه أطفاله إن كان هو مصاب به..

مرض سيحرمهم من وجوده باكرًا إن أتوا لحياته، ثم ينهي حياتهم نفسها؛ لذا قرر ألا يأتوا.. وبيده، ولأنه لن يمنع امرأة من تحقيق غريزتها الفطرية كأم فقد اعتزل النساء..

حتى اقتحمته هي..

اقتحمت قلبه وعقله وسيطرت على روحه فباتت تهفو لها في كل لحظة..

احتلت أفكاره واستحوذت بغزو عشقها كل ما طالته من جوارحه وكيانه..
وفي النهاية أجبرته على اعتراف نتيجته الحتمية.. فراق!..

الليل طال عليها وحيدة بغرفتها، تبحث عن مخرج ما.. اهتدت إلى طرف خيطه على شاشة حاسوبها واسم مرضه ببحث ترتجي منه.. ثغرة..

"داء هنتنغتون"..

دون الدخول في تفاصيل طبية أرعبتها عندما مرت فوق سطورها؛ أدركت أن النهاية الحتمية التي لا مناص عنها هي.. الموت.. وبسن صغير قد لا يصل إلى الأربعين!..

والوراثة..

احتمالها خمسون بالمائة..

ربما يموت به نصف أطفالها إن كان من أحبت مصاب بالفعل..

إذًا ربما يجب أن تكتفي بواحد!..

لكن كيف تضمن أن ذاك الواحد لن يولد به!..

هل تحيا على أمل بمنطقة معتمة وتراقبه من بعيد كسراب!..

نفضت رأسها في محاولة لرأب صدع أفكارها، مسدَّت جبينها عقبها تزفر بحنق والصداع يضرب بمطارقه عند حاجبيها..

ما الذي تفكر به!.. أوربما الأجدر بها سؤال نفسها عن المفترض فعله!..

هل بإمكانها التضحية لتكون معه.. له!..

والأهم.. هل سيقبل هو!..

في اليوم التالي غابت عن المكتب، ثانٍ وثالث ثم رابع وخامس.. في السادس كانت قد حسمت قرارها والعزم رسم طريق خطواتها إليه بعد انتهاء دوام العمل..

فأخيها الأكبر كان يقف على عتبة الموت ولم تتخلَ عنه من عشقها وعشقته..

وقفت على بابه تراقب شروده، لا يشعر بها.. كان غائبًا بالكلية وجانب وجهه الذي يظهر لها متغضن.. بألم!..

ألمًا ستمحوه في التو، تقدمت تناديه:

- عمر..

استدار إليها بعينيه في دهشة، لقد باغته حضورها..

تعلقت نظرته بها كغريق وجد قشة نجاته، ارتجفت مقلتاه وضغط فكيه كأنما يخرس لسانه..

تعلم ما يظنه؛ أنه لا يملك الحق في حرمانها منه برحيل غادر، من أمومتها وإن تكيف هو على قرار حرمان نفسه من أبوته، لن يكون أنانيًا ويستحوذ عليها بحق عشق رآه بعينيها..

وهي قرأت كل ما طاف بخياله عنها، رأت التعلق.. الأمل.. الخوف.. الهروب، وقرار النهاية الذي ترفضه.. تبغضه:

- أنا موافقة..

قطب مستغربًا، يبدو أن لديه عسر فهم قهر شفتيها ببسمة، بتحدٍ، باقتراب وإشارتها تجبره على الوقوف والاستجابة لخطواتها بما يماثلها حتى تواجها..

تواجها وتعثر في قراءة عينيها الغامضتين قبل أن تبادر هي بجرأة حسدها عليها بعدها بلحظة:

- تتجوزني!..

باغتته..

ككل مرة تنجح في اقتناص من مشاعره صدمة، دهشة.. وثوان انتهت بسرعة لترى ابتسامته الحزينة تُخضع بمرارها فمه بانحناء باهت:

- أنا باديك المساحة أنك تسمح لأنانيتك تسيطر..

بادرت باستطرادة حازمة تفصم بها اعتراضه الذي كاد ينطق به:

- عاوزاك أناني في حبي يا عمر..

تتحداه..

تتحدى قلبه..

تخبره أن عشقها يحق له الحياة ولو بأنانية تراها لكل عاشق حقٌ مستباح:

- عاوزاك أناني.. تسرقني، تخطفني.. تحارب خوفك عشاني..

وتنهدت بقرار حاسم:

- أناني وما يهمكش غير إني أكون ليك..

كان يسقط في هواها مع كل حرف تنطق به..

امرأته لو جاز له الوصف وإسباغ صفة الملكية عليها؛ تنتزع قلبه من مكمنه الهادئ طوال عمر مضى لينبض بجنونها..

بعشقها، برغبة امتلاكها حتى الرمق الأخير لكن مخاوفه طغيانها مميت:

- ما أقدرش يا صبا..

نطقه باسمها بذلك الخفوت الذي يضمر بين طياته أنينًا مسَّ قلبها خاصة عندما أضاف:

- ما أقدرش أعيش معاكِ وأنا في كل لحظة خايف تبقي أرملتي، بعد سنة اتنين عشرة مش عارف.. ما أقدرش كمان أحرمك من أمومتك!..

مسح وجهه بكفه في تعب:

- أنا ماعملتش التحليل اللي ممكن يثبت لي إذا كنت حامل للجين ده ولا لأ، وماعنديش استعداد أعمله.. مش هاعيش أسير للخوف والأسئلة اللي مالهاش نهاية..

وزفر بحرارة بدت لبصرها أشبه بجحيم يصلاه عقله وتحترق به أفكاره وروحه:

- إمتى الأعراض هتظهر!.. هاعيش كام سنة بعدها!.. هارقد في السرير ولا هاقدر أمشي!.. هافتكر اللي بحبهم ولا هانساهم!..

ثم واجه عينيها بإنهاك واضح أجبرها على ملاحظة الدوائر الداكنة حول أجفانه:

- مش هاظلمك معايا حتى لو باحتمال.. ولو قررت أتجوز في يوم؛ مستحيل أفكر في الولاد.. مش هاورثهم مرض قبل ما يقضي عليهم يعذبهم ويعذب اللي حواليهم في كل لحظة وهم عارفين إن النهاية موت..

نظرتها طوقته بفخ محكم لا فرار من أسره:

- خلاص.. يبقى تعمل التحليل اللي قلت عليه ونتأكد إذا كنت مصاب بالمرض ده ولا لأ!..

تراجع بحدة عنيفة يقاطع كل فكرة.. يقتل كل أمل:

- لأ..

اقتربت تقصر المسافة بينهما بعد تراجعه بصرامة جادة.. اقتربت تحتج وتتمنى:

- عمر!..

- لأ يا صبا..

شبه زاعقة صارمة عصية على الجدال، أدارلها ظهره بغضب بوادره هلت بلهجته الصلبة:

- قلت لك مش هاعيش أسيرللخوف.. مستني اللحظة اللي عمرالأسيوطي المهندس الناجح يختل فيها وتنتهي صلاحيته كإنسان سوي، مستقبله يضيع وحياته تبقى على كف عفريت.. مستني اللحظة وعارف إنها جاية غصب عني..

- وهي حياة الخوف والتوقعات مريحة يا عمر!..

التفت إليها ثانية ونظرته كنار خابية.. كرماد تتبعثر بين ذراته شرارات احتراق الوداع:

- على الأقل عايش بأمل؛ أمل إن ما تكونش دي النهاية..

تحرك يواجه نافذته، يراقب تسلل الظلام بسلطانه ليسيطر على زرقة السماء الصافية.. يصمت، يترك لها حرية الرحيل.. وفي خلفية المشهد يتمنى..

قلبه يتمنى.. رُغم الخوف..

جمدت بمكانها تراقبه، تتأمل ظهره وتهدُل كتفيه بقنوط كأنه يعلن الحداد على فقدانها الذي لم يحدث بعد..

حرب ضروس تدور رحاها بين جنبيها..

القلب يبغي القرب ويخشى فراقًا يحمل رائحة الممات..

والعقل ينصحه بالتريث، بالتثبت.. بأنانية الفراق المبكر مقللًا بذلك حجم الخسارة..

حرب أرهقتها فزفرت باحتدام تقرر اللحاق بركب الأمل.. تخطو إليه، تقف خلفه وتنهي الجدل ببساطة عشقها:

- على فكرة، مش ده الموضوع اللي المفروض نتكلم فيه..

استدار إليها، تعلقت عيناه بها في تساؤل حائر جاوبته ببسمة ناعمة بدلت ملامحها تمامًا كما لو أن الحب قد منحها هالة أنثوية مدموغة باسمه:

- أنا عرضت عرض!..

لاتزال تتشبث به!..

تهديه القلب والروح.. الهوى ثم النفس..

هل توجد من هي مثلها!..

لطالما آمن أنه لن تخلق امرأة تثير بكيانه الزوابع والأعاصير، تعيد قلبه للحياة.. تسلب منه النبض وتتوج حضورها فوق عرش امتلاكه..

لكنها وُجدت.. وُجدت له..

ابتسم.. اقترب وقرر اعتناق الأسطورة التي يراها بمقلتيها:

- تتجوزيني!..

تنفست بعمق، تلكأت البسمة عند أطراف شفتيها بينما تجيبه بتقرير وهزة كتف:

- أتجوزك..

تأملها.. توسعت بسمته تتمازج بشيء من مداعبة لم تعتدها منه:

- أنتِ فعلا مختلفة..

مد أنامله ورغبة ما تدفعه للتبتل في محراب وجنتيها، جبينها، فكها وشفتيها:

- الوحيدة اللي فعلا ممكن تملك قلبي..

لم تبتعد.. كانت تدرك وعن يقين أن حدودها لن يتخطاها، تعانده بلمسة من دلال غيور:

- ليه هو أنت عرفت كتير قبلي!..

تنهد يحتوي عبقها الساحرويحبسه بصدره:

- ولو عرفت ستات الكون كله؛ أنت بس اللي..

- اللي إيه!..

قوية.. ثابتة.. تهبط بمشاعره حد القاع فالغرق ثم ترفعها بموجات عالية لتطفو نحو أعالي العشق:

- اللي حبيتها..

والحب..

وحده صك امتلاك..

الحب..

وحده هو الدرب الذي اختارته عند مفترق عشقها بإرادتها الحرة..

ودون تردد..

***

"تتجوز!"..

بصقتها أمه بوجهه في شبه حدة مستنكرة..

يدرك أن علاقته بالسمراء الحالمة التي ترى فيه فارسها لم تتخطَ الشهر ونصف لكنه مقتنع تمامًا أنها فترة كافية ليُقبل على الزواج منها..

هو يرغبها.. وذاك وحده ما يهمه..

علم عنها الكثير، أخبرها عنه ما يكفيها من معلومات لتوافق على عرض زواجه حد قفزتها وتعلقها بعنقه..

هي الابنة الكبرى لأسرة صغيرة، لديها شقيقة مراهقة في عامها الجامعي الأول وشقيق يبلغ من العمر عشر سنوات، والدها مسافر بإحدى دول الخليج وتحيا وأخوتها مع أمها بمنزل أنيق بأحد المدن الجديدة..

زيارات والدها كما قالت له محدودة، متباعدة وقصيرة.. لذا فزفافهما سيكون سريعًا حيث تذكرة سفره دومًا ذهاب وعودة..

لم تصدق عرضه حينها خاصة مع ابتسامته الخبيثة الموقنة من موافقتها اللحظية.. والحتمية:

- مولي..

ردها أتاه هائمًا بعينيه ونبرة صوته الرخيمة عندما يدلل اسمها:

- ها!..

الموقف واللحظة بسيارته أمام بيتها، وقبل الوداع على وعد بلقاء آخر، مال بعض الشيء وتناول كفها يسبغ على العرض لمسة عاطفية تناسبها:

- تتجوزيني!..

تأمل تيبس جسدها، الصدمة.. الدهشة المبتهجة، السعادة التي تقافزت فوق ملامحها ثم اندفاعها نحوه تضمه بإيجاب.. بقبول:

- أيوة..

أحاط خصرها بكفيه وابتسامته الوسيمة تزيده سحرًا بعينيها:

- طيب في كام حاجة لازم تعرفيها عني الأول..

جدية لهجته أقلقتها فتطلعت إليه بتوجس حائر..

باختصار غير مخل قص عليها نبذة عن زواج سابق، طلاق.. حادثة وعقم..

عن شيء سيحرمها منه لو باتت زوجته..

الأطفال!..

ومع صمتها ترك لها مساحة خاصة لتفكر بها.. لتتقبل الأمر أو ترفضه، لكنه فوجئ بها بعد أن ترجلت من سيارته تعود إليه، تنحنى قبالة نافذته ببسمة رقيقة مفتونة وتهمس له ويدها تتعلق بذراعه:

- موافقة..

انتزعته والدته من شروده باحتجاج مستاء:

- آسر أنت ماعداش على طلاقك حتى سنة، جواز إيه دلوقتِ!..

أحاط كفها بيده مبتسمًا:

- جوازيا ماما، بتاع المأذون والشهود والفرح وكده..

- ولد!..

داعب ذقنها بأصابعه متظاهرًا بالحنق:

- ولد إيه بس يا لولو، أنا كبرت على الكلمة دي..

تركت جلستها واستقامت تبتعد عن محاولته للسيطرة العاطفية عليها رغم تمزق قلبها عليه.. على ما ضاع منه.. وعلى ما يبدو أنه يتجاهله:

- آسر.. أنت ناسي إنك بعد الحادثة..

- بقيت ما باخلفش!..

طعنتها الكلمة، تأملته بحنو عندما ابتسم:

- أنا عرفتها كل التفاصيل دي، مش هاظلمها معايا طبعا، وهي موافقة..

- موافقة!..

أومأ بإيجاب صامت أسقطها بحيرة..

حيرة عبرت عنها بسؤال:

- بتحبك!..

فتح فمه يجيبها باندفاع لحظي ألجمه عقله بالتفاف أفضل:

- شكلها كده..

عقدت "لمياء" حاجبيها بدهشة متعجبة:

- شكلها!..

هز كتفيه مبررًا ببديهية:

- أمال هتوافق ليه على واحد عقيم!..

ذبحها بالكلمة..

الأحمق لا يدرك مدلول ما ينطق به على قلب أم..

اقتربت منه تضمه، تربت على كتفه وخصلاته.. تهمس بسؤال نهائي كأنما تتثبت من رغبته الكلية في تلك الزيجة:

- طيب وأنت!..

ضمها إليه برفق والذنب ينهشه..

هو يخدع الجميع ببساطة، يخدعهم لينال الحياة التي يشتهي..

يخدعهم ويوجعهم!..

- معجب بيها، وإلا ماكنتش هافكر أتجوزها يا أستاذة..

تراجعت تحيط وجهه بين يديها، تتأمله بإشفاق أرغمها عليه ضعفها نحوه:

- مادام هتبقى سعيد أنا موافقة..

توسعت بسمته بانشراح قبل أن تنهي الحديث بخبر لم يعلمه:

- يوسف هيجي الأسبوع الجاي يكمل جلسات العلاج هنا، لما يرجعوا من السفر نروح نطلبها..

وهاته هي نقطة ضعف قصته التي ينال ما يريد على إتقانه لسردها؛ أخيه..

أتراه سيوافق بيسر، أم سيفضح سره!..

***

هو رجل فطرته عشقها.. وهي امرأة كينونتها بين يديه..

نحن في الحب لا نسير على خريطة محددة، بل نغوص في متاهاته.. نترك لأمواجه حرية تحريك قوارب قلوبنا حيث شاءت..

تنقلنا من جزيرة الغرام لجزيرة الهوى، ومن أرض الانتماء لمن نحب إلى أرض نخاف عليه فيها..

الحب معضلة غريبة..

يمنح الأفئدة الغارقة في دروبه كل التناقضات المتاحة بذات الوقت فيصيبها بلوثة بالنبض..

يهدينا الأمل وبقدره يجاوره بالرهبة..

رهبة تملأ كيانها وهي تتأمل ضعفه، هزاله.. خصلاته التي ما إن بدأت في النمو إثر عمليته حتى أسقطتها جلسات علاجه..

تستند إلى المقعد ووالده يحمل دلوًا ليفرغ صغيره به معدته كما يحدث كل يوم تقريبًا، تظهر التماسك..

بل تدعيه..

واليوم يبدو أنها ارتطمت بالقاع وفقدت كل مخزون طاقتها..

راقبته بصلابة صامتة، ترمش كثيرًا تمنع عبراتها، تغص بها فتتحرر شهقة خافتة التقطتها أذنا العم..

رفع بصره إليها وفهم ما تمر به.. غسل وجه ابنه بكفه ثم ربت على رأسه بحنو خاطبها بعده:

- ملك.. في مطعم تحفة في آخر الشارع هنا، هاعزمك على الغدا هناك..

انتزعت نظرها عن زوجها بمشقة كأنما تسلخ عنها جلدها:

- لأ.. أنا هاكل أي حاجة هنا..

- هتنزلي معايا وتجربي الأكل، أنتِ ما بتاكليش كويس وده غلط..

استشعرت لمسة عاشقها الرقيقة تحيط بكفها:

- روحي مع بابا يا ملك.. عشان حمزة..

مررت أناملها حول ملامحه:

- مش عاوزة أسيبك لوحدك..

أهداها بسمة خافتة في محاولة لطمأنتها:

- أنا مش لوحدي، في دكاترة وممرضين..

- بس..

- عشان خاطري..

كان واهنًا، متعبًا.. صوته شبه مسموع وعيناه بهت بريقهما اللامع، استجابت له بخشوع عاشق:

- حاضر..

مالت تلثم جبينه وتلتقي بنظرته المنهكة:

- عشان خاطرك أنت بس..

ضغط والده كتفه بدعم وتبعها خروجًا مع الغرفة، سارا بضع خطوات كانت تتعثر فيها فبدت على وشك السقوط..

قرب باب المكان توقف العم واستدار إليها يفتح ذراعيه:

- ملك..

التفتت بوجهها إليه ورجفة شفاهها تنبئ عما يعتمل بنفسها.. تطلعت ليديه اللتين تدعوانها إلى ضمة فوق صدره وخضعت لها بلا تفكير..

ارتمت بين يديه تنتحب بنشيج عالٍ لفت بضعة أنظار إليها فأخفاها بذراعه.. ترك لها كل الوقت الذي تعوزه حتى سمع همسها باسمه متناثر جوار أفكار الهلع:

- أنا خايفة عليه قوي..

أغمض "آدم" عينيه.. خشيتها تشبه خشيته لكنها تكاد تنهار:

- أنا كمان خايف.. مش بنحبه؛ لازم نخاف..

ولم يبعدها عنه بل احتواها أكثر:

- المهم إن الأمل يفضل موجود جوانا..

تأوهت بضعف وأناملها تتشبث بسترته الثقيلة:

- ده اللي أنا عايشة بيه..

ابتسم وتراجع قليلًا يهبها بنظرته الواثقة شيئًا من أمان تحتاجه:

- يبقى نتغدى وناخد بالنا من نفسنا.. أنا عاوز حفيدي يتولد كويس..

تعلقت بعينيه لحظة ثم دار بها الكون بأكمله..

سعت جاهدة للثبات.. للتمسك بعمها، لكن طاقة جسدها نفذت بالفعل.. وسقطت!..

حينما فتحت عينيها شعرت كأن الوقت الذي مر لا يتجاوز الدقيقتين، لكنها كانت بفراش المشفى.. حولها ستائر تفصلها عن المرضى الآخرين، معلق بذراعها محقن ما يضخ إلى عروقها محلولًا مغذيًا.. والساعة تشير إلى مرور أربع ساعات على آخر لحظات وعيها!..

وطبيب زوجها إلى جوارها..

اعتدلت بغتة فعاد إليها الدوار.. انتبه لها، استقام من مقعده باهتمام:

- مدام ملك ارتاحي من فضلك..

كانت مجبرة على الإذعان خاصة مع تشوش الرؤية أمامها، وتذكرت السقوط.. انتفضت تتحسس بروز بطنها الطفيف بطفلها في ذعر طمأنه الطبيب بفهم:

- البيبي كويس ما تقلقيش..

أدارت وجهها إليه بلهفة:

- يوسف!..

ابتسم بهدوئه المعتاد:

- كويس الحمد لله، والده ما بلغوش بإغمائك عشان ما يقلقش..

حاولت الاعتدال مجددًا فمنعها:

- من فضلك يا مدام ملك، لازم تخلصي المحلول ده وترتاحي شوية..

وأشار من خلف ظهره:

- دكتور ناتالي هتمر عليك كمان نص ساعة لأن واضح إنك أهملتِ كل تعليماتها..

استكانت بزفرة ضائقة من اهتمامه الذي لا تريده:

- تمام..

عاد لمقعده ببساطة وغاص بعينيه في قراءة الكتاب الذي يحمله متجاهلًا وجودها، استنكرت ما يفعله فتمتمت بدهشة:

- هو حضرتك هتفضل قاعد هنا!..

أهداها نصف نظرة لامبالية:

- لحد ما المحلول يخلص..

تأففت بحنق تغافل عنه.. مضت النصف ساعة عليها كدهر بعدها كانت تركض في الممر الموصل لغرفة زوجها، تقف على بابها وتلاحظ توتر الانفعالات بينه وبين أبيه، تتحرك إلى الداخل بتساؤل أتاها الجواب عليه من الزوج:

- مادام هيتجوز يبقى في حاجة لازم أنت وماما تعرفوها..

ولم تفهم عمن يتحدثان..

من ذاك الذي سيتزوج!..

وما الذي يخفيه!..

لم تفهم لكنها بلا تفكير جاورت "يوسف" في فراشه الضيق تحتوي كفه والعم يبتسم لها:

- مالحقتيش ترتاحي يا ملك، كنت محتاجة تنامي شوية كمان..

نظرته تخبرها أن حبيبها لا يعلم بما جرى لها؛ ابتسمت ويداها تضمان يده كعادتها:

- ارتحت بما فيه الكفاية..

تعلقت بها عينا "يوسف" وأحزنه إرهاق ملامحه، قبض على أصابعها برفق:

- لأ مش كفاية، كنتِ تعالي بكرة..

- أنا كويسة الحمد لله.. هو في إيه!..

غيرت موضوع الحوار بعيدًا عنها تعيده إلى دقيقة مضت، تذكر هو فأدار ناظريه لوالده بحسم:

- بابا..

وأردف بسر أخيه..

فالحقيقة مهما كانت مرة كالحنظل؛ الجميع يستحق معها المعرفة!..

***

يطول الانتظار، نتعلق بحبال الأمل.. تحدث المعجزة وننال السعادة..

سعادتها كانت في أبنائها الذين رزقها الله بهم بعد صبر، بعد ألم ومشقة.. بعد خسارات عدة..

جاهدت لتحافظ عليهم.. لتنشئهم صالحين كما تتمنى، جاهدت لتحميهم وتظلل عليهم بحنانها، بعطفها.. وحزمها حين الحاجة..

جاهدت وجهادها مقابله فاسد مع صغيرها الذي فاجأها والده بخبر عنه..

خبر علمه أخيه وأضمره، ولذلك عقابه في الوقت المناسب.. مدللها يكذب، يخدع.. ويعبث!..

جلست تنتظر عودته من عمله، بصرها مثبت على نقطة غير مرئية، أناملها معقودة فوق ساقيها وظهرها مشدود بتحفز غاضب.. عندما عاد ووجدها في استقباله على هذه الحال خمن ما قدره مسبقًا..

امتلأت نفسه بالسخط على الأخ الأكبر حتى بادرته هي بنهوض ومواجهة بينما يدها تراودها عن صفعة تودع فيها كل وجعها وخيباتها:

- أنت خيبت أملي فيك..

كلماتها المحدودة قبضت قلبه..

أمه لأول مرة تستاء منه!..

- ماما!..

اقتربت بحديث مقتضب حاسم لا تريد غيره:

- البنت اللي عاوز تتجوزها؛ يا تقولها على إن حالة العقم اللي عندك مؤقتة وممكن تتعالج بعملية، يا تلغي الجوازة من الأساس..

توترت مقلتاه فدارتهما في المكان:

- ما ينفعش يا ماما..

- ده اللي عندي يا آسر..

وكادت ترحل عنه دون أن يراضيها أو تسمع منه، أمسك بكفها يعيدها إليه محاولًا العزف على وتر العاطفة:

- أنا مش ضامن العملية دي ممكن تنجح ولا لأ..

احتدت في وجهه:

- لسه بتكذب!..

تراجع خطوة مبهوتة وبصره معلق بها حينما أردفت:

- أنا كلمت الدكتور بتاعك وعرفت تفاصيل حالتك، فهمني إنها عملية بسيطة أنت رفضت تعملها..

برر بعناد:

- عشان مش ضامنها..

واجهته بغضب سافر:

- ولا عشان تلاقي مبرر تطلق بيه مراتك!..

وصاحت في وجهه:

- اتجوزتها ليه من البداية!..

- يا ماما..

- ما تبررش.. الموضوع منتهي وده قراري النهائي يا آسر. قولها الحقيقة أو انسى إني أوافق على الجوازة دي..

- كنت خايف..

وأخرسها دفعة واحدة..

هل الكذب لنيل الرضى مباح!..

لطمأنة قلوب من نحب!..

لنرفع عن كاهلنا ثقل الذنب ونقطع خيوط الندم التي تخنق أعناقنا!..

- ولسه خايف.. ممكن أعملها وتفشل..

رفعت رأسها بحزن تهديه نظرة خائبة أوجعته:

- اللي عندي قلته، عاوز تتجوزها عرفها الحقيقة والاختيار بعد كده ملكها هي..

وغادرته..

تركته يتقلب فوق جمر أشعلته كذبته..

ثم خاصمته، مر أسبوع عاد خلاله أخيه من السفر بصحبة زوجته ووالده.. ولم تتحدث معه في أبسط الأمور أو أشدها..

تتجاهله.. تتباعد عنه.. لا تجلس معه على طعام أو حتى أمام فيلم قديم تحبه، وعندما يحضر تنصرف إلى غرفتها في عقوبة لا يتحملها..

أما عن والده فقد عاتبه بحزمه الهادئ وطلب منه ذات الطلب.. وضع نفس الشرط، لا زواج دون الحقيقة الكاملة!..

ولأن بعدها وخصامها أعاداه طفلًا صغيرًا عاجزًا فقد وقف أمامها بغرفتها عندما كانت تستعد للنوم:

- هاقولها يا ماما.. بس من فضلك كفاية كده..

وأمسك بكفها يقبلها ويرفع عينيه إليها بتوسل:

- مش متعود تخاصميني، ده تعذيب والله..

رمقته بدهشة مصدومة فضمها عنوة لصدره:

- هتصالحيني وهاعملك اللي أنتِ عاوزاه..

تنهدت وتملصت من ضمته:

- تصبح على خيريا آسر..

تطرده!..

لا تقبل خضوعه..

ولم يعد يدري ما يفعل سوى الصراخ بوجه "يوسف" الذي جاوبه ببرود:

- اتحمل نتيجة اختيارك، أنت من إمتى بتكذب كده!.. ليه عاوز تغش البنت اللي هتتجوزها!..

يظنون به السوء.. وهو أبعد ما يكون عنه، لكنه رضخ..

أخبرها فتمسكت به أكثر كأنما فتح لها باب الأمل على مصراعيه..

بعدها بيومين حضر والدها، تقدم إليها مع والديه وتمت الموافقة وحُدد موعد الزفاف بعد أسبوعين آخرين..

كانت كل الأمور تسير بسلاسة ويسر..

إلا مع أمه..

مازالت تخاصمه.. حتى وجدها أمامه قبل ثوان في غرفته بالفندق وقد ارتدى بذلة العرس السوداء فبدا بعينيها كأجمل طفل وأوسم رجل.. اقتربت بلمعة دامعة بين جفنيها، تعدل من ربطة عنقه وتهديه بسمة عاتبة:

- مبروك..

قبَّل كفها واحتفظ بها بين يديه:

- عشان خاطري سامحيني.. يرضيك تبقى سعادتي منقوصة يوم فرحي!..

لامست وجنته بكفها وإبهامها يدلك أسفل عينه:

- أنا عاوزاك أسعد واحد في الدنيا..

وأرجعت أصابعها تشد أذنه بشيء من قسوة تأوه لها:

- بس لو كذبت عليَّ تاني أنت حر!..

ضمها إليه بضحكة مبتهجة:

- لا والله.. تبنا وندمنا على ما فعلنا ومش هنعمل كده تاني أبدا..

ربتت على كتفه وبادلته الضمة ثم تراجعت:

- طيب يلا يا عريس.. عروستك جاهزة..

وبرضاها.. وجد أن حقه في السعادة قد اكتمل..

***

عندما نرى الصورة دومًا باللون الأسود، نصل لأعمق نقطة ببئر ظلمة قلوبنا.. عندما يخبو الوهج بأعيننا وتفقد كل الملذات مذاقها.. وكل الشهوات معانيها..

تحمل كل المسميات مدلولًا ساخرًا.. باهتًا لا غير..

حب.. زاوج.. سعادة!..

ألفاظ مطاطة لم تعد تعني شيئًا بذهنه وهو يقف في ركن منزوٍ يراقب الحضور الصاخب..

العروس التي لا يتذكر أين رآها من قبل!..

ابن العم الذي يراقصها بحميمية تليق بغرفة النوم، وسبَّه في سره.. الأخت الكبري التي غاصت بأحضانه حين اللقاء ولم تفارقه إلا عند الرحيل ليلة عودتها من السفر، هي الآن تلازم زوجها بطيء الخطوات كظله.. وبروز بطنها بطفله يجذب نظره..

هو الخال في هذه الصورة؛ الأخ والقريب لكنه بدواخله، بروحه..

هو المنبوذ..

المدنس الذي لا يناسبه نقاء العالم من حوله ومجبرٌ على أن يعيش فيه!.. هو المبعوث من الرماد، وحياته القديمة لا تلائم آخر تحديث مربه..

كان مختنقًا والزحام والموسيقى من حوله تُضاعف من اختناقه، غادر القاعة إلى أقرب شرفة تطل على الحديقة الخلفية للفندق المقام به

الحفل.. استند لسورها وتأمل السماء بأنفاس بطيئة متتابعة أقرب لزفرات احتدم بها صدره..

وأتت هي من خلفه..

بثوب أخضر داكن، طويل.. يحتضن حناياها بأناقة راقية، ينسدل فوق جسدها بنعومة فاتنة.. وينتهي بتناغم ساحر مع غيومها القاتمة في ضوء المكان..

تتذكر حينما أخبرتها صديقتها عن حقيقة من أحبت، عن قرابته له.. عن طلب يدها للزواج وموافقتها.. عن خوفها من أن ترفض صديقتها الوحيدة حضور حفل زفافها لتجيبها هي بعناد:

- أنت مجنونة يا بنتي!.. أكيد هاجي طبعا..

لتراه ربما..

فهي تكره الأعراس!..

منذ أتت وهي تراقبه، تتأمل انطوائه على ذاته في ركن وحيد.. تباعده عن طاولة والديه وأخته وباقي العائلة التي عرفتها بالتخمين..

ثم رحيله..

تتبعته حتى وجدته يدلف لشرفة خارجية يقف بها صامتًا، جامدًا كتمثال من جليد..

سمع قرعات كعب حذائها فقطب بنصف التفاتة ورآها..

لم تتغير ملامحه، لم يبدُ على وجهه انفعال محدد ولم تُظهر نظرته سوى اكتراث طفيف وازى نبرته الساخرة:

- كنت باقول شُفت العروسة فين قبل كده!..

ابتسمت بهدوء لا يشي بما يموج بنفسها بينما يكمل باستخفاف:

- مش دي صاحبتك اللي كانت بتكراش عليَّ!..

عقدت حاجبيها بصمت مستغرب، لقد نال منها ضيقًا بصراحته غير المعتادة.. صراحة فجة تفتقد إلى الكياسة التي تعرفها عنه..

سمعته يضيف بنبرة مباشرة لامبالية:

- واضح إنها ماكانتش بتكراش لوحدها..

وفهمت تلميحه الفظ..

يخبرها ببساطة أنه يدرك تتبعها له!.. أنها أتت خلفه!..

حسنًا.. لا مانع من نزال محدود:

- مش crush..

ابتسم بتهكم لاذع مسَّ نبرته:

- آه صح نسيت.. حبيب!..

وانحنى يستند للسور بمرفقيه غير آبه بها:

- بس جت متأخرة شوية..

وازته في وقفته متجاهلة محاولته لإثارة غضبها:

- عامل إيه!..

شرد ببصره أكثر.. وصمت..

صمت طويلًا حتى ظنت أنه لم يسمعها ثم أتاها رده الشارد:

- مش عارف.. ماعنديش رد على السؤال ده..

امتدت أنامله لجيب سترته الحالكة كقميصه وسرواله، التقط علبة تبغه وانتزع واحدة دسها بين شفتيه قبل أن ينظر إليها في تساؤل وقداحته تقترب من اللفافة.. هزت كتفيها بيسر وراقبته ينفث الدخان بتمهل:

- ماكنتش بتدخن..

- ماكنتش حاجات كتير..

لا تظهر شعورًا واضحًا ونبرتها ثابتة بلا اضطراب محدد.. ثابتة حد التحدي الذي اعتاده منها خاصة وهي تدور نحوه برأسها:

- يعني ده اختيارك للي جاي!..

مالت قليلًا زاوية ما بين حاجبيها:

- تدخين وضياع!..

وكما هي ثابتة كان هو باردًا.. بل ووقحًا عندما تأملها بنظرة رجولية بحتة طافت حول مفاتنها وصولًا لعواصفها التي تكاد تعصف به..

عيناها هما الوحيدتان اللتان توحيان بكل انفعال ممكن وإن أخفته النبرة وواراه الجسد:

- عندك عرض تاني!..

نظرته كانت الأولى بينهما بهاته الطريقة..

ورغم الخجل والضيق فقد تجاهلتها، بل وتجاهلت كلماته الفجة..

نظرت نحو القمر المكتمل الذي استحت ظلمة السماء من ضيائه فظهرت نجومه كحبات من الألماس فوق سطح ناعم من المخمل الأسود تحيط بها هالة فضية:

- اللي جاي إنك تلاقي نفسك..

أطلق ضحكة هازئة مبتورة:

- ليه!.. هي تاهت مني وأنا مش واخد بالي!..

واعتدل يستدير إليها بجسده بنبرة جافة جامدة غليظة على قلبها الذي يعشقه:

- مروان بطل الجامعة مات..

قلبها الذي انقبض بين ضلوعها مع كلماته واستطرادته:

- مات مرتين..

لم تدرك مدلول تصريحه وهو أكمل بلا انتباه:

- وأيا كان السبب اللي خلى قلبه يدق تاني ويعيش فمستحيل يكون هو نفس القلب اللي عرفتيه..

تأملته لحظة في سعي حثيث لإدراك ما يجول بعقله..

رأت ظلمة لا تنكرها..

رأت كرهًا..

خوفًا..

رأت مجهولًا لا تعرفه:

- أنا مش بدور على اللي عرفته؛ حتى لو حبيته زمان..

دارت حول نفسها تستند بظهرها للسور والهواء يداعب خصلاتها القصيرة كما كانت دومًا:

- أبقى غبية لو كنت فاكراك هو..

ابتسم بتفكه متطلعًا لأنفاسه الحارقة التي تخرج من بين شفتيه:

- وأنتِ مش غبية..

- لا طبعا..

- بس مش ذكية كفاية..

تغضن جبينها بنظرة حادة لم يكترث لها وهو يميل ليواجه عينيها.. وجهها ونظرتها إليه كما لم تنظر من قبل:

- عشان المنطقي إنك لما تشوفيني دلوقتِ؛ تهربي..

لم تتباعد بوجهها الذي كانت تفصله عن وجهه بضعة سنتميترات قليلة:

- كمان مش جبانة..

رفع حاجبًا بتقرير:

- طايشة..

ابتسمت بسحر أعاد له ذكرى السقوط:

- في الحب مباح الطيش والاندفاع..

وتحدته بعناد أكبر:

- والحرب..

هذه المرة ارتفع حاجباه سويًا.. وتناوبت على أنفاسه ضحكة عالية تفيض بالسخرية والاستهجان والرفض، تراجع لوقفته الأولى يرمقها من علو:

- إيه اللهجة الرومانسية دي يا غرام!..

والتوى فمه بانحناء هازئ:

- مش شبهك..

هزت كتفيها ببديهية:

- مش رومانسية..

لم يهتم بدفاعها فأكملت بتلقائية:

- دي قصة باعيشها كل يوم بين والدي ووالدتي..

وبنصف التفاتة كانت تواجهه:

- اللي بيحب بجد مش هيتخلى..

دهس لفافته التي احترقت عن آخرها وأحرقت أنفاسه وصدره معها، أشعل أخرى ودمدم بلا انفعال:

- مش متأخرة شوية!..

وقبل أن ترد أوضح الحقيقة التي يعرفها:

- أنتِ اتخليتِ من زمان..

لم يعجبها أن يظن نفسه ضحية قصة العشق الفاشلة!..

لم ترِده أن يعيش دور العاشق المرفوض؛ لذا ربما حان وقت بعض من حقيقة بغبائه غفل عنها:

- أنت اللي كنت قفل وغبي وماحاولتش تفهمني..

- مش هتفرق..

رده السريع أزعجها ففتحت فمها تعارضه عندما أكمل دون انتظار:

- الزمن ما بيرجعش..

عقدت ذراعيها بكبرياء يشبهها:

- بس بيعيد نفسه.. والمفروض غلط زمان ما يتكررش..

هزأ منها بصوت ساخر:

- حربك خسرانة يا غرام..

وعاد يواجهها بجسده كله، عقدة حاجبيه توشم جبينه بصرامة ونظرته تقسو حد التوحش:

- الفارس بتاع زمان اللي كنتِ تعرفيه..

سحب نفس أخير احتفظ به لحظات وهو يبتر كل أمل بداخلها:

- مات..

ونفث دخانه بوجهها عامدًا فأدارته بسعال خفيف حانق..

قنوطه، تبدُل ملامحه التي تعرفها، دُجنة عينيه وقتامة النظرة بهما.. ليس هو من عشقت، لكنها تعلم أن الآخر لن يموت أبدًا ولو دُفن على بعد سحيق بنفس الفارس الكسير، اعتدلت تشد قامتها في حرب صريحة مع بصره الذي يجتاحها كلما التقت معه:

- أنا شايفاه لسه عايش وبيحارب، بس أنت اللي مُصر تقتله..

وتركته بخطوات سريعة لم يتابعها..

استمر بنفث أنفاسه المضطرمة عندما توقفت قرب الباب ترمقه بنظرة حنين قبل رحيلها، ورأتها..

هي وأمها..

تركض خطواتها الضئيلة إليه، تمسك بساقه فيحني رأسه إليها.. يلقي بلفافة تبغه قبل اشتعال نصفها، ويميل.. يحملها قربه بشبه ابتسامة تعلم أنها أقصى ما يمكنه منحه في هذا التوقيت..

كان المشهد من بعيد لا يشملها..

هو وطفلته ومن كانت زوجته.. أدارت وجهها وابتعدت تغادر الفندق كله دون أن تودع صديقتها..

هناك لقلب الأنثى رجل واحد.. يمتلك منه ما لا يباح لغيره، ويؤثر فيه كما لو أنه الكون بأكمله..

لم تسمع نبرة العاشقة التي لاتزال على العهد باقية كما تصرح به بعينيها:

- سيبت الحفلة ليه؟!..

أمسك يد ابنته المكتنزة بين أصابعه بمداعبة:

- أنتِ عارفة إني ماليش في الجوده..

ابتسمت بتفهم رقيق:

- عارفة..

تأملها بنظرة متفحصة وسأل مباشرة:

- طيب بتسألي ليه!..

هزت كتفيها ببساطة:

- عشان مش لاقية كلام أقوله..

كانت صريحة لحد رسم بداية بسمة عند جانب فمه، تلك المرأة رقتها لن تنتهي ولو في الأحلام..

لمح اتجاه نظرتها إلى الدخان المتصاعد باحتضار من بقايا اللفافة التي ألقاها بعيدًا عند حضور طفلته، تحفز بسؤال:

- إيه!.. هتعترضي على التدخين تاني؟!..

التفتت إليه لحظة بسكون.. مطت شفتيها جوار هزة نافية من رأسها وغمغمة جادة:

- أنت حر..

حر!..

رنين الكلمة تردد صداه بدوي مزعج، متتابع وممتد بعقله، تأملها لثوان حائرًا ثم فاء بنظره إلى السماء شاردًا.. جاورته هي بوقفة صامتة وابنته بين يديه.. كانت الصورة للناظر جذابة، آسرة..

لكنها بقلبه؛ مجرد وهم..

هو لا مكان له بها!..

***

الحياة لا تمنح أحدهم كل شيء!..

لكن يمكنك سرقة ما تريد، اختلاس ما ترغب، واغتصاب ما تشتهي..

أو.. قد تتيسر لك سبل امتلاكه لأنك فقط تملك الوسيلة!..

فتح باب الفيلا التي سكنها من قبل يحملها بين ذراعيه، تحيط عنقه بيديها في خجل وتتشبث به في حالمية مفتونة كما هي معه على الدوام، أغلقه بقدمه وخطا بها ينزلها بمنتصف الردهة الأنيقة دون أن يحررها من حصاره.. فرَّت ببصرها تتجاوز اقتحام عينيه، تتجول في المكان:

- حلوة التجديدات..

وعادت تعاتبه بنبرة مرتجفة فهم منها محاولتها للتهرب من توتر ليلة عرسها:

- بس ما كنتش عاوزة نعيش هنا..

مر بسبابته عند منابت شعرها نزولًا إلى وجنتها ففكها ومسَّ ثغرها الممتلئ بإغواء بإبهامه في ضغطة مسيطرة:

- عشان كنت متجوز هنا واحدة تانية يعني!..

هزت كتفيها بتبرم دون كلمة فقد كان يحتجز صوتها خلف لمسته، مال يستبدل إصبعه بشفتيه في لثمة خاطفة كبداية:

- دي غيرة بقى ولا توترولا نكد!..

دفعت كتفه تبعده بدهشة مستنكرة متجاهلة الحمرة التي تسللت بسخونتها لوجهها كله إثرقبلته التي اختطفت عذرية شفتيها:

- إيه!.. نكد إيه!..

غمزها بمكرعابث:

- ما هو معروف عالميًا إن المرأة المصرية نكدية..

تراجعت أكثرتعانده بطفولية:

- هاها.. دمك تقيل..

ضحك بمرح وأعادها لأحضانه:

- لا ماهو معروف برده إني زي العسل..

وكرر القبلة بتمهل هذه المرة وهمسه الأخيربين شفتيها:

- وبيقولوا إني سافل كمان..

خضوعها كان تلقائيًا سلسًا دون تمنع أو مكابرة خاصة مع تمتمته المشتهية:

- هو أنا قلت لك إني باموت في الشعر الأسود!..

وأنهى حديثه بحملها مجددًا؛ ووجهته بديهية..

غرفة النوم..

***

في عالم الضواري هناك قانون أوحد..

البقاء للصياد..

والصياد هو الأقوى، الأذكى.. والأكثر شجاعة وخبثًا، ليس بالضرورة أن يكون الأصلح..

الصياد هو من يمتلك حق نصب الفخاخ لطرائده، وهو من يجوز له ذبحها.. أو تحريرها!..

مرت الفترة التي منحها له بكرم حاتمي لينفذ ما أمره به..

والآن حان وقت حصاد النصر والانتشاء بثمالة الظفر فوق جثة هزيمة الخائن وفي رواية من كان سابقًا صديق العمر..

قرع جرس بابه وهو يدرك أنه وحده كالمرة الفائتة، لتكون المفاجأة من نصيبه.. فمن فتحت له الباب كانت زوجته!..

رقيقة.. ناعمة.. بملامح هادئة ونظرة نقية صافية واضحة..

المفاجأة تكررت عندما هبط نظره إلى انتفاخ بطنها.. بطفل من غدر!..

أهدته بسمة متسائلة صمت أمامها لحظات:

- عز موجود!..

تفحصته ثانيتين كأنما تتذكر ذلك الوجه، توسعت بسمتها بغتة بينما تشير إليه:

- مروان مش كده!..

تغضن جبينه بحيرة فأوضحت بيسر:

- عرفتك من ألبوم الصور بتاع الجامعة مع عز.. حمد الله على السلامة..

وتراجعت تفسح له بود، لا تنتبه لتقطبيته الغاضبة..

هل أخبرها عن سجنه!..

- اتفضل..

قادته إلى غرفة المعيشة الأنيقة بترحاب:

- جيت من الكويت إمتى!.. عزهيفرح قوي، ثواني هاصحيه..

تابعها ببصره بجمود..

مسافر!..

بالطبع، لن يقص عليها حكاية شهادته الزور ضد صديقه وإلقائه في غياهب السجن لعام ونصف دون جناية حقيقية جناها..

حينما أيقظت زوجها انتفض من الفراش بذعر:

- إيه!.. مروان برا!..

شعرت بالدهشة فربتت عليه تطمئنه:

- في إيه مالك!.. صاحبك اللي معاك في الصور..

فرك عينيه ومسح وجهه في محاولة لاستفاقة:

- أيوة.. أيوة.. ماشي.. خليكي أنتِ هنا، هاطلع له..

تبعت خطواته بتمرد:

- لا طبعا، هاعمل له حاجة يشربها..

وفي مواجهته وقف بوجوم، وهي على دفء حضورها:

- ها.. تشرب إيه!..

ظل الضيف صامتًا غيرواعٍ لوجودها حتى عرضت ببساطة:

- أعملك قهوة!..

حرك رأسه يجاريها فسألته:

- والسكر!..

- بلاك..

تمتم بها خافتة غير مستوعب لوجودها.. راقبها تبتعد إلى المطبخ تحت ناظريه، خبا انفعاله فجأة واختفت شراسة عينيه بينما يتأمل تحركاتها بثقل حملها لتعد قهوته..

"مروان!"..

وكان قلقًا، متوجسًا من تأمله لزوجته، أداروجهه إليه فتوسله بخنوع:

- لو مسدسك معاك.. أرجوك..

ولم يكمل بتعثر، فقط تمسك بالاستجداء:

- مراتي وابني مالهمش ذنب في اللي بينا..

رغمًا عنه قست عيناه.. انقبضت يداه وهسهس بهياج مكبوت:

- وبنتي!.. كان ذنبها إيه!.. طيب أنا.. كان ذنبي إيه!..

برر "عز" باندفاع وقح:

- أنا اخترت نفسي.. غصب عني، ماكانش ينفع أخسر كل حاجة..

تأمله "مروان" غير مصدق لفجاجة دوافعه عندما أكمل:

- أنت عندك عيلتك وشغلهم، كل دي أبواب مفتوحة قدامك.. أنا لأ..

كاد يجيبه لكن لمح اقترابها فتصلبت الكلمات بحلقه تخنقه، وضعت القدح على الطاولة قبالته بجوار طبق من الكعكات الصغيرة:

- قهوتك، ودي كوكيز أنا عاملاها بنفسي.. يارب تعجبك..

وتحركت تترك لهما خصوصيتهما:

- أسيبكم براحتكم..

تطلع إليها الاثنان حتى اختفت بغرفة جانبية وبادر المغدور بعد رحيلها:

- أنت عارف أنا جبت مسدس ليه يا عز!..

عاد إليه ببصره في هلع يخشى ما يمكن أن يقدم عليه:

- عشان على الأقل لما أقتل المرة دي؛ يبقى السلاح بتاعي والتهمة بجد..

وهاجمه بغتة بعنف مسجون داخل روحه التي لم تتحرر بعد، يحبسه عقله عن جوارحه التي تتوق لتفتك بالماثل أمامه:

- عاوز أقتلك.. أنت تستاهل الموت، ولو إنه راحة..

- أنا نفذت لك اللي أنت عاوزه..

لاحقه متشبثًا بوعد يظنه سيفي به:

- قدمت استقالتي من يومين..

لم تتخلَ يدا "مروان" عن ياقته وعيناه يتأجج فيهما السعير بلا هوادة:

- عملت اللي طلبته مني..

ثوان طويلة مرت..

طويلة كدهر..

طويلة كأشهر عذاب..

كلحظات موت..

كساعات خلف قضبان الظلم..

كدقائق محسوبة بالواحدة فوَّت فيها خطوة ابنته الأولى.. كلماتها.. فوَّت فيها مكانه بحياتها فضَلَّ عنه..

نفضه عنه بتقزز وتباعد بزفرة كالجحيم:

- تفتكر أنا ما فضحتكش ليه!..

رمقه بتساؤل حائر رده عليه أتاه من فطرة الفارس التي عاشها عمره كله:

- عشان الفضيحة كانت هتضيع مش بس شغلك اللي بعتني عشانه؛ لكن كمان مراتك.. وهي مالهاش ذنب في وساختك..

وقبض على كفه بغلظة آلمته:

- وعشان الإيد اللي وقعت على شهادة زور هي نفسها اللي هتكتب الاستقالة وتنهي مستقبلك.. كنت هتدفع التمن وبإيدك..

أفلته.. مسح وجهه بيديه بتيه وقرر النهاية:

- اسحب استقالتك يا عز..

لم يكترث لصدمة ملامح من كان صديقه، خطا إلى الخارج بصلابة يحفظ بها بقايا كبريائه:

- أنت صح.. مراتك وابنك مالهمش ذنب..

تحمله وصل لأقصاه ففتح الباب بجذبة حادة وقبل أن يعبره ناداه الآخر، تصلب بمكانه دون التفاتة، جاوره من خانه ينظر لجانب وجهه الجامد كمنحوتة فاقدة لمعالم الحياة:

- فادي محكوم عليه بعشر سنين..

فازمنه برجفة طفيفة مرت بفكه، أداربصره إليه وهو يوضح:

- متهم بالاغتصاب والتهمة ثبتت عليه..

مال طرف شفتيه بتهكم كالعلقم:

- ويا ترى بجد ولا...

هز"عز" رأسه بجهل:

- هو بيقول إنه مظلوم..

ثبت لقاء الأعين للحظات أنهاها الصديق الخائن بخزي:

- قلت يمكن لما تعرف اللي حصله.. ترتاح!..

رد الفعل أتاه بنصف ضحكة هازئة.. متعبة.. ضائعة..

ورحل..

أنتَ لم تعد فارسًا فوق صهوة جواد المثالية..

ولم تُفلح في أن تكون ضارية..

أنتَ!..

مسخٌ مشوهٌ حائر بين النور والعتمة..

بين الأبيض والأسود..

بين الفطرة المدنسة بيد شياطين الإنس وبين اعتناق الدنس..

أنتَ!..

لا شيء..

(٤٤)

ليتني أجيد الرقص حول جثمان الفوضى..

أستحل الدماء وأستهل المذابح بخنجر التوحش..

ليتني كنت ذاك الذي تصارعه الحياة فيقهرها..

ينتصر ويحصد غنائم العبث..

لكنني..

لم أخرج عن هامش خاسر ضائع..

أنا المبعوث من الرماد بعد تمام الاحتراق..

أنا.. ملك متوج فوق عرش التيه!..

في لحظة حقيقة حالكة اخترتَ دور شرير الرواية..

لم تختره بسواده القاتم؛ بل قبعتَ في تلك المنطقة الرمادية التي تبيح لك شعرة أخيرة من العودة نحو أرض الحياد..

انتقيتَ الدور، أمسكتَ بالسيناريو وقرأتَه.. وحان وقت دوران الكاميرا..

أمام عدستها تخشبت، نسيتَ الحوار وتاهت منك الخطوات.. تعثرت، ثم وجدتَ نفسك عاجزًا عن تلبس ما تظن أنه رداء روحك المفترض..

سقطت..

التقطتْ العدسات سقوطك فنِلت الخزي، بعدها طلب منك المخرج أن تظل حيث أنت..

في الظل..

بعيدًا عن أضواء عالم الضواري، أنتَ لا تليق بك حبكات الشياطين!..

أنتَ مجرد كومبارس صامت لا يجوز له الاعتراض على وجهة نظر من منحه البطولة، فحتى عندما حاولتَ تقمص دور البطل الوضيع، الفاسد والمؤذي.. فشلت..

هويتَ من فوق الحافة إلى بؤرة بطل آخر لم تطُف أفكارك حوله في يوم بعالمك الخيالي، الخالي من الشوائب..

أنت الآن بطل مخالف للعرف.. antihero..

اعتليتَ خشبة المسرح، بخطوات طفل يجرب قدميه للمرة الأولى بعد مرحلة الحبو، تتوكأ على بقايا مثاليتك العرجاء..

تفتقد لكل عناصر البطولة الأصيلة.. تتحرك على غير هدى وتقرر أن تسرق من الحياة أجمل ما فيها بأسوأ ما فيك!..

سكن بركن غرفة معيشته في عتمة تماثل عتمة روحه..

أحرق ثلاث علب من التبغ وانتصفت الرابعة بين أنامله، السحابة الداكنة الخانقة تحيط برأسه في دوامة تشبه ما يعتمل بنفسه..

لا شيء ينبض في حصار الصمت سوى قلبه البائس، وبعض من صخب الشارع الذي يقطنه قد تسلل من النافذة المشرعة في مواجهته..

لا ضوء إلا قبسًا شاحبًا من قمر في طور الاحتضار..

لا حياة!..

ود لو احترق مع أنفاسه التي يحرقها..

ود لو تاه، غاب.. فقد الوعي وظل سائرًا بين البشر كميت حي، ككثيرين يعيشون على ظهر البسيطة..

ككثيرين أخرسوا ضمائرهم، أو ربما ذبحوها ورقصوا قُرب نزفها ثم امتلكوا من بعدها الدنيا وملذاتها.. اجتاحوها باشتهاء ونالوا منها كما ينال فحل من بَغِيّ مدفوعة الأجر لا تملك حق الاعتراض على طوفان ذكورته فوق جسدها..

تمنى لو خدر ضميره أيامًا أخرى.. حتى يظفر بانتقامه، بسواد قد يكون هو ملاذه المنتظر.. بظلمة تشبه ظلامًا يغرق فيه بلا نجاة..

تمنى وليت المطالب بالتمني.. فحتى دنياه فقد قدرته على أخذها غلابًا..

والمثالية التي تشرب منها فيما فات من عمر؛ تقف الآن عائقًا أمام سطوة الواقع المر، تجبره على الانصياع لفارس أسقطه القدر من على صهوة الجواد.. قتل الجواد وفر، وخلَّفه وراءه يصارع الموت وحده..

مالت شفتاه بانحناء ساخر في قسوة تكبل مشاعره بأغلال الضعف..

حتى الدنس الذي أراد أن ينغمس فيه، رفضه نقاء من زمن مضى!..

غادر منزل الصديق برتبة خائن، قاد سيارته على غير هدى إلى أن توقف بها قبالة النيل بمنطقة غفل عن معالمها..

لم يكن على هذه الأرض، بل كان في مجرة نائية وكون مختلف.. لفائفه تشتعل وتذوي للنهاية محاصرة بين شفتيه، وعيناه مغلقتان لا تبحثان عن رؤية.. لا تبغيان اللقاء بأحد..

وأتت هي..

عاهرة ترى في نفسها الفتنة، تتمايل بغنج فج وتنحنى عند النافذة البعيدة عنه، تهمس بصوت أبح يناسب الفراش وبنبرة ثعلبية تجيد بها التسلل لرغبات الرجال:

- مستني حد!..

تأملها بجمود خالٍ من كل شعور قد تبيحه اللحظة، تركت طرفي سترتها الثقيلة من يدها فكشفت عن صدرها ونهديها البارزين بإغواء:

- أنا ممكن آجي مع القمر الزعلان ده ببلاش..

تشبهه هو بالقمر!..

ألا تعلم أن جانبه الآخر صخري، معتم، لا نور فيه!..

ارتكنت لإطار النافذة متجاهلة صمته وعقدة حاجبيه التي ناوشت جبينه بشراسة:

- وأوعدك بليلة مش هتنساها..

غمزته بعد كلماتها السافرة وتنهدت بحرارة كأنما يؤثر بها بالفعل وإن لم يلمسها:

- قلت إيه يا قمر!..

باغتها بفتح قفل الباب وهمسه البارد يصلها كسهم من جليد:

- اركبي..

ما إن استقرت بالمقعد جواره حتى انطلق بالسيارة ووجهته منزله الصغير..

منزل العاشقة الوردية وطفلته..

فإن لم تستطع مجاراة الوحوش؛ ربما عليك الخضوع لدور المَسخ..

دقائق تالية مكثت تثرثر خلالها عن كل شيء، لا تفوت جملة دون مدحه.. دون تأمله بعهر فاسق ورغبة جلية بعينيها.. وعندما أظلم الطريق من

حولهما وزاد من دفع الوقود لتطير به السيارة الثقيلة مدت يدها لفخذه تتحسسه بشبق غريب:

- بيتك فين يا حلو!..

تصلب جسده مع لمستها..

قدمه كانت أسرع في الضغط على المكابح من عقله المحتجز خلف قضبان التيه..

هل هذه من ستسكن فراش ابنة العم!..

هل هذا من أصبح هو!..

دفع يدها بحدة أجفلتها فشهقت، من جيبه سحب بضعة وريقات مالية ألقاها بأحضانها وفتح لها القفل بطرد صريح:

- انزلي..

تخطت رد الفعل الأولي بصدمة ومصمصت شفاهها بحنق:

- ليه يا بيه!.. ما تقولش إن أنت من إياهم.. هتنام معايا على الطريق ولا في العربية!..

استدار إليها بوجهه وأمره هاجمها بنظرة صامتة مشتعلة هذه المرة، استجابت بانتفاضة مذعورة كأنما رأت الشيطان يتجسد على ملامحه.. خطت خارج السيارة بتعثر وبعدها اختفى يسابق الريح..

عاد لملجأه الآمن الوحيد الذي يقتنص من قلبه فيه راحة..

سكنًا وسكونًا.. هروبًا لا يريد سواه، دام لما يقرب من أربع ساعات..

هروبًا بتره رنين الجرس والصوت الآتي عقبه يدلل على زحام يرفضه، ابن العم.. ابن العمة والصديق المشترك بين الجميع في زيارة مباغتة.. خانقة، دفعه "آسر" بيده ليتحرك إلى الداخل.. تبعه "أنس" ثم "ياسين" الذي يحمل عدة أكياس مجهولة المحتوى:

- بما إنك مختفي عن الجميع، جبت الجميع وجيت لك..

العابث لا يكف عن عبثه.. ووحدته هي آخر لعبة كما يرى!..

- إيه يا بني الضلمة دي!..

أنار الضوء دفعة واحدة فأغشى بصره، تعانق جفناه وأذناه تلتقطان حديثًا بدا له كأنه يخصه، يخص عزلته التي اقتحمها ثُلة من الأوغاد المثاليين:

- ياسين المطبخ في آخر الطرقة دي، أبو الأنس ساعد الشيف بتاعنا..

وجذب المنعزل من يده يجلسه قهرًا بين طيات أريكة ناعمة:

- أنت بقى ليك عندي مفاجأة..

كل هذا وهو صامت..

الاقتحام.. السيطرة.. الاحتلال.. وهو صامت..

جاوره بذاكرة صغيرة بين سبابته ووسطاه، يده الثانية بجيبه تمسك بشيء مبهم:

- فيلم إباحي هيعجبك.. وحبوب هلوسة بوصاية من الدكتور المتحدد إقامته في الدور اللي تحت بأمر من أختك..

وأخيرًا فاز منه بانفعال مستهجن وإن لم ينفك عنه تجهمه:

- نعم!..

ربت على كتفه بضحكة رائقة:

- كان لازم يعني أقولك إباحي وهلوسة!.. بقى لي ساعة باكلم نفسي..

- جايين ليه يا آسر!..

واستقام يفتش عن علبة تبغه التي تركها قرب النافذة، يشعل واحدة ويتطلع إلى دُجنة السماء بهياج مكبوت:

- جايين نقعد معاك شوية، men's night وكده.. بعيد عن حريم العيلة..

رمقه بنظرة مختنقة ضائقة به وبحضور من أتيا معه:

- حريم!..

- آه.. جمع امرأة..

مسح "مروان" وجهه بكفه والأنشوطة التي تشنقه تضيق حول عنقه أكثر:

- أنا مش عاوز حد..

وكزه "آسر" بمرح يرفض التخلي عنه:

- يعني أنا سايب عروستي وجاي لك، وأنس قال يقعد معاك قبل ما يسافر شوية.. وياسين ساب شغله وجه وبتطردنا!..

تخللت أصابعه خصلاته هاته المرة بجذبة عنيفة كادت تمزقها:

- ما قلتش لحد فيكم يسيب اللي يهمه ويجيلي..

ربت ابن العم على كتفه ثانية برفق يظهر اكتراثه:

- أنت كمان تهمنا..

وتنهد يوازيه بوقفته، يواجه جانب وجهه المتجهم الحاد:

- أنت مش لوحدك يا ابن عمي..

خارج حدود المعقول كان الرد.. ضحكة..

ضحكة عالية هازئة.. وغاضبة!..

مال يقابل عينيه بنظرة قاتمة تفيض بمقت مخيف:

- أنا عاوز أبقى لوحدي.. يا ابن عمي..

وتسارعت خطواته تجاه مطبخ بيته يُغير عليه بعنف هائج، يسقط قدرًا من يد "أنس" ويقلب طاولة رص فوقها "ياسين" بعض الخضروات لعشاء انتووه معه:

- أنا عاوز أبقى لوحدي.. مش عاوز حد معايا، ليه مش قادرين تفهموا!..

تبادلت أعينهم من حوله نظرة غريبة.. نظرة متفهمة!..

احتدمت لها النار بمقلتيه فكاد يصرخ فيهم قبل أن يبادره الصديق الأكبر سنًا بهدوء يشبهه:

- مروان إحنا مقدرين إحساسك، بس الصح إنك ما تستسلمش لوحدتك..

اقترب خطوة ويده تمتد بربتة داعمة لكتفه:

- الصح إنك لما تقع تقوم وتقف تاني، خصوصا لو في حواليك ناس مهتمة وعاوزة تشد إيدك وتساعدك..

كاد المضيع لنفسه يفقد عقله..

يفقد اتزانه ويحرر جنونه من سيطرة لجام الكتمان..

بل فقده بالفعل وهو يدفعه بانفعال كالنار، يصدم ظهره بجدار قريب ويحتجزه باحتراق:

- ما تكلمنيش عن اللي مفروض يتعمل يا ياسين..

جذبه يضرب بظهره الحائط في كمد يكاد يوقف قلبه:

- كلمني عن حقي اللي ضاع، عن شغلي ومستقبلي وسمعة بنتي اللي أبوها بقى سوابق..

وضربة ثانية..

تحكم به أولاد عمومته إثرها يبعدانه عن الصديق الساكن بتحمل، كأنما يحتوي هياجه ووجعه:

- كلمني عن روحي اللي ماتت وقلبي اللي وقف..

ثم صرخ يدور حول نفسه بعجز.. بقهر:

- خليتوه ينبض تاني ليه!.. كنتوا سيبوني أموت..

سعى "آسر" لتهدئة وهم يطوقونه في دائرة صغيرة:

- مروان.. اهدى..

نظرته له كانت كسيف باتر يمكن أن يجذ عنقه بلحظة، طرده.. بل طردهم بنبرة مكبوتة تبغي القتل ولا يمكنها نيله:

- امشوا..

- مروان..

- امشووووا..

صارخة أجبرت الهادئ بمراقبة واعية تستشعر ما يمر به ابن خاله على استجابة، أمسك بذراع "آسر" يوقفه وبعينيه أشار للصديق:

- هنمشي يا مروان..

اعترض "آسر" مجددًا:

- ما ينفعش نسيبه لوحده يا أنس..

- ينفع..

ورمق ابن الخال بنظرة مدركة فطِنة:

- هو محتاج وحدته دي..

سكون واجم، انسل بعده الثلاث تباعًا بهدوء.. تركوه لصمت قبره الذي اختار دفن نفسه فيه..

نحن حين عزلة الروح لا نكره الآخرين؛ لكننا نكره أن نرى فيهم ما فقدناه بلا رجعة..

ومثالية العائلة، الأصدقاء بهذه اللحظة.. أشبه بتخبط أعمى بين دروب متاهة رموه عند بدايتها بلا إرشادات خروج..

أشبه بذر ملح على جرح، لن يبرأ.. بل لن يندمل أبدًا..

***

لا أحد ينتهي كما بدأ..

حقيقة.. فحتى في سباق ركض، يصل الفائز ومن يليه لخط النهاية بأنفاس متقطعة لاهثة، وعرق يحمل رائحة تراب الطريق وخبراته..

لا أحد ينتهي كما كان عند نقطة الصفر؛ حيث أنه في دربه غير الممهد يمر بالكثير، تصقله الحياة بأوجاعها لتصنع منه شخصًا لا نعرفه.. وقد تسقطه إلى عمق هاوية تنحدر على جانبي متاهته..

وإن سقط؛ احذر نهوضه.. ففي كل سقوط كسر، حتى وإن جُبر.. سيظل أثره كشرخ في الروح التي فقدت ملامحها الأصلية واكتسبت هيئة مختلفة تليق بصراط الألم الذي عبرته..

طردهم وصفق الباب من خلفهم.. استدار يواجه وحدته، رغبته في الاختفاء، الابتعاد عن العائلة والأصدقاء.. حتى صغيرته!..

والتقت عيناه بعينيه عبر مرآة عريضة تتوسط جدارًا مقابلًا..

كانتا تستعران بجحيم سرمدي لا يدرك متى بدأ وإن كان سينتهي..

اقترب يلامس وجهه عبرها، يتشدد فكه وقبضة يسراه حين جالت اليمنى على السطح العاكس كأنما تتفقده..

تفتش فيه عمن مات.. ترفض ذاك الذي عاد..

تبغضه!..

وهرب.. لم يتحمل أن تعريه نفسه في مواجهة جنونية معه.. انزلق فوق الحائط ومدد ساقيه أمامه على الأرض الباردة.. أسند رأسه فيما ورائه وترك لدوامات أفكاره حرية سحبه نحو القاع..

هو في هذه اللحظة؛ لن يقاوم الغرق..

"بحق إني.. بحبك"..

والغرق يجذبنا إلى العمق، نرى كل ما مررنا به من زاوية مختلفة.. زاوية مُشاهد لا مكترث ارتطم بالسفح واستقر هناك..

الغرق يعود بنا إلى.. البداية؛ وبداية خساراته.. عشق!..

حيث اعتراف قسري به..

"وحشتيني"..

وتلا العشق شوق وتوق..

"قلت لك عاوزك معايا"..

ثم رغبة القرب..

"بسيطة.. حددي لي ميعاد مع والدك، بعدها هيبقى لي كل الحقوق!"..

بإثرها عرض زواج عندما تكرر بذهنه للمرة الثانية وجده...

وجده ماذا!..

غير عاطفي بدرجة عشق كما تتمناه كل أنثى!..

نعم ربما.. لكنه نال ما يستحق..

"إحنا ما ننفعش لبعض يا مروان"..

نال الرفض وإن اشتهى القرب والوصال وحياة بأكملها..

واستسلم لقدره مارًا فوق جثمان الغرام الراحل، شيعه مثواه الأخير.. واستمر، أو هكذا ظن..

حتى اقتحمت الصورة.. أخرى!..

"مادام أنت بتحب المجال ده وعاوزه.. يعني ده الكارير اللي شايف إنك هتنجح فيه، ما تتأخرش"..

تهديه طرف الخيط لقلبها، وتعلق هو به..

"مين قال إن مافيش حاجة هتحصل بيننا!"..

كان سؤالًا معاندًا تحول لواقع بطرفة عين، عندما بادرت هي..

"مروان.. أنا آسفة إني قفلت الخط، بس اتخضيت لما اتكلمت فجأة"..

تجذبه إليها بتؤدة.. على مهل، تهبه السكينة وتغمس روحه بالسلام والطمأنينة..

"هي لوحة دافنشي دي مش أوفر شوية!"..

تلك لم تكن غيرة عاشق، كانت حمية رجل.. أقنع نفسه بها وبتر عقبها كل فكرة تمانع اختياره بقرار الامتلاك..

"أنا عاوز أتجوز سما بنت عمي"..

حصل على ما أراد..

العاشقة الوردية جادت عليه بكل ما فيها.. بكيانها وروحها وعشقها ونفسها.. وقبلهم جميعًا؛ قلبها الذي كاد يهشمه بلا وعي أو إرادة..

"مافيش علاقة صحية واحد من أطرافها بس هو اللي بيغذيها بالمشاعر والتاني مجرد مستقبل"..

نعم.. كانت أمه على حق؛ فبعد عام ونصف.. بعد طفلة أصبحت جنته اختارت الفراق..

"بحبك"..

"أنا بحبك يا مروان"..

"بحبك"..

"طلقني!"..

العم أخذ جانبها.. هربت منه، ابتعدت عنه وتركته يعاني وحدته التي ألقت به في غياهب جحيم السكون.. الصمت.. القبر.. والموت..

هو متهم بالقتل!..

هو مُخان مُهان..

هو سجين..

هو مظلوم.. ولا أحد يهتم!..

هو الخاسر الأعظم في لعبة الحياة..

ثم..

حكمت المحكمة..

لحظة!..

القضية لم تُنظر بعد..

الأدلة مُزيفة..

الشاهد زور..

والعدالة عمياء!..

وفي القلب طعنة غصت بها الروح.. نبض ضاع وتوقف وثاب..

دائرة.. دوامة.. عذاب أبدي، والبداية والنهاية هو!..

"أنا آسف يا مروان"..

والسخرية!.. من خان يطعن في الظهر ويقدم أسفه على طبق من غدر..

بلحظة بات هو الجاني..

انتهى..

"قررنا نحن.. جمال رفيق وكيل نيابة المعادي.. حبس المتهم خمسة عشر يومًا على ذمة التحقيق، ويراعى التجديد في الميعاد"..

لكن المثير للاستهجان لم يأتِ بعد..

فالعاشقة أقبلت بقرار انفعالي..

"رُدني"..

والرافضة أتت ونبرتها تعود بالزمن، باعتراف تظنه مؤثرًا كأنها تحيا فوق خشبة مسرح جمهوره ينتظر لحظة إسدال الستار بقبلة غرام..

"أنا بحبك"..

تجمدت أفكاره لثوان وضرب رأسه بالجدار.. مسح وجهه بكفه وقبضته تشددت بلكمة للأرض الباردة جواره..

ثانية فثالثة والدوامة ابتلعته..

هذه المرة ارتطم بالقاع يتطلع لكل شيء من أدنى نقطة..

هل جربت أن تنظر للعالم من زاوية مختلفة!..

تراقبه من الأسفل حيث الكل يعلوك..

يتأملك بخوف، بارتباك، بجزع وتوتر.. بفقدان أمل!..

هل جربت أن تموت!..

نقطة تحيط بها دائرة الموت الخانقة..

لكن المعجزة حدثت، عاد للقلب نبضه واستقرت الروح بالجسد.. خلف قضبان القهر والظلم والعتمة..

"أنا اتولدت من جديد، ولا نسيت يا دكتور!"..

ثم بوسط ظلامه ظهرت بقعة ضوء شاردة..

"حاتم"..

ومن يعتني به دون أن يراه..

"الباشا"..

ترك نفسه للتيار يرمي به على شواطئ المجهول، يقطع مرساته ويدفعه نحو عباب اليم الهائج..

"ساعات الاستسلام للغرق بيكون أحسن من محاولة العوم ضد التيار"..

وحان وقت الزاوية الثالثة..

زاوية رمادية بدرجة قاتمة..

لم يعد يراه من ثقب مثاليته الضيق، ولا يراقبه من خلف جدار هش كضحية..

وقتها صار ضارية في طور الشرنقة..

وظن أنه قريبًا سيمتلك أجنحة الشياطين..

ثم حدثت المفاجأة.. حريته طالت الجسد دون الروح، الروح حبيسة الانكسار والذل والخسارة الممزوجة بهزيمة بطل.. بسقوط فارس وهروب جواد..

أراد الانتقام وأفلته..

"التمن اللي باعك بيه عز الدين ضرغام.. صاحب عمرك"..

"مروان دول قتلوا الراجل قدامنا.. كان لازم أخاف، صعب تقدر موقفي إلا لو اتحطيت فيه"..

"كانوا هيفضحوني، هيضيعوا مستقبلي ولو عاندت مش بعيد يقتلوني"..

"اسحب استقالتك يا عز"..

بحث عن الضياع وتلو البحث رفضه..

"بيتك فين يا حلو!"..

"انزلي"..

وبين التيه والغضب والرغبة في التماهي التي باتت أمنيته..

أن يصبح شبحًا لا يراه أو يشعر به أحد..

كانت هي هناك..

"بابا"..

"جوجو شطورة"..

لكمة قاسية ضربت الأرض جوار أنين قبضته..

أمه التي أوجع قلبها..

"ليه بتخوفني عليك!"..

تكررت اللكمة بضِعفها..

أبيه الذي لا يدري كيف يشعر نحوه!..

هل يلومه لأنه من زجَّ به خلف القضبان ولو بلا إرادة!.. أم يتفهم مثاليته في عالم لا يعترف بها أو يهتم لها.. بل فقط يدهسها!..

"أنا عاوزك تمسك مكان ملك في المجموعة"..

لكمتين تاليتين.. الجسد فاقد للحس، والروح تذوي حد الموت..

انتهاءً بالعرض الختامي قبل يومين بعد تركه لكل شيء خلفه..

"إيه رأيك تدير مكتبنا في ألمانيا!"..

ينبذه!.. لكمة..

يبعده!.. لكمة..

يتفادى شعور الخزي بوجوده!.. لكمة..

أم يهديه حريته.. وراحته!..

هو لا يكره الجميع وحسب؛ بل يكره نفسه..

يكره دنسه وسط النقاء، يبغض عارًا يشكله على صورة عائلة نموذجية بلا وجوده..

يمقت حياة تبقت بقلبه فأوهنته..

ومع اللكمات التي تتابعت انتبه متأخرًا؛ كُسرت يده.. امتلأت بالرضوض وتسلل من خدوشها بعض نزف..

وأمام ألم نفس سقطت ببئر اليأس، لا يكون وجع الجسد ذا قيمة..

عند خط النهاية: لا أحد ينتهي كما بدأ..

بل ينتهي بإفاقة حتمية، أنهت سيل الذكرى والغرق..

***

في الحب هناك وجهة واحدة تنتهجها القلوب..

السقوط!..

وكما في قاعدة الجاذبية: ينتهي كل سقوط بارتطام.. بالوصول لأرض ثابتة، قد تكون مرحلة يليها انهيار آخر..

وقد تكون الحضيض!..

هو وصل بها إلى الدرك الختامي لقصة لم يجُز لها بداية: قصة لا تستحق أن تُذكر بين القصص.. أو حتى تحمل ذاك المسمى..

هو في حياتها خطَّ صفحات، لكن يبدو أنها بحياته كانت سطرًا مر بعينيه فوقه وانتهى منه في السطر التالي..

تزوج.. خمسة أحرف تمرر بساطة، استمرار.. وتتمة..

مزق الأوراق بدفترها، ومحا سطرها من دفتره وتم الختام..

تزوج.. وشهور معدودة فاتت على فراقه لها، على عشق اعترفت به وتمنت أن يولد صداه بقلبه، على مسوغ لا تراه هامًا بهذه اللحظة فهو تجاهله.. واستمر!..

أرجوحتها تتحرك بفعل القصور الذاتي لدفعة واهنة من قدمها قبل دقيقة، شاردة.. بعيدة.. باكية، وهي التي لم تبكِ منذ دهر..

لم تبكِ حتى عندما تركها لأن الأمل وقف كسد منيع ضد عبراتها..

لم تبكِ فقد كانت تظن أنه سيعود..

والآن، تحررت دموعها من القيد.. هاجمت السد وهدمته وأحرقت وجنتيها بسخونة حريق يتأجج بين ضلوعها..

استشعرت مجاورة والدتها لها فمدت يدها تمسح وجهها لكن أصابع "علا" تحكمت بها تمنعها:

- سيبيها..

كأن أمر الراحة كان ينقصها فالعبرات تدافعت بعنف أكبر جوار شهقة غصت بها باختناق وأمها تردف:

- دموعك أنا بس اللي أشوفها..

واقتربت تمسد ذراعها برفق حانٍ:

- ابكي.. ما تحرميش نفسك الراحة دي..

قبضت على يدها بدعم صلب يليق بقوتها وثباتها:

- ولما تخلصي..

تشبثت بها عينا ابنتها الضائعتين:

- هتكون آخر مرة يا تاليا..

كلمات الأم صبت فوق قلبها حممًا حارقة..

ارتمت على صدرها تتعلق بثيابها كعادة طفولتها..

ضمتها بشدة وهي تفهم وتتفهم، تدرك أن ابنتها اليوم تشبه طفلة الأمس؛ تلك الطفلة التي تنعزل عن العالم عند أرجوحتها حال وحدتها، ضعفها وخوفها.. تهزها بإيقاع بطيء وتشرد فيما لا تراه..

- أنا عاوزة أعرف حاجة واحدة!..

همست استفهامها التائه بحشرجة:

- لما هو عادي ممكن يتجوز؛ طلقني ليه!..

وتراجعت تغوص بعيني والدتها بحثًا عن جواب يريح عقلها:

- أنا قلت له إني هاكمل معاه، إن اللي حصل له مش فارق معايا.. ليه سابني!..

احتارت الأم.. هل تكوي الجرح لتوقف نزفه دفعة واحدة؛ أم تضمده وتترك له بعض الوقت!..

هل خيار القسوة أهون أم اللين!.. أيهما يهدي ابنتها السلام!..

ولأنها هي فقد حسمت قرارها بلا تراجع:

- لأنه ماحبكيش..

استوعبت تجمد جسد ابنتها بأحضانها فأردفت تنهي جرحًا تريد الحد من نزفه:

- لو حبك كان هيبقى صعب عليه يرفض عرض قربك، باباكِ عملها معايا زمان.. قال لي هنتطلق، معايا مش هتكوني أم، اتمسكت بيه.. رفضت وعاندته وخضع، ما قدرش يبعد..

ثم رفعت وجهها تواجه عينيها بحزم:

- عارفة ليه!..

نظرة الاستجداء بين جفني صغيرتها آلمت قلبها فأكملت بذات القسوة الحازمة:

- عشان بيحبني..

ومررت أناملها تمسح دمعات ابنتها التي تباطأ هطولها:

- أنتِ تستاهلي حب بجد، راجل يحبك أكتر ما بتحبيه ويجيب الكون كله هدية بين إيديكِ..

منحتها بسمة داعمة، تفيض بالعنفوان والمؤازرة:

- وقبل الحب؛ لازم تدوري على تاليا.. لأن هي الأهم، وما توقفيش إلا لما تلاقيها.. وقت ما تلاقيها..

تبدلت بسمتها لحنو مداعب:

- نبقى نشوف موضوع الحب ده..

ابتسمت تقابل أمها بلمعة أمل:

- تفتكري سهل ألاقيها!..

- طبعا.. هي جواكِ بس محتاجة نشيل من عليها شوية تراب كده وهتظهر وتسيطر..

وغاصت ببصرها تزرع قوتها الخاصة:

- كلنا بنمر بعقبات يا تاليا، بنتوجع، بنقع.. بنفقد الأمل ولو للحظات..

أعادتها تريح رأسها قرب نبضها الهادئ باحتواء:

- المهم بعد كل ده، حتى لو وصلنا لقاع اليأس.. نبص لبكرة ونحاول نطلع، وزي ما بيقولوا.. ميزة الوصول للقاع إن في اتجاه واحد بس ممكن تتحرك فيه..

وقبلت جبينها بعمق دافئ:

- فوق..

مرت دقيقتين من صمت كأنما تترك لطفلتها هضم ما مررته لها من وجع واحتراق.. وأمل، تباعدت بعدها الباحثة عن الحياة بعزم ووهج جديد على زرقة سماءها الغائمة بآثار الحزن:

- أنا عاوزة أتعلم شغلكم يا ماما، ينفع!..

ناوشتها والدتها ببسمة حانية:

- هتسيبي العلاقات العامة!..

أومأت بموافقة حاسمة:

- وهانضم لتيم الإدارة..

نعم..

ما يميز الارتطام وإن تلاه كسر.. حطام: أنك حينها تصل لمنتهاك وبعدها تبحث عن..

ميلادا!..

***

يقال أن لكل قوي نقطة ضغط مناسبة تكسره؛ حقيقة!..

فمهما بلغت شدتك لابد من ضعف ما كامن في الظل ينتظر لحظته، ينقصه فقط فتيل يفجره..

ربما وجوده مع تلك الزمرة بذاك الوقت، بل ظهورهم جميعًا بعقر دار العائد من خلف القضبان دون حرية؛ كان فتيلًا اشتعل بغتة ليهديه انفجارًا.. أو راحة..

ابن عمه أخبره أن الوالد يفكر في سفر بعيد علَّه يفتش عن ذات جديدة، لا تشبه تلك التي تاهت منه أو أسقطها عامدًا.. ولا تقارب من يحاول التشبه بها..

يبتعد علَّه يعود..

جنحت به أفكاره حد شرود لم يشعره بقدومها أو مجاورتها له لثلاث دقائق كاملة تشبعت خلالها من ملامحه المنقبضة بضيق..

تتفهمه، تدرك ما يمر به.. هم عائلته وإن فُقدت صلة الدم..

ابتسمت بنعومة واندست بين ذراعيه بتؤدة كأنما تنبه لحضورها على مهل:

- تصرف أنس صح على فكرة، وفكرة باباه كمان.. هو محتاج يبعد لحد ما يسترد نفسه.. يبني مروان جديد ووقتها يقدر يواجه المجتمع اللي هو مؤمن إنه شايفه عار..

تنهد فداعبت أنفاسه خصلاتها:

- الظلم موجع قوي يا راما.. أنا كنت حاسس إنه زي الطير المدبوح رغم عنفه معايا، ماقدرتش أعترض..

تسللت بأناملها تلامس فكه بهمس محتج:

- المرة الجاية ما تسيبوش يعمل فيك كده، ممكن يأذيك!..

ابتسم ومال ببصره يغوص بدجنة مقلتيها مبررًا بصدق:

- كان محتاج يفجر البركان اللي جواه، ولو اللي بيحبونا ماتحملوش غضبنا وحزننا يبقى مالهمش لازمة معانا في الفرح..

سكنت تتأمله..

تتنهد بعمق بطيء وتغرق فيه.. في عسل عينيه ودفء نظرته وعشقه الفائض منها..

تلتصق به أكثر وتطلب بمفاجأة:

- ياسين.. أنا عاوزة طفل منك..

نعم فاجأته..

فالاتفاق بينهما بناءً على رغبتها هي كان بتأجيل حملها حتى تستقر بعملها وتتقنه وتترقى فيه!..

دهشته لم يخفِها؛ احتلت بسمته التي لا ينكر أن البهجة قد طالتها:

- واتفاق الأربع سنين!..

هزت كتفيها ببساطة تسحره:

- يتلغي..

كان سعيدًا..

لمست سعادته فاعتدلت تواجهه وهو يتأكد بحنان:

- أنتِ متأكدة من القرار ده!..

جوابها أتاه عمليًا باقتراب، عناق وقبلة ووجهه بين يديها:

- جدا جدا..

جذبها يجلسها فوق ساقيه بضحكة رائقة:

- يبقى نبتدي التنفيذ فورًا..

في العشق..

اترك لقلبك مساحة من حرية التحليق..

امنحه جناحان بلا قيد، لكن قبلها كن على يقين أنك حين تعانق الشمس.. لن تسقط!..

***

العشق عند البعض أسطورة؛ لا يصدق فيها إلا عندما يسقط بين أحداثها كبطل ملحمي أصاب قلبه سهم الهوى..

العشق حكاية.. رواية.. وواقع؛ هي لن تحياه أبدًا كخيال..

هل نتبدل عندما نسقط في بحار الغرام!..

لا.. نحن فقط نغرق..

ننسى قواعد النجاة وقانون الطفو، ننشد الوصول للعمق فهناك بداية حياة..

ذللت له كل عقبات الجلوس مع والدها بصحبة والده وأخيه الأصغر لطلب يدها، نال من الأب التقدير ومن العم نظرة متفحصة لكنها لا تعارض.. ومن أمها رغبة في الاطمئنان على صغيرتها حيث انهالت عليه

بسيل من الأسئلة كأنما تحولت من محامية لرئيس نيابة يحقق في جريمة غامضة..

ظل يجيب بصبر وابتسامة لبقة رغم تجهم ملامح أبيه الذي يبدو أن تحقيق الأستاذة يزعجه..

عرفت عنه الكثير.. عن الأب عمدة قرية "......" التابعة لأحد مراكز محافظة الغربية، عن الأم التي رحلت عن عالمه قبل أن يتم عامين من عمره بمرض غامض.. وتمنت ألا تبحث والدتها عن مزيد من تفاصيل..

عن زواج تم عقب رحيلها بعام وقبل أن يتم الثاني أتى أخيه الأصغر إلى دنياه وبعده بعامين آخرين أتت أخته التي غابت عن المشهد لحمل متعب بطفلها الثالث..

هو الوحيد الذي جنح بعيدًا عن العائلة إلى العاصمة بحثًا عن تعليم أفضل ومستقبل بدأ بناءه من الصفر بعمله في شركة زوج العمة..

تأخر في الزواج!.. فحتى الأخ الأصغر تزوج وأنجب..

كان سؤالًا مباغتًا من المحامية الحذقة ليرد هو ببساطة صادقة عن اختيار، اختار العمل بمجاله والترقي فيه وترك لأخيه الدور الذي انتقاه

بنفسه، رعاية أرض عائلته وطموحًا إلى منصب الأب بعد سنوات معدودة..

أما أبيها فقد سأل عنه زوج عمتها الذي أشاد به كرجل عملي مخلص وناجح وذا مستقبل مشرق مضمون.. وأوصى صديقًا أن يتتبع الخبر في بلدته الصغيرة.. ثم لم ينسَ أن يذهب بنفسه لمنطقة سكنه بالقاهرة والتي لم يغادرها منذ عشرة أعوام..

الأمور كلها تدلل على اكتمال..

على رغبتها وموافقتها دون الحاجة لسؤال..

على سعادة تصر على اقتناصها فهي أبدًا لا تُقدم على طبق من تطوع.. بل تُسرق..

قُرئت الفاتحة، بعد أسبوع كان يضع حلقته بإصبعها جوار خاتم بلاتيني بياقوتة متوهجة تحيطها ماسات صغيرة همس لها حينها:

- دي النار اللي جوا قلبك..

وحين اندهشت بتساؤل صامت أردف:

- أنا حسيت بالحياة معاكِ أنتِ بس..

نعم.. النار في بعض الأحيان؛ حياة.. طاقة.. شعور، واتقاد..

بهدوء استأذن والدها في اصطحابها للعشاء..

تمنى لو طار بها بعيدًا، حلق بين النجوم والكواكب.. طاف بالمجرات وعدَّ شموسها..

تمنى لو باتت له الليلة قبل نهار الغد.. لكن الزفاف حُدد بعد خمسة أشهر!..

أوقف سيارته قبالة مطعم راقٍ وأخبرها بنبرة مثقلة بمشاعر جلية:

- المكان هيعجبك هنا، والأكل هايل..

ابتسمت بنعومة تمررها فقط له هو.. رجلها، عاشقها ومعشوقها:

- أنا واثقة من ده..

تسللت كفه تحيط بيدها في ضغطة متملكة تائقة فجذبتها برفق عاتب:

- ممنوع اللمس يا باشمهندس..

ابتسم بتنهيدة وأحكم أصابعه حول أصابعها في عناق لا يتخلى:

- بحبك..

أسبلت جفنيها والكلمة والهمسة وخشونة الصوت ترسل لقلبها وجسدها رعشة دافئة:

- برده.. سيب إيدي لو سمحت..

شاكسها ببسمة واسعة فككت تجهمه وشعت بملامحه وسامة علقت عيناها به:

- هو إحنا قلنا كتب الكتاب إمتى!..

سحبتها مجددًا وتشبث بها مجددًا فأنبته بنظرة:

- بعد أربع شهور..

- يعني قبل الفرح بشهر!..

- أها.. مش لازم أدرس أخلاقك!..

ضحكته التي أطلقها بعفوية سيطرت على سمعها وانفراجة وجهه حبست بصرها بطواف في محرابه، سكن يتأملها بعشق لا ينكره أحد.. عشق لا يمكن إلا أن يكون لها.. هي.. وحدها، أنثاه هو:

- أنتِ تدرسي اللي أنتِ عاوزاه..

ومال باقتراب راقبته بحذر زاجر:

- أخلاقي، شغلي، مشاعري.. بس أهم حاجة..

وصمت يراقب فضولها إثر بتره لحديثه بشغف وازى استحواذ، سيطرة، جذبة.. ويده تضغط كفها المفرودة عند النابض بين ضلوعه بعنف:

- لازم تكوني عارفة إن ده؛ ملكك أنتِ وبس..

والصدق ينضح من تفاصيله..

من ملحمة عشق تخصها، صار هو.. بطلها..

***

هي امرأة عاشقة سعادتها تتلخص في حروف اسمه، وتكتمل بهجة حياتها بأطفالها.. والآن مع تجسُد أمنيته التي باتت حلمها بأحشائها تشعر أنها تستأثر بالكون كله..

كانت تنتظره دون صبر على أريكة غرفة المعيشة، لم تخبر أحدًا حتى أبنائها.. تحمل بيدها اختبار حملها الإيجابي وكل ثلاث ثوان تتأمله في غير تصديق..

ترفعه أمام بصرها، تديره حول نفسه ثم تقبض عليه كأنه ألماسة ثمينة..

عندما سمعت دوران مفتاحه في الباب لم تحتمل، استقامت في خطوات أقرب للهرولة وإن شابها حذر مهتم، حينما واجهها ودهشة ملامحه تستغرب وقوفها هكذا تعلقت بعنقه دون مقدمات..

أحاطته بذراعيها وشددت طوقها حوله وهمسها أقرب لصراخ مبتهج:

- أنا حامل..

ورغم أنه كان يحتضنها بالمثل تمامًا فقد تصلب جسده مع الخبر.. وأبعدها!..

تشتت مقلتيه وحيرة نظرته وتلعثم أحرفه تفهمتهم فاحتوت وجنته بكفها:

- حامل يا زياد..

عانقت كفاه خصرها بوجوم قلق قبل أن يبتره بتشوش:

- سارة.. أنا.. مش.. إزاي!..

ضحكتها الساحرة أنبأته بمدى سرورها وهي تداعبه:

- إيه إزاي دي يا حضرة الباشمهندس!..

حررها وتراجع يمسح وجهه:

- أقصد إن الموضوع عدى عليه تلات سنين تقريبا..

اقتربت خطوات ابتعاده تستريح فوق صدره بنعومتها التي تذوب فيها خشونته:

- ربنا أراد إنه يحصل دلوقت..

مع هدهدتها الرقيقة لتوتره أعاد ذراعيه حولها بسؤال مشتت:

- مش اتأخرنا شوية!..

تباعدت تطوق نظرته بأمان نظرتها:

- وهو بإيدينا!.. ربنا رزقنا بهديته في الوقت اللي المفروض تيجي فيه..

ولمست كتفه بتمريرة مطمئنة من يدها:

- مالك يا زياد!.. أنت كنت عاوز بيبي..

خوف غامض اكتنف نفسه وتسلل لملامحه المتغضنة ففطنت إليه مع همسته المترددة:

- قلقان عليكِ..

عادت لضمته بقرار عسى فيه سكن روحه:

- هنروح للدكتورة وكله هيبقى تمام بإذن الله..

مع زيارة الطبيبة تضاعفت مخاوفه ولم تعد محاولاتها لبثه الهدوء والراحة تفلح..

لقد أخبرتهم ببساطة أن عليهم التخلص من الجنين لأن عمر الأم لا يناسب حملًا، ولا صحتها كذلك قد تتحمله..

لكن معشوقته وعشيقته وعاشقته الناعمة تمسكت بجنينها حد مشادة.. غضب، ونوم بغرفة منفصلة ليومين كاملين أتاها بعدهما مذعنًا:

- سارة حاولي تقدري خوفي..

كتفت ساعديها بضيق:

- أنت عاوزني أموت ابني يا زياد!..

برر بمنطق رجل غارق فيها:

- ما هو ابني برده، بس أنتِ عندي أهم من الدنيا باللي فيها..

وأسكن رأسها صدره بغتة باعتصار استشعرت خلاله رجفة جسده:

- لو ممكن يأذيكِ مش عاوزه..

ثم احتوى وجهها بين كفيه ينغمس بلا نجاة بين جفنيها:

- أنتِ مش بس أهم من الدنيا.. أنتِ دنيتي كلها يا سارة..

وبلا وعي كان يقتنص شفتيها بلهفة فاجأتها، لكن لم تمنعها المفاجأة من مبادلته قبلته التي طالت حتى تقطعت أنفاسهما معًا فاستند بجبينه لجبينها بلهاث:

- دنيتي..

تنهدت بتفكير حائر.. تباعدت تستند لظهر الفراش وتجذبه بين ذراعيها ليرتاح عند دقات خافقها:

- وأنتَ دنيتي يا زياد.. وطارق، هيجي ينور دنيتنا..

ابتسم بيأس..

لقد اختارت اسمًا!..

بل صنفته كذكر!..

أحاط خصرها بذراعه وتمتم بقنوط:

- كمان بقى طارق!..

خللت خصلاته الكثيفة بأناملها قبل أن تطبع فوقها قبلة حانية:

- أيوة.. طارق بن زياد..

وضحكت برقة:

- يمكن يبقى بطل زيه..

زفر بحرارة وجذب كفها يدفن شفتيه بباطنها..

يتناسى خوفه.. وبهجتها تتسلل لقلبه بمثيلتها، يكرر البسمة ويتخيل.. يستكين!..

***

ويفوز باللذات كل مغامر.. أو من يجيد القنص!..

كل لص يتقن دروبه ويعرف كيف يسلب ما يشتهي؛ تلك معلومة حقيقية مؤكدة..

في مشهد كلاسيكي من رواية رومانسية تليق بأفكارها غادرت الفراش وارتدت قميصه الذي خلعه عنه قبل ساعتين عندما عاد للمنزل..

تركض بعيدًا عن متناول يده وتخبره بدلال طفولي:

- لا على فكرة بقى.. أنا ما تعبتش في العشا وأنا أصلا مش بعرف أطبخ عشان تيجي وتطنشه كده!..

تأمل ساقيها الناعمتين من أسفل القميص الأسود الذي بالكاد يتخطى ردفيها وأشار بعبث ماجن:

- ما هو ده عشا برده..

تخصرت بعناد مشاغب:

- لأ طبعا.. هتدوق الأكل اللي عملته..

اعتدل جالسًا وتمطى بكسل:

- موافق.. بس بشرط!..

- إيه!..

غمزها وقفز يرتدي سرواله بنشاط مباغت:

- هتعرفيه بعد العشا..

كبتت فضولها تتأمله بترقب وهو يخرج من الغرفة..

تبعته بتساؤل ورأته يقترب بحقيبة ورقية كانت بيده عندما أتى من الخارج، همس لها بينما يمر جوارها عائدًا إلى حيث كانا:

- جهزي العشا وأنا هاجهز الشرط..

قطبت جبينها بحيرة مستفسرة تجاهلها بمكر:

- وما تغيريش القميص..

منعها من ولوج الغرفة حتى انتهيا من العشاء الذي تلذذ به.. قبَّل أناملها تباعًا:

- تسلم إيدك يا مولي..

دون اكتراث للأطباق الفارغة على مائدة الطعام استقام يجذبها خلفه.. يفتح الباب ويدفعها بحركة استعراضية شقية:

- المفاجأة بقى..

وجدت الغرفة تشع برائحة عطرية مثيرة لم تدرك لمَ دغدغت حواسها كلها!..

عدة شموع حمراء بكؤوس زجاجية دائرية متراصة جوار الجدار..

وعلى بعد خطوتين منها دثار شتوي ثقيل مفرود فوق الأرض، إلى جواره زجاجة غامضة.. وغطاء خفيف..

- إيه ده!..

سحبها ونبرته أبحة بخشونة مغوية:

-هاعملك مساج..

ابتسم مع ضحكتها الخجول، ساعدها لتتمدد وأزاح القميص عن كتفيها إلى منتصف ظهرها، أغرق كفيه بالزيت الخاص الذي تصاعدت رائحته تتخلل أنفها باقتحام جرئ قوي وبدأ يمسدها برفق خبير أثار دهشتها..

مع حركات أصابعه بدأت تئن باستمتاع كقطيطة تخرخر بين يدي صاحبها.. توقف بعد دقيقتين فاعترضت بتململ، انحنى يهمس بأذنها:

- دورِك بقى..

استلقى جوارها يخبرها أن تبدأ بلا تأخير.. استجابت تعتدل في جلستها، عقد ذراعيه أسفل رأسه وشاغبها بملاعبة:

- وريني الخبرة..

ضحكت بخفوت مرح.. دهنت يديها بالزيت وبدأت في تدليك كتفيه، دقيقة مرت ترك لها حرية التجول فوق ظهره المتصلب.. حرك عضلاته براحة ثم جذبها بغتة بموازاة شهقتها المشدوهة:

- أنا شايف إننا اتعشينا؛ فالمفروض نحلي..

وبتر اعتراضها بتملك خضعت له بسلاسة ناعمة..

هو يقتنص ما يرغب..

هو مغامر فاز بكل لذة اشتهاها..

***

ربما يمكنك الاختباء خلف غيوم تصطنعها أنفاسك عن نظرات الفضول، لكن هل تقدر على منع أعين الاهتمام من تتبع تفاصيلك!..

نال الضباب الرمادي الذي يكاد يخفي ملامح المواجه له من عينيه اهتمامًا خاصًا..

حاله تغير!..

بالفعل، وكثيرًا..

لكن من قال أن ما تعرض له بالهين ليعود كما كان بضغطة زر!..

الرجل الصلب انكسر..

وكسر الرجال ربما يحمل معه ختام قصة كُتبت على الصفحات الخاطئة وبقلم مجنون خط صاحبه رديء.. فخرجت أشبه بخربشات طفل عابث فوق جدار لن تسامحه أمه على تلويثه بشقاوة ألوانه..

أدار وجهه يسحب دفقة هواء ويتأمل الفوضى من حوله.. ابن العم يحوز أوسكار الفوضوية فالمكان أشبه بشقة رجل عازب..

وكاد يبتسم.. أليس هذا هو الواقع!..

لقد مر سبعة أيام على اقتحامه مع الصديق وابن العمة لخلوته الموحشة، واليوم أتاه ثانيةً بعدما ترك له شيئًا من حريته المفقودة بوحدته ليجد أصابعه محاطة بدعامات كسور، نظرته الباردة منعته السؤال عن سببها!..

عاد بناظريه نحوه باحثًا عن ثقب ينفذ منه إليه:

- في مرة قريت إن السيجارة هي القاتل الودود..

لم يهبه الآخر انتباهًا بل نفث دخانه وحافظ على جموده:

- متعة مؤقتة نهايتها خسارة..

نبرته تحمل شيئًا من تأنيب جوار إدعاء اللامبالاة، لكن الرد اللامبالي أتاه دون التفاتة:

- لو خايف تموت؛ تقدر تقوم تمشي..

مط "آسر" شفتيه محافظًا على هدوء وجهه بعيدًا عن انفعالات لن تصل به لمكان مع ذاك المنعزل عن الجميع:

- ولو أنا مشيت؛ هتقول لكل اللي حواليك كده برده!..

وارتكن بمرفقيه لركبتيه، يميل نحوه مقتربًا ولا يترك له فرصة الفرار من تتبع عينيه:

- عمي مثلا!..

- اللي خايف يبعد..

- واللي مهتم!..

حاز على الصمت، فاللهجة الحادة القاسية ليست بجديدة عليه، لكن بروده ورفضه.. شراسته!.. صفات مكتسبة من محنة لم يخرج منها سالمًا..

وهو مصر على إعادة النبض لنظراته الباهتة الشاردة وتلك العتمة الوحشية بها:

- في ناس بتحبك وخايفة عليك مش خايفة على نفسها معاك..

وأخيرًا ظهر انفعال ما وإن كان ساخرًا فهو بداية:

- بلاش الدخلة العاطفية دي يا آسر.. قِدمت قوي..

تمسك هو بطرف الخيط فلامس نبرته مزاح ودود:

- والله أنت اللي قديم.. ناقصك كاس ويكمل مشهد عماد حمدي..

الدعابة لم ترُق للمتوحد مع ذاته بل عصفت بغضبه فأخرجه بوجه ابن عمه بلا اكتراث وبفظاظة:

- والعيلة بقى ما لقيتش غير شهريار هو اللي يجي ينصحني!..

ثم أطفأ تبغه بعنف، نهض مبتعدًا يخفي عنه استعار عينيه ولم ينتبه لضيق وُلد بنفس "المهتم" بل أكمل بينما يلتفت وبيده لفافة أخرى صرح قبل أن يحيطها بشفتيه ويشعلها كأنما يشعل معها روحه:

- ما حدش اتدخل في عربدتك عشان تقلق عليَّ من سيجارة..

وبالعربدة يقصد زواجًا قصير الأجل، وثانٍ تبعه دون إبطاء!..

واجهه بعينين محمرتين، ومع السواد المحيط بهما لم يملك "آسر" إلا أن يضم قبضته جواره، يضغط أسنانه ويزفر بموازاة طرفة جفن متجاهلًا تصريح "مروان" وغلظة ما ينطق به..

ففي عرف عائلته.. الاهتمام يبيح الكثير، وصلة الدم تبيح أكثر..

استقام يتبعه، يواجهه.. يضع يديه بجيبي سرواله ويرفع رأسه يمنحه نظرة مباشرة:

- مش شايف إنك مزودها!..

ولم يكن يقصد ما قاله، بل يعني الموقف برمته.. ما مر منه وما هو آتٍ:

- دي مش النهاية..

- أنا شايفها النهاية..

رده حاسم وسريع، وباتر..

هو حتى لم يأبه لقسوة ما ألقاه بوجه ابن عمه قبل ثوان.. و"آسر" مرر الموقف واقترب خطوة..

يحرك يده ليزيح الدخان الذي شكل سحابة مقيتة في المسافة القصيرة بينهما:

- مش مهم أنت شايف إيه.. ده درس يا مروان، الحياة دروسها صعبة وبينجح بس اللي بيتعلم دروسه ويستفيد منها، مش اللي بيفشل مع أول اختبار.. فيهرب!..

الابتسامة الساخرة عادت ومعها نظرة تحمل تهكمًا صريحًا:

- بلاش دور الفيلسوف ده.. مش لايق عليك يا ابن عمي..

- ولا دور اليائس يليق بيك..

عاجله بالجواب الجاد، وخطوة أخرى قربته أكثر حد وضع يده فوق كتف "مروان" بتفهم وتربيتة عطف:

- ولا حتى ده اللي تستحقه.. فبلاش ترسم بإيدك نهاية ما تستحقهاش..

عاد لنظرته جمودها فتجاهل "آسر" سكون رد الفعل ونبرته ظهرت بها عاطفة واضحة:

- مش هاقولك فكر في مروان لأنك ناسيه أو بتتجاهله دلوقتِ..

وغاص بعينيه في العينين البنيتين ودائرة العسل التي تحيط بحدقتيه فاقدة لوهجها المعتاد:

- فكر في عمي وخالتي..

بعدها تنهد يريد أن يقحمها بالصورة وقلبه يوافقه بينما عقله يمانع وبشدة:

- فكر في...

ثم فاز العقل وهو يغير أحرف كلماته الأخيرة:

- أقولك.. فكر في شجن!..

الاسم أثار انفعالًا طفيفًا لم يلمحه المغادِر بخطوات واسعة مغلقًا باب المنزل خلفه بهدوء..

هدوء لم يمنعه من تعكير سكون المياه الراكدة ودفعها لدوامات حيرة جديدة..

الانفعال تمثل في رجفة شفاه وارتعاش جفن.. وأصابع تكرر باعتياد أشبه بالروتين رفع لفافة التبغ.. لفمه!..

وفي تلك الليلة ورغم كل شيء..

محاولات الأب، حنو الأم، قرب الأخت.. وحبها هي وهديتها "صغيرته" إليه؛

كان قراره حاسمًا وهو يلقيه على مسامع والده بمكتبه:

- أنا قررت أسافر..

(٤٥)

أسوأ اغتراب أن تغترب عن ذاتك..

أن تهجرك روحك..

فتُخلف من ورائها جسدك ينضح بالخواء!..

الهزيمة أحيانًا تكون مجردَ بترٍ غير نظيف!..

وهو رجل مهزوم يبحث عن ركن خفي يلعق به جراح معركة أقحم بوغاها دون إرادته.. حارب وكر كمقاتل اعتاد الصمود، غاصت السهام بجسده والحِراب قتلته.. ثم أتت الطعنة الأخيرة من سيف غادر فأجهزت عليه..

سقط..

مات..

عاد وعاش ونبض..

وسقط!..

خياره بالرحيل لم يكن انفعاليًا، لم يتسم بغضب أو تيه.. كان رغبة من كل ذرة فيه، من روحه وعقله وكيانه الذي يفتش عن وطن جديد يلملم بين جدرانه شتاته..

وطن بعيد عن الجميع..

عن تلك الصورة النقية الذي يمثل وحده رتوشها المشوهة..

فإما يخلق لنفسه حياة أخرى، أو ينهيها ويختبئ في ظل الخزي والخسارة..

"أنت واثق من قرارك ده يا مروان!"..

كان سؤالًا من أبيه، النبرة تكبت حزنًا وقلقًا ووهنًا لم يره على حنايا والده من قبل، رمقه بنظرة باهتة جامدة لا تفسر دواخله الساكنة..

ساكنة تمامًا كمياه مستنقع ضحل لن تحركه صخرة أمل تلقى بأعماقه!..

رفع رأسه بهدوء وبروده يطغى على لهجته وجوارحه:

- ده الحل الوحيد..

دنا منه "أدهم" يود لو ضمه، دعمه وأعلمه أنه هنا.. أن عائلته كلها في ظهره، ربت على كتفه واستقرت كفه هناك بتشبث:

- في حل تاني..

تباعد الابن وهز رأسه بنفي رافض غضبه مسجون بين حروفه:

- مش هافضل في وسطكم..

تعانق جفناه بتعب وإن كان يفهم؛ لكن الألم نافذ والطعنة كاسرة:

- مين هياخد باله منك هناك!..

رمق والده بضيق ساخر:

- أنا مش طفل..

واجهه بنظرة تناشده البقاء:

- الولاد بيفضلوا طول عمرهم في عيون أهاليهم أطفال.. محتاجين حماية واهتمام..

وعلى غير توقع أتته ضحكة ابنه مستهجنة عالية بُتر آخرها بألم:

- حماية!..

تأمله أبيه بحيرة..

هل يعرف سبب سجنه!..

وتكررت الطعنة الخائفة بقلبه، هل سيسامح لو عرف!..

- وبعدين ده كان اقتراحك؛ ليه بتراجعني في قراري دلوقتِ؟..

تنهد "أدهم" بحزن مكبوت.. لقد كان يفتش عن مسكن لآلام صغيره ولو مقابلها آلامه هو..

القول شيء والفعل شيء آخر، أما الغربة والفراق فهو وجع.. وجع ينغز قلبه ويجلد ضميره بسياط الإثم المدنسة به يداه نحو طفله الوحيد..

اقترب يواجهه بثبات، كأنما يحادثه رجلًا لرجل لا أبًا وابنه الذي ينهشه القلق عليه:

- كده هترتاح!..

فكر "مروان" وشرد.. غاب ذهنه في بُعد اصطفاه لنفسه بنفسه:

- التجربة هي اللي هتحكم..

- وإحنا!..

باغتته نبرة والده الفائضة بعاطفة لم يفهمها..

عاطفة حائرة بين الأسر والتحرير..

بين الذنب والندم..

بين الدعم والاحتواء بقرب وإن كان قسرًا، تنهد والقسوة تتسلل إليه رغمًا عنه:

- هتتعايشوا..

تقبلها الأب.. ابتلعها كغصة بصمت، شد قامته يبارك قراره بفكر سجين أوزاره التي يحملها فوق كتفيه.. لكن الابن باغته:

- أنا عارف اتسجنت ليه..

وأظلمت عيناه بنظرة جامدة ميتة:

- عارف ليه عز شهد عليَّ..

ثم أمال رأسه بحسم فظ:

- عارف إنك السبب وإن كل ده كان انتقام منك أنت..

لاحظ اهتزاز مقلتي أبيه..

ضغط الفك وتشدد القبضتين في ترقب للحكم الذي سيصدره عليه كقاضٍ لا يتسم بالعدل..

كجلاد يمسك بالسيف ويحق له جز عنق من ظلم:

- ومش فارق معايا..

- يعني إيه!..

زفر "مروان" بحرارة تدلل على استعار دواخله:

- يعني الزمن ما بيرجعش لورا، ومش هاعاقبك عشان كنت نضيف في عالم وسخ..

أشار لصدره بوخزة حادة:

- حتى لو كانت حياتي أنا التمن..

وتحرك يغادر..

بتَر، أم طعن وترك الجرحِ ينزف!..

طبب وهدَّأ الضمير، أم أوقد فيه النار وألقاه بأعماق الجحيم!..

صفح وغفر، أم حَقَد ومقَت وابتعد!..

لا يعلم..

لا يعلم سوى أن صوت والده القوي أوقف رحيله بنداء، دنو.. ولمسة تتأرجح قرب ذراعه مع كلمتين رغم الصلابة التقط فيهما رجفة النبرة:

- أنا آسف..

اعتذار راعٍ مسؤول أضاع رعيته، اعتذار أب عجز عن حماية من يعول..

بل تسبب في أذاه!..

استدار يمنحه نظرة فارغة.. خاوية كخواء كل ما فيه بهذه اللحظة ورحل..

الهزيمة!..

قد تكون جرحًا يعوزه الكي فيندمل بعدما يحترق..

***

كل شيء أصبح معدًا لتحرير الطائر السجين خارج عُش الاهتمام..

جهز أوراقه، جواز سفره وتأشيرته وأوراق إقامته.. حتى حقيبة ثيابه ولم يكتمل الأسبوع بعد..

بدا متعجلًا كأنما يبغي الانفصال عن الجميع بأقرب وقت، كان يبدو أشبه بجنين يبغض الحياة ويرفضها فقرر فصل مشيمته التي تغذيه وتمده بما يحتاج ليولد مغادرًا الرحم..

فصلها وتمنى أن يلفظه رحم العائلة المهتمة في إجهاض حاسم مهما تضاعف النزف أو الألم..

واليوم هو الأخير..

بل تلك هي الساعات المحدودة المتبقية على موعد طائرة ستحط به في أرض غريبة يريدها وطنًا..

بصحبته صديق القضبان وفي وداعه كل من يحبونه..

جاورته أخته على الأريكة بحزن:

- أنت مستعجل قوي يا مروان، ما لحقتش أشبع من وجودك..

أجبر شفتيه على بسمة هادئة وجواب أتى خاليًا من العاطفة:

- أنا اللي شبعت..

استوعبت ما قال بقلب مهتم، وكزت ذراعه بضيق مفتعل:

- أنا ما شبعتش.. وأنا أختك الكبيرة والمفروض تسمع كلامي..

بسمته الساخرة التي تلازمه مؤخرًا انحنى بها جانب فمه:

- خليكي في حمزة وأبو حمزة..

وعلى سيرته ابتسم من مقعد مقابل:

- أبو حمزة معمول له حظر تجول وتحديد إقامة وربنا يستر..

رفعت زوجته حاجبيها بمداعبة:

- احمد ربنا إنها جت على قد كده..

وربتت على بطنها التي انتفخت بوضوح جنين شارف على إكمال شهره السادس:

- ولا عاوز تزعل حمزة!..

رفع "يوسف" كفيه باستسلام هادئ:

- لا.. أنا راضي ومبسوط وكل حاجة..

ثم غمز ابن عمه بعبث مشاكس:

- أي اعتراض حمزة بيعلن حالة طوارئ في البيت وإحنا مش قده..

وابتسم "مروان"..

ابتسامة صادقة أولى وعينه تميل بنظرة حانية تجاه ابن أخته الكامن برحمها ودعاء مقتضب سبق نهوضه:

- ربنا يجيبه بالسلامة.. هامشي أنا بقى..

انتفضت أمه التي قبعت واجمة بالأريكة جواره تتعلق بكفه:

- هتمشي دلوقتِ!..

ربت على يدها برفق استحضره بعسر:

- هاعدي على شجن أشوفها ويادوب ألحق الطيارة مع حاتم..

داهمها القلق ككل مرة يذكر اسم ذاك الفتى فيها:

- أنت واثق فيه!..

زفر بضيق وتجاهل الرد على سؤالها..

فمن بين بشر كثيرين لا يثق بسواه!..

تبعه والده الذي أصر على وداعه بالمطار بصحبة زوج عمته، احتضنته أمه قسرًا والعمة داعبته بينما تشد على يده بين يديها:

- لما طارق يجي لازم تنزل تشوفه..

وذاك الـ "طارق" بدهشة وجوده يستحق دلالًا خاصًا رغم قلق وخوف المحيطين بأمه:

- بإذن الله..

لا مزاح..

لا سؤال..

لا حديث..

بل اقتضاب ورحيل..

ببيت العم احتضن صغيرته التي غابت أمها في عملها عن لقائه، لقد باغتهم بموعد طائرته ولم تعلم هي به..

لا يدري هل يهرب من وداعها أو فقط يتفادى عاطفة يتعامى عنها، انفعالًا لا ينشده!..

مرت نصف ساعة لاعب فيها طفلته قدر ما استطاع، قبَّلها، تشممها.. تنفسها واحتفظ ببراءة ونقاء رائحتها بين أنفاسه، احتجزها برئتيه خشية أن تتسلل هاربة منه حال الفراق.. لامسها وضمها وتشبث بها يحفظ ملامحها التي سيغيب عنها باختياره هذه المرة..

ضمته خالته وعانقه عمه.. حتى ابنة العم التي دومًا ما كانت تستاء منه ابتسمت له.. والعابث أصر على صحبته..

ثم بات الزحام خانقًا..

زحام الأجساد والمشاعر فقرر تعجيل الفرار..

بتر الاهتمام واللحظة وسار نازحًا مختارًا الهجر، فتح الباب لتفاجئه بحضورها.. متلهفة، لاهثة.. تبحث بعينيه عن ذكراها، تعاتب بأسى:

- كنت هتمشي من غير ما تسلم عليَّ!..

وكأنما خلا الكون عما سواه..

تلاشي حضور عائلتها وحتى ابنتها التي تتعلق بعنق جدتها..

- أشوف وشِك بخير..

الكلمات بمضمون يغاير النبرة.. النبرة تودع والحروف تبث أملًا واهيًا لا تملك سوى التعلق بأذيال غيابه، تخطاها يتبع والده ولم تستطع..

قلبها لم يتحمل أن يفارقها ثانية.. نادته بهمس مختنق:

"مروان"..

هل يمكن أن تكون نبرتها وطنًا!..

عيناها سكنًا!..

قربها حلمًا أو وهمًا.. أن تكون سرابًا خادعًا للبصر لا تطاله الأنامل أو يطوف بالأفكار!..

هل يمكن أن يجود بها القدر كطوق نجاة من تهلكة نفس على شفا اليأس!..

بل.. هل سيتعلق هو بنجاته معها!..

لم يلتفت، لم يُجب.. وتحرك خطوته نحو الرحيل..

"مروان!"..

كررت النداء.. ومُكرهًا استدار بعينيه الغائمتين بحزن دفين لم تسمح له كبرياءه بالطفو إلى السطح لتلاقي احتواء نظراتها، حملت شفتاها أمان بسمة، وصوتها انحبس خلف جدار دمعة ناوشت الجفون هاربة من سجن تماسكها الهش..

- اتأخرتِ..

أعلنها قاسية..

- أو يمكن أنا اللي اتأخرتْ!..

وأتمها حائرة.. باهتة.. ضائعة، لا تبحث عن مستقر..

- ما تبعدش..

- محتاج أبعد..

- وأنا محتاجاك، بنتك محتاجاك..

- مش هاقدر أوفي احتياجك..

- هاسندك..

- هنقع سوا..

- نقع سوا.. ونساند بعض.. ونرجع نقف من تاني..

"اتأخرتْ"..

يتحدث بها عن نفسه..

تأخر عن الوفاء بالعهد.. تأخر عن موعد الفراق.. تأخر عن العودة لنفسه التي اغتربت عنه فتركته مهجورًا موحشًا كبيت خَرِب أقفر من ساكنيه لدهر حتى هامت به الأشباح وظللته خيوط العناكب..

راقبت جمود رحيله بضياع.. عند باب السيارة أهداها نظرة أخيرة؛ ثم مضى..

ما قبل الرحيل..

نظرة استجداء..

رغبة في بقاء..

حاجة لاحتواء..

ما قبل الرحيل..

شيءٌ من وجع..

ألم في القلب يضطجع..

آهات لا تُستبدل أو ترتجع..

ما قبل الرحيل..

استيقاظ من حلم..

هَمٌّ يكبر بِهَمّ..

ومن نحتاجه.. لا يهتم!..

"ما تيأسيش"..

نَهي حازم بصوت توأمتها التي استدارت إليها بقنوط من خسر في كل معاركه ولم يتبقَ سوى رفع راية الاستسلام..

- هو يئس..

اقتربت تواجهها بنظرة صلبة تبث في روحها من عنفوانها:

- هو استسلم في حرب دخلها غصب عنه، أنتِ دخلتِ حربك معاه بإرادتك وما ينفعش تخرجي منها مهزومة..

ابتسمت بدعم مطمئن:

- بتحبيه يبقى لازم تخطفيه من ضياعه وترجعيه لحضنك..

توسعت بسمتها للدهشة التي كست ملامح شقيقتها وبانت بنبرتها:

- ده ماكانش كلامك زمان..

وانتقلت البسمة لشفتي العاشقة الخاسرة بشجن:

- هو الحب بيغير قوي كده!..

هزت "صبا" كتفيها ببساطة صادقة وبديهية:

- من برا الصورة؛ غير لما أكون في عمقها..

مررت إصرارها وعزمها الذي لا يلين إليها عبر ربتة حانية على ذراعها:

- الحب يعني حرب؛ نتيجتها الوحيدة نصر للي بيحب.. مش هزيمة أو استسلام..

النظرة تمنح الثبات واللهجة تأمر به:

- ما تقبليش هزيمة في عشقه يا سما..

- هو سافر خلاص..

تمتمت بها بدموع مكبوتة منعت هطولها شقيقتها بحسم:

- يبقى تسافري معاه..

رفعت "سما" عينيها إليها بفيض دهشة حائرة:

- أسافر معاه!..

- أيوة..

وأشارت إليها تخبرها أنها هي من قدمت ما فات ويمكنها العمل على ما هو آت وإن كان بحضور عبر شاشة هاتف وكلمات قصيرة:

- أنتِ زرعتِ نفسك في حياته ورا القضبان؛ تفتكري صعب تخلقي مكانك فيها وهو في بلد تانية!..

تناور قلبها المغرم..

تدفعه للنهوض، لخوض القتال.. للنزال، تخبره أن من حقه الفوز!..

- دافعي عن حبك يا سما.. ما تستسلميش..

الحب!..

مفترق قاتل فوق هاوية الصبر؛ فكل اختيار قد يحمل معه سقطة النهاية..

***

وعن الشوق!..

فهو رغبة اللقيا وبُعد اللقاء..

قلب أم يتحين أول ركلة، أول لمسة.. وأول أنفاس بكاء..

حمى شرائية انتابتها فكانت تنهي عملها وتتجول في المراكز التجارية تختار ثياب طفلها باعتبار ما سيكون..

شراشف زرقاء..

ثياب زرقاء..

ولعب زرقاء..

قررت كونه ذكرًا رغم أن حملها لم يتم شهره الثالث بعد وعلى المعترض اللجوء للقضاء ربما..

أنهت جولة اليوم ودخلت بصحبته للمنزل تضحك بسعادة، تشرق عيناها كعسل مغموس بقلب الشمس فتوهج ببريق خاطف.. كأنما عادت فتاة عشرينية تحمل جنينًا للمرة الأولى..

استقبلها أولادها باهتمام..

الكبرى بفضول والصغرى بحماس وفارسها الوحيد بقلق..

هو دومًا قلِق على الجميع وحينما أعلمتهم بنبأ حملها كان أول ما قاله:

- في السن ده يا ماما!..

حينها غضبت منه وخاصمته بعد توبيخ:

- آه في السن ده، وهيجي طارق يدخلك الجيش يا دكتور..

بعدها صالحها.. أخبرها عن مقصده الحقيقي وخوفه عليها، نال ضمتها وطمأنتها ولم يذهب خوفه عنه بعد..

والآن كان في استقبالها بخبر جديد:

- ميعاد سفري اتحدد..

انقبضت ملامحها بحزن مباغت:

- يعني مش هتكون هنا لما طارق ييجي!..

ابتسم ومال يلثم رأسها بنبرة عاطفية:

- هاجيله مخصوص أكيد..

وانتقل بالقبلة إلى كفها بين يديه، بعدها قفزت "سها" الصحفية الشقية بانفعال مشاغب تحمل الحقائب التي عاد بها أمها وأبيها من الخارج:

- تعالوا نتفرج على مخزون النهاردة..

ضربت والدتها كتفها تنهرها:

- بنت.. مخزون إيه!..

شاكستها "حلا" بمرح:

- ما هو يا ماما على ما الأستاذ المحترم طارق يشرف؛ هيكون عندنا ما يكفي لفتح محل مستلزمات أطفال..

ضحك الأب من تغضُن وجه زوجته وكرمشة أنفها بامتعاض، خاصة عندما طردتهم من غرفتها بضيق:

- طيب امشوا اطلعوا برا.. مش هتشوفوا جبت له إيه النهاردة..

أُغلق الباب من خلفهم، وارتكنت هي لصدره بتنهيدة طويلة استغربها فرفع وجهها إليه، يتحكم بذقنها بين سبابته وإبهامه وعيناه تهديانها أمان الدنيا:

- مالك!..

طوقته بضغطة عاشقة:

- مافيش..

زوي ما بين حاجبيه غير مصدق فكررت التنهيدة بحرارة:

- أنا فرحانة قوي يا زياد..

وحررت وجهها من يده تكاد تدفنه بين ضلوعه:

- طارق هيكون مختلف..

- إزاي بقى!..

كان يمازحها برفق لينٍ يشبهه معها، وهي أعادت عينيها للالتحام بعينيه في نظرة حالمة آملة تفيض بالغبطة:

- حلا وأنس كانوا توأم ومالحقناش نستمتع بطفولتهم مع وجود سها، كنا زي اللي عايشين في دوامة..

مدت أناملها تلامس خشونة فكه بشرود حانٍ:

- مع طارق هنعيش كل لحظة زي ما المفروض كنا نعيشها زمان..

ثم تراجعت تشرح بانفعال استغربه.. وأسعده:

- هيصحينا بالليل ونتخانق سوا مين يقوم يشيله لما يعيط، هاقولك خليك معاه على ما أخلص شغلي.. ولما تتأخر برا تيجي تلاقيني أنا وهو نايمين على الكنبة برا..

وأطلقت تنهيدتها الثالثة بحبور:

- هنركز مع أول خطوة وأول كلمة.. هنعيشهم معاه صح..

مرر أنامله بخصلاتها وقلقه لا يذوي أبدًا وإن قبع بركن خفي يتربص بقلبه ومخاوفه لحظة غياب لينهشه:

- أنا كده هابتدي أغير..

وامتدت يده تحاوط وجنتها بلمسة رهيفة لا تكاد تستشعرها:

- هياخدك مني..

رمت بنفسها بين ذراعيه تؤكد بيقين لا يقبل شكًا ولا يسمح بجدل:

- أنت حبيبي يا زياد..

وبشفتيها أهدت شفتيه قبلة دافئة تعلق هو بها حتى ابتعدت بهمستها التي تسقطه في غرامها كل مرة تنطقها:

- أنت أحسن راجل في الدنيا..

الشوق..

هل نشتاق من نحب وهو بين أيدينا!..

أم أن ذاك هو.. الخوف!..

***

الغربة ليست هجر أرضك التي ترعرعت من غراسها وحسب؛ الغربة أن تنساك روحك معزولًا في قبر ظلامك.. تحلق وحيدة نحو ضوء نهاية النفق وأنت من ورائها.. تموت!..

تتحلل، تتلاشي.. تنتهي بلا أثر..

انسلخ عن وطن واستضافه آخر، حطت طائرته بمطار "هامبورغ" الدولي ليجد أحد رجال مكتبهم في استقباله بلوحة عليها اسمه باللغتين العربية

والانجليزية.. تقدم نحوه فرحب به الرجل بكياسة أنيقة وقاده وصديقه إلى سيارة ألمانية من طراز "أودي Audi" أخبره بعد استقراره خلف مقعد قيادتها أنها خُصصت لأجله هنا..

أوصله لناطحة سحاب تطل على ميناء المدينة الشهير، صعد به للطابق السابع والعشرين، وقبالة إحدى الوحدات سلمه المفتاح:

- نورت هامبورغ مستر مروان..

وغادر بيسر تاركًا إياه متصلب الجسد والفكر أمام عتبة باب لا يدري كيف سيعيش فيما وراءه!..

نبهه "حاتم" برفق يستوعب جموده:

- أفتح أنا!..

رفع رأسه إليه بغتة بنظرة مبهمة لا تفضي بشيء محدد قبل أن يمد يده ويدير المفتاح بثقبه، يتحرك إلى الداخل.. يجذب عينيه الجدار الزجاجي الذي يدور حول استقبال المسكن الراقي ويرى الميناء بوضوح..

سبقه صديقه بتأمل مبتهج:

- إيه الجمال ده!.. الفيو تحفة..

واستدار إليه باستطرادة توقفت بعرض حلقه وبصره يتعلق بما لا يراه خلف ظهره:

- آه والله.. تحفة!..

لم يدرك مغزى كلمته أو مدلول نظرته ونبرته فالتفت بتساؤل لم يكتمل..

حيث كانت هي هناك.. تقف عند باب إحدى الغرف، حورية صهباء تتنافر قشدية بشرتها بشدة مع حمرة خصلاتها النبيذية وعينيها الداكنتين بلون عشب مبتل بعد مطر..

ترتدي حلة رسمية سوداء تناقضت مع قميص حريري أبيض وتتحرك تجاهه ببسمة دافئة مرحبة:

- مسيو مروان، أهلا وسهلا فيك بـ هامبورغ..

- أنتِ مين!..

سؤاله كان باردًا صارمًا لحد أجفلها لحظة، عادت لها بسمتها إثرها بينما تقترب بخطوات متناغمة وازت همسة "حاتم" الخبيثة بأذنه:

- أوبشن زيادة مع الشقة..

تجاهله وهي تقدم نفسها بسلاسة:

- روسيل سعد، المساعدة الشخصية تبع حضرتك..

رفع حاجبه بضيق:

- وهي المساعدة الشخصية تبع حضرتي المفروض ألاقيها في بيتي!..

لم تتأثر البسمة أو النظرة اللامعة التي تعتلي مقلتيها:

- ولو.. لأني كمان مديرته لبيتك واللي بتابعه للشغل مع حضرتك خطوة بخطوة..

ناولته بطاقة بيضاء عليها بضعة أرقام وعلبة هاتف حديث من ماركة شهيرة موضحة بعملية:

- هيدي أرقامي لو شي شيء نقص بالبيت، أنا ظبطت المكان لاستقبالكم وعلى كاونتر المطبخ في دليل صغير بأرقام كل الـ **markets** والـ **restaurants** اللي في المنطقة هون.. وهيدا تليفون وصى بيه مسيو أدهم مشان حضرتك..

ثم عادت لشفتيها بسمتها الساحرة:

- معلوماتي إن حضرتك بتحكي ألماني منيح فما في مشكلة في التواصل هون..

وأنهت حديثها بنبرة ناعمة لا تليق بصخب أنوثتها الصارخ:

- أهلا فيك معنا..

التقط من يدها البطاقة والعلبة وابتسم.. لا، كانت شبه بسمة تظهر امتنانًا مستحقًا اضطُر له:

- متشكر..

هزت رأسها تتقبله وتكمل:

- بكرة الساعة ٨ الصبح راح مُر على حضرتك مشان نروح مقر الشركة وتتعرف على العاملين هونيك..

أومأ باستجابة صامتة متابعًا رحيلها حتى أتاه صوت صديقه العابث بجملة شهيرة لممثل قديم كما يفعل عادة:

- يا صلاة النبي أحسن؛ كوباية حليب صافي كامل الدسم..

زجره بنظرة حانقة عاندها بشقاوة:

- إيه!.. ما بتشربش لبن!..

زفر "مروان" بيأس وتفحص المكان سريعًا حتى لمح شرفة داخلية فتوجه إليها:

- اختار لك أوضة واخلص..

- بتعاملني وحش على فكرة..

تجاهله مجددًا وخرج يشعل لفافة التبغ الأولى عقب وصوله..

يشرد في اليوم وغد وما سيليه..

يشرد في اختياره وتبعاته..

الغربة!..

أن يغادر الجسد؛ ويظل القلب معلق بالوطن ومن فيه..

***

الثقة!..

هي رمانة ميزان العشق والثقل المتوازن بكفتيه..

سونار الأسبوع السادس والعشرون، طفلها -الذي تصر على التعامل وكأنه بات شخصًا حقيقيًا ملموسًا بالفعل وليس جنينًا يسكن رحمها- قد كبر..

استمعت لنبض قلبه القوي ويدا أبيه تحيطان بيدها في تبتل صامت لهذه المعجزة الصغيرة خاصتهما، أخبرتها طبيبتها أن طوله شارف على ست وثلاثون سنتيمترًا، ووزنه حوالي ٧٥٠ جرامًا..

أنه طفل نشِط وحركاته باتت واضحة محسوسة للغاية لحد قد يزعجها..

غادرا عيادة الطبيبة وأصابعها تعانق كفه لا تفلتها، ترمقه بين الحين والآخر بنظرة مغرمة وتطوف بعشقها الخالص فوق ملامحه التي أجهدها المرض وتبعات العلاج..

قبعته الصوفية الشتوية التي يغطي بها تساقط شعره، والسترة الثقيلة المغلقة حول جسده الضعيف..

استقرت بمقعد القيادة وجاورها ببسمته الهادئة حين سألته:

- كلمتها!..

جاوب بسلاسة يداري توجسه:

- أيوة، غالبًا هنوصل المطعم قبلها..

ابتسمت بغموض وتحركت بالسيارة:

- هنشوف يا أبو حمزة..

ضحك بخفوت وامتدت أنامله تداعب ظاهر كفها عند المقود:

- لما بتقولي أبو حمزة باحس إني هاتعاقب على حاجة مش عارفها..

انطلقت ضحكتها المرحة وداعبته:

- لا ما تقلقش مني خالص..

عندما وصلا للمكان المنشود كانت لم تأتِ بعد بالفعل، استقرا حول إحدى الطاولات واختارت عصير البرتقال والخوخ تتلذذ به حتى حضور ضيفتها..

ونعم ضيفتها هي.. دونه..

انهمكا في حديث عام انتهى حينما لمحت انفراجة وجهه ونهوضه بإشارة باسمة:

- ندى!..

قاومت الالتفات، سكنت بمقعدها ونظرتها تكاد تخنقه مع انشراحه الغريب، وصلت لطاولتهما فصافحت "ملك" بدفء:

- مدام ملك..

- مدام ندى..

كانت تستدعي كل طاقتها للظهور بثبات يليق بالثقة التي أخبرته عنها..

مريضته السابقة فاتنة لحد أوجع معدتها بحركات جنينها العصبية إثر عصبيتها المكبوتة:

- أنا زعلانة منك جدا يا دكتور يوسف..

انتبهت لنبرة الضيفة المبادرة بعتاب وهي تضع شيئًا ما جوارها على الأرض وتستوي بمقعد مواجه لها:

- ليه بس!..

يتباسط ويلاطف..

ستقتله..

- لما كلمتني آخر مرة ما قلتش إنك تعبان..

تدخلت زوجته بحنق لم تبذل جهدًا لمداراته:

- هو الحقيقة ماقالش لحد خالص..

تقبلت دهشتها بفتور، تتذكر فعلته الشنعاء وتتجاهل بسمته المطيبة لخاطرها و"ندى" تفكر للحظات خاطبته بعدها بتفهم:

- تضحية!..

بترت "ملك" جوابه الذي أوشك على النطق به بحسم منها:

- مش كل حاجة ينفع نضحي فيها، في أوقات زي دي بنحتاج اللي بنحبهم معانا..

تنهدت "ندى" تخبرها بصدق:

- معاكِ حق..

وابتسمت لزوجها الصامت بتقدير:

- جوزك راجل نادر يا مدام ملك..

غصت بمشروبها فتنحنحت تحت مراقبة عينيه العابثتين:

- أنا بقول نطلب الغدا..

أوقفتها الضيفة بأناقة:

- طيب ممكن الأول تقبلي هديتي ليكِ!..

ناولتها ذلك الشيء الملفوف الذي تركته بجانبها عند حضورها، فكت الورق المغلف لتفاجئها ملامحه الوسيمة ونظرته العاشقة التي تحفظها عن ظهر قلب..

ابتسمت وتسللت لمعة دامعة بين جفنيها:

- أنا عارفة النظرة دي..

تمتم هو بخفوت متيم:

- لما بفكر فيك..

وعندما تلاقت مع عينيه أدهشته العبرة المعلقة فوق أهدابها، مسحتها بضيق وهتافها يحتد بحنق ناعم يشبهها بتبريرها الأوحد:

- هرمونات..

ابتسم بحنان وازى ضحكة "ندى" الرائقة وسؤاله:

- كملتيها!..

تحولت إليه ببسمة بسيطة:

- من الذاكرة..

استشاطت الزوجة غضبًا بعد غرقها في بحر عشقه، تدخلت بقرار حازم.. تقطع حديثًا بينهما لم يكد يبدأ:

- نعمل الأوردر بقى..

الغيرة هي ملح الغرام..

الثقة لا تعني ألا نغار؛ بل فقط تسمح بغيرة لا نحترق معها حد الرماد..

***

اغترب وآب..

نزح مجبرًا ورجع باختيار حر..

وبين النزوح والعودة مر عُمر.. خمس وعشرون عامًا بالتحديد، حينما تشبث بيد أبيه على متن طائرة إلى "لندن" بقرار هجرة..

دون أمه!..

عاشقين تمما قصة عشقهما بالزواج..

اكتملت وردية الحكاية بطفل لم يكد يتم عامه الخامس حتى رحلت والدته عن دنياه بمرض عضال..

بعدها لم يحتمل والده البقاء بأرض يطارده فيها عبق الحبيبة الراحلة فقرر الفرار مع ابنه إلى المجهول..

بين النزوح والعودة حياة مر خلالها بالكثير..

أحب.. تزوج.. أنجب.. وفارق، والآن هو خارج مطار القاهرة الدولي تتعلق بيده طفلته..

"كارلا"..

خمس سنوات، ضئيلة الحجم كلعبة، بخصلات سوداء كليل بهيم ورثتها عنه هو..

قرار العودة للوطن لم يكن سهلًا، لكن بعد طلاقه من زوجته ارتأى أن أفضل مكان لصغيرته.. بين أهله..

جذبت ابنته كفه وعيناها لا تتوقفان عن التجوال بالمكان:

- بابا.. دي مصر!..

استنشق الهواء الذي يستعيد رائحته تتخلل حواسه رغم الغياب بتنهيدة عميقة ملأت صدره:

- دي مصر..

سيارة مستأجرة وجولة سريعة في شوارع العاصمة انتهت به أمام بيت العائلة، عائلة لا يتذكر أفرادها وبالتأكيد هم لا يعرفونه..

لقد رحل طفلًا وأتى رجلًا..

والخيار الوحيد بهذه اللحظة كان المغادرة، انتقى فندقًا يطل على نيل القاهرة، كان قد حجز غرفة به قبيل سفره وكأنما أخبره عقله أن اللقاء لن يتم بيسر..

في اليوم التالي اصطحب صغيرته لموعده المحدد..

موعد مع رجل يعلم أنه لن ينساه أبدًا!..

"مراد مهران"..

أمام مكتب مساعدته التي تأكدت من الموعد انتظر لدقائق بعدها دلف للغرفة الأنيقة بخطوات ثابتة وابنته بيده..

استقام "مراد" من خلف مكتبه الكلاسيكي يستقبله بنظرة خالية من الانفعالات ونبرة ساكنة للغاية:

- نديم الكاشف..

- مراد بيه مهران..

وازت لهجته لهجة مضيفه الذي خطا مقتربًا يواجهه بهدوء للحظات انتهت به يضمه إليه بعاطفة أبوية مهتمة:

- الطائر المهاجر قرر يرجع العش أخيرًا!..

والطائر تقبل الضمة بافتقاد.. فـ "مراد" دومًا ما كان يمثل إليه أبًا ثانيًا لطالما تطلع إليه واحتذى به..

- واحشني يا عمي والله..

ربت العم على كتفه بدفء داعم:

- أنت اللي سيبت لندن من ست سنين وماحدش كان عارف عنك حاجة..

وانتبه للصغيرة المختبئة خلف والدها بترقب حذر:

- بنتك!..

أومأ "نديم" وحملها بين ذراعيه بحنان:

- كارلا..

صافح "مراد" يدها المكتنزة برفق وبسمته الهادئة تطمئنها:

- دي بنت...

- كاثرين..

- اتجوزتوا!..

- تلات سنين بالتمام والكمال..

- وبعدين!..

زفر "نديم" بحرارة ساخرة:

- الحب خلص فاطلقنا..

ضحك "مراد" ويده تربت برفق على رأس الطفلة:

- هو الحب بيخلص برده يا نديم!..

و"نديم" لا يشاء خوضًا في غمار مشاعر لم تعد تشكل فارقًا لذا جوابه كان مقتضبًا:

- لما ما يكونش في تكافؤ..

هز "مراد" رأسه بتفهم وقاده ليستويا على أريكة جلدية داكنة بركن الغرفة:

- وقررت ترجع ليه!..

سحب العائد دفقة هواء ثم حبس أنفاسه قبل أن يحررها براحة:

- عندي مشروع، وعاوز أنفذه معاك!..

العودة!..

أن تمد جذورك في أرض اخترتها وطنًا، وإن فارقتها عمرًا..

***

عندما تروح سكرة السعادة وتأتي فكرة.. الشك..

الخوف!..

وقتما تهتز ثقتنا بأنفسنا فنستكثر عليها ما فزنا به..

أو حينما نراه عظيمًا.. عظيمًا للغاية؛ إلى حد ألا نؤمن أنه قد يكون لنا!..

مر ما يقرب من شهر ونصف على زواجها من فارس الحلم الأول..

قضته تتنعم بقربه في سعادة لم تطُف ببالها يومًا عن قصة زواج ولقاء قدري بحت..

يدللها.. يمنحها ما تريد.. لا يبخل عليها بمال أو عاطفة أو قرب، وفي المقابل تتعلق هي بوجودها معه..

وعندما يزداد التعلق يتضاعف القلق..

علاقة طردية بسيطة تحدث منذ الأزل!..

قبل أيام كادت تحدث بينهما مشادة عندما تأخر في عمله قليلًا، وعاد ليجدها تتخصر في مواجهته بتحقيق نيابي صارم عن موعد عودته وأين كان وبما أو من مر في طريقه..

مشادة بترتها هي باعتذار ومراضاة تليق به وبأفكاره المنحرفة..

واليوم..

اليوم هي تكاد تموت..

كان نائمًا إلى جوارها ورن هاتفه، كتم صوته بعجالة واستقام يغادر الغرفة ليبدأ مكالمة لم تستطع تخمين فحواها إلا أنها انتهت بوعد..

وعد بلقاء!..

غير ثيابه ببساطة، همس بأذنها أنه لن يتأخر وانسل من المنزل كما تنساب قطرة ماء سقوطًا فوق سطح أملس..

منذ تلك اللحظة وهي جامدة في وضع جلوس بالفراش، تفرك كفيها.. تتأمل شاشة هاتفها.. تفكر، تحترق وتحتدم بروحها حربٌ شعواء تقتلها..

هل اكتفى منها!..

أم أنها لم تكن كافية منذ البداية!..

عبرة قاسية سالت ترتحل عن أجفانها بينما تهمس لنفسها:

- وهو هيحبك على إيه يا ست أمل!..

نهضت تتطلع إلى ملامحها بالمرآة..

خصلات سوداء طويلة تصل لمنتصف ظهرها، وجه ناعم تفاصيله ليست مميزة إلى هذه الدرجة.. وجسد تعلم أنه أكثر ما فيها فتنة..

منحنيات أنثوية سخية، مثيرة.. توقن أنه أدمنها..

أو هكذا تتمنى!..

سمعت خطواته بالخارج فعادت للفراش تتظاهر بعبث متعثر بهاتفها، جاورها فمالت قربه تبعًا لثقل جسده، تلقاها بين ذراعيه بقبلة تائقة:

- اتأخرت عليكِ!..

نفت ببسمة متوترة عقد لها حاجبيه:

- مالك!..

ازدردت ريقها وأجبرت شفتيها على بسمة أكثر صدقًا وهدوءً:

- مافيش.. وحشتني بس..

دفنت رأسها في صدره تخفي عنه ذبول نظرتها.. خلل خصلاتها بأصابعه وشعثها بعبث:

- طيب.. هاخد شاور سريع وآجي نشوف موضوع وحشتك ده..

واحتجز أنفاسها بشفتيه لثوان تركتها لاهثة، غادر بغمزة ماجنة:

- راجع لك يا قمر..

خلع قميصه وألقى بمفاتيحه وهاتفه على طاولة جانبية، ثم غاب عنها..

مرت دقيقتين..

غرقت خلالهما في ترددها وقلقها قبل أن تحسم ذاك كله وتمسك بالهاتف، تحاول فتحه دون فائدة فكلمة سره لا تعرفها وهو لم يخبرها عنها..

مرة وثانية حتى أنهت الخمس وانتظرت عدة ثوان كررت عقبها المحاولات..

"أنتِ بتعملي إيه يا أمل!"..

انتفضت بذعر كاد يسقطها أرضًا وهي ترمي به من يدها فتثبت عليها تهمة لم يسأل عنها بعد..

حركت كتفيها بلا معنى، ردت بلعثمة:

- مافيش.. كنت..

- كنتِ إيه!..

رجفة نبرتها وتشتت عينيها يخبره بحقيقة واحدة:

- أنتِ كنتِ بتحاولي تفتشي في الموبايل؟!..

- لأ..

نفت بسرعة لتثبت أكثر:

- أمال معناه إيه اللي شفته ده!..

توترت تبحث عن تفنيد مناسب انطلق من فمها عكسه بحماقة:

- أنت ليه مش معرفني باسوورد الفون والفيس وباقي أكونتات السوشيال ميديا بتاعتك!..

- نعم يا ختي!..

زعقة..

غضب..

ونظرة صارمة لم تمر بعينيه سابقًا معها:

- مش قصدي يا آسر بس..

- بس إيه!..

يقاطع بحدة ويعلن السخط:

- أنتِ بتشكي فيَّ!..

تضاعف ارتباكها.. اقتربت منه بهرولة تلامس صدره:

- لا طبعا يا حبيبي.. بس.. أنا..

ولم يكرر كلماته أو يسأل عن مقصدها، كان واضحًا جليًا لحد أثار غيظه ويده تقبض على رسغها:

- أمل.. أنا مابحبش الجو ده، غيرة وتفتيش ورايا وشك..

- كل الستات بتعمل كده على فكرة..

- أفندم!..

- بس ده ماكانش قصدي، صدقني..

- وأنا مش عاوز أعرف قصدك؛ لو الموضوع ده اتكرر تاني هازعلِك..

أفلت يدها فحاوطت عنقه بها تنكمش بين ذراعيه:

- آسفة..

ظل جسده جامدًا فكررت الاعتذار وبدأت القبلة والقرب والدلال، لكن وجهه بقي على بروده حين أبعدها بأمر:

- أول وآخر مرة يا أمل..

أومأت بخنوع معتذر ابتسم بعده بمكر:

- صالحيني بقى..

وترك لها مهمة مراضاته مهما بذلت من جهد..

أحيانًا.. فقدان الثقة يهد المعبد على رؤوس من فيه..

وأولهم من بناه!..

(٤٦)

الحب..

نعمة العاشقين..

نقمة الخاسرين..

وهفوة الغافلين..

الحب كارثة على وشك الوقوع..

الحب!..

سقطة القلب..

إن كنت لا تؤمن بالحب؛ فربما عليك أن تراه بعين عاشق..

تصغي لعزفه الصاخب بنبض قلبه، تستشعر دفئه في لمسة شغف.. وهمسة غرام..

كانت لا تؤمن به، تصدق في وجوده لكن الخضوع له لم يكن من أولوياتها، أو حتى هدفًا ينبغي السعي خلفه..

ترفضه.. تتباعد عنه وتلعن العشاق الغارقين، الضائعين.. التائهين في عالمه بلا عودة..

الأخ الأكبر.. توأمتها الحالمة.. وكذلك ابنة الخالة التي كسرها عشقها لحقير قبل أن تستقر سفينتها بأمان على مرفأ عاشقها الأزلي؛ أخيها..

ثم احتلها هو..

احتل كل ما فيها.. أفكارها، قلبها، ذراتها.. احتل أنفاسها بحضوره..

احتلها حد الاستسلام ورفع راية السلام، عرضت على الخافق هدنة استقباله واستجاب.. فتح له بابه على مصراعيه لكنه اقتحم..

انتصر وسيطر وتربع على العرش.. وتملك..

"أنا خلصت"..

ابتسمت تلتفت إليه بعدما أملت تعليماتها لأحد العاملين بعشهما المنتظر، ملأت عينيها بهالته التي تجذبها فتغرق فيه أكثر وأكثر:

- أنا كمان خلصت..

أشار إليها لتتقدمه بأناقة:

- كده تمام.. وقتنا بقى!..

وكان يومًا خاصًا وعدها به.. لهما وحدهما وحسب!..

قرره مفاجأة رافضًا إرواء فضولها ومتجاهلًا سؤالها عن تفاصيله لمرتين، فتح لها باب سيارته فاستقرت بمقعدها ودار حولها ليجاورها.. يدير المحرك وينطلق بغمزة باغتتها عندما انفرج تجهمه الدائم إثرها:

- النهاردة أنتِ بتاعتي وبس..

شاغبته ببسمة مشاكسة:

- النهاردة بس!..

زفر بحرارة باتت تدرك سببها عندما تكون قربه:

- قولي أنتِ..

تبدلت بسمتها لعشق صريح لا تخفيه أبدًا:

- أنا ملكك على طول ولآخر لحظة في عمري..

لم يقاوم احتواء كفها وقبلته لظاهره رغم قوتها في سحبها منه:

- أنتِ عمري يا صبا..

وذاك يكفيها ويفيض..

النظرة، الكلمة، الهمسة ومناوشات القرب التي تمنعه عنها بعسر..

تأملت الطريق حتى وصلا قبيل الظهر عند بدايات مصر القديمة، ذلك المكان العريق برائحة التراث ولمسة الأصالة..

أدارت وجهها إليه بدهشة فابتسم ببهجة تنبئ عن حبه للمنطقة:

- يوم من التراث..

وكان بالفعل وقتًا مختلفًا.. وقتًا بالتأكيد ستكرره..

تجولا في حي خان الخليلي بين المحلات المتناثرة والباعة الجائلين، تناولا غذاءً من الأسماك حيث يعشقها هو وتلذذت بها هي..

عند العصر كانت قهوته والشاي "الكشري" خاصتها بمقهى الفيشاوي العتيق والعريق..

أهداها عقدًا من الكهرمان وأخبرها أن لونه يتماشى ولون عينيها..

اختتما الجولة باستمتاع دام لساعتين في طرقات شارع المعز بعدما اشترى عطرًا ثقيلًا حاصره به البائع في حنكة مخضرم:

- مش هتلاقيه غير عندنا يا باشا، نوع مخصوص بنطلعه من دكر غزال اسمه وعل المسك..

كان عطرًا نفاذًا لم يرحل عنه الرجل حتى ابتاع منه زجاجة متمتمًا بابتسامة:

- أشتريه يفكرني باليوم ده..

داعبته وهما يعودان إلى السيارة:

- هو أنت أصلا ممكن تنساه!..

أوقفها يغرق بعينيها للحظة مسروقة أباح له قلبه اختلاسها من زمن قربها المحدود:

- ولا لحظة معاكِ يا صبا..

منحته بسمتها وإن شابها خجل من نظرته..

نظرته التي تحاوطها بكل شعور ممكن.. بالحنان، الدفء، التعلق، العشق.. الشغف.. والرغبة!..

نظرته تمرر لها في تلك اللحظة المخطوفة اشتهاء ذكر أدركته فطرة أنوثتها فتباعدت تجاه سيارته في هروب أول:

- هنتأخر..

ابتسم..

لاحظ حيائها، فرارها.. نعومتها التي انفرد بها وحده..

تبعها بذات البسمة وجاورها دون أن يتغير ما يملأ مقلتيه نحوها وإن استدعى الثبات بمداعبة:

- مش كنا كتبنا الكتاب!..

كبتت ضحكتها فظهرت نبرتها مكتومة وبصرها يتغاضي عن لقائه عبر النافذة جوارها:

- لسه هاعملك دراسة جدوى..

صدمه الرد لثوان تجمد خلالها يرقبها بدهشة ثم ضحك.. ضحك بقهقهة رجولية عالية طربت لها أذنيها فاستدارت إليه بعناد محبب:

- روحني يلا لو سمحت..

لكنه ومع عنادها الرقيق مال باقتراب تائق:

- بفكر أخطفك..

وهو لا يعلم..

لا يعلم أنه اختطفها بالفعل..

والفدية المطلوبة؛ قلب بات أسيره وانتهى..

***

كثيرون يسقطون، لكن قلة فقط من يقاومون السقطة.. لا يخضعون لألمها ولا يستسلمون لتجبرها على أرواحهم..

قلة فقط من ينهضون بعد تعب..

بعد انكسار..

أوقفت السيارة أسفل مبنى الشركة وترجلت بخطوات حازمة نحو مدخله، لم تلمح الدراجة النارية الضخمة التي اعتادت وجودها بمكان مخصص قرب مكان صف سيارتها فأيقنت أنه لم يأتِ، أو أحضرها معه كما طلبت منه.. استقبلها الأمن بتحية ودود قابلتها ببسمة..

صعدت لطابق الإدارة حيث مكتب أبيها وغرفة الاجتماعات التي ينتظرها ابن صديق والدها العائد من الغربة بقرار استقرار حاسم..

ما إن رأته حتى رحبت به وبطفلته التي تصر عليه بإحضارها منذ التقتها على عشاء دعاه إليه "مراد" بصحبتها..

سقطت بغرامها على الفور ونمت بينهما صداقة محببة جعلت الصغيرة تلقي نفسها بين ذراعيها من إن لمحتها:

- توتا..

قبلت وجنتيها وأخرجت من حقيبتها مغلفًا من سكاكر الحليب وقالبًا من الشيكولاتة وضعتهما بيديها بمرح:

- حبيبة توتا.. البونبوني اللي بتحبيه والكراميل بار..

وتوجهت إلى والدها تصافحه بترحيب دافئ:

- نديم.. اتأخرت عليك معلش، الطريق كان زحمة جدا وكان لازم أجيب حاجات كاري معايا..

أهداها بسمة جذابة لم تخلُ من عتاب أبوي كأنها طفلته الثانية:

- هي مش متعودة على الدلع ده..

قرصت وجنة الفتاة الممتلئة وأتبعت القرصة بقبلة ثانية، اتخذت بعدها مقعدها جواره حول المائدة العريضة:

- أنا هاعودها ومالكش أنت دعوة..

فرد كفه فوق صدره بإذعان يائس مفتعل:

- أطلع منها قصدك!..

ضحكت بمرح صافي:

- بالظبط كده..

هز رأسه وتبدلت نبرته لامتنان حقيقي:

- مش عارف أقولك إيه يا تاليا أنتِ وعمي مراد...

- ما تقولش حاجة، ورانا شغل نتكلم فيه.. ها، عملت إيه!..

بترت مساعيه الشاكرة بحزم كعادتها، أدار إليها شاشة حاسوبه بعملية تشير بوضوح لعشقه لعمله الذي شاب لهجته خلال حديثه عنه شغف جلي:

- كده كل حاجة جاهزة عشان نفتتح القسم التكنولوجي..

راجعت الملفات التي أشار إليها سريعًا ثم نظرت إليه باهتمام:

- اخترت المجموعة اللي هتشتغل معاك!..

نقر بأصابعه ليفتح أمامها مجلدًا يمتلئ بعشرات السِيَر الذاتية:

- لسه.. وهاحتاج مساعدتك..

قطبت بحيرة وتنهدت تزم شفتيها:

- بس أنا مابفهمش في الجرافيكس أو تصميم الـgames..

شرح ببساطة وهو يغلق الشاشة:

- أنا محتاج عين برا موضوع التصميم خالص، تفتحي شغلهم تبصي على الشخصيات.. الأفكار، لو ألعاب حربية سهل تتحكمي فيها ولا في مشاكل تقنية.. كده يعني..

وناولها عدة اسطوانات مضغوطة بحسم:

- ده شغل مجموعة منهم اخترتها، شغل احترافي بس لازمه تقييم خارجي.. افتحي وشوفي..

هزت كتفيها بتفهم:

- أوك.. هاجرب كده وأشوف، هاخد كاري معايا وأنا مروحة ونلعب مع بعض..

رمق ابنته بنظرة هادئة قبل أن يخبرها:

- في ألعاب عنيفة مش هاوصيكِ طبعا..

استقامت تودعه عائدة لمكتبها عبر الممر:

- تمام ما تقلقش..

وعند الباب تذكرت أمرًا فاستدارت باستدراك:

- صحيح، بابا عازمك على العشا النهاردة..

ضحك بخفوت مُحرَج:

- لا.. هاعتذر المرة دي بقى، أنا من يوم مارجعت وأنا مقيم عندكم تقريبا..

مالت تمسك بيد الصغيرة لتذهب معها وهي تخرسه بنظرة حاسمة:

- ماحدش بيراجع مراد بيه في قراراته يا باشمهندس نديم، وكاري هتفضل معايا أصلا لحد ما نروح سوا..

تابع رحيلها بعينيه وفوق شفتيه بسمة غامضة..

نعم عاد بعد اغتراب عُمْر؛ ونعم التقى بعائلته.. لكن العائلة الحقيقية كانت للعم "مراد" وزوجته وابنته..

هم استقبلوه بترحاب ودفء يخالف فتور الآخرين..

دفئًا تعلقت به طفلته فبات وجودها في محيط أسرة والده واجبًا ثقيلًا عليهم وعليها..

مط شفتيه بتنهيدة وجمع حاجياته في استعداد للذهاب لمكتبه الذي خصصه له "مراد".. تاركًا ابنته مع "تاليا"..

أو كما تناديها الصغيرة..

"عمتو توتا"..

***

هل تعلمون كيف تفنى النجوم!..

هي تنطوي على نفسها، تنهار إلى الداخل تجاه النواة بفعل الجاذبية وعدم وجود وسيلة لإيقاف ذلك بتوليد ضغط معاكس إلى الخارج..

موت النجوم؛ عبارة عن فقدان توازن..

خلل تتلوه النهاية..

تنهش نفسها حتى الوصول للعمق ثم لا تجد ما تأكله فتتلاشى..

هو كان نجمًا متوهجًا ذا بريق ساطع ثم.. انطفأ!..

مات.. والميت لا يعود..

غاب عن الوجود لكن أثره باقٍ لم يرحل، لمعته الملتصقة بالمخمل الأسود الذي يظللنا ليلًا تمنحنا جمال الذكرى..

شهر طويل مضى.. ثلاثون يومًا وها هي بداية الشهر الذي يليه، أتقن طريقة العمل، بل تشربها بملعقة الخضوع فلا يوجد سواه.. عقد عدة صفقات وفي الأخيرة منها بشهادة والده وعمه ومساعدته الصهباء.. كان عبقريًا في الحصول عليها بشروط ممتازة..

خطا لمكتبه بثبات هادئ متوقعًا وجودها لاستقباله ككل يوم وإن أبكر قليلًا، لمحها فوق مقعدها توليه ظهرها منشغلة حد الغرق بشيء ما بين يديها لا يدري ما هو..

جمد مكانه للحظات ثم اقترب بخفوت وحرك رأسه ليرى.. نفسه..

كانت تتصفح حسابه الشخصي على موقع "فيس بوك" والذي أعاد إليه بعض النشاط قبل أسبوع..

اكتنفه غضب ممتزج بضيق، كاد يتنحنح بعنف والغرض إخافتها لكن توقفها عند إحدى صوره التي يتذكر أين ومتى التُقطت أسكته في ترقب..

سمع تنهيدتها فتلاشى ضيقه في سخرية تحكمت به، شد قامته وانتوى التدخل.. لم يصدر صوتًا، لم ينبهها برفق.. بل توقف قربها ومال بعض الشيء مبادرًا بتهكم لاذع:

- الأصل معاكِ في نفس المكان، بتدوري في الصور ليه!..

شهقت بانتفاضة وقفزت خارج مقعدها..

لقد كان صوته قرب أذنها!..

ابتسمت وابتلعت ارتباكها بسيطرة خرافية أعجبته وهي تجيبه بسلاسة:

- مسيو مروان.. الحمد لله ع سلامتك..

رفع حاجبه بتأمل..

لا ينكر فتنتها!..

ومع مثالية ماتت ودفنت أباح لعينيه الدوران حولها والغوص في تفاصيلها..

ثياب اليوم بها لمسة أنوثة تخالف عمليتها السابقة، بذلة نعم.. لكن التنورة القصيرة التي لم تتخطَ ركبتيها بدلت المشهد تمامًا..

زرقاء داكنة تعاند بشرتها بظهور حليبي فاتن، والقميص بلون سماء أغسطس الصافية، خصلاتها حرة بانسدال ناعم حول وجهها وكتفيها، وحمرة شفتيها أظهرت اكتنازهما بإغواء صريح..

مط شفتيه بتعبير مبهم مع سكونها تحت وقع نظراته:

- هاتي عقد شركة Der Berg وحصليني..

أومأت بأناقة عملية وهي تجذب العقد من أحد جوارير مكتبها بيسر:

- تمام مسيو مروان..

تبعته إلى غرفة مكتبه الواسعة ذات الجدار الزجاجي الضخم والذي يشبه الآخر بشقته.. خلع سترته وعلقها على مشجب جانبي، أرخى ربطة عنقه وفتح زر قميصه الأول.. شمر عن ساعديه بعض الشيء كأنما يبحث عن شيء من راحة، تناوله منها عائدًا إلى ما خلف المكتب متغاضيًا عن إعجاب نظرتها.. إعجابًا لا تبذل جهدًا في مداراته..

إعجابًا يروق له!..

حدد بقلم أحمر عدة خطوط في الأوراق واستقام يخطو إليها، واجهها يمد يده بالعقد نحوها وعينه تقتحمها:

- دخلي التعديلات دي وعيدي طباعة..

قرأت ما اقترحه ثم ناوشت شفتيها بسمة ونبرتها تصله بدهشة:

- شو خبير عظيم مسيو مروان..

انحنى نصف انحناءة بحركة مسرحية ساخرة:

- البركة في أستاذتي..

نغمة ضحكتها كانت عذبة أجبرت ثغره على تقوس طفيف ببسمة:

- ولو.. الطالب غلبه لإسِتاذه، التعديلات بتستحق أنا كتير متأكدة.. بدُن يوافقوا..

- كنتِ بتدوري على إيه في الأكاونت بتاعي يا روسيل!..

لم تجفل مع سؤاله المباغت.. لم ترتبك أو تهتز، صمتت لحظة قصيرة تجولت بعينيها بين متاهات ملامحه الوسيمة والعسل الداكن بمقلتيه قبل أن تخبره ببساطة:

- بشوفن لصورك..

أمال رأسه بتساؤل مستغرب فأردفت:

- كتير handsome مسيو مروان..

وأخرجت هاتفها تفتحه، تدير شاشته لتواجه بصره الذي سقط فوق تلك الصورة الأخيرة:

- هون كتير حلو..

تعددت الأسباب وإعجابه بها واحد، بل يتزايد..

صريحة.. جريئة.. بسيطة.. لا تتلاعب وإن كانت تجيد التلاعب!..

عقد ساعديه وعاد خطوتين يرتكن لطرف مكتبه في هدوء:

- طيب ما الحلو قدامك مباشرة..

ابتسمت، اقتربت خطوتيه فصار الفاصل بينهما خطوة واحدة، رفعت بصرها إليه بهمس مويخ:

- بدك تِرد الكومبليمو ع فكرة..

انتزعت منه ضحكة خافتة وازت بسمتها:

- أنتِ كمان ست جميلة يا روسيل..

وانثنى باقتراب حتى تنفس عطرها الرقيق المناقض لأنوثتها الفجة:

- وزي القمر كمان..

سكنت عدة ثوان بذات البسمة ثم تباعدت خطواتها لخارج المكان بثقة:

- بعرف..

عند الباب أوقفها بنداء غامض استدارت على إثره تجاهه:

- أنا جعان.. مافطرتش، اطلبي لنا فطار..

- إلنا!..

أومأ بإيجاب متعجل وهو يقلد لهجتها الممتعة لأذنيه:

- أيوة.. إلنا..

"خليه لتلاتة يا روسي بالله عليكِ"..

صوت الفضولي الذي يمارس عليه شتى أنواع الإزعاج، ومع لقاء النظرات ناوشه "حاتم" بعبث وقح:

- أنت كنت بتشرب اللبن ولا إيه يا مسيو مروان!..

زجره بحدة صامتة مع دهشتها، تركت لهما الغرفة عندما أعطاه "حاتم" اسطوانة مضغوطة والفضول يشق حضوره فوق وجهه:

- دي ملفات الشركة اللي طلبتها كلها من أول ما بدأنا شغل معاهم..

التقطها منه بينما يكمل بخبث:

- أفطر معاكم ولا هتزحلقني!..

- لا هاطردك..

حادة ضائقة وباردة..

اقترب ينحنى عند المكتب بغمزة ماكرة:

- اللي ياكل لوحده يزور..

وقبل أن يجيبه أتاه صوتها قرب الباب بتساؤل:

- مسيو مروان.. شو رأيك في ترويقة مصري شعبي!..

ولم تسمع رده عندما هرب صديقه باعتراض:

- شعبي!.. خلاص ما تعمليش حسابي..

عادت تطلق ضحكتها التي أجبرته على تحويل تأمله من شاشة الحاسوب إليها.. إلى بسمتها.. وحضورها المختلف، جاوبها بعد لحظات لم تنطق خلالها كأنما كانت خاضعة لعينيه فحسب:

- على ذوقك يا روسيل..

لاحقت أحرفه نغمة هاتفه برسالتها اليومية والتي تعوضه انتظار النهار حتى مكالمة ما قبل النوم، صورة صغيرته الملتقطة توًا.. كانت تلطخ وجهها بالشيكولاتة وتضحك للكاميرا ببراءة..

هي دائرة النقاء التي تحيط به رغمًا عنه لكنه.. كسر دائرته ورحل عنها..

هو نجم تمرد على ذاته..

تمرد على مثاليته..

هو نجم توهج حتى.. احترق!..

***

قد يهدينا القدر مخاطرة غير محسوبة لنخوضها؛ لكننا نجبن، نخاف فنبتعد ونختار الجانب الذي نظن فيه السلامة..

نفضل الطريق الآمن وإن لم يكن ما مررنا به عبره سوى ألم تلو ألم..

سوى فقد وخسارة وتيه قلب..

كانت تتعلق بيدها صغيرتها أو هي من تتعلق بها، الأمر سواء بداخلها حيث أنها قطعة منه، ممن رحل عنها.. تسير خلف توأمها الذي أصر عليها للخروج معه إلى النادي يوم عطلتها ولو لأجل طفلتها..

تراقب خطواته وزوجته التي تتشبث بذراعه كأنما سيختفي لو تركتها.. وابتسمت بحيرة مندهشة دون حديث..

استقروا على طاولة تواجه المسبح، اصطحب الخال ابنة أخته تلعب معه في الماء بمرح، يحملها ويرفعها فوق كتفيه.. يسبح بها ويدغدغها فتتعالى ضحكاتها..

يدفن وجهه في بطنها فتجذب خصلاته بسعادة تسعده..

وعينا المرأتان تراقبان بمشاعر مختلفة، الأخت بابتهاج لابنتها التي حُرمت من أبيها مرتين، مرة رغمًا عنه ومرة باختياره.. والزوجة التي تتمنى طفلها الخاص وترى كيف يتعامل زوجها مع ابنة شقيقته..

مر الوقت الممتع بعجالة كما هي عادة الأوقات السعيدة، تناولوا الغذاء وقرب الرحيل سمع النداء المندهش باسمه..

"آسر!"..

مع الالتفاتة استقبله صديقه ببسمة واسعة:

- إيه يابني عاش من شافك..

رحب به بمصافحة واحتضان رجولي وربتة كتف، من ورائه كانت تقف فتاة بنية الخصلات بملامح ناعمة ابتسم لها وهو يقرص وجنتها:

- جنى.. لا ده إحنا كبرنا وبقينا زي القمر أهو..

وغمزها بعبثه المعتاد غير مدرك لاشتعال امرأته التي تجاور شقيقته بوقفة متحفزة:

- فين التقويم والسنة المكسورة!..

وبَّخه صديقه مع نظرة الفتاة الحانقة:

- يابني أنت بتقارن من خمس سنين بدلوقتِ، إنما قولي أنت فين في الدنيا!..

جذبه "آسر" يعرفه بزوجته وتوأمته.. سارا معًا يقص عليه نبذة مختصرة من أخباره حتى وصلا للسيارة على وعد بلقاء خاص قريب..

أوصل "سما" والصغيرة التي ضمته ببراءة دافئة مسَّت قلبه إلى بيت أبيه، توجه في الطريق إلى منزله عندما لاحظ صمتها.. رمقها بنصف نظرة من طرف عينه بشبه بسمة:

- إيه يا مولي!.. ساكتة ليه من ساعة ما سيبنا النادي!..

مطت شفتيها ولم تلتفت إليه، جاوبته بحنق مكبوت أعلنت عنه نبرتها قسرًا:

- مافيش..

رفع حاجبه وتلك الكلمة السرمدية التي لا تحمل مدلولًا واضحًا تغيظه..

تجاهلها حتى أغلق الباب من خلفهما، عندها جذب ذراعها يواجهها بجدية:

- ممكن أفهم في إيه!..

ترددت..

بدت كأنما تحاول البحث عن طرف خيط لبداية انفجار لكنها حائرة بين أكثر من واحد، في النهاية بصقتها بوجهه حادة ساخطة:

- آسر.. أنت ليه مش بتفكر تعمل العملية!..

ومع ثبات جسده وجمود ملامحه كانت عيناه تستعران.. حتى أنها استشعرت احتراقها بلهيب نظرته المضطرمة، نفض يدها وابتعد يخلل خصلاته بزفرة..

يصمت ويعد لعشر فعشرون بحثًا عن صبر، هي تجيد افتعال المشكلات في كل مرة.. وهو..

هو مل!..

استدار يتأملها ببرود أغاظها أكثر حتى نطق:

- أمل أنا كذبت عليكِ لما اتجوزتك!..

بدت غير مدركة لمقصده فاقترب بغتة يقبض على مرفقها بفحيح غاضب:

- أنا حطيت كل حاجة قدامك ووافقتِ، ليه دلوقتِ بتدوري على حاجة أنا ما وعدتش بيها!..

ارتعشت للحظة ثم قررت العناد:

- لأن في حاجة ممكن تتعمل ويبقى عندنا ولاد..

ثم صمتت تستجمع أفكارها، تستعيد صورته مع طفلة أخته:

- أنت ما شفتش نفسك مع شجن يا آسر..

اختارت اللعب على وتر العاطفة جاهلة بما يدور بخلده:

- هتبقى أب حنين قوي..

لدهشتها تراجع بقهقهة عالية..

قهقهة مستخفة ربما، ساخرة.. رافضة:

- ولما العملية ما تنجحش!..

- تبقى على الأقل حاولت..

سكن بغتة يحتل عينيها بنظرة قاسية:

- مافيش محاولات يا أمل وده آخر كلام..

وقبل أن تعترض مجددًا بادر بحزم:

- إيه بقى اللي فتح الموضوع ده بجد!.. غير إني كنت حلو قوي مع شجن..

وكان يقلد نبرتها في آخر كلماته فأشعل فتيل احتراق كان ينتظر اللحظة المناسبة:

- أنا عاوزة حاجة تربطني بيك للأبد..

- نعم!..

- أيوة يا آسر، البنت دي اللي كنت واقف معاها بتهزر وتمسك إيدها وتقرص خدودها أنت...

- بس..

توسعت عيناها برهبة مع زعقته، وهو رفع يديه قبالة وجهها بحسم:

- بس.. كفاية كده بجد..

وأشار من خلفه بلا معنى:

- البنت دي بالنسبة لي طفلة، عندها ١٦ سنة.. أول مرة شفتها من سبع سنين اشتريت لها شيكولاتة.. يعني زي أختي الصغيرة..

وبكت..

لم تستطع سجن عبراتها أكثر فهطلت تمر بأخدود مرير حول وجنتيها:

- أنا باغير عليك يا آسر.. وهي مش طفلة دلوقتِ..

هز رأسه بيأس حانق:

- وأنا مابحبش الجو ده يا أمل.. أنتِ مراتي، وعشان أنتِ مراتي يبقى مافيش واحدة تانية ممكن أفكر فيها غيرك..

وجذب ذقنها بغلظة بين أصابعه:

- فما تنكديش علينا يا بنت الناس..

- أنا ما بانكدش، أنت مزودها..

أهداها نظرة محذرة أخيرة وابتعد، التقط مفاتيحه التي تركها على طاولة جانبية عند دخوله عائدًا من حيث أتى وهي تناديه ببكاء متوسل لم يستجِب له..

ظل يدور بسيارته في الطرقات على غير هدى حتى انتصف الليل متجاهلًا الرد على مائة اتصال وصله منها..

عندما قرر العودة وجدها في استقباله بثوب فيروزي قصير كان قد اشتراه لها قبل أيام، تنبعث في المكان موسيقى هادئة والرائحة العطرية تغمره.. ضوء خافت أحاطها بهالة ناعمة وابتسامة متوترة متشنجة فوق شفتيها المصبوغتين بحمرة نبيذية مغوية:

- آسر..

توقف على بعد خطوات منها يجبرها هي على الاقتراب وفعلت، تهادت نحوه حتى واجهته، تحيط وجهه بكفيها، تتنقل بقبلاتها بين وجنتيه، فكه وتستقر عند شفتيه باعتذار:

- آسفة..

كان يود عقابها.. لم يمهلها حتى تنهي أحرفها بل ابتلعها وأنفاسها بقسوة لم تعتدها معه، وسحبها إلى الفراش دون اهتمام بما أعدته لأجله..

يغزوها ولمسته جافة، قبلته شرسة وحضوره غير مكتمل.. حتى انتهى..

ابتعد لتقترب هي، تنكمش بين ذراعيه وتكرر الاعتذار:

- آسفة بجد..

دمدم بخفوت كالصقيع:

- ما بحبش الغيرة ولا النكد يا أمل..

سارت بأنامل مرتجفة فوق صدره تستجدي صفحه:

- هاحاول أقللها..

قبض على أناملها بغتة وهمس بصرامة باترة:

- هتمنعيها..

وأعاد الكَرَّة!..

***

أنت لن تعرف شيئًا عن الخسارة الحقيقية؛ إلى أن تخسر شيئًا أحببته أكثر من نفسك..

"روبن ويليامز"

وهو لم يخسر مجرد شيء، بل خسر مستقبلًا اختاره منذ بداية الإدراك والوعي..

جلس يجاورها في مواجهة طبيبه الذي يتابع حالته بعد عودته للوطن، يده تقبض على كفها بضغط مؤلم تغافلت عنه وهي تطوقها بكفيها في دعم:

- للأسف يا دكتور يوسف، مافيش حل..

ارتجف فكه فضغط أسنانه يوقف الرجفة:

- يعني إيه!..

تنهد الطبيب واستقام يشرح على صورة رنينه المغناطيسي الأخيرة:

- الورم كان حجمه كبير وضغط على الـ frontal lobe فساب أثر دائم على الأعصاب الحركية..

رفع "يوسف" يمناه قبالة عينيه ولاحظ الرعشة التي لم ترحل عنها بعد..

ولن ترحل!..

تشبثت هي باليسرى في دعم لا تراه كافيًا فاندفعت بحدة:

- هو ممكن ده يكون بسبب غلطة في العملية!..

كأنها تبحث عن ظهر أحدهم تثقله بالذنب، ترمي عليه بإثم فقده ما يحب:

- لا يا مدام ملك، العملية كانت متقنة جدا وبمهارة غير عادية.. الورم وحجمه والتأخر في علاجه هو السبب مع الأسف..

"يعني أنا السبب"..

نطقها زوجها في تقرير بخفوت قانط، حاولت منعه من التمسك بتلك الفكرة لكنه نهض يغادر بصمت.. تبعته حتى وقف عند السيارة بانتظارها في وجوم، فتحتها واتخذت مقعد السائق تراقب غياب عقله وبهوت ملامحه.. شروده وسكونه..

سكون مختنق تدركه وتعجز عن تغيير الحال الذي بات واقعًا لا مناص عنه، همست باسمه في حشرجة:

- يوسف..

- مش عاوز أتكلم يا ملك..

ولأنها تدرك كيف يشعر فقد خضعت لرغبته..

هي من جربت الخسارة مرات ومرات، قادت السيارة عائدة إلى منزلهما.. عندما دلفا إلى الداخل أوقفته رغمًا عنه وقلبها يئن ألمًا في رثاء لألمه:

- يوسف..

تصلب بوقفته دون استدارة.. فعلتها هي، دارت حوله تغوص بعينيه.. بل بالحزن الذي غلف سماءه بغيوم جافة غامضة خالية من انفعال مطمئن أو حتى مخيف:

- مش كل حاجة بنحبها بنكمل فيها ولا كل حاجة كرهناها بتكون شر..

جذب يده منها بفظاظة ونبرته الخفيضة ترفض.. تقطع.. تنفر وتتباعد:

- مش وقت حكم أو مواعظ يا ملك من فضلك، محتاج أكون لوحدي..

والتفت ووجهته الخروج مجددًا، لاحقت خطواته تقف خلف الباب تمنعه الرحيل:

- لأ.. مش هتخرج وأنت في الحالة دي لوحدك..

- ابعدي من طريقي يا ملك..

كانت زاعقة!..

زاعقة حد أنها انتفضت، فلأول مرة يمرر لها غضبًا حارقًا بنبرة اشتعلت وانتهت إلى رماد كهذه اللحظة..

ارتكنت للباب بعناد متغاضية عن تأجج الجحيم بمقلتيه:

- لأ يا يوسف..

جذبها يبعدها وعاندت.. أصرت وثبتت قدميها في الأرض ويدها تحاوط بطنها المنتفخ بتوتر مع ثقل خطواتها بالحمل مؤخرًا:

- يا ملك.. من فضلك.. عاوز أبقى لوحدي..

يضغط الأحرف، يُقطعها، يزفرها ويختنق.. لكن في مواجهة ضعفه انتصر عشقها، حطت بكفها عند نبضه الهادر تهديه السلام بقربها:

- اقعد لوحدك لو عاوز، بس في البيت.. مش هاسيبك تخرج..

ضم قبضتيه ولكم الباب قرب وجهها بعنف أفزعها، استدار يخطو بهرولة تجاه غرفة جانبية اقتحمها وأغلقها بمفتاحها عازلًا نفسه عنها..

عن دعمها واحتوائها وحنانها..

عن أذى يخشى أن يتسبب فيه لها..

وسقط..

سقط فوق فراش ضيق.. وسقطت الروح في جحيم الفقد تحترق..

سقط القلب في دوامات الألم..

سقط العقل في بئر الحرمان..

وأعاد كفه لتواجه نظرته الكسيرة، تأمل الرعدة..

فردها وحركها واستمرت، واللعنة على الأمل عندما نتمسك بخيطه الرفيع فيتمزق..

ثم نسقط برقود أخير في قاع اليأس..

"أنا هاقعد قدام الباب لحد ما تفتح"..

همسها الذي يسعى لاختراق عزلته..

"أهون عليك أقعد على كرسي مش مريح!"..

كلا، لا تهون..

لكن الفقد عظيم، ربما لا تفهمه هي..

"مش هاتحرك لحد ما تطمني عليك يا يوسف"..

مرت ساعة.. وغفا، ومن بين جفنيه المنغلقين تسللت دمعة تنعي ما ضاع.. استقبلتها وسادته فجفت حال اللمس..

ساعة ثانية.. ثالثة، وخمس وثلاثون دقيقة ثم فتح عينيه..

قابله ظلام الغرفة والسكون، اعتدل يمسح وجهه بوهن سيطر على خلاياه، استقام بعدها يخرج إليها..

يبحث عنها.. رآها على أريكة صغيرة مواجهة، نائمة في وضع غير مريح.. تستند برأسها إلى ساعديها المعقودين عند المسند الجانبي وقدميها تتدليان أسفل جسدها ..

تحرك نحوها بلا إرادة..

كانت تجذبه كحورية ألقت عليه بسحر لا خلاص منه.. كانت الملاذ..

كانت الوطن والسكن..

كانت القيد والحرية..

كانت جسد العشق وروحه..

وكان صدرها المكان الذي يحتاج..

استوى على الأرض عند ساقيها وأراح رأسه فوقهما قرب طفله، استشعرت وجوده ورغبته في ضمة.. حاوطته بذراعها وأنامل الثانية تحنو على وجهه وجبينه بلمسات حانية أغمض لها عينيه..

كرر الغياب.. والمجهول يسيطر على الواقع بحقيقة كالحنظل..

"يوسف الحسيني" لم يعد جراح القلب الماهر.. إلى الأبد!..

***

أحيانًا تصدمنا الحياة بأن تسحب من تحت أقدامنا بساط الاختيار..

وأحايين أخرى، تتركنا نتزلق بطريق خياراتنا غير الممهد!..

وضعت صغيرتها بالفراش وطافت فوق ملامحها المستنسخة منه بقبلات خافتة متتابعة أنهتها بباطن كفها المكتنزة..

تركت لها إضاءة خافتة ونزلت الدرج إلى المطبخ لتحضر مشروبها العشبي اليومي عندما وجدته هناك بانتظارها:

- آسر!..

أهداها بسمة هادئة توجست لها وهو يطلب بتلقائية:

- اعملي لي معاك من البتاع اللي بتشربيه..

خطت إلى الداخل تحضر قدحين بسكر خفيف كما تفضل دون أن تسأله عن رغبته، بل بادرت باستفهام:

- أنت لسه هنا ليه لحد دلوقتِ!..

مط شفتيه ببساطة:

- مستنيكِ.. عاوزك في موضوع كده..

منحته نظرة صامتة تفيض بالتساؤل وإن كانت تدهشها جدية نبرته ونظرته:

- فاكرة باسل!.. اللي قابلناه في النادي من أسبوع مع أخته!..

قطبت تتذكر بإدراك غير مكتمل:

- ماله!..

مال فوق الطاولة يستند إليها بمرفقيه، يشبك أصابع كفيه ويواجهها بحزم كأنما يبحث عن امتلاك اللحظة والفكرة:

- اتقدم لك..

تراجعت في مقعدها بحدة مبهوتة:

- يعني إيه!..

- يعني عاوز يتجوزك..

تركت مكانها بضيق ظاهر تمازج بغضب لم تواريه بينما هو يكمل بلامبالاة لرد فعلها:

- أنا قلت له هابلغ بابا، ولو العروسة موافقة نحدد ميعاد يتقدم فيه رسمي وتقعدوا مع بعض..

امتعضت بحنق اكتسح نبرتها:

- آسر أنت بتقول إيه!..

استقام يدور حول الطاولة ليقف أمامها مباشرة:

- باقول إيه!.. أختى صاحبي طلب إيدها مني وبابلغها، إيه الغريب في كده!..

كتفت ذراعيها باستياء بالغ وعنف لهجتها يشتد:

- الغريب إنك عارف إن في...

- مروان!..

بتر كلماتها يكمل الاسم الذي يحمل اللغز والحل..

المسألة والتفسير..

السر والعشق الذي لا يخفى على أحد:

- هتفضلي مستنياه لحد إمتى يا سما!..

يضرب بقسوة فاتحًا جرحًا ضمدته على أمل الشفاء بمن كان هو الداء والدواء:

- مروان سافر خلاص بقى له أكتر من شهر ونص وواضح إن حياته استقرت هناك..

وانحنى ينظر بعمق عينيها، يلحظ اهتزاز مقلتيها ولا يكترث:

- من غيرِك..

ثم تراجع يهز كتفيه كأن ما يقوله هو الحقيقة البديهية الوحيدة:

- دلوقتِ دورك أنتِ كمان حياتك تستقر..

عاندت بهروب رافض.. محتج.. خائف:

- أنا حياتي مستقرة..

أوقف هروبها وكفه تتحكم بمعصمها تعيدها إليه:

- لأ.. حياتك متعلقة بخيط ضعيف بين السما والأرض..

دمدم بغضب عليها وعلى ابن العم الذي اختار الغربة بإرادة حرة:

- لو الخيط ده اتقطع هتقعي يا سما، واللي هيتكسر مش رقبتك..

نفى بهزة من رأسه قبل أن يكشف النهاية لعينيها:

- قلبك..

جذبت يدها منه بعنف استجاب له فحررها بسلاسة..

تراجعت تحيط جسدها بذراعيها وتستند لسطح المطبخ بوهن؛ لكنه لم يترك لها فرصة الغياب فيمن رحل عنها وعنهم جميعًا حتى طفلته، بل قطع الوريد وأباح له النزف:

- على فكرة، أنا فاتحت بابا وهو مش معترض على باسل..

رفعت بصرها إليه باستنكار تجاهله مفندًا أي اعتراضات قد تفكر بها:

- أيوة.. إنسان كويس، من عيلة محترمة، محاسب مجتهد وعنده مكتب خاص..

وأدخل يديه في جيبي سرواله مستغلًا صمتها.. ضعفها وهشاشتها بهذه اللحظة:

- وماعندوش أي مشكلة مع ظروفك..

- ظروفي!..

خرجت منها بحشرجة ضائعة لم تؤثر بصراحته أو تهتز لها مشاعره:

- أيوة يا سما.. مطلقة وفي طفلة، وعارف ظروف أبو الطفلة دي..

هو يبحث عن إفاقة.. والإفاقة أحيانًا تأتي بصفعة:

- فكري كويس قبل ما ترفضي..

يمنطق ويحلل ويدافع:

- مروان لو كان عاوزِك كان أخدك معاه..

يذبح.. يوجع.. يقطع عنق عشق لم يمُت بقلبها، عشق خالد بخلود الأنفاس والنبض:

- بس هو اختار حياته من غيرك وبعيد عننا كلنا..

واقترب بنبرة حانية مهتمة، يقبل رأسها ويربت على خصلاتها برفق:

- ما تفنيش نفسك في تضحية مالهاش تمن..

وهل للعشق مقابل!.. نعم..

عشق مثله..

(٤٧)

ولحظة إنتهاء العاصفة لن تتذكّر كَيف تدبرتَ أمرك لتنجو..

ولن تُدرِك هل انتهت العاصفة أمْ لا!..

ستكون متيقَّنًا مِن أمرٍ واحدٍ فقط..

حين تَخرج مِن العاصفة لن تعُود الشخص نفسه الذي دخلها..

ولهذا السبب وحده كانت العاصفة..

"هاروكي موراكامي"

نحن البشر غير مؤهلين لتحمل الخسارة.. الفقد..

نخسر فنغضب..

نخسر فنحزن..

نخسر فننزوي ونلعق جراحنا في ركن خفي كأن رصد الأعين لنزفنا وجع فوق وجع..

نخسر.. وكنا نظن أنا ماخسرناه من المسلمات كبديهية الخلق والكون ودوران الأرض حول الشمس..

وذاك الاعتقاد هو الأكثر غباءً على الإطلاق؛ فلا شيء أبدي وإن تمنينا أبديته!..

لا شيء يدوم..

والدليل مهاتفة بوقت شبه متأخر، الساعة تجاوزت العاشرة ليلًا وهو لم ينم بعد.. كان ينفث دخان آخر لفافة تبغ قبل الدخول إلى الفراش وبدء حربه اليومية مع النعاس الذي يؤرق عقله بغياب صعب..

ساعة.. اثنتان وأحيانًا ثلاث قبل أن يخضع لسلطان النوم بإرهاق يوازي إرهاقه عند فواقه الكامل قبل الشروق..

مهاتفة من أخته!..

أجابها بهدوء فوجد نبرتها جدية مثيرة للقلق:

- أنا قلت أكيد لسه ما نمتش!..

ناوش جانب شفتيه بسمة خافتة وانحنى يرتكن لسور الشرفة باسترخاء، يرمق الأفق ثم يسقط بصره على الأضواء المتناثرة لأعمدة الإنارة والسيارات المارة أمام مبناه السكني كنجوم صغيرة بعيدة:

- لسه.. عاملة إيه!..

أتاه صوتها هادئًا ديناميكيًا في الرد على سؤاله:

- الحمد لله.. عاوزة أتكلم معاك..

قطب بحيرة متوجسة:

- خير!..

سمع تنفسها العميق قبل أن تنزع فتيل القنبلة وتفجرها بوجهه:

- في واحد صاحب آسر اتقدم لسما..

تجمد الهواء من حوله حد الاختناق:

- اتقدم!..

لكن لهجته كانت ثابتة.. باردة:

- أيوة.. عاوز يتجوزها..

هل تحتد عليه!..

عقد حاجبيه بضيق وأنهى لفافته ثم دهسها بعنف قبل أن يشعل أخرى:

- أنا عارف يعني إيه اتقدم..

- وهتعمل إيه!..

لاحقته بالسؤال السرمدي..

السؤال الحائر بين الخلود والفناء..

السؤال الذي يقصم ظهر أفكاره بقشة الحيرة والضياع..

وصمت..

صمت لدقيقة تلتها ثانية حتى همست باسمه دون رد، ومع سكونه المبهم قررت طعن قلبه فربما مع ألم الطعنة تأتي الإفاقة:

- سما من حقها تعيش يا مروان..

صمت.. سكون.. جمود..

- شجن كمان من حقها أب يهتم بيها ويراعيها ولما تحتاجه تلاقيه جنبها..

صمت.. سكون.. جمود تمازج باحتراق..

- بس تفتكر هتكون تجربتها زي تجربتي!..

صمت غير فاهم.. سكون شارد.. واشتعال..

- أنا لما بابا مات ربنا عوضني ببابا أدهم اللي كان نعم الأب ليَّ، اللي عمره ما حسسني باليتم..

ألم.. صمت.. سكون.. جمود..

- أنت بقى يتمت بنتك وأنت عايش يا مروان..

طعنة أولى..

- المرة اللي فاتت لما غبت عنها كان غصب عنك، لكن المرة دي باختيارك وبإرادتك..

طعنة ثانية.. ونزف..

- عاقبتها على جريمة أنت ما عملتهاش ولا هي كان لها ذنب فيها..

طعنة ثالثة.. وآهة وجع تحطم الضلوع ولا تعبر الشفاه..

- بس مش عارفة المرة دي بتعاقبها على إيه!.. على إنك مش عارف تلاقي نفسك.. ولا على احتياجها ليك!..

طعنة رابعة.. وتيه..

- بنتك هتفضل بنتك، لكن سما.. محتاجة بتر، محتاجة تخف من حبك..

طعنة خامسة.. وخوف..

- سما محتاجة تفوق وتعرف إنها مالهاش مكان في حياتك.. إن مكانها مع واحد اختارها وبيقدرها حتى لو الحب هييجي بعدين..

طعنة سادسة.. وهياج، سعير.. نار تلتهم أخضر ويابس روحه وقلبه..

- سما محتاجة تتحرر من أسرك يا مروان..

طعنة أخيرة..

طعنة انتُزِع بعدها الخنجر من موطنها وترك الجرح عاريًا يُراق منه الألم..

ثم لانت نبرتها، تتسلل نحو قلبه إلى عاطفة أب:

- أنت ضيعت كتير من وقتك مع بنتك، أول كلمة.. أول خطوة، أول شمعة تطفيها.. ولسه مصر تضيع أكتر، بنتك دلوقتِ مامتها شربتها حبك في غيابك.. لكن لما تكبر وتلاقيك مش معاها، اخترت البعد عنها؛ هتبعد هي كمان.. ووقتها ندمك مش هيفيدك..

صمت.. سكون.. سقوط..

أخته الكبرى رأته يتأرجح بحبل تالف فوق منحدر سحيق فمزقت آخر شعرة منه وتركته يهوي حتى الارتطام المميت..

- عاوزاني أقنعها تتجوز واحد تاني يا ملك!..

- عاوزاك تسيبها تعيش بدل ما هي بتدبل كل يوم وأنت حتى مش شايفها..

تنهدت بزفرة ضائقة كأنما تبغض مهمتها في إيقاظه.. في استعادته:

- عاوزاك تفوق وتفوقها من غيبوبة حبك اللي مالوش مقابل..

كررت التنهيدة بحزن:

- سما وشجن اتعاقبوا واتسجنوا معاك يا مروان، دلوقتِ حقهم يتحرروا..

ثم ختمت بكلمة أخيرة:

- القرار في إيدك أنت رغم إني عمي آدم موافق..

وكان التصريح الحاسم!..

السكون طال أكثر إلا من زفرات متتابعة وصفير هواء أدركت معه أنه ينفث احتراقه بتبغه في مكان مفتوح..

طال حد أنها كادت تتحدث ثانية عندما دمدم بلهجة لم تفهمها:

- يعني يا تتجوز، يا أرجع أنا عشان بنتي تتربي بين أبوها وأمها!..

انتهت أحرفه بشبه استفهام جاوبته ببساطة حانية:

- ده سبب من ضمن أسباب..

تشدد فكه وسخرية صوته تتقافز بين كلماته:

- وإيه الأسباب التانية!..

حان دورها هي في الصمت..

وانتظر، انتظر حد فضول أجبره على الهمس باسمها فأهدته الراحة:

- السبب التاني والأهم: إنك بتحبها يا مروان..

اختنق بدخانه لحظة ثم نفثه يمنح صدره ندفة هواء بارد نقي والتهكم يطال حتى دواخله الكامنة:

- والتقرير ده بقى بناءً على إيه!..

- بناءً على نظرتك ليها..

عاد لجموده.. لحيرته.. لوجوم لامس كل ما فيه، كان كمنحوتة أهملها نحاتها دون اكتمال فباتت مبهمة لا ملامح لها ولا تجد مستقرًا تتشكل عليه:

- ونظرتي دي إزاي!..

عقله يسأل..

جوارحه تسأل..

كيانه يسأل..

أفكاره تتيه وتسأل..

وقلبه يفتش عن جواب يُسكن نبضه المشتت:

- بتبص لها كأنها الوطن يا مروان..

ولم تزِد كلمة..

أغلقت الخط وتركته لغربته بعيدًا عن وطن هجره بكامل إرادة وحرية خيار!..

***

بسم الله الرحمن الرحيم

"وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ"

صدق الله العظيم

لا يترك الله عبدًا يعمه في طغيانه بتجبر..

يظل يمهله ويمهله ويمهله، لكن لا يهمله.. يرسل الرسائل، الابتلاءات، الاختبارات.. والفائز فقط هو من يفهم، يستوعب.. ويتذكر..

الناجي وحده من ينتبه ويعتبر..

البعض يرى ثم يتغافل..

يتمادى في غيه، يغرق في ظلماته ظانًا منه بأن الحق يوازي خطواته، غير آبه بدرب الجحيم الذي يسلكه، غير مكترث بأنه نهايته سقر..

الشيطان وحده.. يعلم ويستمر ويغوي..

هو كان ومازال شيطانًا، حتى وإن بات أبًا!..

أبًا لطفل أتم من عمره عامًا بالأمس في حفل فخم يناسب اللقب الذي يحمله..

"رافل"..

سليل قطبي عالم المال والأعمال "غالي" و" دويدار"..

وريث العرش وحامل مسمى ولي العهد الوحيد كوالده تمامًا..

قبّل جبين الصغير وناوله لمربيته بهدوء، خرج من غرفته الملكية المعدة بقصر "غالي" والذي انتقل إليه مع زوجته قبل أشهر خلال حملها الصعب..

عاد لغرفة النوم بالجناح الخاص به ليجدها تنهي لمسات زينتها الأخيرة، تلتقط سترتها القرمزية وترتديها بأناقة.. استدارت إليه ببسمة هادئة:

- رافل صاحي!..

توجه نحو المرآة يصفف شعره، يتأمل ذقنه غير الحليقة والتي تتشبث بخشونتها الزوجة اللعوب حين الحاجة، تحسسها بأصابعه للحظة.. التقط بعدها زري كمي قميصه وركبهما بسلاسة وازت إشارته الصامتة بجواب موافق لسؤالها..

تلمست عنقه من الخلف بأناملها واقتربت تهمس بفحيح ناعم:

- جاهز لميتينج النهاردة!..

ابتسم بمكر لئيم عبر السطح اللامع:

- أكيد..

بادلته البسمة وعيناها تبرقان بتسلط:

- good luck في الديل..

خطت نحو غرفة طفلها، تضمه بقبلة صباحية وتغادر بصحبة زوجها إلى العمل..

انقضى نصف اليوم..

انتهى الاجتماع المقصود بفوز لإدارة مجموعة "غالي" بصفقة ضخمة..

فوز من ضمن انتصارات عدة أحدها حدث قبل ثوان عندما أبلغته مساعدته بأن السيد "باسم شاهين" بانتظار لقائه..

على غير توقع!..

راقب دخوله المتمهل للمكتب، لم ينهض لاستقباله بل تفحصه بتأمل.. نمت لحيته، نحل بعض الشيء.. تغيرت طريقة تنسيقه لثيابه فباتت أكثر مناسبة لعمره، قلل من الرسمية واتجه للعصرية بتحديث لاق على جسده الذي يحفظ خريطته، بل رسمها..

رفع رأسه ببسمة وعيناه تهديانه نظرة غامضة:

- باسم!..

استقام يقترب بعدما أحكم الآخر إغلاق الباب من خلفه بهدوء:

- مش سهل أتفاجئ؛ بس أنت فاجئتني..

تواجها..

كان العائد بعد غياب متعمد أقصر قامة فنظر إليه رافعًا وجهه بسكون:

- عشان رجعت!..

- هو أنت رجعت!..

مط "باسم" شفتيه بخضوع تلته تنهيدة متعبة:

- ما قدرتش أبعد أكتر من كده..

زوى "نزار" ما بين حاجبيه بتلاعب خبيث:

- يعني هترجع القاهرة!..

هذه المرة كانت الزفرة حارة مثقلة بمشاعر واضحة:

- أيوة..

وقرر بحسم مستسلم لخيار غير منطقي.. غير مقبول.. ومخالف لكل مبدأ تربى عليه:

- إحنا طريقنا واحد، ومهما حاولت أجرب مع غيرك؛ كنت أنت قدام عيني..

ثم بصقها بانهزام واهن:

- أنا بحبَك..

لم تتبدل انفعالات المستقبل لتلك الموجة الغريبة من التصريحات العاطفية المتتالية، لم يجِب ولم يتزحزح سلطان بصره بعيدًا عنه والواقف بخنوع يردف محركًا يمناه أمام ناظريه:

- كل حاجة تمت زي ما أنت قلت..

شبه دهشة ارتسمت بنظرة "نزار" وهو يمسك بكفه، يتطلع للحلقة الفضية بثبات:

- خطبت!..

مط "باسم" شفتيه بسخرية مريرة:

- بنت واحدة صاحبة ماما، زي ما توقعت..

وأكمل مديرًا وجهه شاردًا في السماء خارج النافذة الزجاجية:

- سنة الحياة وعاوزة أشوف ولادك قبل ما أموت، وأنت عارف الباقي..

أعاد "نزار" نظره إليه، يسيطر على عينيه بهيمنة:

- والغيرة!..

كان يقترب..

يقترب حد أن التنهيدة الثالثة من "باسم" لفحته بسخونتها:

- بقينا متعادلين..

مد "نزار" يده يداعب ياقة قميص "باسم" بتحفز أفعى على وشك الانقضاض:

- في جميع الأحوال؛ أنا ما بغيرش!..

مع نهاية أحرفه وبداية الجواب بنبرة محبطة:

- عارف..

ضاعت الأنفاس بين الشفاه بلقاء عنيف..

يثبت سيطرة..

خضوع..

ويوقع معه صك الختام..

فالشيطان يتنعم بطرائده في الدنيا..

لكن لما بعد الدنيا؛ حديث آخر!..

***

هل نبحث عن الحب أم يدفعنا هو دفعًا للسقوط بفخاخه المنصوبة لقلوبنا!..

هو لا يعلم..

عندما استشعر تغير نبضات قلبه من قبل، وقتما أدركته الغيرة وأحرقته، حينما تتبعت عيناه امرأة واحدة، اشتاقها فزارت أحلامه.. امرأة أرادها، اشتهاها، اشتهى الضمة والقبلة والامتلاك..

كانت واحدة..

وكان عشقًا..

فهل يختلف العشق!..

هل ما أخبرته به والدته من قبل صحيح!..

واحدة طرقت القلب بمطرقة الفوضى، والثانية لملمته بين جناحي الرفق واللين!..

هل هو عاشق رغمًا عن أنف القلب الغافل!..

هل تختلف صنوف العشق!..

عشق يقتل..

عشق يحيي..

عشق يقتحم فيسيطر..

وعشق يتسلل فيستحوذ..

عشق عنيف..

عشق ناعم..

هل يختلف!..

أخته تخبره أنها الوطن؛ كيف يُعشق الوطن إذًا!..

لا يعلم.. ما يعلمه أنه لن يساوم على قلبها، لن يعيدها لنقطة الصفر باختيار..

لن يستغل حبًا يؤمن بوجوده..

لن يتخطى رجلًا آخر قد يكون هو الخلاص؛ سيترك لها الخيار الأخير..

لن يقيد باسم الغرام، لن يعيد بصلة لا تنقطع تحمل اسم طفلته.. لن يغُل يدها إلى عنقها بظلم مشاعر..

سيفتح باب قفص الهوى للعصفور السجين، فإما حرية.. وإما عودة!..

"مسيو مروان!"..

تخلل صوت "روسيل" الهادئ شروده بنبرة مستفهمة، رفع عينيه إليها لتفاجئه طلتها الساحرة..

كانت تبدو أمام عينيه كحورية أساطير الإغريق "دافني" التي عشقها "أبوللو" بلا أمل.. تأملها بتلكؤ فمن حق الرجل إمتاع بصره بالفتنة والاستجابة للسحر..

ثوب أسود من قماش الليكرا، يحيط بحناياها بدقة كأنما خاطه أحدهم فوق جسدها، طويل يلامس الأرض حول كعبي حذائها العالي الذي يماثله لونًا، به كُم واحد يكشف عن بداية كتفها والآخر عارٍ يظهر عاجية بشرتها بتناقض آسر مع الثوب..

ترفع خصلاتها الكثيفة بأناقة إلا من بعضها تفلتت لتلثم عنقها بلطف.. وزينة وردية خفيفة تلائمها تمامًا..

سكنت بمكانها طوال لحظات استسلامها لنظرته قبل أن تتحرك نحو المشجب، تلتقط سترته السوداء بسؤال أنثوي بحت:

- منيح!..

ابتسم واستقام من خلف مكتبه يوليها ظهره لتساعده على ارتداء السترة، استدار إليها يهندمها حول جذعه ويغلق زرها مجيبًا ببساطة كما نطقت:

- منيح..

وأشار إليها لتتقدمه، المقصد أحد المطاعم الفاخرة بمنتصف المدينة.. والهدف عشاء عمل لتوثيق عقود أحدث صفقاته..

بدأت الليلة وانتهت بنصر جديد تقبله برضى، في سيارته كانت تجاوره ببسمة فخور كأنما يسعدها انتصاره.. فهو الطالب النجيب الذي يرفع رأس معلمه:

- كِنت بتعقد فعلًا..

أهداها نظرة جانبية هادئة:

- بفضل توجيهاتك..

تأملته لحظة كأنما تقرر أمرًا ما، واختارت المجازفة:

- سعيد بِشغلك هلأ!..

انطفأ بريق عينيه، ونشوة النصر تاهت في غياهب ظلمة الخسارة.. بلا وعي تشددت يداه حول المقود ولم يعُد ببصره إليها..

صمت واحترمت صمته حتى باغتها بجواب فاتر منتزع من مستنقع ألمه الضحل:

- باحاول..

مسَّ قلبها شفقة عليه..

هي تعلم جزءًا من قصته، تدرك أنه كان خلف القضبان لعام ونصف.. والتهمة قتل!..

لكنها تعمل مع "آل الحسيني" منذ عشر سنوات عندما خطت قدميها "ألمانيا" للمرة الأولى محطمة قيود خنوع الأنثى، وتوقن أي نوع من البشر هم..

انثنت شفتاها ببسمة هادئة، دعمته بلهجة مؤازرة:

- بتمنى تِنجح..

ومع تكرار جموده أردفت:

- مشان إنت حقيقي بتمشي ع خطوات البيزنس مان اللي ما في منه..

أدار وجهه إليها نصف دورة بنظرة مبهمة واستمر على سكونه، فاء باهتمامه إلى الطريق الموصل لشقتها عندما اقتحمت عزلة نفسه بحضور مهتم:

- مِشتاق لشغلك بالخارجية!..

قطب بضيق وبدا صوته فظًا بينما يجيب:

- عارفة تفاصيل كتير عني يا روسيل!..

هزت كتفيها ببديهية:

- مو كتير خاصة هالتفاصيل، هاد إشي العالم كلها بتِعرفه..

مع نهاية كلماتها أوقف السيارة أسفل منزلها، التفَ إليها باقتضاب:

- عاوزة توصلي لإيه!..

أبعدت خصلة شاردة عن وجنتها وابتسمت برقة:

- بس حكي.. ما في غرض مخابراتي، لا سمح الله...

وأضحكته..

ضحكة بسيطة التمعت معها مقلتاه فأردفت هي بعرض:

- شو رأيك بعزمك ع كوفي، ونحكي شوي!..

زوى ما بين حاجبيه مصطنعًا الدهشة، حيث أنه على معرفة بكونها تعيش وحدها.. فكر لحظة وشرد أخرى قبل أن يعود إليها:

- أهو سيادة السفير اللي كان بيشتغل في الخارجية كان هيرفض العرض ده قبل ما تكملي كلامك..

ومال نحوها بعبث لا يليق به:

- بس مسيو مروان؛ هيقبله!..

تفحصت غموض ملامحه باكتراث غريب عليها:

- والسفير!..

- مات..

صدمها الرد فتراجعت بحيرة عندما أكمل:

- مرتين..

ترجل من السيارة، يدور حولها..

يفتح لها بابها ويمد يده لتناوله كفها، تلتف حولها أصابعه ويدعمها حتى واجهته بوقفتها فابتسم:

- بتعرفي تعملي قهوة تركي!..

بادلته البسمة والإيماءة الصامتة تمنحه الجواب..

بالأعلى خلع سترته.. توقف بمنتصف المكان يتفحصه، استقبال من غرفتين إحداهما كما يبدو تستخدم للمعيشة، منسقة على شكل عربي مريح بألوان بدوية أعجبته.. ومطبخ صغير يناسبها، وقفت فيه تعد قهوته بثوبها حافية القدمين بعدما خلعت حذائها بعفوية فور أولى خطواتها داخل بيتها..

الجدار معلق عليه سجادة شرقية توحي بالدفء والانتماء، والتلفاز الضخم قريب من الأرض في ذات الجلسة..

الغرفة الثانية تحوي مائدة طعام بعدد محدود من المقاعد، من الواضح أنها لا تستخدم فهي تقضي معظم وقتها بالعمل..

وعبر المكان جدار زجاجي وإن كان أصغر من خاصة منزله يرى الميناء من بعيد..

انتبه لنحنحتها من خلفه وهي تناوله قدح القهوة الذي تسلل لأنفه عبقه فتنفسه بتلذذ:

- بدك تحكي!..

ارتشف منه ببطء وعينه تحط عليها وقد حررت خصلاتها من عقالها:

- عاوزة تعرفي إيه!..

تحركت تستقر فوق الأريكة المنخفضة وتشير إليه:

- كيف مات السفير؟!..

جاورها فوجدها تضم ركبتيها لصدرها وتحيطهما بذراعيها في حين استقرت ذقنها تستند إليهما، تطلع لوضعيتها التي تشبه طفلة تنتظر حكاية بفضول، غاب في ماضٍ لم يمسَّه النسيان بعد، امتدت أنامله تتحسس ندبته من فوق قميصه وصوته يصلها كأنما هو غارق في قاع الضياع:

- طعنة غدر..

أفلتت منها شهقة أجبرته على عودة إلى حيث تجلس هي، تعتدل وتسأل:

- طعنة!..

قص عليها باختصار مقتضب كيف سُجن، كيف كان في الداخل وكيف خرج!..

أخبرها عن طعنة خائنة قتلته وأوقفت قلبه مرتين ثم أعاده ابن العم للحياة، لحياة لم يكن يريدها.. لعار سيتدثر برداء خزيه أبد الدهر..

وزفر يشعل تبغه جوار أفكاره حينما همست بنبرة خافتة كأنما تخشى كسر رهبة الصمت الذي حل قبل ثلاث دقائق:

- يعني الله حياك من جديد..

بتوكيد تقريري وعيناها تتوهجان بنظرة آسرة:

- أخدت فرصة تاني للحياة..

- أنتِ شايفة كده!..

كانت نبرته ساخرة.. قاتمة.. باردة:

- شور.. في كل مِحنِة مِنحة متل ما بقولوا، أكيد اللي حصل فيك لحكمة..

تغضن جبينه يراقب حركات يديها وهي تتحدث:

- يمكن الحكمة ما عم تشوفا هلأ، بس بيجي وقت وبتشوفا..

- تفتكري!..

سؤال حائر وكلماتها تطن بأذنيه كطنين مدفع قديم على موقع حرب ضروس انتهت منذ عقود:

- هادا شي أكيد..

وربتت على كفه باهتمام:

- المهم تتمسك بالوجود تبعها، وتدوِر عليها.. وما تيأس..

رمقها بنظرة لم تفهمها، نظرة تتأرجح بين الإعجاب والغموض والدهشة بإثرها همس:

- أنتِ غريبة قوي يا روسيل..

ابتسمت برقة ولهجتها تشاغبه:

- كيف غريبة!..

هز كتفيه وشرح بيسر:

- يعني، جميلة، عملية وناجحة وفي نفس الوقت...

- حكيمة!..

قهقه بغتة فضحكت توزايه حينما صدق على قولها:

- وحكيمة..

امتد بينهما الحديث لساعات..

كانت ممتعة، صوتها.. لهجتها.. حتى آرائها في الحياة؛ قوية، ثورية خرجت عن صندق الاعتياد والملل، بل حطمته وهربت من ضيق جدرانه..

مع مرور الوقت انتبه وشعاع الشمس الأول يلامس وجهه بدفئه، نهض يشكرها ويعتذر عن ليلة من عدم النوم فالدوام على وشك البدء..

قاد لمنزله وأفكاره تتمحور حولها، تذكر نظرتها لصورة طفلته على هاتفه، ابتسامتها وهي تخبره بحالمية:

- كتير طالعة بتشبهك.. أكيد إمها بتحبك..

وابتسم يغيب في ابنته.. في أمها:

- أنتوا برده عندكم الأسطورة دي!..

- أسطورة شو!..

بدت حائرة فتجاهل الأمر:

- لا ده حاجة عندنا كده في مصر..

عندما فتح باب منزله، كان يحمل سترته على كتفه وربطة عنقه محلولة بإهمال.. خطا بضع خطوات ووجد صديقه يعتدل من نوم مرهق على الأريكة الضيقة، يبادر بسخرية يخالطها غيظ مهتم:

- هو كان عشاء عمل ولا كنت رايح على بيات!..

- أنت ما نمتش لحد دلوقتِ!..

فرك "حاتم" عينيه بإرهاق:

- نمت على الكنبة وأنا مستنيك..

هز "مروان" رأسه بتهكم بينما يرمي جسده إلى جواره:

- مش باقولك أنت فاكر نفسك مراتي..

- مروان..

أدار عينيه إليه بنظرة لامبالية فسأل دون موارَاة:

- كنت مع روسيل!..

لم يحصل على جواب شافٍ فاستنتج الموافقة:

- ده مش أنت..

رفع "مروان" حاجبًا هازئًا:

- هو أنت فاكرني كنت معاها باعمل إيه!..

بادله "حاتم" استخفافه بسماجة:

- إيه!.. بتسبح على إيدها!..

انتصب الحانق بغتة والتقط سترته بضيق:

- كنا بنتكلم يا حاتم.. وبس..

وأشار بإيضاح حازم:

- لا أنا كده، ولا هي كده..

ثم حسم الأمر بنهي، لا يريد عنه جدالًا لا جدوى منه:

- ما تفكرش كتير..

تحرك تجاه غرفته بحثًا عن حمام دافئ فأمامه يوم عمل مرهق لكن صديقه أوقفه:

- روسيل بنت حلوة وناجحة، يعني...

- يعني إيه!.. الطبيعي أنجذب لها!..

توقف وبتر وغضب:

- Guess what!.. she is not my type..

وازاه "حاتم" بوفقته المتحفزة كأنما هو على وشك لكمه:

- بجد!..

ولم يتخيل شروده وإن جهل فيمن أو فيمَ!..

حتى النبرة أتته من أعماق الغفلة:

- بجد..

ختم حديثه بصرامة تمنعه عن الخوض بدرب ضلال عقله الخاص، هو في متاهة العشق.. مفقود:

- تقدر تقول إن العلاقة دي نوع من الصداقة، لا أكتر ولا أقل..

وغادره متجاهلًا قلقه واهتمامه..

هو حتى يومين مرا فوق قلبه كسكين ثالم؛ كان لا يكترث بأنثى في محيطه..

أما الآن؛ فقد استسلم لغرقه في أخرى.. وإن كانت المقاومة حتمية حتى لحظة الحسم!..

***

عندما تفقد المرأة ثقتها بنفسها؛ من المستحيل أن يمنحها إياها رجل..

خاصة إن كانت تستكثر وجوده بحياتها، تستكثر على روحها امتلاكه وحضوره.. ويقتلها غيابه بشك!..

هي لا تعلم ما بها..

لم يحاول في مرة ضعضعة أمانها بتصرف يثبت عليه التهمة.. لكنها تتهمه على أية حال، بعقلها هو مذنب حتى تثبت براءته!.. وبراءته لا تثبت أبدًا هي فقط تتغاضى عن الإدانة حتى السقطة التالية..

في كل مرة ترى في محيطه حاملة تاء تأنيث.. تشتعل!..

وهو لا يشعر باحتراقها، كما يحدث الآن..

حفل بدار النشر التي يعمل بها، احتفاءً بمرور عشر سنوات على إنشائها واكتمال الألفية الثانية من إصداراتها المطبوعة والمترجمة..

ذهبت لتحضر عصيرًا باردًا بعدما تململت في وقفتها جواره كونها لا تعرف أحدًا وعادت لتراه يمازح إحداهن، يضحك معها بتباسط مثير للحنق وهي تنظر إليه بإعجاب لم يفُت عليها..

اقتحمت الوقفة دون أن تنتبه لطرفها الثالث، قبضت على يده وثنت ذراعه تعانقها بيدها في تملك قبل أن تتمتم بكمد مكبوت:

- مش تعرفنا يا آسر!..

ولم تمهله ليتمم تعارفًا سألت، عنه بل أردفت بحدة بينما ترمق من تظنها غريمتها باحتقار:

- ولا مش مهم أتعرف أنا، واضح إن علاقتكم كفاية..

ارتسمت فوق وجهه صدمة تبدلت لغضب في اللحظة التالية مع مرآه لتعبير زميلته وزوجته تكمل بازدراء غير مبرر:

- يا ترى المدام عارفة إنك متجوز!.. ولا هي مش بيفرق معاها الرسميات دي؟!..

ثم استدارت نحو المتجمدة بذهول:

- أنا حرم البيه اللي أنتِ ماشية....

- آسر!..

كانت زاعقة حد أنها أجفلتها وحشرت بقية كلماتها بحلقها..

زاعقة من الرجل الذي يجاور زوجها ويهديها نظرة نارية ثم يجذب المرأة جواره بطمأنة:

- خلي مرتك تاخد بالها من كلامها، واضح إنها مش عارفة إن ريهام مراتي..

انتقلت الصدمة لوجهها وتصلب جسدها ومشاعرها، حتى الألم الذي ينتشر بأصابعها مع ضغط قبضته حولها غفلت عنه..

راقبته يعتذر لكليهما بحرج، يسحبها خلفه فتتبعه خطواتها بلا اعتراض، يقذفها بالسيارة ويصفع بابها بعنف، يقودها بسرعة جعلتها تنكمش بمقعدها في هلع حتى البيت..

وهناك.. انفجر..

"أنتِ اتجننتِ!"..

"هي وصلت لحد كده!"..

"تهيني زميلتي وجوزها واقف معانا!"..

"دي مش غيرة"..

"ده مرض"..

ومع كل جملة كان يضرب شيئًا، طاولة.. مقعدًا، قبضته المضمومة بكفه المفتوحة، يجذب خصلاته بخشونة ويزعق بأعصاب منفلتة أخافتها فتباعدت عنه ترمقه بعيون دامعة..

وانفجرت..

- كفاية يا آسر.. كفاية..

توقف يراقبها بغضب لو حرره في وجهها لأحرقها:

- أنا تعبت وما بقيتش حاسة معاك بالأمان..

خطا نحوها بهجوم جمدها في ذعر، جذب ذراعها بغلظة وأصابعه تنغرس بلحمها:

- أنا بقى عملت إيه يخليكِ تحسي الإحساس ده!..

- مش عاوز تعمل العملية..

بصقتها في وجهه بصراخ..

انتزعت يدها من تحكمه.. تنأى عنه وعن تسلطه:

- مش عاوز طفل يربط بيني وبينك..

وتحول الصراخ لأنين ضعيف عقد له حاجبيه، احتلت الشراسة عينيه وملامحه فدمدم من بين أسنانه:

- والطفل هو اللي هيحسسك بالأمان!..

ضمت جسدها بذراعيها بتعب:

- آه..

ثم سكنت لحظة مع اقتحام نظرته:

- لأ.. مش عارفة، بس هيربطنا ويقربنا من بعض..

كان جامدًا كتمثال..

لا شيء فيه يدلل على انفعال، لا عينيه ولا جسده ولا حرفٍ نطق به..

يفكر ويغرق في دوامة النهاية التي يراها على مرمى البصر:

- ولو قلت لك مافيش عمليات يا أمل!..

تراجعت بصدمة حزينة ترمقه بانكسار:

- مش هاقدر يا آسر.. أنا تعبت، مش هاقدر..

رفع رأسه ونبرته الباردة تخيفها:

- يعني إيه!..

تشبثت به بوهن نظرة لم تثِر به شفقة أو عاطفة، داهمها بقسوة فتممت الحكاية بخاتمة لا تجدي سواها:

- يعني نتطلق..

لم يأتِ برد فعل، بدا كأنه يتوقعها!..

لكنها هي من حركت كفها تخفي شفتيها وتحجب صوتها، تخرس أحرفها وأجفانها تتفرق باتساع مبهوت مما نطقت به للتو:

- آسر...

- ششششش..

سبابته مشهرة بوجهها كسلاح على وشك القتل:

- هابلغ عمي وأتفق معاه على كل حاجة..

بعدها دار على عقبيه يتركها لوحدتها تنهشها..

فحين الخوف؛ تتغلب الحماقة على العقل، وتنهزم الرغبة أمام الشك!..

***

كيف يُعشق الوطن!..

حينما تظل رغبتنا أن نُدفن في أرضه حية بقلوبنا مهما اغتربنا عنه..

أخبره توأمها قبل ثلاثة أيام بوضوح دون مواراة أنها رفضت الخاطب الذي تقدم بطلب يدها، فكرت لأسبوع كامل.. ثم أعلنتها قاطعة..

"لا"..

بعد حديث عن طلاقه للمرة الثانية، حزن أمه وغضب أبيه.. قذفها بوجهه:

- رفضت بسببك..

هل هو الدافع أو كان الرفض لأجله!..

لأجل انتظار لا تعلم منتهاه لكنها تفعله على أية حال!..

ابتسم لصغيرته التي تشرح له بكلمات طفولية كيف تحل أحجية لعبة ابتاعها لها جدها مؤخرًا..

تفاعل معها بحماس أسعدها وأضحكها حينما أجاب خاطئًا وصححت هي لتجدد الخبر:

- جوجو شطورة..

فينظر بحنين مؤكدًا:

- طبعا شطورة..

ثم يخرج هديتها لتراها عبر الهاتف خلال مكالمة الفيديو اليومية قبل خلوده للنوم.. دمية شهيرة لإحدى الشخصيات الكرتونية التي تحب طفلته مشاهدة حلقاته..

قفزت الصغيرة من مكانها ببهجة وتعلقت بعنق أمها حتى كادت تتعثر مع ظهورها المباغت على شاشة هاتفه بابتسامة معترضة:

- هتبهدلني بسببها لحد ما تيجي وتجيبها..

أحاطها بعينيه في نظرة لم تفهمها وأجاب بسلاسة:

- وليه تستنى!.. بكرة الصبح هابعتها لها..

تنهد وعدَّل قليلًا من وضعية استرخائه بفراشه:

- سما.. ممكن نتكلم شوية!..

ساوت وشاحها بتوتر مرتبك ونظرتها تهرب:

- هاقفل وأكلمك..

- لأ..

لاحق كلماتها باحتجاج استطرد بعده مفسرًا:

- عاوز أشوفك..

حمرة ناعمة غزت وجنتيها، رمشت بأهدابها حائرة وأومأت بصمت حينما سأل مباشرة:

- رفضتِ العريس ليه!..

أشاحت بوجهها إلى اليمين، تغمض عينيها وتنهيدة قصيرة تحترق بها أنفاسها:

- عشان شجن..

- شجن!..

هل يستنكر!..

أم يبحث عن اعتراف جديد بعشق!..

- رفضتيه ليه يا سما؟!..

يكرر السؤال.. النبرة يشوبها حزم وشيء ما تجهله، عادت ببصرها إليها يائسة:

- عاوز تسمع إيه يا مروان؟!..

ودلكت جانب جبهتها في إرهاق:

- أنا قلت لك السبب اللي يعفيك من أي ذنب ممكن تحس بيه.. ليه بتدور على أسباب تانية!..

- عشان عاوز الحقيقة..

زفرت بضيق حانق:

- وتهمك في إيه الحقيقة!..

- سما..

ناداها دون غضب، ناداها بمناشدة تتذكرها في صوته من قبل حين طالبت بالفراق وتمسك هو، زمت شفتيها تنظر بصمت عندما همس:

- رفضتيه ليه!..

كادت تكسر الهاتف على أقرب جدار كما تود أن تفعل برأسه بهذه اللحظة، ندمت لموافقتها على الحديث معه..

كان عليها التهرب منه..

لمَ يفتش عن آلامها!..

مع تكرار همسه يناديها أوقد نار الخسارة والعشق بقلبها فاندفعت بحدة:

- بتدور على السبب الحقيقي!.. عاوزني أقولك رفضته عشان لسه بحبك ومش عارفة أحب حد تاني!..

رفع حاجبه بدهشة وبسمة تناوش شفتيه، بسمة لم تفطن لمغزاها بل أغاظتها:

- عاوزني أقولك إني مستحيل أتخيل نفسي في حضن واحد تاني.. إن أبو ولادي هيكون أنت بس، إن شجن مش هتتربى في حضن أب غيرك يا مروان!..

ومع نهاية انفجارها سالت الدمعة الحبيسة بين جدران روحها الغائبة فيه:

- عاوزني أهين مشاعري مرة تانية وهي مالهاش صدى عندك!..

سكون..

سكون خانق سيطر على كليهما..

نظرتها تعاتبه على إصراره تَحسُس مواطن وجعها وضعفها..

ونظرته مبهمة لا مدلول لها، نظرته حيرتها خاصة مع تمتمته الخاتمة:

- تصبحي على خير يا سما..

حصار العشق خانق: عندما لا يبادلنا من نعشق.. عشقًا بعشق..

***

"قبلت زواجها"..

العين في العين تجد المرفأ فترمي بمرساتها قرب أعماقه..

القلب للقلب يسقط بالهوى فيحلق بين غيماته..

الروح تسكن للروح فتهدأ، ترتاح وتطمئن..

العشق بالعشق والبادي أعدل..

في حفل هادئ عُقِد قران العاشقين، بحضور عائلتها المهتمة ما عدا ابن العم المهاجر..

ومن عائلته أتى والده وأخوه بصحبة زوجته وزوجة أبيه..

وضع يده بيد والدها، ردد وراء المأذون وعيناه لا تفارقان عينيها حتى باتت زوجته..

بحق العشق والشرع والقانون..

انسحب المحيطون بعد التهنئة والقبلات ودموع السعادة تباعًا، تركوهما بركن الاحتفال الذي خصص إليهما بحديقة المنزل قرب المسبح، الأضواء المعلقة تنعكس على صفحة المياه الرائقة بتألق جذاب.. وعلى عينيها ووجهها بسحر أسر بصره..

ظل ينظر إليها، لا يلتفت عنها أو يبتعد..

وطال الوقت حتى انزاح خجلها بعض الشيء وخصلاتها الطويلة التي طلب منها تحريرها من وشاحها عندما باتا وحدهما تتماوج بين لون القهوة وقشرة البندق، تتطاير برهافة فتغلق الفخ على قلبه النابض بين ضلوعه بعنف أكثر فأكثر..

ابتسمت برقة تدعي المشاغبة:

- بتبص لي كده ليه؟!..

أمسك بكفيها بين يديه الدافئتين دون أن يرتحل بعيدًا عن عسل مقلتيها المشبع بدُجنة فاتنة:

- مش عاوز أبعد عيوني عنك..

احتوى يديها بيد واحدة.. والثانية تغازل خصلة يداعبها الهواء قرب وجنتها، يزيحها.. يلامس نعومة بشرتها بظاهر أنامله برفق ثم يعود لكفيها فيرفعهما لشفتيه.. يلثمهما بالتتابع.. يقلبهما فيغرق بباطنيهما الغض بشفتيه وحرارة أنفاسه لحد أرسل رعشة بجسدها فسحبتهما منه:

- عمر..

بحياء ساحر انتعش له قلبه وهي تقدم له كوبًا من عصيره المفضل:

- اتفضل..

تناوله منها وأعاده للطاولة، تحكم بيديها مجددًا وجذبها يقربها منه بتملك، تمنعت باعتراض مشاكس:

- وبعدين يا باشمهندس!..

ضحك بخفوت مستمتع وهمس بعبث:

- على فكرة.. كعب القسيمة في جيبي بيقول إنك خلاص..

ومال يقترب واحتراق الهواء من حوله يصلها:

- بقيتِ حرم عمر الأسيوطي..

ثم بعد الميل ضمة من ذراعه لكتفيها، أنفه تتخلل شعرها، رأسه تنحني ليتنفس عبقها الخلاب وشفتيه تلامس بشرتها مع كلماته:

- أخيرًا..

تباعدت تناظره بدهشة ممازحة:

- أخيرًا إيه يا باشمهندس!..

ابتسم والعشق يفيض من حركاته وسكناته:

- نتيجة دراسة الجدوى كانت لصالحي..

أهدته بسمتها النقية دون أن تخفي عشقها بين ثناياها:

- أنت عارف من زمان إنها لصالحك..

التفت أنامله حول عنقها يميل بلا إرادة، يدفن وجهه في دفئها ونعومتها.. يغزو بشفتيه موطن نبضها فيستشعر جنونه، يسحب يدها ليريحها فوق صدره لتدرك خبال نبضه، وهمسه المغرم يتكرر مع مروره المتمهل من ذقنها لفكها انتهاءً إلى شفتيها..

وهناك كان سقوط من نوع آخر..

سقوط رجل في جنة أنثاه..

***

عشقها أرضه الصلبة التي تتلقف سقوطه باحتضان لين..

وعشقه السماء التي منحتها حريتها كطير انكسر جناحاه ولم يعد الطيران من المباحات حتى جبر هو الكسر، منح وساند ودعم..

والآن هي تحلق..

وهو يسقط!..

راقبت ملامحه الساكنة ببؤس، حين نومه يتلاشى قناع القوة الذي يضعه لأجلها.. يظهر وجعه وتسيطر آلامه على وجهه وحتى هزة جفنيه تنبئها عن كابوس يصارع فيه خسارته..

مالت تقبل جبينه ووجنته ثم غادرت الفراش بتعب..

منذ حقيقة فقدانه لمهارته الجراحية وهو منطوٍ، يغلق ذاته على ذاته وروحه المتعبة خانعة بين جنبات وحشته..

يهديها بسمة فاترة مصطنعة لأجل طمأنتها، بسمة تموت قبل الميلاد.. وينكمش بين ذراعيها كل ليلة كطفل وحيد..

أمسكت ظهرها تدلكه بآهة خافتة فالألم يتصاعد لحد مريع.. تقترب من نهاية شهرها التاسع وتخشى أن تكون تلك ولادة..

بل ترتعب!..

لا تدري لمَ اجتمعت عليها مخاوفها دفعة واحدة فأهلكت ثباتها وقوتها، هي تحاربها وحدها لا تريد تحميله ثقلًا مع أثقاله..

تركت الغرفة وبدأت تسير في الردهة ذهابًا وإيابًا علَّ الوجع يخفت.. تزم شفتيها وتضغط أسنانها حتى فاق الأمر احتمالها فعادت إليه تهز كتفه:

- يوسف..

بهمس مختنق وحشرجة أنفاسها تكبت صرخة:

- يوسف..

كان غائبًا لكن مع نبرة الألم في ندائها انتفض يستدير إليها:

- خير يا ملك!..

بنظرة سريعة لوجهها والدمعة التي سالت من جانب عينها اليسرى فهم وتحرك من فوره، قفز من الفراش بحثًا عن ثيابه.. ارتداها بعجالة وهي تراقبه بأنين مكتوم..

جذب عباءة واسعة ألقاها حولها وبصره يسقط على الوقت الذي قارب الثالثة صباحًا.. دعمها فاستندت إليه لتقف بتمتمة خائفة:

- يوسف.. أنا مش عاوزة أولد..

ربت على رأسها بينما يحاول تثبيت وشاحها:

- ما تخافيش..

تعلقت بيده ورعشتها تثبت ذعرها:

- لأ.. خايفة..

احتوى وجهها بين كفيه يهديها نظرة مطمئنة ونبرته تهتم:

- خايفة من إيه!..

يدها أحاطت ببطنها المنتفخ تكاد تغرس أصابعها فيها:

- خايفة حمزة يضيع مني..

ومع دهشة أصابته غمغمت بطفولية مست قلبه:

- خليه جوا.. أمان..

ابتسم وقربها يضمها، يريح رأسها عند صدره وقبلته لجبينها تسكن أوجاعها:

- ما تخافيش.. حمزة ده أسد..

كان يمازحها محاولًا التخفيف عنها، ضربت كتفه بوهن فضمها أكثر بينما يتناول هاتفه مجريًا اتصاله بأبويها ليهديانها مزيدًا من الطمأنينة..

ساعدها على النزول وقاد السيارة إلى المشفى بعدما هاتف طبيبتها..

مرت سبع ساعات قلقة ومع صوت النهار وضوئه الذي غمر المكان كان يتلقف بين يديه صغيره..

يرمقه بافتتان حيث أنه جمع بينهما معًا..

يظنه سيأخذ ذهبية بشرتها جوار زرقة عينيه اللتين فتحهما بتثاؤب ناعم..

سيحوز شيئًا من ملامحها وبعضًا من ملامحه..

"حمزة يوسف الحسيني"..

الحفيد الثاني للعائلة، والابن الذي أنار بحضوره دنياه..

(٤٨)

الأخير

على مفترق العشق أمامك خياران:

أن تكون محاربًا..

أو..

تختار النجاة..

عندما تقتنص من الحياة ما تشتهي؛ تفقد لذة عطايا القدر، تُضيع بهجة المنحة التي تأتيك وحدها كهدية بلا جهد، تقبل عليك دون أن تركض ورائها أو تختطفها عنوة..

لكنك لا تنتبه.. لا تبالي.. فمتعة اللحظة تعصب بصرك عما تخسر..

وهو كان ومازال رجل اللحظة..

وقف ببسمة حانية قرب النافذة الزجاجية لحضَّانة الأطفال يتأمل الصغير الذي انضم لعائلته قبل ساعات..

ناعم، منمنم وردي البشرة ودقيق الملامح، بعينين زرقاوين تشبهان عيني أخيه الأكبر وخصلاته كذلك، تمتم بمداعبة:

- عيون زرقا تاني، مش كفاية واحد في العيلة!..

وكزت توأمته كتفه باحتجاج:

- أحلى بيبي أصلًا، مالكش أنت دعوة..

وتأملت النائم بمهده بحنين مسبق..

قلبها ينبض كأنثى غريزتها، بل فطرتها أمومة..

وهي اختارت الحرمان لتكون مع من تحب.. أعادها من شرودها القصير همس أخيها:

- طبعًا.. مين يشهد للعريس!..

لمست الزجاج بكفها وأغاظته بمناغاة رقيقة:

- عمتو صبا تشهد، عمو آسر وحش..

- بقى كده!..

وكاد يحيط عنقها في مزاح ثقيل تكرهه حين لمحت خطوات والدها المقتربة وإشارة رأسه لها بالرحيل..

استجابت بلا تردد.. هي تدرك غضبه من توأمها اللاهي في ملذاته، وهو مع ابتعادها استشعر وقفة أبيه بجواره فابتسم.. قبل أن ينبس بحرف بادر "آدم" بنبرة جامدة وإن كان استياءها غير مكبوت بالكلية:

- عارف!.. في المناسبات اللي زي دي بيقولوا للعم أو الخال: عقبالك لما نشوف ولادك..

تصلب جسد الابن..

نعم.. والده لن يلف ويدور ولن يقبل بحلول وسطى تتأرجح على حافة لعبة الحياة:

- بس أنت اخترت وكان قرارك ما يكونش عندك ولاد..

وأمسك بكتفه يديره إليه قسرًا لتضايقه النظرة المؤنبة بعتاب أب.. بقلب أب:

- اخترت تحرمني من أحفادي وتحرم مامتك من ولادك..

تباعد برفض..

هو لم يعد طفلًا..

لا يباح لأحد أن يملي عليه قراراته أو يراجعه في خياراته..

هل هي سيئة!.. مؤذية!..

حسنًا.. وحده سيتحمل تبعاتها، احتدت لهجته رُغم خفوتها:

- ده مش اختيار، العملية مش مضمون نجاحها وماعنديش استعداد أجرب والتجربة تفشل..

شد "آدم" قامته بصرامة وصوته يقسو:

- الكلام العاطفي ده تضحك بيه على الاتنين اللي اتجوزتهم، أو حتى تحاول تكسب بيه مشاعر لميا.. إنما أنا وأنت عارفين كويس أنت مش عاوز تعملها ليه!..

رفع وجهه لأبيه الذي لم يتوقف بل أكمل بخيبة:

- أنت بتلعب ببنات الناس يا آسر، بتنط من جوازة لجوازة كأن اللي بتربط حياتهم بوجودك ماعندهمش مشاعر أو مجرد لعبة تتسلى بيها شوية ولما تزهق ترميها..

وتضاعفت خيبة الأمل في عينيه وابنه يتهرب من لقاء نظرته التي تمازج فيها الحزن بالأسى والسخط:

- تاليا حبتك، أمل انبهرت بيك.. والاتنين خرجوا من حياتك بكسر، بخسارة عشان أنت مش قد المسؤولية..

تلاقى ببصره أخيرًا في شيء من دهشة فطن لمغزاها الأب فابتسم بمرارة:

- مشاعرهم كانت واضحة، وتبقى بتكذب لو قلت إنك ماشفتهاش..

ثم تنهد بتعب ورأسه تهتز بقنوط:

- أنا مش عارف غلطت معاك في إيه عشان تكون كده!..

- بابا..

قاطعه قبل أن يفند حقيقة كالشمس.. حارة، حارقة وضوءها يعمي الأعين:

- ما تبررش.. عاوزك بس تفتكر المرة الجاية وأنت بتقرر تدخل ست حياتك؛ إنك عندك إخوات بنات، ما ترضاش ليهم موقف زي اللي حطيت فيه تاليا أو أمل..

أنهى كلماته بحزم وابتعد..

تركه لبقايا ضمير تنهشه..

ومشاعر ذنب من نوع آخر تطفو على السطح..

فهو عندما رحل عن حياة زوجتيه لم ينظر إلى الوراء؛ لكن ماذا لو كان قد نظر!..

***

أجمل ما في الحياة أنها تستمر..

تتخطى الأمس نحو غدٍ نضجنا بما يكفي كي نصل إليه..

نضجت عقولنا، قلوبنا.. خياراتنا.. ومشاعرنا..

تتخطى، أو تحاول!..

سافر هو منذ ما يقرب من شهرين، كما علمت من أبيها الذي يتتبع أخباره كأنما يخشى أن يمزق شيطانه واجهة الفارس ويسقطه إلى الجحيم بلا رجعة..

يخشى عليها ممن سرق قلبها ولم يُعِده بعد..

يدير أعمال عائلته بألمانيا.. ينجح ويعثر على ذات جديدة تخالف تلك التي خسرها قهرًا وقسرًا وعجزًا..

أحيانًا يهدينا القدر موعدًا نظنه مصادفة..

يمنحنا خيطًا أخيرًا للأمل، فإما نتعلق.. أو نتحرر..

خيطًا يصل؛ أو يقطع!..

وخيطها كان لقاءً على غير توقع، بمطار القاهرة.. حيث هي تغادر البلاد في رحلة عمل تابعة للمنظمة، وهو يعود إليها..

تلاقت الأعين بحنين..

حنين فاض من نظرته الخشنة ونظرتها المترقبة..

لكنها بلا كلمة أدركت.. فطنت لما تلا الحنين بمقلتيه، رأت البتر وهو لمح التشبث.. الأمل، والعشق!..

تواجها، ابتسم ببساطة فابتسمت بسعادة، سعادتها بدت أشبه بلجام يكبله.. يكبل قلبه، يأسره بقيد عشقها الذي لا يجوز له حياة:

- زيارة ولا استقرار!..

بادرت بالسؤال المكترث فأشار برأسه بلا معنى:

- زيارة..

لم تبعد نظرها عنه وهو اختار المواجهة الحاسمة فاستفسر بهدوء:

- ينفع آخد من وقتك ربع ساعة؟!..

هزت كتفيها ترد باستجابة، قادها بعدها لطاولة بأقرب مقهى وهناك شرد يرتشف قهوته السوداء، يتذوق مرارتها بخفوت جوار احتراق تبغه، يفتش عن بداية لنهاية:

- غرام..

- ما تقولش حاجة..

صمت عندما أدرك أن لديها المزيد، غاص بالسحابة الرمادية القاتمة في حدقتيها، تلك التي تخفي الكثير بغموض لطالما سحره:

- أنا عارفة إن طريقنا مش واحد..

ونظرت خارج الجدار الزجاجي للحظات تراقب طائرة تسافر وأخرى تعود..

تفهم وتتفهم وإن كان القلب لا يقبل أو يرضى:

- المهم إنك لقيت طريقك ومشيت فيه..

مال طرف فمه ببسمة باهتة رُغم صلابة نظرته:

- باحاول..

- هتنجح..

نطقتها بقوة، بعنفوان، بحزم.. وصرامة تؤكد له أنها ستمر فوق جثمان عشقهما وتحيا:

- وأنتِ!..

كررت هزة كتفيها اللامكترثة وبادلته البسمة بسطوع يشبه شمس ظهيرة صيفية:

- المهم أنت..

استند بساعديه للطاولة بعدما أطفأ لفافته دون أن يبالي بإشعال غيرها، اقتحم عينيها بتصريح لا يحتمل مواراة:

- لأ يا غرام.. أنتِ حرة..

قطبت بحيرة وارتجف فكها، هي لا تريد إدراك مقصده:

- حرة!..

بسمته أتتها حقيقية، واضحة ومهتمة:

- حرة من أي ارتباط قلبك ممكن يقيدِك بيه..

أبعدت غيومها عنه..

غيومها التي تنذر بمطر يروي أرض روحها الجافة.. عطش مشاعرها التي تصحرت بانتظار قاحل لا نهاية له.. وهربت..

هو وحده..

له بكت..

ومنه تهرب..

- ليه ما انتقمتش من صاحبك!..

أجادت انتقاء نقطة الفرار الملائمة لتبعد انتباهه عن فؤادها المذبوح، حين اعتلت عيناه دهشة افتعلت لها بسمة شقية:

- أنا أعرف عنك كل حاجة على فكرة..

تخلى عن جديته وتراجع في مقعده بمداعبة:

- مش كله؛ ما أنتِ بتسألي عن السبب أهو..

ويجيد هو أيضًا سحبها من دوامة المشاعر الغاربة، جاوبته بعناد:

- بس لأنه كان بينك وبينه..

تأملها بصمت لم تتخلَ فيه عن رد شافٍ ترتضيه، بل تتمناه..

زفر بحرارة ومط شفتيه بزمة رأت فيها غضبًا داكنًا كالليل، مستعرًا كالجحيم، مكبوتًا بإرادة من جليد:

- مراته وابنه..

التأمل كان من نصيبها هاته المرة..

تأملًا أقرب لاحتواء، تضمه بين أهدابها وتحتفظ بصورته خلف أجفانها:

- لسه فارس يا مروان..

الصفة التي ألصقتها به غامت لها نظرته بعتمة حالكة..

غامت وشردت ورفضت.. واحترقت:

- الفارس وقع، والحصان دهسه وهرب يا غرام..

- لأ..

تنفي تقريره بحسم مباغت:

- الفارس وقع، وقام.. واتحكم باللجام من تاني..

وعادت تعلو به بين الغيوم والصواعق والرعود:

- يمكن الحصان كان عنيف، يمكن طريقه كان فيه مطبات وحواجز..

ثم ابتسمت..

ابتسمت براحة كأنما لم يُخيب ظنها فيه وذلك يهديها السلام:

- بس هو قِدر يروضه..

اعتدلت بعد تقريرها الحازم تأبى تحرير عينيه من سجن عينيها:

- قدر يكون فارس وباختياره الحر، مش لأنه اتولد لقى نفسه كده..

مقلتيها كانتا تتوهجان ببريق آسر يبيح لكل من يراه افتتانًا لحظيًا:

- أنت مش بس فارس؛ أنت كمان قوي..

وتحركت تشد جذعها في جلستها فبدت أشبه بملكة باذخة تسيطر على عرش قصر منيف:

- أنك تسامح وتستمر دي قوة..

- أنا ما سامحتش..

البتر المستحق لقصة خيالية تظنها حدثت.. لمنطقة نقاء تتوهمها وسراب قد تفكر أنه استقر بأعماقه:

- أنت اخترت تنصر الفطرة النقية جواك..

كانت تصر.. تعانده وتعاند معارضته:

- حررت روحك اللي اتسجنت من غير ذنب..

ووازت نهاية أحرفها رجفة.. رعشة في صوتها وندى ترقرق بين جفنيها، رفع له حاجبيه دهشة واحتجاجًا:

- دموع!..

- دي دموع فخر..

ومسحت واحدة حطمت السد فلاحقتها أسفل أهدابها:

- أنا فخورة بيك؛ كنت واثقة فيك لآخر لحظة..

ثم ابتسمت باتساع مبتهج:

- زي فخري بابني كده..

هنا قرر المزاح ليزيح غمامة الشجن التي ظللت بحضورها رأسيهما:

- ابنك!.. وهو في واحدة تبقى عاوزة تتجوز ابنها برده!..

- مين قال كنت هاتجوزك!..

وكانت تشمخ بأنفها وكتفيها ولغة جسدها لتظفر منه بضحكة خافتة:

- أمال الحب ده كان نهايته إيه!..

تنهدت.. وأطالت الصمت، حين أجابت كان الشرود، الغياب والتيه هم أسياد الموقف:

- مالوش نهاية، المشاعر مش لازم يكون لها نهاية..

كل تفاصيل الصورة أمامه تخبره أنها لن تنسى..

تحبه وستظل..

وذاك ألم لا تستحقه!.. غلف نبرته بالحزم وناداها:

- غرام.. أنا قلت لك أنتِ..

- حرة، عارفة..

ثم استقامت في طريق رحيل لا يُفترض بعده لقاء.. فراق أخير باتر:

- أنت أخليت طرفك، فاضل طرفي أنا..

ومطت شفتيها قبل زفرة قصيرة حررت بها أنفاسها:

- وده هياخد وقته..

انتشر عبر المكبرات نداء طيارتها فأنصتت له لثوان عقبها عادت إليه بنظرة دافئة:

- خلِ بالك من نفسك..

سحبت حقيبتها من خلفها في خطوات ثابتة، قوية.. ملكية..

ثلاث خطوات وتوقفت..

استدارت بوجهها إليه تُنعم عليه بحريته من العشق والذنب والندم:

- حاول تختار السعادة يا مروان..

نعم.. هو اختار بالفعل..

اختار سعادته مع من قرر العودة إليها..

وطنه الآمن.. سكنه الدافئ، وبينهما ابنته!..

أما هي فقد خرجت من أرض معركة العشق مهزومة بكبرياء ملكة..

وكبرياء الملكات انتصار مهما تعددت الخسارات.. وإن كان من بينها القلب؛ فلكل حرب ضحاياها..

***

هي امرأة لا يباح على درب عشقها الالتفاف..

تقف، تحتار.. ثم تجد أن طريقك ثابت مستقيم كما هو، لا تتعثر في مطباته أو تسقطك به فخاخ مموهة..

تخطو بثقة، تقترب وتلتقي معها..

امرأة لا تخطف، بل تتسلل إلى أن تتمكن..

امرأة لا تأخذ قدر ما تمنح أبدًا..

تهبك الروح والقلب والجسد قطرة قطرة، حتى الخلاصة.. حتى الثمالة لتفيق فتجد أنك تغرق!..

هي امرأة لا تقتلك عشقًا؛ بل تهديك الحياة.. بالعشق وللعشق..

امرأة سقط بصره عليها لخمس دقائق متواصلة.. تلاعب صغيرته بحديقة المنزل، يراقب ولا يمل..

تبتسم فتلمع عينه، تضحك فيبتسم.. وابنته تتعلق بها، تتدحرج معها على الأرض، تدغدغها حد اللهاث.. ثم تعودان لحل أحجيتها كما كانت تفعل معه منذ أيام..

اقترب.. طفلته رأته قبلها، نهضت تقبل عليه بركض مبتهج، تناديه فيجثو ويفتح ذراعيه يستقبلها:

- بابا..

مع الابتعاد والنداء استقامت هي بالتفاتة متعثرة، تعدل وشاحها ووجهها يحتقن بحمرة آخاذة لم توازِ في فتنتها ألق عسل مقلتيها بلمسة ضوء النهار.. دهشتها وسكونها، حتى خطا نحوها يحمل الصغيرة..

يقابلها.. يواجهها..

يغزوها وتحتله..

تغرق فينغمس بنظرتها إليه..

استجمعت حروفها بارتباك حائر، تغاضت عن السؤال فلابد وأنه عاد ليبارك ميلاد ابن أخيها وأخته:

- حمدالله على السلامة..

- الله يسلمك..

لا يزيح بصره عنها، يقيدها أسيرته.. يصفدها معشوقته وعشيقته..

يحرر "شجن" من أحضانه فتهرول تجاه جدها الذي وقف بعيدًا يشير إليها، يتأمل كأنما هناك خطة تُحاك من وراء ظهرها:

- جيت إمتى؟!..

أشار بغموض مقتضب:

- من حوالي ساعتين، سلمت على ملك وشفت حمزة وجيت..

ودنا خطوة أخرى:

- عشانِك..

لو كان الأمر مزحة ستمزق عنقه وقلبه..

لن تتراجع أو تتهاون..

هل أخبرها للتو أنه أتى لأجلها هي!..

بعد تجاهله تصريحها بحبه كما اعتاد في كل مرة تنطقها..

أدرك فيمَ شرودها، ضياعها وزيغ بصرها وحيرة بؤبؤيها في دوران ناءٍ عنه..

همس باسمها فاستقرت بين جفنيه وبسمته تؤكد على كل حرف:

- أنا جيت عشانِك..

- ليه!..

- اسمعيني..

- سامعاك..

يتحدث فتتمتم بما يبيح لها عقلها منحه كجواب:

- أنا عمري ما كنت شاطر في التعبير عن مشاعري، ولا عندي خبرة في التعامل مع الأنثى تخليني أحسسها إنها ملكة زي ما تستحق..

مقدمة استغربتها.. وأقلقتها..

تشتت أفكارها أكثر مع كلماته، التفافه حول حقيقة لا تفيد معها ليت ولا ينفعها التمني:

- أنتِ ملكة يا سما..

ثم خطوة ثالثة تضع بيده زمام السيطرة على محيطها، عيناه.. عطره.. حضوره.. ملامحه.. لحيته النامية وخصلاته المبعثرة بعض الشيء.. إرهاق أجفانه وابتسامته..

ابتسامة صادقة، هادئة.. خالية من سخريته التي باتت علامته المميزة:

- أنا جاي عشان أقولك إني..

هل سينطقها!..

- بحبِك..

أهي كذبة!..

واللفظ على عكس ما توقع لم يسعدها، لم ينتفض قلبها له بين جنبيها بل حاز على تقطيبتها الرافضة بألم كأن اعترافه يؤذيها:

- أنت مش مجبر تنطقها وأنت مش حاسس بيها..

يتفهم!.. نعم..

غاضب!.. نعم كذلك:

- على فكرة، أنا ما اتعلمتش الكذب في السجن..

وأجاد الضغط على الوتر الذي يعيد نغمتها الشاذة لمكانها في مقطوعة العشق:

- مروان.. أنا..

تعتذر.. ويبتر:

- سيبيني أكمل.. يمكن اللي جاي ما يعجبكيش..

جدية نبرته أخافتها.. توجست فانكمشت على نفسها تراقب حركة شفتيه حين يفضي بمكنونات صدره:

- سما.. عمر حبي ما هيكون زي حب أبطال الروايات اللي بتقريها..

محاولة اعتراض جديدة قتلها في مهدها بإشارة من يده:

- مش هاجي على الحصان، مش هاركع وأقدم الورد قدام البشر باعتراف يزلزل كيان الرومانسية اللي جوا قلب كل بنت..

وغاص بعينيها بتسلط يليق به:

- اللي في إيدي قدمته قبل كده؛ بس المرة دي هيختلف..

والتسلط تبدل لدُجنة حتى شارفت بنية حدقتيه على الاسوداد:

- لأن أنا مش مروان اللي كان جوزك..

ثم جاورت الدُجنة قسوة جبرية تتحكم بلهجته.. بنبرته وروحه:

- أنا مروان جديد، اتخلق في السجن.. مش عارف هتقدري تتحمليه ولا لأ!..

تراجع خطواته يهديها مساحتها الخاصة بعيدًا عن تأثيره، عن استحواذه وضعف مشاعرها تجاهه:

- مروان ده؛ مش هيكون بطل رواية..

انتهى..

وكان يظن أن العاشقة الوردية ستتألم..

تنكسر..

تتباعد وتهرب..

لكنها الحقيقة التي لا يجدي الدوران حولها، ولو أراد إعادتها لحياته.. فستعود على بينة من رجل لا تعلم عنه شيئًا..

هو لم يعد ابن العم المثالي بعد ما فات:

- مسموح لي أتكلم دلوقتِ!..

تمازحه.. ابتسامته الشاحبة كانت الجواب الذي أكملت عقبه:

- مين قال إني عاوزة بطل رواية؟!..

والخطوات الثلاث منه باتت أربعًا منها، تواجهه.. تقتحمه.. تتغلغل تحت مسام جلده وبين ذراته وتحفر وجودها بخلاياه:

- أنت بطل يا مروان، بس بطلي أنا..

حالميتها ستنتصر..

نعم.. هي لا تزال تلك العاشقة التي تمنح دون أن تستبقي لنفسها شيئًا، ووقته آن ليوقفها:

- سما..

جمدها برود صوته وصلابة نظرته:

- ما تخليش مشاعرك تتحكم، إدي عقلك فرصة يحسبها صح المرة دي..

ومال يهز قلبها بقرار رغم صرامته فقد كان كبلسم روحها الشافي:

- لأن لو رجعنا لبعض.. والدنيا اتهدت؛ مش هاطلق تاني..

لمعت عيناها ببسمة عاشقة توشك على الطيران فرحًا:

- ده حب ده!..

جديته لم تتبدل مثقال هفوة يبيحها العشق:

- ده حب وتسلط ورجعية وامتلاك.. ده أنا..

كادت تعلنها..

"موافقة"..

كادت حتى منعها وسبابته توقفها:

- قدامك أسبوع تفكري، زي الوقت اللي أخدتيه تفكري في العريس..

كان يبدو متضايقًا.. غيورًا ربما!..

ولتهبه راحة أومأت تستجيب فكرر هو:

- فكري واحسبيها صح يا سما..

ثم غادرها إلى البيت.. لابنته.. تاركًا لها حبل القرار على غارب عقلها وخافقها المتعلق بغرامه حتى نهاية النبض..

قبل دخوله من الباب توقف يعلمها بما نسيه في غمرة مشاعره:

- لو هتوافقي هتيجي معايا هامبورغ بعد فرح صبا، أنا مش راجع..

والآن صدمة التخلي عن كل شيء..

العائلة.. العمل.. الوطن..

ليكون هو كل شيء..

هل تفعلها!..

بل هل يمكنها!..

أتاها الجواب من أعماقها ليلتها وكل ليلة بينما تنام بفراشها وتحتضن قطعتها الخاصة منه..

نعم.. ونعم.. تليها نعم..

انتهت السبعة أيام وفي ثامنها كانت تواجهه على طاولة بينهما مأذون يعقد القران، يده بيد أبيها وبصره المحاوط لها لا يجيز فرارًا أو مماطلة..

"أنتِ الآن لي"..

نظرته انتزعت فؤادها المتيم من مكمنه، اعتصرته.. أرجفته، ضمته وهدهدته بعدها أعادته في حصنه الآمن بين الضلوع..

بثوب دخاني ينسدل على جسدها بنعومة.. وشاح يلائمه وزينة الوجه كانت العشق وتبعاته.. قبلة الجبين والتنهيدة التي استشعرتها وحدها..

كفيه حول كفيها ووداعها لصغيرتها لتكون ليلتهما الأولى معًا بعشها الصغير القديم المحفوظ لأجلها وأجله..

عند الباب فتحه، خطت تدخل لكنه أفزعها.. تحكمت قبضته بذراعها تقربها منه، تراقب انحناءته، وتشهق عندما رفعها بين ذراعيه ليعبر بها عتبته، يغلقه بقدمه.. يتحرك وينزلها.. لا يفلتها..

تحمر خجلًا..

تذوب عشقًا..

ويتأمل..

لا..

يغرق..

هو غارق في تفاصيلها..

في رقتها ونعومتها.. واللحظة..

هي امرأة الحرب والسلام..

النصر والهزيمة..

الصَبا والإعصار..

الجفاف والارتواء..

هي امرأة كل ضد فيها يظهر حسنه ضد..

هي سلطانة القلب ووطن الروح..

هي سكنه وسكينته..

هي شمسه وغيمته..

هي عشقه الذي امتلكه ولو بعد حين..

مال يريح رأسه على كتفها، ذراعاه تطوقان خصرها بعناقٍ قاسٍ.. بتشبث، يتنفسها ويحبس عبقها برئتيه، يتمتم بأذنها دون أن يتخلى:

- وحشني حضنك..

تراجع وهي بين يديه، يحيطها بكل جوارحه فيهديها حق التيه فيه:

- حبك كان طوق النجاة يا سما..

همسه.. توصيفه لما بقلبها إليه.. عيناه وضمته التي تحاصرها بلا نجاة، تجمعت عبرة حارة تترقرق بعينيها مع هديتها باعتراف عشق لا بديل عنه:

- بحبَك..

تسلل إبهامه يمحو دمعتها قبل ارتحالها عبر أهدابها:

- مافيش دموع من النهاردة..

يبتسم فينير دنياها:

- مش عاوز حبي يوجعك تاني..

وتستقر شفتاه فوق جبينها..

يعيد الاحتفاظ بعبقها، ثم ينزلق لتستقر جبهته براحة على جبهتها مع همستها المشاغبة:

- تعرف إني بطلت أقرا روايات!..

- سديت نفسك ولا إيه!..

بسمته الواسعة المرتاحة تسعدها..

أبعدت رأسها عنه بتلكؤ كأنما تنسلخ عنه:

- لأ..

واحتوت خشونة وجنته بنعومة باطن كفها:

- قررت أعيش روايتي الخاصة..

مع نظرته التي تعابثها أردفت بصراحة:

- معاك..

بلى..

الأصل في العشق الإباحة، ما لم نخطئ فننال الحرمان..

أو نحارب فنحوز النصر..

ومعه.. على مفترق العشق؛ بين شفتيها كان المنتهى..

***

على المفترق لم يكن الخيار صعبًا أو مستحيلًا..

هو أمسك بالخيط وهي جذبته لتنتهي بين يديه..

هو وضع حجر الأساس وهي شيدت فوقه صرح العشق الأعظم..

تسنده فتمنعه السقوط، ويحملها فيحلق بها عاليًا.. بقلبها وكيانها وكل مشاعرها التي باتت له وحده..

ويشاركه فيها طفله..

طفلها منه..

طفلها الذي بلغ من عمره أربعة أسابيع كاملة متممًا شهره الأول واليوم تبتعد عنه للمرة الأولى؛ تركته بصحبة والدتها لتكون مع زوجها عند طبيبه والاختبار الأخير بعد انتهاء علاجه..

كانا يتواجهان على مقعدين بسيطين من الجلد الأسود أمام مكتب الطبيب..

يراقبانه عندما استقام بهدوء يستعرض صور الرنين المغناطيسي وبعض التحاليل الخاصة..

يتفحصها ويقرأ تقاريرها بدقة، بينما هو يعتصر كفيه وعيناه معلقتان بعينيها..

لم ترمش كأنما لا تترك له فرصة الانفلات من أمان ضمة نظرتها، تهبه دون حرف كل طمأنة متاحة وتهدهد مخاوفه بإحاطة حانية بين جفنيها..

- دلوقتِ نقدر نقول مبروك يا دكتور يوسف..

رفع وجهه إلى الرجل بغتة، يلاقي بسمته الواسعة ونظرته المستبشرة:

- you are cancer-free..

لم يصدق أذنيه، بُهتت ملامحه وتصلب جسده جوار جمود نظرته حينما اندفعت هي بكل تلقائية وعشق وبساطة أنثى غارقة في رجلها؛ لتضمه..

تنحنى أمامه، تجثو على ركبتيها بشهقة فرح.. ويداها تسحبان رأسه إلى كتفها، تعتصره بطوق ذراعيها وتهمس بأذنه:

- مبروك يا أبو حمزة..

ثم تكرر الهمس بصفة ملكية عشقية خالصة:

- مبروك يا حبيبي..

أحاط خصرها لثوان ربت خلالها على ظهرها، نهض بعدها يُقيمها معه ويحادث طبيبه:

- حضرتك متأكد يا دكتور!..

بنبرة تحمل القلق أكثر من الشك، والآخر أشار إلى الصور المعلقة على قارئ الأشعة وقدم إليه التقارير:

- اتأكد بنفسك..

كانت نظرته مهتزة، حدقتيه تدوران في حلقة مفرغة بين الصور والأوراق..

خطواته المقتربة مرتجفة..

قلبه يريد التصديق وخوفه يسيطر على تلك الرغبة.. حتى استشعر ربتها على كتفه بدعم عاشقة متفانية:

- إيه!..

كأنما تريد منحه الخلاص بطريقته.. استدار يقابل دفء عينيها وحنوهما:

- مافيش..

وشرد لحظة عاد إثرها يبتسم بانشداه يليق بانتفاضة خافقه خلف ضلوعه:

- مافيش أثر يا ملك..

قاطع الطبيب اللحظة برفق وهو يعود لمقعده:

- طبعًا كده كورس العلاج اكتمل والنتيجة ممتازة الحمد لله، كل المطلوب منك فحص دوري كل ست شهور.. مجرد متابعة وبس..

هز رأسه باستجابة صامتة متفهمة لم ينمحِ على إثرها خوفه تمامًا، ورحل معها.. طوال الطريق إلى منزل والديها لم تتوقف عن الحديث في ظاهرة هي الأولى من نوعها..

زوجته الهادئة محدودة الكلام قليلة الحوار؛ كانت تثرثر..

تثرثر والكلمات تتقافز عبر لسانها كأن الكون أُلقي بمجراته كهدية بيديها!..

تتحدث بسعادة، بغبطة.. بامتنان للخالق الكريم، تتنقل بين الأمور بوثبات واسعة.. شفاءه وراحتها، عمله الذي اختاره وثقتها به..

جراح القلوب بات طبيبًا متخصصًا في علاج القلب وتشخيص أمراضه..

تحويل في مجرى مستقبله لكنه لا يحرمه ما يشغفه بالكلية..

وقتما توقفت بالسيارة عند البيت؛ التفت يقبض على كفها وهو على حاله الضائع بعض الشيء:

- ملك!..

توهجت مقلتاها وهي تطوقه بعينيها، تحيط كفه التي تمسك بيدها وتتساءل صامتة عما يريد:

- أنا مش مصدق..

لهجته الواجمة نفضت قلبها فاختارت العودة لعاشقها الأوحد، قررت العبث للحظة..

هي تشتاقه..

تشتاق شقاوته ومرحه..

تشتاق مكره ووقاحته..

تفتقد كل ذرة من حبيبها الغائب:

- ممكن أقرصك..

تذكره بأيام ميلاد العشق في "سيوة".. أجبرت شفتيه على بسمة والذكرى تقتحمه بعنفوان المشاعر وسعادتها:

- طيب ما تخليها بوسة أحسن..

ويجاريها.. تنطلق منها ضحكة وتتلفت حولها بتسلل مراقب قبل أن تميل وتشاغبه بتمتمة متلاعبة:

- البوسة دي بقى في بيتنا..

تراجعت يدها تمتد لوجهه، تتلمسه برقة وتتنهد:

- لما نحتفل بأحلى خبر..

بداخل المنزل استقبلته العائلة بتخوف.. بتوجس..

تشبُث أبيه وقوة أمه.. تعلق أختيه بين داعمة ومراعية، وعبث أخيه الأصغر الذي يضيف وجوده نكهة راحة على أية حال..

عمه وزوجته وابن عمه الذي اكتفى بنظرة قوية، صلبة ترسل إليه مساندة لا منطوقة..

عمته وبناتها، فالابن قد رحل قبل أيام..

وطفله..

تلقفه من يدي جدته يغرق وجهه بقبلاته، يطمئنهم ويتأمل البهجة على وجوههم.. الحمد والشكر، ضمة والده واحتضان أمٍ لم تحمله برحمها لكن يكفيها ثقل وجوده بقلبها..

ليلتها وبعد يوم طويل؛ استبقت صغيرها مع جدته للمرة الأولى واختارت أن تكون معه..

وحدهما كأيام العشق الخوالي..

عطرها بعبق اللوز والفانيلا يسبقها، خصلاتها حرة مسدلة حول وجهها.. ثوب أبيض قصير يصل بالكاد لما بعد ردفيها، يطوق منحنيات جسدها بإغواء وينزلق عن كتفيها بنعومة..

تأملته في حلته السوداء التي أصرت عليه ليرتديها، وتلك القبعة الصوفية المستقرة حول رأسه دائمًا وأبدًا..

مازال رجلها وسيمًا كما عهدته..

وسيمًا وإن نحف جسده، شحبت لمعة عينيه وتساقط شعره.. تقدمت بحذائها عالي الكعب، تقترب منه بتمهل.. خطواتها مغناج ونظرتها تتدلل..

امتدت يدها تنزع القبعة فحاصر معصمها بقبضته في احتجاج فندته بنظرة حانيه وقبلة لفكه، همس باسمها معترضًا فأصرت حتى خضع.. طافت ببصرها في محراب تفاصيله..

وجهه، ملامحه، أنفه.. ذقنه ووجنتيه.. جبينه الذي لثمته بحنو وتراجعت ليرى انعكاس صورته بعسل حدقتيها كأوسم رجل..

وضعت كفيها فوق كتفيه حينما أحاط خصرها ورمقها بعبث يحاول به العودة لما فات:

- دي ليلة دخلة تاني ولا إيه!..

ابتسمت بجواب موافق صامت تسارعت له دقات قلبه، أدارها يتفحص الثوب بإعجاب.. تعالى صفيره مع ظهرها العاري في مفاجأة مثيرة لا تشي بها مقدمة الثوب، ثم أعادها لأحضانه بمكر وأنامله تتحسس بشرتها برقة:

- هو أنا تقريبًا كده، محظوظ والله أعلم..

- أنا محظوظة بقلبك يا يوسف..

عانقته مع موسيقى كلاسيكية تسللت في المكان خافت الإضاءة، تمايلت تراقصه فتبعتها خطواته ورأسها تميل إلى كتفه، ترتكن إليه وكفها تتوسد موطن نبضه.. تلتصق به كأنها قطعة منه، ويضمها كأنه يضم فؤاده بين ضلوعه..

ترفع وجهها إليه، تغوص بسمائه المثقلة بغيوم العشق وتهمس بإخلاص:

- بحبك يا أبو حمزة..

وتتمم أحرفها قرب شفتيه..

إن كان عشقه بداية؛ فعشقها اكتمال..

وإن انتصر هو على قلبها في حرب الغرام؛ فقد رحبت بالهزيمة لتسقط سبية هواه.. ترحب بالأسر وتنتشي بالامتلاك..

***

أسوأ ما في العودة؛ أن تعود لنقطة الصفر بعد مرورك بمطحنة الحياة، بعد دروس أُضطررت لحفظها قسرًا.. ثم أخفقت مع أول اختبار اجتزته بخسارة فادحة..

عامين ونصف..

آبت من حيث رحلت..

لمنزل أبيها وأخوتها.. لعمل ستقدم فيه أوراقها فتبدأه من القاع، لمدينة غادرتها بإرادتها بعدما خاضت فيها لُجة أقسى فقد وأقبح ألم..

عامين ونصف عاشتهم بمنزل عمها بالاسكندرية، تصادق ابنته الوحيدة وتشاركها ذات الغرفة، تعمل وتعمل وتمنع روحها عن كل اتصال ممكن مع البشر إلا الفتاة التي تقاربها سنًا..

ترفض الزواج..

تأبى تكرار تجربة أثبتت فشلها في المرة الأولى وخرجت منها بندبة بعمق القلب، بقراره الذي لا يبلغه أحد..

لقتامة أغرقت أفكارها فتحكمت بها حد الهروب والانفصال..

حد لفظ كل اهتمام..

"مش معقول.. عطية!"..

الصوت.. النبرة.. والأمس!.. تبًا..

أدارت وجهها لمصدر النداء المشدوه وصاحبه يقبل عليها ببسمة واسعة:

- أنا مش مصدق نفسي..

واجهته باستقامة هادئة وبسمة شاحبة:

- آسر..

تأمل خصلاتها التي استطالت حتى لامست كتفيها، تموجها غير المألوف مع مَن عرفها سابقًا، زينتها الواضحة كأنما تخالف كل ما كانت عليه مِن قبل.. حتى جسدها امتلأ بعض الشيء فبانت ملامح أنوثته لعينيه مع تنورتها القصيرة وقميصها الضيق بما يظهر منحنياتها دون فجاجة..

التف حولها يتفحصها بعبث:

- إحنا اتغيرنا خالص يا عطعط..

ثم توقف بغتة يسؤال فضولي:

- إنما أنتِ بتعملي إيه هنا!..

وهنا المقصود بها دار النشر التي يعمل بها، حيث وجدها تجلس في ردهة مديره بعد غياب طويل وانقطاع تواصل، أجابته بإشارة مبهمة:

- عندي إنترفيو..

قبل أن يجيبها مع رفعة حاجبيه بدهشة نودي اسمها فبادرت:

- دوري..

منحها بسمة باهتمام مداعب:

- هاستناكِ ونتغدى سوا..

وقد كان..

انتهت المقابلة وغادرتها ببسمة تشي بثقتها في القبول، انتظرها ومن مقر الدار إلى سيارته ثم أحد المطاعم العائمة على ظهر باخرة نيلية أنيقة..

هناك بدأ حديث طويل استهله بسؤال:

- رجعتِ من دبي إمتى!..

سؤال فجر بدواخلها كل الذكريات التي ردمت فوقها ركامًا من الانشغال والتناسي ورغبة الابتعاد..

سؤال إجابته أتت في شكل شرود، بسمة حائرة اندحرت في حرب خاسرة مع الحزن على طرف شفتيها:

- أنا ما سافرتش أصلا..

سؤال إجابته فتحت الباب لكثير من الحكايا التي طال سردها لما يقرب من ساعتين..

عن فقد طفلتها، طلاقها.. خسارتها لمن أحبت، انطوائها وتوحدها قبل قرار سفر إلى عمها في محافظة أخرى تنأى بنفسها عن كل ما يعيد لعقلها أكثر الذكريات وجعًا..

عن رجال رأوا في أنوثتها المهملة ما يعجبهم فتقدموا لزواج.. لحياة معها، حياة تخشاها وتبغضها.. حياة ترفضها..

هي لا تريد واحدًا آخر.. لن تحمل جنينًا قد تفقده في لحظة نهاية ثانية، لن تربط مصيرها وقلبها بخيط واهن بين أصابع رجل..

أصدقاء أخوتها.. زملاء عمل، انتهاءً بمديرها الذي كان الأوقح بينهم:

- بس يا سيدي، وختمت الحدوتة بمديري في الشغل هناك بيقولي ندخل في علاقة ولو لقينا بينا توافق؛ نتجوز..

مع ختام كلماتها انتبهت لملامحه، وجهه الصامت في صدمة وعيناه اللتان تشعان بمشاعر مختلطة غريبة من بينها التعاطف والحزن:

- ده اللي سيبتِ الشغل بسببه؟!..

أومأت بموافقة دون مزيد..

هي في الحقيقة لم تعد تتحمل المزيد، كل كامن بروحها أفرغته.. بل بصقته بوجع على مسامعه وهي تدرك أن الصداقة بينهما تمنحها ذلك الحق، وتجبره على واجب الإنصات..

كما تجبرها كذلك..

في المقابل قص عليها كيف مر عليه هذين العامين ونيف.. عن زواجه بالصاروخ كما لايزال يلقبها، عن حادثته وعقمه المؤقت وتلو ذلك طلاق أول.. عن زواج جديد والغيرة ثم الشك الخانق وتبعهما الطلاق الثاني..

عندما تمم قصته بزفرة حارة ساخرة:

- تصدقي؛ لما تحكي الحدوتة غير لما تعيشها!.. يعني أنا دلوقتِ حاسس إني شرير..

حينها ضحكت بخفوت وهزت رأسها تؤكد على ظنه السيء بنفسه:

- أنت شرير وبصباص من زمان..

- بصباص!..

كررها بامتعاض ثم تهكم:

- قديمة أنتِ يا عطية..

ابتسمت بحنين..

كأن ذكره لاسم دلالها الذكوري الخشن يعود بالزمن..

يعود بها لأيام كان البال فيها خاليًا والقلب لاهيًا والحياة أكثر بساطة وسلاسة من زمنها الحالي..

- طيب باقولِك إيه!..

كان يعقد حاجبيه وينظر بخطورة، يميل فوق الطاولة ويقترب بوجهه منها وعينه تتوهج بفكرة تبدو له ألمعية:

- ما تيجي ندخل في علاقة؛ ولو لقينا بينا توافق نتجوز!..

تفرق جفناها باتساع حانق نبهه للونهما البني بدرجة غريبة، حلقة خارجية داكنة وداخلها تدرج للون أفتح، ثم تتناثر فيهما لمسات من شعاع شمس غارب:

- آآآآسر..

- الله!..

يمازح ويشاكس كما هو لا يتغير، لم يمر عليه عمر ولا خبرات حياة مجهدة أو حتى حادث مميت، يعتدل ونبرته تتحول لجدية ألجمتها للحظات:

- ما تيجي نتجوز بجد..

قررت مجاراته في لعبته كما كان الأمر بينهما دومًا، يثير حنقها فتغيظه.. كطفلين شقيين، استرخت في مقعدها تعقد ذراعيها وتشير إليه بذقنها في استهجان:

- أنا أتجوزك أنت!..

- نعم يا ختي..

هذه مبتكرة!.. لهجة تخبرها أنه سيمارس عليها أصول "الردح المصري" القديم وفنونه، بررت ببديهية:

- مش قصدي، بس إحنا أصحاب وبس..

وانحنت قليلًا تحرك يديها بشرح نظريتها:

- ماتنساش إنك بتناديني عطية، وبتشوفني بشنب..

وقتها بدا أنها فتحت له الباب على مصراعيه ليثوب العابث لعبثه ووقاحته:

- أنا مستعد أديكِ فرصة تغيري وجهة نظري في الحكاية دي..

حذرته بنبرة غاضبة:

- احترم نفسك وبطل قلة أدب..

غمزها بجرأة أخجلتها:

- قلة الأدب هي زبدة الموضوع على فكرة..

حركت رأسها باحتجاج صامت، قانط.. لفَّت وجهها تنظر من النافذة جوارها، تتأمل صفحة المياه التي تخترقها الباخرة ببطء نسبي فتكسر سكونها:

- ها.. قلتِ إيه؟!..

- في إيه!..

انتبهت إليه من غيابها اللحظي فأنبها بعينيه ولهجته تتشبث بالعزم الصريح:

- في الجواز يا عطعط..

رفعت حاجبًا مستنكرًا، تستنكر طلبه وذاك اللقب بذات الوقت فعدله بمكر:

- يا شوشو طيب..

- شوشو!..

تذوقت دلاله لاسمها باستياء معترض، ممتعض أجبره على حدة ذكورية تشبهه وتشبهها معه:

- بت.. قلتِ إيه!..

الآن فاز بغضبها الحقيقي فسبته:

- أنت مجنون يابني!..

أشار للنادل وطلب قهوته بالبندق، عادة فجرت ينبوع ذكرياتها كأنما تلك أيام لم تنتهِ ولن تنضب، ثم أهداها كل انتباهه:

- مجنون ليه!.. تعالي نحسبها بالعقل..

لم ترد وهو أكمل دون انتظار:

- مطلقة ومطلق، مش عاوزة ولاد وعقيم ما بيخلفش..

- عقم ممكن يتعالج..

كانت تقاطعه فأهمل اعتراضها وفنده:

- جايز، بس مش هاجرب.. أصحاب، فاهمين بعض.. دماغنا واحدة..

استند للمائدة وقرر بحسم:

- يعني تجربة تستاهل نعيشها، ونجاحها مضمون بنسبة معقولة..

وترددت..

منطقه، حديثه.. وجهة نظره أهدتها ارتباكًا مستحقًا ومقلقًا، فلتعثمت بتيه:

- بس أنا متعودة عليك أخويا.. إحنا أصحاب..

تحرك في جلسته يدنو منها، يهمس بخبث ونيته غير بريئة بالمرة:

- نتجوز، وليلة الدخلة هاعرفك إني ما ينفعش أكون أخوكِ..

ونال لكمة..

زمة شفاه، هروب عينين..

وحمرة خجل..

وتلك.. تلك بداية أخرى!..

***

قالت له كن أنانيًا في عشقي.. فكان!..

بحكم قاضي محكمة العشاق.. قضت عليه بالمؤبد مع الشغل والنفاذ..

كل خطوة اقتراب.. كل كلمة ونظرة وهمسة ودلال أو تمنع.. كل هروب أو تحدٍ وعناد..

هي امرأته التي اصطفاها قلبه على نساء العالمين..

هي فردوسه التي لن تنبذه وإن قضم تفاحة الإثم..

الأيام ركضت بين أصابعه، الساعات.. الدقائق، والثواني..

زفاف.. حفل أنيق فخم يليق بمليكته، دموع وقبلات وعناق.. والآن ها هما، وحدهما بجناح العروسين..

تقف أمامه وهو في محراب جمالها وقربها صامت.. تقدم خطوة تراجعتها تتمسك بواجهتها الصلبة:

- هاغير الفستان..

استدارت بعسر تحمل أطرافه، تتجه إلى غرفة النوم المعدة لأجلهما.. تسمع وقع قدميه من خلفها وقلبها ينبض..

هي القوية العنيدة المنكرة والمستنكرة لقصص العشق.. سقطت فيه وانتهى!..

توقفت، التفتت تقابل عينيه اللتين لا تحيدان عنها.. عن وجهها وعينيها، عن تفاصيلها وفتنتها وسحرها.. عن نعومتها وأنوثتها التي باتت ملكه..

ملكه!..

هي أصبحت له..

أضحت وأمست وفي كل وقت وحين..

هي له..

"عمر"..

تمتمت باسمه في مناشدة، تريده أن يبعد بصره ففي مقلتيه بركان يفور ويثور، يحرقها.. وهي تخشى الاحتراق لكنها تندفع نحو اللهب كفراشة عاشقة..

أطل عليها بقامته الطويلة، يديه تنزلقان من كتفيها لخصرها.. يقبل جبينها، وجنتيها.. شفتيها باختطاف خافت:

- بحبِك..

تباعدت وتشبث.. فنهرته برقة:

- عمر..

- روح عمر.. وقلب عمر..

دفعته برفق مشاغب:

- بقيت رومانسي..

نفى بهزة رأس بطيئة:

- بقيت عاشق..

حررها، نأت للوراء خطوتين:

- طيب ممكن العاشق يديني فرصة أغير الفستان!..

مط شفتيه يتظاهر بتفكير محتج، نقر فكه بسبابته ثم استجاب بمكر:

- ممكن.. خمس دقايق بس وبعدها هاقتحم..

تفرق جفناها باتساع خلاب فأكمل بعبث لا يولد بنبرته إلا لها:

- الأوضة يعني..

تحركت تطرده إلى الخارج:

- يلا لو سمحت..

ثبت قدميه عند الباب يشاكسها فدفعت بقوة أكبر.. تخلى عن ثباته فجأة ودار حول نفسه لتجد نفسها بين ذراعيه مجددًا، استسلمت بتحدٍ:

- وبعدين يا باشمهندس!..

- صبا..

رمقته بنظرة حائرة مع تردده وارتباكه، فك طوقه يطلق سراحها بحزن:

- الحبوب...

- بدأت آخدها من أسبوع..

بترت سؤاله بجوابها قبل أن يكمله كأنما تعفيه الحرج والوجع والذنب..

ذنب حرمانها من أمومتها..

اقتربت تلامس موطن خافقه بكفها، تحنو على نبضه المتألم:

- عمر.. أنا بحبَك..

نطقتها بصدق..

بإخلاص..

بعشق صريح كشعاع شمس في نهار غائم..

نطقتها فتسارعت دقاته تحت يدها، رفعت وجهها إليه لتقابل نظرته..

ظل الرغبة واللهفة والاشتهاء..

ظل الهوى والهوس والجنون..

تراجعت فتراجع معها، أعادها لأحضانه قسرًا.. همست تحذره:

- عمر!..

لم يرد..

مد يده يغلق الباب من خلفه ويقترب..

تشير بسبابتها في وجهه تنهره..

ويقترب..

توبخ تهوره اللحظي..

ويقترب..

تتمتم بأمر حازم ناعم مثلها:

- عمر.. ممكن تعقل!.. من غير جنون لو سمحت..

واقتنصها..

قبض على معصمها وسحبها يسقطها فوق صدره، يلصقها به ويلتصق بها، سارت أنامله على وجهها بلمسة رقيقة وعينه تتلاعب جوار نبرته:

- أنا بقى لي ٣٣ سنة هادي ورزين وعاقل..

استشعر رجفتها..

هي الصلبة المتحدية ذات العنفوان، هي التي.. يعشقها:

- دلوقتِ حقي أتجنن..

مال يهمس فوق شفتيها وأنفاسه تحرقها:

- وناوي أمارس الحق ده في التو واللحظة.. بكل تفاصيله..

- عمررر...

ولم تكمل تأنيبها بأحرف اسمه..

امتلكها وأنفاسها باشتعال، بتوق، بشغف.. يختبر وإياها جنونه الخاص ثم يخوضه بلا إمهال..

يسحبها معه فتغرق..

ويطفو بها لتتنفس..

يهديها القلب والعقل والروح والأفكار، ويسلب منها بالمثل..

يقف قربها على المفترق؛ ثم يقرر معها اختيار درب العشق فهو المصير..

***

البداية..

سكون.. فطرة.. حبو.. خطوات متعثرة..

البداية لا تشبه النهاية في شيء..

عند اللحظة الأولى نمتلئ بالفضول، التوقعات.. وكلها مبنية على خبرات محدودة لا تشبه ما نكونه عندما نصل للختام..

للخط الحاسم والأخير، للتتمة التي لا تحتمل نقصانًا..

بعد نضج الوجع، الحزن والخوف، الغضب والسقوط..

لقاء العائلة في تجمعها المقدس.. لقاءً تأخر كثيرًا وما سبقه كان فاقدًا للنكهة والمذاق وشيء من دفئه المعتاد..

ابن العائلة الأكبر تم شفاءه..

السجين العائد بشبه حرية يسعى جاهدًا ليلاقي ذاته المفقودة وعلى وشك الوصول..

العائلة زادت فردين..

"شجن" و"حمزة"..

والثالث زوج الابنة الذي انضم إليها قبل أيام معدودة..

البسمة تحفر حضورها فوق شفاه الجميع عنوة..

فالأمل وُلد وعاش واستمر..

إلا هو..

بسمته منقوصة..

يمنحها لكل من تقع عليه عيناه ووحدها ترى فيها ألمًا خفيًا، جرحًا لايزال ينزف وابنها فقط من يملك القدرة على تطييبه..

كانت تود الحديث معه، أن تخبره بحاجة والده لنيل الراحة، هدوء النفس وسكينتها.. التخلص من وصمة الذنب التي تلطخ صفاء قلبه وروحه، والندم الذي ينهش كيانه بضمير حي..

راقبت زوجها يخرج من البيت إلى الحديقة حيث الابن وطفلته..

يقف خلفه دون أن يلمحه..

يتأمله بصمت وعيناه تسردان عليه قصة ميلاده وتلك النشوة التي ملأت جوارحه عندما تلقفه بين كفيه.. نشوة اللمسة الأولى والضمة الأولى وتشممه برائحة البراءة والنقاء والطهر الذي دنسه بيديه رُغمًا عنه..

تنهدت بتعب والابن ينتبه لأبيه، يلتفت إليه وتتواجه النظرات بلا حرف لدقيقة بدأ بعدها حديث لم تسمع منه كلمة وإن ظلت تشاهده..

على الجانب الآخر جوار صراع الخوف كانت هناك مشاعرًا مغايرة تسيطر..

- هتسافر إمتى!..

- طيارتي بكرة بعد الفجر..

انقبض فؤاد "أدهم" بلوعة فراق يوقن أنه دائم:

- بسرعة كده!..

ابتسم "مروان" بتبرير بسيط:

- أنا هنا بقى لي شهر تقريبا..

تفحصه والده بعين حانية خلف قوة نظرتها الظاهرية رجاء، مناشدة:

- الشغل مش هيطير..

- عارف..

وأنزل ابنته أرضًا فركضت تدور حولهما وجدها يتابعها بشوق هو زاده القادم:

- توصلوا بالسلامة..

ثم واجه بصره باهتمام قهر أحرفه ونبرته باختناق:

- أنت كويس!..

صمت الابن لثوان بدت كعمر، أجاب إثرها بصوت هادئ كأنما تكيف واعتاد واستمر:

- الحمد لله.. ما تقلقش عليَّ..

هز "أدهم" رأسه وشيعه بنظرة كالوداع، استدار عائدًا إلى البيت عندما أوقفه بنداء افتقده لشهور طويلة:

- بابا..

انتفض قلبه بين ضلوعه؛ فالصفة أعادت إليه النبض والحياة، نظر إليه بأمل سجين الأجفان والمقل:

- أنا مش بلومك..

يحرره من قيد الذنب الخانق، يزيح هم الإثم الثقيل فوق ظهره:

- لحد فترة قريبة كنت باتهمك بالتقصير، باقول إن لو ابني في الموقف ده هاطلعه منه ولو وصل إني أتحالف مع الشيطان..

مع نظرة والده المبهوتة أكمل بتفنيد حقيقي كحقيقة كونه فعل بالمثل مع الصديق الخائن:

- بس اكتشفت إن مش سهل أخالف أخلاقي ومبادئي حتى لو شفت إن ده حقي..

اقترب منه خطوتين يواجهه بحسم:

- أنا عارف إنك عملت كل اللي تقدر عليه، وعارف إن مش غلطتك إنك راجل شريف في غابة بتدهس الشُرفا..

وسكن لحظة شرد خلالها، يحصي ما فقد وما جنى:

- يمكن كان لازم أمُر بكل ده عشان أعرف أعيش في الغابة دي صح..

ثم تنهد بشي من سلام؛ كأن وصوله لذاك الهدف منحه راحة ما:

- عشان أخلق مكان يناسبني فيها..

رمقه "أدهم" بنظرة هادئة وعقله يستوعب كل حرف، كل عناد وجرح وإباء وغضب أسود مكبوت لا يباح له انفلات..

أخذ خطوته نحوه بدعم أب:

- هتخلقه.. وبمبادئك وأخلاقك برده يا مروان..

ابتسامته وازت ابتسامة شبله الذي بات ضيغمًا يجوز له امتلاك العرش والحكم:

- وبرده هافضل في ضهرك.. كلنا في ضهرك..

- عارف..

تصريحه بمعرفته اهتمام عائلته ووجودها الدائم كان سريعًا تركض أحرفه لحاقًا بكلمات أبيه الذي نال راحته أخيرًا..

راحة تهديه السكن والسكون..

لكنها بذات الوقت لا تمحو ذنبه الذي سيبقى حيًا بضميره ما عاش..

وهي من بعيد.. لمحت البسمتين بعطر الصدق والصفح..

كانت تريد محادثته عن زوجها، والده المكلوم فيه.. لكنه، صغيرها.. كان رجلًا مبادرًا فارسًا كما هو دائمًا وأبدًا..

وهي المحظوظة بينهما..

زوجة فارس وأم آخر..

هي التي منحها القدر مفترق موت وحياة وعشق ونجاة..

فاختارت حياتها بعشقه هو..

انتهت الرحلة..

بلغنا آخر محطة وصول..

خضنا لُجة بحر الهوى بعنف موجه.. بمده وجزره، صعدنا معه لأعالي الجبال وغصنا في الأعماق..

ابتسمنا..

تألمنا..

وقفنا بحيرة وشتات على المفترق..

ثم حاربنا وانتصرنا..

حيث أنه على مفترق العشق: لا بديل عن الحرب!..

تمت بحمد الله

٢٠١٩/٤/١٦

سلسلة قلوب حررها العشق

ومن الحب ما مَلَك

الجزء الرابع

مستهل

ومن الحب ما مَلَك..

سيطر وتحكم وقضى..

وما نحن في حرم الهوى إلا جناة، أو مذنبون مع إيقاف التنفيذ..

وأوراقنا بين يدي مفتي ديار العشق..

الحب بداية..

والطريق جسر ممزق فوق هاوية، تتحداك أن تصمد دون سقوط!..

ما الأسوأ من الاغتراب!..

العودة لوطن اُجتثثت من أرضه حتى احترقت جذورك، وطن أنت فيه شريد، غريب..

عاد بعد قرار صعب، فكر كثيرًا.. وتلكأ أكثر، كتب ورقة يعدد فيها فوائد الإياب، وبمقابلها مساوئه..

قرأها في لحظة شجن.. غضب؛ ثم أشعل فيها النار..

والآن ها هو يجر حقيبته من خلفه خارج بوابة مطار القاهرة الدولي إثر غياب ما يقرب من عامين ونصف..

يستقبله سائق أجرة باحتفاء كأنه عائد بكنز ما.. يهديه بسمة فاترة ويتبعه لسيارته وعيناه تراقبان السماء والأرض..

الأفق البعيد ثم يفيء لما تحت قدميه..

يمينه ويساره بحثًا عن اختلاف..

لكن الوجوه هي ذات الوجوه..

والألم لم يرحل عن الروح بعد!..

بعد نصف ساعة كان يفتح باب شقة والده المهملة، يشرع نوافذها ويختنق بالتراب الذي يغطي أرجائها مرورًا بشبح من سكنها وحيدًا..

يتأملها.. جدرانها، أريكة هنا.. وفراش هناك..

يتحسس بقايا ذكرى ويتشمم عبق من غاب..

يستسلم لحضور اختاره بإرادة تامة، يتناول هاتفه من جيبه ويبحث فيه عن عنوان العمل الذي سيستقبله من الغد..

في صباح اليوم التالي وعقب ليلة مرهقة كان يدلف لمبنى شركة "الأنصاري" الهندسية الأنيق.. يتفحصه بنظرة سريعة ويقدم نفسه لمساعدة مديرها الذي وافاه باللقاء مرحبًا حين نطق باسمه:

- جواد عبد الرحمن الشهاوي..

صافحه "زياد" بجدية لم تخلُ من ود:

- حمد الله على السلامة يا باشمهندس..

لكنه حائر لا يعلم..

أفي عودته لأرض وطن لفظه خارج رحم احتوائه من قبل سلامة!..

أم أن تلك العودة تحمل بين ثناياها خيوط النهاية، وما ينقصه.. هو سحبها وحسب!..

***

لم يُخلق بعد طائر حر يخضع لقيد قفص..

هي مزقت كل قيودها بعيدًا عن العائلة باسمها وعلاقاتها، تحررت من ثوب والدتها سيدة الأعمال المعروفة وأبيها رجل الأمن الصارم..

تخلت عن العمل بشركة العم "يزيد" التي تبنتها قبيل تخرجها من كلية الهندسة، عارضت أمها وعاندتها وأثارت جنونها..

لتأتي بعد جهد قيمته بنظرها هي الأثمن.. لأنه جهدها هي؛ وتفوز..

مكتب هندسي صغير الحجم والمنشأ، يديره اثنين من الشباب مثلها تمامًا.. ومسابقة أفضل تصميم داخلي لفيلا راقية..

صاحب التصميم الفائز سيعمل بالمكتب وبعد وقت ربما يساهم فيه بشراكة!..

رأت أحد مديري المكتب يقترب منها بتحية وبسمة هادئة:

- باشمهندسة نازك القاضي؟!..

استقامت ترفع وجهها إليه، تتخطى قامتها الضئيلة للغاية في مواجهة قامته الممشوقة، تزيح خصلة نافرة من ضفيرتها النارية الطويلة خلف أذنها وتستقبله بنظرة تفيض بالعنفوان، عندما قدم نفسه وشريكته ناعمة الملامح:

- أنا يحيى عرابي، ودي المهندسة حلا الأنصاري..

ثم مد يده بمصافحة كانت أقرب لتوقيع عقد:

- أهلا بيكِ معانا..

***

العودة لا تكون للوطن وحده، فربما تعود لعائلة لم تدرِ عنها شيئًا إلا عندما أوصاك بها والدك حين وفاته!..

أنت لستَ وحيدًا..

تملك من الدنيا عمًا غير ذاك الذي تعرف تاريخه العفِن، والعم الآخر لديه طفلة.. هي ابنة عمك..

ثم يختم وصايته بأمر حازم رغم نزع الروح وسكرة الموت..

"صِل رحمك بُني"..

تقصى، فتش ونقب.. أتته معلومة لا يدرك هل تتصل بشخص ما سبق ومر بتاريخه العملي أم لا؛ لكنه على وشك التأكد..

أمام القصر الضخم طلب لقاء السيدة "جمانة أبو الفتوح"..

حينما واجهها بعد سماح الأمن له بالدخول بناءً على موافقتها، وحتى مع رقة ملامحها أصابه توتر عقب لقاء عينيها الحازمتين، ابتسم بارتباك لا يناسب سنوات عمره التي تخطت الخمس وثلاثون:

- أنا..

تلعثم فشجعته بنظرة مطمئنة رُغم قلقها ورُغم الرجل المسلح الذي يقف خلفه بعد رفضه التصريح باسمه عند البوابة:

- اسمي محمود زيدان..

راقب تقطيبتها الحائرة، بل المتوجسة وأوضح أكثر:

- محمود عبد الرحمن زيدان..

وقبل رد منها بُترت اللحظة بأسوأ حضور:

- دكتور محمود!..

ابنتها..

تعرفه!..

تحمل رضيعها وتقترب بقلق أقرب للهجوم:

- حضرتك هنا بتعمل إيه!.. في حاجة تخص عملية يوسف!..

تأملها بهدوء كأنما الحنين يباح له فرض وجوده:

- لأ يا.. يا مدام ملك؛ اطمني..

وتعلق بصره بأمها التي تنهدت بعسر ثم عرفته بنبرة جامدة متخطية كونه طبيب زوج ابنتها:

- محمود.. ابن عمك يا ملك!..

***

أحيانًا تسقط مقصلة الحاضر لتبتر الماضي فنتشبث بالنزف.. بالألم.. بالذكرى رغم الأنين..

ربما لأننا ألفناه.. والألفة كافية لنتعلق بأذياله خوفًا مما هو آت!..

ربما لأننا دومًا نخشى المجهول وإن أثارت أحجيته فضولنا!..

ابنة الفهد "غرام الراجي"..

تحيا على كفاف فترة تعافي ونقاهة بعد عملية استئصال عشق..

ولأن العشق كالورم الخبيث فهو لا يرحل عن القلوب بالكلية، لكنه يترك أثرًا من ورائه يحفر وجوده في الكيان إلى الأبد..

تفرغ طاقتها وتغيب لتنسى بين سفر، عمل..

ورصاصات تدريب الرماية!..

تصوب على الهدف، تحبس أنفاسها، تطلق فتصيب منتصفه بدقة قناص محترف..

تبتسم بثقة ثم ترفع نظارتها الواقية وتزيح سماعات الحماية لتحيط بعنقها، تضغط الزر وتسحب هدفها.. فتتوسع البسمة وتلمع العواصف الرمادية بانتشاء مؤقت..

انتشاء بتره أحدهم في حارة التصويب المجاورة بهمس عابث:

- إيه رأيك في تحدي صغير!..

أدارت وجهها إليها بتأمل بارد..

طويل، أنيق الثياب رغم بساطتها.. خصلاته بنية داكنة وكذلك عيناه، وجهه يحمل وسامة خشنة ملفتة، التوى جانب فمها بتهكم:

- هتخسر..

رفع حاجبًا معجبًا، مستمتعًا بينما يعيد سماعته فوق أذنيه في سلاسة:

- ما بخسرش..

انتهت المباراة القصيرة بتعادل لم ترضَ عنه، خلعت عتادها وفي نيتها قرار رحيل قطع هو طريقه بخطوتين واسعتين:

- طيب مش نتعرف!..

تجاهلته لكنه لم يتجاهل.. أصر بهدوء واسمه يتردد بنبرة عميقة:

- نديم الكاشف..

وتأتي اللحظة.. وقتما يخبرنا القدر أننا مهما ابتعدنا وحلقنا في سماء الحرية؛ لا تزال خيوط مصائرنا بين يديه..

تكفيها جذبة واحدة فيكون السقوط!..

***

قالت له كن أنانيا في عشقي.. فكان!..

من قبل أن تخبره..

كان سارقًا، مخادعًا، كاذبًا.. وجُل وسيلة مبررة أو متاحة تقربه من غايته..

هي..

الامتلاك..

أما الضمير فأخرسه؛ حيث كل شيء مباح في الحرب.. والحب..

وعشقها أجاز له التحايل ليصل إلى قلبها كما اختطفت هي قلبه، روحه.. عقله واحتلت أفكاره..

أوقف سيارته بباحة منزل والده ذا الطراز الريفي وإن اتسم بشيء من حداثة فخمة تليق بمنصبه كعمدة القرية..

ترجل منها يستنشق الهواء النقي ببطء، عيناه تدوران حول المكان بنظرة تشبه عودة مغترب..

تحرك ليدخل إليه.. كان أبيه في استقباله، يرفع عباءته على كتفيه بوقار ويجلس بمقعده الضخم الشبيه بعروش ملوك العصور البائدة، رحب به بنبرة صلبة:

- حمد الله على السلامة يا باشمهندس..

اتجه إليه يبجل رأسه بقبلة احترام، يتراجع خطوة ويهديه بسمة باهتة فهمها الرجل الحذِق فقرر بتر كل فكرة قد تجول بذهن ولده:

- فرحت بعروستك!..

ابتلع "عمر" لعابه وتشبث ببقايا البسمة قبل رحيلها:

- كله بحسك يا حاج..

غاص الوالد بعيني ابنه بنظرة كالسوط، تجلد بلا رحمة:

- اطلع لجماعتك فوق راضيهم بكلمتين..

أومأ بموافقة صامتة وخطا متراجعًا، خطواته المتلكئة أوقفها صوت أبيه الجهوري:

- عمر..

استدار إليه بِكريه بنظرة خامدة، جامدة.. جوفاء، خالية من كل شعور:

- زي ما اتفقنا.. جوازة المصراوية عشان تعف بيها نفسك؛ بس ما تجيبش منها عيال..

وكان يقرر عن سابق تخطيط خنع له الابن لينال العشق والمعشوقة..

يقرر.. يسرق وينهب..

صعد بتمهل إلى الطابق الثاني من المنزل، عند غرفة بعينها توقف.. زفر بحرارة وهذه المرة بسمته كانت حقيقية بينما يفتح بابها، يتطلع داخلها فيأتيه الهتاف عن يمينه:

- بابا..

ثم صغير يقارب الست سنوات يقفز ببهجة.. يتعلق بعنقه فيضمه ويحمله واقفًا بحنو، يهمس بافتقاده له..

وبصره يسقط على من أتت من خلفه بعين حزينة وملامح كسيرة، تقترب وتواجهه بعتاب مقهور أجبره هو على الدنو..

ترك طفله مع هديته التي أحضرها إليه، وضمها هي..

مال بشفتيه لجبينها ووجنتيها وتمم همسه بأذنها حينما تمتمت باسمه باختناق:

- عمر..

- سامحيني..

والعفو في العشق.. فريضة القلب!..

***

القدر لا يمنح العطايا دون مقابل..

أنت لن تنال هديته إن لم تدفع ثمنها، والأثمان تتنوع.. تتبدل وتتباين، لكن يظل الأغلى فيها هو الروح..

روح تمسك بدليل وجودها بين أناملها المرتجفة بسعادة.. ببهجة طفلة حصلت على أكبر قالب حلوى في الكون، بقلب نابض وقد تم توثيق العشق فيه بعقد لا ينفصم..

بثمرة حبيبها تنمو برحمها..

قالت له: أريد طفلًا منك، طفلًا يشبهك..

والآن حصلت على بغيتها، أبعدت خصلاتها القصيرة عن وجهها وابتسامة متأرجحة تغازل شفتيها..

تتوسع بأمل..

تنحسر في غير تصديق..

ثم تنطلق متجسدة في ضحكة خافتة مبتورة تتمازج بعبرة غبطة..

انتظرت حضوره، رجلها الملتزم صاحب المبادئ رُغم مرضه لم يتأخر عن العمل حينما احتاجه.. جلست تتلذذ بمثلجات الكراميل أمام فيلم رومانسي قديم والبسمة محفورة على محياها..

التقطت أذناها صوت عودته فنهضت تستقبله، اقتربت تضمه فوضع ذراعه بينهما موضحًا بعد عطسة عنيفة:

- لأ.. هتتعدي..

توجست بقلق ولامست جبينه الدافئ بتوتر:

- قلت لك ما تنزلش..

خلع سترته والعُطاس لا يتوقف..

خمس مرات متتالية أوجعت قلبها عليه بينما تتبعه إلى غرفة النوم، تراقبه يلقي بجسده بين طيات الفراش مبررًا:

- مش هاتأخر على الشغل وأنتِ عارفة..

كبتت الخبر السعيد داخلها وقررت الاعتناء به أولًا:

- طيب غير هدومك على ما أعملك ليمون وشوربة..

انقلب على جانبه وصوته يغيب بالفعل:

- لا ما تتعبيش نفسك يا راما، أنا محتاج نوم..

تأملته للحظة ثم مالت تربت على خصلاته، تلثم كتفه وتُعتم الغرفة لينال بعض الراحة.. ظلت تحوم حوله كل ساعة، تتحسس حرارته وتتابع ثقل أنفاسه اللاهبة..

عند منتصف الليل أيقظته تضع بين شفتيه قرصًا وتقرب منه كوبًا من الماء البارد:

- ياسين ابلع القرص، حرارتك عالية قوي..

استجاب لأمرها بلا شعور وعاد لنومه..

بعد ساعتين حينما كانت تجاوره استعدادًا لنوم متأخر اخترق الصمت رنين هاتفه باسم أبيها.. أوقفت الصوت بعجالة وتركت الغرفة تجيبه:

- أيوة يا بابا..ياسين!.. شغل إيه!..

استدارت ترمق زوجها المريض عبر الباب بنظرة مشفقة:

- أوك يا بابا.. ابعت اللوكيشن..

ومن هاتفه لهاتفها نقلت موقع الخبر الذي من المفترض تغطيته..

خلال نصف ساعة ارتدت ثيابًا عملية وثبتت قُرب النائم دقيقة تتأمله وتتلمس حرارته التي انخفضت لحد معقول..

فتحت قبضتها المضمومة حول اختبار حملها تحيطه بنظرة أخيرة قبل أن تتركه على الطاولة الصغيرة جوار الفراش وابتسامتها الحالمة لا ترحل عن ثغرها..

حملت حقيبة الكاميرا الخاصة بها وغادرت تتمم مهمته هو..

ساعتين أخريين مرتا ثم فتح عينيه.. قابلته الظلمة، مد يده يضيء مصباحًا صغيرًا يجاوره، اعتدل بكسل منهك وعينه تفتش عنها لكنها كانت غائبة عن المشهد..

التقط هاتفه ينظر للوقت فوجده تجاوز الرابعة فجرًا، ناداها بهدوء فكان الرد بصمت مقلق..

حاول النهوض ومع جلوسه على طرف الفراش سقط بصره فوق اختبار الحمل الذي تركته له..

تلمسه بأنامل مترددة وبسمة حائرة تناوش فمه، أمسك به بين سبابته وإبهامه ورفعه أمام وجهه كأنما يتأكد من دليل هدية الخالق إليه..

تبدلت البسمة لبداية ضحكة.. تكرر نداؤه باسمها، ترك الغرفة يفتش عنها ولم تكن بالمنزل بأكمله.. ولا حتى غرفة التحميض الخاصة بها..

حضورها غائب.. أنفاسها.. خطواتها..

حتى عطرها غاب!..

علا رنين الهاتف بقبضته بغتة محطمًا السكون فانتفض جسده، لمح اسم والدها وتوجس!..

رنة.. ثانية.. ثالثة.. وفتح الخط، ارتعشت كفه بلا إرادة وهو يضعه على أذنه.. يستمع للكلمات المحدودة، المشاعر المذبوحة، الألم والخوف والضياع..

ثم عنوان..

عنوان مشفى يبعد عنه أكثر من نصف ساعة..

والخبر القاصم!..

رصاصة..

***

هل هناك ما هو أقسى من الفقد!..

اختبارات القدر لا تتوقف، وبين كل محنة ومحنة قد تجد المنحة.. الهدية التي تعيد لروحك التوازن..

هو فقد الكثير ثم أتت هي..

بالراحة..

بالسكن..

بالطمأنينة لرجل خُلقت من ضلعه..

أتت بالعشق..

وبزينة دنياه؛ صغاره..

ابنه الأكبر سافر قبل ثلاثة أشهر، استقر بعمله في الولايات المتحدة الأمريكية جوار استكمال دراسته، توأمته ساعدها لتشارك أحد زملائها في مكتب هندسي بعيد عن عباءة أبيها..

والمدللة الصغرى تسلمت عملها قبل أسبوع في إحدى أشهر الجرائد كصحفية تحت التمرين..

والآن هو.. ومعشوقته في انتظار الختام المِسكي..

"طارق"..

فارسها القادم من أعماق التاريخ بلقب يشبه لقب البطل الفاتح وتتمنى أن يحوز البطولة مثله..

صف سيارته بمرآب مبنى شركته واستقل المصعد حيث مكتبه في الطابق الثالث.. استقبلته مساعدته بقهوته الساخنة كأنما تحفظ مواعيده المضبوطة كعقارب ساعة صارمة..

بعد سبع وأربعين دقيقة تامة إلا من بضع ثوان أتاه اتصالها..

أجابها ببسمة فهو غادرها منذ ساعتين فحسب، لكن رد بسمته كانت اختناقًا، بكاءً، حشرجة ودموع وتشبث و.. خوف!..

- زياد.. أنا بولد..

انتفض من مقعده وقلبه ينقبض خاصة مع استطرادتها الواهنة:

- بنزف يا زياد..

اللعنة..

بل كل لعنات الجحيم..

هي في شهرها السابع، وطبيبتها حددت لها منتصف التاسع لولادة قيصرية تشبه سابقتها قبل عمر مضى..

فلمَ يهاجمها مخاض الآن!..

مخاض ونزف!..

هاتف ابنته ونبرته مشوبة بالهلع:

- حلا.. ارجعي البيت فورًا، أنتِ أقرب.. ماما تعبت..

وأقفل معها ليبحث عن نجدة، طبيبتها.. إسعاف وعنوان مشفى..

وصل للبيت ونبضه يشرف على التوقف..

أنفاسه تؤلم رئتيه..

صدره ينطوي على ضلوعه فتكاد تتحطم..

كانت بين ذراعي ابنتهما فوق الفراش، ابنته الحائرة الباكية العاجزة عن تصرف مثالي في هذه اللحظة..

لحظة لقاء مع المصير المجهول.. المعتم!..

مدت يدها إليه تناجيه، تتعلق به فاستجاب يضمها.. يلقي بمفاتيح سيارته للمتجمدة من خلفه ويحملها بين ذراعيه:

- حلا.. الإسعاف اتأخر، سوقي أنتِ..

لم تفارق أحضانه في مقعد السيارة الخلفي وطفلته تكسر الإشارات وتدهس قوانين المرور بذعر..

بالمشفى استقبلوه عند البوابة، أخذوها منه..

أخذوها منه!..

ركض خلفها ويده تعانق يدها، يسمع همستها الأخيرة قبل أن تغيب عن عينيه خلف باب غرفة عمليات:

- طارق يا زياد.. ما تسيبوش يضيع مني..

استند لجدار قريب بتهالك.. كل جوارحه تبتهل، كيانه يدعو وروحه في حرب ضروس مع كل مخاوفه الماضية.. ثيابه ويديه ملوثة بنزفها، ابنته تخطو إليه، تجاوره.. تسعى لطمأنته وداخلها يهوي بعنف بحثًا عن ارتطام مريح ولو كان مميتًا فلا يجده..

أخذوها منه!..

وليته يمتلك قدرة خارقة تبيح له النظر فيما وراء الجدران..

أخذوها منه!..

والانتظار يطول، يخرجون بطفله الضعيف.. ضئيل الحجم والبنية، يهرولون به إلى حضّانة المشفى، يرمقه بنظرة ضائعة ثم يعود ببصره للباب المغلق..

الباب الذي يحجبها عنه.. قيد انتظار مقيت..

أخذوها منه!..

وظل هو قيد اختناق بالثواني والدقائق واللهاث..

قيد صبرٍ قد نفذ، وخوفٍ فاق الاحتمال!..

***

بين ممرات مشفى بيضاء لم يتوقف رجل عن الركض..

فوق جدار مشفى أبيض استند رجل آخر والمكان من حوله يفوح برائحة تزكم أنفه..

القلب في مواجهة القلب بنبض تجاوز حد السماح، حد التماسك..

الروح تبحث عن سكناها بضمة حبيبة يختبره قدره بحشرها بين حياة وموت..

والجسد يصل إلى حيث لحظة الحسم، العقل شارد والبصر زائغ..

طبيب..

طبيبة..

نظرة مبهمة تائه هو عن تفاصيلها..

ضائع هو في معنى لها..

ثم كلمات..

كلمات أشبه بمعزوفة غرق.. لا يُرجى من بعده نجاة!..

إهداء

إلى هؤلاء الناجين الذين وصلوا للنهاية؛ وإن لم يكن بسلام..